وقفات تربوية

في ضوء القرآن الكريم

الجزء الأول

الرسالة الأولى : وإذا قلتم فاعدلوا .
الرسالة الثانية : قل إنما أعظكم بواحدة .
الرسالة الثالثة : قل هو من عند أنفسكم .
الرسالة الرابعة : إن ربك حكيم عليم .
الرسالة الخامسة : متى نصر الله؟
الرسالة السادسة : وكونوا مع الصادقين .
الرسالة السابعة : ولا تلبسوا الحق بالباطل .

بقلم
عبد العزيز بن ناصر الجليل

دار طيبة للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار طيبة للنشر والتوزيع

الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق

ص. ب ٧٦١٢ الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٣٧٣٧ فاكس ٤٢٥٨٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً . ما ترك خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذرها منه .

وإن من أعظم ما دلهم عليه وحثهم عليه الاجتماع والاعتصام بحبل الله عز وجل ؛ قال تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران : ١٠٣]، وقال عز من قائل : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٠٥].

وقال الرسول ﷺ لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه وهو يسأله عن الفتن وسبيل النجاة منها : « ... **الزم جماعة المسلمين وإمامهم** »(١) . وقال عليه الصلاة والسلام : « **عليكم بالجماعة** »(٢) ، وقال : « **إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية** »(٣) .

---

(١) رواه البخاري في الفتن (٧٠٨٤) ، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧) .

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٤٥) ، والنسائي في الإمامة (٢/ ١٠٧) ، والترمذي في الفتن(٢١٦٥) والحديث في صحيح سنن النسائي (٨١٧) .

(٣) رواه أحمد (٥/ ١٩٦) ، وأبو داود في الصلاة (٥٤٧) ، والنسائي في الإمامة (٢/ ١٠٧) . والحديث في صحيح سنن أبي داود (٥١١) .

والآيات والأحاديث في هذا الأمر كثيرة .

وإن اجتماع كلمة المسلمين اليوم ـ وبخاصة دعاة الحق من علماء الأمة ورجال الدعوة المخلصين ـ أصبح أمراً لا بديل عنه ، وضرورة ينبغي أن تسبق كل ضرورة ؛ فنصرة الله تعالى لعباده المؤمنين مشروطة بشروط تمر عبر الاجتماع ووحدة كلمة أهل الحق .

وإن هذه الوحدة ينبغي أن تتجه القلوب لتحقيقها ، وترتفع الأكف في طلبها ، ويتحرك المخلصون في تحصيلها ، فإلى متى يدور المسلمون في حلقة مفرغة ؟! ، وإلى متى هذا التحزب والانشطار والتساقط المتتابع للجماعات والدعاة تحت قوة الدافع ومرارة الانقسام والاختلاف ؟!

إن الكثيرين من الدعاة قد أعياهم هذا المرض العضال ، وذلك الداء الفتاك الذي استشرى في أوساط الدعاة ؛ فلزموا بيوتهم ، وألقوا بأيديهم حرصاً على سلامة قلوبهم ـ كما زين لهم الشيطان الرجيم الذي لا يألو جهداً في بث الفرقة والاختلاف ، ثم هو في نفس الوقت يبث اليأس في القلوب الضعيفة التي أعياها السير وكثرة الاختلاف ، فيزين لهم اعتزال أي عمل إسلامي يوجد في هذه الأزمنة ، حتى يأتي الله بفتح من عنده . كل هذا بسبب الفرقة والاختلاف . وبدلاً من العمل والسعي لتغيير هذا الواقع الأليم والتحرك لجمع الكلمة ووحدة الصف ، آثروا السلامة والنجاة بنفوسهم ، وربما كانت النجاة في غير ما اختاروا .

فيا طلاب العلم المخلصين! ويا دعاة الحق المبين! ألا من رجعة صادقة إلى الله عز وجل نرتفع بها على ذواتنا وأشخاصنا وأغراضنا الدنيوية ! ألا من

رجل رشيد يفكر بعمق في هذه المأساة وخطرها على الأمة الإسلامية بأسرها! وإنه إن لم نسع لرأب الصدع ، وبذل الولاء والمحبة لكل مؤمن ، فإن هناك فتنة وفساداً كبيراً سيحلان بنا ؛ إن لم يتداركنا الله برحمة من عنده ؛ يجمع بها شتات القلوب ، وتتوحد بها كلمة دعاته الصادقين ؛ يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

ومما يزيد الأمر حسرة وألماً، أن هذه الفرقة تحصل بين من ينتسبون إلى عقيدة واحدة ومنهج واحد هو عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهجهم ، فإذا كان الجميع بهذه الصورة، وهم يواجهون عدواً واحداً يحارب الإسلام وأهله أياً كان ثوبه أو اسمه ، وإذا كان الجميع يهدفون إلى غاية واحدة ؛ وهي استئناف الحياة الإسلامية ، وإقامة دين الله عز وجل وشريعته ، ومحاربة الباطل وأهله ، إذا كان الجميع متفقين على ذلك كله ، فلماذا هذه الفرقة ؟

لا شك أن للشيطان وحظوظ أنفسنا سبباً كبيراً في وجود هذه الفرقة، وهناك سبب آخر لا يقل عن سابقيه في كونه سبباً من أسباب الفرقة والاختلاف ، ألا وهو الجهل بدين الله عز وجل وأحكام شريعته - كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله .

وإن ما سبق ذكره لا يعني ألا يوجد خلاف أبداً بين الأفراد أو الجماعات، كلا . . . فالخلاف - والله أعلم - أمر حتمي بحكم اختلاف الطبائع والمقومات الشخصية والفكرية والميول النفسية . . . إلخ ، ولكن ليس كل اختلاف

يوجب الفرقة والتنازع والتباغض ، وأوضح مثال لذلك أن السلف رحمهم الله قد اختلفوا في كثير من المسائل ، ومع ذلك كانت كلمتهم مجتمعة ولم يتفرقوا ، والكلام هنا منصب على من هم في دائرة أهل السنة والجماعة ولم يختلفوا في أصولها ؛ أما المخالفون لأهل السنة من أهل الأهواء والبدع، فإن خلافنا معهم أصيل ومتعين ، ومثل هؤلاء ينبغي أن نفارقهم ونتبرأ من بدعهم وضلالاتهم .

وإن الأمة ـ منذ عهد أصحاب النبي ﷺ ـ قد وقع بينهم اختلاف في بعض المسائل ، ولم يكن هذا الاختلاف يوجب الفرقة ، إلا عندما يدخل الشيطان أو أولياؤه من الجن والإنس ، أو يكون المفارق لا علم عنده بالأدلة ومسائل الخلاف، وما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز ، وهذا أدى إلى تحول الخلاف ـ الذي تحتمله الشريعة، وتسعه أقوال الصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم من سلف هذه الأمة وأئمتهم ـ إلى عداوة وفرقة .

وإن أهل السنة يمكن أن يقع بينهم اختلاف حول بعض المسائل التي يجوز الاختلاف فيها ، ولكن هذا لا يؤدي إلى اختلاف القلوب ، لعلمهم بأن هناك أسباباً كثيرة ترفع اللوم عن الأئمة الأعلام لعدم وصول الدليل إليهم، أو أن الدليل وصل إليهم ولكن اختلفت الأذهان في فهم دلالته ، أو غير ذلك من أسباب الخلاف المحتمل في الشريعة (ارجع إلى كتاب : رفع الملام لشيخ الإسلام ابن تيمية لتفصيل هذه الأسباب) .

من أجل ذلك ، ومن أجل جوانب تربوية أخرى، تأتي هذه الوقفات القرآنية لتلمس هذه الحقائق، ولتكون خطوة على طريق إزالة هذه الخلافات

الحادة ، لعلنا نهتدي إلى أول الطريق ، فنبصر آخره ؛ لأن من ضل أول الطريق فقد صعب عليه أن يمسك بنهايته .

أسأل الله عز وجل أن ينفع بها ، وأن تكون مثار اهتمام بهذا لمن يهمهم هذا الأمر ، وإلى أن تكون مجالاً للكتابة والبحث والحوار والعمل ، والله من وراء القصد ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

الرسالة الأولى

﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ﴾

[الأنعام : ١٥٢]

أهمية الموضوع

إن أهمية الموضوع تأتي من أنه مفتاح الحق ، وجامع الكلمة ، والمؤلف بين القلوب ؛ لأن من أقوى أسباب الاختلاف بين العباد : الظلم والاعتداء، وفقدان العدل والإنصاف . ولو جاهد المسلم نفسه لتحقيق صفة العدل على نفسه ومع الناس ؛ فإن كثيراً من المشاكل التي تحصل بين المسلمين - سواء منها الفردية أو الجماعية - ستزول وتحل بإذن الله ؛ وذلك لأن سبب الانحراف عن الحق والإصرار على الأخطاء : إما الجهل وإما الظلم ؛ فالجهل علاجه العلم، والظلم علاجه العدل والإنصاف والقسط .

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيراً ما يرجع أسباب الفرقة والتعدي والتعصب إلى الأمرين المذكورين سابقاً ؛ فتراه يقول : « الإنسان خُلق ظلوماً جهولاً ؛ فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر، فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله ، وعدل في محبته وبغضه ، ورضاه وغضبه، وفعله وتركه، وإعطائه ومنعه، وأكله وشربه، ونومه ويقظته .

وكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله ، وعدل ينافي ظلمه ؛ فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل ، وإلا كان منه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم ، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . .﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح : ١ ، ٢] ، فإذا كان هذه حاله

في آخر حياته أو قريباً منها، فكيف حال غيره؟! »[1] اهـ.

وقال رحمه الله: « والعدل هو الاعتدال، والاعتدال هو صلاح القلب، كما أن الظلم فساده، ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالماً لنفسه، والظلم خلاف العدل، فلم يعدل على نفسه بل ظلمها، فصلاح القلب في العدل، وفساده في الظلم، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه، فمنه العمل، وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر، قال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]... »[2]، إلى أن قال في الجزء نفسه ص ٩٩:

« مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه، لكن الأمثل فالأمثل، فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل، ومرضه من الزيغ والظلم والإعراض، والعدل المحض في كل شيء متعذر علماً وعملاً، ولكن الأمثل فالأمثل؛ ولهذا يقال: هذا أمثل، ويقال للطريقة السلفية: الطريقة المثلى.

وقال تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط. وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له، ثم العدل على الناس في حقوقهم، ثم العدل على النفس » اهـ.

وهنا نرى أن شيخ الإسلام قد بيَّن أهمية العدل، وأنه أساس النجاة في

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٤/ ٣٨).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٩٨).

الدنيا والآخرة ، وقد قسّمه حسب الأهمية إلى : أعظم العدل ؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس ، ثم العدل على النفس، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في ثنايا هذا البحث .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أيضاً أهمية العدل مع الخصوم والمفارقين لأهل السنة ؛ حيث قال :

« وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ، ويرحمون الخلق ، ويتبعون الرسول ﷺ ولا يبتدعون ، ومن اجتهد فأخطأ خطأً يعذره فيه الرسول ﷺ عذروه. . . إلى أن قال: «والله يحب الكلام بعلم وعدل ، ويكره الكلام بجهل وظلم ، كما قال النبي ﷺ : « **القضاة ثلاثة : قاضيان في النار وقاض في الجنة: رجل قضى للناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى خلافه فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة**»[1] .

وقد حرم سبحانه وتعالى الكلام بلا علم مطلقاً ، وخص القول عليه بلا علم بالنهي ؛ فقال تعالى : ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣] وأمر بالعدل على أعداء المسلمين ؛ فقال تعالى : ﴿ **كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ**

(١) رواه أبو داود في الأقضية (٣٥٧٣) ، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٥) .
والحديث في صحيح سنن أبي داود (٣٠٥١) .

لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] »[1].

إذن مما سبق ذكره من كلام شيخ الإسلام يتبين لنا أهمية العدل في القول والعمل ، وأن الأمانة التي أبت حملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها، لا يستطيع أن يحملها الإنسان إلا بأن يتغلب على صفة الجهل، بالعلم والتفقه في دين الله عز وجل ، وبأن يتغلب على صفة الظلم، بالعدل والإنصاف.

ومع ذلك - وكما أشار شيخ الإسلام - فلن يستطيع أن يكمل العدل كله ، ولا أن ينفك عن الجهل كله؛ ولذلك فهو في حاجة لأن يتوب الله عليه ويغفر له تقصيره وضعفه ، وهذا هو ما يفهم من آية الأمانة في سورة الأحزاب ؛ حيث ذكر الله عز وجل لنا صنفين من الناس :

الصنف الأول : المؤمنون الذين بذلوا جهدهم في طلب العلم المنافي للجهل ، والعدل المنافي للظلم ، فاستحقوا من الله عز وجل ألا يؤاخذهم بما لم يستطيعوا تحقيقه من العلم والعدل .

الصنف الثاني : أولئك المشركون والمنافقون الذين أعرضوا عن دين الله عز وجل فلم يتعلموه ، وأعرضوا عن العدل والقسط ، فسقطوا في ظلمات الجهل والظلم ، ووقعوا في الشرك والنفاق ، فاستحقوا العذاب الأليم ، يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٩٦).

وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الذين أعانهم على حمل الأمانة وغفر لهم تقصيرهم .

* * *

تعريف العدل
ومنزلته في الكتاب والسنة

قال في لسان العرب : العدل : ما قام في النفوس أنه مستقيم ، وهو ضد الجور . عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلاً ، وهو عادل من قوم عدول . . وفي أسماء الله الحسنى (**العدل**) وهو الذي لا يميل فيجور في الحكم. والعدل : الحكم بالحق .

وكتب عبد الملك إلى سعيد بن جبير يسأله عن العدل فأجابه : إن العدل على أربعة أنحاء : العدل في الحكم ، قال الله تعالى : ﴿**وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ**﴾ [المائدة: ٤٢] ، والعدل في القول ، قال تعالى : ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا**﴾ [الأنعام: ١٥٢]، والعدل: الفدية ، قال تعالى: ﴿**وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾ [البقرة: ١٢٣]، والعدل في الإشراك ، قال تعالى : ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام: ١] أي يشركون .

وفلان يعدل فلاناً : أي يساويه ، وعدّل الموازين والمكاييل : سوّاها، وتعديل الشيء : تقويمه ، والاعتدال : توسط حال بين حالين في كم وكيف، كقولهم : جسم معتدل بين الطول والقصر ، ماء معتدل بين الحار والبارد . . . إلخ ، والمعادلة : الشك في أمرين ، يقال : أنا في عدال في هذا الأمر ؛أي : في شك منه أأمضي عليه أم أتركه؟ . اهـ . (باختصار) .

والآيات والأحاديث الواردة في ذكر العدل، والحث عليه، والتحذير

من ضده كثيرة جداً ، لكننا نقتصر على بعضها مع نقل بعض أقوال علماء التفسير حولها .

الآيات الواردة في ذلك :

الآية الأولى :

يقول الله عز وجل في سورة آل عمران : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ .

[آل عمران : ١٨]

يعلق شيخ الإسلام على قوله تعالى : ﴿ **قَائِماً بِالْقِسْطِ** ﴾ فيقول :

« فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان ، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط ، ولهذا أمرنا الله عز وجل أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم ؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وصراطهم هو العدل والميزان ليقوم الناس بالقسط ، والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه ، فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل »[1] .

ويعلق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية في ظلال القرآن ؛ فيقول :

« وتدبير الله عز وجل لهذا الكون والحياة متلبس دائماً بالقسط وهو العدل ، فلا يتحقق العدل المطلق في حياة الناس ، ولا تستقيم أمورهم استقامة أمور الكون، التي يؤدي كل كائن معها دوره في تناسق مطلق مع دور كل كائن آخر . . لا يتحقق هذا إلا بتحكيم منهج الله الذي اختاره لحياة

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٧٩) .

الناس ، وبيَّنه في كتابه ، وإلا فلا عدل ، ولا قسط ، ولا استقامة ، ولا تناسق، ولا تلاؤم بين دورة الكون ودورة الإنســـان ، وهو الظلم إذن والتصادم والتشتت والصراع . . . » .

إلى أن قال رحمه الله تعالى : في الصفحة نفسها :

« وأنه حيث حكم في حياة الناس منهج آخر من وضع البشر لازمه جهل البشر وقصور البشر ، كما لازمه الظلم والتناقض في صورة من الصور : ظلم الفرد للجماعة ، أو ظلم الجماعة للفرد ، أو ظلم طبقة لطبقة ، أو ظلم أمة لأمة أو ظلم جيل لجيل .

وعدل الله عز وجل وحده هو المبرأ من الميل لأي من هؤلاء ، وهو إله جميع العباد، وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ »[1] اهـ .

الآية الثانية :

قوله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيـــرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾ .

[النساء: ١٣٥]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية :

« يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ، أي العدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين ،

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٥) ط. دار المعرفة اللبنانية .

يقول: ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ أي أدوها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً، خالية من التحريف والتبديل والكتمان، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي: اشهد بالحق ولو عاد ضرره عليك، وإذا سئلت عن الأمر، فقل الحق فيه ولو عاد ضرره عليك؛ فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه.

وقوله: ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد الضرر عليهم؛ فإن الحق حاكم على كل أحد.

وقوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، فالله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما.

وقوله: ﴿ فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ أي: لا يحملنكم الهوى والمعصية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه الرسول ﷺ على أهل خيبر يخرص عليهم ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض »[1] اهـ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٢) ط. دار الفكر. وحادثة ابن رواحة رواها بنحوها أحمد (٣/ ٣٦٧) من حديث جابر، وأبو داود في البيوع (٣٤١٠) من حديث ابن عباس.

ويعلق سيد قطب على هذه الآية نفسها بقوله :

« إنها أمانة القيام بالقسط على إطلاقه في كل حال ، وفي كل مجال ؛ القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض ، والذي يكفل العدل بين الناس ، والذي يعطي كل ذي حق حقه ، من المسلمين وغير المسلمين ، وفي هذا الحق يتساوى عند الله عز وجل المؤمنون وغير المؤمنين ، ويتساوى الأقارب والأباعد ويتساوى الأعداء والأصدقاء ، والأغنياء والفقراء . .

والمنهج الرباني يجنِّد النفس في وجه ذاتها ، وفي وجه عواطفها تجاه ذاتها أولاً ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ ، وتجاه الوالدين والأقربين ثانياً ، وهي محاولة شاقة أشق بكثير من نطقها باللسان . . . » إلى أن قال : «ثم هو يجنِّد النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية ، أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه فقيراً ؛ تشفق النفس من شهادة الحق ضده ، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه ، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده ، بحكم الرواسب الاجتماعية ، كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية وحين يكون المشهود له أو عليه غنياً تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته ، أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده . . . »[(١)] .

الآية الثالثة :

قوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** [المائدة : ٨] .

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٥٤٩) ط . دار المعرفة .

يعلق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية بقوله :

« لقد نهى الله عز وجل الذين آمنوا من قبل، أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء ، وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة ، يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم ، فها هم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل ،وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق ، فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده، تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض . . » إلى أن قال رحمه الله تعالى :

« إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله عز وجل؛ حين تقوم لله متجردة عن كل ما عداه، وحين تستشعر تقواه وتحس أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور»[1] اهـ (باختصار).

الآية الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

يعلق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية ، فيقول :

« وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري ـ وقد ربطه بالله ابتداءً ـ إلى مستوى سامق رفيع على هدى من العقيدة في الله ومراقبته . فهنا مزلة من مزلات الضعف البشري ؛ الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكافل والامتداد ، بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل ،

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٦٧) ط. دار المعرفة .

وفي قوة القرابة سند لضعفه، وفي سعة رقعتها كمال لوجوده ، وإن امتدادها جيلاً بعد جيل حماية لامتداده ، ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم أو القضاء بينهم وبين الناس .

وهنا في هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل، على هدى من الاعتصام بالله وحده، ومراقبة الله وحده، اكتفاء به من مناصرة ذوي القربى ، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه؛ وهو سبحانه أقرب إلى المرء من حبل الوريد»[1] اهـ .

أما الأحاديث الواردة في الحث على العدل ، وتجنب الظلم والبغي فكثيرة جداً نقتصر على بعضها :

الحديث الأول :

ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أنه قال : «نحلني أبي نحلاً ، فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي ، فقال : « **أكل ولدك نحلت مثله ؟** » فقال : لا ، فقال : « **اتقوا الله واعدلوا في أولادكم** » ، وقال : «**إني لا أشهد على جور**» . قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة »[2] .

الحديث الثاني :

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس ؛ يعدل بين اثنين صدقة** »[3] .

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٤٢٦) ط. دار المعرفة .

(٢) رواه البخاري في الهبة (٢٥٨٧)، ومسلم في الهبات (١٦٢٣) .

(٣) رواه البخاري في الصلح (٢٧٠٧)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٩) .

الحديث الثالث :

ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ؛ لا نخاف في الله لومة لائم »، وزاد النسائي : «وعلى أن نقول بالعدل أين كنا»[(١)] .

الحديث الرابع :

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا** »[(٢)] .

الحديث الخامس :

روى النسائي والحاكم في مستدركه عن عمار بن ياسر رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهذا الدعاء : « **اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق والعدل في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء،**

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧١٩٩)، (٧٢٠٠)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩) واللفظ له ، والنسائي في البيعة على السمع والطاعة (٧/ ١٣٧) .

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٧) باب : فضيلة الإمام العادل .

وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين »[1].

* * *

(١) رواه النسائي في كتاب السهو (٣/ ٥٥). وهو في صحيح سنن النسائي (١٢٣٧)، (١٢٣٨).

أقسام العدل

ينقسم العدل حسب متعلقاته إلى الأقسام التالية :

١ ـ أعظم العدل :

وهو توحيد الله عز وجل لا شريك له ؛ وهو الحق الذي قامت به السموات والأرض ، ومن أجله خلق الله الخلق ، قال الله عز وجل : ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ **مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ** ﴾ [الأحقاف: ٣].

ويقابل هذا القسم من العدل أعظم الظلم ؛ وهو الإشراك بالله عز وجل ، والكفر به ، حيث قال عز وجل : ﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان: ١٣] ، ومثله قول الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ . [الأنعام: ٨٢] ، قوله تعالى : ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٥٤].

٢ ـ العدل مع النفس :

ويدخل في هذا العدل قيام العبد بالأمانة التي كلفه الله عز وجل بها ، وذلك فيما بين العبد وربه ، من الالتزام بأوامره واجتناب نواهيه ، من غير إفراط ولا تفريط ، ويقابل هذا القسم من العدل ظلم العبد لنفسه بارتكابه ما

حرم الله عز وجل مما هو دون الشرك ، أو تركه ما أمر الله عز وجل مما يتعلق به نفسه ، ولا يتعدى إلى غيره .

وهذا النوع من الظلم من أخف أنواع الظلم ؛ حيث إن صاحبه قد يتوب فيتوب الله عليه ، ولو مات عنه بدون توبة فإنه تحت المشيئة ، بينما الظلم العظيم وهو الشرك بالله لو مات عليه فلن يغفر الله له ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] .

وهو أخف من ظلم العباد ؛ لأنه يشترط في التوبة من ظلم العباد رد الحقوق إلى أهلها واستباحتهم منها .

٣ـ العدل مع العباد :

وهذا النوع من العدل هو الذي يهمنا في هذا الحديث ، والقسمان السابقان ليس هنا موضع تفصيلهما ، ويقابل هذا القسم من العدل ظلم العباد واعتداء بعضهم على بعض ، سواء في القول أو الفعل .

وسنذكر في هذا القسم ـ إن شاء الله ـ بعض مقتضيات ولوازم هذا العدل ، مع الإشارة في أثناء ذلك إلى بعض المواقف المؤسفة ، التي تنافي العدل والإنصاف ، مع ذكر المنهج الشرعي الذي ينبغي سلوكه حيال هذه المواقف .

ويحسن بنا قبل ذكر هذه اللوازم أن نقدم لها بكلام نفيس للإمام ابن القيم رحمه الله ـ في مدارج السالكين ـ حول (منزلة الخُلق) . قال رحمه الله تعالى :

« وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان ، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها : الصبر ، العفة ، الشجاعة ، العدل .

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة، والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وَتَحْمِله على كظم الغيظ والحلم؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش، كما قال ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[1]، وهو حقيقة الشجاعة؛ وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط؛ فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الإمساك والإسراف والتبذير، وعلى خلق الحياء الذي هو توسط بين الذل والقِحة، وعلى خلق الشجاعة الذي هو التوسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو التوسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس. ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن،

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١١٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٩).

والكمال نقصاً ، والنقص كمالاً .

والظلم : يحمله على وضع الشيء في غير موضعه ، فيغضب في موضع الرضى ، ويرضى في موضع الغضب ، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام ، ويلين في موضع الشدة ، ويشتد في موضع اللين ، ويتواضع في موضع العزة ، ويتكبر في موضع التواضع .

والشهوة : تحمله على الحرص والشح والبخل ، وعدم العفة والنهمة والجشع ، والذل والدناءات كلها .

والغضب : يحمله على الكبر والحقد والحسد ، والعدوان والسفه .

ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق : أخلاق مذمومة .

وملاك هذه الأربعة أصلان : إفراط النفس في الضعف ، وإفراطها في القوة .

فيتولد من إفراطها في الضعف : المهانة والبخل ، والخسة واللؤم ، والذل والحرص، والشح وسفاسف الأمور والأخلاق .

ويتولد من إفراطها في القوة : الظلم والغضب والحدة ، والفحش والطيش .

ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر أولاد غية كثيرون ، فإن النفس قد تجمع قوة وضعفاً ؛ فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر ، وأذلهم إذا قُهِر ، ظالم عنوف جبار ، فإذا قُهِر صار أذل من امرأة ؛ جبان عن القوي ، جريء على الضعيف ؛ فالأخلاق الذميمة يولد بعضها بعضاً ، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضاً .

وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين وهو وسطٌ بينهما ، وطرفاه خلقان ذميمان ، كالجود : الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير ، والتواضع : الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة والكبر والعلو»[1] اهـ.

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٨) ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، ط . دار الكتاب العربي .

من لوازم العدل ومقتضياته

هذا الباب هو بيت القصيد من هذا البحث ؛ لأن المقصود من إثارة هذا الموضوع ، هو التعرض للجوانب العملية التي يفرضها العدل على المسلم ، وخاصة في واقعنا المعاصر ، ومانشأ فيه من تفريط في هذه الجوانب ، ونقتصر فيها على ما يلي :

١ـ التثبت من الأمر قبل الحكم عليه :

إن من العدل والإنصاف أن يتثبت المسلم من كل خبر أو ظاهرة ، قبل الحكم عليها ، وإن من الظلم والاعتداء الحكم على أمر بمجرد الظنون والأوهام ، وقبل التثبت التام منه ، ولقد بين الله سبحانه وتعالى لنا في سورة الإسراء وفي آية واحدة المنهج الصحيح ، الذي ينبغي سلوكه في مثل هذه الأمور ، يقول الله عز وجل : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وحول تفسير هذه الآية قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى :

« قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يقول : لا تقل . وقال العوفي عنه : لا ترم أحداً بما ليس لك به علم . وقال محمد بن الحنفية : يعني : شهادة الزور . وقال قتادة : لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ؛ فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله . ومضمون ما ذكروه : أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم ، بل بالظن الذي هو التوهم

والخيال، كما قال تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] »[1] اهـ.

وحول ظلال هذه الآية ، قال سيد قطب رحمه الله تعالى :

« والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة ، فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ ، وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الإسلام عن المناهج العقلية الجافة .

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها ؛ هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق ، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل ،ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم .

والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد .

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب ، أمانة يسأل عنها صاحبها وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً ، أمانة يرتعش

(١) تفسير ابن كثير ، جـ ٤ ص٣٠٧ ، ط . دار الفكر .

الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أوحادثة .

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين ، ومالم تتثبت من صحته : من قول يقال ورواية تروى . ومن ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل . ومن حكم شرعي ، أو قضية اعتقادية .

وفي الحديث : « **إياكم والظن فإنه أكذب الحديث** »[1] ، وفي سنن أبي داود : « **بئس مطية الرجل : زعموا** »[2] ، وفي الحديث الآخر : « **إن أفرى الفرى أي يُري الرجل عينيه ما لم تريا** »[3] .

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه والتثبت في استقرائه؛ إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته ، وفي مشاعره وأحكامه، فلا يقول اللسان كلمة ، ولا يروي حادثة ، ولاينقل رواية، ولا يحكم العقل حكماً ، ولا يبرم الإنسان أمراً إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾حقاً وصدقاً . . »[4] اهـ.

٢ـ العدل في النقد ومعالجة الخطأ :

هذا الجانب من جوانب العدل نحتاج إليه في كل حال من أحوالنا

---

(١) رواه البخاري في النكاح (٥١٤٣)، ومسلم في البر (٢٥٦٣).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٧٢)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٤١٥٨).

(٣) مسند أحمد (٢/ ٩٢) من حديث ابن عمر . وله شاهد عند البخاري في المناقب (٣٥٠٩) من حديث واثلة بن الأسقع .

(٤) في ظلال القرآن ، (٥/ ٣٢٦) ط . دار المعرفة اللبنانية .

الفردية والجماعية ، وذلك في حل مشاكلنا ومعالجة أخطائنا معالجة شرعية تسيطر عليها روح المحبة والإخلاص .

ويجدر بنا أن نذكر هنا المنهج العادل والطريقة المثالية لمعالجة الخطأ ، وذلك حسبما رسمه لنا من أمرنا الله عز وجل بأن تكون لنا أسوة حسنة فيه ﷺ ، وما أكثر المواقف العادلة في سيرته ﷺ ، بل إن سيرته ﷺ كلها عدل ، ونكتفي هنا بمثال واحد ألا وهو موقفه ﷺ من صنيع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في فتح مكة ، ويحسن أن نذكر القصة بتمامها ؛ ليتضح لنا ذلك القسطاس المستقيم الذي انتهجه الرسول ﷺ في معالجة هذا الخطأ ، رغم شناعته وخطورته :

روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه ، عن علي رضي الله عنه ، قال : « بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير ـ وكلنا فارس ـ قال : «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب ابن أبي بلتعة إلى المشركين** » ، فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ ، فقلنا : الكتاب ، فقالت : ما معي من كتاب ، فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها ـ وهي محتجزة بكساء ـ فأخرجته ، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ ، فقال عمر : يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه .

فقال النبي ﷺ : « **ما حملك على ما صنعت ؟** » . قال حاطب : والله ما بي ألا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ ، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله ، فقال ﷺ : « **صدق ، ولا تقولوا إلا**

خيراً » . فقال عمر : إنه قد خان الله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه ، فقال : « **أليس من أهل بدر ؟ لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو فقد غفرت لكم ـ** » ، فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم »[1] اهـ .

من هذه الحادثة نستطيع أن نحدد ثلاث مراحل للمعالجة العادلة للخطأ، مهما كانت ضخامته :

المرحلة الأولى : مرحلة التثبت من وقوع الخطأ :

وفي هذه الحادثة قد تم التثبت عن طريق أوثق المصادر ألا وهو الوحي ، حيث أوحى الله عز وجل إلى الرسول ﷺ بخبر الكتاب الذي أرسله حاطب مع المرأة، وأين هي المرأة .

المرحلة الثانية : مرحلة التثبت من الأسباب التي دفعت إلى ارتكاب الخطأ :

وهذا الأمر متمثل في قوله ﷺ لحاطب : « **ما حملك على ما صنعت ؟** » ، وهذه المرحلة مهمة ؛ لأنه قد يتبين بعد طرح هذا السؤال أن هناك عذراً شرعياً في ارتكاب الخطأ ، وتنتهي القضية عند هذا الحد ، فإذا لم تنته عند هذا الحد مثل ما ظهر في قضية حاطب ، وأن العذر الذي أبداه لرسول الله ﷺ لم يكن مقنعاً لكنه طمأن رسول الله ﷺ على صدق حاطب ، وأنه لا زال مسلماً، نقول : إذا لم يكن العذر مقنعاً من الناحية الشرعية ، فإنه يصار إلى :

المرحلة الثالثة : وفيها يتم جمع الحسنات والأعمال الخيرة لمرتكب الخطأ وحشدها إلى جانب خطئه ، فقد ينغمر هذا الخطأ أو هذه السيئة في

---

(١) رواه البخاري في المغازي (٣٩٨٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤).

بحر حسناته : وهذا هو الذي سلكه الرسول ﷺ مع حاطب رضي الله عنه ؛ حيث قال ﷺ لعمر عندما استأذن في قتل حاطب : « **أليس من أهل بدر ؟** » فقال : « **لعل الله اطلع على أهل بدر ،فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو فقد غفرت لكم** » .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً جيداً حول هذا الموضوع ؛ حيث قال في رده على من قال : إن الله يعافي الجهال ما لا يعافي العلماء :

« فالجواب : أن هذا الذي ذكرتموه حق لا ريبة فيه ، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر ، فإنه يحتمل له مالا يحتمل من غيره ، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره ؛ فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث ؛ بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى الخبث .

ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر : « **وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** » وقد ارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فأخبر النبي ﷺ أنه شهد بدراً ، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم لكن منع من ترتيب أثره عليه ما له من المشهد العظيم ؛ فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات .

ولما حض النبي ﷺ على الصدقة فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة، قال : « **ما ضر عثمان ما عمل بعدها** »[١] ، وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة : « **أوجب طلحة** »[٢] .

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ١٠٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وله شواهد أشار إليها الألباني في تخريج فقه السيرة ص ٤٠٥ .

(٢) رواه أحمد (١/ ١٦٥) . وهو في السلسلة الصحيحة (٩٤٥) .

وهذا موسى كليم الرحمن عز وجل ألقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له ، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ، ولطم عين ملك الموت ففقأها ، وعاتب ربه ليلة الإسراء في النبي ﷺ ، وقال : شاب بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي ، وأخذ بلحية هارون وجره إليه وهو نبي الله ، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه ، وربه تعالى يكرمه ويحبه ، فإن الأمر الذي قام به موسى ، والعدو الذي برز له ، والصبر الذي صبره ، والأذى الذي أوذي به في الله أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور ، ولا تغير في وجهه ولا تخفى منزلته .

وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم أنه من له ألوف من الحسنات ؛ فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوهما ، حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته وداعي شكره على إحسانه ؛ فيغلب داعي الشكر داعي العقوبة ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سررن كثير

والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته ، فأيهما غلب كان التأثير له ، فيفعل بأهل الحسنات ـ الذين آثروا محابه ومراضيه ، وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً ـ من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم »[1] اهـ .

خلاصة ما سبق حول هذا اللازم :

أن العدل في القول والفعل ، ومعالجة الأخطاء لو سلكنا فيها ذلك

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ١٩٢ ، ط٢ المصرية .

المسلك النبوي السابق تفصيله لما وقع كثير من المسلمين فيما وقعوا فيه اليوم من كيل التهم ، والتشهير ، وتتبع العثرات ، والذي لا يستفيد منه إلا الشيطان وأولياؤه ، ولا يفرح الشيطان بشيء كفرحه بالفرقة والاختلاف بين المسلمين ، فقد روى الإمام مسلم -رحمه الله- في صحيحه عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ؛ فيجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئاً ، قال : ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت** » قال الأعمش : أراه قال : « **يلتزمه** »[(١)] .

فإذا كان فرح الشيطان بالفرقة بين الزوجين بهذه الدرجة ؛ فكيف يكون فرحه بالفرقة بين دعاة المسلمين ؟

ولو أن أحدنا إذا سمع شائعة عن مسلم أو طائفة ما فقام بالتثبت منها ، فإنه يصبح أمام أحد أمرين :

إما أن تكون الشائعة لا أصل لها ، وأنها مجرد ظنون وأوهام كاذبة ، فيقضي عليها في مهدها .

وإما أن يكون الأمر صحيحاً بعد التثبت فيصار إلى المرحلة الأخرى ، ألا وهي البحث عن الأسباب والدوافع التي أدت إلى وجود هذا الخطأ ؛ إما من صاحب الشأن ، إن كان ذلك ممكناً ، أو سؤال من يعرفه ، أو من التمعن فيما كتبه إن كان ذلك مكتوباً . . . إلخ .

وهذا هو مراد الرسول ﷺ عندما قال لحاطب : «**ما حملك على ما**

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٣)، وهو في شرح مسلم للنووي (١٧/ ١٥٧) ، ط. المطبعة المصرية ومكتبتها .

صنعت؟» وإذا اتضح الدافع المؤدي إلى وجود هذا الخطأ وكان مقنعاً من الناحية الشرعية فإن الأمر ينتهي عند ذلك ، وإن لم يكن مقنعاً ؛ فإنه يصار إلى المرحلة الثالثة، ألا وهي النظر إلى حسنات هذا الشخص وبلائه وجهاده، لعل له حسنات عظيمة ينغمر فيها هذا الخطأ ويصبح ضئيلاً ، في الوقت الذي يسعى لتعديل الخطأ والمناصحة فيه بمحبة وإخلاص وحكمة.

ولعله قد تبين لنا الآن من الحديث حول هذا اللازم المهم - من لوازم العدل - الفرق بين العدل في القول والعمل ، وأثر ذلك في النصيحة والإصلاح والائتلاف ، وبين الاعتداء في القول والعمل ، وما ينتج عنه من تشهير وفرقة واختلاف ، وذلك في وقت نحن معاشر أهل السنة والجماعة بحاجة شديدة إلى الوحدة والائتلاف، لا إلى الفرقة والاختلاف .

٣- الفرح بإصابة الغير للحق والحزن على مجانبتهم له :

ولعل هذا اللازم من أصعب لوازم العدل تحقيقاً ؛ لأنه يمثل - في نظري - قمة العدل والتقوى والورع ، حيث نرى الكثير من دعاة المسلمين اليوم - فضلاً عن عامتهم - إذا رأوا غيرهم قد أخطأوا فإنهم يفرحون بذلك ، حتى يحسبونه عليهم ، بل إنك ترى البعض منهم يتتبع الكتابات والمقالات التي قالها غيرهم ، وهمهم الوحيد هو تتبع العثرات ، والفرح باصطيادها ، في الوقت الذي لو وجدوا خلاف ذلك (من إصابة غيرهم للحق) فإنهم يحزنون لهذه الإصابة ، وهذا - والعياذ بالله - هو الظلم والحقد والحسد ، والذي لا يلتقي مع العدل وحب الخير للناس .

وما أحسن الحكاية التي ذكرها ابن رجب رحمه الله حول هذا الأمر ؛ حيث قال :

« وقد استحسن الإمام أحمد ما حكي عن حاتم الأصم أنه قيل له : أنت رجل أعجمي لا تفصح ، وما ناظرك أحد إلا قطعته ؛ فبأي شيء تغلب خصمك ؟ فقال : بثلاث : أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوءه ؛ أو معنى هذا ، فقال أحمد : ما أعقله من رجل »[١] .

٤ـ الشهادة للمحسن بإحسانه وللمسيء بإساءته :

ومن المواقف المؤسفة التي تنافي هذا اللازم أننا نرى اليوم كثيراً من الناس يفرطون في محبتهم أو كرههم ، فإذا أحبوا شخصاً أو طائفة ما فإنهم يفرطون في هذا الحب ، ولا يعدلون فيه ؛ حيث إنهم لا يرون إلا الحسنات ويغمضون أعينهم عن الأخطاء والسيئات ويبررونها ويؤولونها ، وكأن من أحبوه لا يجوز عليه الخطأ ، وهذا غلو واعتداء في الحب ، قد يؤدي إلى الغلو في الرجال وتقديسهم ، وفرق بين التقدير والتقديس .

وفي مقابل ذلك إذا أبغضوا شخصاً أو هيئة ما فإن هذا الكره ينسيهم كل الحسنات والإيجابيات ، أو أنهم يشككون في نوايا فاعليها ، في الوقت الذي لا يذكرون إلا الأخطاء مع التضخيم والتهويل لها ، ومعلوم ما في ذلك من ظلم واعتداء ومجانبة للعدل والإنصاف ، وما أظن أحداً من المسلمين يوافق على هذا المنهج الجائر ، لكن القناعات النظرية شيء والتزامها في الواقع شيء آخر !! .

بقي أن نعرف أن المنهج الشرعي في مثل هذه المواقف ، هو الشهادة

---

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير لابن رجب ، تحقيق نجم خلف ، ص ٣٢ ، دار ابن القيم .

للمحسن أنه محسن ، ويذكر له ذلك بتجرد وإنصاف ، والشهادة للمسيء بأنه مسيء ، والنصح له في ذلك وتلمس العذر - إن كان ثمة عذر شرعي - لإساءته (كما سبق في المنهج الشرعي لمعالجة الأخطاء) ، والانتباه إلى أن كل بني آدم خطاء ، وكلٌ يؤخذ من قوله ويرد ؛ إلا المعصوم ﷺ ، وأن الاعتدال في الحب والكره من لوازم قول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** ... ﴾ . [النساء : ١٣٥]

ويا ليتنا نرجع إلى سيرة سلفنا الصالح - رضي الله عنهم - ، وكيف كانوا في مواقفهم مع المخالفين ! ، وكيف كانوا يقومون الرجال ! ، فلقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الرحمن بن شماسة ، قال : أتيت عائشة أسألها عن شيء ، فقالت : ممن أنت ؟ فقلت : رجل من أهل مصر ، فقالت : كيف صاحبكم لكم في غزاتكم هذه ؟ فقال : ما نقمنا منه شيئاً ؛ إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير ، والعبد فيعطيه العبد ، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة ، فقالت : أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا : « **اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرَفَق بهم فارفق به** »(١) .

ويعلق الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث بقوله : « **وفيه أنه ينبغي أن يذكر فضل أهل العلم ، ولا يمنع منه سبب عداوة ونحوها** »(٢) .

وهذا الإمام ابن كثير رحمه الله ، يقول في ترجمته لشيخ الإسلام ابن

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٨) .

(٢) شرح مسلم للنووي (١٢/٢١٢) ط . دار الكتب العلمية .

تيمية بعد كلام طويل :

« وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء ، وممن يخطئ ويصيب ، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي ، وخطؤه مغفور له ، كما في صحيح البخاري : « **إذا اجتهد العالم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر** »[1] فهو مأجور ، وقال الإمام مالك بن أنس : « كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر ﷺ » »[2] اهـ.

ويقول الإمام ابن رجب رحمه الله في كتابه : (الفرق بين النصيحة والتعيير) :

« ولهذا كان الإمام أحمد رحمه الله يذكر إسحاق بن راهويه ويمدحه ويثني عليه ، ويقول : وإن كان يخالف في أشياء ؛ فإن الناس لم يزل بعضهم يخالف بعضاً ؛ أو كما قال . وكان كثيراً ما يعرض عليه كلام إسحاق وغيره من الأئمة ومأخذهم من أقوالهم ؛ فلا يوافقهم في قولهم ، ولا ينكر عليهم أقوالهم واستدلالهم ، وإن لم يكن هو موافقاً على ذلك كله»[3] اهـ.

ويذكر ابن الجوزي - رحمه الله - في كتابه (سيرة عمر) قول عمر رضي الله عنه : « ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، وما كافأت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه »[4] اهـ.

---

(١) رواه البخاري بنحوه في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٥٢)، ومسلم في الأقضية (١٧١٦).

(٢) البداية والنهاية (١٤ / ١٣٩) دار المعارف .

(٣) الفرق بين النصيحة والتعيير ص ٣١ ، ٣٢ . دار ابن القيم .

(٤) خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه ، جمع محمد أحمد عاشور ص ١٢٣ ، دار الاعتصام .

ونختم هذا اللازم من لوازم العدل ببعض آراء ومواقف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ من مخالفيه ؛ سواء في الفروع أو الأصول.

يقول رحمه الله في جوابه عن سؤال عن قوله ﷺ : « **تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة** »[1] ما الفرق؟ ، وما تعتقده كل فرقة من هذه الصنوف؟ ؛ فقال في معرض جوابه :

« . . . ومما ينبغي أيضاً أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات : منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة ، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة ، ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه ؛ فيكون محموداً فيما رده من الباطل وقال من الحق ، لكن يكون قد جاوز العدل في رده بحيث جحد بعض الحق ، وقال بعض الباطل ، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها ، ورد باطلاً بباطل أخف منه .

وهذا حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة ، ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين ، يوالون عليه ويعادون ، كان من نوع الخطأ ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك ؛ ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها ؛ بخلاف من والى موافقه وعادى مخالفه وفرق بين جماعة المسلمين ، وكفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات ، واستحل قتال مخالفه دون موافقه ؛ فهؤلاء من أهل التفرق والاختلافات »[2] اهـ .

---

(١) رواه أبو داود في السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١) وله طرق أخرى وشواهد. انظر الصحيحة (٢٠٣)، (١٤٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٣٤٨) .

٥ـ الابتعاد عن النجوى :

إن مما يفرضه العدل على المسلم أن يبتعد عن النجوى التي من شأنها إحزان المسلمين وإثارة العداوة والبغضاء بينهم ، وهي عامل مهم في ترويج الشائعات . يقول الله عز وجل : ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [النساء: ١١٤] ، وما سوى ذلك فهو شر وتفريق بين المؤمنين .

والناس إزاء الشائعات التي تثار حول شخص أو هيئة ما، ينقسمون حسب تعاملهم مع هذه الشائعات إلى ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : من يقبل هذه الشائعات على علاّتها ، ويكتمها في نفسه ، ويرتب عليها أموراً ومواقف من غير تثبت ولا تبين .

الصنف الثاني : من يقوم بالتناجي بها بعيداً عن صاحب الشأن فيها ، ومعلوم ما في ذلك من الوقوع في الغيبة ، وإذكاء الشائعات وانتشارها .

الصنف الثالث: من يسارع إلى التثبت من الشائعة ممن أثيرت حوله مباشرة ، ولا يذهب مع الظنون والوساوس النفسية أو المناجاة التي تحزن المسلم.

ولو حاكمنا معاملة هذه الأصناف الثلاثة إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ لاتضح لنا أن الصنف الأول والثاني مخالفان للشرع ، وأن طريقة الصنف الثالث هي الطريقة الشرعية، التي تقوم على التثبت وحب الخير للمسلمين ورعاية حقوقهم وأعراضهم والتماس الأعذار لهم .

وهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية في عتاب المسلم لأخيه المسلم ، إذا

وصله من أخيه ما يسوءه .

٦ـ سلامة القلب :

يقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء : ٨٨، ٨٩] ، وقد ورد في تفسير ابن كثير حول هذه الآية : « أن القلب السليم هو السالم من الشرك ، وهو قول مجاهد والحسن وغيرهما ، وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن »[١] اهـ .

وعلق القرطبي في تفسيره : « عن عوف الأعرابي قال : سألت محمد ابن سيرين ما القلب السليم ؟ قال : الناصح لله عز وجل في خلقه »[٢] اهـ .

وروى البخاري في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم »[٣] .

وعلق ابن حجر رحمه الله بقوله : ورواه ابن حبان . . . ، وزاد فيه : «فكان جرير إذا اشترى أو باع يقول لصاحبه : اعلم أن ما أخذنا منك أحب إلينا مما أعطيناكه ، فاختر »[٤] .

من ذلك يتبين أثر سلامة القلب في العدل مع الناس ، حيث إن صاحب هذا القلب مطمئن البال هادئ النفس يحب الخير للناس ، ويبذل النصح لهم ، وهذه صفات أصحاب رسول الله ﷺ الذين مدحهم الله عز وجل بقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح : ٢٩].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٩١) ط . دار الفكر .

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٩١).

(٣) رواه البخاري في الإيمان (٥٧) .

(٣) فتح الباري (١/ ١٦٨) السلفية .

ومثل هذا يُلقى له القبول بين الناس ، حتى وهو يرد على الأخطاء والانحرافات ؛ فإنه يصاحبه في ذلك شعور بالشفقة وحب الهداية للغير ، لا مجرد الرد والخصومة والجدال ، كما هو الحال في كثير ممن يتصدى اليوم للمخالفين له أو لشيخه ؛ حيث إن الأمر يصل به إلى الاعتداء في كلامه لمن يخالفه في الفروع التي يسعها الخلاف، لا لشيء إلا لأنه خالفه أو خالف شيخه وكفى .

وخلاصة القول في (سلامة القلب) أنه أصل للّوازم السابقة كلها ، فبسلامة القلب ، والنصح لله عز وجل في الخلق يتم العدل في جميع الأمور السابقة ، وصاحب القلب السليم لا يؤذي المسلمين ولو آذوه ، ولا ينتقم لنفسه .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله ـ في مدارج السالكين ـ أحد عشر مشهداً فيما يصيب المسلم من أذى الخلق وجنايتهم عليه ، نكتفي بمشهد واحد ؛ حيث قال رحمه الله :

« المشهد السادس : مشهد (السلامة وبرد القلب)، وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه وذاق حلاوته ؛ وهو ألا يشغل قلبه وسره بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى درك ثأره ، وشفاء نفسه ، بل يفرغ قلبه من ذلك ، ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له، وألذ وأطيب، وأعون على مصالحه.

فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده وخير له منه ؛ فيكون بذلك مغبوناً ، والرشيد لا يرضى بذلك ، ويرى أنه من تصرفات السفيه، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس ، وإعمال الفكر في إدراك

الانتقام؟ »[١] اهـ.

ولقد اطلعت على رسالة كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إلى تلامذته بدمشق ، وفيها تبرز هذه الصفة بجلاء ، ولولا خشية الإطالة لنقلتها بتمامها ، ولكن نكتفي بمقاطع منها ، قال رحمه الله بعد السلام والأشواق إلى تلامذته :

« وتعلمون من القواعد العظيمة ـ التي هي من جماع الدين ـ تأليف القلوب ، واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، ويقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ، وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف . وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة ، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة . . . » إلى أن قال في الرسالة نفسها :

« وأول ما أبدأ به من هذا الأصل : ما يتعلق بي ، فتعلمون رضي الله عنكم جميعاً أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين ـ فضلاً عن أصحابنا ـ بشيء أصلاً ، لا باطنا ، ولا ظاهراً ، ولا عندي عتب على أحد منهم ، ولا لوم أصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان ، كل بحسبه .

ولايخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً ، أو مخطئاً ، أو مذنباً ، فالأول : مشكور ، والثاني : أجره على الاجتهاد ؛ فمعفو عنه مغفور له ،

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٠) ، تحقيق : محمد حامد الفقي ـ دار الكتاب العربي .

والثالث : يغفر الله لنا وله ولسائر المؤمنين ، فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل كقول القائل : فلان كان سبب هذه القضية ، فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب ولا حول ولا قوة إلا بالله ، بل مثل هذا يعود على قائله بالملام ، إلا أن يكون له من حسنة ، وممن يغفر الله له إن شاء، وقد عفا الله عما سلف . . . » إلى أن قال رحمه الله في الرسالة نفسها :

« فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي ، أو ظلمه وعدوانه ، فإني قد أحللت كل مسلم ، وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي ، والذين كذبوا وظلموا منهم في حل من جهتي »[(١)] اهـ.

٧ـ الصدق والوضوح :

إن هذا اللازم يعتبر أيضاً سبباً من أسباب حصول العدل ؛ فهو نتيجة وسبب في نفس الوقت ؛ لأن الصدق يؤدي إلى العدل ، والعدل يستلزم الصدق والوضوح في الأقوال والأفعال ، وأردت من إيراد هذا اللازم الإشارة إلى ما يقع في زماننا هذا من الأساليب الغامضة في تعامل المسلمين بعضهم مع بعض ، وعدم الوضوح في المقاصد والوسائل ، وهذا كله يؤدي ـ شئْنا أم أبينا ـ إلى مجانبة الصدق والوقوع في الكذب الصريح .

وهذا الغموض وعدم الوضوح وسوء الظن بالمسلمين، من الأمراض الخطيرة التي تؤدي إلى إذكاء العداوة والفرقة بين المسلمين ، وعدم اطمئنان بعضهم إلى بعض ، في الوقت الذي يفترض الصدق في المسلم، وألا يساء الظن به ، أو أن مراده من كلامه كذا وكذا . . . إلخ .

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ٥١ ـ ٥٧).

ولقد مرت بنا الطريقة التي عالج بها الرسول ﷺ خطأ حاطب رضي الله عنه ، وكيف أنه ﷺ عندما سمع من حاطب عذره ، قال : «**صدق، لا تقولوا إلا خيراً** »، ولم يذهب إلى سوء الظن به ، واتهامه بالكذب ، أو اللف والدوران كما يقولون .

إن الصدق منجاة وخير كله في الدنيا والآخرة ، والصدق في الحديث أمر لازم لاطمئنان القلوب بعضها إلى بعض ، وطريق إلى التآلف وحصول البركة ؛ فلقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **البيعان بالخيار ما لم يتفرقا** ، أو قال: **حتى يتفرقا ؛ فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما** »[(١)] .

فإن كان الصدق سبباً لحصول البركة للمتبايعين على سلعة ، والكذب والكتمان يمحق بركة بيعهما ، أقول : إذا كان الأمر كذلك في أمر من أمور الدنيا ؛ فكيف يكون الحال إذا كان الصدق أو الكذب على أمر من أمور الآخرة ؟ ، لأن الدعوة عبادة يراد بها الدار الآخرة ؛ فلأن يصدق هذا الحديث على ذلك من باب أولى ، والتجربة أكبر شاهد ؛ حيث إن الصدق والوضوح بين أصحاب الدعوة وحسن الظن فيما بينهم ينتج عنه نتائج طيبة ، ويبارك الله عز وجل في جهودهم وتعاونهم ، والعكس بالعكس ؛ فإن الكذب والأساليب الملتوية لم ينتج عنهما إلا الفرقة وسوء الظن وتشتيت الشمل .

وهنا يجب إيضاح أن لا تعارض بين وجود الصدق والوضوح وبين

(١) رواه البخاري في البيوع (٢١١٠) ، ومسلم في المساقاة رقم (١٦٠٧) .

الكتمان؛ فإن كان المرء ولابد متحدثاً فليكن صادقاً وواضحاً وإلا فليصمت.

ثم إننا نقصد بكل ما سبق أهمية هذا اللازم بين المسلمين بعضهم مع بعض، أما الكافرون والمنافقون؛ فإن التعامل معهم يجب أن يكون بحذر، وتقدير ما ينبغي أن يقال، وألا يطلعوا على أسرار المسلمين بحجة الصدق.

* * *

الخاتمة

ولعلنا في هذه الخاتمة نجمل ما تم تفصيله في ثنايا هذا البحث ؛ حيث طرحت فيه النقاط التالية :

١ ـ إن الإنسان في طبيعته كان ظلوماً جهولاً .

٢ ـ إن الأمانة العظيمة التي أشفقت من حملها السموات والأرض لن يستطيع أن يحلمها الإنسان إلا بالعلم والعدل .

٣ ـ إن العدل كلمة يراد بها التوسط في الأمور ، وذلك بين الإفراط والتفريط ، فالجافي والغالي كلاهما قد جانب العدل .

٤ ـ للعدل صور كثيرة مردها إلى ثلاثة أقسام : العدل الأعظم وهو توحيد الله عز وجل ، والعدل مع النفس ، والعدل مع العباد .

٥ ـ كان التركيز في هذا البحث على العدل مع العباد ؛ وذلك للحاجة الماسة إليه ، وخاصة في هذا العصر الذي بغى بعض الناس فيه على بعض .

٦ ـ للعدل مقتضيات ولوازم كثيرة لا يمكن استيعابها في مثل هذا البحث ، وقد ركزت على أهمها ، وخاصة فيما يتعلق بالتعامل مع الناس من إقالة العثرات ، وإحسان الظن ، وقطع الطريق على الشيطان الذي يسعى إلى إيجاد الإحن والأحقاد والظلم بين المسلمين .

٧ ـ إن سبب الاختلاف والتفرق بين المسلمين يرجع إلى أمرين مهمين :

أ - الجهل الناشئ من فقدان أو قلة العلم بدين الله ، والذي يؤدي بدوره إلى الأخذ بالباطل محسوباً أنه هو الحق .

ب - الظلم الناشئ من الهوى وعدم العدل والإنصاف ، ومثل هذا قد يعلم صاحبه أن الحق مع مخالفه ، ولكن التعصب والهوى ومجانبة العدل يجعله يصر على الباطل ، ولو علم أنه باطل .

٨ - إن رفع الجهل عن النفس يتم بتعلم دين الله عز وجل وحدوده ، كما بلغها الرسول ﷺ لأصحابه وسار عليها سلف الأمة من التابعين وتابعيهم من أئمة هذا الدين وأعلامه .

أما رفع الظلم والتحلي بالعدل والإنصاف ؛ فإنه لا يتم بالتعلم فقط ، فقد يعلم الإنسان الوسائل ولا يعمل بها .

وللعدل مفاتيح وعلامات وتباشير أجملها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله :

« وإن للعدل أمارات وتباشير ؛ فأما الأمارات : فالحياء ، والسخاء ، والهين ، واللين . وأما التباشير : فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر باباً ، ويسر لكل باب مفتاحاً ؛ فباب العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد ، والاعتبار : ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد : أخذ الحق من كل أحد قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع في ذلك أحداً »[١] اهـ .

---

(١) خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه ، جمع : د. محمد أحمد عاشور ، ص٦٢ ، دار الاعتصام .

وخلاصة القول في مفتاح العدل أنه تقوى الله عز وجل ، والتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ؛ حيث يقول الله عز وجل : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾** [المائدة : ٨] ، حيث إنه لا مفتاح للعدل إلا بالتقوى ، والتقوى فقط .

وتبقى كلمة أخيرة في هذه الخاتمة أنصح بها نفسي وإخواني الدعاة من أهل السنة ، بأن نتقي الله عز وجل ، ونصلح ذات بيننا ، وأن نلزم أنفسنا بالعدل في أقوالنا وأعمالنا ، وأن نحذر من نزغات الشيطان ، فكما أسلفت في ثنايا البحث إن أعظم فرحة للشيطان يوم أن يفرق بين المسلمين ، ويخالف بين كلمتهم ، فهو ما يفتأ يسعى للتحريش بالمسلمين ، كما جاء في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم** »(١) .

وإن الواجبات الملقاة على أهل السنة اليوم أكبر وأضخم مما تستطيعه طائفة واحدة من طوائف أهل السنة ، فإن لم يَسْعَ المصلحون والمتقون من أهل السنة لجمع الكلمة وتأليف القلوب ؛ فإن فساداً كبيراً لا شك نازل ؛ كما قال عز وجل : **﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾** [الأنفال : ٧٣] ؛ أي إلا يوالي المسلمون ويعادى الكافرون تكن فتنة للناس(٢) .

---

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٢) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٤) ، ط . دار الفكر .

أسأل الله عز وجل أن يجمع دعـاة الإسلام على الحق ، وأن يؤلف بين قلوبهم ويسدد آراءهم ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، إنه سميع مجيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

الرسالة الثانية

﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ﴾

[سبأ : ٤٦]

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فقد أنزل الله تبارك وتعالى القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، وقد ضمن في هذا الكتاب الهدى والشفاء، لأوليائه المؤمنين خاصة وللناس عامة، موعظة وإنذاراً ، قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس: ٥٧ ، ٥٨].

ففي هذه الآية يبين الله عز وجل أن هذا القرآن العظيم ؛ جاء موعظة للناس كافة ، وشفاء لصدور المؤمنين ، ورحمة لهم بصفة خاصة .

فالمؤمنون وحدهم هم الذين ينتفعون بمواعظ القرآن ، ومن سواهم فهو عليهم عمىً ؛ كما قال تعالى : ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى**﴾ [فصلت: ٤٤].

ومن بين مواعظ القرآن العظيمة ما ذكره سبحانه وتعالى في سورة سبأ ، عن محاجة المشركين الذي كذبوا رسول الله ﷺ ، ورموه بالسحر تارة وبالجنون

تارة أخرى : قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وهذه الآية وإن كانت موجهة إلى المشركين الذين رموا الرسول ﷺ بما هو منه براء إما لجهل أو لهوى، فإنها تخاطب جميع المشركين في كل زمان ومكان ، بل جميع المختلفين في قضايا هذا الدين: أصوله وفروعه، وترسم منهجاً لحل خلافاتهم ، وتضع أصولاً لحواراتهم ، وتخط لهم صراطاً مستقيماً من وحي كتاب الله العظيم ، والذي من سار عليه واتبعه وصل إلى الحق والهدى ،ومن تنكبه واتبع هواه ضل طريقه ،وإن واصل السعي بالليل والنهار .

❋ ❋ ❋

تفسير الآية

قبل ذكر أقوال بعض المفسرين حول هذه الآية نذكر ما قبلها من الآيات حتى يتضح المقصود . يقول الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٣ - ٤٦].

من هذه الآيات البيّنات يتضح لنا أن هذه الموعظة الموجهة إلى مشركي قريش كانت بسبب اتهامهم لرسول الله ﷺ بالكذب تارة ، وبالسحرة تارة أخرى ، دون تفكير أو تدبر ، شأنهم في ذلك شأن الذين يتبعون أهواءهم ، ويقتفون آثار آبائهم ومتبوعيهم دون دليل.

وقد أقام الله عز وجل هذه الموعظة العظيمة التي مَنْ أخذها بجميع مقوماتها فلابد أن يصل إلى الحق ؛ وهي في الآية: كون النبي ﷺ رسولاً من عند الله عز وجل ، ونذيراً لهم بين يدي عذاب شديد ، وليس كما يزعمون ويرددون دون وعي أو نظر بأنه ساحر أو كاذب أو مجنون ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦] .

ولكي يحصل الانتفاع بهذه الموعظة العظيمة فلابد من الأخذ بجميع المقومات التي قامت عليها هذه الموعظة ، وهي :

* القيام لله تعالى : ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ ، والتجرد في طلب الحق .

* مراجعة النفس والخلوة بها أو مع شخص ثان : ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ .

* التفكر فيما يقوله المخالف : ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ .

وتظهر أهمية هذه المقومات في كلام علماء التفسير رحمهم الله تعالى .

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في (فتح القدير) حول قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ :

« أي أحذركم بواحدة، وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه، وأوصيكم بخصلة واحدة؛ وهي : ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ . وهذا تفسير للخصلة الواحدة أو بدل منها ، أي هي : قيامكم وتشميركم في طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين ؛ اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ؛ لأن الاجتماع يشوش الفكر .

وليس المراد القيام على الرجْلين بل المراد القيام لطلب الحق وإصداق الفكر فيه؛ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أَمر النبي ﷺ ، وما جاء به من الكتاب ، فإنكم عند ذلك تعلمون أن ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ ؛ وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن محمداً مجنون .

فقال لهم : اعتبروا أمري بواحدة ؛ وهي أن تقوموا لله وفي ذاته مجتمعين ومتفرقين ، فيقول الرجل لصاحبه : هلم فلنصدُق ، هل رأينا بهذا الرجل من جنة ـ أي جنون ـ أو جربنا عليه كذباً ؟ .

ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه ، وليتفكر ولينظر ؛ فإن في ذلك ما يدل على أن محمداً ﷺ صادق ، وأنه رسول من عند الله عز وجل ، وأنه ليس بكاذب ولا ساحر ولا مجنون»[١] اهـ .

وقال النسفي رحمه الله في تفسيره : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ أي بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله : ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ...﴾ الآية، على أنه عطف بيان لها . وقيل : في محل الرفع، والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ؛ وهي أن ﴿تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أي لوجه الله خالصاً ، لا لحمية ، ولا لعصبية ، بل لطلب الحق ﴿ مَثْنَىٰ ﴾ اثنين اثنين ، ﴿وَفُرَادَىٰ﴾ فرداً فرداً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أمر محمد ، وما جاء به .

أما الاثنان فيتفكران ؛ يعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران نظرة الصدق والإنصاف حتى يؤدي النظر الصحيح إلى الحق ، وكذلك الفرد يتفكر مع نفسه بعدل وإنصاف ويعرض فكره على عقله .

ومعنى تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمي البصائر ، ويمنع الروية ، ويقل الإنصاف فيه ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، ولا يسمع إلا نصرة المذهب »[٢] اهـ .

وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في (تفسير الكريم المنان) في تفسيره لهذه الآية :

« أي أعظكم بخصلة واحدة أشير عليكم بها وأنصح لكم في سلوكها ، وهي طريق نصف ، لست أدعوكم إلى اتباع قولي ولا إلى ترك قولكم من

(١) فتح القدير ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .

(٢) تفسير النسفي ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .

دون موجب لذلك؛ وهي ﴿ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ أي تنهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله عز وجل، مجتمعين ومتباحثين في ذلك ومتناظرين ، وفرادى كل واحد يخاطب نفسه بذلك ، فإذا قمتم لله مثنى وفرادى واستعملتم فكركم ، وأجَلْتموه ،وتدبرتم أحوال رسولكم ، هل هو مجنون فيه صفات المجانين؛ من كلامه ، وهيئته ووصفه ، أم هو نبي صادق منذر لكم ؟

فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها لتبين لهم أكثر من غيرهم أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون ؛ لأن هيئته ليست كهيئة المجانين وخنقهم واختلاجهم . . فكل من رأى أحواله وقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أو مع غيره ؛ جزم بأنه رسول الله حقاً وتبين صدقه »[1] اهـ.

وقال سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ حول ظلال هذه الآية :

« وهنا يدعوهم دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق ، ومعرفة الافتراء من الصدق، وتقدير الواقع الذي يواجهونه من غير زيف ولا دَخَل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ، إنها دعوة إلى القيام لله عز وجل بعيداً عن الهوى ، بعيداً عن المصلحة ، بعيداً عن ملابسات الأرض ، بعيداً عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب ، فتبعد به عن الله ، بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة والمؤثرات الشائعة في الجماعة.

دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط لا مع القضايا والدعاوي الرائجة ولا مع العبارات المطاطة التي تبعد القلب والعقل عن مواجهة الحقيقة في

(١) تفسير الكريم المنان ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ.

بساطتها ، دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافي بعيداً عن الضجيج ، والخلط ، واللبس ، والرؤية المضطربة ، والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة ، وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة ، منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشي والمؤثرات ، وعلى مراقبة الله عز وجل وتقواه .

وهي ﴿ وَاحِدَةٍ ﴾ إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق : القيام لله ، لا لغرض ، ولا لهوى ، ولا لمصلحة ، ولا لنتيجة ، التجرد ، الخلوص ، ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون .

﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء ، وفرادى مع النفس وجهاً لوجه في تمحيص هادئ عميق .

﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة ، وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده ، إن هو إلا القول المحكم القوي المبين»[1] اهـ .

وبعد هذه النقولات من بعض كتب التفسير حول هذه الآية نستطيع الآن توضيح مقومات هذه الموعظة العظيمة وشروط الانتفاع بها بما يلي :

الشرط الأول : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ :

إن هذا الشرط هو الأساس لكل عمل ، وبدونه يفسد العمل ، ولا يوفق فيه صاحبه ، ولا يبارك له فيه ، فالقيام لله عز وجل هو المنطلق لصحة العمل إذا اقترن ذلك بالمتابعة فيه للرسول ﷺ .

---

(١) في ظلال القرآن ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .

فالإخلاص في البحث عن الحق ، والصدق في طلبه، شرط أساسي للوصول إلى ذلك الحق ، وعندما يغيب الإخلاص ينعدم الانقياد إلى الحق، حتى ولو كان مثل فلق الصبح ؛ لأن من تعلق قصده بغير وجه ربه عز وجل ثقل عليه الانقياد للحق ، وقصرت همته عن بلوغه والعمل به .

فوجب على من أراد معرفة وجه الحق في أي أمر أن يخلص قصده ونيته لله عز وجل ، وأن يتجرد لاتباع الحق عند ظهوره ،ولو على لسان مخالفه ، وأن يعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل .

ولكن قد يكتنف القائم لله عز وجل بعض الملابسات والظروف التي قد تغطي الحق أو تلبسه بالباطل ، فيقبل به ظاناً أنه الحق، وذلك بسبب بعض الظروف المحيطة به، لذلك فإنه لا مناص من توفر باقي الشروط للانتفاع بموعظة الله عز وجل ومنهجه السوي في الوصول إلى الحق المنشود، وذلك من :

الشرط الثاني : ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ :

والالتزام بهذا الشرط يقضي على عامل مهم من العوامل التي تغطي الحق أو تشوه وجهه ، وذلك في مثل الأجواء الجماعية والجماهير الجاهلة ، والتي غالباً ما تتصف بالغوغائية والتقليد الأعمى ، واتباع كل ناعق من رؤوس الضلال ، مما قد يؤدي بطالب الحق المخلص إلى اتباع الأكثرية من الناس متهماً نفسه ، ظاناً أن الحق مع الأكثرية ، دون أن يدري أن هذه الحركة الغوغائية قد غطت الحق ،وضيعت معالمه ، فاشتبه مع غيره ، خاصة عند من قلّت بصيرته ، وقلّ نصيبه من هدى الله عز وجل ، وهدي رسوله ﷺ وهذا ما حدث من اتهام قريش للرسول ﷺ بشكل جماهيري غوغائي ،

(١) في ظلال القرآن ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .

وقولهم ساحر وكاهن ومجنون . . . إلخ .

فوعظهم الله عز وجل أن يقوموا لله ويخلصوا وجوههم له ، ويبتعدوا عن هذه الأجواء ، ويرجعوا إلى أنفسهم ، حيث يقف الإنسان مع نفسه أو مع صاحبه ، ويصحب ذلك التفكير العميق والتدبر لحال الرسول ﷺ ، فلابد أن يصلوا إلى الحق والهدى ، وهو ما جاء في ختام الآية ﴿ **مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾ [سبأ : ٤٦] .

ونخرج من هذه الآية بفائدة سيأتي تفصيلها في ثنايا البحث إن شاء الله ، وهي أن القاصد للحق أو الباحث في مسألة خلافية - كبيرة أو صغيرة - عليه أن يتجنب المناظرة في جو جماعي ، لأن المُناظر يكون أقرب إلى ترك رأيه إذا تبين أن الحق في خلافه إذا كان التفكير مع شخص واحد ، بخلاف حال الجماعة ، فقد يعز عليه الاعتراف بالخطأ أمام مؤيديه أو مخالفيه المجتمعين حوله ، والله تعالى عليم بمسارب نفوس خلقه ، خبير بطبائعهم ، فلذلك وعظهم موعظة من يعلم حالهم ، ويعلم ما يصلحهم ويهديهم إلى صراطه المستقيم ، ومنهجه القويم ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك : ١٤] .

الشرط الثالث : ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ :

وهذا الشرط هو الوسيلة الأساسية للوصول إلى الحق بعد الالتزام بالشرطين السابقين ؛ فالتفكير ، والعلم ، وإعمال الرأي هو المتمم لهذا المنهج الإلهي للوصول إلى الحق وتَبَيُّن الهدى من الضلال .

وهذا الشرط يقودنا إلى قضية هامة ؛ ألا وهي قضية العلم الشرعي ، ومعرفة دين الله عز وجل ، وإقامة الدليل والبرهان على ما يعتقد أنه الحق ،

وإذا كان الكفار الذين خوطبوا مباشرة بهذه الآية ، ووجهت إليهم هذه الموعظة العظيمة ما كان عندهم علم شرعي ، وليس عندهم الدليل فيما يعتقدونه ، فلذلك كان المطلوب منهم التفكير بحال الرسول ﷺ ، وإقامة الدليل على ما يتهمونه به .

فإذا كان الأمر بالتفكير مع الكفار بهذه الصورة ؛ فإن الأمر بالنسبة لطالب الحق في المسائل الشرعية والعقائدية والفكرية آكد ؛ حيث لابد أن يكون مؤهلاً من الناحية العلمية لبحث هذه المسألة ، ودراسة أوجه الخلاف حولها ، وإلا لم يكن للتفكير فائدة ، كمن يحارب بغير سلاح ولا عدة ، وقد كان عند كفار مكة من العلم بأحوال الرسول ﷺ وصفاته ،وصدقه ، وأمانته ما يكفي ، ولو أنهم فكروا في ذلك لقادهم ذلك إلى الإذعان والانقياد للحق الذي جاءهم به الرسول ﷺ .

وكذلك الحال لكل المختلفين أو المتناظرين إذا لم يكن لديهم علم بما يختلفون فيه ؛ فإنه لا فائدة من التفكير ؛ لأن أداة التفكير الأساسية هي العلم بحال القضية المختلف فيها .

فالمقصود إذن بالتفكير هنا هو البحث عن الأدلة الشرعية والتحقق من ثبوتها ودلالتها على المراد ، كما يدخل في العلم أيضاً العلم بحال القضية المختلف حولها وملابساتها . . . إلخ .

فالجاهل بذلك كله لا يستطيع الوصول إلى الحق لفقده الأدوات الموصلة إليه ، فلذلك نجد أمثال هؤلاء يوجههم التقليد الأعمى دون فكر أو نظر .

وإذا كان الله عز وجل قد بين لنا في كتابه الكريم منهج الوصول إلى الحق

فيما اختُلف فيه ، فإن هذا المنهج وذلك الطريق السوي يمر أحياناً عبر أنواع من الحوار والمناظرة لابد منها .

فالمتتبع لمنهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله وحده، يجد أن أكثرهم قد وقف مع قومه موقف المناظرة وإقامة الحجة والنصح ، وتبيين الحق من الباطل ، والصبر على ذلك ، مع شدة رفضهم للحق وعنادهم وتعنتهم ، ولكن مهمة البلاغ والدعوة إلى الله عز وجل تستلزم شيئاً من ضبط النفس والتحمل حتى يتم البلاغ على أكمل وجه .

ولكثرة الخلاف الواقع بين طوائف المسلمين اليوم ، وخاصة بين الطوائف من أهل السنة ؛ فإنا نقدم هذه الكلمات التي نحسب أن فيها إشارة إلى الطريقة المثلى في الحوار والمناظرة المؤدية بإذن الله عز وجل إلى الاجتماع والائتلاف في حدود منهج السلف وأصول الشريعة .

وقد اتضح من الآية السابقة التي هي موضع البحث أصول للحوار نطرحها بهذه المناسبة ،ونضيف عليها ما وقع عليه الفكر والنظر من آداب الخلاف . وقبل ذكر هذه الأصول يحسن التقدمة لها بأهمية هذا الموضوع ، وبعض التعريفات والوقفات السريعة .

❋ ❋ ❋

أهمية هذا الموضوع

إن الإلمام بآداب الحوار والاختلاف أمر مهم ينفع صاحبه في حياته كلها، وبخاصة الداعية إلى الله عز وجل، وهذه الجوانب المفيدة كثيرة نقتصر منها على ما يلي:

١ - من المعلوم أن مهمة الداعية إلى الله عز وجل هي بذل الأسباب في هداية الناس ودلالتهم إلى الخير، ولابد أن يواجهه في ذلك التواءات النفوس وخلافهم معه في الرأي، فإذا لم يكن لديه من الإلمام بآداب الحوار والاختلاف الشيء الكافي، لكي يصبر ويستمر في دعوته، فقد ينفر الناس منه، وهو يسعى لجمعهم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

٢ - إن أهمية الإلمام بآداب الحوار والاختلاف، ترجع للظروف الملحة في هذا العصر الذي يعد عصر تعدد الجماعات الإسلامية والفُرقة الموجودة بينهم؛ وذلك لأن الإلمام بذلك يساعد في تقارب القلوب وتفهم الأفكار؛ مما يكون له الأثر في تضييق هوة الخلاف والتماس العذر للعاملين في الدعوة الإسلامية، وهذا يؤدي إلى الوحدة المنشودة.

٣ - كما يفيد تفهم هذه الآداب أيضاً في معالجة وجهات النظر المختلفة التي تكون بين أفراد المجموعة الواحدة، بل أفراد العائلة الواحدة؛ لأن فقد هذه الآداب يضخم المشاكل، ويجعل من الحبة قبة كما يقولون.

* * *

الفرق بين الجدال والحوار

الجدال : مصدر جادل وهو المناقشة على سبيل المخاصمة ، ومقابلة الحجة بالحجة .

والحوار : الجواب . حاوره محاورة وحواراً: جاوبه وراجعه ، فهو مراجعة في الكلام بين طرفين أو أكثر دون ما يدل بالضرورة على وجود خصومة بينهما .

وقد يكون الجدل والحوار بمعنى واحد إذا خلا الجدل من العناد والتعنت للرأي ، كما ذكر تعالى في سورة المجادلة : ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾.

[المجادلة : ١]

فسمى الله سبحانه وتعالى مجادلة المرأة للرسول ﷺ ومجاوبته لها محاورة ، والله أعلم .

وعلى أية حال ؛ فالحوار كلمة غالباً ما تستعمل في المناظرة الهادئة التي يسود عليها الألفة والبحث عن الحق ، والجدال غالباً ما يكون جَوّه صاخباً ، وقد ينشأ عنه خصومة وعناد .

ما هي نتيجة الحوار :

ليس شرطاً للحوار الناجح أن ينتهي أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر ، ويتفقان على موقف واحد ، فهذا نجاح لا شك فيه ، وإنما يعتبر

الحوار ناجحاً أيضاً إذا توصل الطرفان إلى أن كل قول يقوله أحدهما هو صحيح ، أو في الإطار الذي يسعه الخلاف ، أما فشل الحوار فيكون عندما يتشبث كل طرف برأيه ويضلل الآخر ويفارقه .

❁ ❁ ❁

بعض الآيات والأحاديث الواردة في آداب الحوار وحسن المناظرة

قال تعالى :

- ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣].
- ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ . [الإسراء : ٥٣]
- ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣].
- ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص : ٥٥].
- ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٦].
- ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥].
- ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء : ١١٤].
- ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٤].

والآيات في ذلك كثيرة .

أما الأحاديث النبوية ، فمنها :

- « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[١] .

---

(١) متفق عليه .

- « الكلمة الطيبة صدقة »[١]
- « تبسمك في وجه أخيك صدقة »[٢]
- « وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم »[٣] .
- « الكبر بطر الحق وغمط الناس »[٤] .
- «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا »[٥] .
- « ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٦] .
- « إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على ما سواه »[٧] .

والأحاديث في ذلك كثيرة .

والآن وبعد هذه التعريفات والآيات والأحاديث التي تشير إلى الآداب الإسلامية في المعاملة مع الناس ومحاورتهم ، نأتي لتفصيل أصول الحوار في ضوء الآية الكريمة التي كانت منطلق هذا البحث ، وهي قوله تعالى :

---

(١) متفق عليه .
(٢) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٥٦) ، والحديث في صحيح سنن الترمذي (١٦٠٢).
(٣) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، والحديث في صحيح سنن الترمذي (٢١١٠) ، وفي صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٠٩).
(٤) رواه مسلم في الإيمان (٩١).
(٥) متفق عليه.
(٦) متفق عليه .
(٧) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٣) .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وكما تمت الإشارة في تفسير هذه الآية وما يتعلق بها أنها تعتبر منهجاً قويماً لمن أراد الوصول إلى الحق ، ولأن المقصود من الحوار الوصول إلى الحق ؛ فإن هذه الآية الكريمة ترسم لنا بمقوماتها الثلاثة أصول الحوار الصادق، وذلك فيما يلي :

الأصل الأول : الإخلاص لله عز وجل ، والتجرد الكامل قبل الحوار وأثناءه وبعده : ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ .

الأصل الثاني : العلم بحقيقة واقع القضية المطروحة من الناحية الشرعية والواقعية: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ .

الأصل الثالث : اعتبار ومراعاة ظروف الحوار والمحاورة: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ .

* * *

الأصل الأول

الإخلاص لله عز وجل - والقيام له وحده

﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾

ويدخل تحت هذا الأصل عدة متعلقات ، نذكر منها ما يلي :

١- تصحيح النية قبل الدخول في الحوار :

وذلك بمساءلة النفس عن الغرض من الحوار ؛ أهو إرادة الحق فحسب ، أو أن هناك أغراضاً أخرى : كحب الظهور ، وإفحام الخصم ، و أن يرى الناس مكانه؟ ، فإذا كانت هذه الأغراض موجودة فليحجم المحاور عن الحوار حتى تتجرد نيته تماماً لله عز وجل ، وأنه يريد الحق ، ولو ظهر على لسان الطرف الآخر .

٢- حسن الاستماع والاهتمام بكلام الطرف الآخر :

فالمتحدث البارع مستمع بارع ، فلابد من حسن الاستماع ، والانتباه لما يقوله الطرف المقابل ، وعدم مقاطعته ، وتركه حتى ينتهي ، وتدوين أي فكرة تطرأ أثناء كلامه حتى يفرغ تماماً ، وهذا من التواضع ، وإعطاء الأهمية لكلام الآخرين ؛ حتى لايحصل العجب بالنفس ، وأنه الذي ينبغي أن يستمع له وأن غيره ليس عنده ما يستحق ذلك .

كذلك على المحاور المخلص أن يراعي الوقت أثناء حديثه فلا يستأثر بالكلام كله ، بل يعطي الفرصة المكافئة للطرف الآخر ؛ حتى لا يحصل العجب بالنفس المنافي للإخلاص ، أو الاحتقار للطرف الآخر . وكذلك لأن

المستمع لا يستطيع أن يركز في سماع من يحاوره دون مقاطعة له أو انشغال عنه أكثر من ربع ساعة ، وبعد ذلك يكل الذهن ويقل التركيز ، وكما يقال : « إذا أردت أن ينفضّ الناس من حولك ويسخرون منك فتكلم بغير انقطاع ، ولا تعطي لأحد الفرصة في الحديث » .

٣- مراقبة النفس أثناء الحوار :

جرت العادة عند أكثر المتحاورين أن يركزوا انتباههم على الطرف الآخر؛ يحصون الملاحظات على فكرته وطريقته في الحوار ، دون أن يراقبوا أنفسهم بنفس المقياس ، فينسى الإنسان نفسه ونوازعها ، ونبرات صوته وطريقته في الرد مما يكون له أثر سيئ على الحوار ، ولا شك أن الإخلاص في الحوار يجعل الإنسان ينتبه لنفسه وعيوبه أكثر من غيره . وضعف الإخلاص يحدث في النفس عجباً وشعوراً بأنها فوق الملاحظات .

٤- التسليم بالخطأ:

الإنسان بشر يخطئ ويصيب ، فمن الطبيعي أن يخطئ المحاور في مناقشاته وحواره مع غيره ، والإخلاص لله عز وجل ، يفرض عليه التسليم بالخطأ عندما يتبين له وجه الصواب ، بل يشكر لصاحبه فضله في تبصيره له بالخطأ .

٥- الحذر من الكذب والغموض والمراوغة :

قد يلجأ المحاور إلى الأساليب الغامضة - بل الكذب أحياناً - إذا أحس بضعف حَجته ، أو أنه يريد أن يلبس على الطرف الآخر ويوهمه بما ليس له حقيقة ، وهذه صفة ذميمة يرفضها الإخلاص لله تعالى ، والخلق الكريم ، بل

إن الحوار المبارك هو الحوار الصادق الذي يطمئن كل طرف فيه إلى الآخر، وإذا طُرِحَ سؤال لا يريد أحد الطرفين الإجابة عليه فليعتذر عن الإجابة، ولا يلجأ إلى الغموض والمراوغة؛ لأنه إذا فقدت الثقة بين الطرفين فقد فشل الحوار.

٦ـ الأمانة:

لابد من الأمانة في العرض والنقل واحترام الحقيقة، وألاّ تقطع عبارة عن سابقتها أو لاحقتها عند الاقتباس لتخضعها لخدمة فكرتك، فهذا نقص في الدين والإخلاص؛ لأنه تدليس، والتدليس أخو الكذب، فضلاً عن أنه يعرض من هذه صفته للسخرية وعدم الثقة به لتلاعبه بالنصوص.

٧ـ الإنصاف:

من الإنصاف أن يبدي المحاور إعجابه وثناءه على الأفكار الصحيحة، والأدلة الجيدة، وحسن الاستدلال، والمعلومات الجديدة التي يوردها الطرف الآخر، والإيجابيات والحسنات التي تتمثل فيه أو في فكرته وإن ظهر معها جوانب سلبية، كما أن من الإنصاف وضع النفس موضع الطرف الآخر، والظروف المحيطة به، والتي أدت به إلى الرأي المخالف.

٨ـ وضع الخطأ في حجمه الطبيعي، وتجنب الشماتة:

عند وضوح خطأ الطرف الآخر يجب أن يشعر بأن الخطأ ميسور التصحيح حتى لا يداخله الشيطان، وتفقده مسيرة الدعوة إلى الله من جراء خطئه، كما أن تواضع الطرف المصيب أمر مهم حتى لا يداخله الشيطان؛ فيشعر بالتعالي على الطرف الآخر، أو يشمت به وبفكرته الخاطئة؛ فالمسلم

المخلص يقصد من الحوار إظهار الحق ولو على لسان مخالفه .

٩ـ على كل طرف في الحوار تجنب الهزء والسخرية :

ويدخل في ذلك كل ما يُشعر باحتقار أحدهما للآخر ، أو ازدرائه لفكرته ، أو وسمه بالجهل ، أو قلة الفهم ، أو التبسمات والضحكات التي تدل على السخرية .

١٠ـ تجنب ضمائر المتكلم أثناء الحديث :

حتى لا يدخل الشيطان إلى النفس ؛ فيقع فيها العجب والغرور ، ينبغي تجنب إدخال ضمائر المتكلم أو ضمير الجماعة في الحديث كتكرار « نحن ، أنا ، عندنا . . . إلخ » مع ما فيها من المضايقة للطرف الآخر .

* * *

الأصل الثاني

العلم

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾

ويدخل تحته التفصيلات التالية :

١ ـ الاتفاق على منهج الاستدلال والتلقي قبل البدء في نقاش أي مسألة علمية :

لأن النقاش والمنهج مختلف عن الآخر سيؤدي إلى الدوران في حلقة مفرغة ، وسوف لا يسلم أي طرف لما عند الطرف الآخر من دليل أو استنباط ، وحتى تتضح هذه المسألة أكثر ، نضرب لذلك بعض الصور كما ذكرها الشاطبي في (الاعتصام ـ الباب الرابع) تحت عنوان : مآخذ أهل البدع في الاستدلال ، فنذكر منها (باختصار وتصرف) ما يلي :

أ ـ إن من أهل البدع من منهجه الاستدلال بالأحاديث الضعيفة ـ أو الموضوعة أحياناً ـ في العقائد والأحكام ، وهذا المأخذ مرفوض عند أهل السنة ؛ لأنهم لا يرضون الاستدلال بالضعيف ـ فضلاً عن الموضوع ـ في باب العقائد والأحكام ، فإذا لم يتفق مع الطرف المحاور على خطأ هذا المنهج ، فلن يفلح الحوار في الوصول إلى أي نتيجة ؛ لأن الأدلة التي سيستدل بها الطرف الآخر مرفوضة ابتداء من الطرف الثاني لعدم ثبوتها عنده .

ب ـ ومن أهل البدع من هو عكس الصورة السابقة ؛ حيث يرفض الاستدلال بالأحاديث الصحيحة بحجة أنها آحاد ، ولا يقبل من ذلك إلا المتواتر ،

وهذا المنهج مرفوض أيضاً عند أهل السنة ؛ حيث إن الدليل إذا ثبتت صحته أصبح صالحاً للاستدلال ولو كان آحاداً ، وبدون الاتفاق على هذا المنهج ابتداء فلن يفلح الحوار في الوصول إلى أي نتيجة . إذن فمن الأولى في مثل هذه الحالات ، وقبل طرح الأدلة ودلالتها على المقصود، لابد من الاتفاق على قبول الاستدلال بأحاديث الآحاد الصحيحة .

جـ- كما أن هناك من أهل البدع من منهجه الاحتجاج بأقوال شيخه أو إمامه والتعصب لها ، ونبذ أي دليل يخالف ذلك ، بل إن أهل بعض الملل المبتدعة يرون أن أقوال أئمتهم ومشايخهم هي التشريع بذاته ، وممكن أن يأخذ الحلال والحرام من أقوالهم ، بل إن لهم نسخ الشريعة وتحليل الحرام أو تحريم الحلال . فإذا لم يتفق على ضلال هذا المنهج وأن ما جاء في الكتاب والسنة والإجماع هو الأصل ، وأن كل ما خالف ذلك فهو مرفوض مهما كان قائله ، فإنه لا فائدة من النقاش .

د - ومن أهل البدع من يعتمد في استدلاله على الرؤى والمكاشفات ، فيصحح بهما الضعيف ، ويضعف الصحيح ،ويحلل ، ويحرم ، ويشرع بهما ما لم يأذن به الله ، فإذا لم يتفق ابتداء على ضلال وخطأ هذا الاستدلال ، فلن يفلح الحوار ، ولن تتحقق أهدافه أبداً .

وصور مآخذ أهل البدع في الاستدلال كثيرة من أراد التوسع فيها فليرجع إلى الباب المذكور في الاعتصام فإنه مفيد جداً .

٢- مراعاة تفاوت الناس في عقولهم وثقافتهم :

فالعلم بما عند الطرف الآخر من علم وثقافة يعين على اختيار الأسلوب ، والمعلومات التي تناسب عقله وحصيلته العلمية ، فتحديث الناس بما يعقلون

أمر مهم في الحوار ؛ لأن عدم مراعاة ذلك يحصل بسببه فتنة وتشويش للطرف الآخر ، ينعكس أثره على إيجابية الحوار .

٣ـ البيان وحسن العرض :

إن قوة التعبير وفصاحة اللسان وحسن البيان والعرض من العوامل المهمة في إيضاح الفكرة وأدلتها ؛ مما يكون له أكبر الأثر في قبول الطرف الآخر للفكرة ، وسهولة إقناعه بحسن الاستدلال عليها ، وهنا يجب تجنب الألفاظ الغريبة صعبة الفهم ، أو الألفاظ المجملة التي تحتمل عدة معانٍ من غير توضيح للمعنى المراد منها .

٤ـ البدء بمواطن الاتفاق والنقاط المشتركة :

إن البدء بنقاط الاتفاق لدى الطرفين، كالمسلَّمات والبديهيات وغيرها من الأمور المتفق عليها كل ذلك يقلل الفجوة ويوثق الصلة بين الطرفين ، ويحس كل منهما أن هوة الخلاف قليلة ،وهذا له مردوده النفسي في الحوار. وبالعكس ؛ فإن البدء بنقاط الخلاف يوسع فجوة الخلاف، ولو من الناحية النفسية ، ولذلك يحرص المحاور الناجح أن يلقي على الطرف الآخر الأسئلة التي سيكون جوابها « بنعم » ، ويتجنب ما يكون جوابه النفي ؛ لأن كلمة « لا » عقبة كؤود يصعب التراجع عنها .

والأمثلة في القرآن الكريم كثيرة ؛ فمثلاً في سورة المؤمنون ، يقول تعالى : ﴿ **قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٨٤ – ٨٩].

فهنا نجد أن الله سبحانه وتعالى ألقى عليهم الأسئلة التي يعلم أن جوابهم عليها بالموافقة ، وذلك لإقامة الحجة عليهم في تقرير توحيد الألوهية؛ لأن ما وافقوا عليه مستلزم لما أنكروه.

٥ـ التوثيق :

ينبغي أن تكون مسائل الحوار موثقة من الناحية العلمية والإسنادية ، فلا يستدل بشيء إلا مسنداً لقائله ، ومصدره الذي أخذه منه ، وأن يستعان بذكر الإحصاءات التي تخدم الفكرة ، والمراجع التي رجع إليها ؛ لأن ذكر الحقائق مدعمة بذكر المصادر والإحصائيات الموثقة ،أعمق أثراً في النفوس من ذكرها مجردة ، كما ينبغي في مثل هذه الحالات الإعراض عن النقول الضعيفة ، والحجج الواهية .

٦ـ عدم تعرض أحد الطرفين لكلام الآخر ومناقشته قبل فهم مراده تماماً : والتفكير العميق في أدلته ثبوتاً ودلالة ، وألا يقدم على تصحيح فكرة ما أو تخطئتها قبل التأكد من ذلك تماماً .

٧ـ الإحاطة بمواطن الخلاف في القضية المطروحة للحوار:

ويضاف إلى ذلك: الإلمام بأنواع الاختلاف ما يجوز فيه ومالا يجوز ؛ لأن جهل هذا الأمر يوسع دائرة الاختلاف ، فيحصل الاختلاف والفرقة حول مسألة قد يسع الخلاف فيها والاجتهاد ، كما ينبغي الإلمام بأسباب الاختلاف بين علماء الأمة والتي ذكرها شيخ الإسلام في رسالته القيمة (رفع الملام عن الأئمة الأعلام).

وبهذه المناسبة ينبغي الإشارة إلى مسائل الخلاف ،وأنواعها ، ومن هو

المحمود فيها ، ومن هو المذموم؟ ، وما هي المسائل التي يسعها الخلاف ، والمسائل التي لا يسعها؟ إلى آخر ذلك مما يتعلق بموضوع الاختلاف ، فنقول وبالله التوفيق :

إن الاختلاف ينقسم إلى قسمين :

١ ـ قسم يحمد فيه أحد الطرفين، ويذم الطرف الآخر ؛ مثل الاختلاف الواقع بين المؤمنين والكافرين ، أو بين أهل السنة وأرباب البدع .

وهذا القسم من الاختلاف هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ **وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ** ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وكقوله تعالى : ﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ** ﴾ [الحج: ١٩]، فكل ما يتصل بقضايا العقيدة وأصولها والتي لم يختلف عليها سلف الأمة ،وإنما ظهر الاختلاف واستشرى بعدهم ، فهو داخل تحت هذا القسم .

٢ ـ قسم يذم فيه الطرفان المختلفان، إذا سبَّب هذا الاختلاف الفرقة والعداوة ، ويحمد فيه الطرف الذي لم يجعل هذا الاختلاف سبباً في الفرقة والمفاصلة .

وهذا النوع من الاختلاف هو الذي وَسِع السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ ولم يحصل بينهم بسببه افتراق ولا بغضاء؛ فكل ما وسع السلف الصالح رحمهم الله تعالى فيما اختلفوا فيه ، فيجب أن يسعنا ، ويندرج تحت هذا القسم عدة صور نجملها ، فيما يلي :

أ ـ اختلاف في تحديد موضوع الخلاف : وذلك بأن نجد أحد المختلفين قد ذهب إلى موضع من النزاع غير ما ذهب إليه الآخر ، أو أن أحدهما سماه

باصطلاح معين، والآخر سماه باسم آخر ، فظهر أن هناك اختلافاً ، والحقيقة أنهما اسمان مشتركان لمسمى واحد ، فلو حددت المصطلحات ، ودقق في المعاني والألفاظ لظهر أن هناك اتفاقاً وليس اختلافاً ؛ كالاختلاف الحاصل في تفسير الصراط المستقيم في قوله تعالى : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الفاتحة: ٦] ؛ حيث فسر بالإسلام والقرآن وسنة الرسول ﷺ ، وكلها أسماء مشتركة لمعنى واحد هو الدين الإسلامي ؛ حيث إن كل قول داخل في معنى القول الآخر ، وهذا الأمر لا يأتي إلا بالتفكير الهادئ مع الإخلاص لله عز وجل.

ب- قد يتضح بعد التفكير وتحديد موضع النزاع أن هناك اختلافاً لكن هذا الاختلاف ليس اختلاف تضاد ؛ بمعنى أن المعنى الكلي ليس فيه خلاف ، إنما الخلاف في تنوع آحاد هذا الكلي ، وتعدد الأمثلة التي تحته ؛ كمن يذهب إلى معنى جزئي ، وآخر يذهب إلى معنى جزئي آخر يندرج كلاهما تحت المعنى العام الكلي .

مثال ذلك : تفسير قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ .

[فاطر: ٣٢]

حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن الظالم لنفسه المفرط في الصلوات المكتوبة ، والذي يؤخرها عن وقتها ، والمقتصد المؤدي للصلاة أثناء وقتها ، والسابق بالخيرات المؤدي للصلاة في أول وقتها .

وذهب بعضهم إلى أن السابق هو المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والظالم آكل الربا ومانع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المطلوبة ، ولا يأتي

الربا.

وكل قول، فيه ذكر نوع داخل في الآية، إنما ذُكر لتعريف المستمع بتناول الآية له ، وتنبيهه على نظيره. وكل هذه الأقوال ليس بينها خلاف تضاد ؛ لأنها ترجع إلى معنى واحد ، وهو أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للمحرمات ، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات ، والسابق بالخيرات يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات . (انظر : مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية).

جـ- وهذه الصورة من الاختلاف الذي وسع السلف - رحمهم الله تعالى - بأن يكون المعنيان متغايرين لكن ليس بينهما منافاة ؛ لأن هذا قول صحيح ورد فيه دليل ، وذلك قول صحيح ورد فيه دليل أيضاً ، ولا يجوز أن يكون هذا سبباً في الاختلاف . وهذا كثير في المنازعات لعدم معرفة أحد الطرفين بما عند الآخر من دليل .

ومثال ذلك : الاختلاف في صفة الإقامة للصلاة ، فمن قائل بشفعها ، وقائل بإفرادها ، والاختلاف في القراءات . . . إلخ .

وكل ما ورد في الشريعة، عليه دليل صحيح ، ووسع السلف الصالح ، فإنه لا يجوز أن يكون سبباً في الاختلاف المؤدي إلى الفرقة والتباغض ، وهذا بالطبع لا يأتي إلا نتيجة التفكير والبحث وعدم التعجل في رد قول المخالف إلا بعد الاطلاع على كل ما يتعلق بالموضوع من أدلة واستنباطات ، فقد يتضح بعد البحث أن كلا القولين ثابت وصحيح عن الرسول ﷺ ، وبذلك ينتهي الخلاف .

د - الخلاف حول قضية معينة ورد الدليل عليها ، وأورد المخالف دليلاً آخر مخالفاً لها ، لكن أحد الدليلين أقوى من الآخر وأرجح ، فهذا أيضاً لا

ينبغي أن يكون سبباً في الفرقة ؛ لأن ما وسع أصحاب رسول الله ﷺ وأئمة السلف ينبغي أن يسعنا .

وهذا يقع في كثير من الأحكام التي اختلف فيها العلماء ، وعندما يعلم أن هؤلاء الأئمة ما اختلفوا لهوىً في نفوسهم ، بل وقف كل منهم مع ما عنده من الدليل ، فربما وصل إلى أحدهم ما لم يصل الآخر ، أو صح عنده ما لم يصح عند غيره ، كما بيَّن ذلك شيخ الإسلام في رسالته : (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) ، ولكن مع ذلك فالواجب في هذه الحالة العمل بالدليل الراجح وترك المرجوح ،عند من تبين له ذلك بوجه شرعي .

ولكن هذا لا يعني موافقة من يأخذ بالأقوال الشاذة أو بعض سقطات العلماء ، والتي يكون الدليل على خلافها ؛ بل الواجب تصحيح المخالف وإرجاعه إلى الدليل ، وتوضيح وجه الشذوذ فيما أخذ به ؛ لأن هناك من يقول : (أي قضية لم يجمع عليها الصحابة فالأمر فيها واسع) وهذا القول ليس صحيحاً على إطلاقه ، فقد ذكر الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله في رسالته : (إتمام المنة والنعمة في ذم اختلاف الأمة) بعد كلامٍ جيدٍ حول هذا الأمر ننقل منه المناسب لموضوعنا . قال رحمه الله تعالى :

« وأما احتجاجه بقول النووي : « إن العلماء إنما ينكرون على من خالف ما أجمع عليه ، وأما المختلف فيه فلا إنكار فيه لأنه على أحد المذهبين : كل مجتهد مصيب . قال : وهذا هو المختار عند كثير من المحققين أو أكثرهم» . انتهى ما حكاه. فيقال في جوابه : أنت لم تستكمل عبارة النووي، بل تصرفت فيها ، وأخذت ما تهوى وتركت بقية العبارة؛ لأنه

عليك مع اتصالها وتقييد بعضها ببعض .

قال النووي بعد ما تقدم : لكن إن أريد به على جهة النصيحة - أي الخروج من الخلاف - فهذا حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق ، فإن العلماء متفقون على الحث إلى الخروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بالسنة أو وقوع في خلاف آخر .

هذا كلام النووي قد استبان لك أن مراده إذا لم يظهر دليل ، ولم يترجح جانب الإنكار بكتاب أو سنة أو إجماع أو قياس جلي . . وأما أقوال الآحاد من العلماء فليست بحجة إذا لم يقترن بها دليل شرعي ، وما زال العلماء يردون على من هو أجل منه » اهـ[١] .

وبعد هذا التفصيل فيما يجوز الاختلاف فيه وما لا يجوز ، نتوجه إلى جميع المختلفين أن يقفوا وقفة مع نفوسهم ، ويسأل كل واحد منهم نفسه أو صاحبه ، ومن يخلص له النصح والتذكرة : أين نحن من أنواع الاختلاف ؟ وأين نحن من البغي والاعتداء في الخلاف؟ ، وأين نحن من أدب الخلاف وأخلاقه ؟ ، وما كانت الأمة لتفترق إلا بسبب البغي والحسد والجهل ؛ وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : «ولكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي لا لمجرد الاجتهاد»[٢] .

٨ - أن يعطى كل طرف في الحوار فرصته في التعبير عن فكرته والإحاطة بها من جميع الوجوه ؛ لأن قطع الفكرة أو التشويش عليها يؤثر على تسلسل الأفكار وترابطها .

---

(١) إتمام المنة والنعمة : ص٤٧ ، ص٤٨ .

(٢) الاستقامة (١/ ٣١).

٩ـ لا أعلم :

يجب أن يكون عند أصحاب الحوار من الإخلاص والخوف من الله عز وجل بأن يقول أحدهم : لا أعلم ، عند السؤال عن مسألة لا يعلمها ، أو لم يبحثها بحثاً كافياً ، وألا يستحي من ذلك ، وأن يطلب الإمهال حتى لقاء آخر ليأتي بالجواب عنها إن وجد جواباً .

١٠ـ التفريق بين الفكرة وصاحبها :

وذلك بأن يتم تناول الفكرة المطروحة بالبحث والتحليل والنقد أو التزكية ، بعيداً عن صاحبها حتى لا يتحول الحوار إلى مبارزة كلامية تناقش فيها تصرفات الأشخاص ونواياهم ، ولكن في بعض الأحوال ينبغي تناول أصحاب الأفكار أنفسهم بالجرح والتعديل حسب مقاييس أهل السنة ، وذلك عندما نخشى ضلالاتهم أو تأثر الناس بأفكارهم ، ولكن كل ذلك يتم بإخلاص وإنصاف .

١١ـ إقفال المناقشة :

عندما تتسع شقة الحوار ، أو يتضح أثناء النقاش أن هناك أموراً أساسية برزت لم يتم التحضير لها ، أو لا يكفي الوقت لمناقشتها ، فيحسن في مثل هذه الأحوال إقفال النقاش وتأجيله إلى وقت آخر يتم التحضير والاستعداد الجيد له ، كما ينبغي قفل النقاش عندما يتبين أن الطرف الآخر في الحوار غير جاد ، أو مستهتر ، أو كان دون المستوى المطلوب للخوض في القضايا المعدة للحوار .

❋ ❋ ❋

الأصل الثالث
ظروف الحوار والمتحاورين
﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾

وهذا هو الأصل الثالث الذي يراعى عند الحوار والمناظرة ، وقد أشارت الآية الكريمة إلى جانب من ذلك عند قوله تعالى : ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ ، وسنشير هنا - إن شاء الله تعالى - إلى بعض الجوانب التي تتعلق بظروف الحوار؛ لأن إلغاءها يؤثر كثيراً على طبيعة الحوار ونتيجته ، ومن هذه الجوانب ما يلي :

١- مراعاة الجو المحيط بالحوار :

ويقصد بالجو هنا الجو النفسي ، والمؤثرات المحيطة بالحوار ، وذلك كما في الآية الكريمة ؛ حيث يوجه الله عز وجل طلاب الحق أن يبتعدوا عن الأجواء الجماعية والغوغائية ؛ لأن الحق قد يضيع في مثل هذه الأجواء ؛ حيث التقليد الأعمى ، والتبعية للأكثرية ، بينما لو قام الإنسان مع نفسه أو مع شخص آخر للتفكير حول قضية ما ، فإنه يكون أقرب إلى إصابة الحق منه في الاجتماعات الكبيرة ، وبقدر ما يقل المتحاورون أو السامعون في الحوار بقدر ما ينقاد إلى الحق عند ظهوره .

٢- مراعاة الجو الحسي للحوار :

وذلك من حيث البرودة والحرارة والاتساع والضيق . . إلخ ؛ لأن وجود ما يؤذي في جو الحوار يؤثر على طبيعة النقاش ونتيجته ، وقد يبتر

النقاش ، أو يختصر دون وصول إلى نتيجة ، وكذلك - مما يتعلق بهذا الجانب - اختيار المكان الهادئ ، وإتاحة الزمن الكافي للحوار ، فلا تصلح أماكن الدراسة ، والعمل ، والأسواق للحوار ، وذلك لضيق الوقت ، ولوجود ما يشغل .

٣- مراعاة الظرف النفسي والاجتماعي للطرف المحاوَر أو المحاوِر :

فلا يصلح أبداً أن يتم الحوار مع شخص يعاني من الإرهاق الجسدي لتعب ، أو حاجة لنوم ، أو بسبب جوع ، أو يعاني من إرهاق نفسي : كهمٍ ، أو غمٍ ، أو حزن ؛ لأن هذه الظروف لابد أن تؤثر حتماً على الحوار ؛ إمّا ببتره قبل تمامه ، أو حدوث انفعالات ، وغضب ، وتوتر ، يؤدي بالحوار إلى الفشل الذريع .

٤- أهمية المحادثة الأولى والتعارف الذي يسبق الحوار:

إن المحادثات الأولى والتعارف الأول على الطرف المحاور يساعد على سهولة البدء في المناظرة وسيرها فيما بعد بالشكل المناسب؛ إذ من الصعب أن يبتدأ مباشرة بالحوار مع أشخاص لم يتم أي تعارف معهم ولو كان يسيراً؛ لأن في جلسة التعارف هذه فائدة في التعرف على طبيعة الطرف الآخر، ولو بشكل مبدئي من خلال مظهره ، وحديثه ، ونبرات صوته ، وحصيلته العلمية ؛ مما يكون له الأثر في معرفة الظروف النفسية ، والميول الذهنية للشخص المحاور، وهذا بدوره يساعد في طريقة وأسلوب الحوار مع الناس، كلٌ حسب ظروفه .

ويمكن أن تتم جلسة التعارف هذه على شكل دعوة غداء أو عشاء تتم فيها أحاديث غير رسمية عن : الصحة ، والعمل ، والأولاد ، وعن رأيه في

الكتاب الفلاني ، وفي الفكرة الفلانية ، وعن أي أمر عام ليس له علاقة بموضوع الحوار .

فهذه الطريقة على أي حال أفضل بكثير من أن يفاجأ المرء بأشخاص لم يضع في ذهنه أي تقدير لهم ، ولظروفهم ، فيؤدي ذلك إلى فشل الحوار ، وكذلك الاكتفاء بالتعريفات العابرة من الآخرين؛ كأن يخبر بأن الشخص لطيف ، وسهل التعامل ، وحليم ، ويفاجأ بالعكس تماماً .

٥ـ أن يكون المتحاوران متقاربين ما أمكن في العلم والجاه : وأن يتجنب مناظرة ذي هيبة يخشى أو يستحي من مناظرته ؛ لأن ذلك يؤثر على قوة الحجة والجرأة على الإدلاء بها .

٦ـ ينبغي اجتماع أصحاب الحوار في مكان واحد ، وتقابلهما فيه : وأن ينظر بعضهم للآخر ؛ لأن رؤية الوجوه والملامح له أثر في قوة الحجة أو ضعفها ، وفي هذه الحالة لا تصلح المراسلات للحوار ، ولا يصلح كذلك الحوار بواسطة الهاتف إلا في أضيق الظروف .

٧ـ مراعاة الآداب الإسلامية (القولي منها والعملي) :

والذي يكون له مردوده النفسي على أطراف الحوار ، وسلامة قلوبهم وصفائها ، والانقياد للحق عند ظهوره ، ومن هذه الآداب :

أ ـ احترام الطرف الآخر ، والتأدب معه ، وحفظ اللسان عما يسوءه من الألفاظ ، وعدم السخرية برأيه ، وأن يثني عليه بما فيه وما في فكرته، من الإيجابيات والخير الكثير.

ب ـ التلطف في العبارات أثناء الحوار ، فبعض العبارات قد تفتح

مغاليق النفوس ، وهي يسيرة على من يسرها الله عليه ؛ من الكلمة الطيبة التي تقرب النفوس، وتزيل الجفوة ، وتهيئ النفوس لاستقبال الحق ، والأمثلة في ذلك كثيرة ؛ كمناداة الطرف الآخر بكنيته ، وإذا كان أكبر سناً أو علماً ، يا أستاذي ويا شيخي . . . اسمح لي . . . عفواً .

جـ- ابتسم في وجه محدثك وأطلق أسارير الوجه أثناء الحوار ؛ فهذا يضفي على الحوار جو الألفة والأنس .

د- اجتنب الغضب ما أمكن ، ولو عارضك الطرف الآخر ، أو أغلظ القول لك ، واستخدم الرفق واللين .

هـ- تجنب اللوم المباشر عند وضوح خطأ الطرف الآخر ؛ فالنفس غالباً لا تتحمل قول : (أخطأت) أو (سأثبت لك أنك مخطئ) أو (أنا أخالفك في الرأي) ؛ فهذه الألفاظ قد تجرح عند بعض الناس كبرياءه وشخصيته .

لكن عندما يبدو الخطأ فيمكن معالجته بمثل قولك : لكن أرى رأياً آخر قد أكون مخطئاً فيه ، أو لعلك تصلح لي خطئي . وإذا كان الخطأ يمكن إصلاحه ببعض الإضافات، فتقول : هل لك أن تفعل هذا؟ أو : ما رأيك في إضافة هذه العبارة . . ؟ ، أو : ما المانع لو اتفقنا على هذا التعديل ؟ . . . إلخ .

٨- التحدي والإفحام :

وهذا الأسلوب يلجأ إليه مع المماحكين الذين همهم الجدال والاستهزاء وإثارة الشبه وتضليل الناس ؛ فمثل هؤلاء لا ينفع معهم اللين والرفق ، وإنما

الذي ينبغي في حقهم إفحامهم ومناظرتهم على الملأ الذين قد ضللوا بسببهم؛ وذلك حتى تدحض حجتهم وتسقط هيبتهم من النفوس وتبين وهن فكرتهم واضطرابها . لكن ينبغي لمن أراد مناظرتهم أن يكون على مستوى من العلم، والذكاء ، والشجاعة ؛ بحيث لا يؤتى من قبل قلة علمه، أو سطحيته ، أو نحو ذلك .

٩ـ المحافظة على هدف الحوار والوصول إلى نتيجة :

تحديد هدف الحوار ـ قبل الدخول فيه ـ أمر مهم ، والمحافظة على الهدف أثناء الحوار أيضاً أمر مهم ؛ لأن ذلك يحافظ على التركيز ، وعدم الخروج عن موضوع الحوار بمناقشة جزئيات أو أمور جانبية بعيدة عن موضوع الحوار؛ مما يكون له الأثر في ضياع الوقت ، وعدم الوصول إلى نتيجة في آخر الأمر.

*** وبعد :**

فهذه جملة من أصول الحوار وآدابه ، أعرضها على علاتها ونقصها ، لعلها تفتح المجال لعلماء الأمة ودعاتها أن يفصلوا الأمر حول هذا الموضوع ويكملوا ما نقص منه ، فالمسلمون في حاجة ماسة إلى استقصائه وإتمامه .

أسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا الحديث القلوب المخلصة التي أدمتها الخلافات وخيم اليأس على بعضها ، ولعل الأخوة الذين صاروا أعداء وهم أقرب الناس بعضهم إلى بعض، أن يقوموا لله عز وجل ويتفكروا مع أنفسهم أو مع بعضهم البعض ، وأن يحفظ كل واحد منهم حق أخيه ، ويعلم أن أخاه وإن كان مخطئاً في شيء فقد أصاب في أشياء أخرى ؛ ما دام أنه من أهل السنة وأتباع السلف .

فيا أتباع محمد ﷺ ، ويا محبي أصحاب محمد ﷺ جردوا أنفسكم لله تعالى ، واقتدوا بسلف الأمة، الذين كانوا حريصين على جمع الكلمة وسلامة القلوب، وكان أبغض شيء لديهم الفرقة والاختلاف ، فهذا عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عندما قيل له : إن عثمان بن عفان أتم بالمسلمين في منى وكانت السنة القصر ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم لم يمنعه ذلك من أن يأتم بعثمان ويتم الصلاة معه أربعاً ، فلما قيل له في ذلك ، قال : إن الخلاف شر . فحري بمن أحب السلف والتزم بمنهجهم أن يلتزم بمنهجهم الشامل في الاعتقاد والسلوك .

وما تم عرضه في هذا البحث يمثل إن شاء الله تعالى بعض آداب السلف الصالح في حوارهم واختلافهم ، وهي بدورها الآداب التي هدانا الشرع إليها لنخرج من الاختلاف؛ بل ننازعه بقدر الله عز وجل ، وأسبابه الشرعية التي شرعها الله لنا والتي لا سبيل للنجاة والخلوص من الشرور إلا بالرجوع إليها .

ومن سلك سبيل الهدي وصدق مع الله عز وجل، في طلبه للجماعة والائتلاف ، يسر الله له سبيله ، وألّف بينه وبين إخوانه من الدعاة الصادقين، ومن سلك سبيل الضلال من أهل الزيغ والفرقة والاختلاف، أضله الله سبيله وأزاغه عن الهدى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

الرسالة الثالثة

﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾

[آل عمران : ١٦٥]

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن عنوان هذا الموضوع جزء من آية كريمة نزلت مع ما قبلها وما بعدها في غزوة أحد الشهيرة ، والتي أصاب المسلمين فيها ما أصابهم من القرح الشديد ؛ حيث قُتل فيها سبعون من الصحابة ، وجُرِح الرسول الكريم ﷺ ، وشُجَّ وجهه الشريف ، وانكسرت رباعيته ﷺ ، وهذه الآية واحدة من ثمانين آية نزلت في سياق الغزوة في سورة آل عمران ، وفي هذه الآيات من العبر والدروس الشيء العظيم ، ونكتفي في موضوعنا هذا بالآية المذكور جزء منها في عنواننا هذا ؛ حيث يقول الله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

وقد جاءت هذه الآية تعقيباً على سؤال سأله أصحاب محمد ﷺ عن سبب الهزيمة التي حلت بهم ، وجواباً لاستغرابهم القرح الشديد الذي أصابهم وهم المسلمون وقائدهم سيد البشر ، وحبيب الرحمن محمد ﷺ ، وعدوهم

المشركون المشاقون لله وللرسول ، فجاءهم الجواب من العليم الخبير العزيز الحكيم أنهم أُتوا من عند أنفسهم ، وبسبب ذنوبهم وقد قدر الله عز وجل هذه المصيبة ، لحكم أخرى ذكرتها الآية التالية لهذه الآية ، وهي قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٦٦ ، ١٦٧] .

قال الإمام الشوكاني رحمه الله حول قوله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ ...** ﴾ الآية :

«الألف للاستفهام بقصد التقريع ، والواو للعطف . والمصيبة : للغلبة والقتل الذي أصيبوا به يوم أحد . ﴿ **قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا** ﴾ يوم بدر ؛ وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون ، وقد كانوا قتلوا يوم بدر من المشركين سبعين وأسروا سبعين ، فكان مجموع القتلى والأسرى يوم بدر مثلي القتلى من المسلمين يوم أحد .

والمعنى : أحين أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم : من أين أصابنا هذا ؟ ، ونحن نقاتل في سبيل الله ، ومعنا رسول الله ﷺ ، وقد وعدنا الله بالنصر عليهم .

وقوله : ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب ؛ أي هذا الذي سألتم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به الرسول ﷺ من لزوم المكان الذي عيّنه لهم ، وعدم مفارقتهم له على كل حال .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُم ﴾ خروجهم من المدينة ، وقيل : هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل» . اهـ .

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله :

« لقد كتب الله عز وجل على نفسه النصر لأوليائه حملة رايته ، وأصحاب عقيدته ، ولكن علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم ، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم ، وسلوكهم ، وباستكمال العدة التي في طاقتهم ، وبذل الجهد الذي في وسعهم ، فهذه سنة الله ، وسنة الله لا تحابي أحداً.

فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور ، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير ؛ فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن ، وإبطال النواميس ؛ فإنما هم مسلمون ؛ لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس .

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدراً ، كذلك ، ولا يضيع هباءً ؛ فإن استسلامهم لله وحملهم الراية وعزمهم على طاعته ، والتزام منهجه - من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيراً وبركة في النهاية ، بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح ، وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروساً وتجارب تزيد من نقاء العقيدة ، وتمحيص القلوب ، وتطهير الصفوف، وتؤهل للنصر الموعود ، تنتهي بالخير والبركة ، ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته ، بل تمدهم بزاد الطريق ، مهما يمسهم من القرح والألم والضيق أثناء الطريق .

وبهذا الوضوح والصراحة معاً يأخذ الله الجماعة المسلمة ، وهو يرد على تساؤلها ودهشتها مما وقع ، ويكشف عن السبب القريب من أفعالها : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ ، أنفسكم هي التي تخلخلت وفشلت وتنازعت في الأمر ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ فأنفسكم هي التي أخلت بشرط الله وشرط رسوله ﷺ ، وأنفسكم هي التي خالجها الهواجس والأطماع ، وأنفسكم هي التي عصت أمر رسول الله ﷺ ﴿ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ ؛ فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم وتقولون : كيف هذا ؟ ، هو من عند أنفسكم بانطباق سنن الله عز وجل عليكم حين عرضتم أنفسكم لها » اهـ

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، ومعنى هذه الآية من الوضوح بحيث لا يحتاج معه إلى توضيح وتفسير .

ويقول الله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية :

« يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ » [الرعد : ١١] اهـ .

وقال صاحب الظلال رحمه الله حول نفس هذه الآية :

« إنه من جانب يقرر عدل الله عز وجل في معاملة العباد ، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختيار ، من النعمة التي لم يقدروها ويشكروها .

ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري ، عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ، ويحصل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم ، وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم ، ومن جانب ثالث يلقي تبعة عظيمة ـ تقابل التكريم العظيم ـ على هذا الكائن ، فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه ، ويملك أن يزاد عليها إذا هو عرف فشكر ، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر وانحرفت نواياه ، فانحرفت خطاه » اهـ.

❋ ❋ ❋

أهمية الموضوع

ومن هذا الاستعراض العام لمفهوم هذه الآيات يتبين لنا خطورة العوائق الداخلية في أنفسنا ، والتي لها دور كبير في حصول المصائب الفردية والجماعية ، فنحن المسلمين اليوم كثيراً ما نلقي أسباب هزائمنا وتأخرنا عن غيرنا على العوائق الخارجية كالغزو الفكري ، وكيد الكفار والمفسدين .

ولا شك أن للعوائق الخارجية دوراً في مصائبنا ، لكنها لم تكن لتؤدي دورها لو أصلحنا ما بأنفسنا ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ [آل عمران : ١٢٠] ، فما كان لكيد الأعداء الخارجيين أثر لو صبرنا واتقينا الله عز وجل وحاربنا عدونا الداخلي الذي بين جوارحنا ، كما قال أحد الدعاة ـ رحمه الله تعالى ـ تلك المقولة الحكيمة : « أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم في أرضكم » .

إن الاهتمام بإزالة العوائق الداخلية ، جزء أساسي من اهتمامنا بتوفير شروط الانتصار على العوائق الخارجية ، التي تحاول منع تحركنا نحو أهدافنا .

إننا معشر الدعاة كثيراً ما ننسى أنفسنا ، ونحن ندعو الناس ؛ حيث نجعل أكثر همنا في الآخرين ، والتفتيش عن عيوبهم ونقدهم ، وفي هذه الزحمة ينسى أو يتناسى الإنسان نفسه ، وما فيها من الأمراض والمخالفات التي قد تفتك به في يوم من الأيام ، وإن نسيان النفس والحرص على إصلاحها والوقوف على سيئاتها ، علامة خطيرة يخشى على صاحبها أن يقع

تحت قوله تعالى : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر : ١٩].

وعندما نطرح مثل هذا الموضوع ؛ فإننا نحتاج في ذلك إلى قومة لله عزوجل صادقة ، ووقفة شجاعة مع أنفسنا ، لنفتش وننقب في أعمالنا الظاهرة والباطنة ، وسنجد وللأسف ـ كما سيتبين ـ أشياء وأشياء ، لولا ستر الله عز وجل ورحمته لما قبل الناس منا كلمة واحدة .

وقبل أن نستعرض هذه الأمراض والمثالب الموجودة في حياة بعضنا ، أنبه إلى ملاحظة مهمة : وهي أن ننتبه لخطر الشيطان ومداخله ونحن نطرح مثل هذه المواضيع ؛ لئلا يدخل علينا مدخلاً آخر فيزيد الطين بلة كما يقال .

وذلك لأنه قد نجد بعد طرح هذه المخاطر أننا أو بعضنا واقعون في بعضها أو أكثرها ، وهنا ينبغي ألا ندع للشيطان فرصة ولا مدخلاً علينا ليحطم نفوسنا ، ويبث اليأس فيها محاولاً القضاء على ما فيها من خير بقوله لمن هذه حاله : أنت لست على مستوى الدعوة ، ولا على مستوى من يدعو إلى الله ، ويمثل الإسلام ، وأنت منافق ، وأنت وأنت . . . فيزداد بذلك انحرافاً ، وبعداً عن الخير ، وأهله . فالحذر الحذر من هذا المزلق والمدخل الخطير .

والمقصود من طرح هذا الموضوع هو تنبيه الغافل ، وتذكير الناسي إلى ضرورة الرجوع إلى النفس ، ومحاسبتها وتفقدها ، وأن نتذكر أثر الخلل الداخلي في مصائبنا أفراداً وجماعات ، لعلنا نقوم من عثرتنا ، ونصلح فساد قلوبنا وأخلاقنا .

وبداية العلاج اكتشاف المرض والشعور بوجوده . والشعور بالمرض

مصيبة ، ولكن أعظم من ذلك أن يكون موجوداً ولا يشعر بوجوده ، أو يشعر به لكنه يسلك بها سبيلاً ، يوحي إلى نفسه ومن حوله أن ما هو عليه كياسة وفطنة ، وقد يتعسف ببعض الأدلة لتبرير حاله المتردية .

إذن يصبح الخطب غير خطير إذا اكتشف الإنسان هذه الأمراض من نفسه في وقت مبكر ، واعترف بها ، ولم يحاول تسويغها ؛ لأن العلاج يبدأ من معرفة الداء ، والله المستعان .

وما ستتعرض له في هذه الدراسة هو بعض ما توصل له الذهن من العوائق الداخلية ، رآها الكاتب واستقرأها من نفسه أو ممن حوله من دعاة المسلمين ، ويمكن تلخيص هذه الأمراض والعوائق فيما يلي :

١ـ مساوئ القلوب وأمراضها :

إن أمراض القلوب لتعتبر أخطر الأمراض ، وأشنعها على الإطلاق ، وما ذاك إلا لأن القلب هو سيد الأعضاء ؛ فبصلاحه تصلح سائر الأعضاء ، وبفساده يحصل الفساد للجميع ، وهذا معنى قوله ﷺ : « **ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب** »[١] .

فبصلاح القلب تصلح النيات والمقاصد ، وتصلح العين فلا تنظر إلا في مرضات الله عز وجل ، وتصلح الأذن فلا تسمع إلا ما يرضي الله عز وجل ، ويصلح اللسان فلا ينطق ولا ينفلت إلا بما فيه مرضات الله عز وجل ، وتصلح اليد فلا تبطش إلا فيما يحبه الله عز وجل ، وتصلح الرجل فلا

(١) متفق عليه .

تخطو إلا إلى ما يرضي الله عز وجل ، وبالجملة يصلح كل كيان الإنسان ؛ ظاهره وباطنه ، فلا يتحرك إلا في نور الله عز وجل ، وبنور الله عز وجل .

وإن هذا القلب ـ على عظم شأنه ـ كثيراً ما ننساه ، ونتشاغل بغيره من الأعمال الظاهرة ، ومع أن هذا مطلوب إلا أنه لابد أن يكون لأعمال الجوارح أصل ومنطلق إيماني قلبي ، وهذا واضح من تعريف الإيمان عند أهل السنة ؛ فهو قول وعمل ؛ قول القلب وعمله ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح ، ومع أنه لا ينبغي أن يطغى اهتمام شيء على شيء ، إلا أنه ينبغي أن نعطي لأعمال القلوب اهتماماً خاصاً باعتبارها الأصل الأصيل في كل الأعمال .

والمقصود أن هناك تفريطاً في التفتيش عن القلوب وأمراضها ودسائسها ، في الوقت الذي نجد من أصيب ببعض هذه الأمراض قد حافظ على الأعمال الظاهرة ، وتورع عن بعض الصغائر والمشتبهات ، ويحسب أن الذي ينقصه هو هذه فقط ، وما درى المسكين أن لديه في قلبه من الأمراض ما يوجب عليه التورع منها ، وتقديم معالجتها على غيرها .

ولا يعني هذا أن يترك المسلم الورع في الصغائر والمشتبهات ؛ كلا ، فهذا شيء طيب ، ولكن الذي أردنا التنبيه إليه هو أن هذا الذي يتورع عن شيء صغير ـ قد يكون من الأمور المباحة ، ويتصور أن هذا ما ينقصه فحسب ـ قد فرط في واجب صريح ، أو ارتكب عملاً محرماً صريحاً .

ونظراً لأهمية هذه المسألة أنقل كلاماً نفيساً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يتعلق بهذا الموضوع ، أو قريباً منه ؛ حيث يتحدث عن غلط بعض الناس في فهم الورع ، فقال :

« . . . لكن يقع الغلط في الورع على ثلاث جهات :

أحدها : اعتقاد كثير من الناس أنه من باب الترك ، فلا يرون الورع إلا في ترك الحرام ، لا في أداء الواجب ، وهذا ما ابتلي به كثير من المتدينة المتورعة ، ترى أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة ، وعن الدرهم فيه شبهة لكونه من مال ظالم ، أو معاملة فاسدة ، ويتورع عن الركون إلى الظلمة من أجل البدع في الدين ، وذوي الفجور في الدنيا ، ومع هذا يترك أموراً واجبة عليه ؛ إما عيناً أو كفاية وقد تعينت عليه ، من : صلة رحم ، وحق جار ، ومسكين ، وصاحب ، ويتيم ، وابن سبيل ، وحق مسلم ، وذي سلطان ، وذي علم ، وعن أمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وعن الجهاد في سبيل الله . . . إلى غير ذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم مما وجب عليه . أو يفعل ذلك لا على وجه العبادة لله تعالى ؛ بل من جهة التكليف ونحو ذلك »[١] اهـ .

وقال رحمه الله تعالى حول المسألة أيضاً :

« وتمام الورع أن يتعلم الإنسان خير الخيرين ، وشر الشرين ، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد ، وتقليلها ، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية ، والمفسدة الشرعية ؛ فقد يدع واجبات ، ويفعل محرمات ، ويرى ذلك من الورع ، كمن يدع الجمعة والجماعات خلف الأئمة الذين فيهم بدعة ، أو فجور ، ويرى ذلك من الورع ، ويمتنع من قبول شهادة الصادق ، وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفيفة ، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع »[٢] اهـ .

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠/ ١٣٩).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ٥١٢).

إذن فالاهتمام بتقوى الله عز وجل وابتغاء مرضاته في العمل هو الذي ينبغي أن يُحرص عليه أشد من حرصنا على العمل نفسه ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧] .

وعلى هذا ؛ فأعمالنا القلبية من أهم الأمور التي يجب أن نعتني بها ونلتفت إليها ولا ننساها ؛ لأن نسيان هذا الأمر يفرز رجالاً يحسنون الحديث عن الإسلام ، ويجيدون الوعظ والتدريس والخطابة ، ويظهرون الحرقة على هذا الدين حتى يخيل للسامع أنهم عمالقة مجاهدون صادقون ، وهم ليسوا كذلك ، وقد يوجد هذا الصنف من الناس في طبقات المؤلفين الكتاب ، فكم رأينا رجالاً ظننا أنهم أصحاب تضحيات وهمم عالية ، وذلك من خلال ما يقرأ لهم من مؤلفات ، لكن ما أن يقع البصر عليهم ، ويحصل الاحتكاك والمصاحبة لهم حتى يتبين شيء آخر يناقض ما تخيله المتخيل عنهم قبل رؤيتهم . وهنا مكمن الخطر ؛ أن يوجد داعية ما ، يعجب الناس بدعوته ، ويكبر في أعينهم مع أن في قلبه من الأمراض ما لا يعلمه الناس ، والله به عليم . نسأل الله عز وجل أن يصلح فساد قلوبنا .

وتزداد خطورة هذا الأمر عندما نتذكر قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه نذكر منه الشاهد هنا وهو قول الرسول ﷺ : « **إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ، فيما يبدو للناس ، وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، فيما يبدو للناس ، وهو من أهل الجنة** »[1] .

ومناسبة هذا الحديث لموضوعنا قوله ﷺ : « **فيما يبدو للناس** » ؛ فقد يبدو للناس عن شخص ما أنه من أهل الجنة ، فيما يظهر لهم من أعماله الصالحة ، ودعوته ، ووعظه ، فيغبطه الناس على ذلك ، ولكن قد يكون

(١) رواه البخاري في الجهاد (٢٨٩٨)، ومسلم في الإيمان (١١٢).

في قلب هذا الرجل دسيسة من شبهة أوشهوة لا يعلمها الناس ، ولكن يعلمها علام الغيوب، وقد يعلم بها صاحبها لكنه يتغافل عنها ، أو يبررها ، وقد لا يحس بها أصلاً إلا إذا فتش ونقب ، ومن هنا تتبين خطورة هذه الدسائس القلبية الخفية ، وما قد تؤدي إليه من خاتمة مأساوية ، وكل مأساة تهون عند مأساة النار والعياذ بالله .

فيا أخوة الإيمان ؛ لنفتش في قلوبنا عن هذه الأمراض قبل فوات الأوان، ولا نتصور أننا بريئون منها ، أو أن غيرنا هم الواقعون فيها ، ولكي يتضح هذا الأمر بصورة جلية نذكر بعض الأمراض القلبية والتي لا يسلم منها إلا من رحم الله :

أ ـ **مرض الحسد** :

هذا المرض العضال الذي قل من يسلم منه ، لكن بين مقل منه ومكثر . هذا المرض الذي يتصور أحدنا أنه مُعافى منه، لكن ما أن يمر به موقف يتطلب منه سلامة القلب، وحب الخير للغير حتى يكتشف هذا المرض من نفسه .

والحسد : هو تمني زوال النعمة عن صاحبها ، أو هو كراهية نعمة الله على الغير ، ولو لم يتمن زوالها .

فإذا أنعم الله عز وجل على أحد المسلمين بنعمة من مال، أو منصب، أو زوجة، أو أولاد، أو غير ذلك من متاع الدنيا ،أو كانت النعمة دينية؛ كطلب علم ، وعبادة ، ودعوة . . . إلخ . فليتفقد أحدنا قلبه تجاه من أنعم الله عز وجل عليه بإحدى هذه النعم؛ أيجد في قلبه شعور الارتياح والفرح، أم إنه يجد عكس ذلك من الشعور بالغم، والانقباض ، والضيق لذلك ، ويتمنى أن لو لم تأته هذه النعم ؟ .

وقبل ذلك: ما هو الشعور لو زالت عنه هذه النعم؟ ؛أهو شعور الفرح، والغبطة ، والسرور ، والشماتة ، أو هو شعور المتألم لألمه ؟ ، فإن كان الأول فهو الحسد بعينه ، نعوذ بالله من ذلك .

إن هذا الموقف من المساءلة والمحاسبة للنفس لابد منه إذا أردنا معالجة أمراضها ، وعلينا أن نتحمل مسؤولية هذه المحاسبة ، ولو كان جوابها بالاعتراف بوجود هذه الأمراض ؛ لأن بداية العلاج كما سبق أن ذكرنا هي اكتشاف الداء. وأخطر من المرض نفسه أن يكون موجوداً ولا نحس بوجوده.

ومعلوم أن الغل ، والحقد ، والشحناء ، والبغضاء كل أولئك ثمرة من ثمار الحسد ، ومعارضة لعلم الله عز وجل وحكمته وقدرته .

وليس أروح وأسعد للمسلم ،ولا أطرد لهمومه من أن يعيش سليم القلب مبرأ من وساوس الضغينة والأحقاد ؛ لا تراه إلا ويحب الخير للمسلمين . وما أسرع ما يتسرب الإيمان من القلب الغشوش ، وعند ذلك لا يكون في أداء العبادة لذة ، ولا خير ، ولا تستفيد منها النفس تقوى ولا عصمة .

وأتوجه بهذه المناسبة بنصيحتي إلى نفسي وإخواني الدعاة أن يصلحوا ذات بينهم ، ويزيلوا الشحناء من نفوسهم ، وأن يتعلموا أن نعم الله عز وجل ورحمته لا ينزلان على قلوب متنافرة ومتباغضة، قال رسول الله ﷺ : « **ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟**» قالوا: بلى ، قال : « **إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هو الحالقة ؛ لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين** »[1] .

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١١). والحديث في صحيح سنن أبي داود (٤١١١).

وقال ﷺ : « **لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخواناً** »[١] .

وقال ﷺ : « **تعرض الأعمال كل اثنين وخميس ؛ فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً إلا امرؤ كانت بينه وبين أخيه شحناء ؛ فيقول اتركوا هذين حتى يصطلحا** »[٢] .

وهناك رذائل كثيرة حذر منها الإسلام ، تختلف في مظاهرها ، لكنها تعود إلى علة الحسد والحقد ؛ فالكذب والافتراء على الأبرياء ، وقول الزور ، والغيبة والنميمة . . . إلخ كلها رذائل ذات مصدر واحد ، لذلك إذا أردنا التخلص من هذه الرذائل وغيرها فعلينا إصلاح قلوبنا ، فبذلك تصلح شؤوننا كلها ، ويكون لدعوتنا حينئذ دور وأثر في حياة الناس ، وإلا فما قيمة أن ندعو الناس لترك الحسد والغش والشحناء ونحن بدورنا لم نعالج نفوسنا منه ؟ ! ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ [هود : ٨٨] .

ب ـ أمراض الشرك الخفي :

كالنفاق ، والرياء ، والعجب ، والكبر ، والغرور ، وحب الشهرة والظهور ، كل هذه الأمراض الفتاكة يكفي أن نفتش عنها وعن أشكالها الكثيرة في حياتنا ؛ لنتعرف على مدى كثرة أو قلة هذه الأمراض في قلوبنا ، وهي من الوضوح في حرمتها وخستها ، وشدة فتكها ؛ بحيث لا نطيل ونفصل فيها ، ولأن المقام مقام إشارة ، والحر تكفيه الإشارة ، ويكفي في هذا المقام أن نتعرف على معنى قوله : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

قال صاحب الظلال رحمه الله تعالى :

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٤)، ومسلم في البر (٢٥٦٣) .

(٢) رواه مسلم في البر (٢٥٦٥) .

« وحتى الذين يؤمنون، كثير منهم يتدسس الشرك - في صورة من صوره - إلى قلوبهم ؛ فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفي عن القلب أولاً بأول كل خالجة شيطانية ، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف ، لتكون كلها لله ، خالصة له دون سواه ، والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب، وعلى التصرف والسلوك ، فلا تبقى في القلب دينونة إلا لله سبحانه ، ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد .

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ . . . مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث ، والأشياء ، والأشخاص . مشركون سبباً من الأسباب مع قدرة الله ، في النفع ، أو الضر سواء . مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه . مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق . مشركون في تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ، ولكن لغير الله. مشركون في عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله .

لذلك يقول رسول الله ﷺ : « **الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل**»[(١)]، وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي :

روى الترمذي - وحسنه - من رواية ابن عمر : «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[(٢)] وروى الإمام أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الرقى والتمائم والتولة شرك** »[(٣)] .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر، قال : قال

(١) رواه أبو يعلى (٥٨)، (٥٩)، (٦٠)، (٦١) . والحديث في صحيح الجامع (٣٧٣١).
(٢) رواه الترمذي الأيمان والنذور (١٥٣٥)، والحاكم (١/ ١٨) وصححه.
(٣) رواه أبو داود في الطب (٣٨٨٣)، وابن ماجه في الطب (٣٥٣٠)، وأحمد (١/ ٣٨١).

رسول الله ﷺ : « **من علّق تميمة فقد أشرك** »[١].

وعن أبي هريرة ـ بإسناده ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه** »[٢].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك** »[٣] .

وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ، قال : « **الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا ؛ هل تجدون عندهم من جزاء ؟** »[٤] .

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان .

وهناك الشرك الواضح الظاهر ، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة ، الدينونة في شرع يتحاكم إليه ـ وهو نص في الشرك لا يجادَل عليه ـ والدينونة في تقليد من التقاليد ؛ كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله ، والدينونة في زيّ من الأزياء يخالف ما أمر الله به من

(١) رواه أحمد (٤/ ١٥٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (٤٩٢).

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٨٩٥).

(٣) رواه الترمذي في التفسير (٣١٥٢)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٣)، وأحمد (٣/ ٤٦٦) (٤/ ٢١٥). وفي صحيح ابن ماجه: حسن (٣٣٨٨).

(٤) رواه أحمد (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، وهو في السلسلة الصحيحة (٩٥١).

الستر، ويكشف أو يحدد العورات التي نصت شريعة الله أن تستر.

والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة، حين يكون طاعة وخضوعاً ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد، وتركاً للأمر الواضح الصادر من رب العبيد.. إنه عندئذ لا يكون ذنباً، ولكنه يكون شركاً؛ لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله.. وهو من هذه الناحية أمر خطير..، ومن ثم يقول الله: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾»[1] اهـ.

جـ ـ شهوة الدنيا والركون إليها:

إن هذا المرض يعتبر من أخطر الأمراض التي بدأت تسري في حياتنا، وحياة كثير من الدعاة إلى الله عز وجل وبأشكال كثيرة وأودية متشعبة قد لا يشعر بها، أو يشعر بها، ولكنها من الثقل بحيث يصعب التغلب عليها.

وعلى أية حال؛ فحب الدنيا، والسعي وراءها، وامتلاء القلب بها، واستحواذها على همنا وتفكيرنا، هو الواقع المر الذي يجب أن نعترف به إلا من رحم الله.

ولو وازن أحدنا بين هم الدنيا والحيز الذي تشغله من قلبه وتفكيره، وبين هم الآخرة، وهم هذا الدين لوجد أن البون شاسع والفرق كبير، ولوجد أن الدعوة وأمر هذا الدين يظهر على اللسان والأعمال الظاهرة، أما القلوب؛ فلم يشغل منها إلا القليل، وإنما الهم الأكبر فهو لهذه الدنيا ومتاعها الزائل؛ كل حسب اهتمامه وواديه الذي ذهب فيه من وديانها وشعابها التي ذكر الله عز وجل أهمها في سورة آل عمران بقوله: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ**

(١) في ظلال القرآن عند الآية ١٠٦ من سورة يوسف (باختصار).

الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى في سورة التوبة: **﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** [التوبة: ٢٤].

وإن هذا المرض تشتد بشاعته عند أولئك الذين تصدروا للدعوة وقيادة المسلمين، وتوجيههم، فبالله العظيم كيف يمكن لمن ملأت الدنيا قلبه أن يدعو الناس إلى الآخرة؟! أو يتصدر الدعاة إلى الله عز وجل وقيادتهم، وإن وجود هذه الشهوة في قلوب الدعاة إلى الله عز وجل من أكبر العوائق التي تعوق الدعوة عن تحقيق أهدافها؛ بل تؤخرها إلى الوراء إن لم تقض عليها.

إن مرض إيثار العاجلة على الآخرة يكاد أن يطم على حياة كثير من الدعاة؛ حيث نجد أن الكثرة الكاثرة في حقل الدعوة إلى الله عز وجل تحصر انتماءها إلى الدعوة في إلقاء خطبة، أو موعظة، أو حضور جلسة، أو درس أسبوعي أو شهري ثم ينصرف من ذلك بقلبه وقالبه إلى أعمال الدنيا، والتمتع بملذاتها، ومساكنها، ومراكبها، ويتوسع في ذلك بشكل يوحي إلى المتأمل فيمن هذه حاله أنه سيخلد في هذه الدنيا، وأن ليس له ما يشغل ذهنه إلا متاعها الزائل.

أما أن يسهم في دفع الغالي والنفيس في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل ومرضاته، والجهاد في سبيله، فأحسب أن هذا الصنف من الدعاة قليل في هذا العصر، وصدق الرسول ﷺ: « **إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة** »[١].

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٧).

ولا يفهم من هذا الكلام الامتناع عما أحل الله من الطيبات أو الامتناع عن التجارة ،والوظيفة ، بل كل ذلك محمود ما دامت التجارة أو الوظيفة لا تطغى على الدعوة ، وما دام الداعية يستفيد من ذلك كله في دعوته ، والتقديم لآخرته . أما أن تطغى الوظيفة والتجارة ، والدنيا بشكل عام ، على الدعوة ، والاهتمامات العالية ، ويبدأ الداعية يعيش حياة التجار في ترف ، وتنعم ورفاه ، فهذا هو المذموم ، وهذا هو الذي بدأ ينتشر في حياة الدعاة اليوم ، وهنا بداية الانزلاق ، وبالذات إذا كان الداعية رأساً وموجهاً في حقل الدعوة إلى الله عز وجل .

فلنتصور داعية وموجهاً يقود دعوة ، ويعتبر موجهاً لها ، ثم هو في نفس الوقت نراه من تجار الدنيا ، يبيع ويشتري ، ويشغل جسمه في النهار ، وفكره في الليل بهذه الدنيا ومتاعها ؛ إنه لا يمكن تصور ذلك أبداً ؛ فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

ومثل ذلك ، هذا الداعية الموظف الذي أخذت عليه وظيفته كل وقته ؛ عملاً رسمياً في نصف النهار الأول ، ثم إضافياً في آخره ، فأين ومتى وقت الدعوة والعمل في سبيل الله عز وجل؟ ، اللهم إلا ما تبقى من الوقت في الليل ، فيأتيه وهو كال الذهن ، متعب الجسد ، ويعزي نفسه بذلك ، ثم يدور الوقت هكذا ، وينصرم العمر القصير ، والهم الأكبر هو متاع الدنيا وزخرفها الفاني . والله المستعان .

أيها الإخوة في الله :

يجب أن نلتفت إلى قلوبنا ، وأن نتحسس هذه الأمراض فيها ، وكيف نعالجها . يجب أن يسأل كل منا نفسه : كم من الأقوال والأعمال التي كان يدعو الناس إليها وهي تخالف ما في قلبه ؟ ، يجب أن نحذر من قوله

تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] ، في الوقت الذي يتصور الناس عن هذا الداعية أنه من أحسن الدعاة خلقاً وعبادة ، والحالة ليست كذلك ؛ فالقلوب القلوب ! ؛ عناية وإصلاحاً ومعالجة أمراضها التي تعد أخطر الأمراض وأشدها فتكًا .

والآن وبعد الحديث عن أصل المثالب والمساوئ وهي القلوب ، نستعرض بعض المثالب السلوكية ، التي يكثر انتشارها في أوساط الطيبين من الدعاة ، فضلاً عن عامة الناس ودهمائهم .

٢ـ المخالفات في الهدي الظاهر :

يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

والتأسي بالرسول ﷺ يشمل شئون حياته كلها وأحواله كلها الظاهرة والباطنة ، وأول من يخاطب بهذا التوجيه الدعاة إلى الله عز وجل ، والذين هم بدورهم يوجهون الناس إلى العمل بمقتضى هذه الآية .

ولكن مع ذلك في حياتنا كثير من التساهل في التأسي به ﷺ ، فمن هذه المخالفات في الهدي الظاهر : التساهل في إعفاء اللحية وإكرامها ، أو قص الشارب أو حفه أو في بقية خصال الفطرة ، وكذلك في اللباس والهيئة ، والمسكن ، والمأكل ، والمركب . . . إلخ .

كل هذه الأمور قد يحصل التساهل فيها ، ويقع البعض في الإسراف المحرم ، والمخيلة ، وحب الشهرة ، وليس هنا موضع التفصيل وضرب الأمثلة ؛ فكل إنسان أعلم بنفسه وحاله .

وقد نجد من يقول عند الحديث حول هذه المخالفات : إنها من القشور ،

وينبغي أن نهتم باللب . . . إلخ .

وهذا القول في نظري خاطئ ، ومنحرف ، وغريب على معنى الاستسلام لله عز وجل وشرعه ،فليس في الدين قشور ولباب ، وإنما هو لحمة واحدة ، والاستسلام لله عز وجل في الصغير كالاستسلام له في الكبير .

يقول تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [البقرة: ٢٠٨] .

٣ـ منكرات البيوت :

يوجد من الدعاة إلى الله عز وجل من يتساهل في أمور البيوت ، ومقتنياتها ، فلا يحكم فيها بشرع الله عز وجل ، وهو الداعية المتصدر لإرشاد الناس وتوجيههم .

* فنجد مثلاً من يتساهل في إبقاء التلفاز مع ما فيه من شر مستطير ، وإثم كبير يغضب رب العالمين ، فبالله كيف يقدم على ذلك داعية يخاف حساب الله عز وجل ويرجو ثوابه ، ويريد هداية الناس .

كيف يطاوع نفسه الأمارة ، أو يطاوع أهله وأولاده في الإبقاء على هذا المنكر ؟ ثم بعد ذلك يدعو الناس ويرشدهم ، بل كيف سيقبل الناس دعوة من يناقض نفسه بنفسه ؟ .

والأخطر من ذلك تضليل الناس ودهمائهم ، وتحبيب هذا المنكر لهم بحجة التأسي بهذا الداعية ، ولو كان منكراً لما أبقاه فلان وفلان من الدعاة وطلبة العلم !! .

* **ومن منكرات البيوت أيضاً** : والتي يحصل التساهل والترخص فيها وجود الخدم الأجانب والخادمات الأجنبيات الحرائر ، ووجود السائقين الذي يخلون بالمحارم من البنات والأخوات والزوجات ، ومعلوم ما في هذا من المخالفة لشرع الله جهاراً نهاراً ، وكل هذه المنكرات لا تحتاج إلى مناقشة وتدليل على حرمتها لوضوح ذلك وبيانه، ومع ذلك يحصل الترخص من بعض الطيبين في ذلك ، ويرضخ للأمر الواقع على حد زعمهم ، وتنتشر مثل هذه المخالفات في البيئات المترفة المنعمة دون التقيد بالضوابط الشرعية في ذلك .

* **ومن منكرات البيوت أيضاً** : التساهل في صور ذوات الأرواح حتى أصبح ذلك الأمر طبيعياً في حياة الناس - دعاتهم وعوامهم - إلا من رحم الله، ويتمثل ذلك في إدخال المجلات المصورة ومجلات الأزياء والمجلات النسائية . . . إلخ ، بحجج واهية لا تسمن ولا تغني من جوع .

* **ومن منكرات البيوت أيضاً** : التساهل في حشمة النساء داخل المنزل، خاصة إذا وجد أكثر من عائلة ، وكان هناك مجال للاختلاط ، كما يحصل نوع من التبرج المقصود أو غير المقصود عند الخروج من المنزل ، كما أن هناك من يترخص ويتوسع في أدوات الزينة والتجميل ؛ مما قد يكون بعضه محرماً ، وولي الأمر في غفلة من هذا ، أو في تغافل عنه .

٤ـ إهمال تربية الأهل والأولاد :

يقول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم : ٦] .

وهذه الفقرة متعلقة أو مرتبطة بما قبلها ؛ بل إن الملاحظة السابقة ثمرة من ثمار الإهمال والتساهل في تربية الأهل والأولاد ، ومعلوم أن أولى الناس بالمعروف والدعوة، هم أهل الإنسان وخاصته، ولكن ـ وللأسف ـ نجد التساهل الشديد في هذا الأمر عند الكثير منا .

ومن مظاهر هذا التساهل ؛ أن نرى الداعية نشيطاً ومتحركاً في الخارج ، في جميع المجالات ، بينما لا ينعم أهله ومن استرعاه الله عليهم برؤيته إلا قليلاً، وتراهم يجهلون كثيراً من أحكام الدين الأساسية ، وقد يقعون في بعض المحظورات والمنهيات ، فلا يهتم بهم ولا يأمرهم وينهاهم ، بل لا يتفقد أحوالهم ليعلم وقوعها منهم؛ لأنه لا يجد الوقت الذي يجلس معهم فيه ليعلمهم ويربيهم .

أليس من المؤسف له أن يوجد في بيوت كثير من الدعاة من الأهل والأولاد من لا يعرف كيف يتوضأ أو كيف يصلي؟ أو يجهلون أحكام الصيام وكثيراً من فروض العين الواجب على كل مسلم بعينه أن يتعلمها ؟ ؛ قال رسول الله ﷺ : « **كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ؛ فالإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته** ، **والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها** ، **والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته** » قال الرواي وهو عبد الله بن عمر : فسمعت هؤلاء من النبي ﷺ ، وأحسب النبي ﷺ قال :« **والرجل في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته ؛ فكلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته** »[1] .

وهناك معالجات خاطئة لحقوق الزوجة والأولاد بين الإفراط والتفريط ؛

(١) متفق عليه .

فقد يوجد من يهمل أهله ، وبيته بحجة الدعوة إلى الله عز وجل ، والتضحية في سبيله، كما يوجد في الطرف الثاني من يهمل أمور الدعوة ، وطلب العلم والجهاد ،بحجة حقوق الزوجة والأولاد ؛ فلا تجده إلا وهو يدور في فلكهم وطلباتهم ، والموفق من وفقه الله عز وجل في هذا الأمر وبأن أعطي كل ذي حق حقه ، والوسطية سمة من سمات هذا الدين العظيم.

٥- التفريط في حقوق الوالدين وصلة الأرحام وحقوق الجار :

قال الله تعالى : ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا** ﴾ [النساء: ٣٦].

إن هذه الحقوق قد تساهل فيها كثير من الطيبين، مع المعرفة بها وبفرضيتها ، وبالذات حقوق الوالدين التي تأتي بعد الأمر بتوحيد الله عزوجل ، وما بعد الشرك بالله عز وجل ذنب أشد من عقوق الوالدين ، ومع ذلك فهناك تفريط في هذا الحق ، وبالأخص حق الأم ، والمقام هنا ليس مقام تفصيل وتدليل ؛ إنما المراد التذكير والإشارة إلى ضرورة الانتباه إلى هذا الواجب العظيم ، وألا يفرط فيه بحجة أو بأخرى .

ومن أمثلة التساهل في هذه الحقوق التقصير في خدمة الوالدين ، وتلبية طلباتهم ، وتقديم النوافل على طاعتهم الواجبة ، ومن ذلك أيضاً عدم التلطف معهم ، وخفض الجناح لهم والصبر عليهم ، وتفقد أحوالهم ، وما يطرأ عليهم في الكبر ،وتقديم رضا الآخرين عليهم . . . إلخ .

وهناك أمثلة أخرى من التفريط لا يتسع لها المقام ، وكل هذا مع الأسف

يصدر من بعض الدعاة الذين يحضون في دعوتهم على بر الوالدين ، والقيام بحقوقهم ، فليت شعري كيف يستقيم الظل والعود أعوج !!

ومن الحقوق المتساهل فيها أيضاً : حقوق الأقارب ، وصلة الأرحام ، وعدم زيارتهم ومواساتهم ، وتفقد أحوالهم ، وخدمتهم عند الحاجة ، وذلك من الأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات ونحوهم.

ومن الحقوق التي يحصل التفريط فيها أيضاً: حقوق الجار، وعدم الإحسان إليه ، بل يتعدى الأمر إلى الإيذاء والمضايقة والهجران .

٦- التساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

هناك من الدعاة من يهون من شأن هذا الأمر ، وأنه ترقيع وتضييع للجهود ، ومعلوم ما في هذا القول من خطر ، وفتح الباب للفساد ، وترك المفسدين ليفسدوا في الأرض ، والله تعالى يقول : ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فياليت أن مثل هذا الصنف من الناس لهم جهود أخرى في الدعوة والتعليم والتوجيه، ليعذروا في تركهم هذا الواجب العظيم ، ويا ليتهم إذ عجزوا عن هذه الشعيرة العظيمة تركوا غيرهم ليسدها .

٧- التساهل في صلاة الجماعة :

ويظهر ذلك في التأخر عنها وعدم التبكير لها ، وإدراك الصف الأول ، وتكبيرة الإحرام ، بل قد تفوت الصلاة كلها أو بعضها بغير عذر شرعي ، وخاصة صلاة الفجر والعصر ، واللتان هما من أفضل الصلوات ، بل إن ظاهرة تأخر الطيبين عن الصلاة بدأت تلاحظ في كثير من المساجد ، وأصبح

بعض العوام يشهرون ويتندرون، بأن الذين يقضون بعد الصلاة ،من بينهم كثير من الطيبين الملتحين !!.

٨ـ التفريط في طلب العلم والتفقه في الدين :

يكتفي كثير من الطيبين بالتقليد ، والنتف من العلم : كالاكتفاء بالرسائل الصغيرة ، والأشرطة المسجلة،والخطب ، والمحاضرات ، وكل هذه الأمور طيبة ، وضرورية ، خاصة وتلك التي يغلب عليها الوعظ والتذكير ، أما الدروس العلمية والكتب العلمية المؤصلة فتضعف النفس إزاءها ، ولا يوجد الجلد والصبر على قراءتها وملازمة العلماء، رغم كثرة الكتب، وتوفرها وتفننها،ورغم توفر الدروس والعلماء وطلاب العلم ووجود الفراغ الذي لم يستثمر ، وإنما يضيع في ما لا ينفع في أكثر الأحيان، ومعلوم ما للعلم من دور كبير في معرفة الحق ، واستنارة الطريق ، والدعوة إلى الله عز وجل على بصيرة.

٩ـ آفات اللسان :

وهي كثيرة ومتنوعة ولا يكاد يخلو منها مسلم إلا من رحم الله تعالى ، وأعانه على نفسه وشيطانه ، فمن هذه الآفات :

* تساهل الكثير من الطيبين في صدق الحديث والوقوع في ضده؛ وهو الكذب والخداع والمراوغة ، وأكثر الأحيان لا يوجد مبرر لذلك . ومن المؤسف له أننا نعلم حرمة هذه المخالفات وعدم شرعيتها ، فكيف يتصور وقوع هذه المحرمات من دعاة يرجون النصر من الله عز وجل على أعدائهم؟!.

* ومن آفات اللسان أيضاً : الغيبة ، والنميمة ، واللمز ، والهمز،

واللغو ، والسخرية ، وكل هذه الآفات قد جاء الإسلام بتحريمها ، ومع ذلك يترخص الكثير فيها بمبرر أحياناً وبدون مبرر أحياناً كثيرة ، والجدير بالذكر هنا أنه لا ينقصنا معرفة حرمة هذه المنهيات ؛ فكم قرأنا في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسوله ﷺ عن التحذير منها ، ومع ذلك لم يحصل الارتداع والانتهاء ، فما السر في ذلك ؟ ! .

السر في ذلك - والله أعلم - هو ما ذكرته آنفاً في مقدمة الموضوع عن أمراض القلوب، وأنها أساس الأمراض كلها ، فما لم نصلح أمراض قلوبنا، ونطهرها من الحسد وحب الترفع عن الناس والكبر . . . إلخ ، فإنا لن نستطيع الإقلاع عن هذه المساوئ من الأخلاق ، مهما قرأنا وعلمنا ؛ فلا يصلح الغصن والجذر فاسد .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - كلام نفيس حول دوافع الغيبة، يرجعها إلى فساد القلوب، فتراه يقول رحمه الله تعالى (جـ٢٨ ص٢٣٦ - ٢٣٨) (باختصار) :

« * من الناس من يغتاب موافقةً لجلسائه وأصحابه وعشائره، مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون ، أو فيه بعض ما يقولون ، لكن يرى أنه لو أنكر عليهم لقطع المجلس ، واستثقله أهل المجلس ونفروا عنه .

* ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى : تارة في قالب ديانة وصلاح ، ويقول : ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير، ولا أحب الغيبة والكذب ، وإنما أخبركم بأحواله ، ويقول : والله إنه مسكين ورجل جيد ولكن فيه كيت وكيت ، وربما يقول : دعونا منه ، الله يغفر لنا وله ، وقصده من ذلك استنقاصه .

* ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة ؛ فيجمع بين أمرين قبيحين : الغيبة والحسد .

* ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسخر ولعب ؛ ليضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزأ به .

* ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب فيقول : تعجب من فلان كيف لا يفعل كيت وكيت ؟!، ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت؟!.

* ومنهم من يخرج الاغتمام ، فيقول : مسكين فلان غمني ما جرى له، وما تم له ، فيظن من سمعه أنه يغتم له ، ويتأسف ، وقلبه منطو على التشفي به ، ولو قدر لزاد على ما به .

* ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر وقصده غير ما أظهر »[1] اهـ باختصار.

* ومن آفات اللسان : الفحش والبذاءة في القول، خاصة عند الخصومة والجدال ، فقد يوجد داعية طيب حسن المعتقد ذو همة في دعوته ، ولكن ما إن يحصل بينه وبين أحد خصومة أو جدل ، حتى ينقلب إلى وحش كاسر قد اشتد غضبه، وارتفع صوته ، وسفه عقل مخاصمه ، وبالتالي يفجر في خصومته، والرسول ﷺ قد عد الفجور في الخصومة من خصال المنافق ، وبين لنا أن المؤمن ليس بالسباب ولا اللعان ، ولا الفاحش البذيء.

١٠ـ التفريط في غض البصر :

وهذه السيئة لا يكاد يخلو منها أحد إلا من رحم الله ، وجاهد نفسه

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ٢٣٦ـ٢٣٨).

وهواه. والناس فيها بين مقل ومكثر ؛ فالنظر إلى النساء الأجنبيات وإلى صورهن في الأفلام أو المجلات والصحف ؛ كل هذا قد جاءت الشريعة بتحريمه، إلا نظرة الفجاءة الأولى ، ويكفي في ذلك قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠].

والمطلوب منا في هذا الأمر أن نبذل أسباب الوقاية من ذلك ؛ فيجاهد المسلم نفسه ألا يعرض نفسه لمواطن النساء قدر ما يستطيع : كالأسواق والحدائق والمطارات والأسفار . . . إلخ، وأن يعمل جاهداً ـ كما سبق أن أشرنا إليه في منكرات البيوت ـ في منع دخول بيته المجلات والأفلام والصحف، التي تتخذ المرأة سلعة رخيصة للدعاية وجلب الأنظار ، والله المستعان .

١١ ـ الرضى من النفس بالدون :

يوجد من الطيبين من يحقر نفسه، حتى يحط من قدرها وهمتها ، وأنها ليست على مستوى طلاب العلم ، والدعاة إلى الله عز وجل ؛ وهذا مدخل شيطاني دقيق ؛ لأن الشيطان حريص على تخذيل الإنسان وتحطيم همته ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان: ٢٩].

فيجب أن ننتبه لهذا الأمر ، ونرتفع بأنفسنا إلى مستوى إسلامنا وإلى المهام العليا ، وفرق بين قوة النفس والهمة العالية وبين الغرور والعجب، كما أن هناك فرقاً بين التواضع المحمود وبين الدونية المقوتة ، ويكفي أن يكون قدوتنا في ذلك عباد الرحمن الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

فهم يسألون الله عز وجل أن يجعلهم أئمة وقادة وقدوة للمتقين، وليسوا

من المتقين فحسب ، فما أعظمها من همة .

١٢ـ السفر إلى بلاد الكفر والفساد لغير ضرورة:

ويقع في هذه المخالفة بعض الطيبين من الدعاة، بحجة السياحة واستطلاع أحوال الأعداء! ،وحضور بعض المنتديات أو المعارض والمؤتمرات ، التي لا تكافئ مصلحة حضورها المفسدة الناجمة عنها ؛ إذ إنها من باب الكماليات وليست من الضروريات ولا الحاجيات ، ومما يزيد الأمر سوءاً تساهل هؤلاء الطيبين باصطحاب أهليهم وأولادهم ، وهذا مما يزيد الطين بلة ؛ حيث يتحمل وزر نفسه ووزر من سافر معه ، والجميع يعرف ما في بلاد الكفر ، ودول الفساد من الفتن ، والمفاسد العظيمة التي تؤثر في الدين ، والأخلاق . والمسلم مطلوب منه أن يفر بدينه من الفتن لا أن يفر بدينه إلى الفتن .

١٣ـ التهوين من شأن العلماء والدعاة والحط من قدرهم :

ويصدر هذا العمل المشين من بعض الطيبين المتعجلين أو المتعصبين ، وذلك عندما يقع بعض العلماء أو الدعاة في بعض الأخطاء التي صدرت منهم اجتهاداً أو ضعفاً ؛ مما يؤدي إلى انتقادهم ، والتشهير بأخطائهم من قبل هؤلاء المتعصبين .

ومن المعلوم أن غيبة العلماء والتهوين من قدرهم ـ بسبب خطأ ارتكبوه ـ فيه فتنة وخطر كبير ؛ لأن أهل الشر والفساد يستغلون مثل ذلك للنيل من علماء الإسلام ، وتوهين الارتباط بينهم وبين عامة الناس ، وبالتالي فإن هذا يمهد للنيل من الإسلام نفسه .

وفرق بين النصيحة للعالم ومعالجة الخطأ الصادر منه ، وفهم المبررات والملابسات التي أدت إلى ذلك ، والاعتذار له بعد ذلك ؛ فرق بين هذا وبين التشهير به ، والنيل من عرضه ؛ فلحوم العلماء مسمومة (كما يقال) .

وعندما نذكر العلماء والدعاة في هذا الصدد نقصد أولئك العلماء المخلصين ؛ حيث إنهم صمام الأمان لأمتهم ، وإذا ذهب العلماء ، وذهبت هيبتهم ذهب الدين تبعاً لذلك . أما علماء السوء ، وكل منافق عليم اللسان ، فلا يدافع عنه ولا كرامة ؛ لأنه قد عرض نفسه للتهم والشبهات ، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .

والحديث عن العلماء يجرنا إلى الحديث عن الدعاة المخلصين ؛ حيث يوجد من يهون من شأنهم وجهدهم وتراثهم وفكرهم، لا لشيء إلا أنه خالفه في الأسلوب أو الطريقة أو أنه ليس من طائفته ، وفي هذا بخس للناس في أشيائهم ، وفيه لوثة الكبر والعجب . فكأن ليس في الساحة الدعوية إلا هو ومن حوله ، وليس من يؤلف ويكتب ويفهم الأمور إلا هو ، أما الآخرون فهم أقل من ذلك، وإن وجد من يؤلف أو يقوم بدور دعوي ، فإنه يغمض عينه عن ذلك ، أو يشكك في مقاصدهم . . إلى غير ذلك من الظلم والعدوان.

ولو كانت القلوب سليمة نقية لحصل العكس؛ ألا وهو الفرح بدعوة الدعاة الآخرين وجهودهم ؛ فالداعية المخلص يفرح بذلك ويرى أن الدعاة يكمل بعضهم بعضاً ، والداعية الصادق يذكر لأهل الفضل فضلهم وخيرهم وبلاءهم، والداعية الناصح يسعى لإقامة التعاون بين الدعاة ، ويسعى لوحدة الصف.واجتماع الكلمة ،وإن تعذر فلا أقل من أن يحب بعضهم

بعضاً ، وأن يثني بعضهم على ما يرى عند البعض من خير ، وسلامة منهج، ونظافة سلوك ، وهذا كله من مقتضيات الولاء ، ومن لوازم العدل والإنصاف .

١٤ـ الحزبية المقيتة :

وهذه السيئة متعلقة بما قبلها ؛ بل هي سبب لها . ومنبع هذه الخلة المذمومة تلوث معنى الولاء في القلب ، فبدل أن يبذل الولاء لكل مسلم صحيح المعتقد ، نرى أنه يوجه لأفراد الحزب أو الطائفة أو القوم الذين هو منهم ، فلا يحب ولا يبغض إلا على أساسهم ، ولا ينظر إلا بمنظارهم .

وواضح ما في هذا من انحراف وتخبط، يتحمل وزره ، ويبوء بإثمه من تلبس به ، ومن ربى غيره عليه ، فأصل الموالاة والمعاداة في الإسلام على العقيدة ؛ فكل مسلم صحيح الإيمان يجب أن يبذل له من المحبة والموالاة بغض النظر عن جنسه ولونه أو لغته، وصاحب العقيدة الصحيحة من أهل السنة والجماعة، والمتخلق بأخلاق السلف، يجب أن يبذل له الولاء التام الكامل .

أما المسلم المقدوح في عقيدته أو سلوكه ـ لكن لا تصل هذه القوادح إلى حد الكفر ـ فمثل هذا يبذل له الولاء العام المكافئ لما فيه من الإيمان والخير، ويتبرأ من بدعته ، وخلقه المشين . أما الذي ينتفي عنه الولاء بالكلية ، ولا يجوز في حقه إلا البراءة التامة ، فهو الكافر والمنافق نفاقاً اعتقادياً ظهرت عليه علاماته .

١٥ـ إهمال كتاب الله عز وجل قراءة وتدبراً :

هناك تقصير ملاحظ في حق كتاب الله عز وجل، والذي قال الله عز وجل

عنه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٧ ، ٥٨] .

ومن مظاهر هذا التقصير هجر قراءته، إلا في أوقات متباعدة ، وهجر تدبره وتعاهده ، والعمل به ، وقد يبرر هذا الانشغال بأمور الدعوة ، أو القراءة في كتب العلم الأخرى ، وقد يمر على الداعية يوم أو يومان أو أكثر ، وما قرأ فيها من كتاب الله عز وجل شيئاً ، وإن قرأ فبدون تدبر وخشوع ؛ بل يقرأ أحدنا القرآن وهو متلبس ببعض المنهيات التي نهى عنها القرآن ، أو تاركاً لبعض الواجبات التي أمر بها القرآن، والإصرار على ذلك ؛كمن يقع منه الكذب والغيبة والنميمة والظلم والعدوان وإطلاق البصر وقطيعة الرحم والحسد والرياء . . . إلخ .

وما كان هذا هو منهج السلف في قراءتهم للقرآن وتلقيهم لأحكامه ؛ بل المعروف عنهم أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يفهموها ، ويعملوا بها؛ فيتعلمون العلم والعمل ، وجاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في وصف حالة السلف مع القرآن، ووصف من بعدهم قوله: « كنا نؤتى الإيمان قبل القرآن ، فيقرأ أحدنا القرآن فيقف عند زاجره وآمره ، وحلاله وحرامه . ولقد أدركت أناساً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ أحدهم القرآن من فاتحته إلى خاتمته لا يقف عند زاجره ولا آمره »، أو كما قال رضي الله تعالى عنه .

إذن كان السلف رحمهم الله تعالى يقرءون القرآن ، وقد امتلأت قلوبهم بالإيمان ؛ فيكون لكلام الله عز وجل أثر في حياتهم وسلوكهم ، أما من أوتي

القرآن والقلب خاوٍ من الإيمان ؛ فإنه يقرأ القرآن والقلب مشحون ، ومملوء بشهوات الدنيا ، ومتفرق في شعابها ، وقد يكون حافظاً للقرآن ، ويقرؤه بتجويد وصوت حسن لكن بدون تدبر وخشوع وعمل . وأكبر دليل على ذلك أن كثيراً منا يقرأ القرآن من جلدته إلى جلدته دون أن تقطر عينه من خشية الله وسماع كلامه عز وجل .

١٦ـ التفريط في كسب المال الحلال :

إن هناك تساهلاً كبيراً عند بعض الدعاة ، في تحري الحلال والطيبات من الرزق، في الوقت الذي ينبغي فيه الحذر الشديد من جراء التساهل في هذا الأمر، وخاصة في عصرنا اليوم ، والذي عز فيه المكسب الحلال لكثرة الشبه ، وانفتاح كثير من أبواب الربا ، والبيوع المحرمة ، وغموض كثير من المعاملات التجارية، مع ما يصاحبها من قلة إيمان وضعف نفس.

ويتمثل هذا التساهل، إما في عين المال المكتسب في بعض التجارات المشبوهة ، والتي لا يمكن الحصول عليها إلا بالوقوع في الحرام أو شبه الحرام أو يتمثل هذا التساهل أيضاً في طريقة الكسب؛ كالتقصير في إتقان الوظيفة أو المهمة المسندة لصاحبها؛ سواء في ضبط دوامها أو تضييع الوقت أثناءها ، أو الاستفادة من الوظيفة وخدماتها في الأغراض الشخصية .

كما يظهر التساهل أيضاً في الترخص في مصاحبة من لا خلاق له من تجار الدنيا، ومداومة الجلوس معهم ومداهنتهم، وبالذات إذا كانت المعاملة مع غير المسلمين ! .

١٧ـ الجبن والبخل :

إن هذين الخلقين الذميمين قد أكثر الرسول ﷺ من التعوذ منهما في أكثر

من دعاء ، فقال : « **اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال** »[(١)]، وقال: «**اللهم إني أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وعذاب القبر** »[(٢)] .

وقد يظهر الجبن والبخل على اللسان ، وقد لا يظهران إلا عند المواقف التي تتطلب الشجاعة والكرم ، وهذان الخلقان لا يجوز أن يجتمعا عند داعية، مع العلم أنه قلما يوجد أحد هذين الخلقين عند شخص إلا ويوجد معه الخلق الآخر، وغالباً ما يكون البخيل جباناً ، والجبان بخيلاً ؛ لأن الشح يجمعهما ؛ فالجبان شح بنفسه ، والبخيل شح بماله ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر: ٩].

وإن داعية فيه هاتان الخلتان الذميمتان ، لا يصلح لدعوة فيها بذل وتضحية؛ لأن الدعوة إلى الله عز وجل تتطلب التضحية بالمال والنفس .

ولما جاء وفد إلى رسول الله ﷺ وهو وفد بني سلمة من الأنصار ، قال لهم الرسول ﷺ : « **من سيدكم يا بني سلمة ؟ قالوا : الجد بن قيس على أنا نبخله** ، فقال بيده هكذا ، ومد يده ، **وأي داء أدوأ من البخل، بل سيدكم عمرو بن الجموح** »[(٣)] .

فمن هذه القصة نرى أن الرسول ﷺ لم يرض لمن يسود الناس أن يكون بخيلاً .

---

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٦٩)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٦).

(٢) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٧٤).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني ـ صحيح الأدب المفرد (٢٢٧/ ٢٩٦) ، وانظر: الإصابة ـ ترجمة عمرو بن الجموح .

وقد يظهر شخص ما أنه سالم من هاتين الصفتين ، والحقيقة غير ذلك لأنه لم تأت المواقف التي توضح وجودهما من عدمهما .

وهناك موقفان يبتلي الله عز وجل بهما عباده المؤمنين ليعلم من يثبت ممن يزل ويزيغ ؛ ألا وهما : موقفا الخوف والطمع ؛ فموقف الخوف يظهر الجبن والشجاعة ، وموقف الطمع يظهر البخل والشح ، وإيثار الحياة الدنيا ، من غير ذلك .

ولقد ابتلى الله عز وجل بهذين الموقفين بني إسرائيل فسقطوا ؛ ابتلاهم بالخوف عندما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة فنكلوا وجبنوا ، وقالوا : ﴿ **إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٢] .

وابتلاهم الله عز وجل بالطمع فحجز الحيتان عنهم إلا يوم السبت ، فما صبروا على شهواتهم ، بل خارت نفوسهم ، وانساقوا مع شهواتهم .

وابتلى الله عز وجل أصحاب محمد ﷺ بالخوف والطمع فنجحوا واستعلوا عليهما ، فقالوا للرسول ﷺ عندما استشارهم في غزوة بدر : «والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك » .

ومدحهم الله عز وجل في أعقاب غزوة أحد بقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

وقال عنهم يوم الأحزاب : ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٢] ، ثم ابتلاهم الله عز وجل بالدنيا وانفتاحها عليهم ؛ فاستعلوا عليها وزهدوا فيها ورضوا منها بالكفاف .

إذن ؛ إذا أردنا أن نكشف وجود هذين الداءين في نفوسنا من عدمهما

فلنتفقدهما عند موقفي الخوف والطمع ، وإن هذا لا يعني أن نتعمد مواطن الخوف والطمع ؛ كلا ، فالمطلوب من المسلم أن يفر بنفسه من مواطن الفتن ؛ لأنه لا يدري ما ستكون حاله حينئذ ، وكما قال الرسول ﷺ : « **لا تمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموهم فاصبروا** »[1] .

وثمة مسألة أخيرة تتعلق بهذا الموضوع ؛ ألا وهي : وقوع بعض الطيبين في الحب المفرط لنفسه ومصالحها ، مما قد يؤدي به إلى الأنانية والأثرة الممقوتة ، وإن هذه الصفة الذميمة لها نتائج وخيمة ، ومن أبرز هذه النتائج : وقوع صاحبها في الشح والجبن المشار إليهما سابقاً ، ووقوعه أيضاً في ضعف الهمة وخور العزيمة ، وضعف النفس ودناءتها ، وإذلالها للغير في سبيل تحقيق مصلحة ، أو دفع مفسدة عنها .

ومن نتائج حب الذات المفرط أيضاً : العجب ، والغرور ، والأنانية ، وقلة المروءة ، وحب الظهور والمدح ، وإهمال حقوق الأخوة وحقوق الآخرين ، وعدم المسارعة في خدمة المسلمين وإعانتهم على حوائجهم . . . إلخ .

١٨ـ نقل الأخبار دون تمحيص وتثبت :

لقد ابتلي بهذه الصفة كثير من الطيبين ؛ حيث تراه يحدث بكل ما سمع دون تثبت ولا تمحيص ، وقد يكون ما سمعه لا أصل له ، وقد يكون مزاداً عليه ، وقد ينقله دون فهم ووعي لمراد المتكلم به ، وقد ينقله بعبارة يفهم السامع الآخر منها غير المراد ، ومعلوم ما ينتج من ذلك كله من إذكاء الشائعات ، والوقوع في الكذب ، وسوء الظن ، والعدوان على الناس بغير حق . يقول الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

(١) رواه البخاري في الجهاد (٣٠٢٥) ، (٣٠٢٦) ، ومسلم في الجهاد (١٧٤١) ، (١٧٤٢) .

١٩ـ التصدر للتدريس والجرأة على الفتوى بلا علم :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦]. ومع ذلك يوجد في بعض الدعاة، من لا يتردد في إفتاء الناس عما يسألون، بشبهة علم أو بغير علم أصلاً، أو أن يتصدر للتدريس في فن من الفنون قبل أن تجتمع عنده الآلة في ذلك ، كل ذلك سببه مرض في القلب ؛ وهذا المرض هو حب الشهرة والظهور بمظهر العالم الواعي الذي حوى من كل علم بنصيب ، ولا يريد أن يتصف بالجهل ، ومعلوم ما في هذا من الإثم والمنقصة في الدين ، وفي النهاية يجازى بنقيض قصده؛ وهو استنقاص الناس له ومقتهم له وعدم الثقة به وبعلمه .

٢٠ـ الغلظة والفظاظة :

يقول الله تعالى : ﴿ ... وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

قال سيد قطب رحمه الله حول ظلال هذه الآية :

« فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة ، وإلى ود يسعهم ، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم ... في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ، ولا يحتاج منهم إلى عطاء ، ويحمل همومهم ، ولا يعنيهم بهمه ، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء ...

وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ ، وهكذا كانت حياته مع الناس ؛ ما غضب لنفسه قط ، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة ، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة

ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه، نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة الرحيبة»[١] اهـ .

هذه هي صفات نبينا محمد ﷺ الذي أمرنا الله عز وجل بالتأسي به ، واقتفاء أثره ، وهي نموذج لكل داعية يريد دعوة الناس إلى الخير ، ويحببهم فيه ، ولكن مع ذلك بعضنا يفرّط في هذه الصفات ، ويصدر منه من المواقف والتصرفات ما ينم عن الغلظة ،والفظاظة ، وعدم الحلم ، وسعة الصدر، متمثلاً في تقطيب الوجه، وانقباض النفس، والتعنيف على الأخطاء ، وفقدان الرفق والأناة ، ومعلوم ما ينتج عن ذلك من نفرة الناس وكرههم لمن هذه أخلاقه، فوق ما في ذلك من الإثم وحرمان الأجر .

قال الرسول ﷺ : « **لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق** »[٢] .

وثمة شيء آخر يتعلق بهذا الموضوع ألا وهو ما درج عليه بعض المربين والموجهين من الدعاة من القسوة على من معهم ، وتربيتهم على التقليد الأعمى ، وعدم السماح لهم بإبداء آرائهم ،ومعارضتهم ، وقفل باب التشاور معهم .

وهذه الطريقة الخاطئة من التربية، تفرز لنا دعاة مقلدين متعصبين منفذين لما يقال لهم بدون بصيرة، وهذه في الحقيقة تربية عبيد لا تربية قادة ، وهذا يخالف قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

❋ ❋ ❋

(١) في ظلال القرآن ، عند الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .
(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٦) .

الخاتمة

في ختام هذا الموضوع أود التنبيه إلى الملاحظات التالية :

١ ـ لم أراع ـ في ترتيب الملاحظات السلوكية في هذا البحث ـ الأولوية والأهمية ، إلا فيما يتعلق بأمراض القلوب باعتبارها أخطر الأمراض ، فاحتلّت الرقم الأول على بقية الملاحظات لأهميتها وشدة خطرها ، أما ما تم سرده بعد ذلك فلم يكن حسب الأهمية ، بل كلما عنّ للخاطر ملاحظة دونتها ، وقد يكون ما بعدها أخطر منها ، وهكذا .

٢ ـ إن ما تم طرحه من المساوئ السلوكية والقلبية هو على سبيل المثال من الواقع العملي ، وليس على سبيل الحصر ، وإلا لو رجع كل منا إلى نفسه أو ما يشاهد من حوله لوجد أكثر مما طرح في هذا الموضوع . ولما كان هدف هذه الدراسة هو التنبيه على خطر هذه الأمراض وخطر نسيان النفس في زحمة الدعوة للآخرين ـ لما كان الأمر كذلك ـ اكتفيت بذكر نماذج من هذه القوادح ؛ لعلها تكون حافزاً لنا ، لتوجيه الدعوة والتربية إلى أنفسنا في الوقت الذي نوجهها لغيرنا ، كما أرجو أن يكون هذا الموضوع حافزاً لأهل الخير والصلاح وأرباب التربية والتوجيه إلى الاعتناء بمثل هذه المواضيع توجيهاً وكتابة ونصحاً .

٣ ـ لعل مما يلاحظ على هذا الموضوع أنه لم يتطرق للقوادح التصورية والعقدية المنتشرة عند بعض الدعاة ، ولكن تعمدت ترك ذلك ؛ لأن المقصود بهذا البحث الذين يفترض فيهم صحة المعتقد وسلامة المنهج من أهل السنة والجماعة .

وهنا ملاحظة مهمة يحسن طرحها بهذه المناسبة ؛ ألا وهي ضرورة العلم بأن منهج السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ ليس فكراً مجرداً في الذهن ، وإنما هو عقيدة وسلوك، وتصور وأخلاق، ولكن المتأمل في حياتنا معشر أهل السنة يلحظ انفصالاً ـ ولو بصفة جزئية ـ بين الجانب العقدي النظري وبين الجانب السلوكي العملي ، انفصالاً بين النظرية والتطبيق .

فقد يلاحظ مثلاً أن هناك داعية عالماً معتقداً لعقيدة السلف في التوحيد بأنواعه، وفي أصول الاستدلال ، وفي . . . إلخ ؛ ولكن ما إن يختبر في سلوكه إلا ويظهر عليه بعض الأخلاق المشينة المخالفة لعمل السلف .

إذن عندما ننادي بمنهج أهل السنة ومنهج السلف، فإنا نريد من ذلك منهجهم الشامل في العقيدة وفي السلوك ، ولا نريد جزئية المنهج بأن يحصل الالتزام في الجانب العقدي ويفرط في الجانب السلوكي ، كما لا نريد العكس ؛ بحيث يكون الالتزام بالجانب السلوكي والتفريط في الجانب العقدي ، ولكن نريد الأمرين جميعاً . ولو رجعنا إلى سيرة سلفنا الصالح لوجدناهم خير مثال لهذا المنهج المتكامل .

وإذ كان الأمر كذلك فنحن بحاجة إلى إدراك المقصود بمنهج أهل السنة أو منهج السلف ، وأن المراد منه الجانبان معاً : العقدي والسلوكي، ونحن بحاجة إلى أن نكون على منهج السلف في السلوك والأخلاق كحرصنا على أن نكون على أثرهم في المعتقد والفهم ، وإذا تم إدراك ذلك فسوف تختفي من حياتنا تلك الصور والمواقف المتناقضة .

نعم، سوف لا نجد شخصاً هو على عقيدة السلف في توحيد الألوهية والأسماء والصفات ومحاربته للبدع ، ومع ذلك يخالف سلوك السلف في حبهم للجماعة وكرههم للفرقة ، أو يخالف سلوك السلف في اقترافه

للظلم، والكذب، والغيبة، والحسد، والشحناء، والتي ليست من أخلاق السلف .

إن هذه الازدواجية في الالتزام بمنهاج السلف سوف تزول أو تقل - إن شاء الله تعالى - بإدراك الأمر المشار إليه آنفاً .

ومن أجل ذلك الأمر - والله أعلم - نجد أن كتابات السلف - رحمهم الله تعالى - في عقيدة أهل السنة والجماعة تشير دائماً إلى بعض الجوانب السلوكية؛ وذلك لأهميتها ، فنرى مثلاً شيخ الإسلام رحمه الله تعالى يذكر ذلك في العقيدة الواسطية ، وهو يسرد أصول أهل السنة ، فقال :

« ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة ، ويرون إقامة الحج والجهاد ، والجمع ، والأعياد ، مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً ، ويحافظون على الجماعات ، ويدينون بالنصيحة للأمة ، ويعتقدون معنى قوله ﷺ : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً** » . وشبك بين أصابعه[1] ، وقوله ﷺ : « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر** »[2]، ويأمرون بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء ، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ويعتقدون معنى قوله ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً** »[3] ويندبون إلى أن تصل من قطعك ، وتعطي من

(١) رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥).

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦).

(٣) رواه أبو داود في السنة (٤٦٨٢)، والترمذي في الرضاع (١١٦٢)، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٨٤).

حرمك، وتعفو عمن ظلمك، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل ، والرفق بالمملوك ،وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق ، ويأمرون بمعالي الأخلاق ، وينهون عن سفاسفها » اهـ .

رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية ، فلقد كان مدركاً للترابط بين العقيدة والأخلاق ، وما إيراده لهذه الأخلاقيات في كتاب العقيدة الواسطية إلا أكبر دليل على أن الالتزام بمنهج السلف رحمهم الله تعالى يعني أن تتمثل في أهله عقيدة السلف وأخلاقهم ، وبقدر ما ينقص من هذه الجوانب سواء في المعتقد أو الأخلاق بقدر ما يحصل النقص في الالتزام بهذا المنهاج العظيم الكريم، الذي من سار عليه نجا وأفلح ،ومن تركه خاب وخسر .

نسأل الله عز وجل أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، كما نسأله سبحانه أن يهدينا لأحسن الأخلاق ؛ لا يهدي لأحسنها إلا هو ، وأن يصرف عنا سيئها ؛ لا يصرف عنا سيئها إلا هو .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه .

* * *

الرسالة الرابعة

﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾

[الأنعام : ٨٣]

إن ربك حكيم عليم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن الله عز وجل خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له . وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ، حيث يرجعون إليه سبحانه فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، ثم إن الله سبحانه وتعالى قد ركب في فطر خلقه الاستعداد للتوحيد ، والانجذاب إليه سبحانه فيما لو تركت النفس بدون مغير ؛ كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي «**إني خلقت عبادي حنفاء** ... الحديث»(١) .

وقد أودع عز وجل في هذا الكون من الآيات الباهرات التي تدل عليه سبحانه وأنه وحده الخالق المدبر لهذا الكون ، وأنه هو المستحق للعبادة وحده .

ولكن مع كل هذا الاستعداد الفطري للتوحيد ومعرفة الله عزّ وجلّ بآياته إلا أنه سبحانه وتعالى وبواسع رحمته ، وعظيم إحسانه لم يكلنا إلى فطرتنا وحدها ؛ ذلك لما يعتري الفطرة السليمة من الفساد والركام بفعل المؤثرات

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٥) .

الخارجية أولاً ، وثانياً: لأن الفطرة الإنسانية مهما كانت سليمة وموحدة لبارئها وعالمة به في الجملة ؛ إلا أن هذا العلم والتوحيد سيبقى مجملاً وناقصاً .

ومن أجل ذلك أرسل الله عز وجل الرسل عليهم الصلاة والسلام ليزيلوا ركام الوثنية والشرك الذي تراكم على النفوس ليردوها إلى التوحيد الخالص لله عز وجل ويعرفوهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى والتي لا تدركها الفطرة بدون معلم، كما يعلمونهم الأحكام ، والتشريعات الربانية التي تُصلح أمور دينهم ودنياهم ،ويعلموهم أن لهم ميعاد يوم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، وأن هناك جنة وناراً وللجنة أهلون لهم صفات يليقون بها ، وللنار أهلون لهم صفات يستحقون العذاب بسببها، وكل هذه المعارف والعقائد لا تعرف لولا رحمة الله عز وجل ، بإرسال الرسل وانزال الكتب.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن أمور التوحيد التي فصلها سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، وعلى لسان رسوله ﷺ أمر أسمائه الحسنى وصفاته العليا، التي يعرف بها العباد خالقهم ورازقهم ومعبودهم سبحانه حتى يقدروه حق قدره ،ويعبدوه حق عبادته ،ولتمتلئ النفوس بعظمته وجلاله وليتعبدوا له سبحانه ويدعونه بها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وإن توحيد الأسماء والصفات له شأن عظيم ، وأثر كبير في النفوس

والقلوب ، ولا يصح إيمان عبد إلا بإيمانه بأسماء الله عز وجل وصفاته ، ولكن ما معنى الإيمان بالأسماء والصفات ؟ .

إن الإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته لا يتم على الوجه الصحيح إلا أن ينبني الفهم فيها على ثلاث أسس مهمة ذكرها الإمام الشنقيطي رحمه الله تعالى في محاضرة له عن (منهج دراسة لآيات الأسماء والصفات) ، قال في خاتمتها : إنا نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله ، وأن تلتزموا بثلاث آيات من كتاب الله :

الأولى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى: ١١] ؛ فنزهوا رب السموات والأرض عن مشابهة الخلق .

الثانية : ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١] ؛ فتؤمنوا بصفات الجلال والكمال الثابتة بالكتاب والسنة ، على أساس التنزيه كما جاء ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ .

الثالثة : أن تقطعوا أطماعكم عن إدراك حقيقة الكيفية ؛ لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل ، وهذا نص الله عليه في سورة طه ؛ حيث قال تعالى : ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾ [طه: ١١٠] .

وإن هذا الذي ذكره الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى في المنهج الصحيح لفهم الأسماء والصفات ، لابد أن ينضم إليه الشعور بآثارها القلبية ، والتعبد لله عز وجل ودعائه بها ، وإلا لن يتم الإيمان بالأسماء والصفات كما آمن به سلف الأمة الذين جمعوا بين الفهم والعمل ، ونظروا إلى كل اسم من أسماء الله عز وجل بأن فيه حقاً من العبودية لله عز وجل على العباد ، يتعبدون لله سبحانه وتعالى به .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى [1] :

«فصل» والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر ،اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين ، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها؛ أعني من موجبات العلم بها ، والتحقق بمعرفتها ، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح .

فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة؛ يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً .

وعلمه بسمعه تعالى وبصره،وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وأنه يعلم السر وأخفى ،ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؛ يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله . وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطناً ، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح .

ومعرفته بغناه، وجوده ،وكرمه،وبره ،وإحسانه، ورحمته ؛ توجب له سعة الرجاء ،ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه ،وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة. وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي من موجباتها .

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة

---

(١) مفتاح دار السعادة ص٤٢٤ .

بمنزلة أنواع العبودية ، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق بها ، فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضياتها . اهـ .

وقال رحمه الله تعالى في (طريق الهجرتين) :

« والمقصود أن الرب أسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم سوء ، وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفة نقص ، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ، موصوف بصفة الكمال ، مذكور بنعوت الجلال منزه عن الشبيه والمثال ، ومنزه عما يضاد صفات كماله ؛ فمنزه عن الموت المضاد للحياة ، وعن السِّنَة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية ، وموصوف بالعلم منزه عن أضداده كلها ، من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه ، موصوف بالقدرة التامة منزه عن ضدها من العجز ، واللغوب ، والإعياء ، موصوف بالعدل منزه عن الظلم ، موصوف بالحكمة منزه عن العبث ، موصوف بالسمع والبصر منزه عن أضدادهما من الصمم والبكم ، موصوف بالعلو والفوقية منزه عن أضداد ذلك ، موصوف بالغنى التام منزه عما يضاده بوجه من الوجوه مستحق للحمد كله .

فيستحيل أن يكون غير محمود كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي وله الحمد كله واجب لذاته ، فلا يكون إلا محموداً كما لا يكون إلا إلهاً ورباً قادراً »(١) .

مما سبق من هذه النقول ، يتبين أن المقصود من الإيمان بتوحيد الأسماء

(١) طريق الهجرتين ص ٢٠٣ .

والصفات ليس مجرد المعرفة الذهنية فقط ، وإنما المقصود أن نفهمها كما فهمها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام لفظاً ومعنى ، والتعبد لله سبحانه وتعالى بها والعمل بمقتضاها .

ولقد أحدث أهل الكلام وتلامذتهم من المبتدعة حدثاً كبيراً في هذا الركن الركين من التوحيد ؛ حيث تحول التعبد لله تعالى بأسمائه وصفاته إلى جدل كلامي ، ودراسات فلسفية ، وانعكس ذلك بدوره حتى على الذين يدرسون أو يُدرِّسون الأسماء والصفات على منهاج أهل السنة والجماعة ، فقلما نجد من الدارسين أو المدرسين لهذا العلم العظيم من يشير إلى المقصود الأساسي من دراسة هذا العلم ؛ ألا وهو التعبد لله تعالى بأسمائه وصفاته والعمل بمقتضاها كما مر بنا في كلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى .

ولكي يثبت لنا صحة هذه الملاحظة وأننا نمر على أسماء الله تعالى وصفاته ولا نقف عند مدلولاتها وآثارها في القلب وفي الواقع، نأخذ على سبيل المثال ـ لا على سبيل الحصر ـ اسمين من أسماء الله تعالى الحسنى طالما قرأناهما مقترنين في كتاب الله تعالى ، ومع ذلك لا نقف على سر اقترانهما ، ولا على مدلول ولوازم كل اسم منهما ، وماذا يجب علينا من العبودية فيهما .

وهذان الاسمان هما المذكوران في عنوان هذا البحث : ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦].

والآيات التي ختمت بهذين الاسمين الكريمين كثيرة جداً في كتاب الله عز وجل ، فما معنى هذين الاسمين الجليلين، وما مقتضاهما ومدلولهما ؟ .

قال الإمام الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ :

الحكم في الاصطلاح: هو من يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها ، فالله جل وعلا حكم لا يضع أمراً إلا في موضعه ، ولا يوقعه إلا في موقعه ، ولا يأمر إلا بما فيه الخير ، ولا ينهى إلا عما فيه الشر ، ولا يعذب إلا من يستحق العذاب وهو جل وعلا ذو الحكمة البالغة له الحجة والحكمة البالغة .

وأصل الحكم في لغة العرب: معناه : المنع ؛ نقول : حكمه ، وأحكمه إذا منعه . قال الشاعر :

أبني حنيفة أحْكِموا سفهاءكم   إني أخاف عليكم أن أغضبا

وقال آخر :

فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

هذا هو أصل الحكم .

والحكمة: فعلة من الحكم ، وأظهر تفسير لها : العلم النافع ؛ لأن العلم النافع هو الذي يحكم الأقوال والأفعال؛ أي يمنعها من أن يعتريها الخلل ؛ فمن كان عنده العلم الكامل ؛ فإنه لا يضع الأمر إلا في موضعه ، ولا يوقعه إلا في موقعه ؛ لأن كل إخلال في الأحكام إنما هو من الجهل بعاقبة الأمور ، فترى الرجل الحاذق البصير يفعل الأمر ؛ يظن أنه في غاية الإحكام ، ثم ينكشف الغيب أنه فيه هلاكه؛ فيندم حين لاينفع الندم ؛ ويقول : ليتني لم أفعل ، أو لو أني فعلت كذا لكان أحسن .

أما الله سبحانه العالم بعواقب الأمور وما تصير إليه والعالم بما كان ويكون ، فلا يضع أمراً إلا في موضعه . ومحال أن ينكشف الغيب عن أن ذلك الأمر على خلاف الصواب لعلمه سبحانه بما تؤول إليه الأمور .

والعليم : صيغة مبالغة ؛ لأن علم الله جل وعلا محيط بكل شيء؛ يعلم خطرات القلوب ، وخائنات العيون ، وما تخفي الصدور ؛ حتى إن من إحاطة علمه سبحانه علمه بالعدم الذي سبق في علمه ألا يوجد ، فهو عالم أن لو وجد كيف يكون .

وأن اسم (الحكيم العليم) فيه أكبر مدعاة للعباد أن يطيعوه ، ويتبعوا تشريعه ؛ لأن حكمته سبحانه تقتضي ألا يأمرهم إلا بما فيه الخير ، ولا ينهاهم إلا عما فيه الشر ، ولا يضع أمراً إلا في موضعه ، وبإحاطة علمه يعلمون أن ليس هنالك غلط في ذلك الفعل ، أو أن ينكشف عن غير المراد ؛ بل هو في غاية الإحاطة والإحكام ، وإذا كان من يأمرك بحكم لا يخفى عليه شيء حكيم في غاية الإحكام لا يأمرك إلا بما فيه الخير ، ولا ينهاك إلا عن ما فيه

الشر ، فإنه يحق عليك أن تطيع وتمتثل »[1] اهـ .

مما سبق من كلام الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى يتبين أن اسم الحكيم يقتضي الإيمان بأن الله عز وجل حكيم في أحكامه وقضائه وقدره ؛ فكما أنه حكيم في شرعه ودينه فهو حكيم في قضائه وقدره؛ لأن من المعلوم أن ما يحكم به سبحانه وتعالى ويقتضيه في هذا الكون نوعين من الحكم :

١ ـ حكم كوني قدري .

وهو قسمان :

ـ قسم يمكن مدافعته .

ـ قسم ليس في الوسع مدافعته .

٢ ـ حكم ديني شرعي :

والله سبحانه وتعالى حكيم عليم في أحكامه الكونية القدرية ، وحكيم عليم في أحكامه الدينية الشرعية . قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في (طريق الهجرتين)[1] :

« بل الأحكام ثلاثة :

الحكم الأول : حكم شرعي ديني :

فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة ؛ بل الانقياد المحض، وهذا تسليم العبودية المحضة ؛ فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد ، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً البتة ، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول .

فإذا تلقي بهذا التسليم والمسالمة، إقراراً وتصديقاً بقي هناك انقياد آخر ،

---

(١) من شريط مسجل بصوت الشيخ رحمه الله تعالى .

(٢) طريق الهجرتين ص ٦٣ .

وتسليم آخر له، إرادة وتنفيذاً وعملاً ؛ فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه ، كما لا تكون له شبهة تعارض إيمانه وإقراره ، وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحق ، وشهوة تعارض الأمر ، فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات ، ولا خاض في الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات ، بل اندرج خلاقه تحت الأمر ، واضمحل خوضه في معرفته بالحق ، فاطمأن إلى الله معرفة به ، ومحبة له ، وعلماً بأمره ، وإرادة لمرضاته ، فهذا حق الحكم الديني الشرعي .

الحكم الثاني : الحكم الكوني القدري، والذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة :

والذي إذا حكم به يسخطه ويبغضه ويذم عليه ، فهذا حقه أن ينازع ويدافع بكل ممكن ولا يسالم البتة ، بل ينازع بالحكم الكوني أيضاً ، فينازع حكم الحق بالحق للحق ؛ فيدافع به وله، كما قال شيخ العارفين في وقته عبد القادر الجيلي : « الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا ، وأنا انفتحت لي روزنة[1]، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والعارف من يكون منازعاً للقدر لا واقفاً مع القدر » .

فإن ضاق ذرعك عن هذا ، فتأمل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد عوتب على فراره من الطاعون ، فقيل له : أتفر من قدر الله ؟ ، فقال : «نفر من قدر الله إلى قدره» .

ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له في هذا العالم إلا به ، ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه ؛ فإنه إذا جاء قدر الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك

---

(١) الروزنة : الكوّة النافذة في أعلى السقف .

الانقيـاد له ومسـالمته ودفعه بقدر من الأكل والشرب واللباس ؛ فقد دفع قدر الله بقدره.

وكذا إذا وقع الحريق في داره ، فهذا بقدر الله ، فما باله لا يستسلم له ويسالمه ويتلقاه بالإذعان؟ ، بل ينازعه ويدافعه بقدر الله، وما خرج في ذلك عن قدر الله .

وهكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بكل ما يمكنه ؛ فإن غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر ، ومن لم يستبصر في هذه المسألة ويعطيها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى ، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه ، وأسباب معاشه ، ومصالحه الدنيوية ، ولا ينازع أقداره في حق مولاه وأوامره ودينه ؟ وهل هذا إلا خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه ؟! .

ولو أن عدواً للإسلام قصده لكان هذا بقدر الله ، ويجب على كل مسلم دفع هذا القـدر بقدر يحـبه الله ؛ وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب، دفعاً لقدر الله بقدره ، فما للاستسلام والمسالمة هنا مدخل في العبودية ؛ اللهم إلا إذا بذل العبد جهده في المدافعة والمنازعة ، وخرج الأمر عن يده ، فحينئذ يبقى من أهل :

الحكم الثالث : وهو الحكم القدري الكوني الذي يجري على العبد بغير اختياره ، ولا طاقة له بدفعه ولا حيلة له في منازعته :

فهذا حقه أن يتلقى بالاستسلام والمسالمة ، وترك المخاصمة ، وأن يكون فيه كالميت بين يدي الغاسل ، وكمن انكسر به المركب في لجة البحر وعجز عن السباحة ، وعن سبب يدنيه من النجاة ، فها هنا يحسن الاستسلام

والمسالمة ؛ مع أن عليه في هذا الحكم عبوديات أخرى سوى التسليم والمسالمة، وهي أن يشهد عزة الحاكم في حكمه ، وعدله في قضائه ، وحكمته في جريانه عليه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخليقة، فقد جف القلم بما يلقاه كل عبد ، فمن رضي ، فله الرضا، ومن سخط فله السخط .

ويشهد أن القدر ما أصابه إلا لحكمة اقتضاها اسم الحكيم جل جلاله وصفته الحكمة ، وأن القدر قد أصاب مواقعه ، وحل في المحل الذي ينبغي له أن ينزل به ، وأن ذلك أوجبه عدل الله وحكمته وعزته وعلمه وملكه العادل ، فهو موجب أسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، فله عليه أكمل حمد وأتمه ، كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره »[١] اهـ .

وفي ضوء هذا الكلام البديع للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى تبرز لنا حقيقتان مهمتان من لوازم ومقتضيات اسم الله عز وجل (الحكيم) :

الحقيقة الأولى :

أن اسم (الحكيم) يلزم الإيمان به لوازم قلبية تعبدية تقتضي الإيمان الجازم بأن الله عز وجل حكيم في جميع أحكامه الدينية الشرعية ، ليس لأحد من البشر أن يعارضها أو يأتي بما يناقضها أو يخلطها بغيرها .

بل إن اسم (الحكيم) لله سبحانه يفرض على العبد الاستسلام لشرع الله الحكيم ، فيحكم به ، ويتحاكم إليه ، ويرفض كل شرع يخالف شرع الله حكماً وتحاكماً ، ويؤمن إيماناً جازماً أن من شرع ديناً ونظاماً لم يأذن به الله تعالى ، وادعى أنه أصلح لحياة الناس ومعاشهم ، أو ساواه بشرع الله ، أو

---

(١) طريق الهجرتين ، ص٦٣ .

جوز الحكم به ، فإنه قد أشرك بالله عز وجل ، ومن أطاعه في ذلك على علم فقد أشرك بالله أيضاً .

ذلك لأن في هذا الصنيع كفراً بأسماء الله عز وجل وصفاته ، ومنها اسم (الحكيم)، فوق ما فيه من كفر بتوحيد الألوهية ، وبالذات توحيد الطاعة والاتباع. قال تعالى : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٥].

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾ .

[الأحزاب : ٣٦]

وقال تعالى : ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** ﴾ .

[الأنعام : ١٢١]

وإن خطورة هذا الشرك لتظهر في عصرنا اليوم الذي أُقْصي فيه شرع الله عز وجل جانباً، وحكم في الأنفس والعقول والأموال والأعراض بأنظمة البشر وأهواء البشر، التي تخلو من العلم والحكمة ، ومعرفة عواقب الأمور، وإنما الذي يسيطر عليها الجهل والهوى والتخبط . وإنه لم يظهر مثل هذا الشرك الخطير في تاريخ الأمة الإسلامية كما ظهر في زماننا اليوم .

ونظراً لخطورة هذا الأمر ، وقلة من تكلم عنه أنقل كلاماً نافعاً للشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى ، وهو يتحدث عن هذا الشرك الجديد في (أضواء البيان) عند قوله تعالى : ﴿ **وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ٢٦].

قال رحمه الله تعالى : « قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن عامر «ولا يشركُ» بالياء المثناه التحتية ، وضم الكاف على الخبر ، ولا نافية ،

والمعنى : ولا يشرك الله جل وعلا أحداً في حكمه ، بل الحكم له وحده جل وعلا ، لا حكم لغيره البتة ، فالحلال ما أحله تعالى ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، والقضاء ما قضاه ، وقرأه ابن عامر من السبعة : « ولا تُشركْ » بضم التاء المثناة الفوقية وسكون الكاف بصيغة النهي ؛ أي لاتشرك يا نبي الله ، أو لا تشرك أيها المخاطب أحداً في حكم الله جل وعلا ، بل أخلص الحكم لله من شوائب شرك غيره في الحكم ، وحكمه جل وعلا المذكور في قوله : ﴿ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ شامل لكل ما يقضيه جل وعلا ، ويدخل ـ في ذلك ـ التشريع دخولاً أولياً .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الحكم لله وحده لا شريك له فيه ، على كلتا القراءتين ، جاء مبيناً في آيات أخر ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠]، قوله تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ... ﴾ الآية [يوسف: ٦٧]، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية [الشورى: ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ .

[غافر: ١٢]

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨] ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٧٠]، وقوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام: ١١٤]، إلى غير ذلك من الآيات .

ويفهم من هذه الآيات كقوله : ﴿ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله ، وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخرى ؛ كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١] فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم .

وهذا الإشراك في الطاعة واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١] ، وقوله تعالى تعالى عن نبيه إبراهيم: ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم: ٤٤]، وقوله تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧] ، أي : ما يعبدون إلا شيطاناً ، وذلك باتباع تشريعه ؛ ولذا سمى الله تعالى الذين يطاعون فيما زينوا من المعاصي شركاء، في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ... ﴾ الآية [الأنعام: ١٣٧].

وقد بين النبي ﷺ هذا لعدي بن حاتم رضي الله عنه لما سأله عن قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ... ﴾الآية [التوبة: ٣١]، فبين له أنهم أحلوا لهم ما حرم الله ، وحرموا عليهم ما أحل الله ، فاتبعوهم في ذلك ، وأن ذلك هو اتخاذهم إياهم أرباباً .

ومن أصرح الأدلة في هذا أن الله جل وعلا في سورة النساء بين أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ماشرعه الله يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون ،

وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب ؛ وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ .

[النساء: ٦٠]

وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور: أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله صلى الله عليهم وسلم، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم »(١) اهـ .

وحول هذا الموضوع أيضاً قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: ٥٩] : « إن هذه الآية تتضمن أموراً . . . » إلى أن قال :

« ومنها : أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه ، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ؛ ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين ؛ فإنه من الطرفين، وكلاً منهما ينتفي بانتفاء الآخر، ثم أخبرهم أن هذا الرد خيرٌ وأن عاقبته أحسن عاقبة ، ثم أخبر أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكَّم الطاغوت وتحاكم إليه .

والطاغوت : كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع ؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله،

(١) أضواء البيان (٤/ ٩٠ ـ ٩٢).

أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله .

فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم [عَدَلُوا] من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ،وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته ، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم، ولا قصدوا قصدهم ؛ بل خالفوهم في الطريق والقصد معاً .

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء ، بأنهم إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا عن ذلك ،ولم يستجيبوا للداعي ،ورضوا بحكم غيره ، ثم توعدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم ، وأموالهم بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول ، وتحكيم غيره، والتحاكم إليه ، كما قال تعالى : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ** ﴾ [المائدة: ٤٩]،اعتذروا بأنهم إنما قصدوا الإحسان والتوفيق ؛ أي بفعل ما يرضي الفريقين، ويوفق بينهما ، كما يفعله من يروم التوفيق بين ما جاء به الرسول ، وبين ما خالفه ، ويزعم أنه بذلك محسن قاصد الإصلاح والتوفيق .

والإيمان إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول وبين كل ما خالفه من طريقة وحقيقة وعقيدة وسياسة ورأي ؛ فمحض الإيمان في هذه الحرب لا في التوفيق ، وبالله التوفيق .

ثم أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل ، ولم يكتف في إيمانهم بهذا

التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج، والضيق عن قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضاً بذلك حتى يسلموا تسليماً، وينقادوا انقياداً.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخير بعد ذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]؛ أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه، روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وروى العوفي عنه قال: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه.

والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]. فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم، فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه؟ أليس هذا أولى أن يكون محبطاً لأعمالهم؟.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ

عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢] ، فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه ، فأولى أن يكون من لوازمه ألا يذهبوا إلى قول ولا مذهب إلا بعد استئذانه ، وإذنه معروف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه »[١] اهـ .

الحقيقة الثانية :

ومن لوازم الإيمان باسم الله (الحكيم) الإيمان بأن ما يقضيه الله عز وجل من أحكامه الكونية القدرية فيها الحكمة البالغة ، وفيها الصلاح والخير ، إما في الحال أو المآل ، ولو ظهر فيها شيء مما تكرهه النفوس وتتألم منه مما يقدره الله سبحانه ، ففيه الخير والصلاح للناس ولو لم يظهر للبشر هذه الخيرية ؛ فلابد من الإيمان بأن الله عز وجل له الحكمة البالغة فيما يقدر ، وهذا ما يقتضيه اسم الله (الحكيم) .

يقول الله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال سيد قطب رحمه الله حول هذه الآية : « . . . إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيراً ، ووراء المحبوب شراً . إن العليم بالغايات البعيدة المطلع على العواقب المستورة هو الذي يعلم وحده ، حيث لا يعلم الناس شيئاً »[٢] اهـ .

والمقصود أن الإيمان بأن الله سبحانه حكيم في قضائه وقدره ؛ يفرض على المسلم الاستسلام والرضا بما يقدره الله عز وجل ، من الأحكام الكونية

(١) إعلام الموقعين (١/ ٥٠).
(٢) في ظلال القرآن ص ٣٢٣ ـ دار المعرفة .

القدرية ، من مصائب وأمراض وغيرها ، مما لا يستطيع دفعه بالأسباب الشرعية ، أما ما يمكن دفعه ومنازعته بقدر آخر من أقدار الله عز وجل ؛ فإن هذا لا يعارض الإيمان بالقدر ، كما سبق نقله عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى[١] .

فالإيمان بعلم الله عز وجل وكتابته لجميع المقادير قبل وقوعها ، ثم الإيمان بأنه سبحانه حكيم فيما يفعل ويقضي ويقدر ، كل هذا يبث الرَّوح والطمأنينة ويسكبها في قلب المسلم المخبت لربه ، المطمئن لقضائه وقدره ، الموقن بأن كل ما يكتبه الله عز وجل عليه من مصائب وغيرها فهي خير له إما عاجلاً أو آجلاً ، كما قال تعالى : ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وكما قال ﷺ : «**عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير ؛ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[٢] ، وكقوله ﷺ : « . . . **والخير كله في يديك والشر ليس إليك**»[٣] .

فالشر ليس إليه سبحانه ولو ظهر لنا أن هذا الفعل شر ومكروه ، فهو بالمآل خير وصلاح . ولقد كان أنبياء الله عز وجل يدركون ما في أسماء الله عز وجل من العبوديات وما يلزم عليها من الرضا والتسليم والطمأنينة لقضاء الله وقدره .

فهذا نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام عندما جاءه الخبر بحجز ابنه الثاني عند عزيز مصر ـ وقد سبق ذلك فقده ليوسف عليه السلام ـ توجه برجائه ودعائه لله عز وجل . قال تعالى يحكي حاله : ﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ [يوسف : ٨٣] .

---

(١) انظر ص: ١٥٤ - ١٥٥.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق (٢٩٩٩).

(٣) مسلم - كتاب صلاة المسافرين (٧٧١).

وكذلك الحال ليوسف عليه السلام عندما جمعه الله بأبويه حيث قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومن خلال التأمل للآيتين السابقتين نلاحظ أن يعقوب وابنه عليهما الصلاة والسلام قد ختما تضرعهما لله عز وجل بعد المصائب التي حلت بهما بهذين الاسمين العظيمين (العليم الحكيم).

واختيار هذين الاسمين الجليلين في هذا المقام له دلالته ومغزاه؛ لأن أعرف الناس بالله عز وجل هم أنبياؤه ورسله، ولقد ختما تضرعهما إلى الله عز وجل باسم (العليم الحكيم)، وذلك والله أعلم لما يبثه هذان الاسمان الكريمان في قلب المسلم من الرضا والطمأنينة والتسليم لقدر الله عز وجل، وأن شيئاً في هذا الكون لا يحدث إلا بعلم الله عز وجل وحكمته البالغة.

وبينما كنت في نهاية هذا البحث وخاتمته قدر الله عز وجل الأحداث الموجعة التي تعيشها المنطقة الإسلامية هذه الأسابيع، والتي تعرف بأحداث الخليج على إثر الاجتياح العراقي لدولة الكويت، ومع ما تحمله هذه الأحداث من مصائب ونكبات، إلا أنه ظهر وسيظهر من مقتضيات اسم الله (العليم الحكيم) دروس وعبر ومشاهد، تزيد في إيمان المؤمن بأسماء الله عز وجل الحسنى وصفاته العليا.

ولذا أحببت أن أُدلي ببعض المعاني التي جالت في الخاطر إزاء هذه الأحداث بعد ربطها بهذين الاسمين الجليلين العظيمين من أسماء الله عز وجل الحسنى (العليم)، (الحكيم)، فأقول وبالله التوفيق:

إن من الأصول المستقرة في باب الإيمان بالله عز وجل، الإيمان بقضائه وقدره، وأن شيئاً لا يحدث في هذا الكون صغيراً أو كبيراً إلا بعلم الله عز وجل وإرادته وخلقه له؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

كما أن الإيمان بالله سبحانه وقضائه وقدره وأسمائه وصفاته، لايحصل إلا بأن يجزم المسلم أن ما يكتبه الله عز وجل ويقدره في هذا الكون من ورائه حكمة بالغة، ولو ظهر للناظر أنه شر ومكروه؛ فالإنسان بإدراكه المحدود في الزمان والمكان، ولأن من طبيعته الجهل والظلم، فإنه لا يمكن أن يدرك مآلات الأمور وعواقبها، ولا يعلم بذلك إلا العليم الحكيم، خالق الأشياء ومقدرها، وعالم الغيب والشهادة.

قال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

[الحديد: ٢٢]

إذ الأمر كذلك؛ فلا شك ولا ريب، أن ما حصل من أحداث، وشرور في أحداث الخليج إثر الاجتياح البعثي للكويت لابد وأن نخضعه للأصول الآنفة الذكر، وأن من حاد عن هذا المنهج فقد خسر إيمانه بالله عز وجل أصلاً، وانحاز إلى معسكر الكفر والإلحاد، الذين لا يؤمنون بشيء من هذه الحقائق، وإنما يفسرون أحداث التاريخ تفسيراً مادياً معزولاً عن علم الله عز وجل وتقديره، وحكمته البالغة فيما يخلق ويقدر.

وعلى ضوء ما سبق ؛ فإن الواجب على المسلم إزاء هذه الأحداث أن يؤمن إيماناً جازماً أن ماقدره الله عز وجل في أحداث الخليج، وإن كانت موجعة مؤلمة ؛ فإن من ورائها حكمة بالغة اقتضتها حكمة أحكم الحاكمين والمرتبطة باسمه (الحكيم) سبحانه وتعالى .

ولقد ظهرت بعض الدروس والحكم جلية من خلال هذه الأحداث المؤلمة ، مع أن ما خفي علينا في غيب الله عز وجل من الحكم والمصالح أكثر، ومن هذه الدروس التي ظهرت ما يلي :

الدرس الأول : التعرف على سنة الله عز وجل في التغيير وهي التفسير الإسلامي للأحداث :

إن ما حصل من أحداث في دولة الكويت ، وما ترتب على هذا الحدث من أمور ومستجدات قد فتح أعيناً عمياً وآذاناً صماً على حقيقة مهمة وسنة ثابتة لا تتغير ؛ ألا وهي : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١] ، وأصبحنا والحمد لله نجد هذه الحقيقة على ألسن كثير من الناس الذين منَّ الله عليهم باليقظة بعد الغفلة رجالاً ونساءً وعوام ومثقفين ، وهذا بحد ذاته نعمة ومنحة ورحمة من الله عز وجل لم تكن لتحصل لولا قدر الله عز وجل لهذا الحدث .

لقد كنا نعترف ونؤمن بهذه الحقيقة قبل ذلك ، ولكنه إيمان ضعيف ، أما الآن فقد تحول هذا الإيمان إلى صورة واقعية عملية ؛ صار الخبر فيها عياناً، ولا شك أن الإيمان بهذه السنة الثابتة وأثرها على النفوس سيكون أبلغ وأقوى من الإيمان بها قبل وقوعها ، وكما هو معروف أن الطرق على الحديد وهو ساخن أقوى بكثير في تليينه وتأثره من الطرق عليه وهو بارد .

كما أن رحمة الله عز وجل وحكمته البالغة قد تجلت في هذا الحادث بأنه لم يترك الناس ينحدرون وبعجلة سريعة إلى الفساد ، وهم غافلون عما ينتظرهم من الهوة السحيقة التي هم قادمون عليها لو استمر انحدارهم ، ولم يأت ما يوقفهم ويحد من انحدارهم إذا لم يصلحوا أنفسهم ، ويوقفوا فسادهم بالوسائل الشرعية للإصلاح ، فيقدر عليهم أحداثاً مؤلمة تشدهم عن المزيد من الانحدار ، وتقف أمام تهالكهم على الفساد لعلهم يرجعون ويتوبون ويستيقظون من غفلتهم .

قال الله تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم: ٤١] ، وهذه والله هي عين النعمة والرحمة ، وإن كان ظاهرها التشريد والقتل وفقد الأموال ، فإن كل هذه المصائب تهون وتصغر عند فقد الدين ، وما يترتب على ذلك من مفاسد كبيرة ، لو استمرت عجلة الفساد في انحدارها الشديد ، ولم يأت للناس ما يوقفهم ويهز رؤوسهم ليستيقظوا ويتداركوا أنفسهم من السقوط في هوة سحيقة هم متجهون إليها لو لم يوقفهم الله عز وجل بما يقدره من أحداث .

وإن هذا الدرس العظيم لا يدركه ، ولا يستفيد منه إلا المؤمن الذي يجعل من مثل هذه الأحداث باباً إلى التوبة ومحاسبة النفس ، والرجوع إلى الله عز وجل ، وتغيير الأحوال .

أما المنافق ، والمادي ، والعلماني ، وغيرهم من أهل الإلحاد والزندقة ، فلا تراهم إلا ساخرين ومستهزئين من هذه المعاني العظيمة ، والأصول الإيمانية الثابتة ، ولا تزيدهم هذه الأمور إلا كبراً ما هم ببالغيه ، ولن

يزيدهم هذا إلا رجساً إلى رجسهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٦].

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣] .

الدرس الثاني : تمييز الخبيث من الطيب :

يقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ... الآية ﴾ [آل عمران: ١٧٩]

إن من رحمته تعالى وحكمته البالغة أن يقدر أحداثاً مؤلمة تتميز من خلالها الصفوف ، وتتعرى فيها النفوس ، فتظهر على حقيقتها للناس . وهذا هو الذي ظهر من خلال هذه الأحداث ؛ حيث ظهرت حقائق مهمة ساهمت في توعية الناس ، والدعاة منهم بصفة خاصة ، وذلك بحقيقة أعدائهم ، وتهافت راياتهم ، وانكشاف مخططاتهم ، وادعاءاتهم الكاذبة التي كانوا يخدعون بها الناس .

وتعرت بذلك دول وأفكار ودعوات ، بل إن الإنسان نفسه قد تعرى أمام نفسه ، وكشف من خلال هذه الأحداث حقائق من حوله ، ومن نفسه ، ما كانت لتعرف لو لم يقدر الله عز وجل مثل هذه الأحداث ، وإن هذه الثمرة الكبيرة ، من توعية المسلمين بحقيقة أعدائهم ، وبحقيقة الأفكار والنحل التي

تتلاطم من حولهم ، ما كانوا ليعرفوا عنها شيئاً ، وبهذا الكم الهائل من المعلومات ، لولا تقدير الله عز وجل لهذا الحدث .

وقد حقق الله عز وجل هذه الثمرة في أسابيع عدة ما كانت الدعوة الإسلامية لتحصل عليها في عدة سنوات ، والأيام حبلى بدروس وعبر جديدة ؛ أليس هذا من رحمة الله وفضله ؟ ، بلى والله .

ولا يعني هذا أنا نتمنى المصائب والفتن ؛ معاذ الله ، فإن المسلم لا يدري ما تكون حاله حينئذ ، وقد نهانا رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله : « **لا تتمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموه فاصبروا** »[1] .

ولكن أردت الإشارة هنا إلى ربط الأحداث بعلم الله عز وجل وحكمته البالغة ، وأن شيئاً في هذا الكون لا يكون إلا بعلم الله عز وجل وحكمته البالغة ، ويريد الله عز وجل منه الخير للمسلمين في الحال أو المآل .

الدرس الثالث : أهمية التوحيد والتربية عليه :

لقد ظهر من خلال هذه الأحداث الأهمية البالغة لتربية النفوس على عقيدة التوحيد الخالص ، ولقد بدا من خلال الأحداث أن هناك ضعفاً شديداً في هذا الجانب المهم في حياة المسلم ، كما ظهر من خلال الأحداث أن هذا الأصل المهم من أصول الإيمان لم يأخذ حقه من التربية العلمية والعملية .

ولعل من أهم دروس هذا الحدث أن يشعر المسلمون وأرباب التوجيه والتربية بضعف هذا الجانب ، وما كان ليعرف هذا الخلل لولا تقدير الله

---

(١) متفق عليه .

سبحانه وتعالى هذه الأحداث .

ومن مظاهر هذا الضعف ما حصل من الارتباك الشديد في بعض المفاهيم العقدية، والتي تعتبر من الثوابت والأصول التي لا تتزعزع ، ولا تهتز ولا تتغير مهما تغيرت الأحوال والأزمان والأمكنة ، ومن أهم هذه الأصول التي اعتراها الاهتزاز ، مفهوم الولاء والبراء، والعداوة للكافرين والمشركين والمنافقين بشتى مللهم وأفكارهم .

أما أن يصبح العدو صديقاً والصديق عدواً ، وأما أن تبذل المحبة للكافر والعداوة للمسلم ، ويكون الميزان في الحب والعداوة موازين الأرض وموازين المصالح الشخصية ؛ فهذا كله مما ترفضه عقيدة التوحيد الثابتة ، والتي تقوم الموالاة والمعاداة على أساسها ، وهذا هو أصل لا إله إلا الله ؛ الكلمة الطيبة التي وصفها الله عز وجل بقوله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا** ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] .

وهي الكلمة التي من أجلها أُرسل الرسل وأُنزلت الكتب ، وجاهد من أجلها أنبياء الله عز وجل ودعاته الصادقون ، كما قال تعالى : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾ [الممتحنة: ٤].

أما ما سواها من المصالح الشخصية والموازين الأرضية فليس لها صفة الثبات؛ بل إن أبرز خصائص المصالح والموازين الأرضية ؛ عدم الثبات والروغان ، فالذي يحب ويعادي من أجل المصالح الدنيوية يدور مع هذه

المصالح حيث دارت ، فقد يعادي في الصباح من أحبه في المساء ، وقد يوالي في المساء من عاداه في الصباح ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٦ ، ٢٧] ، اللهم ثبتنا بقولك الثابت ، ولا تضلنا مع الظالمين .

ومما يؤيد ضرورة الاهتمام الشديد بالتربية على التوحيد ؛ ما ظهر من النقص والضعف في توحيد التوكل والاستعانة والاستغاثة وغيرها ، وما نتج عن هذا الضعف من الركون إلى غير الله عز وجل من أعداء هذا الدين ، والثقة بما عندهم أكثر من الثقة فيما عند الله عز وجل .

ولأجل كل ما سبق ، ظهر أن الحاجة ماسة جداً إلى مزيد من التربية على العقيدة علماً وعملاً ؛ بأن نتعلم أركان التوحيد ، وما يضاده من الشرك القديم والجديد ، وألا يستخفنا الذين لا يوقنون من أرباب السياسة والمصالح الأرضية ، فيستهووننا معهم ، ويركبوننا في ركابهم ، بل يجب علينا الحذر الشديد منهم ومن مكرهم ، وأن نقبل على ديننا نتعلمه ، ونعمل به وندعو إلى الله ، ونصبر على الأذى فيه ، وألا نستطول الطريق أو الوقت الذي نمضيه في تعلم التوحيد ، وكل متعلقاته .

كما يجب علينا أن نعي واقعنا ، وأن نربط ما تعلمناه من دين الإسلام بقضايا عصرنا ، ومستجداته من الأفكار والنحل التي لم تكن موجودة عند أسلافنا ، وأن يكون للتربية الشاملة على التوحيد دورها في مواجهة الشرك المعاصر ، والتي تشن فيه العلمانية معارك طاحنة ضد المسلمين بوسائل شتى .

أي أننا نريد منهجاً دعوياً يقوم على (**سلفية المنهج وعصرية المواجهة**)[1] ونقصد بالسلفية : العودة بأصول الفهم والاستدلال إلى الكتاب والسنة ، وقواعد الفهم المعتبرة لدى أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان ؛ وذلك لنتمكن من خلال هذا المنهج من المواجهة السلفية المعاصرة لمشكلات عصرنا المتجددة ، حيث لا نقصد بالسلفية الوقوف فحسب عند القضايا العقدية التي واجه بها سلفنا الصالح انحرافات عصرهم ، وكانت فريضة الوقت يومئذ ، ثم نتخلى عن المعارك الطاحنة التي تديرها الجاهلية في المجتمعات المعاصرة ؛ حيث ضاعت إسلامية الراية وإسلامية النظم وذلك في أكثر بلدان المسلمين .

إن السلفية الحقة لا تقبل أن تستهدف الدعوة في بعض المواقع تحرير العقائد من شرك الأموات ، والتمائم ، وتضرب صفحاً عن شرك الأحياء والأوضاع والنظم ؛ والتي لا تقل خطراً عن شرك الأصنام ، وكلا الشركين خطير .

كما لا تقبل السلفية الحقة أن تحارب التشبيه والتعطيل في صفات الله عزوجل وتقف عند ذلك ، ولا تعلن الحرب على تعطيل الشريعة ، وتحكيم القوانين الوضعية ، وفصل الدين عن الدولة ، وإننا بهذا المنهج الشامل والسلفية المعاصرة ، نسلم وتسلم عقيدتنا الثابتة من أي خلط أو اهتزاز ، كما هو الحاصل في هذه الأيام ، ولكنها الفتن ؛ نعوذ بالله منها ؛ ما ظهر منها وما بطن .

---

(١) المراد (بعصرية المواجهة) أن يواجه أصحاب المنهج السلفي في كل عصر ما يكون في عصرهم من بدع وشركيات ومنكرات سواء كانت لها جذور قديمة أو كانت جديدة لم يسبق لها نظير بعينها وإن كان إنكارها له أصل شرعي .

وما أحسن ما كتبه الأستاذ محمد قطب في كتابه القيم (واقعنا المعاصر) حول أهمية التربية والرد على من يستطول طريقها ويريد قطف الثمرة قبل استكمالها ، فقال ص٤٨٦ : « أما الذين يسألون إلى متى نظل نربي دون أن (نعمل)[1] ؟ فلا نستطيع أن نعطيهم موعداً ؛ فنقول لهم : عشر سنوات من الآن أو عشرين سنة من الآن ! ، فهذا رجم بالغيب لا يعتمد على دليل واضح، وإنما نستطيع أن نقول لهم : نظل نربي حتى تتكون القاعدة المطلوبة بالحجم المعقول . . . » ثم يستمر وفقه الله حول هذا الموضوع إلى أن قال : « . . . ونكتفي بثلاثة أبعاد ، نتقيها من بين أبعاد كثيرة ومجالات عديدة ؛ لأنها ذات أهمية خاصة ؛ وذلك بالنسبة لبناء القاعدة المطلوبة .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨]، ولو أنك سألت أي إنسان في الطريق : من الذي يرزقك لقال لك على البديهة : الله ، ولكن انظر إلى هذا الإنسان إذا ضيق عليه في الرزق ، يقول : فلان يريد قطع رزقي ! فما دلالة هذه الكلمة ؟

دلالتها أن تلك البديهة ذهنية فحسب ، وبديهة تستقر في وقت السلم والأمن ، ولكنها تهتز إذا تعرضت للشدة ؛ لأنها ليست عميقة الجذور . . . فلا يصلح لتلك الأعباء إلا شخص قد استقر في قلبه إلى درجة اليقين أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأن الله هو المحيي المميت ، وأن الله هو الضار النافع ، وأن الله هو المعطي والمانع ، وأن الله هو المدبر ، وأن الله هو الذي بيده كل شيء . . .

ترى كم جلسة ؟! كم درساً ؟! كم موعظة ؟! كم توجيهاً يحتاج إليها

---

(١) الكلام هنا موجه لأولئك الشباب المتحمس الذي ينقصه التربية والعلم الشرعي والإمكانات ومع ذلك يطالب بإعلان الجهاد ضد الأنظمة التي تنكرت لشرع الله واستحلت ما حرم الله.

الإنسان ؟! ليرسخ في قلبه إلى درجة اليقين أن الله هو الذي يدبر ، وأن المخلوقات البشرية التي يخالطها في حياته إن هي إلا أدوات لقدر الله ، وأنها حين تضره فهو بشيء قد قدره الله له ، وحين تنفعه فإنما تنفعه بشيء قد كتبه الله له ، فلا يتوجه إلا إلى الله في سرائه وضرائه سواء ، ويعلم يقيناً أن الخلق كلهم لا يملكون له ولا لأنفسهم ضراً ولا نفعاً » اهـ .

الدرس الرابع : صحة الفهم وحسن القصد ودورهما في درء الفتن :

في أيام الفتن تضطرب الأفهام ، وتحتار العقول أمام الشبهات ، كما أن القلوب تضعف أمام الشهوات ، ولا يعصم منها إلا من عصمه الله تعالى بعلم صحيح ، وفهم دقيق يدرأ بهما الشبهات ، وبدين وتقوى وصبر يدرأ بها الشهوات ، فبالعلم واليقين تدرأ الشبهات ، وبالصبر وحسن القصد تدرأ الشهوات .

ولا يسلم من الفتن ورياحها إلا من تحلى بهاتين الصفتين : الفهم الصحيح والقصد الصحيح ، ومن فقد إحدى هاتين الصفتين ؛ فقد عرض نفسه للفتن ، ولقد تجلَّت مظاهر فقد هذين الأمرين أو أحدهما في هذه الأيام، أيام الأحداث والفتن ، فسقط في هذه الفتن من سقط ، وهلك فيها من هلك ، ولا تتعدى أسباب السقوط هذين الأمرين الآنفي الذكر ؛ فبضعف اليقين والبصيرة تسيطر الشبهات ، وبضعف التقوى وفساد المقصد تسيطر الشهوات .

وصحة اليقين والفهم يتمان بأمرين اثنين : بالعلم بدين الله عز وجل وأحكامه وشرعه ، وبالعلم بالواقع وأبعاده؛ فمن فرط في أي من هذين العلمين والفهمين فسد فهمه ، وعرض نفسه للشبهات ، وأخذ الباطل يحسبه حقاً .

أما من تحلى بالفهم بأحكام الله والفهم بالواقع ، ثم وقّع الأول على الثاني ؛ فقد تمت له البصيرة ، ووصل إلى الحق ، ولكن معرفة الحق لا تكفي في النجاة من الفتن حتى ينضم إليها التقوى والصبر وحسن القصد ، فينقاد إلى الحق الذي ظهر ويذعن له ، وإلا لو كان الصبر ضعيفاً أو القصد فاسداً ؛ فإن المسلم يتعرض للفتن من باب الشهوات ، فلا يصبر على الحق ، ويثبت عليه أمام المغريات والشهوات .

ولقد ساق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى هذه المعاني بأوضح عبارة وأدقها وأبلغها ؛ حيث قال رحمه الله تعالى في كتابه القيم (إعلام الموقعين)، في معرض شرحه لخطاب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في القضاء ؛ فقال في شرحه لقول عمر : «فافهم إذا أدلي إليك» :

« **صحة الفهم** ، **وحسن القصد** من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما ، بل هما ساقا الإسلام ، وقيامه عليهما ، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم ، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت فهومهم وقصودهم ، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة .

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد ، يميز به الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، ويمده حسن القصد، وتحري الحق ، وتقوى الرب في السر والعلانية ، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا ، وطلب محمدة الخلق وترك التقوى .

ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم :

أحدهما : فهم الواقع والفقه فيه ، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات، والعلامات حتى يحيط به علماً .

النوع الثاني: فهم الواجب في الواقع؛ وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، فمن بذل جهده ، واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله»[1] اهـ .

وبعد هذا الكلام المفيد من كلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، وبعد النظر الدقيق للمواقف المضطربة إزاء الأحداث والفتن هذه الأيام ، وبعد خوض من خاض ، وهلاك من هلك فيها ، إما بقلبه أو لسانه أو يده ، يتبين لنا أن هناك خللاً في منهاج الدعوة عند بعض الدعاة ، ونقصاً في التربية ، لعل من دروس هذه الأحداث اكتشافنا لهذا الخلل حتى نتفاداه .

ويمكن مما سبق تلخيص هذا الخلل في النقاط التالية :

١ ـ عدم التربية على طلب العلم الشرعي من مصادره الصحيحة وأصوله المنضبطة.

٢ ـ عدم التربية على طلب العلم والفقه بالواقع ، والوعي الصحيح بسبيل المؤمنين فيه ، وبسبيل المجرمين .

٣ ـ هناك خلل في القلوب ،وفساد في القصود ، لابد من تداركه ، والاهتمام بتزكية القلوب وتربيتها على الإخلاص لله عز وجل وإنشاء هم

(١) إعلام الموقعين (١/ ٨٧) .

الآخرة والزهد في الدنيا ، وعدم طلب محمدة الناس ، والتربية على الصبر والثبات أمام الشهوات والمغريات .

وعندما يتم التغلب على هذه الأنواع من الخلل ، ويربى الناس عليها ، وعلى طلبها ؛ فإنه بإذن الله تتم العصمة من الفتن وأخطارها ؛ فبالعلم بدين الله ، والعلم بالواقع تتقى الشبهات ، وبحسن القصد ، والإخلاص لله عز وجل والصبر أمام المغريات تتقى الشهوات ، والله أعلم .

وبعد :

فإن الدروس والحكم كثيرة وكثيرة ، وليس مقصود البحث هنا هو التفصيل فيها ، ولكن ذكرت بعض هذه العبر والحكم والمصالح من هذا الحادث المحيط بنا هذه الأيام، لنتذكر من خلاله أن لأسماء الله عز وجل وصفاته لوازم ومقتضيات لا يتم الإيمان إلا بها ، ومن هذه الأسماء الكريمة اسم (الحكيم)، والذي هو موضوع بحثنا في تفصيل لوازم هذا الاسم الجليل، والتعرف على العبوديات التي يتضمنها ، والآثار التي يتركها في القلب والجوارح، وما يلزم عليه من لوازم ومقتضيات ، ومنها ما تم استعراضه من الدروس الماضية، لحدث واحد مما يقضيه الله عز وجل ويقدره، من بين أحداث وأحداث كثيرة،وكثيرة تصغر في حجمها وتكبر ، ولكنها كلها لا تخرج عن علم الله عز وجل وتقديره ، ولا تخرج عن حكمته البالغة وتيسيره.

❋ ❋ ❋

الخاتمة

لقد تبين من خلال هذه الدراسة السريعة أن الإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته تقتضي إثباتها له سبحانه على الوجه الذي يليق به وعظمته من غير تكييف ولا تحريف ولا تعطيل ولاتمثيل ، كما أن الإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته تقتضي التعبد لله سبحانه وتعالى بها والإيمان بلوازمها .

ولقد اخترت في هذه الدراسة اسمين من أسماء الله عز وجل الجليلة هما (العليم والحكيم) وفصلت في الثاني وما فيه من العبوديات في اسم واحد من أسماء الله عز وجل ، فكيف ببقية أسمائه سبحانه الحسنى وصفاته العلى؟ .

إنني أتوجه في نهاية هذه الدراسة إلى علمائنا ، وأرباب التوجيه والتربية، بأن يولوا هذا الجانب المهم من أسماء الله عز وجل عناية كبيرة في دروسهم وحلقاتهم التعليمية ، وأن تتم التربية من خلاله على تقوية الإيمان وتجريد التوحيد لله والثبات على الإسلام ، والجهاد في سبيله ، وألا يقفوا في دراسة توحيد الأسماء والصفات على الجوانب الذهنية المجردة أو الردود على أهل البدع والأهواء فقط ، وإنما يجمعون ـ في دراسة هذا الجانب المهم من توحيد الله عز وجل ـ بين الجانب العلمي والعملي والتعبدي .

أسأل الله عز وجل أن يحسن فهومنا ومقاصدنا وختامنا ، والله أعلم .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

* * *

الرسالة الخامسة

﴿ متى نصر الله ﴾

[البقرة : ٢١٤]

متى نصر الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

لا ريب أن من أعز مقاصد المؤمنين وأشهى مطالبهم وغاية نفوسهم : رؤية دينهم ظاهراً وكتابهم مهيمناً وعلو راية التوحيد خفاقة مع قهر أهل الكفر والطغيان وإذلالهم .

إن هذا الهدف الأعظم وتلك الأمنية السامية لا تتحقق عن طريق الدعاوى والأماني بل عن طريق البحث والتنقيب عن سنن الله في النصر ، تلك السنن الربانية التي قدرها - تبارك وتعالى - لنصر حزبه الموحدين وخذلان حزب الشيطان اللعين .

فيجب علينا معشر المؤمنين حتى نحقق صدق الدعوة ونقيم عليها البينة العادلة أن نتعرف على تلك السنن وطبيعة الصراع وحجم التكاليف وشراسة الأعداء ومباينة السبل واختلاف المناهج والغايات والتوجهات بين المؤمنين والكافرين ، حتى نقضي على فرية وحدة الأديان وتوحيد الرايات والالتقاء في الطريق تحت ستار الأسرة الواحدة والشرعية الدولية .

إن دين الله ـ الذي اصطفاه لنا ولا يعبد إلا به ـ يقتضي أن يكون ـ جل شأنه ـ حاكماً لا معقب لحكمه ، وأن يوحد بالعبادة والتلقي والتوجه وأن يفرد بالولاء ، مع الكفر والبراءة والانخلاع من كل ما يعبد من دونه .

ومن هنا وجب إعداد العدة والأخذ بالسنن الربانية لتحقيق النصر المأمول مع الحذر الشديد من العوائق الداخلية والأمراض الفتاكة التي تفتك بجسد الأمة وتسلمها فريسة سهلة لأعدائها لتحول بينها وبين غايتها العظمى ودورها المنشود المناط بها ، بل المدقق في تلك العوائق الداخلية ليتيقن أنها الأساس المنيع الذي تستمد منه العوائق الخارجية وجودها وهيمنتها .

إن الله ـ عز وجل ـ بعلمه الشامل وحكمته البالغة قدر وقضى أن يكون الصراع بين الحق والباطل موجوداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأما عن طبيعة هذا الصراع : فسمته أنه حرب ضروس لن يخمد لهيبها إلى قيام الساعة . قال تعالى: ﴿ **وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ولا يخفى ما تحويه لفظة: ﴿ **وَلا يَزَالُونَ** ﴾ من الاستمرارية والبقاء دون انقطاع، ولهذا جاء الأمر واضحاً من العليم الحكيم لأوليائه: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ [الأنفال: ٣٩] ، والفتنة لن تخلو منها الأرض، بل الساعة تقوم على شر أهلها.

وكذلك أخبر النبي ﷺ بأن : « **الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة** »[1] .

هذه السنة الربانية قد خص بها حشد من النصوص المستفيضة حتى

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٥٠)، وفي المناقب (٣٦٤٤).

بلغت حد التواتر اللفظي والمعنوي ، وغدت من المعلوم بالاضطرار من هذا الدين وأصبح المكذب بها مكذباً بالدين طاعناً على رب العالمين متبعاً غير سبيل المؤمنين .

وهذا من أبلغ الحجج والبراهين على دحض افتراءات العلمانيين و المنافقين ـ الذين وقفوا على طريق جهنم وأعلوا رايتهم ملوحين بها للناس أن هلموا إلينا ليقذفوهم فيها ـ الذين يزعمون ويفترون بأن الحرب الدينية اليوم قد انتهت ، وحري بالعالم أجمع أن يجتمع تحت راية واحدة وأن يكونوا كالجسد الواحد المتجانس الشعور والإحساس ولا تحول معتقداتهم دون هذا البتة ، بل يجب أن تبقى هذه المعتقدات حبيسة القلوب وحبيسة دور العبادة والمحاريب ولا تتعدى جدرانها ولا تتخطى حدودها !!

ومن المعلوم أن الخصوم في حروبها تلجأ إلى ناصر وولي ومعين ، تحتمي بحماه وتقهر بقوته وتعتز بعزته ، فالله ـ جل شأنه ـ لم يرتض لأوليائه ناصراً سواه ولا ولياً دونه ولا معيناً عداه ، قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ، وقال سبحانه : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ** ﴾ [محمد: ١١] .

ومن هنا وجب علينا معشر المسلمين وأمة التوحيد أن نتوكل على مولانا وناصرنا ، ونعي آثار أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فنتعبد لله بها وتظهر في القلوب آثارها فتطمئن لوعد الله وتثق بنصره ، حتى ولو صال الباطل وانتفش في وقت من الأوقات ، فإن المؤمن يوقن أن ما قدره الله هو الخير ويحوي في طياته الرحمة والنعمة وإن كان ظاهره الألم والمشقة ، ذلك أن رحمة الله سبحانه قد سبقت غضبه وأن الشر ليس إلى الله عز وجل .

إن معبود وولي المؤمنين هو **الجبار القوي** : الذي لا يعجزه شيء . **العزيز** : فلا يغلبه شيء . **المتكبر** : الذي تكبر عن السوء والظلم . **الرحمن** : الذي هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها . **العليم** : فلا يخفى عليه شيء ، والسر والجهر عنده سواء لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض . **الحكيم** : في أفعاله وقدره وأحكامه . **القدير** : فالسماوات مطويات بيمينه والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، ما قدره أولياؤه حق قدره فضلاً عن أعدائه . **المحيط** : بظلم الظالمين ومكر الماكرين لا يفوته شيء . **العليّ** : قد علا على كل شيء دونه وتحت قهره وغلبته .

يقول ابن القيم رحمه الله :

«وكذلك اسمه **السلام** : فإنه الذي سَلِمَ من العيوب والنقائص . ووصفُه بالسلام أبلغ في ذلك من وصفه بالسالم ، ومن موجبات وصفه بذلك سلامةُ خَلْقه من ظُلمه لهم . فسَلِم سبحانه من إرادة الظلم والشر ، ومن التسمية به ، ومن فعله، ومن نسبته إليه . فهو السلامُ من صفات النقص وأفعال النقص وأسماء النقص ، المُسلِّم لخلقه من الظلم . ولهذا وصف سبحانه ليلة القدر بأنها سلام ، والجنة بأنها دار السلام ، وتحية أهلها السلام . وأثنى على أوليائه بالقول السلام . كل ذلك السالم من العيوب . وكذلك **الكبير** من أسمائه .

والمتكبر : قال قتادة وغيره : هو الذي تكبر عن السوء . وقال أيضاً : الذي تكبر عن السيئات . وقال مقاتل : المتعظم عن كل سوء . وقال أبو إسحاق : الذي يكبر عن ظلم عباده . وكذلك اسمه **العزيز** الذي له العزة التامة . ومن تمام عزته براءته عن كل سوء وشر وعيب ، فإن ذلك ينافي العزة التامة .

كذلك اسمه **العليّ** الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص . ومن كمال عُلوه أن لا يكون فوقه شيء . بل يكون فوق كل شيء .

وكذلك اسمه **الحميد** ، وهو الذي له الحمد كله، فكمال حمده أن لا ينسب إليه شر ولا سوء ولا نقص لا في أسمائه ولا في أفعاله ولا في صفاته . فأسماؤه الحسنى تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه ، مع أنه سبحانه الخالقُ لكل شيء ، فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم .

والعبد إذا فعل القبيح المنهيّ عنه كان قد فعل الشر والسوء. و الرب سبحانه هو الذي جعله فاعلاً لذلك . وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب، فجَعْلُهُ فاعلاً خير ، والمفعول شر قبيح ، فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التى يُحمد عليها ، فهو خير وحكمة ومصلحة ، وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشراً وهذا أمر معقول مشاهد .

فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللبنة الناقصة فوضع ذلك في موضع يليقُ به ويناسبه كان ذلك منه عدلاً وصواباً يمدح به ، وإن كان في المحل عوجٌ ونقص وعيب يُذم به المحل . ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها كان ذلك منه حكمةً وعدلاً وصواباً. وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها . فمن وضع العمامة على الرأس ، والنعل في الرجل ، والكُحل في العين ، والزبالة في الكناسة ، فقد وضع الشيء موضعه ، ولم يظلم النعل والزبالة إذ هذا محلُّهما .

ومن أسمائه سبحانه **العدل** و**الحكيم** الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه، فهو المحسن الجواد الحكيم العدل في كل ما خلقه وفي كل ما وضعه

في محله وهيأه له . وهو سبحانه له الخلق والأمر . فكما أنه في أمره لا يأمر إلا بأرجح الأمرين ، ويأمر بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإذا تعارض أمران رجح أحسنهما وأصلحهما . وليس في الشريعة أمر يفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه ، ولا نهيٌ عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده »[1] اهـ.

وقد قضى الله سبحانه وتعالى بأن البقاء للحق ؛ لأنه الأصل الذي قامت عليه السماوات والأرض وأما الباطل فهو طارئ وزاهق ، قال تعالى : ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١] ، وقال سبحانه : ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** ﴾ [الرعد: ١٧].

ولكن حكمة الله عز وجل البالغة اقتضت أن يوجد الباطل لاختبار أوليائه وإظهار آثار أسمائه الحسنى وصفاته العلى وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً، وإلا لو شاء الله عز وجل لم يكن هناك كفر ولا باطل. قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ** ﴾ [محمد: ٤].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والرضا بالقضاء الكوني القدري ، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته ـ مما لا يلائمه ، ولا يدخل تحت اختياره ـ مستحب . وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان ، وهذا كالمرض والفقر ، وأذى الخلق له، والحر والبرد ، والآلام ونحو ذلك .

---

(١) شفاء العليل . ص ٣٨٠ .

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره ـ مما يكرهه الله ويسخطه ، وينهى عنه ـ كأنواع الظلم والفسوق والعصيان : حرام يعاقب عليه . وهو مخالفة لربه تعالى. فإن الله لا يرضىٰ بذلك ولا يحبه. فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه ؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء .

فإن قلت : كيف يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويُكَوِّنه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته ؟

قيل : هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً، وتباينت عنده طرقهم وأقوالهم .

فاعلم أن « المراد» نوعان: مراد لنفسه ، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه : مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير، فهو مرادٌ إرادة الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره : قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته . وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده . فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، ومراد له من حيث إفضائه وإيصاله إلى مراده. فيجتمع فيه الأمران : بغضه ، وإرادته ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما ، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهية، إذا علم متناوله أن فيه شفاءه ، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده ، وكقطع المسافة الشاقة جداً إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه. بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته ، وطويت عنه مغبته ، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب ؟ فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في

ذاته . ولا ينافي ذلك إرادته لغيره ، وكونه سبباً إلى ما هو أحب إليه من فوته .

مثال ذلك : أنه سبحانه خلق إبليس ، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال ، والاعتقادات والإرادات، وهو سبب شقاوة العبيد ، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى ، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة ، فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى ، مسخوط له ، لعنه الله ومقته ، وغضب عليه ، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، وجودها أحب إليه من عدمها .

* منها : أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات . وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته، وسلطانه وملكه، فإنه خلق هذه المتضادات ، وقابل بعضها ببعض ، وجعلها محال تصرفه وتدبيره وحكمته . فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه وتدبير مملكته .

* ومنها : ظهور آثار أسمائه القهرية ، مثل (القهار، والمنتقم ، والعدل، والضار ، وشديد العقاب ،وسريع الحساب ، وذي البطش الشديد ، والخافض ، والمذل) فإن هذه الأسماء والأفعال كمال . فلابد من وجود متعلقها ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملَك : لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال .

* ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه، ومغفرته وستره ، وتجاوزه عن حقه ، وعتقه لمن شاء من عبيده . فلولا خلق ما يكره من

الأسباب المفضية إلى شهود آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله : «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»(١) .

* ومنها : ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، فإنه سبحانه « الحكيم الخبير» الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلا يضع الشيء في غير موضعه ، ولا ينزله غير منزلته ، التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته ، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل ،ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب ، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل ، ولا الذل مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه ،ولا ينهى عما ينبغي الأمر به .

فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها ، ويشكره على انتهائها إليه ووصولها ، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ويستأهله ، وأحكم من أن يمنعها أهلها ، وأن يضعها عند غير أهلها .

فلو قُدِّر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقه ، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها ، وفواتها شر من حصول تلك الأسباب .

فلو عطلت تلك الأسباب ـ لما فيها من الشر ـ لتعطل الخير الذي هو أعظم

---

(١) رواه أحمد بنحوه (١/ ٢٨٩)، وله شواهد في السلسلة الصحيحة (٩٧٠).

من الشر الذي في تلك الأسباب . وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر ، فلو قدر تعطيلها ـ لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي ـ لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لانسبة بينه وبينه .

* ومنها : حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ، ولكان الحاصل بعضها ، لا كلها . فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولوكان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها : من الموالاة فيه سبحانه ، والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه ، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس.

* ومنها :عبودية التوبة ، والرجوع إليه واستغفاره، فإنه سبحانه يحب التوابين ويحب توبتهم ، فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها .

* ومنها: عبودية مخالفة عدوه ، ومراغمته في الله وإغاظته فيه ، وهي من أحب أنواع العبودية إليه ، فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراغمه ويسوءه ، وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس .

* ومنها : أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه ، وسؤاله أن يجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه .

* ومنها: أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلَّ بعدوه

بمخالفته وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المرتبة الشيطانية ، فلا يُخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك .

* ومنها : أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته ، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة . فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته .

* ومنها : أن نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر : ٦]، فاتخاذه عدواً أنفع شيء للعبد، وهو محبوب للرب .

* ومنها : أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر ، والطيب والخبيث ، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد . فخُلقَ الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل ، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل ، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها ، ليترتب عليه آثاره ، وما في قوى أولئك من الشر ، ليترتب عليه آثاره ، وتظهر حكمته في الفريقين ، وينفذ حكمه فيهما ، ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق »[1] اهـ .

إن المتأمل اليوم في عصرنا الحاضر وما فيه من الصراعات ، يجد أن الصراع بين الحق والباطل قد بلغ أشده ، وأن ملل الكفر قد جمعت كل إمكانياتها ضد عدو واحد ألا وهو الإسلام ودعاته الصادقون الذين يصفونهم تارة بالمتطرفين وتارة بالأصوليين وتارة بالإرهابيين .

وإن المراقب للأحداث التي ظهرت في السنوات الأخيرة وبالذات

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٩٧).

بعد أحداث الخليج ونشوء ما يسمى النظام العالمي الجديد[1] ليلاحظ أنها

(١) النظام العالمي الجديد : هذا المصطلح - الذي يحمل في طياته الكثير من الخبث والمكر للإسلام والمسلمين - قد اصطلح عليه أئمة الكفر من اليهود والنصارى والشيوعيين لزيادة النكاية بالمسلمين والعمل الدؤوب لمنع ظهور الإسلام مسيطراً و مهيمناً لأداء دوره المنشود.
ومضمون هذا المصطلح : أن يكون العالم بأسره - على اختلاف ملله - تحت راية واحدة يوالي ويعادي من أجلها وتلك الراية بكل وضوح هي راية الصليب تحت ستار الأمم المتحدة - التي لم تتحد إلا على ضرب الإسلام وتمزيق أهله وإعلاء راية الكفر والطغيان - والقائمون على رأس هذا النظام من اليهود النصارى والمشركين لهم حق الحكم والقرارات والفصل في شتى المنازعات والخصومات بين كافة الدول والملل والمجتمعات دون حق التعقيب عليها من أحد ! بل على العالم أجمع الانصياع التام والعبودية الكاملة والطاعة المطلقة لتلك الطائفة الحاكمة.
وأما عن حكم هذا النظام الخبيث : فمن المعلوم بالاضطرار من الدين : أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت ، وهذا الحد متوفر في هذا النظام الخبيث لا ستباحته حق التشريع وسن القوانين والحكم بما شاء من غير تقيد أو امتثال لحدود الله سبحانه التي حدها في كتابه وسنة رسوله ﷺ وهذا هو لب العبادة وأصلها . والدليل على ذلك : حديث عدي بن حاتم - رضي الله عنه - عندما أقسم بالله للنبي ﷺ أنهم - أي أهل الكتاب - ما وقعوا في عبادة الأحبار والرهبان ، فاحتج النبي ﷺ بوجود أصل العبادة ولبها ، فقال : « **ألم يحلوا لكم الحرام، ويحرموا عليكم الحلال فاتبعتموهم** » قال : بلي. قال : «**فتلك عبادتكم إياهم**». وقال القرآن في حقهم : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة : ٣١].
فتلك الأمة عندما أنزلت أحبارها ورهبانها منزلة ربها في التحليل والتحريم والتشريع من دونه خرجت بذلك عن عبادة ربها إلى عبادة الأحبار والرهبان . فكيف بمن يتخذ أحبار ورهبان وأئمة الكفر لملة لا يدين بها أرباباً من دون الله ؟!!
أما عن كيفية الكفر والبراءة من هذا الطاغوت : فيجب على كل مسلم أن يعلن الكفر والبراءة من هذا الطاغوت والانخلاع من طاعته في شريعته امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا** ﴾ [البقرة : ٢٥٦]
ولا يكفي هذا حتى يعادي عُبَّاد هذا الطاغوت ويظهر لهم العداوة و البغضاء أبداً حتى يكفروا به ويؤمنوا بالله وحده ، قال تعالى : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾ [الممتحنة : ٤].

تتسم بسمتين رئيسيتين هما :

١ـ التسارع الشديد والمفاجآت التي تصحبها ، إلى حد أن المتابع لهذه الأحداث لا يفتأ يسمع بحدث ويبحث عن الموقف منه إلا وتفجؤه أحداث أخر تنسيه أو تشغله عن الحدث الأول .

٢ ـ إن أغلب هذه الأحداث ـ إن لم نقل كلها ـ تقع في المنطقة الإسلامية وأن المسلمين فيها هم المستهدفون بالدرجة الأولى .

إن هذا الصراع الذي نعيشه في الآونة الأخيرة قد رجحت فيه قوة الكفر والكافرين ـ لحكمة يعلمها الله عز وجل ، كما سبق أن بينّا ـ فاستباحوا بذلك ديار المسلمين ودماءهم و أعراضهم وبلغ المسلمون من الذلة والمهانة واستخفاف أعدائهم بهم ما لا يعلمه إلا الله عزوجل .

وفي ظل هذه الحملة الشرسة على ديار المسلمين ودينهم وأعراضهم صار الكثير من الدعاة إلى الله عز وجل يتساءلون مع بعضهم أو مع أنفسهم .

أما آن لهذه المهانة أن تنقشع ؟ متى ينجلي هذا الليل الطويل الذي ناء تحت كلكله كل مسلم غيور يهمه أمر هذا الدين ؟ متى يبزغ فجر الإسلام ؟ وبشكل عام ظهر سؤال كبير ألا وهو ذاك السؤال الذي سأله الرسول ﷺ والذين آمنوا معه بعدما أصابتهم البأساء والضراء وزُلزلوا فقالوا : متى نصر الله؟

قال الله تعالى واصفًا هذه الحالة : ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [البقرة : ٢١٤] .

من أجل ذلك جاءت هذه الدراسة المتواضعة في محاولة للإجابة على هذا السؤال الكبير من حيث المنهج لا من حيث الموعد ، لأن الموعد قريب إن شاء الله ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، ولكن المهم هو الطريق المؤدي إليه .

أسأله سبحانه أن يلهمنا رشدنا وأن يرزقنا السداد في القول والعمل .

❋ ❋ ❋

• من سنن الله عز وجل في النصر •

لابد لمن يريد نصرة دين الله عز وجل والتمكين له في الأرض أن يتعرف على سنن الله تعالى في نصرة دينه ، وبدون هذه المعرفة لن يتم الاهتداء إلى الطريق ، وبالتالي ستضيع الأوقات والجهود ولما يأت نصر الله .

ومن هذه السنن ما ورد في الآيات التالية من كتاب الله عز وجل :

السنة الأولى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم : ٤٧] .

السنة الثانية : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١]

السنة الثالثة : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد : ٣٨]

وتفصيل هذه السنن فيما يلي .

❋ ❋ ❋

السُّنَّةُ الأولى

إن نصر الله عز وجل لدينه ولعباده المؤمنين آت لا محالة وإن التمكين للإسلام في الأرض سيتم بعز عزيز أو بذل ذليل ، هذا وعد الله سبحانه والله لا يخلف الميعاد ، يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] .

ويقول تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور : ٥٥] .

ويقول سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١]

وقال عز من قائل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، كما أن الوعد بنصرة دين الله عز وجل جاء على لسان رسوله ﷺ حيث قال : « **إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها** »[1] ، وقال ﷺ : « **ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا**

(١) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩).

أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يُذل به الكفر »[١]، وقال ﷺ : « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت »[٢].

يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١].

«أي : قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ﴿ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر : ٥١ ، ٥٢]. وقال هاهنا : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي : كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة» اهـ[٣].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٠٣)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣).
(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٧٣)، وهو في السلسلة الصحيحة (٥).
(٣) تفسير ابن كثير ، سورة المجادلة ، الآية : ٢١ .

ويقول رحمه الله تعالى عند تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ الآية:

«قد أورد أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالاً، فقال: قد عُلم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه كيحيى وزكريا وشعياء، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى. فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض فإن هذا سائغ في اللغة.

والثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعياء سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم.

وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحاكماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام، وهذه نصرة عظيمة.

وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه، أنه ينصر عباده

المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**يقول الله تبارك وتعالى : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**»[1]، وفي الحديث الآخر : «**إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب**»، ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح ، وعاداً، وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق ، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين فلم يُهلك منهم أحداً، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً ، قال السدي : لم يبعث الله عزوجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه ، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق يُقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم و يطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا . قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها .

وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه؛ فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم، وخذلهم، وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ، ثم مَنَّ عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح عليهم مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم ، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك ، وفتح به اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها ، ودخل

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢).

الناس في دين الله أفواجاً، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عز وجل ، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا ، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها ، ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة ، ولهذا قال تعالى :﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا** ... ﴾ الآية، أي: يوم القيامة يكون النصرة أعظم وأكبر وأجل »[1] اهـ .

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ حول هذا المعنى: « إن وعد الله واقع وكلمة الله قائمة ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [الصافات ١٧١ ـ ١٧٣] هذه هي الحقيقة في كل دعوة لله يخلص فيها الجند ويتجرد لها الدعاة أنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق وقامت في طريقها العراقيل ، ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار وقوى الدعاية والافتراء، وقوى الحرب والمقاومة ، وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله والذي لا يخلف ، ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه ؛ الوعد بالنصر والغلبة والتمكين ، هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية ، سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دورتها المنتظمة ، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء ، ولكنها مرهونة بتقدير الله يحققها حين يشاء» .

---

(١) تفسير ابن كثير ، سورة غافر ، الآية : ٥١ .

إلى أن يقول رحمه الله تعالى : « والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة فإذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة فهذا الواقع هو الباطل الزائل الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة لعل منها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم ،وحيث ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية ، ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين يحميهم من الانهيار ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما تنقض عليه وتحطمه ، حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاول يجد مصداق قول الله تعالى ، يجده في هذا الواقع دون الحاجة إلى الانتظار الطويل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة : ٢٠ ، ٢١]

وعلى كل حال فلا يخالج المؤمن شك في أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التي لابد أن تظهر في الوجود .

إن وعد الله قاطع جازم ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر : ٥١] بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يلقى في الأخدود ومنهم من يستشهد ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد، فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان في النفوس من

هذا المدخل ، ويفعل بها الأفاعيل ، ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير ! !

إن الناس يعيشون فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان ، وهي مقاييس بشرية صغيرة ، فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان ، ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك ، وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها ، فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها ، وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها »[١] اهـ .

مما سبق يتبين لنا أهمية اليقين بوعد الله عز وجل في نصرة أوليائه ، وأنه آت لا محالة ، فإذا تأخر نصر الله عز وجل ، واشتد الكرب على المؤمنين بتسليط أعدائهم عليهم فإن هذا لا يعني عدم تحقق وعد الله وعدم مجيء نصره سبحانه ، ولكن لتأخره حكم وأسباب ، فبدلاً من اليأس من وعد الله عز وجل بالنصر يجب أن يتوجه البحث والتفكير عن أسباب تأخره التي يجب أن يتوجه الجهد لإزالتها ، وإيجاد المناخ والأسباب التي تهيئ لنصر الله عز وجل .

وقد ذكر سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأمور التي قد يتأخر نصر الله عز وجل بسببها فقال :

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن، ص ٣٥٤ .

* «والنصر قد يبطئ لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات ، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً . .

* وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً ، لا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله . .

* وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر . . إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله . .

* وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة ، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار ، فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطئ النصر ، فتتضاعف التضحيات وتتضاعف الآلام ، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية ، وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه ، وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه . .

* وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم

وتبـذل ، ولا تجـد لهـا سنداً إلا الله ولا متـوجهـاً إلا إليـه وحـده في الضراء . . وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله.. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به . .

* وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته ، فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها ، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه .

وقد سئل رسول الله ﷺ : الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل ليرى ، فأيها في سبيل الله ؟ فقال : « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** »(١) .

* كما قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكاً ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار . .

* وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً ، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى

---

(١) متفق عليه .

يتكشف عارياً للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية»[1] اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص ٣٥٩.

تنبيه : حول وجوب تعرية الباطل نقول : نعم لن تقوم لنا قائمة ويسود ديننا ـ الذي اصطفاه الله لنا ـ قبل تعرية الباطل والكشف عن وجهه الخبيث ، فكم من أناس من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا أجسادهم أجساد إنس وقلوبهم قلوب شياطين ، دعاة على أبواب جهنم من قبل دعوتهم قذفوه فيها . وقد كان دور هؤلاء الشياطين : ضرب الدين بالدين وتزييف الحقائق وقلب الموازين ، فهم يُحسِّنون كل قبيح ، ويُقبِّحون كل حسن . كل هذا عن طريق لي أعناق النصوص تارة ، وعن طريق التحريف لها تارة ، وعن طريق التحلل التام من قيودها تارة أخرى . ومن صور قلبهم للحقائق : أن أخرجوا الوثنية في ثوب التوحيد ، والبدعة في لباس السنة ، وموالاة اليهود والنصارى تحت شعار التعايش السلمي ، والإخاء ووحدة الأديان ، وكذلك المعاصي والفجور تحت ستار الرقي والتقدم ، والقضاء على حاكمية القرآن لإنهاء التخلف والجمود والرجعية ، وإحلال رايات وثنية ـ مثل القومية العربية والوطنية والعلمانية ـ محل راية التوحيد ، وكذا التولي والخذلان والمهانة مكان الجهاد والنصرة والعزة . . فهؤلاء الشياطين وأعوانهم يجب فضحهم ، وكشف خبث طويتهم وحقدهم اللئيم على الإسلام والمسلمين ، حتى تكفر بهم الأمة ، وتبرأ إلى الله منهم ، وتعلم الشعوب كم كانت ضحية لهؤلاء الشياطين يتاجرون بهم لتحقيق مآربهم وحظوظ نفوسهم ، وليعلم الدعاة إلى الله أن فضح وتعرية هؤلاء من أعز مقاصد التشريع امتثالاً لقول مولانا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وتحقيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ .

السُّنَّة الثانية

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]

إن كثيراً من الدعاة والمصلحين ليعلمون هذه السنة العظيمة القدر ، لكن الواقع العملي يغفل في كثير من الأحيان عن هذه السنة ، والتي هي مفتاح النصر والتمكين وهي المدخل لتغيير واقعنا ، حيث قضى الله عز وجل أنه لا يغير أحوال قوم أو أمة حتى يبدأوا هم فيغيروا ما بأنفسهم ويصلحوا أحوالهم، فيغير الله ما بهم ويأخذ بأيديهم ويعينهم .

وهذا يعني أنه متى تأخر نصر الله عز وجل مع الحاجة الماسة إليه فإن هناك أسباباً في تأخره ولا شك، ومن أهم هذه الأسباب أن الذين يبحثون عن نصر الله تعالى لم يغيروا ما بأنفسهم بعد .

وحينئذ يجب أن تتوجه الجهود إلى العمل الجاد في التغيير الذي يبدأ من داخل النفس ومن داخل الصف المسلم حتى يغير الله عز وجل ما بنا وتتهيأ الأسباب الجالبة لنصر الله تعالى .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله عز وجل : «﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣] : يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ

مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ »[(١)] اهـ .

وهذه السنة الربانية ذات دلالتين في حالنا وواقعنا المعاصر :

أولاهما : أن التباين الشديد والهوة السحيقة بين الحياة الذليلة المهينة والضعف والانحسار وفقدان الثقة الذاتية مع تلقي المناهج والقيم والشرائع الغربية لتحقيق الذات واستمداد العزة ، وكذلك الهزيمة النفسية التي حلت في جذر قلب الأمة اليوم ،إن الفرق بين حياتنا هذه وبين الحياة العزيزة المهيمنة المستعلية القوية المتملكة لزمام العالم أجمع ، تلك الحياة التي كانت تُتبع ولا تَتبع وتقود ولا تقاد كانت أبرز سمات عصر سلفنا الصالح ، إن كل هذا التباين الشديد بيننا وبين سلف الأمة خير شاهد ودليل على أننا غيّرنا ما بأنفسنا فغيّر الله حالنا .

ثانيهما : أن حالنا اليوم لن يغيره الله حتى نغيّر ما بأنفسنا من كثرة البدع والشرك بشتى صوره ـ الجلية و الخفية ، الظاهرة والباطنة ـ ،وكذلك التبعية الغربية النابعة من انحسار الإيمان وعدم الاستعلاء به في النفوس مع فقدان الثقة في نبع عزنا ، وأيضاً محو آثار المعاصي والفجور التي لبست ثوب المباح والتقدم والرقي ، وخلعت لباس التقوى والعزة والكرامة . . مع الفرار مما سبق كله إلى إفراد الله ـ جل ثناؤه ـ بالحب والخوف والإنابة والتلقي والتوجه مع تجريد الولاء لله ولدينه ولرسوله ﷺ وللمؤمنين ، والشعور باستعلاء الإيمان في النفوس والثقة بهيمنة كتابنا وحاكميته المطلقة لكافة شؤون الحياة وأنه نبع العز والتمكين ، وأن تكون تلك هي الراية المعلنة

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، سورة الأنفال ٥٣ .

الخالصة من أية إضافة أو شائبة ، فعند هذا يُغيّر الله حالنا .

يقول صاحب الظلال ، رحمه الله تعالى :

« إن الله تبارك وتعالى يحرض المؤمنين على التجرد له والاتجاه إلى نصرة نهجه في الحياة ،ويعدهم على هذا النصر والتثبيت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد : ٧ ، ٨] وكيف ينصر المؤمنون الله ؛حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت ؟ إن لله في نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئاً ، شركاً ظاهراً أو خفياً ، وألا تستبقي فيها معه أحداً ولا شيئاً وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ،وأن تُحكّمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها وسرها وعلانيتها ونشاطها كله وخلجاتها ، فهذا نصر الله في ذوات النفوس .

وإن لله شريعة ومنهاجاً للحياة تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة ، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء فهذا نصر الله في واقع الحياة . .

وإنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين وتمثلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة ونظاماً للحكم وتجرداً لله في كل خاطرة وحركة وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً . . وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها . . ونحن نقرر في ثقة بوعد الله لا يخالجها شك أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة في حقيقة

الإيمان ـ إما في الشعور وإما في العمل ـ ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله ، وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة ـ وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ثم يعود النصر للمؤمنين ـ حين يوجدون . .

ففي أحُد مثلاً كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ﷺ وفي الطمع في الغنيمة ، وفي حُنَيْن كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل، ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئاً من هذا . . نعرفه أو لا نعرفه . . أما وعد الله فهو حق في كل حين . . نعم إن المحنة قد تكون للابتلاء . . ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة هي استكمال حقيقة الإيمان ومقتضياته من الأعمال. فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين . .

ويجب أن نفهم أن الهزيمة هي هزيمة الروح وكلال العزيمة . . فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس هموداً وكلالاً وقنوطاً ، فأما إذا بعثت الهمة وأذكت الشعلة وبصرت بالمزالق وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق . . فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد والله سبحانه يقول: ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾ [النساء: ١٤١] وإنما يشير سبحانه إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر والفكرة المؤمنة هي التي تسود . وإنما يدعو سبحانه الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصوراً وشعوراً ، وفي حياتها واقعاً وعملاً . . وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها . فالنصر ليس للعناوين وإنما

هو للحقيقة التي وراءها . . وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك .

ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة . ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعداء وألا نطلب العزة إلا من الله ، ووعد الله هذا الأكيد يتفق تماماً مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر في هذا الكون ، إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى التي لا تضعف ولا تفنى ، وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها ، ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون ، غير أنه يجب أن نفرق دائما بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان . .

إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل . وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها . ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن حقيقة الكفر تغلبه إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها ؛ لأن حقيقة أي شيء أقوى من مظهر أي شيء ، ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان ، إن قاعدة المعركة لقهر الباطل هي إنشاء الحق وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين الباطل مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول ، فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير ، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد

أن يستعلوا بالحق في الباطن . .

إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية ، فإذا ظل الإيمان : مظهراً لم يتجسم في القلب ، والحق : شعاراً لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان ؛ لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان ، يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب ، فتصبحان أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ، ويصول بها الطغيان »[1] اهـ .

ونختم الحديث حول هذه السنة بكلام بديع لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى ، ننقله بطوله لعظيم فائدته - حيث يقول رحمه الله تعالى :

«ولكن تُذكر هنا نكتة نافعة ، وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من مصائب ، وما يصيب كثيراً من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك ، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ، وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلاً ، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين ، وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأن العاقبة للتقوى ، وقول الله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [الصافات : ١٧٣] - وهو ممن يصدِّق بالقرآن - حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط ، وقال : أما في الدنيا فما نرى بأعيننا إلا أن الكفار

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص٢٤٨ .

والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين ، ولهم العزة والنصرة ، والقرآن لا يَرد بخلاف المحسوس ، ويعتمد على هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى ، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق ، فيقول : أنا على الحق وأنا مغلوب ، وإذا ذكره إنسان بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين، قال : هذا في الآخرة فقط .

وإذا قيل له : كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور ؟ قال : يفعل ما يشاء ، وربما قال بقلبه أو لسانه ، أو كان حاله يقتضي أن هذا من نوع الظلم ، وربما ذكر قول بعضهم : ما على الخلق أضر من الخالق ، لكن يقول : يفعل الله ما يشاء . وإذا ذُكِّر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء ، فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور ومؤيد ، بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء .

وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين :

إحداهما : حسن ظنه بدين نفسه نوعاً أو شخصاً، واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه ، وتارك ما نُهي عنه في الدين الحق ، واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك : أن دينه باطل نوعاً أو شخصاً ، لأنه ترك المأمور وفعل المحظور .

والمقدمة الثانية : أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره . وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا ، فلا ينبغي الاغترار بهذا .

والمقدمتان اللتان بنيت عليهما هذه البلية مبناهما على الجهل بأمر الله

ونهيه، وبوعده ووعيده . فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق ، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور ، وتارك للمحظور، وهو على عكس ذلك، وهذا يكون من جهله بالدين الحق .

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا ، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين، ولأهل الفجور على أهل البر ، فهذا من جهله بوعد الله تعالى .

أما الأول: فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها ، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها، بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ، ولا يكون الأمر كذلك ، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم، ومع خصمه نوع من الحق والعدل .

وحبك الشيء يعمي ويصم، والإنسان مجبول على محبة نفسه ، فهو لا يرى إلا محاسنها ، ومبغض لخصمه، فلا يرى إلا مساوئه ، وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم ، فإن الإنسان ظلوم جهول .

وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم ، وتقليدهم في التصديق والتكذيب، والحب والبغض ، والموالاة والمعاداة .

كما قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [لقمان: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا** ﴾ [الأحزاب: ٦٦، ٦٧].

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورى : ١٤].

وأما **الثاني** : فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه، بخلاف من فارقهم إلى طاعة أخرى أو سبيل آخر، ويكذب بوعد الله بنصرهم.

والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١].

وقال تعالى في كتابه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣].

وقال تعالى في كتابه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [المجادلة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢٠، ٢١] .

وقال تعالى في كتابه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٥، ٥٦].

وقال تعالى في كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

[الأنفال : ٢٩]

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٢، ٣].

وقد روي عن أبي ذر، عن النبي ﷺ أنه قال: «لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم» رواه ابن ماجه وغيره(١).

وأخبر أن ما يحصل لهم من مصيبة انتصار العدو وغيرها ، إنما هو بذنوبهم ، فقال تعالى في يوم أحد : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الروم: ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [الشورى: ٣٤].

وذم في كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين ،وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين، فقال تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٢٠)، ورواه أيضاً الإمام أحمد (٥/ ١٧٨) بلفظ : « لو أن الناس كلهم أخذوا بهذه الآية لكفتهم » ، وقال الألباني في مشكاة المصابيح : إنه ضعيف .

الأَبْصَارُ وبَلَغَت الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً ﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١٤].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩ - ١١١].

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم، وهو طاعته، وهو المقدمة الأولى. وأمرهم بانتظار وعده، وهي المقدمة الثانية. وأمرهم بالاستغفار والصبر، لأنهم لابد أن يحصل لهم تقصير وذنوب فيزيله الاستغفار، ولابد مع انتظار الوعد من الصبر، فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد، وإن كان هذا كله يدخل في مسمى الطاعة والإيمان.

قال تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس : ١٠٩] .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

[الأنعام : ٣٤]

وقال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود : ٤٩].

وأمرهم أيضاً بالصبر إذا أصابتهم مصيبة بذنوبهم ، مثل ظهور العدو ، وكما قال تعالى في قصة أحد : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩ - ١٤١].

وأيضاً فقد قص سبحانه في كتابه نصره لرسله ولعباده المؤمنين على الكفار في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفرعون وغير ذلك . وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النور : ٣٤].

وهذا يتبين بأصلين :

أحدهما : أن حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لطائفة أو شخص لا ينافي ما يقع في خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ومن أنواع الأذى ، وذلك أن الخلق كلهم يموتون ، فليس في قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما

هو معتاد لبني آدم ، فمن عد القتل في سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس ، بل إن الفتن التي تكون بين الكفار وتكون بين المختلفين من أهل القبلة ليس مما يختص بالقتال ، فإن الموت يعرض لبني آدم بأسباب عامة ، وهي المصائب التي تعرض لبني آدم من مرض بطاعون وغيره ، ومن جوع وغيره . وبأسباب خاصة ، فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل ، بل الأمر بالعكس ، قد جرَّبه الناس .

ثم موت الشهيد من أيسر الميتات، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ **قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ١٦، ١٧].

فأخبر سبحانه أن الفرار من القتل أو الموت لا ينفع ، فلا فائدة فيه ، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً ، إذ لابد من الموت .

وأخبر أن العبد لا يعصمه من الله أحد إن أراد به سوءاً أو أراد به رحمة وليس من دون الله ولي ولا نصير ، فأين نَفرٌ من أمره وحكمه ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ، قال تعالى: ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الذاريات: ٥٠] وهذا أمر يعرفه الناس من أهل طاعة الله وأهل معصيته ، كما قال أبو حازم الحكيم : «لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقاه الذي يتقي الله من معالجة التقوى» .

والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيماناً أعظمهم بلاء، كما قيل للنبي ﷺ : أي الناس أشد بلاء ؟ قال : «**الأنبياء، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلىَ الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي**

على الأرض وليس معه خطيئة»[1] .

فالجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماء من وجوه :

أحدها : أن ذلك أعظم في ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم ، لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله ، لأن تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله .

الثاني : أن ذلك أنفع للكفار أيضاً ، فإنهم يؤمنون من الخوف ، ومن أسر منهم وسيمَ من الصغار يسلم أيضاً ، وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

قال أبو هريرة : «وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة» ، فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأفلح بذلك المقاتَلون ، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا من معنى كون محمد ﷺ ما أرسل إلا رحمة للعالمين ، فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه حتى المكذبين له ، هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره .

ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين قال : «**لا ، استأن لهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له** » .

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٤٠٠) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣) وهو في السلسلة الصحيحة (١٤٣) .

(٢) رواه البخاري بنحوه في بدء الخلق (٣٢٣١) ، ومسلم في الجهاد (١٧٩٥) .

الوجه الثالث : أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله ، وأكثر لهم ، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك ، وأمر المنافقين الفجار بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو من تمام الجهاد وكذلك إقامة الحدود .

ومعلوم أن في الجهاد وإقامة الحدود من إتلاف النفوس والأطراف والأموال ما فيه ، فلو بلغت هذه النفوس النصر بالدعاء ونحوه من غير جهاد ، لكان ذلك من جنس نصر الله للأنبياء المتقدمين من أممهم لمّا أهلك نفوسهم وأموالهم .

وأما النصر بالجهاد وإقامة الحدود فذلك من جنس نصر الله لما يختص به رسوله، وإن كان محمد ﷺ وأمته منصورين بالنوعين جميعاً ، لكن يشرع في الجهاد باليد ما لا يشرع في الدعاء»[1] اهـ .

❁ ❁ ❁

(١) جامع الرسائل ، جـ٢ الرسالة الثالثة (قاعدة في المحبة)، ص٣٢٤-٣٣٩ .

• السنة الثالثة •

بالجمع بين السنة الأولى والثانية تظهر معالم هذه السنة، وذلك لو أن الناس لم يغيروا ما بأنفسهم، فهل معنى هذا أن نصر الله عز وجل لن يأتي ؟

والجواب: كلا، فلا بد من أن يأتي نصر الله عز وجل، كما تقرر ذلك في السنة الأولى ولكن يقف في سبيل ذلك عدم الأخذ بالسنة الثانية في التغيير. وفي هذه الحالة تأتي سنة الله عز وجل الثالثة والمتضمنة تبديل من رفضوا تغيير ما بأنفسهم وواقعهم بجيل يحبهم الله عز وجل ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لا يخافون في الله لومة لائم. فيحققون بذلك أسباب النصر، فينزل الله عز وجل عليهم نصره ويشرفهم به.

وهذا كثير في كتاب الله عز وجل حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، ويقول تعالى: ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ... الآية﴾ [التوبة: ٣٩]، ويقول جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلاً»[1].

❋ ❋ ❋

محصلة السنن الثلاث:

إن نصر الله عز وجل آت لا محالة، ولكن له أسباب وسنن، وهو يبدأ من تغيير الناس ما بأنفسهم أولاً حتى يغير الله عز وجل ما بأرضهم ويمكن لهم دينهم، وإنهم إن لم يغيروا ما بأنفسهم فإن هذا لا يعني عدم مجيء نصر الله عز وجل، وإنما يستبدل الله عز وجل قوماً آخرين يحققون أسباب النصر والتغيير ويشرفهم سبحانه بأن ينزل عليهم نصره المبين، ويدفع بهم الفساد، ويعذب الكافرين بأيديهم.

وبعد إيضاح هذه السنن وعلاقة بعضها ببعض يحسن بنا أن نذكر جملة من العوائق في طريق النصر حتى يتوقاها المسلمون ويكونوا منها على بينة وبصيرة.

❋ ❋ ❋

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، سورة المائدة، الآية: ٥٤.

عوائق في طريق النصر

إن العوائق والتحديات التي تعترض سبيل الدعوة اليوم كثيرة جداً بعضها أخطر من بعض ، وقد أدت هذه العوائق ببعض النفوس إلى داء خطير إذا حل في النفوس حطمها وأذلها ، ألا وهو اليأس أو الهزيمة النفسية من الداخل ، وهذا الداء هو في حد ذاته من أكبر العوائق .

وقد حذر الله عز وجل من هذا الداء أن يتسرب إلى نفوس المؤمنين به سبحانه ؛ لأن بمجرد دخول الإيمان إلى القلوب فإنه ينفي الهوان والذلة والضعف عنها ، ويورثها القوة والعزة والكرامة مهما كانت الظروف التي تعيشها هذه القلوب المؤمنة من تشريد أو سجن أو تعذيب . فغاية ما يملكه المتسلطون هو الجسد فقط ، أما القلب المعمور بالإيمان ففيه قوة الإيمان التي تستعلي على كل ابتلاء وهزيمة واستضعاف .

والله سبحانه يقول للمؤمنين وقد أصابهم القرح في أحد : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، فلا يجتمع الوهن والاستكانة مع الإيمان الحقيقي أبداً .

وقال أيضاً في هذا المقام : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا

وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1] [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧] .

فتأمل وصفه تعالى للربيين عند حلول المصيبة بأنهم ما ضعفوا . . وما استكانوا . . وما وهنوا . . فكيف بعد هذا للهوان أو اليأس أن يتطرق إلى قلوب المؤمنين في أي ظرف من الظروف وهم يملكون الإيمان الذي يرفعهم على كل هزيمة وكيد ومكر ؟

وبعد هذه التوطئة التي لا بد منها نعود إلى ذكر أهم هذه العوائق التي تقف في طريق النصر والتي يمكن إجمالها في :

١ـ العوائق الخارجية .

٢ـ العوائق الداخلية .

أولاً ـ العوائق الخارجية :

ويقصد بها تلك العوائق والتحديات الواردة من خارج الصف الإسلامي وذلك من أعداء هذا الدين والمتمثلين فيما يلي :

---

(١) إن هذه الآية ترسم الموقف الشرعي حال الاستضعاف والهزيمة حيث يتمثل في أربعة معالم أساسية :

أ ـ الحذر من الهوان والذلة والاستكانة عند الهزيمة ؛ لأن المؤمن يركن إلى من بيده ملكوت كل شيء .

ب ـ مراجعة النفس لأنها في الغالب منها المصائب والهزائم وذلك من ذنوبها وإسرافها في أمرها ، وهذا هو الذي فعله الربيون عندما أصابهم القرح﴿ **وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** ...﴾ الآية .

جـ ـ الصبر الجميل في مثل هذه الظروف ، ودعاء الله عز وجل ، وهذا ما مدحهم الله عز وجل به حيث قال في آخر الآية : ﴿ **والله يحب الصابرين** ﴾.

د ـ دعاء الله عز وجل بالثبات على الدين والانتصار على الكافرين .

١ـ الكفار الصرحاء الذين أسفروا عن عدائهم وحقدهم على الإسلام وأهله كاليهود والنصارى والوثنيين وغيرهم .

٢ـ المنافقون المظهرون للإسلام والمبطنون للكفر والزندقة ، وهؤلاء من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا كما هو الحال من العلمانيين والباطنيين الذين يكيدون لهذا الدين ويوالون أعداءه من اليهود والنصارى .

٣ـ الأنظمة الحاكمة في أكثر بلدان المسلمين التي وجهت عداءها وكيدها على شعوبها المسلمة باسم مكافحة التطرف والإرهاب فأكثروا في الأرض الفساد ووقفوا في وجه كل حركة إصلاحية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

ثانياً ـ العوائق الداخلية :

ويقصد بها العوائق التي توجد داخل الصف المسلم من الانحراف الموجود في الفهم أو القصد ، وهذه العوائق تتمثل فيما يلي :

١ـ عوائق داخل الصف الإسلامي للدعاة تتمثل في الفُرقة المشينة والاختلاف والشحناء والبغضاء .

٢ـ عوائق داخل نفوس أفراد الدعوة من أمراض وأدران وركون إلى الدنيا وتحاسد ورياء وكبر . . إلخ .

وبمقارنة العوائق الواردة من الخارج بالعوائق الواردة من داخل الصف الإسلامي يظهر لنا خطورة العوائق الداخلية وأثرها في تأخر نصر الله عز وجل ، ولولم توجد العوائق الداخلية لما كان للعوائق الواردة من الخارج أن تؤثر بكيدها ومكرها في الصف الإسلامي والمجتمع المسلم .

قال تعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

[آل عمران: ١٢٠]

ففي هذه الآية الكريمة يعلمنا الله عز وجل أن كيد العدو الخارجي لا يضر المؤمنين شيئاً إذا اتصفوا بالصبر والتقوى ؛ لأن الله عز وجل محيط بعمل الكفار وتخطيطهم ، وهم في قبضته والعكس بالعكس؛ فمتى ظهر كيد الكفار في الصف المسلم فإن هذا دليل على ضعف الصبر والتقوى ، ويؤكد هذا المعنى أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

مما سبق يتبين لنا خطورة العوائق الداخلية وأن التغيير المنشود في الأرض يبدأ من التغيير في النفس وتفقدها سواءً في سلامة الفهم والمعتقد أو في سلامة المقصد والنوايا ، وأن أي خلل في الفهم والقصد يظهر أثره في تسلط الأعداء وتأخر نصر الله عز وجل .

إنه بدلاً من أن نسقط أسباب ضعفنا ومهانتنا على عدونا الخارجي ؛ يجب علينا أن نرجع إلى أنفسنا ونتوجه إلى إصلاحها وإصلاح ذات بيننا حتى نكون أهلاً لنصر الله عز وجل وحتى يغير الله ما بنا .

إن إصلاح النفوس وإقامة حكم الله فيها عقيدة وعبادة وسلوكاً هو الطريق إلى إقامة حكم الله في الأرض . . وإلا فما قيمة المطالبة بإقامة حكم الله في الأرض واستعجال نصر الله تعالى ، ولما تستقم النفوس على منهج الله تعالى وتنقد له؟!

وما أحسن مقولة من قال : «أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم على أرضكم» .

إن المسلم العارف لسنن الله عز وجل في التغيير ليتألم من حالنا وواقعنا وما حل بيننا من فرقة وشحناء وأهواء ، ويتساءل بمرارة كيف يأتي نصر الله عز وجل في هذه الظروف والله عز وجل يقول : ﴿ **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال : ٤٦] ؛ هذا على مستوى الدعاة والجماعات ؟!!

أما إذا جئنا إلى نفوس الدعاة كأفراد فإن المراقب لواقعنا وأخلاقنا واهتماماتنا لا ينقضي عجبه وهو يرى ذلك التناقض بين ما يدعو إليه الداعية وبين سلوكياته وأخلاقه ، وبالتالي يتكرر نفس السؤال المطروح آنفاً ، كيف ينزل نصر الله عز وجل على أناس هذه أخلاقهم وتلك تضحياتهم وهذه مقاصدهم ؟!!

يقول الدكتور محمد أمين المصري ـ رحمه الله تعالى ـ حول هذا الموضوع :

« إن الأعداء في الخارج يرقبون حركات المسلمين ويتربصون بهم الدوائر ويكيدون لهم كيداً ، ويمكرون بهم مكر الليل والنهار ، ومرجع هذا الصراع إلى عصور مترامية تمتد إلى الحين الذي دكت فيه عروش القياصرة والأكاسرة وامتد حكم الإسلام إلى أطراف العالم ؛ فهنالك الحركة الصليبية ، وهنالك الصهيونية والاستعمار الغربي والشرقي ، وهؤلاء جميعاً يختلفون فيما بينهم ولكنهم يصطلحون على حرب المسلمين ، ويجمعون أمرهم كيلا تقوم للمسلمين قائمة ولا تجتمع لهم كلمة . ويعتبر هذا الجانب خارجياً ، وهو ـ

وإن بلغ ذروة الكيد ـ ليس أكبر الجانبين أهمية بل هو ـ كما سنرى ـ نتيجة تابعة للعامل الثاني الذي هو الجانب الداخلي وهو المجتمع الذي يعيش فيه المسلمون ، وهنا نجد عقبات في الأفراد أنفسهم وفي تنشئتهم وتربيتهم .

وليس من شك في أن أكبر الأخطار التي تواجه المسلمين اليوم كامنة في النقص في تربية أفراد المسلمين أنفسهم ، والضعف الذي أصيب به شبابهم .

وأكبر المصائب أن يصاب الفرد بنفسه ؛ ذلك لأن معالجة أي خطر ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قوية تستطيع أن تجابه المصاعب وتصمد للحوادث .

ومن عادة الضعيف أن يلقي بأسباب ضعفه على عوامل خارجية يدَّعي أنه لايملك التصرف فيها ليسوغ لنفسه ما هو فيه ، ولقد اعتدنا أن نفعل ذلك وأن نلقي تبعات ما نحن فيه من ضعف وتقصير على الاستعمار أولاً ، وعلى الماضي ثانياً ، وعلى مجتمعنا ثالثاً ، ولايخطر ببال أحدنا أن يجعل نفسه مركز الاتهام بينما يجعل القرآن العامل الأساسي فيما يصيب الإنسان من مصيبة هو نفسه ، قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ .

[آل عمران : ١٦٥]

يبين الله تعالى بشأن بني النضير حين غلبهم المسلمون أنهم أُتوا من حيث لم يحتسبوا وكان ذلك من قبل أنفسهم . قال تعالى : ﴿ **مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا**

أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر : ٢] .

لم يؤت هؤلاء من نقص في ذخيرتهم أو عددهم أو حصونهم ، ولكنهم أُتوا من قِبل أنفسهم ، أيضاً قال رسول الله ﷺ : «**ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت**»(١) .

الحديث الكريم يخبر عن سنة عميقة من سنن الاجتماع تبين ما تنتهي إليه الجماعة حين تفسد فطرتها وتملأ الدنيا قلوب أفرادها ، ولقد كشف هذه الحقيقة الباحثون المحدثون لدراسة الجماعات وعوامل انحطاطها . قال أحد هؤلاء : إن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط داخلية لا خارجية . وليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة في أصولها ، إنما اللوم على الشجرة النخرة نفسها .

والقرآن الكريم يهدي إلى هذه السنة ويبين للناس بأنَّ ما يقع على الأمم من ظلم واضطهاد مرجعه إلى الناس أنفسهم وما كسبت أيديهم ، ولذا نجد التعبير بظلم النفس يتكرر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [النحل : ١١٨] .

والأمة التي تصاب بأبنائها هي التي تتعرض للمصائب والنكبات وتصبح عرضة لغزو العدو .

فهي إذن عوامل ثلاثة تعمل معاً : عدو خارجي متربص ، ومجتمع ، وأفراد . والمكانة التي تشغلها الأمة من محصلة هذه العوامل الثلاثة ، فقد

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم (٤٢٩٧) . وهو في صحيح سنن أبي داود (٣٦١٠) .

تكون بسبب ضعفها الداخلي مغزوة من الخارج، وقد تكون بسبب قوتها الداخلية وتماسك مجتمعها غازية في الخارج.

وليست الحياة إلا صراعاً تقاوم فيه الصعوبات التي تتحدى الفرد والجماعة ثم تكون الغلبة والانتصار أو الاستسلام والهزيمة؛ تلك سنة الله منذ بدء الخليقة [1] اهـ.

* * *

(١) من كتاب المسئولية ـ الدكتور / محمد أمين المصري، ص١٣.

المعالم الرئيسية لمنهج التغيير الصحيح

إن عدم الانتباه لسنن الله عز وجل السابق ذكرها في التغيير مع العوائق الشديدة التي تواجه الدعاة إلى الله عز وجل في طريقهم قد يؤدي ذلك كله ببعض الطيبين - وقد أدى - إلى اليأس والإحباط حتى ألقى بيديه ينتظر خارقة أو مهدياً[1] ينصر الله به دينه، كما أدى ذلك بالبعض الآخر إلى أن يظن أن الحل يكمن في التنازل للأعداء والرضا بالحلول الوسط؛ فدخل في تحالفات أو مجالس وبرلمانات ليحقق بذلك بعض المكاسب للدعوة أو يدفع بعض

(١) المهدي حقيقة ثابتة نؤمن بها حيث ورد ذكره في أحاديث كثيرة أوصلها بعض العلماء إلى حد التواتر، ولكن المؤمن بوعد الله عز وجل يوقن بانتصار هذا الدين ولا يربطه بخروج المهدي، وإنما يربطه بأسبابه الشرعية. صحيح أن الانتصار النهائي الشامل لن يكون - والله أعلم - إلا بعد خروجه، لكن المهدي حينها لن يخرج على الدنيا وحده، وإنما لا بد وأن فئة من المؤمنين قد تهيأت لمخرجه وأعدت نفسها بكل ما تعني كلمة الإعداد من معنى. أما الذين أهملوا أنفسهم وركنوا لدنياهم ولم يعدوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله عز وجل سواء مع المهدي أو مع أي مصلح آخر فسوف يكونون أبعد الناس عن اتباعه ولو ظهرت على يديه الخوارق المعجزات. إن الخوارق والمعجزات لم تنفع بني إسرائيل عندما طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه، مع أن الله عز وجل قد أيده بمعجزة التابوت الذي فيه سكينة من ربهم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، ومع ذلك فقد نكل أكثرهم، ولما عرضهم على النهر شربوا منه إلا قليلاً منهم، والقليل منهم لما برزوا لجالوت وجنوده: ﴿ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾، فالعبرة إذن ليست بخروج المهدي وظهور الخوارق وأن الناس سيتبعونه إذا رأوا ذلك منه.. كلا لن يثبت ويواصل السير إلا من وفقه الله عز وجل وكان له حظ من التربية على الإيمان والصبر واليقين.

المفاسد عنها .

وفي المقابل نشأ فريق آخر يرى المواجهة واستعجال النصر ولكن قبل أوانه . كل ذلك - والله أعلم - نشأ من الضغوط الشديدة من العوائق الخارجية والداخلية وإغفال سنن الله عز وجل في التغيير .

وإن الحل لواقعنا المرير هو المنهج الصحيح في التغيير والذي يكمن في منهج الرسول ﷺ وبالذات في بدء الدعوة واستضعافها . وباستقراء معالم هذا المنهج الكريم يتبين أن أهمها ما يلي :

١- الانطلاق في الدعوة إلى الله عز وجل من أصلين عظيمين أمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن ينطلق بهما ، وهذان الأصلان مذكوران في سورة مكية حيث يقول الله عز وجل : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

فقد حددت هذه الآية الكريمة صفات الدعوة الصالحة المقبولة عند الله عز وجل وأنها هي التي ترتكز على هذين الأصلين العظيمين وهما :

الأصل الأول : ﴿ **أَدْعُو إِلَى اللَّهِ** ﴾ : والمراد من ذلك الدعوة إلى التوحيد بادئ ذي بدء[1] والموالاة والمعاداة على أساسه ، والإخلاص والصدق في

(١) أورد الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذه الآية في كتاب التوحيد باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ليدلل على أهمية التوحيد وأنه أول ما يدعى الناس إليه ، كما أنه استدل بهذه الآية أيضاً على وجوب التجرد لله سبحانه وتعالى في الدعوة إليه ، وأن تكون الدعوة خالصة له وحده ، فذكر رحمه الله تعالى في مسائل الباب حول هذه الآية قوله : التنبيه على الإخلاص ؛ لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه .

الدعوة، وأن المراد منها وجه الله عز وجل، وإخلاص العبادة له وتوحيده، وأنه لا يدعو إلى شيء إلا إلى الله عز وجل؛ لا إلى شخص، أو حزب، أو راية أو أي غرض من أغراض الدنيا ، والمراد من هذا الأصل **سلامة القصد** .

الأصل الثاني : ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ : أي أن تكون الدعوة على بصيرة وعلم ودليل واتباع للرسول ﷺ ، والمراد من هذا الأصل **سلامة الفهم** .

فإذا انطلقت الدعوة إلى الله عز وجل من قصد سليم وفهم سديد فهذه هي الدعوة الموفقة الموافقة لمنهج النبي ﷺ .

إذن فعلينا معاشر الدعاة إلى الله عز وجل أن نعيد النظر في مقاصدنا وفهومنا، إذ إن نصر الله عز وجل لا ينزل إلا على قوم قد صحت مقاصدهم فأخلصوا لله دعوتهم وعبوديتهم ، وصحت فهومهم بالسير على ما كان عليه الرسول ﷺ وصحبه الكرام عقيدة وعبادة وسلوكاً، أما إذا تأخر نصر الله تعالى فهذا دليل على خلل في القصد أو خلل في الفهم وعندئذ يجب تلافي هذا الخلل والانسجام مع سنن الله عز وجل في التغيير ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

٢ـ إيمان بالله عز وجل وبوعده الذي لا يتخلف وأن نصره تعالى لعباده المؤمنين آت لا محالة ، وأن نوقن بذلك كما نرى الشمس في رابعة النهار . وهذا ما كان يربي النبي ﷺ عليه أصحابه وهم في حالة استضعاف وإيذاء، ومن ذلك قوله ﷺ لخباب بن الأرت عندما جاءه يشكو إليه أذى المشركين ويطلب نصر الله تعالى : «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه .**

والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »(١) .

٣ ـ السعي إلى توحيد صفوف أهل السنة ورأب الصدع وتأليف القلوب وتحقيق معنى قوله ﷺ : «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر** »(٢) .

وكذلك قوله ﷺ : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً** ـ وشبك بين أصابعه »(٣) ، فهل هذه المعاني العظيمة متحققة الآن بين الدعاة المؤمنين أم أن الحاصل هو الفرقة والاختلاف ؟!

إن الله عز وجل قد حذرنا من التنازع والتفرق وأخبرنا أن الفشل والهزيمة وتغلب الأعداء ثمرة حتمية للتنازع ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، فكيف نرجو نصراً ونحن بهذه الحالة ؟!

إن الواجب على كل مؤمن صادق مخلص أن يسعى جاهداً للوحدة والائتلاف ويكره وينبذ الفرقة والاختلاف ، وإن لم يستطع جمع الكلمة فلا أقل من أن يكفَّ شره ولا يفرق ، فمن استطاع أن يجمع فليفعل ، ومن لم يستطع فلا يفرق ، فهذا منه خير .

كما يجب على الدعاة المخلصين المتبعين للسنة أن يتعاونوا بينهم وأن

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الإكراه (٦٩٤٣) .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

يتركوا التلاوم والنقد فيما يسعه الاختلاف، وأن يقدر كل منهم الآخر ويذكر له خيره وجهده، وأن يكمل بعضهم بعضاً ، لا أن يضاد بعضهم بعضاً ويُسفِّه بعضهم البعض الآخر ، ويحتقر جهده ، ويسيء الظن به ، فهذا كله من الشيطان الذي لا يفتأ يسعى للتحريش والتفريق بين المؤمنين .

٤ ـ التربية الجادة للنفوس وإحياء السلوك الإسلامي وأخلاق السلف الفاضلة والقضاء على الرواسب والأخلاق الرديئة. وهذا يحتاج إلى صبر طويل وجهد كبير .

٥ ـ التركيز على الجانب العبادي وتكثيفه كما كان الرسول ﷺ يربي عليه أصحابه في مكة من صلاة الليل والذكر وغيره ، والتربية على الزهد في الدنيا وإنشاء همّ الآخرة وانتظار موعود الله عز وجل فيها .

٦ ـ توطين النفوس على الصبر على البلاء ، والنَفَس الطويل وعدم العجلة في ذلك حتى يتم صقلها وتمحيصها، وأن تربى على أن يكون الانطلاق من الشريعة وقواعدها لا من ردود الفعل والعواطف الملتهبة، وهذا يحتاج إلى تربية طويلة وصبر جميل ودعوة هادئة مستمرة يتم فيها إبلاغ الناس بدين الله عز وجل ويتميز فيها الخبيث من الطيب كما هو الحال في العهد المكي الذي ظهرت فيه هذه المعاني بوضوح وجلاء ؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة .

٧ ـ توسيع نطاق الدعوة إلى الله عز وجل والبلاغ العام لكافة الطبقات وإقامة الحجة وتعرية الباطل باللسان والبيان .

٨ ـ إعداد النفوس للجهاد في سبيل الله عز وجل والذي هو ذروة سنام

هذا الدين وهو ثمرة الفهم الصحيح والقصد الصحيح والصبر الطويل في التربية عليهما .

فلابد من الاستعداد والإعداد له ، فنحن نوقن تمام اليقين أنه لا يرفع عن المسلمين ما هم فيه من ذلة ومهانة إلا أن تحيا معاني الجهاد في نفوسهم ، قال ﷺ : «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله ، سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**»[1] .

فحياة المسلمين وعزهم وشرفهم في الجهاد في سبيل الله عز وجل، فوق ذلك فإنه واجب شرعي لتبليغ دين الله عز وجل والقضاء على الفساد في الأرض وتعبيد الناس لربهم سبحانه ، قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠] ، وقال سبحانه : ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

وقد قال الرسول ﷺ : «**من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق**»[2] .

---

(١) رواه أبو داود ، في البيوع والإجارات (٣٤٦٢)، وقال محقق « جامع الأصول » : هو صحيح .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٩١٠).

إن المتأمل في أحوالنا اليوم وطريقة تفكيرنا ومعيشتنا وتعاملاتنا ليرى عدم المصداقية الكافية عندنا في إعداد النفس للجهاد وتحديثها بالغزو على جميع المستويات إلا من رحم الله تعالى ، فمجرد نظرة سريعة إلى اهتماماتنا ، وما يشغل قلوبنا نرى أنها ليست اهتمامات مجاهدين . وكذلك أسلوب معيشتنا وما يشتمل عليه من الترف والترهل وحب الدعة والراحة والركون إلى الدنيا وكراهية الموت ، كل هذا لا يتفق مع حقيقة تحديث النفس بالغزو وإعدادها للجهاد .

إن « تحديث النفس بالغزو » الذي ينجي من شعب النفاق لا يكفي له أن يحدث الإنسان نفسه أنه سيغزو ويجاهد ويكتفي بهذا الحديث النفسي وهو متكئ على أريكته مشحون قلبه بدنياه ، كلا ليس هذا هو الحديث المنجي . إنما تحديث النفس بالغزو يعني أموراً عملية لابد من العزيمة عليها من الآن أهمها ما يلي :

١ـ الإعداد العلمي والفقه في الدين والبصيرة فيه حتى تكون دعوة الفرد ويكون جهاده على بصيرة وروية ووضوح راية ، ويفقه لماذا يجاهد ؟ وكيف يجاهد ؟ ومن يجاهد ؟ وعلى أي عقيدة يجاهد ؟ كل هذا لا يتأتى إلا بالعلم والفقه في دين الله عز وجل .

٢ـ الإعداد التربوي والسلوكي ابتداء من تقوية الصلة بالله عز وجل ، وإخلاص النية له ، والتقرب له بالطاعات ، والزهد في الدنيا والتخفف منها ، والرغبة فيما عند الله عز وجل من الجنة والرضا ، والتخلق بأخلاق الإسلام ، وهذا كله يحتاج إلى جهد كبير وترويض شديد وصبر طويل .

٣ـ التعبئة النفسية وبث روح الجهاد ، وانتشال النفس مما هي فيه من

كسل ودعة واستخذاء، والارتفاع بها من الهزيمة النفسية إلى الاعتزاز بهذا الدين، والثقة بنصر الله عز وجل واليقين التام بأهمية الجهاد وما أعده الله عز وجل للمجاهدين .

٤ ـ التربية على الإنفاق في سبيل الله عز وجل، والتضحية بالغالي والنفيس في سبيله عز وجل، وتخليص النفس من الشح وحب الدنيا .

٥ ـ الشعور بواجب الدعوة إلى الله عز وجل وتجميع الناس حول الإسلام والاهتمام بأمر هذا الدين ، والغَيْرة على محارم الله عز وجل ، وأن هذا الأمر يتفاوت وجوبه والإثم المترتب على تركه حسب حال العبد ومرتبته من العلم أو القدرة أو الغنى . . إلخ . ويوضح ذلك الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه القيم إعلام الموقعين حيث يقول :

«ولله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته ، سوى العبودية العامة التي سوى بين عباده فيها ؛ فعلى العالم من عبودية نشر السنة والعلم الذي بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل ، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره ، وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتي ، وعلى الغني من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير ، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما .

وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يوماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقالت له امرأة : هذا واجب قد وضع عنا ، فقال : هبي أنه قد وضع عنكن سلاح اليد واللسان ، فلم يوضع عنكن سلاح القلب ، فقالت :

صدقت جزاك الله خيراً .

وقد غر إبليس أكثر الخلق بأن حسَّن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع ، وعطلوا هذه العبوديات ، فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها ، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس ديناً، فإن الدين هو القيام لله بما أمر به ، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي ، فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجهاً ذكرها شيخنا رحمه الله في بعض تصانيفه ، ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابه رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس ديناً ، والله المستعان .

وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنْتهك، وحدوده تُضاع، ودينه يُترك، وسنة رسوله ﷺ يُرغب عنها؛ وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذَّل وجَدَّ واجتهد ، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه .

وهؤلاء ـ مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم ـ قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب ، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى ، وانتصاره للدين أكمل »[(١)] .

٦ ـ الإعداد الجسمي والعضلي لتحمل الجهاد ومشاق الطريق وذلك

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٧٦).

بالرعاية الصحية والرياضة البدنية وركوب الخيل والسباحة والرماية وكل ما يحتاجه جهاد الكفار من إعداد وكل ما من شأنه إرهاب عدو الله وعدو المؤمنين قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وكل هذه الأنواع من الإعداد قد قام بها الرسول ﷺ وهو في مكة حيث لم يؤذن له بعد بالقتال، وقد يقول قائل: ما الدليل على أنه ﷺ كان يدرب أصحابه على الرماية والرياضة في مكة؟

والجواب: إنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك فطبيعة نشأتهم وبيئتهم وحياتهم كانت في الأصل طبيعة قتالية مدربة جاهزة لا يحتاجون معها إلا إلى الأمر ومجيء الوقت المناسب للجهاد.

٧ـ وقبل ذلك وبعده (في الإعداد للجهاد) يجب أن ترتبط النفوس المؤمنة بطلب رضا الله عز وجل وجنته قبل أن يحصل لها أي هدف في هذه الدنيا الفانية ولو كان إقامة حكم الله عز وجل؛ لأنه قد يتأخر إقامة علم الجهاد، وقد يبطئ نصر الله عز وجل لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، وقد يموت المؤمن الذي أعد نفسه للغزو والجهاد ولم ير ثمرة الجهاد، لكن حسبه أنه أعد نفسه وحدثها بالغزو ونجا من النفاق وسار في مرضات الله عز وجل، وهذا في حقيقته انتصار كبير.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى:

« ولقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع ـ وهي تبذل كل

شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض. ولا تنتظر إلا الآخرة، ولا ترجو إلا رضوان الله. قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال، بلا جزاء في هذه الأرض قريب. ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين.. حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل، وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للجزاء.. وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل.

وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت، أتاها النصر في الأرض وائتمنها عليه. لا لنفسها، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة، منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه، ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه، وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه. فالنصر ليس بالعدد وليس بالعدة. وليس بالمال والزاد. إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد »[1].

وختاماً أسأل الله عز وجل أن يرفع علم الجهاد وأن يقر أعيننا بنصرة دينه والتمكين لأوليائه، وأن يجعلنا من الذين ﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ** ﴾ [المائدة: ٥٤].

كما أسأله سبحانه أن يجمع كلمة دعاته الصادقين على الحق، وأن يوحد صفوفهم ويؤلف بين قلوبهم، وأن يعيذهم من نزغات الشيطان، وأن يريهم

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن، ص٣٦١.

الحق حقاً ويرزقهم اتباعه، ويريهم الباطل باطلاً ويرزقهم اجتنابه.

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ؛ اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

* * *

الرسالة السادسة

﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾

[التوبة : ١١٩]

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن الله عزوجل خلق السموات والأرض بالحق وخلق الخلق ليعبدوه ، وأمرهم بأن يقيموا حياتهم على الإيمان الحق الذي قامت عليه السموات والأرض ، ولا يكون الإيمان حقاً حتى يكون قائماً على الصدق المقتضي للإخلاص التام لله عزوجل باطناً وظاهراً ، والمقتضي للمتابعة الصادقة للرسول ﷺ في جميع الأحوال . وبالتالي تسعد البشرية بهذه الحياة المبنية على الحق والصدق ، وعندئذ تختفي كل مظاهر الظلم والكذب والنفاق والتي ترزح البشرية اليوم تحت وطأتها وتكتوي بنارها .

إن حيرة البشر اليوم وشقوتهم ترجع إلى انحرافهم عن هذا الأصل الواضح ، وإلى تسلط أكاذيب وأوهام المنافقين والدجاجلة على أنفسهم وأفكارهم حتى أبعدتهم عن الصراط المستقيم والنهج القويم .

إن منزلة الصدق منزلة عظيمة في دين الإسلام بل في جميع الأديان ، لا لأن الصدق خلق من الأخلاق الحميدة فحسب ، بل لأنه أصل الإيمان المقبول عند الله عزوجل ، وهو أساس النجاة من عذاب الله عز وجل ، وبه يتميز

أهل الإيمان الحق من المنافقين الكاذبين.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة الصدق: « وهي منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه. مَنْ صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علَتْ على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومَحكّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة «النبوة» التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات: تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومَعين »(١).

من الكلام السابق لابن القيم رحمه الله تعالى يتضح لنا أهمية الصدق وخطورة شأنه، ومدى الحاجة الماسة إلى معرفة حقيقته ومعناه؛ حتى تنصبغ قلوبنا وألسنتنا وجوارحنا به، فلا نكنّ في صدورنا إلا الصدق، ولا نقول إلا الصدق، ولا نعمل إلا الصدق، ويالها من مرتبة ما أعزها، وغاية ما أشرفها وأعظم أجرها، والناس فيها متفاوتون، وفي الوصول إليها متنافسون.

ولا يصل إلى تكميل هذه المنزلة إلا أولو العزائم القوية من أهل الإيمان والعلم والعمل الذين وفقهم الله عزوجل وأوصلهم إليها: ﴿ **وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [فصلت: ٣٥].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن عظم منزلة الصدق وشدة

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٦٨).

حمله: « وأيضاً فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم، فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل بحمله الثقيل. والرياء والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلاً البتة. فهو حامل له في أي موضع اتفق، بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة، فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله »[1] اهـ.

أهمية الموضوع:

لقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة وآثار السلف في فضل الصدق وخطورة أمره وعلو شأنه.

ولقد اخترت في هذه الرسالة (**من رسائل الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم**) أن يكون عنوانها (**وكونوا مع الصادقين**)، وهي جزء من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩] وذلك لأنطلق منها إلى هذا الموضوع المهم الذي يهم كل مسلم بصفة عامة، ويهم الدعاة إلى الله عزوجل بصفة خاصة، وبالذات في واقعنا المعاصر، وإن أهميته لتأتي من الأمور التالية:

الأمر الأول:

لأنه أساس الإيمان وركنه الركين، وأساس قبول الطاعات والقربات عند الله عزوجل، وعليه يترتب الأجر والثواب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿**هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ [المائدة: ١١٩].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٦).

ولأنه أساس الطاعات وجماعها أصبحت الصفة الفارقة بين المؤمن والمنافق هي الصدق، يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

«الصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها، ويظهر ذلك من وجوه [منها]:

* أن الصدق والكذب هو المميز بين المؤمن والمنافق، ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»[(١)]، وفي حديث آخر «**على كل خلق يطبع المؤمن ليس الخيانة**»[(٢)]. ووصف الله المنافقين في القرآن بالكذب في مواضع متعددة، ومعلوم أن المؤمنين هم أهل الجنة، وأن المنافقين هم أهل النار في الدرك الأسفل من النار.

* أن الصدق هو أصل البر، والكذب هو أصل الفجور كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتي يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**»[(٣)].

* أن الصادق تنزل عليه الملائكة والكاذب تنزل عليه الشياطين، كما قال تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)**

---

(١) البخاري في الإيمان (٣٣)/ فتح (١/ ١١١)، مسلم في الإيمان (٥٩)/ (١/ ٧٨).
(٢) رواه الإمام أحمد (٥/ ٢٥٢) بنحوه، وضعفه الألباني/ السنة(١١٤).
(٣) البخاري في الأدب (٦٠٩٤)/ فتح (١٠/ ٥٢٣)، مسلم في البر والصلة (٢٦٠٧)/ (٤/ ٢٠١٣).

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣] » اهـ. باختصار[١] .

الأمر الثاني :

إن الصدق في كل الأمور يوصل صاحبه إلى مرتبة الصديقية التي هي المرتبة التالية لمرتبة النبوة، وعندما نقول: «في كل الأمور» نريد بذلك عدم حصر الصدق في اللسان فقط، وإنما الصدق في النيات والأقوال والأعمال وتحري الصدق دائماً في ذلك كله. إن مجاهدة النفس على تحري الصدق في جميع الأمور يوصلها إلى هذه المرتبة العظيمة: «مرتبة الصديقية» كما جاء في الحديث السالف الذكر « ... **وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً** »[٢] ، وهنيئاً لمن وصل إلى هذه المرتبة فيالها من رتبة ما أشرف قدرها وأعظم فضلها.

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في وصف أهل هذه الطبقة:

« (الطبقة الرابعة): ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم. وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة، وهي مرتبة الصدّيقية، ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء فقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء: ٦٩]، فجعل درجة الصدّيقية معطوفة على درجة النبوة وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول وأمته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٧٤ ـ ٧٧) باختصار وتصرف.

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك »[١] اهـ.

ثم يقول بعد ذلك رحمه الله تعالى: «والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علم غيره شيئاً من ذلك كان له مثل أجره مادام ذلك جارياً في الأمة على آباد الدهور.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب: «**والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**»[٢] ، وصح عنه ﷺ أنه قال: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فعُمل بها بعده، كُتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء** »[٣]. وصح عنه ﷺ أيضاً أنه قال: «**إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٤]، وصح عنه ﷺ أنه قال: « **من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[٥] .

وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: « **... إن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى النملة في جحرها**»[٦]، وعنه ﷺ أنه قال: « **إن الله**

(١) طريق الهجرتين ص٦١٤ ط. الشئون الدينية ـ قطر.

(٢) البخاري في الجهاد (٢٩٤٢)/ فتح(٦/ ١٣٠)، مسلم في فضائل الصحابة(٢٤٠٦)/ (٤/ ١٨٧٢)، كلاهما بنحوه.

(٣) مسلم ك العلم (١٠١٧)/ (٤/ ٢٠٥٩).

(٤) مسلم ك الوصية (١٦٣١)/ (٣/ ١٢٥٥) بنحوه.

(٥) البخاري في العلم (٧١)/ فتح (١/ ١٩٧)، مسلم في الزكاة (١٠٣٧)/ (٢/ ٧١٨).

(٦) الترمذي ك العلم (تحت٢٦٨٣)/ (٧/ ٣٢٥)، وأخرجه أيضاً غيره، وهو جزء من حديث طويل صححه الألباني. والذي فيه: «الحيتان في الماء» بدلاً من: «النملة في جحرها».

وملائكته يصلون على معلم الناس الخير»[1]، وعنه ﷺ أنه قال: «**إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[2]، وعنه ﷺ: «**العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعد**»[3]، وعنه ﷺ أنه قال: «**نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها**»[4]، والأحاديث في هذا كثيرة.

وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد، فيالها من مرتبة ما أعلاها، ومنقبة ما أجلها وأسناها؛ أن يكون المرء في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقاً وأوصالاً متفرقة، وصحف حسناته متزايدة تُملى فيها الحسنات كل وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب.

تلك والله المكارم والغنائم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم. وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق نفائس الأنفاس عليها، ويسبق السابقون إليها، وتوفر عليها الأوقات وتتوجه نحوها الطلبات. فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خير أن يفتح علينا خزائن رحمته، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه.

---

(١) الترمذي ك العلم (٢٦٨٦)/ (٧/ ٣٢٧) بنحوه، وصححه الألباني.

(٢) هو جزء من الحديث المخرج قريبًا في الترمذي (تحت ٢٦٨٣) وطرفه: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا...».

(٣) رواه الطبراني بنحوه في الكبير (١٠٤٦١)، وفي الأوسط (٧٥٧١)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٤١٤).

(٤) الترمذي بمعناه ك العلم (٢٦٦٠) / (٧/ ٣٠٧). وفي الباب أحاديث بمعناه عن جمع من الصحابة وهي مخرجة في السنن، وصححها الألباني.

وأصحاب هذه المرتبة يُدعون عظماءَ في ملكوت السماء كما قال بعض السلف: من علم وعمل وعلّم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء. وهؤلاء هم العدول حقاً بتعديل رسول الله ﷺ لهم، إذ يقول فيما يروى عنه من وجوه شد بعضها بعضاً: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»[1] »[2] اهـ.

الأمر الثالث:

ومما يؤكد أهمية الصدق تلك الثمرات العظيمة التي تحصل منه في الدنيا والآخرة من البركة والقبول والإصلاح في الدنيا، والأجر العظيم والثواب الجزيل في الآخرة. وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى في (ثمرات الصدق) في آخر البحث.

الأمر الرابع:

خطورة الكذب والنفاق وأثرهما على الفرد والمجتمع والأمة، وخاصة في مجتمعاتنا اليوم والتي كثر فيها الكذب والدجل والمداهنة، وقل الصدق فيها والصادقون. ولا أعلم ـ والعلم عند الله ـ عصراً ظهر فيه الكذب والنفاق بوسائله الماكرة المتطورة كما ظهر في عصرنا اليوم، حتى أصبح الكذب والمكر له مدارسه وأساليبه التي تعلم الناس كيف يكذبون، وكيف ينافقون، وكيف يدلسون .. إلخ.

ولا أبالغ إذا قلت: إن وسائل الإعلام اليوم ـ المقروء منها والمسموع

---

(١) الحديث أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (٥٤)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ٥٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٩).

(٢) طريق الهجرتين ص ٦١٩ ط. الشئون الدينية بقطر.

والمنظور ـ قد قامت في أغلب برامجها على الكذب وقلب الحقائق، وتسمية الأمور بغير مسمياتها.

وقد تجاوز الأمر حده حتى أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وظهر الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، وأصبحنا نسمع من يقول عن المسلم الصادق الذي يتحرى الصدق بأنه ساذج وبسيط وسطحي.. إلخ، في الوقت الذي يوصف الكاذب والمنافق بأنه السياسي الحكيم المحنك.

إن مجتمعاً كهذا حري بالسقوط والدمار، ولا نجاة ولا فلاح إلا بالصدق، والأمة الصادقة مع ربها سبحانه ومع رسولها ﷺ ومع أبنائها لا تهزم أبداً.

الأمر الخامس:

ظهور بعض علامات ضعف الصدق في صفوفنا معشر الدعاة إلى الله عزوجل، وذلك بوجود بعض التصرفات والممارسات التي تتنافى مع الصدق في الدعوة إلى الله عزوجل والجهاد في سبيله؛ فقل الصادقون الربانيون الذين يصدقون في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم ويضحون في سبيل الله عزوجل بكل ما يملكون لنيل مرضات الله عزوجل وجنته.

نعم إنه بمحاسبة عجلى لنفوسنا يتبين لنا هذا الضعف وأننا في أمس الحاجة إلى تقوية هذا الأمر، ونبذ كل ما يتنافى معه من صور الكذب والنفاق ووهن العزيمة وضعف الهمة. وإلا فما معنى وجود هذه الجهود الضخمة المبذولة اليوم في طريق الدعوة إلى الله عزوجل ثم لا نرى لها إلا

أثراً ضعيفاً لا يوازي تلك الجهود المبذولة.

الأمر السادس:

إن الصراع الذي نشاهده اليوم بين الحق والباطل، بين دعاة الشر والكفر ودعاة الخير والإصلاح؛ ليحتم على أهل الخير حرصهم الشديد على الصدق مع الله سبحانه واليقين بنصره وثوابه؛ حتى لا تزل الأقدام وتضعف العزائم إزاء هذا البلاء العظيم والمعركة الشرسة بين الحق والباطل. وهذه المواطن هي التي يتميز فيها الصادقون عمن سواهم، قال تعالى: ﴿**الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]، وكذلك أيام الفتن لا يثبت فيها إلا الصادقون العالمون العاملون، وهم الذين يشرفهم الله عزوجل بنصره، ويمكن لهم في الأرض، ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين.

* * *

حقيقة الصدق ومعناه

تعريف الصدق:

قال في لسان العرب (باختصار):

«الصدق: نقيض الكذب. صَدَق يَصْدُق صَدقاً وصدقاً وتصداقاً. وصَدَّقه: قبل قوله، وصَدَقهُ الحديث: أنبأه بالصدق. ويقال: صدقت القوم أي قلت لهم صدقاً. والمصدِّق: الذي يصدقك في حديثك. ورجل صِدق وامرأة صِدق: وُصفا بالمصدر.

والصدِّيق: الدائم التصديق، ويكون الذي يصدق قوله بالعمل، وفي التنزيل ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] أي مبالغة في الصدق والتصديق. وهذا مصداق هذا: أي ما يصدقه. ورجل ذو مَصدق بالفتح: أي صادق الحملة، يقال ذلك للشجاع والفرس الجواد، وصادق الجري. ومصداق الأمر: حقيقته» اهـ. لسان العرب.

وقال الراغب: «أصل الصدق والكذب في القول ماضياً كان أو مستقبلاً وعداً كان أو غيره، ولا يكونان بالقصد الأول إلا في الخبر، وقد يكونان في غيره كالاستفهام والطلب. والصدق: مطابقة القول الضمير، والمخبر عنه، فإن انخرم شرط لم يكن صدقاً، بل إما أن يكون كذباً أو متردداً بينهما على اعتبارين، كقول المنافق: «محمد رسول الله» فإنه يصح أن يقال: «صدق» لكون المخبر عنه كذلك، ويصح أن يقال: «كذب» لمخالفة

قوله ضميرَه، والصدِّيق من كثر منه الصدق، وقد يستعمل الصدق والكذب في كل ما يحق ويحصل في الاعتقاد نحو: صدق ظني، وفي الفعل نحو: صدق في القتال ومنه« قد صدَّقت الرؤيا » »(١) اهـ (ملخصاً) .

من هذه التعريفات السابقة للصدق يتضح لنا معنى الصدق اللغوي، وأنه نقيض الكذب، وهو مطابقة القول للعمل، ومن هذا التعريف استمدت حقيقة الصدق الواردة في كتاب الله عزوجل وأحاديث الرسول ﷺ وأقوال العلماء، وذلك فيما يلي:

حقيقة الصدق :

إن حقيقة الصدق أوسع من كونها الصدق في الحديث فقط، وإنما حقيقة الصدق شاملة لصدق النية والعزيمة وصدق اللسان وصدق الأعمال كما سيتبين بتفصيل ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ في (مراتب الصدق) .

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (ومما ينبغي أن يعرف أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال وفي الأعمال كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة؛ فالعينان تزنيان وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما السمع، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»(٢) .

ويقال: حملوا على العدو حملة صادقة؛ إذا كانت إرادتهم للقتال ثابتة

---

(١) مفردات الراغب ص٤٠٩ .

(٢) البخاري بنحوه ك الاستئذان (٦٢٤٣)/ فتح(١١/ ٢٨)، مسلم بنحوه أيضاً ك القدر (٢٦٥٧)/ (٤/ ٢٠٤٦).

جازمة، ويقال: فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك. ولهذا يريدون بالصادق؛ الصادق في إرادته وقصده وطلبه، وهو الصادق في عمله، ويريدون الصادق في خبره وكلامه، والمنافق ضد المؤمن الصادق، وهو الذي يكون كاذباً في خبره أو كاذباً في عمله كالمرائي في عمله. قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ**... الآية ﴾ [النساء: ١٤٢] »[1] اهـ.

ويفصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى القول في هذا المعنى فيقول:

« والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، قال تعالى: ﴿ **قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [الزمر: ٣٣]، فالذي جاء بالصدق: هو مَنْ شأنُهُ الصدقُ في قوله وعمله وحاله. فالصدق: في هذه الثلاثة.

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤).

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة.

فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صديقيته. ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه: ذروة سنام الصدّيقية. سُمي «الصديق» على الإطلاق، و«الصديق» أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية. وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ، مع كمال الإخلاص للمرسل»[1].

الفرق بين الصدق والإخلاص:

«الصدق والإخلاص عملان قلبيان من أعظم أعمال القلوب وأهم أصول الإيمان. فأما الصدق فهو الفرقان بين الإيمان والنفاق، وأما الإخلاص فهو الفرقان بين التوحيد والشرك ـ في قول القلب واعتقاده أو في إرادته ونيته. والأعمال ـ التي رأسها وأعظمها «شهادة أن لا إله إلا الله» ـ لا تقبل إلا بتحقق الصدق والإخلاص.

ومن هنا كانا شرطين من شروطها، وأكذب الله المنافقين في دعوى الإيمان، وقول الشهادة لانتفاء الصدق فقال تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ [المنافقون: ١]، وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت: ٣].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٦٩).

كما أبطل سبحانه زعْم أهل الكتاب والمشركين أن دينهم هو الحق بانتفاء الإخلاص فقال: ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ** ﴾ [البينة: ١] ، إلى أن يقول: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ . [البينة: ٥]

والصدق والإخلاص مع تقاربهما ومع ترادفهما أحياناً يعرف التمييز بينهما بضد كل منهما: فالصدق ضده انتفاء إرادة الله بالعمل أصلاً كمن آمن أو صلى كاذباً ولم يرد الإيمان والصلاة وإنما فعل ذلك لسبب آخر، كما فعله المنافقون حفظاً لأنفسهم وأموالهم من السيف، وجبناً عن تحمل أعباء المواجهة الصريحة للإيمان.

والإخلاص ضده انتفاء إفراد الله بالإرادة والتوجه كمن آمن أو صلى صارفاً ذلك لأحد مع الله، وهذا هو الشرك الذي وقع فيه أكثر العالمين ومنهم أهل الكتاب والمشركون الذين اتخذوا من دون الله أولياء من الأنبياء أو غيرهم وعبدوهم زاعمين أنهم يقربونهم إلى الله زلفى. ومما يميز بينهما أن الصدق لا يختص بالاعتقاد بل يكون في الأعمال أيضاً بخلاف الإخلاص فإنه عمل قلبي محض لكن تظهر آثاره على الجوارح، وعلى قدر تحقيق العبد لشعب الإيمان وأعماله يكون حظه من الصدق حتى يصل إلى درجة «الصديقية»، وعلى قدر ما يحقق العبد الإخلاص لربه يكون ترقيه في «المخلصين» الذين صرف الله عنهم غواية الشيطان وأثنى عليهم في كل أمة»[1] اهـ.

---

(١) ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص٤٣٨. (رسالة جامعية).

مجالات الصدق كما يجب

مما سبق يتبين لنا أن حقيقة الصدق تشمل :

١ـ صدق النية :

بأن تكون خالصة لله عزوجل وابتغاء مرضاته، وأن لا يكون هناك باعث في الحركات والسكنات إلا لله عزوجل، فإن شاب النية شيء من حظوظها لم تكن صادقة، وإن تكلم العبد بلسانه خلاف ما في قلبه فهذا أيضاً دليل على عدم الصدق في النية. والأدلة في ذلك كثيرة منها قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ [الفتح: ١١]، وقال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

والأحاديث في ذلك كثيرة أشهرها حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة[١].

ومن الصدق في النية: الصدق في العزيمة على الفعل إذا تمكن منه؛ لأن النية قد تكون صادقة لكن العزيمة على الفعل ضعيفة وصاحبها متردد، وقد تكون العزيمة صادقة لكن إذا جد الجد وعزم الأمر وهاجت الشهوات خارت وضعفت في بدايته ولم يحصل الوفاء بالعزيمة، وقد لا تضعف في البداية

(١) انظر الحديث بطوله في صحيح مسلم ـ كتاب الإمارة (١٩٠٥) / (٣/ ١٥١٣).

لكن إذا باشرت الفعل وذاقت مرارته ضعفت ونكلت، والموفق من وفقه الله تعالى وأمده بعونه ورحمته ولو وكل العبد إلى نفسه ضاع وهلك. . فياحي يا قيوم برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً. . .

وقد ذكر صاحب الإحياء كلاماً جيداً حول هذه المسألة ننقله باختصار حيث يقول:

« فإن الإنسان قد يقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدّقت بجميعه ـ أو بشطره، أو إن لقيت عدوّاً في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق. فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق هاهنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال: لفلان شهوة صادقة. ويقال: هذا المريض شهوته كاذبة، إذا لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى.

والصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوّة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد: بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات.

وأما الصدق في الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء

بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ **رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ، فقد روي عن أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع! قال: فشهد أحداً في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة! إني أجد ريحها دون أحد. فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا ببنانه[(١)] ، فنزلت هذه الآية: ﴿ **رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾»[(٢)] اهـ.

ونختم الحديث عن صدق النوايا والعزائم بما قصه الله سبحانه علينا في كتابه الكريم عن الملأ من بني إسرائيل الذين جاءوا من بعد موسى عليه السلام، وطلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، وفي هذه القصة من العبر والدروس خير شاهد على ما سبق الحديث عنه من صدق العزائم وضعفها، وأن أصحاب العزائم الصادقة مع الله عزوجل هم الذين يثبتون إذا عزم الأمر وهم الذين ينصر الله بهم دينه ويدفع بهم الفساد عن الأرض ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم.

يقول الله تعالى في معرض قصة هؤلاء الملأ مع قائدهم طالوت وما جرى لهم من الاختبار الذي تنكشف به العزائم:

قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن**

---

(١) مسلم ك الإمارة (١٩٠٣) / (٣/ ١٥١٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٩٦).

شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في ظلال هذه الآيات: « قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل.. إنه مقدم على معركة؛ ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة. وهو يواجه جيش أمة غالبة فلابد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة. هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة. الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء.

فلابد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره: صموده أولاً للرغبات والشهوات، وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب.. واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات: عطاش؛ ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه، ويؤثر العافية.. وصحت فراسته:

﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾

شربوا وارتووا. فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده،

تبل الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم. وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف، لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة. والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق.

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي؛ ولابد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها. ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى.. بل مضى في طريقه.

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت ـ إلى حد ـ ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾

لقد صاروا قلة. وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته: بقيادة جالوت. إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم. ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته. إنها التجربة الحاسمة. تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور. وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم، فاتصلت بالله قلوبهم؛ وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم، غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم!

وهنا برزت الفئة المؤمنة. الفئة القليلة المختارة. والفئة ذات الموازين الربانية:

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

هكذا.. «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة».. بهذا التكثير. فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله. القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار. ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى؛ ولأنها تمثل القوة الغالبة. قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين، وقاهر المتكبرين.

وهم يكلون هذا النصر لله: «بإذن الله».. ويعللونه بعلته الحقيقية: «والله مع الصابرين».. فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل..

ونمضي مع القصة. فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله، التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء، وتستمد قوتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله، وأنه مع الصابرين.. إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة، الثابتة، التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته، مع ضعفها وقلتها.. إذا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة. بعد أن تجدد عهدها مع الله، وتتجه بقلوبها إليه، وتطلب النصر منه وحده، وهي تواجه الهول الرعيب»[1] اهـ.

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٦٨، ٢٦٩).

ويعلق القرطبي رحمه الله تعالى على هذه القصة بقوله: « قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ الفئة: الجماعة من الناس والقطعة منهم؛ من فأوْتُ رأسه بالسيف وفأيته أي قطعته. وفي قولهم رضي الله عنهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ . . . الآيةً﴾، تحريضٌ على القتال واستشعارٌ للصبر واقتداءٌ بمن صدّق ربه.

قلت: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدّام اليسير من العدوّ كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفي البخاري: وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم. وفيه مُسْنَد أن النبي ﷺ قال: « **هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم**»[(١)].

فالأعمال فاسدة والضعفاء مُهْمَلون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة! قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحلَّ بنا! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدِّين إلا رسْمُه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد

(١) رواه البخاري ك الجهاد (٢٨٩٦) / (٦/ ١٠٤) بنحوه.

حتى استولى العدو شرقاً وغرباً براً وبحراً، وعَمّت الفتن وعظُمت المحَن ولا عاصم إلا من رحِم»[1] . اهـ.

من خلال القصة السابقة يتبين دور العلماء الربانيين العاملين أن وعد الله حق والعاملين الصابرين الصادقين في نياتهم وعزائمهم، وأنهم هم الذين يثبتون في الشدائد والمحن وهم الذين ينزل عليهم نصر الله وتأييده.

٢ـ الصدق في الأقوال:

«وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو ما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي فلا يخبر عن الأشياء على خلاف ما هي عليه، أو بالمستقبل كالوفاء بالوعد والعهد»[2] .

وهذه المرتبة من الصدق هي التي يحصر كثير من الناس الصدق فيها ولا يتجاوزونها إلى غيرها، ولاشك أنها مرتبة عظيمة وتكميلها من أعز الأمور وأشقها على النفس، ولكنها يسيرة على من يسرها الله عليه وجاهد نفسه في تحقيقها. والصدق في الأقوال له صور عديدة منها:

أـ الصدق في نقل الأخبار :

فلا ينقل المسلم إلا الأخبار الصادقة وهذا بدوره يتطلب من الناقل التثبت فيما يقال واجتناب الظنون والأوهام والحذر من التحدث بكل ما يسمع. فمن حفظ لسانه من الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق في خبره، وهذا يقتضي الابتعاد عن الظنون والإشاعات، قال ﷺ :

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢٥٥).
(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٥٣).

«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»(١)، وقال ﷺ : **«كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»**(٢) .

ب ـ الصدق في الوعد والوفاء به :

لأن إعطاء الوعد غالباً ما يكون بالقول فالوفاء بالوعد من الصدق في الأقوال وإخلافه يعد كذباً، إلا إذا كانت النية عند إعطاء الوعد صادقة ثم حال بينه وبين تنفيذ الوعد أمر خارج عن إرادته فإن هذا لا يعد إخلافاً للوعد وبالتالي لا يعتبر كذباً.

والوعد قد يكون على مكان معين أو في زمن معين أو على أعطية أو زواج أو أي أمر آخر يعد به الرجل أخاه؛ فإن الإخلاف في هذه الأمور وأمثالها بدون مبرر شرعي يعتبر كذباً؛ يقول تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا** ﴾ [مريم: ٥٤] .

جـ ـ الوفاء بالعقود والعهود :

وهذا أيضاً من الصدق في الأقوال. فإخلاف العهد والغدر فيه من أشد أنواع الكذب، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾ [المائدة: ١] ، وقال تعالى : ﴿ **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا** ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومن الوفاء بالعهود حفظ الأسرار وكتمانها. ولعل قوله ﷺ في التحذير من صفات المنافقين خير شاهد لما سبق ذكره؛ يقول ﷺ : **«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من نفاق : إذا**

---

(١) رواه البخاري ك الأدب (٦٠٦٦)/ فتح (١٠/ ٤٩٩)، ومسلم ك البر والصلة (٢٥٦٣)/ (٤/ ١٩٨٥).

(٢) رواه مسلم في المقدمة(٥)/ (١/ ١٠).

حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»(١) .

وقال ﷺ : « **لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ، ولا يجتمع الكذب والصدق جميعاً، ولا تجتمع الخيانة والأمانة جميعاً**»(٢) .

❁ ❁ ❁

(١) البخاري ك الإيمان (٣٤)/ فتح (١/ ١١١)، ومسلم ك الإيمان (٥٨)/ (١/ ٧٨) واللفظ له .

(٢) أحمد (٢/ ٣٤٩).

الصدق المذموم

وهنا مسألة تتعلق بالصدق في الأقوال ألا وهي: الأحوال التي يجوز فيها الكذب بل يجب أحياناً، ويكره عندها الصدق أو يحرم.

إن هذه المسألة تتعلق بتعارض المصالح والمفاسد؛ فالصدق ممدوح وواجب في أحوال وشئون المسلم كلها إلا أن يترتب على قول الصدق مفاسد متحققة على أحد المقاصد التي جاءت الشريعة للمحافظة عليها (الدين، النفس، العقل، النسل، العرض، المال)، ففي هذه الحالة يقوم الصدق مقام الكذب في القبح والمعرة أو يزيد. ومن ذلك مايلي:

١ ـ الغيبة :

فإن الكلام في أعراض الناس ولو كان بصدق محرم ومذموم كما جاءت الأحاديث بذلك.

٢ ـ النميمة :

والسعاية ولو كان بشيء واقع صادق، والأحاديث في تحريم النميمة معروفة ومشهورة.

٣ ـ في التأليف بين الزوجين والإصلاح بين الناس:

فإذا كان نقل الصدق سيترتب عليه إيغار الصدور وإثارة الشحناء فلا يجوز الصدق في ذلك بل يجوز الكذب تأليفاً للقلوب.

٤ ـ في الحروب مع الكفار والمكايدة لأعداء الدين :

فلا يجوز الإخبار بالصدق إذا كان سيترتب عليه مفاسد على الدين أو على المسلمين وديارهم فهنا يتعين الكذب .

عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أيها الناس، ما يحملكم على أن تتابعوا على الكذب كتتابع الفراش على النار. الكذب كله على ابن آدم إلا في ثلاث خصال: رجل كذب امرأته ليرضيها، ورجل كذب في الحرب فإن الحرب خدعة، ورجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما**»[1] .

وذكر صاحب قواعد الأحكام العز بن عبد السلام مسائل في هذا الباب فقال : « المثال الرابع والأربعون : الكذب مفسدة محرمة إلا أن يكون فيه جلب مصلحة أو درء مفسدة فيجوز تارة ويجب أخرى وله أمثلة :

أحدها: أن يكذب لزوجته لإصلاحها وحسن عشرتها فيجوز؛ لأن قبح الكذب الذي لا يضر ولا ينفع يسير، فإذا تضمن مصلحة تربي على قبحه أبيح الإقدام عليه تحصيلاً لتلك المصلحة، وكذلك الكذب للإصلاح بين الناس وهو أولى بالجواز لعموم مصلحته .

الثاني: أن يختبئ عنده معصوم من ظالم يريد قطع يده فيسأله عنه فيقول: ما رأيته، فهذا الكذب أفضل من الصدق، لوجوبه من جهة أن مصلحة حفظ العضو أعظم من مصلحة الصدق الذي لا يضر ولا ينفع، فما الظن بالصدق الضار؟ وأولى من ذلك إذا اختبأ عنده معصوم ممن يريد قتله .

الثالث: أن يسأل الظالمُ القاصد لأخذ الوديعة المستودعَ عن الوديعة

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٤٠).

فيجب عليه أن ينكرها، لأن حفظ الودائع واجب وإنكارها هاهنا حفظ لها ولو أخبره بها لضمنها، وإنكارها إحسان.

الرابع: أن تختبئ عنده امرأة أو غلام يُقصدان بالفاحشة فيسأله القاصد عنهما فيجب عليه أن ينكرهما.

الخامس: أن يُكره على الشرك الذي هو أقبح الكذب أو على نوع من أنواع الكفر فيجوز له أن يتلفظ به حفظاً لنفسه؛ لأن مفسدة لفظ الشرك من غير اعتقاد دون مفسدة فوات الأرواح.

والتحقيق في هذه الصور وأمثالها أن الكذب يصير مأذوناً فيه ويثاب على المصلحة التي تضمنها على قدر رتبة تلك المصلحة من الوجوب في حفظ الأموال والأبضاع والأرواح، ولو صدق في هذه المواطن لأثم إثم المتسبب إلى تحقيق هذه المفاسد، وتتفاوت الرتب له ثم التسبب إلى المفاسد بتفاوت رتب تلك المفاسد.

المثال الخامس والأربعون من ترجيح المصالح على المفاسد: الغيبة مفسدة محرمة لكنها جائزة إذا تضمنت مصلحة واجبة التحصيل أو جائزة التحصيل؛ ولها أحوال:

أحدها: أن يشاور في مصاهرة إنسان فذكره بما يكره، كما قال ﷺ لفاطمة بنت قيس لما خطبها أبو جهم ومعاوية: « **إن أبا جهم ضراب للنساء، وإن معاوية صعلوك لا مال له**»[1]؛ فذكرهما بما يكرهانه نصحاً لها ودفعاً لضيق عيشها مع معاوية وتعريضاً لضرب أبي الجهم، فهذا جائز. والذي

(١) متفق عليه.

يظهر لي أنه واجب لأمر رسول الله ﷺ بالنصح لكل مسلم»[1] اهـ .

وقد ذكر صاحب الإحياء صورة مهمة لا يكمل الصدق في الأقوال إلا بها، ألا وهي الصدق مع الله سبحانه فيما يناجي به العبد ربه من الألفاظ فيقول: «يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله تعالى: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] ، فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواتها فهو كذب. وكقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقاً، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله، لعجز [عن] تحقيقه، فإنه إن كان عبداً لنفسه أو عبداً لدنيا أو عبداً لشهواته لم يكن صادقاً في قوله. وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيد الدنيا! وقال نبينا ﷺ: « **تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، وعبد الحلة وعبد الخميصة** »[2] ، فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له.

وإنما العبد الحق ـ لله عزوجل ـ من أعتق أوّلاً من غير الله تعالى فصار حراً مطلقاً، فإذا تقدّمت هذه الحرّية صار القلب فارغاً فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى»[3] اهـ.

---

(١) قواعد الأحكام ص ٩٦ ، ٩٧ للعز بن عبد السلام.

(٢) البخاري بنحوه ك الجهاد (٢٨٨٧)/ فتح (٦/ ٩٥).

(٣) الإحياء (٤/ ٥٩٤).

٣ـ الصدق في الأعمال:

وهو استواء الأفعال على الأمر والمتابعة. وأن يجاهد العبد نفسه في أن تكون سريرته وعلانيته واحدة، وأن لاتدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف به حقيقة، كمن يتظاهر بالخشوع في الظاهر والقلب ليس كذلك، أو يتظاهر بالحرقة على الدين والغيرة على المحارم وهو في الباطن ليس كذلك. والصور كثيرة جداً منها صور الرياء المختلفة، والقول باللسان ما ليس في القلب. وهذا لا يعني أن يترك المرء الأعمال الصالحة حتى يصلح باطنه، كلا، ولكن يجاهد نفسه في أن يستجرَّ باطنه إلى تصديق ظاهره.

يقول صاحب الإحياء: «إن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق، وقال يزيد بن الحارث: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور. وقال معاوية بن قرة: من يدلني على بكَّاء في الليل بسَّام في النهار»[1] اهـ.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في شرحه لخطاب عمر رضي الله عنه المشهور في إعلام الموقعين:

«وأما قوله: «ومن تزين بما ليس فيه شانه الله» لما كان المتزين بما ليس فيه ضد المخلص ـ فإنه يظهر للناس أمراً وهو في الباطن بخلافه ـ عامله الله بنقيض قصده، فإن المعاقبة بنقيض القصد ثابتة شرعاً وقدراً، ولما كان المخلص يُعَجَّل له من ثواب إخلاصه الحلاوة والمحبة والمهابة في قلوب الناس

(١) الإحياء (٤/ ٥٩٨).

عجَّل للمتزين بما ليس فيه من عقوبته أن شانهُ الله بين الناس، لأنه شان باطنه عند الله، وهذا موجب أسماء الرب الحسنى وصفاته العليا وحكمته في قضائه وشرعه.

هذا، ولما كان من تزين للناس بما ليس فيه من الخشوع والدين والنسُك والعلم وغير ذلك قد نصَب نفسَه للوازم هذه الأشياء ومقتضياتها فلابد أنَ تطلب منه، فإذ لم توجد عنده افتضح، فيشينه ذلك من حيث ظن أنه يزينه، وأيضاً فإنه أخفى عن الناس ما أظهر لله خلافه، فأظهر الله من عيوبه للناس ما أخفاه عنهم، جزاءً له من جنس عمله، وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق، قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع، وأساس النفاقِ وأصله هو التزين للناس بما ليس في الباطن»[1] اهـ.

ومن الصدق في الأعمال:

حفظ الأمانة بمفهومها الواسع في الأموال والأولاد والودائع والأعراض وجميع الأوامر والنواهي .. إلخ، كل هذا إذا صاحبه الإخلاص والتجرد لله عزوجل والمتابعة لرسوله ﷺ، فصاحب العمل من الصادقين الأبرار، ويدخل في ذلك الوفاء بجميع المعاملات مع الناس في البيع والشراء وتجنب الغش وحب الخير لهم ... إلخ. كل هذا من الصدق في الأعمال. قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨].

٤ـ الصدق في مقامات الدين:

قال صاحب الإحياء في هذه المرتبة:

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٨٠).

«وهو أعلى الدرجات وأعزها؛ الصدقُ في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور. فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سُمي صاحبه صادقاً فيه، كما يقال: فلان صادق القتال. ويقال: هذا هو الخوف الصادق، وهذه هي الشهوة الصادقة.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

وسئل أبو ذرّ عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له: سألناك عن الإيمان؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان فقرأ هذه الآية[١].

ولنضرب للخوف مثلاً: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره، حتى لا ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفاً من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند

(١) قال محقق الإحياء: رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة.

جريان معصية عليه، ولذلك قال ﷺ: « **لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها** »[1] . فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقاً فيه »[2] اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) الترمذي بنحوه ك (صفة جهنم) (٢٦٠٤)/ (٧/ ٢٦٤).
(٢) الإحياء (٤/ ٥٩٨).

ذكر بعض الآيات الواردة في معنى الصدق وفضله

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

يقول الإمام ابن كثير عن قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: «أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا. وأولئك هم المتقون؛ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات»(١) اهـ.

ويقول القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: «وصفهم بالصدق والتقوى في أمورهم والوفاء بها، وأنهم كانوا جادين في الدين، وهذا غاية الثناء. والصدق خلاف الكذب. ويقال: صدقوهم القتال. والصديق: الملازم للصدق»(٢) اهـ.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله عند تفسير هذه الآية

---

(١) تفسير ابن كثير آية ١٧٧ سورة البقرة.

(٢) تفسير القرطبي آية ١٧٧ سورة البقرة.

كلاماً طويلاً ومفيداً أنصح بالرجوع إليه في كتابه القيم «صفوة الآثار والمفاهيم». وأكتفي بما عقب به بعد تفسير هذه الآية الكريمة حيث يقول رحمه الله:

« فهذه الآية الكريمة ـ آية البر ـ جمعت بين الدين والسياسة في بدايتها ونهايتها، إذ اشتملت على أصول العقيدة وتكاليف النفس والمال، وركزت حقيقة منهج الله في الحياة، فقد ابتدأها الله بالسياسة العالمية وختمها بها: فأولها قوله: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّين ﴾.

وقد أوضحنا حقيقة الإيمان بالله وأنه يستلزم عبادته الصحيحة المرضية له، وعبادته مبنية على الحب والتعظيم، ومحبته لا تتحقق إلا بمحبة ما يحبه، والسعي لها يعني السعي لمحبوباته، وبغض ما يبغضه وعداوته والابتعاد عنه، وأن لا يوالي أحداً من أعدائه أو يسر إليهم بالمودة مهما كانت حالهم أو قرابتهم، ولا يعادي أحداً من أحباب الله لأي غرض نفسي أو طريقة سياسية، بل ولا يتخلى عن أهل الله الذين هم أهل ملته، وإن ابتلوا بحكام يحيدون عن سبيل الله، فليعامل الشعوب معاملة دينية مرضية لله.

فعبادة الله التي هي نتيجة الإيمان ليست مقصورة على إقامة شيء من الشعائر الدينية أو جميعها، بل هي شاملة لجميع نظام الحياة، لا يستقيم حب الله وتعظيمه إلا برعايتها حق الرعاية. فتعظيم الله لا يتحقق إلا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه في كل ناحية من شؤون الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولا يحصل الإخلال بذلك إلا ممن ضعف إيمانه لنقص حبه لله وتعظيمه، أو من جاهل لا يعرف معنى عبادة الله، بل تسيره شياطين الجن والإنس، وتعصف بعقله أهازيج الدجاجلة.

ومن اعتقد قصر عبادة الله أو حصرها على الشعائر التعبدية فقط كما يريده العصريون من قصر الدين على المساجد ونحوها، فهذا من أجهل الناس باللغة العربية، فضلاً عن المدلولات الشرعية، ومن أجهل الناس بمعاني الألوهية وحقيقة الإيمان بها، فيكون جميع الكفار من أقوام الرسل الذين أولهم نوح وآخرهم محمد ﷺ أعلم منه بمعنى دعوتهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢].

ومن لوازم الإيمان بالله جعل الحاكمية لله وحده، فلا يحتكم إلى غير شريعته، لا في الأمور السياسية ولا الاقتصادية ولا الاجتماعية، لأن من احتكم إلى غير الله في شيء من هذه الشؤون كان رافضاً لألوهية الله أو ملحداً في أسمائه، كالذي يزعم التطور فيبيح ما أحل الله أو يحرم ما أباحه بهذا المزعم الخبيث، أو يسقط حدود الله باسم الإنسانية، زاعماً أن حدود الله قاسية لا تناسب العصر.

فهذا وذاك قد ألحدوا في أسمائه، فلم يعتبروه عليماً ولا خبيراً ولا محيطاً ولا حكيماً ولا رحماناً ولا رحيماً. وكذلك من يزعم أن سمة العصر أو متطلباته لا يناسبها دين الله ولا شرعه، وأنهما لا يصلحان للعصر الصناعي المتطور في العلم والحضارة.

وكذلك من يجعل لنفسه الخيرة في سلوك ما يشاؤه من أنواع الحكم والعلاقات الداخلية والخارجية، فإن هذا منازع لله في سلطانه، بعيد عن الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، فهكذا ابتدأ الله الآية بما هو من لباب السياسة التي يوجب على عباده سلوكها في الحياة إيجاباً قطعياً لا يجوز لهم تخطيه، فلا يكون لهم قصد ولا غاية سواه، ولا يكون لهم

نقطة ارتكاز يتجمعون حولها سوى دين الله، فهو المبدأ الذي يتجمعون عليه، ويقاتلون من أجله، ويعيشون من أجله، ويموتون في سبيله، ويتجمع حولهم الوجود كله إذا أخلصوا المقاصد وأصلحوا الأعمال، وأنه لا يجوز أن يكون لهم هدف سوى دين الله وطاعته، فلم يخلقهم الله سدى وهملاً، يعملون ما يريدون، وأن من خرج عن هذا فليس من الإيمان في شيء وسياسته سياسة شيطانية، يتعثر بها، ويشقى بها تابعوه.

ثم ثنى الله في هذه الآية بتكاليف النفس والمال من إيتاء المال حالة حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المفروضة زيادة على ذلك، كما أوضحناه سابقاً.

فإن الجمع بين إيتاء الزكاة وبين دفع المال على حبه لتلك الجهات، مما يحقق الإنسانية ويضمن كرامتها ويرفعها عن البؤس، ويحفظها من شرور الحقد.

وإقامة الصلاة في الإسلام مظهر لنشاط الإنسان في قواه الثلاثة: جسمه وعقله وروحه، بتوجهها إلى الله جميعاً في ترابط واتحاد، فقيامه وقعوده وركوعه وسجوده تحقيق لنشاط الجسد، وتكبيراته بتفهم، وقراءته بتدبر وتفكير في معانيها ومبانيها، يتحقق به نشاط العقل، وتوجهه واستسلامه لله يتحقق به نشاط الروح كلها في وقت واحد، ففيها تعريف للمصلي بفكرة الإسلام كلها عن الحياة واتجاهها بجميع طاقاتها لله وحده في كل الشؤون.

ثم ختم الله الآية أيضاً بالسياسة العالمية المتضمنة للوفاء الصحيح بالعهد الذي لا يراه أهل الجاهلية قديماً ولا حديثاً ولا يتمسكون به إلا وفق أهوائهم ومصالحهم، وقد كرره القرآن كما أسلفنا وجعله من الإيمان، لأنه يحصل به

إيجاد جو من الثقة والطمأنينة في علاقات الأفراد والجماعات والدول والأمم.

ثم الصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وهو من صميم السياسة الإنسانية في الجهاد النفسي الداخلي والجهاد الخارجي، وفيه تربية وإعداد للنفوس، كي لا تذهب حسرات مع أي فاجعة ولا تنهار جزعاً في أي نازلة، بل تثابر على الصبر والمصابرة، ثقة بالله وانتظاراً لفرجه، حتى يحصل انجلاء الغمة ويتبدل العسر إلى يسر بإذن الله ورحمته وفضله، وبذلك قوة ورباطة جأش للنفوس وسلامة من الهزيمة الحسية أو المعنوية.

فيالها من آية جمعت أصول الحياة الطيبة السعيدة، وجعلتها كلها جزءاً لا يتجزأ، ووحدة لا تنفصم عراها، وطبعتها بعنوان واحد هو (البر).

ولا شك أن هذه الآية خلاصة لمبادئ الإسلام الضرورية التي لا غنى للمسلمين عنها في دينهم ودنياهم والتي يتحقق بتطبيقها صدقهم مع الله وتقواهم له، ولذلك ختمها الله بقوله: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ يعني صدقوا مع الله ومع خلقه في مطابقة أفعالهم لأقوالهم وفي الترجمة عما في قلوبهم من الإيمان أو مايزعمونه من دعوى الإيمان، فإن الإيمان ليس بالدعاوى بل بالأعمال التي تبرهن عما في القلب، وهم المتقون الذين أخذوا لأنفسهم وقاية من الله بامتثال أوامره.

فالمتقون هم الذين اتقوا مساخط الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأخذوا لأنفسهم وقاية من عذابه. وفي إتيان الله بضمير الفصل بقوله: ﴿ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ حصر للصدق والتقوى على أهل هذه الأوصاف. كما أن تكرير الله لهذه الواوات في الأوصاف بهذه الآية لاعتبار الجمع. فمن

شـرائط البـر وتمامـها أن تجتـمع هذه الأوصـاف في المؤمن البـار ليكون من الصادقين المتقين؛ ومن أتى ببعضها دون بعض لم يستحق هذا المقام إلا عند استجماعها، فلا يظن الإنسان أنه إذا صبر حين البأس أو في الضراء والبأساء يكون منهم، ولا المقتصر على الإنفاق أو على مجرد الإيمان أو مجرد الوفاء بعهد المخلوقين السياسي؛ فإنه لا يكون منهم، ولكن الموفي بعهد الله الكلي في معاملته لله معاملة المحب لحبيبه في جميع شؤون الحياة بتطبيق جميع أوامر الشريعة وتنفيذ جميع شعب الإيمان التي منها مضمون هذه الآية، فهذا يكون من أهل البر الصادقين المتقين ـ جعلنا الله منهم أجمعين»[1] . اهـ.

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾.

[التوبة: ١١٩]

ومن هذه الآية أخذت عنوان هذه الدراسة. وقد جاء هذه التوجيه الرباني في أعقاب قصة الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم بسبب صدقهم فيما اعتذروا به، وعدم كونهم مع المنافقين الذين كذبوا على الله ورسوله. يقول كعب بن مالك رضي الله عنه (وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا): «وقلت: يا رسول الله، إنما أنجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، وأنزل الله: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ**

(١) صفوة الآثار والمفاهيم «سورة البقرة آية ١٧٧».

وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ـ إلى قوله ـ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ -١١٩]، فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ـ فقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ـ إلى قوله ـ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦] »(١).

يقول القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: « فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين.

قال مُطرِّف: سمعت مالك بن أنس يقول: قلما كان رجل صادقاً لا يكذب إلا مُتّع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف.

واختلف في المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال؛ فقيل: هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب. وقيل: هو خطاب لجميع المؤمنين؛ أي اتقوا مخالفة أمر الله. ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي مع الذين خرجوا مع النبي ﷺ لا مع المنافقين. أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم. وقيل: هم الأنبياء؛ أي كونوا معهم بالأعمال الصالحة في الجنة. وقيل: هم المراد بقوله: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ ـ الآية إلى قوله ـ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. وقيل: هم الموفون بما عاهدوا؛ وذلك لقوله تعالى:

---

(١) البخاري ك المغازي (٤٤١٨) / فتح (٧/ ٧١٧)، ومسلم ك التوبة (٢٧٦٩) (٤/ ٢١٢٠).

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾. وقيل: هم المهاجرون؛ لقول أبي بكر يوم السَّقيفة؛ إن الله سمّانا الصادقين فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية، ثم سماكم بالمفلحين فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ﴾ الآية. وقيل: هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم.

قال ابن العربي: وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى؛ فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفةُ في الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم. وأما من قال: إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق ويتبعه الأقل وهو معنى آية الأحزاب. وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعمّ الأقوال كلها؛ فإن جميع الصفات فيهم موجودة.

الثانية: حقّ مَن فهم عن الله وعَقَل عنه أن يلازم الصّدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الغفار؛ قال ﷺ: «**عليكم بالصّدق فإن الصّدق يَهْدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصْدقُ ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**»[1]. والكذب على الضد من ذلك»[2]. اهـ.

ويشير صاحب الظلال إلى جانب من جوانب الصدق في هذه الآية ويربطها بالآيات التي بعدها فيقول رحمه الله تعالى:

«وفي ظل قصة التوبة على الذين ترددوا والذين تخلفوا؛ وفي ظل

(١) سبق تخريجه ص٢٥٠.

(٢) تفسير القرطبي الآية (١١٩) من سورة البقرة.

عنصر الصدق البادي في قصة الثلاثة الذين خلفوا؛ يجيء الهتاف للذين آمنوا جميعاً أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين في إيمانهم من أهل السابقة؛ ويجيء التنديد بتخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، مع الوعد بالجزاء السخي للمجاهدين:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[التوبة: ١١٩- ١٢١]

إن أهل المدينة هم الذين تبنوا هذه الدعوة وهذه الحركة، فهم أهلها الأقربون. وهم بها ولها. وهم الذين آووا رسول الله ـ ﷺ ـ وبايعوه؛ وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين في مجتمع الجزيرة كله. وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت؛ وباتت تؤلف الحزام الخارجي للقاعدة.. فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله، وليس لهم أن يؤثروا أنفسهم على نفسه.

وحين يخرج رسول الله ـ ﷺ ـ في الحر أو البرد. في الشدة أو الرخاء. في اليسر أو العسر. ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها، فإنه لا يحق لأهل المدينة، أصحاب الدعوة، ومن حولهم من الأعراب، وهم قريبون من شخص رسول الله ﷺ ـ ولا عذر لهم في ألا يكونوا قد علموا ـ أن يشفقوا

على أنفسهم مما يحتمله رسول الله ﷺ .

من أجل هذه الاعتبارات يهتف بهم أن يتقوا الله وأن يكونوا مع الصادقين، الذين لم يتخلفوا، ولم تحدثهم نفوسهم بتخلف، ولم يتزلزل إيمانهم في العسرة ولم يتزعزع. . وهم الصفوة المختارة من السابقين والذين اتبعوهم بإحسان»[1] اهـ.

الآية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

[الأحزاب: ٢٣، ٢٤]

ورد في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه والذي ضرب أروع الأمثلة في الصدق والوفاء، ويكفي في إيراد هذا السبب تفسيراً وتعليقاً على هذه الآية الكريمة:

روى البخاريّ ومسلم والترمذي عن أنس قال: «قال عمّي أنس بن النَّضْر ـ سُمِّيت به ـ ولم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فكَبُر عليه فقال: أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ لَيَرَيَنّ الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها؛ فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحُد من العام القابل، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو أين؟ قال: واها لريح الجنة! أجدها دون أحُد؛ فقاتل حتى قُتل، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورَمْية. فقالت عَمّتي

(١) في ظلال القرآن «سورة التوبة آية ١١٩».

الرُّبَيِّع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببَنَانه. ونزلت هذه الآية ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ »(١) . هذا لفظ الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ .

[محمد: ٢١]

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

« ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة فيصدقه في عزمه وفي فعله: قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم: فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه وألا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه. فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور.

ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره. وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل؛ فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله»(٢) اهـ.

---

(١) البخاري ك المغازي (٤٠٤٨) / فتح (٧/ ٤١١) بنحوه، ومسلم ك الإمارة (١٩٠٣) / (٣/ ١٥١٢)، والترمذي ك التفسير (٣١٩٨)/ (٨/ ٣٤١).

(٢) الفوائد ص١٨٦.

الآية الخامسة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

[الحجرات: ١٥]

يقول سيد قطب رحمه الله حول هذه الآية:

« فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله. التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب. التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور. والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله.

فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه، لابد من دافع لتحقيق حقيقته في خارج القلب. وفي واقع الحياة. وفي دنيا الناس. يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة.

ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه، والصورة الواقعية من حوله. لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة. ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس. فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن. يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه، ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس.

والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني، وواقعه العملي. وعدم

استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف. فلابد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله، حتى تنثني هذه الجاهلية إلى التصور الإيماني والحياة الإيمانية.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.. الصادقون في عقيدتهم. الصادقون حين يقولون: إنهم مؤمنون. فإذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة، فالإيمان لا يتحقق. والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون.

ونقف قليلاً أمام هذا الاحتراس المعترض في الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾.. إنه ليس مجرد عبارة. إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية. وعلاج لحالة تقوم في النفس. حتى بعد إيمانها..

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ وشبيه بها الاحتراس في قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله.. ثم استقاموا..﴾ فعدم الارتياب، والاستقامة على قوله: «ربنا الله» تشير إلى ما قد يعتري النفس المؤمنة ـ تحت تأثير التجارب القاسية، والابتلاءات الشديدة ـ من ارتياب ومن اضطراب. وإن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل، ونوازل تزعزع. والتي تثبت فلا تضطرب، وتثق فلا ترتاب، وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله.

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق، وأخطار

الرحلة، لتعزم أمرها، وتحتسب، وتستقيم، ولا ترتاب عندما يدلهمّ الأفق، ويُظلم الجو، وتناوحها العواصف والرياح!»[1] اهـ.

والآيات في معنى الصدق وفضله كثيرة جداً نكتفي بما تم إيراده فيما سبق، والله نسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

❋ ❋ ❋

(١) في ظلال القرآن آية ١٥ الحجرات.

ذكر الأحاديث والآثار الواردة
في معنى الصدق وفضله

الحديث الأول :

عَن ابْن مَسْعُود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ : «**إنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدي إِلَى الْجَنَّة ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يكُونَ صدِّيقاً ، وإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ ، وإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدي إِلَى النَّارِ ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً**»[1] مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

فقه الحديث :

أفاد الحديث الترغيب في الصدق لأنه سبب كل خير وتقى ، وأن من تكرر منه الصدق حتى صار له سجية وخلقاً في جميع أحواله فهو الصديق الذي له ثواب الصديقين ، كما أفاد التحذير من الكذب لأنه سبب كل شر وأن تكراره من الإنسان يصيره خلقاً وسجية حتى يكتب عند الله من الكاذبين . كما أفاد الحديث عاقبة الصدق وهي الجنة ، وعاقبة الكذب وهي النار .

الحديث الثاني :

عَنْ أبي مُحَمَّد الْحَسَن بْن عَلِيِّ بْن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قالَ : حَفِظْتُ مِنْ رَسُول الله ﷺ : « **دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ**

(١) البخاري ك الأدب (٦٠٩٤) / فتح (١٠/ ٥٢٣)، مسلم ك البر (٢٦٠٧)/ (٤/ ٢٠١٢).

طُمَانِينَةٌ، والْكَذِبَ رِيبَةٌ»(١) رَوَاهُ التِّرْمذيُّ وقَـالَ: حَديثٌ صَحيحٌ. قَوْلُهُ «**يَرِيبُكَ**» هُوَ بفَتْحِ الْيَاءِ وضَمِّهَا: ومَعْنَاهُ اتْرُكْ مَا تَشُكُّ في حلِّه واعْدِلْ إِلَى ما لا تَشُكُّ فيه.

فقه الحديث :

إن الصدق يبعث في النفس الطمأنينة والثقة والثبات والاستقرار وهذه ثمرة من ثمرات الصدق، وعكسه الكذب الذي لا يورث إلا الريبة والشك والقلق والاضطراب وعدم الثقة بين الناس.

الحديث الثالث :

عَنْ أبي خَالد حَكيم بْن حزَام رَضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «**الْبَيِّعَانِ بالْخِيَارِ ما لَمْ يَتفَرَّقَا، فإِنْ صَدَقَا وبَيَّنا بُورِكَ لَهُمَا فى بَيْعِهِما، وإِنْ كَتَما وكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

فقه الحديث :

أفاد الحديث فضيلة الصدق في المعاملة وأنه سبب في نماء المال وبركته وزكاته بخلاف الكذب والغش والكتمان التي تؤدي إلى محق البركة ونقص النماء، كما يستفاد من الحديث بصفة عامة ثمرة الصدق في كل أنواع التعاملات. ويدخل في ذلك الصدق مع الله عزوجل وأنه سبب قبول الأعمال وبركتها.

---

(١) الترمذي ك صفة القيامة (٢٥٢٠)/ (٧/ ٢٠٥)، أحمد (١/ ٢٠٠). وقال الترمذي: صحيح، وصححه الألباني [صحيح الترمذي ٢٠٤٥].

(٢) البخاري ك البيوع (٢٠٧٩)/ فتح (٤/ ٣٦٢)، ومواضع أخرى، مسلم ك البيوع (١٥٣٢)/ (٣/ ١١٦٤).

الحديث الرابع :

عَنْ أبي ثَابت، وقيلَ أبي سَعيد، وقيلَ أبي الْوَليد، سَهْل بْن حُنَيف، وهُوَ بَدْرِيٌّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي ﷺ قَالَ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ تَعالَى الشَّهادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنازِلَ الشُّهَدَاءِ، وإنْ ماتَ عَلى فِرَاشِه**»[1] رواهُ مُسْلمٌ.

فقه الحديث :

أفاد الحديث ثمرة النية الصادقة، وأن من نوى شيئاً من أعمال البر أثابه الله عليه ولو قصرت النية عن العمل. والنية الصادقة هي التي لا يشوبها عرض من أعراض الدنيا ولم يصبها التردد والضعف في العزيمة على الوفاء بها. ومثل هذا الحديث ما رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه**»[2].

ومثل هذا الحديث الحديث التالي:

الحديث الخامس :

عن سعيد الطائي أبي البختري أنه قال: حدثني أبو كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«**ثَلاث أقسمُ عَلَيْهِنَّ وأحَدِّثُكُمْ حَديثاً فاحْفَظُوهُ. قال: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْد مِنْ صَدَقَة، ولا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إلا زَادَهُ الله عِزّاً، ولا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلا فَتَحَ الله عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ - أوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - وأحَدِّثُكُمْ حَديثاً فاحْفَظُوهُ. فقال: إنَّمَا الدُّنْيَا لأرْبَعَة نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً**

(١) مسلم ك الإمارة (١٩٠٩)/ (٣/ ١٥١٧).

(٢) مسلم ك الإمارة (١٩٠٨)/ (٣/ ١٥١٧).

وَعِلْماً فَهُوَ يَتَّقِي رَبَّهُ فيه وَيَصِلُ به رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لله فيه حَقّاً فَهَذَا بأفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْماً وَلَمْ يرزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّة يقُولُ: لَوْ أنَّ لي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بعَمَلِ فُلان فَهُوَ بنيَّته فأجْرُهُمَا سَوَاء، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلم يَرْزُقْهُ عِلْماً يَخْبطُ في مَاله بغَيْرِ عِلْم، لا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، ولا يَعْلَمُ لله فِيهِ حقاً، فَهُوَ بأخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلا عِلْماً فَهُوَ يقُولُ: لَوْ أنَّ لي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلان، فَهُوَ بنِيَّته فَوِزْرُهُمَا سَوَاء»[١].

الحديث السادس:

عن ابن عمرَ رضيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بَينما ثلاثةُ نَفرٍ ممَّن كانَ قبلَكم إذ أصابهم مَطَر، فأوَوا إلى غارٍ فانطَبقَ عليهم، فقال بعضُهم لبعضٍ: إنهُ والله يا هؤلاء لا يُنجيكم إلا الصِّدق، فلْيَدْعُ كلُّ رجُل منكم بما يعلم أنهُ قد صدَقَ فيه. فقال واحدٌ منهم: اللَّهمَّ إن كنتَ تعلمُ أنهُ كان لي أجيرٌ عملَ لي على فرَقٍ من أرُزٍّ، فذَهبَ وترَكَهُ، وإني عمَدْتُ إلى ذلكَ الفرَقِ فزرَعتهُ، فصار من أمره أني اشتريتُ منهُ بقراً، وأنهُ أتاني يَطلبُ أجرَهُ، فقلتُ له: اعمَدْ إلى تلك البقرِ فسُقْها، فقال لي: إنما لي عندَكَ فرَقٌ من أرُزٍّ. فقلتُ له: اعمَدْ إلى تلك البقرِ، فإنها من ذلكَ الفرَقِ. فساقَها. فإن كنتَ تَعلم أني فعلتُ ذلكَ من خَشيَتك ففرِّج عنا. فانساخَت عنهمُ الصخرة. فقال الآخرُ: اللهمَّ إن كنتَ تعلمُ أنهُ كان لي أبَوان شيخان كبيران، وكنتُ آتيهما كلَّ ليلةٍ بلَبَنِ غنمٍ لي، فأبطأتُ عنهما ليلةً، فجئتُ

(١) الترمذي ك الزهد (٢٣٢٦)/ (٧/ ١٨)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه مختصراً ك الزهد (٤٢٢٨)/ (٢/ ١٤١٣). وصححه الألباني.

وقد رقَدا؛ وأهلي وعيالي يتَضاغَونَ منَ الجُوعِ، وكنت لا أسقيهم حتى يَشربَ أبوايَ، فكرهتُ أن أُوقظهما، وكرهتُ أن أدَعَهُما فيَستكنَّا لشَربتهما، فلم أزلْ أنتظرُ حتى طلعَ الفجر. فإن كنتَ تعلمُ أني فعلتُ ذلك من خَشيتكَ ففرِّجْ عنَّا. فانساخَت عنهمُ الصخرةُ حتى نَظروا إلى السماء. فقال الآخر: اللهمَّ إن كنتَ تعلمُ أنهُ كان لي ابنةُ عمٍّ من أحبِّ الناس إليَّ، وأني راودْتُها عن نفسها فأبَتْ إلا أن آتيهَا بمائةِ دينارٍ، فطلَبتُها حتى قدَرْتُ فأتيتُها بها فدَفَعْتُها إليها، فأمكنَتْني من نفسها، فلما قعَدْتُ بينَ رجليها فقالت: اتَّق الله ولا تَفُضَّ الخاتَمَ إلا بحقِّه، فقُمتُ وتركتُ المائةَ الدِّينار. فإن كنتَ تعلمُ أني فعلتُ ذلك من خَشيتكَ ففرِّجْ عنَّا، ففرَّجَ اللهُ عنهم فخرَجوا»[1].

فقه الحديث:

فضل الصدق وأثره في النجاة من الشدائد والكربات، وأن المؤمن لا يذكر حينئذ من أعماله إلا ما كان صادقاً، وهو الذي يبقى ثوابه عند الله عزوجل.

الحديث السابع:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: **«أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وحسن خليقة، وصدق حديث، وعفة في مطعم»**[2].

---

(١) البخاري ك أحاديث الأنبياء (٣٤٦٥)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣).

(٢) أحمد (٢/ ١٧٧)، وصححه الألباني / الصحيحة (٧٣٣).

فقه الحديث :

أن من حاز على هذه الفضائل فقد حاز على الخير كله، وذلك لما في هذه الفضائل من خيري الدنيا والآخرة، ولو تأملنا في كل هذه الفضائل لرأيناها تنبع من الصدق بمفهومه الواسع لأن الصدق مع الله عزوجل والصدق مع خلقه يقتضي هذه الفضائل وغيرها.

❋ ❋ ❋

مواقف صادقة

وفي هذه الفقرة نستعرض بعض المواقف الصادقة التي أثمرها الصدق مع الله عزوجل والصدق مع دينه سبحانه، وهي على سبيل المثال لا الحصر وإلا فمواقف أنبياء الله عزوجل والتابعين لهم بإحسان كلها مواقف صدق وإخلاص وتضحية، نسأل الله سبحانه أن يحشرنا في زمرتهم وإن قصرت أعمالنا وعزائمنا عنهم قصوراً شديداً شديداً، و«المرء مع من أحب» إن كان صادقاً في حبه لهم.

صديق الأمة الأكبر رضي الله عنه :

إنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه والذي اتسمت حياته كلها بالصدق والإخلاص والتضحية والبذل والمحبة الصادقة لله عزوجل ولنبيه محمد ﷺ ، ومن أجل ذلك استحق هذا اللقب الشريف من رسول الله ﷺ والذي سبق به غيره من المؤمنين، ومن أجل ذلك فاق إيمانه إيمان الأمة، وبه فضل على الناس جميعاً سوى الأنبياء.

ولا يعني هذا أن ليس في الأمة صديق إلا أبا بكر رضي الله عنه، كلا، بل الصديقون في هذه الأمة كثير، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، ولكن أبا بكر رضي الله عنه قد حاز الكمال في الصديقية، وكل من وصل إلى رتبة الصديقية فهو دون أبي بكر عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

مثال في صدق العزائم :

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «غزا نَبيٌّ من الأنْبياء صلَواتُ الله وسَلامُهُ عَلَيهِمْ، فقَالَ لقَوْمِه: لا يَتْبَعَنِّي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأةٍ وهُوَ يُريدُ أنْ يَبْنيَ بها ولمَّا يَبْنِ بها، ولا أحدٌ بَنى بُيُوتاً لَمْ يرفَعْ سُقُوفَها، ولا آخرُ اشْتَرى غَنماً أوْ خَلِفاتٍ وهُوَ يَنْتَظِرُ ولادَها. فغزا فَدنا من القَرْيَةِ صَلاةَ العَصْرِ أوْ قَريباً منْ ذلكَ، فَقَالَ للشَّمْس: إنَّك مأمُورَةٌ وأنا مَأمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْها عَلَيْنا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْه، فَجَمعَ الْغَنائمَ فَجاءَتْ ـ يَعْني النَّارَ ـ لتأكُلَها فَلَمْ تَطْعَمْها، فقَالَ: إنَّ فيكُمْ غُلُولاً فَلْيُبايِعْني منْ كُلِّ قَبيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بيَده فقَالَ: فيكُمُ الْغُلُولُ؛ فَلْتُبايِعْني قَبيلَتُكَ، فلَزِقَتْ يدُ رَجُلَيْن أوْ ثَلاثَةٍ بيَده فقَالَ: فيكُمُ الغُلُولُ. فَجاءُوا برأسٍ بَقَرَةٍ منَ الذَّهَب، فَوَضَعُوها فَجاءَت النَّارُ فأكَلَتْها، ثُمَّ أحَلَّ اللّهُ لَنا الْغَنائمَ؛ رأى ضَعْفَنا وعَجْزَنا فأحَلَّها لَنا»(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

«الْخَلِفاتُ» بفَتْحِ الْخاءِ الْمُعْجَمَةِ وكَسْرِ اللامِ: جَمْعُ خَلِفَةٍ وهيَ النَّاقَةُ الْحَاملُ.

أمثلة في الصدق مع الله عزوجل في الجهاد والوفاء بالعهد :

أ ـ قد مضت قصة أنس بن النضر في غزوة أحد وما نزل فيه من القرآن في قوله تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**... الآية﴾ فليرجع إليها في الآيات الواردة في فضيلة الصدق .

ب ـ عن شداد بن الهاد أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ

(١) البخاري ك الخمس (٣١٢٤)/ فتح (٦/ ٢٥٤)، مسلم ك الجهاد (١٧٤٧)/ (٣/ ١٣٦٦).

فآمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غنم النبي ﷺ سبياً فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قَسمَ له وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسْمٌ قَسَمه لك النبي ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال ما هذا؟ قال: «**قسمته لك**»، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرُمى إلى هاهنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهم فأموت فأدخل الجنة. فقال: «**إن تصدق الله يصدقك**». فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو فأتي به النبي ﷺ يُحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «**أهو هو؟**»، قالوا: نعم، قال: «**صدق الله فصدقه**»، ثم كفنه النبي ﷺ في جبته ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً، أنا شهيد على ذلك**»[1] .

وفي هذه القصة فضل احتساب جميع الأجر من الله في الآخرة والعزوف عن كل عرض دنيوي يأتي من وراء الدعوة والجهاد.

جـ ـ البكاؤون: وهم الذين جاءوا إلى النبي ﷺ ليحملهم معه في غزوة تبوك فاعتذر منهم بعدم الكفاية في الظهر، فانصرفوا باكين لا لفوات دنيا ولكن لتخلفهم عن رسول الله ﷺ في الجهاد معه والفوز بالثواب والأجر العظيم، فقال تعالى عاذراً لهم: ﴿ **وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ [التوبة: ٩٢].

---

(١) النسائي ك الجنائز ب الصلاة على الشهداء (٤/ ٦٠).

د ـ ومن ترجمة واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: عن محمد بن سعد قال: « أتى واثلة رسول الله ﷺ فصلى معه الصبح. وكان رسول الله ﷺ إذا صلى وانصرف تصفح أصحابه. فلما دنا من واثلة قال: **من أنت؟** فأخبره فقال: **ما جاء بك؟** قال: جئت أبايع. فقال رسول الله ﷺ: **فيما أحببت وكرهت؟** قال: نعم. قال: **فيما أطقت؟** قال: نعم. فأسلم وبايعه.

وكان رسول الله ﷺ يتجهز يومئذ إلى تبوك فخرج واثلة إلى أهله فلقي أباه الأسقع فلما رأى حاله قال: قد فعلتها؟ قال نعم. قال أبوه: والله لا أكلمك أبداً. فأتى عمه فسلم عليه فقال: قد فعلتها؟ قال: نعم. قال: فلامه أيسر من ملامة أبيه وقال: لم يكن ينبغي لك أن تسبقنا بأمر. فسمعت أخت واثلة كلامه فخرجت إليه وسلمت عليه بتحية الإسلام. فقال واثلة: أنى لك هذا يا أخيّة؟ قالت: سمعت كلامك وكلام عمك فأسلمت. فقال: جهِّزي أخاك جهاز غاز فإن رسول الله ﷺ على جناح سفر. فجهزته فلحق برسول الله ﷺ قد تحمَّل إلى تبوك وبقي غبَّرات من الناس وهم على الشخوص فجعل ينادي بسوق بني قينقاع: من يحملني وله سهمي؟ قال: وكنت رجلاً لا رُحلة بي. قال: فدعاني كعب بن عجرة فقال: أنا أحملك عقبةً بالليل وعقبةً بالنهار ويدك أسوة يدي وسهمك لي. فقال واثلة: نعم. قال واثلة: جزاه الله خيراً لقد كان يحملني ويزيدني وآكل معه ويرفع لي، حتى إذا بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل خرج كعب في جيش خالد وخرجت معه فأصبنا فيئاً كثيراً فقسمه خالد بيننا فأصابني ست قلائص، فأقبلت أسوقها حتى جئت بها خيمة كعب

بن عجرة فقلت: اخرج رحمك الله فانظر إلى قلائصك فاقبضها، فخرج وهو يبتسم ويقول: بارك الله لك فيها ما حملتك وأنا أريد أن آخذ منك شيئاً»[١] .

هـ - وقال محمد بن المثنى: حدثنا عبد الله بن سنان قال: «كنتُ مع ابن المبارك، ومُعتمر بن سليمان بطَرَسوس، فصاح الناسُ: النفير، فخرج ابن المبارك والناس، فلما اصطفَّ الجمعان، خرج رومي، فطلب البراز، فخرج إليه رجلٌ، فشدَّ العلج عليه فقتله، حتى قتل ستةً من المسلمين، وجعل يتَبَخْترُ بينَ الصَّفين يطلُب المبارزة، ولا يخرجُ إليه أحد، فالتفتَ إليَّ ابنُ المبارك، فقال: يا فلان، إن قُتلتُ فافعل كذا وكذا، ثم حرَّك دابته، وبرز للعلْج، فعالج معه ساعة، فقتَل العلج، وطلب المبارزة، فبرز له علج آخر فقتله حتى قَتل ستة علوج، وطلب البراز، فكأنهم كاعوا عنه، فضرب دابته، وطرد بين الصفين، ثم غاب، فلم نشعر بشيء، وإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبد الله لئن حدَّثت بهذا أحداً، وأنا حيٌّ، فذكر كلمة»[٢] .

و - وعن عبد الله بن قيس، أبي أمية الغفاري قال: «كنا في غزاة لنا فحضر عَدُوهُم، فَصِيحَ في الناس، فهم يثوبون إلى مصافِّهم، إذا رجل أمامي، رأسُ فرسي عند عَجُز فَرسه، وهو يُخاطب نفسه ويقول: أي نفس ألم أشهد مشهدَ كذا وكذا فقلت لِي: أهلك وعيالك، فأطعتك ورجعت؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت: أهلكَ وعيالك، فأطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنَّك اليوم على الله، أخذك أو تَركك. فقلتُ: لأرمُقَنَّه اليوم. فرمقته

(١) صفة الصفوة (١/ ٦٧٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٨).

فحمل الناسُ على عدوّهم فكان في أوائلهم. ثم إن العدوّ حمل على الناس فانكشفوا فكان في حُماتهم، ثم إن الناس حملوا فكان في أوائلهم، ثم حمل العدوّ وانكشف الناس فكان في حُماتهم. قال: فوالله مازال ذلك دأبَه حَتَّى رأيْته صريعاً. فعدَدْتُ به وبدابته ستِّين، أو أكثر من ستِّين، طَعنةً»[(١)].

أمثلة في الصدق مع الخلق:

أ ـ عن الفرْيابي: حدثني أبو بكر سعيد بن يعقوب الطَّالقاني، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن الأوزاعي، عن هارون بن رئاب، أن عبد الله بن عمرو لما حضرته الوفاة قال: «انظروا فلاناً ـ لرجل من قريش ـ فإني كنت قلت له في ابنتي قولاً كشبيه العدة، وما أحبُّ أن ألقى الله تعالى بثُلثُ النفاق، وأشْهِدكم أني قد زوجته»[(٢)].

ب ـ عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[(٣)]. وزاد ابن حبان: «فكان جرير بن عبد الله إذا بايع أحداً قال: اعلم يا أخي أن ما أخذنا منك خير مما أعطيناك فاختر». كل هذا من النصح والصدق للمسلم والصدق مع الناس.

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ٤٢١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٩٦).

(٣) البخاري ك الإيمان (٥٧)/ فتح (١/ ١٦٦)، ومواضع أخرى، ومسلم ك الإيمان (٥٦)/ (١/ ٧٥).

مثال في الصدق مع النفس :

عن جعفر بن برقان قال: «بلغني عن يونس بن عبيد فضلٌ وصلاحٌ فكتبت إليه: يا أخي بلغني عنك فضلٌ وصلاح فأحببت أن أكتب إليك، فاكتب إليّ بما أنت عليه. فكتَب إليّ: أتاني كتابك تسألني أن أكتب إليك بما أنا عليه، وأخبرك أني عرضت على نفسي أن تحبّ للناس ما تحب لها وأن تكره لهم ما تكره لها؛ فإذا هي من ذلك بعيد، ثم عرضت عليها مرَة أخرى تَرك ذكرهم إلا من خير؛ فوجدت الصوم في اليوم الحار الشديد الحَر بالهواجر بالبصرة أيْسر عليها من تَرك ذكرهم، هذا أمري يا أخي والسلام»(١).

مثال في الصدق في قول كلمة الحق :

قال أبو الفرج ابنُ الْجَوْزي: «أقام جَوهر القائد(٢) لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النَّابُلسي، وكان ينزل الأكواخ، فقال له: بَلَغَنا أنَّكَ قلت: إذا كان مع الرَّجل عشرةُ أسهم، وجب أن يَرْمي في الرُّوم سَهْماً، وفينا تسعة، قال: ما قلتُ هذا، بل قلت: إذا كان معه عشرةُ أسهم، وجبَ أن يرميَكُمْ بتسعة، وأن يَرميَ العاشر فيكم أيضاً، فإنكم غيّرتم الملَّة، وقَتَلْتُم الصَّالحين، وادَّعيتُم نور الإلهية، فشهرَهُ ثمَّ ضربَه، ثم أمر يهودياً فَسَلَخه».

وقال الذهبي في ترجمته لأبي بكر النابلسي: «قال أبو ذرٍّ الحافظ: سَجَنَه بنو عُبيد، وصلَبُوه على السنّة، سمعتُ الدَّارقُطنيَّ يذكُرُه، ويَبْكي، ويقول: كان يقول وهو يُسْلَخ: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ [الإسراء: ٥٨]»(٣).

(١) صفوة الصفوة (٣/ ٣٠٣).
(٢) هو أحد قادة دولة بني عبيد الباطنية في مصر.
(٣) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٤٨).

مثالان في الصدق مع الله عزوجل في الثبات على الإيمان والصبر على البلاء :

أ ـ قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام :

وفي هذه القصة من الصدق والإيمان الحق الشيء العظيم ، فإن شئت رأيت ذلك في الراهب الذي قطع بالمنشار ليرجع عن دينه فلم يرجع ، وإن شئت رأيت ذلك في جليس الملك الذي فُعل به ما فُعل بالراهب ، وإن شئت وجدت ذلك في الغلام الذي هُدّد بجميع أصناف القتل فاستعلى على ذلك وأنجاه الله، حتى إذا رأى أن في قتله إيمان الناس من حوله فتح ذراعيه للقتل باذلاً نفسه لربه عزوجل ، وإن شئت وجدت ذلك الصدق العظيم في المؤمنين الذين حرقوا بالنار ليرجعوا عن دينهم فاستعلوا على ذواتهم وعلى الحياة بأسرها وأقدموا على النيران المتأججة ليسقطوا فيها فداءً لدينهم وشراءً لرضوان الله عزوجل وجنته .

والقصة طويلة أوردها الإمام مسلم في الحديث (٣٠٠٥) في كتاب الزهد والرقائق ، نقتطع الشاهد منها ، وذلك من قوله ﷺ : «**فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ : ارجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى . فَدَعَا بِالمِنْشَارِ . فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأسِهِ . فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ . ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ المَلِكِ فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى . فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ في مَفْرِقِ رَأسِهِ . فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ . ثُمَّ جِيءَ بِالغُلامِ فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى . فَدَفَعَهُ إِلَي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا . فَاصْعَدُوا بِهِ الجَبَلَ . فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ ، وَإِلا فَاطْرَحُوهُ . فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ . فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ . فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فَسَقَطُوا . وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى المَلِكِ .**

فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ. فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلا فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى المَلِكِ. فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ. وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ. ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي. ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ. ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ ارْمِنِي؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ. فَأُتِيَ المَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ؛ قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا؛فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلامُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ»[1].

ب ـ ماشطة ابنة فرعون:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ قال: «لما كانت الليلة التي أسري بي فيها وجدت رائحة طيبة فقلت: ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل؟

---

(١) مسلم ك الزهد (٣٠٠٥) / (٤/ ٢٢٩٩).

قال: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها قلت: ما شأنها؟ قال: بينما هي تمشط بنت فرعون ذات يوم إذ سقطت المدرى من يدها، فقالت: بسم الله، قالت بنت فرعون: أبي؟ فقالت: لا ولكن ربي ورب أبيك الله، قالت: أخبره بذلك؟ قالت: نعم، فأخبرته فدعاها، وقال: يا فلانة وإن لك ربًا غيري؟!! قالت: نعم ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، قال: ذلك لك علينا من الحق، قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحدًا واحدًا، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مُرضَع وكأنها تقاعست من أجله، قال: يا أمه اقتحمي؛ فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت»[1].

(١) أحمد (١/ ٣٠٩) وصححه أحمد شاكر (٢٨٢٢) (٤/ ٢٩٥).

من علامات الصدق

إن للصدق علامات ومظاهر تنفي ضدها، وإذا لم توجد أو كانت ضعيفة فإن ذلك دليل على ضعف الصدق وتسلط العوائق عليه. ومن هذه العلامات مايلي:

١ ـ طمأنينة القلب واستقراره :

إن الصدق في جميع الأحوال ـ باطنها وظاهرها ـ يورث الطمأنينة والسكينة في القلب، وينفي عنه التردد والريبة والاضطراب التي لا توجد إلا في حالات الشك وضعف الصدق أو عدمه. وقد مر بنا في الأحاديث السابقة قوله ﷺ: «**دع ما يريبك إلى مالا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»، فإذا وجدنا الطمأنينة وعدم الريبة فإن هذا علامة على وجود الصدق إن شاء الله تعالى.

ومن علامات هذه الطمأنينة الثبات في المواقف التي يختبر فيها الإيمان، والصبر على البلاء، والتسليم لله عزوجل. يقول الله تعالى في الثناء على أهل الصدق يوم الأحزاب: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وفي مقابل هذه الصورة الوضيئة يصف الله سبحانه أهل الكذب والريبة والنفاق في يوم الأحزاب، فيقول تعالى: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ... الآية** ﴾ [الأحزاب: ١٩]،

وهذه الحالة من الخوف والاضطراب إنما نشأت من الكذب والنفاق والريبة التي أفرزت انزعاج القلب وتقلبه وعدم استقراره.

وقد مر بنا في المواقف الصادقة قصة أصحاب الأخدود وغلامهم وغيرهم حيث ثبتوا على الأهوال والشدائد وباعوا أنفسهم لله عزوجل، وليس ذلك إلا من الإيمان الحق والصدق العظيم الذي أورث طمأنينة القلب وشجاعته، وهكذا يفعل الصدق بالقلوب. وينقل ابن القيم رحمه الله تعالى كلاماً لشيخ الإسلام حول هذا المعنى نقتطف منه مايلي:

«قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش وصاحب اليقين ثابت. يقال: أيقن إذا كان مستقراً، واليقين استقرار الإيمان في القلب علماً وعملاً؛ فقد يكون علم العبد جيداً، لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش. قال الحسن البصري: إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته، فإذا رأيت بصيراً صابراً فذاك. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]»(١).

٢ ـ الزهد في الدنيا والتأهب للقاء الله عز وجل:

ومن علامة طمأنينة القلب ـ النابعة عن الصدق ـ انشراحه وزهده في الدنيا والتأهب للآخرة قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، لما نزلت هذه الآية سئل الرسول ﷺ عن شرح الصدر فقال:

(١) الفوائد ص٢١٢.

«**نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح**»، قيل: وهل لذلك أمارة، قال: «**نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت**»[1] .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في طريق الهجرتين كلاماً بديعاً حول حقيقة الاستعداد للقاء الله عزوجل وعلامة الصدق في ذلك فقال: « (فصل) صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته، فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبت قلبه إلى الله، وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته.

إلى أن يقول: والمقصود أن صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية ومقامات السالكين إلى الله ومنازل السائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح، فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم لا إله غيره ولا رب سواه.

ثم يقول رحمه الله تعالى: وإذا علم هذا فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم، قد وفر عليه زمانه مبتغياً به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفاً على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله ويفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته، قال تعالى: ﴿ومَن

(١) هذا الحديث قواه ابن كثير في التفسير لتعدد طرقه (٢/ ١٧٦). وتعقبه الشيخ محمود محمد شاكر في تفسير الطبري - ط دار المعارف - ١٢/ ٩٨ - ٩٩ (١٣٨٥٢).

يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠]، وقد حكي عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو مريض طالب للقرآن أنه رئي بعد موته وأخبر أنه في تكميل مطلوبه وأنه تعلم في البرزخ، فإن العبد يموت على ما عاش عليه.

ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله، فمتى فتر عنه أو قصر رأى أنه قد غبن وخسر. ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة، فمتى قصر في ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته وضاق صدره. ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي، كقضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا وسلك منه طريقاً إلى ربه.

ومن الناس من يكون طريقه الصوم، فهو متى أفطر تغير عليه قلبه وساءت حاله.

ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن وهي الغالب على أوقاته وهي أعظم أوراده. ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد فتح الله [له] فيه ونفذ منه إلى ربه. ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والاعتمار.

ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم جامع المنفذ السالك إلى الله في كل واد الواصل إليه من كل

طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه يؤمها أين كانت، ويسير معها حيث سارت، قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك: إن كان علم وجدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت، جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت، جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها مراقباً له فيها عاكفاً عليه بالروح والقلب والبدن، قد سلمت إليه المبيع منتظراً منه تسليم الثمن»[1] اهـ.

مما سبق يتبين لنا أن الصادق مع الله عزوجل لا تراه إلا متأهباً للقاء ربه مستعداً لذلك بالأعمال الصالحة والقيام بأوامر الله عزوجل والانتهاء عن نواهيه، يريد بذلك وجه الله عزوجل متبعاً في ذلك رسول الله ﷺ.

٣ ـ سلامة القلب :

إن من علامة الصدق سلامة القلب وخلوه من الغش والحقد والحسد للمسلمين، فالعبد المؤمن الصادق في إيمانه لا يحمل في قلبه غلاً للمؤمنين ولا شراً، بل إن حب الخير والنصح للمسلمين هو طبعه وعادته. وهذه الحالة القلبية تظهر علاماتها على الأعمال وذلك بتجنب الظلم والعدوان والاستطالة على الأعراض والحرص على العدل والقسط مع الناس،

---

(١) طريق الهجرتين ص١٦٧ ـ ١٧١.

والانطلاق بما في الوسع لقضاء حاجات المسلمين، وإغاثة ملهوفهم ودفع الظلم عنهم، والحزن على مصابهم والفرح لفرحهم. إن كل هذه الخلال يفرزها سلامة القلب والذي هو بدوره علامة من علامات الصدق. وهذه الحالة تفرز أيضاً علامة أخرى من علامات الصدق ألا وهي: محبة الناس لمن هذه حاله فيصبح مألوفاً لهم؛ لأنه صدق معهم فألفهم وألفوه وتواضع لهم فأحبوه، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: «**المؤمن مؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»[1].

٤ ـ حفظ الوقت وتدارك العمر:

إن الصادق في إيمانه لا تجده إلا محافظاً على وقته شحيحاً به، لا ينفقه إلا فيما يرجو نفعه في الآخرة، ينظر إلى العمر كله كأنه ساعة من نهار وإلى الدنيا كأنها ظل شجرة نزل تحتها ثم قام وتركها، فبادر بالأعمال الصالحة في فراغه وصحته وشبابه وحياته، وابتعد عن كل آفة تقطع عليه طريقه وتضيع عليه وقته وتبدد عليه عمره القصير بما لا ينفع.

يقول الشيخ سفر وفقه الله تعالى:

«فإذا عرف العبد أن الحياة ما هي إلا أنفاس تتلاحق ودقائق تتسابق وأنه لو أحصى حظه منها لوجده ينقص كثيراً عن عمر بعض الطيور والزواحف والأشجار فضلاً عن أعمار الكواكب والنجوم فضلاً عن عمر الكون كله فضلاً عن مدى عالمي الغيب والشهادة مجتمعين.. وعلم مع هذا أنه مخلوق لحكمة واضحة وغاية محددة هي عبادة ربه سبحانه وحده لا شريك له، فلابد أن يحرص أشد الحرص على حفظ الوقت، وإشغاله بالعبودية وإعمال

(١) أحمد (٢/ ٤٠٠)، وصححه أحمد شاكر (٩١٨٧)/ (١٨/ ١٧).

البدن في الطاعة وإلا اعتراه النقص في إيمانه بقدر ما يعتريه من نقص في ذلك»[١] .

وهذا ليس نقصاً وحسب بل هو تأخر وانقطاع لأنه «إن لم يكن في تقدم فهو في تأخر ولابد؛ فالعبد سائر لا واقف؛ فإما إلى فوق وإما إلى أسفل، وإما إلى أمام وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف ألبتة، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو إلى النار؛ فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف ألبتة؛ وإنما يتخالفون في جهة السير وفي السرعة والبطء ﴿ **إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ** ﴾ [المدثر: ٣٥ - ٣٧] ، ولم يذكر واقفاً؛ إذ لا منزل بين الجنة والنار ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة»[٢] اهـ.

٥ ـ الزهد في ثناء الناس ومدحهم بل وكراهة ذلك:

ويتبع ذلك الزهد فيما عند الناس والقناعة بما كتب الله عزوجل، وهذه الصفة إذا وجدت فهي علامة على الصدق والإخلاص وهي تنبع أصلاً من صحة المعتقد وكمال التوحيد لله عزوجل.

وحول هذه الصفة والوصول إليها يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل

---

(١) عن كتاب: ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص١١١.
(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٦٧).

على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص؛ فإن قلت: وما الذي يسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتي العبد منها شيئاً سواه.

وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ إن مدحي زين وذمي شين، فقال: «**ذلك الله عزوجل**»[1].

فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه. ولن يقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب. قال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ**﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤]»[2].

٦ ـ تصديق القول بالفعل وموافقة الظاهر للباطن:

يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢، ٣]، فإذا وجد تطابق القول مع الفعل عند أحد فهذا من علامة الصدق إن شاء الله، وهذا مرتبط بموافقة الظاهر للباطن والسريرة للعلانية؛ فإذا أمر بأمر كان أول الفاعلين له، وإذا

(١) الترمذي ك التفسير (٣٢٦٣)/ (٩/ ١٩).

(٢) الفوائد لابن القيم ص١٤٩.

نهى عن شيء كان أول المنتهين عنه، وإذا تكلم بأمر فهو الذي في قلبه وليس من الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

ذكر الذهبي رحمه الله تعالى في السير في ترجمة الحسن البصري: «عن عبد الصمد بن عبد الوارث: حدَّثنا محمد بن ذكوان، حدثنا خالد ابن صفوان، قال: لقيتُ مسلمة بن عبد الملك فقال: يا خالد، أخبرني عن حَسَنِ أهل البصرة؟ قلتُ: أصلحكَ الله، أخْبِرُك عنه بعلْم، أنا جارُه إلى جَنْبه، وجَليسُهُ في مجلسه، وأعلم من قبَلي به: أشبهُ الناس سريرةً بعلانية، وأشبهُهُ قوْلاً بفعل، إنْ قعدَ على أمْر قامَ به، وإنْ قام على أمْر قعد عليه، وإنْ أمر بأمر كان أعملَ الناس به، وإنْ نهى عن شيء كان أتركَ الناس له، رأيتُه مستغنياً عن الناس، ورأيتُ الناس محتاجين إليه، قال: حَسْبُك، كيف يَضلُّ قومٌ هذا فيهم؟!»[١].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في تعليقه على قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه»: «إشارة إلى أنه لا يكفي قيامه في الحق لله إذا كان على غيره، حتى يكون أول قائم به على نفسه، فحينئذ يقبل قيامه له على غيره، وإلا فكيف يقبل الحق ممن أهمل القيام به على نفسه»[٢].

٧ـ الصدق في الحديث:

ولعل هذه العلامة من أبرز علامات الصدق الظاهرة على اللسان. والذي يصدق فيما يخبر به من أمور ماضية، ويصدق فيما يعد به من أمور مستقبلة، ويأتي حديثه مطابقاً لواقع الأمر؛ إن مثل هذا يكون في العادة

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٦).
(٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٨).

صادقاً في أموره الأخرى إذا أراد التقرب بذلك لله عزوجل وقد مربنا الحديث المشهور «**وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. . . الحديث**».

ومما يرتبط بالصدق في نقل الأخبار التثبت في نقلها، وعدم العجلة في تلقف الأخبار دون تمحيص وتبين، واتباع الظن. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا** . . . الآية﴾ [الحجرات: ٦]، كما أن الصدق في الحديث يستلزم مجانبة الظنون كما قال الرسول ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[١].

كما أن من علامات صدق الحديث: قلة الكلام وعدم التحدث بكل ما يسمع قال ﷺ: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**»[٢]. كما أن من علامة الحرص على صدق الحديث عدم الدخول فيما لا يعني قال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**»[٣].

٨ ـ إخفاء الأعمال الصالحة وكراهة الظهور:

إن من علامة صدق العبد فيما يعمله لله عزوجل حرصه على إخفاء عمله وكراهة اطلاع الناس عليه، كما أن كراهة الشهرة والظهور علامة من علامات الصدق الذي يبعد صاحبه عن الرياء والسمعة والتصنع للخلق، فكلما كان العبد صادقاً مع ربه عزوجل كان حريصاً على إخفاء أعماله حيث لا يطلع عليها إلا الله عزوجل الذي يسمع ويرى ويجازي على الحسنة بعشر أمثالها. وإن حياة سلفنا الصالح مليئة بهذه النماذج الوضيئة نذكر منها ما

(١)، (٢) سبق تخريجهما ص٢٧٠.

(٣) الترمذي ك الزهد (٢٣١٨)/ (٧/ ٧٧)، وصححه الألباني [صحيح الترمذي (١٨٨٦)/ (٢/ ٢٦٨)].

يلي:

* عن بكر بن ماعز قال: مارُئيَ الربيع متطوعاً في مسجد قومه قطّ إلا مرةً واحدة[١].

* وعن سفيان قال: أخبرتني سُرِّيَّة الربيع بن خثيم قالت: كان عمل الربيع كلُّه سراً؛ إن كان لَيجيءُ الرجل وقد نَشَرَ المصحف فيغطيه بثوبه[٢].

* وعن منذر، عن الربيع بن خيثم قال: كلّ مالا يُبْتَغَى به وجْهُ الله عزوجل يضمحل[٣].

* وعن أبي حمزة الثمَّالي قال: كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به. ويقول: «إن صدقة السرّ تطفئ غضب الرب عز وجل»[٤].

* وعن عمرو بن ثابت، قال: لما مات علي بن الحسين فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سُود في ظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقالوا: كان يحمل جُرُبَ الدقيق ليلاً على ظهره بعطيه فقراء أهل المدينة[٥].

* وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٦١).
(٢) صفة الصفوة (٣/ ٦١).
(٣) صفة الصفوة (٣/ ٦١).
(٤) صفة الصفوة (٢/ ٩٦).
(٥) صفة الصفوة (٢/ ٩٦).

الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]»[1].

٩ ـ الشعور بالتقصير والانشغال بإصلاح النفس ونقدها أكثر من الآخرين:

إن من أخطر ما على النفوس أن ينشغل العبد بغيره بالنقد والتقويم وينسى نفسه والتفتيش عن عيوبها وهذا ـ وللأسف ـ كثير عندنا في زماننا هذا. وإن من علامات صدق العبد مع ربه ومع نفسه أن ينشغل بنفسه وإصلاحها وتقويمها أكثر مما يعطيه لغيرها، وإذا وجدت هذه الصفة نتج عنها المحاسبة للنفس والتربية والتزكية لها، كما ينتج عن ذلك أيضاً احتقار النفس في ذات الله عزوجل والنظر إليها بعين التقصير في جنب الله، وبالتالي تنتفي صفات العجب والغرور والاعتداد بالنفس، وعلى هذا فلا يجتمع الصدق والعجب في قلب المؤمن أبداً. كما أن هذه الصفة تطهر القلب من الحقد على المسلمين وتَصَيُّد أخطائهم وعثراتهم، والتفكه بذلك في المجالس بحجة الدعوة وبيان الأخطاء والتحذير منها. وهاهم أصحاب محمد ﷺ في محاسبتهم لأنفسهم، واستصحابهم الشعور بالتقصير وسوء الظن بالنفس، واستعظام الهفوة حتى أنهم يرون ما ليس بذنب ذنباً.

(١) تفسير ابن كثير سورة الأعراف آية ٥٥.

* عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه ـ في حديث عظيم له ـ «ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً. .»[1] .

* وعن إبراهيم أن أباه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أتي بطعام وكان صائماً فقال: «قتل مصعب بن عمير ـ وهو خير مني ـ كفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه ـ وأراه قال: وقتل حمزة ـ وهو خير مني ـ ،ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام»[2] .

١٠ ـ الاهتمام بأمر هذا الدين والجهاد في سبيل الله عزوجل :

إن الصدق في محبة الله عزوجل ومحبة دينه تقتضي أن يكون أمر هذا الدين هو شغل المؤمن الشاغل؛ حيث لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال وهو يرى دين الله عزوجل ينتهك ويقصى من الحياة، وبالتالي يرى الفساد المستطير يدب في أديان الناس ودمائهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم، إن المؤمن الصادق الإيمان لا يُقدِّم على هذا الهم الأكبر أي اهتمام من أمور الدنيا الفانية.

ولكن إلى الله نشكو حالنا وضعف إيماننا وركوننا إلى دنيانا؛ حيث إننا

(١) مسلم ك الزهد (٢٩٦٧)/ (٤/ ٢٢٧٩).
(٢) البخاري ك الجنائز (١٢٧٥)/ فتح (٣/ ١٦٩)، ومواضع أخرى.

إذا رجعنا إلى قلوبنا وفتشنا عن الاهتمامات التي تملؤها؛ لم نجد عند أكثرنا ـ ويا للأسف ـ إلا اهتمامات دنيوية بحتة هي التي تحتل الأرقام الأولى في تفكيرنا: فمنا من همه الأول منصب يحصل عليه، ومنا من همه شهادة يتسلمها ليعيش بها، ومنا من همه زوجته وأولاده أو تجارته وأمواله . . . إلخ. من هذه الاهتمامات الفانية. ثم إن كان هناك فضول تفكير واهتمامات جاء أمر هذا الدين والدعوة إليه بعد الاهتمامات السابقة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ضعف الصدق عندنا في الدعوة إلى الله عزوجل والجهاد في سبيله.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسوله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم ـ قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون؛ وهو موت القلوب؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ولرسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل»(١) اهـ.

١١ ـ التميز:

إن التميز في حياة المؤمن أمر ضروري جداً خاصة في عصور الغربة

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٤٧٦).

وطغيان أعمال الجاهلية والحياة المادية على حياة الناس. وإن من علامة الصدق في التمسك بهذا الدين والعض عليه؛ أن يتميز المسلم بالتمسك والقبض على دينه عقيدة وعبادة وسلوكاً، وأن لا يتميع في دينه وينصهر مع المتفلتين منه تحت وطأة الفساد وضغوط الواقع ومسايرة المجتمع.

نعم، إن المسلم الصادق يعرف بتميزه وإصراره على دينه بين الناس، فيعرف بصحة معتقده عند فساد المعتقدات، وبالتزامه بالسنة عند فشو المبتدعات، وبصدق إيمانه إذا فشا الكذب والنفاق، وبعبادته إذ الناس يلهون ويلعبون، وبأخلاقه إذا أهدرت الأخلاق وضيعت، وبالصدق في المعاملات إذا فشا الغش والخيانة والغدر، ويعرف بصمته إذا كثر الخوض والقيل والقال، وبمحاسبة نفسه وتهذيبها إذا خاض الناس بعضهم في بعض، وبدعوته وجهاده في سبيل الله عزوجل إذا أقبلت الدنيا على أهلها وغرقوا في لججها... إلخ صور التميز التي يقتضيها الصدق والإخلاص. ولاشك أن المعاناة ستكون شديدة لكنها محمودة العواقب في الدنيا والآخرة. وهذه هي صفات الغرباء الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «**طوبى للغرباء؛ أناس صالحون في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»[(١)].

«والحقيقة أن قلب الصادق شديد الحساسية فلا يحتمل هؤلاء المثبطين؛ ولهذا فهو يضيق بهم ولا يستطيع مجاورتهم ولا مصاحبتهم ولا مجالستهم. إنه ينشرح صدره ويهش لمن يشوقه إلى الإسراع إلى الله والدعوة إليه»[(٢)].

---

(١) أحمد (٢/ ١٧٧)، وصححه أحمد شاكر (٦٦٥٠)/ (١٠/ ١٣٥)، وصححه الألباني/ صحيح الجامع (٣٩٢١).

(٢) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان ص٣٣٤.

١٢ ـ قبول الحق والتسليم له :

إن من علامات الصدق لدى المسلم إذعانه للحق وقبوله من أي جهة كانت ، فالصادق لا تراه إلا باحثاً عن الحق الذي يتعبد به لربه عزوجل ويقربه إلى مولاه ، وإذا بان له الدليل ولاح له الحق فرح به ووجد فيه بغيته ، ولا يرده أبداً مهما كان قائله : صغيراً كان أو كبيراً ، عدواً كان أو صديقاً .

وإذا وجدت هذه الصفة الكريمة عند المسلم وصارت من عادته وأخلاقه فإنها تنفي كثيراً من الصفات الذميمة مثل : الكبر والاستعلاء والتعصب للآراء والتحزب للأشخاص والهيئات ، كما أنها تورث المحبة والألفة بين أهل العلم والدين ، وتورث الاجتماع والائتلاف وتنفي الفرقة والاختلاف .

كما أن قبول الحق والتمسك به يقتضي القول به والدعوة إليه دون لبس أو تردد ؛ فالصادق لا تراه إلا صادعاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم ولا يجامل ويداهن في ذلك ، ولا تصده رغبة ولا رهبة عن قول الحق ، كما أن محبته للصدق وقول الحق يجعله لا يمدح أحداً بما ليس فيه ، ولا يبخس الناس أشياءهم وحقوقهم ؛ فلا يدفعه حبه لشخص ما أن يدفن عيوبه أو يبررها ، كما لا يدفعه بغضه لشخص أن يدفن محاسنه أو يسيء الظن بها ، وإنما رائده في ذلك كله الصدق والعدل والإنصاف .

* * *

بعض الوسائل الجالبة للصدق

إن معرفة الوسائل الجالبة للصدق لا تكفي وحدها لجلب الصدق مالم يصاحبها الصدق في طلب الصدق، فمتى علم الله سبحانه صدق عبده في التوجه إليه هداه لذلك. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

ومن هذه الوسائل:

١ ـ توحيد الله عزوجل وصحة المعتقد:

إن توحيد الله عزوجل وإفراده بالعبادة هو الغاية التي خلقنا الله من أجلها، وهو أول واجب على المكلف، وإن تحقيق التوحيد وتصحيح المعتقد هو الذي يجلب الصدق والإخلاص للعبد، فكلما تحقق التوحيد منه ظهر الصدق في حياته جلياً واضحاً؛ لأن أكثر ما يوقع المرء في الكذب والنفاق هو الخوف من المخلوق أو الطمع فيما عنده. وبمعنى آخر: هو التعلق بغير الله عزوجل رغبة ورهبة. فإذا صح التوحيد وتعلق العبد بالله وحده في كل أموره؛ فإن مظاهر الكذب والنفاق تختفي من حياته لأنه قد وجه وجهه لله وحده خوفاً ومحبة ورجاءً وتعظيماً.

وإن حقيقة التوحيد لا توجد إلا بأن يعرف العبد ربه حق المعرفة بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما عرّفنا هو سبحانه بنفسه وعرّفه رسوله ﷺ، لا كما عرفه أهل الأهواء والبدع، وبالتالي يذعن بقلبه وقالبه لربه فيمتلئ

القلب بالمحبة والإجلال والخضوع والإخلاص والصدق وبقية أعمال القلوب، ويظهر مصداق ذلك على استسلام الجوارح وانقيادها لطاعة الله عزوجل؛ وبذلك يتوزع الصدق على قلبه ولسانه وجوارحه.

وإن معرفة الله عزوجل وتوحيده لابد لها من العلم الشرعي والفقه الصحيح لهذا الدين؛ حتى تتم عبادة الله عزوجل على بصيرة واتباع لا على عماية وابتداع، ومن هنا نقول أيضاً: إن العلم الشرعي وسيلة هامة من الوسائل الجالبة للصدق.

٢ ـ الإيمان باليوم الآخر واليقين بلقاء الله عزوجل :

إن المؤمن حقاً باليوم الآخر وبالحساب والجزاء وبالجنة والنار لا تراه إلا صادقاً في جميع أموره، وإن حصل منه كبوة فسرعان ما يقلع عنها بالتوبة والاستغفار؛ لأن من أيقن بالوقوف بين يدي ربه عزوجل والإحصاء الدقيق لكل أقواله وأعماله وأحواله وعرضها على الله عزوجل يوم القيامة؛ سوف يكون حذراً في الدنيا وسوف تنصبغ حياته بالصدق؛ لأنه يوقن أنه لا ينفع يوم القيامة إلا الصدق، قال تعالى: ﴿**هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ**﴾ [المائدة: ١١٩]

إن الإيمان باليوم الآخر وملاقاة الله عزوجل هو الذي دفع المؤمنين لطاعة ربهم، وهو الذي دفع المجاهدين في سبيل الله عزوجل ليبذلوا أنفسهم وأموالهم رخيصة لربهم عزوجل، ولولا صدق هذا الإيمان لما كانت هذه التضحيات وهذه البطولات الصادقة، قال تعالى: ﴿**لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي**

رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥].

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى:

«وهذه هي القاعدة التي لا تخطئ. فالذين يؤمنون بالله، ويعتقدون بيوم الجزاء، لا ينتظرون أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد؛ ولا يتلكأون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح؛ بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله، طاعة لأمره، ويقيناً بلقائه، وثقة بجزائه، وابتغاء لرضاه. وإنهم ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم، فضلاً عن الإذن لهم. إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويترددون.

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة، فما يتردد ويتلكأ إلا الذي لا يعرف الطريق، أو الذي يعرفها ويتنكبها اتقاء لمتاعب الطريق!»(١) ا.هـ.

وقد مر بنا في قصة بني إسرائيل الذين قاتلوا مع طالوت أن الذين ثبتوا في النهاية وحثوا قومهم على الثبات؛ هم الذين أيقنوا بلقاء الله عزوجل في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

٣ ـ التخفف من الدنيا وعدم الركون إليها:

إن التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت

---

(١) في ظلال القرآن: سورة التوبة ٤٤ ـ ٤٥.

قبل نزوله، كل هذا من الوسائل المهمة في إنشاء الصدق في حياة المسلم والعكس صحيح؛ فالانغماس في ملذات الدنيا وترفها والركون إليها ينتج عنه غفلة عن الآخرة وينشأ عنه تشتت القلب في أوديتها وإعمال الفكر للاستزادة منها والخوف على فواتها، وهنا يضعف الصدق لشحن القلب بها. كما أن ضعف الصدق ينشأ أيضاً من مظاهر الكذب والتدليس والطمع والجشع والمعاملات المحرمة والتي قل من يسلم منها من أهل الدنيا، وخاصة في واقعنا المعاصر والذي كثرت فيه المعاملات المحرمة والشبهات والكذب والغش والجشع.

٤ ـ مصاحبة الصادقين :

إن في صحبة الصادقين من المؤمنين نفعاً عظيماً لمن صاحبهم وخالطهم وهذا شيء معروف ومجرب؛ فالإنسان تؤثر فيه البيئة التي يعيش فيها والخلطاء الذين يخالطهم. وهذا هو ما يسميه المربون وعلماء النفس التربية بالقدوة؛ لأن رؤية القدوات الصادقة لابد أن تؤثر فيمن صاحبهم ـ إذا كان أهلاً للخير ـ ، والعكس صحيح فصحبة المنافقين والكذابين والدجالين لابد أن تظهر صفاتهم على من صاحبهم. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩]، فالكون مع الصادقين طريق إلى الصدق والاتصاف بصفاتهم والتحلي بأخلاقهم، وهم الذين ظهرت عليهم علامات الصدق التي أشرنا إليها في المبحث السابق.

قال يوسف الواعي في سلوك المسلم :

« العيش مع الصادقين نعمة لا ينالها إلا كل سعيد، ومخالطتهم هناء لا يحظى به إلا كل موفق، ومصاحبتهم أمان لا يحسه إلا أصحاب البصائر والنهى؛ لأن للكذابين ضمائر خربة وذمماً ملوثة، لا يؤمن لهم جانب، أو

يُطمأن إلى قولهم أو يؤنس إلى فعلهم، فمن سمات الصادقين، شفافية ووضوح، ونقاء وطهر، ورجولة ووفاء، ومن علامات الصدق طمأنينة القلب إليه»[1] اهـ.

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر». وقال أيضاً: «اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة، وذلك لقرب قلوبهم من الله».

كما يدخل في هذه الوسيلة الإكثار من قراءة سير الصالحين الصادقين من أنبياء الله الكرام وصحبهم الأجلاء والتابعين لهم بإحسان؛ فإن في ذلك تربية بالقدوة والسير على آثارهم.

٥ ـ النظر في عاقبة الصدق:

إنه يكفي لجلب الصدق والتخلق به أن ننظر في عاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا تحصل منه البركة والنماء في الأموال كما قال ﷺ: «**البيعان بالخيار مالم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما**»[2]، كما أن فيه النجاة من مضايق الدنيا وشدائدها كما سبق في حديث الثلاثة أصحاب الغار، كما أن فيه كسب محبة الناس وتقديرهم، وغير هذا كثير في الدنيا.

أما في الآخرة فيكفي أن نعلم أنه لا ينفع من الأعمال والأقوال عند الله عزوجل يوم القيامة إلا ما كان فيه الصدق والإخلاص، وأما ما سوى ذلك

---

(١) سلوك المسلم ليوسف الواعي ص٥١.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٩٥.

فيذهب أدراج الرياح ولا يكون حظ صاحبه منه إلا التعب والسهر. قال تعالى: ﴿**قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ**﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال عزوجل: ﴿**لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٢٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والمقصود أن من أعظم الوسائل الجالبة للصدق هو استشعار هذا الأمر، وتحري الصدق في كل الأحوال حتى يربح العبد ثواب الله عزوجل، ويحرص أشد الحرص على تجنب ما يفسدها مما ينافي الصدق، فتضيع عليه أعماله في يوم أشد ما يكون حاجة إلى حسنة واحدة يرجح بها ميزانه.

٦ ـ الإكثار من الأعمال الصالحة وإخفاء ما يمكن منها :

إن الإكثار من الأعمال الصالحة وخاصة المخفي منها يعتبر من الوسائل التي يتوصل بها إلى الصدق والإخلاص، يقول الله عزوجل في الحديث القدسي: «**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**... الحديث»[1].

فالشاهد من هذا الجزء من الحديث القدسي هو محبة الله عزوجل للمكثر من النوافل حتى تصبح جوارحه لا تنطلق إلا في مرضاة الله عزوجل، وهذا هو حقيقة الصدق، ثم إنه كلما كان العمل لا يراه إلا الله عزوجل كان أقرب للصدق والإخلاص، ولذا جاء الترغيب في أداء النوافل في البيوت وإخفاء ما يمكن إخفاؤه لأنه أرجى للقبول والثواب لتحقق الصدق، أما مالا يمكن إخفاؤه كأداء الفرائض فهذه لابد من إظهارها مع جماعة المسلمين، وهي

(١) سيأتي تخريجه.

وسيلة مهمة من وسائل جلب الصدق والتعود عليها إذا صاحبها الإخلاص.

٧ ـ تحري الصدق في الحديث وتجنب الكذب :

إن توطين النفس على الصدق في الحديث ومجاهدتها في ذلك هو بداية الطريق الموصل بإذن الله عزوجل للوصول إلى الصدق الشامل في جميع الأحوال، بل هو الوسيلة إلى نيل مرتبة الصديقية الشريفة. قال ﷺ: « . .**ومايزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**. . . الحديث».

فتحري الصدق وترويض النفس عليه يصيره خلقاً وعادة للنفس يسري على جميع الأحوال، وكذا الحال في الكذب فإن التهاون به والترخص فيه وعدم محاسبة النفس في ذلك يبعدها عن الصدق بل يصير عادة وطبعاً للعبد، وقد يؤدي به ذلك إلى أن يكتب عند الله كذاباً والعياذ بالله.

والمقصود أن تحري الصدق والوسائل الموصلة إليه، وتجنب الكذب والوسائل المؤدية إليه، كل ذلك يؤدي إلى الصدق، وبالتالي إلى المرتبة العظيمة؛ ألا وهي مرتبة الصديقية التي يتنافس فيها الصادقون ويشمر إليها المشمرون.

وثمة مسألة أرى أن لها علاقة بهذه الوسيلة وهي من أكثر الوسائل التي توقع المرء في الكذب ألا وهي (الوقوع فيما يعتذر منه)؛ فإن الوقوع فيما يعتذر منه وينتقد فيه صاحبه لهو من الأسباب التي تُلجئ إلى الكذب حتى يبرر موقفه أو يزيل عن نفسه التبعة والخطأ؛ فيلجأ إلى الكذب ويفر من الصدق لأنه بظنه يؤدي إلى سقوطه من أعين الناس أو تحميله مسؤولية خطئه، مع العلم أن النجاة في الصدق ولو بعد حين، ولذلك أرى من

الوسائل الجالبة للصدق هو تجنب ما يعتذر منه ما أمكن، هذا أولاً، وثانياً لو وقع منه ما يعتذر منه فإن النجاة في الصدق ولو حصل مفسدة قليلة من جراء ذلك، اللهم إلا إذا كانت المفسدة كبيرة وعامة فحينئذ يوازن بين الأمرين كما سبق إيضاحه في الصدق المذموم.

«وقد يندفع الإنسان إلى الكذب حين يعتذر عن خطأ وقع منه، ويحاول التملص من عواقبه. وهذا غَباء وهوان، وهو فرار من الشر إلى مثله أو أشد. والواجب أن يعترف الإنسان بغلطه، فلعل صدقه في ذكر الواقع، وألمهُ لما بَدَرَ منه يمسحان هفوته ويغفران زلته.

ومهما هَجس في النفس من مخاوفَ - إذا قيل الحقُّ - فالأجدر بالمسلم أن يتشجع، وأن يتحرج من لوثات الكذب»[1] اهـ.

٨ - الإكثار من دعاء الله عزوجل والاستغفار:

إن ما سبق ذكره من الوسائل لا تحصل للعبد بدون توفيق الله عزوجل وإعانته له على تحصيله لها؛ ولهذا فلابد للعبد أن يستعين بربه عزوجل في أموره كلها؛ ومنها هذا الأمر. -

فالأمر كله بيد الله عزوجل ولا حول ولا قوة إلا به، ولو تخلى الله سبحانه عن عبده لحظة واحدة لهلك؛ ولذلك جاء عن النبي ﷺ الإكثار من هذا الدعاء: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»[2].

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل: «**يا معاذ، والله إني لأحبك؛ أوصيك يا معاذ لا**

---

(١) أخلاق المسلم للغزالي ص٤٣.

(٢) رواه الحاكم (١/ ٥٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٥٨٢٠.

تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(١)] ، فالعبد لا يقدر على شيء من أمور الدين أو الدنيا إلا بتوفيق الله سبحانه والاستعانة به عزوجل.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

«وشهدت شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستعصت عليه فر منها إلى التوبة والاستغفار والاستعانة بالله واللجوء إليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته. فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مداً، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ، ولاريب أن من وُفِّق لهذا الافتقار علماً وحالاً وسار قلبه في ميادينه بحقيقة وقصد فقد أعطي حظه من التوفيق، ومن حُرِمه فقد منع الطريق والرفيق، فمتى أعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق فقد سلك به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[(٢)] اهـ.

والمقصود أن من أعظم الوسائل الجالبة للصدق دعاء الله بصدق للتوفيق إلى الصدق، وقد كان من الدعاء الذي علمه الله سبحانه لنبيه ﷺ هو قوله: ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٠] ، ففي هذا الدعاء العظيم سؤال الله عزوجل الصدق في جميع المداخل والمخارج أن تكون لله وبالله وبأمره وابتغاء مرضاته.

---

(١) أبو داود ك الصلاة (١٥٢٢)/(٢/ ١٨١)، والنسائي (٣/ ٥٣). وصححه الألباني [صحيح الجامع (٧٩٦٩)].

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ١٧٨).

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : «وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه ـ أو مدخلاً آخر ـ إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان»[1] اهـ.

وقال القرطبي رحمه الله عن هذه الآية: «فهي دعاء، ومعناه: رب أصلح لي وردي وصدري في كل الأمور»[2]اهـ.

وجاء عنه ﷺ دعاؤه: «**اللهم طهر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة؛ فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**»[3].

وهذا دعاء بالصدق الشامل للقلب واللسان والعمل. والأدعية كثيرة، وما تم إيراده على سبيل المثال لا الحصر، والمقصود من ذلك التنبيه على هذا الباب العظيم من الوسائل الجالبة للصدق ألا وهو اللجوء إلى الله عزوجل بنية صادقة لالتزام الصدق وما يؤدي إليه.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

«والمعول في ذلك كله على حسن النية، وخلوص القصد، وصدق التوجه في الاستمداد من المعلم الأول: معلم الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ فإنه لا يرد من صدق في التوجه إليه لتبليغ دينه وإرشاد

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧١).

(٢) تفسير القرطبي الإسراء ٨٠.

(٣) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٥/ ٢٦٨)، والبيهقي في الدعوات الكبير. وضعفه الألباني [ضعيف الجامع (١٢٠٩)].

عبيده ونصيحتهم والتخلص من القول عليه بلاعلم»[١] اهـ.

ومن دعائه ﷺ : «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد**»[٢] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالي: «وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتي العبد إلا من تضييعهما أو تضييع إحداهما، فما أتي أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت له، أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد موافاتها. فإذا حصل الثبات أولاً، والعزيمة ثانياً أفلح كل الفلاح، والله ولي التوفيق»[٣] اهـ.

* * *

(١) إعلام الموقعين (٤/ ٢٥٨)

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٥)، والنسائي (٣/ ٥٤).

(٣) مفتاح دار السعادة ص١٥٤ .

من ثمرات الصدق

إن عاقبة الصدق حميدة في الدنيا والآخرة وثمراته كثيرة وعظيمة، وإن مدار القبول والثواب عند الله عزوجل على الصدق والإخلاص.

وعكس ذلك الكذب الذي هو أساس الفجور والفساد والهلاك.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «إياك والكذب فإنه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هي عليه، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس؛ فإن الكاذب يصور المعدوم موجوداً والموجود معدوماً، والحق باطلاً والباطل حقاً، والخير شراً والشر خيراً؛ فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له، ثم يصور ذلك في نفس المخاطب المغتر به الراكن إليه فيفسد عليه تصوره وعلمه.

ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة، نزاعة إلى العدم، مؤثرة للباطل، وإذا فسدت عليه قوة تصوره وعلمه التي هي مبدأ كل فعل إرادي فسدت عليه تلك الأفعال وسرى حكم الكذب إليها؛ فصار صدورها عنه كصدور الكذب عن اللسان فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله: ولهذا كان الكذب أساس الفجور كما قال النبي ﷺ: «**إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار**»[1].

(١) سبق تخريجه.

وأول ما يسري الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله؛ فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع تلك المادة من أصلها.

ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب؛ فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب.

والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]»[1] اهـ.

وقد سبق في مبحث (علامات الصدق) ذكر شيء من هذه الثمرات؛ لأن الثمرة إذا أينعت فإنها تصير علامة ظاهرة على صاحبها، ولذا فقد أضطر إلى التكرار لما جاء هناك ولكن بمنظار آخر.

ومن هذه الثمار مايلي:

١ - الحصول على الأجر العظيم والثواب الجزيل عند الله عزوجل :

إن الأعمال التي يصدق فيها صاحبها مع الله عزوجل ويبتغي بها وجهه

(١) الفوائد ص١٣٥.

سبحانه هي التي يبقى ذخرها ونفعها يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

يقول القرطبي عند تفسير هذه الآية: «وإنما ينفعهم الصدق في ذلك اليوم وإن كان نافعاً في كل الأيام لوقوع الجزاء فيه». ا. هـ.

ويقول الإمام الطبري عند هذه الآية: « ﴿يَنفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ في الدنيا، ﴿صِدْقُهُمْ﴾ ذلك في الآخرة عند الله، ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ يقول: للصادقين في الدنيا جنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة ثواباً لهم من الله عزوجل، على ما كان من صدقهم الذي صدقوا الله فيما وعدوه، فوفوا به لله، فوفى الله عزوجل لهم ما وعدهم من ثوابه»(١) اهـ.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] أي ما كان خالصاً لوجه الله عزوجل، صادقاً فيه لربه سبحانه.

٢ ـ الطمأنينة والسكينة والثبات:

لقد مر بنا في علامات الصدق الحديث عن هذه الثمرة، وقد أوردتها هناك لأنها من علامات الصدق العظيمة التي يثمرها الصدق مع الله عزوجل في الأحوال كلها، ومن آثار الطمأنينة والسكينة في القلب عدم اضطرابه وتقلبه عند ثورة الشبهات أو الشهوات، بل يبقى ثابتاً مطمئناً لا تزعزعه الفتن ولا تقلقه البلايا والنوازل؛ وذلك لما في قلبه من الصدق الذي صار به

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٤٢) طبعة الحلبي.

مطمئناً مقتنعاً بما يعتقد، تزول الجبال ولا تزول هذه القناعة من قلبه؛ بعكس القلوب المريضة المليئة بالكذب والريبة فلا تراها إلا مضطربة لا تثبت على شيء ولا تتماسك أمام فتن الشبهات أو الشهوات، وهذا مصداق قوله ﷺ: «**الصدق طمأنينة، والكذب ريبة**»(١) .

وقد أورد الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلاماً نفيساً حول هذا المعنى فقال: «تحت قوله: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ، كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حُرمه فقد حُرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما.

وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه وعبده ورسوله: ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [الأنفال: ١٢].

وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: «**وهو يسألهم ويثبتهم**»(٢) ، وقال تعالى لرسوله: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ [هود: ١٢٠]

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أحمد: ٢/٣٦٨، والترمذي ك صفة الجنة (٢٥٦٠): ٧/ ٢٣٤ عن أبي هريرة. وصححه الترمذي وأحمد شاكر (٨٨٠٣): ١٧/ ١٣. وأصله في الصحيحين بغير الجملة المذكورة هنا. وليس هو من حديث البجلي وإنما ورد من حديث أبي هريرة وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنهم.

فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت وفعل ما أمر به الله، فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦]، فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب؛ فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلباً، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلوناً وأقلهم ثباتاً، وأهل الفِراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومَهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئاً إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل، فما مُنح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم مَعادهم، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر»[1] اهـ.

وإن من آثار الطمأنينة في القلب سكينته واستقراره، وهذا يظهر على

(١) أعلام الموقعين ١/ ١٧٦-١٧٧ .

والحديث في: البخاري ك الجنائز (١٣٦٩): ٣/ ٢٧٤ ، ومسلم ك الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧١): ٤/ ٢٢٠١ .

الجوارح والمواقف المختلفة، وأنقل هنا كلاماً بديعاً مفيدا للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حول السكينة فيقول:

« فالسكينة فعيلة من السكون، وهي طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرها على الجوارح، وهي عامة وخاصة.

فسكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخص مراتبها وأعلى أقسامها، كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل وقد ألقي في المنجنيق مسافراً إلى ما أضرَم له أعداء الله من النار، فلله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك السفر! وكذلك السكينة التي حصلت لموسى وقد غَشيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسى إلى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا وهذا فرعون خلفنا! وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له نداء ونجاء كلاماً حقيقة سمعه حقيقة بأذنه، وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعباناً مبيناً، وكذلك السكينة التي نزلت عليه وقد رأى حبال القوم وعِصيّهم كأنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة.

وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما، وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة، وأعداء الله قد أحاطوا به كيوم بدر ويوم حُنَيْن ويوم الخندق وغيره.

فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإن الكذّاب ـ ولا سيما على الله ـ أقلق ما يكون وأخوف ما يكون وأشده اضطراباً في مثل هذه المواطن؛ فلو لم يكن للرسل صلوات الله

وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك، ولهذا أنزلها الله على المؤمنين في أصعب المواطن أحوج ما كانوا إليها ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ [الفتح: ٤]، فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم والجنود الداخلة فيهم، وهي السكينة عند القلق والاضطراب الذي لم يصبر عليه مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك يوم الحديبية.

قال الله سبحانه وتعالى يذكر نعمته عليهم بإنزالها أحوج ما كانوا إليها: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الفتح: ١٨]، لما علم الله سبحانه وتعالى ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهديَ عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم، وقلقت ولم تُطق الصبر، فعلم تعالى ما فيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفاً، وهو اللطيف الخبير.

وتحتمل الآية وجهاً آخر، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها. والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها.

ثم قال بعد ذلك: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ**

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الفتح: ٢٦]، لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال مايناسبها جعل الله في قلوب أوليائه سكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم، وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم.

فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جنداً من جند الله أيد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم. وثمرة هذه السكينة الطمأنينة للخبر تصديقاً وإيقاناً وللأمر تسليماً وإذعاناً، فلا تدع شبهة تعارض الخبر ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية التي يُبْتَلى بها العبد ليقوى إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه، بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله.

ومنها السكينة عند القيام بوظائف العبودية، وهي التي تورث الخضوع والخشوع وغَضَّ الطرف وجمعية القلب على الله تعالى بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه، والخشوع نتيجة هذه السكينة وثمرتها، وخشوع الجوارح نتيجة خشوع القلب، وقد رأى النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: **«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»**(١).

فإن قلت: قد ذكرت أقسامها ونتيجتها وثمرتها وعلامتها، فما أسبابها الجالبة لها؟

قلت: سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتى كأنه يراه، وكلما

(١) موضوع مرفوعاً، وسنده جيد موقوفاً على سعيد بن المسيب. قاله الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٠)/(١/ ٢٢٧).

اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء مالا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[١] . فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟

والمقصود أن العبد محتاج إلى السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوساوس والخَطَرات القادحة في أعمال الإيمان لئلا تقوى وتصير هموماً وغموماً وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح لئلا يطمح به مركبه فيجاوز الحد الذي لا يُعبَر فينقلب ترحاً وحزناً، وكم ممن أنعم الله عليه بما يفرحه فجمح به مركب الفرح وتجاوز الحد فانقلب ترحاً عاجلاً »[٢] اهـ.

مما سبق يتبين لنا أهمية الصدق مع الله عزوجل ومراقبته في جلب السكينة والطمأنينة، وهذه الثمرة العظيمة هي محك اليقين والإيمان الحق، ولا تظهر أو تختفي إلا حين الشدائد وثوران الشهوات و الشبهاتأو الخوف والطمع.

وقد مر بنا قصة الذين خرجوا مع طالوت وتساقطوا فئة فئة أمام الامتحان، ولم يثبت إلا الصادقون الموقنون بلقاء الله عزوجل : ﴿**قَالَ الَّذِينَ**

(١) رواه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩) من حديث أبي هريرة. ورواه مسلم في الإيمان (٨) من حديث عمر.

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٢٠٢).

يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال القرطبي عند تفسير هذه الآية: «قال المؤمنون الموقنون بالبعث والرجوع إلى الله تعالى عند ذلك وهم عدة أهل بدر: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ . . .

قال ابن عباس والسدي: جاز معه النهر أربعة آلاف رجل فيهم من شرب، فلما نظروا إلى جالوت وجنوده وكانوا مائة ألف كلهم شاكون في السلاح رجع منهم ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون»[1] اهـ.

والحاصل: أن الثبات والطمأنينة أمام الخوف والطمع وأمام فتن الشبهات والشهوات؛ لا تتم وتكون إلا بالصدق في عبادة الله عزوجل واتباع محمد ﷺ والاستعداد الصادق للقاء الله سبحانه.

نسأل الله تعالى أن يربط على قلوبنا بالإيمان الصادق، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فهو سبحانه الذي بيده قلوب العباد يقلبها كيف يشاء، وينزل السكينة على من يشاء ويصرفها عمن يشاء بعلمه وحكمته؛ فلا يثبت إلا من ثبته الله عزوجل وعلم منه صدق التوجه واللجوء إليه سبحانه.

وعلى العبد أن لا يعرض نفسه للفتن والبلايا لأنه لا يدري ما تكون حاله حينئذ، بل يسأل الله عزوجل العافية، كما يسأله الصبر والثبات عند نزولها.

---

(١) تفسير القرطبي آية ٢٤٩ من سورة البقرة.

٣ ـ الاندفاع في الدعوة إلى الله عزوجل والتضحية في سبيله :

وهذه الثمرة هي محصلة الثمرة السابقة؛ فإن الصدق في عبادة الله عزوجل والاطمئنان لوعد الله عزوجل لعباده المؤمنين كل هذا يثمر في حياة المسلم اندفاعاً شديداً وحماساً متقداً للدعوة إلى الله عزوجل والجهاد في سبيله؛ وذلك لاطمئنانه بصحة طريقه ومنهجه ويقينه بلقاء ربه عزوجل ومجازاته على عمله يوم القيامة.

فبقدر ما يكون في القلب من الطمأنينة والقناعة بصحة المسار تكون الدعوة والتضحية، بعكس من لم يكن لديه القناعة والاطمئنان الكافيان فإن الحماس للدعوة يكون ضعيفاً، ولو كان قوياً في بداية الأمر فسرعان ما يضعف إذا لم يتحقق الصدق المثمر للثبات على الأمر وعدم الاهتزاز والتردد فيه.

وهذا أمر مهم يجب أن ننتبه إليه وينتبه إليه المربون وذلك في التربية على الصدق واليقين والقناعة التامة القائمة على الإخلاص لله عزوجل، والمتابعة لرسوله ﷺ . وهذا بدوره ينبهنا على بعض الأخطاء في التربية والتي يقوم بعضها على غير بصيرة وبالتالي على غير قناعة، وفي النهاية يخبو الحماس وتضعف التضحية أو لا توجد ألبتة.

إنه ليس أفضل ولا أربح في الدنيا والآخرة من العمل النابع من القناعة التامة بما يعمله المسلم والذي يثمر الاندفاع الشديد والعمل المتواصل إلى نهاية الأجل، وحتى توجد هذه الثمرة يجب علينا أن نتفقد حقيقة الصدق في نفوسنا نحو ديننا ونحو موعود الله عزوجل لنا، وأن لا نعلق أنفسنا ونحن ندعو إلى الله عزوجل في هذه الدنيا بشيء من مكاسبها، وإنما نربي أنفسنا

ومن حولنا على أن نبذل كل ما في وسعنا في هذا العمر القصير لنفوز برضوان الله عزوجل وجنته هناك في الدار الآخرة؛ لأن من تعلق بشيء من هذه الدنيا في عمله فإنه وإن اندفع في البداية فسيخبو بعد حين إذا نال مطلوبه أو يئس من الحصول عليه، بينما المؤمن الصادق المطمئن في سيره إلى الله عزوجل لا يتوقف أبداً إلا عند الموت؛ لأنه ربى نفسه على أن يعطي في هذه الدنيا ولا يأخذ فيها شيئاً وإنما علق نفسه بالآخرة هناك حيث الأجر والثواب.

وهذا ما كان يربي عليه الرسول ﷺ أصحابه حيث لم يعلقهم بشيء من هذه الدنيا وإن كان الله عزوجل قد فتح عليهم خزائنها، لكنه ﷺ كان يعلقهم بالجنة، فيمر على آل ياسر وهم يعذبون فلا يجد ما يواسيهم به إلا أن يقول: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»[1].

وعندما سأله ﷺ الأنصار في بيعة العقبة بعد أن ذكر شرطه عليهم في البيعة فقالوا: مالنا إن بايعناك على ذلك؟ قال: «**لكم الجنة**»[2]، فلم يعدهم بشيء غير ذلك مع أنه قد تحقق لهم بهذه البيعة الفتوحات العظيمة، ولكنه ﷺ لم يعلقهم بذلك وإنما علقهم برضوان الله سبحانه والجنة، وهكذا تكون التربية.

والحاصل أنه كلما كان العبد صادقاً في معتقده وصادقاً في الاستعداد للقاء ربه سبحانه كلما كان مندفعاً مضحياً صابراً محتسباً في سبيل الله عزوجل، وإلا فما الذي جعل غلام الأخدود وإخوانه يقدمون على الموت

---

(١) الحاكم بنحوه: ٣/ ٣٨٨، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أحمد (٣/ ٣٢٢)، والحاكم (٢/ ٦٢٥) وصححه، ووافقه الذهبي وبنحوه مسلم (٣/ ١٣٣٤) تحت (١٧٠٩).

الأحمر وهم يرونه رأي العين ولا يترددون؟ إنه والله الإيمان الصادق الراسي في قلوبهم رسو الجبال، وكذلك الذين قدموا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله عزوجل ما الذي دفعهم إلى التضحية بكل ذلك غير الإيمان الحق واليقين الصادق. نسأل الله عزوجل أن يلحقنا بهم.

٤ ـ القبول عند الناس والتأثير فيهم:

وهذه من أعظم ثمرات الصدق في الدنيا لأن الكلمة الصادقة والتي تنبع من قلب صادق تفعل فعلها في القلوب ويكتب الله لها القبول عند الناس، وهذا أمر مشاهد؛ فما من رجل حقق الصدق مع ربه عزوجل ووافقت سريرته علانيته، والتزم بما يدعو إليه مع نفسه قبل دعوة الناس إليه؛ إلا ويستجيب الناس له وتؤثر دعوته فيهم، إلا من أعرض ونأى بجانبه عن الحق، فمثل هذا لا تنفع فيه المواعظ من أي جهة كانت ولو من أنبياء الله عزوجل الذين بلغوا الكمال في الصدق والإخلاص.

وإن أكثر ما ينفر الناس عن الداعية هو تناقض الداعية مع نفسه؛ حيث يدعو إلى الخير والبر وينسى نفسه، فهذه الحالة تجعل الناس في حيرة واضطراب بين سماع الطيب من كلام الداعية وبين ما يضاد ذلك من فعله وأحواله.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالي عند قوله تعالى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ٤٤]:

«والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم ولكن في الدعوات ذاتها. وهي

التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم، لأنهم يسمعون قولاً جميلاً، ويشهدون فعلاً قبيحاً؛ فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل؛ وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة؛ وينطفئ في قلوبهم النور الذي يشعه الإيمان؛ ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين.

إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامدة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها. ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعياً لما ينطق.. عندئذ يؤمن الناس، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق.. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها؛ وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها.. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة، لأنها منبثقة من حياة.

والمطابقة بين القول والفعل، وبين العقيدة والسلوك، ليست مع هذا أمراً هيناً، ولا طريقاً معبداً. إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة. وإلى صلة بالله، واستمداد منه، واستعانة بهديه؛ فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيراً ما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقده في ضميره، أو عما يدعو إليه غيره. والفرد الفاني ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته، لأن قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه؛ وقد يغالبها مرة ومرة ومرة؛ ولكن لحظة ضعف تنتابه فيتخاذل ويتهاوى، ويخسر ماضيه وحاضره ومستقبله؛ فأما وهو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوي قوي، أقوى من كل قوي. قوي على شهوته وضعفه. قوي على ضروراته

واضطراراته. قوي على ذوي القوة الذين يواجهونه»[١].

وذكر صاحب الحلية عن مالك بن دينار قوله: «الصدق والكذب يعتركان، حتى يخرج أحدهما صاحبه، وإن الصدق يبدو في القلب ضعيفاً كما يبدو نبات النخلة، يبدو غصناً واحداً، فإذا شقها الصبي ذهب أصلها، وإن أكلتها عنز ذهب أصلها فتسقى فتنتشر، وتسقى فتنتشر حتى يكون لها أصل أصيل يُوطأ، وظل يُستظل به، وثمرة يؤكل منها. كذلك الصّدق يبدو في القلب ضعيفاً، فيتفقده صاحبه ويزيده الله تعالى، ويتفقده صاحبه، فيزيده الله، حتى يجعله الله بركة على نفسه، ويكون كلامه دواءً للخاطئين.

ثم قال مالك: أما رأيتموهم؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: بلى والله لقد رأيناهم: الحسن البصري، وسعيد بن جبير وأشباههم، الرجل منهم يحيي اللهُ بكلامه الفِئام ـ الجماعات ـ من الناس»[٢].

وذكر الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمة محمد بن واسع رحمه الله تعالى فقال: «روي أن قاصاً كان بقرب محمد بن واسع فقال: مالي أرى القلوب لا تخشع، والعيون لا تدمع، والجلود لا تقشعر؟ فقال محمد: يا فلان ما أرى القوم أتوا إلا من قبلك، إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب»[٣].

٥ ـ الألفة والمحبة بين الناس:

لقد سبق في مبحث (علامات الصدق) الحديث عن سلامة القلب وحب

---

(١) في ظلال القرآن البقرة آية ٤٤.
(٢) حلية الأولياء (٢/ ٣٥٩).
(٣) السير للذهبي (٦/ ١٢٢).

الخير للناس ونقاء القلب من الحسد والبغضاء لهم، وأن هذا من علامات الصدق، وبالتالي فإن مثل هذه الصفات إذا وجدت بين الناس فلا شك أن الألفة والمحبة ستسود بينهم، وبالتالي ينشأ المجتمع متآلفاً متكافلاً تنتشر بين أفراده المحبة والإخاء والتعاون، فلا يخشى بعضهم من بعض أن يخونه أو يغشه أو يكيد له أو يمكر به؛ لأن كل هذه الخلال الذميمة ينفيها الصدق كما ينفي الكير خبث الحديد.

فإذا وجد مثل هذا المجتمع المتواد المتراحم المتلاحم فهو حري بالخير العميم والوقوف أمام كيد الأعداء ومخططاتهم؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ثم إن الصدق مع الله سبحانه في النصح للمسلمين يقتضي ترك الظنون والإشفاقَ عليهم والحرص على جماعتهم، وهو بدوره يثمر المحبة والإخاء بين الناس. وعكس ذلك مشاهد؛ فالمجتمعات التي ينتشر فيها الكذب والظنون والغش والخداع مجتمعات متفككة متدابرة متناحرة، قد ذهبت ريحها وعرضت نفسها لكيد الأعداء واستباحة الديار، قال تعالى: ﴿ **وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** . . . الآية ﴾ [الأنفال: ٤٦].

نعم، إن الفشل هو ثمرة التنازع والتدابر والتباغض الناشئ عن ضعف الصدق مع الله سبحانه في عباده المؤمنين، كما أن التآلف واجتماع الكلمة ثمرة من ثمار الصدق والإخلاص، فلا تكاد تجد صادقاً مع الله سبحانه ومع عباده المؤمنين، إلا ويحرص ويسعى إلى كل ما من شأنه التآلف

والاجتماع ويكره وينبذ كل ما يؤدي إلى الفرقة والاختلاف، قال ﷺ: **«ثلاث خصال لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»**(١).

٦ ـ الخير والنماء والبركة:

إن الصدق خير كله ليس في الآخرة فحسب وإنما في الدنيا قبل الآخرة، فبالصدق يأتي الخير والنجاح وتحل البركة في الأموال والأولاد وكل المعاملات والتصرفات، والعكس يكون في الكذب حيث يمحق الله بركة الشيء الناتج عن الكذب والخداع والمكر، وهذا مصداق قوله ﷺ: **«البيعان بالخيار مالم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»**(٢).

فهذا الحديث وإن كان في البيع والشراء فإنه يفيد أيضاً بركة الصدق في كل الأمور. ولو ظهر أن في الصدق خسارة أو هلاك الأموال فالعاقبة حميدة.

وقد يتوهم بعض الناس أن ستر الحقائق ودفن الأخطاء والعيوب في التعاملات يدر لهم ربحاً ويدفع عنهم شراً، وهذا وهم وسراب فلا شيء أفضل وأحسن بركة من الصدق ولو كان قليلاً، فقليل يبارك الله فيه خير من كثير يمحق الله بركته.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ١٨٣). وابن ماجه في المقدمة (٢٣٠). وهو في صحيح سنن ابن ماجه (١٨٧).

(٢) متفق عليه. سبق تخريجه ص ٢٩٥.

فإن التاجر قد يكذب في بيعه أو شرائه ويظن أن هذا فطنة وذكاء في كسب المال، وما علم المسكين أن ماله الذي يكتسبه من ذلك هو محق وخسارة وضياع.

وهذا أمر مشاهد وملاحظ حيث نسمع كثيراً من التجار وأصحاب الأموال الطائلة الذين لم يتحروا في مكاسبهم الصدق والحلال؛ نسمعهم يقولون: إننا لا ندري أين تذهب أموالنا ولا نحس ببركتها ونمائها، وغيرهم من الذين حاسبوا أنفسهم في كسب الحلال والصدق في المعاملات؛ نجدهم مطمئنين لما رزقهم الله عزوجل ويشعرون بالبركة فيه ولو كان قليلاً.

٧ ـ تفريج الشدائد وكشف الكربات والنصر على الأعداء :

لقد سبق وأن مر بنا في فضل الصدق حديث الثلاثة الذين أطبقت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الغار، وكيف أن الله عزوجل أنجاهم من هذه الشدة والضائقة بفضل صدقهم مع الله عزوجل في أعمالهم التي توسلوا بها إلى الله سبحانه.

وكذلك مربنا قصة المخلفين الثلاثة رضي الله عنهم كيف أن الله سبحانه تاب عليهم ونجاهم من الكرب الذي أصابهم بسبب صدقهم في عذرهم لرسول ﷺ وصدقهم في توبتهم، وقد جاء بعد توبتهم قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد أدرك كعب بن مالك رضي الله عنه ـ وهو أحد الثلاثة ـ فضل الصدق وكيف أن الله سبحانه قد نجاه بالصدق فقال: «وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، ومن توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت». ويقول

الإمام ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: «أي اصدقوا والزموا الصدق، تكونوا مع أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجًا»[١].

ويقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢]، ويقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

أما أثر الصدق في تحقيق النصر والتمكين في الأرض فيشهد لهذا أدلة الكتاب والسنة والحس والتجارب، ولا يتحقق الصدق في طلب النصر حتى يقوم العبد بالحق على نفسه وعلى غيره، ويكون قيامه بالحق لله عزوجل ويستعين في إقامة هذا الحق بالله سبحانه؛ فهذه ثلاث دعائم لتحقيق الصدق في طلب النصر والفرج من الله سبحانه.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«... فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً، وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها، وجعل له فرجاً ومخرجاً، وإنما يُؤتى العبدُ من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد، فمن كان قيامه في باطل لم يُنصر، وإن نُصرَ نصراً عارضاً فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول، وإن قام في حق لكن لم يَقم فيه لله وإنما قام لطلب المَحْمَدَة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً والقيام في الحق

(١) تفسير ابن كثير سورة التوبة ١١٩.

وسيلة إليه فهذا لم تضمن له النصرة، فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نُصر فبحسب ما معه من الحق، فإن الله لا ينصر إلا الحق، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبداً، فإن كان صاحبه محقاً كان منصوراً له العاقبة، وإن كان مُبْطلاً لم يكن له عاقبة، وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً عليه مفوضاً إليه بَرياً من الحَول والقوة إلا به فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك، ونكتة المسألة أن تجريدَ التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زُمَرُ الأعداء»(١).

٨ ـ غفران الذنوب وتكفير السيئات :

مر بنا في الفقرة السابقة قصة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم، وأن صدقهم كان سبباً في توبة الله عزوجل عليهم، فالصدق في التوبة من الذنب سبب في المغفرة وتكفير السيئات، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا**﴾ [الطلاق: ٥].

وأن التوبة النصوح التي أمر الله سبحانه عباده بها هي التوبة التي صدرت من قلب صادق، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [التحريم: ٨].

ولا توصف التوبة بأنها صادقة إلا بالشروط التي ذكرها العلماء لقبول التوبة وغفران الذنوب، ألا وهي الندم والإقلاع والعهد بعدم العودة إليه مع

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٧٨).

الإخلاص في ذلك لله عز وجل.

إذن فالتوبة الصادقة ثمرتها المغفرة وتكفير السيئات، كما أن الصدق في أداء الأعمال الصالحة والإكثار من الحسنات يؤدي إلى محو السيئات وتكفيرها، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** ﴾ [هود: ١١٤].

٩ ـ الهداية للحق دلالة وانقياداً:

يقول الله عزوجل: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فمن هذه الآية نفهم أثر الصدق في مجاهدة النفس ابتغاء مرضاة الله عزوجل بفعل الطاعات والجهاد في سبيل الله سبحانه، وأن ثمرة ذلك الهداية للطريق المستقيم في الدنيا والآخرة والتوفيق لمعرفة الحق واتباعه والانقياد له.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية ﴿ **لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾: «أي لنبصرنهم سبلنا، أي طرقنا في الدنيا والآخرة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، أخبرنا عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ قال: الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون. قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه، وقال: ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحمد الله حتى وافق ما في قلبه»[1] اهـ.

---

(١) تفسير ابن كثير آية ٦٩ العنكبوت.

ويقول العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: «وكلما كثرت الطاعات تراكمت الأنوار حتى يصير المطيع إلى درجات العارفين الأبرار ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾، وهذا مما يعرفه المطيعون المخلصون، فإذا خلت الأعمال عن الإخلاص لم يزدد العاملون إلا ظلمة في القلوب، لأنهم عاصون بترك الإخلاص، وإبطال ما أفسده الرياء والتصنع من الأعمال»[١].

ويقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فإذا اجتهد العبد في طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجح أقوى من أدلة كثيرة ضعيفة. فإلهام مثل هذا دليل في حقه، وهو أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والموهومة، والظواهر والاستصحابات الكثيرة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذاهب والخلاف والفقه.

وقد قال عمر بن الخطاب: اقربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا ما يقولون؛ فإنهم تتجلى لهم أمور صادقة. وحديث مكحول المرفوع « **ما أخلص عبد العبادة لله تعالى أربعين يوماً إلا أجرى الله الحكمة على قلبه وأنطق بها لسانه**»، وفي رواية: «**إلا ظهرت ينابيع الحكمة من على لسانه**»[٢].

وقال أبو سليمان الداراني: إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت ورجعت إلى أصحابها بطرف الفوائد من غير أن يؤدي إليها عالم علماً.

وقد قال النبي ﷺ: «**الصلاة نور؛ والصدقة برهان؛ والصبر ضياء**»[٣]،

---

(١) قواعد الأحكام ص٤٢ ط. الطباع.

(٢) ابن أبي شيبة في مصنفه (١٦١٩١)/ (١٣/ ٢٣١)، وهو مرسل.

(٣) جزء من حديث رواه مسلم ك الطهارة (٢٢٣)/ (١/ ٢٠٣).

ومن معه نور وبرهان وضياء كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها؟ ولا سيما الأحاديث النبوية؛ فإنه يعرف ذلك معرفة تامة؛ لأنه قاصد العمل بها؛ فتتساعد في حقه هذه الأشياء مع الامتثال ومحبة الله ورسوله، حتى أن المحب يعرف من فحوى كلام محبوبه مراده منه تلويحاً لا تصريحاً.

والعين تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها

إنارة العقل مكشوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

وفي الحديث الصحيح: «**ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»[1] ، ومن كان توفيق الله له كذلك فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة ونفس فعالة؟ وإذا كان الإثم والبر في صدور الخلق له تردد وجولان؛ فكيف حال مَن الله سمعه وبصره وهو في قلبه؟ وقد قال ابن مسعود: «الإثم حواز القلوب»، وقد قدمنا أن الكذب ريبة والصدق طمأنينة، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب»[2] .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: «وإذا كان القلب معموراً بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت؛ بخلاف القلب الخراب المظلم، قال حذيفة بن اليمان: إن في قلب المؤمن سراجاً يزهر. وفي الحديث الصحيح: «**إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ**»[3] ، فدل على أن المؤمن

---

(١) البخاري ك الرقاق (٦٥٠٢)/ فتح (١١/ ٣٤٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٢).

(٣) مسلم بلفظ مقارب. ك الفتن (تحت ٢٩٣٤) / (٤/ ٢٢٤٩).

يتبين له مالا يتبين لغيره؛ ولا سيما في الفتن، وينكشف له حال الكذاب الوضاع على الله ورسوله؛ فإن الدجال أكذب خلق الله، مع أن الله يجري على يديه أموراً هائلة ومخاريق مزلزلة، حتى أن من رآه افتتن به، فيكشفها الله للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها.

وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له؛ وعرف حقائقها من بواطلها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم؛ ولهذا قال بعض السلف في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور. فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن؛ فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم؛ والظن أن هذا القول كذب؛ وأن هذا العمل باطل؛ وهذا أرجح من هذا؛ أو هذا أصوب»[(١)] اهـ.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره، وكذلك الضلال. فأعمال البر تثمر الهدى وكلما ازداد منها ازداد هدى، وأعمال الفجور بالضد، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازي عليها الهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء»[(٢)].

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٥).

(٢) الفوائد ص١٢٩.

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]: «فهداهم أولاً للإيمان فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية، ونظير هذا قوله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل»(١) اهـ.

ويقول رحمه الله تعالى من موطن آخر:

«وكلما قرب القلب من الله زالت عنه معارضات السوء، وكان نور كشفه للحق أتم وأقوى، وكلما بعد عن الله كثرت عليه المعارضات، وضعف نور كشفه للصواب؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، يفرق به العبد بين الخطأ والصواب.

وقال مالك للشافعي رضي الله عنهما في أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾، ومن الفرقان النور الذي يفرق به العبد بين الحق والباطل، وكلما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتم، وبالله التوفيق»(٢) اهـ.

والحاصل من كل ما سبق أن الصدق مع الله سبحانه وتقواه كل هذا يثمر توفيق الله عزوجل للعبد إلى الحق والصواب، وبخاصة إذا التبست الأمور

---

(١) الفوائد ص١٣٠.
(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٢٥٨).

وحارت العقول وكثرت الفتن كما هو الحال في زماننا هذا. فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه يا أرحم الراحمين.

١٠ ـ الزهد في الدنيا والتزود للآخرة :

« **إن الإيمان ليس بالتحلي والتمني ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل**» فالإيمان الصادق بالله عزوجل وباليوم الآخر لابد أن يثمر العمل الصالح، والاستعداد للرحيل والإكثار من الزاد ليوم المعاد. وهذا بدوره يحمل على الحذر من كل ما يشغل عن هذه الغاية العظمى من فتن الدنيا المختلفة؛ فيزهد في ذلك كله ويجعلها في يده لا في قلبه، وقد مر بنا في علامات الصدق الحديث المروي عن الرسول ﷺ عندما سئل عن شرح الصدر في قوله تعالى: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ** ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فقال ﷺ: «**نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح**»، قيل فهل لذلك أمارة؟ قال: «**نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت**»[١].

وقد فصلت القول في مبحث (علامات الصدق) حول هذه المسألة وذلك ببعض النقولات عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى؛ فليرجع إليها هناك حيث لا داعي لتكرارها.

١١ ـ حسن الخاتمة :

وهذه خاتمة المسك في ثمار الصدق فما أعظمها من ثمرة وما أشرفها من

---

(١) الحديث ذكره ابن كثير عند هذه الآية في تفسيره وقواه لتعدد طرقه، وقد مر ص٣١١.

غاية، فهي التي شمر إليها المشمرون، وهي التي أقضت مضاجع الصالحين وأوجلت قلوب العارفين. فما هو السبيل إليها؟

إن أعظم سبيل إليها هو الصدق مع الله سبحانه في الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والذي يثمر بدوره الأعمال الصالحة المنبثقة من العبودية الحقة لله عزوجل.

إن الصدق وتحريه طريق إلى مرتبة الصديقية والخاتمة الحسنة الموصلة لركب الصديقين، وهذا هوما يفهم من قوله ﷺ: «**وما يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**»[1] ، وهذا يفيد حسن خاتمة من صدق وتحرى الصدق؛ لأن الله عزوجل يكتبه عنده صديقاً، ولا تكون هذه المرتبة إلا لمن علم الله حسن خاتمته وأنه سيموت على الإيمان الحق. وقال النبي ﷺ: «**من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة**»[2] . فما هو السر في حسن خاتمة من ختم كلامه بكلمة التوحيد؟

يجيب على ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى جواباً عظيم الفائدة له علاقة بالصدق في كلمة التوحيد وأثر ذلك في حسن الخاتمة فيقول:

«لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلت بعد عزها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستسلمت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق، أذل ما كانت له، وأرجى

---

(١) سبق تخريجه ص٢٥٠.

(٢) رواه أبو داودك الجنائز (٣١١٦)/ (٣/ ٤٨٦)، والحاكم ١/ ٣٥١، ٥٠٠ وصححه، ووافقه الذهبي.

ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجه العبد وجهه بكليته إليه وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه، فاستسلم وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سره وعلانيته؛ فقال لا إلا الله مخلصاً من قلبه، وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه، قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه وصارت الدنيا وراء ظهره؛ فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله فطهرته من ذنوبه وأدخلته على ربه؛ لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة وافق ظاهرها باطنها وسرها علانيتها، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها وفر إلى الله من الناس وأنس به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله، فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي، و الله المستعان»[1] اهـ.

❋ ❋ ❋

(١) الفوائد ص٥٥.

الخاتمة

لا يسعني في نهاية هذا البحث وقبل ختمه إلا أن أفضي ببعض الخواطر التي جالت في الذهن أثناء كتابة هذا الموضوع، وما هي إلا هموم وأشجان أبثها في صورة نصائح أخص بها نفسي بادئ ذي بدء، ثم أبعثها بعد ذلك إلى من يهمهم أمر هذا الدين من علماء وطلبة علم ودعاة ومجاهدين ومربين وإعلاميين، ومن يملكون الكلمة في هذه الأمة كل في موقعه، فأقول وبالله التوفيق:

١ ـ إلى علماء الأمة وطلاب العلم فيها :

أوصي نفسي وإياكم بما أوصى به ربنا عزوجل عباده المؤمنين ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾.

يا علماء الأمة : هذه وصية الله إليكم فاقبلوها، واصدقوا مع ربكم فيما أنعم به عليكم من العلم، وأروا الأمة من أنفسكم خيراً بالعمل بما تعلمون. واصدقوا مع عباد الله عزوجل في تعليمهم الخير وتحذيرهم من الشر؛ فإن الله سبحانه سائلكم عن علمكم فيما عملتم به.

يا علماءنا الأجلاء : يا من تعقد عليهم الأمة أملها بعد الله سبحانه في إنقاذها مما هي فيه من جهل ومحن وبلاء ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾، وإن من لوازم الصدق مع الله سبحانه ومع عباده المؤمنين الحذر الشديد من

الدنيا وزينتها ومناصبها وزخرفها، فلا أضر على العالم منها؛ ولذا كان سلفنا الصالح يحذرونها أشد الحذر فبارك الله في علمهم وعملهم وأصلح الله بهم ما فسد.

وأسوق بهذه المناسبة كلاماً مفيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أذكر فيه علمائي الأفاضل وإخواني من طلاب العلم بخطر الدنيا وضرورة الحذر الشديد منها، ولا شك أنه معلوم للجميع، ولا يساق التمر إلى هجر.. ولكن من باب الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين: يقول رحمه الله تعالى:

«كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه وفي خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات؛ فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً، فإذا كان العالم والحاكم محبّين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال: لي مخرج بالتوبة.

وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩].

وقال تعالى فيهم أيضاً:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ

ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ [الأعراف: ١٦٩] .

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أولا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وهؤلاء لابد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران، فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة.

فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات، وهذه الآيات فيهم إلى قوله: ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴿١٧٥﴾ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

فهذا مثل عالم السوء الذي عمل بخلاف علمه»[1] .

وقد ذكر الآجري رحمه الله تعالى كلاماً يجدر بكل عالم وطالب علم

(١) الفوائد ص١٠٠ .

أن يقرأه وذلك في كتابه القيم أخلاق العلماء، أقتطف منه المناسب للمقام هنا في التحذير من الدنيا وفتنة السلاطين فيقول:

« أخبرنا عمر بن أيوب السقطي أخبرنا الحسن بن حماد الكوفي أخبرنا أبو أسامة عن عيسى بن سنان قال: سمعت وهب بن منبه يقول لعطاء الخراساني: كان العلماء قبلنا استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، فكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم، فكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم. فإياك وأبواب السلاطين؛ فإن عند أبوابهم فتناً كمبارك الإبل، لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك مثله.

قال محمد بن الحسين الآجري: فإذا كان يخاف على العلماء في ذلك الزمان أن تفتنهم الدنيا فما ظنك به في زماننا هذا؟ الله المستعان ما أعظم ما قد حل بالعلماء من الفتن وهم عنه في غفلة»[1].

يا علماء الأمة في كل مكان: هكذا كان خوف سلفنا الصالح وحذرهم الشديد من الدنيا ومن تبعة العلم وحمله الثقيل. فالله الله في أمتكم ودينكم.. اصدقوا مع ربكم في تعليم الأمة دينها، واصدقوا مع ربكم في قول الحق وإبطال الباطل، ولا تتركوا الأمة في حيرتها وضلالها.

أيها العلماء الأجلاء: إن امتنا الإسلامية تمر في هذا الزمان بساعات رهيبة ومحن عظيمة ونوازل شديدة، وهي تنتظر كلمتكم وإرشادها بالنور

(١) أخلاق العلماء ص٦٦.

الذي تحملونه لتسير به في دياجير الظلمة التي تعيشها في هذا الزمان . . بالله عليكم لا تتركوها في حيرتها، ولا تسلموها لأعداء الملة من الكافرين والمنافقين يسيرونها وفق أهوائهم ويكيدون لها كيداً. وأنتم بارك الله فيكم تعلمون ذلك كله وأن الله سبحانه سائلكم عن علمكم فيما عملتم به فـ ﴿لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

يا علماءنا الكرام، ويا من نعقد عليهم الآمال بعد الله سبحانه:

إن الأمة تنتظر كلمتكم في قضايا كبيرة تصدعون فيها بالحق، وتبلغونها الموقف الشرعي فهذا أملنا فيكم وظننا بكم. وأملنا في الله عزوجل أن تلتحم صفوف المصلحين في هذه الأمة من علمائها ودعاتها ومجاهديها ليكونوا يداً واحدة في الإصلاح ومحاربة الفساد ورد شبه المفسدين في نحورهم، وعندئذ يزهق باطلهم ويرد كيدهم في نحورهم ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٥].

وأخيراً أرجو من علمائنا الأجلاء أن يقبلوا هذه المناصحات، ولو صدرت من العبد الفقير والابن الصغير؛ فالحق يؤخذ من كل أحد. ولكم في سيرة الإمام أحمد رحمه الله تعالى قدوة حيث استفاد في محنته من أعرابي عامي، فقد ذكر الذهبي في السير «عن أحمد بن أبي الحواري: حدثنا إبراهيم بن عبد الله، قال: قال أحمد بن حنبل: ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق قال: يا أحمد، إن يقتلك الحق مت شهيداً، وإن عشت عشت حميداً.

فقوي قلبي»[١] .

٢ ـ إلى دعاة الأمة ومجاهديها :

أوصي نفسي وإياكم بما أوصى به الله سبحانه عباده المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ .

* وإن من لوازم الصدق ومقتضياته أن تكون الدعوة إلى الله عزوجل والجهاد في سبيله لأجل الله عزوجل وابتغاء مرضاته، فلا تكون لأجل مال أو منصب أو جاه أو كسب شهرة أو التعصب لشيخ أو حزب أو طائفة؛ لأن كل ذلك ذاهب وضائع وممحوق البركة في الدنيا والآخرة، فحري بنا أن نحاسب أنفسنا ونحن في طريق الدعوة والجهاد في سبيل الله. ما مدى صدقنا في دعوتنا إلى الله سبحانه؟ وهل هي خالصة لله وحده أم يشوبها ما يشوبها من أعراض الدنيا الفانية ؟

* وإن من لوازم الصدق في الدعوة إلى الله سبحانه أن يبادر الداعية إلى تصديق قوله وما يدعو إليه بفعله، وأن لا يقول بلسانه ماليس في قلبه، أو يُرغِّب في فعل ولا ينوي القيام به،أو يظهر للناس حرقة وغيرة على هذا الدين، والأمر لا يتعدى اللسان والكلام حيث القلب مشحون بأمر الدنيا وشهواتها وغارق في وديانها .

إن كل ذلك مما ينافي الصدق في الدعوة الى الله عزوجل .

* وإن من لوازم الصدق أيضاً في الدعوة إلى الله عزوجل سلامة قلب

---

(١) السير للذهبي (١١/ ٢٤١).

الداعية من الغل والحقد والحسد على إخوانه الآخرين من الدعاة، وإنما يكن المحبة لكل مصلح يدعو إلى الخير ويتعاون معه في طاعة الله عزوجل ولا يحتقر جهده مهما قل. ولا تراه إلا حريصاً وساعياً إلى اجتماع الكلمة ووحدة الصف؛ فالداعية الصادق يكره الفرقة والاختلاف إذا لم يكن في أصول الدين وكلياته، والدعاة الصادقون يرحم بعضهم بعضاً ويرفق بعضهم ببعض ويتناصحون بينهم.

* كما أن الصدق مع الله سبحانه في الدعوة والجهاد يفرض على المسلم أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه ويجاهد من أجله، وهذا يلزم التفقه في الدين والبصيرة فيه بما قال الله عزوجل وقال رسوله ﷺ وفهمه الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

* وإن من لوازم الصدق في الدعوة إلى الله سبحانه الحذر من كيد الأعداء المتربصين بهذا الدين وأهله من الكافرين والمنافقين، وخاصة في زماننا هذا والذي تنوعت فيه أساليب المكر والخبث، فحري بالداعية الصادق أن يتفطن لدسائس الأعداء ودجلهم ونفاقهم ولو ألبسوا ذلك كله لبوس الحكمة والمصلحة ودرء الفتن.

إن التنازل اليسير من الداعية إلى الله سبحانه لا يقف عند حد بل يتبعه تنازلات وتنازلات؛ لأن أعداء هذا الدين لا يكتفون بالقليل من الداعية، وقد حذر الله سبحانه نبيه ﷺ من هذا الخطر فقال: ﴿**فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**﴾ [القلم: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا**﴾ [الإنسان: ٢٤].

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى :

«والحقيقة التي ينبغي أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هي هذه الحقيقة التي لقنها الله لصاحب الدعوة الأولى ﷺ . . هي أن التكليف بهذه الدعوة تنزل من عند الله فهو صاحبها ، وأن الحق الذي تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو إليه الآثمون الكفار . فلا سبيل إلى التعاون بين حقها وباطلهم ، أو الالتقاء في منتصف الطريق بين القائم على الحق ، والقائمين على الباطل .

فهما منهجان مختلفان . . وطريقان لا يلتقيان . فأما حين يغلبه الباطل بقوته وجمعه ، على قلة المؤمنين وضعفهم ، لحكمة يراها الله . . فالصبر حتى يأتي الله بحكمه ، والاستمداد من الله والاستعانة بالدعاء والتسبيح وهي الزاد المضمون لهذا الطريق . .

إنها حقيقة كبيرة لابُد أن يدركها ويعيش فيها رُواد هذا الطريق . . فالمحاولات كثيرة تلك التي حاولها المشركون مع رسول الله ﷺ في المساومة بالدعوة ، ولكن الله عَصم منها رسوله ، وهي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً . محاولة إغرائهم لينحرفوا ولو قليلاً عن استقامة الدعوة وصلابتها . ويرضوا بالحل الوسط الذي يغرونهم به في مقابل مغانم كثيرة .

ومن جملة الدعاة من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هيناً فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلياً . إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق .

وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة. فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها، ولو بالتنازل عن جانب منها.. ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق..

وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير. وفي إغفال طرف منها ولو ضيئل لا يملك أن يقف، عندما سلم به أول مرة. لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء.

والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها. فالذي ينزل عن جزء منها مهما صغر، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤل، لا يمكن أن يكون مؤمناً بدعوته حق الإيمان. فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر»(١).

* ومن لوازم الصدق في الدعوة أن يحذر الداعية من الكذب على إخوانه المسلمين والدعاة المصلحين، ومن ذلك إشاعة الأخبار قبل التحقق من صحتها واستخدام الأساليب الملتوية والمراوغات بحجة السياسة والمصلحة، كل هذا لا يتفق وصدق الداعية وسلامة قلبه.

* ومن لوازم الصدق في الدعوة إلى الله سبحانه أن يعتني كل منا بنفسه بالوسائل الشرعية للتربية، وذلك في وسط بيئة صالحة معروفة بصحة الفهم وحسن القصد يتربى معها، ويعد نفسه للتضحية في سبيل الله عزوجل وبذل

---

(١) طريق الدعوة (١/ ١٩٦).

المال والنفس في ذلك، وأن يوطن نفسه لابتلاءات الطريق ومشاقه، والتي هي سنة من سنن الله عز وجل لتمحيص الصفوف، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] ؛ فلا يتبين الصادق في دعوته من الكاذب إلا بالابتلاء. نسأل الله عز وجل العافية والصبر عند البلاء.

إن الداعية الذي يهمل نفسه فلا يربيها ويعدها للبيع لله عز وجل يوشك أن ينهزم وتخذله نفسه عند أول هزة وأول اختبار، مع أنه يحسب نفسه غير ذلك مما يعيشه ـ في حال الرخاء والأمن ـ من الحماس العاطفي والكلام الذي لا يجاوز التراقي.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: «إن العقيدة وطريقها لشاقة بعيدة تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة. إن تكليف العقيدة هو جهد خطر، تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب الخاوية. ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبيئة المهزولة. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢] »[1] .

وإنني بهذه المناسبة أوصي نفسي وإخواني الدعاة والمجاهدين أن لا نتكلم في أمر أو نقدم على موقف من مواقف الدعوة حتى تتوفر فيه الشروط التالية:

---

(١) طريق الدعوة (١ / ٢٥٩).

١ ـ الاطمئنان التام أنه الحق الذي يحبه الله تعالى ، وإعداد النفس لتحمل تبعاته .

٢ ـ الاطمئنان التام على أن القيام في هذا الأمر هو لله سبحانه وحده وابتغاء مرضاته .

٣ ـ الاستعانة بالله وحده في تحقيق هذا الأمر والثبات عليه؛ إذ لا قدرة للعبد لحظة واحدة بدون عون الله وتوفيقه[١] .

وإن عدم الالتفات للشروط السابقة هو الذي يوقعنا في عدم إتمام الأمر أو التخاذل وعدم الجدية في أخذه .

إن السبب في مثل هذه المواقف ـ والعلم عند الله سبحانه ـ هو أن أحد الشروط السابقة أو أكثر قد تخلف ، فإما أن الأمر الذي أقدم عليه لم يكن مقتنعاً أنه الحق الذي يرضي الله ، أو أنه كان مقتنعاً بأنه الحق لكن قومته لم تكن لله ، أو أن استعانته بالله سبحانه في الدخول في هذا الأمر كانت ضعيفة ، أو أنه لم يوطن نفسه ويهيئها لتبعات كلمة الحق وإنما الأمر كلام فحسب .

إذن يا إخواني الدعاة : إن الأمر جد ليس بالهزل .

فإذا كنا بهذه الحالة في أمر يسير ، فكيف الحال بما هو أشد وأقسى؟! نسأل الله عزوجل العون والثبات ، اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد .

---

(١) يرجع إلى ص٣٥٤ ، ٣٥٥ للاطلاع على كلام نفيس للإمام ابن القيم .

٣ ـ إلى المربين في هذه الأمة :

أوصي نفسي وإياكم بما أوصى الله سبحانه به عباده المؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]

أيها المربون من آباء وأمهات ومعلمين وموجهين إن المسؤولية عظيمة والأمانة جسيمة.

وإن الصدق مع الله عز وجل يستلزم أن تكونوا قدوات صالحة لمن ولاكم الله تربيته وتعليمه، فمعلوم أثر القدوة في التربية وأنها تفعل مالا يفعله كثير من وسائل التربية الأخرى، وإن الصدق في الإيمان بالله عزوجل والالتزام بأخلاق هذا الدين العظيم والدعوة إلى الله سبحانه، كل ذلك له أثره العظيم في تربية الأجيال وتعريفهم برسالة أمتهم التي ينتمون إليها والعقيدة التي يجتمعون عليها.

إن التربية لها معنى أوسع من التعليم وتلقين المعلومات؛ فالتربية هي الجهد الذي يبذله المربون في كل مجتمع من آباء ومعلمين وغيرهم في إنشاء الأجيال القادمة على أساس العقيدة التي يؤمنون بها، ومنحهم الفرصة الكافية لتشرب معاني الدين والتضحية من أجله والاعتزاز به بين الأمم. فالأمة الجادة هي التي تربي أبناءها طبقاً للعقيدة التي تدين بها لله تعالى وتسعى لنشرها بين الأمم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله تعالى، وهذه مهمة المربين في هذه الأمة فما أثقلها من تبعة وما أشرفها من رسالة.

* ومن لوازم الصدق أيها المربون الكرام أن تصدقوا مع من ولاكم الله

تربيتهم وتعليمهم؛ وذلك بتعليمهم الخير وربطهم بأبطال هذه الأمة ورعيلها الكرام، وتحذيرهم من الشر وأهله وتبصيرهم بسبيل المجرمين وأفكارهم الخبيثة وتفنيدها والتحذير منها.

* ومن لوازم الصدق في التربية إعداد المناهج الكريمة المستمدة من الكتاب والسنة وفهم الصحابة وفقه الواقع الذي تعيشه الأمة، فعلى المسؤولين عن مناهج التعليم في المجتمعات المسلمة أمانة عظيمة وتبعة ثقيلة فليصدقوا مع الله عزوجل في أمة محمد ﷺ وأبنائها، فلا يختاروا إلا ما فيه الخير والإصلاح وتنشئة الأجيال على العقيدة العظيمة لهذا الدين وأخلاقه السامقة. وأن يردوا ويُسقطوا كل ما من شأنه إفساد العقيدة والأخلاق والأفكار والهمم؛ فنحن أمة ذات رسالة عظيمة خالدة ينبغي للناشئة أن يدركوا رسالة أمتهم وأنها خير أمة أخرجت للناس؛ لتنقذهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

أيها المربون من آباء ومعلمين: إن الله سبحانه سائلكم عما استرعاكم فأعدوا للسؤال جواباً ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢٨١]، وتذكروا أثر العمل الطيب والسنة الحسنة حين تسري في الأمة وينتشر الخير بسببها وتنالون أجر ذلك من كل من تأثر به، والعكس من ذلك والعياذ بالله، تذكروا أثر العمل السيئ والسنة السيئة حين تسري في أبناء الأمة ويتربون عليها فتنالون وزر ذلك ووزر من تأثر به نعيذكم بالله من هذا المآل. وهذا مصداق قوله ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن سنة سيئة كان**

عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[(١)] .

* ومن لوازم الصدق في التربية: أن يُربط الأبناء والطلاب في حياتهم بالأهداف العالية النبيلة ولا يربطون بالتوافه من الأمور والأهداف الهابطة؛ لأن النظرة السائدة اليوم في أكثر بيوت المسلمين ومدارسهم أن طلب العلم قد ربط بالمصلحة الدنيوية وأنه وسيلة للعيش، ولا يوجد في جو المنزل أو جو المدرسة ـ إلا من رحم الله ـ من يقول للمتربي: إن لك أمة تنتظرك، وإن لك دوراً ينتظرك في الدعوة إلى التوحيد وهداية الناس بإذن الله تعالى والجهاد في سبيله عزوجل والذود عن حمى الأمة وعقيدتها.

إن هذا النوع من التربية قليل، فعلى المربين الصادقين مع ربهم سبحانه أن يحيوا هذه المعاني عند إخوانهم المربين، ويصبغوا بها المناهج المعدة لذلك، وينشروها في صفوف أبنائهم وطلابهم حتى يخرج جيل قوي متماسك يشعر بانتمائه لهذا الدين ويشعر بمسؤوليته؛ ليتولى هو بدوره إكمال الطريق وتربية الأجيال التي تأتي بعد ذلك.

* وبقيت كلمة أخيرة أوصي بها نفسي وإخواني الآباء، ألا وهي الصدق مع الله سبحانه في جعل البيت محضناً من محاضن التربية الكريمة للأبناء والبنات والإخوان والأخوات والزوجات؛ وذلك بعمارته بذكر الله عزوجل ووجود القدوات الصالحة وتطهيره من أسباب الرجس والفساد فـ «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**».

إن العجب كل العجب من أناس أنعم الله عليهم بنعمة الأموال والأولاد،

---

(١) مسلم ك الزكاة (١٠١٧)/ (٢/ ٧٠٥).

ثم هم يخربون بيوتهم بأيديهم ويلقون بأنفسهم وأهليهم إلى النار، والله تعالى يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ [التحريم: ٦].

إن أحدنا لو رأى ابنه أو بنته أو أخاه أو أخته أو زوجته يتعرض أحدهم لهلاك في الدنيا بحريق أو غرق أو سقوط من علٍ لهبَّ مسرعاً لإنقاذه، وإن لم يكن قريباً منه صاح به محذراً من السقوط في المهلكة.

وإن الله سبحانه يحذرنا من نار تلظى لا تأتي نار الدنيا عندها إلا جزءاً من سبعين جزءاً منها، ومع ذلك لا يتحرك الكثير منا في إنقاذ نفسه وأهله منها ﴿ **قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ** ﴾ [التوبة: ٨١]، والأعجب من ذلك أن ترى بعض الظالمين لأنفسهم وأهليهم يجلب النار بنفسه ليحرق بها بيته وأهله؛ فامتلأت أكثر بيوت المسلمين بأجهزة الفساد من أغانٍ هابطة وأفلام ماجنة ومجلات عارية وقصص سافلة.

فهذه والله هي الخيانة وتضييع الأمانة، وهذا والله مما ينافي الصدق مع الله سبحانه في أداء الأمانة ورعاية العهود. وما يدري المسكين أنه لو مات على هذه الحالة فإنه يموت غاشاً لمن استرعاه الله من رعيته؛ لأنه بهذه الحالة يصدق عليه قول الرسول ﷺ: « **ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة** »[1].

ثم ألا يشعر هذا الظالم لنفسه ولرعيته أن وزر ما جلبه لبيته من آلات اللهو والفساد يبقى يتابعه ويحمله على ظهره في قبره ويوم القيام لرب

(١) البخاري ك الأحكام (٧١٥١)/ فتح (١٣/ ١٣٦) بلفظ مقارب، ومسلم ك الإيمان (١٤٢)/ (١/ ١٢٥) واللفظ له.

العالمين، وذلك بقدر ما أفسدت هذه الأمور في نفوس أبنائه وأهله من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً. ألا فلنع خطورة هذا الأمر وأنه جد عظيم، وأنه خيانة لله ولرسوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٧].

أسأل الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يجعلنا من الصادقين الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٤].

اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد.

٤ ـ إلى الإعلاميين في هذه الأمة:

أوصي نفسي وإياكم بما أوصى الله سبحانه به عباده المؤمنين ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩].

أيها المؤمنون من إعلاميي هذه الأمة: إني أخاطب فيكم عقيدتكم الإسلامية التي تحملونها بين جوانحكم والتي تحدد هويتكم بين بني البشر وترفع رؤوسكم بين بني الإنسان، أخاطب فيكم غيرتكم الإسلامية ومروءاتكم العربية وأخلاقكم العريقة التي تميز المسلم عن غيره، أخاطب فيكم الأمانة العظيمة التي حملكم الله إياها من خلال مسؤولياتكم الخطيرة التي أنتم فيها، أخاطب فيكم المسؤولية التي أناطتها الأمة بكم لتربوا أبناءها على الإيمان الصادق والعفة والطهارة والعزة والكرامة.

أيها الإعلاميون المؤتمنون على عقيدة الأمة وأخلاقها: اصدقوا مع ربكم سبحانه في الوفاء له بما عهد إليكم ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ**

مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

واصدقوا مع أمتكم المسلمة التي أمنتكم على دينها وأعراضها وعقولها وأفكارها؛ فلا تخونوا أمتكم وكونوا عند حسن ظنها بكم.

إن إعلام أية أمة يعبر عن عقيدتها وهويتها، وإذا أردنا أخذ صورة سريعة عن أي أمة أو مجتمع فلننظر إلى إذاعتها وتلفازها وصحفها وما ينشر فيها؛ فإن ذلك يدلنا على ما يقوم عليه هذا المجتمع من عقيدة وأخلاق.

إن لكل أمة هوية، فأين هويتنا الإسلامية في إعلامنا؟! إن الإسلام ليس كلمة فحسب، وليس عقيدة مستترة في القلب فحسب، بل الإسلام هو الاستسلام لله عزوجل وحده في جميع شئون الحياة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

هذا هو الإسلام الذي جاء من عند الله عزوجل، وإن الناظر في إعلام المجتمعات المسلمة اليوم ليأخذه الدوار والعجب وهو يرى التناقض الخطير والفصام النكد بين الهوية الإسلامية للقائمين عليه وبين ما يفرزه للمجتمع ويربي عليه الأمة من قلب للحقائق، وترويض للنفوس على النفاق والكذب

وتشرب الفساد والرذائل، وقتل لمعاني العقيدة الشاملة المستلزمة للإذعان التام لله سبحانه في كافة أحوال العبد وكافة شئون المجتمع.

فماذا يعني هذا التناقض وهذه الازدواجية؟ إنه يعني أحد أمرين:

١ - إما أن يكون هناك جهل بحقيقة هذا الدين ويظن أنه بالإمكان أن يكون المرء مسلماً بقلبه ولسانه فقط ثم يفعل بعد ذلك ما يشاء ويعمل ما يحلو له أن يعمل مادام أنه ينطق الشهادتين والهوية التي يحملها هي الإسلام!! وهذه عقيدة المرجئة التي أفسدت في الأرض ودخل من خلالها العلمانيون الذين يفصلون الدين عن الحياة ويجعلونه عقيدة مستكنة في الضمير وبين جدران المساجد فحسب!!

٢ - أو أن حقيقة الدين ومفهومه الواسع واضحة في أذهان القوم ولكنهم آثروا الحياة الدنيا ومناصبها وزخرفها على مرضاة الله سبحانه والدار الآخرة؛ فاشتروا الحياة الدنيا الخسيسة الفانية بالدار الآخرة الباقية، فما أشد خسارتهم وأكسد تجارتهم. ألا ذلك هو الخسران المبين.

وسواء كان الأمر الأول أو الثاني فإني أناشد كل إعلامي ينتسب إلى هذه الأمة المسلمة وقد ابتلاه الله عزوجل بمسؤولية ما في هذا المضمار؛ أناشده بأن يصدق مع ربه سبحانه وأن يعد للموقف الرهيب بين يدي الله عزوجل عدته؛ فإن الله سائله عن هذه الأمانة. نعم إن الله سيسأله عن أديان الناس وأنفسهم وعقولهم وأعراضهم ماذا فعل بها من خلال مسؤوليته..

نعم ليتذكر هذا الموقف العصيب الذي سيقف فيه عارياً من كل شيء، عاري الجسد وعاري الضمير وعاري التاريخ سيقف فرداً ليس معه رئيسه ولا

مرءوسه ولا والده ولا ولده ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

فماذا سيكون الجواب؟ نعم ماذا سيكون جوابك إذا حاكمتك الأمة بأسرها على ما قدمت لها من كلمة مسموعة أو مرئية أو مقروءة كانت سبباً في إضلال أبنائها؟! أناشدك بما معك من الإيمان بالله واليوم الآخر أن لا تغفل عن هذا اليوم الرهيب، فوالله إنه لقريب ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٧، ١٨].

وبعـــد :

هذا ما يسر الله سبحانه كتابته حول هذا الموضوع عسى الله أن ينفع به كاتبه وقارئه في الدنيا والآخرة، وأطلب من الإخوان الذي يتفضلون بقراءة هذا البحث أن لا ينسوني من نصائحهم وتوجيهاتهم جزى الله الجميع خيراً.

« فيا أيها القارئ والناظر فيه، هذه بضاعة صاحبها المزجاة يسوقها إليك، وهذا فهمه وعقله معروض عليك، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه، ولك ثمرته وعليه عائدته، فإن عدم منك دعاءً، فلا يعدم منك عذراً، وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح، وقد:

قد استأثر الله بالثناء وبالـ ... حمد وولى الملامة الرجلا »[(١)]

«وما كان في هذا البحث من حق وصواب فمن الله تعالى هو المان به فإن التوفيق بيده، وما كان فيه من زلل فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه

(١) من مقدمة طريق الهجرتين للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى (بتصرف).

براء»[١].

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة؛ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة، واجعلها لوجهك خالصة، ولا تجعل لأحد فيها شيئاً.

اللهم اهدنا صراطك المستقيم؛ صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

* * *

(١) من مقدمة طريق الهجرتين للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى (بتصرف).

الرسالة السابعة

﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾

[البقرة : ٤٢]

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن الله عز وجل قد خلق الخلق من الجن والإنس لغاية عظيمة شريفة ألا وهي عبادته سبحانه وتوحيده والإخلاص له وحده لا شريك له .

قال تعالى : ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات : ٥٦].

ومن أجل ذلك أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وزود عباده بالعقول التي تميز الخير من الشر، والحق من الباطل ، وتكفل سبحانه بالعون والتوفيق لمن أراد الهدى والحق ، فدله عليه ، ورزقه الانقياد له ، وتخلى عمن أعرض عن الحق فلم يقبل به ، ولم يستسلم ويخضع له ، وكل هذا من الابتلاء الذي خلق الله سبحانه الموت والحياة من أجله ، قال تعالى : ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ [الملك : ٢] .

وانقسم الناس إثر ذلك إلى مؤمنين موحدين مدركين للغاية التي من أجلها خلقوا ، فصارت دوافعهم كلها في مرضات الله سبحانه ، وسخروا كل ما آتاهم الله من هذه الدنيا لخدمة هذه الغاية الشريفة لنيل مرضات الله

سبحانه وتعالى ، فعملوا للآخرة والفوز برضوان الله والجنة .

ومن الناس من أمضى حياته في اللهو واللعب وإيثار الحياة الدنيا ، وجعل هذه الدنيا همه وغايته واتبع هواه فخسر الدنيا والآخرة ، ألا ذلك هو الخسران المبين .

ثم إن الفئة المؤمنة لم تسلم كذلك من الفتن ، وكيف يكون ذلك وعدوها الشيطان الرجيم متربص بها لا يفتؤ يضلها ويزين لها ويخدعها ؛ يقول الله عز وجل عن إبليس اللعين : ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وقال تعالى عنه : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

وإن من أعظم الفتن التي يفتن الشيطان بها العباد، فتنة التزيين ولبس الحق بالباطل واتباع الهوى في ذلك ، ولقد وقع في هذا الشَرَك الخطير كثير من الناس وبخاصة في زماننا هذا ؛ زمان الفتن التي تموج موج البحر ، وزمان الخداع والنفاق والدجل والرياء !

نعم إننا في زمان اشتدت فيه غربة الإسلام ، والتبس فيه الحق بالباطل، وضُلل كثير من الناس ،وتمكن الشيطان من كثير من الناس تمكناً يظنون معه أنهم بمنأى عن عدوهم الشيطان ، وعلى صلة وثيقة بربهم سبحانه، وما ذلك إلا بسبب التباس الحق بالباطل، والعلم بالجهل ، والحبيب بالعدو.

وتعاون شياطين الجن والإنس ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ [الأنعام: ١١٢] ، فتعاونوا في وضع هذا التلبيس في قوالب من الأقوال مزخرفة ، وألفاظ خادعة ، وتسمية للأشياء بغير مسمياتها ؛ فضلّ بسبب ذلك كثير من الناس ، والعاقل منهم وقف حائراً لا يدري أين وجه الحق فيما يسمع ويرى من التناقضات وتبرير المواقف المخالفة للشريعة بسبب استيلاء الهوى على النفوس، واستيلاء الشهوات على القلوب .

ولما كان من غير المستطاع المجاهرة برد الشريعة ورفضها ، فكان لابد لهم من ليِّ أعناق النصوص من الآيات والأحاديث؛ لتبرير تلك المواقف المنحرفة، وهي ليست لها ، ولو أن الذي يقع في الانحراف يعترف بذنبه وخطئه وضعفه في مخالفة الشريعة ؛ لكان الأمر أهون.

وكذلك لو أنه استدل بدليل في غير محله ولما نُبِّه إلى هذا الخطأ في الاستدلال رجع واعترف لكان هذا أيضاً أهون ،ولكن المصيبة أن يصرّ هذا المؤول الذي حرّف الأدلة على باطله ليجد لعمله مخرجاً وشرعية ؛ فيكابر بعد بيان الحق له ، ويغالط نفسه والمسلمين بصنيعه هذا .

وإننا في زماننا هذا لنرى صوراً كثيرة من لبس الحق بالباطل ، وصوراً كثيرة من المغالطات والخداع والحيل المحرمة المفتراة على شرع الله عز وجل ، فكان لزاماً على الدعاة المصلحين أن يحذروا بأنفسهم من الوقوع في هذا المزلق ، وأن يكشفوه للناس إذا وقع من غيرهم ولا يدعوهم لأهل الأهواء يلبسون عليهم دينهم،ويحرّفون الكلم عن مواضعه ، ومعلوم ما ينتج عن ذلك من الفتن والتضليل.

من أجل ذلك جاءت هذه الرسالة الجديدة من رسائل وقفات تربوية في

ضوء القرآن الكريم ؛ لمعالجة هذا الموضوع المهم ، وقد اخترت عنواناً لها قوله تعالى: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ ، وهي جزء من آيتين كريمتين : وردت إحداهما في سورة البقرة ، آية (٤٢) ، عند قوله تعالى : ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ، والأخرى في سورة آل عمران ، آية (٧١) عند قوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

وهاتان الآيتان وإن كانتا قد نزلتا في أهل الكتاب ؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر عند أهل الأصول ، فكل من كتم الحق وخلطه بالباطل وهو يعلم فهو من أهل هذه الآية .

ولذلك سوف لا أتطرق لمحاولات أهل الكتاب ولا أصحاب الملل الكافرة في لبس الحق بالباطل ومغالطاتهم في ذلك ، وإنما سينصب جلّ البحث على واقعنا المسلم الذي نعيش فيه وندعو إلى الله فيه ، محاولاً كشف بعض الصور التي التبس فيها الحق بالباطل ، والتي يقع فيها بعض المنتسبين لهذا الدين من المنافقين وضعاف الإيمان لتبرير الانحراف أو التهوين منه والرضا به وإقراره ، بل إن بعض الطيبين من دعاة وطلاب علم قد تأثروا بأولئك الملبسين ؛ فصاروا يرددون بعض ما يقولون بعلم أو بغير علم .

وقد قسمت الموضوع إلى المباحث التالية :

١ ـ أهمية الموضوع .

٢ ـ تعريفات .

٣ ـ أسباب التباس الحق بالباطل .

٤ ـ صور من لبس الحق بالباطل .

٥ ـ الأسباب الواقية من لبس الحق بالباطل .

٦ ـ خاتمة .

أسأل الله عز وجل أن ينفع به ويحسن القصد فيه ، إنه سميع مجيب .

* * *

المبحث الأول
أهمية الموضوع

إن لدراسة موضوع التباس الحق بالباطل أهمية كبيرة؛ لما ينتج عن هذا التلبيس من خلط وضلال وفتنة، يكون لها الأثر السيئ والضرر البالغ في تضليل الأمة، وتحريف الحقائق، وتزوير الأحداث .

وإن أهمية هذا الموضوع تكمن في أمور منها :

١ ـ من المعلوم أن القيام بالعبودية الحقة لله عز وجل لا تتم إلا بالإخلاص له سبحانه في عبادته ، وأن تكون العبادة على بصيرة واتباع لما جاء به الرسول ﷺ ، وإن البصيرة في الدين لا تتحقق ما دام الباطل ملتبساً بالحق، وبمعنى آخر ؛ فإن البصيرة في الدين لا تحصل إلا بوضوح الحق وتنقيته من الباطل الملتبس به ، قال تعالى : ﴿**قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، وقال سبحانه : ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ**﴾ [يونس: ٣٢] .

لذا كان لزاماً على العبد أن يعرف الحق بدليله ما أمكن، وأن يزيل عنه الباطل الذي علق به ، وذلك حتى يأتي بالعبادة على وجهها المقبول عند الله عز وجل .

٢ ـ كثرة اللبس والتضليل في عصرنا الحاضر ؛ حيث ظهرت وسائل ماكرة ومضللة لبَّست على الناس دينهم وخلطت الحق بالباطل ، بل وصل الأمر لدرجة قلب الحقائق، وإظهار الحق في صورة الباطل ، والباطل في

صورة الحق ، وبالذات ما تقوم به وسائل الإعلام المختلفة في ديار المسلمين من إذاعة وتلفاز وكتاب ومجلة . . . إلخ ، وما تمكر به في الليل والنهار في محاولة لطمس الحق وتشويهه ، وتشويه حملته والداعين إليه ، فكان لابد من إزالة هذا اللبس الذي خيّم على الأمة ، وكان لابد من إحقاق الحق وإبطال الباطل بقدر الجهد المستطاع ، والاستعانة بالله عز وجل في ذلك ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال : ٨] .

٣ ـ وفي مقابل هذه الكثرة الكاثرة من تلبيس الحقائق وخلطها بالباطل ، كان هناك سكوت مزعج من كثير من العلماء وطلبة العلم في ديار المسلمين أمام كثير من المستجدات والنوازل التي تبحث الأمة عن الموقف الشرعي إزاءها ، وعن وجه الحق فيها ، ووقفت حائرة تنتظر كلام أهل العلم فيها ، فلم تسمع لهم حساً ، وتلقفها أصحاب القلوب المريضة في غيبة العلماء فلبسوا عليها أمرها ، وتكلمت الرويبضات في أمر العامة ، فلبسوا الحق بالباطل ، فإلى الله المشتكى مما حل بأمتنا ، وعلماؤها يعيشون بين ظهرانيها .

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وياليت الأمر وقف عند حد السكوت ، بل قد وجدنا من بعض المنتسبين للعلم مَنْ يسهم في هذا التلبيس بنفسه ، والله أعلم بقصده وبنيته ، فتراه يسمي الأمور بغير مسمياتها ، وينزل النوازل في غير مناطاتها ، بل قد يثني على المبطلين المضللين مما يظهرهم في أعين الناس والعامة أهل حق وإصلاح .

وفي نفس الوقت يوجه سهامه وعداوته للصالحين المصلحين المجاهدين من أبناء هذه الأمة الذين أقلقهم حال أمتهم الذي يرثى له ، وأقض

مضاجعهم ضياع الحق بين جهل العامة وعجز العلماء ، فرأوا أن الأمر أصبح فرض عين ولا خيار فيه ، فقالوا كلمة الحق وأخذوا في تعرية الباطل وتمييزه من الحق ﴿ **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٧].

ولأن الصراع بين الحق والباطل قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ فإن الشيطان أجلب عليهم بخيله ورجله ، بل قد أوقع بعض الطيبين في شركه ؛ فأغراهم بهؤلاء المصلحين وصورهم في أعين الناس أنهم دعاة فتنة وبلبلة وإرهاب ، وهذه سنة الله عز وجل في أنبيائه ودعاته المصلحين ، نسأل الله عز وجل الهداية للملبسين المخذلين ، كما نسأله سبحانه الثبات للمصلحين المجاهدين .

٤ ـ لابد من تعرية الباطل وأهله ، وما دام أن الحق مختلط بالباطل وسبيل المجرمين لم يتميز عن سبيل المؤمنين ؛ فإن أمر هذا الدين سيبقى مشوهاً عند الناس ، وسيبقى الالتباس فيه قائماً ، مما يؤدي إلى ظهور الحق في صورة الباطل ، والباطل في صورة الحق ؛ عياذاً بالله من ذلك .

كما أن استبانة سبيل المجرمين ومناهجهم تساعد في تميز الصف المؤمن وتنقيته من شوائب النفاق والمنافقين ، وهذا أمر مهم وعامل أساس لإظهار الحق وإزهاق الباطل : ﴿ **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** ﴾ [الأنفال: ٤٢] ، والناس في معرفة الحق والباطل واستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين يتفاوتون تفاوتاً كبيراً يوضح هذا التفاوت الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ٥٥] ، حيث يقول :

« والناس في هذا الموضع أربع فرق :

الأولى : من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علماً وعملاً ؛ وهؤلاء أعلم الخلق .

الفرقة الثانية : من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك .

الفرقة الثالثة : من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها ؛ فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة ، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل ، وإن لم يتصوره على التفصيل ، بل إذا سمع شيئاً مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ، ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه ، وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات ، فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه ،بخلاف الفرقة الأولى فإنهم يعرفونها ، وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها لله . . . إلى أن قال رحمه الله تعالى :

الفرقة الرابعة : فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة وسبيل المؤمنين مجملة ، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع ؛ فعرفها على التفصيل ، ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك ، بل عرفه معرفة مجملة ، وإن تفصلت له في بعض الأشياء ، ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عياناً ، وكذلك من كان عارفاً بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكاً لها إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار ، يكون علمه بها مجملاً غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره في تعرفها وسلوكها.

والمقصود أن الله سبحانه يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض، كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك، وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار مالا يعلمه إلا الله؛ من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته، وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتضائها لآثارها وموجباتها، وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه، والله أعلم»[١].

٥ ـ تترس الطواغيت ودعاة العلمنة والتحرر من الدين في بلدان المسلمين ببعض الشبه الشرعية، والتي يلبسون بها على الناس في تبرير فسادهم وإضفاء الشرعية على ظلمهم: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾. [البقرة: ١١، ١٢]

وكذلك بما يقومون به من تشويه لصورة المصلحين في هذه الأمة، وأنهم دعاة فتنة وأغراض شخصية ودعاة إرهاب وقلاقل، كل ذلك من لبس الحق بالباطل الذي ينبغي كشفه وتعريته، وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث قادم إن شاء الله تعالى.

٦ ـ ظهور بعض المغالطات عند كثير منا واستخدامها في تبرير المواقف الخاطئة، والمخالفات الشرعية ـ سواء كانت فردية أم جماعية ـ ينبثق عنها مواقف وممارسات خاطئة تلبس على الناس أمرهم ويحسبون أنها الحق؛ لأنها تصدر من أناس طيبين ودعاة صالحين.

---

(١) الفوائد ١٠٩ـ١١١.

ومنشؤ هذه المغالطات في الغالب شهوة مُزجت بشبهة فتولد عنها مغالطة، وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث قادم إن شاء الله تعالى .

❁ ❁ ❁

المبحث الثاني
تعريفات

يحسن بنا قبل الدخول في ثنايا الموضوع أن نلم بتعريفات عامة لبعض المصطلحات التي ينطلق منها هذا البحث ، والتي سيكثر إيرادها في صلب الموضوع ، وأهمها ما يلي :

١ ـ اللبس والتلبيس .

٢ ـ الأغاليط (المغالطات) .

أولاً : تعريف اللبس والتلبيس :

قال في لسان العرب : اللَّبْس والتلبيس : اختلاط الأمر . لبس عليه الأمر يلبسه لَبْساً فالتبس ، إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته . والتبس عليه الأمر أي اختلط واشتبه .

والتلبيس : كالتدليس والتخليط ؛ شدد للمبالغة ، وربما شدد للتكثير .

يقال : لَبستُ الأمر على القوم أَلْبِسُه لبساً ، إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلاً » اهـ . باختصار .

وقال ابن الجوزي رحمه الله : « التلبيس : إظهار الباطل في صورة الحق»[1] اهـ.

(١) تلبيس إبليس ص٣٦ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « فإنه من لبس الحق بالباطل فغطاه به فغلط به، لزم أن يكتم الحق الذي يبين أنه باطل ؛ إذ لو بينه زال الباطل الذي لبس به الحق»[١] اهـ .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية أيضاً :

« نهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانه . ولبسه به خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر، ومنه التلبيس ، وهو التدليس والغش الذي يكون باطنه خلاف ظاهره ؛ فكذلك الحق إذا لُبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق ، وتكلم بلفظ له معنيان : معنى صحيح ، ومعنى باطل ، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ، ومراده الباطل ، فهذا من الإجمال في اللفظ »[٢] اهـ .

وقال الرازي في قوله تعالى : ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ :

« أمر بترك الإغواء والإضلال . واعلم أن إضلال الغير لا يحصل إلا بطريقتين ؛ وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه ، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول إليها، فقوله : ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ إشارة إلى القسم الأول وهو تشويش الدلائل عليه ، وقوله :

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩٤) .

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٦) .

﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ إشارة إلى القسم الثاني وهو منعه من الوصول إلى الدلائل . واعلم أن الأظهر في الباء التي في قوله : ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ أنها باء الاستعانة كالتي في قولك : كتبت بالقلم .

والمعنى : ولا تلبسوا الحق بسبب الشبهات التي توردونها على السامعين ؛ وذلك لأن النصوص الواردة في التوراة والإنجيل في أمر محمد عليكم كانت نصوصاً خفية يحتاج في معرفتها إلى الاستدلال ، ثم بأنهم كانوا يجادلون فيها ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب إلقاء الشبهات ؛ فهذا هو المراد بقوله : ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ وهو المذكور في قوله : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر : ٥] .

أما قوله : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تعلمون ما في إضلال الخلق من الضرر العظيم العائد عليكم يوم القيامة ؛ وذلك لأن ذلك التلبيس صار صارفاً للخلق عن قبول الحق إلى يوم القيامة ، وداعياً لهم إلى الاستمرار على الباطل إلى يوم القيامة ، ولا شك في أن موقعه عظيم ، وهذا الخطاب وإن ورد فيهم فهو تنبيه لسائر الخلق وتحذير من مثله ، فصار الخطاب وإن كان خاصاً في الصورة لكنه عام في المعنى»[١] اهـ.

ثانياً : تعريف الأغاليط «المغالطات» :

قال في لسان العرب : « المَغْلَطَة والأغلوطة : ما يغالط به من المسائل ، والجمع : الأغاليط ، وفي الحديث أنه ﷺ نهى عن الأغلوطات . قال الهروي : وأراد بها المسائل التي يُغالَط بها العلماءُ ليزلوا فيهيج بذلك شر

(١) التفسير الكبير (٣/ ٤٠ ، ٤١) .

وفتنة ، وإنما نهى عنها لأنها غير نافعة في الدين ، ولا تكاد تكون إلا فيما لا يقع . ومثله قول ابن مسعود رضي الله عنه : « أنذرتكم صعاب المنطق » يريد المسائل الدقيقة الغامضة »اهـ.

وقد أخرج أبو داود رحمه الله في سننه عن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات[١] .

وقد ضعف الألباني الحديث ، وقال في شرح الأغلوطات : بأنها المسائل التي يغالط بها العلماء ليزلوا فيها فتهيج بذلك الشر والفتنة[٢] .

وروى الإمامان : البخاري ومسلم حديث حذيفة المشهور في الفتن ، وفيه قول حذيفة : « إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط »[٣] .

قال في الشرح : الأغاليط : جمع أغلوطة ، وهي المسائل التي يغلط فيها ، والأحاديث التي تذكر للتكذيب .

ونقل الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم عند شرحه للحديث التاسع من أحاديث الأربعين النووية قوله :

« وقال الحسن البصري : شر عباد الله الذين يتبعون شرار المسائل يعمون بها عباد الله .

---

(١) أخرجه أبو داود - كتاب العلم (٨) ، باب التوقي في الفتيا (٣٦٥٦) (٤/ ٦٥) ، وأحمد في المسند (٥/ ٤٣٥) .

(٢) انظر تمام المنة ص٤٥ ، وضعيف أبي داود رقم ٧٩١ ، ص٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخاري - كتاب المواقيت (٤) ، باب : الصبر كفارة (ح٥٢٥) [فتح الباري : ٢/ ١١] ، وأخرجه مسلم - كتاب الإيمان (٦٥) ، باب : بيان أن الإسلام بدأ غريباً . . . (ح١٤٤) (١/ ١٢٨).

وقال الأوزاعي : إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط ، فلقد رأيتهم أقل الناس علماً .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ، ويهرم فيها الكبير ، وتتخذ سنة فإن غُيِّرت يوماً قيل : هذا منكر ، قالوا : ومتى ذلك ، قال : إذا قلّت أمناؤكم ، وكثرت أمراؤكم ، وقلت فقهاؤكم ، وكثرت قراؤكم ، وتُفقه لغير الدين ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة »[1] اهـ .

والحاصل مما ذكر أن المغاليط أو المغالطات هي التي يثيرها المغالطون من صعاب المسائل ، أو المسائل التي لم تقع ولا يترتب عليها عمل ؛ وذلك ليغالطوا بها العلماء ليزلوا فيعموا بها العباد ، ويهيج من ذلك شر وفتنة وتلبيس على الناس .

* * *

(١) جامع العلوم والحكم ص١٤٢ .

المبحث الثالث
أسباب ووسائل لبس الحق بالباطل

إن الانحراف عن الحق والوقوع فيما يضاده لا تعدو أسبابه الفتن التالية :

١ ـ فتنة الشبهات .

٢ ـ فتنة الشهوات .

٣ ـ فتنة الجمع بين الشبهة والشهوة « لبس الحق بالباطل » .

وكل انحراف أو ضلال أو خطأ ـ صغيراً كان أو كبيراً ـ لا يخرج في دوافعه عن الأسباب السابقة ؛ فإذا وقع العبد في مخالفة شرعية ، فإما أن يكون السبب في هذه المخالفة هو الجهل بها ، وعدم العلم بحرمتها أو اشتبه الأمر عليه فحسبها مكروهة فقط ؛ فهذا الخطأ سببه الشبهة الناتجة عن قلة العلم ، وضعف البصيرة .

وأما إذا كان لدى العبد الواقع في المخالفة علم وبصيرة من دين الله أنها محرمة ومخالفة للشرع ، ومع ذلك وقع فيها عمداً ، فإن السبب الدافع لهذه المخالفة إنما هو الشهوة وضعف النفس ، ومثل هذا يقرّ ويعترف بمخالفته ومجانبته للصواب كما يعترف بذنبه وتقصيره .

وهناك شخص آخر قد لا يعترف بذنبه وتقصيره وإنما نراه وقد راح يبحث عن شبهة في دليل وتفسير خاطئ ، أو تأويل متعسف للأدلة ليبرر بها

خطأه، ويمرر بها ضعفه وشهوته مع علمه بخطأ تصرفه هذا في قرارة نفسه ، فهذا هو الهوى ، وهذه هي المغالطة ، وهذا هو لبس الحق بالباطل ، وهو أشنع أنواع الانحراف؛ لأنه مكر وتحايل على شرع الله وخداع للناس .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفتنة نوعان : النوع الأول فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين ، وفتنة الشهوات . وقد يجتمعان للعبد ، وقد ينفرد بإحداهما .

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة ، وقلة العلم ، ولاسيما إذا اقترَن بذلك فسادُ القصد ، وحصولُ الهوَى ، فهنالك الفتنة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، فقل ما شئت في ضلال سَيِّئ القصد، الحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع ضعف بصيرته ، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله ﷺ ، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ**﴾ .

[النجم : ٢٣]

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله ، فقال : ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [ص: ٢٦] .

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق ، وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع ، على حسب مراتب بدعهم ، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل ، والهدى بالضلال .

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد ، وتارة من نقل كاذب ، وتارة من

حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به ، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع ، فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة .

وأما النوع الثاني من الفتنة : ففتنة الشهوات :

وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله : ﴿ **كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ** ﴾ [التوبة : ٦٩]، أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها . والخلاقُ هو النَّصيبُ المقدر ، ثم قال : ﴿ **وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا** ﴾ فهذا الخوض بالباطل ، وهو الشبهات .

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان ، من الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل ؛ لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به ، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح .

فالأول : هو البدع وما والاها ، والثاني : فسق الأعمال .

فالأول فساد من جهة الشبهات ، والثاني : من جهة الشهوات ، ولهذا كان السلف يقولون : احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى قد فتنه هواه ، وصاحب دنيا أعمته دنياه[1] .

وإن أشد وأشر هذه الفتن من جمع بين الشبهة والشهوة ، وتحايل على شرع الله بأن غطى مخالفته وانحرافه بتأويل غير سائغ أو بشبهة دليل ، وهو يعلم أنه متحايل ومخادع .

ومثل هؤلاء الملبسين عقوبتهم عند الله عز وجل أشد من الذين يقعون في

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

المخالفات الشرعية ، ولكنهم يعترفون بتقصيرهم وذنوبهم ولا يكابرون ويبررون، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كلامه عن تحريم الحيل ، وكيف أن اليهود تحايلوا على الصيد يوم السبت، فقال :

« قال شيخنا[١] : وهؤلاء لم يكفروا بالتوراة وبموسى ، وإنما فعلوا ذلك تأويلاً واحتيالاً ظاهره ظاهر الاتقاء، وحقيقته حقيقة الاعتداء ، ولهذا ـ والله أعلم ـ مسخوا قردة ؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان ، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه ، وهو مخالف له في الحد والحقيقة .

فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته؛ مسخهم الله قردة تشبه الإنسان في بعض ظاهره دون الحقيقة ، جزاءً وفاقاً .

ويقوي ذلك أن بني إسرائيل أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل ، وهو أعظم من أكل الصيد في يوم بعينه ، ولم يعاقب أولئك بالمسخ كما عوقب به من استحل الحرام بالحيلة ؛ لأن هؤلاء لما كانوا أعظم جرماً كانت عقوبتهم أعظم، فإنهم بمنزلة المنافقين ؛ يفعلون ما يفعلون ولا يعترفون بالذنب ، بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم ، بخلاف من أكل الربا وأموال الناس بالباطل والصيد المحرم عالماً بتحريمه ، فإنه يقترن بمعصيته اعترافُه بالتحريم ، وخشيته لله ، واستغفاره وتوبته يوماً ما ، واعترافه بأنه مذنب عاص ، وانكسار قلبه من ذل المعصية ، وازدراؤه على نفسه ، ورجاؤه لمغفرة ربه له ، وعد نفسه من المذنبين الخاطئين ، وهذا كله إيمان يفضي بصاحبه إلى خير ، بخلاف الماكر المخادع المحتال على قلب دين الله .

(١) يقصد شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

ولهذا حذر النبي ﷺ أمته من ارتكاب الحيل ، فقال : « **لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل** »[١] ، وقد أخبر الله تعالى أنه جعل هذه القرية - أو هذه الفعلة التي فعلها بأهلها - نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين »[٢] اهـ .

وهذا هو حقيقة لبس الحق بالباطل وحقيقة المغالطة ؛ إذ إن الدافع الحقيقي للانحراف هو الهوى والشهوة وحب الدنيا ، ولكن بدلاً من أن يعترف بضعفه هذا وشهوته ويقر بذنبه في مخالفته للشريعة ، فإنه يستدل لشهوته هذه بشبهة أدلة شرعية يعلم هو في قرارة نفسه أنها غير صالحة للاستدلال ، لكن هواه يوحي إليه أنه لابد من غطاء يغطي به هذا الضعف والهوى .

❁ ❁ ❁

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير ،وجود إسناده (٣/ ٤٩٢) طبعة دار الشعب .

(٢) أعلام الموقعين (٣/ ١٦٣) .

وسائل لبس الحق بالباطل

وإذا ذهبنا نتعرف على وسائل التلبيس والطرق التي يمارس بها لوجدناها لا تخرج في الغالب عن الأمور التالية :

١ ـ التأويل الفاسد واتباع المتشابه .

٢ ـ كتمان الحق وإخفاؤه .

٣ ـ تحريف الأدلة عن مواضعها ، وعدم إنزالها في مناطاتها .

وتفصيل ذلك فيما يلي :

١ـ التأويل الفاسد واتباع المتشابه :

ويقصد بالتأويل هنا التأويل الفاسد الذي لم يدل عليه دليل يصرفه عن المعنى الظاهر ، والذي هو أشبه بتحريف الكلم ، والغالب أن الذي يدفع إليه الجهل والهوى .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« فأصل خراب الدين والدنيا إنما هو التأويل الذي لم يُرِدْه الله ورسوله بكلامه ولا دل عليه أنه مراده ، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل ؟ وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل ؟ فمن بابه دخل إليها ، وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل ؟

والمتأولون أصناف عديدة بحسب الباعث لهم على التأويل ، وبحسب

قصور أفهامهم ووفورها ، وأعظمهم توغلاً في التأويل الباطل من فسد قصده وفهمه ؛ فكلما ساء قصده وفهمه ؛ كان تأويله أشد انحرافاً .

فمنهم من يكون تأويله لنوع هوى من غير شبهة ، بل يكون على بصيرة من الحق ، ومنهم من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أخفت عليه الحق ، ومنهم من يجتمع له الأمران : الهوى في القصد ، والشبهة في العلم . . .

إلى أن قال رحمه الله تعالى : قال أبو الوليد بن رشد المالكي في كتابه المسمى بـ (الكشف عن مناهج الأدلة) ـ وقد ذكر التأويل وجنايته على الشريعة ـ فقال : ومثال من أوَّل شيئاً من الشرع وزعم أن ما أوله هو الذي قصده الشرع ـ مثال من أتى إلى دواء قد ركبه طبيب ماهر ليحفظ صحة جميع الناس أو أكثرهم ، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء الأعظم لرداءة مزاج كان به ، ليس يعرض إلا للأقل من الناس ، فزعم أن بعض تلك الأدوية التي صرح باسمها الطبيب الأول في ذلك الدواء العام المنفعة لم يرد به ذلك الدواء العام ، الذي جرت العادة في اللسان أن يُدَلَّ بذلك الاسم عليه ، وإنما أراد به دواء آخر مما يمكن أن يدل عليه بذلك باستعارة بعيدة ، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم ، وجعل فيه بدله الدواء الذي ظن أنه قصده الطبيب ، وقال للناس : هذا هو الذي قصده الطبيب الأول ، فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول ، ففسدت أمزجة كثير من الناس .

فجاء آخرون فشعروا بفساد أمزجة الناس من ذلك الدواء المركب ؛ فراموا إصلاحه بأن بدلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول ؛ فعرض من ذلك للناس نوع من المرض غير النوع الأول ، فجاء ثالث فتأول في

أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني ، فعرض للناس من ذلك نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين ، فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة ؛ فعرض منه للناس نوع رابع من المرض غير الأمراض المتقدمة ، فلما طال الزمان بهذا الدواء المركب الأعظم ، وسلط الناسُ التأويلَ على أدويته ، وغيروها وبدلوها عرض منه للناس أمراض شتى ، حتى فسدت المنفعة المقصودة بذلك الدواء المركب في حق أكثر الناس ، وهذه هي حالة الفرق الحادثة في هذه الشريعة مع الشريعة »[1] اهـ .

ويقول الإمام ابن القيم أيضاً :

« كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها ، فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه ، وفي خبره وإلزامه ؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات ، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً ، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات ، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق ، ولا سيما إذا قامت له شبهة ، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيخفى الصواب ، وينطمس وجه الحق»[2] اهـ.

وعن اتباع المتشابه يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ [آل عمران : ٧] :

« وذلك أن هذه الآية شملت قسمين ، هما أصل المشي على طريق

(١) أعلام الموقعين (٤/ ٣٥٣) .

(٢) الفوائد ص ١١٠ .

الصواب ، أو على طريق الخطأ :

أحدهما : الراسخون في العلم ، وهم الثابتو الأقدام في علم الشريعة ، ولما كان ذلك متعذراً إلا على مَن حَصَّل الأمرين المتقدمين[1] ؛لم يكن بد من المعرفة بهما معاً على حسب ما تعطيه المُنَّة الإنسانية ، وإذ ذاك يطلق عليه أنه راسخ في العلم ، ومقتضى الآية مدحه ، فهو إذاً أهل للهداية والاستنباط .

وحين خصَّ أهل الزيغ باتباع المتشابه ، دل التخصيص على أن الراسخين لا يتَّبعونه ، فإذاً لا يتبعون إلا المحكم ، وهو أم الكتاب ومعظمه .

فكلٌّ دليل خاص أو عام شهد له معظم الشريعة ، فهو الدليل الصحيح وما سواه فاسد ؛ إذ ليس بين الصحيح والفاسد واسطة في الأدلة يستند إليها ، إذ لو كان ثم ثالث؛ لنصت عليه الآية .

ثم لما خُص الزائغون بكونهم يتبعون المتشابه أيضاً ، علم أن الراسخين لا يتَّبعونه ، فإن تأولوه ؛ فبالرد إلى المحكم ، بأن أمكن حمله على المحكم بمقتضى القواعد ، فهذا المتشابه الإضافي لا الحقيقي ، وليس في الآية نص على حكمه بالنسبة إلى الراسخين ، فليرجع عندهم إلى المحكم الذي هو أم الكتاب .

وإن لم يتأولوه ؛ فبناء على أنه متشابه حقيقي ، فيقابلونه بالتسليم ، وقولهم : ﴿ **آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾ [آل عمران: ٧] ، وهؤلاء هم أولو الألباب .

---

(١) وهما الرسوخ في معرفة كلام العرب والعلم بمقاصدها ، والرسوخ في العلم بقواعد الأصول التي من جهتها تستنبط الأحكام .

وكذلك ذكر في أهل الزيغ أنهم يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ، فهم يطلبون به أهواءهم لحصول الفتنة ، فليس نظرهم إذاً في الدليل نظر المستبصر حتى يكون هواه تحت حكمه ، بل نظر من حكّم الهوى ثم أتى بالدليل كالشاهد له ، ولم يذكر مثل ذلك في الراسخين ، فهم إذن بضد هؤلاء حيث وقفوا في المتشابه فلم يحكموا فيه ولا عليه سوى التسليم ، وهذا المعنى خاص بمن طلب الحق من الأدلة ، لا يدخل فيه من طلب في الأدلة ما يصحح هواه السابق .

والقسم الثاني : من ليس براسخ في العلم ، وهو الزائغ ، فحصل له من الآية وصفان :

أحدهما : بالنص وهو الزيغ ؛ لقوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ** ﴾ [آل عمران: ٧] ، والزيغ : هو الميل عن الصراط المستقيم ، وهو ذم لهم .

والثاني : بالمعنى الذي أعطاه التقسيم ، وهو عدم الرسوخ في العلم ، وكل منفي عنه الرسوخ فإلى الجهل هو مائل ، ومن جهة الجهل حصل له الزيغ ؛ لأن من نعي عليه في طريق الاستنباط واتباع الأدلة لبعض الجهالات؛ لم يحل له أن يتبع الأدلة المحكمة ولا المتشابهة.

فلو فرضنا أنه يتبع المحكم ؛ لم يكن اتباعه مفيداً لحكمه ؛ لإمكان أن يتبعه على وجه واضح البطلان أو متشابه، فما ظنك به إذا اتبع نفس المتشابه؟!

ثم اتباعه للمتشابه ـ لو كان من جهة الاسترشاد به لا للفتنة به ـ ؛ لم

يحصل به مقصود على حال ، فما ظنك به إذا اتبع ابتغاء الفتنة ؟!

وهكذا المحكم إذا اتبعه ابتغاء الفتنة به ، فكثيراً ما ترى الجهال يحتجون لأنفسهم بأدلة فاسدة وبأدلة صحيحة؛ اقتصاراً بالنظر على دليل ما ، واطراحاً للنظر في غيره من الأدلة الأصولية والفروعية العاضدة لنظره أو المعارضة له .

وكثير ممن يدعي العلم يتخذ هذا الطريق مسلكاً ، وربما أفتى بمقتضاه وعمل على وفقه إذا كان له فيه غرض . . . ، وكذلك الأمر أبداً في كل مسألة يتبع فيها الهوى أولاً ، ثم يطلب لها المخرج من كلام العلماء أو من أدلة الشرع وكلام العرب أبداً ، لاتساعه وتصرفه ، ويحتمل [أنها][1] كثيرة ، لكن يعلم الراسخون المراد منه ؛ من أوله وآخره ، أو فحواه ، أو بساط حاله أو قرائنه ، فمن لا يعتبره من أوله إلى آخره ويعتبر ما ابتنى عليه ؛ زلَّ في فهمه، وهو شأن من يأخذ الأدلة من أطراف العبارة الشرعية ، ولا ينظر بعضها ببعض ، فيوشك أن يزل،وليس هذا من شأن الراسخين ، وإنما هو من شأن من استعجل؛ طلباً للمخرج في دعواه .

فقد حصل من الآية المذكورة أن الزيغ لا يجري على طريق الراسخ بغير حكم الاتفاق ، وأن الراسخ لا زيغ معه بالقصد ألبتة »[2] اهـ.

وحول هذا المعنى يقول الله عز وجل في اليهود : ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ**

(١) كذا في الاعتصام ، تحقيق : سليم الهلالي . وفي نسخة رشيد رضا : (واحتمالاتها كثيرة) . ولعل الصواب هو : (ويحتمل أوجهاً كثيرة) فهو أشبه بالسياق ، والله أعلم .
(٢) الاعتصام (١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٥) طبعة تحقيق سليم الهلالي .

مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

[آل عمران : ٧٨]

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« وآفة رجال الدين حين يفسدون أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين ، وهذه الحال التي يذكرها القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب نعرفها نحن جيداً في زماننا هذا ، فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم ويلوونها لياً ؛ ليصلوا منها إلى مقررات معينة يزعمون أنها مدلول هذه النصوص ، وأنها تمثل ما أراده الله منها ، بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله في أساسها . معتمدين على أن كثرة السامعين لا تستطيع التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية ، وبين تلك المقررات المفتعلة المكذوبة التي يُلجئون إليها النصوص إلجاء .

ونحن اليوم نعرف هذا النموذج جيداً في بعض الرجال الذين ينسبون إلى الدين ظلماً ! الذين يحترفون الدين ويسخرونه في تلبية الأهواء كلها ، ويحملون النصوص ويجرون بها وراء هذه الأهواء حيثما لاح لهم أن هناك مصلحة تتحقق ، وأن هناك عرضاً من أعراض هذه الحياة الدنيا يحصل ! يحملون هذه النصوص ويلهثون بها وراء تلك الأهواء ويلوون أعناق هذه النصوص لياً لتوافق هذه الأهواء السائدة ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ليوافقوا بينه وبين اتجاهات تصادم هذا الدين وحقائقه الأساسية ، ويبذلون جهداً لاهثاً في التمحل وتصيد أدنى ملابسة لفظية ليوافقوا بين مدلول آية قرآنية وهوى من الأهواء السائدة التي يهمهم تمليقها **﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ**

اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران: ٧٨].

كما يحكي القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب سواء، فهي آفة لا يختص بها أهل الكتاب وحدهم، إنما تبتلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون إليه حتى ما يساوي إرضاء هوى من الأهواء التي يعود تمليقها بعرض من أعراض هذه الأرض!، وتفسد الذمة حتى ما يتحرج القلب من الكذب على الله، وتحريف كلماته عن مواضعها لتمليق عبيد الله، ومجاراة أهوائهم المنحرفة، التي تصادم دين الله.. ، وكأنما كان الله سبحانه يحذر الجماعة المسلمة من هذا المزلق الوبيء، الذي انتهى بنزع أمانة القيادة من بني إسرائيل»(١) اهـ.

٢- كتمان الحق وإخفاؤه:

وهذه هي الطريقة الثانية من طرق لبس الحق بالباطل، والذي يؤدي إلى تحريف الأدلة عن مواضعها، وتغطية الحق به. يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عند قوله سبحانه: ﴿**وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٤٢]: «هما متلازمان، فإن من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوساً به خفي من الحق بقدر ما ظهر من الباطل، فصار ملبوساً. ومن كتم الحق احتاج أن يقيم موضعه باطلاً فيلبس الحق بالباطل، ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله، فلابد أن يظهر باطلاً»(٢) اهـ.

وسبق لنا أيضاً من كلام الرازي عند نفس الآية قوله: «اعلم أن إضلال

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤١٨، ٤١٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧٢).

الغير لا يحصل إلا بطريقين ؛ وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه ، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول إليها»[1] .

وقد ورد في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ من النصوص المحذرة من كتمان الحق وإخفائه، والمتوعدة لفاعليه بالوعيد الشديد ما يلي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

يقول الشيخ رشيد رضا في تفسيرها :

« هذه الآية جارية على الرؤساء الذين يحرمون على الناس ما لم يحرمه الله ، ويشرعون لهم ما لم يشرعه من حيث يكتمون ما شرعه بالتأويل أو الترك فيدخل فيه اليهود والنصارى ، ومن حذا حذوهم في شرع ما لم يأذن به الله وإظهار خلافه ؛ سواء كان ذلك في أمر العقائد ككتمان اليهود أوصاف النبي ﷺ ، أو الأكل والتقشف وغير ذلك من الأحكام التي كانوا يكتمونها إذا كان لهم منفعة في ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١] .

وفي حكمهم كل من يبدي بعض العلم ويكتم بعضاً لمنفعة لا لإظهار

---

(١) التفسير الكبير (٣/ ٤٠).

الحق وتأييده »[١] اهـ.

ومثله قوله تعالى في اليهود ومن حذا حذوهم: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

يقول القرطبي رحمه الله: «قال المفسرون: هم اليهود، ورثوا كتاب الله فقرءوه وعلموه وخالفوا حكمه، وأتوا محارمه مع دراستهم له، فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ ﴾ ثم أخبر عنهم أنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم ونهمهم، ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ وهم لا يتوبون.

ودل على أنهم لا يتوبون قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ والعرض: متاع الدنيا؛ بفتح الراء. وإسكانها ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير. والإشارة في هذه الآية إلى الرشا والمكاسب الخبيثة، ثم ذمهم باغترارهم في قولهم: ﴿ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾، وأنهم بحال إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مصرون، وإنما يقول: سيغفر لنا من أقلع وندم.

قلت: وهذا الوصف الذي ذم الله تعالى به هؤلاء موجود فينا. أسند الدارمي أبو محمد: حدثنا محمد بن المبارك حدثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يكنى أبا عمرو عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: سَيَبْلَى القرآنُ في صدور أقوام كما يَبْلَى الثّوب فيتهافت، يقرأونه لا يجدون له

(١) تفسير المنار (٢/ ١٠١).

شهوة ولا لذة ، يَلْبَسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالهُم طمع لا يخالطه خوف ، إن قصروا قالوا : سنبلغ ، وإن أساءوا قالوا : سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً(١) .

وقيل : إن الضمير في « يأتهم » ليهود المدينة ؛ أي وإن يأت يهودَ يَثْربَ الذين كانوا على عهد النبي ﷺ عَرَض مثْلُه يأخذوه كما أخذه أسلافهم .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٩] ، فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ يريد التوراة ، وهذا تشديد في لزوم قول الحق في الشرع والأحكام ، وألا يميل الحكام بالرُّشَا إلى الباطل .

قلت : وهذا الذي لزم هؤلاء وأخذ عليهم به الميثاق في قول الحق لازم لنا على لسان نبينا »(٢) اهـ .

وبقيت كلمة أخيرة في موضوع كتمان الحق ، ألا وهي أن بعض الطيبين قد يقول : ألا يجوز كتمان العلم بل يجب أحياناً عند خوف الفتنة من الجهر به سواء على النفس أو على الناس ؟ والجواب فيه تفصيل كما يلي :

---

(١) سنن الدارمي : كتاب فضائل القرآن (٤) باب : في تعاهد القرآن (ح٣٢٢٥) : (٨٩٦/٢) .

(٢) تفسير القرطبي (٣١١/٧) .

بادئ ذي بدء فإن حديثنا ليس عن كتمان العلم ، وإنما هو عن كتمان الحق الذي يجب أن يقال . وفي نظري - والله أعلم - أن بينهما اختلافاً ، وذلك أن العلم أنواع ، فمنه ما هو واجب القول به ، وتعليمه للناس كفروض العين ونحوها ، ومنه ما هو مستحب ، ومنه ما يجوز قوله لأناس دون أناس حسب عقولهم وأفهامهم .

أما قول الحق الواجب فأرى أنه من العلم الواجب إيصاله للناس ولا يجوز كتمه ؛ لأن في كتمه مفسدة تخالف مقاصد الشرع أو بعضها ، وفي إخفائه فتنة للناس وليس العكس ، فإذا جاز كتمان العلم أو وجب في ضوء قواعد الشريعة المعتبرة ، فإنا والحالة هذه نقول : إن الحق في هذا هو كتمان العلم وإن الجهر بالعلم مع معرفتنا بالمفسدة المترتبة عليه هو الباطل والفتنة .

هذا - والله أعلم - هو الذي عناه الشاطبي رحمه الله تعالى في الموافقات حيث قال : « ومن هذا يعلم أنه ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره ، وإن كان من علم الشريعة ، ومما يفيد علماً بالأحكام ، بل ذلك ينقسم ؛ فمنه ما هو مطلوب النشر وهو غالب علم الشريعة ، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أولا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص ، ومن ذلك تعيين هذه الفرقة ، فإنه وإن كان حقاً فقد يثير فتنة كما تبين تقريره ، فيكون من تلك الجهة ممنوعاً بثه . من ذلك علم المتشابهات والكلام فيها ، فإن الله ذم من اتبعها ، فإذا ذكرت وعرضت للكلام فيها فربما أدى ذلك إلى ما هو مستغنى عنه .

وقد جاء في الحديث عن علي : « **حدثوا الناس بما يفهمون** ، **أتريدون**

أن يكذب الله ورسوله»[١] وفي الصحيح عن معاذ أنه عليه الصلاة والسلام قال : « **يا معاذ ، تدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله**... الحديث» إلى أن قال : قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ، قال : « **لا تبشرهم فيتكلوا**»[٢] ، وفي حديث آخر عن معاذ في مثله قال : يا رسول الله، أفلا أخبر بها فيستبشروا ، فقال : « **إذاً يتكلوا** » ، قال أنس ، فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً[٣] .

ونحو من هذا عن عمر بن الخطاب مع أبي هريرة انظره في كتاب مسلم والبخاري . فإنه قال فيه عمر : « يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ، أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً به قلبه بشره بالجنة ؟ قال: **نعم** ، قال : فلا تفعل ، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون ، فقال رسول الله ﷺ : « **فخلهم**»[٤] .

وحديث ابن عباس عن عبد الرحمن بن عوف قال : لو شهدت أمير

---

(١) أخرجه البخاري : كتاب العلم (٤٩)-باب : من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا (ح١٢٧)[فتح الباري (١/ ٢٧٢)] .

(٢) متفق عليه : أخرجه البخاري -كتاب الجهاد (٤٧٦) ، باب : اسم الفرس والحمار (ح٢٨٥٦)[فتح الباري (٦/ ٦٩)] ، وفي مواضع أخرى.
وأخرجه مسلم-كتاب الإيمان (١٠) باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (تحت ٣٠) (١/ ٥٨ ، ٥٩).

(٣) متفق عليه : أخرجه البخاري-كتاب العلم (٤٩) ، باب : من خص بالعلم قوماً دون قوم. . (ح١٢٨)[فتح (١/ ٢٧٢)] ، ومسلم : كتاب الإيمان-(١٠) باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (ح٣٢) (١/ ٦١) .

(٤) أخرجه مسلم-كتاب الإيمان باب (١٠)-(ح٣١) (١/ ٥٩ ، ٦٠) ، وهو غير مخرج في البخاري .

المؤمنين أتاه رجل ، فقال : إن فلاناً يقول : لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلاناً ، فقال عمر : لأقومن العشية ، فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون يغصبونهم ، قلت : لا تفعل ، فإن الموسم يجمع رعاع الناس ويغلبون على مجلسك ، فأخاف أن لا ينزلوها على وجهها ، فيطيروا بها كل مطير ، وأمهل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة؛ فتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ويحفظوا مقالتك وينزلوها على وجهها ، فقال: والله لأقومن في أول مقام أقومه بالمدينة . . . الحديث[١] . . . إلى أن قال رحمه الله تعالى : ومنه ألا يذكر للمبتدي من العلم ما هو حظ المنتهي ، بل يربى بصغار العلم قبل كباره . . . إلى أن قال : وقد أخبر مالك عن نفسه أن عنده أحاديث وعلماً ما تكلم فيها ولا حدث بها . وكان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل ، وأخبر عمن تقدمه أنهم كانوا يكرهون ذلك .

فتنبه لهذا المعنى ، وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة ، فإن صحت في ميزانها ، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله ، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة فاعرضها في ذهنك على العقول فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها على العموم ، إن كانت مما تقبلها العقول على العموم . وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم ، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية»[٢] اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه ـ كتاب الحدود (٣١) باب : رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت (٦٨٣٠)[فتح (١٢/ ١٤٨ ، ١٤٩)].

(٢) الموافقات (٤/ ١٠٩) . (باختصار).

٣ـ تحريف الأدلة عن مواضعها :

وهذه الطريقة من طرق التلبيس هي ثمرة من ثمرات الطريقين السابق تفصيلهما ؛ إذ لابد لمحرف الأدلة من كتمان الحق ، ولابد لمتبع المتشابه من تأويل كلام الله سبحانه وكلام رسوله ﷺ التأويل الفاسد الذي يؤدي إلى حرف الأدلة عما أراد الله بها وأراده رسوله ﷺ ، ومن ثم وضعها في غير موضعها ، وهذا هو نوع من أنواع التحريف للأدلة عن مواضعها ؛ إذ لا يلزم من التحريف أن يكون لفظياً كما فعلت اليهود في التوراة بل إن تحريف المعنى المراد إلى غير المراد هو تحريف للنصوص عن مواضعها أيضاً .

وفي هذا يقول الشاطبي رحمه الله تعالى وهو يستعرض مآخذ أهل البدع في الاستدلال : « ومنها تحريف الأدلة عن مواضعها بأن يرد الدليل على مناط ، فيُصرف عن ذلك المناط إلى أمر آخر ؛ موهماً أن المناطين واحد ، وهو من خفيَّات تحريف الكلم عن مواضعه والعياذ بالله .

ويغلب على الظنِّ أن من أقرَّ بالإسلام ويذم تحريف الكلم عن مواضعه ، لا يلجأ إليه صراحاً ، إلا من اشتباه يعرض له ، أوجهل يصده عن الحق مع هوى يعميه عن أخذ الدليل مأخذه . . . وبيان ذلك أن الدليل الشرعي إذا اقتضى أمراً في الجملة مما يتعلق بالعبادات مثلاً فأتى به المكلف في الجملة أيضاً ، كذكر الله والدعاء والنوافل والمستحبات وما أشبهها مما يعلم من الشارع فيها التوسعة ـ كان الدليل عاضداً [لعمله][1] من جهتين : من جهة معناه ، ومن جهة عمل السلف ، فإن أتى المكلف في ذلك الأمر بكيفية مخصوصة أو زمان مخصوص ، أو مكان مخصوص أو مقارناً لعبادة

---

(١) في الأصل : لعلمه ، والصواب ما أثبته إن شاء الله تعالى .

مخصوصة ، والتزم ذلك بحيث صار متخيلاً أن الكيفية أو الزمان أو المكان مقصود شرعاً من غير أن يدل الدليل عليه ؛ كان الدليل بمعزل عن ذلك المعنى المستدل عليه »[1] اهـ.

ويوضح الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى هذه القاعدة المهمة : (قاعدة تحقيق المناط) توضيحاً أكثر في كتابه العظيم (الموافقات) ، فيقول :

« كل دليل شرعي فمبني على **مقدمتين** : إحداهما : راجعة إلى تحقيق مناط[2] الحكم . والأخرى : ترجع إلى نفس الحكم الشرعي .

فالأولى نظرية: وأعني بالنظرية هنا ما سوى النقلية سواء علينا أثْبَتَتْ بالضرورة أم بالفكر والتدبر ، ولا أعني بالنظرية مقابل الضرورية . **والثانية نقلية** .

وبيان ذلك ظاهر في كل مطلب شرعي بل هذا جار في كل مطلب عقلي أو نقلي فيصح أن نقول الأولى راجعة إلى تحقيق المناط ، والثانية راجعة إلى الحكم ، ولكن المقصود هنا بيان المطالب الشرعية .

فإذا قلت : إن كل مسكر حرام ، فلا يتم القضاء عليه حتى يكون بحيث يشار إلى المقصود منه ليستعمل أو لا يستعمل ؛ لأن الشرائع إنما جاءت لتحكم على الفاعلين من جهة ما هم فاعلون ، فإن شرع المكلف في تناول خمر مثلاً ، قيل له : أهذا خمر أم لا ؟ فلابد من النظر في كونه خمراً أو غير خمر ، وهو معنى تحقيق المناط . فإذا وجد فيه أمارة الخمر أو حقيقتها بنظر معتبر ، قال : نعم هذا خمر ، فيقال له : كل خمر حرام الاستعمال ؛ فيجتنبه .

(١) الاعتصام (١/ ٣١٧ ، ٣١٨) .

(٢) المناط : هو الوصف المناسب الذي يناط به الحكم .

وكذلك إذا أراد أن يتوضأ بماء فلابد من النظر إليه هل هو مطلق أم لا ، وذلك برؤية اللون وبذوق الطعم وشم الرائحة . فإذا تبين أنه على أصل خلقته ، فقد تحقق مناطه عنده ، وأنه مطلق ، وهي المقدمة النظرية ثم يضيف إلى هذه المقدمة ثانية نقلية ، وهي أن كل ماء مطلق ، فالوضوء به جائز . وكذلك إذا نظر هل هو مخاطب بالوضوء أم لا فينظر هل هو محدث أم لا . فإن تحقق الحدث فقد حقق مناط الحكم ، فيرد عليه أنه غير مطلوب بالوضوء، وإن تحقق فقده ، فكذلك فيرد عليه أنه غير مطلوب الوضوء وهي المقدمة النقلية .

فالحاصل أن الشارع حكم على أفعال المكلفين مطلقة ومقيدة ، وذلك مقتضى إحدى المقدمتين وهي النقلية، ولا ينزل الحكم بها إلا على التحقق أنه مناط ذلك الحكم على الإطلاق أو على التقييد وهو مقتضى المقدمة النظرية ، والمسألة ظاهرة في الشرعيات نعم، وفي اللغويات والعقليات ؛ فإنا إذا قلنا ضرب زيد عمراً، وأردنا أن نعرف الذي يرفع من الاسمين وما الذي ينصب ، فلابد من معرفة الفاعل من المفعول . فإذا حققنا الفاعل وميزناه حكمنا عليه بمقتضى المقدمة النقلية ، وهي أن كل فاعل مرفوع، ونصبنا المفعول كذلك ؛ لأن كل مفعول منصوب .

وإذا أردنا أن نصغر (عقرباً) تحققنا أنه رباعي يستحق من أبنية التصغير بنية (فعيعيل) ؛ لأن كل رباعي على هذه الشاكلة تصغيره على هذه البنية ، وهكذا في سائر علوم اللغة ، وأما العقليات فكما إذا نظرنا في العالم هل هو حادث أم لا ؟ فلابد من تحقيق مناط الحكم ـ وهو العالم ـ فنجده متغيراً ، وهي المقدمة الأولى، ثم نأتي بمقدمة مسلمة ، وهو قولنا : كل متغير

حادث»[١] اهـ.

مما سبق بيانه في كلام الشاطبي رحمه الله تعالى يتضح لنا أهمية الانتباه إلى قاعدة تحقيق المناط ، وأن إغفالها وعدم تحقيقها هو الذي يوقع غالباً في اللبس ، وينشأ من التفريط فيها تحريف الأدلة عن مواضعها، وإنزال أحكام الشريعة في غير مراد الله سبحانه ، وغير مراد رسوله ﷺ منها .

ولكي تتضح هذه القاعدة بشكل أكثر وضوحاً ؛ أسوق المثال التالي من واقعنا المعاصر، ألا وهو تحديد مفهوم الفتنة وأهلها ، فلو طبقنا المقدمتين اللتين ذكرهما الشاطبي فيما سبق على موضوع الفتنة وحقيقتها ، ومتى تسمى فتنة ، ومتى يسمى الداعون إلى أمر ما بأنهم دعاة فتنة؟

لو طبقنا هاتين المقدمتين لاتضح الأمر وبان، فحكم الله عز وجل في الفتنة أنها محرمة ومرفوضة ، وبالتالي فإن الداعين إليها هم دعاة فتنة ، فيجب منعهم والحذر من شرهم ، هذا حكم الله سبحانه وهو **المقدمة النقلية**، ولكن يبقى تحقيق المناط في أي أمر يجد وهو **المقدمة النظرية**. وهو هنا البحث في حاله وحال أهله، هل هم دعاة فتنة وشر وخراب للمجتمع ، أم هم دعاة إصلاح ونصح وغيرة على محارم الله عز وجل؟

إن المنصف القائم لله سبحانه ليعلم أن الدعاة إلى الخير والإصلاح والنصح ليسوا دعاة فتنة وشر ، وبالتالي لا يجوز إنزال المناط في غير حكمه ومحله. وهذا لا يكون إلا عند صاحب هوى قد أسكره هواه، أو جاهل لم يكلف نفسه بالبحث والتحقيق . أما من أدى به اجتهاده من أهل الاجتهاد إلى أن : مفسدة قول الحق أكبر من مصلحته وتؤدي إلى فتنة ، وكان متجرداً فهو مأجور إن شاء الله ، أصاب أم أخطأ .

---

(١) الموافقات (٣/ ٢٤).

وقبل الانتهاء من مبحث أسباب التلبيس أنقل كلاماً مفيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يبين فيه أثر استيلاء النفس الأمارة بالسوء في التباس الحق بالباطل ، وأن هناك صراعاً بين النفس الأمارة والمطمئنة. يقول رحمه الله تعالى :

« وقد انتصبت الأمارة في مقابلة المطمئنة ، فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها ، فإذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقدح في الإيمان من الشك والنفاق، وما يقدح في التوحيد من الشرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه، ولا ترضى حتى تقدم محبة غيره وخوفه ورجاءه على محبته سبحانه وخوفه ورجائه ، فيكون ماله عندها هو المؤخر وما للخلق هو المقدم ، وهذا حال أكثر الخلق .

وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم على الوحي ، وأتت من الشبه المضلة بما يمنعها من كمال المتابعة ، وتحكيم السنة وعدم الالتفات إلى آراء الرجال . فتقوم الحرب بين هاتين النفسين ، والمنصور من نصره الله .

وإذا جاءت تلك بالإخلاص والصدق والتوكل والإنابة والمراقبة جاءت هذه بأضدادها وأخرجتها في عدة قوالب ، وتقسم بالله ما مرادها إلا الإحسان والتوفيق ، والله يعلم أنها كاذبة وما هو مرادها إلا مجرد حظها واتباع هواها والتفلت من سجن المتابعة والتحكيم المحض للسنة إلى فضاء إرادتها وشهوتها وحظوظها.

ولعمر الله ما تخلصت إلا من فضاء المتابعة والتسليم إلى سجن الهوى والإرادة وضيقه وظلمته ووحشته فهي مسجونة في هذا العالم ،وفي البرزخ في أضيق منه ، ويوم الميعاد الثاني في أضيق منهما .

ومن أعجب أمرها أنها تسحر العقل والقلب ، فتأتي إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجلها فتخرجه في صورة مذمومة ، وأكثر الخلق : صبيان العقول أطفال الأحلام ، ولم يصلوا إلى حد الفطام الأول عن العوائد والمألوفات فضلاً عن البلوغ الذي يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره، وشر الشرين فيجتنبه ، فتريه صورة تجريد التوحيد التي هي أبهى من صورة الشمس والقمر، صورة التنقيص المذموم ، وهضم العظماء منازلهم ، وحطهم منها إلى مرتبة العبودية المحضة والمسكنة والذل والفقر المحض الذي لا ملكة لهم معه ولا إرادة ولا شفاعة إلا من بعد إذن الله.

فتريهم النفس السحارة هذا القدر غاية تنقيصهم وهضمهم ونزول أقدارهم ، وعدم تمييزهم عن المساكين الفقراء ؛ فتنفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد النفار ويقولون : ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾ [ص: ٥] .

وتريهم تجريد المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمه على آراء الرجال في صورة تنقيص العلماء والرغبة عن أقوالهم وما فهموه عن الله ورسوله ، وأن هذا إساءة أدب عليهم وتقدم بين أيديهم، وهو مفض إلى إساءة الظن بهم ، وأنهم قد فاتهم الصواب . وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظى بالصواب دونهم ، فتنفر من ذلك أشد النفار ، وتجعل كلامهم هو المحكم الواجب الاتباع ، وكلام الرسول هو المتشابه الذي يعرض على أقوالهم ، فما وافقها قبلناه ، وما خالفها رددناه ، أوأولناه أو فوضناه ، وتقسم النفس السحارة بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم . . .

وأعجب من ذلك أنها تضاهي ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها ، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر ، ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر ، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة ، فيتباين الفعلان في الباطن ، ويشتبهان في الظاهر.

ولذلك أمثلة كثيرة منها : **المداراة والمداهنة** : فالأول من المطمئنة ، والثاني من الأمارة، وخشوع الإيمان وخشوع النفاق ، وشرف النفس والتيه ، والحمية والجفاء ، والتواضع والمهانة ، والقوة في أمر الله والعلو في الأرض، والحمية لله والغضب له ، والحمية للنفس والغضب لها ، والجود والسرف ، والمهابة والكبر ، والصيانة والتكبر ، والشجاعة والجرأة ، والحزم والجبن ، والاقتصاد والشح ، والاحتراز وسوء الظن ، والفراسة والظن ، والنصيحة والغيبة ، والهدية والرشوة ، والصبر والقسوة، والعفو والذل ، وسلامة القلب والبله والغفلة، والثقة والغرة ، والرجاء والتمني. والتحدث بنعم الله والفخر بها ، وفرح القلب وفرح النفس، ورقة القلب والجزع ، والموجدة والحقد، والمنافسة والحسد ، وحب الرياسة وحب الإمامة والدعوة إلى الله ، والحب لله والحب مع الله ، والتوكل والعجز، والاحتياط والوسوسة، وإلهام الملك وإلهام الشيطان ، والأناة والتسويف، والاقتصاد والتقصير ، والاجتهاد والغلو ، والنصيحة والتأنيب ، والمبادرة والعجلة ، و الإخبار بالحال عند الحاجة والشكوى .

فالشيء الواحد تكون صورته واحدة ، وهو منقسم إلى محمود ومذموم»[1] .

❁ ❁ ❁

(١) الروح ص (٢٣٠). (باختصار).

المبحث الرابع
صور من لبس الحق بالباطل

بعد بيان الأسباب التي تؤدي إلى لبس الحق بالباطل، والمؤدية بدورها إلى الضلال والإضلال، وبعد بيان معنى اللبس والتلبيس، وأنه إلباس الهوى والشهوة لبوساً شرعياً بتحريف الأدلة أوكتمانها . نذكر هنا بعضاً من صور اللبس والتضليل ؛ وذلك لنحذر من الوقوع فيها بأنفسنا ، ونحذر إخواننا المسلمين من الوقوع فيها والانخداع بها ، ولم أراع في ترتيبها الأهمية لكن حسب ما عنّ في الخاطر . أسأله سبحانه التوفيق والسداد في القول والعمل. فمن هذه الصور ما يلي :

١ـ الاحتجاج على شرعية الأنظمة المبدلة لشرع الله والمستحلة لما حرم الله بآثار عن السلف أنه «كفر دون كفر» :

وهذا والله تحريف للأدلة عن مواضعها، وإنزال الحكم في غير محله، وافتراء وتجن على حبر الأمة وترجمان القرآن، وعلى خير القرون في هذه الأمة ؛ فما كانوا عن عصرنا يتحدثون ،ولا أنظمته المبدلة لشرع الله يقصدون. فالله المستعان وعليه التكلان .

ومن أحسن ما رأيت من الردود على هذا التلبيس ما كتبه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى ؛ أنقله بطوله لأهميته :

قال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير : « وهذه الآثار ـ عن ابن عباس

وغيره ـ مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا ، من المنتسبين للعلم ، ومن غيرهم من الجراء على الدين؛ يجعلونها عذراً أو إباحة للقوانين الوثنية الموضوعة ، التي ضربت على بلاد الإسلام .

وهناك أثر عن أبي مجلز في جدال الإباضية الخوارج إياه، فيما كان يصنع بعض الأمراء من الجور ، فيحكمون في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة ، عمداً إلى الهوى ، أو جهلاً بالحكم . والخوارج من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافر ، فهم يجادلون يريدون من أبي مجلز أن يوافقهم على ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء؛ ليكون ذلك عذراً لهم فيما يرون من الخروج عليهم بالسيف .

وهذان الأثران رواهما الطبري : ١٢٠٢٥ ، ١٢٠٢٦ . وكتب عليهما أخي السيد محمود محمد شاكر تعليقاً نفيساً جداً ، قوياً صريحاً ، فرأيت أن أثبت هنا نص أُولى روايتي الطبري ، ثم تعليق أخي على الروايتين .

فروى الطبري(١٢٠٢٥) عن عمران بن حدير ، قال : « أتى أبا مجْلَز ناس من بني عمرو بن سدوس ، فقالوا : يا أبا مجلز ، أرأيت قول الله : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٤] ، أحق هو؟ قال : نعم، قالوا : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٥] أحق هو ؟ قال : نعم ، قالوا : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٧] أحق هو ؟ قال : نعم .

قال : فقالوا : يا أبا مجلز ، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله ؟ قال : هو دينهم الذي يدينون به ، وبه يقولون ، وإليه يدعون . فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا بأنهم أصابوا ذنباً ، فقالوا : لا والله، ولكنك تفرق ! قال : أنتم أولى بهذا مني ! لا أرى وإنكم ترون هذا ولا تحرجون! ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى

وأهل الشرك ، أو نحو من هذا » .

ثم روى الطبري (١٢٠٢٦) نحو معناه ، وإسناداه صحيحان .

فكتب أخي السيد محمود ، بمناسبة هذين الأثرين ما نصه : « اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة . وبعد ، فإن أهل الريب والفتن ممن تصدروا للكلام في زماننا هذا قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله ، وفي القضاء في الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام فلما وقف على هذين الخبرين ، اتخذهما رأياً يرى به صواب القضاء في الأموال والأعراض والدماء بغير ما أنزل الله ، وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها ، والعامل عليها .

والناظر في هذين الخبرين لا محيص له عن معرفة السائل والمسؤول ، فأبو مجلز (لاحق بن حميد الشيباني السدوسي) تابعي ثقة ، وكان يحب عليًا رضي الله عنه ، وكان قوم أبي مجلز وهم بنو شيبان ، من شيعة علي يوم الجمل وصفين ، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين واعتزلت الخوارج ، كان فيمن خرج على علي رضي الله عنه طائفة من بني شيبان ، ومن بني سدوس بن شيبان بن ذهل .

وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس (كما في الأثر ١٢٠٢٥) ، وهم نفر من الإباضية (كما في الأثر ١٢٠٢٦) ، والإباضية من جماعة الخوارج الحرورية ، هم أصحاب عبد الله بن إباض التميمي ، وهم يقولون بمقالة سائر الخوارج في التحكيم ، وفي تكفير علي رضي الله عنه إذ حكَّم الحكمين ، وأن علياً لم يحكم بما أنزل الله في أمر التحكيم .

ثم إن عبد الله بن إباض قال : إن من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك ، فخالف أصحابه ، وأقام الخوارج على أن أحكام المشركين تجري على من خالفهم .

ثم افترقت الإباضية بعد عبد الله بن إباض الإمام افتراقاً لا ندري معه - في أمر هذين الخبرين - من أي الفرق كان هؤلاء السائلون ، بيد أن الإباضية كلها تقول : إن دور مخالفيهم دور توحيد ، إلا معسكر السلطان ؛ فإنه دار كفر عندهم . ثم قالوا أيضاً : إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه إيمان ، وأن كل كبيرة فهي كفر نعمة ، لا كفر شرك ، وأن مرتكبي الكبائر في النار خالدون مخلدون فيها .

ومن البين أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية ، إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء لأنهم في معسكر السلطان، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه . ولذلك قال لهم في الخبر الأول (رقم ١٢٠٢٥) : فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً ، وقال لهم في الخبر الثاني : إنهم يعملون بما يعملون ويعلمون أنه ذنب .

وإذن ، فلم يكن سؤالهم عمّا احتج به مبتدعة زماننا ، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام ، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ ، فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ، ورغبة عن دينه ، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى ، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه .

والذي نحن فيه اليوم ، هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء ، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه ، وتعطيل لكل ما في شريعة الله ، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة ، وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا ، ولعلل وأسباب انقضت فسقطت الأحكام كلها بانقضائها ، فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز والنفر من الإباضية من بني عمرو بن سدوس ! !

ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز ، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة ، فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكماً وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها ، هذه واحدة . وأخرى ، أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل ؛ فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة . وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية ، فهذا ذنب تناله التوبة ، وتلحقه المغفرة . وإما أن يكون حكم بها متأولاً حكماً خالف به سائر العلماء ، فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب وسنة رسول الله ﷺ .

وإما أن يكون كان في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر ، جاحداً لحكم من أحكام الشريعة ، أو مؤثراً لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام ، فذلك لم يكن قط . فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه ، فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابهما ، وصرفهما إلى غير معناهما رغبة في نصرة سلطان أو احتيالاً على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرضه على عباده ؛ فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله : أن يستتاب ، فإن أصر وكابر وجحد حكم

الله، ورضي بتبديل الأحكام ـ فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين . وكتبه محمود محمد شاكر»(١) اهـ.

بعد هذا النقل الذي لا يحتاج إلى مزيد هل لقائل أن يقول : إن ابن عباس رضي الله عنهما أو إن أبا مجلز كانا يقصدان بقوليهما أهل زماننا الذين بدلوا شرع الله وأعرضوا عن الحكم به والتحاكم إليه لعدم صلاحيته لزمانهم هذا ـ زعموا ـ ؟!

اللهم إنا نبرأ من هذا اللبس ونبرئ صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان من هذا التلبيس وهذه المغالطات ، وأنه لا أحد ينزل قول ابن عباس رضي الله عنهما أو قول أبي مجلز على المبدلين لشرع الله في زماننا هذا إلا رجل يسيطر عليه الجهل بالواقع فلا يعلم ما يدور من حوله ، أو رجل منافق ملبس يعلم واقعه وعدم مشابهته للواقع الذي كان يتحدث عنه السلف رضي الله عنهم ، ولكنه يغالط ويخلط الحق بالباطل اتباعاً للهوى ، أو طمعاً في دنيا يصيبها .

٢ـ الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي والرضا بالذل والمهانة:

وهذه الصورة من صور اللبس والمغالطة ليس القصد من إيرادها هنا الرد على المحتجين بالقدر على ضلالهم ومعاصيهم ، وإنما المقصود التنبيه على أن من يحتج بالقضاء والقدر ليبرر به انحرافه وكسله وضعفه إنما هو مغالط وملبس ومدلس ، وهو يعلم في قرارة نفسه أن لا حجة له في ذلك ، وإنما أراد أن يخلط باطله وضعفه وانحرافه بقضاء الله وقدره النافذ ، والذي

---

(١) عمدة التفسير (٤/ ١٥٦ـ١٥٨) ، وتفسير الطبري (١٠/ ٣٤٨ ، ٣٤٩).

هو حق لكن أراد منه باطلاً ، وأنزل الحق في غير ما أنزل له، وحرف الكلم عن مواضعه بأن وضع الدليل في غير موضعه الذي أراده الله سبحانه منه .

وموضوع الرد على المحتجين بالقدر موجود في مظانه من كتب العقيدة الصحيحة (معتقد أهل السنة والجماعة) من مثل العقيدة الواسطية ، ومعارج القبول ، وشرح العقيدة الطحاوية . . . إلخ .

والمراد هنا كشف اللبس الحاصل بين الحق والباطل في هذه المسألة ؛ حيث إن المحتج بالقدر على فعل المعاصي والإصرار عليها قد وقع في لبس عظيم ، ويعلم هو بنفسه أن احتجاجه ليس في محله ، وإنما أورده لتبرير شهوته وضعفه ؛ بدليل أنه في أمور الدنيا وكسبها لانجده يقعد محتجاً بالقدر ، وأن الله سبحانه كتب عليه الفقر أو الجوع أو عدم الزواج ، بل إنا نجده يسعى ويفعل الأسباب الممكنة لدفع الفقر أو الجوع أو المرض ، أو يجمع المهر للزواج . . . إلخ .

فلماذا لايكون هذا في أمر الدين وأمور الآخرة ، فيسعى للآخرة سعيها ، ويأخذ بأسباب الهداية وأسباب النجاة من النار ، وهي ميسرة لمن أرادها ؟ لماذا هو جبري في أمورالدين والآخرة، وقدري في أمور الدنيا ؟!

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

« وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضاً، بل كل من احتج بالقدر فإنه متناقض ؛ فإنه لا يمكن أن يقر كل آدمي على ما يفعل ؛ فلابد إذا ظلمه ظالم، أو ظلم الناس ظالم وسعى في الأرض بالفساد وأخذ يسفك دماء الناس ويستحل الفروج، ويهلك الحرث والنسل ونحو ذلك من أنواع

الضرر التي لا قوام للناس بها : أن يدفع هذا القدر ، وأن يعاقب الظالم بما يكف عدوانه وعدوان أمثاله . فيقال له : إن كان القدر حجة ؛ فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك . وإن لم يكن حجة؛ بطل أصل قولك : إن القدر حجة»[1] اهـ .

ثم إن هذا الملبس والمغالط لو أنه احتج بالقدر على الذنب بعد وقوعه كمصيبة من المصائب التي قدرها الله عز وجل عليه لكان لذلك وجه حتى لا ييأس من التوبة ؛ فالله سبحانه قد قدر عليه الذنب بقضائه الكوني القدري لحكمة يعلمها سبحانه ، وتم ما أراده الله عز وجل ، فعندئذ نقول: قدر الله وما شاء فعل ، فلا تيأس من رحمة الله بعد وقوعك في الذنب ، ولا تهن وتضعف من تسلط الأعداء ؛ فإن الله سبحانه الذي أراد هذا كوناً وقدراً قد أراد مدافعته ديناً وشرعاً بالتوبة النصوح وجهاد الأعداء، وبهذا ندفع أقدار الله سبحانه بأقداره عز وجل .

ومن هنا نفهم معنى قول من قال من السلف: « إنه يحتج بالقدر على المصائب لا على المعائب» ؛ أي إن القدر لايجوز الاحتجاج به على فعل العيب أو قوله من الذنوب والمعاصي وترك الجهاد . . . إلخ لكن يحتج به على المصائب الناشئة عن هذه الذنوب حتى لا يدخل اليأس إلى النفوس ، وحتى ينهض العاصي من عثرته ليزيل آثار الذنوب والتوبة والإنابة والندم . أما أن يفعل الذنوب أو أن يقدم ويتجرأ على فعلها محتجاً بالقدر فلا شك ولا ريب أن كل عاقل - فضلاً عن كل مسلم - يعلم أن هذا لبس للحق بالباطل، ومغالطة أي مغالطة ، وفاعل ذلك يعلم من نفسه أنه ليس على حق

(١) العبوديةص(٢١).

في صنيعه هذا لكنها الشهوة والضعف والهوى .

وأختم هذه الصور بكلام نفيس للإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى حول هذه المسألة فيقول :

«وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « **احتج آدم وموسى ، فقال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلَّمك أسماء كل شيء ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ قال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، فهل وجدت ذلك مكتوباً عليَّ قبل أن أخلق ؟ ! قال : نعم . قال : فحج آدم موسى**»[1] .

وآدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ، ظناً أن المذنب يحتج بالقدر ، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ، ولو كان هذا عذراً لكان عذراً لإبليس، وقوم نوح ، وقوم هود ، وكل كافر ،ولا موسى لام آدم أيضاً لأجل الذنب ، فإن آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ، ولكن لامه لأجل المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة ، ولهذا قال : فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فأجابه آدم : إن هذا كان مكتوباً عليَّ قبل أن أخلق . فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدراً ، وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له ، فإنه من تمام الرضا بالله رباً .

وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب من المعايب ، ويصبر على المصائب . قال تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ** ﴾ [غافر : ٥٥] .

---

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري بنحوه ـ كتاب التفسير ـ (٤٧٣٦) ومسلم في القدر (٢٦٥٢) .

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾[آل عمران: ١٢٠].

وقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال يوسف: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

[يوسف: ٩٠]

وكذلك ذنوب العباد، يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته، ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، ويحب في الله ويبغض في الله، كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ١ - ٤] »[1] اهـ.

وقريباً من الذين يحتجون بالقدر على فعل المعاصي والرضا بالواقع أولئك الذين يتجرأون على فعل المعاصي اعتماداً على رحمة الله سبحانه؛ نعم إن الله غفور رحيم، ولكن هذه الرحمة لا يقصد بها أن يتجرأ هذا الملبس

---

(١) العبودية ص(١٧).

على المعصية ، وإنما المقصود منها فتح باب التوبة والرحمة لمن وقع فيها وانتهى وندم، فيقال له : لا تيأس ؛ فإن الله غفور رحيم .

٣ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله خشية الابتلاء وتعريض النفس للفتن :

ليس المقصود من إيراد هذه الصورة هو الحديث والاستفاضة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراتبه وشروطه وضوابطه ، فكل هذا ليس المقصود في هذه المسألة ، فتفصيل الأمر والنهي وشروطهما موجود في مظانه من كتب أهل العلم وبخاصة رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وإنما المقصود من إيراد هذا العنوان هو التحذير من خلط الأمور في هذه الشعيرة العظيمة ، والانتباه إلى أن هناك من يترك الأمر والنهي عجزاً وكسلاً وجبناً وبخلاً ، فبدلاً من الاعتراف بذلك والسعي للتخلص منه فإنه يحاول جاهداً تغطية ضعفه هذا بمبررات شرعية منها : الخوف من الفتن، واعتزال كل ما يعرض النفس للابتلاء والفتنة والهلكة ، ودرء المفاسد ، معتمداً على قاعدة تعارض المصالح والمفاسد والضوابط الشرعية في ذلك .

وكما أسلفت فإن موضوع هذه الصورة ليس الحديث عن القواعد والضوابط الشرعية في ذلك ؛ فهي لا شك معتبرة ، وهي الأصل في الأمر والنهي ، وإنما موضوعنا هو كشف اللبس والتدليس والمغالطة على النفس وعلى الناس في أن النكول عن الأمر والنهي قد تم من منطلق شرعي وضوابط شرعية ، والأمر في حقيقته ليس كذلك ، وإنما هو الخوف والجبن وإيثار السلامة وعدم تحمل أي أذى ومكروه في سبيل الله عز وجل . وإلا لو

كان المنطلق شرعياً وفق الضوابط الشرعية وفي حالة معينة أدى الاجتهاد فيها إلى أن المفسدة أكبر والمصلحة أقل ؛ فهذا معتبر شرعاً : أصاب المجتهد فيها أم أخطأ .

لكن الحديث ليس عن هذا المجتهد الباحث عن الحق ، بل هو كما سبق ذكره متوجه إلى ذلك المغالط الذي يغطي ضعفه وهواه بلبوس شرعي ؛ يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يعرض به المرء للفتنة ؛ صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة ، كما قال عن المنافقين : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا** ﴾ [التوبة : ٤٩].

وقد ذكر في التفسير أنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي ﷺ بالتجهز لغزو الروم، وأظنه قال : « هل لك في نساء بني الأصفر ؟ » ، فقال : يا رسول الله ، إني رجل لا أصبر عن النساء ؛ وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر ، فائذن لي ولا تفتني[(١)] .

وهذا الجد هو الذي تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة ، واستتر بجمل أحمر ، وجاء فيه الحديث : « **إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر** »[(٢)] فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا** ﴾ .

يقول : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء ، فلا يفتتن بهن ، فيحتاج

(١) انظر تفسير الطبري ، الآثار (١٦٧٨٥ - ١٦٧٨٩) (١٤/ ٢٨٨) الطبعة المحققة .

(٢) أخرجه مسلم - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (ح٢٧٨٠) (٤/ ٢١٤٤ - ٢١٤٥).

إلى الاحتراز من المحظور، ومجاهدة نفسه عنه فيتعذب بذلك أو يواقعه فيأثم فإن من رأى الصور الجميلة وأحبها فإن لم يتمكن منها إما لتحريم الشارع، وإما للعجز عنها يعذب قلبه، وإن قدر عليها وفعل المحظور هلك. وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء.

فهذا وجه قوله: ﴿لا تَفْتِنِّي﴾ قال الله تعالى: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، يقول: نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ونكوله عنه وضعف إيمانه ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد: فتنة عظيمة قد سقط فيها، فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟ والله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة؛ فهو في الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده، وتركه ما أمر الله به من الجهاد.

فتدبر هذا؛ فإن هذا مقام خطر؛ فإن الناس هنا ثلاثة أقسام: قسم يأمرون وينهون ويقاتلون؛ طلباً لإزالة الفتنة التي زعموا، ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة؛ كالمقتتلين في الفتنة الواقعة بين الأمة.

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا؛ لئلا يفتنوا بجنس الشهوات، وهم قد سقطوا في الفتنة، وهذه الفتنة المذكورة في «سورة براءة» دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة؛ فإنها سبب نزول الآية.

وهذه حال كثير من المتدينين؛ يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي وجهاد يكون به الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا؛ لئلا يفتنوا

بجنس الشهوات؛ وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منه، وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب وترك المحظور، وهما متلازمان؛ وإنما تركوا ذلك لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعاً أو تركهما جميعًا، مثل كثير ممن يحب الرئاسة أو المال وشهوات الغي؛ فإنه إذا فعل ما وجب عليه من أمر ونهي وجهاد وإمارة ونحو ذلك فلابد أن يفعل شيئاً من المحظورات.

فالواجب عليه أن ينظر أغلب الأمرين ؛ فإن كان المأمور أعظم أجراً من ترك ذلك المحظور لم يترك ذلك لما يخاف أن يقترن به ما هو دونه من المفسدة ، وإن كان ترك المحظور أعظم أجراً لم يفوت ذلك برجاء ثواب بفعل واجب يكون دون ذلك ؛ فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين من الحسنات والسيئات ، فهذا هذا. وتفصيل ذلك يطول .

وكل بشر على وجه الأرض لابد له من أمر ونهي، ولابد أن يأمر وينهى حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها ، إما بمعروف وإما بمنكر ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] ، فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته، والنهي طلب الترك وإرادته ، ولابد لكل حي من إرادة وطلب في نفسه يقتضي بهما فعل نفسه ، ويقتضي بهما فعل غيره إذا أمكن ذلك ؛ فإن الإنسان حي يتحرك بإرادته ، وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض ، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلابد أن يكون بينهم ائتمار بأمر وتناه عن أمر »[١] اهـ .

بعد هذا الكلام النفيس لشيخ الإسلام ؛ هل لقائل أن يقول: إنه يجب

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٦٦ ـ ١٦٨).

الابتعاد في الدعوة إلى الله سبحانه عن كل ما من شأنه أن يجر على الداعية الأذى والمحن ؟!

إن صاحب هذا القول قد نسي أو تناسى سنة الله عز وجل في الصراع بين الحق والباطل ، وسنته سبحانه في الابتلاء والتمحيص . قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] ، وقال سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ⑩ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ .

[العنكبوت: ١٠، ١١]

نعم إن من بيننا من يريد المغنم من الدعوة ولا يريد المغرم ؛ بدليل عدم الإعداد والاستعداد لأي أذى يعترض في الطريق ولو كان قليلاً، فما دام الأمن وما دامت السلامة والراحة فهو نشيط ومتحرك ، فإذا ظهرت المحن وبدايات الابتلاء والتمحيص آثر السلامة والراحة ، وعلل ذلك بالابتعاد عن الفتن ودرء المفاسد .

ولا يعني ما سبق من الكلام أن يبحث الداعية عن الأذى والابتلاء ؛ كلا، فالمطلوب سؤال العافية وعدم تمني البلاء ، كما لا يفهم منه أيضاً الدعوة إلى التهور والطيش ؛ معاذ الله ، فلا بد من المنطلقات الشرعية في كل التصرفات ، لكن المراد ألا نغفل عن سنة الله سبحانه في ابتلاء المؤمنين، وأن نوطن أنفسنا على هذه الأمور؛ لأنه لابد منها لكل من ادعى الإيمان ، وتصدر الدعوة والجهاد ، ولابد منها لتمييز الخبيث من الطيب ، ولابد منها

لتمحيص القلوب والصفوف .

ولو قلَّبنا تاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتاريخ الدعاة والمصلحين لرأينا ذلك المعلَم ظاهراً وقاسماً مشتركاً عندهم جميعاً ؛ حيث لم تخل حياة رسول ولا مصلح مجدد من الأذى والمحن والابتلاء ، بل لم يحصل التمكين لهم، وإقامة دين الله سبحانه في الأرض على أيديهم إلا بعدالصبر والمصابرة على صنوف الأذى والمحن في سبيل الله سبحانه ؛ قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

وما أظن أحداً يجهل حادثة أصحاب الأخدود ، ولا قول الرسول ﷺ لخباب بن الأرت رضي الله عنه : « **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه . . .الحديث** »(١) .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن النفس الأمارة مع الإنسان أنها : « تريه صورة الصدق مع الله وجهاد من خرج عن دينه وأمره في قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم ، وأنه يعرض نفسه من البلاء لما لا يطيق ، وأنه يصير غرضاً لسهام الطاعنين وأمثال ذلك من الشبه التي تقيمها النفس السحارة والخيالات التي تخيلها »(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري ـ كتاب الإكراه ـ باب : من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (ح٦٩٤٣) [فتح (١٢/ ٣٣٠)] .

(٢) الروح ص(٢٣٠).

وقد وقفت على كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يفسر فيه سورة الأحزاب، وخاصة ما يتعلق بغزوة الخندق، ويقارن بين حال المسلمين في تلك الغزوة وما أصابهم من الزلازل والمحن فيها، وبين غزو التتار لبلاد الشام ذاكراً أوجه التشابه بين الغزوتين، أنقل منها المناسب للمقام.

يقول رحمه الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]:

«كان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق، والنساء والصبيان في آطام المدينة -: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة؛ أي مكشوفة، فليس بينها وبين العدو حائل! قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله يحفظها ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ فهم يقصدون الفرار من الجهاد ويحتجون بحجة العائلة.

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة - غزو التتار - صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون والأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال وما يمكن إرسالهم مع غيرنا! وهم يكذبون في ذلك، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو كما فعل المسلمون على عهد الرسول ﷺ، وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد فكيف بمن فر بعد إرسال عياله؟»[1].

وقال في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]:

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ٤٥٢).

« فأخبر سبحانه أن الذين يبتلون بالعدو كما ابتلي رسول الله ﷺ فلهم فيه أسوة حسنة ؛ حيث أصابهم مثل ما أصابه فليتأسوا به في التوكل والصبر ، ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها وإهانة له ، فإنه لو كان كذلك ما ابتلي بها رسول الله ﷺ ، بل بها ينال الدرجات العالية ، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً ، وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك ، فيكون في حقه عذاباً كالكفار والمنافقين »[1] اهـ.

نسأل الله عز وجل أن يعصمنا من الفتن ويبصرنا بمواطن الضعف في نفوسنا ، وأن يعيذنا من النفاق وأن يعيننا على قول الحق والاعتراف بالحق حتى لا نغالط أنفسنا ونلبس على غيرنا ، فنظهر ضعفنا وجبننا في صورة درء المفاسد واعتزال الفتن ! ! .

وقريب من هؤلاء أولئك الذين يبررون كسلهم وحبهم للراحة وضعف همتهم بالتواضع البارد والزهد في المسئولية ؛ لأنه يعرف أن الدعوة إلى الله سبحانه لايعرف صاحبها الراحة وتحتاج إلى همة عالية ، لكنه عوضاً من أن يعترف بضعفه هذا ويسعى إلى ترقيعه فإنه يغالط نفسه وغيره بإلقاء هذا الضعف على الخوف من المسئولية واحتقار النفس ، وأن هناك من هو أولى وأتقى وأفضل . . . إلخ .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها ؛ فإن الناصح لله

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ٤٥٩) .

المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى ، وأن تكون كلمته هي العليا ، وأن يكون الدين كله لله ، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه ، فقد ناصح الله في عبوديته ، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله ، فهو يحب الإمامة في الدين ، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماماً يقتدي به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين .

فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً ، وفي قلوبهم مهيباً وإليهم حبيباً ، وأن يكون فيهم مطاعاً لكي يأتموا به ، ويقتفوا أثر الرسول على يده ، لم يضره ذلك ، بل يحمد عليه ، لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع ويعبد ويوحد ، فهو يحب ما يكون عوناً على ذلك موصلاً إليه ، ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ، ثم قال : ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه ، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة ، فإنما سألوه ما يعينون به المتقين على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين ، كما قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة : ٢٤] ، وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ظاهراً وباطناً التي لا تتم الإمامة إلا بها ، وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن

جل جلاله؛ ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته، وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف وهي المنازل العالية في الجنة ؛ لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد في الدين ؛ كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة .

وهذا بخلاف طلب الرياسة؛ فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض وتعبد القلوب لهُم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم ، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله وتعظيم من حقره الله واحتقار من أكرمه الله ، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد .

والرؤساء في عمى عن هذا ، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه ، ولا سيما إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده »[1] اهـ .

ومثل هؤلاء الذين يبررون ضعفهم وتنصلهم بمبرر شرعي هو اعتزال الفتن أو الخوف من المسؤولية ؛ مثلهم أولئك الذين يبررون خوفهم وترددهم بالحزم والتأني والخوف من الله سبحانه في أن يقدموا على أمر لم يتثبتوا فيه ، ولم يدرسوه الدراسة الشرعية المتأنية ، وهذا حق لا شك فيه ؛ فلا ينبغي القدوم على أمر حتى يتم التثبت منه ، وأنه الأرضى لله عز وجل ، لكن المشكلة والمغالطة هنا هي في استخدام هذه الشبهة الشرعية في تغطية الجبن والخور اللذين يسيطران على النفس، وعلامة ذلك أن هذا التثبت وهذه

(١) الروح (٢٥٣) .

الدراسة لا تنتهي ولا تحسم بل قد تستمر إلى الموت مع الحاجة الماسة للدين وأهله لحسم الأمر وانتهاء الدراسة ، فماذا يعني هذا ؟!

ولذلك جاء في دعاء الرسول ﷺ : « **اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد** »[١] .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في شرح هذا الدعاء العظيم : « وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح ، وما أُتي العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما ، فما أتي أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت له ، أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد موافاتها ، فإذا حصل الثبات أولاً ، والعزيمة ثانياً أفلح كل الفلاح ، والله ولي التوفيق »[٢] .

ويقول في موضع آخر :

« وأما الفرق بين الحزم والجبن ، فالحازم هو الذي قد جمع عليه همه وإرادته وعقله ووزن الأمور بعضها ببعض . فأعد لكل منها قرنه ، ولفظة الحزم تدل على القوة والإجماع ؛ ومنه حزمة الحطب ، فحازم الرأي هو الذي اجتمعت له شئون رأيه وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين ، فأحجم في موضع الإحجام رأياً وعقلاً لا جبناً ولا ضعفاً :

العاجز الرأي مضياع لفرصته   حتى إذا فات أمر عاتب القدرا »[٣]

وقال أيضاً : « والفرق بين المبادرة والعجلة ، أن المبادرة انتهاز الفرصة في

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٢٣ ، ١٢٥) ، والترمذي في الدعوات (٢٣) باب : سؤال الثبات في الأمر (ح٣٤٠٤) (٩/ ١١١) ، والنسائي (٣/ ٥٤) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١٥٤) .

(٣) الروح (٢٣٧) .

وقتها ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبها ، فهو لا يطلب الأمور في أدبارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته ، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة وقت كمال نضجها وإدراكها .

والعجلة طلب أخذ الشيء قبل وقته ؛ فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها .

فالمبادرة وسط بين خلقين مذمومين : أحدهما : التفريط والإضاعة ، والثاني : الاستعجال قبل الوقت . ولهذا كانت العجلة من الشيطان ؛ فإنه خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها ، وتجلب عليه أنواعاً من الشرور، وتمنعه أنواعاً من الخير، وهي قرين الندامة، فقلّ من استعجل إلا ندم، كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة »[1] اهـ.

ومما يتعلق بهذه الصورة أيضاً ولو من بعيد ما تُزيّنه النفس والشيطان لبعض الطيبين من تثبيطه عن الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة الانشغال بطلب العلم وتربية النفس ، فإن كان الدافع إلى هذه المغالطة هو الشبهة ، فإن الأمر هين، وعلاجه بأن يقال لمن هذا تفكيره : إن طلب العلم والتفقه في دين الله عز وجل أمر مطلوب ، والتساهل فيه لا يجوز بحال ؛ لأنه العاصم بإذن الله من الانحراف ، ولكن ألم تعلم أن اقتضاء العلم العمل، وأنه لا قيمة للعمل الذي لا يعمل به صاحبه ويدعو إليه ؟ وكذلك ألم تقرأ سورة العصر ، وما جاء فيها من صفات الناجين من الخسران ، وأنهم الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح والدعوة إلى الحق والصبر على الأذى فيه؟

(١) الروح (١٥٨)

أما إذا كان الدافع إلى هذا اللبس والتزيين هو الشهوة والكسل وإيثار الراحة والسلامة؛ فإن الأمر أشد وعلاجه أصعب؛ لأن هذا المغالط يعرف من نفسه الضعف والركون إلى الراحة، لكن بدلاً من أن يعترف بهذا الضعف ويسعى لرتقه وإصلاحه، فإنه يعزي نفسه ويظهر لغيره أن طلب العلم والانشغال بالنفس مقدم على دعوة الغير، وهذا حق أريد به باطل.
نسأل الله عز وجل أن يعيذنا من شرور أنفسنا وشر الشيطان وشركه.

٤ ـ المداهنة وضعف الولاء والبراء بحجة المداراة والتسامح:

إن الخلط بين المداراة والمداهنة والتساهل في الولاء والبراء بحجة التسامح؛ إن كل ذلك تنتج عنه آثار خطيرة على الدين وأهله، وذلك بما يفرزه هذا الخلط واللبس من المغالطة والتضليل على الأمة في أن ما يقع من الملبسين من مداهنة وموالاة لأعداء هذا الدين إنما هو مداراة ويقصد منه مصلحة الأمة، وكذلك إظهار محاسن هذا الدين، وما فيه من التسامح وحبه للصلح والسلام ونبذه للعنف والشدة، وغير هذا من المبررات والمغالطات التي يغطي بها الملبس عواره من المداهنة والموالاة لأعداء الله.

وإيضاحاً لهذا الأمر أنقل كلاماً لبعض أهل العلم يزيل اللبس في مسألة المداراة والمداهنة، ومسألة الولاء والتسامح.

قال البخاري رحمه الله تعالى في باب المداراة مع الناس: «ويذكر عن أبي الدرداء: إنا نكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم. وعن عائشة رضي الله عنها أنه استأذن على النبي ﷺ رجل، فقال: «**ائذنوا له فبئس ابن العشيرة**» أو «**بئس أخو العشيرة**»، فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله، قلت ما قلت، ثم ألنت له في القول، فقال: «**أي عائشة، إن**

شر الناس منزلة عند الله من تركه ـ أو ودعه ـ الناس اتقاء فحشه»[(١)] اهـ.

ويعلق ابن حجر رحمه الله تعالى على حديث عائشة بقوله: قال ابن بطال: «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة.

وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه. وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه. والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل لا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك»[(٢)] اهـ.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في الفرق بين المداراة والمداهنة وخطورة الخلط بينهما:

«وكذلك المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما: أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق، أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على الباطل ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق، وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرف عليها، ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء والمراهم ما يمنع فساده ويقطع مادته، ثم تابع عليها

(١) أخرجه البخاري ـ كتاب الأدب (٨٢) باب: المداراة مع الناس (ح٦١٣١) [فتح (١٠/ ٥٤٤)].
(٢) الفتح (١٠/ ٥٤٥).

بالمراهم التي تنبت اللحم ، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها ، ثم يشد عليها الرباط ، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت .

والمداهن قال لصاحبها : لا بأس عليك منها ، وهذه لا شيء فاسترها عن العيوب[1] بخرقة ، ثم أْله عنها ، فلا تزال مادتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها .

وهذا المثل أيضاً مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة فتأمله ، فإذا كانت هذه حال قرحة بقدر الحمصة ، فكيف بسقم هاج من نفس أمارة بالسوء هي معدن الشهوات ومأوى كل فسق ، وقد قارنها شيطان في غاية المكر والخداع يعدها ويمنيها ويسحرها بجميع أنواع السحر حتى يخيل إليها النافع ضاراً والضار نافعاً ، والحسن قبيحاً والقبيح جميلاً ، وهذا لعمر الله من أعظم أنواع السحر .

ولهذا يقول سبحانه : ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩] ، والذي نسبوا إليه الرسل من كونهم مسحورين هو الذي أصابهم بعينه ، وهم أهله لا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كما أنهم نسبوهم إلى الضلال والفساد في الأرض والجنون والسفه ، وما استعاذت الأنبياء والرسل وأمراء الأمم من شر النفس الأمارة وصاحبها وقرينها الشيطان إلا لأنهما أصل كل شر وقاعدته ومنبعه ، وهما متساعدان عليه متعاونان»[2] اهـ .

من هذا البيان الشافي تبين حقيقة المداراة والمداهنة ، وأنهما ضدان لا يجتمعان ؛ إذ إن المداراة صفة مدح ، وهي لأهل الإيمان ، بينما المداهنة صفة ذم ، وهي لأهل النفاق .

---

(١) (العيوب) كذا في الأصل ، ولعل الصواب هو : (العيون) .

(٢) الروح ص٢٣١ .

فهل بقي بعد هذا البيان مجال للالتباس في هذا الأمر ؟ اللَّهم لا إلا عند مغالط مكابر يريد أن يستر نفاقه وضعفه بلَبوس الشرع ،والشرع من ذلك بريء ، ويعلم المغالط نفسه أنه ملبس ومكابر وليس على حق في استدلاله . ثم إن مكمن الخطر في هذا الخلط ليس في مداهنة الفساق وأهل المعاصي من المسلمين فحسب ، وإنما الأخطر من ذلك هو مداهنة الكفار بمشاربهم المختلفة تحت غطاء المداراة ومصلحة الأمة حتى اهتز جانب الولاء والبراء ، والذي هو الركن الركين في عقيدة التوحيد ، وبدأ حاجز البغض للكفر وأهله يضعف ، بل انهدم عند البعض ؛ والسبب في ذلك الجهل بحقيقة المداراة والمداهنة والمغالطة فيهما عن علم وهوىً.

والحديث عن هذا الموضوع يجرنا إلى موضوع التسامح الديني واستخدامه مبرراً للتقريب بين الأديان ، ومداهنة الكفار والسكوت عن باطلهم ، أو تحسين مناهجهم والتحالف معهم . وبخاصة مع الكفار من أهل الكتاب بحجة تناصر أهل الأديان السماوية في محاربة الإلحاد ، ومعلوم ما في هذا التلبيس والمغالطة من الخطر العظيم الذي يهدد العقيدة فضلاً عن الأخلاق والقيم .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى محذراً من هذا التميع والتلبيس :

«وسذاجة أية سذاجة ، وغفلة أية غفلة أن نظن أن لنا وأهل الكتاب طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين أمام الكفار والملحدين ، فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة مع المسلمين .

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان ، وفي كل زمان حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في

الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد بوصفنا جميعاً أهل دين ، ناسين تعاليم القرآن كله ، وناسين تعليم التاريخ كله ، فأهل الكتاب هؤلاء هُم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين : ﴿ هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٥١].

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً وردءًا ، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام . وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شردوا المسلمين في فلسطين، وأحلّوا اليهود محلهم متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية ، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يُشَرِّدون المسلمين في كل مكان . . . في الحبشة والصومال وأريترية ، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافية والصين والتركستان والهند ، وفي كل مكان .

ثم يظهر بيننا من يظن أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر ندفع به المادية الإلحادية عن الدين . إن هؤلاء لا يقرأون القرآن، وإذا قَرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام ، فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن . . إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم ، كما وقفت له بالأمس الموقف الذي لا يمكن تبديله ؛ لأنه الموقف الطبيعي الوحيد .

إن نداء الله موجه إلى كل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة، موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة ﴿ الَّذِينَ

آمَنُوا﴾ ، لقد نزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته ، ولينشئ تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ، ولا يقف تحت رايتها ، المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية ، فهذه صفة المسلم دائماً ، ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا إلى الله ورسوله والذين آمنوا . . الوعي والمفاصلة اللذان لابُدَّ منهما للمسلم في كل أرض ، وفي كل جيل ، فهذا مفرق الطريق ، وما يمكن أن يتميع حس المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام ، وبينه وبين كل من لا يرفع راية الإسلام ، ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملاً ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف أول ما تستهدف إقامة نظام واقعي في الأرض فريد ، يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى . .

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطئون في فهم معنى الأديان ، كما يخطئون في فهم معنى التسامح ، فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله ، والتسامح يكون في المعاملات الشخصية ، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي .

إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام ، وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ، ولا يقبل دونه بديلاً ، ولا يقبل فيه تعديلاً ـ ولو طفيفاً ـ هذا اليقين الذي يُنشئه القرآن الكريم وهو يقرر ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ [آل عمران: ٨٥] ، ﴿**وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ**

مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾ [المائدة: ٥١].

وفي القرآن كلمة الفصل.. ولا على المسلم من تميّع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين»[1] اهـ.

وقبل إنهاء الحديث عن هذه الصورة من صور التلبيس تجدر الإشارة إلى جانب آخر من جوانب الخلط والتضليل له علاقة شديدة بصورتنا هذه؛ ألا وهو المغالطة باسم التسامح والعفو وحب السلام، واستخدام هذه الصفات في تمرير الذل والمهانة والسلام الدائم مع الكفار، والتعايش السلمي وترك الجهاد.

والعجيب الغريب، والمضحك المبكي في هذا الأمر أن الذين يبحثون في الشرع عما يغطون به خنوعهم واستسلامهم هم الذين أعرضوا عن الشرع والحكم به والتحاكم إليه، ونبذوه وراءهم ظهرياً فما حاجتهم إلى الشرع هذه المرة لولا التلبيس والتضليل؛ قال الله سبحانه: ﴿**وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

وإن العجب ليبلغ ذروته عند سماع من يقول: إن السلام والتعايش السلمي مع الكفار ينطلق من خلق العفو والسماح وحب السلام!!

إنه لعجيب أن يبرر المرء ذلته ومهانته بمبرر العفو والتسامح.

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن: أحمد فائز ٦٢ - ٦٤.

إن العفو والتسامح يكون في الحقوق الخاصة عند القدرة على الانتقام ، أما أن يكون على حساب دين الأمة وعقيدتها وقضاياها فلا يكون ذلك أبداً. ثم إن الاعتراف بالعجز والمهانة وبذل الجهد في التخلص منهما خير من تغطيتهما بغطاء العفو والتسامح ، ولكنها المغالطة والتلبيس .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفرق بين العفو والذل أن العفو إسقاط حقك جوداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك على الانتقام ، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق ، بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس؛ فهذا مذموم غير محمود ، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه ؛ قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٩] .

فمدحهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليهم؛ ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح ، فقال : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠] »[١] .

٥ـ الانفتاح على الدنيا والركون إليها بحجة التعفف عن الناس وإنفاق المال في وجوه الخير :

وفي هذه الصورة مدخل خفي للشيطان يتسرب منه إلى نفس الإنسان، ويبلغ اللبس في هذا الأمر من الخفاء بحيث لا يتفطن إليه إلا المجاهد لنفسه، المفتش لقلبه الحذر الخائف من الدنيا وغرورها .

---

(١) الروح (٢٤٢).

ومكمن اللبس هنا في أن التعفف عن الناس أمر مطلوب ويحثّ عليه الشرع في أكثر من آية وحديث، وكذلك الإنفاق في سبيل الله وبذل المال في أوجه البر المختلفة، كل هذا حق لا ريب فيه ، لكن الشيطان لا يألو جهداً في إغواء بني آدم ، وجرهم إلى حزبه خطوة خطوة.

ولهذا فهو يبدأ مع الإنسان ليجره إلى الدنيا وغرورها من باب التعفف عن الناس ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف. . . إلخ، ثم بعد ذلك وبعد انشغاله بالمال وطرق جمعه ومشاكله وشبهاته نبحث عن صاحبنا الذي كنا نراه في لقاءات الخير والدعوة إلى الله سبحانه فلا نراه إلا قليلاً .

وهكذا حتى ينفتح على الدنيا ويركن إليها ، ويضع له الشيطان في كل واد من أوديتها شغلاً وهماً ، فيتشعب فيها الفكر ، ويتشتت فيها الذهن ، ويتحول المال المكتسب إلى استثمارات جديدة وتوسع في المباحات وإسراف في المآكل والمراكب والمساكن، وقد كان الهدف في البداية هو التعفف والإسهام في وجوه الخير والبر .

والغريب في الأمر أن هذا المسكين عندما يُذكر بالآيات التي تحذر من الدنيا وسرعة زوالها وخطر الركون إليها، فإنه بدلاً من أن يشعر بالخطر ويسعى لتدارك الأمر؛ يصر على المغالطة واللبس ، ويقول: إن التعفف عن الناس مطلوب ولابد للداعية أن يكون له مصدر يستغني به عن الناس وينفع به دعوته ويساهم به في الخير، وهو يعلم أن قصده ليس هذا ، وإنما أراد تغطية حبه للدنيا والركون إليها بهذا الغطاء الشرعي الذي لم يراع الضوابط الشرعية فيه.

وقد يقول قائل: إذن ما العمل في مثل هذه الحالة وبخاصة لمن أراد صادقاً أن يتعفف عن الناس وأن ينفع دعوته بالمال؟

والجواب لا أملكه؛ لأنها معادلة صعبة يختلف حلها من شخص لآخر؛ ويكفي في حلها أن يعلم الله سبحانه من أنفسنا أننا نريد التعفف والبذل بصدق في سبيل الله سبحانه فعندئذ يعصمنا برحمته من فتنة الدنيا وزخرفها، ويخرجها من قلوبنا لتبقى في أيدينا.

وكل إنسان على نفسه بصيرة، وهو أدرى بنيته وقصده، إن كان حقاً يريد التعفف ويخاف من الركون إلى الدنيا وأخطارها، أو كان مغالطاً كاذباً في ادعائه هذا. وإنما يظهر ذلك لتغطية حبه للدنيا وزينتها ومتعها واللهث وراء جمعها. اللّهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

وأختم الحديث حول هذه الصورة ببعض الآيات والأحاديث التي تحذر من الركون إلى الدنيا وزينتها.

قال الله تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ** ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾ [فاطر: ٥].

وقال ﷺ: « **فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما**

تنافسوها وتلهيكم كما ألهتهم»[(١)] .

وهذا التحذير قاله الرسول ﷺ للصحابة رضي الله عنهم ، وهم أزهد الناس ، وفي زمان يغلب عليه الطهر والخير والكسب الحلال ، فماذا يقال لنا يا من نعيش في هذا العصر الذي يغلب عليه الفساد والكسب الحرام والشبهات الكثيرة المعقدة ؟!

وأخيراً أرجو ألا يفهم من هذا الكلام ترك الدنيا لأهل الفساد ودعاة الشر يعبثون فيها ويسخرونها لفسادهم وأهوائهم ؛ كلا ، فلابد لدعاة الخير والإصلاح أن يتعاونوا في تنمية المشاريع الخيرية والاستثمارات الخالية من الشبهات ، ويوجهونها لدعم الخير وأهله ، إن هذا أمر لا يجادل فيه أحد من المصلحين ، ولا يتعارض هذا الفهم مع ما سبق من التحذير من الدنيا ؛ لأن الكلام الذي قيل هناك كان متوجهاً إلى من يعمل في هذه الدنيا لنفسه ، ويغري نفسه ويغالطها بالبذل في سبيل الله عز وجل والجهاد في سبيله سبحانه ، والأمر ليس كما يقول وقريب من هذا الصنف من يذم الدنيا لا زهداً فيها ورغبة في الآخرة ، وإنما لأنه لم يحصل عليها .

٦- الاحتجاج بيسر الشريعة وضغط الواقع لركوب الحيل المحرمة والأخذ بالرخص الشاذة للمذاهب :

إن من رحمة الله عز وجل علينا أن هدانا لهذا الدين القويم ؛ دين الإسلام الذي لا يقبل الله سبحانه من أحد ديناً غيره ، وجاءت شريعته الكاملة المطهرة لتحقق مصالح العباد وتحفظها ، وتدرأ عنهم المفاسد وتحميهم منها في الدنيا

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق (٧) ، باب : ما يحذر من زهرة الدنيا . . . (٦٤٢٥) ، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦١) .

والآخرة .

ولقد قامت هذه الشريعة الربانية على رفع الحرج والمشقة ، وعلى اليسر في أمورها كلها ، ولو تتبعنا أحكام هذه الشريعة لرأيناها قائمة على ذلك ، ولا مكان هنا للتفصيل ؛ إذ ليس الغرض الحديث عن القواعد الشرعية ومقاصد الشرع ؛ فهذا تفصيله يوجد في مظانه من كتب أهل العلم ؛ كالقواعد لابن رجب ، والموافقات للشاطبي وغيرهما .

وإنما المراد من إيراد هذه المقدمة في هذه الصورة الإشارة إلى أن القول بيسر الشريعة وسماحتها حق لا شك فيه ، ولكن الاحتجاج بهذا التيسير على التحلل من أحكام الشريعة والتحايل عليها واتباع الهوى في الأخذ بالرخص والغرائب الفقهية الشاذة ، التي لا تستند إلى دليل صحيح ؛ كل هذا باطل وتلبيس وتضليل يرفعه أهل الأهواء الذين يتبعون الشهوات ، ويلوحون به لتمرير فسادهم وشهواتهم ؛ يريدون بذلك تحلل المجتمع المسلم من أحكام الشريعة باسم التيسير وترك التشديد ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ [النساء: ٢٧] .

ومن رحمة الله عز وجل أنه لم يكل مصالح العباد إلى أهواء البشر وشهواتهم ؛ بل وضع سبحانه شريعة كاملة مبرأة من الجهل والهوى ، ومبرأة من النقص والقصور ؛ لأنها منه سبحانه اللطيف الخبير الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، ولو أن تقرير مصالح العباد كان في أيدي البشر لحصل من ذلك شر وفساد كبير ؛ وذلك لما عليه البشر من الجهل والنقص والهوى والشهوة ، وهذا مشاهد في الواقع ؛ فالمجتمعات التي لا يحكمها شرع الله سبحانه وإنما تحكمها أنظمة البشر وقوانينهم نرى كم فيها

من الفساد والشر والظلم والاستعباد والضنك والضيق الذي تعج به الأرض والسماوات ، وتبرأ منه الوحوش في البريات ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

يقول الشاطبي رحمه الله تعالى :

« المقصد الشرعي في وضع الشريعة : إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً . والدليل على ذلك أمور :

أحدها : النص الصريح الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله والدخول تحت أمره ونهيه؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ [طه: ١٣٢]، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

ثم شرح هذه العبادة في تفاصيل السورة كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ . . إلى قوله: وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، وهكذا إلى تمام ما ذكر في السورة من الأحكام .

وقوله: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات الآمرة بالعبادة على الإطلاق وبتفاصيلها على العموم ، فذلك كله

راجع إلى الرجوع إلى الله في جميع الأحوال والانقياد إلى أحكامه على كل حال وهو معنى التعبد لله .

والثاني : ما دل على مخالفة هذا القصد من النهي أولاً عن مخالفة أمر الله، وذم من أعرض عن الله وإيعادهم بالعذاب العاجل من العقوبات الخاصة بكل صنف من أصناف المخالفات والعذاب الآجل في الدار الآخرة، وأصل ذلك اتباع الهوى والانقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة والشهوات الزائلة؛ فقد جعل الله اتباع الهوى مضاداً للحق وعده قسيماً له كما في قوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقال في قسيمه : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] .

وقال : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤].

فقد حصر الأمر في شيئين : الوحي ؛ وهو الشريعة ، والهوى ؛ فلا ثالث لهما ، وإذا كان كذلك فهما متضادان ، وحين تعين الحق في الوحي توجه للهوى ضده، فاتباع الهوى مضاد للحق .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣]

وقال : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١]

وقال : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾

[محمد : ١٦]

وقال : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد : ١٤] .

وتأمل، فكل موضع ذكر الله تعالى فيه الهوى فإنما جاء به في معرض الذم له ولمتبعيه . وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس أنه قال : ما ذكر الله الهوى في كتابه إلا ذمه ، فهذا كله واضح في أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى والدخول تحت التعبد للمولى .

والثالث : ما علم بالتجارب والمعتقدات من أن المصالح الدينية والدنيوية لا تحصل مع الاسترسال في اتباع الهوى والمشي مع الأغراض لما يلزم في ذلك من التهارج والتقاتل والهلاك الذي هو مضاد لتلك المصالح .

وهذا معروف عندهم بالتجارب والعادات المستمرة ؛ ولذلك اتفقوا على ذم من اتبع شهواته وسار حيث سارت به حتى إن من تقدم ممن لا شريعة له يتبعها، أو كان له شريعة درست كانوا يقتضون المصالح الدنيوية بكف كل من اتبع هواه في النظر العقلي ، وما اتفقوا عليه إلا لصحته عندهم واضطراد العوائد باقتضائه ما أرادوا من إقامة صلاح الدنيا وهي التي يسمونها السياسة المدنية .

فهذا أمر قد توارد النقل والعقل على صحته في الجملة وهو أظهر من أن يستدل عليه .

وإذا كان كذلك لم يصح لأحد أن يدعي على الشريعة أنها وضعت على

مقتضى تشهي العباد وأغراضهم ؛ إذ لا تخلو أحكام الشرع من الخمسة : أما الوجوب والتحريم فظاهر مصادمتها لمقتضى الاسترسال الداخل تحت الاختيار، إذ يقال له: افعل كذا كان لك فيه غرض أم لا ، ولا تفعل كذا كان لك فيه غرض أم لا . فإن اتفق للمكلف فيه غرض موافق وهوى باعث على مقتضى الأمر أو النهي فبالعرض لا بالأصل .

وأما سائر الأقسام وإن كان ظاهرها الدخول تحت خيرة المكلف فإنما دخلت بإدخال الشارع لها تحت اختياره ، فهي راجعة إلى إخراجها عن اختياره . ألا ترى أن المباح قد يكون له فيه اختيار وغرض ، وقد لا يكون ، فعلى تقدير أن ليس له فيه اختيار بل في رفعه مثلاً كيف يقال إنه داخل تحت اختياره ؛ فكم من صاحب هوى يود لو كان المباح الفلاني ممنوعاً ؛ حتى إنه لو وكل إليه مثلاً تشريعه لحرمه كما يطرأ للمتنازعين في حق . وعلى تقدير أن اختياره وهواه في تحصيله يود لو كان مطلوب الحصول، حتى لو فرض جعل ذلك إليه لأوجبه .

ثم قد يصير الأمر في ذلك المباح بعينه على العكس، فيحب الآن ما يكره غداً وبالعكس ، فلا يستتب في قضية حكم على الإطلاق ، وعند ذلك تتوارد الأغراض على الشيء الواحد فينخرم النظام بسبب فرض اتباع الأغراض والهوى ؛ فسبحان الذي أنزل في كتابه ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ** ﴾ [المؤمنون: ٧١] اهـ»[1] .

إن الذين يتشدقون بالتيسير ويغالطون به بغير علم ولا هدى من الله سبحانه لو كان الأمر بأيديهم لعطلوا بأهوائهم كثيراً من أحكام الشريعة التي

(١) الموافقات :(٢/١١٦).

ينال المكلف فيها المشقة والضيق ، مع أن مآلها اليسر والسعادة في الدارين؛ فحمداً لله عز وجل أنه لم يكل أمر تقرير المشقة والحرج والعسر واليسر إلى أهواء البشر ، إذن لفسدت الأرض ومن عليها ، ولعم الهلاك والظلم والشر كما هو الحال فيمن لا يحكمهم شرع الله.

لكن الله سبحانه الرحيم بعباده هو الذي يعلم ما يُصلح شئونهم ، وييسر أمورهم ، ويعلم ما يشق عليهم وما لا يشق . إنه حكيم عليم ، ولنضرب على ذلك مثلاً ، قال تعالى : ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج : ٧٨] .

فمن دقائق التفسير في هذه الآية ما ذكره الشوكاني رحمه الله تعالى في فتح القدير تعليقاً على هذه الآية ؛ إذ يقول : « ثم لما كان في التكليف مشقة على النفس في بعض الحالات قال : ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ أي ضيق وشدة » اهـ .

من هذا التعليق ندرك أن الجهاد وإن كان فيه تكليف ومشقة على النفس لكن الله سبحانه شرعه تيسيراً للعباد ورفعاً للحرج عنهم ، نعم في الجهاد مشقة وضيق على المجاهدين ، لكن بالقياس إلى غاية الجهاد وهي أن يكون الدين كله لله سبحانه ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إذا قيست هذه الغاية وهذه التيسيرات ورفع المشقات الكبيرة والحرج الشديد عنهم والتي لا تتحقق إلا بالجهاد ؛ فإن الحرج القليل لا يساوي شيئاً ما دام أن الحرج العظيم والعنت الشديد الذي تعانيه البشرية في ظل عبودية البشر سيزول بالجهاد في سبيل الله ؛ الجهاد الذي لا يكون الدين كله لله إلا

به ، فماذا تساوي المعاناة عندئذ ، وماذا تساوي التضحيات ؟ إنها لا تساوي شيئاً إذا قيست بإسعاد الملايين من البشر في ظل الإسلام ، وبالفوز برضوان الله سبحانه في جنات النعيم .

إذن من خلال المثال السابق يتبين لنا كيف أن الله سبحانه شرع الجهاد لرفع الحرج ، بينما أهل الأهواء والشهوات يرون فيه حرجاً ومشقة ، ولا يذهبون إلى ما وراء هذا الحرج الظاهري .

والأمثلة في ذلك ـ غير الجهاد في سبيل الله ـ كثيرة ، وكلها تدل على أن الوسيلة التي يحكم بها على أن في هذا الأمر مشقة أو تيسيراً هي ما جاء عن الله سبحانه أو رسوله ﷺ ، ولا دخل لعقول البشر وأهوائهم في تحديد ذلك إلا ما كان منضبطاً في إطار مقاصد الشرع وقواعده .

يقول الشاطبي رحمه الله تعالى :

« وذلك أن مخالفة ما تهوى الأنفس شاق عليها ، وصعب خروجها عنه ، ولذلك بلغ أهل الهوى في مساعدته مبالغ لا يبلغها غيرهم ، وكفى شاهداً على ذلك حال المحبين ، وحال من بعث إليهم رسول الله ﷺ من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم ممن صمم على ما هو عليه حتى رضوا بإهلاك النفوس والأموال ، ولم يرضوا بمخالفة الهوى ، حتى قال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] ، وقال : ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣] ، وقال : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ [محمد: ١٤] وما أشبه ذلك .

ولكن الشارع إنما قصد بوضع الشريعة إخراج المكلف عن اتباع هواه حتى يكون عبداً لله . فإذاً مخالفة الهوى ليست من المشقات المعتبرة في التكليف ، وإن كانت شاقة في مجاري العادات إذ لو كانت معتبرة حتى يشرع التخفيف لأجل ذلك لكان ذلك نقضاً لما وضعت الشريعة له ، وذلك باطل ، فما أدى إليه مثله . وبيان هذا المعنى مذكور بعد إن شاء الله»[(١)] .

بعد هذه النقول المتفرقة من كتاب الموافقات للشاطبي نعود إلى أولئك الذين يحتجون بيسر الشريعة وترك التشديد لتبرير أخذهم بالرخص من كل مذهب ؛ فنسأل هؤلاء القوم : ماذا تقصدون بالتيسير والتشديد؟

فإن كانوا يقصدون التحلل من كل ما تقترن به المشقة من الأحكام ولو جاء الدليل على مشروعيتها، فإن هذا هو التلبيس والتضليل ؛ حيث لم يكن رائدهم في ذلك هو الدليل ، وإنما هو الهوى والشهوة، لكنهم لا يريدون الاعتراف بذلك ، وإنما يغطون أهواءهم وشهواتهم بشبهة التيسير ورفع الحرج، أو أن في المسألة قولاً ما لأحد العلماء .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

« وروى البيهقي عن الحاكم عن حسان بن محمد عن ابن سريج عن القاضي إسماعيل بن إسحاق قال : « دخلت يوماً على المعتضد فدفع إلي كتاباً فقرأته فإذا فيه الرخص من زلل العلماء ـ قد جمعها له بعض الناس ـ فقلت : يا أمير المؤمنين، إنما جمع هذا زنديق ، فقال : كيف ؟ قلت : إن من أباح المتعة لم يبح الغناء ، ومن أباح الغناء لم يبح إضافته إلى آلات اللهو ، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه، فأمر بتحريق ذلك

(١) الموافقات (٢/ ١٠٣).

الكتاب»[١].

ويرد الشاطبي رحمه الله تعالى في الموافقات على من يحتج بوجود الخلاف في مسألة ما على إباحتها دون النظر إلى الدليل فيقول :

« (فصل) وقد زاد هذا الأمر على قدر الكفاية حتى صار الخلاف في المسائل معدوداً في حجج الإباحة . ووقع فيما تقدم وتأخر في الزمان الاعتماد في جواز الفعل على كونه مختلفاً فيه بين أهل العلم، لا بمعنى مراعاة الخلاف فإن له نظراً آخر ، بل في غير ذلك . فربما وقع الإفتاء في المسألة بالمنع ، فقال : لم تمنع والمسألة مختلف فيها ؟ فيجعل الخلاف حجة في الجواز لمجرد كونها مختلفاً فيها لا لدليل يدل على صحة مذهب الجواز ولا لتقليد من هو أولى بالتقليد من القائل بالمنع. وهو عين الخطأ على الشريعة حيث جعل ما ليس بمعتمد معتمداً وما ليس بحجة حجة .

حكى الخطابي في مسألة البتع[٢] المذكور في الحديث عن بعض الناس أنه قال : إن الناس لما اختلفوا في الأشربة وأجمعوا على تحريم خمر العنب، واختلفوا فيما سواه حرمنا ما اجتمعوا على تحريمه وأبحنا ما سواه .

قال : وهذا خطأ فاحش ، وقد أمر الله تعالى المتنازعين أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول . قال : ولو لزم ما ذهب إليه هذا القائل للزم مثله في الربا والصرف ونكاح المتعة ؛ لأن الأمة قد اختلفت فيها . قال : وليس الاختلاف حجة ، وبيان السنة حجة على المختلفين من الأولين

(١) البداية والنهاية (١١/ ٨٧) .

(٢) بكسر فسكون: نبيذ يتخذ من عسل كأنه الخمر صلابة، وفي الحديث : سئل عن البتع ، فقال: « **كل مسكر حرام**».

والآخرين . هذا مختصر ما قال .

والقائل بهذا راجع إلى أن يتبع ما يشتهيه ويجعل القول الموافق حجة له ويدرأ بها عن نفسه ؛ فهو قد أخذ القول وسيلة إلى اتباع هواه لا وسيلة إلى تقواه، وذلك أبعد له من أن يكون ممتثلاً لأمر الشارع وأقرب إلى أن يكون ممن اتخذ إلهه هواه .

ومن هذا أيضاً: جعل بعض الناس الاختلاف رحمة للتوسع في الأقوال وعدم التحجير على رأي واحد، ويحتج في ذلك بما روي عن القاسم بن محمد وعمر بن عبد العزيز وغيرهما مما تقدم ذكره[1] ، ويقول : إن الاختلاف رحمة ، وربما صرح صاحب هذا القول بالتشنيع على من لازم القول المشهور أو الموافق للدليل أو الراجح عند أهل النظر والذي عليه أكثر المسلمين ، ويقول له: لقد حجرت واسعاً ، وملت بالناس إلى الحرج ، وما في الدين من حرج ، وما أشبه ذلك ، وهذا القول خطأ كله وجهل بما وضعت له الشريعة . والتوفيق بيد الله » اهـ[2] .

وقبل الانتقال من هذه الصورة من صور التلبيس تجدر الإشارة إلى أمر مهم يتعلق بها، ألا وهو الاحتجاج بضغط الواقع وتغيره للتحلل من بعض الأحكام الشرعية؛ مرة بتأويل الأدلة وتحريفها عن مواضعها ، ومرة بحجة الضرورات ، ومرة بالاستناد على قاعدة: تغير الفتوى بتغير الحال والزمان والمكان والعوائد . وهذا كله من التلبيس والتضليل للتفلت من الشرع المطهر خطوة خطوة .

---

(١) راجع الموافقات (٤/ ٦٦).
(٢) الموافقات (٤/ ٧٨، ٧٩) .

ولو أن الذين يطرحون قاعدة الضرورات وتغيّر الفتوى كانوا من العلماء الأتقياء المشهود لهم بالصلاح ، والذين يعرفون ضوابط الضرورة وحدودها ، ويعرفون معنى تغير الفتوى بتغير الأحوال ، لكان لهذا الطرح وجه واعتبار . وسواء أخطأ المجتهد في ذلك أم أصاب ؛ لأن قاعدة الضرورات وقاعدة تغير الفتوى بتغير الحال قاعدتان معتبرتان شرعاً بضوابطهما الشرعية .

وإن المتناول لهذه القواعد مع ما يستجد من مستجدات في الواقع إذا كان من أهل العلم وكان متجرداً لله عز وجل ، وطالباً للحق فإنه يوفق في الغالب إلى الحق والصواب ، ولو أخطأ فهو مأجور إن شاء الله تعالى على اجتهاده .

أما أن يأتي ملبس مضلل لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه ، بلا علم ولا تقوى من الله سبحانه ، ويريد أن يحتج بهذه القواعد للتحلل من الشرع ومسايرة الواقع ، فهذا مما يرفضه الشرع ويأباه ؛ لأن نهايته السير بأحكام الله عز وجل حسب أهواء الناس وشهواتهم ، وما ألفوه في واقعهم .

وما جاء هذا الدين إلا ليخرج الناس من ظلمات الشرك والأخلاق السيئة وما ألفوه في بيئاتهم وتوارثوه عن آبائهم ، إلى نور التوحيد والأخلاق الكريمة ، وهذا يحتاج بلا شك إلى جهد وصبر على مواجهة أعراف الناس وتقاليدهم وعدم اليأس من تغييرها ، ولو تُرك الناس وما ألفوه واعتادوه من أعراف جاهلية، وما استجد في مجتمعاتهم من أخلاق هابطة لكن في ذلك من العنت والشقاء في حياتهم ما لا يعلمه إلا الله سبحانه

هذا في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في معنى : ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ من قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧] :

« ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملبساً غامضاً لا يقفون منه على تصور واضح ، فأما الهلاك فيتمثل ابتداءً في قتلهم لأولادهم ؛ ويتمثل أخيراً في فساد الحياة الاجتماعية بجملتها وصيرورة الناس ماشية ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاءوا ، وفق أهوائهم ومصالحهم! حتى ليتحكمون في أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك ، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفراً من الخضوع ؛ لأن التصورات المتلبسة بالدين والعقيدة - وما هي منها - بكل ثقلها وعمقها ، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها ، وتنشئ ثقلاً ساحقاً لا تقف له جماهير الناس ، ما لم تعتصم منه بدين واضح ، وما لم ترجع في أمرها كله إلى ميزان ثابت .

وهذه التصورات المبهمة الغامضة، وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها ، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق . . لا ينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة ، فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة . . هذه العادات أو التقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفراً ، هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضاً ، وتكلفهم أحياناً ما لا يطيقون من النفقة، وتأكل حياتهم واهتماماتهم ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم.

ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها . . أزياء الصباح وأزياء بعد الظهر ، وأزياء المساء . . والأزياء القصيرة ، والأزياء الضيقة ، والأزياء المضحكة ! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف . . . إلى آخر هذا الاسترقاق المذلّ ؛ من الذي يصنعه ، ومن الذي يقف وراءه ؟ تقف وراءه بيوت الأزياء ، وتقف وراءه شركات الإنتاج ، ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها!

ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها ! ، ولكنهم لا يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف ، إنما يقفون بالتصورات والقيم التي ينشئونها ، ويؤصلونها بنظريات وثقافات، ويطلقونها تضغط على الناس في صورة (عرف اجتماعي) ، فهم يعلمون أن النظريات وحدها لا تكفي ما لم تتمثل في أنظمة حكم ، وأوضاع مجتمع ، وفي عرف اجتماعي غامض لا يناقشه الناس ؛ لأنه ملتبس عليهم ، متشابكة جذوره وفروعه ! إنه فعل الشياطين ؛ شياطين الإنس والجن ، وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها ، وتتحد جذورها ومنابعها ، وتتماثل قوائمها وقواعدها .

وإننا لنبخس القرآن قدره ، إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت ! إنما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة ، ومواجهة للواقع المنحرف دائماً ورده إلى صراط الله المستقيم »[١] .

٧- التشهير بالدعاة والمصلحين واغتيابهم بحجة النصيحة والتحذير من الأخطاء :

عن أبي برزة الأسلمي والبراء بن عازب رضي الله عنهما قالا : قال

(١) الظلال (٣/ ١٢١٩).

رسول الله ﷺ : « **يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ! لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته** »[1] .

إن التنبيه على الأخطاء والمخالفات الشرعية أمر مطلوب إذا روعي في ذلك التجرد والانضباط بالشرع في معالجة الأخطاء .

وليس المقصود في هذه الصورة الحديث عن الغيبة وحرمتها ودورها في إثارة الشحناء والبغضاء ؛ فهذا كله معروف وموجود في مظانه من كتب أهل العلم ، وإنما المقصود من هذه الصورة هو الحذر من تزيين الشيطان وتلبيسه في إظهار الغيبة أو النميمة أو التشهير في قالب النصيحة والتحذير من الأخطاء والغيرة على دين الله وتعظيم حرمات الله عز وجل ؛ إن هذا هو الخطير في الأمر ؛ إذ لو أن الواقع في الغيبة أو النميمة أقر بذنبه واعترف بتقصيره واستغفر لذنبه لكان الأمر أهون ، أما أن يكابر ويلبس على نفسه وعلى الناس بأن قصده النصيحة للأمة وتحذيرها من الأخطاء وهو يعلم من نفسه غير ذلك من التشفي أو الحسد ، أو التهوين من شأن من وقع منه الخطأ وتنفير الناس عنه ؛ فكل ذلك من المغالطة وتلبيس الشيطان وتزيينه .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفرق بين النصيحة والغيبة ، أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتّان أو غاش أو مفسد ، فتذكر ما فيه إذا استشارك في

---

(١) أخرجه أبو داود بنحوه - كتاب الأدب ٤٠ ، باب : في الغيبة (ح٤٨٨٠) (٥/ ١٩٤) ، وأحمد في المسند واللفظ له : (٤/ ٤٢٠) ، وقال الألباني : حسن صحيح [صحيح أبي داود (٤٠٨٣) (٣/ ٩٢٣)] .

صحبته ومعاملته والتعلق به ، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي جهم ، فقال : «**أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**»[(١)] ، وقال بعض أصحابه لمن سافر معه : إذا هبطت عن بلاد قومه فاحذره.

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهي قربة إلى الله من جملة الحسنات ، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه لتضع منزلته من قلوب الناس فهي الداء العضال ونار الحسنات التي تأكلها كما تأكل النار الحطب »[(٢)] .

وقال أيضاً :

« والفرق بين النصيحة والتأنيب ، أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه ؛ فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه ، فيتلطف في بذلها غاية التلطف ، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق للمريض المشبع مرضاً ، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته ، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن ، فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه وشتمه في

---

(١) أخرجه مسلم ـ كتاب الطلاق (٦) باب : المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها (١٤٨٠) : (٢/ ١١١٤)، ومالك في الموطأ ـ كتاب الطلاق(٢٣) ، باب : ما جاء في نفقة المطلقة (٦٧) (٢/ ٥٨٠).

(٢) الروح (٢٤٠).

صورة النصح ، فهو يقول له : يا فاعل كذا وكذا ، يا مستحقاً الذم والإهانة ، في صورة ناصح مشفق ، وعلامة هذا أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له ولم يقل له شيئاً ، ويطلب له وجوه المعاذير ؛ فإن غلب قال : ومن ضمنت له العصمة ، والإنسان عرضة للخطأ ، ومحاسنه أكثر من مساوئه ، والله غفور رحيم ، ونحو ذلك .

فيا عجباً ! كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه ، وكيف كان حظ ذلك منك التأنيب في صورة النصح ، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير .

ومن الفروق بين الناصح والمؤنب ، أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته ، ويقول : قد وقع أجري على الله قبلت أو لم تقبل ، ويدعو لك بظهر الغيب ، ولا يذيع عيوبك ولا يبينها في الناس ، والمؤنب ضد ذلك »[(١)] اهـ .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى ؛ تارة في قالب ديانة وصلاح ؛ فيقول : ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير ، ولا أحب الغيبة ولا الكذب ، وإنما أخبركم بأحواله ، ويقول : والله إنه مسكين ، أو رجل جيد ، ولكن فيه كيت وكيت ، وربما يقول : دعونا منه ، الله يغفر لنا وله ، وإنما قصده استنقاصه وهضم لجنابه .

ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة ؛ يخادعون الله بذلك كما

---

(١) الروح (٢٥٨) .

يخادعون مخلوقاً ، وقد رأينا فيهم ألواناً كثيرة من هذا وأشباهه . . . إلى أن قال : وربما يذكره عند أعدائه ليتشفوا به ، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه ، ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر ؛ فيظهر في هذا الباب أشياء من زخارف القول، وقصده غير ما أظهر . والله المستعان »[1] اهـ.

ويتحدث ابن القيم رحمه الله تعالى عن الفرق بين من كان غضبه لله عز وجل في تعظيمه لحرمات الله ، وبين من يريد تعظيم نفسه ونفاذ كلمته فيقول :

« وكذلك القوة في أمر الله هي من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها الله ، والعلو في الأرض هو من تعظيم نفسه ، وطلب تفردها بالرياسة ونفاذ الكلمة سواء عز أمر الله أو هان ، بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته في طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك وأهدره وأماته في تحصيل علوه.

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس؛ فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر، والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها ؛ فالحمية لله أن يحمي قلبه له من تعظيم حقوقه ، وهي حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله، فامتلأ قلبه بذلك النور؛ فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذي ألقي على قلبه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه ، وبدا بين عينيه عرق يدره الغضب ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله .

وروى زيد بن أسلم عن أبيه أن موسى بن عمران صلى الله عليه وآله

(١) الفتاوى (٢٨/ ٢٣٧).

وسلم كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً[١] ؛ هذا بخلاف الحمية للنفس ؛ فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه ؛ فإن الفتنة في النفس والفتنة هي الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب ؛ فإنما هما حرارتان تظهران على الأركان : حرارة من قبل النفس المطمئنة ، أثارها تعظيم حق الله ، وحرارة من قبل النفس الأمارة أثارها استشعار فوت الحظ»[٢] اهـ .

وبعد هذه النقولات القيمة لهذين الإمامين الجليلين والتي تنطق بما فيها ؛ لم يبق عذر لمعتذر ، ولا مدخل لملبس ومغالط في إظهار حقده وتشفيه وحميته لنفسه في قالب النصح والديانة .

وكل إنسان أدرى بنفسه وقصده ، ولكن يبقى هناك بعض القرائن التي تكشف هذا اللبس والخداع في نفس المدعي للنصح والديانة منها :

١ ـ التشهير والتعيير بالمنصوح ؛ خاصة إذا كان من المصلحين وأهل العلم .

٢ ـ الظلم والتعدي وعدم الإنصاف مع المنصوح ، وبخسه حقه وإخفاء خيره وحسناته .

٣ ـ عدم التثبت والأخذ بالشائعات وتصيد الأخطاء والفرح بها .

٤ ـ تغليب سوء الظن وتفسير المقاصد بدون دليل وبرهان .

٥ ـ أن يكون قد عرف عنه الكذب وقلة الورع .

٦ ـ المداهنة للظالمين والركون إليهم .

---

(١) هذه الرواية لا يُدرى عمن أخذها أسلم ، وأظنها عن أهل الكتاب ، والله أعلم بصحتها .
(٢) الروح (٢٣٤) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

٨ـ التلبيس على الناس برفع لافتات إسلامية تخفي وراءها الكيد للدين وأهله :

إن من أخطر ما يهدد الأمة في عقيدتها وأخلاقها أن تعيش في جو من اللبس والتضليل والخداع، فلا ترى الحق بصورته المضيئة ، ولا الباطل بصورته القاتمة المظلمة ، بل قد يصل بها المكر والخداع إلى أن ترى غالبيتها الحق باطلاً والباطل حقاً، ويلتبس سبيل المجرمين بسبيل المؤمنين .

ومن أعظم الالتباس بين السبيلين أن يقوم المجرمون من أعداء المسلمين ـ سواء من الكفار الصرحاء ، أو المنافقين الدخلاء ـ برفع لافتات ظاهرها الإسلام ، ومحبة الدين والدعوة إليه ، وباطنها الكيد والمكر والخداع ، ويحصل من جراء ذلك أن ينخدع كثير من المسلمين بهذه اللافتات فينشغلون بها، ويثنون على أهلها بدلاً من فضحها وكشف عوارها وتعرية باطلها .

وعن خطورة التباس سبيل المجرمين بسبيل المؤمنين ؛ يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما ، كما قال عمر بن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية .

وهذا من كمال علم عمر رضي الله عنه ؛ فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها ـ وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من الجاهلية ؛ فإنها

منسوبة إلى الجهل . وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل - فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل ؛ هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل ، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين ودعا إليها وكفر من خالفها واستحل منه ما حرمه الله ورسوله »[(١)] اهـ.

وقد قص الله سبحانه علينا في كتابه الكريم قصة نفر من المنافقين أرادوا خداع الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين برفع لافتة إسلامية على صرح من صروح النفاق ، لكن الله عز وجل فضحهم وفضح لافتتهم ، وعرَّى باطلهم؛ ليكونوا عبرة للمسلمين في وقتهم ، وعبر التاريخ الطويل لمن يأتي بعدهم ممن يرفع لافتة إسلامية يخفي وراءها خبثه ومكره ليكيد بها للإسلام والمسلمين في أي زمان ومكان .

وهذه القصة ذكرها الله سبحانه في سورة التوبة بما يعرف بمسجد الضرار؛ حيث أنزل فيها قرآناً يتلى إلى قيام الساعة، قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي

(١) الفوائد (١٠٩).

بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١١٠].

ولإيضاح هذه الصورة يحسن ذكر قصة هذا المسجد كما ذكرها أهل السير، قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى:

« ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: « **إني على جناح سفر، أوحال شغل** - أو كما قال ﷺ - **ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه** ».

فلما نزل بذي أوان، أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي، أو أخاه عاصم بن عدي، أخا بني العجلان، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله، فحرقاه وهدماه، وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ**... الآيات ﴾ التوبة: [١٠٧-١١٠] »[(١)] اهـ.

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ٥٣٠).

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على ما نزل في خبر هذا المسجد من الآيات ، فيقول :

« هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين ، تتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام ، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه ! وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتترس وراءها وهي ترمي هذا الدين ، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق! . . . وتتخذ في صور شتى كثيرة ، ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه ، يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها . ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله ﷺ بذلك البيان القوي الصريح . . . ـ وذكر الآيات السابقة من سورة التوبة ـ ثم قال :

والتعبير القرآني الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة ، تنبئ عن مصير كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى ، ويراد به ما أريد بمسجد الضرار ؛ وكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفي وراءها نية خبيثة ، وتطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم ، مهما لبس أصحابه مسوح المصلحين »[1] .

مما سبق من ذكر القصة والتعليق عليها يتبين لنا أهمية الوعي لمكر الأعداء ولافتاتهم البراقة الخادعة ، وأنه يجب على المسلم أن يكون على

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٧١١) . (باختصار) .

مستوى من الفطنة والحذر لألاعيب المجرمين وخدعهم، وألا تغلب عليه السذاجة والغفلة فينخدع مع المنخدعين ، وبالتالي فإنه قد يساهم بشكل أو بآخر في التضليل والتلبيس شاء أم أبى.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر، سليماً من إرادته . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لست بخب ولا يخدعني الخبّ . وكان عمر أعقل من أن يُخدع ، وأورع من أن يَخْدع»[1] اهـ.

والخب هو اللئيم المخادع ، وعمر رضي الله عنه لم يكن لئيماً ، ولكنه كان خبيراً بأخلاق اللئام.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« إن هذا الدين يغلب دائماً عندما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة في نفوس العصبة المؤمنة في أي زمان وفي أي مكان . والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس كامناً في أن يكون له أعداء أقوياء وأعوان مدربون ، بقدر ما يمكن أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون ، يتحرجون في غير تحرج ، ويقبلون أن يتترس أعداؤهم بلافتة خادعة من الإسلام ، بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه اللافتة الخادعة .

إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض ، أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية ، والتي تحمي هذه الأوضاع لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعاً .

---

(١) الروح (٢٤٤).

وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من ردائها الزائف، وإظهارها على حقيقتها شركاً وكفراً . . ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم كيما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة ، بل كيما ينتبه هؤلاء الناس أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه حالهم ، عسى أن يوقظهم هذا التنبيه إلى تغيير ما بأنفسهم ؛ ليغير الله ما بهم ، من الشقوة والنكد والعذاب الأليم الذي هم فيه مبلسون .

وكل تحرُّج في غير موضعه ، وكل انخداع بالأشكال والظواهر واللافتات ؛ هو تعويق لنقطة الانطلاق الأولى لأيّة حركة إسلامية في الأرض جميعاً . وهو تمكين لأعداء هذا الدين من مكرهم الذي أرادوه بالحرص على إقامة تلك اللافتات» اهـ[1] .

واللافتات المرفوعة اليوم كثيرة وماكرة ، أقتصر على بعض الأمثلة :

منها : ما يرفعه الذين بدلوا شرع الله عز وجل ورفضوا التحاكم إليه في بلادهم من لافتات يخدعون بها شعوبهم المسلمة ، كأن يعلنوا الاحتفال بمولد الرسول ﷺ أوبالهجرة أو بالإسراء والمعراج ، وهم في حقيقة الأمر أعداء الرسول ﷺ ، وأعداء الهجرة ، وأعداء الإسراء والمعراج . ومع ذلك يوجد من مغفلي الأمة من المسلمين من ينخدع بلافتاتهم التي يرفعونها باسم الدين ويثني عليهم بذلك .

ومن ذلك إقامة الذكرى السنوية لإحراق المسجد الأقصى المبارك ، فنرى هؤلاء المجرمين الخائنين لله سبحانه ورسوله ﷺ يخدعون المسلمين

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن (١٠٧).

بإحياء ذكرى حرق المسجد الأقصى كأنهم يهتمون بالإسلام وبالمسلمين ومقدساتهم وهم قد خانوا الله سبحانه من قبل بتنحية شريعته واستحلال محرماته ، وخانوا أمتهم وأوطانهم بعد ذلك بالتذلل والخنوع لليهود والنصارى .

ولقد أعجبني جملة قالها الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله تعالى في شريط مسجل حول هذا المعنى ؛ إذ يقول :

« إن إحراق المسجد الأقصى بل إحراق مساجد الدنيا كلها ليس أعظم جرماً من الاعتداء على شرع الله وحكمه وسلطانه في الأرض من قبل الأنظمة التي تتباكى على الأقصى وإحراقه » .

ومن اللافتات التي يخدعون بها الناس : إقامة المؤتمرات الإسلامية والمحافل الإسلامية والتي تأتي هذه الأنظمة المتنكرة لشرع الله عز وجل لترعاها وتدعو الناس إليها ، كل هذا من الخداع والتضليل الذي نربأ بالمسلمين - فضلاً عن الدعاة والمصلحين - أن ينطلي عليهم ، بل يجب التفطن إليه والسعي لكشفه وتعريته ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٤٢].

* * *

المبحث الخامس
الأسباب الواقية من لبس الحق بالباطل

بعد أن تبين لنا خطورة لبس الحق بالباطل من خلال الصور السابقة في المبحث الماضي ، والتي هي على سبيل المثال لا الحصر ، وبعد ظهور ما ينتج عنها من الضلال والانحراف الذي يورث العواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة ، بعد هذا البيان يحق لنا بل يجب علينا أن نسأل : كيف النجاة من هذا الخطر ، وما هي الأسباب الواقية من ذلك ؟

وللإجابة على ذلك نرجع إلى المبحث الثالث ؛ حيث ذكرت هناك أسباب التباس الحق بالباطل ، فمنها ينطلق العلاج ؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها غالباً ، والله أعلم .

وقد مر بنا في مبحث أسباب الالتباس أن الأسباب لا تخرج عن ثلاثة أمور :

١ ـ شبهة تسببت في أخذ الباطل على أنه الحق . وأصل هذه الشبهة هو الجهل .

٢ ـ شهوة تسببت في أخذ الباطل وترك الحق عن ضعف وشهوة، مع اعتراف بالخطأ .

٣ ـ شهوة وشبهة نتج عنهما أخذ الباطل وإظهاره في صورة حق عن هوى ومغالطة ، استناداً على شبهة يعلم صاحبها أنها لا تصلح للاستدلال .

وبعد هذه المقدمة التي لابد منها بين يدي الأسباب الواقية من اللبس والتلبيس، يمكن تفصيل هذه الأسباب فيما يلي :

١ـ علم وبصيرة بدين الله عز وجل وشرعه :

وعلم وبصيرة بما يضاد دين الله عز وجل وشرعه ؛ فإذا تحقق هذان الأمران ؛ فإن الاستبانة لسبيل المؤمنين وسبيل المجرمين قد تحققت ، وبهذا فلا مجال للشبهة هنا أبداً لانتفاء الجهل الذي منه تثور الشبهات المؤدية إلى اللبس والتلبيس .

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهوات تُدفع بالصبر ، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين ، فقال : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤] .

فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين .

وجمع بينهما أيضاً في قوله : ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر: ٣] ، فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات ، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات ، وجمع بينهما في قوله : ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ** ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي : القُوى والعزائم في ذات الله ، والأبصار : البصائر في أمر الله، وعباراتُ السلف تدور على ذلك .

قال ابن عباس: « أولي القوة في طاعة الله ، والمعرفة بالله » .

وقال الكلبي : « أولي القوة في العبادة ، والبصر فيها » .

وقال مجاهد : « الأيدي : القوة في طاعة الله ، والأبصار : البصر في الحق » .

وقال سعيد بن جُبير : « الأيدي : القوة في العمل ، والأبصار : بصرهم بما هم فيه من دينهم » .

وقد جاء في حديث مرسل : « **إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**»[1] .

فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة ، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة ، والله المستعان»[2] اهـ.

ويقول أيضاً : « ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول ، وتحكيمه في دق الدين وجله ، ظاهره وباطنه ، عقائده وأعماله ، حقائقه وشرائعه ، فيتلقى عنه حقائق الإيمان ، وشرائع الإسلام ، وما يُثْبته لله من الصفات والأفعال والأسماء وما ينفيه عنه ، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها ، ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها ، ووجوب الوضوء والغسل»[3] اهـ .

ويقول رحمه الله تعالى :

« والمقصود أن أرباب البصائر هم أصحاب الفرقان ، فأعظم الناس فرقاناً بين المشتبهات أعظم الناس بصيرة ، والتشابه يقع في الأقوال والأعمال

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ، وفيه حفص بن عمر العدني ، ضعفه الجمهور ، وانظر تخريج أحاديث الإحياء (٣٨٥٨) (٦/ ٢٤٣٨).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٧).

(٣) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٥).

والأحوال والأموال والرجال . وإنما أتي أكثر أهل العلم من المتشابهات في ذلك كله، ولا يحصل الفرقان إلا بنور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده يرى في ضوئه حقائق الأمور ويميز بين حقها وباطلها وصحيحها وسقيمها ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»[١] .

وقد مر قول عمر رضي الله عنه : « سوف تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد في الإسلام من لم يعرف الجاهلية » .

٢ـ الصبر وتقوى الله عز وجل :

فبالصبر وتقوى الله سبحانه تدفع الشهوة وينتصر الإنسان على هواه ؛ لأنه قد يحصل للإنسان العلم بدين الله عز وجل ويتبين له الحق من الباطل، ولكن إذا لم يكن لديه الصبر عن شهوات النفس والتقوى التي تحجزه عن مخالفة الصواب فإنه يضعف ويقع في المخالفة مع علمه بذلك .

أما إذا اجتمع العلم والبصيرة مع التقوى والديانة فإنه إذا بان الحق ولاح لم يكن أمام من هذه صفته إلا الإذعان والتسليم والانقياد ، وذلك لانتفاء الشبهة والشهوة في حقه ، وإلى هذا أشار ابن القيم رحمه الله تعالى في النقل السابق بقوله : « إن فتنة الشبهات تدفع باليقين ، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر» اهـ .

ولكن إذا ضعف الصبر والتقوى، ووجدت الغفلة عن الآخرة والوقوف بين يدي الله عز وجل، وصاحب ذلك شيطان يزين ودنيا تتعرض بفتنها؛ فالغالب عدم السلامة ، ولكن المخالف للحق هنا إما أن يكون لديه بقية من

---

(١) الروح (٢٦٠).

تقوى وخوف من الله عز وجل فيعترف بذنبه ويستغفر منه ، ويتوب أو يكون -عياذاً بالله- قد رقّ دينه وسيطر عليه هواه ، فأخذ يلتمس مبرراً لباطله ، ويبحث هنا وهناك عن شبهة يظهر بها باطله ومخالفته في قالب الحق والموافقة لدين الله ؛ وهذا هو الخداع والتلبيس ، ولا علاج له إلا تقوى الله سبحانه ، واليقين بالرجوع إليه تعالى في يوم عصيب : ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا**﴾ [الحج: ٢] ، ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧] .

نعم إنه لا يمنع من الوقوع في الباطل بعد العلم والبصيرة ، ولا يمنع من تلبيسه على الناس إلا الإيمان باليوم الآخر إيماناً جازماً ويقيناً صادقاً، وإن لم يتذكر العبد هذا اليوم ويحسب له حسابه فلن يفيده في ذلك العلم الذي اكتسبه ولم يعمل به .

فكم من عالم بالحق تنكب عنه وخالفه، أما إذا انضم إلى العلم والبصيرة الصبر والتقوى والخوف من الحساب يوم القيامة ، فإن الشهوة ستنقمع والهوى سيُغلب ، وعندها يزول اللبس والتلبيس والخداع والمغالطة في دين الله عز وجل .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في معرض رده على المحتالين على شرع الله بالحيل الباطلة :

« فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكاله أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر والاحتيال ، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكراً وخديعة من

الأقوال والأفعال ، وأن يعلم أن لله يوماً تكع[1] فيه الرجال ، وتنسف فيه الجبال ، وتترادف فيه الأهوال ، وتشهد فيه الجوارح والأوصال ، وتبلى فيه السرائر، وتظهر فيه الضمائر ، ويصير الباطن فيه ظاهراً ، والسر علانية ، والمستور مكشوفاً ،والمجهول معروفاً ، ويحصل ويبدو ما في الصدور ، كما يبعثر ويخرج ما في القبور ، وتجري أحكام الرب تعالى هنالك على القصود والنيات ، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات ، يوم تبيض وجوه بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ورسوله وكتابه وما فيها من البر والصدق والإخلاص للكبير المتعال ، وتسود وجوه بما في قلوب أصحابها من الخديعة والغش والكذب والمكر والاحتيال ، هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون، وبدينهم كانوا يلعبون ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٣][2] ا . هـ.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى في ظلال قوله تعالى : ﴿ **وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٦٩] :

« نعم ؛ إنها الدار الآخرة ، إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة ، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا ، نعم إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها ، ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها . . وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه

(١) تكع : أي تضعف وتجبن .
(٢) أعلام الموقعين (٣/ ٢١٤ ، ٢١٥).

الأرض ؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي ؟ وما الذي يهدئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا ؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتنأى ؟ والشر يتبجح والباطل يطغى؟

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى ، إلا اليقين في الآخرة ، وأنها خير للذين يتقون ، ويعفون ويترفعون ، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن ، ويمضون في الطريق لا يتلفتون ، مطمئنين واثقين ، ملء قلوبهم اليقين»[1] اهـ .

وبعد ذكر السببين الرئيسين للوقاية من اللبس والتلبيس ، وهما البصيرة في الدين التي تدفع بها الشبهة ، والصبر والتقوى اللذان تدفع بهما الشهوة نذكر فيما يلي بعض الأسباب المساعدة لتثبيت السببين السابقين ، وهي مندرجة في كلمة (التقوى) ، ولكن لا بأس بالنص عليها للتنبيه على أهميتها والتذكير بها .

٣ـ محاسبة النفس ومجاهدتها وتحصينها بالذكر والدعاء والعمل الصالح :

حيث لابد للمسلم من محاسبة دائمة للنفس ، ومجاهدة لها لتطويعها لشرع الله عز وجل ، والحذر من مصائد الشيطان الذي لا يفتأ يوسوس

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٣٨٧).

ويزين لها الباطل ، فإن لم يتفقّد كل منا نفسه ويتعاهدها ويسد على الشيطان مداخله المتعددة ؛ فإن النفس تكون على حافة خطر في أن تنساق مع شهواتها وهواها ؛ فيحصل من جزاء ذلك اللبس والتلبيس ، والتضليل والمغالطة إما بعلم أو بجهل .

وإن مما يؤكد أهمية المحاسبة الدائمة واليقظة الشديدة للنفس ومساربها المتشعبة ؛ ما يحصل للكثير منا في يومه أو أسبوعه أو شهره من المغالطات والمعاذير الكاذبة والتبريرات الغامضة ـ سواء مع النفس أو مع الناس ـ ولكنها تكثر وتقل حسب التقوى وقوتها أو ضعفها في القلب . مع أنه يوجد من الدعاة والمصلحين نماذج فريدة في إخلاصها وصدقها وبعدها عن المداهنة والمغالطة والتلبيس ، نسأل الله لهم الثبات ، ونسأله سبحانه لنا جميعاً صدق المقصد في الأقوال والأعمال .

والآن نعرض لنموذج فريد من محاسبة النفس ، يقول ابن الجوزي رحمه الله :

« ما رأيت أعظم فتنة من مقاربة الفتنة ، وقلّ أن يقاربها إلا من يقع فيها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . قال بعض المعتبرين : قدرت مرة على لذة ظاهرها التحريم وتحتمل الإباحة ، إذ الأمر فيها مردد ، فجاهدت النفس ، فقالت : أنت ما تقدر فلهذا تترك ، فقارب المقدور عليه ، فإذا تمكنت فتركت كنت تاركاً حقيقة . ففعلت وتركت ، ثم عاودت مرة أخرى في تأويل أرتني فيه الجواز ، وإن كان الأمر يحتمل ، فلما وافقتها أثّر ذلك ظلمة في قلبي لخوف أن يكون محرماً ، فرأيت أنها تارة تقوى عليّ بالترخيص والتأويل ، وتارة أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع ، فإذا ترخصت لم آمن أن

يكون ذلك الأمر محظوراً ، ثم أرى عاجلاً تأثير ذلك الفعل في القلب .

فلما لم آمن عليها بالتأويل تفكرت في قطع طمعها من ذلك الأمر المؤثر فلم أر ذلك إلا بأن قلت لها : قدّري أن هذا الأمر مباح قطعاً ، فو الله الذي لا إله إلا هو لا عدت إليه . فانقطع طمعها باليمين والمعاهدة ، وهذا أبلغ دواء وجدته في امتناعها ؛ لأن تأويلها لا يبلغ إلى أن تأمر بالحنث والتكفير ، فأجود الأشياء قطع أسباب الفتن وترك الترخص فيما يجوز إذا كان حاملاً ومؤدياً إلى ما لا يجوز ، والله الموفق »[1] .

ولقد بلغ من خطر النفس والحذر من شرها أن كان النبي ﷺ قلما يخطب خطبة إلا واستعاذ بالله من شرها ، وذلك فيما يعرف بخطبة الحاجة ، والتي في مطلعها : « **إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**»[2] .

ولذلك ينبغي الإكثار من الأدعية التي يستعاذ فيها من شر النفس من مثل قوله ﷺ : « **اللّهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري**»[3] ، وقوله ﷺ : « **أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه** »[4] وغير

---

(١) صيد الخاطر : ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٢) أخرجه الترمذي ـ كتاب النكاح (١٦) ، باب : خطبة النكاح (١١٠٥) (٤/ ٦١) ، وأبوداود كتاب النكاح (٣٣) باب : في خطبة النكاح (٢١١٨) (٢/ ٥٩١) ، وأخرجه أيضاً غيرهما ، وصححه الألباني [صحيح الترمذي (١/ ٣٢٠، ٣٢١)] وهو جزء من خطبة الحاجة .

(٣) أحمد في المسند (٤/ ٤٤٤) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٥١٠) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٤) أحمد في المسند (٢/ ٢٩٧) ، والترمذي ـ كتاب الدعوات (١٤) باب : ما يقال في الصباح والمساء (٣٣٨٩) (٩/ ١٠٤) ، وأبو داود ـ كتاب الأدب (١١٠) باب : ما يقول إذا أصبح (٥٠٦٧)(٥/ ٣١٠، ٣١١) ، وصححه أحمد شاكر [التعليق على المسند (٧٩٤٨) (١٥/ ١١٠)] ، وصححه أيضاً الألباني [صحيح الترمذي (٢٧٠١)(٣/ ٢٤٢)] .

ذلك من الأدعية التي تحذر من النفس وشرها وشهواتها ومساربها التي يدخل منها الشيطان إليها .

ولما كان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وهو الذي يزين للنفس شهواتها وشرورها جاء الحث على الاستعاذة من شره وشر وساوسه؛ كما جاء في سورة الناس : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** ﴾ [الناس: ١ - ٦]، وقوله تعالى : ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [فصلت: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ** ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

وأمثال هذه الأدعية التي يستعاذ بها من شر النفس والشيطان كثيرة في الكتاب والسنة ، وهي من أقوى الأسباب الواقية من الانحراف واللبس والتلبيس .

ومن الأسباب القوية التي يتحصن بها من الشيطان ووساوسه ذكر الله عز وجل في أحوال اليوم والليلة؛ فكلما كان اللسان رطباً بذكر الله تعالى والقلب يواطئه في ذلك، كان الشيطان بعيداً ولا يستطيع اقتحام الحصن ؛ لأن ذكر الله سبحانه يحرقه ويمنعه من الدخول ، ولكن ما إن يغفل العبد عن ذكر الله تعالى حتى يكر مرة أخرى للوسوسة؛ فهذا دأب الشيطان: في كر وفر على القلب ، فكلما ذكر العبد ربه خنس ، وإذا غفل وسوس.

ومن الأسباب الواقية من التباس الحق بالباطل مجاهدة النفس في عمل الصالحات ، والإكثار منها من غير إفراط ولا تفريط كما جاء في الحديث القدسي والذي منه : « **وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته**

عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . . . الحديث »[1] ، فمن كان يسمع ويبصر ويمشي ويبطش بنور الله وهداه ؛ فإنه لن يخطئ الحق أبداً .

قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، وبالضد من ذلك فإن كثرة الذنوب من أسباب الضلال والزيغ ؛ قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف : ٥] .

وأخيراً ، فإن دعاء الله عز وجل واللجوء إليه سبحانه وسؤاله الهداية للحق والعمل به من أقوى الأسباب الواقية من اللبس والضلال ، كما جاء في استفتاح صلاة الليل : « **اللَّهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم** »[2] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« وشهدتُ شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستعصت عليه فر منها إلى التوبة والاستغفار والاستغاثة بالله واللجأ إليه ، واستنزال الصواب من عنده ، والاستفتاح من خزائن رحمته ؛ فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدداً ، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ .

---

(١) أخرجه البخاري ـ كتاب الرقاق (٣٨) ، باب : التواضع (٦٥٠٢) [فتح(١١/٣٤٨)] .

(٢) أخرجه مسلم ـ كتاب صلاة المسافرين وقصدها (٢٦) باب : الدعاء في صلاة الليل . . . (٧٧٠) (١/ ٥٣٤).

ولا ريب أن من وفق لهذا الافتقار علماً وحالاً وسار قلبه في ميادينه بحقيقة وقصد فقد أعطي حظه من التوفيق ، ومن حرمه فقد منع الطريق والرفيق ؛ فمتى أعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق ، فقد سلك به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[١] .

٤ـ مصاحبة أهل العلم والورع :

ومما لا شك فيه ولا جدال أن الجليس يتأثر بجليسه وصاحبه ، سواءً في الخير أو الشر ؛ وذلك عن طريق المؤانسة والمشابهة والقدوة ، وعليه ؛ فإن من الأسباب المانعة من الانحراف ولبس الحق بالباطل ؛ الجلوس مع أهل العلم والتقوى ، ومصاحبتهم ، ومشاورتهم ؛ لأنه بالعلم الذي عندهم تحترق الشبهات ، وبالتقوى والورع لدينهم تحترق الشهوات ، وبذلك يُسد على الشيطان البابان الرئيسان اللذان يدخل منهما ليلبس على النفس ويزين لها التلبيس .

والعكس بالعكس؛ فما إن يصاحب المرء أهل الجهل والجدال ممن لم يؤتوا حظاً من التقوى والورع إلا ويتأثر بهم وينطبع بأخلاقهم وتشتبه عليه الأمور لضعف العلم والبصيرة ، أو يتعمد ترك الحق وتعميته على الناس لضعف التقوى وعدم الصبر على الشهوات .

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : « لولا ثلاث لما أحببت البقاء : لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله ، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام ، كما ينتقى أطايب الثمر » ، وقال أيضاً : « اقتربوا من أفواه المطيعين واستمعوا منهم ما يقولون ، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة » .

---

(١) أعلام الموقعين (٤/ ١٧٨) .

ولعل مما يدخل في هذا السبب الإكثار من قراءة أخبار أهل العلم والتقوى والجهاد من أنبياء الله الكرام وصحبهم الأجلاء ، والتابعين لهم بإحسان ؛ ففيهم الأسوة والقدوة والخير كله .

٥ـ الحذر من الدنيا وعدم الركون إليها :

إن من أعظم أسباب الانحراف عن الحق والوقوع في الشبهات والمخالفات هذه الدنيا الخسيسة الغرارة ؛ فكلما انفتحت على العبد كثرت شبهاتها وانساق مع شهواتها المختلفة ، وعندما يرد ذكر الدنيا ؛ فإنه يُقصد بها كل ما أشغل عن الآخرة ، من متعها المختلفة، والتي أجملها الله عز وجل في قوله سبحانه : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٤] .

والانغماس في الدنيا وترفها وملذاتها تنتج عنه الغفلة عن الآخرة ، وتشتت الذهن والقلب ، وإعمال الفكر في الاستزادة منها والخوف على فواتها ؛ وهذا يؤدي إلى قسوة القلب ورقة الدين .

ومن هنا تبدأ النفس في الاستجابة لتزيين الشيطان وتثور الشبهات والشهوات في القلب ، فينشأ منهما الكذب والتدليس والتلبيس والطمع والجشع، وخاصة في مثل عصرنا الذي نعيش فيه ، والذي كثرت فيه المعاملات المحرمة والشبهات ، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم .

ولذا كان من الأولى بمن أراد لنفسه السلامة من الدنيا وشبهاتها

وشهواتها أن يتخفف منها قدر الاستطاعة ، وأن يرضى منها بالقليل ؛ لأن هناك تناسباً طردياً ـ وخاصة في زماننا هذا ـ بين التكثر من أمور الدنيا وكثرة الوقوع في الشبهات والشهوات المؤدية إلى التدليس والتلبيس .

٦ ـ النصح للأمة والحذر من عاقبة التلبيس والتدليس عليها :

إن الشعور بواجب النصح للأمة يقتضي من المسلم وبخاصة الداعية إلى الله عز وجل أن يبين الحق لأمته ويعري الباطل ويكشفه لها ، ولا يجعله ملتبساً عليها فتضلّ ؛ لأن الذي يرى أمته تُضلَّل ويلبَس عليها دينُها فتعيش في عماية من أمرها ، ثم يتركها وهو يعلم الحق من الباطل ؛ إن من هذا شأنه يعتبر خائناً لله ولرسوله وللمؤمنين ، والله عز وجل سائله يوم القيامة عن علمه فيم عمل به .

قال ﷺ : « **الدين النصيحة** . قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** »[1] .

وهذا فيمن رأى التضليل والتلبيس فلم يحذر منه ، ولم يكشفه للناس ، فكيف بمن باشر التلبيس والتضليل بنفسه عياذاً بالله ؟ إن هذا بلا شك أكثر خيانة من سابقه ، وإن وزر وضلال من ضلله بتلبيسه هذا سيحمله فوق ظهره يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزار من ضللهم شيء .

والحاصل أن شعور المسلم بإثم وعاقبة التلبيس أو السكوت عليه من أقوى الأسباب المانعة من الوقوع فيه ؛ إن كان في القلب بقية من حياة وخوف من الله سبحانه والدار الآخرة ؛ لأن من كانت في قلبه المحبة الحقيقية

---

(١) أخرجه مسلم ـ كتاب الإيمان (٢٣) ، باب : بيان أن الدين النصيحة (٥٥) (١/ ٧٤) .

لهذا الدين وأهله لا يمكن أن يرى التضليل والتلبيس من المفسدين المنافقين ، ثم يرضى لنفسه السكوت والوقوف موقف المتفرج ، بل لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال حتى يساهم قدر استطاعته في إبانة سبيل المؤمنين وإسقاط اللافتات الزائفة عن سبيل المجرمين وتعرية باطلهم وخداعهم ، كما مر بنا في الصورة الثامنة من صور التلبيس ، وعندها تعرف الأمة من توالي ومن تعادي ، وعندها تتميز الصفوف ، ويتميز المؤمن من المنافق ، وكل هذا يحتاج إلى تضحيات باهظة ، لكنها رخيصة في سبيل الله عز وجل ؛ لأن نصر الله عز وجل الموعود لا يتم بدونها .

❁ ❁ ❁

وبعد

فهذا ما يسره الله عز وجل في هذه العجالة حول هذا الموضوع الهام الذي يمس المسلم في عقيدته وأخلاقه ومجتمعه ، ولا أزعم أني أحطت بجوانبه كلها ، ولكن حسبي إثارة هذا الموضوع والتذكير به ؛ لعل بعض علمائنا الكرام وإخواننا الدعاة يكملون ما نقص منه ، ويعدلون ما اعوجّ منه .

وما ذكرته من صور التلبيس ذكرته على سبيل المثال لا الحصر ؛ فالصور كثيرة كثيرة ، خاصة في زماننا هذا الذي قل فيه العلم والورع ، ونجم فيه الجهل والنفاق .

وفي خاتمة هذا البحث أوصي نفسي الأمارة بالسوء وأوصي إخواني المسلمين بأن يتفقد كل منا نفسه ، ويبحث عن هذا الداء الخطير فيها فإذا وجدنا شيئاً من ذلك فعلينا التوبة الصادقة منه ، ولنبادر بقطع جذوره قبل أن يستفحل ، ولا نسوف في ذلك أبداً ؛ لأن التسويف وطول الأمل من عمل الشيطان وتلبيسه ، وأرى بهذه المناسبة نقل كلام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في ذكر تلبيس إبليس على جميع الناس بطول الأمل ليكون ختام المسك لهذا البحث ، قال رحمه الله :

« كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حب الإسلام ، فلا يزال إبليس يثبطه ويقول له : لا تعجل وتمهل في النظر ، فيسوفه حتى يموت على كفره ، وكذلك يسوف العاصي بالتوبة فيجعل له غرضه من الشهوات ويمنيه

الإنابـة ، كما قال الشاعر :

لا تعجـل الذنـب لما تشتهي وتأمـل التـوبـة من قـابـل

وكم من عازم على الجد سوفه ، وكم من ساع إلى فضيلة ثبطه ، فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه ، فقال : استرح ساعة . أو انتبه العابد في الليل يصلي ، فقال له : عليك وقت .

ولا يزال يحبب الكسل ،ويسوف العمل ، ويسند الأمر إلى طول الأمل فينبغي للحازم أن يعمل على الحزم ؛ والحزم تدارك الوقت وترك التسوف والإعراض عن الأمل، فإن المخوف لا يؤمن ، والفوات لا يبعث ، وسبب كل تقصير في خير أو ميل إلى شر طول الأمل . فإن الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشر والإقبال على الخير إلا أنه يعد نفسه بذلك .

ولا ريب أنه من أمل أن يمشي بالنهار سار سيراً فاتراً ، ومن أمل أن يصبح عمل في الليل عملاً ضعيفاً ، ومن صور الموت عاجلاً جَدَّ، وقد قال ﷺ : «**صل صلاة مودع**»[1] ، وقال بعض السلف : أنذركم (سوف) فإنها أكبر جنود إبليس .

ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل كمثل قوم في سفر فدخلوا قرية فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره وجلس متأهباً للرحيل ، وقال المفرط : سأتأهب فربما أقمنا شهراً ، فضرب بوق الرحيل في الحال، فاغتبط المحترز ، واعتبط الآسف المفرط ؛ فهذا مثل الناس في

(١) رواه أحمد (٥/ ٤١٢)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٧٧٦ .

الدنيا ؛ منهم المستعد المستيقظ ، فإذا جاء ملك الموت لم يندم ، ومنهم المغرور المسوف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة .

فإذا كان في الطبع حب التواني وطول الأمل ، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى ما في الطبع صعبت المجاهدة ، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب ، وأن عدوه لا يفتر عنه ؛ فإن فتر في الظاهر بطن له مكيدة ، وأقام له كميناً ، ونحن نسأل الله عز وجل السلامة من كيد العدو وفتن الشيطان وشر النفوس والدنيا ، إنه قريب مجيب ، جعلنا الله من أولئك المؤمنين »[1] اهـ .

وأخيراً أسأل الله عز وجل أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ، ولا يجعله ملتبساً علينا فنضل ، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

(١) تلبيس إبليس ص٤٥٢ ، ٤٥٣ .

فهرس الجزء الأول

مقدمة ٥

الرسالة الأولى
﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾

أهمية الموضوع ١٣
تعريف العدل ومنزلته في الكتاب والسنة ١٨
أقسام العدل ٢٧
من لوازم العدل ومقتضياته ٣٢
١ ـ التثبت من الأمر قبل الحكم عليه ٣٢
٢ ـ العدل في النقد ومعالجة الخطأ ٣٤
٣ ـ الفرح بإصابة الغير للحق ٤٠
٤ ـ الشهادة للمحسن بإحسانه ٤١
٥ ـ الابتعاد عن النجوى ٤٥
٦ ـ سلامة القلب ٤٦
٧ ـ الصدق والوضوح ٤٩
الخاتمة ٥٢

الرسالة الثانية
﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾

مقدمة ٥٩

تفسير الآية ٦١
أهمية هذا الموضوع ٧٠
الفرق بين الجدال والحوار ٧١
بعض الآيات والأحاديث الواردة في آداب الحوار ٧٣
أصول الحوار : ٧٥
الأصل الأول : الإخلاص ٧٦
الأصل الثاني : العلم ٨٠
الأصل الثالث : ظروف الحوار ٩٠

الرسالة الثالثة
﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾

مقدمة ٩٩
أهمية الموضوع ١٠٤
مساوئ القلوب وأمراضها ١٠٦
مرض الحسد ١١٠
أمراض الشرك الخفي ١١٢
شهوة الدنيا والركون إليها ١١٥
المخالفات في الهدي الظاهر ١١٨
منكرات البيوت ١١٩
إهمال تربية الأهل والأولاد ١٢٠

التفريط في حقوق الوالدين ١٢٢
التساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٢٣
التساهل في صلاة الجماعة ١٢٣
التفريط في طلب العلم ١٢٤
آفات اللسان ١٢٤
التفريط في غض البصر ١٢٦
الرضى من النفس بالدون ١٢٧
السفر إلى بلاد الكفر ١٢٨
التهوين من شأن العلماء ١٢٨
الحزبية المقيتة ١٣٠
إهمال كتاب الله عز وجل ١٣٠
التفريط في كسب الحلال ١٣٢
الجبن والبخل ١٣٢
نقل الأخبار دون تمحيص ١٣٥
التصدر للتدريس والجرأة على الفتوى ١٣٦
الغلظة والفظاظة ١٣٦
الخاتمة ١٣٨

الرسالة الرابعة

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

مقدمة ١٤٥

منهج دراسة آيات الأسماء والصفات ١٤٧
الآثار القلبية للأسماء والصفات ١٥٠
معنى اسم (الحكيم العليم) ١٥١
أنواع أحكام الله عز وجل: ١٥٣
الحكم الشرعي الديني ١٥٣
الحكم الكوني القدري ١٥٤
اللوازم القلبية لاسم الله (الحكيم) ١٥٦
الحقيقة الأولى ١٥٦
الحقيقة الثانية ١٦٣
دروس من أحداث الخليج ١٦٧
الدرس الأول: التعرف على سنن الله عز وجل في التغيير ١٦٧
الدرس الثاني: تمييز الخبيث من الطيب ١٦٩
الدرس الثالث: أهمية التوحيد والتربية عليه ١٧٠
الدرس الرابع: صحة الفهم وحسن القصد ودورهما في درء الفتنة ١٧٥
الخاتمة ١٧٩

الرسالة الخامسة
﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾

متى نصر الله؟ ١٨٣

من سنن الله عز وجل في النصر : ١٩٧
السنة الأولى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٩٨
السنة الثانية : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ٢٠٨
السنة الثالثة : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ ٢٢٣
محصلة السنن الثلاث ٢٢٤
عوائق في طريق النصر ٢٢٥
أولاً : العوائق الخارجية ٢٢٦
ثانياً : العوائق الداخلية ٢٢٧
المعالم الرئيسية لمنهج التغيير الصحيح ٢٣٣

الرسالة السادسة
﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

المقدمة ٢٤٧
أهمية الموضوع ٢٤٩
حقيقة الصدق ومعناه ٢٥٧
تعريف الصدق ٢٥٧
حقيقة الصدق ٢٥٨
الفرق بين الصدق والإخلاص ٢٦٠

مجالات الصدق كما يجب ٢٦٢
١ ـ صدق النية ٢٦٢
٢ ـ الصدق في الأقوال ٢٦٩
أ ـ الصدق في نقل الأخبار ٢٦٩
ب ـ الصدق في الوعد والوفاء به ٢٧٠
جـ ـ الوفاء بالعقود والعهود ٢٧٠
الصدق المذموم ٢٧٢
٣ ـ الصدق في الأعمال ٢٧٦
٤ ـ الصدق في مقامات الدين ٢٧٧
الآيات الواردة في معنى الصدق وفضله ٢٨٠
الأحاديث والآثار الواردة في معنى الصدق وفضله ٢٩٤
مواقف صادقة ٣٠٠
صديق الأمة الأكبر رضي الله عنه ٣٠٠
مثال في صدق العزائم ٣٠١
مثال في الصدق مع الله عزوجل في الجهاد والوفاء بالعهد ٣٠١
أمثلة في الصدق مع الخلق ٣٠٥
مثال في الصدق مع النفس ٣٠٦
مثال في الصدق في قول كلمة الحق ٣٠٦
مثالان في الصدق مع الله عزوجل في الثبات على الإيمان
والصبر على البلاء ٣٠٧

أ ـ قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام ٣٠٧
ب ـ قصة ماشطة ابنة فرعون ٣٠٨
من علامات الصدق ٣١٠
١ ـ طمأنينة القلب واستقراره ٣١٠
٢ ـ الزهد في الدنيا والتأهب للقاء الله عزوجل ٣١١
٣ ـ سلامة القلب ٣١٤
٤ ـ حفظ الوقت وتدارك العمر ٣١٥
٥ ـ الزهد في ثناء الناس ومدحهم بل وكراهة ذلك ٣١٦
٦ ـ تصديق القول بالفعل وموافقة الظاهر للباطن ٣١٧
٧ ـ الصدق في الحديث ٣١٨
٨ ـ إخفاء الأعمال الصالحة وكراهة الظهور ٣١٩
٩ ـ الشعور بالتقصير والانشغال بإصلاح النفس ونقدها أكثر
من الآخرين ٣٢١
١٠ ـ الاهتمام بأمر هذا الدين والجهاد في سبيل الله عزوجل .. ٣٢٢
١١ ـ التميز ٣٢٣
١٢ ـ قبول الحق والتسليم له ٣٢٥
بعض الوسائل الجالبة للصدق ٣٢٦
١ ـ توحيد الله عزوجل وصحة المعتقد ٣٢٦
٢ ـ الإيمان باليوم الآخر واليقين بلقاء الله عزوجل ٣٢٧
٣ ـ التخفف من الدنيا وعدم الركون إليها ٣٢٨

٤ ـ مصاحبة الصادقين ٣٢٩
٥ ـ النظر في عاقبة الصدق ٣٣٠
٦ ـ الإكثار من الأعمال الصالحة وإخفاء ما يمكن منها ٣٣١
٧ ـ تحري الصدق في الحديث وتجنب الكذب ٣٣٢
٨ ـ الإكثار من دعاء الله عزوجل والاستغفار ٣٣٣
من ثمرات الصدق ٣٣٧
١ ـ الحصول على الأجر العظيم والثواب الجزيل عند الله عزوجل ٣٣٨
٢ ـ الطمأنينة والسكينة والثبات ٣٣٩
٣ ـ الاندفاع في الدعوة إلى الله عزوجل والتضحية في سبيله ٣٤٧
٤ ـ القبول عند الناس والتأثير فيهم ٣٤٩
٥ ـ الألفة والمحبة بين الناس ٣٥١
٦ ـ الخير والنماء والبركة ٣٥٣
٧ ـ تفريج الشدائد وكشف الكربات والنصر على الأعداء ٣٥٤
٨ ـ غفران الذنوب وتكفير السيئات ٣٥٦
٩ ـ الهداية للحق دلالة وانقياداً ٣٥٧
١٠ ـ الزهد في الدنيا والتزود للآخرة ٣٦٢
١١ ـ حسن الخاتمة ٣٦٢
الخاتمة ٣٦٥
ا ـ إلى علماء الأمة وطلاب العلم فيها ٣٦٥

٢ ـ إلى دعاة الأمة ومجاهديها ٣٧٠
٣ ـ إلى المربين في هذه الأمة ٣٧٦
٤ ـ إلى الإعلاميين في هذه الأمة ٣٨٠
وبعد ٣٨٣

الرسالة السابعة

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾

المقدمة ٣٨٧
المبحث الأول : أهمية الموضوع ٣٩٣
المبحث الثاني : تعريفات : ٣٩٩
١ ـ اللبس والتلبيس ٣٩٩
٢ ـ الأغاليط والمغالطات ٤٠١
المبحث الثالث : أسباب ووسائل لبس الحق بالباطل ٤٠٥
كل انحراف أو ضلال سببه فتنة الشبهات أو فتنة الشهوات
أو مجموعهما ٤٠٥
وسائل لبس الحق بالباطل : ٤١٠
١ ـ التأويل واتباع المتشابه ٤١٠
٢ ـ كتمان الحق وإخفاؤه ٤١٧
٣ ـ تحريف الأدلة عن مواضعها ٤٢٤
المبحث الرابع : صور من لبس الحق بالباطل ٤٣١
١ ـ الاحتجاج على شرعية الأنظمة المبدلة لشرع الله

والمستحلة لما حرمه سبحانه بآثار عن السلف : (كفر دون كفر) ٤٣١
٢ ـ الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي والرضا بالذل والمهانة ٤٣٦
٣ ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله خشية الابتلاء وتعريض النفس للفتن ٤٤١
٤ ـ المداهنة وضعف الولاء والبراء بحجة المداراة والتسامح ٤٥٣
٥ ـ الانفتاح على الدنيا والركون إليها بحجة التعفف عن الناس وإنفاق المال في وجوه الخير ٤٦٠
٦ ـ الاحتجاج بيسر الشريعة وضغط الواقع لركوب الحيل المحرمة والأخذ بالرخص الشاذة ٤٦٣
٧ ـ التشهير بالدعاة المصلحين واغتيابهم بحجة النصيحة والتحذير من الأخطاء ٤٧٦
٨ ـ التلبيس على الناس برفع لافتات إسلامية تخفي وراءها الكيد للدين وأهله ٤٨٢
المبحث الخامس : الأسباب الواقية من لبس الحق بالباطل ٤٨٩
١ ـ العلم والبصيرة بدين الله عز وجل وشرعه وبما يضاد ذلك ٤٩٠
٢ ـ الصبر وتقوى الله عز وجل ٤٩٢
٣ ـ محاسبة النفس ومجاهدتها وتحصينها بالذكر والدعاء

والعمل الصالح ٤٩٥
٤ ـ مصاحبة أهل العلم والورع ٥٠٠
٥ ـ الحذر من الدنيا وعدم الركون إليها ٥٠١
٦ ـ النصح للأمة والحذر من عاقبة التلبيس والتدليس عليها ٥٠٢
وبعد ٥٠٥
فهرس الجزء الأول ٥١١

لأعمال الكمبيوتر
دمنهور ـ خلف مستشفى الرمد
☎ ٣٢٠٣٣١ / ٠٤٥

وقفات تربوية

في ضوء القرآن الكريم

الجزء الثاني

الرسالة الثامنة : لا تحسبوه شراً لكم.
الرسالة التاسعة : قل هو نبأ عظيم.
الرسالة العاشرة: إياك نعبد وإياك نستعين.

بقلم
عبد العزيز بن ناصر الجليل

دار طيبة للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار طيبة للنشر والتوزيع

الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق
ص. ب ٧٦١٢ الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٣٧٣٧ فاكس ٤٢٥٨٢٧٧

الرسالة الثامنة

﴿ لا تحسبوه شرا لكم ﴾

[النور : ١١]

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

لقد اقتضت إرادة الله عز وجل وحكمته البالغة أن يخلق الثقلين من الجن والإنس في هذه الدنيا للابتلاء والاختبار ؛ فأرسل إليهم الرسل ، وأنزل إليهم الكتب ليعرفوه سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وليأمرهم بتوحيده وعبادته وحده لا شريك له ؛ قال تعالى : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الملك : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل : ٣٦]، ثم إن الله عز وجل قضى أن يكون من عباده المؤمن به والكافر ، وكتب الصراع بين أوليائه وأعدائه ليبلو بعضهم ببعض ، فكانت سنة الابتلاء وسنة الصراع بين الحق والباطل ؛ قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ** ﴾ [محمد : ٤].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : « **ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما**

جهلتم مما علمني يومي هذا ، كل مال نحلته عبداً حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظانَ... الحديث »[1] .

والشاهد من الحديث القدسي السابق قوله سبحانه : « **إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك** »، أي لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة وغير ذلك من الجهاد في الله حق جهاده ، والصبر في الله تعالى، وغير ذلك، وأبتلي بك من أرسلتك إليهم، فمنهم من يظهر إيمانه، ويخلص في طاعته ، ومنهم من يتخلف وينابذ بالعداوة والكفر ، ومنهم من ينافق .

وإن الله عز وجل ، بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى ، كتب النصر والغلبة لأهل الحق من أوليائه الصالحين المصلحين ، وكتب المهانة والذلة على أعدائه من الكافرين والمنافقين .

وهذه سنة لا تتخلف إلا إذا تخلفت أسبابها ؛ حيث يديل الله سبحانه أعداءه الكفرة على عباده المؤمنين، ويسلطهم عليهم ويظهرهم ، فتظهر من ذلك الشرور والمصائب ، كما هو الحاصل في واقعنا المعاصر ؛ حيث الاستضعاف والذلة للمسلمين ، والغلبة والقهر للكافرين ، وما كان لسنة الله سبحانه أن تتبدل ولا أن تتحول ؛ ﴿ **فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ**

(١) مسلم (٢٨٦٥) ك الجنة وصفة نعيمها .

لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : ٤٣] .

ولكن أسباب تحقيق سنة الله عز وجل في نصر عباده المؤمنين قد تخلفت ؛ فحقت علينا سنة الله عز وجل في التغيير ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، وسنة الله سبحانه لا تحابي أحداً ، ومع وضوح هذه السنة وجلائها من القرآن ، وبمقتضى العقل والحس إلا أننا نجد من هو في غفلة عنها وعن مقتضى أسمائه سبحانه وصفاته العلى ؛ حيث أدت هذه الغفلة عند البعض إلى شيء من اليأس والإحباط ، أو إلى شيء من العجلة والتسرع أمام ضغط الواقع ، وتسلط الأعداء ، وانتشار الظلم والفساد .

وقد سبق الحديث عن هذه السنة وما يتعلق بها في رسالة ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ ، وهي الرسالة الخامسة من هذه السلسلة ، ولذلك فلن يكون الكلام في هذه الرسالة عن تلكم السنة ، وإنما سينصب الاهتمام على سنة عظيمة تنبثق عنها السنة السابقة ، والله سبحانه يعرفنا عليها من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، حيث إن الجهل بها أو الغفلة عنها بعد معرفتها يسهم أيضاً في مزيد من اليأس والقنوط ، أو الجزع والتسخط ، أو الاندفاع والعجلة والتهور .

وهذه (السنة) هي موضوع هذه الرسالة ، وعنوانها : قوله تعالى : ﴿ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ ﴾ ؛ حيث إن تفهم هذه السنة الربانية ضروري في إحسان الظن بالله عز وجل ، والثقة بحكمته ورحمته ، وأنه سبحانه لا يريد بعباده المؤمنين إلا الخير ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وهذا بدوره يبث الأمل في النفوس إزاء المصائب ، ويبث

الأمل في الأمة بأن المستقبل لهذا الدين مهما تسلط أعداؤه عليه وكادوا له كيداً ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١٥) وَأَكِيدُ كَيْداً (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ [الطارق: ١٥-١٧]، وهو ضروري كذلك لإدراك أن رحمة الله عز وجل سبقت غضبه في كل ما يقدره على عباده المؤمنين ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وما أجمل ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حول هذا المعنى في كتابه القيم: (مفتاح دار السعادة)؛ قال رحمه الله تعالى:

« قد شهدت الفطر والعقول بأن للعالم رباً قادراً، حليماً، عليماً، رحيماً، كاملاً في ذاته وصفاته، لا يكون إلا مريداً للخير لعباده، مجرياً لهم على الشريعة والسنة الفاضلة العائدة باستصلاحهم، الموافقة لما ركب في عقولهم من استحسان الحسن، واستقباح القبيح، وما جبل طباعهم عليه من إيثار النافع لهم المصلح لشأنهم، وترك الضار المفسد لهم.

وشهدت هذه الشريعة له بأنه أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه المحيط بكل شيء علماً. وإذا عرف ذلك فليس من الحكمة الإلهية، بل ولا الحكمة في ملوك العالم أنهم يسوون بين من هو تحت تدبيرهم من تعريفهم كل ما يعرفه الملوك، وإعلامهم جميع ما يعلمونه، وإطلاعهم على كل ما يجرون عليه سياساتهم في أنفسهم وفي منازلهم حتى لا يقيموا في بلد منها إلا أخبروا من تحت أيديهم السبب في ذلك، والمعنى الذي قصدوه منه، ولا يأمرون رعيتهم بأمر، ولا يضربون عليهم بعثاً، ولا يسوسونهم سياسة إلا أخبروهم بوجه ذلك وسببه وغايته ومدته، بل لا تتصرف بهم الأحوال في مطاعمهم وملابسهم ومراكبهم إلا أوقفوهم على أغراضهم فيه.

ولا شك أن هذا مناف للحكمة والمصلحة بين المخلوقين ، فكيف بشأن رب العالمين وأحكم الحاكمين الذي لا يشاركه في علمه ولا حكمه أحد أبداً؟! فحسب العقول الكاملة أن تستدل بما عرفت من حكمته على ما غاب عنها ، وتعلم أن له حكمة في كل ما خلقه وأمر به وشرعه ، وهل تقتضي الحكمة أن يخبر الله تعالى كل عبد من عباده بكل ما يفعل ويوقفهم على وجه تدبيره في كل ما يريده ؟! وعلى حكمته في صغير ما ذرأ وبرأ من خليقته ؟! وهل في قوى المخلوقات ذلك ؟! بل طوى سبحانه كثيراً من صنعه وأمره عن جميع خلقه ؛ فلم يطلع على ذلك ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلاً .

والمدبر الحكيم من البشر إذا ثبتت حكمته وابتغاؤه الصلاح لمن تحت تدبيره وسياسته كفى في ذلك تتبع مقاصده فيمن يولي ويعزل ، وفي جنس ما يأمر به وينهى عنه ، وفي تدبيره لرعيته وسياسته لهم دون تفاصيل كل فعل من أفعاله ، اللَّهم إلا أن يبلغ الأمر في ذلك مبلغاً لا يوجد لفعله منفذ ومساغ في المصلحة أصلاً ؛ فحينئذ يخرج بذلك عن استحقاق اسم الحكيم ، ولن يجد أحد في خلق الله ولا في أمره ولا واحداً من هذا الضرب ، بل غاية ما تخرجه نفس المتعنت أمور يعجز العقل عن معرفة وجوهها وحكمتها ، وأما أن ينفي ذلك عنها فمعاذ الله ، إلا أن يكون ما أخرجه كذب على الخلق والأمر ، فلم يخلق الله ذلك ولا شرعه .

وإذا عرف هذا فقد علم أن رب العالمين : أحكم الحاكمين ، والعالم بكل شيء ، والغني عن كل شيء ، والقادر على كل شيء . ومن هذا شأنه لم تخرج أفعاله وأوامره قط عن الحكمة والرحمة والمصلحة ، وما يخفى على العباد من معاني حكمته في صنعه وإبداعه وأمره وشرعه فيكفيهم فيه معرفته

بالوجه العام أن تضمنته حكمة بالغة، وإن لم يعرفوا تفصيلها، وأن ذلك من علم الغيب الذي استأثر الله به، فيكفيهم في ذلك الإسناد إلى الحكمة البالغة العامة الشاملة، التي علموا ما خفي منها بما ظهر لهم »[1] اهـ.

وأكتفي بهذا القدر في هذه المقدمة ؛ لأن التفصيل سيأتي إن شاء الله في ثنايا البحث من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواقف العملية التي تظهر لنا منها ثمار هذه السنة الكريمة، وخاصة في واقعنا المعاصر المليء بالشبهات، والشهوات، والمتناقضات، والمكائد، والمؤامرات.

وقد قسمت الموضوع إلى المباحث التالية :

١ ـ أهمية الموضوع .

٢ ـ بعض الآيات الواردة في ذلك .

٣ ـ بعض الأحاديث والآثار الواردة في ذلك .

٤ ـ بعض الأحداث والمواقف المعبرة.

٥ ـ تنبيه واحتراس.

٦ ـ من ثمرات هذه السنة .

٧ ـ بعض الوسائل الجالبة لفقه هذه السنة .

٨ ـ حال المسلمين اليوم في ضوء هذه السنة.

٩ ـ الخاتمة .

وإنه ليس لي في هذا البحث جهد إلا جمع ما قاله أئمتنا من العلماء

(١) مفتاح دار السعادة ص٣٢٦.

والدعاة ، ثم الربط بين أقوالهم ؛ فجزاهم الله عنا خيراً .

أسأل الله عز وجل أن ينفع به جامعه وقارئه ، وأن يرزقنا الإخلاص والصواب فيما نقول ونعمل ، ونأخذ ونذر ؛ إنه سميع مجيب .

تنبيه : سيتكرر في هذا البحث جملة (هذه السنة) كثيراً ، والمقصود منها قوله تعالى : ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ﴾.

* * *

المبحث الأول
أهمية الموضوع

في هذا المبحث سأحاول جاهداً - إن شاء الله تعالى - أن أفصل ما أجمل في المقدمة السابقة ، موضحاً بذلك الدوافع التي دفعت إلى هذا الموضوع ، وبيان شيء من أهميته ، وذلك من خلال الأمور التالية :

الأمر الأول :

علاقة هذه السنة بالعقيدة قوة وضعفاً ؛ فكلما قوي الإيمان بالله عز وجل في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ قوي الفهم لهذه السنة، وأثمرت في القلوب ثمارها الطيبة.

والإيمان بهذه السنة والاصطباغ بها هو مقتضى الرضا بالله رباً ومعبوداً ، ومقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العلى ؛ حيث إن هذه السنة من ثمرات أسمائه سبحانه الحسنى ، والتي منها الحكيم والعليم والكريم واللطيف والبر الرحيم. . . وغيرها من الأسماء والصفات التي يجب التعبد لله سبحانه بها.

كما يظهر الارتباط بين هذه السنة وبين التوحيد ، في أثرها على صدق التوكل على الله عز وجل ، وتفويض الأمور إليه ، واليقين والثقة بوعده ، وإحسان الظن به جل وعلا ، وأنه سبحانه لا يريد بعباده المؤمنين إلا الخير والإصلاح .

فمهما ظهر من الشرور والمصائب ، فله سبحانه الحكمة البالغة : ﴿ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٦] ، وأما ارتباطها بالأصل الخامس من أصول الإيمان - ألا وهو الإيمان باليوم الآخر - فهذا واضح ؛ لأن اليقين باليوم الآخر ، ورجاء الأجر من الله عز وجل هناك يقوي الارتباط بهذه السنة ، في أن الآخرة خير وأبقى ، مهما فات من هذه الدنيا ، وأما علاقتها بالأصل السادس من أصول الإيمان - ألا وهو الإيمان بالقدر خيره وشره - فهذا ظاهر لا يحتاج إلى تعليق .

الأمر الثاني :

ما نراه اليوم في واقعنا المعاصر من الضغوط الشديدة والحرب الشرسة من أعداء هذا الدين من اليهود والنصارى والمنافقين والمفسدين ، وما يكيدون به لهذا الدين وأهله من الاستضعاف والتشويه والابتلاء ؛ مما أدى أو يؤدي إلى ظهور حالات اليأس والإحباط من تغير الحال ، أو الشعور بالهزيمة النفسية والهوان والاستكانة ، فكان لابد من التذكير بهذه السنة العظيمة التي تقوي اليقين بوعد الله سبحانه ، والثقة بنصره ، والاطمئنان إلى قضائه وتدبيره ، وأنه سبحانه الحكيم العليم فيما يقضي ويقدر ، ولابد أن يأتي الخير بعد الشر عندما يأذن الله سبحانه في ذلك وفق علمه الشامل ، وحكمته البالغة ، وسننه التي لا تتبدل ولا تتحول .

الأمر الثالث :

الجهل الحاصل عند بعض المسلمين بسنن الله سبحانه في التغيير ، أو التغافل عنها بعد معرفتها ، وإن في فهم قوله تعالى : ﴿ **لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ** ﴾ [النور: ١١] خير معين لتفهم سنن الله عز وجل الأخرى ، كما في قوله

تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

وفي هذه المعرفة فتح باب للمنهج الصحيح في الدعوة إلى الله سبحانه، كما أن فيها وقاية من التخبط والاضطراب في المناهج والاجتهادات، كما أن في دراسة هذه السنة وربط الأحداث والوقائع بها أكبر ضمانة للعقل المسلم من أن يتأثر بالتصورات الجاهلية والتفسيرات المادية للتاريخ والأحداث، التي سيطرت اليوم على كثير من عقول المسلمين المتأثرين بوسائل الإعلام المادية، وبالثقافات التي لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا بالقدر خيره وشره.

الأمر الرابع:

التنبيه إلى طلب الخيرة من الله سبحانه في كل الأمور، وتفويض الأمور إلى حسن تدبيره عز وجل واختياره؛ لأنه سبحانه يعلم ولا نعلم، ويقدر ولانقدر، وهو علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما سيكون، ويعلم أين يكون الخير، وأين يكمن الشر، ولذلك جاء التوجيه إلى دعاء الاستخارة في الأمور كلها، وسيأتي ذكر هذا الدعاء في مبحث الأحاديث الواردة في ذلك إن شاء الله تعالى.

الأمر الخامس:

كثرة المشاكل والمصائب في زماننا هذا، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، والتي أدت إلى ظهور كثير من الأمراض النفسية المعقدة: كالقلق، والاكتئاب، والفصام، وغيرها، حتى أصبحت سمة لواقعنا المعاصر.

وقد أسهم في ظهور هذه الأمراض أمور عدة ، أهمها : عدم معرفة الله سبحانه بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته المعرفة التي تزرع في القلب الاطمئنان والرضا ، وتفويض الأمور إليه سبحانه ، وحسن الظن به عز وجل ، وأن اختيار الله لعبده أحسن من اختيار العبد لنفسه ، ولو ظهر ما يكرهه العبد ويؤذيه .

إن في تفهم قوله تعالى : ﴿ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ﴾ أحسن علاج لهذه الأمراض وغيرها.

الأمر السادس :

إن في هذه السنة وتفهمها طريقاً موصلاً إلى الفقه بقاعدة الشرع العظيمة، والتي بنيت عليها أحكام الشرع ؛ ألا وهي اليسر ورفع الحرج والمشقة ، وأن الله عز وجل لا يريد بعباده المؤمنين إلا اليسر والرحمة ؛ سواء في أحكامه الكونية القدرية ، أو الدينية الشرعية .

❋ ❋ ❋

المبحث الثاني
بعض الآيات الواردة في ذلك

ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة ينبه الله سبحانه وتعالى فيها على هذه السنة الكريمة ويلفت الأنظار إليها : إما على إثر حكم تكليفي يشرعه سبحانه، أو بعد حدث من الأحداث ، وموقف من المواقف .

وفي هذا المبحث سأذكر - إن شاء الله تعالى - بعض الآيات المتعلقة بموضوعنا ، وبعضها الآخر يأتي ضمن مبحث الثمرات ، وأكتفي هنا بما سطره بعض المفسرين الكرام من علماء الأمة حول هذه الآيات ؛ حيث لا مزيد عليها ولا استدراك ؛ فرحمهم الله وعفا عنهم .

الآية الأولى والثانية :

قوله تعالى : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢١٦].

وقوله تعالى : ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء : ١٩].

يعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على هاتين الآيتين فيقول : « فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية، والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية. فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على

نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعاده، وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، فالإنسان كما وصفه خالقه : **ظلوم جهول**؛ فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه ؛ بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه .

فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضر الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه. فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصاً له فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيراً له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته ، فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له ، فمن صحت له معرفة ربه ، والفقه في أسمائه وصفاته علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه ، والمحن التي تنزل به ، فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته ؛ بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب.

فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها ، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها ؛ فانظر إلى غارس جنة من الجنات - خبير بالفلاحة - غرس جنة ، وتعاهدها بالسقي والإصلاح حتى أثمرت أشجارها ؛ فأقبل عليها يفصل أوصالها ، ويقطع أغصانها ؛ لعلمه أنها لو خليت على حالها لم تطب ثمرتها ؛ فيطعمها من شجرة طيبة الثمرة حتى إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها أقبل يقلمها ، ويقطع أغصانها الضعيفة التي تذهب قوتها ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك؛ثم لا يدعها ودواعي طبعها من الشرب كل وقت ، بل يعطشها وقتاً ، ويسقيها وقتاً ، ولا يترك الماء عليها دائماً ، وإن كان ذلك

أنضر لورقها وأسرع لنباتها ، ثم يعمد إلى تلكم الزينة التي زينت بها من الأوراق فيلقي عنها كثيراً منها ؛ لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها ، كما في شجر العنب ونحوه ، فهو يقطع أعضاءها بالحديد ، ويلقي عنها كثيراً من زينتها ! وذلك عين مصلحتها ، فلو أنها ذات تمييز وإدراك كالحيوان لتوهمت أن ذلك إفساد لها ، وإضرار بها ، وإنما هو عين مصلحتها .

وكذلك الأب الشفيق على ولده ، العالم بمصلحته ؛ إذا رأى مصلحته في إخراج الدم الفاسد عنه ـ بضع جلده ، وقطع عروقه ، وأذاقه الألم الشديد ، وإن رأى شفاءه في قطع عضو من أعضائه أبانه عنه ؛ كل ذلك رحمة به ، وشفقة عليه ، وإن رأى مصلحته في أن يمسك عنه العطاء لم يعطه ، ولم يوسع عليه ؛ لعلمه أن ذلك أكبر الأسباب إلى فساده وهلاكه ، وكذلك يمنعه كثيراً من شهواته حمية له ومصلحة لا بخلاً عليه .

فأحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وأعلم العالمين ، الذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ، ومن آبائهم وأمهاتهم ، إذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيراً لهم من ألا ينزله بهم ؛ نظراً منه لهم ، وإحساناً إليهم ، ولطفاً بهم . ولو مكنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علماً وإرادة وعملاً ، لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته ـ أحبوا أم كرهوا ـ فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته ، فلم يتهموه في شيء من أحكامه ، وخفي ذلك على الجهال به وبأسمائه وصفاته فنازعوه تدبيره ، وقدحوا في حكمته ، ولم ينقادوا لحكمه ، وعارضوا حكمته بعقولهم الفاسدة ، وآرائهم الباطلة وسياساتهم الجائرة ! فلا لربهم عرفوا ، ولا

لمصالحهم حصلوا، والله الموفق»[1] اهـ.

وذكر القرطبي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً﴾ [البقرة:٢١٦] قوله: «وقال أبو عبيدة: «عسى» من الله إيجاب، والمعنى عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة، وهو خير لكم في أنكم تغلبون، وتَظفرون، وتَغْنَمُون، وتؤجرون، ومن مات مات شهيداً. وعسى أن تحبُّوا الدعة وترك القتال، وهو شر لكم - في أنكم تُغلبون، وتُذَلُّون، ويذهب أمركم.

قلت: وهذا صحيح لا غبار عليه؛ كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد، وجبنوا عن القتال، وأكثروا من الفرار؛ فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟! وأسر وقتل وسبى واسترقّ، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته!

وقال الحسن في معنى الآية: لا تكرهوا الملمات الواقعة؛ فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تحبه فيه عطبك، وأنشد أبو سعيد الضرير:

رُبَّ أمْرٍ تتّقيه ... جَرّ أمراً تَرْتَضيه
خَفِيَ المحبُوبُ منه ... وَبَدَا المكروهُ فيه[2]» اهـ.

وعند قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء: ١٩].

يقول صاحب تفسير المنار رحمه الله تعالى، بعد أن ذكر ما في إمساك المرأة مع الكُره لها من الخير -: «هذا وإن التعليل في الآية يرشدنا إلى قاعدة

(١) الفوائد ص٩١-٩٣

(٢) تفسير القرطبي عند الآية (٢١٦) من سورة البقرة.

عامة تأتي في جميع الأشياء لا في النساء خاصة ، و هي أن بعض ما يكرهه الإنسان يكون فيه خير له ؛ متى جاء ذلك الخير تظهر قيمة ذلك الشيء المكروه . وهي قاعدة عرف العقلاء صدقها بالتجارب ، ولأجل التنبيه لها قال تعالى : ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً﴾ ، ولم يقل : «وعسى أن تكرهوا امرأة» .

ثم إن في الصبر على المكروه واحتماله فوائد أخرى غير ما يمكن أن يكون في المكروه نفسه من الخير المحبوب ؛ فالصابر المتحمل يستفيد من كل مكروه بصبره وروّيته سواء ترتب عليه في ذاته خير أم لا .

ومن المكروه الذي يترتب عليه خير : القتال بالحق لأجل حماية الحق والدفاع عنه ؛ فهو بما فيه من المشقة مكروه طبعاً ، وناهيك بما يترتب عليه من إظهار الحق ونصره ، وظهور أهله ، وخذلان الباطل وحزبه »[1] اهـ .

ونختم الحديث عن هذه الآية من سورة البقرة بتعليق مفيد لصاحب الظلال رحمه الله تعالى ؛ حيث يقول : « إن هذه اللمسة الربانية للقلب البشري لتفتح أمامه عالماً آخر غير العالم المحدود الذي تبصره عيناه ، وتبرز أمامه عوامل أخرى تعمل في صميم الكون ، وتقلّب الأمور ، وترتب العواقب على غير ما كان يظنه ويتمناه ، وإنها لتتركه حين يستجيب لها طيّعاً في يد القدر ، يعمل ويرجو ، ويطمع ويخاف ، ولكن يرد الأمر كله لليد الحكيمة والعلم الشامل ، وهو راضٍ قرير . . . إنه الدخول في السلم من بابه الواسع ، فما تستشعر النفس حقيقةَ السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله ، وأن الخير في طاعة الله دون محاولة منها أن تجرب ربها ، وأن تطلب منه البرهان !

---

(١) تفسير المنار (لمحمد رشيد رضا) عند الآية (١٩) من سورة النساء .

إن الإذعان الواثق، والرجاء الهادئ ، والسعي المطمئن . . هي أبواب السلم الذي يدعو الله عباده الذين آمنوا ليدخلوا فيه كافة ، وهو يقودهم إليه بهذا المنهج العجيب العميق البسيط ، في يسر وفي هوادة وفي رخاء ؛ يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال ؛ فالسلم الحقيقي هو سلم الروح والضمير حتى في ساحة القتال .

وإن هذا الإيحاء الذي يحمله ذلك النص القرآني ، لا يقف عند حد القتال ، فالقتال ليس إلا مثلاً لما تكرهه النفس ، ويكون من ورائه الخير . . . إن هذا الإيحاء ينطلق في حياة المؤمن كلها ، ويلقي ظلاله على أحداث الحياة جميعها . . . إن الإنسان لا يدري أين يكون الخير ، وأين يكون الشر . . .

. . . وكل إنسان ـ في تجاربه الخاصة ـ يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم ، ولذّات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم . وكم من مطلوب يكاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته ؛ ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذاً من الله أن فَوَّت عليه هذا المطلوب في حينه ، وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثاً يكاد يتقطع لفظاعتها ، ثم نظر بعد فترة فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل .

إن الإنسان لا يعلم ، والله وحده يعلم ، فماذا على الإنسان لو يستسلم؟!

إن هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية ، لتؤمن ، وتسلم ، وتستسلم في أمر الغيب المخبوء بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف . . . »[1] .

(١) تفسير في ظلال القرآن ، الآية (٢١٦) من سورة البقرة .

الآية الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

[آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١]

وهذه الآيات وما بعدها نزلت في غزوة أحد ، وما أصاب المسلمين فيها من الشدة والقرح ، والشاهد من هذه الآية آخرها ؛ حيث ذكر الله سبحانه أن من وراء هذه الشدة واللأواء خيراً للمسلمين ؛ وذلك لفوز بعضهم بالشهادة التي هي خير مما يجمعون ، كما أن فيها كشفاً وتمحيصاً للنفوس ، وظهورها على حقيقتها ؛ وفي هذا خير كثير .

وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في مبحث المواقف والأحداث ، وأكتفي هنا بما ذكره بعض المفسرين حول هذه الآية .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« إن الشدة بعد الرخاء ، والرخاء بعد الشدة ، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس ، وطبائع القلوب ، ودرجة الغبش فيها والصفاء ، ودرجة الهلع فيها والصبر ، ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط ، ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح !

عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن : مؤمنين ومنافقين ، ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم ، وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم ، ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه

وأفراده وهم مختلطون مبهمون !

والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين ، والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور ، ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء ، وتجعله واقعاً في حياة الناس ، وتحوّل الإيمان إلى عمل ظاهر ، وتحوّل النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر ، ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء ، فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ، ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم . . .

. . . ثم يمضي السياق القرآني يكشف عن الحكمة الكامنة وراء الأحداث في تربية الأمة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى ، ولتكون أداة من أدوات قدره في محق الكافرين ، وستاراً لقدرته في هلاك المكذبين : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز . التمحيص عملية تتم في داخل النفس ، وفي مكنون الضمير ، إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية ، وتسليط الضوء على هذه المكنونات تمهيداً لإخراج الدخل والدغل والأوشاب ، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق ، بلا غبش ولا ضباب .

وكثيراً ما يجهل الإنسان نفسه ، ومخابئها ودروبها ومنحنياتها ، وكثيراً ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها ، وحقيقة ما استكن فيها من رواسب ، لا تظهر إلا بمثير !

وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله سبحانه بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء ؛ يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا

المحك المرير : محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية ، ولقد يظن الإنسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص ؛ ثم إذا هو يكشف على ضوء التجربة العملية ، وفي مواجهة الأحداث الواقعية أن في نفسه عقابيل لم تمحص ، وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط ! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ؛ ليعاود المحاولة في سبكها من جديد ، على مستوى الضغوط التي تقتضيها طبيعة هذه الدعوة ، وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيدة !

والله سبحانه كان يربي هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية ، وكان يريد بها أمراً في هذه الأرض فمحّصها هذا التمحيص ، الذي تكشفت عنه الأحداث في أحد ، لترتفع إلى مستوى الدور المقدر لها ؛ وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها .

﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ . . .

تحقيقاً لسنته في دمغ الباطل بالحق متى استعلن الحق ، وخلص من الشوائب بالتمحيص »[1] اهـ .

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله عند هذه الآية أيضاً :

« . . . فالإنسان يلتبس عليه أمر نفسه فلا يتجلى كمال التجلي إلا بالتجارب الكثيرة ، والامتحان بالشدائد العظيمة ؛ فالتجارب والشدائد كتمحيص الذهب يظهر به زيفه ونضاره ، ثم إنها أيضاً تنفي خبثه وزغله . كذلك كان الأمر في أحد ؛ تميز المؤمنون الصادقون من المنافقين وتطهرت

(١) في ظلال القرآن : عند الآية (١٤١) من سورة آل عمران .

نفوس بعض الضعفاء المؤمنين من كدورتها ؛ فصارت تبراً خالصاً ، وهؤلاء هم الذين خالفوا أمر النبي ﷺ وطمعوا في الغنيمة ، والذين انهزموا وولوا وهم مدبرون . محص الجميع بتلك الشدة فعلموا أن المسلم ما خلق ليلهو ويلعب ، ولا ليكسل ويتواكل ، ولا لينال الظفر والسيادة بخوارق العادات ، وتبديل سنن الله في المخلوقات ؛ بل خلق ليكون أكثر الناس جداً في العلم ، وأشدهم محافظة على النواميس والسنن »[1] اهـ.

الآية الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾ [آل عمران : ١٧٩].

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « أي : لابد أن يعقد سبباً من المحنة ، يظهر فيه وليّه ، وينفضح فيه عدوّه ؛ يُعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر »[2] اهـ.

ويتحدث صاحب تفسير المنار محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى عن الخير الكامن في الشرور والابتلاءات ؛ فيقول معلقاً على هذه الآية :

« الشدائد تميز بين القوي في الإيمان والضعيف فيه ، فهي التي ترفع ضعيف العزيمة إلى مرتبة قويها ، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين ، وفي ذلك فوائد كثيرة منها :

* أن الصادق قد يفضي ببعض أسرار الملة إلى المنافق ؛ لما يغلب عليه من

(١) تفسير المنار : عند الآية (١٤١) من سورة آل عمران .

(٢) تفسير ابن كثير : عند الآية (١٧٩) من سورة آل عمران .

حسن الظن والانخداع بأداء المنافق للواجبات الظاهرة ، ومشاركته للصادقين في سائر الأعمال ؛ فإذا عرفه اتقى ذلك .

* ومنها : أن تعرف الجماعة وزن قوتها الحقيقية ؛ لأنها بانكشاف حال المنافقين لها تعرف أنهم عليها لا لها ، وبانكشاف حال الضعفاء الذين لم تُربهم الشدة تعرف أنهم لا عليها ولا لها .

هذا بعض ما تكشفه الشدة للجماعة من ضرر الالتباس . وأما الأفراد ، فإنها تكشف لهم حجب الغرور بأنفسهم ؛ فإن المؤمن الصادق قد يغترّ بنفسه فلا يدرك ما فيها من الضعف في الاعتقاد والأخلاق ؛ لأن هذا مما يخفى مكانه على صاحبه حتى تظهره الشدائد ؛ فلما كان هذا اللبس ضاراً بالأفراد والجماعات ، ولم يكن من شأن الله ولا من حكمته أن يستبقي في عباده ما يضرهم ؛ مضت سنته بأن يميز الخبيث من الطيب ؛ فتظهر الخفايا ، وتبلى السرائر ؛ حتى يرتفع الالتباس ، ويتضح المنهج السوي للناس»[(١)] اهـ.

الآية الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ **قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَـوَاتِ والأَرْضِ قُـل لِّلَّه كَتَـبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾ [الأنعام : ١٢] .

ومناسبة هذ الآية لموضوعنا هي أن رحمة الله عز وجل بعباده هي الأصل في كل ما يقضيه ويقدره .

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« فرحمة الله بعباده هي الأصل حتى في ابتلائه لهم أحياناً بالضراء ، فهو

(١) تفسير المنار : عند الآية (١٧٩) من سورة آل عمران .

يبتليهم ليعد طائفة منهم بهذا الابتلاء لحمل أمانته ، بعد الخلوص والتجرد والمعرفة والوعي والاستعداد والتهيؤ عن طريق هذا الابتلاء ، وليميز الخبيث من الطيب في الصف ، وليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة . . والرحمة في هذا كله ظاهرة . . .

إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه - حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء التي تزيغ فيها القلوب والأبصار - فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة ، وكل حالة ، وكل وضع ، وأن ربه لا يعرضه للابتلاء ؛ لأنه تخلى عنه ، أو طرده من رحمته ، فإن الله لا يطرد من رحمته أحداً يرجوها ، إنما يطرد الناسُ أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها !

وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر ، وبالرجاء والأمل ، وبالهدوء والراحة . . . فهو في كنف ودود ، يستروح ظلاله ، ما دام لا يُبعد عنه في الشرود ! » (١) اهـ.

الآية السادسة :

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [النور : ١١].

وقد نزلت هذه الآية في تبرئة أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها - من الإفك المفترى عليها والتهمة الشنيعة التي ألصقت بها ،

(١) في ظلال القرآن : عند الآية ١٢ من سورة الأنعام.

وذلك بعد رجوع الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق [المريسيع] .

ومن هذه الآية أخذ عنوان هذا البحث : ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وفي هذه الآية يذكر الله عز وجل أن من وراء هذا الحدث المؤلم خيراً ورحمة ، وإن كان مؤلماً للرسول ﷺ ، ولعائشة رضي الله عنها ، ولآل أبي بكر وللمسلمين بعامة ، ومن هذا الخير ما ذكره سيد قطب رحمه الله في تفسيره ـ إذ يقول :

« . . . فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته ، وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف ، وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله ، ويبين مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، فهي عندئذ لا تقف عند حد ؛ إنما تمضي صعداً إلى أشرف المقامات ، وتتطاول إلى أعلى الهامات ، وتعدم الجماعة كل وقاية ، وكل تحرج ، وكل حياء »[1] اهـ.

وذكر الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره بعض جوانب الخير في هذه القصة عند تفسيره لهذه الآية ، فقال :

« ومعلوم أنه ﷺ تأذى بذلك ، وكذلك أبو بكر ومن يتصل به ، فإن قيل : فمن أي جهة يصير خيراً لهم مع أنه مضرة في العاجل ؟ قلنا : لوجوه :

أحدها : بأنهم صبروا على ذلك الغم طلباً لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب . وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم بهم .

وثانيها : أنه لولا إظهارهم للإفك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة في

(١) في ظلال القرآن : عند الآية (١١) من سورة النور .

صدور البعض ، وعند الإظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر .

وثالثها : أنه صار خيراً لهم لما فيه من شرفهم ، وبيّان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة ، وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم إلى الإفك ، وأوجب عليهم اللعن والذم ، وهذا غاية الشرف والفضل .

ورابعها : صيرورتها بحال تعلق الكفر والإيمان بقدحها ومدحها ؛ فإن الله تعالى نص على كون تلك الواقعة إفكاً وبالغ في شرحه ؛ فكل من يشك فيه كان كافراً قطعاً ، وهذه درجة عالية »[1] اهـ .

وأختم الحديث حول هذه الآية بلفتة جيدة أثارها المودودي رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية ؛ حيث يقول :

« . . . ومن نواحي الخير في هذا الحادث ، على ما تقدم ، أن المسلمين جميعاً علموا به أحسن العلم أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب ، وأنه لا يعلم إلا ما يخبره به الله سبحانه وتعالى ، وأن علمه لا يفوق بعد ذلك علم عامة البشر .

فقد ظل إلى شهر كامل يعاني الألم وفجيعة القلب في أمر عائشة ، فيسأل فيها خادم بيتها تارة ، وعلياً أخرى ، وأسامة بن زيد ثالثة ، وأزواجه رابعة ، وأخيراً يذهب إلى عائشة نفسها ، ولا يقول لها إلا : « **إن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه** »[2] .

فلو أنه ﷺ كان يعلم الغيب فلماذا كان يعاني هذا الألم والقلق والأرق الشديد المديد ، ولماذا يسأل في عائشة غيره ويلقنها التوبة ؟ ولكن لما نزل

---

(١) تفسير الرازي : الآية (١١) سورة النور .

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٧٥٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠) .

الوحي ، وأحاطه بحقيقة الواقع ؛ علم ما لم يكن يعلم هو ولا غيره من البشر طول شهر كامل .

فهكذا أراد الله تعالى أن ينقذ المسلمين بالتجربة والمشاهدة المباشرة من الغلوّ في شخص مقتداهم ومرشدهم ﷺ .

وليس من البعيد أن يكون هذا من المصالح التي لأجلها حبس الله سبحانه وتعالى وحيه عن رسوله إلى شهر كامل . ولو أنه أنزل عليه الوحي يوم وقع هذا الحادث ، لما رجع على المسلمين بهذه الفائدة العظيمة »[1] اهـ.

الآية السابعة :

قوله تعالى : ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [فاطر : ٢].

ومن خير ما قرأت حول هذه الآية ما كتبه سيد قطب رحمه الله تعالى ؛ حيث عاش مع هذه الآية بكيانه وانفتحت له في هذه الآية معان عظيمة سطرها في ثلاث صفحات كاملة ؛ أنصح كل أخ مسلم بقراءتها كاملة ؛ حيث لا يتسع المقام إلا لمقتطفات منها ، يقول رحمه الله تعالى :

« وما من نعمة - يمسك الله معها رحمته - حتى تنقلب هي بذاتها نقمة ، وما من محنة - تحفها رحمة الله - حتى تكون هي بذاتها نعمة . . . ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله - فإذا هو مهاد ، وينام على حرير - وقد أمسكت عنه - فإذا هو شوك القتاد . ويعالج أعسر الأمور - برحمة الله - فإذا هي هوادة ويسر ، ويعالج أيسر الأمور - وقد تخلت رحمة الله - فإذا هي مشقة وعسر .

---

(١) تفسير سورة النور للمودودي ص ١٢٦ .

ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام ، ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار !

ولا ضيق مع رحمة الله ، إنما الضيق في إمساكها دون سواه ، لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن ، أو في جحيم العذاب ، أو في شعاب الهلاك ، ولا وسعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم ، وفي مراتع الرخاء ، فمن داخل النفس برحمة الله تتفجَّر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة ، ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكدر والمعاناة ! . . .

. . . المال والولد ، والصحة والقوة ، والجاه والسلطان ، تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أمسكت عنها رحمة الله ، فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان . . .

. . . رحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان، ولا في أي حال ؛ وجدها إبراهيم ـ عليه السلام ـ في النار، ووجدها يوسف ـ عليه السلام ـ في الجب، كما وجدها في السجن، ووجدها يونس ـ عليه السلام ـ في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ، ووجدها موسى ـ عليه السلام ـ في اليم وهو طفل مجرّد من كل قوة ومن كل حراسة ، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له ، متربص به ، ويبحث عنه ! ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور ؛ فقال بعضهم لبعض : ﴿ **فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ رَحْمَتِهِ** ﴾ [الكهف : ١٦] ، ووجدها رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار . . . ووجدها كل من آوى إليها يائساً من كل ما سواها، منقطعاً عن كل شبهة في قوة ، وعن كل

مظنة في رحمة ، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب » اهـ[١] .

والشاهد من هذه الآية : ألا يجزع المسلم من المكروه إذا ظهر له ؛ فإنه متى ما فتح الله رحمته فيه كان رخاءً وخيراً وروحاً واسترواحاً ، كما يجب عليه أن لا يغتر بالخير والرخاء والسرور الظاهر ؛ فإنه متى ما أمسكت عنه رحمة الله عز وجل أصبح شقاء ونكداً وضيقاً .

إن هذه هي الموازين الثابتة التي لا تهتز ولا تتأرجح ، والتي يجب أن توزن بها الحياة والأشياء .

* * *

(١) في ظلال القرآن : الآية (٢) من سورة فاطر .

المبحث الثالث
بعض الأحاديث والآثار الواردة في ذلك

وفي هذا المبحث أُورد بعض الأحاديث والآثار التي تتكلم عن سنة الله عز وجل في قضائه وحكمه ، وأنه سبحانه يريد الخير والرحمة بعباده المؤمنين، ولو ظهر للناس خلاف ذلك .

وسأذيل على بعض الأحاديث بما يناسب من التعليقات إن شاء الله تعالى .

أولاً : الأحاديث :

الحديث الأول :

عن علي بن أبي طالب ، عن رسول الله ﷺ ، أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « **وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ؛ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين . اللّهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي ، واعترفت بذنبي ؛ فاغفر لي ذنوبي جميعاً ؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق ؛ لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت . لبيك وسعديك ، والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك** »[1] .

(١) رواه مسلم : كتاب صلاة المسافرين.باب (٢٦) الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٤) (٧٧١) .

والشاهد من هذا الحديث العظيم ما جاء في آخره: «**والشر ليس إليك**»؛ حيث نفى الرسول ﷺ أن يكون في أفعال الله عز وجل شر، وإنما هو الخير والحكمة والرحمة. وعلى هذا يعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول:

«فهذا النفي يقتضي امتناع إضافة الشر إليه تعالى بوجه؛ فلا يضاف إلى ذاته ولا صفاته ولا أسمائه ولا أفعاله؛ فإن ذاته منزهة عن كل شر، وصفاته كذلك؛ إذ كلها صفات كمال، ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك البتة، وهو المحمود على ذلك كله فيستحيل إضافة الشر إليه»[1] اهـ.

ويقول أيضاً في موطن آخر:

« . . . فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى؛ فإن ذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها أصلاً.

ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه منه حكم - تعالى وتقدس عن ذلك - وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض؛ إذ هو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شراً بالنسبة إليهم؛ فالشر وقع في تعلقه بهم، وقيامه بهم لا في فعله القائم به تعالى.

(١) طريق الهجرتين ص١٦٣ ط. الشئون الدينية بقطر.

ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة ؛ فإنه خالق الخير والشر ، ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على بال :

أحدهما : أن ما هو شر أو متضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولاً منفصلاً ، لا يكون وصفاً له ولا فعلاً من أفعاله .

الثاني : أن كونه شراً هو أمر نسبي إضافي ، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به ، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه ؛ فله وجهان هو من أحدهما خير ، وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى : خلقاً وتكويناً ومشيئة ؛ لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها ، وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها .

وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادي معرفتها ، فضلاً عن حقيقتها ؛ فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله سبحانه هو الغني الحميد ، وفاعل الشر لا يفعله [إلا][*] لحاجته المنافية لغناه أو لنقصه وعيبه المنافي لحمده ؛ فيستحيل صدور الشر من الغني الحميد فعلاً ، وإن كان هو الخالق للخير والشر فقد عرفت أن كونه شراً هو أمر إضافي ، هو في نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه ، فلا تغفل عن هذا الموضع ؛ فإنه يفتح لك باباً عظيماً من معرفة الرب ومحبته ، ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء . وقد بسطت هذا في كتاب التحفة المكية ، وكتاب الفتح القدسي ، وغيرهما . وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة :

أحدها : أن السارق إذا قطعت يده ؛ فقطعها شر بالنسبة إليه ، وخير

(*) ما بين المعكوفين تمت إضافته لتصحيح السياق ، ولعل حذفها تصحيف من الطابع .

محض بالنسبة إلى عموم الناس ؛ لما فيه من حفظ أموالهم ، ودفع الضرر عنهم ، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمراً وحكماً ؛ لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموماً بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم ، المضرّ بهم ؛ فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، مشكور عليه ، يستحق عليه الحمد من عباده ، والثناء عليه والمحبة .

وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم في دمائهم وحرماتهم ، وجلد من يصول عليهم في أعراضهم ؛ فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم في دنياهم ؛ فكيف عقوبة من يصول على أديانهم ؟ ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به رسله ، وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به؟! أفليس في عقوبة هذا الصائل خير محض ، وحكمة وعدل وإحسان إلى العبيد ؟ وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي ؛ فالشر ما قام به من تلك العقوبة . وأما ما نسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة ؛ فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم ، والسر الذي يطلعك على مسألة القدر ، ويفتح لك الطريق إلى الله ، ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه . . . »[(١)] اهـ .

الحديث الثاني والثالث :

عن صهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **عجباً لأمر المؤمن ؛ إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له** »[(٢)] .

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢١١) .

(٢) رواه مسلم ـ كتاب الزهد والرقائق ـ باب (١٣) المؤمن أمره كله خير (٤/ ٢٢٩٥) (٢٩٩٩) .

وجاء في معنى هذا الحديث أيضاً الحديث التالي :

عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « **عجبت للمؤمن ! إن الله لم يقض قضاء إلا كان خيراً له** »[(١)] .

في الحديثين السابقين يرشدنا الرسول ﷺ إلى أن ما يقدره الله عز وجل على عبده المؤمن فهو خير له ، فهو لن يعدم أحد الخيرين ؛ إما أن تكون سراء فيشكر الله عليها ، وإما أن تكون ضراء مكروهة فيصبر ويحتسب الأجر من الله عليها ، وكلا الأمرين خير لصاحبهما ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

«وما يصيب الإنسان ، إن كان يسره فهو نعمة بينة ، وإن كان يسوءه فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه ، ويثاب بالصبر عليه ، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها ، ﴿ **وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢١٦] . . . إلى أن يقول :

. . . أما نعمة الضراء ؛ فاحتياجها إلى الصبر ظاهر ، وأما نعمة السراء ؛ فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها ، فإن فتنة السراء أعم من فتنة الضراء . كما قال بعض السلف : ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»[(٢)] اهـ .

ويتحدث صاحب الظلال رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ **وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾ [الأنبياء : ٣٥] ، فيقول : « والابتلاء بالشر مفهوم أمره ؛

(١) رواه أحمد (١/ ١١٧ ، ١٨٤) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٨) .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/ ٣٠٥ ، ٣٠٦) .

ليتكشف مدى احتمال المبتلَى ، ومدى صبره على الضر ، ومدى ثقته في ربه، ورجائه في رحمته . . . فأما الابتلاء بالخير فهو في حاجة إلى بيان :

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة ، وإن خُيِّل للناس أنه دون الابتلاء بالشر . .

إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير .

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف ، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة ، ويكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهم ، الجامحة في أوصالهم .

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان ؛ فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل ، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان وما يغريان به من متاع، وما يثيرانه من شهوات وأطماع!

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم ، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم ، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء !

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ،ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح ؛ ثم لا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال ، وبالاسترخاء الذي يقعد الهمم ويذلل الأرواح !

إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ، ويستحث المقاومة، ويجند الأعصاب ؛ فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها ، أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة !

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح ، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء ! وذلك شأن البشر . . إلا من عصم الله فكانوا ممن قال فيهم رسول الله ﷺ : « **عجباً لأمر المؤمن** ... الحديث » وهم قليل ! »[(١)] اهـ .

الحديث الرابع :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ؛ يقول : **إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللَّهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللَّهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري** ـ أو قال : **عاجل أمري وآجله** ـ **فاقدره لي ، ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري** ـ أو قال : **في عاجل أمري وآجله** ـ **فاصرفه عني ، واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم أرضني به** . قال : **ويُسمي حاجته** »[(٢)] .

وفي هذا الحديث إرشاد نبوي كريم إلى الاستعانة بالله عز وجل ، واللجوء إليه ، وتفويض الأمور كلها إليه سبحانه ، وطلب الخيرة منه ، فيما يُستقبل من الأمور لأنها غيب ، ولا يعلم عاقبتها إلا علام الغيوب ، وهو الله سبحانه ، والرضا بعد ذلك بما يقدره ويقضيه عز وجل ، وفي ذلك التبري

(١) في ظلال القرآن : عند الآية (٣٥) من سورة الأنبياء .

(٢) البخاري ـ ك التهجد ـ باب (٢٨) ما جاء في التطوع مثنى مثنى [(٣/ ٥٨) (١١٦٦) فتح] .

من الحول والقوة إلا به سبحانه في جميع الأمور .

الحديث الخامس :

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن ، فقال : اللَّهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ؛ سميت به نفسك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي - إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجاً** ، قال : فقيل : يا رسول الله، ألا نتعلمها ؟ فقال : **بلى ، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها** »[1] .

ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على هذا الحديث بقوله :

« وقوله : « **ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك** » تضمن هذا الكلام أمرين :

أحدهما : مضاء حكمه في عبده .

والثاني : يتضمن حمده وعدله ، وهو سبحانه له الملك وله الحمد ، وهذا معنى قول نبيه هود : ﴿ **مَا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [هود:٥٦]، أي مع كونه مالكاً قاهراً متصرفاً في عباده، نواصيهم بيده فهو على صراط مستقيم ، وهو العدل

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٣٩١)، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٣٧١٢) ، وصححه الألباني في الكلم الطيب (١٢٣) .

الذي يتصرف به فيهم ؛ فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه؛ فخبره كله صدق ، وقضاؤه كله عدل ، وأمره كله مصلحة ، والذي نهى عنه كله مفسدة ، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته ، وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته »[1] .

الحديث السادس :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي** »[2] .

الله أكبر ! ما أعظم رحمة الله وما أوسع مغفرته ، وكم يزرع هذا الحديث وأمثاله في القلب من الأنس والطمأنينة والسكينة ، ولو كان صاحب هذا القلب في أتون الشدائد والمصائب والمحن ، فما دام أن رحمة الله سبقت غضبه فلا خوف ولا قلق ؛ لأن رحمة الله عز وجل تحول النقمة والمحنة إلى منحة ونعمة .

« وهذا يريك أن المصائب والآلام حشوها نعم ولذات ، وهذا لأن الرحمة لها السبق والغلبة ؛ فما في طي النقم والعقوبات من الرحمة أسبق من العقوبة - وهي الغاية للغضب - فلابد أن يغلب أثرها أثر الغضب ، كما غلبت الصفة الصفة »[3] .

---

(١) الفوائد ص٢٣ .

(٢) متفق عليه : البخاري - كتاب بدء الخلق [(٦/ ٣٣١) (٣١٩٤) فتح] ، مسلم - كتاب التوبة (٤/ ٢١٠٧) (٢٧٥١) .

(٣) نسب هذا الكلام صاحب كتاب (قدر الدعوة) رفاعي سرور ، ص١٥ - إلى الإمام ابن القيم ، ولم يذكر المصدر .

الحديث السابع :

عن عطاء بن السائب عن أبيه قال : « صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها ؛ فقال له بعض القوم : لقد خففت - أو أوجزت - الصلاة ، فقال : أما على ذلك فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله ﷺ ، فلما قام تبعه رجل من القوم هو أبي غير أنه كنى عن نفسه ، فسأله عن الدعاء ، ثم جاء فأخبر به القوم : **اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي ، اللّهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللّهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين**»(١) .

والشاهد من هذا الحديث ماجاء في أول الدعاء وهو قوله : « **اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي** » ، ففي هذا القول طلب الخيرة من الله سبحانه ، في الحياة أو الممات ؛ لأنه وحده سبحانه هو علام الغيوب ، والذي يعلم إذا كانت الحياة خيراً للعبد أو الموت . وهذا غاية التفويض والثقة ، وإحسان الظن بالله عز وجل - كما مر بنا في دعاء الاستخارة - كما أن

---

(١) رواه النسائي (٣/ ٥٤-٥٥) ، أحمد (٤/ ٢٦٤) ، الحاكم (١/ ٥٢٤) ، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٢٣٧) ، (١٢٣٨) ، وفي صحيح الكلم الطيب (٨٧) .

في هذا الدعاء شاهداً آخر لموضوعنا ، ألا وهو قوله ﷺ : « **وأسألك الرضا بعد القضاء** » .

الحديث الثامن :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **قال رجل : لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق ؛ فأصبحوا يتحدثون : تُصدّق على سارق ، فقال : اللَّهم لك الحمد ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية ؛ فأصبحوا يتحدثون : تُصدّق الليلة على زانية . فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن بصدقة ؛ فخرج بصدقته ، فوضعها في يدي غني ، فأصبحوا يتحدثون : تُصدق على غني ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق ، وعلى زانية ، وعلى غني ! فأتي ، فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعفّ عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله**»[1].

الحديث التاسع :

عن أبي النضر قال : قال واثلة بن الأسقع : « قُدْبي إلى يزيد بن الأسود فإنه قد بلغني أن ألمّاً به . قال : فقدته ، فدخل عليه وهو ثقيل . فقلت له : إنه ثقيل قد وُجّه ، وقد ذهب عقله . قال : نادوه ، فنادوه ، فقلت : إن هذا واثلة أخوك . قال : فأبقى الله من عقله ما سمع أن واثلة قد جاء . قال : فمدّ يده ، فجعل يلتمس بها ، فعرفت ما يريد ، فأخذت كف واثلة ، فجعلتها في

(١) رواه البخاري - ك الزكاة - باب (١٤) إذا تصدق على غني وهو لا يعلم [٣/ ٣٤٠ (١٤٢١) فتح] ، ورواه مسلم - ك الزكاة ٢/ ٧٠٩ (١٠٢٢) .

كفه ، وإنما أراد أن تقع يده في يد واثلة ؛ ذلكم لموضع يد واثلة من رسول الله ﷺ ، فجعل يضعها مرة على وجهه ، ومرة على صدره ، ومرة على فيه. قال واثلة : ألا تخبرني عن شيء أسألك عنه: كيف ظنك بالله ؟ قال: أغرقتني ذنوبي وأشفأت [وفي نسخة : أشفيت] على هلكة،لكني أرجو رحمة الله ، قال : فكبر واثلة ، وكبر أهل البيت بتكبيره . قال : الله أكبر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي، فليظن ظان ما شاء»**[(١)] .

ومناسبة هذا الحديث لموضوعنا هي بيان فضل حسن الظن بالله عز وجل، وأن الله سبحانه لا يريد بعبده المؤمن إلا الخير والرحمة، وهذا الظن الحسن بالله مقتضى الإيمان به رباً ومقتضى الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط .

ثانياً :الأقوال المأثورة :

١ ـ عن محمد بن كعب قال : قال موسى النبي ﷺ : « أي رب ، أي خلقك أعظم ذنباً ؟ قال: الذي يتهمني ، قال : أي رب ، وهل يتهمك أحد؟ قال : نعم ، الذي يستخيرني ولا يرضى بقضائي»[(٢)] .

٢ ـ عن أبي مجلز لاحق بن حميد ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: « ما أبالي على أي حالة أصبحت ؛ على ما أحب ، أو على ما أكره ؛

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في (حسن الظن بالله) تحقيق : مخلص محمد ، وقال عن الحديث : صحيح الإسناد ورجاله كلهم ثقات. ص١٥.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الرضا عن الله) ص٧٣ ، وقال محققه ضياء السلفي : إسناده لا بأس به .

وذلك [أني] لا أدري الخير فيما أحب ، أو فيما أكره »[1] .

٣ ـ وقال المبرد : « قيل للحسن بن علي : إن أبا ذر يقول : الفقر أحب إلي من الغنى ، والسقم أحب إلي من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذر ، أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن شيئاً . وهذا حدُّ الوقوف على الرضا بما تصرف به القضاء»[2] .

٤ ـ عن مكحول الأزدي ، قال : سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: « إن الرجل يستخير الله تبارك وتعالى ؛ فيختار له فيسخط على ربه عز وجل ! فلا يلبث أن ينظر في العاقبة فإذا هو خير له »[3] .

٥ ـ وعن أشعث بن سعيد قال : قال ابن عون : «لن يصيب العبد حقيقة الرضا حتى يكون رضاه عن الفقر كرضاه عن الغنى ، كيف تستقضي الله في أمرك ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفاً لهواك؟! ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك فيه هُلْكك ، وترضى قضاءه إذا وافق هواك؟ ما أنصفت من نفسك ، ولا أصبت باب الرضا »[4] .

٦ ـ اجتمع وهيب بن الورد ، وسفيان الثوري ، ويوسف بن أسباط . فقال الثوري : قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم ، وأما اليوم : فوددت أني ميت ، فقال له يوسف بن أسباط : ولم ؟ فقال : لما أتخوف من الفتنة .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الرضا عن الله) ص٦٥ ، وقال محققه ضياء السلفي : إسناده رجال موثوقون .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٦٢) .

(٣) الزهد لابن المبارك (رواية نعيم بن حماد) ص٣٢ ، تحقيق حبيب الأعظمي .

(٤) صفة الصفوة (٣/ ٣١١) .

فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء. فقال الثوري: ولم؟! تكره الموت؟! فقال: لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً. فقيل لوهيب: أي شيء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئاً؛ أحب ذلك إليّ أحبه إلى الله. فقبل الثوري بين عينيه. وقال: روحانية ورب الكعبة [1].

٧- قال مصطفى السباعي رحمه الله تعالى:

«ربما كان فيما تستعجل من الخلاص من الآلام والأمراض تعرض لمحنة أقسى وبلاء أشد، فلا تستبطئ وعد ربك بالرحمة، فإنه وعدك بما يراه هو رحمة لك، لا بما تراه أنت رحمة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» [2].

❋ ❋ ❋

(١) نقل هذه القصة ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٢١٥).

(٢) هكذا علمتني الحياة (١/ ١٢٤).

المبحث الرابع
مواقف وأحداث معبرة

وفي هذا المبحث سأتعرض - إن شاء الله تعالى - لبعض المواقف من السيرة المطهرة وغيرها ، والتي ظهرت فيها حكمة الله عز وجل ورحمته ، وأن ما اختاره الله عز وجل لعباده خير مما اختاروه لأنفسهم .

أ- من السيرة المطهرة :

الموقف الأول : غزوة بدر الكبرى :

وهي أشهر من أن تذكر ، فلقد كانت فرقاناً بين الحق والباطل ، ولكن المراد من الاستشهاد بها هنا هو ما ظهر في هذه الغزوة العظيمة من الفرق بين ما أراده المسلمون قبل الغزوة ، وكراهيتهم للقاء عدوهم ، ورغبتهم في أن تكون في العير ، وبين ما اختاره الله لهم من أن تكون في النفير وفي ذات الشوكة .

يقول الله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ .

[الأنفال : ٧، ٨]

فأين الخير الذي علمه الله عز وجل وغاب عن المسلمين آنذاك فأرادوا

غيره؟ إن الجواب في الآية نفسها . ويعلق الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية فيقول :

« لقد أراد الله ـ وله الفضل والمنة ـ أن تكون ملحمة لا غنيمة ، وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ؛ ليحق الحق ويثبته ، ويبطل الباطل ويزهقه ، وأراد أن يقطع دابر الكافرين ؛ فيُقتل منهم من يقتل ، ويُؤسر منهم من يؤسر ، وتذل كبرياؤهم ، وتخضد شوكتهم ، وتعلو راية الإسلام وتعلو معها كلمة الله ، ويمكّن الله للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج الله ، وتنطلق به لتقرير ألوهية الله في الأرض وتحطيم طاغوت الطواغيت.

وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف ـ تعالى الله عن الجزاف ـ وبالجهد والجهاد ، وبتكاليف الجهاد ومعاناتها في عالم الواقع وفي ميدان القتال . . .

. . . وينظر الناظر اليوم ، وبعد اليوم ، ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها يومذاك وما أراده الله لها ، بين ما حسبته خيراً لها وما قدره الله لها من الخير ؛ ينظر فيرى الآماد المتطاولة ؛ ويعلم كم يخطئ الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيراً مما يختاره الله لهم ؛ وحين يتضررون مما يريده الله لهم ، مما قد يعرضهم لبعض الخطر ، أو يصيبهم بشيء من الأذى ؛ بينما يكمن وراءه الخير الذي لا يخطر لهم ببال ، ولا بخيال !

فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها مما أراده الله لها ؟ لقد كانت تمضي ـ لو كانت لهم غير ذات الشوكة ـ قصة غنيمة ؛ قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها ! فأما بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة ؛ قصة نصر حاسم

وفرقان بين الحق والباطل، قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح، المزودين بكل زاد، والحق في قلة من العدد، وضعف في الزاد والراحلة.

قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله، وحين تتخلص من ضعفها الذاتي، بل قصة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال! ولكنها ببقيتها الثابتة المستعلية على الواقع المادي، وبيقينها في حقيقة القوى، وصحة موازينها، قد انتصرت على نفسها، وانتصرت على من فيها، وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحاناً ظاهراً في جانب الباطل؛ فقلبت بيقينها ميزان الظاهر؛ فإذا الحق راجح غالب»[1] اهـ.

الموقف الثاني: غزوة أحد:

وهذه الغزوة أيضاً من أشهر غزوات الرسول ﷺ، ومن أشدها على المسلمين؛ حيث استشهد سبعون صحابياً، وشج وجه النبي الكريم ﷺ. ومع ذلك كان فيها خير للمسلمين ورحمة؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧].

ولقد أحسن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في ذكره لبعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد؛ أقتطف منها قوله:

«١- فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ**

(١) في ظلال القرآن: الآية (٦) سورة الأنفال.

تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] .

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم وتنازعهم وفشلهم ؛ كانوا بعد ذلك أشد حذراً ويقظة وتحرزاً من أسباب الخذلان .

٢ ـ ومنها : أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب ؛ فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر ، وطار لهم الصيت ، دخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطناً ، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبّب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق ، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة ، وتكلموا بما كانوا يكتمونه ، وظهرت مخبآتهم ، وعاد تلويحهم تصريحاً ، وانقسم الناس إلى كافر ، ومؤمن ، ومنافق ، انقساماً ظاهراً ، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دورهم ، وهم معهم لا يفارقونهم ، فاستعدوا لهم ، وتحرزوا منهم .

قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] ، أي : ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين ، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق ، كما ميَّزهم بالمحنة يوم أحد ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء ، فإنهم متميزون في غيبه وعلمه ، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً ، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة .

٣ ـ ومنها : استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء ، وفيما يحبون وما يكرهون ، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم ، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقاً ، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية .

٤ ـ ومنها : أنه سبحانه لو نصرهم دائماً ، وأظفرهم بعدوهم في كل موطن ، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبداً ؛ لطغت نفوسهم ، وشمخت وارتفعت ، فلو بسط لهم النصر والظفر ؛ لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق ؛ فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والقبض والبسط ، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنه بهم خبير بصير .

٥ ـ ومنها : أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة ، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة ، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته ، قيّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه ، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه ،ولو تركه ، لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه .

٦ ـ ومنها : أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه ، والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده ، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة ، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم في محبته ومرضاته ، ويؤثرون رضاه ومحابّه على أنفسهم . ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا

بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو .

٧ـ ومنها : أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم ؛ قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم ، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم، وقتالهم ، والتسلط عليهم ؛ فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم ، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في قوله : ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٩ـ١٤١] »[١] اهـ.

الموقف الثالث : صلح الحديبية :

وهذا الصلح هو الذي سماه الله عز وجل فتحاً مبيناً في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ [الفتح : ١] ، مع أنه لم يكن هناك فتح حسيّ ، بل مُنع الرسول ﷺ من دخول مكة ، وأبرم المشركون معه صلحاً ظاهره الضيم والإهانة للمسلمين ، حتى شق ذلك على المسلمين ، وكرهوه كرهاً واضحاً ، ولكن الله العليم الحكيم علم في ذلك خيراً للمسلمين فقدره .

وتم ما أراده سبحانه ؛ فكان في ذلك الخير للإسلام والمسلمين ؛ قال تعالى : ﴿ **لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ**

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢١٨ـ ٢٢٢) باختصار .

مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح: ٢٧].

ويعلق الإمام القرطبي رحمه الله تعالى على قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾، فيقول: « أي علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم، وذلك أنه عليه السلام لما رجع مضى منها إلى خَيْبَر فافتتحها، ورجع بأموال خيبر، وأخذ من العدة والقوة أضعاف ما كان فيه في ذلك العام، وأقبل إلى مكة على أهبة وقوة وعُدَّة بأضعاف ذلك.

وقال الكلبي: أي علم أن دخولها إلى سنة ولم تعلموه أنتم. وقيل: علم أن بمكة رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ أي من دون رؤيا النبي ﷺ فتح خيبر. قاله ابن زيد والضحاك. وقيل: فتح مكة. وقال مجاهد: هو صلح الحديبية. وقاله أكثر المفسرين.

قال الزهري: ما فتح الله في الإسلام [فتحاً] كان أعظم من صلح الحديبية؛ لأنه إنما كان القتال حين تلتقي الناس، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضاً؛ فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة. فلم يُكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، فلقد دخل في تَيْنك السنتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر. يدلك على ذلك أنهم كانوا سنة ست يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان في عشرة آلاف »[1] اهـ.

ونكتفي بهذه المواقف من السيرة المطهرة لننتقل إلى ذكر بعض المواقف

(١) تفسير القرطبي، الآية (٢٧) من سورة الفتح.

والأحداث الأخرى والتي تظهر فيها آثار هذه السنة العظيمة : ﴿ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ ﴾ .

ب- مواقف من السلف :

١ - الموقف الأول : محنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى :

وما أظن أحداً من المسلمين يجهل المحنة التي تعرض لها أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ؛ وذلك بما يعرف بفتنة القول بخلق القرآن . وقد تعرض هذا الإمام الجليل لمحنة وبلاء عظيم . تلك المحنة كانت مؤذية له رحمه الله ، ومؤذية للمسلمين معه ، ولكن الله عز وجل ثبته في هذه المحنة العظيمة ، وحمى به عقيدة أهل السنة من الانحراف أو الاندثار ، ولقد كانت هذه البلية لإمام السنة خيراً له فيما بعد ؛ فما كان لينال هذا الشرف العظيم أو المكانة العظيمة بين المسلمين لولا هذا الابتلاء ، وما منّ الله به عليه من التثبيت والتضحية .

٢ - شيخ الإسلام ابن تيمية وسجنه :

وكذلك لا أظن أحداً من أهل العلم يجهل هذا الرجل العظيم ، وما ضحى به في سبيل الله عز وجل بعلمه وجهاده وصبره ، وما لاقى في ذلك من السجن والإبعاد . ولكن كان في ذلك الابتلاء خير له ورفعة ، كما يقول ذلك هو عن نفسه عندما ورد المرسوم السلطاني بسجنه في قلعة دمشق : « أنا كنت منتظراً ذلك ، وهذا فيه خير عظيم »(١) .

وقال : « لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه

(١) العقود الدرية ص٣٢٩ .

النعمة، أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير »[1] اهـ.

كما كان في الابتلاء الذي تعرض له خير للمسلمين في عصره وما تلاه من العصور ؛ وذلك بانتشار دعوته وعلمه .

يقول رحمه الله : « ومن سنة الله أنه إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه ؛ فيحق الحق بكلماته ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . . . »[2] .

ويقول الشيخ شهاب الدين أحمد بن مري الحنبلي - أحد تلامذة الشيخ - في معرض رسالة بعثها إلى تلامذة الشيخ بدمشق يحثهم فيها على جمع تراث الشيخ :

« والله إن شاء الله ليقيمن الله سبحانه لنصر هذا الكلام - يعني كلام ابن تيمية - ونشره وتدوينه، وتفهمه ،واستخراج مقاصده ، واستحسان عجائبه وغرائبه ، رجالاً هم إلى الآن في أصلاب آبائهم ، وهذه سنة الحياة الجارية في عباده ، وبلاده ، والذي وقع من هذه الأمور في الكون لا يحصي عدده غير الله تعالى . . . »[3] اهـ .

وها هي توقعات الشيخ تتحقق في شتى العصور ، وكأن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى حيٌ لم يمت، فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن المسلمين خير الجزاء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

٣ - عن عثمان بن الهيثم قال : « كان رجل بالبصرة من بني سعد ،

(١) الوابل الصيب ص٤٤ .

(٢) الفتاوى (٢٨/ ٥٧).

(٣) قطعة من مكتوب الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن مري الحنبلي ص١٨ .

وكان قائداً من قواد عبيد الله بن زياد ؛ فسقط عن السطح فانكسرت رجلاه، فدخل عليه أبو قلابة يعوده ، فقال له : أرجو أن تكون لك خيرة ، فقال له : يا أبا قلابة ، وأي خير في كسر رجلي جميعاً ؟ فقال : ما ستر الله عليك أكثر. فلما كان بعد ثلاث ورد عليه كتاب ابن زياد أن يخرج فيقاتل الحسين، فقال للرسول : قد أصابني ما ترى ، فما كان إلا سبعاً حتى وافى الخبر بقتل الحسين. فقال الرجل : رحم الله أبا قلابة لقد صدق ، إنه كان خيرة لي »[1] .

٤ ـ عن مسروق قال : « كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالديك يوقظهم للصلاة ، والحمار ينقلون عليه الماء ، وتحمل لهم خباءهم ، والكلب يحرسهم ، قال : فجاء ثعلب فأخذ الديك ؛ فحزنوا لذهاب الديك وكان الرجل صالحاً ، فقال : عسى أن يكون خيراً ، ثم مكثوا ما شاء الله ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار ؛ فقتله ؛ فحزنوا لذهاب الحمار، فقال الرجل الصالح : عسى أن يكون خيراً ، ثم مكثوا ما شاء الله ، ثم أصيب الكلب ، فقال الرجل الصالح : عسى أن يكون خيراً . ثم مكثوا ما شاء الله بعد ذاك ، فأصبحوا ذات يوم، فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم ، وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من الصوت والجلبة ، ولم يكن عند أولئك شيء يجلب ؛ قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم ! »[2] .

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٢٣٨).

(٢) الرضا عن الله لابن أبي الدنيا ، تحقيق ضياء السلفي ، وقال المحقق : إسناده صحيح . ص٦١ .

جـ ـ أحداث متفرقة :

١ ـ وفي معنى القصة السابقة قصة أخرى يتناقلها بعض العامة ، ومفادها أن رجلاً من الصلحاء يعيش في حي من أحياء العرب بين بني قبيلته في البادية . وقد عرف بينهم بالرضا بما يقدره الله عزوجل ، وبقوله : عسى أن يكون في ذلك خير ـ عندما يحدث مكروه له أو لغيره . وقد نظر بعض أقاربه إلى هذه الصفة عند هذا الرجل ووصفها بأنها بلاهة أو عدم مبالاة ؛ فقرر بعضهم أن يحتجز بعض إبل هذا الرجل الصالح عندما تروح في المساء، واعتقلوها في بعض الشعاب القريبة منهم ، ثم أقبلت إبل القوم كلها ما عدا بعض إبله ، ثم أخبروه بأن قوماً قد سطوا على الذود ، واستاقوا بعض إبله ؛ فما كان منه إلا أن قال : لا ندري ، لعل في ذلك خيراً .

وفي الليل جاء قطاع الطريق واستاقوا إبل القوم كلها ، فلما أصبحوا ورأوا ما أصابهم قالوا : صدقت يا فلان ، لقد كان في ذلك خير ، وها هي ذي إبلك في الشعب الفلاني لم ينج إلا هي ، والخيرة فيما اختار الله عز وجل .

٢ ـ نشرت الصحف سنة ١٤٠٠هـ خبر احتراق الطائرة «ترايستار» التابعة للخطوط السعودية ، كما نشرت بعض الصحف نبأ ذلك المسافر الذي جاء متأخراً بعد إقفال الرحلة وحاول بشتى الوسائل أن يدرك ركوب الطائرة ؛ لأنها لم تقلع بعد ، ولكن موظفي الاستقبال أصروا على منعه لأن الرحلة أغلقت . فرجع حسيراً حزيناً كارهاً لفوات الرحلة عليه ، ولكن ما هي إلا دقائق بعد الإقلاع حتى وقع الحادث الأليم والفاجعة الكبيرة . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ﴾ .

٣ـ في حج عام ١٣٩٥ هـ حصل حريق منى الكبير في يوم النحر ، وقد كتب الله لي الحج في تلك السنة مع بعض الإخوان الذين أحسبهم على خير، وقد وصلنا إلى منى في الليل في أول عشر ذي الحجة. فلما أردنا نصب خيامنا جاءنا رجال الأمن ومنعونا من المكان بحجة أنه يتبع للإمارة ،وحصل أخذ ورد معهم، تركونا بعد ذلك ننام على أن نرحل في الصباح إلى مكان آخر، وأشاروا لنا بموقع الربوة في منى .

فلما أصبحنا تمت محاولة أخرى معهم لكي نبقى فلم يُجد معهم الأمر شيئاً ؛ فذهبنا من مكاننا هذا ونحن كارهون مغتاظون ، ثم يسر الله لنا مكاناً مناسباً في ربوة منى ، فنصبنا الخيام وعوضنا الله به خيراً . فلما جاء يوم النحر ـ وأظن الوقت كان بعد الظهر ـ بدأ الحريق الكبير الذي لم تشهد منى مثله ، واستمر إطفاؤه عدة ساعات ، وقد أتى على مساحات كبيرة من الخيام ، ودمرت سيارات ، ونجم عن هذا الحريق ضحايا .

وكان من أشد المناطق تأثراً بهذا الحريق تلك المنطقة التي نزلنا فيها ليلة وصولنا منى ، والتي نافحنا في عدم تركها حتى أيسنا منها ، فرحلنا عنها ونحن كارهون ، وعندما مررنا عليها بعد إخماد الحريق رأينا السيارات المحترقة والخيام أثراً بعد عين ؛ فحمدنا الله عز وجل أن لم نك بقينا في هذا المكان ، وصدق الله العظيم : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾، وصدق الله العظيم : ﴿ وَعَسَى أن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

* * *

المبحث الخامس

احتراس وتنبيه

وفي هذا المبحث أود التنبيه على قضية مهمة يُخشى أن تنشأ من خلال الحديث عن الرضا بقدر الله عز وجل وتفويض الأمور إليه ؛ ألا وهي الانحراف بهذا الأمر إلى المفهوم الخاطئ لمسألة الرضا والتسليم لقضاء الله عز وجل ، والذي قد يؤدي إلى التواكل والعجز والرضا بالفساد والذلة والمهانة، وترك الأخذ بالأسباب والدعوة والجهاد ؛ فنكون قد عالجنا مرضاً وانفتح علينا مرض آخر .

من أجل ذلك سأخص هذا المبحث بالحديث عن هذه القضية ، وذلك قبل الدخول في مبحث الثمرات والوسائل ، والحديث عن الواقع في ضوء هذه السنة ، وذلك احتراساً من الفهم الخاطئ الذي قد ينشأ لو لم يحصل هذا التنبيه ، فأقول وبالله التوفيق :

إن من القواعد المهمة لمطالعة حوادث الزمان : الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر، والفهم الصحيح لمقتضى أسماء الله عز وجل الحسنى وصفاته العلى ، والتوازن في هذا الفهم بين الغلو والجفاء. وهذا - والحمد لله - هو سمة معتقد أهل السنة والجماعة في جميع أبواب العقيدة ، ومن ذلك : عقيدة القضاء والقدر ، وتوحيد الأسماء والصفات.

ولقد انحرف عن هذه القواعد طرفان من الناس ؛ فمنهم من أنكر

الاستدلال بالقضاء والقدر على حوادث الزمان ، وتنقص المؤمنين به ، ومنهم من فهم القضاء والقدر على أنه تواكل وخمول وخنوع مُذل . وكلا الموقفين منحرف ومجانب للصواب ؛ فالإيمان بقضاء الله عز وجل وبعلمه وتقديره للأمور قبل وقوعها ، ثم مشيئته وخلقه لها ، وأن له الحكمة البالغة في كل ما يقضيه ويقدره، وأن من وراء ذلك رحمته ، وإرادة الخير واليسر لعباده ؛ كل ذلك مما يجب الإيمان به في باب القضاء والقدر ، كما أنه مقتضى الإيمان بأسمائه سبحانه وصفاته .

ولكن هذا الإيمان بهذه القواعد والحقائق لا يعني ترك الأسباب ، والرضا بالذلة والهوان وانتشار الفساد ؛ كلا ، بل إن الفهم الصحيح للقضاء والقدر يكمن في التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله ، والعمل بكل ما في الوسع والوقوف المطمئن عند حد الاستطاعة ؛ وهذا يعني فعل الأسباب التي سخرها الله سبحانه ، ومدافعة أقدار الله عز وجل بأقداره ، ما دام أن هناك إمكاناً للمدافعة ؛ قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

فإذا لم تُجد المدافعة ، أو لم يكن ذلك في الإمكان ؛ فالواجب الصبر والاستسلام لقضاء الله عز وجل ، واليقين بأن من وراء ذلك خيراً ومصلحة ورحمة ، يجب أن يتجه الجهد إلى التماسها، وتسخيرها في مزيد من الخير والإصلاح ، وتغيير الأحوال ،ومحاسبة النفوس ، وإزالة أسباب المصيبة ، وبذل الجهد في دفعها ؛ قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

ويوضح هذا المعنى الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول :

«ودفع القدر بالقدر نوعان :

أحدهما : دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه ـ ولما يقع ـ بأسباب أخرى من القدر تقابله ؛ فيمتنع وقوعه كدفع العدو بقتاله، ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثاني : دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله ، كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان ، فهذا شأن العارفين، وشأن الأقدار ، لا الاستسلام لها ، وترك الحركة والحيلة ؛ فإنه عجز ، والله تعالى يلوم على العجز ، فإذا غلب العبد ، وضاقت به الحيل ، ولم يبق مجال ؛ فهنالك الاستسلام للقدر ، والانطراح كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء »[(١)] اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا** . . . الحديث »[(٢)] .

ويشرح الإمام النووي الحديث فيقول : « والمراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة ، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على العدو في الجهاد ، وأسرع خروجاً إليه ، وذهاباً في طلبه ، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على الأذى في كل ذلك ، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى ، وأرغب في الصلاة ، والصوم ، والأذكار ، وسائر العبادات ، وأنشط طلباً لها ، ومحافظة عليها ونحو

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٠).
(٢) رواه مسلم ـ ك(القدر) ح (٢٦٦٤) .

ذلك . . .

وقوله ﷺ : « **احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز** » معناه : احرص على طاعة الله تعالى ، والرغبة فيما عنده ، واطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك ، ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ، ولا عن طلب الإعانة »[(١)] اهـ.

ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن الفرق بين العجز والتوكل ، فيقول :

« والفرق بين التوكل والعجز : أن التوكل عمل القلب وعبوديته ؛ اعتماداً على الله ، وثقةً به ، والتجاءً إليه ، وتفويضاً إليه ، ورضاً بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه ، وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها ، واجتهاده في تحصيلها ؛ فقد كان رسول الله ﷺ أعظم المتوكلين ، وكان يلبس لأمته ودرعه ، بل ظاهر يوم أحد بين درعين ، واختفى في الغار ثلاثاً ؛ فكان متوكلاً في السبب لا على السبب .

وأما العجز فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما ؛ فإما أن يعطل السبب عجزاً منه ، ويزعم أنه ذلك توكل ! ولعمر الله إنه لعجز وتفريط ، وإما أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه ، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر ، ولم يعلق قلبه به تعلقاً تاماً ؛ بحيث يكون قلبه مع الله ، وبدنه مع السبب ، فهذا توكله عجز ، وعجزه توكل »[(٢)] اهـ.

ويقول الدكتور علي العلياني - وفقه الله - في حديثه عن أهل التصوف وانحرافهم في موضوع الجهاد في سبيل الله - إن من صفاتهم :

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ٢١٥) المطبعة المصرية .
(٢) الروح : ٣٤٤.

« الرضا بما يقع عليهم من مصائب وذنوب فلا يحاولون دفعها عن أنفسهم ؛ زعماً منهم أن دفعها ينافي الرضا بالقدر. فلو وطئ الكفار رقابهم يرضون ويسلمون ؛ لأن الله أراد ذلك ! . . .

ويذكر الأستاذ محمود مهدي قصة ملخصها : أن الفرنسيين إبان استعمارهم لتونس كانوا يجدون معارضة شديدة من الناس ؛ فتفاهم الفرنسيون مع شيخ الصوفية على أن يدخلوا البلاد ، فلما أصبح الصباح قعد الشيخ مطرقاً رأسه وهو يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله . فلما سأله أتباعه عن الأمر الذي يقلقه قال لهم : لقد رأيت الخضر وسيدي أبا العباس الشاذلي وهما قابضان بحصان جنرال فرنسا ، ثم أوكلا الجنرال أمر تونس. يا جماعة ، هذا أمر الله فما العمل ؟! فقالوا له : إذا كان سيدي أبو العباس راضياً ، ونحن نحارب في سبيله فلا داعي للحرب ! ثم دخل الجيش الفرنسي تونس بدون مقاومة [1] .

إلى أن يقول : . . . إن عقيدة الصوفية المنحرفة في التوكل والرضا بالقدر جعلت نفوسهم راضية مطمئنة ولو وطئ الكفار على رقابهم ، فإن التوكل عندهم عدم ممارسة الأسباب ، والرضا معناه أن ترضى بما يحصل لك ولو هو استيلاء الكفار على بلاد المسلمين ، وسبي ذراريهم ، وإن أبديت مقاومة فأنت معارض للقدر ، وغير متوكل على الله !

فالذي يسافر في البراري الخالية بغير زاد ، هل يتصور منه أن يلبس لأمة الحرب ودروع القتال ، وليته إذ لم يفعل ذلك غمس نفسه في القتال حاسراً ! ! ولكن ماله ولفرقعة السلاح ، ولخرير الدماء ؛ وحلق الرقص وطقطقة

(١) كتب ليست من الإسلام ـ محمود مهدي الاستامبولي ص٧٨.

المسابح كفيلة بإنزاله منزلة الصديقين على زعمه!! فأي انحراف هذا الذي أصاب الأمة الإسلامية ، وأي فرحة للكفار تحصل لهم أشد من فرحتهم بهذا !!»[1] اهـ.

* * *

(١) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية (باختصار)، ص(٤٨٨).

المبحث السادس
من ثمرات هذه السنة

إن لتفهم هذه السنة الكريمة وتذكرها دائماً أثراً كبيراً في القلب يظهر جلياً في المواقف ، وبالذات في مواقف الشدة والبلاء . فكان لزاماً على المسلم وبخاصة الداعية المجاهد ألا يغفل عن هذه السنة المنبثقة من قوله تعالى : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ وثمار الإيمان بهذه السنة واليقين بها كثيرة ، أذكر منها ما يلي :

١- تحقيق العبودية لله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى :

إن الله عز وجل لم يعرفنا على أسمائه وصفاته لنحفظها ونعدها فقط ، وإنما المقصود الأسنى من معرفة أسمائه عز وجل وصفاته أن ندعوه بها ، وأن نتعبد له سبحانه بها ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، إن في كل اسم من أسمائه سبحانه عبودية على العبد يجب أن تظهر آثارها في القلب ، وعلى الجوارح ، وفي المواقف .

فمن الأسماء الحسنى التي يتعبد لله عز وجل بها من خلال معرفة هذه السنة : الحكيم، العليم ، البر ، الرحيم ، الودود ، اللطيف ، وغيرها . فعندما يؤمن العبد المسلم بهذه الأسماء فإنها تثمر الإيمان بحكمة الله عزوجل في كل أحكامه الكونية والشرعية ، وتضفي على القلب الأنس ، وإحسان الظن بالله عز وجل ، والرضا بقضائه ، وأنه بر رحيم لا يريد بعباده إلا الخير

والتيسير والرحمة ،وأن من لطفه سبحانه أن يأتي بالخير لعبده المؤمن من حيث يظن أنه شر ومكروه ، وهذا من معاني اسمه سبحانه (اللطيف) .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى : « ومن معاني اللطيف : أنه الذي يلطف بعبده ووليه فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر ، ويعصمه من الشر ، من حيث لا يحتسب ، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من العبد على بال ، حتى إنه يذيقه المكاره ؛ليوصله بها إلى المحاب الجليلة ، والمطالب النبيلة »[1] .

إن اليقين بلطف الله ينفي الشعور باليأس والقنوط من مجيء فرج الله ونصره ، وينشئ مكانه الأمل والثقة بوعد الله ونصره ، كما أنه ينشئ في القلب الافتقار إلى الله عز وجل وتفويض الأمور إليه ، وسؤاله عز وجل دائماً حسن العاقبة والاختيار .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : « والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين ؛ فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها ؛أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها ، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح ؛ فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والخلق والرزق ، والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ، ولوازم التوكل وثمرته ظاهراً . وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، وأنه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ يثمر له حفظ لسانه

(١) تفسير السعدي (٥/ ٢٧٩).

وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله ، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه ؛ فيثمر له ذلك [الحياء](*) باطناً ، ويثمر له [الحياء](*) اجتناب المحرمَات والقبائح ، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ، وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه »(١) اهـ.

من هذا النقل القيم يتبين لنا مدى الارتباط بين هذه السنة وبين أسماء الله عز و جل، وما تثمره في القلب من أنواع العبوديات؛ كصدق التوكل على الله عز وجل ، وإحسان الظن به سبحانه ، وقوة اليقين والمحبة ، والرضا بقضائه سبحانه ، وأن رحمة الله قد سبقت غضبه وعقوبته في كل ما يقضيه على عبده المؤمن .

وهذه الأعمال القلبية بدورها تخلص النفس من اليأس والقنوط والإحباط حال الشدائد والاستضعاف ؛ فلا يتطرق الوهن ولا الضعف إلى النفوس، وهي ترجو الفرج والرحمة من الله عز وجل . وكل ذلك بعد مراجعة النفس وإصلاحها وتغيير ما بها ، وبذل ما في الوسع في الدعوة إلى الله ، والجهاد في سبيله ، ومحاربة أسباب غضبه وعقابه والتعرض لأسباب رحمته ونصره ، وفي الوقت نفسه ، تمتلئ مثل هذه القلوب بالعزة والاستعلاء على الكفار وأعداء هذا الدين مهما تسلطوا وبغوا ؛ لأن العاقبة للمتقين ، والذلة والمهانة للكافرين ؛ قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ** ﴾ [المجادلة : ٢٠].

(*) بالأصل كتبت : (الحياة) . والسياق يناسبه ما أثبته .

(١) مفتاح دار السعادة ص٤٢٥ .

وبقيت كلمة أخيرة في هذه الثمرة أنصح بها نفسي وإخواني طلاب العلم؛ وذلك بأن نحرص أشد الحرص - ونحن ندْرس أو نُدَرِّس أبواب التوحيد المختلفة - على ألا نكتفي بالدراسة العلمية الذهنية المجردة فقط ، وإنما نسعى جاهدين في ربطها بأعمال القلوب ، وما تثمره فيها من أنواع العبوديات المختلفة التي يجب أن يظهر أثرها في المواقف والسلوك وجميع التصرفات ، والله المستعان .

٢- الصبر على البلايا والمصائب وقوة الاحتمال :

وهذه الثمرة لها علاقة بما قبلها ، فعندما يعرف العبد ربه بأسمائه وصفاته ويتعبد له بها ، فإنها تثمر في القلب ثباتاً ورباطة جأش ، وصبراً أمام الابتلاءات والمصائب ؛ فلا يضعف ولا يخور وهو يعلم أن ربه الرحيم الحكيم اللطيف الخبير ، الودود الغفور هو الذي قدرها عليه ، وأنه لم يقدرها ليعذبه ويشقيه ، ولكن ليرحمه ويرده إليه؛ عند ذلك يفوض أمره إلى ربه ، ويرضى بما يختار له مولاه سبحانه ، ويعلم أنه هو الذي يمده بالقوة والعزيمة والصبر وحسن العاقبة.

إن هذا الشعور يملأ القلب قوة وصبراً واحتمالاً أمام الشدائد لقوة الرجاء في الله عز وجل ، واليقين بفرجه ونصره ، واليقين بحسن العاقبة من الله عز وجل فيما أعده للصابرين، قال تعالى : ﴿**إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ [النساء : ١٠٤].

وإن مما يقوي الصبر على الشدائد يقين العبد أن ما أصابه إما أن يكون

تكفيراً لذنوبه ، أو سبباً لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه . وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« إن كل قدر يكرهه العبد ولا يلائمه، لا يخلو إما أن يكون عقوبة على الذنب ؛ فهو دواء لمرض لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامى المرض إلى الهلاك. أو يكون سبباً لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه.

فالمكروه يرتفع ويتلاشى ، وما يترتب عليه من النعمة دائم لا ينقطع ، فإذا شهد العبد هذين المشهدين انفتح له باب الرضا عن ربه في كل ما يقضيه له ويقدره »[1] اهـ.

فإذا أيقن العبد المبتلى أن العاقبة الحميدة من النصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة لا يوصل إليهما إلا على جسر التعب والمشقة ؛ فإنه بذلك يقوى صبره، واحتماله ، وبذله وتضحيته في سبيل الله عز وجل ، مع تفقد النفس في الذنوب ، وتنقية الصف من المنافقين ؛ فذلك من أسباب النصر .

ويفصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى هذا الأمر في كتابه النفيس (مفتاح دار السعادة) ، عندما تحدث عن صبر أولي العزم من الرسل ، وكيف وصلوا بذلك إلى أعلى المقامات في الدنيا والآخرة ، حتى انتهى إلى محمد ﷺ ، فقال :

« . . . فإذا جئت إلى النبي ﷺ، وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله ، وتلوّن الأحوال عليه من سلم وخوف ، وغنى وفقر ، وأمن وإقامة في وطنه ، وظعنه عنه ، وتركه لله ،

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢١٢).

وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه ، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول ، والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان ، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله ، يدعو إلى الله ، فلم يؤذ نبي ما أوذي ، ولم يحتمل في الله ما احتمله ، ولم يعط نبي ما أعطيه ؛ فرفع الله له ذكره ، وقرن اسمه باسمه ، وجعله سيد الناس كلهم ، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأسمعهم عنده شفاعة .

وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته ، وهي مما زاده الله بها شرفاً وفضلاً ، وساقه بها إلى أعلى المقامات ، وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل ، كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له ، ومن لا نصيب له من ذلك فحظه في الدنيا حظ من خلق لها ، وخلقت له ، وجعل خلاقه ونصيبه فيها ؛ فهو يأكل منها رغداً ، ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب ؛ يُمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش ، ويخافون وهو آمن ، ويحزنون وهو في أهله مسرور ، له شأن ولهم شأن ، وهو في واد وهم في واد ، همه ما يقيم به جاهه ، ويسلم به ماله ، وتُسمع به كلمته ، لزم من ذلك ما لزم ، ورضي من رضي ، وسخط من سخط . وهمهم إقامة دين الله ، وإعلاء كلمته ، وإعزاز أوليائه ، وأن تكون الدعوة له وحده ؛ فيكون هو وحده المعبود لا غيره ، ورسوله المطاع لا سواه ، فللّه سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته ، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء .

كـذا المعالي إذا ما رُمت تُدركها فاعبرْ إليها على جسرٍ من التعب

والحمد لله وحده، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين »[١] اهـ.

٢ـ سعادة القلب وطمأنينته وسكينته :

عندما يعلم العبد المؤمن أن كل ما يقضيه الله عز وجل هو عين الحكمة والرحمة والخير سواء في العاجل أو الآجل، فإن هذه المعرفة تضفي على القلب شعوراً بالأنس والسعادة والطمأنينة والسكينة ، مهما اشتدت المصائب، وتوالت المحن.

وبذلك يسلم صاحب هذا القلب من تلك الأمراض والوساوس التي تفتك بكثير من الناس الذين حرموا مثل هذه المعرفة العظيمة بربهم ، نعم سوف لا يخيم على نفسه ما يخيم على النفوس اليائسة من الشعور بالجزع والاضطراب وانكساف البال ، تلك الأشياء التي تجر وراءها من مصائب الدنيا والدين ما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وسوف يريحه هذا الشعور من الأفكار المتعبة التي تنشأ من كثرة الاختيارات والترددات والتي هي منشأ القلق والهم والغم.

إن التسخط وعدم الرضا بما قضاه الله عز وجل باب إلى الهم والغم والحزن وشتات القلب ، وسوء الحال ، والظن بالله ظن السوء ، ولا يدفع ذلك كله إلا معرفة الرب عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، والتعبد له سبحانه بها ، والعمل بمقتضاها ،والذي يولد في النفس الرضا بما يختاره الله عزوجل ، وأنه أرحم بعبده من نفسه ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا**

---

(١) مفتاح دار السعادة ص٣٢٣ .

تَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران : ٦٦] .

وأنقل بهذه المناسبة مشهداً من مشاهد هذه الثمرة في العيش مع القرآن والتأثر به ، يصفها لنا صاحب الظلال سيد قطب رحمه الله تعالى وهو يحكي سعادته مع قوله تعالى : ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[فاطر : ٢] ، وذلك بعد أن تحدث عن المعاني الكريمة في هذه الآية[1] ، شرع يقول :

« ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه في هذه الآية . .

لقد واجهتني هذه الآية في هذه اللحظة وأنا في عسر وجهد وضيق ومشقة . . واجهتني في لحظة جفاف روحي، وشقاء نفسي ، وضيق بضائقة ، وعسر من مشقة . . واجهتني في ذات اللحظة . ويسر الله لي أن أطلع منها على حقيقتها . وأن تسكب حقيقتها في روحي ؛ كأنما هي رحيق أرشفه وأحس سريانه ودبيبه في كياني . حقيقة أذوقها لا معنى أدركه ، فكانت رحمة بذاتها ، تقدم نفسها لي تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية التي تفتحت لي تفتحها هذا .

وقد قرأتها من قبل كثيراً ، ومررت بها من قبل كثيراً ، ولكنها اللحظة تسكب رحيقها ، وتحقق معناها ، وتنزل بحقيقتها المجردة ، وتقول : ها أنذا . . نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها .

فانظر كيف تكون ! إنه لم يتغير شيء مما حولي ، ولكن لقد تغير كل

---

(١) انظر ص٣٣ في مبحث الآيات الواردة .

شيء في حسي ! إنها نعمة ضخمة أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى في حسي! إنها نعمة ضخمة أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود ؛ كالحقيقة الكبرى التي تتضمنها هذه الآية . نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها ، ولكنه قلما يقدر على تصويرها ، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة . وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها .

وتم هذا كله في أشد لحظات الضيق والجفاف التي مرت بي في حياتي . ها أنذا أجد الفرج والفرح والري والاسترواح والانطلاق من كل قيد ، ومن كل ضيق ، وأنا في مكاني ! إنها رحمة الله يفتح الله بابها ، ويسكب فيضها في آية من آياته . آية من القرآن تفتح كوة من النور ، وتفجر ينبوعاً من الرحمة، وتشق طريقاً ممهداً إلى الرضا والثقة والطمأنينة والراحة في ومضة عين ، وفيضة قلب ، وفي خفقة جنان . اللَّهم حمداً لك ، اللهم منزل هذا القرآن، هدى ورحمة للمؤمنين . . . »[1] .

ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن انشراح الصدر والحياة الطيبة لأهل الإيمان فيقول :

« قال تعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل:٩٧] ، فهذا خبر أصدق الصادقين، ومَخْبَرُهُ عند أهله عينُ اليقين ، بل هو حق اليقين. ولابد لكل من عمل صالحاً أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله ، ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة ؛ حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح ، أو لذة الرياسة والمال،

---

(١) في ظلال القرآن ، الآية : ٢ من سورة فاطر .

وقهر الأعداء ، والتفنن بأنواع الشهوات . ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم ، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان ، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع أو الدواب والأنعام ، فذلك ممن يُنادى عليه من مكان بعيد .

ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلا عن الأبناء والنساء ، والأوطان والأموال ، والإخوان والمساكن ورضي بتركها كلها ، والخروج منها رأساً ، وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق ، وهو متحل بهذا ، منشرح الصدر به ، يطيب له قتل ابنه وأبيه ، وصاحبته وأخيه ، لا تأخذه في ذلك لومة لائم ، حتى إن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول : فزت ورب الكعبة ! ويستطيل الآخر حياته حتى يُلقي قُوْتَه من يده ، ويقول : إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها ! ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً . ويقول الآخر مع فقره : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف . ويقول الآخر : إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً . وقال بعض العارفين : إنه لتمر بي أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم في عيش طيب»[١] .

وأختم الكلام حول هذه الثمرة بما نقله صاحب كتاب (قصة الإيمان) في وصية الشيخ لتلميذه الذي كان بينهما حوار طويل حول الإيمان بالله عز وجل ، وأثره في حياة الإنسان ، انتهى إلى اهتداء التلميذ إلى ربه وإيمانه بخالقه سبحانه ، والاطمئنان إلى حكمته ورحمته .

يقول في هذه الوصية (باختصار) :

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ٣٨ .

« اعلم أن الإيمان بالله (حَقٌّ) و(حاجةٌ وضرورة) . فأما أنه حق ؛ فقد عرفْتَه مما حدثْتُك به في تلك الليالي الطوال التي عشتها معي .

وأما أنه حاجة وضرورة فإنك تعلمه ، يا حيران ، حين تدرك ، ويدرك المؤمنون والملحدون قاطبةً على السواء ، أن الإيمان بالله هو أُس الفضائل ، ولجام الرذائل ، وقوام الضمائر ، وسند العزائم في الشدائد ، وبلسم الصبر عند المصائب ، وعماد الرضا والقناعة بالحظوظ ، ونور الأمل في الصدور ، وسكن النفوس إذا أوحشتها الحياة . . وعزاء القلوب إذا نزل الموت أو قربت أيامه . . . والعروة الوثقى بين الإنسانية ومُثلها الكريمة . . .

إلى أن قال : وبدون الإيمان نكون أسوأ حظاً في الحياة ، وأدنى رتبة في سلم المخلوقات من أذلّ البهائم ، وأضعف الحشرات وأشرس الضواري .

فالبهائم تجوع كما نجوع ، ولكنها في نجْوة من همّ الرزق ، وخوف الفقر ، وكَرْب الحاجة ، وذلّ السؤال . .

وهي تلد كما نلد ، وتفقد أولادها كما نفقد ، ولكنها في راحة من هلع المثْكلة ، وجزع الميْتمَة ، وهمّ اليتامى المستضعفين . . .

وهي في أجسادها ، تلذَّذ كما نتلذَّذ ، وتألم كما نألم ، ولكنها في راحة مما يأكل القلوب ، ويقرّح الجفون ، ويقضّ المضاجع ، ويقطع الأرحام، ويفرّق الشمل ، ويخرّب البيوت من المهلكات كالحسد ، والكذب ، والنميمة ، والفرية ، والقذف ، والنفاق ، والخيانة ، والعقوق، وكفر النعمة ، ونكران الجميل .

وهي تعرف بنوع من الإدراك ما يضرها وما ينفعها ، ولكنها في نجوة

من أعباء التكليف ، وأثقال الأوزار ، ومضض الشك ، وكرب الحيرة ، وعذاب الضمير . . .

وهي تمرض كما نمرض ، وتموت كما نموت ، ولكنها في راحة من التفكير في عُقْبى المرض ، وفراق الأحباب ، وسكرات الموت ، ومصير الموتى وراء القبور . . .

والضواري تسفك الدماء لتشبع بلا سَرَف ، ولكنها لا تسفكها أنفاً ، ولا جَنفاً ، ولا صلفاً ، ولا ترفاً . . . ولا علواً في الأرض ولا استكباراً . . .

أما هذا الحيوان الفيلسوف ، الضعيف ، الهلوع ، الجزوع ، المطماع ، المختال ، الفخور ، المترف ، المتكبر ، المتجبر ، السافك الدماء ، الذي لا يأتيه شقاء الحياة - أكثر مما يأتيه - إلا من تفكيره ؛ فإنه لا علاج لشقائه إلا بالإيمان ؛ فالإيمان هوالذي يقويه ، وهو الذي يعزّيه ، وهو الذي يسلّيه ، وهو الذي يُمنيه ، وهو الذي يرضيه ، وهو الذي يجعله إنساناً يسعى إلى مثله الأعلى لتسجد له الملائكة . . ومن دون هذا الإيمان يكون هذا الإنسان المسكين أتعس الخلائق وأسوأها حظاً ، وأعظمها شقاءً ، وأشدها بلاءً ، وأحطها رتبة ، وأرذلها مصيراً »[(١)] .

٤ - سلامة القلب :

عندما يمتلئ القلب بتوحيد الله عز وجل ومعرفته سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، ويمتلئ باليقين بوعده ، والثقة بحكمته ، وانتظار رحمته ؛ فإن كل ذلك يضفي على القلب صفاءً ونوراً وطهارة تُسل بها من القلب

(١) قصة الإيمان ، نديم الجسر ، ص : ٤٤٠ .

أمراض كثيرة ؛ فيصبح القلب بعدها سليماً صحيحاً ، وينعم به صاحبه في الدنيا والآخرة . قال تعالى في وصف إمام الحنفاء عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤] ، وقال تعالى حكاية لدعاء إبراهيم ﷺ : ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩] .

ومن أهم مظاهر سلامة القلب التي تحصل بهذه المعرفة ما يلي :

أ - السلامة من أمراض الحقد والحسد والشحناء :

وذلك لأن الذي يوقن بحكمة الله عز وجل ورحمته في كل ما يقضيه من أقضية كونية وشرعية، يعلم علم اليقين أن لله عز وجل الحكمة البالغة في إعطاء من يشاء ، ومنع من يشاء ، وإعزاز من يشاء ، وإذلال من يشاء .

وهذا العلم لابد أن يثمر الرضا بما يقدره الله عز وجل ويقضيه على الناس؛ وبذلك تزول الشحناء والأحقاد المتولدة عن الحسد المتولد أصلاً من معارضة أقدار الله عز وجل والتسخط لها ، وفي ذلك يتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن أثر الرضا بقضاء الله سبحانه على سلامة القلب ، فيقول :

« إن الرضا يفتح له باب السلامة ؛ فيجعل قلبه سليماً نقياً من الغش والدغل والغل . ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم كذلك ، وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا ، وكلما كان العبد أشد رضًا كان قلبه أسلم . فالخبث والدغل والغش قرين السخط . وسلامة القلب وبره ونصحه قرين الرضا . وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط ،

وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا »[1] اهـ .

ب ـ السلامة من أمراض الخوف والطمع :

إن المؤمن الراضي بربه والموقن بحكمته وبره ولطفه لا تجده إلا قانعاً بما آتاه الله عز وجل، مطمئناً إلى اختيار الله سبحانه له ؛ لأنه عز وجل أعلم بما يصلح للعبد من نفسه ، وهذه الثمرة تقضي على هذا الداء الخطير : داء الطمع والحرص والتهالك على الدنيا وزينتها ؛ لأن القلب الراضي المفوض أمره إلى الله عز وجل قد امتلأ غنى وقناعة ومحبة وتوكلاً على الله سبحانه ؛ فحري بقلب هذه صفته ألا يكون فيه محل لمحبة غير الله ، وهذه الثمرة يتولد عنها ثمار طيبة منها : عدم الأسى على ما فات ، وعدم الفرح بما هو آت، قال تعالى : ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] .

والعبد المؤمن لا يدري أين يكون الخير أهو في الفائت أم الآتي ؟ ولكن الله وحده هو الذي يعلم ، وهو علام الغيوب .

كما أنها تثمر أيضاً الزهد في الدنيا والحذر منها ، فكم فرح بالدنيا أناس فكانت سبب هلاكهم وشقوتهم . قال تعالى : ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾ [الشورى : ٢٧] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٠٧).

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « وهذا يصور نزارة ما في هذه الحياة الدنيا من أرزاق ـ مهما كثرت ـ بالقياس إلى ما في الآخرة من فيض غزير . فالله يعلم أن عباده هؤلاء البشر ، لا يطيقون الغنى إلا بقدر ، وأنه لو بسط لهم في الرزق ـ من نوع ما يبسط في الآخرة ـ لبغوا وطغوا . إنهم صغار لايملكون التوازن ؛ ضعاف لا يحتملون إلا إلى حد ، والله بعباده خبير بصير .

ومن ثم جعل رزقهم في هذه الأرض مقدراً محدوداً ، بقدر ما يطيقون ، واستبقى فيضه المبسوط لمن ينجحون في بلاء الأرض ، ويجتازون امتحانها ، ويصلون إلى الدار الباقية بسلام ؛ ليتلقوا فيض الله المذخور لهم بلا حدود ولا قيود »[1] اهـ.

وكيف يسكن الخوف والهلع في قلب من اطمأن إلى حكم ربه ، وأحسن الظن به ، وفوض أموره إليه ، إن الخوف والهلع سواءً كان على الرزق أو الأجل لا يكونان إلا عند من لم يعرف ربه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى . أما لو عرف ربه عز وجل ، وأنه رحيم ودود ، وأنه حكيم عليم ، وأنه لطيف خبير معرفة حقيقية يتعبد لربه بها ؛ فإن الاطمئنان والسكينة تعمران القلب ، وتنفيان كل دواعي الخوف والوجل من المخاليق الضعاف الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فضلاً عن أن يملكوا شيئاً من ذلك لغيرهم ، ويبقى صاحب هذا القلب مطمئناً إلى حسن اختيار الله له ، يستشرف رحمة ربه وخيره في كل ما يقضيه الله عليه ؛ ولو ظهر في هذا المقضي من الشر والألم ما ظهر ، فمن يدري فلعل في طيات المحنة منحة

(١) في ظلال القرآن ، عند الآية ٢٧ من سورة الشورى .

ونعمة ، وصدق الله العظيم : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، وصدق الله العظيم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٦] .

ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن لطف الله عز وجل ورحمته ، وأنه يجب ألا ينشغل المرء بما ضمنه الله له ، فيقول :

« فرغ خاطرك للهم بما أُمرت به ، ولا تشغله بما ضُمن لك ؛ فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان ، فما دام الأجل باقياً كان الرزق آتياً ، وإذا سد عليك بحكمته طريقاً من طرقه فتح لك برحمته طريقاً أنفع لك منه ؛ فتأمل حال الجنين يأتيه غذاؤه ـ وهو الدم ـ من طريق واحد وهو السرة ، فلما خرج من بطن الأم وانقطعت تلك الطريق فتح له طريقين اثنين ، وأجرى له فيهما رزقاً أطيب وألذ من الأول لبناً خالصاً سائغاً ، فإذا تمت مدة الرضاع وانقطع الطريقان بالفطام فتح طرقاً أربعة أكمل منها : طعامان وشرابان : فالطعامان من الحيوان والنبات ، والشرابان من المياه والألبان ، وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ ، فإذا مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة ، لكنه سبحانه فتح له ـ إن كان سعيداً ـ طرقاً ثمانية ؛ وهي أبواب الجنة يدخل من أيها شاء .

فكذا الرب سبحانه لا يمنع عبده المؤمن شيئاً من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه ، وأنفع له ، وليس ذلك لغير المؤمن ، فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس ، ولا يرضى له به ليعطيه الحظ الأعلى النفيس ، والعبد لجهله بمصالح نفسه ، وجهله بكرم ربه ورحمته ولطفه لا يعرف التفاوت بين ما منع منه ، وبين ما ذخر له ، بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئاً ، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان علياً ، ولو أنصف العبد ربه ـ وأنّى له بذلك ـ لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك ؛ فما

منعه إلا ليعطيه ، ولا ابتلاه إلا ليعافيه ، ولا امتحنه إلا ليصافيه ، ولا أماته إلا ليحييه ، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه ، وليسلك الطريق الموصلة إليه ، فجعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ، وأبى الظالمون إلا كفوراً ، والله المستعان »[1] اهـ.

جـ ـ السلامة من أمراض الكبر والخيلاء :

إن القلب السليم لا يصدق عليه أن يوصف بكونه سليماً صحيحاً حتى ينضم إلى ما ذكر سابقاً سلامته من أمراض الكبر والفخر والخيلاء ؛ فإن العبد المؤمن متى ما عرف ربه عز وجل ، وتعبد له بأسمائه وصفاته فإن المسكنة والمحبة لله عز وجل سوف تملأ القلب ؛ وينتج عن ذلك التواضع للحق وإيثاره ، والتواضع للخلق ، وعدم غمطهم وظلمهم . بل لا ترى من هذه صفته إلا محباً للخير والإحسان للناس ، ولا تراه إلا محقراً لنفسه ، منشغلاً بعيوبها عن عيوب الناس ؛ لأنه يشهد حكمة الله عز وجل في ابتلائه لعبده بالخير والشر ؛ ولأن أسباب الكبر والتعالي على الناس لا تخرج عن كونها اغتراراً بنعمة دينية أو دنيوية ، وأنه إذا أيقن العبد المؤمن أن هذه النعم إنما أعطاها الله لعبده ليبلوه أيشكر أم يكفر ؛ فإن الخوف على النفس من هذا الابتلاء سيشغلها عن التعالي على الناس ، أو الفخر عليهم ، وكيف يكون ذلك وهو لا يدري أين يكمن الخير أو الشر ! ولعل هذه النعمة التي يفتخر بها فتنة له ومتاع إلى حين ، أو أن الذي يفخر عليه ممن هو دونه يكون في خير ورحمة مفتوحة من الله عز وجل عليه ، والناس يحسبون أنه في ضيق وشر؟! وصدق من قال : « من عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب

(١) الفوائد ، ص٥٧.

الناس ، ومن عرف ربّه اشتغل به عن هوى نفسه »[1] .

٥ ـ محاسبة النفوس، والانتباه إلى خطر المعاصي وشؤمها على الفرد والمجتمع :

إن من ثمار هذه السنة الكريمة أن ينتبه العبد المؤمن إلى نفسه ويحاسبها على تفريطها وذنوبها . وهذا بعض الخير الذي يجعله الله فيما يراه الناس شراً ومصيبة ؛ حيث إن المصائب والشرور المقدرة على العبد المؤمن غالباً ما تكون تكفيراً للذنوب ، وإيقاظاً له من الغفلة ، ومجالاً لتطهير النفس من أدران المعاصي والسيئات ، ومتى ما حصلت هذه الثمرة العظيمة في القلب؛ فإن المصيبة والنقمة تصبح في حقيقة الأمر خيراً ونعمة لصاحبها، وصدق الله العظيم : ﴿ **لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ .

أما إذا حصل العكس من ذلك ـ والعياذ بالله ـ وذلك بأن كانت المصيبة سبباً في مزيد من الغفلة أو التسخط على أقدار الله تعالى ؛ فإن المصيبة والحالة هذه لا تعتبر خيراً لمن وقعت عليه ، لكنها قد تكون خيراً لغيره عندما يحصل الاتعاظ والعبرة بحال من وقعت له المصيبة . ويوضح هذا الأمر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول :

« إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن ؛ فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه ، وجمعه عليه ، وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به ، والشدة بتراءُ لا دوام لها وإن طالت ، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجلّ عوض وأفضله ، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شارداً عنه،

---

(١) الفوائد ، ص٥٧ .

وإقباله عليه بعد أن كان نائياً عنه ، وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضاً وللوقوف على أبواب غيره متعرّضاً. وكانت البلية في حق هذا عين النعمة ، وإن ساءته وكرهها طبعه ، ونفرت منها نفسه ، فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب . وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة : ﴿ وَعَسَى أن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإن لم يردّه ذلك البلاء إليه ، بل شرد قلبه عنه ، ورده إلى الخلق ، وأنساه ذكر ربه ، والضراعة إليه ، والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه ؛ فهو علامة شقاوته وإرادة الشر به، فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلى حكم طبيعته، وسلطان شهوته ، ومرحه وفرحه ، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء ، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء ، فبلية هذا وبال عليه، وعقوبة ونقص في حقه، وبلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل ، وبالله التوفيق »[1] اهـ.

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم ويتقوا في ضمائرهم وفي واقعهم ؛ لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله ، ويتذللون له ، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم ، ويدعون الله أن يرفع

(١) طريق الهجرتين ص٢٩٧ . ط. الشئون الدينية . قطر .

عنهم البلاء بقلوب مخلصة ؛ فيرفع الله عنهم البلاء ، ويفتح لهم أبواب الرحمة . . ولكنهم لم يفعلوا ما كان حرياً أن يفعلوه ، لم يلجأوا إلى الله ، ولم يرجعوا عن عنادهم ، ولم تردّ إليهم الشدةُ وعْيهم ، ولم تفتح بصيرتهم ، ولم تلين قلوبهم ، وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من الضلال والعناد : ﴿ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة ! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس، وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه ؛ فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة ، التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة . والشدة ابتلاء من الله للعبد ؛ فمن كان حياً أيقظته ، وفتحت مغاليق قلبه ، وردته إلى ربه ، وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه . . ومن كان ميتاً حسبت عليه ، ولم تفده شيئاً ، وإنما أسقطت عذره وحجته ، وكانت عليه شقوة ، وكانت موطئة للعذاب»[1] اهـ.

ويقول عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٤] .

يعلق الشيخ محمد رشيد رضا على هذه الآية فيقول : « وما ثبت بالتجارب، وتقرر عند علماء النفس والأخلاق أن الشدائد وملاحج الأمور[2] مما يربي الناس ويصلح من فسادهم ؛ فالمؤمن قد يشغله الرخاء وهناء العيش

(١) في ظلال القرآن : عند الآيتين (٤٢ ، ٤٣) من سورة الأنعام .

(٢) (ملاحج الأمور) : مضايقها ، يقال : لحج الأمر إذا ضاق.

فينسيه ضعفه وحاجته إلى ربه ، والشدائد تذكره به ، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها بفقدها ، فينقلب شاكراً بعد عودها ، بل الكافر بالله عز وجل قد تنبه الشدائد والأهوال مركز الشعور بوجود الرب الخالق المدبر لأمور الخلق في دماغه ، وتذكره بما أودع في فطرته من وجود مصدر لنظام الكون وأقداره ، كما وقع كثيراً »[1] اهـ.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَملوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١] فمن أيقظته المصائب ، وردته إلى الله عزوجل ، وحاسب نفسه على تقصيرها ، وتاب إلى الله وأناب ؛ فإن المصيبة في حق هذا خيرٌ له ونعمة ورحمة. وأما من زادته طغياناً وإمعانا في الذنوب والمعاصي ، فإنها في حقه فتنة ونقمة ، ولكنها رحمة ونعمة لمن اتعظ بحاله من غيره .

٦ ـ التعرف على سنن الله عز وجل في التغيير والسير على هداها :

إن إدراك معاني أسماء الله عز وجل وآثارها ومقتضياتها يفتح في قلب المؤمن منافذ عديدة على سننه عز وجل التي لا تتبدل ولا تتحول ، وبخاصة إدراك آثار حكمة الله عز وجل ورحمته ولطفه وإحسانه .

ولقد مر بنا كيف أن فقه قوله تعالى : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ ﴾ يطبع في القلب شعوراً برحمة الله عز وجل وخيره وبره ، وأن كل ما يقضيه عز وجل هو عين الخير والمصلحة والحكمة ، وهذا الشعور يؤدي بدوره إلى فتح القلب والفكر على سنن الله عز وجل التي تنبثق من هذه المعرفة ، وعندما تحصل هذه المعرفة لسنن الله عز وجل في التغيير فإن الفكر البشري ينضبط

(١) تفسير المنار : عند الآية (٩٤) من سورة الأعراف .

ويستقيم ولا تتقاذفه الثقافات المادية ذات اليمين وذات الشمال ، وبذلك يسلم من التفسيرات المادية للأحداث ، والتي تربط كل المتغيرات بأسباب مادية بحتة ، كتلك التي تربط حصول النصر والهزيمة بأسباب مادية ، أو تلك التي تفسر العقوبات الربانية كالزلازل والأعاصير بظواهر فلكية بحتة ، متجاهلين قدر الله وحكمته .

كما أن هذه المعرفة تثمر أيضاً الموازين المنضبطة الثابتة التي توزن بها الأمور والأحوال والأشياء ، وحق لها أن تكون بهذه المثابة لأنها من عند الله عز وجل الحكيم ، العليم الرحيم الودود ، الذي يعلم ما كان وما سيكون ، والذي له الكمال المطلق وهو الغني الحميد ، وهو سبحانه يقول الحق ، ويقصّ على عبيده ـ رحمة منه وفضلاً ـ جانباً من أسرار سنته وقدره ؛ ليأخذ الناس حذرهم وليعتبروا ويتعظوا ، وليدركوا الرحمة والخير والحكمة الكامنة وراء هذه السنن الربانية والموازين الإلهية ، والتي تؤدي إلى معرفة المنهج الصحيح للتغيير ، كما تؤدي إلى المنهج الصحيح لتقويم الأمور ووزنها بالميزان الحق .

واستناداً إلى المنهج الصحيح والميزان الحق يمكن أن يتوقع المؤمن المهتدي بهدى الله ثم بهذه السنن ما سيكون ، وما ينبغي أن يتخذه ، كما يمكنه أن يزن المواقف ويحلل الأحداث بحق ؛ لأنه يملك ميزان الشرع الذي لا يتذبذب ولا يتأرجح ؛ ولأنه يستند إلى سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول ، ولقد مر بنا في الثمرات السابقة بعض السنن الربانية التي يهتدي إليها القلب العامر بمعرفة الله عز وجل وتوحيده ، ولكن نخصّ هنا بعض السنن بشيء من التفصيل ، وذلك فيما يلي :

أ ـ العاقبة للمتقين :

إن وعد الله عز وجل لا يتخلف ، وكلمته لا تتبدل ، ولقد قال وقوله الحق: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣] هذا وعد الله سبحانه، ولو تأخر وأبطأ على عباده ؛ فإن من وراء ذلك التأخير حكمة وخيراً . يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية . سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة ، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء ، ولكنها مرهونة بتقدير الله ، يحققها حين يشاء ، ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمال البشر المحدودة ، ولكنها لا تخلف أبداً و لا تتخلف ، وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر ؛ لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين!

ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله. ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى ، فيكون ما يريده الله ؛ ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون . . ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش ، وأراد الله أن تفوتهم القافلة الرابحة الهينة ، وأن يقابلوا النفير ، وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة . وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام ، وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام .

ولقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك ، وتدور عليهم الدائرة ، ويقسو عليهم الابتلاء ؛ لأن الله يعدهم للنصر في معركة أخيرة ، ولأن الله

يهيئ الظروف من حولهم ؛ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع ، وفي خط أطول ، وفي أثر أدوم .

لقد سبقت كلمة الله ، ومضت إرادته بوعده ، وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد »[1] اهـ.

ب ـ لا سبيل للكافرين على المؤمنين :

ويتعلق بالسنة السالفة الذكر سنة أخرى في معناها ، وهي قوله تعالى : ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾ [النساء: ١٤١].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى الآية : « قيل : بالحجة والبرهان، فإن حجتهم داحضة عند ربهم. وقيل : هذا في الآخرة ، وأما في الدنيا فقد يتسلطون عليهم بالضرر لهم والأذى، وقيل : لا يجعل لهم عليهم سبيلاً مستقرة ؛ بل وإن نصروا عليهم في وقت فإن الدائرة تكون عليهم ، ويستقر النصر لأتباع الرسول ﷺ .

وقيل : بل الآية على ظاهرها وعمومها ، لا إشكال فيها بحمد الله ، فإن الله سبحانه ضمن ألا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً ؛ فحيث كانت لهم سبيل ما عليهم فهم الذين جعلوها بترك بعض ما أمروا به ، أو ارتكاب بعض ما نهوا عنه، فهم جعلوا لهم السبيل عليهم بخروجهم عن طاعة الله ورسوله فيما أوجب تسلط عدوهم عليهم في هذه الثغرة التي أدخلوها ، كما أخلى الصحابة يوم أحد الثغرة التي أمرهم رسول الله ﷺ بلزومها وحفظها ؛ فوجد العدو منها طريقاً إليهم فدخلوا منها »[2] اهـ.

(١) في ظلال القرآن : عند الآية (١٧١) من سورة الصافات .

(٢) بدائع التفسير (٢/ ٨٥).

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية أيضاً :

« إنه وعد من الله قاطع ، وحكم من الله جامع أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين ، وتمثلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة ، ونظاماً للحكم ، وتجرداً لله في كل خاطرة وحركة وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة . . فلن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً . . .

وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها ! وأنا أقرر في ثقة بوعد الله لا يخالجها شك : أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان ، إما في الشعور وإما في العمل - ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله ، وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة - وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ، ثم يعود النصر للمؤمنين - حين يوجدون! »[1] اهـ.

والحاصل مما سبق أن معرفة السنة السابقة لا تفهم حق الفهم إلا بمعرفة الله عز وجل وتوحيده؛ فإنه سبحانه لا يريد بعباده إلا الخير والرحمة ، ولو تسلط الأعداء في وقت ما فإن عاقبة هذا التسلط هي الخير والتمكين ؛ وذلك أن المؤمنين عندما يتسلط عليهم أعداؤهم وينالونهم بالأذى يدركون من واقع قوله تعالى : ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُم﴾ أن ما أصابهم إنما هو بذنوبهم ؛ فيكون الخير في تسلط الأعداء هو تغيير ما بالنفوس من خلل ، وإحداث التوبة والاستغفار وترك ما أوجب حلول المصيبة ، وهذا خير في حد ذاته لم يكن ليظهر لو استمر النصر والتمكين مع وجود المعاصي ، وضعف

(١) في ظلال القرآن : عند الآية (١٤١) من سورة النساء .

الإيمان؛ لأنه والحالة هذه يستمر الفساد بدون إصلاح ، وتستمر المعاصي بدون توبة ؛ حتى تنتهي بأصحابها إلى شر وفساد كبير ، ولكن رحمة الله عز وجل لا تتركهم في هذا الانحدار ، بل يقدر الله عز وجل بعض المصائب ، ومنها تسلط الأعداء ليحصل الرجوع إلى الله ، ومحاسبة النفس ، وإصلاح ما فسد ، وفي هذا خير كثير . وهذا هو معنى السنة الثابتة التي لا تتغير، ألا وهي قوله تعالى :

جـ - ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

ومثلها قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [الأعراف: ٩٦] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا** ﴾ [الجن: ١٦، ١٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً .

د- قوله تعالى : ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

هذه الآية ترسم ميزاناً قوياً ثابتاً في أن إغداق النعم على العبد ليس علامة على كرامة الله له ومحبته ، ولايدل على أنه في خير وسعادة ؛ بل الغالب أن وراء الإملاء والنعم شراً وعذاباً ، وفي هذا الميزان توجيه للناس إلى حقيقة الابتلاء بالخير والشر ، وألا تكون موازينهم في السعادة والتعاسة هي النظر إلى كثرة النعم أو قلتها ؛ فكم كان الرخاء سبباً للعذاب؛ دنيا وأخرى ، وكم من أناس صالحين حرموا في هذه الدنيا من نعمة المال والأولاد ولكنهم في خير وسعادة ؛ دنيا وأخرى .

وهذه المعاني العظيمة لا يمكن إدراكها إلا في ضوء التوحيد ، وأنواره ، وصدق الله العظيم ﴿ لاَ تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم ﴾ . والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً ، أذكر منها قوله تعالى : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده ، حين يوفقه إلى الشكر على النعمة والإصلاح بها في الأرض ، والتوجه بها إلى الله ، فإذا هو مطمئن الضمير ، ساكن النفس ، واثق من المصير ، كلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخراً ، وكلما أصيب في ماله أو بنيه احتسب ؛ فإذا السكينة النفسية تغمره ، والأمل في الله يسري عنه . . . وقد تكون نقمة يصيب الله بها عبداً من عباده ؛ لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل ، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيماً ، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه ، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه فيما يتلفه ويعود عليه بالأذى ، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا ، ويشقى بهم إذا صحوا ، وكم من الناس يعذبون بأبنائهم لسبب من الأسباب !

وهؤلاء الذين كانوا على عهد الرسول ﷺ ـ وأمثالهم في كل زمان ـ يملكون الأموال ويرزقون الأولاد ، يُعجب الناس ظاهرها ، وهي لهم عذاب على نحو من الأنحاء . عذاب في الحياة الدنيا وهم ـ بما علم الله من دخيلتهم ـ صائرون إلى الهاوية ؛ هاوية الموت على الكفر والعياذ بالله من هذا المصير .

والتعبير : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ يلقي ظل القرار لهذه النفوس أو

الهلاك؛ ظلاً مزعجاً لا هدوء فيه ولا اطمئنان ، فيتسق هذا الظل مع ظل العذاب في الحياة الدنيا بالأموال والأولاد ، فهو القلق والكرب في الدنيا والآخرة . وما يحسد أحد على هذه المظاهر التي تحمل في طياتها البلاء!»[1]اهـ.

هـ ـ ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ . . .** ﴾ [الفجر : ١٥ ـ ١٧].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته ، وما ذاك لكرامته علي ؛ ولكنه ابتلاء مني وامتحان له : أيشكرني فأعطيه فوق ذلك ، أم يكفرني فأسلبه إياه وأخول فيه غيره .

وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه علي ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له : أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق ، أم يتسخط فيكون حظه السخط؟ فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام ، وأن الفقر إهانة ، فقال : لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي ، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي .

فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره ، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته ، ويقتر على المؤمن لا لإهانته ، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ، ومحبته وطاعته ، ويهين من يهينه بالإعراض عنه

(١) في ظلال القرآن ، الآية (٥٥) من سورة التوبة .

ومعصيته ، فله الحمد على هذا وعلى هذا ، وهو الغني الحميد »[١] اهـ.

و ـ ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٣٣ـ٣٥].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« وإن عَرَضَ الحياة الدنيا الذي ضرب الله له بعض الأمثال من المال والزينة والمتاع ليفتن الكثيرين . وأشد الفتنة حين يرونه في أيدي الفجار ، ويرون أيادي الأبرار منه خالية ، أو يرون هؤلاء في عسر أو مشقة أو ابتلاء ، وأولئك في قوة وثروة وسطوة واستعلاء .

والله يعلم وقع هذه الفتنة في نفوس الناس ، ولكنه يكشف لهم عن زهادة هذه القيم وهوانها عليه ، ويكشف لهم كذلك عن نفاسة ما يدخره للأبرار الأتقياء عنده ، والقلب المؤمن يطمئن لاختيار الله للأبرار وللفجار .

وأولئك الذين كانوا يعترضون على اختيار الله لرجل لم يؤت شيئاً من عرض هذه الحياة الدنيا ، ويقيسون الرجال بما يملكون من رياسة ، أو بما يملكون من مال يرون من هذه الآيات هوان هذه الأعراض وزهادتها عند الله ، وأنها مبذولة لشر خلق الله وأبغضهم عند الله ؛ فهي لا تدل على قربى منه ولا تنبئ عن رضا ، ولا تشي باختيار ! »[٢] اهـ.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٠).

(٢) في ظلال القرآن ، الآيات (٣٣ـ٣٥) من سورة الزخرف .

والآيات في معنى هذه السنة كثيرة جداً ؛ أكتفي بما ذكر ، ونسأله سبحانه حسن العاقبة .

٧ ـ التؤدة والأناة وعدم الاستعجال :

وهذه هي الثمرة السابعة من ثمار قوله تعالى : ﴿ **لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ فإذا كان العبد لا يعلم أين يكون الخير والشر فيما يقضيه الله سبحانه إلا في ضوء ما علَّمه الله عز وجل لعباده من السنن والثوابت ، فإنه ـ والحالة هذه ـ لا ينبغي له أن يتعجل الأمور أو يحلل المواقف والأحداث قبل دراستها والبحث في جوانبها ، متجرداً في ذلك لله عز وجل ، مهتدياً بالموازين والسنن الثابتة التي ذكرها الله سبحانه في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، وإذا وفق العبد إلى هذا الفضل فإنه في الغالب يصدر عن الحق، وينطق بالحق ، وتنشأ عنده صفتا الحلم والأناة اللتان يحبهما الله عز وجل . . وكم رأينا من أناس تعجلوا أمورهم قبل أوانها فكانت نتيجتها وبالاً وشراً عليهم ، وكم سئم أناس من نعمة أنعم الله بها عليهم فتقالّوها وأرادوا غيرها ، فلما جاءهم ما أرادوه وتعجلوه أصابهم منه ضررٌ ونكدٌ وندمٌ.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« من الآفات الخفية العامة أن يكون العبد في نعمة أنعم الله بها عليه ، واختارها له فيملّها العبد ، ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم لجهله أنه خير له منها ، وربه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة ، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه ، حتى إذا ضاق ذرعاً بتلك النعمة ، وسخطها وتبرم بها ، واستحكم [ملله] لها سلبه الله إياها ؛ فإذا انتقل إلى ما طلبه ، ورأى التفاوت

بين ما كان فيه وما صار إليه ؛ اشتد قلقه وندمه ، وطلب العودة إلى ما كان فيه ، فإذا أراد الله بعبده خيراً ورشداً أشهده أن ما هو فيه نعمة من نعمه عليه ، ورضّاه به ، وأوزعه شكره عليه ، فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته ، عاجز عنها ، مفوض إلى الله ، طالب منه حسن اختياره له . وليس على العبد أضر من ملله لنعم الله ، فإنه لا يراها نعمة ، ولا يشكره عليها ، ولا يفرح بها ! بل يسخطها ويشكوها ويعدها مصيبة ؛ هذا وهي من أعظم نعم الله عليه ، فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم ولا يشعرون »(١) اهـ .

ولكن لا يعني ذلك أن يبقى العبد متماوتاً سلبياً بحجة عدم معرفته للعواقب وبحجة التثبت ! كلا ، ولكن المقصود عدم العجلة في الأمور قبل تبين وجه الرشد فيها ، فإذا تبين ذلك بميزان الشرع تحتم العمل والعزيمة عليه . وعن هذا الاحتراس يتحدث ابن القيم فيقول :

« والله يحب مَنْ عنده العلم والأناة فلا يعجل بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ، ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه ، فالعجلة والطيش من الشيطان ، فمن ثبت عند صدمة البداءات استقبل أمره بعلم وحزم ، ومن لم يثبت لهما استقبله بعجلة وطيش ، وعاقبته الندامة ، وعاقبة الأول حمد أمره ، ولكن للأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهي الفوت ، فإنه لا يُخاف من التثبيت إلا الفوت ، فإذا اقترن به العزم والحزم تم أمره ، ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن

---

(١) الفوائد : ص١٨١ ، وما بين معكوفتين كتب (ملكه) . والتصويب من طبعة بتحقيق بشير محمد عيون .

النبي ﷺ : «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد**»[١]. وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح ، وما أتي العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما ، فما أتي أحد إلا من باب العجلة والطيش ، واستفزاز البداءات له، أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرص بعد مُواتاتها ، فإذا حصل الثبات أولاً ، والعزيمة ثانياً أفلح كل الفلاح . والله ولي التوفيق»[٢] اهـ.

ومن صور الاستعجال التي يمكن معالجتها بهذه السنة ما نراه من تعجل بعض الطيبين من الغيورين على هذا الدين في قطف ثمرة جهدهم ، وتعريض أنفسهم للابتلاء وتمنيهم لمواجهة الأعداء . . وينسون أو يغفلون عن قوله ﷺ : « **لا تمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموهم فاصبروا** »[٣] ؛ لأن المرء لا يدري ما تؤول إليه الحال عند مواجهة العدو ، ومشاهدة الأهوال . وقد يتمنى العبد حالة معينة ويستعجلها بتصرفه الجاهل بعواقب الأمور ، ولكن الله عز وجل برحمته يحول بينه وبين هذا الأمر لما يعلمه سبحانه من الشر والفتنة على عبده من هذا الأمر ؛ فكم من أناس استعجلوا البلاء قبل أوانه ، فلما أصبحوا تحت وطأته ضعفوا وانتكسوا والعياذ بالله . فحري بالمسلم أن يسأل ربه الدلالة على ما فيه الخير والصلاح ، وعلى ما فيه مرضاته عز وجل ورحمته .

وقد ذكر الله سبحانه في كتابه قصة أولئك الذين كرهوا كف اليد عن

(١) النسائي (٣/ ٥٤)، أحمد (٤/ ١٢٥) ، وقال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

(٢) مفتاح دار السعادة : ١٥٤ .

(٣) متفق عليه . رواه البخاري / ك الجهاد / باب (١٥٦) [٦/ ١٨١ (٣٠٢٦) فتح]، ورواه مسلم/ ك الجهاد / باب (٦) كراهة تمني لقاء العدو (٣/ ١٣٦٢) (١٧٤٢) .

الكفار ، وتمنوا القتال ، فلما كتب عليهم القتال في الوقت المناسب رغبوا عنه، وهذا من آفة الاستعجال ؛ قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء : ٧٧].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « إن أشد الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً قد يكونون هم أشد الناس جزعاً وانهياراً وهزيمة عندما يجد الجد وتقع الواقعة . . بل إن هذه قد تكون القاعدة !

ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالباً ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف ، لا عن شجاعة واحتمال وإصرار ، كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال ؛ قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة ؛ فتدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأي شكل ، دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار . . حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا ، وأشق مما تصوروا .

فكانوا أول الصف جزعاً ونكولاً وانهياراً . . على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم ، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ؛ ويعدّون للأمر عدّته ، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة ، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف ، فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته . . والمتهورون المندفعون المتحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافاً ، ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور ! وفي المعركة يتبين أي الفريقين أكثر احتمالاً وأي

الفريقين أبعد نظراً كذلك!

وأغلب الظن أن هذا الفريق الذي تعنيه هذه الآيات كان من ذلك الصنف ، الذي يلذعه الأذى في مكة فلا يطيقه، ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة؛ فيندفع يطلب من الرسول أن يأذن له بدفع الأذى ، أو حفظ الكرامة ، والرسول ﷺ يتبع في هذا أمر ربه بالتريث والانتظار ، والتربية والإعداد ، وارتقاب الأمر في الوقت المناسب »[1] اهـ.

مما سبق يتبين لنا فضل التؤدة والأناة ، وأنها من ثمرة العلم بالله عز وجل وتوحيده وأسمائه وصفاته ،وأنه عز وجل يقدر الوقت المناسب لنصر أوليائه بعد أن يكونوا قد أخذوا بأسباب النصر وأعدوا عدته ، وأنه سبحانه هو العليم الحكيم والبر الرحيم بعباده ، فلا يؤخر عنهم شيئاً ، ولا يقضي عليهم أمراً إلا وفيه الخير والرحمة ، ولكن العبد القاصر والجاهل بعواقب الأمور يستعجل أمر ربه الرحيم .

والله سبحانه العالم بخلقه وما يصلح لهم لا يستجيب لرغباتهم الطائشة، بل يحميهم منها لما يعلم سبحانه فيها من الضرر والشر لهم ، ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، وصدق الله العظيم في وصفه للإنسان ﴿ **خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ...** ﴾ [الأنبياء: ٣٧] فطبيعته العجلة والتسرع ، إلا من منَّ الله عليه بتوحيده ومحبته والتسليم له مع فعله للأسباب الممكنة فإنه يسلم من الأفكار المتعبة ، والاندفاعات المتهورة ؛ لأنه يفقه قوله تعالى : ﴿ **لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم** ﴾ وصدق الرسول ﷺ : « **التؤدة**

---

(١) في ظلال القرآن ، الآية (٧٧) من سورة النساء.

في كل شيء [خير] إلا في عمل الآخرة »[١] .

❁ ❁ ❁

(١) رواه أبو داود / ك الأدب / باب (١١) في الرفق (٥/ ١٥٧) (٤٨١٠) ، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني (١٧٩٤).

المبحث السابع
بعض الوسائل الجالبة لفهم هذه السنة والتخلق بها

١ـ البصيرة في الدين والتفقه فيه :

إن أهم جوانب التفقه في الدين الفقه الواجب المتمثل في : فقه العقيدة، وفقه الأحكام؛ لأنهما من أقوى الوسائل في فهم هذه السنة ، والتأثر بها ، وتفصيل ذلك فيما يلي :

أ ـ فقه العقيدة ومعرفة الله عز وجل، وتوحيده بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته :

وهذه أعظم العلوم وأشرفها ، وكل الوسائل التي تليها مكملة لها ومساعدة ومقوية لها لا تصلح بدونها ؛ لأن هذه المعرفة أهم وأشرف المعارف والعلوم ، وهي أول واجب يجب على المكلف معرفته ، وكلما كان العبد أعرف بربه وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى، كان أقوى إيماناً وتسليماً ومحبة وتوكلاً وتفويضاً .

وهذه المعرفة لا تتأتى إلا بالعلم الصحيح ، والبصيرة النافذة في دين الله عز وجل وشرعه، والذي ليس لنا طريق إليه إلا بما جاءنا في كتاب ربنا عز وجل ، ومابلغه لنا نبيه الكريم محمد ﷺ على لسان صحابته الكرام رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان .

وما جاء عن غير هذين المصدرين المنضبطين بفهم السلف الصالح فإنه

لن يؤدي إلى المعرفة الصحيحة بالله عز وجل ، وبالتالي لن تحصل تلك الثمار المنشودة من ثمار أسمائه عز وجل وصفاته ، والتي يثمرها قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم ﴾ .

وقد سبق الحديث عن بعض هذه الثمرات الكريمة ، ولذلك فإن الطوائف الضالة في معرفة الله عز وجل وأسمائه وصفاته كالجهمية والمعتزلة والقدرية وغيرهم هم أبعد الناس عن تذوق طعم هذه الثمار اليانعة ؛ لأن الشجرة التي فسد أصلها لا يرجى منها قطف الثمر .

وسوف أقتصر في هذه الفقرة على نقولات للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى تجلي هذه الحقيقة حيث لم أجد - حسب علمي القاصر - من اعتنى بمسألة الأسماء والصفات وآثارها القلبية والعبوديات التي تجب على العبد لله فيها ، كما اعتنى بها هذا الإمام الجليل رحمه الله تعالى فتراه يقول :

« فالبصيرة في الأسماء والصفات ألا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله ﷺ ، بل تكون الشُبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبه والشكوك في وجود الله ، فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر .

وعقد هذا أن يشهد قلبُك الربَّ تبارك وتعالى مستوياً على عرشه ، متكلماً بأمره ونهيه ، بصيراً بحركات العالم علويه وسفليَّه ، وأشخاصه وذواته ، سميعاً لأصواتهم ، رقيباً على ضمائرهم وأسرارهم ، وأمر الممالك تحت تدبيره ، نازل من عنده وصاعد إليه ، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك ، موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال، منزهاً عن العيوب والنقائص والمثال ، هو كما وصف نفسه في

كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه. حي لا يموت ، قيوم لا ينام ، عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، بصير يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء . سميع يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات . تمت كلماته صدْقاً وعدلاً . وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شَبَهاً ومثلاً ، وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً ، ووسعت الخليقة أفعاله عدلاً وحكمة ورحمة وإحساناً وفضلاً . له الخلق والأمر ، وله النعمة والفضل . وله الملك والحمد ، وله الثناء والمجد . أولٌ ليس قبله شيء . وآخر ليس بعده شيء . ظاهر ليس فوقه شيء ، باطن ليس دونه شيء ، أسماؤه كلها أسماء مَدْح وحمد وثناء وتمجيد ؛ ولذلك كانت حسنى ، وصفاته كلها صفات كمال ، ونعوته كلها نعوت جلال ، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل ، وكل شيء من مخلوقاته دال عليه ، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه ، لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، ولا ترك الإنسان سُدى عاطلاً؛ بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته ، وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته ، تعرّف إلى عباده بأنواع التعرفات، وصرف لهم الآيات، ونوع لهم الدلالات، ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب ، ومدّ بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب ، فأتمّ عليهم نعمه السابغة ، وأقام عليهم حجته البالغة، أفاض عليهم النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وضَمَّن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه .

وتفاوت الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها، والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها .

وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم الذي ذمه السلف؛ لجهلهم بالنصوص ومعانيها ، وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم . وإذا تأملت حال العامة ـ الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم ـ رأيتهم أتم بصيرة منهم ، وأقوى إيماناً ، وأعظم تسليماً للوحي ، وانقياداً للحق »[1] اهـ.

ويتحدث في موطن آخر عن حقيقة العلم بأسماء الله عز وجل وصفاته ، فيقول :

« وأكمل الناس عبودية : المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر ، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر ، كمن يحجبه التعبد باسمه « القدير » عن التعبد باسمه « الحليم الرحيم » ، أو يحجبه عبودية اسمه « المعطي » عن عبودية اسمه « المانع » ، أو عبودية اسمه «الرحيم والعفوّ والغفور » عن اسمه « المنتقم» ، أو التعبد بأسماء « التودد ، والبر ، واللطف ، والإحسان » عن أسماء « العدل ، والجبروت ، والعظمة، والكبرياء » ونحو ذلك .

وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله . وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن . قال الله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ، والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ، ودعاء الثناء ، ودعاء التعبد. وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ، ويثنوا عليه بها ، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها .

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته .

(١) مدارج السالكين (١/ ١٢٤).

فهو « عليم » يحب كل عليم ، « جَوَادٌ » يحسب كل جواد ، « وتر » يحب الوتر، « جميل » يحب الجمال ، « عفو » يحب العفو وأهله ، « حَيِي» يحب الحياء وأهله ، « بَرٌّ» يحب الأبرار، « شكور» يحب الشاكرين ، «صبور» يحب الصابرين ، « حليم» يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة ، والعفو والصفح : خلق من يغفر له ، ويتوب عليه ، ويعفو عنه ، وقدر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له؛ ليترتب عليه المحبوب له المرضي له . فتوسطه كتوسط الأسباب المكروهة المفضية إلى المحبوب .

فربما كان مكروه العباد إلى محبوبها سبب ما مثله سبب

والأسباب - مع مسبباتها - أربعة أنواع : محبوب يفضي إلى محبوب ، ومكروه يفضي إلى محبوب ، وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره سبحانه بالنسبة إلى ما يحبه وما يكرهه .

والثالث : مكروه يفضي إلى مكروه .

والرابع : محبوب يفضي إلى مكروه ، وهذان النوعان ممتنعان في حقه سبحانه ؛ إذ الغايات المطلوبة من قضائه وقدره - الذي ما خلق ما خلق ، ولا قضى ما قضى إلا لأجل حصولها - لا تكون إلا محبوبة للرب ، مرضية له»[1] اهـ.

والحاصل من هذه الوسيلة أن العبد كلما كان أقوى توحيداً وأكثر بصيرة بأسماء الله عز وجل وصفاته ؛ كان أقوى إيماناً وتعبداً لله سبحانه، وكلما كان

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٢٠ ، ٤٢١).

محباً لربه محسناً الظن بمولاه ، وراضياً بما يقضيه عليه ، موقناً بحكمة الله البالغة ، ورحمته الواسعة فيما يقضيه ويقدره - ولو كان مكروهاً للعبد - لا تؤثر في قلبه الشبهات ، ولا تضره الخطرات ، ولا يضعف صبره عند ورود الشهوات .

ذلك أن محبته لربه تجعله يعتقد أن ما يختاره الله سبحانه خير ، وأنه أحسن من اختياره لنفسه ؛ وذلك لمعرفة العبد لربه سبحانه بصفات الكمال والجلال ، وإحاطته بكل شيء ، ومعرفته لنفسه بصفات النقص والجهل والهوى . كل هذا يؤدي به إلى الاطمئنان لاختيار الله سبحانه ، وألا يضيق الإنسان ذرعاً بذلك ، ولو كان ظاهره الشر والألم ، وصدق الله العظيم : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم ﴾ .

ورحم الله السباعي عندما قال :

« يتساءلون عن حكمتك في المرض والجوع ، والزلازل والكوارث ، وموت الأحباء وحياة الأعداء ، وضعف المصلحين وتسلط الظالمين ، وانتشار الفساد وكثرة المجرمين ، يتساءلون عن حكمتك فيها وأنت الرؤوف الرحيم بعبادك؟ فيا عجباً لقصر النظر ومتاهة الرأي ! إنهم إذا وثقوا بحكمة إنسان سلموا إليه أمرهم ، واستحسنوا فعاله وهم لا يعرفون حكمتها .

وأنت . . أنت مبدع السماوات والأرض ، يا خالق الإنسان على أحسن صورة وأدق نظام . . أنت الحكيم العليم . . الرحمن الرحيم . . اللطيف الخبير . . يفقدون حكمتك فيما ساءهم وضرهم ، وقد آمنوا بحكمتك فيما نفعهم وسرَّهم ، أفلا قاسوا ما غاب عنهم على ما حضر؟ وما جهلوا على ما

علموا ؟ أم إن الإنسان كان ظلوماً جهولاً ؟!»[1] .

ب ـ فقه الأحكام :

وهذا هو القسم الثاني من الفقه الواجب في الدين ، والذي يساهم في معرفة حكمة الله عز وجل ورحمته فيما يشرعه سبحانه من الأحكام والأقضية التي فيها الخير والمصلحة للعباد ـ ولو ظهر ما فيها من المشقة والتكليف على بعض الناس ـ فالعبرة بالمحصلة النهائية وما فيها من الخير والرحمة واللطف .

ومن تأمل أحكام الله عز وجل وتشريعاته وجدها مبنيّة على قاعدة عظيمة كريمة هي من لوازم ومقتضيات أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وهذه القاعدة هي ما يسميها الفقهاء بقاعدة (رفع الحرج) ، وما يتفرع عنها من قواعد التخفيف والرخص ورفع المشقة وجلب التيسير .

إن معرفة القواعد التي تنطلق منها الأحكام الشرعية ، ومعرفة العلل والمصالح ؛ كل ذلك يساهم بشكل مباشر في تفهم هذه السنة الكريمة ﴿ **لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم** ﴾ ، ويساهم في تطبع القلب بها وتذوق ثمارها يقول الله عز وجل : ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [المائدة : ٦] .

يقول محمد رشيد رضا ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية :

« ما نفاه الله تعالى من الحرج في هذه الآية قاعدة من قواعد الشريعة ، وأصل من أعظم أصول الدين تبنى عليه وتتفرع عنه مسائل كثيرة . وقد أطلق هنا نفي الحرج ، والمراد به أولاً وبالذات ما يتعلق بأحكام الآية ، أو بما

---

(١) هكذا علمتني الحياة (١/ ٣١).

تقدم من الأحكام من أول السورة ، وثانياً وبالتبع جميع أحكام الإسلام ؛ ولهذا لم يقل : ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج فيما شرعه لكم من أحكام الطهارة مثلاً ؛ لأن حذف المتعلق يؤذن بالعموم .

وقد صرح بنفي الحرج من الدين كله في سورة الحج ، فقال : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٨] .

وإنما صرح في هذه الآية بنفي الحرج من الدين كله ؛ لأن سورة الحج من السور المكية التي بينت أصول الإسلام وقواعده الكلية ، وهي تدل على أن القيام بما لابد منه من عزائم الأمور ليس من الحرج في شيء ؛ لأنه نفى الحرج بعد الأمر بالجهاد في سبيل الله حق الجهاد ، وهو بذل الجهد في الطريق الموصل إلى إقامة سنن الله تعالى وحكمته في خلقه ، وكل ما يرضيه من عباده من الحق والخير والفضيلة ، ولا يصعد الإنسان إلى مستوى كماله إلا ببذل الجهد في معالي الأمور .

وإنما الحرج هو الضيق والمشقة فيما ضرره أرجح أو أكبر من نفعه ، كالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة ، والامتناع من سد الرمق بلحم الميتة أو الخنزير أو الخمر لمن لا يجد غيرها ، وكاستعمال المريض الماء في الوضوء أو الغسل مع خشية ضرره ، وكذلك استعماله في البرد بهذا القيد ، أو فيما يمكن إدراك غرض الشارع منه بدون مشقة في وقت آخر كالصيام في المرض و السفر . وقد صرح القرآن الحكيم بعد بيان فريضة الصيام والرخصة للمريض والمسافر بالفطر بأنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر .

وقد بنى العلماء على أساس نفي الحرج والعسر وإثبات إرادة الله تعالى اليسر بالعباد في كل ما شرعه لهم عدة قواعد وأصول فرعوا عليها كثيراً من الفروع في العبادات والمعاملات ، منها : إذا ضاق الأمر اتسع ، المشقة تجلب التيسير ، درء المفاسد مقدم على جلب المنافع ، الضرورات تبيح المحظورات ، ما حرم لذاته يباح للضرورة ، وما حرم لسد الذريعة يباح للحاجة »[1] اهـ.

والآيات التي تؤكد هذه القاعدة الكريمة كثيرة جداً منها قوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ، وقوله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وقوله سبحانه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨].

والكلام على قاعدة رفع الحرج في الشريعة يطول ، وليس هنا مقام تفصيلها ، وإنما أردت الإشارة إلى أن الفقه في الدين ومقاصده وحِكَمه يَزيدُ في الإيمان واليقين برحمة الله سبحانه ، وإرادته عز وجل الخير واليسر بعباده في كل أحكامه الكونية القدرية والدينية الشرعية ، ولو ظهر شيء من المشقة والمكروه ؛ فإنما العبرة بالنتائج والمآلات ، وقد لا تظهر للعبد الضعيف الحكمة والمصلحة في حكم من الأحكام في هذه الدنيا ، ولكن المعرفة بالله عز وجل وتوحيده ومعرفة سننه يجعله يوقن ويسلم أن في ذلك الخير والصلاح إما في الدنيا أو الآخرة . وإذا حصل النعيم الأخروي الذي لا ينفد ، فماذا تساوي كل المشقات والتضحيات والمتاعب التي لا تساوي إلا ساعة من نهار، أو أقل من ذلك في جانب نعيم الآخرة ؟ إنها لا تساوي شيئاً ؛ بل لا

(١) تفسير المنار : عند الآية (٦) من سورة المائدة .

يذكر العبد منها شيئاً عندما يرى النعيم السرمدي ، والراحة الأبدية .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والخيرات واللذات والكمالات كلها لا تنال إلا بحظ من المشقة ، ولا يعبر إليها إلا على جسر من التعب ، وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة ، وأن بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة ؛ فلا فرحة لمن لا هم له ، ولا لذة لمن لا صبر له ، ولا نعيم لمن لا شقاء له ، ولا راحة لمن لا تعب له ؛ بل إذا تعب العبد قليلاً استراح طويلاً ، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد ، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة ، والله المستعان ، ولا قوة إلا بالله . وكلما كانت النفوس أشرف والهمة أعلا ؛ كان تعب البدن أوفر ، وحظه من الراحة أقل ، كما قال المتنبي :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام»[1] اهـ.

٢ ـ الإكثار من قراءة القرآن وتدبر آياته :

قال تعالى : ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ [ص: ٢٩].

إن في تدبر آيات القرآن الكريم أكبر عون على معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته ، وما تثمره في القلب من التوحيد الخالص لله عز وجل المتضمن لمحبته سبحانه والتوكل عليه ، والتسليم لحكمه ، والرضا بقضائه . كما أن في كتاب الله عز وجل من القصص والحوادث الشيء الكثير الذي قصه الله

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣٤٢).

تعالى علينا لنعتبر ونذّكر ؛ قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى ﴾ [يوسف: ١١١].

وذلك كقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وغزوات الرسول ﷺ، وما فيها من العبر والدروس العظيمة التي تبين سنن الله عز وجل في عباده المؤمنين ، وسنته سبحانه في الظالمين ، والتي يظهر للمتأمل والمتدبر فيها تلك الموازين والقيم الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ، والتي توزن بها المواقف والأحداث .

كما يظهر أيضاً من هذه القصص رحمة الله عز وجل وإرادته الخير بعباده، ولو ظهر ما ظهر من الشر والمكروه لهم في بدايات الأمور ، فإن الخير من وراء ذلك .

وقد سبق تفصيل ذلك في المبحث الثاني: مبحث الآيات الواردة، والمبحث الرابع: مبحث المواقف ؛ حيث مر بنا ما ورد في دروس غزوة بدر، وأحد، والحديبية .

كما أن المتدبر لكتاب الله عز وجل والمهتدي بهداه ينتفع كثيراً بتتبعه لآيات الأحكام وما فيها من التيسير ورفع الحرج والمشقة ، والتي تقوي الإيمان برحمة الله عز وجل ولطفه وإحسانه ، وتزيد من يقينه بقوله تعالى : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم ﴾.

كما أن ذكر الآخرة وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين من الخير العميم والنعيم المقيم يثمر في قلب المؤمن زهادته في متاع الدنيا الزائل ،كما يثمر صبره على المصائب والشدائد، فما هو إلا صبر ساعة ويأتي الخلف من الله

عز وجل في النعيم الأبدي ؛ النعيم الخالص الذي ينسي كل شدة ومصيبة مهما طال أمدها ، وبالتالي فإن مكروهاً مؤقتاً يزول، ويعقبه محبوبٌ أبديٌ ونعيمٌ سرمديٌ لا يعتبر مكروهًا لزواله وانقراضه .

٣ ـ الإكثار من الأعمال الصالحة والحذر من الذنوب وآثارها :

قال تعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل : ٩٧] . في هذه الآية الكريمة يرشدنا الله عز وجل إلى أثر الأعمال الصالحة في الحياة الطيبة السعيدة في الدنيا، والعاقبة الحميدة في الآخرة .

ولا يقصد بهذه الحياة الطيبة ما يفهمه كثير من أبناء الدنيا الغافلين عن الله عز وجل والدار الآخرة من أنها التنعم بالأموال والأولاد والمأكولات والمشروبات واللذائذ الدنيوية . كلا ؛ فهذه يشترك فيها معهم الحيوانات والكفار وغيرهم ، ولكن الحياة الطيبة التي تشير إليها الآية الكريمة شيء آخر ، وشأن عظيم، لا يناله إلا المؤمن العامل للصالحات ، وذلك فيما ينعم به العبد المؤمن من النعيم القلبي والسرور النفسي ولو كان في ما يظهر للناس فقيراً بائساً مريضاً . . . إلخ .

ولما كانت الأعمال الصالحة سبباً في طمأنينة القلب وسكينته وإنابته إلى ربه عز وجل ، فإنها تكون بذلك من أقوى الأسباب في تفهم سنة الله عز وجل في عباده فيما يقضيه من الخير أو الشر ، ويصبح العبد مطمئناً إلى ربه راضياً بما يختاره له سبحانه ، مفوضاً أمره إلى مولاه عز وجل ، وإلى ذلك يشير الرسول ﷺ في الحديث القدسي الصحيح، والذي فيه : « **وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي**

يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه . . . الحديث»[1] .

وفي هذا أعظم هداية ، ونورٌ يستضيء به العبد في حياته ، وينعم به في قلبه .

كما تجدر الإشارة هنا إلى أثر الأعمال الصالحة في صفاء القلب وسلامته من أدران الشبهات والشهوات ، واللذان هما البابان المفتوحان للشيطان ، لا يدخل على القلب إلا عن طريقهما ؛ فإذا أقفل هذا البابان بما في القلب من أنوار التوحيد ، وتلاوة كتاب الله عز وجل والأعمال الصالحة ؛ فإن القلب بذلك يسلم مما يورده الشيطان من الشبهات والشكوك في قضاء الله وقدره ، وعندها يحصل الاستسلام والانقياد وتفويض الأمور إلى الله عز وجل العليم الحكيم البر الرحيم .

وبقي في هذه المسألة أن نشير إلى خطر الذنوب والمعاصي ، وأثرها في ظلمة القلب ومرضه ، وتعرضه لفتن الشبهات والشهوات حتى يصبح قاسياً صلداً لا تؤثر فيه المواعظ ، ولا تنفعه الزواجر ؛ ولذا فإن من الأسباب المعينة على تفهم سنن الله عز وجل ، والتخلقّ بها : الحذر من الذنوب والمعاصي ، والتوبة السريعة عند الوقوع فيها حتى يبقى للقلب صفاؤه وسلامته .

وقد قصّ الله عز وجل في كتابه الكريم قصة قارون وافتراق الناس إزاءه إلى فريقين : فريق يريد الحياة الدنيا ، وحظه من العلم والعمل الصالح قليل ، وفريق آتاه الله العلم ، ونظر بنور الله عز وجل في قارون وماله فوُفق إلى الميزان الحق ، بينما أخطأ الفريق الآخر هذا الميزان ، ووزن الأمر بميزان

(١) رواه البخاري / ك . الرقاق / باب (٣٨) التواضع [١١/ ٣٤٨ (٦٥٠١) فتح] .

الدنيا الزائلة المضطربة، قال تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص : ٧٩، ٨٠].

فهذه الآية ترينا أثر العلم والعمل الصالح والرغبة في الآخرة في النظرة الصحيحة والميزان الحق للأمور ، كما ترينا خطر الركون إلى الدنيا وقلة العلم والعمل الصالح ، وأثر ذلك في اضطراب الموازين واختلال المفاهيم.

٤ ـ مصاحبة أهل العلم والصلاح والعقل والحكمة :

إن التربية بالقدوة والمصاحبة والمعايشة من أهم وسائل التربية التي ثبت جدواها بالدليل والتجربة ؛ لأن الإنسان مدني بطبعه ؛ يتأثر بمن حوله ، ويتحلى بأخلاقهم وأنماط سلوكهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ؛ قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٩] ، وقوله ﷺ : « **المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل** »(١) .

والنصوص في ذلك كثيرة ، فمتى ما وفق العبد إلى مجالسة أهل الصلاح ، ومن يتصفون بصحة العلم ، وحسن الديانة ؛ فإن هذا بداية الخير والهداية ؛ وذلك لما يتلقى منهم من العلم والفقه الذي تُنفى به الشبهات ، ويتعرف الإنسان به على ربه الكريم الرحيم ، فيعبده على بصيرة .

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٣ في الأدب) ، والترمذي (٢٣٧٩ في الزهد) وقال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن.

وكذلك لما يجده عندهم من القدوة في أخلاقهم وصبرهم ومواقفهم الواضحة من الغيرَ والأحداث ؛ حيث يرى الحلم والصبر ، وإحسان الظن بالله، والتسليم لقضائه وقدره ؛ مما يكون له أكبر الأثر على نفسية المعايش لهم . ومعلوم أنه قد يؤثر في النفس موقفٌ عمليٌ يقفه بعض أهل العلم والصلاح لاتستطيع عشرات الخطب والمحاضرات والكتب أن تزرعه في النفس كما زرعه موقف واحد يشاهده التلميذ المتربي، ويعايشه بسمعه وبصره وقلبه وقالبه .

كما أن المصاحب لأهل العلم والصلاح فوق ما ينهل من علمهم وأخلاقهم، فهو يلتجئ إليهم - بعد الله سبحانه - عند الفتن والنوازل التي يجد فيها الشيطان فرصة لإثارة الشبهات ، وزعزعة الإيمان ، وإساءة الظن بالله . ولكن هذا - بإذن الله - لا يكون عند من يلتصق بأهل العلم والصلاح فهو يسألهم عما يشتبه عليه في أمر دينه ، ويستشيرهم ويستنير برأيهم عند اشتباك الفتن ، وتعدد المواقف ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، مما يكون له أكبر الأثر في ثبات القلب ، وصحة التوكل ، واطمئنان النفس ، والتسليم لله عز وجل ، وتفويض الأمور إليه بعد استفراغ الجهد في فعل الأسباب التي أذن فيها الشرع ، وحث على الأخذ بها .

كما أن في مصاحبة أهل الخير والعلم تربية وتدريبًا على التأني ، والتعقل ، وأخذ الأمور بحكمة، وهذه الصفات ضرورية أيضاً لسد باب العجلة التي هي طريق إلى الندامة والتسخط غالباً .

ومما يتعلق بصحبة أهل العلم والصلاح : مصاحبة من مات منهم قديماً وحديثاً ، والعيش معهم من خلال كتبهم وسيرتهم الصالحة ، والمواقف

المأثورة عنهم ، والتي تشهد بقوة يقينهم ، وصحة توكلهم ، واستسلامهم لربهم ، واحتساب الخير والرحمة فيما يقضيه الله عليهم مما تكرهه النفوس وتأباه ؛ نعم إن في قراءة سيرة العلماء الصالحين الصادقين وسيلة من أقوى الوسائل في التأسي بهم ، ومحاولة اللحوق بهم ، والمرء مع من أحب .

وبما أن الضد بالضد يعرف ، فلا شك أن في الحذر من مصاحبة الأشرار من أهل العلم الفاسد ، أو العمل الفاسق سلامة من تلوث القلب بشبهاتهم أو شهواتهم التي تكدّر القلب ، وتعكر عليه صفاءه وسلامته ، وكذلك الحال في الحذر من كتب وسير أهل البدع والكلام فإنها تورث الشبهات ، وتقسي القلب وتجلب الأهواء والأدواء.

٥ ـ مشاهدة بر الله عز وجل وإحسانه وتقصير النفس وعصيانها :

إن مشاهدة آلاء الله عز وجل ، ونعمه التي لاتعد ولا تحصى، ونزولها المدرار المتواتر من الرب عز وجل إلى عبده لهي من أكبر الأسباب الجالبة لصحة المحبة لله سبحانه ، والثقة في رحمته ، والاستسلام لحكمته . فإذا أضيف إلى ذلك الخير والعطاء تقصير النفس ، وعيوبها ، وذنوبها ، فإن العبد ـ والحالة هذه ـ يستحي أشد الحياء من ربه ، ويعلم أنه يتقلب في فضل الله ورحمته ، وإن أصابه شيء فإنه يوقن بعدل الله وحكمته ، وأنه أهل لذلك، وما عفا الله عنه أكثر ؛ حينئذ لا يرى العبد لنفسه فضلاً على أحد ؛ وهذا يدفعه ويوجهه إلى الاعتناء بنفسه ، وإصلاح عيوبها ، ويلتمس ما يرضي ربه فيتوجه إليه بالعمل ، ومن كان هذا شأنه فإنه يعيش مطمئن القلب، بعيداً عما يتنافس فيه الناس ، ويتحاسدون ، ويتباغضون ، يرى أن النعم ليست دلالة على الإكرام ، كما أن الضيق في الرزق ليس علامة على

الإهانة ؛ بل إنه يزن نفسه ويزن الناس بميزان التقوى الذي هو أساس التفاضل، فإذا انضم إلى ماسبق معرفة العبد لعقله الضعيف المحدود وتفكيره القاصر ، فإنه يطامن من غلوائه ، ويعلم أن الله عز وجل حكيم في كل أحكامه، عليم بما يصلح عباده وأنه لا طاقة للعقل في إدراك الحكمة في كل شيء ؛عندئذ يحصل الرضا والتسليم لما يختاره الله عز وجل ؛ لأنه سبحانه أعلم وأحكم وأرحم وأبر.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى عن هذه المشاهدة: « ومنها أنه إذا شهد نفسه مع ربه مسيئاً خاطئاً مفرطاً مع فرط إحسان الله إليه في كل طرفة عين ، وبرِّه به ، ودفعه عنه ، وشدة حاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه نَفَساً واحداً، وهذه حاله معه ! فكيف يطمع أن يكون الناس معه كما يحب ، وأن يعاملوه بمحض الإحسان ! وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة؟! . وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد ، ولا يعصونه ، ولا يخلّون بحقوقه وهو مع ربه ليس كذلك؟! . وهذا يوجب له أن يستغفر لمسيئهم ، ويعفو عنه ويسامحه ، ويغضي عن الاستقصاء في طلب حقه. فهذه الثمار ونحوها متى اجتناها العبد من الذنب فهي علامة كونه رحمة في حقه »[1] .

٦ - النظر في أحداث التاريخ والمواقف التي تبرز فيها حكمة الله عز وجل وحسن اختياره :

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

[آل عمران: ١٣٧ ، ١٣٨]

(١) مفتاح دار السعادة : ٣٢١ .

لقد نزلت هذه الآيات في التعقيب على غزوة أحد ، ويرشد الله عز وجل المؤمنين فيها إلى السير في الأرض والنظر في سنن الله عز وجل ، وحكمته البالغة ، والتي تنص على أن العاقبة للمتقين ، وأن عاقبة المكذبين الهلاك والخسران ، ولو تسلطوا فترة من الزمن ، فإن في هذا التسلط حكمة بالغة ؛ لأنه سبحانه يريد الخير بعباده المؤمنين ؛ إما لتمحيصهم وتمييز الخبيث من الطيب من بينهم ، أو لتقصيرهم وعصيانهم ، فيريد الله عز وجل من الابتلاء والتسليط أن يتوبوا ويغيروا ما بأنفسهم ، أو غير ذلك من الحكم والغايات النبيلة الشريفة .

والحاصل أن في النظر في أحداث التاريخ ، وتتبع المواقف التي مرت بالمسلمين مع أعدائهم وسيلة من أقوى الوسائل التي تساعد في فقه قوله تعالى : ﴿ **لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم** ﴾ ، وذلك لما في هذه الأحداث والمواقف من الأدلة الجلية على حسن اختيار الله عز وجل لعباده ، ورحمته بهم . وقد سبق في المبحث الرابع ذكر بعض الأحداث كغزوة بدر وأحد والحديبية ، وكذلك بعض المواقف الفردية والتي تدل على أن المؤمنين قد كرهوا شيئاً في بداية الأمر ، ولكن الله سبحانه ـ المحيط بكل شيء ـ قدَّره عليهم ، فكان في ذلك الخير والرحمة بعد أن كانوا يظنون أنه شر ومكروه ، ولو تابع كلٌّ منّا نفسه وتأمل ما مرّ به من مواقف لوجد مصداق هذه السنة واضحاً جلياً ، وأن ما اختاره الله سبحانه خير مما اختاره العبد لنفسه .

٧ ـ دعاء الله عز وجل واللجوء إليه وسؤاله الخيرة في الأمور كلها :

وهذه مسك الختام في هذا المبحث . فاللجوء إلى الله عز وجل ، وسؤاله الدلالة على ما فيه الخير من أنجع الوسائل في فقه هذه السنة ، وتذوق

طعمها، والتعرف عليها ؛ لأن العبد الضعيف القاصر المحدود العلم والإدراك ، إذا فوّض الأمر إلى ربه ومولاه الغني الحميد ، علام الغيوب ، القادر على كل شيء ، والعالم بكل شيء فإنه بذلك يستريح باله ، وينتظر اختيار الله له ، ويطمئن بعد ذلك إلى ما دله الله عليه ، وكم انتفع بدعاء الاستخارة[١] أناسٌ لجأوا إلى الله عز وجل بصدق ؛ فهداهم سبحانه إلى الخير والرحمة ، ولمسوا ذلك الخير بعقولهم وأيديهم مما كان له أكبر الأثر في زيادة اليقين والاطمئنان إلى قضاء الله وقدره ، ومن الأدعية النافعة في هذا الباب : الدعاء الذي رواه عمار بن ياسر رضي الله عنه وفيه : « **وأسألك الرضا بعد القضاء** »[٢] .

❋ ❋ ❋

(١) انظر إلى نص الدعاء وتخريجه ص ٤٣ .

(٢) انظر إلى نص الدعاء وتخريجه ص ٤٦ .

المبحث الثامن
حال المسلمين اليوم في ضوء هذه السنة

تمر بالمسلمين في السنوات الأخيرة حوادث ضخام تتسم بالسرعة والمفاجأة ، نسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عاقبتها خيراً للإسلام والمسلمين . وهذا ما نجزم به في ضوء قوله تعالى : ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم﴾ ، ولو ظهر ما ظهر فيها من المصائب والشرور ، فإن العاقبة للمتقين .

وقد برزت هذه الأحاديث بشكل جلي بعد حرب الخليج الثانية، والتي سبق الإشارة إلى بعض الدروس المستفادة منها في (الرسالة الرابعة) من هذه السلسلة والموسومة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

وفي هذا المبحث سيكون التركيز على أهم الأحداث المؤلمة التي تدور رحاها اليوم في المناطق التي يقطن فيها المسلمون ، متلمسين أوجه الخير التي تنطوي عليها هذه الأحداث ، وذلك في ضوْء ما تم بسطه في المباحث السابقة، مستلهمين الإعانة والتوفيق من الله عز وجل ، فما كان من صواب فهو من الله سبحانه وهو المانّ به ، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان وأستغفر الله وأتوب إليه .

والمقصود من هذه المعرفة ليس هو مجرد العلم الذهني فقط ، وإنما المقصود الأهم هو: استثمار هذه النتائج في توعية الناس ، ومراجعة

النفوس، وتوظيفها في مناهج الدعوة والتغيير ، وأخذ العظة والدروس منها، والبحث في أسباب المصائب والشرور حتى يتم تجنبها ، ومعرفة أسباب النصر والتمكين ؛ فيتوجه الجهد لطلبها وتحصيلها ، مع الثقة المطلقة في وعد الله عز وجل ورحمته وحكمته . وأهم الأحداث التي سيتناولها هذا المبحث ما يلي :

١ ـ ابتلاء المؤمنين وتسلط الأعداء عليهم في أكثر البلدان :

تشهد السنوات الأخيرة حرباً شرسة من أعداء الإسلام بشتى مللهم ، على الدين وأهله تدور رحاها في أكثر بلدان المسلمين ؛ فاشتد الخطب على أمة الإسلام وصلحائها ؛ فابتلوا بشتى صنوف البلاء . نسأل الله عز وجل أن يربط على قلوبهم ويفك أسرهم ، ويحسن العاقبة لهم .

وهذه سنة الله عز وجل في تمحيص أوليائه ، وحتمية الصراع بين الحق والباطل . قال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾[الأنعام: ١١٢] .

فمن هذه الآية نفهم أن هذه العداوة والصراع سنة من سنن الله عز وجل في عباده المؤمنين، وله سبحانه الحكمة البالغة في ذلك، كما سيتبين فيما بعد.

كما نفهم من هذه الآية أن كل هذا الصراع وهذه العداوة تمت بقدر الله سبحانه وبعلمه ، والكل في قبضته وتحت قهره ، ولو شاء سبحانه ما فعلوا هذا الكيد ، وما استطاعوا إليه سبيلاً .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« والمشهد الذي يرسمه القرآن الكريم للمعركة بين شياطين الإنس والجن

من ناحية ، وكل نبي وأتباعه من ناحية أخرى ، ومشيئة الله المهيمنة ، وقدره النافذ من ناحية ثالثة . . هذا المشهد بكل جوانبه جدير بأن نقف أمامه وقفة قصيرة : إنها معركة تتجمع فيها قوى الشر في هذا الكون . . شياطين الإنس والجن . . تتجمع في تعاون وتناسق لإمضاء خطة مقررة . . هي عداء الحق الممثل في رسالات الأنبياء وحربه . . خطة مقررة فيها وسائلها : ﴿ **يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ...** ﴾ . . يمد بعضهم بعضاً بوسائل الخداع والغواية ، وفي الوقت ذاته يغوي بعضهم بعضاً ! وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله . . إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم ؛ ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً ! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبداً . ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه ، والمضي في المعركة معه طويلاً !

ولكن هذا الكيد كله ليس طليقاً . . إنه محاط به بمشيئة الله وقدره . . لا يقدر الشيطان على شيء منه إلا بالقدر الذي يشاؤه الله ، وينفذه بقدره . ومن هنا يبدو هذا الكيد ـ على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية كلها عليه ـ مقيداً مغلولاً ! إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط ، ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع ـ كما يحب الطغاة أن يلقوا في روع من يعبدونهم من البشر ، وليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم . . كلا ! إن إرادتهم مقيدة بمشيئة الله ، وقدرتهم محدودة بقدر الله ، وما يضرون أولياء الله بشيء إلا بما أراده الله ـ في حدود الابتلاء ـ ومرد الأمر كله إلى الله »[1] اهـ .

وقبل الدخول في محاولة التعرف على جوانب الخير والحكمة في الابتلاء والتسليط أود التذكير بما ورد في المبحث الخامس تحت عنوان

(١) في ظلال القرآن : عند الآية (١١٢) من سورة الأنعام .

(تنبيه واحتراس) من أن الرضا والتسليم بما يقدره الله عز وجل ، واليقين برحمته في كل أحكامه ؛ لا يعني العجز والتواكل، وترك الفساد يسري في الأمة ؛ بل الواجب مدافعة أقدار الله بأقداره ،وذلك بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإذا قضى الله عز وجل أمراً وجب التسليم به ، والتفاؤل بالخير والرحمة من ورائه . كما ينبغي للمؤمن أن يسأل ربه العافية من البلاء، فإذا وقع الابتلاء لزم الرضا والتسليم ،والوثوق برحمة الله وحكمته .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في ذلك :

« ومع هذا، فإن العبد المؤمن يرجو ألا يتعرض لبلاء الله وامتحانه ، ويتطلع إلى عافيته ورحمته ، فإذا أصابه بلاء الله بعد هذا صبر له ، وهو مدرك لما وراءه من حكمة ، واستسلم لمشيئة الله واثقاً من حكمته ، متطلعاً إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء .

وقد روي عن الفضيل العابد أنه كان إذا قرأ هذه الآية - : وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] - بكى ، وقال : اللهم لا تبلنا ، فإنك إن بلوتنا فضحتنا ، وهتكت أستارنا وعذبتنا . . »[(١)] اهـ.

وأسوق الآن بعضاً من جوانب الحكمة والرحمة في الابتلاء ، وأسأله سبحانه التوفيق والسداد :

أ - استخراج عبودية المبتلى لله عز وجل في الضراء وظهور انكساره وافتقاره إلى ربه عز وجل ، وفي هذا خير للعبد المبتلى ؛ لتنكشف له نفسه

(١) في ظلال القرآن : عند الآية (٣١) من سورة محمد « بتصرف».

على حقيقتها ، ويكمل ما نقص فيها من العبودية لله عز وجل ، وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في تعداده لحكم ابتلاء المؤمنين بتسليط عدوهم عليهم : « ومنها أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء ، وفي حال العافية والبلاء ، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم . فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالتين عبودية بمقتضى تلك الحال؛ لا تحصل إلا بها ، ولا يستقيم القلب بدونها »[1] اهـ.

وبذلك تتهذب النفوس ، وتنتصر علَى ضعفها وتُنقّى من كل زغل وهوى؛ وفي هذا خير كثير .

ب ـ تهيئة المبتلين لمقامات رفيعة في الدنيا والآخرة لا يمكنهم الوصول إليها إلا على جسر التعب والابتلاء، وهذا الأمر مشاهد ومعروف ؛ فكم من داعية لم ينتشر علمه ، ولم تنتشر دعوته وكتبه في الآفاق إلا بعد ابتلائه وتمحيصه ، وصبره على ذلك ، كما مر بنا في محنة الإمام أحمد، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى ، فيقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجلّ الغايات ، وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان ، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه ، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة ، فصورته صورة ابتلاء وامتحان ، وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة ، ومنّة عظيمة تجنى من قطوف

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٩٠).

الابتلاء والامتحان »[1] اهـ.

ويلحق بذلك ما يناله المبتلى الصابر من تكفير السيئات ورفعة الدرجات في الآخرة .

جـ- تمحيص الدعاة أنفسهم وتميز الصادق من غيره ، فبالابتلاء يعرف الداعية من نفسه ما لم يكن يعرفه من قبل ، كما تنكشف مواقف الناس من حول الدعاة ، ويتم تمييز المواقف إزاء المصلحين المبتلين، فيظهر بابتلائهم مَن من الناس معهم ، ومَن هو ضدهم ومن أعداؤهم ، وقد يكون هذا الأمر قَبل الابتلاء مختلطاً ملتبساً عليه ، وفي هذا التميز خير كثير للدين وأهله ؛ لأن في انفصال الدغل ومعرفة القلوب المريضة فائدة كبيرة في فضحهم ، وأخذ الحذر منهم ، وعدم المراهنة على الأعداد الكبيرة التي لم يتميز طيبها من خبيثها والذين يُظن أنهم في صف الدعوة ، فتأتي الابتلاءات ليميز هؤلاء عن هؤلاء ، وتظهر الأمور على حقيقتها .

ومن سنن الله عز وجل في التغيير أن نصره سبحانه لا ينزل إلا بعد التمحيص والتميز ، قال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ...** ﴾ [آل عمران : ١٧٩].

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« أي : لابد أن يعقد سبباً من المحنة ، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه، يعرف المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر»[2] اهـ.

---

(١) مفتاح دار السعادة ص٣٢١.

(٢) تفسير ابن كثير : عند الآية (١٧٩) من سورة آل عمران .

كما أن في الابتلاء خيراً للدعوة نفسها ؛ حيث يصلب عودها ، ويصلب عود أهلها ، ويثبت للناس مصداقيتهم ومصداقيتها ، وهذا هو الذي يميز الدعوات الحقة من الدعوات الزائفة ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ [الفرقان : ٣١].

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« فلا يكافح ويناضل ، ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون ، الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع وأعراض الحياة الدنيا ، بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها ، ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عوداً ، وأشدهم إيماناً ، وأكثرهم تطلعاً إلى ما عند الله ، واستهانة بما عند الناس ، عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل ، وعندئذ تمحص الصفوف ؛ فيتميز الأقوياء من الضعفاء ، وعندئذ تمضي دعوة الحق في طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها ، واجتازوا امتحانها وبلاءها .

أولئك هم الأمناء عليها ، الذين يحتملون تكاليف النصر وتبعاته ، وقد نالوا هذا النصر بثمنه الغالي ، وأدوا ضريبته صادقين مؤثرين ؛ وقد علمتهم التجارب والابتلاءات كيف يسيرون بدعوتهم بين الأشواك والصخور ، وقد حفزت الشدائد والمخاوف كل طاقاتهم ومقدراتهم ، فنما رصيدهم من القوة ، وذخيرتهم من المعرفة ، فيكون هذا كله رصيداً للدعوة التي يحملون رايتها على السراء والضراء »[1] اهـ.

---

(١) في ظلال القرآن : عند الآية (٣١) من سورة الفرقان .

د ـ إن في الابتلاء فرصة لإعادة النظر في المناهج والتصورات والمواقف التي قد يشوبها شيء من الخلل والخطأ ومجانبة الصواب ، فيأتي الابتلاء لينبه أصحاب هذه المناهج الخاطئة إلى مواطن الخلل ونقاط الضعف ؛ فيحصل التصحيح ، ويُهتدى إلى الحق ، ويُعدّل المسار ، وهذا خير وأجدى من الاستمرار على الخطأ الذي لم يكن ليعرف لولا الابتلاء الذي يقدره الله سبحانه على عباده وأوليائه ليردهم به إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ، وفي ذلك خير عظيم .

هـ ـ في الابتلاء والمعاناة علاج لداء الأشر والعجب والتعالي الذي قد يصاب به بعض الدعاة ؛ حيث بالابتلاء تنكسر النفس ، وتستكين لربها عزوجل، وتلجأ إليه وتظهر فيه على حقيقتها .

و ـ كما أن في اقتحام الابتلاء والمرور بالمحنة ما يُسقط حاجز الخوف والهلع الذي قد يكون مضخماً في النفوس بشكل يثير الرعب والأوهام ، فإذا بهذه الأمور تزول ويظهر سرابها ، ويُعرف المخاليق الضعاف على حقيقتهم ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملكوه لغيرهم ، وصدق الله العظيم : ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في معنى الآية : « أي يخوفكم أولياءه ، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة »[1] اهـ.

ز ـ بالابتلاء يحصل التنبيه إلى سنة الله عز وجل في كل من ادعى

(١) تفسير ابن كثير : عند الآية (١٧٥) من سورة آل عمران .

الإيمان، وأنه لابد من الابتلاء للخلق ليتبين الصادق من الكاذب.

وهذا الأمر قد سبق التنبيه عليه في فقرة سابقة ، وإنما الذي يراد ذكره هنا هو أنه قد يوجد من بعض الدعاة إلى الله عز وجل من يغفل عن هذه السنة ويتهرب منها وُسْعه وطاقته ، فإذا ابتلي حصل له صدمة ،وكأن الأمر مفاجئ له ! فيأتيه ولما يستعد له ويوطن نفسه عليه ، فينشأ من ذلك اضطراب وضعف للمبتلى.

وأما إذا تذكر هذه السنة ، ورأى صوراً منها فيمن ابتلي من الدعاة قبله؛ فإن هذا يساعده على أن يأخذ للأمر أهبته ويستعد له ، ويعزي نفسه بحتمية هذه السنة ، ويسأل ربه الثبات والعافية ، كما يسأله الثواب الحسن والأجر الكريم عنده سبحانه يوم يلقاه ، فما هو إلا صبر ساعة ثم النعيم المقيم بإذنه سبحانه .

قال الله تعالى : ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١ - ٦] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« فليتأمل العبد سياق هذه الآيات ، وما تضمنته من العبر وكنوز الحكم؛ فإن الناس إذا أرسل إليهم الرسل؛ بين أمرين : إما أن يقول أحدهم: آمنا. وإما ألا يقول ذلك؛ بل يستمر على السيئات والكفر ، فمن قال: « آمنا » امتحنه ربه وابتلاه وفتنه ـ والفتنة : الابتلاء والاختبار ليتبين

الصادق من الكاذب ـ ومن لم يقل : « آمنا» فلا يحسب أنه يُعجز الله ويفوته ويسبقه ؛ فإنه إنما يطوي المراحل في يديه .

وكيف يفر المرء عنه بذنبه إذا كان تُطوى في يديه المراحل

فمن آمن بالرسل وأطاعهم ، عاداه أعداؤهم وآذوه فابتلي بما يؤلمه ، وإن لم يؤمن بهم ولم يطعهم ؛ عوقب في الدنيا والآخرة فحصل له ما يؤلمه ، وكان هذا المؤلم له أعظم ألماً وأدوم من ألم أتباعهم .

فلابد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان ، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ثم يصير إلى الألم الدائم ، وسئل الشافعي رحمه الله : أيهما أفضل للرجل يُمكنّ أو يبتلى ؟ فقال : لا يمكَّن حتى يبتلى . . . إلى أن قال رحمه الله تعالى : . . . ومن تأمل أحوال العالم ، رأى هذا كثيراً فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة ، وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم هرباً من عقوبتهم ، فمن هداه الله ، وألهمه رشده ، ووقاه شر نفسه ، امتنع من الموافقة على فعل المحرم ، وصبر على عدوانهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما كانت للرسل وأتباعهم كالمهاجرين والأنصار ، ومن ابتلي من العلماء ، والعباد وصالحي الولاة والتجار وغيرهم .

ولما كان الألم لا محيص منه ألبتة عزَّى الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله : ﴿ **مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [العنكبوت : ٥] .

فضرب لمدة هذا الألم أجلاً ، لابد أن يأتي ، وهو يوم لقائه ، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله وفي مرضاته ، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمّل من الألم في الله ولله ، وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ليحمل العبدَ اشتياقُه إلى لقاء ربه ووليّه على تحمل مشقة الألم العاجل . . . »[1] اهـ.

وفي ختام الكلام عن سنة الابتلاء وما فيها من الحكمة والخير والرحمة ، أود الإشارة إلى أنه لا يفوز بهذا الخير من الابتلاء إلا من ثبته الله عز وجل وأعانه على الخير بصفات ثلاث ، لو تخلف واحد منها أو أكثر فقد لا يكون الابتلاء خيراً له ؛ اللّهم إلا أن يكون الابتلاء قد جعله ينتبه لهذا الخلل ، فيسعى لسده ؛ فعندئذ يكون هذا خيراً له ، وقد يكون خيراً لغيره بالعظة والاعتبار .

أما هذه الصفات الثلاث التي إذا تحققت في العبد كان الابتلاء في حقه خيراً له ورحمة فهي كما يلي :

١ ـ أن يكون الأمر الذي حصل بسببه الابتلاء حقاً ومشروعاً ، وذلك بأن يكون العبد على بصيرة من أمره ومطمئناً أنه على حق يحبه الله ويرضاه ، وليس على باطل يخالف الشريعة زيادة أو نقصاناً .

٢ ـ أن يكون قيام العبد في هذا الأمر مخلصاً فيه لله عز وجل ، ويبتغي به مرضاته وجنته ، وألا يريد من قيامه هذا عرضاً من أعراض الدنيا الفانية ، سواء كان مالاً ، أم جاهاً ، أم ثناءً .

---

(١) بدائع التفسير (٣/ ٣٧١ ـ ٣٧٣) (باختصار) .

٣ ـ أن يكون العبد في قيامه بالأمر مستعيناً بالله عز وجل ، متوكلاً عليه ، متبرئاً من كل حول وقوة إلا من حول الله وقوته ، ويقينه بأنه لو وُكِل إلى نفسه لضاع وهلك ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم(١) .

نسأله سبحانه أن يجعلنا قائمين بالحق ، قاصدين وجهه سبحانه ، مستعينين به ، مفوضين أمورنا إليه .

٢ ـ أحداث البوسنة والهرسك وما فيها من عبر :

لقد بلغت الفواجع التي تعرض لها المسلمون في البوسنة والهرسك من الهول والفظاعة الشيء العظيم الذي سمع به القاصي والداني ، والصغير والكبير ، ولم يعد خافياً على أحد من المسلمين أو من أعدائهم ، نسأله سبحانه أن يمحق الكفرة الذين يصدون عن سبيله ، ويؤذون أولياءه ، وأن ينزل عليهم رجزه وعذابه ، وأن ينصر المستضعفين في تلك البلاد ، وفي كل مكان بعد أن خذلهم أكثر الناس ، وأن يردهم إليه رداً جميلاً ، وأن يجعل عاقبتهم خيراً ورحمة .

ولقائل أن يقول : ماذا عسى أن يكون في هذه الأحداث المؤسفة من الخير والرحمة ؟ وما رأينا إلا سفك الدماء ، وهتك الأعراض ، وتشريد الأطفال ، وسلب الأموال ؟!

إن الجواب على هذا السؤال سهل وميسر في ضوء ما سبق بحثه في المباحث المتقدمة في فقه قوله تعالى : ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُم﴾ ، ولن يهضم مثل هذا الكلام إلا المؤمن بالله عز وجل الواثق بحكمته ، المدرك لمعاني أسمائه عز وجل وصفاته ولآثارها الكريمة الجليلة .

---

(١) انظر : أعلام الموقعين (٢/ ١٧٨) (بتصرف) .

وكما سبق أن نبهنا، بأن التعرف على أوجه الخير والرحمة في مثل هذه الأحداث لا يعني التواكل وترك الدفع ، كلا ؛ بل يجب إعانة المسلمين هناك بكل ما يمكن لجهاد عدوهم ، والدفاع عن الديار والأنفس والأعراض ، لكننا يجب أن نستثمر الدروس والعبر من هذه الأحداث لكي تكون رصيداً ورافداً من روافد الدعوة إلى الله عز وجل، وذلك بتوظيفها في معرفة الأعداء وشحذ العزائم ، واستنهاض الهمم ، ووحدة الصف وغير ذلك من الآثار الإيجابية .

وما سيقال هنا من الحكم والغايات المحمودة في أحداث البوسنة ، يسري أيضاً على مآسي المسلمين الأخرى في شرق الأرض وغربها كمأساة المسلمين في بورما وكشمير ، والصومال ، وفلسطين وتسلط اليهود فيها ، وغيرها من المآسي والأحداث ، ويمكن إجمال الدروس والغايات المحمودة في هذه الأحداث فيما يلي :

أ ـ رجوع الناس في تلك البلاد إلى الإسلام ، حيث برز من بينهم من يفهمه فهماً صحيحاً بعد أن كان إسلاماً صورياً بالهوية فقط ، وما نتج عن ذلك من التمايز عن الكفار بعد أن كانوا في حالة من الانصهار والذوبان معهم دون علم بحقيقة الإسلام وحقيقة الكفر ، لكن ما إن اشتعلت الأحداث حتى عرف المسلمون ـ ولو بالهوية ـ أعداءهم ، وبدأ التمايز ، وأنه لا التقاء بين الإسلام والشرك والكفر وخاصة بعد انتشار الدعوة هناك ، وما ساهم به المسلمون في كل مكان من جهود في الدعوة والتعليم والمال وغير ذلك ؛ فأحسّ الناس هنالك برابطة العقيدة بإخوانهم المسلمين ؛ فعرفت عقيدة الولاء والبراء .

وظهرت الشعائر الإسلامية ، فعمرت المساجد بالصلاة ، وبرزت ظاهرة الحجاب بين المسلمات بعد أن كن هن والكافرات سواء ، كل ذلك من الخير الذي ظهر بعد هذه الأحداث .

ولو لم يقدر الله هذه الأحداث المؤلمة لبقي الوضع - والله أعلم - على ما هو عليه قبل الأحداث من الجهل والفساد ومسخ الإسلام في النفوس وعلى أرض الواقع ، ولكن الله لطيف خبير ، بر رحيم ، عليم حكيم .

وهذا الخير الذي حصل من آثار لطف الله ورحمته ؛ حيث لم يتركهم سبحانه في انحدارهم الشديد إلى الجهل والفساد والكفر ؛ بل أيقظهم سبحانه بهذه الأحداث المؤلمة التي كانت سبباً في انتباههم من نومهم العميق، وسبباً في شعورهم ببعدهم عن الإسلام، وانحرافهم الشديد عن عقيدته النقية .

وماذا تساوي كل التضحيات إذا كان نتيجتها النجاة من عذاب الهوان والذل في الدنيا، والنجاة من عذاب النار يوم القيامة؟ إنها تصبح ضئيلة بجانب تحصيل هذه المصالح العظيمة، وفي ذلك عبرة للمجتمعات الآمنة في أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وإلا أصابهم ما أصاب غيرهم، قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الأحقاف : ٢٧] .

ب - شعور المسلمين، في كل مكان بعداوة الكفار وخبثهم وحقدهم الشديد على الإسلام والمسلمين، مهما اختلفت مللهم وأوطانهم شرقاً كانوا أو غرباً .

فالكفر ملة واحدة، والحرب التي يشعلونها حربٌ دينية عقدية مهما أظهروا من دوافع مزورة يغطّون بها كيدهم ومكرهم ، وهذا والحمد لله معروف من كتاب الله عز وجل ، وما فيه من فضح للكفار من اليهود

والنصارى وغيرهم ، والتحذير من الاغترار بكلامهم والركون إليهم ، ولكن هناك من المسلمين مَنْ بَعُدَ عن كتاب الله عز وجل ، واغتر بالكفار وبمعسول كلامهم ، فجاءت هذه الأحداث المؤلمة لتؤكد للمسلمين في كل مكان ـ حتى الذي عشى بصره ـ أن الكفر ملة واحدة على المسلمين ودينهم .

وقد حذر الله سبحانه المسلمين من هذا الكيد منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١٢٠] .

كما ظهر من خلال هذه الأحداث كذب الكفار ، وافتضاح أمرهم وعدم الاغترار بوعودهم وموازينهم؛ حيث ظهرت المعايير المزدوجة ، والموازين الجاهلية ، وهذا الأمر والحمد لله يفهمه المسلم من عقيدته قبل هذه الأحداث، وذلك من الآية الآنفة الذكر وغيرها .

ولكن ـ كما أسلفت ـ هناك من الناس الذين بعدوا عن فهم العقيدة الصحيحة ، من لا ينفع معه الكلام ، ولا يقتنع إلا بالأحداث ، وما أكثر هذا الصنف من الناس الذي لا يستيقظ من نومه إلا بضربات عنيفة تفتح عينيه وتنبهه من نومه العميق .

فجاءت هذه الأحداث لتؤكد لكل من عنده أدنى مسكة من دين أو عقل

تهافت الشعارات التي ترفعها المؤسسات الكفرية كهيئة الأمم ، أو مجلس الأمن . . . إلخ ، من مثل : رفع الظلم عن المظلومين ، ورد الطرف المعتدي ، والقضاء على أسلحة الدمار الشامل . . . إلخ .

لقد ثبت من خلال الأحداث أن هذه الشعارات ذات معيارين ، فإن كان الخطر من المسلمين - ولو بالهوية - طبقت ، وإن كان الخطر على المسلمين ضاعت الشعارات وتلاشت ، وتُرك المعتدي يقتل ويهتك ويدمر على مرأى منهم ومسمع .

وهذه المواقف على كل حال لا تستغرب من الأمم الكافرة عدوة الإسلام والمسلمين ؛ فلقد حذرنا الله عزوجل منهم ، ولكن المستغرب هو أن ينخدع بكلامهم ووعودهم من يدعي الإسلام ، ويدعي أنه يفهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ! فلعل هذه الأحداث توقظ هذا الصنف من الناس وتساعدهم في الرجوع إلى عقيدتهم ، واعترافهم بالجهل الذي كانوا عليه من دينهم . وفي ذلكم خير .

جـ - إحياء شعيرة الجهاد بين المسلمين ، هذه الشعيرة التي غابت ردحاً من الزمن حتى وصل الأمر في وقت من الأوقات إلى التهيب من الخوض في موضوع الجهاد والحديث حوله .

أما الآن فأصبح هو حديث المسلمين الجادين في كل مكان ، وقد ساهم الجهاد الأفغاني في ذلك - على علاته وسلبياته - مساهمة فعالة ، وكذلك ما تزامن معه وما تلاه من حركات جهادية في العالم .

هذا ، وإن كان هناك بعض التحفظ على بعض هذه الحركات الجهادية لحاجتها إلى مزيد من التأصيل الشرعي ؛ إلا أنه وبشكل عام كان لرفع علم

الجهاد أثر عظيم في ارتفاع المعنويات، والأمل في عودة الإسلام عودة صادقة شاملة ، كما أن شراسة الحرب الموجهة من قبل الأعداء كان لها دور في استنهاض الهمم ، وإيقاظ الأمة ، واستنفار روح المقاومة ، وشحذ العزائم ضد الكفر وأهله، ولو بصورة جزئية للدفاع عن النفس وحماية الأعراض.

ولقد أصبح لدى المسلمين في كل مكان قناعة تامة أن الكفار من الغرب والشرق لا يجدي معهم الكلام والشكوى ، وإنما الذي يجدي فيهم هو منطق القوة ورفع راية الجهاد ، وإلقاء الرعب في قلوبهم بصيحة (الله أكبر). أما لغةالشجب والاستنكار والتعلق بالسلام العالمي والنظام العالمي القديم والجديد . . . إلخ ، فكل ذلك لا يجدي شيئاً في مداواة الجروح ، وحفظ الأعراض وحماية الديار .

ولقد أحست ملل الكفر جميعها بخطر الجهاد ، وأثره في إحياء النفوس واستنهاض الهمم ، فوجهت حربها على هذه التيارات الجهادية في شخص من أسمتهم بالأصوليين الإرهابيين أعداء السلام ! نعم إنهم إرهابيون! ولكن على أعداء الله وأعداء المسلمين ، وصدق الله العظيم : ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

وهذه النتائج الطيبة أفرزها التحدي السافر، والصراع المرير ، والكيد العظيم من الكفار للمسلمين في كل مكان ، وفي ذلك خير إن شاء الله تعالى إن أحسن استثماره ، ووُجّه التوجيه الصحيح ، وتعاون المسلمون جميعاً تحت راية الجهاد ضد أعدائهم ونبذوا الفرقة التي بينهم ، وهذه الثمرة تظهر بجلاء في جهاد المسلمين في البوسنة أمام أعدائهم الصرب الكافرين ، وجهاد نفر من المسلمين في فلسطين أمام اليهود الكافرين المغتصبين .

إن هذا العداء السافر والحقد الدفين من الكفار على المسلمين في البوسنة وغيرها هو الذي حدا بمصلحي الأمة وعقلائها إلى التحذير من هذا الشر المستطير الذي يفاجئنا به الكفار كل مرة في صقع من أصقاع المسلمين ، بما تحمله هذه المفاجآت من آلام وتضحيات ؛ فبدأت صيحات الخطر من الناصحين لهذه الأمة تنادي بأخذ الحيطة والحذر لحماية ما تبقى من بلدان المسلمين التي لم تتعرض بعد للخطر بأن تعود الأمة إلى الله عز وجل ، وتأخذ العبرة بما حدث ، وأن لا يأمنوا جانب الكفار والمنافقين أبداً ، وإلا فالدور عليهم ، والأحد بعده الاثنين ، والاثنين بعده الثلاثاء ، وكما قال القائل : « أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض ».

فلابد من أخذ العدة لمفاجآتهم ، وذلك بالرجوع إلى الدين ، ووحدة الصف ، وترك الترف والخلود إلى الأرض ، والاكتفاء الذاتي في الحاجات الأساسية كالسلاح والغذاء وغير ذلك ، حتى لا يصيبهم ما أصاب غيرهم في البلاد المنكوبة من تسلط الأعداء ، ومنع السلاح والغذاء ، والمساومة على ذلك ؛ فلعل مثل هذه الصيحات أن توقظ الأمة من رقدتها ؛ فتعتمد بعد الله عز وجل على نفسها ، وتحسن توظيف ما أنعم الله به عليها من مدخرات وطاقات مادية وبشرية تكفي ـ لو استفادت منها ـ في الاستغناء عن الأعداء ، وقطع الطريق على كل من يفكر في سوم المسلمين والضغط عليهم؛ الأمر الذي يريده الأعداء لجعل المسلمين عالة عليهم ، وتجريدهم من سلاحهم القوي بحجة السلام العالمي ، وغير ذلك من الحجج الشيطانية ، ولكن ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

د ـ لقد أظهرت هذه الأحداث طرفاً من خيرية هذه الأمة ، وأن الشعوب

رغم ما دهاها في دينها فلا يزال فيها بقية من خير وحب للإسلام ، وذلك فيما ظهر من التعاطف الشديد من المسلمين عامة مع إخوانهم المنكوبين ؛ حيث برزت أمثلة رائعة في البذل والتضحية والدعوة إلى الله والتعليم والجهاد ، وذلك بما وقفه بعض دعاتها وخطبائها وأغنيائها ومجاهديها من المواقف النبيلة التي تعكس الهمّ الإسلامي في النفوس .

وهذا الخير الموجود في هذه الأمة يعد رصيداً مهماً للعودة الشاملة للإسلام إن استغل ووظف في مكانه المناسب .

٣ ـ كساد التجارات والنقص الحاصل في الأموال والثمرات :

إن من المسلّمات في عقيدة المؤمن أن شيئاً لا يحدث في هذا الكون إلا وقد علمه الله عزوجل وكتبه وشاءه وأوجده ، وله سبحانه في كل ذلك الحكمة البالغة المحمودة ؛ فهو الغني الحميد ، وهو العليم الحكيم . ومن ذلك النقص في الأموال والأنفس والثمرات .

قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [الحديد : ٢٢ - ٢٤] .

ثم إن التغيير الذي يطرأ في حياة الناس ـ سواء إلى السراء أو إلى الضراء ـ مربوط بالسنة العظيمة التي يقول الله عز وجل فيها : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١] .

وإن التغييرات الحاصلة اليوم في حياة الناس الاقتصادية في أكثر بلدان

المسلمين يجب ربطها بالمقدمة السابقة؛ حتى تتم الاستفادة من جوانب الخير والرحمة التي يريدها الله عز وجل من هذه التغييرات التي يضيق بها كثير من الناس ولا ينظرون إلا إلى جانب الشر فيها ، ولا ينتفع من هذه التغييرات إلا من فهم المقدمة السابقة في ضوء قوله: ﴿**لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَل هُو خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ .

وقبل أن نتعرف على ما قد يكون في هذه التغييرات من عبر وحكم ، أقف وقفتين عند آيتين من كتاب الله عز وجل لهما تعلّق ومساس بالموضوع .

الوقفة الأولى : عند قوله تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾[الأنفال: ٢٥].

يقول القرطبي رحمه الله : « قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب »[١] اهـ.

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : « وعقوبات الذنوب نوعان : شرعية وقدرية ، فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها ، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على العبد بين العقوبتين إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب ، ولم يكف في زوال دائه .

وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية ،وربما كانت أشد من الشرعية ، وربما كانت دونها ، ولكنها تعم ، والشرعية تخص ، فإن الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعاً إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها .

---

(١) تفسير القرطبي : عند الآية (٢٥) من سورة الأنفال .

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة ؛ فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة ، وإذا رأى الناس المنكر فاشتركوا في ترك إنكاره أوشك أن يَعمَّهم الله بعقابه »(١) اهـ.

ومن ذلك قوله ﷺ ، فيما رواه ابن ماجه والترمذي وأبو داود رحمهم الله تعالى - وهذه رواية ابن ماجه - عن قيس بن أبي حازم ، قال : قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾ [المائدة: ١٠٥] ، وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « **إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه ، أوشك أن يعمهم الله بعقابه** »(٢) .

الوقفة الثانية : عند قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

يقول القرطبي رحمه الله تعالى : « ويدخل في الآية جميع من يظلم نفسه، أو يظلم الرعية ، أو التاجر يظلم الناس في تجارته ، أو السارق. . وغيرهم . وقال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف ، وانظر فيه متعجباً . وقال ابن عباس : إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم ، وإذا سخط الله على قوم ولى أمرهم شرارهم »(٣) .

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « وهذا أيضاً باب

---

(١) الجواب الكافي ص١٣٢ .

(٢) رواه ابن ماجه / ك الفتن / باب (٢٠) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥) ، وصححه الألباني في المشكاة (٥١٤٢).

(٣) تفسير القرطبي: عند الآية (١٢٩) من سورة الأنعام .

عظيم من حكمة الله ، يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار التقدير ، وتسليط العالم بعضهم على بعض ، وتمكين الجناة والبغاة ! فسبحان من له في كل شيء حكمة بالغة ، وآية ظاهرة ! حتى إن الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم ، ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شيء .

ولعل هذا الفصل الاستطرادي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة ، فإنه إذا أعطاه حقه في النظر والفكر عظم انتفاعه به جداً ، والله الموفق .

ويُحكى أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص ؛ فأرسل الله عليه سيلاً فذهب بالغنم ؛ فجعل يعجب ! فأُتي في منامه فقيل له : أتعجب من أخذ السيل غنمك؟! إنه تلك القطرات التي شبت بها اللبن ، اجتمعت وصارت عليك سيلاً . فَقِسْ على هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك تعلم حينئذ أن الله قائم بالقِسط ، وأنه قائم على كل نفس بما كسبت ، وأنه لا يظلم مثقال ذرة . . . » .

إلى أن قال رحمه الله تعالى :

« . . . وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين ، وتسليط المتلفات عليها ، كما فعلوا بأموال الناس ، ومحقوها عليهم ، وأتلفوها بالربا ؛ جُوزوا إتلافاً بإتلاف ، فقلّ أن ترى مرابياً إلا وآخرته إلى محق وقلة وحاجة ، وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويّهم على ضعيفهم ، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه ، كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء ، وهذه سنة الله تعالى منذ قامت

الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها . . . »[1] اهـ.

وبعد هاتين الوقفتين ندلف في ذكر بعض ما قد يكون من حكمة الله سبحانه ورحمته في التغييرات الاقتصادية ونقص الأموال في أيدي الناس ، وارتفاع الأسعار في حاجاتهم ، وذلك فيما يلي :

أ ـ رجوع بعض الناس إلى ربهم سبحانه ، وانتباههم من غفلتهم التي كانوا فيها ، والمعاصي التي كانوا عليها ، وذلك بما تبقى في قلوبهم من الخير الذي أدركوا به سبب المصيبة ؛ وأنه من ذنوبهم وعصيانهم ، ولعل هذا النقص والفساد في الأموال أو الكساد في التجارات أن يكون سبباً ليقظة بعض الناس ، وإقلاعهم عما كانوا عليه من أكل الربا ، أو البيوع المحرمة ، أو ظلم الناس وأكل أموالهم بالباطل .

وكم سمعنا من القصص والحوادث في الأنفس والأموال كانت سبباً لرجوع أصحابها إلى الله عز وجل ، والإنابة إليه ، والإقلاع عما كانوا عليه ، وفي هذه الحالة تكون المصيبة منحة ونعمة ورحمة ولو كان الظاهر شراً وألماً ، وهذا من معاني قوله تعالى : ﴿ **لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ . وقوله سبحانه : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[الروم : ٤١] .

كما قد يكون في هذا النقص تنبيه لبعض الصالحين الذين انشغلوا بالدنيا وتجارتها عن مجالس العلم وبرامج الدعوة ، فلعل في هذه التغيرات فرصة لمراجعة النفس ، والرجوع إلى ما كانوا عليه من حماس للدين والدعوة إليه .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٢٧٣ (باختصار) .

ب ـ إن العقوبات القدرية التي يقدرها الله عز وجل على عباده ـ ومنها النقص في الأموال والثمرات ـ لتؤكد وتدلل على صدق الدعاة الناصحين الذين أقضّ مضاجعهم واقع المسلمين وما فشا فيهم من المنكرات العظيمة ؛ حيث ظهر ما كانوا يتخوفونه على أمتهم من مغبة هذه المنكرات وعقوبتها ، ولكَمْ ارتفعت أصوات المصلحين من قبل بالنصح والتحذير ؛ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر : ٣٠ - ٣٣].

فلعل في ظهور هذه العقوبات ما يبعث على اليقظة لمن أراد الله به الخير ؛ ليدرك ذلك العمل الشريف الذي كان يقوم به الدعاة والمصلحون من الخوف على أمتهم والشفقة عليها من عذاب الله ، وأنهم صمام الأمان لأمتهم ، وأنهم دعاة نصح وخير للأمة ، وعندئذ تجب محبتهم ومعاونتهم ، والدعاء لهم ، وفي ذلك خير عظيم .

جـ ـ إن الغنى وكثرة الأموال تؤدي في الغالب إلى الطغيان والعلو على الناس ؛ قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق: ٦ ، ٧]، وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٢٧] .

فلعل ما يحصل من نقص في الأموال مدعاة إلى التطامن والتواضع ، والنظر في حق الله في الأموال والتفكر في الآخرة التي كانت الأموال صارفة عنها وعن الاستعداد لها ، فإذا أدت المصيبة في الأموال إلى هذه الثمار الطيبة فهي خير لصاحبها ورحمة ، وليست شراً ونقمة .

د ـ إن حياة الترف والإسراف التي يعيش فيها كثير من الناس في هذا الزمان ، نتج عنها كثير من الأمراض والآفات النفسية والاجتماعية تمثلت في مظاهر سيئة يشكو منها الكثير ، منها : انشغال الناس بهذه الدنيا وزخرفها حتى أصبح الناس في دوامة لا يَعرفُ فيها الجارُ جاره ، ولا يصل القريب قريبه ، بل ربما لا يعرفه أحياناً .

ومنها تلك الحياة المترهلة ، والعزائم الواهنة ، والهمم الخائرة ، التي لا تصلح لجهاد ولا لعمل جاد . فلعل فيما يقدره الله عز وجل من ضيق في اقتصاديات الناس ، وركود في أسواقهم خيراً ورحمة لمن أراد الله به الخير ، فوفقه لمراجعة النفس ، ونبذ حياة الترف ، وألهمه رشده لتدارك العمر القصير ، وترك حياة اللهو واللعب وانتبه لما ينفعه في الآخرة من التزود بالصالحات ، وصلة القرابات ، ودعوة الناس إلى الخير والإحسان إليهم .

هـ ـ إن من سنن الله عز وجل أن الناس يتمحصون في حالات الضيق والشدة ، ويتميز الخبيث من الطيب ، والعدو من الصديق، وصادق المحبة من كاذبها ، وتتعرى النفوس وتظهر على حقيقتها ، وفي هذه التعرية خير للإسلام وأهله ، حيث يُعرف الناس على حقيقتهم ، ولا يعول على ما يظهر منهم في حال السلم والرخاء ، كما يتعرى الظالمون الآثمون الآكلون لأموال الناس بالباطل .

وأخيراً : فلا يعني ونحن نتلمس ما في الضوائق الاقتصادية من خير ورحمة أن نستسلم لهذه المصائب ونترك مدافعتها ، كلا؛ بل كما سبق الإشارة إلى ذلك في مبحث سابق ، فإنه يجب مدافعتها بأقدار الله عز وجل، وأسبابه الشرعية ؛ لعل الله سبحانه أن يرفعها .

وإن أكبر ما تدفع به المصائب هو الرجوع الصادق إلى الله عز وجل والتوبة النصوح إليه ، وتحكيم شرعه في النفس وجميع شئون الحياة ، والإقلاع عن أسباب سخطه وعقابه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبذلك يستجلب الخير والنماء والبركة ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن: ١٦]

وقال عز من قائل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦] .

* * *

الخاتمة

في ختام هذه الرسالة، أود التأكيد على بعض الأمور التي مرت بنا في هذه الدراسة المتواضعة؛ وذلك لأهميتها ومسيس الحاجة إليها ، أخص بها نفسي وإخواني الدعاة لعل فيها فتح باب الأمل والعمل ، في عصر غيمت فيه سماء المسلمين ، وجاءهم العدو من كل مكان ، ونجم النفاق ، وظن طوائف من المسلمين بالله الظنونا . وإن تسجيل مثل هذه الأمور ما هو إلا تلخيص لأهم ما تم بحثه في مسائل حول قوله تعالى : ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم﴾ .

الأمر الأول :

أهمية التوحيد في حياة المؤمن ، وأثره في الإخلاص لله عز وجل ، ومحبته ، وإحسان الظن به ، والاستسلام لقضائه ، وصدق التوكل عليه . هذا الأثر الذي يطبع في القلب الأنس بالله عز وجل والسكينة والطمأنينة ، والسير بخطىً ثابتة لا تؤثر فيها شبهات المشبهين ، ولا تعويق المعوقين ، ولا كيد الكائدين ، هذا الأثر الذي ينفي اليأس من القلوب كما ينفي الكير خبث الحديد .

الأمر الثاني :

إن الخيرية التي تكون للعبد فيما يقدره الله عز وجل عليه سواء فيما سره من الخير والرخاء ، أو ساءه من المكروهات والضراء ؛ إن ذلك لا يكون إلا

للمؤمن بربه ، المتعبد له عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، كما جاء في الحديث : « **وليس ذلك إلا للمؤمن** »[(١)] أما ما سوى المؤمن فإن الضراء لا تزيده إلا جزعاً وكفراً ، ولا تزيده السراء إلا كبراً وبطراً ، ويكون هذا المقدور شراً وبلاءً له ، ولكنه من باب آخر خير ورحمة للآخرين الذين يعتبرون ويتعظون به .

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم : « فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصاً له فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيراً له . وإذا تخلى عن طاعته ، وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له ، فمن صحت له معرفة ربه ، والفقه في أسمائه وصفاته ؛ علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه ، والمحن التي تنزل به ، فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته ، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب»[(٢)] اهـ .

الأمر الثالث :

إن الرضا بما يقدره الله عز وجل على عباده لا يعني التواكل والعجز والاستسلام للفساد والمذلة وترك المدافعة والمجاهدة ؛ كلا ، بل إن الله عز وجل أمر بمدافعة أقداره بأقداره ، ومحاربة الفساد ومجاهدة أعدائه ، فإذا قضى الله الأمر ، ولم يشأ أن تنفع المدافعة لحكمة يعلمها سبحانه وجب عندئذ التسليم ، ورجاء الخير والرحمة من ورائها .

وفي ذلك يقول سيد قطب رحمه الله :

« وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله ، والعمل الجاهد بكل ما

(١) انظر تخريج الحديث بتمامه ص٤٠ .
(٢) الفوائد : ٩١ .

في الطاقة ، والوقوف المطمئن عند ما يستطيعون . . هذا التوازن هو السمة التي طبعت حياة تلك المجموعة الأولى وميزتها ، وهي التي أهّلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التي تنوء بها الجبال »[1] اهـ.

الأمر الرابع :

إن ما يجري اليوم من الابتلاءات والمحن ، وما يتعرض له المسلمون في أكثر البلدان من تسلط الأعداء ورميهم لهم عن قوس واحدة ، إن كل ذلك يتم بعلم الله عز وجل وحكمته ، ونجزم أن وراءه خيراً ورحمة ، وأن العاقبة للمتقين .

وإن الصحوة العامة التي يشهدها العالم من أبناء المسلمين لهي من أكبر الإرهاصات والبشائر لعودة هذا الدين ، والتمكين لأهله في الأرض، وإن كل هذه الابتلاءات، وكل هذا التسلط من قبل الأعداء لم يزد هذه الصحوة إلا نماءً ومضاءً ، ولو أن هذه الحرب الشرسة تعرض لها أحد غير المسلمين لانتهى أمرهم منذ أمد بعيد ، ولكنه دين الله عز وجل الذي تكفل بحفظه ، وتكفل بنصرة أهله المؤمنين الصادقين ، وإن الثقة في وعد الله عز وجل والجزم بقرب نصره لهو من لوازم الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، ومن لوازم سنن الله عز وجل التي لا تتغير ولاتتبدل ، ومن لوازم قوله تعالى: ﴿ **لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ .

ولقد مرت بالمسلمين في تاريخهم فترات تسلط فيها الأعداء من التتار والصليبيين حتى خُيِّل لبعض من عاش في تلك الحقبة من الزمن أن لا فائدة من محاولات التغيير ؛ كتلك الفترة التي سبقت ظهور صلاح الدين الأيوبي

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن: ص ٢٨٠ .

رحمه الله تعالى؛ حيث سيطر أهل البدع ، وتمسك الحكام بمواقفهم على حساب الدين والأوطان ، وبلغ التفرق بين المسلمين مداه ، وذاق المسلمون حياة الذل والمهانة كهذه الحياة التي يعيشها المسلمون اليوم، ومع ذلك جاء الله بنصره العظيم ، وقامت دولة الإسلام قوية كما كانت ، وخرج الأعداء من ديار المسلمين صاغرين بعد أن قتل منهم من قتل ، وأسلم من أسلم ، ودفع الجزية منهم من دفع ، فلا يأس ولا قنوط من عودة الإسلام في هذا الزمان ، ولكن بالسير مع سنن الله عزوجل التي أودعها في كتابه الكريم ، والتي هي مقتضى أسمائه سبحانه وصفاته .

وإن عزة الإسلام لابد لها من تضحيات، ولابد لها من الابتلاء والتمحيص ليتميز الطيب الذي يستحق نصر الله عز وجل من الخبيث الذي يذهب جفاءً ، ولابد لذلك من مخاض ولابد للمخاض من آلام ، ولكن ماذا تساوي الآلام وماذ تساوي التضحيات التي يعتز بها دين الله الذي ينتقل فيه الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن سخط الله وعقابه إلى مرضاته وجناته .

إنها والله لا تساوي شيئاً ولو كان فيها الآلام والدماء ، فهي خير لما تورثه من استقرار لحقيقة الإيمان ولو في قلب واحد من قلوب البشر ، فكيف باستقرارها في قلوب الآلاف المؤلفة، وفي الأرض جميعاً ؟

ويجلي سيد قطب رحمه الله تعالى هذه الحقيقة فيقول : « إن الإنسان ليأخذه الدهش والعجب ، كما تغمره الروعة والخشوع ، وهو يستعرض ذلك الجهد الموصول من الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، لهداية البشرية الضالة المعاندة !

ويتدبر إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل واحداً بعد واحد لهذه البشرية المعرضة العنيدة .

وقد يعن للإنسان أن يسأل : ترى هل تساوي الحصيلة هذا الجهد الطويل، وتلك التضحيات النبيلة من لدن نُوح عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام ؟

ترى هل تساوي تلك الجهود الموصولة منذ ذلك الزمن البعيد، وتلك التضحيات النبيلة التي لم تنقطع على مدار التاريخ ؛ من رسل يُستهزأ بهم، أو يحرقون بالنار ، أو يُنشرون بالمنشار ، أو يهجرون الأرض والديار ، حتى تجيء الرسالة الأخيرة فيجهد فيها محمد ﷺ ذلك الجهد المشهود المعروض ، هو والمؤمنون معه ، ثم تتوالى الجهود المضنية ، والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته في كل أرض وفي كل جيل . . ترى هل تساوي الحصيلة كل هذه الجهود ، وكل هذه التضحيات ، وكل هذا الجهاد المرير الشاق ؟ ثم . . ترى هل هذه البشرية كلها تساوي تلك العناية الكريمة من الله ، المتجلية في استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل تترى بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار من هذا الخلق الهزيل المسمى بالإنسان؟

والجواب بعد التدبر : أن نعم . . ولا جدال . . إن استقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد ، وكل هذا الصبر ، وكل هذه المشقة ، وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل»[1] اهـ.

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ص١٤٠ .

وإن التضحيات التي تقدمها الصحوة اليوم ، وما تتعرض له من حرب وكيد من أعداء الإسلام غرباً وشرقاً هي جزء من هذا الجهد المرير ، والصبر النبيل الذي لابد منه للخير المنتظر ، والنصر الموعود منه سبحانه لعباده المؤمنين .

« والذي يجري في الأرض كلها اليوم من محاولات لإبادة المسلمين ، سواء في البوسنة والهرسك، أو كشمير، أو فلسطين، أو بورما ، أو طاجكستان ، أو داخل سجون التعذيب . . لن تكون نتيجته إلا إخراج أجيال أصلب عوداً ، وأكثر عناداً وأطول نفساً ، وأكثر وعياً بحقيقة المعركة التي تدور في الأرض بين دين الله وأعداء الله » [1] اهـ.

* * *

(١) هلم نخرج من ظلمات التيه ، ص١٢٣ محمد قطب .

وبعد

فهذا ما يسره الله عز وجل من كتابة حول هذا الموضوع . فما كان فيه من صواب فهو من الله عز وجل ، وهو المانُّ به وله الحمد ، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان ، وأستغفر الله منه .

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

الرسالة التاسعة

﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾

[ص: ٦٧]

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن المتأمل في حالنا نحن المسلمين اليوم وحال زماننا وما ظهر فيه من الآفات والفتن ، وما حصل فيه من انفتاح كبير على الدنيا وزخرفها ، حتى ظن أهلها أنهم قادرون عليها أو مخلدون فيها .

إن المتأمل في كل ذلك ليشعر بالرهبة والخوف والإشفاق الشديد من هذه الحال ، وما نتج عنها من غفلة عما خلقنا من أجله ، ومن ركون للدنيا واطمئنان بها ، وغفلة شديدة عن الآخرة وتجاف عنها ، وعمّا فيها من المشاهد العظيمة والأهوال الجسيمة ، والنعيم المقيم أو العذاب المديد .

وقد وصف الله ـ عز وجل ـ أصحاب هذه الغفلة بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [يونس: ٧، ٨].

نسأل الله السلامة والعافية ، ونعوذ بالله من حال أهل الغفلة وصفاتهم .

ولما كان اليوم الآخر أحد أصول الإيمان الستة التي لا يصح إيمان عبد

بدونها ، ولما لليوم الآخر من أثر في حياة العبد وطاعته لأوامر الله ـ عز وجل ـ واجتناب نواهيه ، ولما في ذلك من صلاح القلوب وصلاح الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ولما في نسيان هذا اليوم العظيم والغفلة عنه من خطر عظيم على حياة الناس ومصيرهم ؛ حيث الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة ، فلا غرابة إذن أن يرد ذكر هذا اليوم كثيراً في القرآن ، حتى لا تكاد تخلو منه صفحة من صفحاته الكريمة .

والعجب كل العجب أنه مع كل هذا التذكير والتنبيه والتحذير من ربنا الرحمن الرحيم من هذا اليوم العصيب ، وأثره على مستقبلنا الأبدي ، إلا أن حالنا في هذا الزمان حال الغافل اللاهي عن كل هذه التحذيرات ، فلا تكاد تجد منا ـ إلا من رحم الله ـ إلا من هو منشغل بالتفاهات من هذه الدنيا الدنية، قد استهلكت عليه وقته ، وأصبح في دوامة مستمرة منذ أن يصبح وحتى ينام آخر الليل .

وما هناك أشد من مرض الغفلة ، ولكن الأدهى والأمرّ أن يكون المرء من أهل الغفلة وهو لا يشعر بذلك ، وهذه الحالة ـ والعياذ بالله ـ قد تتحول إلى جمود وتحجر وقسوة ، ثم إلى لجاج وعناد .

وإذا كان الكتاب والسنة قد اهتما غاية الاهتمام بتفاصيل هذا اليوم المشهود ، وبأحوال هذا النبأ العظيم، فإنه من الحمق والجهل أن لا نهتم بما اهتم به كتاب ربنا ـ سبحانه ـ وسنة نبينا محمد ﷺ .

والدليل على هذا الحمق أن نجد الكثير منا ـ إلا من رحم الله ـ يكد ويتعب من أجل مستقبل قريب يسعى ـ بزعمه ـ لتأمينه ، وهذا المستقبل بالإضافة إلى

ما قد مرّ من عمْر الإنسان لا يتعدى في الغالب الستين أو السبعين سنة ، وقليل من يتجاوز ذلك ، ولنفرض أنه مائة أو أكثر ، فماذا يساوي بالنسبة إلى المستقبل البعيد الأبدي السرمدي والذي لا نهاية له ؟ إنه لا يساوي شيئاً ، فلماذا نحن بالمستقبل القريب الفاني مشتغلون وعليه مثابرون ، وعن مستقبلنا الأبدي السرمدي منشغلون ولاهون ؟ إنه لابد من وقفة محاسبة وتأمل .

إن أعظم قضية يجب أن ينشغل بال كل واحد منا بها هي : قضية وجوده وحياته والغاية منها ، وقضية مستقبله ومصيره وشقائه وسعادته ؛ فلا يجوز أن يتقدم ذلك شيء مهما كان شأنه ، فكل أمر دونه صغير ، وكل خطب سواه حقير ، وهل هناك خطب أعظم وأفظع من أن يخسر الإنسان حياته وأهله ، ويخسر سعادته وسعادتهم ؟! فماذا بقي له بعد ذلك ؟ وما قيمة الدنيا الفانية وزخرفها وزينتها وراء ذلك ؟ قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ [الزمر : ١٥] .

ولو لم يكن في انتظارنا إلا الموت وسكراته وغصصه لكفى به واعظاً ومكدّراً ، فكيف ووراءه يوم البعث والحساب والجزاء والجنة أو النار .

يومٌ تحار فيه العقول ، وتذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، ويكون الولدان فيه شيباً .

لأجل كل ما سبق ، ولما آنسته من نفسي وكثير من إخواني من قسوة وغفلة في القلوب ؛ رأيت أن أكتب لنفسي وإخواني المسلمين عن هذا النبأ العظيم ، الذي نحن عنه غافلون ، وبدنيانا عنه مشتغلون .

وقد عنونت له بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾.

وتأتي هذه الرسالة ضمن سلسلة الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم ، التي أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإخواني بها ، وأن يحسن القصد فيها . إنه سميع مجيب.

* * *

أهمية الموضوع

إنه لا يجهل أحد من المسلمين مشاهد اليوم الآخر وعظمة شأنه ، ويكفي أن نتدبر كتاب الله عز وجل لنجد ذلك الاهتمام العظيم بذكر اليوم الآخر ، وتقريره في كل موقع ومناسبة ؛ فتارة يربط بينه وبين الإيمان بالله عز وجل ، وتارة يفصل في ذكره تفصيلاً ؛ قلما يوجد مثله في أمور الغيب الأخرى ، ولقد ورد ذكره في القرآن بأسماء كثيرة ، ومن المعلوم أنه كلما كان للمسمى شأن عظيم كثرت أسماؤه .

وإذا سألنا عن الحكمة في هذا الاهتمام ، فالجواب واضح لمن تدبر القرآن ، ولكن في هذا المبحث سأتطرق ـ إن شاء الله ـ إلى الدوافع التي دفعت إلى إثارة هذا الموضوع في هذا الوقت بالذات .

فمن الأمور التي كان لها الأثر في طرح الموضوع ما يلي :

١ ـ الانفتاح الشديد على الدنيا في هذا الزمان ، وما صاحب ذلك من مكر في الليل والنهار بأساليب ماكرة جديدة، ووسائل دعائية خبيثة ، تزين الدنيا في أعين الناس ، وتصدهم عن الآخرة . فإذا كان الصحابة رضي الله عنهم وهم على ما وصفهم الله عز وجل من الإيمان والتقوى ـ كان بعضهم يوصي بعضاً بالحذر من الدنيا ، والاستعداد للآخرة ، وإذا كان الرسول ﷺ كثيراً ما كان يذكرهم بالآخرة ، ويتخوف عليهم من الدنيا .

إذا كان هذا هو حال سلفنا الصالح مع ما كانوا عليه من الإيمان ، ومع

أن الدنيا لم تنفتح عليهم مثل انفتاحها علينا اليوم ؛ فلا شك ولا ريب أننا أحوج منهم بكثير إلى أن نتذكر الآخرة ، ويذكر بعضنا بعضاً عظمة شأنها والاستعداد لها ، وأن يحذِّر بعضنا بعضاً من الركون إلى الدنيا والاغترار بها .

ومن المعلوم أنه كلما حصل التثاقل إلى الأرض ، وحب الدنيا وزينتها والتوسع في ملذاتها ، كثر النسيان لليوم الآخر والغفلة عنه ، وهذا هو الحاصل اليوم عند كثير منا إلا من رحم الله .

٢ ـ لقد ترتب على الأمر السابق أن قست القلوب ، وتحجرت الأعين ، وهُجِرَ كتاب الله عز وجل ، وإن قرأ أحدنا القرآن قرأه بقلب لاه سابحٍ في لجج الدنيا ، فأنَّى لمثل هذا القلب أن يخشع لذكر الله ؟! وأنَّى للعين أن تدمع للخوف من الله سبحانه ؟

وقد زاد هذا الأمر ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ حتى آل إلى الصلاة ؛ فقلَّ الخاشعون المطمئنون فيها . وكيف يأتي الخشوع إلى قلب قد سافر في مناكب هذه الدنيا ، ينتقل فيها من واد إلى واد آخر ، ومن شعب إلى شعب ؟ فكان لابد من التذكير بهذا اليوم العظيم لعلَّ النفوس أن تستيقظ ، ولَعل القلوب أن تخشع وتتذكر .

٣ ـ لما في تذكر هذا اليوم ومشاهده العظيمة من حث على العمل الصالح ، ومبادرة إلى فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، فما هنالك من أمر هو أشد دفعاً للنفوس إلى فعل الخير وترك الشر من أمر الآخرة ، والوقوف بين يدي الله عز وجل .

وما تكاسل المتكاسلون في عمل الصالحات ، سواء الواجب منها أو المستحب ، إلا بسبب الغفلة عن الآخرة والانشغال عنها .

قال تعالى في حال المطففين العاصين : ﴿أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦] .

وقال عن الطائعين المحسنين: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ㊱ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] .

وقال عزو جل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] .

وقال عن الموالين لأعداء الله : ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والحاصل أن حالنا اليوم وما اعتراه من ضعف في عمل الصالحات وجرأة على المعاصي والسيئات ، لا يصلحه إلا التذكر الدائم لأحوال الآخرة، ومشاهدها العظيمة ، وأهوالها الجسيمة ، كما أن ذلك يدفع إلى دعوة العاصين للرجوع إلى الله والشفقة عليهم من عذاب الله ونقمته .

٤ ـ لما ظهر في عصرنا اليوم من المشكلات المعقدة والأمراض المزمنة التي نشأت عنها تلك الأمراض النفسية المتنوعة ؛ حيث كثر القلق ، وكثرت الهموم والغموم لأهل الدنيا بسبب البعد عن الله سبحانه وعن تذكر اليوم الآخر، الذي في ذكره باب عظيم إلى السعادة والطمأنينة، وسد لباب الهم

والحزن ، وعلام يحزن طالب الدار الآخرة ؟! أيحزن على أمر دنيوي حقير يفنى عما قريب ؟!

إن تذكر اليوم الآخر والحياة الواسعة الأبدية هنالك لمن أكبر الأسباب في علاج المصائب وأمراضها ، فالمؤمن بفناء الدنيا وحقارة شأنها وقصر عمرها لا تؤثر فيه المصائب تأثيرها في أهل الدنيا ؛ لأنه يحتسب الأجر عند الله سبحانه ، ويوقن أنه إن لم تزل عنه الدنيا فإنه زائل عنها لا محالة ، وهذا كله يورث الطمأنينة والسعادة في القلب ، ولا يذهب القلب حسرات على الدنيا ، كما تفعل بأهلها اللاهين الغافلين عن الحياة الحقيقية ؛ الحياة في الدار الآخرة ، والتي هي خير وأبقى ، قال تعالى : ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٦٤].

٥ ـ وتأتي أهمية هذا الموضوع أيضاً لما تميز به زماننا اليوم من كثرة المظالم واعتداء الناس بعضهم على بعض من أكل أموالهم ، والنيل من أعراضهم ، وظهور الصور الصارخة من التحاسد والتباغض ، والفرقة والاختلاف ، وخاصة بين الدعاة وطلبة العلم ، وإنه لا شيء مثل تذكر اليوم الآخر والوقوف بين يدي الله عز وجل يكون دواءً ومطهراً للقلوب من مثل هذه الأمراض .

٦ ـ لما كان عصرنا الذي نعيش فيه اليوم عصر استضعاف للمسلمين ، وتسلط من الأعداء عليهم في أكثر بقاع الأرض ؛ فكان لزاماً على أهل الإسلام من علماء ودعاة وأغنياء ومجاهدين ، وغيرهم أن يبذلوا جهدهم في الدعوة إلى الله عز وجل ورد كيد الأعداء بالحجة واللسان والسنان .

ولما كان الركون إلى الدنيا والغفلة عن الآخرة من أعظم الأسباب في وهن النفوس وضعفها وعدم مبالاتها ؛ كان لابد من التذكير بالدار الآخرة ، وما فيها من نعيم أو جحيم ؛ لأن في التذكير المستمر بهذا اليوم ، والإنابة إلى الله عز وجل، ورجاء ثوابه أكبر الأثر في الدعوة إلى الله عز وجل، والجهاد في سبيله، والدفاع عن الدين وأهله، قال تعالى: ﴿**لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** (٤٤) **إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥].

كما يأتي تذكر هذا اليوم العظيم ليمسح على قلوب المؤمنين المستضعفين المبتلين اليوم في أكثر بقاع الأرض ؛ فتتقوى بذلك قلوبهم ، ويثبتها الله عزوجل بما يفتح عليها من ذكره ، وذكر ما أعد لأوليائه الصابرين من نعيم أبدي ، ينسون فيه أي سوء أو مصيبة أصابتهم في هذه الدنيا .

٧ ـ لما ظهر في برامج الدعوة والتربية من قلة الاعتناء بهذا الجانب العظيم من التربية وأثره في الاستقامة والدعوة والنصيحة والجهاد ، فالمتأمل اليوم في مناهج التربية والتعليم يلاحظ القصور في هذا الجانب ، وإذا وُجد الاهتمام فهو قليل بالنسبة إلى الجوانب الأخرى .

بل وصل الأمر عند بعض الموجهين في الدعوة إلى الاستهانة بهذا الجانب العظيم ، وصرنا نسمع من يقلل من أهمية الكتاب أو المحاضرة أو الدرس الذي يركز على جانب التذكير والوعظ ، فيقول : هذا كتاب وعظي ، أو هذا درس يغلب عليه الوعظ ، أو هذا مقال عاطفي . . . إلخ .

والمتأمل في كتاب الله عزوجل وأحاديث الرسول ﷺ يرى جانب الوعظ والربط بالآخرة والثواب والعقاب واضحاً فيهما أشد الوضوح .

❋ ❋ ❋

تفسير (النبأ العظيم) وما في معناه

ورد ذكر النبأ العظيم في القرآن مرتين : مرة في سورة ص ، في قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧ ، ٦٨].

والأخرى في سورة النبأ في قوله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١ - ٣] .

فما هو تفسير النبأ العظيم في الآيتين ؟

يقول القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير آية (ص) :

« أي قل لهم يا محمد : ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر ؛ فلا ينبغي أن يُستخف به . قال معناه قتادة . نظيره قوله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعني القرآن الذي أنبئكم به خبر جليل . وقيل : عظيم المنفعة ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ »[1] اهـ.

قال الشيخ السعدي رحمه الله :

« قل لهم محذراً ومنهضاً لهم ومنذراً : هو نبأ عظيم . أي ما أنبأتكم به من البعث والنشور ، والجزاء على الأعمال ، خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه ، ولا ينبغي إغفاله، ولكن ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ كأنه ليس

(١) تفسير القرطبي عند الآيتين (٦٧ ، ٦٨) من سورة ص .

أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب »[١] اهـ.

مما سبق يتبين أن المراد بالنبأ العظيم: إما أن يكون نبأ الآخرة وما فيها ، أو نبأ هذا القرآن العظيم وما فيه . والذي يظهر أن لا تنافي بين القولين ، فمن أعظم الأنباء التي اشتمل عليها القرآن أنباء الآخرة وأحوالها ، وأنباء ما أعده سبحانه لأهل توحيده وعبادته من الجنة والنعيم ، وما أعده لأهل الشرك والجحود من العذاب والجحيم[٢] .

أما آية النبأ فالقول الراجح فيها : أنها في نبأ اليوم الآخر . يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى :

« يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي عن أي شيء يتساءلون من أمر القيامة وهو النبأ العظيم ؟ يعني الخبر الهائل المفظع الباهر . قال قتادة وابن زيد: النبأ العظيم : البعث بعد الموت . وقال مجاهد: هو القرآن .

والأظهر الأول ؛ لقوله: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ يعني الناس فيه على قولين : مؤمن به وكافر »[٣] اهـ.

ما ورد في معنى النبأ العظيم من الآيات :

١ ـ قوله تعالى : ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ – ٦].

---

(١) تفسير السعدي عند الآيتين (٦٧ ، ٦٨) من سورة ص .

(٢) انظر تفسير ابن عطية عند هذه الآية .

(٣) تفسير ابن كثير عند الآيات (١ـ٣) من سورة النبأ .

يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية :

«أي : أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر ، في يوم عظيم الهول ، كثير الفزع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أُدخل ناراً حامية ؟ وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي : يقومون حفاة عراة غرلاً ، في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ، ويغشى من أمر الله ما تعجز القوى والحواس عنه .

قال الإمام مالك : عن نافع ، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « **يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه** » رواه البخاري »[1] اهـ[2] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾ [الحج : ١ ، ٢] .

روى البخاري رحمه الله تعالى بسنده الرواية بهذا الإسناد مختصرة عن أبي سعيد الخدري ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم ، فيقول : لبيك ربنا وسعديك ، فينادي بصوت : إن الله يأمرك أن تُخرج من ذريتك بعثاً إلى النار . قال : يارب ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف ـ أراه قال ـ : تسعمائة وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ، (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)** » .

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٩٣٨)، وفي كتاب الرقاق (٦٥٣١) .

(٢) تفسير ابن كثير عند الآيات (٤ ـ ٦) من سورة المطففين .

فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم ، قال النبي ﷺ : « **من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ، ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة** » ؛ فكبرنا ، ثم قال : « **ثلث أهل الجنة** » ؛ فكبرنا ، ثم قال : « **شطر أهل الجنة** » . فكبرنا . . . الحديث[1] .

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « إن الله ينادي الناس جميعاً إلى تقوى الله ، ويخوفهم من زلزلة الساعة ، ويصف الهول المصاحب لها ، وهو هول عنيف مرهوب ، إنه مشهد عنيف رعيب ، ومشهد ترتجف له القلوب ، يدعوهم القرآن إلى الخوف من الله ، ويخوفهم ذلك اليوم العصيب ، مشهد الزلزلة وهو شيء عظيم ، فإذا الرهبة تشتد من الهول ، إذاً هو مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت ، تنظر ولا ترى ، تتحرك ولا تعي . وبكل حامل تُسقط حملها للهول المروع الذي ينتابها ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى ، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة ، وفي خطواتهم المترنحة .

مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة بينما الخيال يتملاه ، والهول شاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه . وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية ، في المرضعات الذاهلات عما أرضعن - وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعي - والحوامل الملقيات

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨) .

حـــملهـن ، وبالناس سكارى ومـــا هـم بسكارى ، ولكـن عـــذاب الله شديد»[١] اهـ.

٣ـ قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم : ٣٧].

قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ : « أي مشهد يوم القيامة ، الذي يشهده الأولون والآخرون ، أهل السماوات وأهل الأرض ، الخالق والمخلوق ، الممتلئ بالزلازل والأهوال المشتمل على الجزاء بالأعمال . فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون ، وما كانوا يكتمون »[٢] اهـ.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم ، بهذا التنكير والتفخيم والتهويل . المشهد الذي يشهده الثقلان : الإنس والجن ، وتشهده الملائكة في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار ، فما أعجب حالهم !! لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة ، وهم أسمع شيء وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي ، ولإسماعهم ما يكرهون، وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم »[٣] اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن (١٦٢/ ١٦٣).
(٢) تفسير السعدي عند الآية ٣٧ من سورة مريم .
(٣) اليوم الآخر في ظلال القرآن (٣٠١).

بعض مشاهد النبأ العظيم

لقد ورد في القرآن الكريم عدة أوصاف ومشاهد لنبأ الآخرة العظيم حريٌّ بالمسلم الموقن بالرجوع إلى الله عز وجل أن يقف طويلاً عندها ، علّ القلوب أن ترق وتنيب ، وعلّ الجوارح أن تنقاد لربها بالعمل الصالح ؛ حتى تحصل لها رحمة الله عز وجل التي ينجي الله بها من شاء من عباده من شر ذلك اليوم ومشاهده العظيمة . ومن أوصاف هذا اليوم أنه :

١- يوم الحسرة :

قال تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [مريم: ٣٩].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « الإنذار هو : الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب ، والإخبار بصفاته ، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد ، يوم الحسرة حين يقضى الأمر ، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد ، ويسألون عن أعمالهم ، فمن آمن بالله ، واتبع رسله ، سعد سعادة لا يشقى بعدها . ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقيَ شقاءً لا يسعد بعده ، وخسر نفسه وأهله ، فحينئذ يتحسر ويندم ندامة تنقطع منها القلوب ، وتتصدع منها الأفئدة ، وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته ، واستحقاق سخطه والنار ، على وجه لا يتمكن الرجوع ، ليستأنف العمل ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا ؟!!

فهذا قدامهم ، والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يخطر بقلوبهم ، ولو خطر ، فعلى سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة ، وشملتهم السكرة ، فهم لا يؤمنون بالله ولا يتبعون رسله ، وقد ألهتهم دنياهم ، وحالت بينهم وبين الإيمان ، شهواتهم المنقضية الفانية ، فالدنيا وما فيها ، من أولها إلى آخرها ، ستذهب عن أهلها، ويذهبون عنها ، وسيرث الله الأرض ومن عليها ، ويرجعهم إليه ، فيجازيهم بما عملوا فيها ، وما خسروا فيها أو ربحوا ، فمن عمل خيراً ، فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه »[1] اهـ.

وروى البخاري في التفسير باب : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت ، ثم يقال : يا أهل النار ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت، قال : فيؤمر به فيذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت** ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ » متفق عليه[2] .

وقد ورد ذكر (الحسرة) والحسرات في أكثر من آية في كتاب الله عز وجل منها :

قوله تعالى : ﴿**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ**

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (٣٩) من سورة مريم .

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٧٣٠) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٩) .

بغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

[البقرة: ١٦٧]

والحاصل مما سبق أن من أخبار النبأ العظيم أنه يوم الحسرات والندامات والتأسفات، ولكن حيث لا ينفع الندم، ولا تنفع الحسرة.

والأمور التي يتحسر عليها الإنسان يوم القيامة كثيرة وكثيرة، نذكر فيما يلي بعضها، لعلنا نحاسب أنفسنا عليها، ما دمنا في زمن المهلة وقبل أن يأتي يوم الحسرة؛ فمن ذلك:

* الحسرة على أعمال صالحة شابتها الشوائب، وكدرتها مبطلات الأعمال من: رياء أو عجب أو منة، حيث ضاعت في وقت يكون الإنسان فيه أشد ما يكون إلى الحسنة الواحدة.

* الحسرة على أعمال صالحة كان الاتكاء والأمل بعد الله عليها، ولكنها ذهبت عن أصحابها في ذلك اليوم العصيب إلى من ظُلموا في مال أو دم أو غير ذلك.

* الحسرة على التفريط في طاعة الله تعالى، وتصرّم العمر القصير في اللهث وراء الدنيا؛ حلالها وحرامها، والاغترار بزينتها، ونسيان الآخرة

وأهوالها ، والتفريط في وقاية النفس والأهل من عذاب جهنم ، والافتتان بالأموال والأولاد الذين يتحسر على فقدهم يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر : ١٥] .

* حسرة الظالمين المفسدين في الأرض ، الذين يصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً ، حيث ستكون حسرتهم عظيمة ، حين يحملون أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم بغير علم ، وحين يسمعون قول الله عز وجل : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥] .

* حسرة الأتباع المقلدين لكل ناعق ، وبراءة المتبوع بالباطل من التابع ، والتابع من المتبوع ، وبراءة الشيطان ممن أطاعوه ، ولكن حيث لا ينفع الندم ولا تنفع الحسرات .

* الحسرة على أعمال لم يُتبع فيها الرسول ﷺ ، ويحسب أهلها أنهم يحسنون صنعاً ، ولكنها تضيع في وقت الحاجة إليها ؛ كحال أهل البدع والعبادات التي لم يأذن بها الله سبحانه .

* الحسرة على أموال جُمعَتْ من وجوه الحرام المختلفة : كربا ورشوة وغصب ؛ فبقي وزرها على جامعها ، وصار أجرها لغيره ممن ورثها وعمل بطاعة الله.

كان من كلام إبراهيم التيمي - رحمه الله تعالى - أن يقول : « أي حسرة

أكبر على امرئ من أن يرى عبداً كان الله خولّه في الدنيا وهو عند الله أفضل منزلة منه يوم القيامة ؟! وأي حسرة على امرئ أكبر من أن يؤتيه الله مالاً في الدنيا فيرثه غيره فيعمل فيه بطاعة الله ، فيكون وزره عليه وأجره لغيره ؟! وأي حسرة على امرئ أكبر من أن يرى عبداً مكفوف البصر في الدنيا قد فتح الله له عن بصره وقد عمي هو . ثم يقول : إن من كان قبلكم كانوا يفرون من الدنيا وهي مقبلة عليهم ، ولهم من القدم ما لهم ، وإنكم تتبعونها وهي مدبرة عنكم ، ولكم من الأحداث ما لكم من الأحداث ما لكم ، فقيسوا أمركم وأمر القوم »(١) .

* حسرة المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، حين تبلى السرائر ، وحين يعرضون لا تخفى منهم خافية .

* وتبلغ الحسرة ذروتها حين ينادى أهل النار ، ليروا ذبح الموت ، فيوقنون عند ذلك بأبدية العذاب في النار ، حيث لا يُقْضَى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، كما ورد ذلك في حديث أبي سعيد الخدري والذي سبق ذكره آنفاً(٢) .

٢ـ يوم التلاق :

قال تعالى : **﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾** [غافر : ١٥] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في معنى يوم التلاق :

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٤٣١) .

(٢) انظر نص الحديث ص ١٧٨ .

« قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس : يوم التلاق : اسم من أسماء يوم القيامة، حذّر الله منه عباده . وقال قتادة والسُّدِّي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة : يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق . وقال ميمون بن مهران : يلتقي الظالم والمظلوم . وقد يقال : إن يوم التلاق يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر، كما قاله آخرون»[(١)] اهـ.

ومما سبق من أقوال المفسرين في (يوم التلاق) يتبين أنه شامل لكل ما فيه معنى التلاقي والاجتماع، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ**﴾ [التغابن: ٩]. وقوله عز وجل : ﴿**وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**﴾ [الشورى: ٧] .

يقول القرطبي رحمه الله تعالى : « ويوم الجمع : يوم يجمع الله الأولين والآخرين، والإنس والجن، وأهل السماء وأهل الأرض . وقيل : هو يوم يجمع الله بين العبد وعمله. وقيل: لأنه يجمع فيه بين الظالم والمظلوم»[(٢)] اهـ.

ويقرب التصور لهذا الجمع العظيم ما جاء في قوله ﷺ : «**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً...**»[(٣)] الحديث.

---

(١) تفسير ابن كثير عند الآية رقم (١٥) من سورة غافر .

(٢) تفسير القرطبي عند الآية (٧) من سورة الشورى .

(٣) رواه الترمذي/ كتاب الزهد/ باب (٩) (٧/ ٧٤) رقم ٢٣١٣، وقال : حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٨٨٢).

وهذا العدد العظيم من الملائكة الذين مُلِئَتْ بهم السماء الواسعة الأرجاء سيكونون من بين هذا الجمع العظيم .

وأود الوقوف عند معنى من معاني يوم التلاق أو يوم الجمع ، ألا وهو ما ذكره جمع من المفسرين في أن من ذلك التقاء الظالم بالمظلوم واجتماعهما بين يدي الحكم العدل ؛ للفصل بينهما ، وذلك لأذكّر نفسي وإخواني المسلمين بهذا الموقف العصيب ، الذي تُردُّ فيه المظالم إلى أهلها ، ويؤخذ للمظلوم من الظالم ، قال تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١] .

فلا يمكن لمن أيقن بيوم التلاق ويوم الجمع الأعظم أن يسفك دماء الناس ، أو يأكل لحومهم وأموالهم بغير حق ، وهو يعلم أن الاستيفاء هناك ، ليس بالدينار والدرهم ، وإنما بالحسنات والسيئات ، فليحذر الذين يظلمون الناس ؛ وخاصة من يظلم الذين يأمرون بالقسط من الناس ، ليحذروا يوم التلاق في يوم الفصل ، وليطمئن المظلوم فلن يضيع عند الله شيء ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

٣- يوم الآزفة :

قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ﴾ [غافر : ١٨] .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في معناها : « يوم الآزفة : اسم من أسماء يوم القيامة ، وسميت بذلك لاقترابها »[1] اهـ.

ويقول السعدي رحمه الله تعالى : « أي يوم القيامة التي قد أزفت

---

(١) تفسير الإمام ابن كثير عند الآية (١٨) من سورة غافر .

وقربت ، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها ، وزلازلها »[١] اهـ.

وقال تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ [النجم : ٥٧ - ٦٢] .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « أي اقتربت القريبة ، يعني يوم القيامة . وقال أبو حازم : قال رسول الله ﷺ : «**مثلي ومثل الساعة مثل رجل بعثه قومه طليعة ، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه : أُتيتم ! أُتيتم !** » ثم يقول الرسول ﷺ : « **أنا ذلك** » ، وله شواهد من وجوه أخر من صحاح وحسان »[٢] اهـ.

وقال السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات : « ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ أي : قربت القيامة ، ودنا وقتها ، وبانت علاماتها .

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي : إذا أتت القيامة ، وجاءهم العذاب الموعود به .

ثم توعد المنكرين لرسالة محمد ﷺ ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم ، فقال : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ ؟ أي : أفمن هذا الحديث ، الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه ، تتعجبون وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة ، الخارقة للأمور والحقائق المعروفة ؟ هذا من جهلهم ، وضلالهم ، وعنادهم . وإلا فهو الحديث ، الذي إذا حدث صدق ، وإذا قال قولاً فهو

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (١٨) من سورة غافر .

(٢) تفسير الإمام ابن كثير عند الآية (٥٧) من سورة النجم .

القول الفصل ، ليس بالهزل ، وهو القرآن العظيم ، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، الذي يزيد ذوي الإصلاح رأياً وعقلاً ، وتسديداً وثباتاً، وإيقاناً، وإيماناً بل الذي ينبغي العجب، من عقل من تعجب منه ، وسفهه وضلاله .

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي: تستعجلون الضحك والاستهزاء به ، مع أنه الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب ، وتبكي له العيون ؛ سماعاً لأمره ونهيه، وإصغاءً لوعده ووعيده ، والتفاتاً لأخباره الصادقة الحسنة .

﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ أي : غافلون ، لاهون عنه وعن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وزيف أديانكم ، فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال، لما كنتم بهذه المثابة ، التي يأنف منها أولو الألباب ، ولهذا قال تعالى : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً ، يدل على فضله وأنه سر العبادة ولبها؛ فإن روحها الخشوع لله ، والخضوع له . والسجود أعظم حالة يخضع بها العبد ، فإنه يخضع قلبه وبدنه ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة ، موضع وطء الأقدام . ثم أمر بالعبادة عموماً ، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه ، من الأعمال والأقوال ، الظاهرة والباطنة»[1] اهـ.

ويصف لنا سيد قطب رحمه الله تعالى تجربة وقعت له وهو يسمع سورة النجم ، وكيف عاش معها ، وتأثر بها ، وخاصة الآيات الأخيرة منها ، فيقول :

« كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارئ القرآن من

(١) تفسير السعدي عند الآيات (٥٧ ـ ٦٢) من سورة النجم .

قريب ، يتلو سورة النجم ، فانقطع بيننا الحديث ؛ لنستمع وننصت للقرآن الكريم ،وكان صوت القارئ مؤثراً ، وهو يرتل القرآن ترتيلاً حسناً ، وشيئاً فشيئاً عشت معه فيما يتلوه .

عشت مع قلب محمد ﷺ في رحلته إلى الملأ الأعلى، عشت معه وهو يشهد جبريل عليه السلام في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها . ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله، وعشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة عند سدرة المنتهى وجنة المأوى.

عشت معه بقدر ما يسعفني خيالي ، وتحلق بي رؤاي ، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي ، وتابعته في الإحساس بتهافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوثتها . . إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة، التي تتهاوى عند اللمسة الأولى .

ووقفت أمام الكائن البشري ينشأ من الأرض ، وأمام الأجنة في بطون الأمهات ، وعلم الله يحيط بها ، وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة . . الغيب المحجوب لا يراه إلا الله ، والعمل المكتوب لا يند ولا يغيب عن الحساب والجزاء ، والمنتهى إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد ، والحشود الضاحكة والحشود الباكية ، وحشود الموتى، وحشود الأحياء، والنطفة تهتدي في الظلمات إلى طريقها، وتخطو خطواتها ، وتبرز أسرارها ، فإذا هي ذكر أو أنثى ، والنشأة الأخرى ، ومصارع الغابرين ،والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى!

واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة : ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ .

ثم جاءت الصيحة الأخيرة ، واهتز كياني أمام التبكيت الرعيب :

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ ؟

فلما سمعت : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقاً إلى أوصالي . واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي ، لم أملك مقاومته ، فظل جسمي كله يختلج ، ولا أتمالك أن أثبته ، ولا أن أكفكف دموعاً هاتنة ، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة !

وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح[1] ، وأن تعليله قريب ، إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن ، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة ، ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها ، ولكنها في هذه المرة كان لها هذا الوقع ، وكانت مني هذه الاستجابة . . وذلك سر القرآن . . فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة ؛ وتقع اللمسة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير ؛ فيكون منها ما يكون »[2] اهـ.

٤ـ يوم التناد :

قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر : ٣٢، ٣٣] .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى : « ولما خوفهم العقوبات الدنيوية خوفهم العقوبات الأخروية ، فقال : ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾

(١) يعني حادث سجود المشركين بعد قراءة الرسول ﷺ لسورة النجم . وحديث سجود المشركين مع المسلمين رواه البخاري في التفسير (٤٨٦٢)، (٤٨٦٣) .

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٢٠، ٣٤٢١) .

أي: يوم القيامة ، حين ينادي أهلُ الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤ وما بعدها].

وحين ينادي أهلُ النار أهلَ الجنة : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وحين ينادي أهل النار مالكاً : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيقول : ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وحين ينادون ربهم : ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيجيبهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨].

وحين يقال للمشركين: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾. [القصص: ٦٤]

فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم المهول ، وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك ؛ولهذا قال : ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي : قد ذهب بكم إلى النار: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠] »[1] اهـ.

والنداءات يوم القيامة كثيرة ، يضاف إلى ما قاله الشيخ السعدي رحمه الله تعالى قوله عز وجل : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] ، وقوله سبحانه : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] .

(١) تفسير السعدي عند الآيتين (٣٢، ٣٣) من سورة غافر .

وقد سُمي هذا النبأ العظيم بيوم التناد ، وكأنه ممحض وخالص للنداءات لا شيء فيه سواها ؛ حيث هي الغالبة على جوِّه البارزة فيه .

والموفق من عباد الله سبحانه من وفق في هذا اليوم العظيم (يوم التناد) إلى أن يكون من أهل الجنة الذين إن نادوا فإنهم مسرورون بندائهم لأهل النار بأنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً ، وإن وجه إليهم النداء والسؤال بما أجابوا به المرسلين فإن نفوسهم تقرُّ بالجواب ؛ حيث الاتباع والاستسلام لما جاء به المرسلون .

والويل كل الويل ، والحسرة كل الحسرة لأهل النار ، الذين إن نادَوا فبئس النداء وبئس الطلب ؛ حيث ينادون شركاءهم فلا يستجيبون لهم ، بل يكفرون بهم ، وينادون أقاربهم من أهل الجنة بشربة ماء ، أو طعمة من رزق الجنة ، فلا يجدون إلا التبكيت والحرمان .

وإن نُودوا ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فلا جواب لديهم ولا حجة ، إلا الخيبة والخسارة . وماذا عسى أن يقولوا؟ أيقولون: إنما أجبنا آباءنا وأحبارنا ورهباننا ومشايخنا ، ولم نلتفت إلى ما جاء به المرسلون؟ إنهم يعلمون أن لا فائدة في هذا الجواب ؛ بل فيه الحسرة والندامة ، فهو سبب خيبتهم وعذابهم ؛ ولذلك عميت عليهم الأنباء ، كما أخبر الله - عز وجل - عن حالهم بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [القصص: ٦٥ ، ٦٦] .

فحري بمن أيقن بيوم التناد أن يستعد لذلك اليوم ، بإفراد الله عز وجل بالعبادة وتنقية القلب من جميع الشركاء من دون الله عز وجل ، وإفراد الرسول ﷺ بالمتابعة والانقياد لما جاء به ، حتى إذا جاء النداء العظيم يوم القيامة : ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يكون الجواب حاضراً ، تقرُّ به العين ،

وتنعم به النفس ، أما من كانت إجابته لغير المرسلين : كشيخ أو طريقة أو حزب أو غير ذلك ، فيالها من حسرة وخسارة !! نعوذ بالله من ذلك .

٥ـ يوم التغابن :

قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ** ﴾ [التغابن : ٩]، قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية :

« يعني : اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، ويقفهم موقفاً هائلاً عظيماً ، وينبئهم بما عملوا ، فحينئذ ، يظهر الفرق والتغابن بين الخلائق ، ويُرفع أقوام إلى أعلى عليين ، في الغرف العاليات ، والمنازل المرتفعات ، المشتملة على جميع اللذات والشهوات ، ويُخفض أقوام إلى أسفل سافلين ، محل الهم والغم ، والحزن والعذاب الشديد .

وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم ، وأسلفوه أيام حياتهم ، ولهذا قال : ﴿ **ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ** ﴾ . أي : يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق ، ويغبن المؤمنون الفاسقين ، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء ، وأنهم هم الخاسرون »[1] اهـ.

وقال القرطبي رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « قال المفسرون : فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة ، ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان ، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام . قال الزجاج : ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة من كان دون منزلته .

فإن قيل : فأيُّ معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها ؟ قيل له : هو تمثيل الغبن في الشراء والبيع ؛كما قال تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا**

(١) تفسير السعدي عند الآية (٩) من سورة التغابن .

﴿الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦] ، ولما ذكر أن الكفار اشتروا الضلالة بالهدى، وما ربحوا في تجارتهم ، بل خسروا ، ذكر أيضاً أنهم غُبنوا ؛ وذلك أن أهل الجنة اشتروا الآخرة بترك الدنيا ، واشترى أهل النار الدنيا بترك الآخرة ، وهذا نوع مبادلة اتساعاً ومجازاً .

وقد فرق الله سبحانه وتعالى الخلق فريقين : فريقاً للجنة، وفريقاً للنار . ومنازل الكل موضوعة في الجنة والنار ، فقد يسبق الخذلان على العبد ـ كما بيناه في هذه السورة وغيرها ـ فيكون من أهل النار ، فيحصل الموفق على منزل المخذول ، ومنزل الموفق في النار للمخذول ، فكأنه وقع التبادل فحصل التغابن . والأمثال موضوعة للبيان في حكم اللغة والقرآن ، وذلك كله مجموع من نشر الآثار ، وقد جاءت مفرَّقة في هذا الكتاب .

وقد يخبر عن هذا التبادل بالوراثة كما بيناه في ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ، والله أعلم .

وقد يقع التغابن في غير ذلك اليوم على ما يأتي بيانه بعد ؛ ولكنه أراد التغابن الذي لا جبران لنهايته . وقال الحسن وقتادة : بلغنا أن التغابن في ثلاثة أصناف : رجل علم علماً فعلّمه وضيّعه هو ولم يعمل به فشقي به ، وعمل به من تعلمه منه فنجا به . ورجل اكتسب مالاً من وجوه يُسأل عنها وشح عليه ، وفرط في طاعة ربه بسببه ، ولم يعمل فيه خيراً ، وتركه لوارث لا حساب عليه فيه ؛ فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه . ورجل كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربه فسعد ، وعمل السيد بمعصية ربه فشقي »[1] اهـ.

(١) تفسير القرطبي عند الآية (٩) من سورة التغابن .

ويتضح من أقوال المفسرين أن التغابن مفاعلة من الغبن ، وذلك بوجود طرفين متقابلين : أحدهما غابن رابح مغبوط، والآخر خاسر مغبون. ونحن نرى أثر الغبن على أهله في الدنيا ، وهي تجارات فانية ولها عوض ، فكيف بالغبن الأعظم والخسارة الكبرى عندما يرى أهلُ النار أهل الجنة وقد فازوا برضوان الله والنعيم المقيم ، فيالها من حسرة ، ويالها من خسارة ما أعظمها!!

والموقن بذلك اليوم يسعى جهده في وقت المهلة إلى أن يكون من الغابنين الفائزين مع أهل الحق وأنصار الحق المفلحين ، وينأى بنفسه عن مصير الخاسرين المغبونين من أهل الباطل الصادين عن الحق ، والمفسدين في الأرض.

وقد أنعم الله سبحانه علينا بنعم عظيمة ؛لنستعين بها على طاعة الله عزوجل ومرضاته ، ومن أعظمها نعمتا : الصحة والفراغ اللتان أخبر عنهما النبي ﷺ بقوله : « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ** »[1] ، ويشرح الحديث الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى فيقول :

« قال ابن بطال: معنى الحديث: أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومن شكره: امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فمن فرط في ذلك فهو المغبون . وأشار بقوله : « **كثير من الناس** » إلى أن الذي يوفق لذلك قليل .

---

(١) البخاري ك/ الرقاق (٦٤١٢).

وقال ابن الجوزي : قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش ، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون. وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة ، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط ، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون ؛ لأن الفراغ يعقبه الشغل ، والصحة يعقبها السقم ، ولو لم يكن إلا الهرم ، كما قيل :

يسرُّ الفتى طول السلامة والبقا فكيف ترى طولُ السلامة يفعلُ
يُردُّ الفتى بعد اعتدالٍ وصحة ينوءُ إذا رام القيام ويُحملُ

وقال الطيبي : ضرب النبي ﷺ للمكلف مثلاً بالتاجر الذي له رأس مال ، فهو يبتغي الربح مع سلامة رأس المال ، فطريقه في ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ، ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن ، فالصحة والفراغ رأس المال ، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان ، ومجاهدة النفس وعدو الدين ؛ ليربح خيري الدنيا والآخرة .

وقريب منه قول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ الآيات ، وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ومعاملة الشيطان ؛ لئلا يضيع رأس ماله مع الربح .

وقوله في الحديث : « **مغبون فيهما كثير من الناس** » كقوله تعالى : ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ ، فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : اختلف في أول نعمة الله على العبد

فقيل : الإيمان، وقيل : الحياة ، وقيل : الصحة. والأول أولى فإنه نعمة مطلقة ، وأما الحياة والصحة فإنهما نعمة دنيوية ، ولا تكون نعمة حقيقة إلا إذا صاحبت الإيمان وحينئذ يغبن فيها كثير من الناس ، أي يذهب ربحهم أو ينقص ، فمن استرسل مع نفسه الأمارة بالسوء، الخالدة إلى الراحة ، فترك المحافظة على الحدود والمواظبة على الطاعة ، فقد غبن ، وكذلك إذا كان فارغاً ؛ فإن المشغول قد يكون له معذرة بخلاف الفارغ ، فإنه يرتفع عنه المعذرة ، وتقوم عليه الحجة »[1] .

نسأله سبحانه أن يجعلنا يوم التغابن من الغابنين الفائزين ، كما نسأله عز وجل أن يجعلنا ممن طال عمره وحسن عمله ، وتزود من الفانية للباقية، ومن الممر إلى المستقر .

٦ـ تخاصم أهل النار :

وهذا التخاصم من أعظم المشاهد حسرة في يوم النبأ العظيم ، يوم يكفر الظالمون بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضاً .

وقد ورد في أكثر من موطن في القرآن الكريم وصف لتلك المشاهد المخزية ، ذكرها الله عز وجل في كتابه الكريم ، رحمة بعباده ما داموا في دار الدنيا وزمن المهلة ، حتى يتقوا هذه المواقف التي ملؤها الحسرة والندامة.

وقد ورد هذا التخاصم والتحاجج بين أهل النار في موطنين من مواطن يوم القيامة ، موطن قبل دخولهم النار ، وهم موقوفون بين يدي ربهم سبحانه ، وموقف بعد دخولها .

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٣٤).

فمن الآيات التي تصف لنا مشهد هذا التخاصم في نار جهنم :

* قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر : ٤٧، ٤٨] .

* وقوله تعالى : ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٥٩ - ٦٤] .

* وقوله تعالى : ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩] .

* وقوله تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] .

أما الآيات التي تصف تخاصم الظالمين عند ربهم قبل دخول النار ، فمنها :

* قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ [الصافات: ٢٧ - ٣٢] .

* قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

[سبأ: ٣١ - ٣٣]

وسواء كان تخاصم أهل النار في وقوفهم بين يدي ربهم، أم بعد دخولهم النار فهي حالة واحدة ، تصور ذلك الجو من الحسرة والخزي والندامة الكبرى، التي تخيم على الأتباع والمتبوعين ، على المستضعفين والمستكبرين، ويحسن أن نقف عند الآيات الأخيرة في سورة سبأ، وما توحي به من المعاني والعبر العظيمة، حتى تكتمل الفائدة .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآيات :

« لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب لابد من وقوعه عند حلول أجله ، ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم ، وأنك لو رأيت حالهم إذ وقفوا عند

ربهم ، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال ، لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً ، ورأيت كيف يتراجعون ، ويرجع بعضهم إلى بعض القول .

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة : ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، ولكنكم حُلْتُم بيننا وبين الإيمان ، وزينتم لنا الكفران ، فتبعناكم على ذلك . ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم .

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ أي : بقوتنا وقهرنا إياكم؟! ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ أي : مختارين للإجرام ، لستم مقهورين عليه ، وإن كنا قد زينا لكم ، فما كان لنا عليكم من سلطان .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أي : بل الذي دهانا منكم ، ووصل إلينا من إضلالكم ، ما دبرتموه من المكر في الليل والنهار ؛ إذ تُحسِّنون لنا الكفر ، وتدعوننا إليه ، وتقولون : إنه الحق ، وتقدحون في الحق ، وتهجونه ، وتزعمون أنه الباطل ، فما زال مكركم بنا ، وكيدكم إيانا ، حتى أغويتمونا وفتنتمونا .

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا براءة بعضهم من بعض ، والندامة العظيمة ، ولهذا قال : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي : زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم لينجو من العذاب ، وعلم أنه ظالم

مستحق له ، فندم كل منهم غاية الندم ، وتمنى أن لو كان على الحق ، وأنه ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سراً في أنفسهم ، لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم »[١] اهـ.

ويعلق صاحب الظلال رحمه الله تعالى على هذه الآيات فيقول :

« لو ترى هؤلاء الظالمين وهم ﴿ مَوْقُوفُونَ ﴾ على غير إرادة منهم ولا اختيار ؛ إنما هم مذنبون بالوقوف انتظار الجزاء ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ . . ربهم الذي يجزمون بأنهم لن يؤمنوا بقوله وكتبه . ثم ها هم أولاء موقوفون عنده! لو ترى يومئذ لرأيت هؤلاء الظالمين يلوم بعضهم بعضاً، ويؤنب بعضهم بعضاً، ويلقي بعضهم تبعة ما هم فيه على بعض: ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ . . فماذا يرجعون من القول ؟

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ . . فيلقون على الذين استكبروا تبعة الوقفة المرهوبة المهينة ، وما يتوقعون بعدها من البلاء ! يقولون لهم هذه القولة الجاهرة اليوم؛ ولم يكونوا في الدنيا بقادرين على مواجهتهم هذه المواجهة ، كان يمنعهم الذل والضعف والاستسلام ، وبيع الحرية التي وهبها الله لهم ، والكرامة التي منحها الله إياهم ، والإدراك الذي أنعم به عليهم . أما اليوم وقد سقطت القيم الزائفة ، وواجهوا العذاب الأليم ، فهم يقولونها غير خائفين ولا مبقين ! ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

ويضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا ، فهم في البلاء سواء ، وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يحملوهم تبعة الإغواء الذي صار بهم إلى هذا

(١) تفسير السعدي عند الآيات (٣١-٣٣) سورة سبأ .

البلاء ، وعندئذ يردون عليهم باستنكار ، ويجبهونهم بالسب الغليظ .

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ فهو التخلي عن التبعة ، والإقرار بالهدى ، وقد كانوا في الدنيا لا يقيمون وزناً للمستضعفين ، ولا يأخذون منهم رأياً ، ولا يعتبرون لهم وجوداً ، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة ، أما اليوم - وأمام العذاب - فهم يسألونهم في إنكار : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ . . ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ . . من ذات أنفسكم ، لا تهتدون ، لأنكم مجرمون !

ولو كانوا في الدنيا لقبع المستضعفون لا ينبسون ببنت شفة ، ولكنهم في الآخرة ؛ حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة ، وتتفتح العيون المغلقة ، وتظهر الحقائق المستورة .

ومن ثم ، لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون ، بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذي لم يكن يفتر نهاراً ولا ليلاً للصد عن الهدى ، وللتمكين للباطل ، ولتلبيس الحق ، وللأمر بالمنكر ، ولاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ [(١)] إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ . .

(١) أي مكركم بنا في الليل والنهار . وكأن هذا المكر من المستكبرين المتسلطين مستمر في الليل والنهار ، لا يفتر ولا يتوقف . ولقد كانت صور المكر وقت نزول القرآن وما قبله تتخذ أشكالاً من الأشعار في المنتديات الجاهلية ، وتوجيه التهم الباطلة للرسول ﷺ ومن معه ، أو بصد الراغبين في سماع الحق وتفويته عليهم ، أو بإثارة نعرة الآباء والأجداد والتهويل من خطورة تركها . هذا جل ما عند الجاهلية الأولى من مكر الليل والنهار ، ولكن ماذا يساوي ذلك المكر الأول عند مكر الليل والنهار في زماننا الحاضر . إن مكر الليل والنهار =

ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء ، ولاينجي المستكبرين ولا المستضعفين؛ فلكل جريمته وإثمه؛ المستكبرون عليهم وزرهم ، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم ، والمستضعفون عليهم وزرهم ، فهم مسئولون عن اتباعهم للطغاة ، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين؛ لقد كرمهم الله بالإدراك والحرية ، فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً، وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين؛ فاستحقوا العذاب جميعاً ، وأصابهم الكمد والحسرة ، وهم يرون العذاب حاضراً لهم مهيأ »[1] اهـ.

وبعد هذا البيان من كتاب ربنا عز وجل هل آن لنا الأوان أن نعد لهذا الموقف العظيم عدته ؟ ونعمل جاهدين على الخلاص من صفات أهل هذه المواقف المخزية؟ وذلك بأن نخلص عبادتنا لله وحده ، ونجرد متابعتنا للرسول ﷺ ، ونحذر من كل ناعق ملبس خائن يمكر في الليل والنهار .

* أما آن الأوان للضعفة الأتباع أن يتبرأوا من متبوعيهم ورؤسائهم الظالمين المفسدين، وألا يكونوا أداة لهم في إفساد الناس، أو ظلمهم في دم أو مال أو عرض؛ طمعاً في جاه أو دنيا ؟! فهذا أوان الإنابة والبراءة من الظالمين

= لينطبق تمام الانطباق بلفظه ومعناه على المكر الموجود في أكثر ديار المسلمين اليوم ، والذي يعمل ليل نهار على مدار الأربع والعشرين ساعة ؛ فما يكاد المذياع يفتر من مكره حتى يأتي دور التلفاز ، وما يكاد التلفاز يفتر حتى يبدأ الفيديو ، ثم البث المباشر ، ثم المجلة الهابطة ، فالقصة الخليعة ، وهكذا دواليك . ولكن هل يعذر المسلم في فتح فكره وبيته لمكر الليل والنهار ؛ كلا والله لا يعذر ؛ لأن المفسدين المتسلطين سيردون عليهم يوم القيامة بقولهم : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ .

(١) في ظلال القرآن عند الآيات (٣١-٣٣) من سورة سبأ .

قبل أن يتبرأوا منهم في الآخرة بين يدي الله عز وجل أو وهم في النار يختصمون ؟ إن المتبوعين من الرؤساء الظالمين المفسدين لن يغنوا عن أتباعهم شيئاً يوم الهول العظيم ، بل كما مر بنا في سياق الآيات الكريمات ، فإنهم سينقلبون عليهم ويتبرأون منهم ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ولكن حيث لا تنفع البراءة هنالك.

* أما آن الأوان للمرأة المسكينة وخاصة في زماننا اليوم أن تنتبه لهذه المواقف ، فتتبرأ في دنياها اليوم من كل ناعق لها باسم الحرية والتمدن ومتابعة الأزياء والموضات؛ حتى لا تحق عليها الحسرة الكبرى عندما يتبرأ منها شياطين الإنس والجن ، الذين أضلوها ولم يغنوا عنها من عذاب الله من شيء؟ بل التبرؤ والتلاعن هو البارز في خصام التابعين من المتبوعين ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٦٧ ، ٦٨] .

* أما آن لأتباع الأحزاب الأرضية من علمانية وقومية وبعثية ووطنية وغيرها ممن أعطوا ولاءهم لغير الله عز وجل وتنكروا لدينهم ، أو أتباع الطوائف الضالة المبتدعة ، أما آن لهم أن يفيقوا ويدركوا خطر هذه المتابعة ، وأنها ستنقلب يوم الحسرة الكبرى عداوة بينهم وبين متبوعيهم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] .

* أما آن لمن أعطوا قيادهم لأهل الفساد وجلساء السوء يسوقونهم إلى مواطن الرذيلة ، ويفتحون قلوبهم لألاعيبهم ومكرهم أن ينتهوا ما داموا في

زمن المهلة ، ويحذروا من هؤلاء المفسدين ، الذين يزينون لهم فعل الشر ، ويزهدونهم في الخير ؟

أما علموا أن مودة هؤلاء وطاعتهم إن لم تنقطع في الدنيا فهي ولا شك منقطعة يوم القيامة ، بل ستنقلب إلى عداوة وبراءة، قال تعالى : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] .

* ولو ذهبنا نتتبع أنواع الحوارات اليائسة وأطرافها المتعددة لطال بنا المقام؛ « ففي يوم القيامة يبحث كل إنسان عن أيَّة وسيلة مهما كانت ضعيفة واهية ، لعلها تصلح سبباً لنجاته من غضب الله تعالى وعذابه ؛ لذلك تكثر المناقشات والمحاورات بين الأبناء والآباء ، وبين الأزواج والزوجات ، وبين الحكام والمحكومين ، وبين الكبار المتسلطين والصغار التابعين لهم ، وبين الأغنياء الجبارين والفقراء المنافقين الذليلين ، كل يحاول إلقاء التبعة على غيره، ويتبرأ من تسلطه على غيره وتجبره ، ومن تزعمه بالأفكار المنحلة والمفاسد المضلة على الذين صفقوا له وهللوا لتفاهته وجرائمه »[1] ، ولكن حيث لا تنفع المحاورات ولا الخصومات ولا التنصل من التبعات .

* * *

---

(١) عن كتاب رحلة الخلود لحسن أيوب ص ١٩٤ .

واجب العقل نحو مشاهد النبأ العظيم

المعاد ثابت عقلاً ونقلاً ، والعقل الصحيح يقتضي وجود يوم يجازى فيه المحسن ، ويعاقب فيه المسيء . وإن من أعظم نعم الله سبحانه على الإنسان أن ركب فيه هذا العقل الذي يميز به الأشياء ، ويعرف به الضار من النافع ، ويهتدي به إلى خالقه وبارئه عز وجل ، وهو وسيلة الفهم عن الله سبحانه وعن رسوله ﷺ : يفقه بها الأحكام ، ويعمِّر الأرض، ويتمتع بما سخره الله عز وجل فيها ؛ ولذلك كثر في كتاب الله تعالى ذكر أولي الألباب ، وأولي النهى ، وكثرت الآيات التي تمدح المتفكرين والذين يعقلون ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الرعد : ٣] ، و ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [الرعد: ٤]. إلى غير ذلك من الآيات التي تمدح أصحاب العقول المهتدية لله عز وجل والمتدبرة لآلاء الله سبحانه وآياته.

والعقل الصحيح لا يعارض النقل الصريح ، ولايترتب عليه إلا الخير في العاجل والآجل ، ولكن الخشية من فساد العقل ومرضه أو صلفه وغروره.

وبما أن مشاهد النبأ العظيم كلها من الغيوب التي لم يعط العقل القوة على إدراكها، فليس لدى العقل أمور يعهدها تشابه مشاهد الآخرة ؛ حتى يقيس عليها ، ولذلك فليس أمام العقل إلا التسليم والإيمان بالغيب ، الذي أخبر عنه علام الغيوب .

وهذا هو أصل الإيمان الذي يميز المؤمن عن الكافر ، قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ**

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

ويجب على المسلم أن يحذر من الشيطان وخطراته ووساوسه في مثل هذه الأنباء الغيبية، وليعرف العقل قدره ودوره وليتحرز من غروره وصلفه.

وقد سُئل الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عن معنى قول الحكماء: «من لم يحترز من عقله بعقله هلك بعقله»؟

فأجاب رحمه الله تعالى بقوله: «الجواب، وبالله التوفيق: اعلم أن من أجَلِّ نعم الله على الآدمي أن أعطاه هذا العقل، الذي يعقل به الأشياء ويوازن به بين المصالح والمضار، ويرجح الراجح من المصلحتين، ويرتكب الأخف من المفسدتين عند الاضطرار إلى ذلك، وينظر به عواقب الأمور وما تثمره الأعمال الدينية والدنيوية من الثمرات النافعة أو ضدها، ويلزم الإرادة بالعمل الصالح، وباجتناب المضار. وأجل فوائد العقل وأحلى ثمراته: العقل عن الله وعن رسوله الأخبار والتصديق بها والتعبد لله تعالى بالاعتراف بها، والأحكام الباطنة والظاهرة والتخلق بها، والعمل الصالح، واجتناب المحرم.

فهذا أجلُّ ثمرات العقل، فبه عُرِف الله، وعُرِفَتْ أحكامه ودينه، وبه عُبِدَ الله وأُطِيع، وهذا وجه توجيه الله خطابه في كتابه: لأولي الألباب، لأولي النهى، لقوم يعقلون، لقوم يعلمون.

فالعقل هو الدليل للعبد، وهو المرشد له في جميع المطالب، فما دام العقل عقلاً حقيقياً، فلا يترتب عليه إلا كل خير ونفع عاجل وآجل.

وإنما يخشى الشر والضرر من أحد أمرين: إما قصوره وتقصيره، وإما تعديه ومجاوزته الحد الذي حد له، إذا كان صاحبه في الحالين يعتقد استقامته وكماله، فحينئذ عليه أن يحترز من كل حالة منهما بما يليق بها ويناسبها.

أما إذا كان الخلل من قصور العقل في معرفة العبد للحقائق ، بأن يظن معرفته بها وهو غالط في ذلك ، فمن هاهنا يقع الخطل والخلل ، فدواؤه في هذه الحال بتنقيح العقل وتصحيحه ، بأن يسلك الطريق الموصل لمعرفة تلك الحقيقة التي وقع الغلط فيها ،فإن من سلك الطرق المعوجة لم يهتد إلى الصواب ، وكذلك من ضعف سلوكه للطرق النافعة لم يصل إلى الحقيقة ، ذاك يضل عنها ، وهذا يقصر عنها ، ولا فرق في هذا بين الأمور الدينية والدنيوية ، فإن الأمور لا تتم إلا بسلوك طرقها وأبوابها مع الجد التام في تحصيلها ، فهذا من الأمور التي يتحرز منها بالمعرفة والاستقامة .

وأما الأمر الثاني : وهو مجاوزته للحد الذي حُدَّ له ، فهذا خطره كبير ؛ وذلك أن العقل من أكبر نعم الله وأجلها على العبد ، فعلى العبد أن يشكر الله على هذه النعمة الكبرى ، ويعترف لله بها ، ويستعين بها على ما خلق له ، وعلى ما ينفع ، فإذا نسي نعمة الله عليه، وطغى بنفسه ، وأعجب بها وتاه بعقله ، سلب هذه النعمة في أمور كثيرة أعظمها أن يسلب إيمانه ، فإن كثيراً من الملحدين وأهل الحيرة والارتياب تاهوا بما أوتوا من ذكاء وفطنة حتى تكبروا على ماجاءت به الرسل ، واحتقروا الرسل ، وما جاءوا به ، وفرحوا بعلومهم، وصارت عقولهم الذكية - غير الزكية - سبباً لهذا الانحراف العظيم، والإلحاد المفسد للدنيا والآخرة ، فعقولهم التي طغوا بها أوصلتهم إلى هذه الهاوية السحيقة .

وقد يرى كثير من أهل المهارة بالأعمال الدنيوية والاختراعات الحديثة ، قدرته على ما يعجز عنه غيره ؛ فيتيه بعقله الفاسد ، ويتوهم أن معرفته بهذه الأمور المادية دليل على تفوقه في العلوم النافعة ، والأعمال النافعة ، ولا

يخضع عقله لعلوم الرسل والدين الحق ، فهذه مهالك هلك بها المعجبون بأنفسهم .

وعلى العبد أن يحترز من القدح في حكم الله وشرعه ، أو في قدره ، بأن يقيس حكمة الحكيم الحميد بأفعال القاصرين من العبيد؛ فيضل ويسيء ظنه بالله ، ودواء هذا أن يعلم أن الله حكيم في كل ما خلقه من المخلوقات ، وفي كل ما شرعه من الشرائع ، وإن تتبع ما أوجده الله من الموجودات يجدها في غاية الحكمة ، ويجد آثار الإتقان وحسن الخلق والانتظام التام عليها ظاهرة لا تخفى إلا على من عمي قلبه ، وانقلبت عليه الحقائق .

وما خفي عليه من بعض الجزئيات التي لا يهتدي إلى معرفة الحكمة فيها؛ فليعلم العلم الكلي أن الله لا يخلق شيئاً عبثاً ، وأنه أحسن كل شيء خلقه ،وأتقن جميع ما صنعه ، وكذلك من نظر ما احتوى عليه شرعه العظيم من المحاسن والمصالح والمنافع التي لا يمكن إحصاء أجناسها فضلاً عن أنواعها وأفرادها ؛عرف بذلك أن الله كامل الحكمة .

وأضر الجهل على الإطلاق الجهل بحكمة الله ، وأشد أنواع الغرور القدح فيها ، وما جاء هذا الغرور إلا من إعجاب العبد الجاهل بعقله الفاسد ، فنسأل الله ألا يزيغ قلوبنا عن الهدى والرشاد ؛ إنه جواد كريم »[1] اهـ.

ويحسن أن نورد في هذا المقام كلاماً مفيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في الحذر من الخواطر التي لانفع للعبد فيها ، بل قد يكون فيها هلاكه وزيغه ، فيقول رحمه الله تعالى :

«واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر ، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر ، فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة ، فتأخذها

(١) الفتاوى السعدية (٥٢-٥٥).

الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل ، فتستحكم فتصير عادة ، فردُّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها .

ومعلوم أنه لم يعط الإنسان إماتة الخواطر ، ولاالقوة على قطعها ، فإنها تهجم عليه هجوم النفس ، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها، ورضاه به ، ومساكنته له ، وعلى دفع أقبحها وكراهته له ، ونفرته منه ، كما قال الصحابة : يا رسول الله ، إن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حُممة أحب إليه من أن يتكلم به ، فقال: « أوقد وجدتموه؟» قالوا: نعم ، قال : « **ذاك صريح الإيمان** »[1] .

وفي لفظ: « **الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة** » ، وفيه قولان:

أحدهما : أن رده وكراهته صريح الإيمان .

والثاني : أن وجوده وإلقاء الشيطان له في النفس صريح الإيمان ، فإنه إنما ألقاه في النفس طلباً لمعارضة الإيمان وإزالته به .

وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة التي لا تسكن ، ولابُد لها من شيء تطحنه ، فإن وضع فيها حب طحنته ، وإن وضع فيها تراب أو حصى طحنته ، فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحَبِّ الذي يوضع في الرحى ، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قط ، بل لابد لها من شيء يوضع فيها ، فمن الناس من تطحن رحاه حباً يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره ، وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبناً ونحو ذلك ، فإذا جاء

(١) رواه مسلم رقم (١٣٢) في الإيمان : باب بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها . والرواية الثانية رواها أبوداود رقم (٥١١٢) في الأدب - باب الوسوسة.

وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه »[١] .

مما سبق بيانه من النقولات يتبين لنا ما ينبغي للعقل السليم أن يسلك مع أمور الغيب التي زويت عنه ، ولم يعط القدرة على إدراكها ، ألا وهو التسليم والإيمان بكل ما جاء في كتاب الله عز وجل من الأنباء، وما ثبت عن الرسول ﷺ ، سواء أدركت العقول كنهه وحكمته ، أم لم تدرك .

فهذا هو شأن سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ؛ حيث يقدمون النقل على العقل ، وينتفعون من نعمة العقل التي أكرم الله عز وجل بها الإنسان في تدبر آياته، وزيادة الإيمان، والاستعداد لما وعد الله به عباده من النعيم الذي لا يخطر على قلب بشر بالعمل الصالح والتخفف من الدنيا، وما توعد الله به عبيده الظالمين فيبتعد عن أسبابه وما يقرب إليه .

ولما حكَّم المعتزلة وأضرابهم من أصحاب المدارس العقلية عقولهم، وقدموها على النص؛ إما بردّه أو تأويله؛ وقعوا في الضلال البعيد الذي أدى ببعضهم إلى الحيرة والشك والإلحاد ، عياذاً بالله ؛ وما ذاك إلا من غرورهم ورفعهم لعقولهم فوق منزلتها، وفتح الباب للوساوس الشيطانية والخواطر الرديئة لتلعب في عقولهم التي أوتيت ذكاءً ولم تؤت زكاءً . فالعبرة بزكاء العقول ووقوفها عند حدها واستخدامها فيما ينفع العبد في دنياه وأخراه .

أما أن يؤتى العبد ذكاء بدون زكاء فمثل هذا يكون عقله وبالاً عليه في الدنيا والآخرة. والعاقل الحق هو من عرف مولاه سبحانه وأحبه وعظمه في قلبه ولسانه وجوارحه ، واستعد لما أمامه من أنباء الآخرة بالعمل الصالح

(١) الفوائد : ص ٣٠٨.

النافع .

فهذا هو العاقل بحق ولو لم يؤت حظاً من الذكاء. أما الأذكياء الذين سخروا ذكاءهم فيما لم يخلقوا له، أو جاوزوا بذكائهم حدود عقولهم، وفتحوها للخواطر والأفكار الرديئة الضارة ؛ فإنهم تاهوا؛ فضلوا وأضلوا.

وقد وصف الله سبحانه في كتابه حال الطائفتين اللتين ضلت إحداهما فاتّبعت ما تشابه من كتاب الله عزوجل، وهدى الله الأخرى إلى الحق؛ فآمنت بكل ما جاء عن الله سبحانه ، وسألته أن يثبتها على الحق ولا يزيغها عنه ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ⑦ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ⑧ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٧ - ٩] .

❁ ❁ ❁

الأحاديث والآثار الواردة في الخوف والتحذير من النبأ العظيم

ويتم في هذا المبحث إيراد بعض الأحاديث الصحيحة والآثار المروية عن بعض السلف ، والتي يظهر منها مدى خوف القوم وتحذيرهم من يوم القيامة وأنبائه العظيمة ، كما يظهر مدى الاستعداد له بالعمل الصالح وترك كل ما يلهي ويشغل عن تذكره والتزود له .

(أ) الأحاديث :

الحديث الأول :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لما نزلت : ﴿ وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي : **يا بني فهر ، يا بني عديّ** ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال : **أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغيرَ عليكم أكنتم مصدقيّ** ؟ » قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقاً . قال : « **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** »[1] .

(١) رواه البخاري / ك التفسير (٤٧٧٠) . ومسلم بنحوه / ك الإيمان (٢٠٨) .

الحديث الثاني :

عن قبيصة بن المخارق، وزهير بن عمرو ، قالا : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ قال انطلق نبي الله ﷺ إلى رضمة[١] من جبل . فعلا أعلاها حجراً[٢]، ثم نادى : « **يا بني عبد منافاه، إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ[٣] أهله ، فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف : ياصباحاه** »[٤] .

الحديث الثالث :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما أنزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً؛ فاجتمعوا فعمَّ وخص ، فقال : « **يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها** »[٥] .

---

(١) رضمة : الرضمة حجارة مجتمعة ليست بثابتة في الأرض كأنها منثورة .

(٢) فعلا أعلاها حجراً : أي فرقي في أرفعها .

(٣) يربأ : على وزن يقرأ ، معناه يحفظهم ويتطلع لهم . ويقال لفاعل ذلك : ربيئة، وهو العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم العدو . ولا يكون في الغالب إلا على جبل أوشرف أو شيء مرتفع لينظر إلى بعد .

(٤) رواه مسلم / ك الإيمان (٢٠٨) .

(٥) رواه مسلم بشرح النووي (٣/ ٨٠) ط ١٠ المطبعة المصرية ومكتبتها .

الحديث الرابع :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **مثلي كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش ، وهذه الدواب التي في النار ، يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ، ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ، قال : فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار ؛ هلم عن النار ، هلم عن النار ، فتغلبوني ، تقحّمون فيها** »[1] .

الحديث الخامس :

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً** »[2] .

الحديث السادس :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، واستمع الأذن متى يؤمر بالنفخ فينفُخ** » فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ فقال لهم : « **قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا** »[3] .

الحديث السابع :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً** » قلت : يا رسول الله ، الرجال والنساء

(١) البخاري بنحوه في الرقاق (٦٤٨٣) ، ومسلم واللفظ له في الفضائل (٢٢٨٤) .
(٢) البخاري في الرقاق [(١١/ ٣٢٧) (٦٤٨٦) فتح] .
(٣) رواه الترمذي / ك صفة القيامة (٧/ ١٤٥) [٢٤٣٣] ، وقال : حديث حسن . وذكره الألباني في الصحيحة (١٠٧٩) من طرق .

جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ! قال : «**يا عائشة ، الأمر أشد من أن يهمهم ذلك**»[١] .

الحديث الثامن :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي ، فقال : « **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » . وكان ابن عمر يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك »[٢] .

الحديث التاسع :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة**»[٣] .

(ب) الآثار عن الصحابة والتابعين :

١ - عن الضحاك قال : « رأى أبو بكر الصديق طيراً واقعاً على شجرة ، فقال : طوبى لك يا طير ! والله لوددت أني كنت مثلك ، تقع على الشجرة ، وتأكل من الثمر ، ثم تطير ، وليس عليك حساب ولا عذاب»[٤] .

٢ - عن سليمان بن يسار ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته

---

(١) البخاري في الرقاق (٦٥٢٧) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٩) .
(٢) البخاري في الرقاق [(١١/ ٢٣٧) (٦٤١٦) فتح] .
(٣) الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٢) ، وقال : حسن غريب ، وهو في صحيح سنن الترمذي (١٩٩٣).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٥٩) .

الوفاة ، قال له المغيرة بن شعبة : هنيئاً لك يا أمير المؤمنين الجنة ، فقال : يا ابن أم المغيرة وما يدريك ؟ والذي نفسي بيده لو كان لي ما بين المشرق إلى المغرب لافتديت به من هول المطلع[1] .

٣ ـ وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته ، ويقول : « لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير »[2] .

٤ ـ عن أبي صالح قال : قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لضرار ابن ضمرة ؛ صف لي علياً ، فقال : أو تعفني يا أمير المؤمنين ، قال : بل تصفه لي ، قال : أو تعفني ، قال : لا أعفيك ، قال : أما إذ لابد ، فإنه والله كان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، (أي ما غلظ أو ماكان بلا أدم) كان والله كأحدنا ؛ يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدينا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ، ولا نبتديه لعظمته ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد بالله لرأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثُل في محرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تململ

(١) وصايا العلماء للحافظ الربعي . ت مصطفى عبد القادر عطا ص ٤٧ .
(٢) الجواب الكافي ص ٥٩ .

السليم - يعني القريص - ويبكي بكاء الحزين ، فكأني أسمعه وهو يقول : يا دنيا يا دنيا أبي تعرضت ، أم لي تشوقت ، هيهات هيهات ، غري غيري ، قد بتتك ثلاثًا ، لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق .

قال : فذرفت دموع معاوية رضي الله عنه ، فما يملكها ، وهو ينشفها بكمه ، وقد اختنق القوم بالبكاء . ثم قال معاوية : رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذُبِحَ ولدها في حجرها ، فلا ترقأ عبرتها ، ولا تسكن حسرتها[1] .

٥ - عن عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت ، قال : « لما حضرت عبادة بن الصامت الوفاة قال : أخرجوا فراشي إلى الصحن - يعني إلى الدار - ثم اجمعوا لي مواليّ ، وخدمي ، وجيراني ، ومن كان يدخل عليّ . فجمعوا له ، فقال : إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي علي من الدنيا ، وأول ليلة من الآخرة ، وإنه لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء ، وهو والذي نفس عبادة بيده ، القصاص يوم القيامة ، وأُحَرّج على أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتص مني قبل أن تخرج نفسي ، فقالوا : بل كنت والداً ، وكنت مؤدباً . قال : وما قال لخادم قط سوءاً ، أغفرتم لي ما كان من ذلك ؟ قالوا : نعم ، فقال : اللهم اشهد »[2] .

٦ - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « أنتم أكثر صياماً وأكثر صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم كانوا خيراً منكم ،

(١) غذاء الألباب للسفاريني (٢/ ٥٥٤).

(٢) وصايا العلماء ص ٦٥ .

قالوا : لمَ يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة»(١) .

٧ ـ عن عبد الملك بن ميسرة ، عن النزال ، قال : قال ابن مسعود : «أغمي على حذيفة أول الليل ، ثم أفاق ، فقال : أي الليل هذا يا ابن مسعود؟ فقلت : السحر الأكبر الأعلى . فقال : عائذ بالله من جهنم ـ يقول ذلك مرتين أو ثلاثاً ـ ابتاعوا لي ثوبين ، ولا تغالوا فيهما ، فإن صاحبكم إنْ يُرضى عنه يكن خيراً منهما ، وإلا يسلبهما سلباً سريعاً »(٢) .

٨ ـ عن همام قال : « لما حضر أبا هريرة الموتُ جعل يبكي ، قيل له : ما يبكيك يا أبا هريرة ؟ قال : قلة الزاد وبُعد المفازة ، وعقبة هبوطها الجنة أو النار »(٣) .

٩ ـ عن قيس ، أن عبد الله بن رواحة بكى ؛ فبكت امرأته ، فقال : ما يبكيك؟ قالت : رأيتك تبكي فبكيت ، فقال : « إني أنبئت أني وارد ، ولم أنبأ أني صادر »(٤) .

١٠ ـ عن الحسن ، أن رجلاً من الصدر الأول حضره الموت فجعل يبكي ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : « أما والله ما أبكي على شيء تركته بعدي إلا ثلاث خصال : ظمأ الهاجرة في يوم بعيد ما بين الطرفين ، أو ليلة أبيت فيها أراوح بين جبهتي وقدمي ، أو غدوة وروحة في سبيل الله

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩٥) .
(٢) وصايا العلماء ص ٧٤ .
(٣) وصايا العلماء ص ٨٢ .
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٣٥٧) .

عز وجل»[١] .

١١ ـ عن ابن شماسة المهري ، قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت ، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار . فجعل ابنه يقول : يا أبتاه أما بَشَّرَكَ رسول الله ﷺ بكذا ؟ أما بَشَّرَكَ رسول الله ﷺ بكذا ؟ قال : فأقبل بوجهه ، فقال : إن أفضل ما نُعدُّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . إني قد كنت على أطباق ثَلاث ؛ لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ منِّي ، ولا أحب إليَّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار .

فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت : ابسط يمينك فلأبايعك ، فبسط يمينه . قال : فقبضتُ يدي . قال : « **مالك يا عمرو ؟** » قال : قلت : أردت أن أشترط . قال : « **تشترط بماذا ؟** » قلت : أن يغفر لي . قال : « **أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟** » وما كان أحدٌ أحب إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أُطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت ؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه ، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة .

ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها ، فإذا أنا مت ، فلا تصحبني نائحة ولانارٌ ، فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شناً ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ، ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رُسُل ربي »[٢] .

---

(١) وصايا العلماء ص٩٣ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ـ باب كون الإسلام يهدم ما قبله (١٢١) .

١٢ ـ وأخرج ابن سعد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : «لوددت أني هذه السارية »[١] .

١٣ ـ وعن زياد بن ماهك قال : كان شداد بن أوس يقول : « إنكم لن تروا من الخير إلا أسبابه ، ولن تروا من الشر إلا أسبابه ، الخير كله بحذافيره في الجنة ، والشر بحذافيره في النار ، وإن الدنيا عرض حاضر ، يأكل منها البر والفاجر ، والآخرة وعد صادق ، يحكم فيها ملك قاهر ، ولكلٍ بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا »[٢] .

١٤ ـ وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس الأنصاري رضي الله عنه أنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه ، لا يأتيه النوم فيقول : « اللهم إن النار أذهبت مني النوم ، فيقوم يصلي حتى يصبح »[٣] .

١٥ ـ عن عبد السلام مولى مسلمة بن عبد الملك ، قال : « بكى عمر بن عبد العزيز ؛ فبكت فاطمة ، فبكى أهل الدار ، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء . فلما تجلَّى عنهم العَبْرُ ، قالت فاطمة : بأبي أنت يا أمير المؤمنين! مِمَّ بكيت؟ قال : ذكرت يا فاطمة منصرف القوم من بين يدي الله: فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، ثم صرخ وغُشي عليه »[٤] .

١٦ ـ عن محمد بن فروخ من ولد أبي نضرة ، قال : « زارني رياح القيسي ، فبكى صبيٌّ لنا من الليل ، فبكى رياح لبكائه حتى أصبح ،

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ١٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٧٠٩) .
(٣) الحلية (١/ ٢٦٤) .
(٤) الحلية (٥/ ٢٦٩).

فذاكرتُه يوماً ذلك ، فقال : ذكرت ببكائه أهل النار ، ليس لهم نصير ، ثم بكى»[١] .

١٧ ـ قال محمد بن واسع رحمه الله تعالى : « إذا رأيت في الجنة رجلاً يبكي ، ألست تعجب من بكائه ؟ قيل : بلى ، قال : فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه »[٢] .

١٨ ـ قال الأعمش : « إن كنا لنشهد الجنازة ؛ فما ندري من نعزي من حزن القوم »[٣] .

١٩ ـ عن سرار أبي عبيدة ، قال : قالت لي امرأة عطاء السليمي : عاتب عطاء في كثرة البكاء ، فعاتبته ، فقال لي : « يا سرار ، كيف تعاتبني في شيء ليس هو إليَّ ؟! إني إذا ذكرتُ أهل النار وما ينزل بهم من عذاب الله وعقابه ، تمثلت لي نفسي بهم ، فكيف بنفس تُغَلُّ يدُها إلى عنقها ، وتُسحب إلى النار ، ألا تصيح وتبكي ؟ وكيف لنفس تُعَذَّب ألا تبكي ؟ ويحك يا سرار ! ما أقل غَنَاء البكاء عن أهله إن لم يرحمهم الله ! قال : فسكتُّ عنه»[٤] .

والآثار في خوف السلف واستعدادهم للآخرة كثيرة جداً ، فأين نحن منهم ؟ نعم ؛ أين نحن من حال سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى مع أنهم يتميزون عنا بقوة الإيمان ، وكثرة الأعمال الصالحة ، وقلة الذنوب ، وشدة خشيتهم لله تعالى ، كما أن زمانهم يتميز عن زماننا بصلاح أهله ، وبكون

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا ص ٢٠٠ .
(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ١٣٧) .
(٣) الزهد لأحمد ص ٣٦٥ .
(٤) صفة الصفوة (٣/ ٣٢٧) .

الدنيا لم تنفتح فيه انفتاحها علينا اليوم .

فاللائق بنا والحالة هذه أن نكون أشد خوفاً منهم ، وأكثر حرصاً ، وأشد حذراً من الدنيا ، التي أخذت زخرفها وازينت . ولكن إلى الله نشكو حالنا ، ونسأله سبحانه أن يوقظنا من غفلتنا ،وأن يرزقنا الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور ؛ فالعاقل بحق ، والذي يحب نفسه بحق هو الذي يحاسب نفسه ، ويحقرها ويسعى لفكاكها من عذاب الله عز وجل .

عن سفيان بن عيينة ، قال : « كان الرجل من السلف يلقى الأخ من إخوانه ، فيقول : يا هذا ، اتق الله ، وإن استطعت أن لا تسيء إلى من تحب فافعل ، فقال له رجل يوماً : وهل يسيء الإنسان إلى من يحب ؟ قال : نعم، نفسك أعز الأنفس عليك ، فإذا عصيت فقد أسأت إلى نفسك»[1] .

« لقد عمل القرآن وأحاديث الرسول ﷺ عملها في تربية الجماعة المسلمة؛ حتى أتت بالعجب العجاب! وحتى أنشأت مجموعة من الناس تتمثل فيهم الأمانة والورع ، كما لم يتمثل قط في مجموعة بشرية ، لقد كان المسلم يعيش في حقيقة الآخرة فعلاً ، وكانت الآخرة في حسه واقعاً ، فالآخرة كانت حقيقة يعيشها لا وعداً بعيداً »[2] .

ويصف لنا الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى جانباً من حياة السلف من الأبرار المقتصدين والسابقين المقربين لعلنا نقتدي بهم ، ونحقر حالنا عندهم، وإن عجزنا عن اللحوق بهم فلا أقل من المحبة الصادقة لهم ، لعل الله سبحانه أن يحشرنا في زمرتهم . قال رحمه الله تعالى (باختصار) :

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ، تحقيق : عبد الله الشرقاوي ص ٨٨ .

(٢) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص ١٨٧ .

« أما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله ، وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه ، فهممهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة ، فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمره الله ، فإذا أدّى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس ، فيركع الضحى ، ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب . فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى الصف الأول من المسجد ، فأدى فريضته كما أمر ، مكملاً لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرب ، فينصرف من الصلاة ، وقد أثرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثاراً تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه ، ويجد ثمرتها في قلبه من الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور وقلة التكالب والحرص على الدنيا وعاجلها ، قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر ، وحببت إليه لقاء الله ، ونفرته من كل قاطع يقطعه عن الله ، فهو مغموم مهموم كأنه في سجن حتى تحضر الصلاة ، فإذا حضرت قام إلى نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه ، فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة .

هذا وهم في ذلك كله مراعون لحفظ السنن ، لا يخلّون منها بشيء ما أمكنهم ، فيقصدون من الوضوء أكمله ، ومن الوقت أوله ، ومن الصفوف أولها عن يمين الإمام أو خلف ظهره ، ويأتون بعد الفريضة الأذكار المشروعة ثم يركعون السنة على أحسن الوجوه .

هذا دأبهم في كل فريضة ، فإذا كان قبل غروب الشمس توفروا على أذكار المساء الواردة في السنة نظير أذكار الصباح الواردة في أول النهار لا

يخلون بها أبداً ، فإذا جاء الليل كانوا فيه على منازلهم من مواهب الرب سبحانه التي قسمها بين عباده ، فإذا أخذوا مضاجعهم أتوا بأذكار النوم الواردة في السنة ، وهي كثيرة تبلغ نحواً من أربعين ، فيأتون منها بما علموه وما يقدرون عليه فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله ، فهذا منامه عبادة وزيادة له في قربه من الله .

فإذا استيقظ عاد إلى عادته الأولى ، ومع هذا فهو قائم بحقوق العباد من عيادة المرضى ، وتشييع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، والمعاونة لهم بالجاه والبدن ، والنفس والمال ، وزيارتهم وتفقدهم ، وقائم بحقوق أهله وعياله ، فهو متنقل في منازل العبودية كيف نقله فيها الأمر ، فإذا وقع منه تفريط في حق من حقوق الله بادر إلى الاعتذار والتوبة والاستغفار ، ومحوه ومداواته بعمل صالح يزيل أثره ، فهذا وظيفته دائماً .

وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولاً من وصف حالهم وعدم الاتصاف به ، بل ما شممنا له رائحة ، ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم ، والعلم بها وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم ، ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة :

* منها : ألا يزال المتخلف المسكين مزرياً على نفسه ذاماً لها .

* ومنها : ألا يزال منكسر القلب بين يدي ربه تعالى ذليلاً له حقيراً ، يشهد منازل السابقين ، وهو في زمرة المنقطعين ، ويشهد بضائع التجار وهو في رفقة المحرومين .

* ومنها : أنه عساه أن تنهض همته يوماً إلى التشبث والتعلق بساقة القوم ولو من بعيد .

* ومنها : أنه لعله أن يصدق في الرغبة واللجأ إلى من بيده الخير كله أن يلحقه بالقوم ويهيئه لأعمالهم فيصادف ساعة إجابة ، لا يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه .

* ومنها : أن هذا العلم هو من أشرف علوم العباد ، وليس بعد علم التوحيد أشرف منه ،وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة ، ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة ، فإذا رأى نفسه تناسب هذا العلم تشتاق إليه وتحبه وتأنس بأقله فليبشر بالخير ، فقد أهل له ، فليقل لنفسه : يا نفس قد حصل لك شطر السعادة فاحرصي على الشطر الآخر؛ فإن السعادة في العلم بهذا الشأن والعمل به ، فقد قطعت نصف المسافة، فهلا تقطعين باقيها؛ فتفوزين فوزاً عظيماً .

* ومنها : أن العلم بكل حال خير من الجهل ، فإذا كان اثنان : أحدهما عالم بهذا الشأن غير موصوف به ولا قائم به ، وآخر جاهل به غير متصف به فهو خلو من الأمرين ، فلا ريب أن العالم به خير من الجاهل ، وإن كان العالم المتصف به خيراً منهما ، فينبغي أن يُعطى كل ذي حق حقه ، ويُنزل في مرتبته .

* ومنها : أنه إذا كان العلم بهذا الشأن همه ومطلوبه، فلابد أن ينال منه بحسب استعداده ولو لحظة ،ولو بارقة ، ولو أنه يحدث نفسه بالنهضة إليه .

* ومنها : أنه لعله يجري منه على لسانه ما ينتفع به غيره بقصده أو بغير قصده ، والله لا يضيع مثقال ذرة ، فعسى أن يُرحم بذلك العامل .

و بالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر ، فلا ينبغي أن تصغي إلى من يثبطك عنه ، وتقول : إنه لا ينفع ، بل احذره ، واستعن بالله ، ولا

تعجز ، ولكن لا تغترّ، وفرّق بين العلم والحال .

وإياك أن تظن أنك بمجرد علم هذا الشأن قد صرت من أهله ، هيهات ما أظهر الفرق بين العالم بوجوه الغنى وهو فقير وبين الغنى بالفعل ، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم وبين الصحيح بالفعل ، فاسمع الآن وصْف القوم ، وأحضر ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل ، فإن وجدت من نفسك حركة وهمّة إلى التشبه بهم فاحمد الله وادخل ؛ فالطريق واضح والباب مفتوح .

إذا أعْجَبَتْكَ خصال امرئ   فكُنْهُ تكنُ مثل ما يُعْجِبُك

فليس على الجود والمَكْرُمَا   ت إذا جئتها حاجبٌ يحجُبُك

فنبأ القوم عجيب! وأمرهم خفي إلا على من له مشاركة مع القوم ، فإنه يطلع من حالهم على ما يريه إياه القدر المشترك .

وجملة أمرهم أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله وغمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته؛ فسرت المحبة في أجزائهم ، فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب .

قد أنساهم حبه ذكر غيره ، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه ، قد فنوا بحبه عن حب من سواه ، وبذكره عن ذكر من سواه ، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه ، والتوكل عليه، والإنابة إليه ، والسكون إليه، والتذلل والانكسار بين يديه، عن تعلق ذلك منهم بغيره ، فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه ،واجتمع همه عليه متذكراً صفاته العلى وأسمائه الحسنى ، مشاهداً له في أسمائه وصفاته، وقد تجلت

على قلبه أنوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته ، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه ، وقلبه قد أوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه ، وأسجده بين يديه خاضعاً خاشعاً ذليلاً منكسراً من كل جهة من جهاته . فيالها سجدة ما أشرفها من سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء»[1] .

❋ ❋ ❋

(١) طريق الهجرتين ص ١٩٣ - ١٩٧ .

من ثمرات اليقين بالنبأ العظيم

إن في اليقين باليوم الآخر وأنبائه العظيمة لآثاراً واضحة وثماراً طيبة ، لابد أن تظهر على قلب العبد ولسانه وجوارحه ، وعلى حياته كلها ، ولكن هذا اليقين وحده لا يكفي حتى ينضم إليه الصبر ومجاهدة الشهوات والعوائق ؛ لأن الواحد منا مع يقينه باليوم الآخر وأهواله إلا أن ثمرات هذا اليقين ضعيفة ، فلابد إذن من سبب لهذا الضعف .

ويجلي هذه المسألة الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، فيقول : « فإن قلت : كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل ؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة ، أو يكرمه أتم كرامة ، ويبيت ساهيًا غافلاً ! ولا يتذكر موقفه بين يدي الملك ، ولا يستعد له ، ولا يأخذ له أهبته؟ !

قيل : هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق ؛ فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء ، وهذا التخلف له عدة أسباب :

أحدها : ضعف العلم ونقصان اليقين ، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت ، فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها .

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ؛ ليزداد طمأنينة ، ويصير المعلوم غيباً شهادة .

وقد روى أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال : «ليس المخبَر

كالمعايِن»[(١)] .

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده ، وانضم إلى ذلك تغاضي الطبع ، وغلبات الهوى ، واستيلاء الشهوة ، وتسويل النفس ، وغرور الشيطان ، واستبطاء الوعد ، وطول الأمل ، ورقدة الغفلة ، وحب العاجلة ، ورخص التأويل ، وإلف العوائد ، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا . وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال ، حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب .

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر ، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين ، وجعلهم أئمة الدين ، فقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤] »[(٢)] اهـ.

وبعد هذه المقدمة التي لابد منها حول ثمرات اليقين بالنبأ العظيم نذكر ما تيسر من هذه الثمرات ، والله ولي التوفيق :

١ـ الإخلاص لله عز وجل والمتابعة للرسول ﷺ :

إن الموقن بلقاء الله عز وجل يوم الفزع الأكبر لا تلقاه إلا حريصاً على أعماله ، خائفاً من كل ما يحبطها من أنواع الشرك الأكبر ، أو الشرك

---

(١) أحمد بنحوه (١/ ٢١٥ ، ٢٧١) ، والحاكم في المستدرك ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة الأعراف (٢/ ٣٢١)، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وصحح إسناده أحمد شاكر (١٨٤٢) ، ولكنه بلفظ : « **ليس الخبر كالمعاينة** » .

(٢) الجواب الكافي ص٥٤ .

الأصغر ؛ حيث إن الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال ، فتصير هباءً منثوراً، والشرك الأصغر يحبط العمل الذي حصل فيه هذا النوع من الشرك كيسير الرياء والعجب والمنِّ وطلب الجاه والشرف في الدنيا ، فكلما كان العبد موقناً بلقاء ربه كان منه الحرص الشديد على ألا تضيع منه أعماله الصالحة في موقف القيامة ، يوم أن يكون في أشد الأوقات حاجة إليها ؛ ولذلك فهو يجاهد نفسه بحماية أعماله في الدنيا بالإخلاص فيها لله تعالى ، لعل الله عز وجل أن ينفعه بها .

كما أن اليقين بالرجوع إلى الله عز وجل يجعل العبد في أعماله كلها متبعاً للرسول ﷺ غير مبتدع ولا مبدل ؛ لأن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً ، قال تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ١١٠] .

٢ـ الحذر من الدنيا والزهد فيها والصبر على شدائدها وطمأنينة القلب وسلامته :

إذا أكثر العبد ذكر الآخرة وكانت منه دائماً على بال ، فإن الزهد في الدنيا والحذر منها ومن فتنتها سيحلان في القلب ، وحينئذ لا يكترث بزهرتها ، ومن ثم لا يحزن على فواتها ، ولا يمدن عينيه إلى من متعهم الله بها ليفتنهم فيها .

وهذه الثمرة يتولد عنها بدورها ثمار أخرى مباركة طيبة ؛منها القناعة ، وسلامة القلب من الحرص والحسد والغل والشحناء ؛ لأن الذي يعيش بتفكيره في الآخرة وأنبائها العظيمة لا تهمه الدنيا الضيقة المحدودة ؛ إنها في نظره كالجحر الضيق ؛ فكيف يتنافس مع غيره أو يحسد غيره على جحر

ضيق زائل وهو يعيش في هذا الأفق الواسع الرحب، أفق الآخرة والحياة الأبدية فيها . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : « من أكثر ذكر الموت قل فرحه وقل حسده »[1] .

كما يتولد أيضاً من هذا الشعور ، الراحة النفسية والسعادة القلبية وقوة الاحتمال والصبر على الشدائد والابتلاءات ، ذلك للرجاء فيما عند الله عز وجل من العوض والثواب ، وأنه مهما جاء من شدائد الدنيا فهي منقطعة ولها أجل ، فهو ينتظر الفرج ويرجو الثواب الذي لا ينقطع يوم الرجوع إلى الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ **إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ** ﴾ [النساء : ١٠٤] .

وما إن يفقد القلب هذه المعاني حتى يخيّم الهم والتعاسة عليه ، ومن هنا ينشأ القلق والانزعاج والهم والحزن ، أما ذاك الذي عرف الدنيا على حقيقتها وامتلأ قلبه بهم الآخرة وأنبائها ؛ فإن نفسه لا تذهب على الدنيا حسرات ، ولا تنقطع نفسه لهثاً في طلبها ، ولا يأكل قلبه الغل والحسد والتنافس فيها ، ولا يقل صبره ولا يجزع قلبه عند المحن والشدائد ، ومهما حرم في هذه الدنيا الفانية فهو يعلم أن لله عز وجل في ذلك حكمة وهو يرجو العوض يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ**

(١) الزيادة على الزهد لابن المبارك ص ٣٧ .

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٢ - ٣٥].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «أي: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه؛ فيجتمعوا على الكفر لأجل المال. هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وغيرهم»(١) اهـ.

فنظر المسلم الموقن بثواب الله عز وجل إلى الدنيا نظر المرتفع المستعلي عليها الراجي ثواب الله عز وجل ونعيمه المقيم يوم يلقاه، وما شيء مثل هذا اليقين، يريح العبد المؤمن ويُضفي على قلبه السعادة والسكينة والراحة والصبر وقوة الاحتمال.

يقول سيّد قطب رحمه الله: «إن الذي يعيش بلا عقيدة في الآخرة يعيش في عذاب نفسي لا أمل له ولا رجاء ولا عدل ولا جزاء، ولا عوض عما يلقاه في الحياة.

وفي الحياة مواقف وابتلاءات لا يقوى الإنسان على مواجهتها إلا وفي نفسه رجاء الآخرة، وثوابها للمحسن وعقابها للمسيء، وإلا ابتغاء وجه الله والتطلع إلى رضاه في ذلك العالم الآخر، الذي لا تضيع فيه صغيرة ولا كبيرة، والذي يُحرم هذه النافذة المضيئة الندية المريحة يعيش ولا ريب في العذاب كما يعيش في الضلال. يعيش فيهما وهو حي على هذه الأرض قبل أن يلقى عذاب الآخرة جزاء على هذا العذاب الذي لقيه في دنياه.

إن الاعتقاد بالآخرة رحمة ونعمة يهبها الله لمن يستحقها من عباده؛

---

(١) تفسير ابن كثير عند الآية (٣٣) من سورة الزخرف.

بإخلاص القلب ، وتحري الحق ، والرغبة في الهدى »[١] اهـ.

كما أن الموقن بلقاء ربه عز وجل لا تلقاه عند النعماء إلا شاكراً لربه سالماً من الأشر والبطر والطغيان عند انفتاح الدنيا عليه ؛ لأنه يشعر بالابتلاء في السراء كابتلائه في الضراء ، فيشكر في السراء ، كما صبر على بلائه في الضراء .

٣- التزود بالأعمال الصالحة وأنواع القربات واجتناب المعاصي والمبادرة بالتوبة والاستغفار :

سبق أن مر بنا في مقدمة الحديث عن الثمرات أنه لا يمكن أن يوجد اليقين بالآخرة ، وما أعد الله فيها من النعيم لأوليائه ومن العذاب لأعدائه ، ثم مع ذلك يتخلف العمل الصالح الذي يثمر رضا الله عز وجل وجنته . ولو وجد تقصير في العمل الصالح أو جرأة على ما يسخط الله سبحانه فإنما يدل هذا إما على ضعف في اليقين والبصيرة ، أو ضعف في الصبر والإرادة ، أما من رجا النعيم في الدار الآخرة فلابد أن يعد لذلك عدته . يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : « ومما ينبغي أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور :

أحدها : محبة ما يرجوه .

الثاني : خوفه من فواته .

الثالث : سعيه في تحصيله بحسب الإمكان .

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني ، والرجاء شيء

---

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص ١٦ .

والأماني شيء آخر ؛ فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات .

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»(١) .

وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة ، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة ؛ فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل . قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١] .

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ، فقلت : أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون ؟ فقال : « **لا يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون من أن لا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**»(٢) . وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً .

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ، ووصف

---

(١) مر ذكره وتخريجه وهو الحديث التاسع ص٢١٤ .

(٢) رواه أحمد (٦/ ١٥٩) ، والترمذي (كتاب التفسير) باب تفسير سورة المؤمنون ، الحديث رقم ٣١٧٥.

الأشقياء بالإساءة مع الأمن »[١] اهـ.

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : « فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات ؟ وقال المغرورون : إن المفرطين المضيعين لحقوق الله، المعطلين لأوامره ، الباغين المتجرئين على محارمه ، أولئك يرجون رحمة الله »[٢] اهـ.

وقد وصف الله عز وجل الذين يحذرون الآخرة بأنهم من القانتين العابدين فقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .

وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تربط بين فعل الواجبات وترك المحرمات وبين الإيمان باليوم الآخر، سواء ما كان منها بين العبد وربه أو بين العبد والخلق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ

(١) الجواب الكافي ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) الجواب الكافي ص ٥٦ .

(٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

[المعارج: ١٩ - ٣٥]

ولما ذكر الله عز وجل أحكام الطلاق والرجعة قال بعدها: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢].

فالحاصل أنه كلما كان العبد موقناً بيوم الحساب، متذكراً له دائماً، شاعراً برقابة الله عز وجل له في السر والعلن، كلما كان أكثر استعداداً لذلك اليوم بالعمل الصالح، مجتنباً لكل ما يسخط الله عز وجل، مبادراً إلى التوبة مما يقع فيه من الذنوب والعصيان.

والمتأمل لحال السلف الصالح ويقينهم بذلك اليوم يرى كثرة أعمالهم الصالحة واجتنابهم لكل ما يغضب الله عز وجل، ومع ذلك فهم يخافون أن تُردّ أعمالهم، ويحقرون أنفسهم مع ما عندهم من الاجتهاد في طاعة الله عز وجل وتجنبهم لمعاصيه، وإذا وقعوا في ذنب بادروا إلى التوبة الصادقة والإنابة إلى الله عز وجل.

٤ـ الدعوة إلى الله عز وجل والجهاد في سبيله:

وهذا يدخل في الثمرة السابقة؛ حيث إنه من أفضل القربات والأعمال الصالحة، وقد أفردته هنا كثمرة مستقلة من ثمار اليقين باليوم الآخر؛ وذلك لما يلي:

أ ـ فضل الجهاد والدعوة إلى الله سبحانه، وأثرهما في إنقاذ الناس بإذن ربهم من الظلمات إلى النور، ولذلك كان من أحب الأعمال إلى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ

إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: أي الناس أفضل؟ فقال: « **رجل يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه** »، قال: ثم من؟ قال: « **مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ربه، ويدع الناس من شره** »(١).

ب ـ وصف الرسول ﷺ للجهاد بأنه ذروة سنام الإسلام، ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ معنى كون الجهاد ذروة سنام الإسلام، فيقول (باختصار):

« .. ولهذا كان الجهاد سنام العمل، وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة، ففيه سنام المحبة، كما في قوله: ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾** [المائدة: ٥٤]. وفيه سنام التوكل وسنام الصبر؛ فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾** [النحل: ٤١، ٤٢].

وقال تعالى: ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾** [الأعراف: ١٢٨].

وفي الجهاد أيضاً: حقيقة الزهد في الحياة الدنيا، وفي الدار الدنيا. وفيه أيضاً حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن يجاهد في سبيل الله، لا في

(١) البخاري / ك الجهاد (٢٧٨٦). ومسلم/ك الإمارة (١٨٨٨).

سبيل الرياسة ، ولا في سبيل المال ، ولا في سبيل الحمية ، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا . وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة : ١١١].

و (الجنة) : اسم للدار التي حوت كل نعيم ؛ أعلاه النظر إلى الله ، إلى ما دون ذلك مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، مما قد نعرفه وقد لانعرفه»[1] اهـ.

جـ- في الحديث عن الجهاد في سبيل الله عز وجل ومحاربة الفساد وتعبيد الناس لرب العالمين أكبر رد على الذين يرون أن التعلق باليوم الآخر ، والاستعداد له يعني اعتزال الناس وترك الدنيا لأهلها ، والاشتغال بالنفس وعيوبها ، وترك الحياة يأسن فيها أهلها . نعم ، هذا ما يراه بعض المتصوفة وأصحاب الفهم المنحرف لحقيقة الدنيا والآخرة .

إنها النظرة السلبية لحقيقة الآخرة ، وإلا فالدنيا مزرعة الآخرة ، وهؤلاء هم سلفنا الصالح رضوان الله عليهم ، أزهد الناس في الدنيا ، وأكثرهم إنابة إلى الله وذكراً للآخرة ؛ ولكنهم حيث علمهم رسول الله # بقوله وفعله رأوا أن من أكبر الاستعداد للآخرة وأفضل الأعمال المقربة إلى الله عز وجل الجهاد في سبيله والدعوة إليه سبحانه ، وأن من اليقين بالآخرة الشفقة على الناس ورحمتهم ، وعدم تركهم لأهل الشر والطغيان يفسدون عليهم دينهم ؛ فيشقون في الدنيا والآخرة ؛ ولذلك شرع الجهاد في سبيل الله

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٤١-٤٤٣).

عز وجل ؛ حتى تكون كلمة الله هي العليا .

« والذين يفترون على عقيدة الآخرة فيقولون : إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا ، وإلى إهمال هذه الحياة ، وتركها بلا جهد لتحسينها وإصلاحها ، وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعاً إلى نعيم الآخرة . . الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة ؛ فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة ـ كما هي في التصورات الكنسية ، وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم .

فالدنيا ـ في التصور الإسلامي ـ هي مزرعة الآخرة والجهاد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة ، ودفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعاً ، كل أولئك هو زاد الآخرة ؛ وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى .

إن الناس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبيين ، ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا ـ مع ادعائهم الإسلام ـ فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه ؛ لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف ؛ ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف ! لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين ، ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة ، فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة ، وهو يعي حقيقة هذا الدين ، ثم يعيش في هذه الحياة سلبياً أو متخلفاً أو راضياً بالشر والفساد والطغيان ، إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا ، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى ، ويستمتع بطيباتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة ، ويجاهد

لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها ،وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة فيها، ويكافح الشر والفساد والظلم محتملاً الأذى والتضحية حتى الشهادة، وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة . . إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا، وأن الدنيا صغيرة زهيدة، ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى»[1]اهـ.

وصدق الله العظيم : ﴿ لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ .

[التوبة: ٤٤، ٤٥]

٥ـ اجتناب الظلم بشتى صوره :

وهذه الثمرة أيضاً تندرج تحت الثمرة الثالثة التي تمت الإشارة فيها إلى أثر اليقين باليوم الآخر في ترك معاصي الله عز وجل ، وكل ما نهى الله عنه ، ولكن إفرادها هنا في ثمرة مستقلة جاء لكثرة الظلم والشحناء بين المسلمين في عصرنا الحاضر .

وإنه لا شيء يمنع النفس من ظلم الغير في نفس أو مال أو عرض كاليقين بالرجوع إلى الله عز وجل وإعطاء كل ذي حق حقه ، وإنصاف المظلوم ممن ظلمه ، فإذا تذكر العبد هذا الموقف العصيب الرهيب وأنه لا يضيع عند الله شيء كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ،

---

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص ٦ .

وقوله تعالى : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ . [طه : ١١١]

إذا تذكر هذه المواقف واتعظ بهذه الآيات ، وأيقن بتحققها فلا شك سيمنعه ذلك من التهاون في حقوق الخلق والحذر من ظلمهم في دم أو مال أو عرض، خاصة وأن حقوق العباد مبنية على المشاحة والحرص على استيفاء الحق من الخصم ، وبالذات في يوم الهول الأعظم الذي يتمنى العبد أن يكون له مظلمة عند أمه وأبيه وصاحبته وبنيه فضلاً عن غيرهم من الأباعد، ومعلوم أن التقاضي هنالك ليس بالدينار والدرهم، ولكن بالحسنات والسيئات .

فياليتنا نتذكر دائماً يوم الفصل العظيم ، يوم يفصل الحكم العدل بين الناس ، ويقضي بين الخصماء بحكمه وهو أحكم الحاكمين ، ليتنا لا نغفل عن هذا المشهد العظيم؛ حتى لا يجور بعضنا على بعض ، ولا يأكل بعضنا لحوم بعض، ولا نتكلم إلا بعلم وعدل ، إنه لا شيء يمنع من ذلك كله إلا الخوف من الله عز وجل، وخوف الوقوف بين يديه، واليقين الحق بأن ذلك كائن في يوم لا ريب فيه ، قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٠ - ٤٢] ، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨]، وقال سبحانه : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١].

يقول ميمون بن مهران : « يا ابن آدم خفف عن ظهرك ؛ فإن ظهرك لا يطيق كل الذي تحمله عليه من ظلم هذا ، وأكل مال هذا ، وشتم هذا . . كل هذا تحمله على ظهرك فخفف » .

٦ـ حصول الأمن والاستقرار والألفة بين الناس بالحكم بشريعة الله :

إن مجتمعاً يسود بين أهله الإيمان بالله عز وجل واليقين بالآخرة والجزاء والحساب لاشك أن ذلك سيثمر السلام والمحبة بين أهله ؛ لأن تعظيم الله سبحانه وتعظيم الوقوف بين يديه سيجعل هذه النفوس لا ترضى بغير شرع الله عز وجل بديلاً ، ولا تقبل الاستسلام إلا لحكمه .

وهذا بدوره سيضفي الأمن والأمان على مثل هذه المجتمعات؛ لأن أهلها يخافون الله ويخافون يوم الفصل والجزاء ، فلا تحاكم إلا لشرع الله ، ولا تعامل إلا بأخلاق الإسلام الفاضلة فلا خيانة ولا غش ولا ظلم . ولا يعني هذا ألا يوجد في المجتمعات المسلمة من يظلم أو يخون أو يغش ، فهذا لم يسلم منه عصر النبوة ولا الخلافة الراشدة ، لكن هذه المعاصي تبقى فردية ، يُؤدَّب أفرادها بحكم الله عز وجل وحدوده ، إذا لم يردعهم وازع الدين والخوف من الله .

وهذه بدورها ستكون محدودة وليست أصيلة ، أما عندما يقل الوازع الديني والخوف من الآخرة ، ويكون التحاكم إلى أهواء البشر وحكمهم فهذا هو البلاء العظيم والفساد الكبير؛ حيث تداس القيم والحرمات ، ويأكل القوي الضعيف ، وبالتالي لا يأمن الناس على أديانهم ولا أنفسهم ولا أموالهم ولا أعراضهم، وكفى بذلك سبباً في عدم الأمن والاستقرار وانتشار الخوف واختلال حياة الناس .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« إنه لابد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو ، لا

شريعة العباد ، وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ، ويقيموا معاملاتهم ـ كما يقيموا شعائرهم وعباداتهم ـ وفق شريعة الله في الدنيا ، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله »[١] .

ويقول أيضاً : « حقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله مع الإعراض عن الاحتكام إلى الله ، وتحكيمه في كل شأن من شئون الحياة ، فالدنيا ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة ، ووراءها الآخرة، والمتاع فيها هو المتاع ، فضلاً على أن المتاع فيها طويل كثير ، فهي خير ﴿ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ ، وفي الآخرة الجزاء الأوفى»[٢] .

٧ـ تقصير الأمل وحفظ الوقت :

إن من أخطر الأبواب التي يدخل منها الشيطان على العبد طول الأمل ، والأماني الخادعة التي تجعل صاحبها في غفلة شديدة عن الآخرة ، واغترار بزينة الحياة الدنيا ، وتضييع ساعات العمر النفيسة في اللهث وراءها حتى يأتي الأجل الذي يقطع هذه الآمال ، وتذهب النفس حسرات على ما فرطت في عمرها ، وأضاعات من أوقاتها ، ولكن اليقين بالرجوع إلى الله عز وجل والتذكر الدائم لقصر الحياة الدنيا ، وأبدية الآخرة وبقائها ـ هو العلاج النافع لطول الأمل وضياع الأوقات .

يقول ابن قدامة ـ رحمه الله تعالى ـ : « واعلم أن السبب في طول الأمل شيئان :

---

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص ١٦١ .
(٢) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص ٦٩ .

أحدهما : حب الدنيا .

والثاني : الجهل .

أما حب الدنيا ؛ فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ، ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر في الموت ، الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة ، فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا ، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر ، فيلهو عن ذكر الموت ، ولا يقدّر قربه .

فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له ، سوَّف بذلك ووعد نفسه ، وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر قال : إلى أن يصير شيخاً ، وإن صار شيخاً ، قال : إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار ، وعمارة هذه الضيعة ، أو يرجع من هذه السفرة ، فلا يزال يُسَوِّف ويؤخر ، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال ، وهكذا على التدريج ، يؤخر يوماً بعد يوم ، ويشتغل بشغل بعد شغل ، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه ، فتطول عند ذلك حسرته .

السبب الثاني: الجهل ، وهو أن الإنسان يعول على شبابه ، ويستبعد قرب الموت مع الشباب ، أو ليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر ؟ وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب ، وقد يغتر بصحته ، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة ، وإن استبعد ذلك ، فإن المرض يأتي فجأة، وإذا مرض لم يكن

الموت بعيداً ، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص ، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار ، ولا هو مقيد بسن مخصوص ، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره ؛ لعظم ذلك عنده واستعد للموت »[١] .

ويقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى :

« فإذا علم الإنسان ـ وإن بالغ في الجد ـ بأن الموت يقطعه عن العمل ، عمل في حياته ما يدوم له أجره بعد موته ، فإن كان له شيء من الدنيا ، وقف وقفاً ، وغرس غرساً ، وأجرى نهراً ، ويسعى في تحصيل ذرية تذكر الله بعده ، فيكون الأجر له . أو أن يصنف كتاباً من العلم ، فإن تصنيفَ العالم ولدُه المخلّد ، وأن يكون عاملاً بالخير ، عالماً فيه ، فيُنقل من فعله ما يقتدي الغير به »[٢] اهـ.

وعن قيمة الوقت وتفاوت أهل اليقظة فيه ، يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى :

« سبحان من فاوت بين أهل اليقظة في قوة السير وضعفه ، وفي استغراق جميع الأوقات في العبادة وعدمه ، منهم من يكون سيره مستقيماً في ليله ونهاره ، ومع ذلك يتخير من الأعمال أفضلها وأكملها ، ولا ينزل من فاضلها إلى مفضولها ، إلا لمصلحة تقترن بالمفضول ، توجب أن يساوي العمل الفاضل ، ويزيد عليه ، وقد يكون المباح في حق هذا عبادة لكمال إخلاصه ، ونيته بذلك المباح أن يجم به نفسه ، ويتقوى به على الخير ، فتراه يتنقل في مقامات العبودية في كل وقت بما يناسبه ويليق به ، لا فرق عنده

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٣٦٧ ، ٣٦٨ .
(٢) صيد الخاطر ص ٢٠ .

بين العبادة المتعلقة بحقوق الله المحضة ، وبين العبادة المتعلقة بحقوق الخلق على اختلاف مراتبهم وأحوالهم .

ولقد ذكرت في هذا المقام كلاماً لبعض الشيوخ لما رأى كثرة المجتمعين ببعض أصحابه قال مؤدباً لهم مقوماً : يا مناخ البطالين. يريد أنهم يقطعون عليه وقته عن الخير ، وكلاماً أيضاً للشيخ أبي الفرج بن الجوزي في سياق الخبر عن نفسه بحفظه الوقت، وأنه رأى مما لابد منه أن يتتابه أناس للزيارة ، وأنه لما رأى أن هذه الحال تقطع عليه وقته أعد للوقت الذي يجتمعون فيه إليه أشياء من أمور الخير لا تمنع من زيارتهم ، ولا تقطع عليه وقته ، مثل تقطيع الأوراق ، وصنع المداد ، وبري الأقلام التي لابد له منها لتصنيف العلوم النافعة ، وهي لا تمنع الحديث مع الناس والاستئناس بهم .

فقلت : سبحان مَن مَنَّ على هؤلاء السادة بحفظ أوقاتهم ، وبقوة العزيمة والنشاط على الخير ، ولكن كل كمال يقبل التكميل والرقي إلى حالة أرفع منه ، فلو أن هؤلاء الأجلاء الفضلاء جعلوا اجتماعهم مع الناس للزيارة والدعوات وغيرها من المجالس العادية فرصة يغتنمون فيها إرشاد من اجتمع بهم إلى الخير والبحث في العلوم النافعة ، والأخلاق الجميلة ، والتذكر لآلاء الله ونعمه ، ونحو ذلك من المواضيع المناسبة لذلك الوقت ، ولذلك الاجتماع؛ بحسب أحوال الناس وطبقاتهم ، وأنهم وطّنوا أنفسهم لهذا الأمر، وتوسلوا بالعادات إلى العبادات ، وبرغبتهم إلى الاجتماع بهم إلى انتهاز الفرصة في إرشادهم ، لحصلوا بذلك خيراً كثيراً ، وربما زادتهم هذه الاجتماعات مقامات عالية ، وأحوالاً سامية مع ما في ذلك من النفع العظيم للعباد ؛ لأنه ليس من شروط نفع العالم أن يرشد فقط المستعدِّين

لطلب العلم من المتعلمين ، بل يكون مستعداً لإرشاد الخلق أجمعين بحسب أحوالهم واستعدادهم ، وعلمهم وجهلهم ، وإقبالهم وإعراضهم ، وأن يعامل كل حالة بما يليق بها من الدعوة إلى الخير والتسبب لفعله ، وتعطيل الشر وتقليله ، وأن يستعين الله على ذلك.

فمن كانت هذه حاله ، لم يتبرم باجتماعه بالخلق مهما كان حريصاً على حفظ وقته ؛ لأن التبرم والتشاقل إنما هو للحالة التي يراها العبد ضرراً عليه ، ومفوتة لمصالحه ، والله الموفق وحده لا شريك له »[1] اهـ.

٨ـ سلامة التفكير وانضباط الموازين وسمو الأخلاق :

لا يستوي من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويوقن بيوم الحساب والجزاء ، ولا يغفل عنه ، لا يستوي هو ومن لا يؤمن بالآخرة أو يؤمن بها ولكنه في لهو وغفلة عنها ، إنهما لا يستويان أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة . أما في الآخرة فيوضحه قوله تعالى : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [الحشر : ٢٠] .

وأما في الحياة الدنيا ، فلا يلتقي أبداً من يعلم أن له غاية عظيمة في هذه الحياة ، وأن مرده إلى الله عز وجل في يوم الجزاء والحساب والنشور مع من لا يعلم من هذه الحياة الدنيا إلا ظاهرها ، وأنها كل شيء عنده ، وهو عن الآخرة من الغافلين .

إنهما لا يلتقيان لا في التفكير ولا في الميزان ، الذي توزن به الأشياء والأحداث ، ولا في الأحكام ، وبالتالي فبقدر ما تسمو أخلاق الأول وتعلو

(١) الفتاوى السعدية ص ٤٩ ـ ٥١ .

همته لسمو منهجه وميزانه بقدر ما تسفل وترذل أخلاق الآخر لسفالة تصوره وفساده ميزانه . قال تعالى في وصف أهل الدنيا : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم: ٧] .

« ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها ، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ، ولا ينتظر ما وراءها ، لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة ، ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشئون ، فلكل منهما ميزان ، ولكل منهما زاوية للنظر ، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال . . هذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا ، وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ، ونواميس شاملة للظاهر والباطن ،والغيب والشهادة ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والماضي والحاضر والمستقبل ، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء »[1] .

إن الإيمان بالحياة الآخرة واليقين بما فيها نعمة عظيمة لا يدركها إلا من رأى وسمع أحوال الغافلين عن الدار الآخرة ؛ حيث فساد الموازين ، واختلال المواقف ، وهبوط الأخلاق ، ولا يمكن أن يتوقع من أهل الدنيا الغافلين عن الآخرة إلا مثل هذا ، فهم لا يرون إلا هذه الحياة الدنيا ، فهم يتنافسون وينطلقون في جميع أمورهم من هذا الجحر الضيق فإن وزنوا أمورهم فبميزان الدنيا يزنون ، وإن اتخذوا مواقفهم وبنوا أحكامهم، فهم من هذه الدنيا ينطلقون ، وإن كان لديهم شيء من الأخلاق فهي بقدر ما

(١) في ظلال القرآن عند الآية : (٧) من سورة الروم .

يحقق لهم مصالحهم وشهواتهم فحسب ، أما ذلك المؤمن بربه والموقن بلقائه يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فيختلف كل الاختلاف عن أهل الدنيا وموازينهم ، فهو يزن الأمور ، ويتخذ المواقف ، ويبني الأحكام انطلاقاً من كونه عبداً لله عز وجل مستسلماً لشرعه ، واقفاً عند حدوده ، ناظراً إلى الدنيا كما وصفها الله عز وجل ،وحذَّر منها ، وأنها مزرعة الآخرة ، وأن التفاضل فيها بالتقوى والعمل الصالح ، لا بالمال والجاه ،وبالتالي فهو صاحب الأخلاق العالية ، التي تلازمه في كل زمان ومكان ؛ لإيمانه برقابة الله عز وجل له في جميع الأحوال ، ورجوعه إليه يوم القيامة ، فهل يستويان مثلاً ؟!

وأختم هذه الثمرة العظيمة بمثالين اثنين ، قصهما الله عز وجل علينا في كتابه الكريم يوضحان دور اليوم الآخر في سلامة الموازين .

المثال الأول: قصة قارون مع قومه :

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ .

[القصص : ٧٦ - ٨٠]

يذكر الله سبحانه في هذه القصة صنفين من قوم قارون : الصنف الأول الذي يمثله قارون في عتوه واستكباره ، وركونه إلى الدنيا ، وغفلته عن الآخرة ، فكان ميزانه ميزان الدنيا الهابط السافل ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ فلم ينسب النعمة والعطاء إلى الله عز وجل ، بل جحد ذلك ، وخرج على قومه فرحاً بطراً . وهذا هو شأن أهل الدنيا وموازينهم .

كما يتبع قارون في هذه المواقف الهابطة أولئك الذين انخدعوا بزينته وتمنوا مكانه ، فقالوا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ؛ حيث جعلوا ميزان الحظ والنصيب هذه الدنيا الفانية .

أما الصنف الثاني : فيمثل أهل الآخرة الذين صحت موازينهم ، وربطوها بنظرتهم لهذه الدنيا وفنائها ، وبالآخرة ودوامها ، وأنها أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، فقالوا لقارون مقولتهم الكريمة : ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ... الآيات ﴾ .

كما ظهر هذا الميزان النظيف في نصيحة أهل العلم من قوم قارون لمن اغتر بزينة قارون فقالوا لهم : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ .

المثال الثاني : قصة موسى ﷺ مع سحرة فرعون :

وقد قص الله سبحانه هذه القصة في أكثر من سورة من القرآن ؛ في سورة الأعراف وطه والشعراء . والشاهد منها ما ذكره سبحانه عن موقف السحرة

قبل الإيمان بالله عز وجل والدار الآخرة، وموقفهم بعد إيمانهم بالله والدار الآخرة عندما ألقى موسى عليه السلام عصاه ورأوا الآيات الدالة على الإيمان بالله ورسوله، وقد ذكر الله عز وجل في كتابه موقفين لسحرة فرعون.

الموقف الأول قبل إيمانهم بالله والدار الآخرة ، فكانت موازينهم واهتماماتهم موازين الدنيا وزخرفها وفكرهم فيها وحدها . قال تعالى - عن حالتهم هذه - : ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢] ، فهمهم قبل الإيمان المنصب والأجر ، هذا كل اهتماماتهم .

أما بعد وضوح الحق وإيمانهم بالله سبحانه والدار الآخرة ، فكان لهم شأن آخر وميزان آخر ، ألا وهو ميزان الآخرة، والطمع في مغفرة الله والثواب الجزيل في جنات النعيم. قال تعالى عن موقفهم من فرعون عندما هددهم بالقتل والصلب بعد سجودهم لله تعالى : ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣] .

٩- الفوز برضا الله سبحانه وجنته والنجاة من سخطه والنار:

وهذه ثمرة الثمار ، وغاية الغايات ، ومسك الختام في مبحث الثمار ، قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ .

[آل عمران: ١٨٥]

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ :

« أي حصل له الفوز العظيم بالنجاة من العذاب الأليم ، والوصول إلى جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ومفهوم الآية : أن من لم يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، فإنه لم يفز ، بل قد شقي الشقاء الأبدي ، وابتلي بالعذاب السرمدي ، وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه ، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه ، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه»[1] اهـ.

اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد، أنت المنان، بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، ونسألك ألا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، يا حي يا قيوم ، يا أرحم الراحمين.

❋ ❋ ❋

(١) تفسير السعدي عند الآية رقم (١٨٥) من سورة آل عمران.

من الأسباب الجالبة لتذكر النبأ العظيم والاستعداد للآخرة

يكفي لتذكر النبأ العظيم وإنشاء همّ الآخرة في النفوس أن نتعرف على الثمار السابقة؛ ففيها الدافع القوي لمن وفقه الله عز وجل إلى الانتباه الدائم لرحلة الخلود الطويلة والتمهيد للمستقبل الأبدي السرمدي ، ومع ذلك فيحسن ذكر بعض الأسباب المعينة على تدارك زمن المهلة والانتباه من رقدة الغفلة ، فإذا انضم إلى ذلك صدق العزيمة وعلو الهمة نفعت بإذن الله عز وجل ، نسأله سبحانه أن ينفعنا بها . ومن هذه الأسباب ما يلي :

١ـ معرفة الله عز وجل وتوحيده والبصيرة في الدين :

كلما كان العبد أعلم بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته وبأحكامه وشريعته وبالطرق الموصلة إلى رضاه ، كلما كان أحرص على ما يقرب إلى الله سبحانه ، وكلما كان أكثر استعداداً للآخرة ، وكلما كان أعرف بما يرضي الله عز وجل فيفعله ، وما يصده عن الله والدار الآخرة فيتجنبه ويحذره ، وهذا من أعظم فوائد العلم الشرعي والبصيرة في الدين ، هذا إذا صاحب هذا العلم قوة في العمل والإرادة وعزيمة على ترجمة العلم إلى عمل .

وفي هذا الأمر يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ (باختصار) :

«السائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد ، لا يتم سيره ، ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين : قوة علمية ، وقوة عملية . فبالقوة العلمية

يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك ، فيقصدها سائراً فيها ، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة ، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره ، ويبصر بذلك النور أيضاً أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها؛ فلا يضل عنها ، فيكشف له النور عن الأمرين : أعلام الطريق، ومعاطبها وبالقوة العملية يسير حقيقة ، بل السير هو حقيقة القوة العملية ؛ فإن السير هو عمل المسافر .

وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها ، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح ، وبقي عليه الشطر الآخر ، وهو أن يضع عصاه على عاتقه ، ويشمر مسافراً في الطريق، قاطعاً منازلها منزلة بعد منزلة ، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى ، واستشعر القرب من المنزل ، فهانت عليه مشقة السفر . وكلما سكنت نفسه من كلال السير ، ومواصلة الشد والرحيل، وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول؛ فيحدث لها ذلك نشاطاً وفرحاً وهمة ، فهو يقول : يا نفس أبشري ، فقد قرب المنزل ، ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول ، فيحال بينك وبين منازل الأحبة ، فإن صبرت وواصلت المسير وصلت حميدة مسرورة جذلة، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات ، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة ، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من درج تلك الساعة ، فالله الله لا تنقطعي في المفازة؛ فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين.

فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها ، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ، ويكون ضعيفاً في القوة العملية : يبصر الحقائق ، ولا يعمل بموجبها ، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها ، فهو فقيهٌ ما لم يحضر العمل ، فإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف ، وفارقهم في العلم ، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم ، والمعصوم من عصمه الله، ولا قوة إلا بالله.

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية ، وتكون أغلب القوتين عليه ، وتقتضي هذه السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل ، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد والانحرافات في الأعمال والأقوال والمقامات ، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات ، فداء هذا من جهله ، وداء الأول فساد إرادته ، وضعف عقله. وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم . . .

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله ، ورُجي له النفوذ وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته ، فإن القواطع كثيرة ، شأنها شديد، لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين ، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها، ولكن الله يفعل ما يريد ، والوقت كما قيل : سيف فإن قطعته وإلا قطعك. فإذا كان السير ضعيفاً والهمة ضعيفة والعلم بالطريق ضعيفاً والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة - فإنه جهد البلاء ودرك الشقاء

وشماتة الأعداء ، إلا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب ، فيأخذ بيده ويخلصه من أيدي القواطع . والله ولي التوفيق»[1] اهـ.

٢ـ قراءة القرآن وتدبره والإكثار من ذكر الله تعالى وإدامته :

قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨] .

فالقرآن الكريم أكبر المواعظ ، وأنفعها للقلب ، وذلك لمن تدبره ووعاه ، قال سبحانه : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٧] .

والذي لا يتعظ بمواعظ القرآن ؛ فإنه مريض القلب ، ومن باب أولى ألا يتعظ بغيره . فالإكثار من قراءة القرآن وتدبر معانيه ومواعظه العظيمة من أكبر الأسباب الجالبة لإنشاء هَمِّ الآخرة والاستعداد لها ؛ لأن القرآن الكريم لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من ذكر اليوم الآخر وما فيه من الأهوال العظيمة والحساب والجزاء والجنة والنار ، كما أنه يتضمن ذكر الدنيا وفنائها والتحذير منها .

والحاصل أن الحياة مع القرآن ومواعظه ووعده ووعيده يجعل قلب المؤمن في استعداد دائم متصل بهذا اليوم المشهود ، كما يجعله حذراً من الدنيا وفتنتها ومتاعها الزائل . وإن مما يعين على تدبر القرآن والتأثر بمواعظه أن يكون ذلك في صلاة ، وبالذات في صلاة الليل الآخر ، قال تعالى :

(١) طريق الهجرتين ص ١٧٤ ـ ١٧٦ .

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [المزمل: ٦].

ومما يلحق بالقرآن ، كثرة ذكر الله تعالى في الصباح والمساء ، وفي أحوال اليوم والليلة لما في ذلك من تطرية للقلوب وعلاج لقسوتها ، فإذا رق القلب بذكر الله تعالى أثرت فيه مواعظ الآخرة وامتلأ بحب الله عز وجل وما أعد لأوليائه في الآخرة ، وعكس ذلك القلب القاسي البعيد عن ذكر الله عز وجل.

روى ابن أبي الدنيا : أن رجلاً قال للحسن : يا أبا سعيد ، أشكو إليك قسوة قلبي ، فقال : « ادنه من الذكر »[1] .

يضاف إلى ذلك ما تشتمل عليه بعض الأذكار من ذكر للآخرة والمصير إليها والاستعاذة فيها من شرورها ومن عذاب النار ، وما فيها من سؤال الجنة ونعيمها ؛ كل ذلك مما يذكر بالآخرة ، ويجعل العبد في منأى عن الغفلة والنسيان ما دام لسانه رطباً بذكر الله تعالى .

٣ـ الإكثار من ذكر الموت وزيارة القبور والمرضى :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أكثروا من ذكر هاذم اللذات: الموت**»[2]، وعن أبي هريرة أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) الرقة والبكاء ص٧٢ ، وكتاب الزهد للإمام أحمد (٢/ ٢٣٣).

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٠٨)، وقال : حسن غريب صحيح ، وصححه الألباني في المشكاة (١٦٠٧).

« **كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ؛ فإنها تذكركم الموت**»[١] . ففي الحديثين السابقين إشارة إلى أثر الموت وتذكره في الاستعداد للآخرة ، وعدم الركون إلى الدنيا ، وعدم الاغترار بلذاتها ومتعها ، فإنها زائلة عن قريب بهاذم اللذات ومفرق الجماعات .

ومما يذكر بالموت تشييع الجنائز وزيارة المقابر ، والسلام على الموتى ، والدعاء لهم ، ورؤية القبور المحفورة ، وتمثل الإنسان نفسه فيها ، وهو لا شك سيرقد فيها في يوم من الأيام .

كما أن في زيارة المرضى الذين أقعدهم المرض ، وقربهم من الآخرة مما يذكر أيضاً بالموت والاستعداد للآخرة بتدارك الصحة والعافية ، قبل أن يحال بين العبد وبين ذلك بالمرض أو الموت .

إنه لا شيء في الدنيا أفظع ولا أخطر من ساعة الاحتضار ؛ ولذلك فالحضور عند المحتضرين من أسباب رقة القلب وإنابته إلى الله والدار الآخرة .

ويصف ابن الجوزي ساعة الاحتضار فيقول :

« من أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته ، فإنه ينتبه انتباهاً لا يوصف ، ويقلق قلقاً لا يحد ، ويتلهف على زمانه الماضي ، ويود لو تُرِكَ كي يتدارك ما فاته ، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت ، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف ، ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال في أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوى ، فالعاقل من مثَّل تلك الساعة

(١) أصله في مسلم / ك الجنائز (٩٧٦).

وعمل بمقتضى ذلك »[١] .

٤ـ محاسبة النفس في تقصيرها والتفكر في حقيقة الدنيا وزوالها:

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر : ١٨] .

وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وعن ثابت بن الحجاج قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم وزنوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ »[٢] .

إن من أقوى الأسباب المعينة ـ بإذن الله تعالى ـ على تدارك العمر وتذكر الآخرة والاستعداد لها محاسبة النفس ومجاهدتها ، وتدارك العمر القصير قبل حلول الأجل ، والنظر في سرعة زوال الدنيا وفنائها ، والتفكر في الآخرة وبقائها .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« من حين استقرت قدمه في هذه الدار ، فهو مسافر فيها إلى ربه ، ومدة

---

(١) صيد الخاطر ١٤٦ .

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ، ت : عبد الله الشرقاوي ص ٣٣ ، وقال المحقق : سند الأثر صحيح .

سفره هي عمره الذي كتب له ، فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه ، ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل ، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة ، حتى ينتهي السفر.

فالكيس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه ، فيهتم بقطعها سالماً غانماً ، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه ، ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه ، ويمتد أمله ، ويحصر بالتسويف والوعد والتأخير والمطل ، بل يعدّ عمره تلك المرحلة الواحدة فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته ، فإنه إذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل ، فطوعت له نفسه الانقياد إلى التزود ، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك، فلا يزال هذا دأبه حتى يطوي مراحل عمره كلها فيحمد سعيه ، ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته ، فإذا طلع صبح الآخرة وانقشع ظلام الدنيا فحينئذ يحمد سراه وينجاب عنه كراه ، فما أحسن ما يستقبل يومه ، وقد لاح صباحه واستبان »[1] .

ويوضح رحمه الله تعالى ما يعين على المحاسبة فيقول :

« ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً ، إذا صار الحساب إلى غيره ، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً ، ويعينه عليها أيضاً معرفته أن ربح هذه التجارة سُكنى الفردوس ، والنظر إلى وجه الرب سبحانه. وخسارتها دخول النار

(١) طريق الهجرتين ص١٧٦ .

والحجاب عن الرب تعالى ، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم ؛ فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها ، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة ، لاحظ لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز ، لا يتناهى نعيمه أبد الآباد ، فإضاعة هذه الأنفاس ، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه : خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً ، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن »[1] اهـ.

ويتحدث الغزالي رحمه الله تعالى عن إطالة التفكير في الدنيا وفنائها وأثر ذلك في الاستعداد للآخرة ، فيقول :

« ولا يسلم الناس من أهوال يوم القيامة إلا من طال فيها فكره في الدنيا ، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ، ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عيناك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب ، وتعود إلى لهوك ولعبك ، فما هذا من الخوف في شيء ، بل من خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا شيئاً طلبه ، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته ، وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة ، فقال أحدهم : استعنت بالله ، اللهم سلِّم سلِّم ، وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم ، فالشيطان يضحك من استعاذتهم ، كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٨٠ ، ٨١) .

حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بُعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين ، وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه ! فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه ، فأنَّى يغني عنه ذلك من السبع ؟!

وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول: لا إله إلا الله صادقاً ، ومعنى صدقه ألا يكون له مقصود سوى الله تعالى ، ولا معبود غيره ، ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره خطر في نفسه »[1] .

ويبين الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أثر النظر والتفكير في إيثار الآخرة على الدنيا ، فيقول : « لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين :

النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها ، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها ، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد ، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف ، فطالبها لا ينفك من همٍّ قبل حصولها ، وهمٍّ في حال الظفر بها، وغمٍّ وحزن بعد فواتها ، فهذا أحد النظرين .

النظر الثاني : في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بُدَّ ،ودوامها وبقائها ، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات والتفاوت الذي بينه وبين ما هاهنا ، فهي كما قال سبحانه : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٧] .

فهي خيرات كاملة دائمة ، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة . فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقلُ إيثاره ، وزهد فيما يقتضي الزهد

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٦٥٢).

فيه»[١] .

ويبقى في هذه الفقرة إتحاف القارئ بنماذج من محاسبة السلف لأنفسهم، وأخرى من حثهم على محاسبة النفس وما تنطوي عليه من تقصير وتفريط .

أ ـ عن إسحاق بن إبراهيم أنه سمع سفيان بن عيينة يقول : « قال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمرها وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها ، ثم مثّلت نفسي في النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلت لنفسي : أي نفسي ، أي شيء تريدين ؟ قالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً ، قال : قلت : فأنت في الأمنية فاعملي »[٢] .

ب ـ وقال ميمون بن مهران : « لا يكون العبد تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه ؛ ولهذا قيل : النفس كالشريك الخوّان ، إن لم تحاسبه ذهب بمالك »[٣] .

جـ ـ وقال الحسن : « المؤمن قوّام على نفسه ، يحاسب نفسه لله ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .

إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه ، فيقول : والله إني لأشتهيك ، وإنك

---

(١) الفوائد ص١٧٧ .

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا . ت: عبد الله الشرقاوي ، وقال المحقق عن الأثر : رجاله ثقات ص ٣٩ .

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٧٩).

لمن حاجتي ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات هيهات . حيل بيني وبينك ، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه ، فيقول : ما أردت إلى هذا ؟ مالي ولهذا ؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً .

إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ؛ يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذ عليه في ذلك كله »[1] .

د ـ وقال مالك بن دينار : « رحم الله عبداً قال لنفسه : ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم زمها ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل، فكان لها قائداً »[2] .

هـ ـ وهذه صورة من صور المحاسبة في حوار مع النفس الأمارة بالسوء يصورها الشيخ السعدي رحمه الله تعالى ، فيقول:

« ويحك يا نفس! إذا أردت أن تعصي الله فلا تستعيني بنعمه على معاصيه، فإن المعصية لا تتأتى إلا من القوة والعافية ، ومَن الذي أعطاها ؟ ولا تتحرك إلا من توالي الشبع ، ومَن الذي يسر الأقوات وآتاها ؟ ولا تكون في العادة إلا بخلوة من الخلق ، ومَن الذي أسبل عليك حلمه وستره ؟ ولا تقع إلا بنظره إليك ، فإياك أن تستخفي باطلاعه وعلمه .

أما تعلمين يا نفس أن من جاهد نفسه عن المعاصي وألزمها الخير ، فقد

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٠٣).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٧٩) .

سعى في سعادتها وقد أفلح من زكاها ، وأن من أطاع نفسه على ما تريد من الشر ، فقد تسبب لهلاكها ودساها ؟!

ويحك يا نفس! كم بيني وبينك في المعاملة ، أنت تريدين هلاكي ، وأنا أسعى لك بالنجاة ، وأنت تحيلين عليَّ بكل طريق يوقع في المضار والشرور ، وأنا أجتهد لك في كل أمر مآله الخير والراحة والسرور ، فهلمي يا نفس إلى صلح شريف يحتفظ كلٌ منا على ما لَهُ من المرادات والمقاصد ، ونتفق على أمر يحصل به للطرفين أصناف المصالح والفوائد .

دعيني يا نفس أمضي بإيماني متقدماً إلى الخيرات ، متجراً فيه لتحصيل المكاسب والبركات ، دعيني أتوسل بإيماني إلى من أعطاه أن يتمه بتمام الهداية ، وكمال الرحمة ، وأكمل ما نقص منه ، لعل الله أن يتم علي وعليك النعمة ، ولئن تركتيني وشأني لم تعترضي عليَّ بوجه من الوجوه ؛ لأعطينك كلَّ ما تطلبينه من المباحات ، وكل ما تؤمله النفوس وترجوه ، ولئن تركتيني وشأني لأوصلنك إلى خيرات ولذات طالما تمناها المتمنون ، وطالما مات بحسرتها قبل إدراكها الباطلون .

يا نفس ، أما تحبين أن تُنقلي من هذا الوصف الدنيء إلى أوصاف النفوس المطمئنة التي اطمأنت إلى ربها ، وإلى ذكره ، واطمأنت إلى عطائه ومنعه ، واطمأنت في جميع تدبيره ، واطمأنت إلى توحيده والإيمان به حتى سلاها عن كل المحبوبات ، واطمأنت إلى وعده حتى كانت هي الحاملة للعبد على الطاعات المزعجة له عن المعاصي والمخالفات . فلا يزال المؤمن مع نفسه في محاسبة ومنافرة حتى تنقاد لداعي الإيمان ، وتكون ممن يقال لها عند الانتقال من هذه الدار : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ

رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] »[١] .

و ـ وأختم موضوع المحاسبة وأثره في اليقظة وتدارك العمر بمحاسبة ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ لنفسه ، فيقول :

« تفكرت في نفسي يوماً تفكر محقق ، فحاسبتها قبل أن تحاسب ، ووزنتها قبل أن توزن ، فرأيت اللطف الرباني ، من بدء الطفولة وإلى الآن ، أرى لطفاً بعد لطف ، وستراً على قبيح ، وعفواً عما يوجب عقوبة ، وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان .

ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعاً ، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت ، ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب ، حتى يظن فيَّ ما يظن في الفساق ، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي ، وقعت بتأويلات فاسدة ، فصرت إذا دعوت أقول : اللهم بحمدك وسترك عليَّ اغفر لي ، ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي ، ثم أنا أتقاضى منه مراداتي ولا أتقاضى نفسي بصبر على مكروه ، ولا بشكر على نعمة ، فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم ، وكوني أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به .

وقد كنت أرجو مقامات الكبار فذهب العمر وما حصل المقصود ، فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما نحت فأعجبتني نياحته فكتبتها هاهنا ، قال لنفسه : يا رعناء تقوِّمين الألفاظ ليقال: مناظر . وثمرة هذا أن يقال : يا مناظر كما يقال للمصارع الفاره . ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء ، وهي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم مناظر ، ثم

(١) الفتاوى السعدية ص ٥٩ .

ينسى الذاكر والمذكور إذا درست القلوب ! هذا إن تأخر الأمر إلى موتك ، بل ربما نشأ شاب أفره منك فموهوا له وصار الاسم له. والعقلاء عن الله تشاغلوا بما إذا انطووا نشرهم وهو العمل بالعلم ، والنظر الخالص لنفوسهم، أف لنفسي ، وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم وما عبق بها فضيلة ، إن نُوظرت شَمَخَتْ ، وإن نُوصحتْ تَعَجْرفت ، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طَيران الرخم ، وسقطت عليها سقوط الغراب على الجيف، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة ، توفر في المخالطة عيوباً تبلى ، ولا تحتشم نظر الحق إليها. وإن انكسر لها غرض تضجرت ، فإن امتدت بالنعم اشتغلت عن المنعم.

أف والله مني ، اليوم على وجه الأرض وغداً تحتها ، والله إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي وأنا بين الأصحاب ، والله إنني قد بهرني حلم هذا الكريم عني ، كيف سترني وأنا أتهتك ، ويجمعني وأنا أتشتت ؟! وغداً يقال : مات الحبر العالم الصالح ، ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي ما دفنوني ، والله لأنادين على نفسي نداء المتكشفين معائب الأعداء ، ولأنوحن نوح الثاكلين إذ لا نائح لي ينوح عليَّ لهذه المصائب المكتومة ، والخلال المغطاة التي قد سترها من خبرها ، وغطاها من علمها .

والله ما أجد لنفسي خلة أستحسن أن أقول متوسلاً بها : اللهم اغفر لي كذا بكذا ، والله ما التفت قط إلا وجدت منه ـ سبحانه ـ براً يكفيني ووقاية تحميني مع تسلط الأعداء ، ولا عرضت حاجة فمددت يدي إلا قضاها . هذا فعله معي وهو رب غني عني، وهذا فعلي وأنا عبد فقير إليه، ولا عذر لي،

فأقول : ما دريت أو سهوت ، والله لقد خلقني خلقاً صحيحاً سليماً ، ونور قلبي بالفطنة ، حتى أن الغائبات ـ والمكتومات تنكشف لفهمي .

فواحسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضا ، واحرماني لمقامات الرجال الفطناء ، ياحسرتى على ما فرطت في جنب الله ، وشماتة العدو بي ، واخيبة من أحسن الظن بي إذا شهدت الجوارح عليَّ ، واخذلاني عند إقامة الحجة ، سخر والله مني الشيطان ، وأنا الفطن . اللهم توبة خالصة من هذه الأقذار ، ونهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار ، وقد جئتك بعد الخمسين ، وأنا من خَلَق المتاع ، وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم ، وليس لي وسَيلَة إلا التأسف والندم ، فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك ، ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك ، فاغفر لي سالف فعلي»[1] اهـ.

٥ ـ الاعتكاف وترك فضول الاختلاط :

ومما يعين على مجاهدة النفس ، وإنشاء همّ الآخرة فيها إحياء سنة الاعتكاف ، وخاصة في العشر الأواخر من رمضان ، ففي الاعتكاف تحصل للعبد منافع عظيمة منها :

أ ـ التفرغ للنفس ومحاسبتها ، وتفقد أخطائها ومثالبها ومعاصيها في ماضي حياتها ، وأثر ذلك في صدق التوبة وتطامن النفس وتواضعها ، وذلك عندما يعلم المحاسب لنفسه أنها كلها عورة وضعف وخطيئة .

ب ـ الشعور الشديد بالفاقة والفقر إلى الله عز وجل والضرورة القصوى

---

(١) صيد الخاطر ص ٤٦٤ .

لإعانته وإغاثته وتوفيقه ، والشعور بخطر الاعتماد على النفس والثقة المفرطة بها .

جـ- فراغ القلب في الاعتكاف من مشاغل الدنيا ومشاكلها ، وأثر ذلك في ملء القلب بذكر الله عز وجل والإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور .

د- الحياة مع كلام الله عز وجل والعيش مع كتابه العزيز ، وما يحوي من ذكر للآخرة وما فيها ، وذكر أنبيائه وأوليائه ، وأثر ذلك في محبتهم والشوق إلى مصاحبتهم والتأسي بهم ، وبما أصابهم في سبيل الله عز وجل وكيف صبروا وصابروا مع ما في القرآن من ذكر الله عز وجل وأسمائه وصفاته ، والأجر العظيم في تلاوته والقيام به آناء الليل وأطراف النهار .

هـ- الانقطاع عن الناس وقلة الاتصال بهم وبكلامهم ، وأثر ذلك في صفاء القلب وتقبله للمواعظ والزواجر مع ما في ذلك من ترك لآفات اللسان التي قل من يسلم منها .

و- في الاعتكاف نقلة من حياة الترف مع الأهل والأولاد في المساكن المترفة والفرش الناعمة إلى حياة الاعتزال والمسكنة والفراش الخشن والأكل القليل ، وهذا بدوره يؤثر في حياة المعتكف ونظرته للدنيا ، مع ما يصاحب ذلك من النوم القليل ، فكل ذلك يؤدي بإذن الله تعالى إلى تقوية العزيمة وتنشيط النفس ؛ لأن النفس تثقل مع كثرة الفضول من الطعام والنوم والكلام والخلطة .

ز- في الاعتكاف فرص للاستزادة من الصالحات كنوافل الصلاة ،

والذكر ، وقراءة القرآن ، لوجود التفرغ التام .

ح ـ في الاعتكاف وحبس النفس في مكان معين مجال لتربية النفس على الصبر والمصابرة واكتشاف قوة التحمل والصبر عند النفس ، وفي هذا ترويض للنفس وتوطئة لها على النقلات المفاجئة ـ نسأل الله عز وجل العافية والثبات ـ كما أن في ذلك تذكراً للصلحاء المبتلين الذين يمضون في معتقلاتهم الأشهر والسنوات فيتوجه بالدعاء لهم بالتثبيت وسؤال الفرج لهم .

ط ـ كما أن في جلوس المعتكف في خلوته ورؤيته نفسه وحيداً بعد أن ينفضّ الناس ويرجعوا إلى بيوتهم ، إن في ذلك أثراً بالغاً في تذكر ذلك اليوم ، الذي يوضع فيه العبد في قبره وحيداً فريداً ، بعد أن يرجع عنه مشيعوه إلى أهليهم وبيوتهم ، وهذا له أثر في تذكر الموت والقبر ووحشته مما يعود بالفائدة على النفس بالاستعداد لهذا المصرع ، وسؤال الله عز وجل حسن الخاتمة ، وهذا كله يربي على الزهد في الدنيا ، وأنها ظل زائل ومتاع الغرور .

ي ـ في الانقطاع عن الأهل والأولاد في المعتكف مع الشوق إليهم ؛ تذكير بالموت والانقطاع الطويل عنهم ، وهذا بدوره ينعكس على بذل الجهد في إصلاح النفس والأهل ، لعل الله عز وجل أن يجمع الشمل في جنات النعيم ، التي لا ينفد نعيمها ولا يفترق أهلها .

ك ـ في الاعتكاف تعود على أعمال فاضلة يحصل فيها التفريط غالباً عند الكثير كأداء السنن الرواتب ، والصف الأول ، والطمأنينة في الصلاة ، وأداء الأذكار جميعها ؛ وذلك لعدم المشاغل والمشاكل التي تصرف المصلي

عن هذه الفضائل أو بعضها ، ولعلها أن تكون ديدنه بعد الخروج من المعتكف .

ل ـ في الاعتكاف يحصل محاسبة النفس في علاقتها بالخلق وحقوقهم ، بداية من الوالدين والأقارب والتقصير الحاصل نحوهم ، وكذلك حقوق الآخرين ، وماذا يحمل في القلب نحوهم ، هل هو النصح والمحبة أم الغش والحقد والحسد . وأكتفي بهذا القدر من منافع الاعتكاف ، ذكرته هنا بمناسبة الحديث عن محاسبة النفس .

٦ـ مصاحبة أهل الخير الذين تذكر رؤيتهم وكلامهم الآخرة ، والقراءة في سير الزاهدين من السلف :

قال الله عز وجل : ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف : ٢٨] .

هذه وصية الله عز وجل لنبيه ﷺ ولأمته من بعده ، وما ذاك إلا لما يكون من أثر الصالحين الذين إذا رُءُوا ذُكرَ الله عز وجل وذُكِرَتْ الآخرة ، وهذا واقع ومجرب ، فما أن يعش المسلم بين أهل الخير ويستمع إلى مواعظهم ويرى سمتهم وأخلاقهم إلا ويتأثر بهم ، ويتأسى بفعالهم الطيبة، وتبقى الآخرة في ذهنه دائماً ، والعكس من ذلك فيمن يصاحب أهل الدنيا الغارقين في لجحها ، والغافلين عن النبأ العظيم ؛ حيث يظهر أثر هذه المصاحبة في قسوة القلب ونسيان الآخرة ، وبالتالي ضعف الاستعداد لها أو عدمه ، وإن هذا الأمر ليتأكد في زماننا هذا أكثر من أي وقت مضى ؛ وذلك لانفتاح الدنيا وانصباب الناس إليها والسعار المحموم

حول حطامها .

كل ذلك يؤكد ضرورة الحذر من أهلها وضرورة الالتصاق بأهل الصلاح والزهد والإصلاح ،والمعايشة المستمرة معهم ، والإكثار من سماع المواعظ والقراءة في كتب الوعظ وسير الصالحين والزاهدين من سلف هذه الأمة ،وألا يكتفي بالزيارات المتفرقة أو القراءة المتفرقة ، فإن فائدتها في هذا الزمان قليلة ؛ فالنفس إن لم يتوالَ عليها الوعظ والتذكير فإنها تلهو وتنسى مع الوقت إذا طال بعدها عن ذلك .

وهذا ما يوضحه ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كون المواعظ يزول أثرها بعد إلقائها ، ولا يستمر ذلك الأثر في النفس طويلاً - يقول رحمه الله تعالى - : « قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة ، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القسوة والغفلة ، فتدبرت السبب في ذلك فعرفته ، ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك ، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفة واحدة من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدها ، لسببين :

أحدهما : أن المواعظ كالسياط ، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها إيلامها وقت وقوعها .

والثاني : أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مُزاح العلة ، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا ، وأنصت بحضور قلبه ، فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاتها ، وكيف يصح مع تلك الجواذب أن يبقى كما كان ؟!»[1] اهـ.

---

(١) صيد الخاطر ص ١١ .

٧- دعاء الله عز وجل واللجوء إليه والاستعانة به سبحانه :

إن الخير كله والتوفيق كله بيد الله عز وجل ، فما أفلح عبد ونجا من فتنة الدنيا وأناب إلى الآخرة إلا بتوفيق الله سبحانه وإعانته ، وعلى هذا فإن سؤال الله عز وجل والتضرع إليه سبحانه ، واللجوء إليه من أعظم الأسباب وأنفعها للعبد في توفيقه وفلاحه ، والعبد هالك ومخذول إن وُكل إلى نفسه أو إلى عمله الضعيف .

وهذا سيد العارفين والخائفين والراجين محمد ﷺ يقول : « **لن يُدخل الجنة أحداً عملُهُ** » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته** »(١) .

والأدعية الواردة في سؤال التوفيق إلى عمل الآخرة ونعيمها كثيرة ، منها قوله ﷺ : « **اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر** »(٢) ، ومنها قوله ﷺ : « **ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي** »(٣)، وقوله ﷺ : «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، اللهم أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفه عين أبداً** »(٤) .

وهذه الأدعية على سبيل المثال لا الحصر ، والمقصود التنبيه إلى دعاء الله

(١) البخاري في الرقاق (٦٤٦٧).
(٢) مسلم (٢٧٢٠) في الذكر والدعاء .
(٣) جزء من دعاء رواه الترمذي وحسنه (٣٤٩٧) كتاب الدعوات .
(٤) رواه الحاكم (١/ ٥٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٢٠).

سبحانه واللجوء إليه في الوصول إلى رضاه وجنته ، والنجاة من سخطه والنار .

* * *

الخاتمة

نسأل الله عز وجل حسن الخاتمة ، ونسأله سبحانه أن يجعل خير أعمارنا آخرها ، وخير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم نلقاه . ثم إنه يطيب لي في ختام هذا الموضوع المهم أن أتوجه ببعض الكلمات إلى ثلاث فئات من الناس هي التي تتألف منها مجتمعات المسلمين اليوم ، ولا يكاد يخرج فرد من الأفراد عنها ، وهذه الفئات هي :

١ ـ الفئة المصلحة الداعية إلى الخير .

٢ ـ الفئة المفسدة الداعية إلى الشر .

٣ ـ الأتباع والمقلدة .

الفئة الأولى : الفئة المصلحة الداعية إلى الخير :

وهؤلاء هم أشراف المجتمع وأحسنهم قولاً وأثراً على الناس ، وأنبلهم غاية وأسماهم هدفاً ، وهؤلاء هم الذين عناهم الله عز وجل بقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

[فصلت : ٣٣]

وقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وقوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ

السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وهم الذين عناهم الرسول ﷺ بقوله: « **ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى**»[1].

وإلى إخواني هؤلاء أوجه هذه الكلمات بمناسبة الحديث عن النبأ العظيم:

١ ـ اعلموا أنكم سادة المجتمعات وأشرافها بحق، وكيف لا وأنتم تحملون أعظم رسالة وأنبل غاية، ألا وهي تعبيد الناس لرب العالمين، وإخراجهم بإذن الله تعالى من الظلمات إلى النور، كيف لا وأنتم تضحون بأوقاتكم وأموالكم وراحتكم في سبيل إنقاذ أنفسكم وإنقاذ الناس من عذاب الله تعالى في الدنيا وعذابه الأليم في الآخرة، أي غاية أشرف وأنبل من هذه الغاية؟!

٢ ـ ولما كان هذا العمل بهذه المنزلة فالله الله أن يضيع سدى أو يصير هباءً بنزغة شيطان أو هوى نفس يلوثان العمل برياء أو إرادة دنيا فانية، أو ابتداع في الدين بما لم يأذن به الله سبحانه؛ إنه يمتنع صدور هذه الأمراض من عبد أيقن بالنبأ العظيم، وأيقن بيوم الحسرة الذي يتحسر فيه العبد على كل عمل لم يخلص فيه لله عز وجل، ولم يتابع فيه الرسول ﷺ.

وإن ذلك ـ والله ـ لكائن في يوم التناد ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [القصص: ٦٥]، ويا سعد من كان جوابه: أجبناهم بالاتباع والانقياد وعدم الابتداع، ويا خيبة وخسارة من كان حاله، كما قال تعالى:

(١) مسلم في كتاب الإمارة (١٩٢٠). والروايات في هذا المعنى كثيرة جدًا في الصحيحين وغيرهما.

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [القصص: ٦٦].

٣ ـ وإن مما يحافظ على شرف الغاية في الدنيا وعظم الجزاء في الآخرة سلامة الصدور ووحدة الكلمة ونبذ الفرقة والاختلاف ؛ لأن مما يضعف أثر أهل الخير على الناس تفرقهم ومنابذة بعضهم لبعض؛ لأنهم بذلك ينشغلون بأنفسهم عن دعوة الناس كما أن الناس تضعف ثقتهم بأهل الخير إذا رأت ما بينهم من الأحقاد والإحن.

فالله الله في دعوة الله عز وجل، والله الله في العمل الصالح أن يضيع هباءً منثوراً في يوم الفاقة والحاجة ، يوم يكون العبد في أمسِّ الحاجة إلى حسنة واحدة يثقل بها ميزانه ؛ إنه لا يمكن لمن أيقن بيوم الجزاء والحساب والوقوف بين يدي الديان عز وجل أن ينفق العمر القصير في قيل وقال وأحقاد وأضغان وافتراق على أمور يسعها الاختلاف والاجتهاد ، وبقدر ما يكون من هذه الأمراض في النفوس بقدر ما يؤخر عجلة الدعوة ، ويفتح المجال للفئة المفسدة لتبث سمومها في الناس وتجرهم إلى الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة .

٤ ـ وإن من أخطر ما تفرزه الفرقة والاختلاف بين أهل الخير الظلم والعدوان والانتصار للنفس وحظوظها بتأويل ، وأحياناً بدون تأويل ، وينبغي لمن أيقن بيوم الفصل وأيقن بيوم التلاق يوم أن يلتقي الظالم بالمظلوم والجائر بالمجور عليه أن يحسب لهذا المقام حسابه ، وألا يتكلم إلا بعلم وعدل، وأن يراعي حرمة مال المسلم وعرضه وجميع حقوقه قبل أن يأتي يوم القصاص ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقبل أن يتولى الحكَمُ

العدلُ الفصلَ بين الخصوم ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١] .

٥ ـ إن اليقين باليوم الآخر وأهواله واليقين بالتبعة الفردية المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٥] ؛ إن ذلك كله يفرض على الفئة المصلحة أن يكون الحق رائد كل فرد فيها ، وهذا بدوره يخلص من الحزبية المقيتة ولوثاتها ، وما فيها من التعصب للأشخاص أو الهيئات ، فكل هؤلاء لا ينفعون عند الله عز وجل إذا لم يكن الحق هو الرائد والموجه للجميع .

وهذا يؤكد على الفئة المصلحة والداعية إلى الخير أن تربط الناس والأتباع بالدليل الصحيح من الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح لا بآراء الرجال وعقولهم ، وهذا لا يعني التنقص لأهل العلم والدعوة وعدم تقديرهم ، كلا ؛ فلهم التقدير والمحبة والإجلال ، ولكن فرق بين التقدير والتقديس .

٦ ـ بما أن من سنة الله عز وجل ابتلاء أوليائه بأعدائه ليبلي المؤمن بلاء حسناً ، فإن مما يثبت به الله عباده المؤمنين ودعاته الصادقين أن يرزقهم الإنابة إلى دار الخلود رجاء ثواب الله عز وجل ، وأن الله تعالى ليس بغافل عن الظالمين ، فهناك يوم القصاص الأعظم ، وذكر هذا اليوم مما يصبِّر به الله سبحانه دعاته المصلحين . وكلما كان ذكر هذا اليوم العظيم في ذهن الدعاة أكثر ؛ كلما كان صبرهم وتضحيتهم أعظم وأكبر ، وهذا يقود إلى مسألة أخرى وهي :

٧ـ أن ينتبه أهل الخير والإصلاح إلى دور اليوم الآخر والتذكير به دائماً في تربية النفوس وتهذيبها ، وأن يعنوا به عناية كبيرة في البرامج التعليمية والمناهج الدعوية ، بل ينبغي أن تربط جميع المناهج على اختلافها باليوم الآخر وأعمال القلوب، حتى يكون للمناهج أثرها العملي والتعبدي والأخلاقي ، وينبغي ألا يلتفت إلى من يقلل من شأن الحديث في اليوم الآخر والوعظ بأيامه وأهواله بحجة أنه كلام وعظي أو عاطفي أو إنشائي .

إن هذا غلط كبير وتفريط عظيم في رافد عظيم من روافد التربية والتزكية، هذا وإن كان قصد ذلك المقلل الإشارة إلى أهمية العلم والتأصيل والاستدلال ، وليس هو التهوين من ذلك اليوم العظيم ، إلا أنه ينبغي التنبيه إلى أن العلم والتأصيل والاستدلال ينبغي أن يربط ذلك كله بتعظيم الله عز وجل وعبادته والاستعداد بالعلم والعمل للدار الآخرة ، وهذا لا يتأتى إلا أن يقوم أهل العلم والتوجيه والإرشاد إلى صبغ دروسهم وحلقات تعليمهم بهذا الأمر سواء كان العلم في العقيدة، أو في الفقه وأصوله، أو الحديث ومصطلحاته، أو السيرة والتاريخ . . . إلخ .

الفئة الثانية : الفئة المفسدة الداعية إلى الشر والصادة عن الخير :

وهؤلاء هم سفلة المجتمع وهم أراذل الناس لأنهم خانوا ربهم ، وخانوا أمتهم ، وظلموها ، وعرضوا الناس للشقاء والنكد في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة ، وهؤلاء هم الذين عناهم الله عز وجل في كتابه الكريم بقوله : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٣] .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: « ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم، واشتد طغيانهم ﴿ لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل وأتباعهم بالقول والفعل. وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم؛ لأنهم يمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين.

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم، يناضلون هؤلاء المجرمين، ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله، ويسدد رأيهم، ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم، حتى يدول الأمر في عاقبته، بنصرهم وظهورهم، والعاقبة للمتقين»[(١)] .

وبمناسبة الحديث عن اليوم الآخر وأهوال النبأ العظيم أوجه الكلمات التالية لأهل هذه الفئة لعل الله عز وجل أن ينفعهم بها:

١ ـ أذكركم بموعظة الله تعالى؛ إذ يقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا... الآية ﴾ [سبأ: ٤٦].

فماذا عليكم لو قام كل فرد منكم مع نفسه أو مع صاحبه، ثم فكرتم فيما أنتم عليه من فساد وصد عن سبيل الله عز وجل، هل أنتم مقتنعون بما تفعلون وبما تتسببون به على أمتكم من الشرور؟ وهل هذا يرضي الله تعالى، ويجلب النعيم لكم في الآخرة؟ إنكم إن قمتم لله عز وجل متجردين مثنى أو فرادى، وفكرتم في ذلك؛ فإن الجواب البدهي هو أن الفساد والإفساد لا

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (١٢٣) من سورة الأنعام.

يحبه الله عز وجل، بل يمقته ، ويمقت أهله ، وسيأتي اليوم الذي يمقت فيه أهل الفساد أنفسهم ، ويتحسرون على ما فرطوا وضيعوا وأفسدوا ، وذلك في يوم الحسرة ؛ حيث لا ينفع التحسر ولا التندم .

إن الذي يكره الخير وأهله وينشر الفساد ويصد عن سبيل الله تعالى إنما هو بين أمرين لا ثالث لهما : إما أنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، وما الحياة عنده إلا هذه الدنيا ، فهو يسعى ليجمع فيها ويظلم ويبطش ؛ لأنه لا يرجو اليوم الآخر ولا يخافه ، فهذا كافر مرتد ، وإن كان يخفي هذا الكفر ، فهو منافق زنديق ، أو أنه يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولكن الدنيا وزخرفها ومناصبها أسكرت عقله ولبه ، فأصبح في غفلة شديدة عن الآخرة ونعيمها وعذابها حتى استمرأ الفساد وصارت الدنيا أكبر همه ؛ يلهث وراءها ، ويجمع حطامها ، ولو كان عن طريق الفساد والإفساد ، ومثل هذا الذي يؤمن بالآخرة ولكنه في غفلة شديدة عنها ، مثل هذا لا عقل له كما أن الأول لا إيمان له ، وقد يخسر إيمانه في النهاية .

والحاصل أن تتداركوا ما بقي من عمركم في التوبة إلى الله عز وجل قبل حلول الأجل؛ حيث لا ينفع الندم ، واعتبروا بمن ذهب ممن هو على شاكلتكم بدون توبة ، وماذا بقي له من الذكر في هذه الحياة الدنيا . قارنوا من مات من أهل الخير والصلاح كشيخ الإسلام ابن تيمية ، وقبله الإمام أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة ، وبعده الإمام محمد بن عبد الوهاب ، رحم الله الجميع ؛ لقد بقي ذكرهم عند الناس كأنهم لم يموتوا مع ما نرجو لهم من الأجر العظيم في الآخرة ، قارنوا هؤلاء بمن مات من أهل الشر والإفساد الذين لم يبق لهم ذكر البتة ، لا بل بقي الذكر السيئ ولعنات الأمة

تلاحقهم عند ذكرهم ، مع ما يخشى عليهم من عذاب الله سبحانه يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فأي الفريقين أشرف وأهدى سبيلاً ؟

٢ ـ نذكركم بيوم الحسرة والندامة يوم يتبرأ منكم الأتباع وتتبرءون من الأتباع ، ولكن حين لا ينفع الاستعتاب ولا التنصل ولا التبرؤ ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣٣] .

نذكركم بالأثقال العظيمة التي ستحملونها يوم القيامة من أوزاركم وأوزار الذين تضلونهم بغير علم إن لم تتوبوا، قال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت:١٣] ، وقال عز وجل : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥] .

٣ ـ لما كان الظلم قرين الفساد والإفساد ، فإنه جدير بالظالمين الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أن يتذكروا يوم الفصل والحساب ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥٢]، ليتذكر الظالمون هذا اليوم المشهود الذي يقتص فيه الحكم العدل من الظالمين للمظلومين. ليتذكروا هذا اليوم العظيم إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر ما داموا في دار الدنيا، دار التوبة والاستعتاب ، فو الله إن للظالم ليوماً ينكشف فيه الغطاء ويعض فيه على يديه من الخزي والحسرة.

وإن في كتاب الله عز وجل لغنية عن أي كلام وكفاية عن أي موعظة ، قال جل وعلا : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ

تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣]، وإن الظالمين جميعهم ، رئيسهم ومرءوسهم، تابعهم ومتبوعهم، لهم يوم مشهود ويوم عصيب ؛ يوم يلعن بعضهم بعضاً ، ويحيل التبعة بعضهم على بعض ، ولكن حين لا يجدي لهم ذلك إلا الخزي والبوار.

٤ ـ إن لم يجد واعظ الله سبحانه والدار الآخرة فيكم شيئاً فلا أقل من أن يوجد عندكم بقية مروءة وحياء تمنعكم من إفساد أخلاق الأمة ، والوقوف في وجه المصلحين الداعين إلى معالي الأمور والأخلاق .

إن المتأمل لحال المفسدين في الأرض اليوم ليأخذه العجب والحيرة من أمرهم! فما لهم وللمرأة الحيية التي تقر في منزلها توفر السكن لزوجها وترعى أولادها ، ماذا عليهم لو تركوها في هذا الحصن الحصين تؤدي دورها الذي يناسب أنوثتها وطبيعتها . ماذا يريدون من عملهم هذا ؟!

ثم ماذا عليهم لو تركوا أولاد المسلمين يتربون على الخير والدين والخصال الكريمة ؟ ماذا يريدون من إفسادهم وتسليط برامج الإفساد المختلفة عليهم ؟ هل يريدون جيلاً منحلاً يكون وبالاً على مجتمعه ذليلاً لأعدائه عبداً لشهواته؟ إن هذه هي النتيجة . وإن من يسعى لهذه النتيجة الوخيمة التي تتجه إليها الأسر المسلمة اليوم لهو من أشد الناس خيانة لمجتمعه وأمته وتاريخه .

إن من عنده أدنى مروءة ونخوة ـ فضلاً عن الدين والإيمان ـ لا يسمح لنفسه أن يكون من هؤلاء الخونة المفسدين ، وما ذكر من إفساد الأسرة إنما

هو على سبيل المثال لا الحصر.

فيا من وصلوا إلى هذا المستوى من الهبوط والانتكاس توبوا إلى ربكم، وفكروا في غايتكم ومصيركم، واعلموا أن وراءكم أنباء عظيمة وأهوالاً جسيمة تشيب لها الولدان، وتشخص فيها الأبصار، فإن كنتم تؤمنون بهذا فاستيقظوا من غفلتكم وراجعوا أنفسكم، والله جل وعلا يغفر الذنوب جميعاً، وإن كنتم لا تؤمنون بذلك فراجعوا دينكم، وادخلوا في السلم كافة قبل أن يحال بينكم وبين ما تشتهون.

٥ ـ نذكر المنافقين من هذه الفئة بأن الله سبحانه يعلم سرهم ونجواهم، ويعرِّف المؤمنين بسيماهم مهما أظهروا الإسلام في الدنيا، وفي الآخرة يخزيهم ويفضحهم بين الأشهاد ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾ [الحاقة: ١٨]، فتوبوا إلى الله علام الغيوب ما دمتم في زمن التوبة، وصححوا بواطنكم قبل أن يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور.

الفئة الثالثة: فئة الأتباع وعامة الناس:

وهم الذين لم يصلوا في أخلاقهم وأهدافهم إلى مستوى الفئة الشريفة المصلحة، ولم يهبطوا إلى مستوى الفئة المفسدة الوضيعة الخائنة، وإنما هي فئة بين الفئتين ولديها الاستعداد للخير الذي تدعو إليه الأولى، كما أن لديها الاستعداد لتلقي الشر والإفساد الذي تسعى إليه الفئة الثانية [١]، وهذا يؤكد أهمية الدعوة، وقطع الطريق على الفئة المفسدة؛ حتى لا ينحرف الناس عن

---

(١) ولذلك يوجد في هذه الفئة الصالحون والفاسدون حسب نشاط أهل الخير وأهل الشر، وقد يوجد من بينهم أهل العزلة والساكتون.

الصراط المستقيم . والملاحظ في هذه الفئة أنها السواد الأعظم بينما يغلب على الفئة الأولى والثانية أنهما قلة ، والتدافع بين الفئة المصلحة والمفسدة من سنن الله عز وجل؛ حيث الصراع بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] . وإلى هذه الفئة من الناس أتوجه بهذه الكلمات :

إن تذكر اليوم الآخر ومشاهده العظيمة من أهم الأسباب التي تقي من شر المفسدين المستكبرين ، فلقد مر بنا في مشاهد النبأ العظيم أنه يوم التناد، ويوم تخاصم أهل النار ، فإذا أيقن العبد بهذه المشاهد، وأن الله سبحانه ينادي عباده: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ عندئذ يحذر العبد أن يتبع كل ناعق ملبس ، وإنما يتبع المرسلين وأتباعهم ، كما أن تخاصم أهل النار وما فيه من تبرؤ المتبوعين من الأتباع يجعل العبد يحسب لهذا المشهد حسابه؛ حتى لا يعض على يديه حسرة وندامة ، وهذا الشعور المخيف يجعل الإنسان في حذر من أهل الشر والإفساد الذي يزينون له الباطل في الدنيا ، ويوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ التابع من المتبوع ، والمتبوع من التابع .

فكفى بتذكر هذه المشاهد العظيمة واعظاً ورادعاً لكل من يحب لنفسه الخير؛ حتى يحذر من أهل الشر والفساد ، ويلتصق بأهل الخير والإصلاح الذي يسعون لإنقاذ الناس بإذن ربهم سبحانه من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، ويعضّ عليهم ويبذل لهم المودة والنصرة والدعاء؛ حيث إنهم أرحم الخلق بالخلق ، وهم صمام الأمان لمجتمعاتهم ، فجدير بمن هذه صفاته أن يُحبَّ ويُوالى ويُنصر .

لقد أنعم الله سبحانه على عباده بالعقول وإرسال الرسل وإنزال الكتب حتى تبين الرشد من الغي ، ولن ينفع التابعين الذين أعطوا قيادهم لدعاة الشر وألغوا عقولهم ، لن ينفعهم يوم القيامة إلقاء التبعة على المتبوعين من المفسدين ، ولقد قامت حجة الله سبحانه على عباده ، نعم لن يجدي عن الأتباع الذين فتحوا أفكارهم وبيوتهم لأهل الشر ليفسدوا فيها ويمكروا فيها ، إذا قامت الخصومات بين يدي الحكم العدل(١) . إنهم بذلك يتحولون إلى فئة المفسدين شعروا أم لم يشعروا .

وأخيراً لنسمع إلى تحذير الله عز وجل لعباده من طاعة الشيطان وحزبه وبراءته من أتباعه يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] .

وبعد :

فهذا ما يسره الله سبحانه لي في هذه الرسالة ، أسأله عز وجل أن ينفعني وإخواني بها ، وما كان فيها من صواب فمن الله عز وجل ، فهو المان به فله الحمد ، وما كان فيها من خطأ فمني ومن الشيطان ، وأستغفر الله ، وأتوب إليه .

---

(١) انظر ص ١٩٤ ـ ٢٠٢ .

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

الرسالة العاشرة

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾

[الفاتحة : ٥]

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن عبادة الله عز وجل ، وتوحيده والاستسلام له أول واجب على المكلف أن يقوم به علماً وعملاً وانقياداً ، كما أنه أول شيء يجب أن يُدعى الناس إليه ، وجميع الرسل صلى الله عليهم وسلم إنما دعوا أول ما دعوا إلى توحيد الله وعبادته سبحانه .

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل: ٣٦] .

وقال سبحانه : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

وإن قيمة الإنسان وكرامته الحقيقية لا تتحقق إلا بالعبودية الحقة لله عز وجل ، والتي من أجلها خلقه الله عز وجل، وجاء به إلى هذه الأرض، قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقد وصف الله سبحانه نبيه ﷺ بالعبودية في أعلى المقامات ،

فقال : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ [الإسراء : ١].

ولا يبلغ الإنسان كماله الحقيقي وشرفه الأسمى في الدنيا والآخرة إلا بإفراد الله عز وجل بالألوهية والعبودية ، وصدق من قال : « **كفاني عزاً أن تكون لي رباً ، وكفاني فخراً أن أكون لك عبداً** ».

ولما كان توحيد الله عز وجل وعبادته بهذه المثابة والأهمية فحري بنا ونحن في زمن المهلة أن نسعى جادين لتحقيق هذا الشرف العظيم ؛ وذلك بجعل هذه الغاية العظيمة هي همنا وقصدنا في محيانا ومماتنا ، وألا يصرفنا عنها صارف من أمور الدنيا الفانية ، بل نوجه دنيانا وما أنعم الله به علينا فيها إلى خدمة هذه الغاية العظيمة والاستقامة عليها ؛ فيكون ما سخره الله عزوجل لنا في هذه الدنيا خادماً لهذه الغاية لا مخدوماً ، ومملوكاً لا مالكاً .

وإن افتقار العبد إلى عبادة ربه وحاجته إليها لا يعدلها حاجة ، ونعيمه بها لا يعدله نعيم ، ولكن لما كان الإنسان - بل كل مخلوق - لا يستطيع جلب ما ينفعه ودفع ما يضره إلا بالاستعانة بالله سبحانه والتوكل عليه ، ولما كانت العبادة هي أم المنافع وغايتها ، جاء الإرشاد منه سبحانه إلى ضرورة الاستعانة به عز وجل والتوكل عليه في تحقيق الغاية العظيمة والثبات عليها .

ومن أجمع الأدعية وأنفعها في هذا المقام ما ورد في سورة الفاتحة من الجمع بين العبادة والاستعانة في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ؛ حيث فرض الله سبحانه علينا أن نناجيه وندعوه بهما في كل صلاة .

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« قوله تعالى في الفاتحة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وعلم القرآن جُمع في الفاتحة ، وعلم الفاتحة في هذين الأصلين : عبادة الله والتوكل عليه .

وإذا أُفرد لفظ العبادة دخل فيه التوكل ؛ فإنه من عبادة الله تعالى كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم﴾ [البقرة: ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، وإذا قُرن به التوكل كان مأموراً به وبخصوصه »[1] اهـ.

ولقد تكلم أئمة السلف وكتبوا عن هذه الآية العظيمة الجامعة وما تحتويه من معان عظيمة هي مقتضى ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته سبحانه ، ومن أجمل وأروع ما كتب حول هذه الآية ما سطره الإمامان الجهبذان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى ، وذلك في كتبهما المختلفة حول هذين الأصلين العظيمين في هذه الآية .

ولقد تميزت كتابة هذين الإمامين الجليلين بالذوق والصدق ، وكونهما قد تذوقا طعم ما يكتبانه ، وعاشاه قلباً وقالباً ، والقارئ لكتاباتهما يشعر أنه أمام إمامين ربانيين قد اصطبغا بما يكتبان ، وتمثلا ما يقولانه ويكتبانه ، وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي جعل كتابة هذين الإمامين وأمثالهما تؤثر في النفوس ، وتلقى قبولاً عند الناس ؛ فرحمهما الله تعالى وجزاهما عن المسلمين خيراً .

إذن فإن الكتابة حول هذه الآية وما يتفرع عنها إنما هو جمع لما كتبه الأئمة الأعلام حول هذين الأصلين العظيمين ، ولن آتي بجديد في هذا الأمر ، فأنَّى

---

(١) جامع الرسائل والمسائل لابن تيمية (١/ ٩١) .

لفقير الحال والمقال مثلي أن يأتي بذلك؟ وإنما سيكون الجهد منصباً على جمع ما تفرق من كتابات لبعض علماء الأمة حول هذه الآية العظيمة ، مع محاولة ترتيب المسائل والعناوين للمادة المجموعة ؛ بحيث يسهل على القارئ متابعة القراءة ، والانتقال بانسياب بين مسائلها محاولاً ـ حسب الاستطاعة ـ ربط بعض المسائل بأحوالنا المعاصرة وما طرأ عليها من مظاهر الانحراف في العبادة والتوكل، سواء أكان من جانب الفهم أم جانب التطبيق ، فهذه بعض الدوافع التي دفعت إلى كتابة هذه الرسالة .

وأخيراً ؛ فإن هذه الرسالة تأتي محصلة ـ أو بمعنى أصح ـ أساساً للرسائل التسع السابقة من سلسلة الوقفات التربوية ؛ حيث تعتبر القطب الذي تدور عليه رحى كل المفاهيم التي خرجت في الرسائل السابقة .

ولكي يسهل على القارئ متابعة هذا الموضوع المهم ، فإنه يمكن تقسيمه إلى المباحث التالية :

١ ـ شرح قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وما ورد في معناها من الآيات والأحاديث .

٢ ـ بيان المفهوم الصحيح للعبادة ، ومظاهر الانحراف والضعف في الفهم أو التطبيق .

٣ ـ بيان المفهوم الصحيح للتوكل والاستعانة ، وأقسام ذلك ، ومظاهر الانحراف والضعف فيهما فهماً وتطبيقاً .

٤ ـ بعض لوازم العبادة الحقة ، والتوكل الصادق ، وبعض ثمارهما .

٥ ـ الخاتمة .

أسأل الله عز وجل أن ينفع بهذه الرسالة كاتبها وقارئها ، وأن يحسن القصد فيها إنه سميع مجيب ، وهو المستعان وعليه التكلان .

❁ ❁ ❁

المبحث الأول
شرح قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
وما ورد في معناها من الآيات والأحاديث

ورد في معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ آيات كثيرة في كتاب الله عز وجل جمعت بين العبادة والتوكل على الله عز وجل ؛ إما بصيغة الدعاء ، أو صيغة الأمر بهما ، أو صيغة الإخبار عمن أخذ بهما من أنبياء الله وعباده الصالحين .

فمن هذه الآيات :

* قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] .

* وقوله تعالى على لسان شعيب ﷺ : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، والإنابة بمعنى العبادة .

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] ، «والإنابة إلى الله والمتاب إليه هو الرجوع إليه بعبادته وطاعته وطاعة رسوله»[1] .

* وقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ

---

(١) قاعدة في التوكل : لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٤٩ ، ت: علي الشبل .

﴿وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٨، ٩].

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

* وقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

[الممتحنة: ٤]

* وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

[الشورى: ١٠]

* وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾.

[الفرقان: ٥٨]

والآيات التي جمعت بين العبادة والتوكل كثيرة.

أما الأحاديث، فمنها:

١ - قوله ﷺ في استفتاحه لصلاة الليل: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت...** الحديث»[(١)].

٢ - قوله ﷺ في دعائه: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»[(٢)].

٣ - وقوله ﷺ في دعاء السجود: «**اللهم لك سجدت، وبك آمنت،**

---

(١) البخاري / ك التهجد من حديث ابن عباس (١١٢٠)، ومسلم / ك صلاة المسافرين (٧٦٩).

(٢) مسلم / ك الذكر والدعاء من حديث ابن عباس (٤/ ٢٠٨٦) (٢٧١٧).

وعليك توكلت ، سجد وجهي لله الذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين »[١] .

٤ ـ وقوله ﷺ عند ذبح الأضحية : « **اللهم هذا منك ولك** »[٢] . « فإن قوله : «**منك**» هو معنى التوكل والاستعانة، وقوله : «**لك**» هو معنى العبادة »[٣] .

٥ ـ وقوله ﷺ في دعاء النوم : « **اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيِّكَ الذي أرسلت** »[٤] .

ويلاحظ في هذه الأحاديث التي حث الرسول ﷺ على الدعاء بها أنها تجمع بين الأصلين العظيمين : العبادة والتوكل ، كما هو الشأن في الآيات السابقة .

إذن فلابد أن يوجد مقصد عظيم في الجمع بين العبادة والتوكل ، وأنه لا توفيق للعبد ولا ثبات ولا استقامة إلا بالأخذ بهما جميعاً .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين ؛ من جهة العبادة ، وهي العلة

---

(١) مسلم / كتاب صلاة المسافرين من حديث علي (٧٧١) .

(٢) أبو داود / ك الضحايا من حديث جابر (٣/ ٢٣٠) (٢٧٩٥) ، وابن ماجه / ك الأضاحي (٣١٢١) وغيرهما ، وهو في ضعيف سنن أبي داود (٥٩٧) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٩) .

(٤) البخاري / ك الوضوء من حديث البراء (٢٤٧) ، ومسلم / ك الذكر والدعاء (٢٧١٠) .

الغائية ، ومن جهة الاستعانة والتوكل ، وهي العلة الفاعلة .

فالقلب لا يصلح ، ولا يفلح ، ولا ينعم ، ولا يسر ، ولايلتذ ، ولا يطيب ، ولا يسكن ، ولا يطمئن ، إلا بعبادة ربه وحده ، وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات ، لم يطمئن ، ولم يسكن ؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة ، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة .

وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له ، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك السرور والسكون إلا الله ، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإنه لو أُعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ، ولم تحصل له عبادة الله ؛ فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب ، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها ، إلا بإخلاص الحب لله ، بحيث يكون الله هو غاية مراده ، ونهاية مقصوده ، وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله ، ولا يُحب شيئاً لذاته إلا الله[1] .

ومتى لم يحصل له هذا ، لم يكن قد حقق حقيقة : « لا إله إلا الله » ، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله ، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان ، بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك ، ولو سعى في هذا المطلوب ، ولم يكن مستعيناً بالله متوكلاً عليه مفتقراً إليه في حصوله ، لم يحصل له ؛ فإنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

فالعبد مفتقر إلى الله ؛ من حيث هو المطلوب المحبوب ، المراد المعبود ، ومن حيث هو المسؤول المستعان به ، المتوكل عليه ، فهو إلهه الذي لا إله له

(١) في الأصل : (إلا لله) ، ولعلّ الصواب ما أثبتناه .

غيره ، وهو ربه الذي لا رب له سواه ، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين »[١] اهـ.

سر تقديم العبادة على الاستعانة :

يتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن سر هذا التقديم فيقول :

« وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل ؛ إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها ، والاستعانة وسيلة إليها ، ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ متعلق بألوهيته واسمه « الله »، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ متعلق بربوبيته واسمه « الرب » ، فقدم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كما تقدم اسم الله على الرب في أول السورة .

ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ قسم الرب ، فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى لكونه أولى به ، و ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قسم العبد ، فكان مع الشطر الذي له ، وهو ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى آخرالسورة .

ولأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة ، من غير عكس ، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ، ولا ينعكس ؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته ، فكانت العبادة أكمل وأتم ، ولهذا كانت قسم الرب ، ولأن الاستعانة جزء من العبادة ، من غير عكس .

ولأن الاستعانة طلب منه ، والعبادة طلب له ، ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص ، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص .

ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك ، والاستعانة طلب العون على العبادة ، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك ، وأداء حقه أهم من

(١) العبودية ص ٤٥ ، ٤٦ .

التعرض لصدقته.

ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يجب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقّها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

والعبودية محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبداً، حتى يقضي العبد نحبه.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له. و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وما (له) يتقدم على ما (به)؛ لأن ما (له) متعلق بمحبته ورضاه. وما (به) متعلق بمشيئته، وماتعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمشيئته»[1] اهـ.

مما سبق يتبين لنا سرّ الجمع بين العبادة والاستعانة، وشدة فاقة العبد وفقره إلى عبادة ربه، وأنه لا يستطيع ولا يقوى على ذلك إلا بالاستعانة به سبحانه والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه عز وجل: «فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تبرؤ من الشرك. وعبادته سبحانه بالأمر والنهي والمحبة والخوف، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تبرؤ من الحول والقوة. والقيام بعبادته سبحانه بالتفويض والتسليم، وجميع العبوديات داخلة في ذلك؛ لأن الأول إشارة إلى عبادته سبحانه بما اقتضته إلهيته، والثاني بما اقتضته ربوبيته»[2] اهـ.

« أما تقديم المعبود المستعان على الفعلين بأن قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولم

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٥، ٧٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٨٩).

يقل (نعبدك) ففيه : الأدب مع الله سبحانه بتقديم اسمه على فعلهم ، وفيه الاهتمام وشدة العناية به ، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصر ؛ فهو في قوة : لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك »[1] اهـ.

أما عن معنى العبادة والاستعانة (التوكل) فيبين ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حيث يقول :

« **والعبادة** : تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع . والعرب تقول : طريق معبد أي مذلّل ، والتعبد : التذلل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له ، لم تكن عابداً له ، ومن خضعت له بلا محبة ، لم تكن عابداً له حتى تكون محبّاً خاضعاً .

ومن هاهنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية ، والمنكرون لكونه محبوباً لهم ؛ بل هو غاية مطلوبهم ، ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم ؛ منكرين لكونه إلهاً ، وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم ؛ فهذا غاية توحيدهم ، وهو توحيد الربوبية ، الذي اعترف به مشركو العرب ، ولم يخرجوا به من الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [الزخرف:٨٧]، وقال تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿ **قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ** ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] .

ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته ، وأنه لاينبغي أن يعبد غيره ، كما أنه لا خالق غيره ولا رب سواه .

---

(١) انظر : مدارج السالكين (١/ ٧٧) .

والاستعانة : تجمع أصلين : الثقة بالله ، والاعتماد عليه ؛ فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به ؛ لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه ، ولعدم من يقوم مقامه ، فيحتاج إلى اعتماده عليه ، مع أنه غير واثق به .

والتوكل : معنى يلتئم من أصلين : من الثقة ، والاعتماد ، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذان الأصلان ـ وهما التوكل والعبادة ـ قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع ، قرن بينهما فيها ، هذا أحدهما»[1] اهـ.

وسيأتي إن شاء تعالى كلام أكثر تفصيلاً عن مفهوم العبادة الحقة والتوكل الصادق، وما ينافيهما في المباحث القادمة إن شاء الله تعالى .

أقسام الناس في العبادة والاستعانة (التوكل) :

١ ـ منهم من غلب عليه التأله لله وعبادته بالأمر والنهي، مع قيامه بالاستعانة والتوكل على الله عز وجل .

٢ ـ ومنهم من أعرض عن عبادته سبحانه والاستعانة به .

٣ ـ ومنهم من له نوع عبادة بلا استعانة ولا توكل على الله عز وجل .

٤ ـ ومنهم من له توكل ولجوء إلى الله عز وجل مع تفريطه في عبادة ربه وفي أوامره ونواهيه .

ويجلي هذه المسألة الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حيث يقول :

« فالناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام :

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٤) ، وقد سبق ذكر الآيات التي قرن فيها بين العبادة و التوكل .

أجلها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها ، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها ؛ ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الربُّ تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته ، وهو الذي علّمه النبي ﷺ لحبِّه معاذ بن جبل؛ فقال : « **يا معاذ ، والله إني لأحبك ، فلا تنس أن تقول في دُبُر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** »[1] .

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب. وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع ما يضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه ، فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه : تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ .

ومقابل هؤلاء: **القسم الثاني** : وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة ولا استعانة ، بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته ،لا على مرضاة ربه وحقوقه ، فإنه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض ؛ يسأله أولياؤه وأعداؤه ، ويُمدُّ هؤلاء وهؤلاء ، وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فسأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتعه بها ، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته ؛ كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده

(١) أبو داود / ك الصلاة من حديث معاذ (١٥٢٢) ، والنسائي / ك السهو (٣/ ٥٣) ، وأحمد (٥/ ٢٤٤ ، ٢٤٧) ، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٣٤٧) .

عنه ، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عوناً على طاعته ، كان مبعداً له عن مرضاته ، قاطعاً له عنه ولابد .

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره ، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته ، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه ، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له ، فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظاً لا بخلاً ، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ، ويعامله بلطفه ، فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ، ويراه يقضي حوائج غيره ، فيسيء ظنه بربه .

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة ، وهؤلاء نوعان :

أحدهما : القدرية القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف ، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل ، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها ، وتعريف الطريق ، وإرسال الرسل ، وتمكينه من الفعل ، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها ، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة ، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء ، ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان ، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر ، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان ، وخذل هؤلاء بأمر آخر أوجب لهم الكفر ، فعباده هؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة ، لا استعانة معه ؛ فهم موكولون إلى أنفسهم ، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن آمن

بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب، ومن الآلة إلى الفاعل، فضعفت عزائمهم، وقصرت هممهم؛ فقل نصيبهم من ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف، فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأموراً بإزالته، لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، وتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس؛ فيوجب له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَليٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه، فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مَليَّان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس هَمِّه على إنزال ما ينوبه بهما. فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولابد، قال الله تعالى: ﴿وَمَن

يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] . أي كافيه . والحسب : الكافي ، فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة ، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو :

القسم الرابع : وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضرر ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولم يَدُر مع ما يحبه ويرضاه ، فتوكل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه ، وطلبها منه ، وأنزلها به فقضيت له ، وأُسعف بها ، ولكن لا عاقبة له ، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق أو أحوالاً ؛ من كشف وتأثير وقوة وتمكين ، فإنها من جنس المُلك الظاهر ، والأموال لا تستلزم الإسلام ، فضلاً عن الولاية والقرب من الله ، فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر .

فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ، ورضاه عنه ، وأنه من أوليائه المقربين ؛ فهو من أجهل الجاهلين ، وأبعدهم معرفة بالله ودينه، والتمييز بين ما يحبه الله ويرضاه ويكرهه ويسخطه ، فالحال من الدنيا، فهو كالملك والمال ، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته ، وتنفيذ أوامره ، ألحقه بالملوك العادلين البررة ، وإلا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن الله ، وملحق له بالملوك الظلمة ، والأغنياء الفجرة »[1] اهـ.

وانقسام الناس إلى الأقسام السابقة هو فيما يكون في الأمر قبل وقوعه من العبادة والتوكل والاستعانة ، أما بعد وقوع الأمر المقدر ؛ فإن المتعين

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٨ ـ ٨٢).

حينئذ هو تقوى الله عز وجل والصبر على المقدور. والناس في هذا أيضاً على أربعة أقسام :

١ ـ فمنهم أهل التقوى والصبر .

٢ ـ ومنهم من له نوع من التقوى بلا صبر .

٣ ـ ومنهم من له نوع صبر بلا تقوى .

٤ ـ ومنهم من لا تقوى له ولا صبر .

ويوضح هذه الأقسام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فيقول :

« وما يكون بعده (أي بعد وقوع المقدور) من صبر ورضا ، ونحو ذلك فهم في التقوى (وهي طاعة الأمر الديني) ، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام :

أحدها : أهل التقوى والصبر ، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة .

والثاني : الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر ، مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ، ويتركون المحرمات ، لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله أو في عرضه ، أو ابتلي بعدوٍّ يخيفه عظم جزعه ، وظهر هلعه .

والثالث : قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى ، مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام ، والكُتّاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال

بالخيانة وغيرها .

وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها أكثر الناس، وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم ، يصبرون في مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام .

وهؤلاء هم الذين يريدون علواً في الأرض أو فساداً من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق ، ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان ، والاستمتاع بالصور المحرمة نظراً أو مباشرة ، وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات ، ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور وفعلوه من المحظور ، وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب، كالمرض والفقر وغير ذلك ، ولا يكون فيه تقوى إذا قدر .

وأما القسم الرابع : فهو شرّ الأقسام : لا يتقون إذا قدروا ، ولا يصبرون إذا ابتلوا ؛ بل هم كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا** ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١].

فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس، وأجبرهم إذا قدروا ، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قُهروا ، إن قهرتهم ذلوا لك ونافقوك ، وحابوك واسترحموك، ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب ، والذل، وتعظيم المسؤول ، وإن قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلباً، وأقلهم رحمة وإحساناً وعفواً ، كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد ، مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ، ومن يشبههم في كثير من أمورهم ، وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلمائهم

وزهادهم وتجارهم وصناعهم ، فالاعتبار بالحقائق : « **فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** »(١) .

فمن كان في قلبه وعمله من جنس التتار وأعمالهم كان شبيهاً لهم من هذا الوجه ، وكان ما معه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه ، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية ، وأبعد عن الأخلاق الإسلامية من التتار .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته : « **خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة** »(٢) .

وإذا كان خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه؛ كان إلى الكمال أقرب ، وهو به أحق . ومن كان بعد ذلك أبعد وشبهه به أضعف ؛ كان عن الكمال أبعد ، وبالباطل أحق .

والكامل هو من كان لله أطوع ، وعلى ما يصيبه أصبر ، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه ؛ وصبراً على ما قدره وقضاه؛ كان أكمل وأفضل ، وكل من نقص عن هذين؛ كان فيه من النقص بحسب ذلك .

---

(١) مسلم بنحوه / ك البر والصلة من حديث أبي هريرة (٤/ ١٩٨٦) (تحت ٢٥٦٤) .

(٢) البخاري بنحوه موقوفاً على ابن مسعود / ك الأدب (٦٠٩٨) ، ك الاعتصام (٧٢٧٧) ، ومسلم مرفوعاً / ك الجمعة (٨٦٧) .

وقد ذكر الله تعالى : « الصبر والتقوى » جميعاً في غير موضع من كتابه، وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين ، وعلى من ظلمه من المسلمين ، ولصاحبه تكون العاقبة .

قال الله تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[آل عمران : ١١٨ - ١٢٠] .

وقال أخوة يوسف له : ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

[يوسف : ٩٠]

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً ، فقال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس : ١٠٩] .

وفي اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها تصديقاً لخبر الله ، وطاعة لأمره ، وقال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

[هود: ١١٤، ١١٥]

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ .

[طه: ١٣٠]

وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣] ، فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر »[1] اهـ.

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٧٣-٦٧٧).

المبحث الثاني
المفهوم الصحيح للعبادة
ومظاهر الانحراف والضعف في ذلك

سبقت الإشارة في المبحث السابق عند تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى بعض معاني العبادة والعبودية ، وهذا أوان التفصيل فيها وبيان أقسامها ومراتبها ومظاهر الانحراف في فهم العبادة وتطبيقاتها .

المفهوم الصحيح للعبادة :

اختلفت أقوال العلماء في مفهوم العبادة وتعريفها ، وهذا الاختلاف هو من اختلاف التنوع وليس التضاد ، أي أن هذه التعريفات يكمل بعضها بعضاً وهي تدور بين التعريف اللغوي أو التعريف بلازمها أو أقسامها أو أركانها . والإلمام بكل هذه الأقوال ينتج عنه المفهوم الصحيح للعبادة .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

«أصل العبادة : محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله ، فلا يحب معه سواه ، وإنما يحب لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه ، فمحبتنا لهم من تمام محبته ، وليست محبة معه ، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه .

وإذا كانت المحبة له ، حقيقة عبوديته وسرها ، فهي إنما تتحق باتباع أمره

واجتناب نهيه »[١] .

ويقول في موطن آخر :

« العبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع . والعرب تقول : طريق معبد أي مذلل ، والتعبد التذلل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له لم تكن عابداً له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له ، حتى تكون محباً خاضعاً »[٢] .

ويعرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فيقول :

« العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[٣] .

ويشرح الإمام ابن القيم رحمه الله هذا التعريف ، فيقول :

« وبنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على أربع قواعد : التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان ، والقلب ، وعمل القلب ، والجوارح .

فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع ، فأصحاب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ حقاً هم أصحابها .

فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .

وقول اللسان : الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه ، والذَّبُّ عنه وتبيين

(١) مدارج السالكين (١/ ٩٩) .
(٢) مدارج السالكين (١/ ٧٧) .
(٣) **العبودية** : ص٤ ، ت : بشير عيون .

بطلان البدع المخالفة له ، والقيام بذكره وتبليغ أوامره .

وعمل القلب : كالمحبة له والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه والرجاء له ، وإخلاص الدين له ، والصبر على أوامره ، وعن نواهيه وعلى أقداره ، والرضا به وعنه ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، والذل له والخضوع ، والإخبات إليه ، والطمأنينة به ، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها ، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة .

وأعمال الجوارح : كالصلاة والجهاد ، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ، ومساعدة العاجز ، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك ، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ : التزام لأحكام هذه الأربعة وإقرار بها »[1] .

ويقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى :

« وفي المراد بهذه العبادة ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه بمعنى التوحيد ، روي عن علي وابن عباس وآخرين .

الثاني : أنها بمعنى الطاعة ، كقوله تعالى : ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ . [يس : ٦٠]

الثالث : أنها بمعنى الدعاء كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر : ٦٠] »[2] اهـ.

وقال الزجاج : « معنى العبادة في اللغة : الطاعة مع الخضوع »[3] .

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٠) .

(٢) زاد المسير (١/ ١٤)

(٣) معاني القرآن (١/ ٤٨) .

متى يكون العبد متحققاً بوصف العبودية ؟

لا يكون العبد متحققاً بوصف العبودية إلا بأصلين عظيمين :

١ ـ متابعة الرسول ﷺ .

٢ ـ الإخلاص للمعبود ، فهذا تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .

ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن انقسام الناس في هذين الأصلين ، فيقول :

«والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام :

أحدها : أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة ، وهم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ حقيقة ، فأعمالهم كلها لله ، وأقوالهم لله ، وعطاؤهم لله ، ومنعهم لله ، وحبهم لله ، وبغضهم لله ، فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده ، لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكوراً ، ولا ابتغاء الجاه عندهم ، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم ، ولا هرباً من ذمهم ، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور ، لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

فالعمل لأجل هؤلاء ، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ، ورجائهم للضر والنفع منهم ؛ لا يكون من عارف بهم البتة ، بل من جاهل بشأنهم ، وجاهل بربه ، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه ، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق ، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم ، وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة

لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه.

وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بَلا عباده بالموت والحياة لأجله، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً؛ لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل؛ حتى يكون خالصاً وصواباً، والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السنة.

وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يعود عليه أحوج ما هو إليه هباءً منثوراً.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١) وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً، فإن الله تعالى يُعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

---

(١) البخاري بنحوه من حديث عائشة / ك الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم / ك الأقضية (٣/١٣٤٣) (تحت ١٧١٨).

الضرب الثاني :

من لا إخلاص له ولا متابعة ؛ فليس عمله موافقاً لشرع ، ولا هو خالصاً للمعبود ؛ كأعمال المتزينين للناس ، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله ، وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله عز وجل ، ولهم أوفر نصيب من قوله : ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٨٨] . يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص .

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم ، فإنهم يرتكبون البدع والضلالات ، والرياء والسمعة ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم ، فهم أهل الغضب والضلال .

الضرب الثالث :

من هو مخلص في أعماله ، لكنها على غير متابعة الأمر ، كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر ، وكل من عبد الله بغير أمره ، واعتقد قربه إلى الله فهذه حاله ، كمن يظن أن سماع المُكَاء والتصدية قربة ، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة ، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة ، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة ، وأمثال ذلك .

الضرب الرابع :

من أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله كطاعة المرائين ، وكالرجل

يقاتل رياء وحمية وشجاعة ، ويحج ليقال ، ويقرأ القرآن ليقال ، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها ، لكنها غير خالصة فلا تقبل ؛ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] .

فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر ، والإخلاص له في العبادة ، وهم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ »[1] اهـ.

انقسام العبودية إلى عامة وخاصة :

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« العبودية نوعان : عامة ، وخاصة :

فالعبودية العامة : عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله ، بَرِّهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فهذه عبودية القهر والملك ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ [مريم : ٨٨ - ٩٣] ، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان : ١٧] ، فسماهم عباده مع ضلالهم ، لكن تسمية مقيدة بالإشارة ، وأما المطلقة فلم تجئ إلا لأهل النوع الثاني ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وقال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٣ ـ ٨٥) .

وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦]. وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨] فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]. وقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]، وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى عن إبليس: ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

فالخلق كلهم: عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته»[1] اهـ.

أفضل العبادة وأنفعها:

لما كان أهل طاعة الله وولايته هم عبيد إلهيته المنقادون لأمره، وهم عبيده المحبون له، المتذللون له، المدركون للغاية التي من أجلها خُلقوا؛ فلا جرم كانت أوقاتهم وأعمارهم كلها معمورة بعبادته جلَّ وعلا، وإيثار مرضاته في كل وقت ومكان، أطاعوا الله تعالى ورسوله ﷺ في كل حين وحال، وفي كل حركة وسكنة، وفي محياهم ومماتهم، في المسجد وفي البيت وفي السوق وفي كل عمل يمارسونه في حياتهم.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٥).

وباختصار ، فلقد فهموا وخضعوا لقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣] .

هكذا فهم سلفُ الأمة وصلحاؤها معنى العبادة ، وأن الحياة كلها يجب أن تكون محكومة بدين الله عز وجل .

ثم إنهم بعد ذلك فاضلوا بين العبادات والأعمال الصالحة عند التزاحم ، وقدموا أحبها لله وأرضاها له عزوجل ، وذلك عندما يضيق الوقت عن القيام بها مجتمعة .

وهذا هو الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، يبين لنا الاختيار الصحيح لأساس التفاضل بين العبادات وأحقها بالإيثار بعد أن ذكر أقوالاً أربعة أيد منها أهل الاختيار الرابع ، فقال :

« **الصنف الرابع** : قالوا : إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته ، فأفضل العبادات في وقت الجهاد ؛ الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار ، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما في حالة الأمن .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً : القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب ، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعلم الجاهل : الإقبال على

تعليمه والاشتغال به .

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس : الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع ، وإن بَعُد كان أفضل .

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال: الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمعية القلب، والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به ، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المُضعف عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبد ، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد ؛ فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته، وحضور جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم في الخير ، فهي خير من عزلتهم فيه ، وعزلتهم في الشر ، فهي أفضل من خلطتهم فيه ، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله ، فخلطتهم حينئذ أفضل من عزلتهم .

فالأفضل في كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه ، وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد ، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته ، فهو يعبد الله على وجه واحد .

وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت ، فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى .

فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره ؛ فإن رأيت العلماء رأيته معهم ، وإن رأيت العباد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، وإن

رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم .

فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربه ؛ ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه ، فهذا هو المتحقق بإياك نعبد وإياك نستعين حقاً ، القائم بهما صدقاً ، ملبسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر به في كل وقت بوقته ، ومجلسه حيث انتهى ووجده خالياً ، لا تملكه إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولي عليه رسم ، حر مجرد ، دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الأمر أنَّى توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها ، وكلها منفعة حتى شوكها ، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله ، والغضب إذا انتهكت محارم الله .

فهو لله وبالله ومع الله ، قد صحب الله بلا خَلْق ، وصحب الناس بلا نَفْس ، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق من البين ، وتخلى عنهم ، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها . فواهاً له ، ما أغربه بين الناس ، وما أشدَّ وحشته منهم ، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه إليه !! والله المستعان ، وعليه التكلان »[1] اهـ.

خلاصة ما سبق :

مما سبق بيانه من النقولات يتضح لنا جلياً معنى العبادة الحقة التي أمرنا الله عز وجل أن نتعبده بها ، ويمكن تلخيص هذا المعنى العظيم وتلك الحقيقة الضخمة فيما يلي :

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٨ـ٩٠).

* العبادة الحقة تعني تمام المحبة مع تمام الخضوع والتذلل لله عز وجل .

* تمام المحبة وكمال الخضوع والتذلل لله عز وجل يعني طاعته سبحانه والانقياد لأمره ، ومحبة ما يحب ، وبغض ما يكره، واتباع رسوله محمد ﷺ فيما أمر ونهى ، وما سن وما شرع من غير زيادة ولا نقصان ؛ وإلا فما قيمة محبة وخضوع لا يثمران طاعة واتباعاً وقبولاً والتزاماً .

* العبادة الحقة تفرض على العبد أن يكون في كل أوقاته وتحركاته وسكناته مصبوغاً بصبغة العبودية لا يخرج عنها في أي لحظة من اللحظات، وسيأتي زيادة بيان حول هذه المسألة قريباً إن شاء الله تعالى .

* من صرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى فهو مشرك تجب البراءة منه ومن شركه ، ولا تصح العبادة إلا بهذه البراءة .

* * *

بعض مظاهر الضعف والانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها

بعد أن اتضح لنا مفهوم العبادة الحقة كما يريدها الله عز وجل لنفسه، وكما فهمها وحققها رسوله ﷺ في أعلى مقاماتها ، وكما فهمها سلفنا الصالح رضي الله عنهم وطبقوها ، فلابد بعد ذلك من عرض هذه المفاهيم العظيمة والحقائق الضخمة على واقعنا نحن المسلمين في هذه الأزمنة المتأخرة، وهل هذا الفهم الصحيح للعبادة هو السائد اليوم بين المسلمين ؟ أم أن هذا الفهم قد اعتراه من الضعف والانحراف الشيء الكثير ؟

إن المتأمل في حال المسلمين الأليم ، والغربة التي يعيشها أهل الإسلام اليوم ليجد كثيراً من المفاهيم العقدية قد انحرفت عند كثير من عامة المسلمين إلا من رحم الله عز وجل ، فهناك انحراف في معنى التوحيد والعبادة ، وانحراف في عقيدة اليوم الآخر ، وانحراف في عقيدة القضاء والقدر ، وانحراف . . وانحراف . . ولقد ساهم في هذه الانحرافات غزو أعداء المسلمين لديار المسلمين بثقافاتهم الكافرة وأفكارهم المنحرفة ، وقابل هذا الغزو من الأفكار جهلٌ عند كثير من الأجيال المسلمة بدينها وعقيدتها ، وعجز عند أكثر علماء الأمة عن تعليم الناس والوقوف في وجه هذا الغزو، (فوافق الغزو قلباً خالياً فتمكنا) .

وفي هذه الفقرة من هذا البحث سيتوجه التركيز على بعض مظاهر

الانحراف والضعف في مفهوم العبادة ، فمن ذلك ما يلي :

١ - الانحراف في تطبيق شرطي العبادة :

من مظاهر الانحراف في العبادة فهماً وتطبيقاً ما هو منتشر بين أهل البدع والخرافة في القديم والحديث، من ترك لأحد شرطي العبادة أو كليهما واللذين لا تصح العبادة إلا بهما ؛ ألا وهما الإخلاص والمتابعة ، وقد سبق الإشارة إلى أصناف الناس في أخذهم أو تركهم لهذين الشرطين في مبحث سابق ، ولكن المراد هنا إيضاح الانحراف الذي يترتب على ترك هذين الشرطين أو أحدهما ؛ فترك الإخلاص في العبادة نتج عنه صرف العبادة التي هي لله وحده إلى غيره من الخلق الفقراء - ولو كانوا أنبياء أو ملائكة أو أولياء - وهذا صرف للعبادة عن مستحقها، وحجتهم الداحضة عند ربهم أنهم يؤمنون بأن الله الخالق الرازق بيده الضر والنفع ، ولكنهم يتوسلون بالصالحين ليقربوهم إلى الله زلفى ؛ وهذا هو الشرك الأكبر الذي من أجله أنزلت الكتب وأرسلت الرسل .

فترى هؤلاء يصرفون العبادة بأنواعها المختلفة من ذبح ونذر ، وخوف ، ورغبة ، وغير ذلك من أصناف العبادة إلى غير الله عز وجل ، وهذا من أشد مظاهر الانحراف في العبادة ؛ لأنه شرك أكبر يضاد الإخلاص لله عز وجل ، والذي هو شرط من شروط كلمة التوحيد ، وقبول العبادة . ومحل الكلام عن هذا الشرك وأنواعه مبسوط في كتب التوحيد والعقائد ، ككتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغيره ، وليس هنا محل التفصيل .

أما ترك الشرط الثاني لصحة العبادة (وهو المتابعة) فينتج عنه انحرافات

كثيرة في العبادة وتطبيقاتها ، حيث ظهرت ألوان وصور من العبادات التي لم يأذن بها الله عز وجل ، ولم يشرعها الرسول ﷺ لأمته ، وخاصة بين المتصوفة الذين يعطون لمشائخهم حق التشريع ، ويعتبرون أقوالهم وأفعالهم مصدراً من مصادر الاستدلال ، فظهرت بذلك هيئات وصور متعددة للعبادة والأوراد والأذكار كلها مبتدعة سواء في كيفيتها أو كمها أو هيئتها أو طريقة أدائها أو زمانها أو مكانها ، وهذه كلها مردودة على أصحابها ؛ لأنها تشريع لم يأذن به الله ، قال تعالى : ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [الشورى: ٢١] ، ولقوله ﷺ : « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد** »(١) .

٢ ـ الانحراف في مفهوم العبادة :

وهو النظر إلى العبادة على أنها الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وحج، وذبح وقراءة قرآن فحسب ، وأن ما سوى ذلك من معاملات وأخلاقيات ومباحات وغيرها كل ذلك لا يدخل في العبادة .

نعم إن هذا المفهوم هو السائد عند بعض المسلمين سواء أقالوه بلسان مقالهم أم بلسان حالهم وأعمالهم ، ولا أدل على ذلك من أننا قد نجد ذاك العبد المصلي الصائم القارئ للقرآن بعد فراغه من هذه الشعائر التعبدية لا يتورع أن يغشّ ، أو يرابي ، أو يظلم ، أو يملأ بيته من آلات اللهو ووسائل الإفساد ما الله به عليم .

وكذلك قد نرى المرأة المصلية الصائمة لا تتورع عن التصرف في نفسها

---

(١) مر تخريجه ص٣١٩.

بما يخالف الشرع من سفور أو زينة محرمة أو اختلاط أو غيره . وإذا نصح مثل هؤلاء الناس ، قالوا : بأنهم من المصلين العابدين ، وقد انتهى وقت العبادة !

وهكذا تنحرف الغايات ، وتنشأ اللوثات ،وتفسد النيات ، وذلك كمن يفصل أمر تعليمه وتعليم أولاده عن غاية العبادة لله عز وجل ، ويربط ذلك بالشهادة والمال والوظيفة ، بل يستخدم أية وسيلة توصله إلى ذلك ، وهذا الفصام النكد هو منشأ الانحرا ف، إنه ينشأ من فهم هؤلاء للعبادة بأنها أوقات محددة في اليوم والليلة أو السنة ، وما عدا ذلك من الأوقات فهو حر يتمتع بوقته ويفعل ما يحلو له .

ونسي هؤلاء الناس أو تناسوا أنهم ما خلقوا إلا للعبادة ، ولا يقبل الله عز وجل منهم في حياتهم إلا أن يُمضوها في عبادته بالمعنى الشامل للعبادة، لا بمفهومهم القاصر لها .

إن العبادة بهذا المفهوم المنحرف تجعل الإنسان في انفصال وانفصام بين حياته في مسجده وخارج مسجده ؛ لأنه لو كان مفهوم العبادة التي يريدها الله عز وجل كما فهمها هذا الصنف من الناس لكانت عبثاً ، ولبقي أكثر الأوقات غير معمور بعبادة الله عز وجل ، وهذا لا يرضاه الله عز وجل .

ذلك لأن أوقات الصلوات لا تتعدى ساعتين أو ثلاث في اليوم والليلة، فماذا يكون شأن الساعات الباقية ، هل تنفق في غير عبادة ؟! كلا، فإن الله سبحانه لا يرضى لعباده هذه الحال .

إذن فالواجب على كل مسلم أن يعلم أنه ماخلق إلا للعبادة، وأن وقته يجب أن يكون في عبادة ؛ سواء ما كان منه في الشعائر التعبدية أو ما كان منه في المعاملات ، أو ما كان منه في المباحات ، كل ذلك يجب أن يمارسه

العبد وشعور العبادة لله عز وجل يصاحبه ، فيراقب ربه في كل أعماله ، وينوي به التقرب إليه عز وجل والاستعانة بها على طاعته .

إن هذا الشعور وهذه النية تجعل العبد في كل أعماله - حتى في مباحاته ولذاته - عبداً لله مسلماً وجهه لربه عز وجل ، وحول هذا المعنى يتحدث الأستاذ محمد قطب حفظه الله ، فيقول :

« كان المفهوم الصحيح في حسّ الأجيال الأولى أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله ، كما فهموا من قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

إن هذه الآية الكريمة كانت تُمثّل في حسهم معنى هائلاً جداً ، وعميقاً جداً ، وشاملاً لكل حياة الإنسان ، فالقرآن نازل بلغتهم ، وهم يفهمون إيحاءات تلك اللغة ، ويدركون أسرار بلاغتها ، فيدركون من معنى الآية : أن غاية الوجود الإنساني كله محصورة في العبادة لا تتعداها إلى شيء غيرها على الإطلاق .

فالنفي والاستثناء هما أقوى صور الحصر والقصر في اللسان العربي . ومعناهما : النفي البات من جهة ، والحصر الكامل من الجهة الأخرى ، نفي أي غاية للوجود البشري غير عبادة الله ، وحصر غاية هذا الوجود كله في عبادة الله ، و كانوا إلى جانب ذلك يحسون إحساساً صادقاً بعظمة الله جل جلاله فيحسون تبعاً لذلك بما ينبغي للعبد - في مقام عبوديته - تجاه الله - في مقام ألوهيته - من إخلاص العبودية له ، وإخلاص العبادة . . سواء .

ومن ثم لم ينحصر مفهوم العبادة في حسهم في نطاق الشعائر التعبدية

وحدها، كما انحصر في حس الأجيال المتأخرة التي جاءت بفهم للإسلام غريب عن الإسلام .

إن شعائر التعبد لا يمكن بداهة أن تكون هي كل « العبادة » المطلوبة من الإنسان ، فما دامت غاية الوجود الإنساني ـ كما تنص الآية الكريمة ـ محصورة في عبادة لله ، فأنّى يستطيع الإنسان أن يوفي العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب ؟!

كم تستغرق الشعائر من اليوم والليلة ؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان ؟

وبقية العمر ؟ وبقية الطاقة ؟ وبقية الوقت ؟ أين تنفق وأين تذهب ؟ تنفق في العبادة أم في غير العبادة ؟ وإن كانت في غير العبادة ، فكيف تتحقق غاية الوجود الإنسان التي حصرتها الآية حصراً كاملاً في عبادة الله ؟ وكيف يجوز للإنسان ـ من عند نفسه ـ أن يجعل لوجوده ـ أو لجزء من وجوده ـ غاية لم يأذن بها الله ؟

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

[الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣]

تلك هي العبادة التي كلف الله بها الإنسان ، تشمل الصلاة والنسك ـ أيّ الشعائر التعبدية ـ وتشمل معها كل الحياة . . وكذلك فهم الجيل الأول رضوان الله عليهم معنى العبادة .

لم يحصروها قط في داخل الشعائر التعبدية ، بحيث تصبح اللحظات التي يقومون فيها بأداء الشعائر التعبدية هي وحدها لحظات العبادة ، وتكون

بقية حياتهم خارج العبادة »[١] .

٣ ـ الانحراف في التطبيق :

وقد ترتب على الانحراف في مفهوم العبادة ـ كما قدمنا ـ انحراف آخر في تطبيق العبادة ، فحتى الشعائر التعبدية التي حُصرت العبادة فيها فحسب ، هي الأخرى نالها ما نالها من الضعف والميل بها عن حقيقتها وغايتها ، وهذه نتيجة متوقعة وبدهية معروفة ؛ فالانحراف في الفهم لابد أن ينتج عنه انحراف في التطبيق . ويوضح الأستاذ محمد قطب وفقه الله هذا الانحراف فيقول :

« حين صار المطلوب كله هو أداء الشعيرة ، وانحصرت « العبادة» كلها في هذا الأمر ، كان حرياً بهذا اللون من العبادة أن ينحسر أكثر فأكثر ، حتى يصبح المطلوب هو أداء الشعيرة بأي صورة كانت . . ولو كان أداءً آلياً بغير روح ، أو أداء تقليدياً يحركه الحرص على التقاليد أكثر مما يحركه الدافع إلى عبادة الله . .

وتلك هي الصورة التي انتهت إليها العبادة في الجيل الذي شهد الانهيار . وصلت الصلاة أن تكون مجرد حركات تؤدى بلا خشوع ولا إخبات ، ولا التفات إلى معنى ما يُتلى فيها من الآيات والذكر ، وينصرف منها المصلي لا تكاد تحس أنها قد تركت أثراً في نفسه ، أو انعكست على تصرف من تصرفاته ، هذا إن لم يكن قد انشغل عنها تماماً ـ وهو فيها ـ بحساب خسائره وأرباحه ، أو شيء من سائر مشاغله اليومية !

(١) مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٧٤ ـ ١٧٩ باختصار .

وأصبح الصيام مجرد امتناع عن الطعام والشراب ساعات النهار ، مع نهم ضخم إلى الطعام بعد الإفطار يصل إلى حد الإسراف ، كأنما هو شهر الطعام لا شهر الصوم ! فضلاً عن البحث عن «المسليات» في ليل الصوم ، من عكوف على المذياع أوالتلفاز ، أو ما هو أعجب من ذلك وأسوأ مما تنشره صحف « محترمة »!! في البلاد « الإسلامية » « المتقدمة » !!من إعلانات تقول : إن الراقصة الفلانية « تحيي ليالي رمضان!!» في المسرح الفلاني إلى ما بعد منتصف الليل ، ويعج المسرح « بالصائمين » الذين صاموا من قبل الرقص ومن بعده ، بلا حرج في صدورهم ولا تأثم ، ولا إحساس بالتناقض بين ما يجري في الليل وما يجري في النهار .

فإنما هي - حفظك الله - ساعة بعد ساعة ! . . « ساعة لربك وساعة لقلبك» كما يقول التعبير الجاهلي المعاصر !

والزكاة - إن أداها صاحب المال - لا تمنعه من أكل الربا ولا تحرج صدره منه ! فهذه عبادة وهذا عمل ! ولا علاقة ولا تداخل بين العبادة وبين العمل ! فضلاً عن الألاعيب والحيل التي يسترد بهال « المزكي» جزءاً من المال الذي تصدق به بالتحايل على من أداه إليهم من الفقراء والمساكين!

والحج فرصة هائلة للحصول على لقب «الحاج» . . ولا حرج على «الحاج» بعد ذلك أن يحلف اليمين الغموس إذا اقتضت ذلك « مصلحة» التجارة أو أي نوع من التعامل يقوم به ! فضلاً عما يقع في الحج ذاته من أمور يذهل لها العاقل ، فضلاً عن المسلم المؤمن ، من تدافع - مقصود - بالمناكب ، ومن « حجاج » يدوسون فوق إخوان لهم في الإسلام وإخوان لهم في الحج حتى يزهقوا أرواحهم غير مبالين ؛ من أجل الانتهاء من الرجم

بأية صورة ، أو الانتهاء من الطواف ! وفضلاً عن جهالة الجاهلين الذين يتركون أركاناً لا يصح الحج إلا بها ، أو يرتكبون مخالفات صريحة دون فدية ولا نسك . . لأنهم لا يعلمون »[1] .

٤ ـ الانحراف في مصدر التلقي :

ترتب على الانحراف السابق في مفهوم العبادة انحراف أشد خطراً وأسوأ أثراً ؛ حيث كان الانحراف السابق ذكره منحصراً على مستوى الفرد ، بينما هذا الانحراف الذي نحن بصدده يتمثل في النظم التي تحكم في أكثر بلدان المسلمين اليوم ، والتي يسعى أربابها إلى عزل الدين عن الحياة وتوجيهها وتنظيمها ، وحصره بين جدران المسجد وأداء الشعائر التعبدية .

ولسان مقالهم أو حالهم يردد تلك المقولة الجاهلية ، والتي قالها أصحاب مدين لنبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام ، ويقولها العلمانيون في زماننا : ما للدين وحجاب المرأة وعملها ، ما للدين والسياسة ، وموالاة الكفار ومحبتهم، ما للدين والاقتصاد، ما للدين والإعلام والتعليم . . !! إلخ . الدين أن تعبد الله في المسجد ، وتقرأ القرآن ، وتذكر الله ، أما الحياة فلها نظمها التي تتناسب مع تطورها . . إلى آخر هذا الهذيان والانحراف والفجور .

إن هذا الفهم الأعوج هو ما قاله أهل مدين لنبيهم شعيب ﷺ بعد أن دعاهم إلى التوحيد وترك البخس ، والنقص في المكيال والميزان . قال الله عز وجل : ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ [هود: ٨٧] .

---

(١) مفاهيم يجب أن تصحح ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ .

إنهم يقولون، يا شعيب، ما دخل عبادتك وصلاتك في حياتنا الاقتصادية وفي اتباعنا لآبائنا ، وطاعتهم فيما كانوا يعبدون ؟! سبحان الله ! ما أشبه قلوبهم بقلوب الجاهلين في زماننا هذا وما أشبه مقولتهم بمقولة العلمانيين المنافقين المعاصرين ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣] .

ويتحدث سيد قطب رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ فيقول :

« فهم لا يدركون - أو لا يريدون أن يدركوا - أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة . وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة ، وفي تداول الأموال ، وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل ، فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة وعن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة . . .

إن بيننا اليوم - ممن يقولون : إنهم مسلمون! - من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق ، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية .

وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم ، يتساءلون أولاً في استنكار : وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ ؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق ؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل ؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله المتحضرون ؟! . . . فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين : ﴿أَصَلَاتُكَ

تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ .

وهم يتساءلون ثانياً ، بل ينكرون بشدة وعنف ، أن يتدخل الدين في الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد . . فما للدين والمعاملات الربوية ؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي ؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده ، وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية ـ النظرية الأخلاقية مثلاً ـ ويعدونها تخليطاً من أيام زمان ! . . .

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب ، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض ، فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد . والشرك ألوان ، منه هذا اللون الذي نعيش به الآن ، وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان .

ويسخر أهل مدين من شعيب ـ كما يتوقح بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق ـ فيقولون : ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ .

وهم يعنون عكس معناها ، فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير ، وأن يفصلوا بين العبادة والمعاملة في السوق ، وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين !!!»[1] اهـ.

---

(١) في ظلال القرآن : عند الآية (٨٧) من سورة هود .

والحاصل مما سبق : أن حصر العبادة في الشعائر التعبدية فقط هو انحراف بالعبادة عن معناها الصحيح الذي يرضاه الله عز وجل ، وأنه لو كان مفهوم العبادة هو السجود والركوع فحسب ، إذن فما معنى قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] ، وما معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١] . حيث يعلق الشنقيطي رحمه الله تعالى على هذه الآية ، فيقول :

« فهي فتوى سماوية من الخالق جل وعلا صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله »[1] اهـ.

إذن فإن من أخص خصائص العبادة : الطاعة والاتباع والخضوع والانقياد ، فكما أن العبادة تأتي بمعنى الدعاء والنسك ، فهي تأتي أيضاً بمعنى الطاعة والاتباع ، ولكن الجاهلين أو المتجاهلين يريدون حصرها فقط في الشعائر التعبدية والعبادات الخاصة ثم لا دخل بعد ذلك للعبادة في شئون الحياة وتسيير دفتها .

وإن الذين يرون هذا الفصل المشين والفصام النكد بين الدين والحياة على قسمين :

* إما أن يكونوا جهلة بحقيقة الدين وحقيقة العبادة في الإسلام ؛ إذ لم يكن لهم حظ من العلم الشرعي ينير بصائرهم ، وإنما غاية ما عندهم ثقافات مشوهة من الغرب أو الشرق تسربت إلى قلوبهم على حين غفلة وخواء ، فتمكنت منها .

(١) أضواء البيان (٧/ ١٧٠) .

وهؤلاء وأمثالهم الذين انحرفوا بمفهوم العبادة عن معناها الصحيح بسبب جهلهم قد نرى بعضهم من المصلين الصائمين التالين للقرآن الكريم.

وعلاج هذا الصنف من الناس يكون بالعلم الشرعي ، والرفق بهم حتى يفقهوا هذا الدين بمعناه الصحيح .

* والأخطر من أولئك هم الذين يفهمون حقيقة العبادة وحقيقة دين الإسلام ، ولكنهم يستكبرون عن الانقياد لهذا الفهم ، وينطلقون بخبث وغرض سيئ لإثارة الشبهات وصرف المسلمين عن دينهم وتشويه هذه المفاهيم في نفوسهم .

وهؤلاء إن صلوا وقاموا ببعض الشعائر فهو نفاق وزندقة. والحذر من هؤلاء يجب أن يكون على أشده ، كما أن فضح أفكارهم وخططهم هو المتعين ، فهم من المنافقين الذين جاء الأمر الإلهي بمجاهدتهم ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩] .

٥ ـ الانحراف في المفهوم والتطبيق :

ومن مظاهر الانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها ما عرف عن بعض غلاة المتصوفة وزنادقتهم من أن أداء العبادات والطاعات مرتبط بحصول اليقين المطلق ـ زعموا ! فإذا وصل العبد إلى هذا المستوى سقط عنه التكليف ولم يعد في حاجة إلى العبادة التي هي من منازل العامة ! ، أما الخاصة ومن يسمونهم بالأبدال والأقطاب فقد بلغوا درجة اليقين التي ترفع عنهم التكاليف والعبادات ، نعوذ بالله من هذه الحال ، ونبرأ إلى الله عز وجل من أهل الزندقة والإلحاد.

ورحم الله الإمام ابن القيم حيث يوضح معنى اليقين المراد في قوله تعالى : ﴿ واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] ، ويؤكد عدم انفكاك العبد عن العبودية لله عز وجل في سائر أحواله وأموره كلها فيقول رحمه الله تعالى :

« قال الله تعالى لرسوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩]، وقال أهل النار : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر : ٤٦ ، ٤٧] ، واليقين ههنا : هو الموت بإجماع أهل التفسير ، وفي الصحيح في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « **أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه** »[1] أي الموت وما فيه .

فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف ، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لمَّا يسأله الملكان « من كان يعبد ؟ وما يقول في رسول الله ﷺ ؟ » ، ويلتمسان منه الجواب .

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة ، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون ، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك ، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً .

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه التعبد فهو زنديق كافر بالله ورسوله ﷺ ، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله ، والانسلاخ من دينه ، وكلما تمكن العبد من منازل العبودية كانت عبوديته أعظم ، والواجب عليه منها أكثر من الواجب على من دونه ؛ ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ ،

---

(١) البخاري في مواضع منها / ك الشهادات من حديث أم العلاء (٢٦٨٧) .

بل على جميع الرسل أعظم من الواجب على أممهم ، والواجب على أولي العزم أعظم من الواجب على من دونهم ، والواجب على أولي العلم أعظم من الواجب على من دونهم ، وكل أحد بحسب مرتبته »(١) اهـ.

٦ ـ هذا . . ومن شطحات الصوفية في مفهوم العبادة أيضاً : المقالة المشهورة عن بعضهم من أنهم لا يعبدون الله خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته ، وإنما حبّاً له وشوقاً إليه .

وواضح ما في هذا الكلام من تكلف وانحراف عن طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وسؤالهم الله عز وجل جنته والعياذ به من النار .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في معرض رده على هذه المقالة :

« ومن قال من هؤلاء : « لم أعبدك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك» فهو يظن أن الجنة اسم لما يتمتع فيه بالمخلوقات ، والنار اسم لما لا عذاب فيه إلا ألم المخلوقات . وهذا قصور وتقصير منهم في فهم مسمى الجنة ، بل كل ما أعده الله لأوليائه فهو من الجنة ، والنظر إليه هو من الجنة ؛ ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار ، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته ، قال : « إني أسأل الله الجنة وأعوذ بالله من النار ، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ ، فقال : « **حولها ندندن** »(٢)»(٣) اهـ.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٣ ، ١٠٤).

(٢) ابن ماجه في الإقامة (٩١٠) ، وفي الدعاء (٣٨٤٧) ، وأبو داود في الصلاة (٧٩٢) وهو في صحيح ابن ماجه (٧٤٨) .

(٣) تفسير ﴿ لَاّ إِلَهَ إِلَاّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ لابن تيمية : ت : عبد العلي حامد ص١٣ .

وقال من قال من السلف : « من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري (أي خارجي) ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد » .

إذن فالعبادة الحقة هي التي تجمع بين المحبة والخوف والرجاء والذلة والخضوع كما سبق ذلك في تعريف العبادة وحقيقتها .

* * *

المبحث الثالث
المفهوم الصحيح للتوكل والاستعانة
ومظاهر الانحراف والضعف فيهما

التوكل يمكن القول بأنه نصف الدين ، ونصفه الثاني هو : (العبادة) ؛ لأن الدين استعانة وعبادة ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك عند تفسير ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كما سبقت الإشارة إلى معنى التوكل بشكل مجمل ، وهذا أوان التفصيل في بيان هذا العمل العظيم من أعمال القلوب ، وتفصيل مراتبه ، وأقسامه ، وصور الانحراف والضعف في ذلك ، ويحسن قبل الدخول في هذا التفصيل أن نستعرض الآتي :

بعض الآيات والأحاديث الواردة في التوكل :

فأما الآيات الواردة في التوكل والمتوكلين فهي كثيرة منها :

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وقوله تعالى عن أوليائه: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك:٢٩].

وقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾.

[النمل: ٧٩]

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال تعالى عن أنبيائه صلى الله عليهم وسلم: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقال عز وجل عن أصحاب نبيه ﷺ : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

[آل عمران: ١٧٣]

وأما الأحاديث فكثيرة أيضاً منها :

* في الصحيحين ، في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب : « **هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون** »[1].

* وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ »[2].

(١) البخاري / ك الطب من حديث عمران بن حصين (٥٧٠٥)، ومسلم / ك الإيمان (٢١٨).
(٢) البخاري/ ك التفسير ـ سورة آل عمران (٤٥٦٣).

* وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « **اللهم لك أسلمتُ وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون** »[١] .

* وفي الترمذي عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[٢] .

* وفي السنن عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قال** - يعني إذا خرج من بيته - : **بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له : هُديت ووقيت وكفيت ، فيقول الشيطان لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي ؟**»[٣] .

تعريف التوكل بمعناه الصحيح :

التوكل عمل قلبي من أعمال القلوب ، وقد وردت له تعريفات كثيرة يكمل بعضها بعضاً لتنتهي مجتمعة إلى حقيقة التوكل ومعناه .

* فمن ذلك ما سبق ذكره عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حين قال :

« فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة ؟ قلت : هو حال للقلب ينشأ

---

(١) مر تخريجه ص ٢٩٨ .

(٢) الترمذي في الزهد (٢٣٤٥) ، وابن ماجه (٤١٦٤) ، وأحمد (١/ ٥٢) ، وصححه الشيخ شاكر (١/ ٢٠٦) ، وهو في صحيح الترمذي (١٩١١) .

(٣) أبو داود / ك الأدب (٥٠٩٥) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢) ، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٧٢٤) .

عن معرفته بالله ، وتفرده بالخلق والتدبير ، والضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن ، وإن شاءه الناس فيوجب له هذا اعتماداً عليه ، وتفويضاً إليه ، وطمأنينة به ، وثقة به ، ويقيناً بكفايته ، لما توكل عليه فيه »[١] اهـ.

* ومن ذلك ما نقله الشيخ محمد العثيمين حفظه الله في شرحه لكتاب التوحيد ؛ حيث قال : « التوكل : هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في جلب المطلوب وزوال المكروه مع فعل الأسباب المأذون فيها »[٢] .

* وقد نقل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة التوكل تعاريف كثيرة ، قالها بعض أرباب السلوك ، ثم علق عليها بقوله :

« وحقيقة الأمر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور ، لا تتم حقيقة التوكل إلا بها ، وكلٌّ أشار إلى واحد من هذه الأمور ، أو اثنين أو أكثر .

فأول ذلك : معرفة الرب وصفاته : من قدرته ، وكفايته ، وقيوميته ، وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته . وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل .

الدرجة الثانية : إثبات في الأسباب والمسببات .

الدرجة الثالثة : رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل ، فما دامت فيه علائق الشرك ، فتوكله معلول مدخول .

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٢) .

(٢) شرح كتاب التوحيد للشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٨٥) .

الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله ، واستناده إليه وسكونه إليه .

الدرجة الخامسة : حسن الظن بالله عز وجل .

الدرجة السادسة : استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته»[1] اهـ.

تباين الخلق في توكلهم على الله سبحانه وأفضلهم في ذلك :

يوضح الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى هذه المسألة أتم توضيح ، فيقول :

« فأهل السماوات والأرض ـ المكلفون وغيرهم ـ في مقام التوكل ، وإن تباين متعلق توكلهم :

١ ـ فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان ، ونصرة دينه وإعلاء كلمته ، وجهاد أعدائه ، وفي محابّه وتنفيذ أوامره .

٢ ـ ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه ، وحفظ حاله مع الله ، فارغاً عن الناس .

٣ ـ ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه ؛ من رزق أو عافية ، أو نصر على عدو ، أو زوجة أو ولد ، ونحو ذلك .

٤ ـ ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش ، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه ، **فأفضل التوكل** : التوكل في الواجب ـ أعني واجب الحق ، وواجب الخلق ،

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٧ ـ ١٢١).

وواجب النفس . **وأوسعه وأنفعه** : التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية ، أو في دفع مفسدة دينية ، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ، ودفع فساد المفسدين في الأرض ، وهذا توكل ورثتهم . ثم الناس بعدُ في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم ، فمن متوكل على الله في حصول الملك ، ومن متوكل في حصول رغيف »[(١)] اهـ.

ويؤكد ابن القيم رحمه الله تعالى في موطن آخر على أفضل وأعظم التوكل ، فيقول :

« التوكل على الله نوعان :

أحدهما : توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية ، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية .

والثاني : التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية ، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضاً ، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه . فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية ، وتجريد التوحيد ، ومتابعة الرسول ، وجهاد أهل الباطل . فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم »[(٢)] .

❋ ❋ ❋

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٣، ١١٤).
(٢) الفوائد / ٨٦ .

أقسام التوكل وأنواعه

١- توكل الموحدين الصادقين :

وحقيقته الاعتماد على الله عز وجل والثقة بكفايته مع فعل الأسباب المأذون فيها من غير اعتماد عليها ولا ركون إليها ؛ فخالق الأسباب ومسببها هو الله وحده .

٢- التوكل الشركي :

وهو قسمان :

أ- « الاعتماد الكلي على الأسباب واعتقاد أنها تؤثر استقلالاً في جلب المنفعة أو دفع المضرة ، وهذا من الشرك الأكبر »[١] .

ب- الشرك الأصغر وهو « الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك من غير اعتقاد استقلاليته في التأثير ، لكن التعلق به فوق اعتقاد أنه مجرد سبب ، مثل اعتماد كثير من الناس على المالية في الراتب ، ولهذا تجد أحدهم يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا الراتب ، أو من يقرر الراتب اعتماد افتقار ، فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر »[٢] اهـ.

٣- التوكيل الجائز:

« وهو أن يُوكِّلَ الإنسان في فعل يقدر عليه ، فيحصل للموكِّل بذلك

---

(١) انظر شرح كتاب التوحيد للشيخ العثيمين (٢/ ١٩٠ ، ١٩١).

(٢) المرجع السابق .

بعض مطلوبه ، فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلا الله وحده »[١] . « كمن وكَّل شخصاً في شراء شيء أو بيعه ، فهذا لا شيء فيه ؛ لأنه اعتمد عليه وكأنه يشعر أن المنزلة العليا له فوقه ؛ لأنه جعله نائباً عنه . وقد وكل النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن يذبح ما بقي من هديه ، ووكل أبا هريرة على الصدقة ، ووكل عروة بن الجعد أن يشتري له أضحية »[٢] اهـ.

ولكن توكيل المخلوق غايته أن يفعل بعض المأمور ، وهو لا يفعله إلا بإعانة الله له ، فرجع الأمر كله لله وحده .

ضوابط الأخذ بالأسباب :

تبين مما سبق أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل ، بل إنَّ تركها قدح في حكمة الله عز وجل ونقصان في العقل . ولكن الأخذ بالأسباب لابد له من ضوابط تقي من الوقوع في الشرك الناشئ من التعلق بها والاعتماد عليها . ومن أهم الضوابط ما يلي :

١ ـ « الاعتقاد بأنها لا تستقل بالمطلوب ، بل تتعاطى من غير ركون إليها، ومع هذا فلها موانع ، فإن لم يكمل الله الأسباب ، ويدفع الموانع لم يحصل المقصود ، وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الخلق ، وما لم يشأ لم يكن ، وإن شاءه الخلق»[٣] .

٢ ـ « ألا يعتقد في الشيء أنه سبب إلا بعلم وتحقق ، فمن أثبت سبباً بلا

---

(١) انظر جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ٨٩).

(٢) انظر شرح كتاب التوحيد للشيخ العثيمين (٢/ ١٩٠ ، ١٩١).

(٣) انظر توحيد الخلاق للشيخ سليمان بن عبد الله ص١٦٩ ـ ١٧٢ .

علم ، أو بما يخالف الشريعة كان مبطلاً في إثباته آثماً في اعتقاده »[١] .

٣ ـ « أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يُتخذ شيء منها سبباً ، إلا أن يكون مشروعاً ، فإن العبادات مبناها على التوقيف ، فلا يتقرب إلى الله عز وجل بالأعمال الشركية أو البدعية أو نحوها »[٢] .

٤ ـ « إذا لم يوجد من الأسباب في تحصيل المطلوب إلا سبباً محرماً فلا يجوز مباشرته ولا الأخذ به ، وتوحد السبب في حقه في التوكل على الله عز وجل فلم يبق سبب سواه ، فإنه من أقوى الأسباب في حصول المراد ، ودفع المكروه ، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق »[٣] .

٥ ـ « إن كان السبب مباحاً نُظر ؛ هل يضعف القيام به التوكل أو لا يضعفه ، فإن أضعفه وفرق على العبد قلبه وشتت همه فتركه أولى ، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى ؛ لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به ، فلا تعطل حكمته مهما أمكن القيام بها ، لا سيما إذا كان الأخذ بالسبب عبودية لله عز وجل ، فيكون العبد قد أتى بعبودية القلب بالتوكل ، وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة »[٤] .

٦ ـ « إن القيام بالأسباب على نحو ما سبق هو الذي يحقق التوكل ، فمن عطل الأسباب المأمور بها لم يصح توكله ، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه ، فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنياً،

(١) انظر توحيد الخلاق للشيخ سليمان بن عبد الله ص ١٦٩ ـ ١٧٢ .
(٢) انظر المصدر السابق .
(٣) انظر الفوائد لابن القيم ص ٨٦، ٨٧ .
(٤) انظر المصدر السابق .

كما أن من عطلها يكون توكله عجزاً أو عجزه توكلاً »[١] .

٧ ـ « وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفعه قوله : « توكلت على الله » مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء ، وتوكل القلب شيء ، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء ؛ فقول العبد : توكلت على الله . مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله : « تبت إلى الله » وهو مصرٌّ على معصيته مرتكب لها »[٢] .

❋ ❋ ❋

(١) انظر الفوائد لابن القيم ص ٨٦، ٨٧ .

(٢) انظر المصدر السابق .

بعض مظاهر الانحراف والضعف في مفهوم التوكل وتطبيقه

بعد أن اتضح لنا في المبحث السابق حقيقة التوكل والفهم الصحيح له ومراتب الناس فيه ، فيجدر بنا الآن أن نتعرف على بعض مظاهر وصور الانحراف التي طرأت على هذا العمل العظيم من أعمال القلوب ، وما كان لهذا الانحراف من أثر سيئ على بعض أبناء الأمة في عجزهم ، أو تعلقهم بغيرهم ، أو تركهم لما يجب الأخذ به ، وما إلى ذلك من الآثار السيئة والنتائج الوخيمة .

هذا ، ولقد كان للفكر الصوفي المنحرف وظهور الفرق أكبر الأثر في انتشار هذه المظاهر من الانحراف ، يضاف إلى ذلك ما ساهم به الغزو الفكري لهذه الأمة من نشر للمذاهب المادية ، والتي لا تربط النتائج إلا بالمادة المحسوسة ، وتلغي جانب الغيب والإيمان بالله عز وجل وقضائه وقدره وملكه وقهره وعظمته ، وما كان لهذه الأفكار كلها أن تؤثر لو كان العلم وفهم العقيدة الصحيحة منتشراً بين الأمة .

ولكن لما وافق هذا جهل عند البعض من المسلمين بحقيقة هذا الدين وأصوله ؛ نشأ من ذلك بعض المفاهيم المغلوطة للتوكل كما نشأ الضعف في التطبيق لهذه العبادة العظيمة .

وفي الفقـرات التـالية أستـعرض بعض صور الانحراف والضعف في هذا الجانب المهم من جوانب العقيدة ، لعلنا نتفقده في أنفسنا أو عند غيرنا حتى نتجنبه ، ونحذر منه ، ونزيل الغبش عنه ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

ومن أهم مظاهر الانحراف في ذلك ما يلي :

١ ـ النظر إلى التوكل على أنه تواكل وترك للأسباب ، والذين وقعوا في هذا الانحراف على صنفين :

أ ـ صنف يعلم أن التوكل لا ينافي فعل الأسباب ، والأمر واضح عنده بلا شبهة ، ولكنه ينطلق من هذا الفهم المنحرف في تبرير عجزه وكسله وتفريطه ، فهذا عجزه توكل ، وتوكله عجز ، وهذا الصنف من الناس لا ينقصه إلا أن يتقي الله عز وجل ، وألا يبرر شهوته بشبهة ، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« وكثيراً ما يشتبه في هذا الباب المحمودُ الكامل بالمذموم الناقص ، فيشتبه التفويض بالإضاعة ، فيضيّع العبد حظه ؛ ظنّاً منه أن ذلك تفويض وتوكل ، وإنما هو تضييع لا تفويض . فالتضييع في حق الله والتفويض في حقك .

ومنه : اشتباه التوكل بالراحة وإلقاء حمل الكَلِّ ، فيظن صاحبه أنه متوكل ، وإنما هو عامل على عدم الراحة . . .

ومنه : اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز . والفرق بينهما : أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به ،ووثق بالله في طلوع ثمرته ، وتنميتها وتزكيتها ،

كغارس الشجرة ، وباذر الأرض . والمغتر العاجز قد فرط فيما أمر به ، وزعم أنه واثق بالله ، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود »[١] اهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن هذا الصنف من الناس :

« وهم من ذلك ملبوس عليهم ، وقد يقترن بالغلط اتباع الهوى في إخلاد النفس إلى البطالة ؛ ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك ، فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة ، وإما أن يتركوا - لأجل ما تبتّلوا له من الغلو في التوكل - واجبات أو مستحبات أنفع لهم من ذلك ، كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء ، أو نيل رزقه بلا سعي ، فقد يحصل ذلك ، لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه في عمل صالح - أنفع له ، بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه »[٢] اهـ.

ب - أما الصنف الثاني فقد أُتي من جهله بحقيقة التوكل على الله عز وجل ، وجهله بسنن الله سبحانه في ارتباط المسببات بالأسباب ، وأن الأخذ بالأسباب بضوابطها الموضحة سابقاً لاينافي التوكل ، بل إن تركها قدح في حكمة الله عز وجل ، ونقص في العقل ، وما علم صاحب هذا الفهم أن التوكل عليه سبحانه هو أقوى الأسباب في حصول المطلوب ودفع المكروه .

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٣ ، ١٢٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٨٣) .

يقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى :

« واعلم أن تحقيق التوكل لا يُنافي السعي في الأسباب التي قدَّر الله سبحانه المقدورات بها ، وجرت سنته في خلقه بذلك ، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكُّل ، فالسَّعي في الأسباب بالجوارح طاعةٌ له ، والتوكل بالقلب عليه إيمانٌ به ، كما قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ** ﴾ [النساء: ٧١]، وقال : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، وقال : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ [الجمعة: ١٠] »[١] .

ويتحدث ابن القيم رحمه الله تعالى عن توكل الرسول ﷺ وصحابته الكرام مع أخذهم بالأسباب فيقول :

« وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يوم أحد ، ولم يحضر الصف قط عرياناً ، كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة ، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه ، يدله على طريق الهجرة ، وقد هدى الله به العالمين ، وعصمه من الناس أجمعين ، وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين .

وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد ، وجميع أصحابه وهم أولو التوكل حقاً، وأكمل المتوكلين بعدهم : هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة ، أو لحق أثراً من غبارهم .

فحال النبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها ، بها يعلم صحيحها من سقيمها ، فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٩٨ ، ت : الأرناؤوط .

بعدهم ، فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب ، وأن يُعبد الله في جميع البلاد ، وأن يوحده جميع العباد ، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد ، فملأوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً ، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان ، وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وإيماناً .

فكانت همم الصحابة رضي الله عنهم أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي فيجعله نصب عينيه ، ويحمل عليه قوى توكله»[(١)] .

٢ ـ ويقابل الانحراف السابق انحراف في الجانب المقابل ، ألا وهو الإفراط في فعل الأسباب والتعلق بها محبة وخوفاً ورجاءً ، ومعلوم ما في هذا الانحراف من خطر شديد على التوحيد ، فهو إما شرك أكبر إذا اعتقد فاعل الأسباب أنها تؤثر استقلالاً ، وإما شرك أصغر إذا لم يعتقد ذلك ، ولكنه تعلق بها وحابى من أجلها ، وجعل أكثر اعتماده عليها في حصول المطلوب وزوال المكروه .

وما أكثر من يقع منا في هذا الضعف القادح في التوكل على الله عز وجل ، ولكن مابين مقل ومكثر ، وإن وجد من يحقق التوكل على الله عز وجل في أمور الدنيا فإن المحققين له في العبادة وأمور الآخرة أقل وأقل ، وفي ذلك يقول الشيخ ابن عثيمين حفظه الله :

« ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل ، وأننا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه في أن ننال هذا الفعل ، بل نعتمد

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٣٤ ، ١٣٥).

في الغالب على الأسباب الظاهرة ، وننسى ما وراء ذلك ؛ فيفوتنا ثواب عظيم، وهو ثواب التوكل ، كما أننا لا نوفق إلى كمال العبادة ، كما هو الغالب ، سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها »[1] اهـ.

والتوكل على الله عز وجل يجب أن يكون في جميع الأمور ، ولكن فرق بين من يجعل قوة توكله في أمور الدين وبين من يجعله في أمور الدنيا.

ويصف الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى من صرف قوة توكله في أمر دنيوي يناله بأيسر شيء بأنه مغبون؛ لأن أمر الدين ونصرته وزيادة الإيمان هي التي ينبغي أن يصرف العبد فيها قوة توكله . يقول رحمه الله :

« وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله ، وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون ، كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله ، ويمكنه نيلها بأيسر شيء ، وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ، ونصرة الدين ، والتأثير في العالم خيراً ، فهذا توكل العاجز القاصر الهمة.

كما يصرف بعضهم همته وتوكله ، ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء ، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف ، أو نصف درهم ، ويدع صرفه إلى نصرة الدين وقمع المبتدعين ، وزيادة الإيمان ومصالح المسلمين ، والله أعلم»[2] اهـ.

---

(١) شرح كتاب التوحيد للشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٩٠).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥ ، ١٢٦).

وهنا حديث مشهور يُستدل به على فعل الأسباب ، مع أن فيه دليلاً أيضاً على التعلق بالله وحده في طلب الرزق ، وألا يحمل العبد هم رزقه أو يخاف ممن يقطعه، فمن توكل على الله وحده كفاه ، وهذا الحديث هو ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً**»(١) .

ففي هذا الحديث وصف لحال الطير الضعيف الذي يبيت ليله لا يحمل هم رزق غده ، ولكنه ينطلق في الصباح غير معتمد على قوته ولا حذره ، فيرزقه الله عز وجل ويكفيه ، فلو أننا فعلنا الأسباب ولم نتعلق بها ، وإنما تعلقنا بالله وحده وفوضنا أمورنا إليه ووثقنا بمعونته وكفايته، لرزقنا كما يرزق الطير ، لكن الكثير منا على خلاف ذلك ، نعم، نقول بألسنتنا : توكلنا على الله ، ونعتقد أن الله وحده هو الخالق الرازق المتصرف في كل شيء، والذي بيده النفع والضر ، ولكن عند التطبيق يظهر الضعف والنقص . فترى بعضنا يعتمد على قوته أو حذره أو ذكائه ، أو يعتمد على شخص أو هيئة أو يخاف من جهة معينة أن تقطع رزقه أو تؤخره أو تحوله .

ولو أننا أيقنا أن المخلوق الضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن أن يملكه لغيره ، لنفضنا اليد منه ، ولم تتعلق القلوب به، ولم ترجه ، ولم تخفه وإنما تتوجه القلوب إلى ربها وخالقها ومعبودها سبحانه خالق الأسباب والمسببات، والذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو على كل شيء قدير .

(١) مر تخريجه ص٣٤٧.

وسيأتي زيادة بيان حول افتقار العبد إلى ربه عبادة وتوكلاً ، ومفاسد التعلق بالمخلوق الضعيف ، وما ينتج عن ذلك من خسارة وخذلان ، وذلك في مبحث تال إن شاء الله تعالى .

٣ ـ ومن مظاهر الانحراف في مفهوم التوكل ما ينقل عن بعض غلاة المتصوفة من أن التوكل من مقامات العامة ، لا من مقامات الخاصة ، ومنشأ هذا الانحراف أتى من ظنهم أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا ، كما هو شأن عامة الناس ، وهذا غلط ، فإن أعظم ما يُتوكل على الله فيه الأمور الدينية ، وحفظ الإيمان ، وجهاد أعداء الله عز وجل ، ورجاء ثوابه سبحانه ، ويمكن أن يقال : إن من كان توكله على الله عز وجل في كل أموره، لكنه في أمور الدين والإيمان والآخرة أكثر ، فإنه يكون أكمل وأصح توكلاً ممن قصره على حظوظ الدنيا ومطالبها .

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« ولكن هذه « المقامات » ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم . فللخاصة خاصها ، وللعامة عامها ، مثال ذلك أن هؤلاء قالوا : « إن التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت ، والخاص لا يناضل عن نفسه . وقالوا : المتوكل يطلب بتوكله أمراً من الأمور ، والعارف يشهد الأمور بفروعها منها ، فلا يطلب شيئاً » .

فيقال : أما الأول ؛ فإن التوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا ، فإن المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه ، وحفظ لسانه وإرادته ، وهذا أهم الأمور إليه ، ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله :

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع ؛ لأن هذين يجمعان الدين كله ؛ ولهذا قال من قال من السلف : إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن ، وجمع علم القرآن في المفصل ، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب ، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

وعلى هذا فالذي ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا ، وهو غلط ، بل التوكل في الأمور الدينية أعظم»[1] اهـ.

٤ ـ جبن القلب والخوف من المخلوق :

إن مما ينافي حقيقة التوكل الخوف من المخلوق خوفاً يدفع إلى ترك ما يجب أو فعل ما يحرم محاباة للمخلوق أو خوفاً من شره ، ومثل ذلك يكون أيضاً في الطمع والرغبة ، فالطمع في نفع المخلوق أو الخوف من شره إذا أدى إلى ضعف التعلق بالله عز وجل وضعف الثقة به سبحانه فإن هذا يقدح في التوكل، ويضعفه إن لم يذهبه ، ومن تعلق بشيء وكل إليه ، ومن وكل إلى غير الله عز وجل ضاع وهلك ، وخاب وخسر . ومما يصلح التمثيل به في عصرنا اليوم على هذا الضعف ، هو ما يعتري بعضنا وهو في دعوته إلى الله عز وجل من خوف على نفسه أو رزقه أو منصبه ، الأمر الذي يؤدي بالبعض إلى ترك ما هم عليه من تعليم للعلم أو دعوة إلى الله عز وجل ، والإحجام عن مجالات الخير ، ونفع الناس بحجة الحذر والبعد عن الفتن .

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨ ـ ٢٠) باختصار .

والله سبحانه أعلم بما في قلوب العالمين .

ثم إنه لو كان يغلب على الظن حصول الأذى والابتلاء لكان لذلك بعض الوجه في الأخذ بالرخصة وترك العزيمة ، أما وإن الأمر على العكس من ذلك ؛ حيث يغلب على الظن عدم التعرض للأذى ، فإنه لا تفسير لهذه المواقف إلا ضعف التوكل على الله عز وجل ، والوسوسة الشديدة ، والمبالغة في الخوف، والحذر الزائد من المخلوق الضعيف وتهويل أمره ، وهذا من كيد الشيطان ووسوسته ، وكأننا لم نسمع ولم نع قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ . [آل عمران : ١٧٥]

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى :

« والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل وأن يتضخم الشر ، وأن يتبدى قوياً قادراً باطشاً جباراً ، لا تقف في وجهه معارضة ، ولا يصمد له مدافع ، ولا يغلبه غالب . الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا ، فتحت ستار الخوف والرهبة ، وفي ظل الإرهاب والبطش يفعل أولياؤه في الأرض ما يقر عينه ، يقلبون المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، وينشرون الفساد والباطل والضلال ، ويخفتون صوت الحق ، والرشد والعدل . . .

والشيطان ماكر خادع غادر يختفي وراء أوليائه ، وينشر الخوف منهم في صور الذين لا يحتاطون لوسوسته . . . ومن هنا يكشفه الله ويوقفه عارياً ، لا يستره ثوب من كيده ومكره ، ويُعرِّف المؤمنين الحقيقة ؛ حقيقة مكره

ووسوسته ؛ليكونوا على حذر ، فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولايخافوهم، فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ، ويستند إلى قوته»[1] اهـ.

❋ ❋ ❋

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن (٢/ ١٥١) .

المبحث الرابع
بعض لوازم العبادة الحقة والتوكل الصادق وبعض ثمارهما

بعد أن تبين لنا المفهوم الصحيح للعبادة كما يريدها الله عز وجل ، وكذلك المفهوم الحق للتوكل باعتباره أثراً عظيماً من آثار العبادة الحقة ، نتعرف الآن على بعض لوازمهما ومقتضياتهما وما تثمرانه في النفس والحياة من آثار عظيمة القدر والنفع في الدنيا والآخرة .

فإن لم تظهر هذه الآثار واللوازم فإن هناك دَخَلاً وانحرافًا في فهم أو تطبيق هذين الأصلين العظيمين ، فالعبرة بما يظهر من الآثار لعبادة الله عز وجل والتوكل عليه ، وليست بمجرد قول القائل بلسانه : آمنت بالله ، وأنبت إلى الله ، وتوكلت على الله . فالعبرة بالحقائق لا بالصور ، وبالاستسلام والإذعان لا بالقول باللسان فحسب . ومن هذه الآثار واللوازم ما يلي :

١ ـ الدخول في السلم كافة :

والعبودية لله عز وجل تقتضي الدخول في السلم كافة ، وإنفاق العمر كله في عبادة الله عز وجل ، لا يخرج العبد فيها عن وصف العبودية لحظة واحدة من لحظات العمر ، وهذا يقتضي أن تكون جميع حركات العبد وسكناته منبثقة من العبودية لله سبحانه والاستسلام لشرعه ، فهو عبد مطيع لربه في مسجده ، وفي بيته ومدرسته ، وفي متجره ، وفي عمله ، وفي حكمه

وتحاكمه ، وفي حبه وبغضه ، وعطائه ومنعه ، وبهذا يتحقق وصف العبودية التامة لله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

وبهذا الفهم والتطبيق تختفي تلك الصور المنحرفة لفهم العبادة وتطبيقها المنحرف أيضاً مثل أن تحصر العبادة في المسجد أو في شعائر التعبد فقط ، ولا دخل لها بعد ذلك في شئون الحياة ، «كما سبق بيان ذلك في مبحث سابق »[1] .

٢ـ الحكم بشرع الله عز وجل والتحاكم إليه وحده ورفض ما سواه :

إن من لوازم العبودية الصادقة لله عز وجل محبة شرعه وحكمه وبغض ورفْض ما يضاده ؛ حيث يمتنع ادعاء محبة الله عز وجل ومحبة ما يكرهه أوترك ما يحبه كما يمتنع ادعاء محبة رسوله ﷺ ومتابعته مع ترك سنته والحكم بشريعته . ولقد مر بنا في بيان شرطي العبادة وقبولها أنها قائمة على الإخلاص لله سبحانه والمتابعة لرسوله ﷺ .

إذن فالعبودية له سبحانه تقتضي محبة شرعه والحكم به والتسليم له ورفض ما سواه من أحكام البشر الجاهلة الجائرة الفاسدة المفسدة ، قال تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] .

(١) انظر الانحراف في مفهوم العبادة ص٣٢٨ وما بعدها .

٣ ـ العزة والشرف والتحرر الحقيقي :

إن العزة وكمال الشرف ، والحرية الكاملة من عبودية البشر لا تكون إلا في تحقيق العبادة لله عز وجل والاستعانة به وحده . وعلى العكس من ذلك فإن الذلة والمهانة والرق الحقيقي هو في الابتعاد عن عبادة الله تعالى وطاعته ؛ لأن أي مكلف يرفض الدخول في عبادة الله عز وجل ، فلابد أن يدخل في عبودية غيره من المخاليق الضعفاء ، ومعلوم ما في استعباد المخلوق لمخلوق مثله من الذلة والرق والظلم والفساد . وهذه سنة الله عز وجل في عباده .

والإنسان لا يبلغ كماله الحقيقي وشرفه الأعلى إلا في العبودية لله وحده والرفض الكامل لعبودية ما سواه ، وهذا الكمال البشري هو الذي وصل إليه أنبياء الله ورسله عليهم الصلاةوالسلام وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ ، وهو الذي خاطبه ربه سبحانه في أعلى مقاماته التي وصل إليها : مقام تلقي الوحي ، ومقام الإسراء ، خاطبه فيهما بوصف العبودية ؛ لأنها أرقى وأعظم وأشرف منزلة يصل إليها الإنسان .

قال تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا** ﴾ [الكهف : ١] ، وقال تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا** ﴾ [الإسراء : ١] .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« إن الدينونة لله تحرر البشر من الدينونة لغيره ، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية ، وحريته الحقيقية ، هذه الحرية وتلك اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر ـ

غير النظام الإسلامي - يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية ، في صورة من صورها الكثيرة . . . سواء عبودية الاعتقاد ، أو عبودية الشعائر ، أو عبودية الشرائع . . فكلها عبودية ، وبعضها مثل بعض ؛ تخضع الرقاب لغير الله ، بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير الله .

والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين ! لابد للناس من دينونة ، والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله في كل جانب من جوانب الحياة !

إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط ، ومن ثم يفقدون خاصتهم الآدمية ، ويندرجون في عالم البهيمة : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾ [محمد: ١٢] ، ولا يخسر الإنسان شيئاً كأن يخسر آدميته ، ويندرج في عالم البهيمة ، وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التملص من الدينونة لله وحده ، والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة . . .

وهذا يقودنا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونة في صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم ، التي تصبح كلها ولا عاصم لها عندما يدين العباد للعباد في صورة من صور الدينونة ، سواء في صورة حاكمية التشريع ، أو في صورة حاكمية الأعراف والتقاليد ، أو في صورة حاكمية الاعتقاد والتصور . . . »(١) اهـ.

وللشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله تعالى كلام نفيس حول هذا

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٩٣٩ ، ١٩٤٠) ط/ الشروق .

الموضوع المهم ، أنقله لأهميته ، قال رحمه الله تعالى عند تفسير ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ :

« بتحقيق العمل بمدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ينجو الإنسان ويسلم من الرق المعنوي الذي هو أفظع وأنكى من كل رق حسي ؛ لأن الرق الحسي يشعر به صاحبه ، فيتمنى انتهاءه ، ويسعى لإزالته والتخلص منه حسب مجهوده ، ولكن الرق المعنوي لا يشعر به صاحبه ، بل على العكس ينقلب تصوره له تحرراً وتقدماً ، فيتمادى باستحسان حالته ، دون أن يخالجه أدنى شيء من الامتعاض والإحساس .

وكل من لم ينشغف وينشغل بعبادة الله ويحصر اتجاهه عليها واستعانته به جل وعلا ، فإنه لابد من أن يبتلى بنوع أو أنواع من الرق المعنوي المذيب لشخصيته من حيث لا يشعر ، فمنهم من تسترقه شهواته ، وتجعله عبداً لمرذول أو مرذولة ، لا يرضى هو أن يكونوا من عبيده لو كان متحرراً من الرق المعنوي ، مستبصراً بالبصيرة الفطرية ، ولكن الرق المعنوي يجعله مغرماً بهذا أو هذه أو بهما جميعاً ؛ فيكون منشغفاً بقشر الجمال الذي سلب عقله ، واسترق أحاسيسه وجوارحه؛ يتغنى بأوصافه ، ويفديه بنفسه وروحه التي لا تعدلها الدنيا جميعها ثمناً لو عرف قيمة نفسه ، بل يجهد نفسه في تحصيل الرضا أو طلب الوصال ممن يجب بغضه أو الابتعاد عنه ، لو ملك العقل الفطري الذي يرفعه عن الرق المعنوي ، وأحوال هذا القسم ظاهرة للعيان من أقدم العصور إلى أحدثها ، تشهد عليهم اعترافاتهم في أشعارهم، كما قال قائلهم :

بنفسي أفدي خاله فـوق خده ومن أنا بالدنـيا فأفـديه بالمال

وكما قال الآخر :

بنفسي من لو مر بـرد بـنانه عـلى كبدي كانت شفاءً أناملـه

ولا شك أن الإنسان عبد لما أحب ، فالمتعلق بحب الشهوات هو للهوى والشهوات رقيق لها دائماً ، والمتعلق بحب المال والمتاع هو عبد لصنوف المال والمتاع ، يعيش منهوماً لا يشبع ، وسكران لا يفيق ، تسترقه وتستعبده مطامعه المسعورة المتكررة .

والمسلم المؤمن الصادق لا يرتبط في جميع أحوال سيره بعجلة أحد ولا تبعية أحد لسلامته من الرق المعنوي بإخلاص مقاصده لله ، وكونه مستعيناً به فقط ، فلا يخشى من أي قوة ، ولا يستعين بكتلة على كتلة أخرى ؛ حتى لا يصغي إلى ما تمليه .

وأصحاب الرق المعنوي يعادون الحر الذي على هذه الشاكلة بدافع من طبيعتهم السافلة ، أو بإملاء من أسيادهم الذين يركنون إليهم ، ولا سبيل لتطهير قلوبهم من ذلك إلا بما يحرر أرواحهم من القيام بتحقيق مدلول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ »(١) اهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« إذ الرق والعبودية في الحقيقة : هو رق القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده ، فالقلب عبده ، ولهذا يقال :

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٧).

العبـــد حـــــر مــا قــنع والحــر عــبــد ما طــمــع

وقال القائل :

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنـعـت لكنت حراً

إلى أن قال رحمه الله تعالى :

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ، ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته ، قويت عبوديته ، وحريته عما سواه ، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له ، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه ، كما قيل : استغن عمن شئت تكن نظيره ، وأفضل على من شئت تكن أميره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره . . .

ويقول أيضاً :

فإن أسْر القلب أعظم من أسْر البدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن ، فإن من استُعبد بدنه واسترق وأسر لا يبالي ما دام قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص ، وأما إذا كان القلب ـ الذي هو ملك الجسم ـ رقيقاً مستعبداً ، متيماً لغير الله ، فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية الذليلة لما استعبد القلب . . . فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى النفس ، قال النبي ﷺ : «**ليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغنى غنى النفس**»[1] »[2] اهـ.

وقال أيضاً : « وإذا تبين هذا ، فكلما ازداد القلب حبّاً لله ، ازداد

(١) البخاري (٦٤٤٦) الرقاق ، ومسلم (١٠٥١) الزكاة .
(٢) العبودية : ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ .

عبودية وحرية عما سواه ، وكلما ازداد له عبودية ، ازداد له حباً وحرية عما سواه »[1] .

٤ـ سلامة السلوك والتزام أوامر الله سبحانه وترك معاصيه ودوام مراقبته :

وهذا من أعظم ثمار العبادة وآثارها ، وإلا فما قيمة عبادة لا تثمر طاعة المعبود واجتناب معاصيه ، ومحبة محابه وبغض ما يبغضه. وإن التساهل في التزام ما يحبه الله عز وجل من الأخلاق الفاضلة وترك مساوئها يؤول في نهاية الأمر إلى خلل في عبادة الله سبحانه وتوحيده . وإلى هذا نبه العلماء الربانيون وحذروا .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه ، فأي شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه ، فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر ، وكالمرآة الصافية جداً أدنى شيء يؤثر فيها ، ولهذا تشوشه اللحظة ، واللفظة ، والشهوة الخفية ، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده ، وإلا استحكم وصار طبعاً يتعسر عليه قلعه »[2] .

ويقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« إن عبودية الله تقتضي إشغال جميع الجوارح والأحاسيس في طاعة الله وامتثال أمره ؛ لينحصر الاتجاه إليه سبحانه وتعالى في كل ما ركبه في جسم

---

(١) العبودية : ٤٥ .

(٢) الفوائد ص ١٨٤ .

الإنسان ، كما تقتضي كفها وصيانتها عن الانشغال بما لا يرضي الله من كل محرم ومكروه ، وعن الانهماك في المباحات المشغلة »[1] اهـ.

ويقول أيضاً :

« فالعابد لله يراقب الله بمحاسبة نفسه على كل خطرة أو نظرة ، وعلى كل حركة وسكون ليصقل قلبه من سواد المعصية فعلاً ، والتقصير بالطاعة تركاً؛ خائفاً من لقاء الله بقلب أسود ، فإذا تدنس ثوبه ذكر دنس قلبه ، فسعى لتنقيته وتطهيره قبل ثوبه لقوة معرفته أنه محل نظر الله »[2] اهـ.

وأنه لا شيء يضبط السلوك ويأطر النفس على محاسن الأخلاق وترك سيئها مثل عبادة الله عز وجل ، والخوف منه سبحانه ، ورجاء ثوابه ومراقبته في كل حين ، وإذا لم يوجد هذا الشعور فإنه لا تنفع أي محاولة مهما كانت في تهذيب سلوك الناس . ولنأخذ على ذلك مثالاً ؛ ألا وهو تحريم الخمر ومحاربة المخدرات ، وما هو الفرق في علاج النفس البشرية والمجتمع الإنساني بين منهج الله عز وجل والمناهج الجاهلية ، فيقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« أما في أمريكا ، فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانوناً في سنة ١٩١٩ سمي قانون « الجفاف » ! من باب التهكم عليه ، لأنه يمنع « الري » بالخمر ! ، وقد ظل هذا القانون قائماً مدة أربعة عشر عاماً حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة ١٩٣٣ .

وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما

---

(١) صفوة المفاهيم والآثار (١/ ١٦٢) .

(٢) المصدر السابق (١/ ١٥٩) .

والمحاضرات للدعاية ضد الخمر ، ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات ، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم من مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن ٢٥٠مليون جنيه ، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس ، وسجن كذلك ٥٣٢,٣٣٥ نفساً ، وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيه ، وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة بلايين جنيه. . وبعد ذلك كله اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون .

فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي ببعض آيات من القرآن ، وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية وفي علاج المجتمع الإنساني . . بين منهج الله ، ومناهج الجاهلية قديماً وحديثاً على السواء!

لقد تمت المعجزة ؛ لأن المنهج الرباني أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة . . أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته ، وبحضور الله فيها حضوراً لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان . . أخذها جملة لا تفاريق . . وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة .

لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغاً تملؤه بنشوة الخمر ، وخيالات السكر ، وما يصاحبها من مفاخرات وخيلاء . . في الهواء . . ملأ فراغها باهتمامات ، منها : نقل هذه البشرية الضالة الشاردة كلها من تيه الجاهلية الأجرد ، وهجيرها المتلظي ، وظلامها الدامس ، وعبوديتها المذلة، وضيقها الخانق ، إلى رياض الإسلام البديعة ، وظلاله الندية ، ونوره الوضيء ، وحريته الكريمة ، وسعته التي تشمل الدنيا والآخرة . .

إنها لم تكن كلمات . . هي التي حققت تلك المعجزة الفريدة . . إنما كان منهج ؛ منهجٌ هذه الكلمات متنه وأصله ، منهج من صنع رب الناس ، لا من صنع الناس ، وهذا هو الفارق الأصيل بينه وبين كل ما يتخذه البشر من مناهج ، لا تؤدي إلى كثير ! . . .

فمتى يدرك هذه الحقيقة البسيطة من يحاولون أن يضعوا لحياة الناس مناهج غير منهج العليم الخبير ؟ وأن يشرعوا للناس قواعد غير التي شرعها الحكيم البصير ؟ وأن يقيموا للناس معالم لم يقمها الخلاق القدير ؟ متى ؟ متى ينتهون عن هذا الغرور ؟؟؟ »[1] اهـ.

٥ ـ الإقدام والشجاعة ، والثبات على الحق ، والطمأنينة :

الصادق مع الله عز وجل في عبادته واستعانته به سبحانه لا تراه إلا رابط الجأش شجاع القلب ثابتاً على مبدئه مستهيناً بالباطل وأهله ، وكيف لا وهو يأوي إلى ربه القوي العزيز رب كل شيء ومليكه ، يعبده ويستعينه ، ويفوض أمره كله إليه .

ولقد قص الله تعالى علينا في كتابه الكريم خبر أنبيائه وصفوته من خلقه ، وكيف كان ثباتهم وشجاعتهم وتحديهم لأقوامهم الذين يملكون العدد والعتاد ، ومن ذلك ما ذكره سبحانه عن نبيه ورسوله نوح عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ** ﴾ [يونس : ٧١] .

---

(١) في ظلال القرآن عند الآية (٤٣) من سورة النساء .

وكذلك قال عن هود عليه السلام لما قال له قومه : ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦] .

وقال عن خاتم أنبيائه محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٥ ، ١٩٦] .

وأخبرنا سبحانه عن أصحاب محمد ﷺ عندما تحزبت عليهم الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم يوم الخندق، فقال : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وقال عنهم يوم أحد عندما خوّفهم مَنْ خوّفهم برجوع المشركين مرة أخرى لقتالهم ، وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والجراحات فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ، ١٧٤] .

والأمثلة في ذلك كثيرة وكثيرة ، ولنرجع إلى ما علق به بعض المفسرين على قصة هود عليه السلام مع قومه ، يقول القرطبي رحمه الله تعالى عن هذه القصة :

« قوله : ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي : أنتم وأوثانكم في عداوتي وضري .

﴿ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ أي : لا تؤخرون ، وهذا القول مع كثرة الأعداء يدلّ على كمال الثقة بنصر الله تعالى ، وهو من أعلام النبوة أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ ، وكذلك قال النبي ﷺ لقريش . وقال نوح ﷺ : ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُم﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي : رضيت بحكمه، ووثقت بنصره ، ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ﴾ أي : نفس تدب على الأرض ، وهو في موضع رفع بالابتداء ﴿إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي : يصرفها كيف يشاء ويمنعها مما يشاء ، أي : فلا تصلون إلى ضري »[1] اهـ.

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه القصة بقوله :

« وإن الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى ، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي ؛ ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس ! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة ، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم ، ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي ، لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم ، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم .

إن الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد ، ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب .

إنه الإيمان والثقة والاطمئنان ، الإيمان بالله ، والثقة بوعده ، والاطمئنان إلى نصره . . الإيمان الذي يخالط القلب ، فإذا وعد الله بالنصر حقيقة

(١) تفسير القرطبي عند الآيات ٥٤ ـ ٥٦ من سورة هود .

ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة ؛ لأنها ملء يديه ، وملء قلبه الذي بين جنبيه ، وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب ، إنما هي حاضر واقع تتملاه العين والقلب ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤] .

إني أشهد الله على براءتي مما تشركون من دونه . واشهدوا أنتم شهادة تبرئني وتكون حجة عليكم : إنني عالنتكم بالبراءة مما تشركون من دون الله، ثم تجمَّعوا أنتم وهذه الآلهة التي تزعمون أن أحدها مسّني بسوء ، تجمعوا أنتم وهي - جميعاً - ثم كيدوني بلا ريث ولا تمهل ، فما أباليكم جميعاً ، ولا أخشاكم شيئاً . . ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود : ٥٦].

ومهما أنكرتم وكذبتم ، فهذه الحقيقة قائمة ، حقيقة ربوبية الله لي ولكم، فالله الواحد هو ربي وربكم ، لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة . . ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] .

وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض ، بما فيها الدواب من الناس .

والناصية أعلى الجبهة ، فهو القهر والغلبة والهيمنة ، في صورة حسية تناسب الموقف وتناسب غلظة القوم وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم ، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم . . وإلى جانبها تقرير استقامة السنة الإلهية في اتجاهها الذي لا يحيد : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] ، فهي القوة والاستقامة والتصميم »[1] اهـ.

---

(١) في ظلال القرآن ، عند الآيات ٥٤ ـ ٥٦ من سورة هود .

وبعد هذه النقولات لنستمع إلى ما يقوله الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن أثر العبودية الخالصة والتوكل الصادق في طرد الخوف والهلع وجلب الشجاعة والثبات والإقدام ، فيقول رحمه الله تعالى :

« ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلى الله ورسوله ولو كنت وحدك ، فإن الله معك وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك ، وإنما امتحن يقينك وصبرك ، وأعظم الأعوان لك على هذا بعد عون الله التجرد من الطمع والفزع ، فمتى تجردت منها هان عليك التحيز إلى الله ورسوله ، وكنت دائماً في الجانب الذي فيه الله ورسوله ، ومتى قام بك الطمع والفزع فلا تطمع في هذا الأمر ، ولا تحدث نفسك به ، فإن قلت : فبأي شيء أستعين على التجرد من الطمع ومن الفزع ؟ قلت : بالتوحيد والتوكل والثقة بالله وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا هو ، وأن الأمر كله لله ، ليس لأحد مع الله شيء»[1] اهـ.

أما عن أثر العبادة والاستعانة في الثبات والسكينة وتحمل الشدائد ورد كيد الأعداء وشرورهم ، فهذا أمر قد تكفل الله سبحانه به لمن صحت عبادته وصدق توكله وفوض أمره إلى مولاه سبحانه .

ولما كانت العبادة لا تقوم ولا تقبل إلا بالإخلاص لله عز وجل ، والمتابعة للرسول ﷺ ، فإنه يمكننا القول بأن الثبات والطمأنينة وقوة العزيمة وإبطال كيد الكائدين لابد له من أمور ثلاثة :

---

(١) الفوائد ص ١١٦ .

١ ـ إخلاص الأمر لله عز وجل .

٢ ـ أن يكون العمل حقاً مشروعاً متبعاً فيه الرسول ﷺ .

٣ ـ الاستعانة بالله عز وجل في ذلك والتوكل عليه والتبرؤ من الحول والقوة ، والخلوص من العجب والكبر ، والحذر من الاغترار بالنفس والأتباع .

وبالتأمل في الأمر الأول والثاني نجدهما يمثلان حقيقة العبودية لله سبحانه ، بينما الأمر الثالث يمثل الاستعانة بالله عز وجل ، فآل الأمر إلى قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وعن هذا الأثر العظيم للعبادة والاستعانة يحدثنا الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، فيقول :

« إذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً ، وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء ، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها ، وجعل له فرجاً ومخرجاً ، وإنما يُؤتى العبدُ من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة ، أو في اثنين منها ، أو في واحد ، فمن كان قيامه في باطل لم يُنصر ، وإن نُصر نصراً عارضاً فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول ، وإن قام في حق لكن لم يقم فيه لله وإنما قام لطلب المَحْمَدة والشكور والجزاء من الخلق ، أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً والقيام في الحق وسيلة إليه ـ فهذا لم تضمن له النصرة ، فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله ، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين ، وإن نُصر بحسب ما معه من الحق فإن الله لا ينصر إلا الحق ، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل ، فبحسب ما

معهم من الصبر .

والصبر منصور أبداً ، فإن كان صاحبه محقّاً كان منصوراً له العاقبة ، وإن كان مُبطلاً لم يكن له عاقبة ، وإذا قام العبد في الحق لله ، ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً عليه مفوضاً إليه ، بريّاً من الحول والقوة إلا به ـ فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك .

ونكتة المسألة : أن تجريد التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة ، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زُمر الأعداء»(١) اهـ.

ويقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« صدق الاستعانة بالله يورث طمأنينة القلب ، وسكون النفس ؛ لأن ذلك من آثار صدق الإيمان وقوته ، وإذا اطمأن قلب الإنسان وسكنت نفسه حصل له برد الراحة ، وحلاوة اليقين ، وسلم قلبه مما ينتاب قلب غيره من الخطرات الفاسدة أو المفزعة أو المخذلة ، فكان يستقبل الأهوال بشجاعة وثبات ، لا يبالي بالخطوب إذا اعتدت ، ولا يلويه شيطان الهوى والشهوات عن الإقدام على الأهوال ، أو الثبات على الخطوب؛ لاستمداده العون من ربه الذي صدق معه في ضراعته باستعانته ، فهو يرى نفسه موصولاً من الله بالمدد الروحي والمعنوي ، ويؤمن بأن الله يفتح له كل مغلق ، فلا يعتوره اليأس ، أو يتسرب إليه الجزع ، ولا يصيبه شيء من الضعف أو الحيرة ؛ لأنه في كنف الله وعزته ونوره ، فهو من أهل هذه الآية : ﴿ **ذَلِكَ**

(١) أعلام الموقعين (٢/ ١٧٨) .

بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] »(١) اهـ.

ويقول أيضاً : « في حصر الاستعانة بالله قوة معنوية تكسب العابد لله رباطة جأش وعظيم صراحة وجرأة ، فلا يداهن ولا يتصنع للناس في أي حال من الأحوال ، بل يصدع بعقيدته ويجهر بدينه بحدود ما فرض الله دون الخروج إلى حد التهور ،أو يخرجه من المقابلة بالحكمة إلى نقمة الهجوم ومرارة التحدي الذي يحل به الفساد بدل الإصلاح»(٢) اهـ.

٦ ـ انتفاء الرياء والعجب والكبر :

إن من ثمار العبودية التامة لله عزوجل والاستعانة به وحده سبحانه أن يتخلص القلب من هذا الثالوث الفتاك ، الذي يمرض القلوب ، بل يميتها إن لم يتدارك العبد نفسه ، ويعالجها بصدق التعبد لله عز وجل وإظهار الفاقة والافتقار إليه سبحانه ، فيستعين به ويتوكل عليه ، ويرى أن الحمد كله لله ، والفضل بيده وحده ، وأن لا قدرة ولا حول ولا هداية ولا عافية إلا منه سبحانه ، لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولايذهب بالسيئات إلا هو سبحانه وتعالى .

وإذا أراد العبد وجه الله عزوجل في جميع أعماله انتفى الرياء من القلب، وإذا أيقن العبد بضعفه وافتقاره لربه سبحانه وأنه ضعيف هالك إن لم يعنه ربه سبحانه ويوفقه ، فإن ذلك ينفي العجب ، ويورث التواضع والإخبات للحق، كما يورث التواضع للخلق ، وأن ليس له فضل على نفسه ولا على أحد ، وأن الفضل كله لله ، والخير كله بيده سبحانه فهو المان به وحده.

(١) صفوة المفاهيم (١/ ١٥٧) .
(٢) المصدر السابق (١/ ٩٠).

إن هذا الشعور حينما يسيطر على القلب فإنه لا مكان للعجب ولا للكبر فيه ، وإنما يحل مكان ذلك الإخبات والخضوع لله عز وجل ، مع التواضع للحق والخلق ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« وكثيراً ما يقرن الناس بين الرياء والعجب ، فالرياء من باب الإشراك بالخلق ، والعجب من باب الإشراك بالنفس ، وهذا حال المستكبر ، فالمرائي لا يحقق قوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ والمعجب لا يحقق قوله : ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ ، فمن حقق قوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ خرج عن الرياء ، ومن حقق قوله : ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ خرج عن الإعجاب ، وفي الحديث المعروف : « **ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه** »[1] »[2] .

ويقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« عبودية الله تستلزم الإخبات له ، فالعابد لله يكون مخبتاً له ، والإخبات الاطمئنان ، فهو النزول بالنفس عن الكبرياء والغطرسة ، بأن تُستذل لله وحده ، وترى فقرها وحاجتها إليه ملازمين لها ، ويسمى المكان المطمئن في اللغة « خبتاً » ، والإخبات لله هو الذل والاطمئنان عند ذكره خوفاً ووجلاً »[3] اهـ .

وقد ذكر الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى كلاماً جيداً عن آفة العجب ، وبم يتخلص منها ، أقتطف منها حديثه عن العُجب بالنفس والعقل والفطنة ؛

---

(١) أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٣) ، والبيهقي في الشعب (٧٢٥٢) وغيرهما ، وله طرق أخرى هو بمجموعها حسن ، انظر السلسلة الصحيحة (١٨٠٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٧٧) .

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ١١٢) .

حيث يقول :

« قلت : فالعجب بالعقل والذهن والفطنة ؟ قال : استحسان ذلك واستعظامه ، ونسيان النعمة بالتفضُّل به ، والاتكال عليه أن يدرك به ما يريد وما يؤمل ، من علم أو رأي ، أو أحكام دين الله عز وجل ، أو دنيا ، وترك التوكل على الله عز وجل في جميع ذلك ، حتى يخرجه ذلك إلى قلة التثبت لإعجابه بعقله ، حتى يخطئ في دين الله عز وجل ، ويقول عليه بغير الحق ، ويخرجه أيضاً إلى ترك التفهم ممّن علّمه أو أمره أو ناظره ، حتى يحرم الفهم للحق ، ويأبى إلا القول بالخطأ والغلط ، ويخرجه إلى حقرية [1] من دونه ، ممَّن لم يُعطَ من الفطنة مثل ما أعطي ، وإن كان أورع منه وأفضل عملاً ، حتى يُسمي كثيراً ممن هو أورع منه وأفضل منه جهالاً حمقى ، ويراهم كالحمير التي لا تعقل ؛ إذ فضل عليهم بالفطنة والذهن ، ويستطيل عليهم ، ويرى ألا قدْر لهم ، ويستصغر ما عملوا من خير ، ويرى أنه خير منه ، وإن ضيّع العمل لفطنته ولعقله .

قلت : فبمَ ينفي ذلك ؟

قال : بمعرفته بجهله مهما أعطي من الفطنة ، وبسهوه وغفلته وقلّة ما يدري بعقله ، وإن كان قد أعطي من الفطنة أكثر مما أعطي غيره ، فقد وجب عليه في ذلك الشكر ، وإنما فُضّل بالذهن لتعظم الحجة عليه ، ولتوكيد الطاعة باللزوم لها ، ولينظر الله عز وجل كيف استعماله لعقله في الفهم عنه ، والاشتغال به ، وأن ما أعطي من العقل بيد الله عز وجل ، [و] لو شاء أن يغيّره ويزيله ببعض الآفات ، كما رآه فَعَل ذلك بمن هو مثله ومن هو فوقه

(١) كذا : ولعلها : حقره .

لفعل ، فلا يأمن من أن يسلبه الله عز وجل عقله .

فإذا عرف ضعفه وجهله وقلة ما يدرك بعقله ، وأن ما فُضّل به منّة منه ، عليه فيه الشكر وعظيم الحجة ، ووجوب الحق ، وأنه لذلك مضيع ، فإذا عرف ذلك علم أن من لم يؤت من الفطنة مثل ما أوتي أحسنُ حالاً منه ؛ إذ لم يشكر الله عز وجل على ما فضله به عليه ، وأن الحجة عليه أعظم منها على من دونه .

وقد يرى كثيراً ممَّن هو دونه في الفطنة أطوع لله تعالى منه ، وأنه مع ذلك لا يأمن أن يسلبه الله تعالى عقله إن ضيع القيام لله تعالى به فيما وجب عليه من الفهم عنه ، والعقل عنه والعمل به .

فإذا ألزم قلبه هذه المعرفة زال عنه العجب ، وخاف عظيم الحجة ، وواجب الحق ، واهتم بالشكر وأداء الحق »[(١)] .

٧ ـ تفريج الكربات والسلامة من مضلات الفتن :

لقد مر بنا في الثمرة الخامسة أثر العبادة وصدق التوكل والاستعانة به سبحانه على شجاعة القلب والثبات وعدم الاكتراث بالباطل وأهله ، وهذه الثمرة فرع عن تلك ؛ حيث إن الصادق في عبادته وتوجهه لربه والصادق في توكله واستعانته بمولاه سبحانه يصبح محفوظاً من الله عز وجل معصوماً من الفتن وشرورها ، وإن مرت به كربة ثبته الله وصبره عليها ، وسرعان ما تنكشف وتنفرج عن خير وعاقبة حسنة له ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] .

---

(١) الرعاية للحارث المحاسبي ص٣٦٠ ، ٣٦١ .

وقال سبحانه عن نبيه ﷺ وصحابته الأجلاء : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ، ١٧٤].

وهذا الفضل من الله سبحانه عليهم كان بصدق توكلهم عليه سبحانه وإخلاصهم العبادة له . ويعلق شيخ الإسلام رحمه الله تعالى على آية الطلاق السابقة فيقول :

« قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣] ، قد روي عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: « **لو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم** »[1]، وقوله: ﴿مَخْرَجًا﴾ عن بعض السلف : أي من كل ما ضاق على الناس ، وهذه الآية مطابقة لقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الجامعة لعلم الكتب الإلهية كلها ، وذلك أن التقوى هي العبادة المأمور بها ، فإن تقوى الله وعبادته وطاعته : أسماء متقاربة متكافئة متلازمة ، والتوكل عليه هو الاستعانة به ، فمن يتقي الله مثال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، ومن يتوكل على الله مثال : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ، وقال : ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة: ٤] ، وقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الممتحنة: ٤].

ثم جعل للتقوى فائدتين : أن يجعل له مخرجاً ، وأن يرزقه من حيث لا يحتسب ، والمخرج هو موضع الخروج وهو الخروج ، وإنما يطلب الخروج

(١) أحمد (٥/ ١٧٨)، والحاكم (٢/ ٤٩٢) وفيه انقطاع .

من الضيق والشدة ، وهذا هو الفرج والنصر والرزق، فبين أن فيها النصر والرزق ، كما قال : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « **وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ بدعائهم ، وصلاتهم ، واستغفارهم** »[١] هذا لجلب المنفعة، وهذا لدفع المضرة .

وأما التوكل فبين أن الله حسبه أي كافيه ، وفي هذا بيان التوكل على الله من حيث إن الله يكفي المتوكل عليه ، كما قال : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ؟ خلافاً لمن قال : « ليس في التوكل إلا التفويض والرضا» »[٢] اهـ.

ومن ذلك قوله ﷺ : « **من قال : بسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقال له حينئذ : كفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان** »[٣] .

وقد ذكر أبو نعيم رحمه الله تعالى في كتابه (حلية الأولياء) قصة تدل على على أثر العبادة الخالصة والتوكل الصادق في تفريج الكربات والسلامة من مضلات الفتن ؛ حيث ساق بسنده إلى عون بن عبد الله قال :

« عن عون بن عبد الله بن عتبة ، قال : بينا رجل بمصر في بستان زمن فتنة آل الزبير ، جالساً كئيباً حزيناً يبكي ينكث في الأرض بشيء معه ، فرفع رأسه ، فإذا صاحب مسحاة قد مثل له ، فقال : مالي أراك مهموماً حزيناً ؟ فكأنه ازدراه ، فقال : لا شيء ، فقال : أبالدنيا ؟ فإن الدنيا عرض حاضر ، يأكل منها البر والفاجر ، وإن الآخرة أجل صادق ، يحكم فيها ملك قادر ، يفصل بين الحق والباطل ، حتى ذكر أن لها مفاصل كمفاصل

---

(١) البخاري مختصراً في الجهاد (٢٨٩٦) ، وبنحوه في النسائي (٦/ ٤٥) .
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٥، ٥٦).
(٣) تقدم تخريجه ص٣٤٧ .

اللحم من أخطأ منها شيئاً أخطأ الحق. قال: فأعجب بذلك من كلامه، فقال: اهتمامي بما فيه المسلمون. فقال: إن الله سينجيك بشفقتك على المسلمين، وسل! من ذا الذي سأل الله فلم يعطه، أو دعا الله فلم يجبه، أو توكل عليه فلم يكفه، أو وثق به فلم ينجه؟ قال: فعلقت الدعاء، فقلت: اللهم سلمني وسلم مني، قال: فتجلت الفتنة ولم تصب منه شيئاً»[1].

٨ ـ الرضا بقضاء الله عز وجل والتسليم لأحكامه وتفويض الأمور إليه:

وهذا من أعظم ثمار العبادة الصادقة والتوكل الصحيح، وإلا فما قيمة عبادة وتوكل واستعانة لا تثمر الرضا والتسليم والتفويض؟

ولا يعني الرضا والتسليم ترك فعل الأسباب ومدافعة أقدار الله عز وجل بأقداره، وإنما تفعل الأسباب المأذون بها مع عدم التعلق بها، ثم إن لم ينفع الله عز وجل بها من جلب النفع أو دفع الضر، فإن المتعيّن حينئذ الرضا والتسليم وحسن الظن بالله عز وجل، وأن اختياره سبحانه لعبده المؤمن أحسن من اختيار العبد لنفسه ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

وعن هذه الثمرة الجليلة يتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول:

«التفويض: هو روح التوكل ولُبُّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له.

فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحه وتوليه

---

(١) حلية الأولياء(٤/ ٢٤٤) ط. دار الكتاب العربي.

لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها ، فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كُلَفها وثقل حملها ، مع عجزه عنها ، وجهله بوجوه المصالح فيها ، وعلمه بكمال علم من فوض إليه، وقدرته وشفقته .

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة انتقل منها إلى درجة «الرضا» وهي ثمرة التوكل، ومن فسر التوكل بها ، فإنما فسره بأجلّ ثمراته ، وأعظم فوائده ، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله .

وكان شيخنا رضي الله عنه يقول : المقدور يكتنفه أمران : التوكل قبله ، والرضا بعده ، فمن توكل على الله قبل الفعل ، ورضي بالمقضي له بعد الفعل، فقد قام بالعبودية ، أو معنى هذا .

قلت : وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: « **اللهم إني أستخيرك بعلمك** ، **وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم** »(١) ، فهذا توكل وتفويض ، ثم قال : « **فإنك تعلم ولا أعلم** ، **وتقدر ولا أقدر** ، **أنت علام الغيوب** »(١) .

فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة ، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون . ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً ، أو آجلاً ، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلاً . فهذا هو حاجته التي سألها ، فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له ، فقال : « **واقْدُرْ لي الخير حيث كان** ، **ثم رَضِّني به** »(١) .

---

(١) البخاري / ك التهجد من حديث جابر (١١٦٦) وفي الدعوات (٦٣٨٢) وفي التوحيد (٧٣٩٠).

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية ، والحقائق الإيمانية ، التي من جملتها : التوكل والتفويض ، قبل وقوع المقدور ، والرضا بعده ، وهو ثمرة التوكل ، والتفويض علامة صحته ، فإن لم يرض بما قضي له ، فتفويضه معلول فاسد »[1] اهـ.

وهذه الثمرة تعد من أعظم أسباب النجاة من اليأس والقنوط ، وتحصيل أضدادها .

٩ ـ موالاة أولياء الله سبحانه والبراءة من الشرك وأهله :

لما كانت العبادة قائمة على تمام الحب مع تمام الذل لله عز وجل ، فإنه يمتنع تماماً الجمع بين محبته سبحانه ومحبة ما يبغضه من الشرك وأهله أو كراهية ما يحبه ويرضاه ، وهذا أمر مركوز في الفطر ؛ حيث إن المحبة الصادقة لإنسان ما تعني محبة ما يحب وكراهة ما يكره ،وإلا كانت المحبة مدخولة ، فإذا كان هذا يمتنع مع المخلوقين ، فكيف به مع الخالق عز وجل؟

يقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« عبودية الله لا تسمح للعابد بموالاة أي عدو لله ولو كان أقرب قريب ، فضلاً عن موالاة المحادين لله ورسوله ، من دول الكفر أو معتنقي المبادئ الإلحادية باسم التقدم في الحضارة أو الاقتصاد ، فكل من يلقي إليهم بالمودة أو يتفق معهم في ثقافتهم أو تشريعاتهم فهو خارج من عبودية الله إلى عبودية الطاغوت .

عبودية الله تقضي على أهلها ببغض الذين شرعوا ما لم يأذن به الله في

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٢، ١٢٣).

سائر النواحي ،ممن يترسم خطط الملاحدة والمستعمرين ، ولا يلتفت إلى هدي الله ورسوله . وكذلك بغض من يعتقد أو يدعو لحصر الدين في نفوس المؤمنين كأفراد دون تدخله في مشاكل الحياة من حرب وسلم وتحرر واستعمار .

فبغض هؤلاء من لوازم عبودية رب العالمين ، ومنابذتهم وهتك أستارهم وكشف حقيقتهم للناس من الجهاد في سبيل الله ، أما موالاتهم وتحبيذ أفعالهم فهي محادة لله ورسوله ، صاحبها متجرد من ولاء الله ورسوله ، غير محقق للأمر »(١) اهـ.

ويقول أيضاً رحمه الله تعالى :

« عباد الله لا يتجردون من ولاء الله ورسوله وموالاة أوليائهما السالكين هديهما ، بل يتجردون من ولاء من سلك غير هديهما في نواحي الحكم والحياة ، واتبع غير سبيل المؤمنين ، مما تمليه المذاهب والمبادئ العصرية التي ركزها أعداء الله ورسله من أئمة الكفر وطواغيت البشر ؛ لأن الموالي لهؤلاء والمحبذ لأفكارهم ليس من الله في شيء ، فموالاة الله تستلزم التجرد من ولاء المتبعين غير سبيله ، كما أن موالاتهم والسير في ركابهم يستلزم التجرد من ولاء الله ورسله وأوليائه ، والخروج من عبوديته الشرعية »(٢) اهـ.

١٠ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله سبحانه:

العابد لربه حقاً لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال وهو يرى المنحرفين عن

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٦٢ ، ٦٣) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٧٣).

عبادة الله جل وعلا ، بل ينطلق في دعوتهم إلى الخير انطلاق المشفق الرحيم الخائف عليهم من عذاب الله عز وجل ، مبتدئاً بالأقربين من الأهل والأولاد، كما لا يقر له قرار وهو يرى ما يبغض مولاه ومعبوده سبحانه من الشرك أو المعاصي ، وإنما يسعى جاهداً لإزالة ذلك بمجاهدة أهل الشرك والعصيان بالحجة والبيان ثم بالقوة والسنان إذا اقتضى الأمر ذلك ، وكان هو المحبوب والمرضي لله عز وجل في وقته ، ويتحمل في مرضات ربه عز وجل كل الأذى والتضحيات بل وبذل النفس في سبيل معبوده ومحبوبه ومولاه ، وهذا هو العابد لربه حقاً والمتوكل عليه صدقاً ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

« والجهاد : هو بذل الوسع ـ وهو كل ما يملك من القدرة ـ في حصول محبوب الحق، ودفع ما يكرهه الحق ، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد ، كان تركه دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه .

ومعلوم أن المحبوبات لاتنال غالباً إلا باحتمال المكروهات ، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة ، فالمحبون للمال والرئاسة والصور ، لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا ، مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة ، فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى من تحمل المحبين لغير الله ما يحتملون في سبيل حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبته لله ؛ إذ كان ما يسلكه أولئك في نظرهم ،هو الطريق الذي يسير به العقل .

ومن المعلوم أن المؤمن أشد حباً لله ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن

يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] »[1] اهـ.

ويقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« العابد لله يجند نفسه لمقاومة كل ثورة على الإسلام وتعاليمه وحَمَلته المخلصين ، مهما اتسمت هذه الثورة بأي اسم قومي أو وطني أو اشتراكي وما إلى ذلك ، ويعاهد ربه بتكريس جميع قواه لدحض المفترين عليه ، المفتاتين على شريعته ؛ حتى يقمعهم ويفضح باطلهم ، ويكون جريئاً مقداماً لا يخرسه خوف بأسهم ولا رجاء مودتهم ولا حب الحياة بمكان يهان فيه شرع الله وتهتك حرماته ؛ لأنه إن لم يتصف بذلك ونكص عن مجابهة أولئك كان جرمه أشد من جرم المتولي يوم الزحف ، فكان غير محقق لعبودية الرحمن ؛ لأن الغزو الثقافي والصراع الفكري أشد خطراً من الغزو العسكري ، وأسوأ غلبة في التأثير ؛ إذ فيه تسميم العقول وإذابة للأرواح ، وإذا كان قاتل الجسم يُقتل قصاصاً وتتخذ وسائل الدفاع لاتقاء شره ، فقاتل الأرواح ينبغي الاستعداد له والعمل على قمعه أزود من ذلك بكثير »[2] اهـ.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« إن التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ؛ ليعبد الله وحده في الأرض ، وليتحرر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام ، ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده الله للإنسان . .

إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليبذل مثلها

---

(١) العبودية ص ٤٤ .

(٢) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٧٦) .

وأكثر من يدينون لغير الله ، والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل الله ، عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد ، وفوقها الأخلاق والأعراض . .

إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله ، وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار!»[1] اهـ.

١١ ـ وضوح الهدف ونبل الغاية وتوحيد الهمِّ والسعادة بذلك :

إن المحقق لمدلول قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يصبح هدفه في هذه الحياة واضحاً ومحدداً وغايته نبيلة وشريفة ، كيف لا والغاية له في هذه الحياة أن يعبد الله عز وجل ويتقرب إليه في عمره المحدود ، ثم ينقلب إلى ربه سبحانه ليعيش هناك في الآخرة الأبدية السرمدية في رضوانه سبحانه وجنته ، وأنه إذا تحددت هذه الغاية النبيلة يصير العبد واضح الهدف محدد الغاية ؛ حيث يوجه همه كله لتحقيق هذه الغاية ، ويخضع كل شيء في هذه الدنيا لخدمة هذه الغاية العظيمة ، وبذلك يتوحد الهم في وجهة واحدة لا ثاني لها ، ألا وهي تحقيق العبودية لله سبحانه ، والاستعانة به عز وجل في تحقيقها والقيام بها على أحسن وجه .

وإن العبد بتوحيد همه في عبادة الله وحده يسلم من الصراع والتشتت وكثرة الهموم والأفكار ؛ لأن من تعلق قلبه بجهات عدة يسعى لخدمتها

---

(١) في ظلال القرآن ، ط. الشروق (٣/ ١٩٤١).

وإرضائها، يحبها ويذل لها ، إنه بهذا الصنيع يعيش مشوش النفس ، مضطرب الغاية ، غامض الهدف .

وقد ضرب الله سبحانه في كتابه الكريم مثلاً للموحد الذي أسلم وجهه لله وحده ، وللمشرك الذي وجه وجهه لعدة شركاء ، ليسوا متفقين ، وإنما هم متشاكسون لا يدري المشرك من يرضي فيهم ، هذا وإن كان المثال في المشرك بالله الشرك الأكبر ، لكنه يُستأنس به فيما دون ذلك من صور التعلق بغير الله سبحانه ، يقول الله عز وجل : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ .

[الزمر : ٢٩]

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد ، فقال : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً﴾ أي : عبداً ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ فهم كثيرون ، وليسوا متفقين على أمر من الأمور ، وحالة من الحالات ، حتى تمكن راحته ، بل هم متشاكسون متنازعون فيه ، كل له مطلب ، يريد تنفيذه ، ويريد الآخر غيره ، فما تظن حال هذا الرجل ، مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ﴾ أي : خالصاً له ، قد عرف مقصود سيده ، وحصلت له الراحة التامة.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي : هذان الرجلان ﴿مَثَلاً﴾ ؟ لا يستويان . كذلك المشرك ، فيه شركاء متشاكسون ، يدعو هذا، ثم يدعو هذا ، فتراه لا يستقر له قرار ، ولا يطمئن قلبه في موضع ، والموحد مخلص لربه ، قد خلصه الله

من الشركة لغيره ، فهو في أتم راحة ، وأكمل طمأنينة »[1] .

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذا المثل الذي ضربه الله سبحانه للموحد والمشرك ، فيقول :

« وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال ، فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى لأنه يعرف مصدراً واحداً للحياة والقوة والرزق ، ومصدراً واحداً للنفع والضر ، ومصدراً واحداً للمنح والمنع ؛ فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد ، يستمد منه وحده ، ويعلق يديه بحبل واحد يشد عروته ، ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره ، ويخدم سيداً واحداً يعرف ماذا يرضيه فيفعله ، وماذا يغضبه فيتقيه . . وبذلك تتجمع طاقته وتتوحد ، فينتج بكل طاقته وجهده ، وهو ثابت القدمين على الأرض ، متطلع إلى إله واحد في السماء ، ويعقب على هذا المثل الناطق الموحي ، بالحمد لله الذي اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة»[2] اهـ.

وإذا وجه العبد حياته كلها لتحقيق هذا الهدف العظيم، ألا وهو عبادة الله وحده ، فإنه يخضع كل شيء في حياته لهذا الهدف ، وإنه بذلك يحفظ وقته وعمره من أن يضيع في غير هذه الغاية فيشح بوقته النفيس وأنفاسه المعدودة من أن تضيع سدى ، بل يشغل جميع أوقاته ودقائق عمره فيما يعود عليه بالنفع في آخرته من عمل صالح ، أو دعوة إلى الله أو جهاد في سبيله ،

(١) تفسير السعدي ، عند الآية ٢٩ من سورة الزمر .
(٢) في ظلال القرآن، عند الآية ٢٩ من سورة الزمر .

ويتحسر على فوات الدقائق من عمره أعظم من تحسره على فوات الدنيا بأسرها ؛ ولذلك فهو يغتنم ويهتبل نعمة الفراغ والصحة والمال والشباب باستعمالها في طاعة الله عز وجل قبل فواتها ، وحتى أوقات راحته واستجمامه ومتعته ينويها عبادة لله عز وجل ليتقوى بها على طاعة أخرى بعد إجمام النفس ونشاطها .

كما ينتج من وضوح الغاية وارتباط القلب بها دون غيرها انضباط واتزان في حياة العبد وشخصيته فلا تضطرب موازينه في الحياة ولا يختل سلوكه، ولا تنحرف مواقفه وأحكامه على الأمور ، ذلك لأنه ينطلق في ذلك كله من الغاية العظمى التي من أجلها خلق الله سبحانه الجن والإنس ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وأضرب مثالين اثنين يظهر فيهما أثر العبادة، وأثر ارتباط العبد في القيام بهما بالغاية العظمى والهدف الأسمى.

المثال الأول : الدراسة وطلب العلم :

عندما يضع الدارس وطالب العلم بين عينيه عبادة الله عز وجل وتذكره دائماً أنه عبد لله سبحانه لا ينفك عن هذه العبودية لحظة واحدة ، فإنه بذلك ينطلق في أخذه للعلم انطلاق العابد لربه المخلص لمولاه عز وجل، ينوي بعلمه أن يتبصر في دينه حتى يعبد الله على بصيرة وحتى يدعو إلى الله على بصيرة؛ ولذا فهو يقبل على العلوم النافعة من الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، ويعرض عما سوى ذلك من المناهج الضالة المضلة .

وما إن تختفي هذه الغاية العظيمة أو يغفل عنها طالب العلم في طلبه

حتى تختل النيات وتتلوث المقاصد ، كما هو الحاصل اليوم عند أكثر الدارسين في المدارس والمعاهد والجامعات ؛ حيث سيطرت الدنيا على أهداف التعليم فصارت الشهادة مقصودة لذاتها ، وأصبح المنصب والمعاش هو المسيطر على ذهن الدارس وذهن أهله ومربيه ، وبذلك قلّت بركة التعليم في هذه الأزمنة إلا من رحم الله عز وجل ، وصرنا نجد من يمضي في دراسته أكثر من عشرين سنة ، ولم يجمع فيها من العلم إلا نتفاً متفرقة .

ثم إن هذه الحصيلة القليلة من العلم لا تظهر آثارها العملية على صاحبها ، فقل العلم والعمل ، وكل ذلك كان بالغفلة عن الغاية العظمى التي خلقنا من أجلها ، وعدم ربط حياتنا كلها بها .

المثال الثاني : الدعوة إلى الله :

والدعوة إلى الله عبادة متى ما توفر فيها شرطا العبادة : (الإخلاص والمتابعة) فإن الله سبحانه يقبلها ويثيب عليها وينفع الناس بها ، وتستقيم أحوالهم ؛ لأن الداعية يتحرك في دعوته مشدوداً إلى غايته العظمى ألا وهي التعبد لله سبحانه بهذه الدعوة ، فلا تراه إلا سليم القلب ، يحب للناس الخير ، يجمع ولا يفرق ، ينطلق منطلق الناصح المشفق الخائف على نفسه وعليهم من عذاب الله ، يريد الأجر من الله وحده ، ويريد الثواب والخير لمن يدعوهم .

ولكن عندما يغفل الداعية أنه في دعوته عبد لله عز وجل ، يتعبد له سبحانه بالإخلاص والمتابعة لرسوله ﷺ ، فمن هنا يبدأ الخلل وتظهر صور من الانحرافات والمواقف الخاطئة ، كما هو الحاصل اليوم ؛ من الحزبيات المقيتة ، والتعصب المذموم ، والتحاسد والتباغض والتشاحن الموجود في

صفوف بعض الدعاة والمنتسبين إلى الدعوة ، وكما هو حاصل اليوم من تلك الفُرقة المشينة ، والتي ليس لها ما يبررها من الشرع أو العقل، ولكن تلوث القلوب والغفلة عن هدف الداعية في دعوته وأنه عبد لله عز وجل يسعى لمرضاته ويريد جنته .

إن نسيان هذه الأمور العظيمة هو من أعظم الأسباب التي أفرزت هذه الأمراض الفتاكة اليوم بين الدعاة وطلبة العلم، أسأل الله عز وجل أن يطهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة؛ إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ . [الحشر: ١٠]

١٢ ـ النظرة الصحيحة للدنيا والآخرة :

عندما يتضح للعبد هدفه في هذه الحياة وأنه ما جاء إلى الدنيا إلا ليعبد الله عز وجل في عمره المحدود ، ثم ينقلب إلى ربه سبحانه ليجازيه على عمله، وأنه لا طاقة ولا حول ولا قوة له في القيام بذلك إلا بعون الله وتوفيقه.

إذا اتضحت له هذه الغاية ، فإن هذا سينعكس على نظرته الصحيحة لحقيقة الدنيا والآخرة ، وسيسلم من ذلك الفصام النكد بين الدنيا والآخرة ، والذي ما نشأ إلا من فساد في التصور لمفهوم العبادة في الإسلام ، فقد صرنا نرى من يعتزل الحياة ويترك عمارتها وإصلاحها ، ويترك الفساد يدب فيها، كل ذلك بحجة الزهد والإقبال على الآخرة ، وتهذيب النفس وتزكيتها.

وفي مقابل هذا الانحراف نشأ انحراف آخر ؛ ألا وهو الانشغال بالدنيا وزخرفها حتى آل ذلك إلى نسيان الآخرة والاستعداد لها .

أما العابد لله عز وجل على بصيرة فإن الله سبحانه يسلمه من هذه الانحرافات والشطحات ، فينطلق في هذه الدنيا ناظراً إليها على أنها مزرعة الآخرة ، وأنها متاع قليل سريع الزوال ؛ فيسعى فيها للتزود منها للدار الآخرة والتي هي دار القرار ، وفيها السعادة الحقيقية أو الشقاء الحقيقي .

ولذلك فإن من يحمل هذه النظرة الصحيحة ، لا يغتر بالدنيا ، بل يحذر منها ومن زينتها ، وفي نفس الوقت لا يعتزلها ولا يتركها تأسن وتفسد بحجة الزهد والعزلة عن الفساد ، بل يبذل قصارى جهده في إصلاحها ومحاربة الفساد فيها ، ودعوة الناس إلى عبادة الله عز وجل ، وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا ، وحثهم على العمل في عمارة الأرض وإصلاحها ، وتسخير ما يفتحه الله عز وجل من أمور الدنيا في عبادة الله سبحانه ، والتزود منها لدار البقاء والدوام .

يقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« عباد الله لا يستحبون الدنيا على الآخرة ، فذلك من صفات الكافرين ، بل يعتبرونها مزرعة للآخرة ، فيبذلون أقصى مجهودهم بجلائل الأعمال ، والمسابقة إلى الخيرات ، وإصلاح الدنيا على وفق شرع الله ، فسيرهم فيها وسطٌ بلا إفراط ولا تفريط ، لم يجعلوها أكبر همهم ، ولم يتعلقوا بالمادة هذا التعلق المشين ، ولم يسلكوا الزهد الهندي الذي لم يشرعه الله ، فيعيشوا في بؤس وذلة ، ويضيعوا حق الله مما تقدم ذكره ، وما سيأتي له مزيد .

فإنه بسبب هذا الزهد المذموم ، وما قذف به على الشرق من خرافات حصل تفريط كبير في نواحي الحياة ، فأطاحت بحرية أهله ؛ حيث ماتت فكرة الجهاد وما يستلزمه من إعداد القوة ، فمسخوا دين العزة والفتح

والكرامة إلى دروشة وخنوع لكل مستعبد ، وتفريط في جنب الله ضاعت معه جميع المقومات »[١] اهـ.

ويقول في موطن آخر :

« إن عبودية الله تجعل المرء دائماً يتذكر الآخرة ولا يذهل عنها لحظة ليعد لها عدتها كيلا يقسو قلبه ويرضى بالحياة الدنيا ويطمئن إليها ، فلا يقوم بحقوق الخالق والمخلوق التي تتطلبها العبودية الشرعية. وليس معنى ذلك الانعزال عن خوض معركة الحياة والقنوع بالفقر والذلة مع التقاعس عن جلائل الأعمال ، بل تحفزه قوة شعوره بأهوال الآخرة للقيام بما أوجب الله عليه وربط به مصيره ، فيكون في هذه الدنيا من خيرة العاملين لإعلاء كلمة الله ، والإصلاح في أرضه ، ومنفعة خلقه ، ورفعة شرعه على كل تشريع »[٢] اهـ.

١٣ ـ الأمن والعدل والاستقرار في المجتمعات :

يقول الله عز وجل : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الأنعام: ٨٢] ، ويقول تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل: ١١٢] .

في الآيتين السابقتين أوضح دليل على أن الأمن والاستقرار والطمأنينة في العباد والبلاد ليس لها طريق إلا تحقيق عبودية الله عز وجل ، والبراءة من

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٧٣) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٨٠).

الشرك ، وتحكيم شرعه المبرأ من كل نقص وعيب وظلم وجهل ، وبدون ذلك ينتفي الأمن والعدل والاستقرار ، ويحل الخوف والجوع والظلم والاستبداد ، وإن هذه المسألة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى مزيد تفصيل، فما فوق كلام الله سبحانه كلام ، ومن أصدق من الله حديثاً .

والتجارب الطويلة في تاريخ الأمم تشهد بذلك ، فما من أمة وحدت ربها ، وحكمت شرعه وتحاكمت إليه، وحفظت عهده ، ولم تتعد حدوده إلا وذاقت رغد العيش ، وعاشت آمنة مطمئنة في دمائها وعقولها وأعراضها وأموالها ، وفوق ذلك دينها وعقيدتها ، والعكس من ذلك فيمن عتا من الأمم عن أمر ربه وتمرد على شرعه وعبادته ، وهذه سنة الله عز وجل : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر: ٤٣] .

يقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« عبودية الله تحقق لأهلها الأمن في الحياة الدنيا وفي الآخرة ؛ لأن جميع حركاتهم وسكناتهم منوطة بمراقبة رب العالمين والوقوف عند حدوده بإعطاء كل ذي حق حقه دون غش ولا بخس ولا مماطلة ، وذلك باتباع ما رسمه الله ورسوله من العدل والإحسان والصدق والوفاء والاحترام المتبادل ؛ حيث قال تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥] ، وقال : ﴿ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقال : ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٥] ، وقال : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ [النساء: ١٣٥] »[1] اهـ.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٨٨).

١٤ ـ شهود نعمة الله عز وجل وشكره عليها :

إن قيام العبد بتكاليف العبودية لله عز وجل تقتضي اللهج الدائم بشكره سبحانه والثناء عليه ؛ فلولاه سبحانه ما ثبت على الإيمان ، ولا قام بأداء العبادة ولما قوي عليها ، فمنه سبحانه الإيجاد والإعداد والإمداد والعون .

وإن شهود نعم الله عز وجل التي لا تحصى ، وأعظمها نعمة التعبد له سبحانه ، ثم النعم الأخرى التي سخرها سبحانه للعبد ليقوى بها على العبادة .

إن شهود ذلك كله يقتضي شكره سبحانه في كل حين وآن ، شكراً عملياً، يتبرأ من كل حول وقوة إلا بالله ، وهذا يدفعه إلى مزيد من العبوديات والقربات إليه سبحانه ، ومزيد من التضرع والدعاء واللجوء إليه عز وجل في طلب العون والتوفيق والتثبيت .

وهذا هو شأن العابدين لله حقاً وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ ؛ حيث كان يقوم في الصلاة حتى تتورم قدماه الشريفتان ، فإذا سئل في ذلك قال : «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»(١) .

يقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« ويجدد الضراعة الصادقة الخالصة له بـ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ عازماً عزماً أكيداً على تنفيذ مقتضياتها بكل قوة وتصميم ، ذاكراً للنعمة الكبرى التي ذكره الله بها في الأزل ، وأنعم عليه بها بعد إيجاده ، وهي نعمة الإسلام التي لا تعدلها كل نعمة، ولا تقوم الدنيا كلها ثمناً لها ، فيزيد حبه

---

(١) البخاري / ك التفسير ـ سورة الفتح (٤٨٣٦) ، ومسلم / ك صفات المنافقين (٢٨١٩) .

لله ، وتعظيمه له ، وذكره إياه ذكراً صحيحاً نافعاً مؤثراً ، ويزداد حبه لرسوله عليه الصلاة والسلام ، الذي جرت هذه النعمة الكبرى على يديه ، وهذا الإنقاذ الحيوي على يده.

هذه النعمة التي رفعته عن مستوى البهائم الخسيسة وأخرجته من الظلمات إلى النور ، وحررته من رق العبودية ، والخضوع لغير الله ، هذه النعمة التي لولا إكرام الله بها لكانت البهائم أحسن منه حالاً ومآلاً ، فيقوم بشكر الله عليها شكراً عملياً يجعله يعض عليها بالنواجذ ، ويكون قوي الشكيمة في حفظها والاستمساك بها ، والدفاع عنها بصولة ليث غاضب ، وبذل النفس والنفيس دونها، وصدق العزيمة في تأدية أركانها وواجباتها . . .

ثم يشهد نعمة الله بتقدير خلقه في أحسن صورة ، وإمداده بالسمع والبصر والفؤاد وسائر الجوارح والأحاسيس والقوى ، وإسباغ نعمه العظيمة عليه ، فلا يغفل عن ذكره أو ينشغل بسواه ، بل يشكر كل نعمة لله شكراً عملياً باستعمالها في طاعته والسعي في مرضاته ، وعدم الغفلة عنه ، فكلما ذكر نعمة الإيجاد ذكر الله الموجد له والذاكر له بها ذكراً صحيحاً ، ذكر المحب لحبيبه ، المتفضل على حبيبه ، وضرع إليه بـ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ ضراعة المخلص الصادق المصمم على معاملة الله بمقتضاها ، والاتجاه إليه قولاً وعملاً وقصداً »[1] اهـ.

١٥ ـ التخلص من رواسب الجاهلية[2] وعاداتها وتقاليدها :

إن من أهم لوازم العبودية لله عز وجل البراءة من أفعال الجاهلية وأخلاق

(١) صفوة المفاهيم والآثار (بتصرف يسير) (١/ ١٧٢ ، ١٧٣).

(٢) لفظة الجاهلية مشتقة من الجهل ، ويُعنى بها الإعراض عن هدي الله سبحانه ، إما جهلاً أو استكباراً ، وهي من الألفاظ المجملة ، فإذا أريد بها الجاهلية المطلقة في الزمان ، فهذه لم =

الجاهلين ، بل إن عقيدة الولاء والبراء في الإسلام تفرض على العبد المسلم أن يتخلص من كل رواسب الجاهلية وعاداتها ، وألا يتشبه بأهل الجاهلية في شيء من الأقوال والأفعال مهما كان ضغط الواقع وإغراءاته ، بل يتميز بشخصيته الإسلامية الموحِّدة ، والتي تحصر كل تلقيها فيما جاء عن الله سبحانه أو عن رسوله ﷺ .

وللشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى رسالة نفيسة في المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية ؛ يحسن الرجوع إليها .

ويتحدث الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى عن هذا اللازم المهم من لوازم العبودية ، فيقول :

« الضارع إلى الله صدقاً بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يتجرد من جميع مؤثرات الجاهلية بكافة أنواعها ، سواء المألوفة عنده في بيئته أو المستوردة عليه ، فينخلع عنها ويتبرأ منها عن بغض وعداء ، مكتفياً بتلقي الهداية في جميع شؤونه من كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ ، والجاهلية ليست رسماً خاصّاً أو صبغة خاصة مقصورة على قرن أو قرون مضت . إنما الجاهلية كل سلوك مخالف لملة إبراهيم وشريعة سيد المرسلين في أي ناحية من نواحي الحياة .

= تكن إلا قبل عهد النبوة ؛ ما كان عليه أهل الجاهلية من الشرك والفساد ، أما بعد النبوة فلا يوجد جاهلية مطلقة في الزمان ؛ لأنه لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله . ولكن توجد جاهليات مقيدة بمكان دون مكان أو شخص دون شخص ، كما يوجد جاهليات مطلقة في بعض بقاع الأرض دون بعض كما هو الحاصل في جاهليات الغرب والشرق الكافرين .

والجاهلية التي ينتهجها أكثر الناس اليوم أفظع من كل جاهلية سبقتها ؛ لأنها باسم العلم والفن تجعل الناس بمعزل كامل عن منهج الله في الحياة ، بل فيها الاعتداء الكامل على سلطان الله في الأرض ، والسيطرة على عبيده بكل ظلم ومهانة ، والجناية على عقولهم بالدجل والتضليل ، وقتل أرواحهم بالأفكار السامة والعقائد المنحرفة التي تضيع دينهم ودنياهم ، وفيها من الإغراء على كفر النعمة وإنكار الخالق أو التنكر لدينه وشريعته والتنديد بها مما هو تهجم على حكمته واستهانة بعزته . وفيها من التحسين للخلاعة والرذيلة والعمل على إذهاب الحياء ما لا تقبله جاهلية أبي لهب وأبي جهل.

فأكبر مهمة للعابد لله تغيير واقعه مما حل به من أنواع الجاهلية بأي وصف ولقب وأي خطة ، بل من ضروريات الصدق للضارع إلى ربه بـ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ أن ينخلع من كل عمل أو قول أو اعتقاد جاهلي ، وأن يتخلص من ضغط أهل مجتمعه ، فلا يصطلح معهم أو يتفق أو يلتقي معهم في أي ناحية ، فلا يتعامل في سوقه معاملة جاهلية مبتعدة عن شريعة الله ، ولا يلتقي مع أي مصرف في عمولته على خلاف شرع الله ، ولا يدخل أولاده في أي مدرسة يكون التعليم فيها على خلاف ملة إبراهيم وشريعة سيد المرسلين ، ولا تجره المصلحة العائلية المزعومة إلى الهزيمة بإدخالهم في أي مدرسة كانت فيها خطر على العقيدة بما يخالف التصور الإسلامي الصحيح ، ولا يسمح في بيته لدخول أي لون من ألوان الجاهلية من التبرج وإظهار المفاتن أو تضييق الثياب ، أو الحفلات الحديثة النابية عن أخلاق الإسلام ، فضلاً عن الاختلاط والعياذ بالله ، بل تكون مهمته السامية أن

يستعلي على هذا المجتمع ويرتفع عن جميع عوائده ونظمه »[1] اهـ.

١٦ ـ التعلق بالله وحده ، والافتقار إليه عبادة واستعانة ، والاستغناء عما سواه :

إن هذه الثمرة تعد من أعظم ثمار العبادة والاستعانة إن لم تكن أعظمها ، فمن توجه إلى ربه سبحانه وتعلق به وحده وصدق في ذلك ، واعتقد فقره وفاقته إلى مولاه سبحانه عبادة واستعانة ، إنه بذلك يصبح في غاية الاستغناء عن الناس ؛ وبالتالي يسلم من تلك الأضرار البليغة التي تنشأ من التعلق بالمخلوق الفقير ، وتحصل له المنافع العظيمة التي تنشأ من التعلق بالله وحده .

وعلى قدر تكميل العبد للعبادة والاستعانة يحصل له الاستغناء عن الخلق والتعلق بالله وحده ، ويفوز بمنافع ذلك في العاجل والآجل .

وأنقل بهذه المناسبة بعض النقولات النفيسة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يتحدث فيها عن فقر العبد إلى عبادة ربه وإعانته ، والمصالح العظيمة التي تنتج من ذلك كما يتحدث عن مفاسد التعلق بالمخلوق ومضاره ، وعن المصالح العظيمة في التعلق بالله وحده ، يقول رحمه الله تعالى :

« واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ، ليس له نظير فيقاس به ؛ لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب ، وبينهما فروق كثيرة .

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ١٠٥ ، ١٠٦) .

فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذي لا إله إلا هو ؛ فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره ، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته، ولابد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا بلقائه .

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال ، وتارة أخرى يكون ذلك الذي يتنعم به والتذّ غير منعم له ولا ملتذّ له . . واعلم أن هذا الوجه مبني على أصلين :

أحدهما : على أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه ، كما عليه أهل الإيمان ، وكما دل عليه القرآن ، لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم : إن عبادته تكليف ومشقة ! وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار ، أو لأجل التعويض بالأجرة ، كما يقوله المعتزلة وغيرهم .

فإنه وإن كان في الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس ـ والله سبحانه يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة ، كما قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ** ﴾ [التوبة : ١٢٠] الآية ، وقال ﷺ لعائشة : « **أجرك على قدر نصبك** »[1] ـ فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعي ، وإنما وقع ضمناً وتبعاً لأسباب ليس هذا موضعها ، وهذا يفسر في موضعه .

ولهذا لم يجئ في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على

(١) البخاري بنحوه /ك العمرة (١٧٨٧) ، و مسلم /ك الحج(٢/ ٨٧٦) (١٢٦ تحت ١٢١١).

الإيمان والعمل الصالح أنه تكليف ، كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة .

وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي ؛ كقوله : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، ﴿ **لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ** ﴾ [النساء: ٨٤] ، ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا** ﴾ [الطلاق: ٧] .

أي: وإن وقع في الأمر تكليف؛ فلا يكلف إلا قدر الوسع ، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفاً مع أن غالبها قرة العيون ، وسرور القلوب ، ولذات الأرواح ، وكمال النعيم ، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه ، وذكره وتوجه الوجه إليه ، فهو الإله الحق الذي تطمئن إليه القلوب ، ولا يقوم غيره مقامه في ذلك أبداً .

قال الله تعالى : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ [مريم: ٦٥]، فهذا أصل .

الأصل الثاني: النعيم في الدار الآخرة أيضاً مثل النظر إليه، لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم ، أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق ؛ من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك .

بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق سبحانه وتعالى ؛ كما في الدعاء المأثور : « **اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة** »[1] رواه النسائي ، وغيره، وفي صحيح مسلم وغيره ، عن «صهيب» عن النبي ﷺ ، قال : « **إذا دخل**

(١) النسائي / ك السهو (٣/ ٥٥) ، وأحمد (٤/ ٢٦٤) ، (٥/ ١٩١) ، وهو في صحيح سنن النسائي (١٢٣٧) ، (١٢٣٨).

أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون: ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار ؟! قال : فيكشف الحجاب ؛ فينظرون إليه - سبحانه - فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهو الزيادة » »(١) .

فبين النبي ﷺ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم الله في الجنة لم يعطهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ؛ وإنما يكون أحب إليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره ، فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب ، فكلما كان الشيء أحب إلى الإنسان كان حصوله ألذ له ، وتنعمه به أعظم »(٢) .

ثم يتحدث رحمه الله تعالى عن ضرر التعلق بالمخلوق من عدة وجوه ، فيقول :

« **الوجه الثالث** : أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هدى ولا ضلال ، ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ولا رفع ، ولا عز ولا ذل ، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه وبصّره وهداه وأسبغ عليه نعمه ؛ فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره ، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه ، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله . . .

الوجه الرابع : أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه ؛ إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة الله ؛ فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته ؛ ضره وأهلكه ، وكذلك من النكاح واللباس ، وإن أحب شيئاً حبّاً تاماً بحيث يخالله فلابد أن يسأمه أو يفارقه ، وفي الأثر المأثور : « **أحبب ما**

(١) مسلم بنحوه / ك الإيمان (١٨١) .
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٤-٢٦).

شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه ، وكن كما شئت فكما تدين تدان »[١] .

واعلم أن كل من أحب شيئاً لغير الله فلابد أن يضره محبوبه ، ويكون ذلك سبباً لعذابه ؛ ولهذا كان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، يمثل لأحدهم كنزه يوم القيامة شجاع أقرع يأخذ بلهزمته ، يقول : أنا كنزك ، أنا مالك . فمن أحب شيئاً لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد ؛ فإن فقد عذب بالفراق وتألم ، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة ، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء .

وكل من أحب شيئاً دون الله لغير الله فإن مضرته أكثر من منفعته ؛ فصارت المخلوقات وبالاً عليه إلا ما كان لله وفي الله ، فإنه كمال وجمال للعبد، وهذا معنى ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « **الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه** »[٢] رواه الترمذي وغيره .

الوجه الخامس : أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته ؛ فإنه يخذل من تلك الجهة ، وهو أيضاً معلوم بالاعتبار والاستقراء : ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ؛ ولا استنصر بغير الله إلا خذل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا** ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]

(١) روى نحوه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٠٢، ٢٥٣) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٤) وغيرهما ، انظر السلسلة الصحيحة (٨٣١).

(٢) الترمذي في الزهد (٢٣٢٣) ، وابن ماجه (٤١١٢) ، وهو في صحيح سنن ابن ماجه (٣٣٢٠).

وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق ، فلما قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانته ، وكان في عبادة ما سواه ، والاستعانة بما سواه ؛ مضرته وهلاكه وفساده . . .

الوجه السادس : أن الله سبحانه غني حميد كريم واجد رحيم ، فهو سبحانه محسن إلى عبده مع غناه عنه ؛ يريد به الخير ويكشف عنه الضر ؛ لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة ، بل رحمة وإحساناً . والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم ، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ، ويجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما .

وإن كان ذلك أيضاً من تيسير الله تعالى ، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل لله ، فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر ، فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم ، فهم يحبون التمتع برؤيتهم ،وسماع كلامهم ، ونحو ذلك . . .

إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول ؛ بل إنما يقصد منفعته بك وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراع العدل ؛ فإذا دعوته ؛ فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه .

والرب سبحانه يريدك لك ، ولمنفعتك بك ، لا لينتفع بك ، وذلك منفعة عليك بلا مضرة ، فتدبر هذا . فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعة لك ؛ فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول ، كما أنه لا يقدر عليه ، ولا يحملنك هذا على جفوة الناس ، وترك الإحسان إليهم ،

واحتمال الأذى منهم ، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم ، وكما لا تخفهم فلا ترجهم ، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله ، وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله ، وكن ممن قال الله فيه : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ١٧ - ٢٠] ، وقال فيه : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩] .

الوجه السابع : أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك ، وإن كان ذلك ضرراً عليك ، فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها .

الوجه الثامن : أنه إذا أصابك مضرة كالخوف والجوع والمرض ؛ فإن الخلق لا يقدرون على دفعها إلا بإذن الله ، ولا يقصدون دفعها إلا لغرض لهم في ذلك .

الوجه التاسع : أن الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه الله لك ، ولو اجتهدوا أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه الله عليك ، فهم لاينفعونك إلا بإذن الله ، ولا يضرونك إلا بإذن الله ، فلا تعلق بهم رجاءك .

إلى أن يقول رحمه الله تعالى :

. . . جماع هذا أنك إذا كنت غير عالم بمصلحتك ، ولا قادر عليها ، ولا مريد لها كما ينبغي ، فغيرك من الناس أولى أن لا يكون عالماً بمصلحتك ؛ ولا قادراً عليها ، ولا مريداً لها . والله سبحانه هو الذي يعلم ولا تعلم ، ويقدر ولا تقدر ، ويعطيك من فضله العظيم ؛ كما في حديث

الاستخارة : « **اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ؛ وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب** »[1] اهـ.

من كل ما سبق يتبين فضل التعلق بالله وحده ، والاستغناء عما سواه ولو كان هناك مباشرة للأسباب ، فإن الله عز وجل هو خالق الأسباب ، وخالق تأثيرها ، فرجع الفضل كله لله وحده ، فله الأمر كله ، وله الخلق كله، وله الحمد كله، وإليه يرجع الأمر كله سبحانه وتعالى .

وكلما كان تعلق العبد بربه سبحانه أقوى كانت حماية الله لعبده من الشرور في الدين والدنيا أقوى وأكثر ، وما أشد حاجة العبد إلى ربه في جلب ما ينفعه في دينه ودنياه ، أو دفع ما يضره في دينه ودنياه ، وخاصة في الأزمنة والأمكنة التي تكثر فيها الفتن ، ويحتاج العبد فيها إلى معرفة الحق والصواب والنجاة من مضلات الفتن ، وهذا من ثمرات الضراعة الصادقة بـ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ .

١٧ ـ الفوز برضا الله عز وجل وجنته :

وهذه هي الثمرة الكبرى والغاية العظمى من عبادة الله سبحانه والتوكل عليه ؛ حيث التنعم برضوان الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم ، حيث الأمن التام ، وقرة العين التي لا تنقطع ، والنعيم الذي لا يحول ولا يزول ، وكلما كان العبد أتم تحقيقاً لتوحيد ربه وعبادته وتوكله كان له الأمن التام .

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٧ ـ ٣٣) باختصار ، والحديث سبق تخريجه ص٣٩١ .

قال الله عـز وجـل : ﴿الَّذِيــــنَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] .

❊ ❊ ❊

الخاتمة

في ختام هذه الرسالة أحمد الله عز وجل الذي بنعمته تتم الصالحات ؛ حيث أعانني على جمع ما تيسر وما تفرق من أقوال أهل العلم حول قوله عز وجل : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] .

وأود في هذه الخاتمة أن ألخص أهم المسائل التي مرت في هذه الرسالة ، مستعيناً بالله وحده ، وعليه التكلان وحده ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . ومن أهم المسائل ما يلي :

١ ـ أهمية فهم هذه الآية العظيمة وما تضمنته من الأصلين العظيمين اللذين تدور عليهما رحى هذا الدين ، وهما العبادة والاستعانة ، ذلك أن الدين كله قائم على العبودية لله وحده ،وهي الغاية التي خلق الله سبحانه الخلق من أجلها ، وهو سبحانه المعين عليها والمتفضل على أهل عبوديته بالقيام بها ، وأنه لا قيام لعبد بواجب العبودية إلا بالاستعانة به سبحانه ، فكان الأمر كله لله وبالله .

ولو تدبرنا هذه الآية من فاتحة الكتاب وفهمناها كما جاء في هذا البحث عن أئمة السلف لكان لنا شأن آخر في صلاتنا وتضرعنا وعبادتنا كلها .

٢ ـ إن الله عز وجل لا يقبل من عبده المؤمن إلا أن يكون له عبداً في كل آن وحال ، وفي كل زمان ومكان وشان ، وهذا هو الفهم الصحيح للعبودية

وشمولها لكل حياة العبد وشئونه ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ، وبذلك يرتفع من حياة المسلم ذلك الفهم المنحرف للعبادة ، والذي يحصرها في شعائر التعبد فقط ، أو بين جدران المسجد فقط ، ثم لا دخل لها بعد ذلك في حياة الناس ولا اقتصادهم ولا إعلامهم ولا في حكمهم وتحاكمهم.

٣ ـ إن هذين الأصلين العظيمين هما اللذان يجب أن يبدأ المسلم بهما في حياته تعلماً لهما ، وما يتفرع عنهما ، وعملاً وانقياداً لما يقتضيان ، وأن يكونا في أول ما يدعو إليه المسلم ويبلغ الناس به ؛ ذلك لأنهما يمثلان حقيقة توحيد الله عز وجل ، والتوحيد هو أول واجب على المكلف أن يعلمه ويعمل به ، وهو أول ما يدعى الناس إليه ويؤمرون بالدخول فيه كافة بكل شموله وكماله.

٤ ـ إن الانحراف الذي يطرأ على هذين الأصلين العظمين لهو أشد أنواع الانحراف ؛ ذلك لأن الانحراف في التصور لا يقف عند هذا الحد ، بل لابد أن ينتج عنه انحراف في السلوك والممارسات . وأخطر ما يفرزه الانحراف في هذين الأصلين إما الشرك بالله عز وجل أو البدعة في دينه بما لم يأذن به الله عز وجل، هذا إذا كان الانحراف في العبادة ، أما إذا كان في الاستعانة أو التوكل ؛ فإما أن يفرز الشرك بالله بالتعلق بالأسباب والاتكال عليها، أو في المقابل من ذلك حيث التواكل وترك الأخذ بالأسباب.

وكلا الانحرافين خطير ؛ فالأول شرك بالله أصغر أو أكبر (حسب ما في القلب من اعتقاد) ، والثاني قدح في حكمة الله عز وجل ونقصانٌ في العقل

وتناقض في التصرفات .

٥ ـ لقد خرجنا من دراسة هذه الآية العظيمة بأن العبد الضعيف المسكين لا يستطيع أن يقوم بعبادة ربه ولا بشيء من أمور دينه ودنياه إلا بأن يعينه ربه ويقويه ، وهذا يدفع العبد الفقير ـ والذي حاجته إلى ربه ضرورية وفقره إليه فقر ذاتي ـ أن يلجأ إلى الله عز وجل ويظهر فاقته وفقره إليه ويسأله العون والتوفيق والثبات في كل أحواله وشئونه ،وأن يتبرأ من كل حول وقوة ، ويسأل ربه ألا يكله إلى نفسه طرفة عين ولا إلى أحد من خلقه الضعاف المحاويج .

فالموفّق من وفقه الله ، والمخذول من خذله الله عز وجل ، نعوذ به سبحانه من الخذلان ، ونسأله تعالى التوفيق والثبات ، ولا وحول ولا قوة إلا بالله ، ويتأكد هذا أيام الفتن والشدائد ومزلات القلوب والأقدام كما هو الحال في زماننا هذا .

فيتعين اللجوء إليه سبحانه وكثرة دعائه والتضرع إليه بمثل هذه الآية العظيمة .

وبمثل قوله تعالى على لسان إبراهيم ﷺ : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقوله تعالى على لسان هود عليه السلام : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] .

وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن

مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] .

وقوله تعالى على لسان شعيب ﷺ : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] .

وقوله تعالى على لسان موسى ﷺ : ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٦] .

وقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤] .

وقوله تعالى على لسان أوليائه المجاهدين : ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] .

وقوله سبحانه : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

ومن الأحاديث وصيته ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه أن يقول دبر كل صلاة : « **اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** »[١] ، وقوله ﷺ في دعائه : « **يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، اللهم أصلح لي شأني ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً** »[٢] .

٦ ـ إن العبد المؤمن حين يفهم العبادة والاستعانة بذلك الفهم الشامل

---

(١) سبق تخريجه ص٣٠٥ .

(٢) النسائي في عمل اليوم والليلة (٥٧٠) .

الصحيح الذي بيّنه علماء السلف رحمهم الله تعالى ، فإنه ولا شك سيتفقد نفسه وما فيها من الخلل في فهم هذين الأصلين أو في تطبيقهما ، ويسعى عند ذلك لسد هذا الخلل ، ولن يتحقق هذا الفهم إلا بالعلم الشرعي المستمد من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ وما فهمه السلف الصالح منهما ، ولا يتم التعرف على سبيل المؤمنين حتى تُعرف سبيل المجرمين المنحرفين عن المعنى الصحيح للعبادة والتوكل . وبضدها تتبين الأشياء .

٧ ـ إن ما أصاب المسلمين في تاريخهم الطويل ، وما يصيبنا اليوم من المصائب الكثيرة ، إن كل ذلك راجع إلى الضعف الحاصل في عبادة الله عز وجل أو في التوكل عليه والاستعانة به سبحانه ، ولما كانت العبادة لا تصح إلا بالإخلاص والمتابعة ، فإن أمر الخذلان وكثرة المصائب يعود إلى التفريط في الأخذ بهذين الأصلين العظيمين المتمثلين فيما يلي :

١ ـ إخلاص العبودية لله عز وجل .

٢ ـ إفراد المتابعة للرسول ﷺ .

٣ ـ الاستعانة بالله سبحانه والتوكل عليه .

ولو استقرأنا جميع ما أصاب المسلمين في القديم والحديث أفراداً وجماعات ؛ لرأينا أن سبب ذلك هو التفريط في هذه الأمور الثلاثة أو في أحدها ، وما يتحلى فرد أو مجتمع بهذه الصفات إلا وينصره الله ويبطل كيد أعدائه .

٨ ـ وأختم هذه الخاتمة بالحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه

فيقول : «قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين : نصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل » قال رسول الله ﷺ : «اقرؤوا يقول العبد : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يقول الله: حمدني عبدي ، يقول العبد : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يقول الله : أثنى علي عبدي ، يقول العبد : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ يقول الله تعالى : مجدني عبدي ، يقول العبد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، يقول الله تعالى : هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، يقول العبد : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ يقول الله : فهؤلاء لعبدي ولعبدي ماسأل»[1].

ففي هذا الحديث القدسي الكريم فضيلة عظيمة لسورة الفاتحة ، وبشارة عظيمة للعبد المؤمن من ربه عز وجل بإجابة دعائه في آخر السورة عندما يطلب العون والهداية إلى الصراط المستقيم ، وهذا غاية ما يريده العبد المؤمن، والضراعة إلى الله سبحانه بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ من أنفع الأدعية وأجمعها . كما يعلمنا هذا الحديث فضيلة الثناء على الله عز وجل قبل الشروع في طلب الحاجة منه سبحانه .

وبعد :

فهذا ما يسر الله عز وجل كتابته حول هذا الموضوع العظيم الشأن الذي لا غنى للعبد عنه، فما كان فيه من صواب فمن الله عز وجل؛ فهو المان به فله

(١) صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، في باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥) (١/٢٩٦) . .

الحمد ، وما كان من خطأ وزلل فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله منه وأتوب إليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

* * *

فهرس الجزء الثاني

الرسالة الثامنة

﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾

المقدمة ٧

المبحث الأول: أهمية الموضوع ١٥

المبحث الثاني: بعض الآيات الواردة في ذلك ١٩

المبحث الثالث: بعض الأحاديث والآثار الواردة في ذلك ٣٧

المبحث الرابع: مواقف وأحداث معبرة ٥١

المبحث الخامس: احتراس وتنبيه ٦٣

المبحث السادس: من ثمرات هذه السنة ٦٩

المبحث السابع: الوسائل الجالبة لفقه هذه السنة ١٠٥

المبحث الثامن: حال المسلمين اليوم في ضوء هذه السنة ١٢٥

الخاتمة ١٥١

وبعد ١٥٧

الرسالة التاسعة

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾

المقدمة ١٦١

أهمية الموضوع ١٦٥

تفسير النبأ العظيم وما في معناه ١٧١

ما ورد في معنى النبأ العظيم من الآيات ١٧٢

بعض مشاهد النبأ العظيم ١٧٧

يوم الحسرة ١٧٧

يوم التلاق ١٨١

يوم الآزفة ١٨٣

يوم التناد ١٨٧

يوم التغابن ١٩٠

تخاصم أهل النار ١٩٤

واجب العقل نحو مشاهد النبأ العظيم ٢٠٣

الأحاديث والآثار الواردة في الخوف والتحذير من النبأ العظيم ٢١١

الأحاديث ٢١١

الآثار ٢١٤

من ثمرات اليقين بالنبأ العظيم ٢٢٧

١ ـ الإخلاص لله عز وجل ومتابعة الرسول ﷺ ٢٢٨

٢ ـ الحذر من الدنيا والزهد فيها والصبر على شدائدها ٢٢٩

٣ ـ التزود بالأعمال الصالحة واجتناب المعاصي والمبادرة بالتوبة ٢٣٢

٤ ـ الدعوة إلى الله عز وجل والجهاد في سبيله ٢٣٥

٥ ـ اجتناب الظلم بشتى صوره ٢٣٩

٦ ـ حصول الأمن والاستقرار والألفة بين الناس بالحكم بالشرع ٢٤١

٧ ـ تقصير الأمل وحفظ الوقت ٢٤٢

٨ ـ سلامة التفكير وانضباط الموازين وسمو الأخلاق ٢٤٦

٩ ـ الفوز برضا الله سبحانه وجنته والنجاة من سخطه والنار ... ٢٥٠
من الأسباب الجالبة لتذكر النبأ العظيم والاستعداد للآخرة ... ٢٥٣
١ ـ معرفة الله عز وجل وتوحيده والبصيرة في الدين ... ٢٥٣
٢ ـ قراءة القرآن وتدبره والإكثار من ذكر الله ... ٢٥٦
٣ ـ الإكثار من ذكر الموت وزيارة القبور والمرضى ... ٢٥٧
٤ ـ محاسبة النفس على تقصيرها والتفكر في حقيقة الدنيا وزوالها ... ٢٥٩
٥ ـ الاعتكاف وترك فضول الاختلاط ... ٢٦٨
٦ ـ مصاحبة أهل الخير والقراءة في سير الزاهدين ... ٢٧١
٧ ـ دعاء الله واللجوء إليه ... ٢٧٣
الخاتمة « كلمة إلى ثلاث فئات من الناس » : ... ٢٧٥
١ ـ كلمة إلى الفئة المصلحة الداعية إلى الخير ... ٢٧٥
٢ ـ كلمة إلى الفئة المفسدة الداعية إلى الشر والصادة عن الخير ... ٢٧٩
٣ ـ كلمة إلى فئة الأتباع وعامة الناس ... ٢٨٤

الرسالة العاشرة

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

المقدمة ... ٢٩١
المبحث الأول: شرح قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وما ورد في معناها من الآيات والأحاديث ... ٢٩٧

سر تقديم العبادة على الاستعانة ٣٠١
أقسام الناس في العبادة والاستعانة ٣٠٤
المبحث الثاني : المفهوم الصحيح للعبادة ومظاهر الانحراف
والضعف في ذلك : ٣١٥
متى يكون العبد متحققاً بوصف العبودية ٣١٨
انقسام العبودية إلى عامة وخاصة ٣٢١
بعض مظاهر الضعف والانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها : ٣٢٨
١ ـ الانحراف في تطبيق شرطي العبادة ٣٢٩
٢ ـ الانحراف في مفهوم العبادة ٣٣٠
٣ ـ الانحراف في التطبيق ٣٣٤
٤ ـ الانحراف في مصدر التلقي ٣٣٦
٥ ـ الانحراف في المفهوم والتطبيق ٣٤٠
المبحث الثالث : المفهوم الصحيح للتوكل والاستعانة ومظاهر
الانحراف والضعف فيهما ٣٤٥
تعريف التوكل بمعناه الصحيح ٣٤٧
تباين الخلق في توكلهم على الله ٣٤٩
أقسام التوكل وأنواعه ٣٥١
ضوابط الأخذ بالأسباب ٣٥٢
بعض مظاهر الانحراف والضعف في مفهوم التوكل ٣٥٥
المبحث الرابع : بعض لوازم العبادة الحقة والتوكل الصادق
وبعض ثمارهما : ٣٦٧

١ ـ الدخول في السلم كافة ٣٦٧
٢ ـ الحكم بشرع الله والتحاكم إليه وحده ٣٦٨
٣ ـ العزة والشرف والتحرر الحقيقي ٣٦٨
٤ ـ سلامة السلوك والتزام أوامر الله ٣٧٤
٥ ـ الإقدام والشجاعة والثبات والطمأنينة ٣٧٧
٦ ـ انتفاء الرياء والعجب والكبر ٣٨٤
٧ ـ تفريج الكربات والسلامة من مضلات الفتن ٣٨٧
٨ ـ الرضا بقضاء الله عز وجل ٣٩٠
٩ ـ موالاة أولياء الله والبراءة من الشرك وأهله ٣٩٢
١٠ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ٣٩٣
١١ ـ وضوح الهدف ونبل الغاية ٣٩٦
١٢ ـ النظرة الصحيحة للدنيا والآخرة ٤٠١
١٣ ـ الأمن والعدل والاستقرار في المجتمعات ٤٠٣
١٤ ـ شهود نعمة الله وشكره عليها ٤٠٥
١٥ ـ التخلص من رواسب الجاهلية ٤٠٧
١٦ ـ التعلق بالله وحده والافتقار إليه ٤٠٩
١٧ ـ الفوز برضا الله عز وجل وجنته ٤١٦
الخاتمة ٤١٩
فهرس الجزء الثاني ٤٢٩

لأعمال الكمبيوتر
دمنهور ـ خلف مستشفى الرمد
٣٢٠٣٣١ / ٠٤٥

وقفات تربوية

في ضوء القرآن الكريم

الجزء الثالث

الرسالة الحادية عشرة : فبهداهم اقتده
الرسالة الثانية عشرة : ففروا إلى الله

بقلم
عبد العزيز بن ناصر الجليل

دار طيبة للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار طيبة للنشر والتوزيع

الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق

ص. ب ٧٦١٢ الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٣٧٣٧ فاكس ٤٢٥٨٢٧٧

الرسالة الحادية عشرة

﴿ فبهداهم اقتده ﴾

[الأنعام: ٩٠]

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن الله عز وجل خلق عباده حنفاء موحدين؛ ومنذ أن أهبط أبو البشر آدم عليه السلام إلىٰ الأرض، كان معه التوحيد والإيمان، واستمر التوحيد في ذريته عدة قرون حتىٰ اجتالتهم الشياطين، وانحرفت الفطر، وتراكم الشرك في النفوس؛ فاقتضت رحمة الله عز وجل إرسال الرسل إلىٰ الناس لهدايتهم وردهم إلىٰ الهدىٰ والإيمان، والخلوص من الشرك وآثاره. قال الله عز وجل: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)** ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت**

عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً...»[١].

إذن فإن إرسال الرسل عليهم السلام قد بدأ مع ظهور آثار الشرك والانحراف في عقائد الناس، وهذا من رحمة الله عز وجل وفضله وحكمته، حيث لم يترك عباده هملاً تجتالهم الشياطين وتحرفهم إلىٰ الشر، بل أرسل الرسل وأنزل الكتب واختار لهذه الغاية العظيمة النبيلة أفضل خلقه وصفوة عباده.

ومنذ ذلك الوقت والتاريخ البشري يمثل صراعاً بين الحق والباطل؛ بين أتباع الهدىٰ وأتباع الضلال، بين حزب الله وحزب الشيطان، وهذا ما يظهر بوضوح للمتأمل في تاريخ البشرية حيث يمثل دور الأنبياء وأتباعهم خطاً مستقلاً مرتبطاً بعضه ببعض ويشابه بعضه بعضاً؛ الدعوة واحدة، والمنهج واحد ومواقف أهل الجاهلية منهم واحدة، فالجاهليات تشكل أمة واحدة وحزباً واحداً في مقابل أمة الإسلام ودعوة الحق وحزب الله المتمثل في الرسل وأتباعهم.

وفي كل حقبة من الزمان تسيطر فيها الجاهلية فإن البشرية تصاب بالشقاء والنكد ويسود الظلم والفساد وتبتلىٰ بالمصائب والضيق، ولكن الله عز وجل برحمته الواسعة يصطفي من عباده من يشاء لإنقاذ عباده من ظلمات الشرك والتيه والشقاء؛ فيرسل رسله لإنقاذ البشرية ولنشر الخير

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٨٦٥) في كتاب الجنة وصفة نعيمها.

والسعادة بين الناس؛ وذلك بإرجاع الناس إلىٰ عبادة ربهم وتوحيده وتخليصهم من الشرك وآثاره، والذي هو أعظم الظلم، وكل المصائب والويلات إنما تنبعث منه وترجع إليه.

إذن فإن مهمة الرسل عليهم السلام مهمة عظيمة شريفة يجب أن يعرفها الناس، ويبرزوها ويعرفوا حقوق هؤلاء الرسل الكرام، ويحتذوا حذوهم ويهتدوا بهداهم، وخاصة من نسب نفسه إلىٰ دعوة الله عز وجل حيث يتعين عليه دراسة هذه الحياة المباركة لرسل الله عز وجل؛ ليترسم هديهم إن أراد الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

وأنقل بهذه المناسبة كلاماً جيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: يبين فيه الضرورة الملحة إلىٰ إرسال الرسل ومعرفة ما يدعون إليه والأعمال العظيمة الشريفة التي قاموا بها، لعلنا نقدر لهم قدرهم، كما نقدر لما يدعون إليه قدره؛ فنأخذ به، وندعو إليه، ونتواصىٰ به.

يقول رحمه الله تعالى: «ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلىٰ معرفة الرسول، وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لاسبيل إلىٰ السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا علىٰ أيدي الرسل، ولا سبيل إلىٰ معرفة الطيب والخبيث علىٰ التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله ألبتة إلا علىٰ أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح، الذي علىٰ أقوالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلىٰ روحه، والعين إلىٰ

نورها، والروح إلىٰ حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلىٰ الرسل فوقها بكثير» أ.هـ[١].

وإن المتأمل في كتاب الله عز وجل يجد أن أخبار الأنبياء وصفاتهم وقصصهم مع أقوامهم وصبرهم وجهادهم، كل ذلك قد أخذ حيزاً كبيراً من القرآن الكريم كما يجد أن هذه الأخبار والقصص قد انحصر جلها في القرآن المكي – أي ما قبل الهجرة النبوية الشريفة – حيث الاستضعاف والابتلاء والتربية والتمحيص للعصبة المؤمنة في العهد المكي، وذلك حتىٰ يتأسىٰ الرسول ﷺ ومن بعده من المؤمنين بحياة الأنبياء وأتباعهم ويتعزوا بصبرهم ودعوتهم، وهذا من أهم أهداف وأغراض القصص القرآني.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: (ولهذا قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسل وما صارت إليه عاقبتهم، وأبقىٰ آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة، وكذلك مسخ من مسخ قردة وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم، وكذلك من خسف به، وأرسل عليه الحجارة من السماء، وأغرقه في اليم، وأرسل عليه الصيحة، وأخذه بأنواع العقوبات؛ وإنما ذلكم بسبب مخالفتهم للرسل وإعراضهم عما جاءوا به، واتخاذهم أولياء من دونه.

وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما جاؤوا به

---

(١) زاد المعاد (١ / ١٥).

واتبع غير سبيلهم؛ ولهذا أبقىٰ الله سبحانه آثار المكذبين لنعتبر بها ونتعظ؛ لئلا نفعل كما فعلوا فيصيبنا ما أصابهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ **إنا مُنزِلُون علىٰ أهْلِ هذه الْقرْيةِ رِجْزاً من السماءِ بِما كانُوا يفْسُقُون (٣٤) ولقد تركْنا منْها آيةً بينةً لِقوْمٍ يعْقِلُون (٣٥)** ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ **ثُم دمرْنا الآخرِين (١٣٦) وإنكُمْ لتمُرُّون عليْهِم مُصْبِحِين (١٣٧) وبِاللَّيْلِ أفلا تعْقِلُون (١٣٨)** ﴾ [الصافات: ١٣٦ – ١٣٨]، أي: تمرون عليهم نهاراً بالصباح وبالليل، ثم قال: ﴿ **أفلا تعْقِلُون** ﴾؟، وقال تعالىٰ في مدائن قوم لوط: ﴿ **... وأمْطرْنا عليْهِمْ حِجارةً من سِجِّيل (٧٤) إن فِي ذلِك لآياتٍ لِلْمُتوسِّمِين (٧٥) وإنها لبِسبِيلٍ مُقِيم (٧٦)** ﴾ [الحجر: ٧٤ – ٧٦]، يعني: مدائنهم بطريق مقيم يراها المار بها. وقال تعالىٰ: ﴿ **أو لمْ يسِيرُوا فِي الأرْضِ فينظُرُوا كيْف كان عاقِبةُ الذِين من قبْلِهِمْ ...** ﴾ [فاطر: ٤٤].

وهذا كثير في الكتاب العزيز: يخبر الله سبحانه عن إهلاك المخالفين للرسل ونجاة أتباع المرسلين؛ ولهذا يذكر سبحانه في سورة الشعراء قصة موسىٰ وإبراهيم، ونوح وعاد وثمود، ولوط وشعيب، ويذكر لكل نبي إهلاكه لمكذبيهم والنجاة لهم ولأتباعهم، ثم يختم القصة بقوله: ﴿ **إن فِي ذلِك لآيةً وما كان أكْثرُهُم مُؤْمِنِين (٨) وإن ربك لهُو الْعزِيزُ الرحِيمُ (٩)** ﴾ [الشعراء: ٨، ٩]، فختم القصة باسمين من أسمائه تقتضيها تلك الصفة، وهو: ﴿ **الْعزِيزُ الرحِيمُ** ﴾ فانتقم من أعدائه بعزته، وأنجىٰ رسله

وأتباعهم برحمته»(١) أ هـ.

ويتحدث سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عن هذه الأهداف بعد ذكر قصص الأنبياء في سورة هود فيقول: «لقد كان هذا القصص يتنزل علىٰ رسول الله ﷺ في مكة والقلة المؤمنة معه محصورة بين شعابها، والدعوة الإسلامية مجمدة فيها والطريق شاق طويل لا يكاد المسلمون يرون له نهاية! فكان هذا القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق؛ ويريهم معالمه في مراحله جميعاً؛ ويأخذ بأيديهم وينقل خطاهم في هذا الطريق؛ وقد بات لاحباً موصولاً بموكب الدعوة الكريم علىٰ مدار التاريخ البشري؛ وبات هذا الركب الكريم مأنوساً مألوفاً لا موحشاً ولا مخوفاً!.. إنهم زمرة من موكب موصول في طريق معروف؛ وليسوا مجموعة شاردة في تيه مقطوع! وإنهم ليمضون من نقطة البدء إلىٰ نقطة الختام وفق سنة جارية؛ ولايمضون هكذا جزافاً يتبعون الصدفة العابرة!

هكذا كان القرآن يتحرك في الصف المسلم؛ ويحرك هذا الصف حركة مرسومة مأمونة...

وهكذا يمكن اليوم وغداً أن يتحرك القرآن في طلائع البعث الإسلامي، ويحركها كذلك في طريق الدعوة المرسوم..

إن هذه الطلائع في حاجة إلىٰ هذا القرآن تستلهمه وتستوحيه. تستلهمه في منهج الحركة وخطواتها ومراحلها؛ وتستوحيه في ما يصادف

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٩٧، ٩٨).

هذه الخطوات والمراحل من استجابات؛ وما ينتظرها من عاقبة في نهاية الطريق.

والقرآن – بهذه الصورة – لا يعود مجرد كلام يتلىٰ للبركة [فقط] ولكن كأنه يتنزل اللحظة علىٰ الجماعة المسلمة المتحركة، لتتحرك به، وتتابع توجيهاته، وتتوقع موعود الله فيه.

وهذا ما نعنيه بأن هذا القرآن لا يتفتح عن أسراره إلا للعصبة المسلمة التي تتحرك به، لتحقيق مدلوله في عالم الواقع. لا لمن يقرأونه لمجرد التبرك! ولا لمن يقرأونه لمجرد الدراسة الفنية أو العلمية، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البياني فيه!

إن هؤلاء جميعاً لن يدركوا من هذا القرآن شيئاً يذكر. فإن هذا القرآن لم يتنزل ليكون مادة دراسة علىٰ هذا النحو؛ إنما تنزل ليكون هادياً في الحركة والتوجيه.

إن الذين يواجهون الجاهلية الطاغية بالإسلام الحنيف؛ والذين يجاهدون البشرية الضالة لردها إلىٰ الإسلام من جديد؛ والذين يكافحون الطاغوت في الأرض ليخرجوا الناس من العبودية للعباد إلىٰ العبودية لله وحده.. إن هؤلاء وحدهم هم الذي يفقهون هذا القرآن لأنهم يعيشون في مثل الجو الذي نزل فيه، ويحاولون المحاولة التي كان يحاولها من تنزل عليهم أول مرة؛ ويتذوقون في أثناء الحركة والجهاد ما تعنيه نصوصه لأنهم يجدون هذه المعاني ممثلة في أحداث ووقائع.. وهذا وحده جزاء علىٰ

كل ما يصيبهم من عذابات وآلام. أأقول: جزاء؟! كلا. والله. إنه لفضل من الله كبير.. ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** (٥٨) ﴾..

والحمد لله العظيم رب الفضل العظيم..»أهـ(١).

ومن الآيات الواردة في ذكر الغرض من قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

قوله تعالىٰ: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (١١١) ﴾ [يوسف: ١١١].

وقوله تعالىٰ بعد قصص الأنبياء في سورة هود: ﴿ **وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** (١٢٠) ﴾ [هود: ١٢٠].

واليوم قد علت رايات الباطل – من ديمقراطية واشتراكية وثورية – أكثر ديار المسلمين، حتى صارت أحوال الدعاة في هذه البلدان أشبه ما تكون بحال المسلمين في العهد المكي من حيث الغربة والاستضعاف، وعظمت محنتهم جداً، ولا عجب في هذا فتلك سنة ماضية إلى يوم القيامة، لكن وجه الزلل، والأمر الجلل أن بعض هؤلاء الطيبين، وتحت وطأة الضربات

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٨. ط. الشروق [بتصرف يسير].

القاسية قد يفقد ما تعبده الله به من الصبر ومن ثم يحيد عن منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله. ولقد رأيت أن أنصح لإخواني هؤلاء فإنه وإن تباعدت بيننا الأقطار، إلا أن ديننا واحد، والدين النصيحة، فاستعنت بالله عز وجل وكتبت هذه الرسالة من سلسلة الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم لتبحث في هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والذي اكتمل وتم نوره في هدي نبينا محمد ﷺ لعل الله عز وجل أن يحشرنا في زمرتهم، ولعلنا نأخذ بهديهم الكريم ليحصل لنا ما حصل لهم من العزة والنصر والتمكين.

وقد جعلت عنوان هذه الرسالة الآية الكريمة في سورة الأنعام: ﴿ **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ والتي أمر فيها الرسول ﷺ أن يقتدي بهدي الأنبياء من قبله، حيث ذكر عز وجل مجموعة من الأنبياء الكرام عليهم السلام وفي نهاية الآيات قال تعالىٰ: ﴿ **أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ... ﴾ [الأنعام: ٩٠]. والأمر موجه له ﷺ ولأمته من بعده.

هذا وسأقتصر إن شاء الله تعالىٰ في هذا البحث من الأدلة علىٰ الآيات القرآنية وما صح من الأحاديث النبوية وأعرض عما سواهما من الإسرائيليات والأخبار الباطلة. أما عن مباحث هذه الرسالة فهي كما يلي:

(١) لماذا ندرس حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

(٢) خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(٣) دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد ودعوتهم واحدة.

(٤) من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

○ من هديهم في صدق الإيمان والتوحيد (وتحته مطالب).

○ من هديهم في الأخلاق والسلوك (وتحته مطالب)

○ من هديهم في الدعوة والتبليغ (وتحته مطالب).

(٥) الخـــاتمة.

هذه أهم مباحث الرسالة. وقبل الدخول في ذلك أود الإشارة إلىٰ أن التأسي بالأنبياء عليهم السلام هو في حقيقة الأمر تأسي بحياة نبينا محمد ﷺ وسيرته العظيمة. وإنما أردت التأكيد علىٰ أن ما جاء في هديه ﷺ ومنهجه إن هو إلا صورة كاملة لما تفرق في الأنبياء من قبله.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثلِ رجلٍ بنىٰ بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موْضع لبِنة من زاويةٍ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة؛ وأنا خاتم النبيين**»[١].

أسأل الله عز وجل أن ينفع بهذه الرسالة، وأن يحسن القصد فيها إنه سميع مجيب.

* * *

(١) البخاري في المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦).

المبحث الأول

«لماذا ندرس حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟»

لما كانت حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي حياة الكمَّل من الناس الذين اختارهم الله عز وجل عن علم وحكمة واصطفاهم علىٰ البشر، كان لابد أن نتعرف علىٰ هذه الحياة المباركة والتي صُنعت علىٰ عين الله تبارك وتعالىٰ، كما كان لزاماً علىٰ من أراد لنفسه النجاة في الدنيا والآخرة – فرداً كان أو جماعة – أن يدرس هذه الحياة المباركة، وبالذات في عصور الغربة والغرباء كعصرنا الحاضر؛ علّها أن تكون نبراساً لحياتنا، ونجاة لأمتنا مما هي فيه من ذلة ومهانة.

ويمكن إبراز أهمية دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من خلال أمور كثيرة أهمها ما يلي:

الأمر الأول:

لأننا مأمورون من الله عز وجل بالاقتداء بهم والتأسي بهديهم ، وفي ذلك طاعة لله سبحانه وعبادة له قبل كل شيء. ومن هذه الآيات ما ذكره الله عز وجل في سورة الأنعام من شأن بعض أنبيائه ورسله، ثم ختم هذه الآيات بأمر الرسول ﷺ بالاقتداء بهديهم. والأمر له ﷺ أمر لأمته.

قال تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣ – ٩٠].

قال الطبري رحمه الله تعالىٰ عند الآية الأخيرة: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾: «يقول تعالىٰ ذكره: «**أُولَٰئِكَ**» هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدين الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه والعمل بما فيه من أمر الله، والانتهاء عما فيه من نهيه، فوفقهم جل ثناؤه لذلك «**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**» يقول تعالىٰ ذكره: فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا وبالهدىٰ الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم «**اقْتَدِهْ**» يا محمد أي فاعمل وخذ به واسلكه فإنه عمل لله فيه رضىً، ومنهاج من

سلكه اهتدىٰ » أهـ(١).

والأمر له ﷺ أمر لأمته لقوله تعالىٰ: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** (٢١) ﴾.

[الأحزاب: ٢١]

وقال صاحب المنار رحمه الله تعالىٰ: « فمعنىٰ الجملة علىٰ هذا: أولئك الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم في الآيات المتلوة آنفاً والموصوفون في الآية الأخيرة بإيتاء الله إياهم الكتا ب والحكم والنبوة، هم الذين هداهم الله تعالىٰ الهداية الكاملة، فبهداهم – دون ما يغايره ويخالفه من أعمال غيرهم وهفوات بعضهم – اقتد أيها الرسول فيما يتناوله كسبك وعملك، مما بعثت به من تبليغ الدعوة وإقامة الحجة، والصبر علىٰ التكذيب والجحود وإيذاء أهل العناد والجحود، ومقلدة الآباء والجدود، وإعطاء كل حال حقها من مكارم الأخلاق وأحاسن الأعمال، كالصبر والشكر والشجاعة والحلم والإيثار والزهد، والسخاء والبذل، والحكم بالعدل » أهـ(٢).

ومن الآيات التي ورد فيها أيضاً الأمر بالاقتداء بهدي الأنبياء قوله تعالىٰ: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ**

(١) تفسير الطبري ت: شاكر عند الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

(٢) تفسير المنار عند الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) ﴾ [الممتحنة: ٤].

قال الشوكاني رحمه الله تعالىٰ: « وقوله تعالىٰ: ﴿ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ متعلق بأسوة أو بحسنة، أو هو نعت لأسوة، أو حال من الضمير المستتر في حسنة، أو خبر كان، و﴿ لَكُمْ ﴾ للبيان، ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ هم أصحابه المؤمنون. وقال ابن زيد: هم الأنبياء »اهـ[١].

ومن الآيات الواردة في الأمر بالاهتداء بهدي الأنبياء ما شرعه الله عز وجل في سورة الفاتحة في كل صلاة أن ندعوه سبحانه بأن يهدينا صراطهم المستقيم، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ ...اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ... ﴾ وأول من يدخل في وصف المنعم عليهم هم أنبياء الله تعالىٰ وأتباعهم؛ وذلك لقوله تعالىٰ بعد أن ذكر جملة من الأنبياء الكرام في سورة مريم: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) ﴾.

[مريم: ٥٨]

---

(١) فتح القدير (٥/ ٢٠٦).

الأمر الثاني :

لأن حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي الحياة المعصومة خاصة فيما يتعلق بالعقيدة وما أمروا بتبليغه؛ ذلك لأن الله تعالىٰ اجتباهم واصطفاهم عن علم وحكمة؛ قال تعالىٰ: ﴿ ... **وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا** ... ﴾ [مريم: ٥٨]، وقال سبحانه عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام: ﴿ **إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ** (٤٦) **وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ** (٤٧) ﴾ [ص: ٤٦، ٤٧]، وقال عن نبيه موسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿ ... **وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** (٣٩) ﴾ [طه: ٣٩]، وقال عن علمه سبحانه بمن يختار من رسله: ﴿ ... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ... ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ** ... ﴾ [الحج: ٧٥]، والآيات في ذلك كثيرة، والحاصل منها أن من اصطفاه الله عز وجل واجتباه لرسالته هم أولىٰ بالاتباع والاقتداء؛ وذلك لحفظ الله عز وجل لهم وعصمته لهم من الزلل والانحراف، ولو وقع منهم الخطأ لم يقروا علىٰ ذلك. فحري بمن هذه صفاتهم أن يقُتدىٰ بهم، وتُدرس حياتهم، ويُتعرف علىٰ هديهم؛ وذلك لضمان الاهتداء وعدم الانحراف، لهداية الله عز وجل لهم وعصمته لهم فيتم الاقتداء من المقتدين وهم في غاية الاطمئنان علىٰ صحة ما يأخذونه ويقتدون به وسلامته من الانحراف.

الأمر الثالث:

في دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أكبر العظات والعبر للدعاة إلىٰ الله عز جل في كل مكان وزمان؛ سواءً ما يتعلق بالإيمان العظيم والتوحيد الصادق الذي عليه أنبياء الله عز وجل، أو فيما يتعلق بأخلاقهم وسلوكهم، أو بهديهم ومنهجهم وصبرهم في الدعوة والصراع مع الباطل وأهله. وإبراز هذه الجوانب من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو من أهم أغراض ورود قصص الأنبياء في القرآن الكريم؛ حيث لم تأت لمجرد التسلية والمعرفة التاريخية فقط، وإنما جاءت للاقتداء والتأسي بتوحيدهم والدعوة إليه، والتعزي بحياتهم وصبرهم وجهادهم حتىٰ لا تفتر عزائم الدعاة ويضعف صبرهم، فلهم في هذا السلف المبارك أكبر عزاء وقدوة في الثبات وشحذ الهمم.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ:

«وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم؛ فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك، ويعلمون أنه قد ابتلي به من هو خير منهم، وكانت العاقبة إلىٰ خير، فليتيقن المرتاب، ويتوب المذنب، ويقوىٰ إيمان المؤمنين. فبها يصح الاتساء بالأنبياء» أهـ[١].

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ١٧٨).

الأمر الرابع :

وتأتي دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في عصرنا الحاضر ونحن في أشد الحاجة إلىٰ دراستها من أي وقت مضىٰ؛ وذلك لما يشهده عصرنا من غربة في أحوال المسلمين وفرقة بين دعاة الحق، وتسلط الأعداء، وكيد المنافقين وتخبط في بعض المناهج الدعوية ما بين يائس، ومداهن، ومستعجل. وهذا يبرز أهمية التعرف علىٰ حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في واقعنا المعاصر لعلَّ الدراسة المتجردة الواعية لهذه الحياة المباركة أن يقي الله سبحانه بها من التخبط والانحراف، وأن يهدينا بها إلىٰ الصراط المستقيم الذي يوحد صفوفنا، ويبطل كيد أعدائنا، ويوصلنا في النهاية إلىٰ النصر والتمكين الذي نصر الله عز وجل به أنبياءه والمتبعين لهم بإحسان.

الأمر الخامس :

في دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعرف علىٰ سنن الله عز وجل في التغيير، وتعرف علىٰ سننه سبحانه في الدفع والمدافعة، كما أنها تكشف للدعاة إلىٰ الله عز وجل ذلك الصراع الطويل المرير بين الحق والباطل. وفي هذا أكبر العزاء لأهل الحق؛ وذلك لإيمانهم بحتمية هذا الصراع، وأن الدولة والعاقبة في نهاية الأمر للحق وأهله. وهذا كله لا يبرز بوضوح كما يبرز في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصراعهم مع أقوامهم: بالحجة والبيان، والهجرة والجهاد حتىٰ أتاهم الله تعالىٰ بنصره

وتمكينه؛ قال تعالىٰ: ﴿ ... وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿ ... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ ... وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال سبحانه عن السنن: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وإن في التعرف علىٰ هذه السنن الربانية لأعظم فائدة في تجنب الأخطاء وتوقي موارد الهلكة، ومعرفة أسباب النصر والتمكين.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: « ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره؛ كالأمثال المضروبة في القرآن »أهـ(١).

ومن السنن التي يمكن التعرف عليها من خلال دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما يلي:

---

(١) جامع الرسائل ص: (٥٥).

أ- سوء عاقبة المكذبين للرسل وإهلاكهم.

ب- نصره سبحانه لعباده المؤمنين.

جـ- مداولة الأيام بين الناس من الشدة إلىٰ الرخاء.

د- زوال الأمم بسبب الترف والفساد وفشو الظلم والتجبر علىٰ الناس.

و- أن البشر يتحملون مسئوليتهم في الخير والشر.

ز- أن انهيار الأمم وهلاكها يكون بأجل.

ح- أن الابتلاء للمؤمنين سنة جارية.

ط- تقرير سنة التدافع و الصراع بين الحق والباطل.

وستأتي دراسة مفصلة لبعض هذه السنن في مبحث قادم إن شاء الله تعالىٰ. (انظر لمزيد من التفصيل كتاب منهج كتابة التاريخ الإسلامي للدكتور السلمي (٥٨ - ٧٤).

الأمر السادس:

ولعل في دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بصدق ورغبة في اتباع هديهم سبيلاً إلىٰ الانتظام في سلكهم والسير في قافلتهم المباركة، ولعل الله عز وجل أن يلحق من هذه نيته بركبهم الميمون، وأن يحشره في زمرتهم، فيصدق عليه قول الله تعالىٰ: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ**

مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠]. نسأله سبحانه أن يفيض علينا رضاه وجنته، وأن ينعم علينا باللحوق بهذه الصفوة المباركة باتباعنا لهم، وحبنا إياهم، وإن قصرت أعمالنا وأحوالنا عنهم كثيراً كثيراً.

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رجلاً سأل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال: متىٰ الساعة؟ قال: «**وما أعددت لها ؟**» قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقال: «**أنت مع من أحببت**». قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل أعمالهم»[١].

يعلّق الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ علىٰ صفات عباد الرحمن الواردة في آخر سورة الفرقان – ورسل الله عليهم الصلاة والسلام أولىٰ من تصدق عليهم هذه الصفات – فيقول: «ما أعلىٰ هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجل هذه المطالب، وأزكىٰ تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفىٰ هؤلاء الصفوة، وأتقىٰ هؤلاء السادة... ولله منّة الله علىٰ عباده، أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هيئاتهم، وبين لهم هممهم، وأوضح لهم أجورهم؛ ليشتاقوا إلىٰ الاتصاف بهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي منّ عليهم وأكرمهم – الذي فضْلُه في كل مكان

(١) البخاري (٦١٦٧) في الأدب، ومسلم (٢٦٣٩) في البر والصلة.

وزمان، وفي كل وقت وأوان - أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم، فاللّهم لك الحمد وإليك المشتكىٰ وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولاحول ولا قوة إلا بك. لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضراً، ولا نقدر علىٰ مثقال ذرة من الخير إن لم تيسر ذلك لنا، فإنا ضعفاء عاجزون من كل وجه. نشهد أنك إن وكلتنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين وكلتنا إلىٰ ضعف وعجز وخطيئة، فلا نثق ياربنا إلا برحمتك التي بها خلقتنا ورزقتنا وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة، فارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك، فلا خاب من سألك ورجاك»[١].

* * *

(١) تفسير السعدي (٣/ ٤٥٥).

المبحث الثاني

«خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم صفوة البشر وسادتهم، وهم من بني آدم لهم خصائص البشر وصفاتهم لا يخرجون عن صفتهم البشرية، ولكن الله عز وجل اصطفاهم وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلىٰ الناس، وخصهم لذلك ببعض الخصائص والصفات التي لا يشترك معهم بقية البشر فيها. وهذه الخصائص لا تخرجهم عن بشريتهم وعبوديتهم لله عز وجل؛ قال تعالىٰ علىٰ لسان بعض رسله في مجادلتهم لأقوامهم: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ [إبراهيم: ١١].

ولله عز وجل الحكمة البالغة في كون الأنبياء من البشر؛ فلو لم يكونوا كذلك لم يكن هناك مجال للاقتداء بهم والتأسي بأحوالهم، وما خفي علينا من الحكم أكثر.

وسأتطرق في هذا المبحث لبعض خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعلنا نعرف لهم حقهم ونقدر لهم قدرهم، فنبذل لهم من الأدب والحب والولاء ما يستحقونه وما يلزم ذلك من الاتباع والتأسي بحياتهم وهديهم.

وقبل ذكر هذه الخصائص فإنه يحسن أن نلم ببعض لوازم بشرية الرسل والتي استنكرها كل قوم علىٰ نبيهم وذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤)** ﴾ [الإسراء: ٩٤].

وعجباً للقوم الكافرين كيف لم ينتبهوا لنعمة الله عز وجل بأن جعل الرسول بشراً من جنسهم؛ فجحدوا هذه النعمة واستغربوها مع ما فيها من اللطف والرفق بالعباد؛ حيث أرسل إليهم رسلاً من جنسهم ليفقهوا عنهم ما يبلغونهم عن الله تعالىٰ، ويتمكنوا من القيام بما يُدعون إليه، ولو بُعث إلىٰ الناس رسلٌ من الملائكة أو من غير جنسهم لما استطاع الناس الفقه عنهم والأخذ عنهم، ولقالوا: هم من جنس غيرنا فلا نقبل ولا نفقه عنهم. فرجع الإعراض في الأول والآخر إلىٰ الهوىٰ نعوذ بالله من الهوىٰ.

ومن لوازم بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام:

١- الاتصاف بما تتصف به الطبيعة البشرية من كونهم جسداً يحتاجون إلىٰ الطعام والشراب والنكاح، كما أن لهم أزواجاً وذرية وآباء وأمهات وأقارب وأصحاباً.

٢- يصيبهم ما يصيب البشر من الآفات والأمراض والمكاره والسهو والنسيان والنوم.

٣- يرضون ويغضبون ويفرحون ويحزنون.

٤- يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر؛ بل إن الأنبياء أشد الناس بلاءً.

٥- لا يعلمون الغيب إلا ما علمهم الله عز وجل.

٦- يقومون بأعمال البشر والأشغال التي يمارسها البشر كالرعي والتجارة وصناعة السيوف والدروع وغيرها من المهن البشرية.

٧- ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية ولا الربوبية بل هم عبيد لله تعالىٰ، حققوا العبودية علىٰ أكمل وجه، وتبرأوا من حولهم وقوتهم، واعتصموا بالله وحده، وفوضوا أمورهم إليه.

٨- ومع اشتراكهم مع البشر في صفة البشرية فلقد حققوا الكمال البشري في أرقىٰ صوره؛ لأن الله عز وجل اصطفاهم واجتباهم ورباهم علىٰ عينه؛ فجاءت قلوبهم أطهر البشر قلوباً، وعقولهم أزكىٰ البشر عقولاً وقريحة، وأخلاقهم أكمل البشر وأزكاهم أخلاقاً، ومعرفتهم بربهم وعبادتهم له سبحانه أكمل البشر معرفة وعبودية وإيماناً؛ بل حتىٰ في الصورة الظاهرة الخلقية كانوا أكمل البشر أجساماً وأجملهم صورة، وصدق الله العظيم: ﴿ ... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ... ﴾.

[الأنعام: ١٢٤]

وهذه الصفات السابق ذكرها هي من مقتضيات البشرية التي يشتركون مع البشر فيها، ولكن الله عز جل بعلمه الشامل وحكمته البالغة خص هؤلاء الصفوة من البشر بنعمة النبوة والرسالة، وخصهم لأجلها

بصفات وخصائص تفردوا بها عن سائر البشر، وفضلوا عليهم، واستحقوا من أجلها إجلال الناس لهم، ومحبتهم إياهم، وطاعتهم لهم، واتباعهم لمنهجهم وهديهم العام، ووجب علىٰ كل قوم طاعة نبيهم في شريعته الخاصة بهم. ويمكن إجمال هذه الخصائص فيما يلي:

(١) اصطفاؤهم بالوحي والرسالة:

قال تعالىٰ: ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ... ﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذا الوحي يترتب عليه أمور يتميزون بها عن الناس كتكليم الله عز وجل لبعضهم، ونزول الملائكة عليهم، وتعريف الله سبحانه لهم ببعض الغيوب الماضية أو المستقبلة، أو إطلاعه سبحانه لبعضهم علىٰ شيء من عالم الغيب كما حصل ذلك للرسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج. وهذه أكبر وأعظم صفات الأنبياء التي تفردوا بها، وأنعم الله سبحانه بها عليهم، وهذه الخاصية هي التي توجب علىٰ العباد طاعة أنبيائهم وقبول ما يأتون به ويأمرون وينهون؛ لأنه وحي من عند الله عز وجل أمر الأنبياء بإبلاغه للناس، وهذا بدوره يوجب علىٰ الناس توقير أنبيائهم وأقوالهم وتوجيهاتهم، ويمنع من التقدم عليهم بقول أو فعل.

(٢) العصمة:

وهذه خاصية ثانية انفرد بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن البشر، وهي من لوازم الوحي والرسالة التي أكرم الله سبحانه بها أنبياءه فجعلهم

معصومين فيما يبلغونه للناس من العقائد والأحكام. ولو وقع أحدهم في خطأ قولي أو عملي، فمن لوازم العصمة أن الله عز وجل لا يقرّه علىٰ هذا الخطأ بل ينبهه إلىٰ ذلك ويدله إلىٰ الصواب والحق ، فيُتدارك الخطأ في وقته ويفيء النبي من ذلك بأسرع وقت؛ ويكون حاله بعد التوبة أكمل من حاله قبل وقوعه في الذنب أو الخطأ؛ يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: «واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة علىٰ طرفي نقيض، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه: قوم أفرطوا في دعوىٰ امتناع الذنوب، حتىٰ حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة الله لهم، ورفع درجاتهم بذلك. وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن علىٰ براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوباً وعيوباً نزههم الله عنها. هؤلاء مخالفون للقرآن وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبع القرآن علىٰ ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط مهتدياً إلىٰ الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»[١] أهـ.

والذي يعنينا هنا هو عصمة منهجهم وهديهم لأنه وحي من الله عز وجل. وهذا يكفل لسالكه السلامة من الخلل والانحراف، ويضمن له النجاة والفوز والتمكين لأنه يلقي في قلوب المتبعين له الطمأنينة والثبات والتضحية: لأنه منهج معصوم لا يعتريه ما يعتري المناهج البشرية من خلل وقصور وانحراف.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ١٥٠).

وينبغي قبل أن ننهي الحديث حول هذه المسألة التنبيه على مسألتين هامتين:

الأولىٰ: وجوب التأدب مع أنبياء الله عز وجل ومعرفة حقهم وبالأخص مع من بدر منه بعض الأخطاء التي لم يقرهم الله عز وجل عليها بل وفقهم لتركها والتوبة منها. حيث إن هذا لا ينافي عصمتهم ولا ينقص من قدرهم وكمالهم؛ لأن الله عز وجل تاب عليهم واجتباهم وهداهم، ومن ذلك قوله ﷺ عن نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام: « **لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متىٰ** »[1] فالحذر الحذر من تنقصهم وإساءة الظن بهم.

الثانية: الحذر من الروايات الإسرائيلية التي يرويها كثير من المفسرين في قصص الأنبياء في القرآن وما في بعضها من إساءة الظن والأدب بأنبياء الله ورسله ومنافاتها لعصمتهم مع أنه لا أصل لها؛ فهي مردودة سنداً ومتناً، فجميع الأخبار الماضية لا نقبل منها في تفسير القرآن إلا ما جاء في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وما سواهما فمردود ومرفوض لأنه رجم بالغيب.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ: « وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو علىٰ تجويز الرواية عنهم، بالأمور التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق

(١) البخاري (٣٣٩٥) في الأنبياء ومسلم في الفضائل رقم (٢٣٧٧).

ولا تكذب فلا يمكن اتفاقهما » أهـ[١].

(٣) تنام أعينهم ولاتنام قلوبهم :

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث الإسراء : « **والنبي نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم** »[٢].

وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « **إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا** »[٣] وينبني علىٰ هذه الخاصية أن رؤيا الأنبياء حق ووحي يتبع.

(٤) تخييرهم عند الموت :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة** »[٤]. وسُمع النبي ﷺ في شكواه التي قبض فيها يقول : « **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين** »[٥].

(٥) يقبر النبي حيث يموت :

صح عنه ﷺ قوله : « **لم يقبر نبي إلا حيث يموت** »[٦] ولهذا فإن

---

(١) تفسير السعدي (٢ / ١٣٠).

(٢) البخاري في المناقب (٣٥٧٠).

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (١ / ١٧١) وانظر السلسلة الصحيحة (١٧٠٥).

(٤) البخاري في التفسير (٤٥٨٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٤).

(٥) البخاري في التفسير (٤٥٨٦).

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠١).

الصحابة رضي الله عنهم دفنوا الرسول ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها حيث قبض.

(٦) لا تأكل الأرض أجسادهم :

وهذا من إكرام الله عز وجل لأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقىٰ أجسادهم محفوظة من البلىٰ، وهذا قد ثبت عنه ﷺ في قوله : « **إن الله حرم علىٰ الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء** »[1].

(٧) أحياء في قبورهم :

صح عنه ﷺ أنه قال : « **الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون** »[2]، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال : « **مررت علىٰ موسىٰ ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره** »[3].

أما عن كيفية هذه الحياة فهذا أمر غيبي لا مجال للعقل فيه، فما دام أنه صح عن رسول الله ﷺ فيجب الإيمان به من غير تكييف، ولكن مع إيماننا بأنها حياة برزخية ليست كحياتهم التي عاشوها في الدنيا، فلا يجوز سؤالهم في قبورهم، ولا طلب المدد منهم فإنهم لا ينفعون ولا يضرون قال تعالىٰ : ﴿ **وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ** ... ﴾. [يونس : ١٠٦]

---

(١) أبو داود بنحوه في الصلاة (١٠٤٧)، وهو في صحيح أبي داود (٩٢٥).

(٢) انظر السلسلة الصحيحة رقم (٦٢١).

(٣) مسلم كتاب الفضائل (٢٣٧٥).

(٨) **لا يورثون بعد موتهم :**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة** »[١] .

والروايات التي عند البخاري ومسلم ليس فيها « إنا معشر الأنبياء » وإنما هي بلفظ : « **لا نورث ما تركنا صدقة** »[٢] .

وقال الإمام ابن حجر رحمه الله تعالىٰ بعد شرحه لهذا الحديث : (وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ : « **نحن معاشر الأنبياء لا نورث** » فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ « **نحن** » لكن أخرجه النسائي من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد بلفظ « **إنا معاشر الأنبياء لا نورث** »[١] الحديث أخرجه عن محمد بن منصور عن ابن عيينة عنه، وهو كذلك في مسند الحميدي عن ابن عيينة، وهو من أتقن أصحاب ابن عيينة فيه، وأورده الهيثم بن كليب في مسنده من حديث أبي بكر الصديق باللفظ المذكور، وأخرجه الطبراني في الأوسط بنحو اللفظ المذكور، وأخرجه الدارقطني في العلل من رواية أم هانئ عن فاطمة رضي الله عنها عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه بلفظ : (إن الأنبياء لا يورثون) .

---

(١) رواه النسائي في الكبرىٰ من طريق محمد بن منصور (٦٣٠٩) ولكنه حديث آخر وبإسناد آخر، ورواه الإمام أحمد في المسند (٢ / ٤٦٣)، وقال أحمد شاكر :إسناده صحيح (٩٩٧٣) . وكلاهما بلفظ : « معشر » بدلاً من : « معاشر » .

(٢) البخاري في مواضع عديدة منها [١٢ / ٧ (٦٧٣٠) فتح]، ومسلم من حديث عمر (١٧٥٧) .

قال ابن بطال وغيره: ووجه ذلك – والله أعلم – أن الله بعثهم مبلغين رسالته وأمرهم أن لا يأخذوا علىٰ ذلك أجراً كما قال تعالىٰ: ﴿ ... **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً** ... ﴾ [الشورىٰ: ٢٣]، وقال نوح وهود وغيرهما نحو ذلك، فكانت الحكمة في أن لا يورثوا لئلا يظن أنهم جمعوا المال لورثتهم. قال تعالىٰ: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ** ... ﴾ [النمل: ١٦]. حمله أهل العلم بالتأويل علي العلم والحكمة وكذا قول زكريا: ﴿ ... **فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا** ۝٥ **يَرِثُنِي** ... ﴾ [مريم: ٥، ٦] وقد حكىٰ ابن عبدالبر أن للعلماء في ذلك قولين، وأن الأكثر علىٰ أن الأنبياء لا يورثون »أهـ[١].

وقال الساعاتي – رحمه الله تعالىٰ – في الفتح الرباني: (قال العلماء: والحكمة في أنهم عليهم الصلاة والسلام لا يورثون أنهم لو وُرثوا لظن أن لهم رغبة في الدنيا لوارثهم، فيهلك الظان، أو لئلا يتمنىٰ ورثتهم موتهم فيهلكون، أو لأن النبي ﷺ كالأب لأمته فيكون ميراثه للجميع، وهو معنىٰ الصدقة العامة)[٢] أهـ.

(٩) إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالته:

لقد أكرم الله عز وجل أنبياءه ورسله وخصهم بمزيد عناية وتوفيق وأخلاق عالية لم تكتمل لغيرهم من البشر، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم وسياسة الشعوب؛ فخصهم الله بأخلاق سامية وآداب عالية وحكمة بالغة وعزائم وعقيدة صحيحة. ولنأخذ مثالاً علىٰ ذلك عناية الله عز وجل بنبيه موسىٰ عليه الصلاة والسلام وتهيئته للرسالة قبل إرساله وتأييده له بعدها،

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٨).

(٢) الفتح الرباني ١٥/ ١٩٢.

حيث يقول عز وجل عنه : ﴿ ... وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه : ٣٩] .

يقول الشيخ عبدالرزاق عفيفي – رحمه الله تعالىٰ – في وصفه لحياة موسىٰ عليه السلام قبل الرسالة : « هذه حلقة أولىٰ من حياة موسىٰ ، كلها عبر وعظات وآيات بينات علىٰ سنته تعالىٰ في إعداد أنبيائه قبل الرسالة فمنها :

أولاً : أن الله سبحانه جعل نجاته مما أصاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناس دماراً وإلقاء بالنفس إلىٰ التهلكة ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)** ﴾ [القصص : ٧، ٨] .

ثانياً : أن الله سبحانه كتب لموسىٰ حياة سعيدة في بيت من يخشىٰ عليه منهم، فعاش بين أظهرهم عيشة الملوك ﴿ **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)** ﴾ [القصص : ٩] .

ثالثاً : أن الله حرم عليه تحريماً كونياً أن يرضع من امرأة سوىٰ أمه، فكان ذلك فيما يرىٰ الناس بلاءً أحاط به، وهو في نفس الأمر كمال اللطف من الله والرحمة بموسىٰ ليرجعه إلىٰ أمه وهم لا يشعرون، فاجتمع له إلىٰ السلامة والنجاة عطف الأمهات وعز الملوك، ﴿ **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ**

أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [القصص: ١٢، ١٣].

وهناك سلسلة أخرىٰ من حياة موسىٰ قبل الرسالة تضمنت الكثير مما حباه الله به من العلم والحكمة، والمروءة والنجدة، ونصر المظلوم والأخذ علىٰ يد الظالم، والعطف علىٰ الضعيف، وقوة الإيمان بالله، والصدق في الالتجاء إليه والتوكل عليه، والتواضع مع عزة النفس، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي يُعِدُّ الله بها من يختاره للرسالة وقيادة الأمم، وألخص ذلك فيما يأتي:

أولاً: حفظ الله علىٰ موسىٰ صفاء روحه وسلامة فطرته، فمع أنه عاش في أوساط ظلم وطغيان لم يتأثر بما يتأثر به من قضىٰ أيامه الأولىٰ من حياته في بيئة استشرىٰ فيها الفساد، وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد، ولم يصب بما يصاب به أبناء الوجهاء، ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش غالباً من الجهل والاستهتار أو الرخاوة والخلاعة والمجون، بل صانه الله عن كل ما يشينه، وآتاه العلم النافع والحكمة البالغة وسداد الرأي، كما حفظ عليه نعمته من قبل في بدنه، ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)** ﴾ [القصص: ١٤].

ثانياً: جبل الله نبيه موسىٰ علىٰ الحزم والأخذ بالقوة في نصرة المظلوم؛ يتجلّىٰ ذلك من الخصومة التي كانت بين إسرائيلي وفرعوني وإنصافه للمظلوم، كما طبعه الله علىٰ الرفق بالضعيف والعطف عليه ومَدّ يد المعونة إليه؛ يتبين ذلك فيما كان منه من النجدة حينما ورد ماء مدين، فوجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتىٰ يصْدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير فسقىٰ

لهما، فجمع له بين شدة البطش بالظالمين وكمال الرفق بالمستضعفين.

ثالثاً: كان من آثار عناية الله بموسى ورعايته له أن قوىٰ فيه الوعي الديني، واستحكمت فيه الصلة بينه وبين ربه، فأحب ما يحبه الله من العدل والإنصاف، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان؛ لذلك فزع إلىٰ ربه واعترف بظلمه لنفسه حينما قضىٰ القبطي نحبه من وكزته، وأسرع في الأوبة إليه من ذنبه، فغفر الله له، فأخذ علىٰ نفسه عهداً لا يكون ظهيراً للمجرمين، شكراً لله علىٰ نعمته ووفاءً له بما غفر من ذنبه ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⟨١٦⟩ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ⟨١٧⟩** ﴾ [القصص: ١٦، ١٧].

رابعاً: فاض قلبه إيماناً بالله، وعظمت ثقته به وتوكله عليه فقصد إليه وحده في غربته وحيرته رجاء أن يهديه سواء السبيل ﴿ **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ⟨٢٢⟩** ﴾ [القصص: ٢٢]، ولما اشتدت به الحاجة وأخذ منه الجوع مأخذه توجه إلىٰ ربه وسأله من فضله، وأبت عليه عزة نفسه أن يشكو حاجته لغيره، أو يُعَرِّض لمن سقىٰ لهما بطلب الأجر ﴿ **فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ⟨٢٤⟩** ﴾ [القصص: ٢٤]، وقد استجاب الله دعاءه وهيأ له بيئة صالحة يحيا فيها حياة طيبة؛ فقد عرض عليه شعيب – لما عرف عنه من القوة والأمانة – أن يزوجه إحدىٰ ابنتيه علىٰ أن يرعىٰ له الغنم ثماني حجج، فإن أتم عشراً كان ذلك مكرمة منه، فالتزم موسىٰ بذلك، ولم يمنعه ما كان فيه أولا من رغد العيش وحياة الملوك

أن يكون أجيراً يأكل ويتزوج من كسب يده، وأشهد ربه علىٰ ذلك ﴿ **قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص: ٢٨]، وقد ثبت أنه أتم أبعد الأجلين، فدل علىٰ أنه طبع علىٰ حب الخير وفعل المعروف »أهـ[١].

* * *

(١) الحكمة من إرسال الرسل ص ٧٨ – ٨٠.

المبحث الثالث

«دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد ودعوتهم واحدة»

قال الله عز وجل: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** (٢٥) ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والإسلام دين الأنبياء جميعاً. فمنذ أن أُهبط آدم عليه الصلاة والسلام ودينه الإسلام ودعوته إلىٰ الإسلام الذي هو الاستسلام لله عز وجل وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. ثم استمر الإسلام في ذريته عشرة قرون حتىٰ ظهر الشرك أول ما ظهر في قوم نوح؛ فبعث الله نبيه نوحاً عليه السلام بالإسلام. ثم بعث الله عز وجل رسله تترىٰ مبلغة دين الإسلام إلىٰ أقوامهم كلما ظهر الشرك وانطفأت أنوار الإسلام.

قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ...** ﴾ [آل عمران: ١٩] إذن فإن دين الإسلام وتاريخ الإسلام معناه العام وجد مع وجود الإنسان علىٰ هذه الأرض، وهو دين الأنبياء جميعاً. أما الإسلام بمعناه الخاص فهو الذي بعث به محمد ﷺ جامعاً فيه بين الإسلام العام - الذي هو التوحيد ونبذ الشرك - وبين الأحكام الشرعية لهذه الأمة؛ حيث أحل لها الحلال، وحرم عليها الحرام، ووضع عنها الإصر والأغلال التي كانت علىٰ من قبلها فجاءت شريعة كاملة ميسرة شاملة خاتمة للشرائع صالحة لكل زمان ومكان، وهذا هو معنىٰ قوله ﷺ: «**أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ ابن مريم في**

الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد»[١] حيث يوضح هذا الحديث أن الأنبياء كالأبناء لأمهات شتىٰ وأب واحد. وذلك لاتفاقهم في التوحيد والإسلام وأصول الإيمان والأخلاق واختلافهم في الشرائع.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ:

(وهذا الدين هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين، فإن جميع الأنبياء علي دين الإسلام، قال تعالىٰ عن نوح: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ...** ﴾ [يونس: ٧١]، إلىٰ قوله: ﴿ ... **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)** ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال عن إبراهيم: ﴿ **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ...** ﴾ [البقرة: ١٣٠]، إلىٰ قوله: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)** ﴾ [البقرة: ١٣١]، إلىٰ قوله: ﴿ ... **فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)** ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال عن موسىٰ: ﴿ ... **يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)** ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال في حواري المسيح: ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)** ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال فيمن تقدم من الأنبياء: ﴿ ... **يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ...** ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عن بلقيس أنها

---

(١) البخاري كتاب الأنبياء (٣٤٤٣)، ومسلم في الفضائل ٤/١٨٣٧ (٣٦٥).

قـالت: ﴿ ... رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل: ٤٤]، فـالإسـلام يتـضـمن الاستـسـلام لله وحـده؛ فـمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده. فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت، فإذا أمر في أول الأمر باستقبال الصخرة، ثم أمرنا ثانياً باستقبال الكعبة كان كل من الفعلين حين الأمر به داخلاً في الإسلام؛ فالدين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين، وإنما تنوع بعض صور الفعل - وهو وجهة المصلي - فكذلك الرسل وإن تنوعت الشرعة والمنهاج والوجهة والمنسك فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحداً كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد) أهـ[١].

ويقول الشيخ عمر الأشقر حفظه الله:

(الرسالات التي جاء بها الأنبياء جميعاً منزلة من عند الله العليم الحكيم الخبير؛ ولذلك فإنها تمثل صراطاً واحداً يسلكه السابق واللاحق، ومن خلال استعراضنا لدعوة الرسل التي أشار إليها القرآن نجد أنَّ الدِّين الذي دعت إليه الرسل جميعاً واحد هو الإسلام، ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ... ﴾ [آل عمران: ١٩]، والإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدِّين المشترك الذي هتف به كلّ الأنبياء؛ فنوح يقول

(١) التحفة المهدية في شرح التدمرية ص ٣٢٢.

لقومه: ﴿ ... وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس: ٧٢]، والإسلام هو الدّين الذي أمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) ﴾ [البقرة: ١٣١]، ويوصي كُلٌّ من إبراهيم ويعقوب أبناءَه قائلاً: ﴿ ... فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وأبناء يعقوب يجيبون أباهم: ﴿ ... نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وموسىٰ يقول لقومه: ﴿ ... يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) ﴾ [يونس: ٨٤]، والحواريون يقولون لعيسىٰ: ﴿ ... آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وحين سمع فريق من أهل الكتاب القرآن ﴿ ... قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾ [القصص: ٥٣]).

فالإسلام شعار عام كان يدور علىٰ ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلىٰ عصر النبوة المحمديّة).[1] أهـ.

ويرد سيد قطب رحمه الله تعالىٰ علىٰ من يسمون بـ(علماء الأديان المقارنة) الذين يتحدثون عن التوحيد في الإسلام بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة فيقول:

(وهذه الحقيقة.. حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي الإسلام القائم علىٰ توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده.. تقودنا إلىٰ رفض

---

(١) الرسل والرسالات: ص ٢٤٣.

كل ما يخبط فيه من يسمونهم « علماء الأديان المقارنة » وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة سبقته أطوار شتىٰ من التعدد والتثنية للآلهة . ومن تأليه القوىٰ الطبيعية وتأليه الأرواح، وتأليه الشموس والكواكب . . إلىٰ آخر ما تخبط فيه هذه « البحوث »التي تقوم ابتداءً علىٰ منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة؛ يهدف إلىٰ تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله وإثبات أن الأديان من صنع البشر؛ وأنها من ثم تطورت بتطورالفكرالبشري علىٰ مدار الزمان !)[١] أهـ.

وإنه حينما يتقرر أن دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي دعوة واحدة، وهي الدعوة إلىٰ عبادة الله عز وجل وتوحيده – فإننا نقصد ذلك المفهوم الشامل للتوحيد والعبادة، ألا وهو إخراج الناس من العبودية والدينونة لغير الله إلىٰ الدينونة لله وحده بكل شمولها، وليس مجرد أن يوحِّد الناس بألسنتهم، أو أن يتوجهوا إلىٰ الله سبحانه بشعائر التعبد الظاهرة فقط ثم تبقىٰ قلوبهم ومصادر تلقيهم وتشريعاتهم إلىٰ غير الله عز وجل. إن مهمة الرسل في رسالتهم ودعوتهم أشمل من هذا المفهوم القاصر للتوحيد والإيمان، ولوكانت الدعوة إلىٰ التوحيد بهذا المفهوم القاصر لما استحقت كل هذه الجهود المضنية والتضحيات الباهظة من أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٨٨٢ ط الشروق .

يجلي هذه الحقيقة الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالىٰ فيقول:

(نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة علىٰ لسان كل رسول وفي كل رسالة.. دعوة توحيد العبادة والعبودية لله، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول: ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ ولقد كنا دائماً نفسر «العبادة» لله وحده بأنها «الدينونة الشاملة» لله وحده. في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة. ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي.. فإن «عبد» معناها: دان وخضع وذل. وطريق معبد طريق مذلل ممهد. وعبّده جعله عبداً أي خاضعاً مذللاً.. ولم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية. بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية! إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله؛ وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره... إن توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامة، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيدالجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة... إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود؛ وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام علىٰ مدار الزمان.. لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه، فالله سبحانه غني عن العالمين. ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة «بالإنسان» إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية

في كل جانب من جوانبها)[١] أهـ.

من كل ما سبق يتأكد لدينا أن دين الأنبياء عليهم السلام واحد ودعوتهم واحدة، ألا وهي الإسلام، وأصول الإيمان، وإخراج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها، ومن جورالأديان إلىٰ عدل الإسلام. كما أن هناك أموراً أخرىٰ اتفقت عليها جميع الأديان والرسالات ودعت إليها ألا وهي الأخلاق والقيم التي فطر الله الناس عليها؛ حيث نجد الدعوة إليها، والمحافظة عليها، ونبذ ما يخالفها موجود في كل رسالة، وقد تضمنتها دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يمكن أن تتغير ولايعتريها تبديل ولا نسخ مثلها مثل التوحيد وأصول الإيمان، وذلك كبرّ الوالدين، وتحريم الفواحش والظلم وقتل النفس بغيرحق، والإحسان إلىٰ اليتيم، والقسط بين الناس، وتحريم الكبر والفخر، والحث علىٰ الكرم والوفاء، وتحريم الغدر والخيانة... الخ.

وفيما عدا أصول الإيمان والقيم الثابتة جعل الله عز وجل لكل رسولٍ شريعة خاصة به لقومه شاملة وكاملة في وقتها لأهلها. وقد تختلف هذه الشرائع من نبي لآخر، وقد يتفق بعضها. حتىٰ ختم الله سبحانه جميع الشرائع بما أنزل علىٰ محمد ﷺ من الشريعة الكاملة الشاملة التي كتب الله عز وجل لها الخلود والقيام بمصالح العباد في كل زمان ومكان إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذا هو المعنىٰ المأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿ ... **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً**

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٩٠٢، ١٩٠٣ باختصار.

وَمِنْهَاجًا ...﴾ [المائدة: ٤٨].

يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالىٰ في تفسير هذه الآية: (اختلف أهل التأويل في المعني بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾، فقال بعضهم: عني بذلك أهل الملل المختلفة، أي أن الله جعل لكل ملة شريعة ومنهاجاً. حدثنا بشر بن معاذ قال ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، يقول: سبيلاً وسنة، والسنن مختلفة: للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء بلاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به الرسل... وقال آخرون: بل عني بذلك أمة محمد ﷺ: وقالوا: إنما معنىٰ الكلام: قد جعلنا الكتاب الذي أنزلناه علىٰ نبينا محمد ﷺ أيها الناس لكلكم: أي لكل من دخل في الإسلام وأقر بمحمد ﷺ، أنه له نبي: شرعة ومنهاجاً...

... وأولىٰ القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معناه: لكل أهل ملة منكم أيها الأمم جعلنا شرعة ومنهاجاً)[1] أ.هـ.

وعن اختلاف الشرائع واكتمالها في شرعة نبينا محمد ﷺ يقول الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله تعالىٰ:

(ومن تمام رحمة الله بعباده ونعمته عليهم وكمال حكمته في إقامة الحجة والإعذار إلىٰ من سبق عليه القول منهم أن جعل شريعة كل رسول

(١) تفسير الطبري ت: شاكر، ١٠/ ٣٨٥ باختصار.

من رسله شاملة كل ما تحتاجه أمته، جامعة لما يصلح شأنها وينهض بها في إقامة دولتها وبناء مجدها وتقويم أودها وحفظ كيانها، ويجعلها مثلاً أعلىٰ في جميع شئونها، سعيدة في الدنيا والآخرة؛ قال ﷺ «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته علىٰ خير ما يعلمه لهم، وينذرهم عن شر ما يعلمه لهم**»(١)، بل تضمنت فوق ذلك ما يكمل الضروريات والحاجيات والتحسينات علىٰ خير حال وأقوم طريق... والأمم الماضية لما كانت تسوسهم الأنبياء؛ كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وكان الوحي مستمراً، جرت فيهم سنة التطور في التشريع والتدرج في الأحكام، وكان الكثير من التفاصيل وفروع الشريعة مؤقتاً، فنسخت الشريعة اللاحقة من أحكام الشريعة السابقة ما اقتضت المصلحة نسخه؛ تنشئة للأمة وتربية لها وسداً لحاجتها، أو عقوبة لها علىٰ ظلمها وتمردها علىٰ شرائع ربها؛ قال تعالىٰ - في رسالة عيسى عليه الصلاة والسلام - ﴿**وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ...**﴾[آل عمران: ٥٠]، وقال تعالىٰ - في محمد عليه الصلاة والسلام - ﴿**... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ**

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإمارة رقم (١٨٤٨).

أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقال: ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١)** ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

أما هذه الأمة المحمدية فشريعتها خاتمة الشرائع، ورسولها خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا نبي بعده، فاقتضت حكمة الله أن تكون شريعته فيهم عامة دائمة إلىٰ يوم القيامة كفيلة بجميع مصالحهم الدينية والدنيوية، منظمة لنواحي حياتهم المختلفة، مُغْنية لهم عما سواها في جميع أمورهم وشئونهم، ولو طال بهم الأمد واختلفت أحوالهم علىٰ مر الأيام والعصور حضارة وثقافة، وتباينت أفكارهم ذكاءً وغباوة وحالتهم قوة وضعفاً وغنىٰ وفقراً» أهـ[١].

* * *

(١) الحكمة من إرسال الرسل ص ٣٠، ٣١، ٣٢ للشيخ عبد الرزاق عفيفي.

المبحث الرابع

« من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام »

لقد سبق في مبحث سابق بيان أهمية معرفة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهديهم وذلك لأخذ العبر العظيمة والاقتداء بهم والتعزي بما أصابهم، والحصول على الفوز في الدنيا والآخرة باتباعهم؛ لذا فإن هذا المبحث يتطلب منا دراسة متأنية عميقة لحياة هذا الركب الكريم، لعلنا أن نخرج بالفائدة المرجوة من هذا البحث، حيث إن هذا المبحث من مباحث هذا الكتاب يعتبر أهم المباحث وأطولها. أسأل الله عز وجل أن يفتح علي بالحق، وأن يلهمني رشدي، وأن يوفقني لتجلية ولو بعض هذه الجوانب العظيمة من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وإن القلم ليحار والقلب يوجف والفكر يهاب من الدخول في هذا الأمر المهيب الجلل خاصة من مثلي: العبد الفقير الذي يجد بينه وبين هذه الحياة الكريمة مسافة واسعة وأمداً بعيداً. أسأل الله عز وجل بحبي لهم أن يلحقني بهم، وأن يجعل ما أكتبه عنهم عوناً لي ولوالدي وأخواني المسلمين على الاقتداء بهم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

هذا وسيكون التركيز في هذا المبحث إن شاء الله تعالى على ثلاثة جوانب عظيمة من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي في نظري من أهم جوانب الاقتداء بهم عليهم الصلاة السلام، هي كما يلي:

(أ) من هديهم عليهم الصلاة والسلام في قوة العلم بالله عز وجل وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد وقوة العبادة.

(ب) من هديهم عليهم الصلاة والسلام في الأخلاق والسلوك.

(ج) من هديهم عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والتبليغ.

وسيكون تحت كل جانب من هذه الجوانب الثلاثة تقسيمات أخرىٰ تفصل فيها بعض الصور والأمثلة الداخلة تحت كل جانب، مع محاولة الربط ما أمكن بواقعنا نحن المسلمين اليوم، وبالذات ما يتعلق بالدعوة والدعاة في هذا العصر الغريب العجيب الذي كتب الله عز جل أن نعيش فيه. موضحاً من خلال هذا الربط مدىٰ قربنا أو بعدنا من هذا الهدي الكريم في كل جانب من الجوانب الآنفة الذكر من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وهذا هو جهد المقل؛ فما وجد فيه من صواب وحق فهو من الله عز وجل وهو المان به وحده، وما وجد فيه من خطأ وخلل فمني ومن الشيطان، ولا تنسني أخي القارئ الكريم من دعائك إن وجدت صواباً، ومن نصحك وتوجيهاتك إن وجدت خلاف ذلك.

* * *

الجانب الأول:

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في قوة العلم بالله عز وجل وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد:

إن أعلم الناس بالله عز وجل هم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهذا العلم به سبحانه وبأسمائه وصفاته العلا هو الذي أثَّر هذه الخشية العظيمة والإيمان الصادق والتوحيد الكامل لله عز وجل؛ لأنه كلما كان العبد أعلم وأعرف بربه سبحانه كان أشد خوفاً وتعظيماً وعبادة ومحبة وإخلاصاً له والعكس بالعكس.

وإن مما اختص الله سبحانه به رسله ومنَّ عليهم به هو تكميل هذا العلم النفيس في نفوسهم والذي هو أشرف العلوم وأزكاها.

وإن المسلم مطالب بطلب هذا العلم الشريف قدر استطاعته اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ولو أنه لن يصل إلىٰ علمهم ولا إيمانهم لكنه بذلك يقترب منهم ويسعد بثمار هذا العلم العظيم في قلبه وسلوكه وحياته كلها.

ومن الأدلة علىٰ شرف هذا العلم وأن أولىٰ الناس به هم الأنبياء والرسل ما يلي:

قوله تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعوته لأبيه: ﴿ **يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣)** ﴾. [مريم: ٤٣]

وقوله تعالىٰ عن يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ ... **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (٦٨) ﴾ [يوسف : ٦٨] .

وقوله تعالىٰ عن قول يعقوب عليه الصلاة والسلام لبنيه : ﴿ ... **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٩٦) ﴾ [يوسف : ٩٦] . وذلك بعد أن جاء البشير بقميص يوسف عليه السلام فارتد البصر إلىٰ يعقوب عليه السلام وأخبرهم أنه يعلم من لطف الله سبحانه ورحمته ما يدفع عنه اليأس ويثمر الرجاء . وهذا الأثر العظيم من آثار علم يعقوب عليه السلام بأسماء الله عز وجل وصفاته مما لم يصل إليه أبناؤه الذين استنكروا عليه أمله في رجوع يوسف عليه السلام .

وقوله تعالىٰ : عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه : ﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٦٢) ﴾ .

[الأعراف : ٦٢]

أي وأعلم من أمر الله ما لا تعلمونه؛ فأعلم من صفات الله وقدرته الباهرة، وبطشه بأعدائه ما جهلتم، وأعلم أن العاقبة للمتقين وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين .

وقوله تعالىٰ عن مقالة نوح عليه الصلاة والسلام لقومه : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** (٢٨) ﴾ [هود : ٢٨] .

وقوله تعالىٰ عن صالح عليه الصلاة والسلام : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا**

تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾ [هود: ٦٣].

وقوله تعالىٰ عن شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)** ﴾ [هود: ٨٨].

وهذا موسىٰ عليه الصلاة والسلام مع ما آتاه الله عز وجل من العلم العظيم فإنه لم يرتو منه وإنما طلب المزيد. وقصة سفره عليه الصلاة والسلام إلىٰ الخضر عليه السلام ليتعلم منه معروفة، وقد قصها الله عز وجل علينا في كتابه الكريم، والشاهد منها قوله تعالىٰ: . ﴿ **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)** ﴾ [الكهف: ٦٦]، وللشيخ السعدي رحمه الله تعالي عند هذه القصة كلام نفيس فليرجع إليه.

وقوله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: ﴿ **قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧)** ﴾ [الأنعام: ٥٧]..

وقوله ﷺ عن نفسه عندما تنزه بعض الصحابة عن شيء رخص فيه الرسول ﷺ فبلغ ذلك إليه فخطب فحمد الله ثم قال: « **ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية** »(١).

---

(١) البخاري رقم (٦١٠١) في الأدب، ومسلم رقم (٢٣٥٦) في الفضائل.

وبعد سرد هذه الأدلة – والتي هي علىٰ سبيل المثال لا الحصر – نأتي الآن إلىٰ آثار هذه البينات العظيمة في نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الناشئة عن هذا العلم الشريف بالله عز وجل وبأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا، لعلنا نهتدي بهذه الآثار الإيمانية المباركة ونسعىٰ للتأسي بهم فيها.

ومن هذه الآثار مايلي:

أولاً: شدة تعظيمهم لله عز وجل وخوفهم منه:

إن مما يلفت الانتباه في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه علىٰ الرغم من اصطفاء الله سبحانه لهم وحبه لهم وقربهم منه سبحانه فإن هذه المزايا لم تزدهم لربهم إلا تعظيماً ومحبة وخوفاً منه سبحانه وخشية. وهذه سنة الله سبحانه؛ فكلما ازداد العبد معرفة بربه عظَّمه في نفسه وخاف منه سبحانه خوف المحب لحبيبه؛ خوفاً يقرب إلىٰ الله عز وجل وخوفاً يهضم العبد عنده نفسه ويحقرها ولا يرىٰ لها فضلاً ولا طولاً وإنما يراها أهلاً للظلم والخطيئة والضعف إن لم يوفق الله عز وجل صاحبها ويعينه عليها.

وهكذا كان شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأمثلة في ذلك كثيرة منها:

○ مناجاة نوح عليه الصلاة والسلام لربه بشأن ابنه:

وقد جاء ذلك في قصة نوح مع قومه في سورة هود حيث يقول الله

تعالىٰ: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٧]. ويظهر من هذه الآيات علم نوح عليه الصلاة والسلام بربه عز وجل والذي أثمر عنده هذا الأدب العظيم مع ربه والخوف منه سبحانه؛ فتراه وهو يدعو ربه بشأن ابنه الهالك مع الكافرين يختم دعاءه بقوله ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ولم يقل: وأنت أرحم الراحمين، وهذا من كمال علمه عليه الصلاة والسلام بأسماء الله عز وجل وصفاته وآثارها؛ لأن المقام مقام تفويض واستسلام لحكمة الله البالغة التي اقتضت أن يكون ابن نوح مع الهالكين ولم يكن مع الناجين. ولذلك ختم نوح عليه السلام دعاءه بقوله: ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾. كما يظهر في هذه المناجاة خوف نوح عليه السلام من ربه واتهامه لنفسه بالظلم وطلبه المغفرة من ربه سبحانه؛ وذلك في قوله: ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الله أكبر، هذا نوح عليه السلام الذي أمضىٰ مئات السنين في دعوة قومه وصبر وصابر وناله من الأذىٰ والاستهزاء الشيء العظيم ومع ذلك يختم دعوته بطلب المغفرة والرحمة من ربه سبحانه: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا (٢٨) ﴾ [نوح: ٢٨].

فماذا نقول نحن المفرطين الظالمين الجاهلين؟! سبحانك قد ظلمنا أنفسنا ظلماً كثيراً وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

وحري بالدعاة إلىٰ الله عز وجل أن يهتدوا بهذا الهدي المبارك الذي يقرب إلىٰ الله عز وجل ويقضي علىٰ أدنىٰ شعور بالعجب والزهو بالنفس وإنجازاتها؛ فمهما كان من الدعوة والجهاد فإن المانّ به هو الله سبحانه. والنفس لا تقوىٰ علىٰ شيء إلا بعون الله سبحانه وتوفيقه وهي محلّ الظلم والذنوب والخطايا . وإن لم يتداركها الله عز وجل برحمة منه ومغفرة فإنها هالكة وخاسرة لا محالة.

ولعل من هذا الباب أيضاً دعاء الأبوين عليهما السلام بعد ما أكلا من الشجرة ﴿ **قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وقول الله عز وجل عن دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام تلك الأدعية الخاشعة لله سبحانه والتي منها ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾** ﴾ [الشعراء: ٨٢ - ٨٩]. هذا هو إمام الحنفاء وخليل الرحمن يخاف من ذنوبه ويسأل ربه المغفرة والستر ويطلب من ربه سبحانه أن يلحقه بالصالحين، وكأنه ليس منهم!!

إذن فما حالنا؟ ماذا عسانا أن نقول؟! إنه ليس أمامنا إلا أن نحذو حذو هذا الركب المبارك المطهر ونقول ما أوصىٰ به الرسول ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه عندما سأله أن يعلمه دعاءً يدعو به في صلاته فقال ﷺ: «**قل: اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت**

فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[١].

○ محاجة شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه ورده عليهم عندما خيروه بين الخروج من قريتهم أو العودة في ملتهم:

وقال الله عز وجل: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾** ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]

والشاهد من هذه الآيات الكريمات ذلك الثبات العظيم واليقين التام من شعيب عليه الصلاة والسلام أنه علىٰ الحق، وأنه علىٰ بيّنة من ربه، وليس عنده استعداد للتنازل عن هذا الحق مهما كانت الأحوال. ولكن شعيباً عليه الصلاة والسلام مع يقينه هذا وثباته العظيم فهو لم يعتمد علىٰ قوته وإيمانه هذا بعيداً عن ربه وإنما رد الأمر إلىٰ مشيئة الله عز وجل وإرادته النافذة ورحمته الباهرة؛ فهو الذي بيده قلوب العباد والعالم بكل شيء؛ ولذلك جاء من شعيب عليه السلام هذا الأدب العظيم والتعظيم لله عز وجل، ورد أمر الثبات علىٰ الحق وعدمه إلىٰ مشيئته سبحانه وحكمته البالغة، ولذلك فوض أمره إلىٰ الله عز وجل وتوكل عليه في الثبات والفتح بينه وبين قومه بالحق.

---

(١) البخاري: رقم (٨٣٤) في الأذان، ومسلم رقم (٢٧٠٥) في الذكر والدعاء.

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله تعالىٰ - معلقاً علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿... وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا...﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿... وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ...﴾. أي: يمتنع علىٰ مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال. فآيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة؛ من جهة أنهم كارهون لها، مبغضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ماهم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه، فإنهم كاذبون.

ومنها اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها: أن عودتهم فيها - بعد ما هداهم الله - من المحالات، بالنظر إلىٰ حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالىٰ، والاعتراف له بالعبودية وأنه الإله وحده، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لا شريك له، وأن آلهة المشركين، أبطل الباطل، وأمحل المحال. وحيث إن الله منَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدىٰ والضلال. وأما من حيث النظر إلىٰ مشيئة الله، وإرادته النافذة في خلقه، التي لاخروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوىٰ، فإنهم لا يحكمون علىٰ أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه.

ولهذا استثنىٰ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته، التابعة لعلمه وحكمته وقد ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه)[١] أهـ.

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (٨٩) من سورة الأعراف.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية:

(قال تعالىٰ إخباراً عن نبيه شعيب أنه قال لقومه: ﴿ **قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا** ... ﴾ [الأعراف: ٨٩]. وهذا يبطل تأويل القدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنىٰ الأمر. فقد علمت أنه من الممتنع علىٰ الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يُضل بها من يشاء ويهدي من يشاء. ثم قال شعيب: ﴿ **وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴾ فرد الأمر إلىٰ مشيئته وعلمه؛ فإن له سبحانه في خلقه علماً محيطاً ومشيئته نافذة وراء ما يعلمه الخلائق؛ فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علم آخر ومشيئة أخرىٰ وراء علومنا ومشيئتنا فلذلك رد الأمر إليه) أهـ[(١)].

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية أيضاً:

(ولكن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه، وبقدر ما يرفع صوته، في مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه.. بقدر ما يخفض هامته، ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل الذي وسع كل شيء علماً. فهو في مواجهة ربه، لا يتألىٰ عليه ولا يجزم بشيء أمام قدره، ويدع له قياده وزمامه، ويعلن خضوعه واستسلامه:

﴿ .... **إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** .. ﴾

إنه يفوض الأمر لله ربه، في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين

---

(١) بدائع التفسير (٢/ ٢٦١).

معه.. إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت، من العودة في ملتهم؛ ويعلن تصميمه والمؤمنين معه علىٰ عدم العودة؛ ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته..ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم.. فالأمر موكول إلىٰ هذه المشيئة، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون، وربهم وسع كل شيء علماً. فإلىٰ علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم.

إنه أدب ولي الله مع الله. الأدب الذي يلتزم به أمره، ثم لا يتألىٰ بعد ذلك علىٰ مشيئته وقدره. ولا يتأبىٰ علىٰ شيء يريده به ويقدره عليه.

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم، ويتجه إلىٰ وليه بالتوكل الواثق، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق)أهـ[1] .

○ **تعظيم موسى عليه الصلاة والسلام لربه وخوفه منه:**

وذلك عندما سأل ربه عز وجل أن يراه حباً له وشوقاً إليه، فأخبره ربه تعالىٰ بامتناع ذلك في الدنيا، وأراه آية ذلك في الجبل الذي جعله الله تعالىٰ دكاً حينما تجلىٰ الله عز وجل للجبل فخر موسىٰ صعقاً؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)** ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والشاهد من ذلك تعظيم موسىٰ عليه الصلاة والسلام لربه عز وجل

(١) في ظلال القرآن عند الآية (٨٩) من سورة الأعراف.

وتنزيهه وسؤاله ربه المغفرة والتوبة، وكل هذا الشعور العظيم من موسىٰ عليه الصلاة والسلام نابع من معرفته بربه المعرفة الحقة التي أثمرت هذا التعظيم والخوف من الله عز وجل.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية:

(قوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ** ﴾ إذا تجلىٰ الله له ﴿ **فَسَوْفَ تَرَانِي** ﴾ ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ** ﴾ الأصم الغليظ ﴿ **جَعَلَهُ دَكًّا** ﴾ أي: انهال مثل الرمل، انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها.

﴿ **وَخَرَّ مُوسَىٰ** ﴾ حين رأىٰ ما رأىٰ ﴿ **صَعِقًا** ﴾ أي: مغشياً عليه.

﴿ **فَلَمَّا أَفَاقَ** ﴾ تبين له حينئذ، أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله، فموسىٰ أولىٰ أن لا يثبت لذلك. واستغفر ربّه، لما صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعاً ولذلك: ﴿ **قَالَ سُبْحَانَكَ** ﴾ أي: تنزيهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك.

﴿ **تُبْتُ إِلَيْكَ** ﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك ﴿ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك)أهـ[١].

○ **تعظيم عيسى عليه الصلاة والسلام لربه سبحانه وأدبه مع ربه عز وجل:**

وذلك عند سؤال الله عز وجل له يوم القيامة وهو أعلم: ﴿ ... **أَأَنتَ**

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (١٤٣) من سورة الأعراف.

قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ...﴾ [المائدة: ١١٦].

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾ [المائدة: ١١٦ - ١٢٠].

والشاهد من هذا الحوار هو ذلك التعظيم والأدب الجم من عيسىٰ ﷺ لربه سبحانه، وذلك العلم العظيم من عيسىٰ عليه الصلاة والسلام لأسماء الله عز وجل وصفاته الحسنىٰ حيث اختار من الأسماء والصفات ما يناسب المقام وخاصة عند قوله ﷺ لربه عز وجل: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فكونه ﷺ ختم كلامه هذا بقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: (فإنك أنت الغفور الرحيم) فإن هذا يدل علىٰ معنىٰ عظيم وعلم شريف خص الله عز وجل به أنبياءه عليهم الصلاة والسلام. ويدل علىٰ ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «تلقّىٰ عيسىٰ حجته، لقّاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال أبو هريرة

عن النبي ﷺ: فلقاه الله: ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ... ﴾ الآية كلها)[١].

وقد علق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ علىٰ المعاني الشريفة اللطيفة في هذه الآيات وما في رد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام من التعظيم والتنزيه والأدب لربه عز وجل فقال: «وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم. كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟ قال المسيح عليه السلام: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ ولم يقل: لم أقله، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب. ثم أحال الأمر علىٰ علمه سبحانه بالحال وسره. فقال: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿ وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ثم أثنىٰ علىٰ ربه، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ثم نفىٰ أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به – وهو محض التوحيد – فقال: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم. وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم؛ فقال: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم؛ فقال: ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ثم قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام؛ أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم. وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك. فإذا

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٠٦٤) في التفسير ، وقال : هذا حديث حسن صحيح.

عذبتهم - مع كونهم عبيدك - فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم علىٰ سيدهم، وأعصاهم له لم تعذبهم؛ لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلىٰ عبده ورحمته. فلماذا يعذب أرحم الرحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبيده؟ لولا فرط عُتُوِّهم وإبائهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ أي هم عبادك. وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم. فإذا عذبتهم: عذبتهم علىٰ علم منك بما تعذبهم عليه. فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه. فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجهال، ولا تفويض إلىٰ محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية. وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالىٰ؛ فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلىٰ النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة. بل مقام براءة منهم. فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربَّه علىٰ أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه علىٰ مَنْ غضب الرب عليهم. فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلىٰ ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنىٰ: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم. ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم؛

وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجز عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال: هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب)[١] أهـ.

○ **تعظيم نبينا محمد ﷺ لربه سبحانه وخوفه منه:**

ونختم هذه الأمثلة من تعظيم الأنبياء لربهم سبحانه وخوفهم منه ببعض الشواهد من تعظيم نبينا محمد ﷺ لربه وخوفه منه مع أنه سيد المرسلين، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ولا غرابة في ذلك فهو كما قال عن نفسه ﷺ: «**فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**»[٢] .

ومن ذلك ما يلي:

□ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً**» [٣] ولذلك ما رؤي رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط؛ إنما كان يتبسم.

□ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «**اللَّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**» قالت: وإذا تخيّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر. فإذا أمطرت سُرّي عنه، فعرفت ذلك عائشة؛ فسألته فقال: «**لعله يا عائشة كما قال قوم**

---

(١) مدارج السالكين ٢ /٣٧٨، ٣٧٩.

(٢) سبق تخريجه: ص٥٥.

(٣) البخاري رقم (٦٤٨٦) في الرقاق، ومسلم رقم (٢٣٥٩) في الفضائل.

عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا...﴾ .
[الأحقاف: ٢٤][١]

□ وفي رواية أخرىٰ عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتىٰ أرىٰ منه لهواته. إنما كان يتبسم وقالت: كان إذا رأىٰ غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيها المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال: « **يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب! قد عذب قوم بالريح، وقد رأىٰ قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا** »[٢].

□ عن جُبير بن مُطعِم، قال: جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نُهِكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموالُ، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك علىٰ الله. فقال النبي ﷺ « **سُبحان الله، سبحان الله!** » فما زال يُسبِّح، حتىٰ عُرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: « **ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظمُ من ذلك، إنه لا يُستشفع بالله علىٰ أحد** » وذكر الحديث[٣].

□ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه وهم يختصمون في القدر. فكأنما يفقأ في وجهه

---

(١) رواه مسلم – كتاب الاستسقاء – باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم برقم (١٥ تحت ٨٩٩).

(٢) البخاري – كتاب التفسير – تفسير سورة الأحقاف رقم (٤٨٢٨)، (٤٨٢٩)، ومسلم كتاب الاستسقاء رقم (١٦ تحت ٨٩٩).

(٣) أبو داود في السنن (٤٧٢٦) وصححه ابن القيم في تهذيب السنن (٧/ ٩٥).

حب الرمان من الغضب. فقال: «**بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض. بهذا هلكت الأمم قبلكم**»[١].

ثانياً: كثرة ذكرهم لله عز وجل وشدة تضرعهم ودعائهم له سبحانه مع قوة عبادتهم:

وهذا الجانب من هديهم عليهم الصلاة والسلام ثمرة من ثمار الإيمان الصادق والتوحيد الكامل النابعين من كمال حبهم لله عز جل وتعظيمهم له.

وإن المتأمل في هذا الجانب من هديهم ليأخذه العجب والإجلال والحب الخالص لهذه الصفوة المختارة من عباد الله، وهو يرىٰ إخباتهم لربهم سبحانه وكثرة ذكرهم له، وتضرعهم ودعاءهم المتواصل لربهم مع كثرة عبادتهم وطولها وتنوعها. كل ذلك وهم أولياء الله وأنبياؤه وصفوته من خلقه، وإن في هذا الهدي لعبرة لمن هو دونهم ممن يحسب نفسه من الدعاة المتبعين لهم. نعم إن في ذلك لعبرة لمن جاء بعدهم من المحبين لهم في أن يولوا هذا الجانب حقه، وأن يقتدوا بهؤلاء المصطفين الأخيار في كثرة ذكرهم لله عز وجل، وكثرة دعائهم وتضرعهم وعبادتهم له سبحانه مع ماهم فيه من هم الدعوة والجهاد والانشغال في أمر هذا الدين في الليل والنهار، ولكن كل ذلك لم يشغلهم عن الخلوة بربهم سبحانه والتفرغ لذكره ودعائه وعبادته. وفي هذا رد علىٰ ما قد يتذرع به بعضنا – إذا نبه إلىٰ هذا الجانب المهم في حياة الداعية – من ضيق الوقت وكثرة المشاغل وتعب الجسد وإجهاده في طلب العلم والدعوة إلىٰ الله عز وجل، فيدخل

(١) صحيح سنن ابن ماجة (٦٩) ١/ ٢١.

الشيطان إلىٰ النفس من هذا الباب – (باب التفريط) – فيجد الداعية نفسه وقد أهملها في أعظم رافد له في دعوته وأكبر زاد له في طريقه إلىٰ الله.

وأورد الآن نماذج من هذا الهدي المبارك لعلها أن تشحذ الهمم وتقوي العزائم، ولعلها في الوقت نفسه أن تطامن منا بعض النفوس التي أصابها داء العجب؛ فتشعر وهي تقرأ هذه النماذج بأنها لا زالت مقصرة ومفرطة في جنب الله، فيحصل مقت النفس في ذات الله عز وجل واحتقارها؛ الاحتقارالذي يؤدي مع الاستعانة بالله عز وجل إلىٰ علاجها ويقظتها.

ومن هذه النماذج ما يلي:

○ تضرعهم عليهم الصلاة والسلام إلىٰ ربهم سبحانه وسؤاله قضاء حوائجهم:

ذكر الله عز وجل في آخر سورة الأنبياء مجموعة من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهم يسألون ربهم ويتضرعون إليه في قضاء حوائجهم، ويتوسلون إلىٰ الله عز جل بأسمائه وصفاته كما يتوسلون بفاقتهم وافتقارهم إلىٰ الله عز وجل.

قال الله تعالىٰ: ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ**

الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

[الأنبياء: ٨٣ - ٩٠]

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالىٰ - معلقاً علىٰ هذا الدعاء الخاشع من أيوب عليه الصلاة والسلام:

(جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلىٰ ربه ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره، ومتىٰ وجد المبتلىٰ هذا كشفت عنه بلواه)[1] أهـ.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ أي أن في صبر أيوب عليه الصلاة والسلام ودعائه عبرة للعابدين من بعده ليقتدوا بصبره وعبادته ودعائه ويقينه.

وفي هذه الآيات أيضاً ذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل وأنهم من الصابرين، وأن الله عز وجل جازاهم بأن أدخلهم في الصالحين.

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله تعالىٰ - عن هؤلاء الأنبياء:

(فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله بالصبر. فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي. ووصفهم أيضاً بالصلاح وهو يشمل صلاح القلب، بمعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه كل وقت. وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله. وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله

---

(١) بدائع التفسير (٣/ ١٨٩).

وكَفِّها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله في رحمته وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين وأثابهم الثواب العاجل والآجل. ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالىٰ نَوَّهَ بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفىٰ بذلك شرفاً وفضلاً»(١) أهـ.

ويتحدث الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالىٰ - عند قوله تعالىٰ عن يونس عليه السلام: ﴿ ... **فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فيقول: (فإن فيها من كمال التوحيد: التنزيه للرب تعالىٰ، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمِّ والغمِّ، وأبلغ الوسائل إلىٰ الله سبحانه في قضاء الحوائج؛ فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه. والاعتراف بالظلم يتضمَّن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلىٰ الله واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلىٰ ربه؛ فها هنا أربعة أمور قدوقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف)(٢) أهـ.

وقد وصف الله سبحانه: نبيه يونس عليه الصلاة والسلام بأنه كان من المسبحين في وقت الرخاء فقال تعالىٰ: ﴿ **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** ﴿١٤٣﴾ **لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله تعالىٰ -: (﴿ **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** ﴾ أي في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده، وفي بطن الحوت)(٣).

---

(١) تفسير السعدي (٣/٢٩٥).

(٢) بدائع التفسير: (٣/١٩٠).

(٣) تفسير السعدي (٤/٢٧٢).

وهذا هو دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في كثرة ذكر الله عز وجل وتسبيحه في الرخاء والشدة وفي كل حين مع دعائهم لربهم واعترافهم بظلمهم لأنفسهم، فما عسانا نحن أن نقول اليوم يا من غرقنا في بحر الذنوب والخطايا؟! فاللَّهم غفرانك ورحمتك.

ويبقىٰ في الآيات السابقة وصف زكريا ويحيىٰ عليهما السلام بقوله تعالىٰ: ﴿ ... **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** (٩٠) ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله تعالىٰ -:

(﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** ﴾ أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها علىٰ الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها.

﴿ **وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا** ﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين، وهم راغبون لا غافلون، راهبون[١]، لا مدلون.

﴿ **وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ أي خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم)أ هـ[٢].

هذه هي صلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بربهم: ذكرٌ، وتسبيحٌ، ودعاءٌ.

---

(١) (راهبون): في الأصل: (لاهون)، ولعل الصواب ما أثبتناه ليستقيم السياق.

(٢) تفسير السعدي (٣/ ٢٩٧).

○ **خشوعهم وبكاؤهم عند ذكر الله عز وجل:**

فبعد أن ذكر الله عز وجل مجموعة من الأنبياء في سورة مريم أثنىٰ عليهم بقوله تعالىٰ: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)** ﴾ [مريم: ٥٨].

يقول الشيخ السعدي – رحمه الله تعالىٰ – عند هذه الآية: (فهذه خير بيوت العالم اصطفاهم الله، واختارهم واجتباهم. وكان لهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب، وصفات علاّم الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

﴿ **خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** ﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم. ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله: ﴿ **خروا عليها صماً وعميانا** ﴾ وفي إضافة الآيات إلىٰ اسمه ﴿ **الرَّحْمَٰنِ** ﴾ دلالة علىٰ أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم؛ حيث هداهم بها إلىٰ الحق وبصرهم من العمىٰ، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة)[١] أهـ.

○ **دعاؤهم عليهم الصلاة والسلام ربهم بالثبات على الحق والموت على التوحيد والإسلام:**

ومن ذلك قول الله تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ **... وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)** ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقوله تعالىٰ

(١) تفسير السعدي (٣/٢٠٩).

عن دعائه الآخر أيضاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)﴾ [الشعراء: ٨٣]. وقوله تعالىٰ عنه أيضاً: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا ...﴾ [الممتحنة: ٥]. وقوله تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام عندما أخذت قومه الرجفة قوله: ﴿... إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ...﴾ [الأعراف: ١٥٥، ١٥٦]. وقوله تعالىٰ عن سليمان عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾.

[النمل: ١٩]

وقوله تعالىٰ عن يوسف عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾.

[يوسف: ١٠١]

يقول السعدي – رحمه الله تعالىٰ – عند هذه الآية: (ينبغي للعبد أن يتضرع إلىٰ الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب لذلك: يسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة، ويتوسل بنعمه الحاصلة إلىٰ ربه أن يتمها عليه ويحسن له العاقبة. وليس هذا من «يوسف» تمنياً للموت – كما ظن بعضهم – بل هو دعاء الله أن يحسن خاتمته ويتوفاه علىٰ الإسلام، كما يسأل العبد ربه ذلك كل وقت)[1] أهـ.

---

(١) تفسير السعدي: (٢/٤٥٢).

ويقول ابن القيم – رحمه الله تعالىٰ – عند هذه الآية أيضاً: (جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غير الله سبحانه، وكون الوفاة علىٰ الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء)[١] أهـ.

وأختم هذه الأدعية النبوية بذلك الدعاء الذي كثيراً ما كان يلهج به الرسول ﷺ ويردده؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**»، فقلت: يا رسول الله قد آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»[٢].

فإذا كان هذا هو حال أنبياء الله عز وجل وصفوته من خلقه فحري بمن دونهم أن يخاف علىٰ نفسه من سوء الخاتمة، فمن ذا الذي يأمن الفتنة بعد أنبياء الله عز وجل؟

○ القوة في طاعة الله تعالى وعبادته:

هذه الصفة العظيمة من أبرز ما في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث إنهم أكثر الناس عبادة وصلاة وإخباتاً لله عز جل. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالىٰ – عند قوله تعالىٰ: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾**﴾ [ص: ٤٥]. (عن عطاء

(١) بدائع التفسير: (٢/ ٤٧٦).

(٢) الترمذي (٢١٤١) في القدر وقال: حسن صحيح.

الخراساني: ﴿أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ قال: أولو القوة في العبادة والعلم بأمر الله، وعن مجاهد، وروي عن قتادة قال: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين)[١] أهـ.

والشواهد في ذكر عبادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرة منها:

- قوله تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠].

- وقوله تعالىٰ: في مدح إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٥].

- وقوله تعالىٰ في مدح إسحاق ويعقوب: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

- وقوله تعالىٰ في وصف عبادة داود عليه الصلاة والسلام وإنابته وكثرة تسبيحه وخشوعه فيه حتىٰ أن الجبال والطير تردد معه؛ قوله تعالىٰ: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٧ - ١٩]. ووصف توبته بقوله سبحانه ﴿...وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢٤].

وقد جاء في سجدة (ص) هذه: (عن مجاهد قال: سألت ابن عباس:

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٧٠).

من أين سجدت؟ قال: أو ما تقرأ: ﴿ ... **وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ** ... ﴾ [الأنعام: ٨٤]. إلىٰ: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ... ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فكان داود ممن أُمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ) [١].

وقد وصف لنا الرسول ﷺ جانباً من كثرة عبادة داود عليه الصلاة والسلام وقوته فيها فقال: «**أحب الصلاة إلىٰ الله صلاة داوود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولايفر إذا لاقىٰ**»[٢].

* أما عن نبينا محمد ﷺ وكثرة عبادته وقوته فيها فهي كثيرة جداً مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ولا غرابة في ذلك فهو الذي امتلأ قلبه معرفة بربه سبحانه وحباً وتعظيماً له، وهو الذي قال له ربه سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)** ﴾ [المزمل: ١ - ٤]. وهو الذي قال له ربه عز وجل: ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)** ﴾ [الإنسان: ٢٦]. وقال له: ﴿ ... **فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)** ﴾ [مريم: ٦٥]. وأكتفي بشاهدين اثنين من أحواله الكثيرة في عبادته ﷺ وقوته فيها:

- فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة،

---

(١) البخاري في التفسير رقم (٤٨٠٧).

(٢) البخاري في التهجد (١١٣١)، مسلم كتاب الصيام (١٨٩).

فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة، ثم مضىٰ، فقلت: يصلي بها في الركعة، فمضىٰ، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها؛ يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ. ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده – زاد في رواية ربنا لك الحمد – ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلىٰ، فكان سجوده قريباً من قيامه)[١].

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتىٰ تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: «**أفلا أكون عبداً شكورا**»[٢].

وأخيراً فهذه أحوال المصطفين الأخيار من أنبياء الله عز وجل. وما سبق ذكره إن هو إلا جانب يسير وغيض من فيض من صلتهم بالله عز وجل ذكراً وتسبيحاً ودعاء وصلاة، فهل من مشمر للأخذ بهديهم كما أمر الله عز وجل ﴿ **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾؟ وهل بقي مجال لأحد أن يعتذر بكثرة المشاغل الدعوية وطلب العلم في التفريط في هذا الزاد العظيم؟

وتبقىٰ مسألة مهمة تبرز للمتأمل في تلك الكلمات والجُمل العطرة الجامعة والتي تتألف منها أذكارهم وأدعيتهم عليهم الصلاة والسلام؛ ألا وهي تجريد التوحيد لله عز وجل وإخلاص العبادة له وحده؛ (والدعاء هو

(١) مسلم (٧٧٢) في صلاة المسافرين.

(٢) البخاري رقم (٤٨٣٦) في التفسير، ومسلم رقم (٢٨١٩) في صفات المنافقين.

العبادة) لأنه مظهر من مظاهر العبودية لله سبحانه، والاعتراف بأنه وحده الذي يكشف الضر وترفع إليه الحاجات، وهو وحده الذي تُرجىٰ رحمته ويُخشىٰ عذابه، ولذلك وصف الله عز وجل أنبياءه ورسله بقوله تعالىٰ: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فهل بقي عذر لمن يتوجه إلىٰ الأنبياء أو غيرهم في جلب نفع أو دفع ضر، وهذا هو شأنهم مع ربهم في دعائهم له؟

ثالثاً: كمال توكلهم على الله عز وجل واستعانتهم به وحده ورضاهم بحكمه:

وهذه الصفات من هديهم عليهم الصلاة والسلام تدخل في آثار معرفتهم بالله عز وجل وبأسمائه وصفاته، والبينات العظيمة التي يجدونها في نفوسهم عن ربهم سبحانه. فأثمر ذلك كله هذا التوكل الصادق والثقة العظيمة بالله عز وجل والتفويض المطلق إلىٰ الله سبحانه. وهذا كله يفسر لنا ذلك الثبات العظيم والشجاعة التي ليس لها مثيل في تاريخ البشر، والتي واجهوا بها قوىٰ الشر والطغيان وواجهوا بها كل صنوف التهديد والأذىٰ والقتل والتشريد، وكلما كان الاتِّباع لهم شديداً نال المتبع والمقتدي بهديهم من هذا التوكل والثبات والاطمئنان نصيباً يكافئ صدق توحيده وصدق اتباعه واقتدائه، جعلنا الله عز وجل من المقتدين بهم المتبعين لهديهم، وحشرنا في زمرتهم وألحقنا بركبهم، إنه علىٰ كل شيء قدير.

ونستعرض الآن شيئاً من هذه النماذج الفريدة في صدق التوكل والاستعانة بالله وحده التي أثمرت الطمأنينة والشجاعة والتسليم لأمرالله عز وجل.

١- أمثلة في الشجاعة والثبات:

● قال الله عز وجل عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) ﴾ [يونس: ٧١].

● وقال تعالىٰ عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام في محاجته لقومه: ﴿ ... قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾.

[هود: ٥٤ – ٥٦]

هذان موقفان متشابهان في الشجاعة والتحدي يواجه بها كلُّ نبي قومه الغلاظ الشداد وهو وحيد فريد، وما ذلك إلا من العلم بالله عز وجل وأسمائه وصفاته الذي أثمر هذا التوكل والثبات وحسن الظن بالله عز وجل؛ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ:

(ولما علم نبي الله هود عليه السلام أن ربه علىٰ صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته

وبلائه وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس، الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته، من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب موضعه، والعقوبة في موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال، كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به، بحيث يستحق علىٰ ذلك كمال الحمد والثناء – أوجب له ذلك العلم والعرفان، إذ نادىٰ علىٰ رءوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب خائف بل متجرد لله: ﴿ . . .**إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه، وذل كل شيء لعظمته فقال: ﴿**مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قهره وقبضته، وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم؟)[١] أهـ.

ويعلق محمد العدوي في كتابه «دعوة الرسل» علىٰ هذا الثبات العظيم من نوح وهود عليهما الصلاة والسلام فيقول:

(فكان من نبيّ الله بعد ذلك التهديد أن قال لهم: ﴿**إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا**

(١) بدائع التفسير (٢ / ٤٣١، ٤٣٢).

تُنظِرُونِ ﴾ ومن أعظم آيات الصدق والإخلاص أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا إلىٰ إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة، ثقة بربه أن يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالبهم. ومثل ذلك قول نوح عليه السلام: ﴿ ... ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) ﴾ [يونس: ٧١]. وانظر إلىٰ قوله ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ يريد أنني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرتكم وإن تعاونتم عليّ، وأنتم الأشداء الأقوياء، فكيف تضرني آلهتكم، وما هي إلا جماد، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها، وصددت عن عبادتها، بأن تخبلني وتذهب بعقلي. نعم إن هذه آية من آيات الله في أنصار الحقّ، وعبرة من العبر من آيات الله فيهم أن يزيل من قلوبهم هيبة الظالمين، وخشية المفسدين؛ لأن قلوبهم امتلأت بالخشية من الله والخوف منه. ولأنهم واثقون بضعف كيد الشيطان، وأنصار الباطل، وقد أرانا الله تعالىٰ أن الباطل لجلج، وأن الحقّ واضح أبلج، وأن العاقبة لأوليائه، والخذلان لأعدائه، وقدوتنا الحسنة في ذلك أئمة الهدىٰ، وهداة البشر؛ من اختارهم الله تعالىٰ لقيادة الناس وسعادة الإنسانية، فهم الذين يرسمون لنا طريق الدعوة، ويعرفوننا الاستهانة بالباطل، وإكبار الحقّ، ومن أجل ذلك كانوا أشجع الناس قلوباً، وأوثقهم عقيدة، وأربطهم جأشاً؛ تضطرب الأرض ومن عليها بفساد المفسدين وهم لا يضطربون، وتضج من هول الجبابرة والمستكبرين، وهم علىٰ دينهم دائبون، وبدعوتهم معتصمون، وعلىٰ ربهم متوكلون. وانظر إلىٰ قوله بعد ذلك التحدّي ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ لتعلم سر هذه الشجاعة النادرة، والثقة الغالية؛ سرّها أنه متوكل علىٰ ربه، معتصم بمولاه ﴿ ... وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾ [آل عمران:

١٠١]. وجدير بمن يتوكل علىٰ ربه ويلجأ إلىٰ خالقه أن يبدل خوفه أمناً وضعفه قوّة، ويرزقه عزاً لا ينقطع، وقوة لا تقف عند حدّ: ﴿ ...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [المنافقون: ٨]. وما أحوج الداعي إلىٰ الله لذلك التوكل، وتفويض الأمور إلىٰ الله تعالىٰ، والاستعانة بالصبر والرضا، وطلب الأجر منه تعالىٰ. ثم وصف الربّ الذي توكل عليه ووثق به في حفظه وكلاءته بما يوجب التوكل عليه فقال: ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ والناصية: منبت الشعر في مقدّم الرأس، وإذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، يريد أنه مطيع له؛ لأن كلّ من أخذت بناصيته فقد قهرته: أي ما من حيوان إلا تحت قهره وقدرته ومنقاد لقضائه وقدره، ثم ختم ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يريد أنه علىٰ طريق الحقّ والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به)[1] أهـ.

● ومن مواقف الشجاعة والثبات وحسن الظن بالله عز وجل ما قصه الله عز وجل علينا في كتابه عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام مع قومه عندما تبعهم فرعون وجنوده عند البحر.

قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَىٰ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾.

[الشعراء: ٦١ – ٦٣]

---

(١) دعوة الرسل د. محمد أحمد العدوي (ص ٢٢).

- ومثل هذا الموقف ما قصه الله عز وجل عن نبينا محمد ﷺ وصاحبه أبي بكر إذ هما في الغار.

قال تعالىٰ: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ... ﴾ [التوبة: ٤٠].

٢- أمثلة في حسن الظن بالله والرضى بحكمه:

وهذه الصفات يثمرها التوكل الصادق الذي ينبع من العلم بالله عز وجل ومعرفة أسمائه وصفاته وآثارها. ومن هذه الأمثلة:

● قوله تعالىٰ عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) ﴾. [الصافات: ١٠١ - ١٠٦]

حقاً إن هذا لهو البلاء المبين والامتحان العظيم للثقة بالله عز وجل والرضىٰ بحكمه والاستسلام لأمره، وقد وصف الله سبحانه حالهما بقوله ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾. أي أسلم الوالد والولد لأمر الله عز وجل وحكمه. الله أكبر، ما أعظم هذه النفوس وأنبلها وأطهرها وأعظم إيمانها وتوحيدها. فاللّهم ألحِقنا بهم، واحشرنا في زمرتهم يا أرحم الراحمين.

● ونموذج آخر يقصه الله سبحانه علينا عن توكل إبراهيم عليه السلام علىٰ ربه عز وجل والمسارعة في تنفيذ أمره والاستسلام لحكمه وذلك في ذهابه إلىٰ مكة مع زوجه هاجر وابنهما إسماعيل عليهم جميعاً الصلاة والسلام، ثم تركه لهما هنالك حيث لا ماء ولا طعام ولا أنيس ولا جليس.

قال الله عز وجل علىٰ لسان إبرهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه لربه سبحانه بعد أن ترك إسماعيل وأمه في وادي مكة: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** (٣٧) ﴾.

[إبراهيم: ٣٧]

روىٰ البخاري في صحيحه أثراً عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة هاجر وابنها إسماعيل أورد بعضها – ولو أنها موقوفة علىٰ ابن عباس، لكن لما كانت هذه الأخبار مما لا مجال للاجتهاد فيه، وقد نهىٰ ابن عباس رضي الله عنهما عن الأخذ عن بني إسرائيل، وبعض أجزاء هذه القصة يرفعه ابن عباس إلىٰ الرسول الله ﷺ – فقد اخترت قطعة منها لما فيها من الشواهد الدالة علىٰ كمال توكل إبرهيم عليه السلام وزوجه هاجر وثقتهما بالله عز وجل والاستسلام لحكمه، والقصة تنطق بما فيها فلا تحتاج إلىٰ تعليق.

روىٰ البخاري رحمه الله تعالىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها علىٰ سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتىٰ وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلىٰ المسجد، وليس بمكة

يومئذ أحد وليس بها ماء. فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء.

ثم قفّىٰ إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ؛فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم، حتىٰ إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** (٣٧) ﴾.
[إبراهيم: ٣٧]

ورجعت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتىٰ إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوىٰ – أو قال يتلبط – فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترىٰ أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتىٰ إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتىٰ جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترىٰ أحداً؟ فلم تر أحداً؛ فعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: « **فلذلك سعىٰ الناس بينهما** ».

فلما أشرفت علىٰ المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها. ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتىٰ ظهر الماء، فجعلت تحوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكان زمزم عيناً معيناً**» قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن ها هنا بيتاً يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله..» الحديث(١).

● ونموذج آخر من التوكل العظيم والثبات العظيم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فيما قصه الله عز وجل علينا عن إلقائه في النار. قال تعالىٰ: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠)**﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

روىٰ البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار. وقالها محمد حين قيل له ﴿**... إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)**﴾ [آل عمران: ١٧٣](٢).

---

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٤).

(٢) البخاري في التفسير (٤٥٦٣).

● ما قصَّه الله عز جل في سورة يوسف عن يعقوب عليه الصلاة والسلام وحسن ظنه بالله عز وجل والرضا بحكمه النابع من صدق توكله وثقته بربه سبحانه.

قال تعالىٰ في وصف رجائه وحسن ظنه بربه سبحانه بعدما فقد ابنه الثاني وقبله كان قد فقد يوسف عليه السلام: ﴿ **قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)** ﴾.

[يوسف: ٨٣ – ٨٧]

وإن هذا الرجاء العظيم من يعقوب عليه الصلاة والسلام في ربه عز وجل وحسن ظنه به واستسلامه لحكمه ليظهر من قوله: ﴿ **عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ وقد توسل عليه الصلاة والسلام إلىٰ ربه باسمه ﴿ **الْعَلِيمُ** ﴾ و ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ وذلك لعلم يعقوب عليه الصلاة والسلام بربه وعلمه بأسمائه وصفاته ودلالاتها وآثارها فكأنه يقول: إنه هو ﴿ **الْعَلِيمُ** ﴾ بحالي في الحزن والأسف ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

وكذلك يتضح هذا الرجاء في الله عز وجل وعدم اليأس من رحمته من

قوله: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ: (هذا الشعاع من أين جاء إلىٰ قلب هذا الرجل الشيخ؟ إنه الرجاء في الله، والاتصال الواثق به، والشعور بوجوده ورحمته، ذلك الشعور الذي يتجلىٰ في قلوب الصفوة المختارة فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار... فيا للقلب الموصول!!!

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾

تحسسوا بحواسكم في لطف وبصر، وصبر علىٰ البحث. ودون يأس من الله وفرجه ورحمته. وكلمة «روح» أدق دلالة وأكثر شفافية. ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم علىٰ الأرواح من رَوْح الله الندي:

﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله، الندية أرواحهم برَوْحه، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية فإنهم لا ييأسون من رَوْح الله ولو أحاط بهم الكرب واشتد بهم الضيق. وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه، وهو في مضايق الشدة ومخانق الكروب...)[١] .

وهذه المواقف العظيمة من صدق التوكل والرجاء وحسن الظن بالله عز

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٠٢٦).

وجل يفسرها قوله تعالىٰ علىٰ لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ أي أعلم من رحمته وإحسانه وآثار أسمائه وصفاته ما لا تعلمون.

يتحدث سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عند قوله سبحانه علىٰ لسان يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ فيقول: «وهذه قيمة الإيمان بالله، ومعرفته سبحانه هذا اللون من المعرفة. معرفة التجلي والشهود، وملابسة قدرته وقدره، وملامسة رحمته ورعايته، وإدراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين.

إن هذه الكلمات: ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها. وتعرض مذاقاً يعرفه من ذاق مثله فيدرك ماذا تعني هذه الكلمات في نفس العبد الصالح يعقوب..

والقلب الذي ذاق هذا المذاق لا تبلغ الشدائد منه - مهما بلغت - إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق! ولا نملك أن نزيد. ولكننا نحمد الله علىٰ فضله في هذا، وندع ما بيننا وبينه له يعلمه سبحانه ويراه»[١] أهـ.

وتبقىٰ وقفة مهمة في هذه الحياة الإيمانية ليعقوب عليه الصلاة والسلام. ألا وهي عند قوله تعالىٰ: ﴿ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾. فقد يقول قائل: ألا يتنافىٰ الحزن والغم مع الرضىٰ بقدر الله والاستسلام لحكمه؟ ويجيب العدوي علىٰ هذا السؤال فيقول:

---

(١) في ظلال القرآن (٤ / ٢٠٢٦).

(ولا ضير في أن يتألم نبيّ الله يعقوب لهذه الشدائد، ويحزن الحزن العميق لتلك الأحداث؛ لأن هذا طبع الإنسان واستعداده، ويمتاز الصالحون بأنهم لا يغضبون ربهم في حزنهم، ولا يخرجون به إلىٰ ما لا يحسن، ولقد بكىٰ رسول الله ﷺ علىٰ ولده إبراهيم، وقال «**إن القلب يحزن، والعين تدمع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبرهيم لمحزونون**»[(١)] والأنبياء بشر يجري عليهم ما يجري علىٰ سائر الناس من الحزن والفرح، والتألم للمصائب والاستبشار بالنعم)[(٢)].

إذن فالحزن والهم والغم الذي يصيب الأنبياء والصالحين هو من طبيعة البشر، والذي يجعله سبحانه أجراً وتكفيراً لعباده المؤمنين وألماً وحسرة علىٰ غيرهم، ولكن إذا خرج الحزن والهم بصاحبه إلىٰ الجزع والتسخط واليأس من رَوْح الله عز وجل فإن هذا هوالذي يتنافىٰ مع الإيمان بالله عز وجل والاستسلام لحكمه، وهذا مالم يتطرق إلىٰ قلب يعقوب عليه السلام؛ بل إنا وجدناه يقول: ﴿ **يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ ويقول: ﴿ ... **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** (٦٧) ﴾[يوسف: ٦٧].

● وختم الله عز وجل قصة يوسف بهذا الخطاب الخاشع الواثق بالله من يوسف عليه الصلاة والسلام ؛ذلك الخطاب الذي كله رقة وخضوع

---

(١) البخاري في الجنائز (١٣٠٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٥).

(٢) دعوة الرسل (ص١٤٧).

وتبرؤ من الحول والقوة وإرجاع الأمر إلىٰ لطف الله وتثبيته في جميع مراحل الابتلاءات التي مر بها. قال الله عز وجل: ﴿ ... **وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** (١٠٠) ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وبالتأمل فيما قاله يوسف عليه الصلاة والسلام يظهر هذا الأدب العظيم منه عليه السلام مع ربه سبحانه، ورد الفضل والإحسان إليه عز وجل في جميع ما مر به في ابتلاءاته المختلفة، كما يلاحظ في هذا الدعاء أن يوسف عليه السلام ختمه بثلاث أسماء كريمة من أسماء الله عز وجل هي: اللطيف والحكيم والعليم، وهذا من فقه يوسف عليه الصلاة والسلام ومعرفته بربه سبحانه وأسمائه وصفاته العلا وآثارها؛ فلقد ربط ما أصابه في حياته وإخراجه من السجن ومجيء أهله إليه بلطف الله عز وجل وحكمته وعلمه. وهذا من حسن ظنه بربه، والاستسلام لحكمه وتفويض الأمور إليه[(١)].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ في عرضه للدروس المستنبطة من قصة يوسف عليه السلام:

(ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة، بعد شدة وفقر وسوء حال أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولىٰ، ليحدث

(١) انظر للاستزادة: رسالة: ﴿إن ربك حكيم عليم﴾.

لذلك شكراً كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام:

﴿ ... وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ... ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف، حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلىٰ أعلىٰ الغايات، ورفيع الدرجات)(١).

٣- أمثلة في الاستعانة بالله عز وجل والتبرؤ من الحول والقوة:

وهذه الصفة من أعظم ثمار العلم بالله عز وجل وتوحيده والتوكل عليه، فترىٰ حياتهم كلها قائمة علىٰ الاستعانة بالله وحده والاعتصام به سبحانه، وأنهم لا يرون لأنفسهم فضلاً ولا قوة إلا بما يمدهم الله به من توفيقه وعزته عز وجل، وهذه الصفة بارزة في هديهم جميعاً نكتفي منها بما يلي:

● قول الله عز وجل في دعاء نوح عليه السلام بعد أن كذَّبه قومه وبذل جميع الأسباب في هدايتهم: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠)﴾. [القمر: ١٠]

● قوله تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ ... رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)﴾[الممتحنة: ٤، ٥].

(١) تفسير السعدي (٢/٤٥٢).

● وقوله تعالىٰ: عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام في وصيته لقومه بعد أن هددهم فرعون بقتل أولادهم: ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** (١٢٨) ﴾.

[الأعراف: ١٢٨]

● وقوله تعالىٰ أيضاً عن وصية أخرىٰ من موسىٰ لقومه: ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** (٨٤) ﴾.

[يونس: ٨٤]

● وقوله تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام عندما هدده فرعون بالقتل: ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ** (٢٧) ﴾ [غافر: ٢٧].

● وقوله تعالىٰ: عن يوسف عليه الصلاة والسلام عندما تعرض لفتنة النساء: ﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** (٣٣) **فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (٣٤) ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في الفوائد المستنبطة من سورة يوسف عند هذه الآية:

(ومنها: أنه ينبغي للعبد، أن يلتجئ إلىٰ الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿ **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ**

﴿الْجَاهِلِينَ﴾)[١].

ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية: (أي إن وكلتني إلىٰ نفسي، فليس لي من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان، وعليك التكلان؛ فلا تكلني إلىٰ نفسي)[٢].

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالىٰ علىٰ هذه الآية بقوله:

(وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته. الذي لا يغتر بعصمته؛ فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته، يعاونه علىٰ ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾..

وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن بعد هذه التجربة؛ أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتىٰ لا يحس في نفسه أثراً منه. أو بهما جميعاً.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الذي يسمع ويعلم، يسمع الكيد ويسمع الدعاء، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء. وهكذا اجتاز يوسف محنته الثانية، بلطف الله ورعايته)[٣]أهـ.

---

(١) تفسير السعدي: (٢/ ٤٤٧).
(٢) تفسير ابن كثير ط. الشعب (٤/ ٣١٣).
(٣) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٨٥).

الجانب الثاني :

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في السلوك والأخلاق

لقد خص الله عز وجل أنبياءه عليهم الصلاة والسلام بالكمال البشري في الأخلاق والسلوك فجاءوا قدوات لمن بعدهم يُهتدىٰ بأخلاقهم ويُقتدىٰ بسلوكهم كما كان الشأن في توحيدهم وإيمانهم ومعرفتهم بربهم سبحانه. ولا غرابة فيما وصلوا إليه من أخلاق عالية وصفات نبيلة فإن هي إلا من آثار التصور الصحيح والإيمان العظيم، فالارتباط بين المعتقد والسلوك ارتباط قوي وبينهما تناسب طردي تشهد له الأدلة والتجارب، فكلما صح الاعتقاد وكان سليماً فإن الأخلاق تعلو وتنبل وتشرف والعكس بالعكس.

وإن الفكر ليكلّ والقلم يعجر عن الإحاطة بأخلاق وسلوكيات هؤلاء الصفوة من عباد الله عز وجل، سواءً من جهة الكم أو الكيف. ولكن حسبنا أن نستعرض بعض هذه الأخلاق السامقة لتدلنا علىٰ بقيتها؛ لعل القلوب ترق والعزائم تستيقظ لتلحق بهذه الصفوة المباركة فتهتدي بأخلاقهم وتترسم سلوكهم، وخاصة في مثل زماننا المعاصر والذي يشهد أزمة أخلاق وسوء ممارسات وتعامل بين الناس، خاصة بين بعض أهل الخير منهم. فإن كنا محبين للأنبياء حقيقة فهذه أخلاقهم عليهم الصلاة والسلام، وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم فيها وفي غيرها: ﴿ **أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾.

ومن هذه الأخلاق ما يلي :

(١) خلق النصح والرحمة بالناس والشفقة عليهم من عذاب الله عز وجل :

لقد قص الله عز وجل علينا في كتابه الكريم من أخبار أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ما يدل دلالة واضحة علىٰ شدة نصحهم للناس ورحمتهم بهم وشفقتهم عليهم . وبذلوا في ذلك جميع الأسباب الممكنة لهدايتهم وإنقاذهم من عذاب الله سبحانه .

والأدلة علىٰ ذلك كثيرة منها :

● قوله تعالىٰ عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢)** ﴾ [الأعراف : ٦١ ، ٦٢] .

● وقوله تعالىٰ عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)** ﴾ [الأعراف : ٦٧ ، ٦٨] .

● وقوله تعالىٰ عن نبيه صالح عليه الصلاة والسلام بعد هلاك قومه : ﴿ **فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)** ﴾ [الأعراف : ٧٩] .

● وقوله تعالىٰ عن نبيه شعيب عليه الصلاة والسلام بعد هلاك قومه : ﴿ **فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ**

آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأعراف : ٩٣] .

● وقوله تعالىٰ عن دعوة نوح عليه الصلاة والسلام لقومه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية : (ثم خوفهم – إن لم يطيعوه – عذاب الله فقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام، وشفقته عليهم حيث خاف عليهم العذاب الأبدي ، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون علىٰ الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم)[١] أهـ .

وهذا التخوف علىٰ الناس من عذاب الله عز وجل كان عند جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ومن ذلك قول الله عز وجل عن شعيب عليه الصلاة والسلام يحذر قومه : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود : ٨٩] .

● وقد وصف الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة : ١٢٨] . ولقد بلغ النصح والشفقة علىٰ الناس من نبينا محمد ﷺ حتىٰ كاد هذا الأمر أن يهلكه – فخاطبه الله عز وجل قائلاً : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء : ٣]، فكان ﷺ

---

(١) تفسير السعدي (٢ / ١٢٢) .

يحزن حزناً شديداً علىٰ عدم إيمانهم نصحاً لهم وشفقة عليهم.

الله أكبر، ما أعظم هذه الأخلاق، وما أزكىٰ هذه القلوب المخلصة لربها المتجردة من الأهواء والشحناء وإرادة الدنيا. ما أحوجنا إلىٰ هذه الأخلاق العظيمة والقلوب النقية. خاصة في زماننا اليوم الذي قلّ فيه الناصحون المشفقون علىٰ عباد الله سبحانه، حيث تحوّلت الدعوة عند كثير منّا – إلا من رحم الله تعالىٰ – إلىٰ خصوماتٍ وتصيّدٍ للأخطاء وفرحٍ بها. وما ذاك إلا من خلل في الإخلاص، ودخول الأهواء إلىٰ القلوب. فإذا كان شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم الكفار، هو الرحمة بهم والنصح لهم والشفقة عليهم، فلأن يكون هذا الشعور مع من أخطأ من المسلمين أو انحرف منهم أقوىٰ وأقوىٰ، ولو أنا انطلقنا في دعوتنا مقتدين بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ انطلاق الناصح الرحيم المشفق بإخوانه المسلمين من دعاة وغيرهم لكان الأمر علىٰ غير ما نراه اليوم من الشحناء والأحقاد والخصومات والأهواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإن هذه الأخلاق النبيلة لتنبع من الإخلاص وسلامة القلوب. كما أنها في نفس الوقت تقتضي وتثمر أخلاقاً أخرىٰ لازمة له. فالناصح لعباد الله عز وجل لا تراه إلا صابراً حليماً رفيقاً يحب الرفق والأناة في الأمور كلها. لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها. وهذه الأخلاق جميعها واضحة في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأدلتها كثيرة في القرآن الكريم، ولكن المقام لا يتسع لذكرها.

ويبقىٰ أمر مهم في الحديث عن خلق النصح والرحمة عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ألا وهو نصحهم ورحمتهم وشفقتهم بأقاربهم

وتوجيه النصح والدعوة بادئ ذي بدء إليهم، والشواهد علىٰ ذلك كثيرة منها:

● دعوة نوح عليه الصلاة والسلام ابنه إلىٰ الإيمان والركوب معه في السفينة التي نجىٰ الله فيها المؤمنين من الغرق.

قال الله تعالىٰ: ﴿ ... **وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ** (٤٢) ﴾ [هود: ٤٢].

ومما يلفت النظر في هذه المناداة من نوح عليه السلام لابنه أنه حذّره بأن لا يكون مع الكافرين، ولم يقل: مع الهالكين أو المغرقين؛ لأن نهاية الغرق الموت، أما نهاية الكفر فغضب الله عز وجل والخلود في نار جهنم. وقد حقت كلمة الكفر علىٰ ابن نوح ﴿ ... **وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**... ﴾ [هود: ٤٣]. ومع ذلك فقد أدرك حب الولد ورحمته نوحاً عليه الصلاة والسلام فتوجه إلىٰ ربه لعله أن يرحم ولده. وهذا من باب الرحمة والنصح والشفقة علىٰ الأقارب.

● ومن هذا الباب أيضاً وصية نوح عليه الصلاة والسلام لأحد أبنائه المسلمين وذلك حين حضرته الوفاة:

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان. مزرورة بالديباج فقال: (ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس، أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ورفع كل راع ابن راع).

قال فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال: «**ألا أرىٰ عليك لباس من لايعقل!؟**» ثم قال: «**إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية؛ آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله. وسبحان الله وبحمده. فإن بها صلات كل شيء، وبها يرزق الخلق. وأنهاك عن الشرك والكبر**» قال: قلت - أو قيل - يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: «**لا**» قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «**لا**» قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ فقال: «**لا**» قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «**لا**» قلت: - أو قيل - يا رسول الله فما الكبر؟ قال: «**سفه الحق وغمط الناس**»(١).

● ومن هذا الباب أيضاً تلك الدعوة التي وجهها إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه والتي كلها نصح وشفقة ورحمة مع أدب جم وحلم وتلطف من الابن النبي إلىٰ أبيه الكافر.

قال الله تعالىٰ: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢)**

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٦٩، ١٧٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٢/ ٢٥١) فضل الله الصمد، وقال أحمد شاكر رحمه الله تعالىٰ: إسناده صحيح (٦٥٨٣).

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)﴾ [مريم: ٤١ - ٤٧].

ومع أن الأب الشقي رد نصيحة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهدده وتوعده بالرجم وطالبه بالهجر والمقاطعة إلا أن الابن البار الخائف علىٰ أبيه من عذاب يمسه من الرحمن قال: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فلما أيس من إيمانه تبرأ منه واعتزله وترك الاستغفار له. ومع ذلك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يحاول الشفاعة فيه يوم القيامة ولكن حقت كلمة العذاب علىٰ الكافرين.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**يلقىٰ إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلىٰ وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: الآن لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزىٰ من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة علىٰ الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم انظر ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقىٰ في النار**»(١).

● ومن ذلك قوله تعالىٰ عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ

(١) البخاري: كتاب الأنبياء (٣٣٥٠).

بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ [مريم : ٥٥].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ : (أي وكان مقيماً لأمر الله علىٰ أهله فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلىٰ العبيد، فكمل نفسه وكمل غيره وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله لأنهم أحق بدعوته من غيرهم)(١).

● ومن ذلك أمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ بدعوة قرابته في قوله تعالىٰ : ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ... ﴾ [طه : ١٣٢].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ : (أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة ، واصبر أنت على فعلها كما قال تعالىٰ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** ... ﴾ [التحريم : ٦]) أهـ(٢).

● ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤)** ﴾ [الشعراء : ٢١٤]. وقد امتثل الرسول ﷺ الأمر فنادىٰ قرابته الأبعد ثم الأقرب فأنذرهم عذاب الله عز وجل وحذرهم من عقوبة ماهم عليه من الشرك.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله تعالىٰ : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ فقال : «**يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - . اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني**

---

(١) تفسير السعدي : (٣ / ٢٥٨).

(٢) تفسير ابن كثير عند الآية (١٣٢) من سورة طه.

عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»[١].

وبعد هذه الشواهد الدالة علىٰ شدة عناية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأقاربهم وخوفهم عليهم من عذاب الله عز وجل، هل بقي بعد هذا عذر لنا في إهمال أولادنا وأهلينا وأقاربنا وترك النصح والتوجيه لهم؟ نعم إن كثيراً منا اليوم قد نراه نشيطاً في دعوة الناس وإسداء النصح والخير لهم، وهذا شيء طيب ومطلوب، ولكن أين نصيب الأهل والأقارب من هذه الدعوة؟ إن الواقع خلاف ذلك إلا من وفق الله عز وجل. ولذلك وفي مثل زماننا اليوم الذي أقبلت الفتن فيه كقطع الليل المظلم وكاد طوفان الفساد أن يعم الصالح والفاسد، أتوجه باللوم الشديد لنفسي ومن يشاركني هذا الإهمال، وأدعو نفسي وإخواني الدعاة أن نبدأ بداية جادة في صفوف أهلينا وأقاربنا، نعلمهم الخير ونحذرهم الشر، والناس والحمد لله لا زال في قلوبهم الخير، ولكن يريدون من ينفض الغبار عن هذه القلوب ويجمعهم علىٰ الخير. وينبغي الحذر ممن يثبطنا عن هذا العمل بحجة تضييع الجهد أو صعوبة البداية أو غير ذلك، فهذا كله من وساوس الشيطان وصده عن سبيل الله، والأمر يسير والحمد لله ولا يحتاج إلا إلىٰ الإخلاص والصدق ثم يأتي تيسير الله عز وجل وتسخير النفوس لقبول مثل هذا المشروع الذي يحقق للداعية ثمرتين عظيمتين لا تقل إحداهما عن الأخرىٰ؛ فإما أن تثمر الدعوة في وسط الأقارب خيراً فيحصل القبول والاتعاظ وتتطهر النفوس

---

(١) البخاري في الوصايا (٢٧٥٣)، ومسلم في الإيمان (٢٠٦).

والبيوت من الفساد والمنكرات، وفي هذا أجر عظيم. وإما أن يحصل للداعية الإعذار وإبراء الذمة. وقد أخبرني من له تجربة في هذا الأمر أنه كان متهيباً في بداية الأمر، ولكنه استعان بالله عز وجل وبدأ مشروعه في لم شمل الأقارب في شكل لقاء شهري يدور بين بيوت الأقارب يجتمع فيه الكبير والصغير وتطرح فيه بعض المناصحات والاقتراحات، وقراءة بعض الفتاوىٰ في بعض المنكرات، ثم لم يقف اجتماع شمل الأقارب عند هذا الحد بل نتج عنه اجتماع شمل الشباب فيها وتعاونوا علىٰ الخير والمناصحة فيما بينهم، وأثمر ذلك برامج دعوية هادفة في وسط الأقارب. ولنتصور أن الدعاة إلىٰ الله عز وجل – وما أكثرهم – بدأ كل واحد منهم ينشط في أقاربه مثل هذا النشاط. فكم من الخيرالعظيم سيسري في هذه الأمة؟!

٢- خلق الصبر والتقوىٰ:

وهذان الخلقان العظيمان هما أساس الإمامة في الدين، وقد منّ الله عز وجل علىٰ أنبيائه عليهم الصلاة والسلام بحظ عظيم منهما فحازوا قصب السبق فيهما. وقد سبق الحديث عن تقوىٰ الأنبياء عليهم السلام في ذكر خوفهم من الله سبحانه، وعبادتهم له؛ ولذلك سيكون الكلام هنا عن صبرهم.

قال الله تعالىٰ مسلياً نبيه محمد ﷺ: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)** ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال تعالىٰ عن بعض أنبيائه قولهم: ﴿ ... **وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا**

وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقال عز وجل: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ... ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقال تعالىٰ عن أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿ ... إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾ [ص: ٤٤].

وقال سبحانه عن نبيه يوسف عليه الصلاة والسلام بعد تلك الابتلاءات المتنوعة والتي ثبته الله عز جل فيها وتجاوزها بنجاح أنه قال: ﴿ ... إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾ [يوسف: ٩٠] والآيات في وصف صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتقواهم وخشيتهم من الله سبحانه كثيرة لا يتسع المقام لذكرها. ومما تجدر الإشارة إليه أن من أهم أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم هو أخذ العبر من صبرهم وتضحيتهم ومعاناتهم في مواجهة الشرك وإرجاع الناس إلىٰ عبادة الله عز وجل؛ وذلك حتىٰ يقتدي بصبرهم من جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين فيثبتوا ولا يضعفوا، ويستبشروا ولا ييأسوا. قال تعالىٰ: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود: ١٢٠].

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتفاوتون ويتفاضلون في الصبر؛ فصبر أولي العزم من الرسل هو أعظم الصبر لأنهم واجهوا من الأذىٰ والصد ما لم يواجهه نبي قط. وقد جاء التنويه بذكر صبرهم في قوله تعالىٰ: .﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

● فنوح عليه الصلاة والسلام صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً دام

ألف سنة إلا خمسين عاماً كلها دعوة وجهاد وصبر علىٰ أذىٰ قومه له وسخريتهم منه، واتهامهم له بالجنون تارة وبالسحر تارة وبالضلال تارة، وهو يقابل ذلك كله بالصبر والسماحة والحلم حتىٰ انتهىٰ بهم الأمر إلىٰ تهديده بالقتل رجماً قال تعالىٰ: ﴿ **قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ** (١١٦) ﴾ [الشعراء: ١١٦]

● وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام تعرض لمحن عظيمة فصبر لها صبر الموحد لربه الموقن بوعده؛ ذلك حين ألقي في النار؛ وحين أمر بذبح ابنه وفلذة كبده، وحين أمر بترك أهله بواد غير ذي زرع، وحين هاجر من موطنه وترك أباه وأقاربه.

● وهذا موسىٰ عليه الصلاة والسلام وما واجه من الأذىٰ والتهديد من فرعون وملئه، ثم ما واجه من الأذىٰ والتعنت من قومه بني إسرائيل حتىٰ أن الرسول ﷺ قال عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام: «**يرحم الله موسىٰ قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[١].

● وهذا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، جاءه من الأذىٰ والتهم الباطلة من بني إسرائيل حتىٰ تآمروا علىٰ قتله وصلبه ، فصبرعلىٰ ذلك كله. ولكن الله عز وجل رفعه إليه

● وهذا خاتم الأنبياء محمد ﷺ تعرض للأذىٰ العظيم والاضطهاد الشديد في نفسه وفي أصحابه رضي الله عنهم؛ فقال عنه المشركون إنه

(١) البخاري في الأدب (٦١٠٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢).

ساحر وكاهن وشاعر ومجنون، وحُوصر مع أصحابه وقرابته في شعب أبي طالب حتىٰ أكلوا الجيف، وخرج إلىٰ الطائف فرده أهلها رداً عنيفاً ورموه بالحجارة حتىٰ دُميت قدماه الشريفتان، ولم يستطع دخول مكة – ذلك البلد الذي يأمن فيه الطير والوحش – لم يستطع دخولها إلا في جوار مطعم بن عدي، ثم تآمر المشركون علىٰ قتله فخرج مهاجراً إلىٰ المدينة وهناك بدأ الجهاد. وما يكاد يخرج من غزوة إلا ويدخل في أخرىٰ، وأصابه في بعضها القرح والآلام، وقتل من أصحابه الكثير بين يديه، واستمر على هذه الحياة الجهادية والتي كلها صبر ومصابرة حتىٰ توفاه الله عز وجل وقد أقر عينه بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً، فكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، فصلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ إخوانه من النبيين والمرسلين.

وبعد هذا الاستعراض السريع لصبر بعض الأنبياء يحسن التفصيل في نموذج أو نموذجين من صبرهم عليهم الصلاة والسلام:

● فصَّل شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ في جوانب الصبر في حياة يوسف عليه الصلاة والسلام والابتلاءات التي مر بها وأنه ما وصل إلىٰ تلك الحياة الكريمة في آخر حياته إلا بالتقوىٰ والصبر كما قال عن نفسه عليه الصلاة والسلام: ﴿ ... **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف: ٩٠]. ولكن شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ نوه في بداية حديثه علىٰ أن هذا الصبر العظيم من يوسف عليه الصلاة والسلام لا يعني أنه فاق أولي العزم من الرسل في الصبر والتقوىٰ. فها هو يقول رحمه الله تعالىٰ: (وأما قصة نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم، والواقع فيها من الجانبين؛ فما فعلته الأنبياء من الدعوة

إلىٰ توحيد الله وعبادته ودينه وإظهار آياته وأمره ونهيه ووعده ووعيده ومجاهدة المكذبين لهم والصبر علىٰ أذاهم هو أعظم عند الله، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم وبما فعلوه أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه، أولئك أولو العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** (٧) ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ... ﴾ [الشورىٰ: ١٣]. وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة، وبهم أمر خاتم الرسل أن يقتدي في الصبر بهم)[(١)].

وبعد هذا التنويه من شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ يأتي إلىٰ إبراز ما في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام من جوانب الصبر العظيمة لتدل بدورها علىٰ من هو أعظم صبراً من يوسف عليه الصلاة والسلام. قال رحمه الله تعالىٰ: (وفي قول يوسف: ﴿ ... **رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** (٣٣) ﴾ [يوسف: ٣٣] عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء علىٰ الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب علىٰ دينه ويصرفه

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٧ / ٣١، ٣٢.

إلىٰ طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب وإلا صبا إلىٰ الآمرين بالذنوب، وصار من الجاهلين.

ففي هذا توكل علىٰ الله واستعانة به أن يثبت القلب علىٰ الإيمان والطاعة، وفيه صبر علىٰ المحنة والبلاء والأذىٰ الحاصل إذا ثبت علىٰ الإيمان والطاعة. وهذا كقول موسىٰ عليه السلام لقومه: ﴿ ... **اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** (١٢٨) ﴾ [الأعراف: ١٢٨] لما قال فرعون: ﴿ ... **سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** (١٢٧) **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** (١٢٨) ﴾.

[الأعراف: ١٢٧، ١٢٨]

وكذلك قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** (٤١) **الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** (٤٢) ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

ومنه قول يوسف عليه السلام: ﴿ ... **فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** (٩٠) ﴾ [يوسف: ٩٠]، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿ ... **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ... ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله ﴿ ... **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** (١٨٦) ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقوله: ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** (١٢٥) ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

فلابد من التقوىٰ بفعل المأمور والصبر علىٰ المقدور، كما فعل يوسف

عليه السلام: اتقىٰ الله بالعفة عن الفاحشة، وصبر علىٰ أذاهم له بالمراودة والحبس، واستعان الله ودعاه، حتىٰ يثبته علىٰ العفة، فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن، وصبر علىٰ الحبس...

ومن احتمل الهوان والأذىٰ في طاعة الله علىٰ الكرامة والعز في معصية الله، كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين؛ كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذىٰ قد انقلب نعيماً وسروراً، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً؛ فيوسف ﷺ خاف الله من الذنوب ولم يخف من أذىٰ الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل آثر الحبس والأذىٰ مع الطاعة علىٰ الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة وأكرمته المرأة بالمال والرياسة، وزوجها في طاعتها، فاختار يوسف الذل والحبس، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة مع الطاعة علىٰ العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية، بل قدم الخوف من الخالق علىٰ الخوف من المخلوق وإن آذاه بالحبس والكذب، فإنها كذبت عليه؛ فزعمت أنه راودها ثم حبسته)أهـ[١].

ويشير محمد العدوي إلىٰ قوة الإرادة وعزة النفس عند يوسف عليه الصلاة والسلام واستعانته بربه سبحانه علىٰ ذلك فيقول: (﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ...** ﴾ جواب رجل أعدّه الله لأن يكون نبياً وهيأه لأن يكون زعيماً دينياً؛ جواب ما أبرده علىٰ قلب المؤمن، وأحبه

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٥/ ١٣٠ - ١٣٥ (باختصار).

إلىٰ نفسه يقول يوسف فيه مخاطباً لربه ومولاه وصاحب الفضل الأوّل عليه : إن السجن علىٰ ما فيه من شظف العيش، وخشونة الفراش، وحيلولة بين الرجل وبين الحياة، هو أحبّ إلىٰ نفسي مما يدعونني إليه؛ لأنهنّ يدعونني إلىٰ عصيانك، والخروج علىٰ طاعتك، وامتهان النفس، وضياع الخلق والكرامة، وضعف الإرادة، فأنا أفضل أن أعيش في السجن متحملاً ما فيه من تعذيب علىٰ مايدعونني إليه من عصيانك والفسوق عن أمرك)أهـ[١] .

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ : (وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز علىٰ شأنها أكمل من صبره علىٰ إلقاء أخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه . فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية، فصبر اختيار ورضىٰ، ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوىٰ معها دواعي الموافقة . فإنه كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية . وعزباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته . وغريباً، والغريب لا يستحيي في بلد غربته مما يستحيي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله . ومملوكاً، والمملوك أيضاً ليس له وازعه كوازع الحر . والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته . وقد غاب الرقيب . وهي الداعية له إلىٰ نفسها والحريصة علىٰ ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار . ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله . وأين هذا من صبره في الجب علىٰ ما ليس

---

(١) دعوة الرسل إلىٰ الله تعالىٰ محمد العدوي ص ١١١ .

من كسبه)أهـ[١].

كما يقول رحمه الله تعالىٰ في مواطن آخر: (وكذلك كان صبر نوح وإبرهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام – علىٰ ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم – أكمل من صبر أيوب علىٰ ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله، وكذلك صبر إسماعيل الذبيح، وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام علىٰ تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب علىٰ فقد يوسف)أهـ[٢].

هذا هو صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهذه هي تضحياتهم، وإذا أردنا أن نقتدي بهم في هذا الخلق العظيم وأن ننتفع به كما انتفعوا فلابد في هذا الصبر من شروط ثلاثة:

(١– أن يكون الصبر بالله. والمراد بذلك الاستعانة بالله سبحانه ورؤيته أنه هو المصبِّر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ... ﴾ [النحل: ١٢٧].

٢– أن يكون لله؛ وهو أن يكون الباعث له علىٰ الصبر محبة الله، وإرادة وجهه والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلىٰ الخلق وغير ذلك من الأغراض.

٣– أن يكون الصبر مع الله؛ وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه؛

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٥٦.

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٦٩.

ومع أحكامه الدينية سائراً بسيرها مقيماً بإقامتها؛ أي يجعل نفسه وقفاً علىٰ أوامره ومحابه)أهـ[١] .

وفي ختام الكلام عن هذا الخلق العظيم من خلق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنقل مقتطفات مما كتبه سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عن هذا الجانب العظيم بعد معاناة وتجارب واجهها وقاساها في دعوته وابتلاءاته المريرة؛ يقول رحمه الله تعالىٰ: (والدعوة إلىٰ الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة وتكررت لكل رسول ولكل مؤمن يتبع الرسول، وهي ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق، ولحفظ هذه النفوس متماسكة راضية موصولة بالهدف البعيد منطلقة كذلك إلىٰ الأفق البعيد . والصبر حتىٰ يحكم الله في الوقت المقدر ما يريد : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** ... ﴾ [القلم: ٤٨] . . إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله حتىٰ يأتي موعده في الوقت الذي يريده بحكمته . وفي الطريق مشقات التكذيب والتعذيب، ومشقات الالتواء والعناد، ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه، ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون، ثم مشقات إمساك النفس عن هذا كله، راضية مستقرة مطمئنة إلىٰ وعد الله الحق، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق مهما تكن مشقات الطريق . . وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلىٰ عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق : ﴿ **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا** ⓹ ﴾ [المعارج: ٥] والصبر الجميل هو الصبر المطمئن الذي لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد . صبر الواثق من العاقبة،

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢ / ١٥٧ (باختصار) .

الراضي بقدر الله، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء الموصولْ بالله، المحتسب كل شيء عنده مما يقع به.. وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة؛ فهي دعوة الله، وهي دعوة إلىٰ الله، ليس له هو منها شيء، وليس له وراءها من غاية؛ فكل ما يلقاه فيها فهو في سبيل الله، وكل ما يقع في شأنها هو من أمر الله. فالصبر الجميل إذن ينبعث متناسقاً مع هذه الحقيقة ومع الشعور بها في أعماق الضمير.. والله صاحب الدعوة التي يقف لها المكذبون، وصاحب الوعد الذي يستعجلون به ويكذبون. يقدر الأحداث ويقدر مواقيتها كما يشاء وفق حكمته وتدبيره للكون كله.. ولكن البشر لا يعرفون هذا التدبير وذلك التقدير فيستعجلون، وإذا طال عليهم الأمد يستريبون. وقد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم، وتجول في خاطرهم أمنية ورغبة في استعجال الوعد ووقوع الموعود..عندئذ يأتي التثبيت من الله ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ تثبيتاً للقلب علىٰ ما يلقىٰ من عنت المناوأة والتكذيب.. (اصبر).. إنها الإشارة إلىٰ الطريق المطروق في حياة الرسل عليهم صلوات الله. الطريق الذي يضمهم أجمعين؛ فكلهم ساروا في هذا الطريق.. كلهم عانىٰ. كلهم ابتلي. وكلهم صبر. وكان الصبر هو زادهم جميعاً. وطابعهم جميعاً. كل حسب درجته في سلم الأنبياء.. لقد كانت حياتهم كلها تجربة مفعمة بالابتلاءات مفعمة بالآلام. لكأنما كانت تلك الحياة المختارة – بل إنها كذلك – صفحات من الابتلاء والصبر معروضة للبشرية، لتسجل كيف تنتصر الروح الإنسانية علىٰ الآلام والضرورات وكيف تستعلي علىٰ كل ما تعتز به في الأرض، وتتجرد من الشهوات والمغريات، وتخلص لله وتنجح في امتحانه، وتختاره علىٰ كل شيء سواه.

ثم لتقول للبشرية في النهاية: هذا هو الطريق.. هذا هو الطريق إلىٰ الاستعلاء وإلىٰ الإرتفاع. هذا هو الطريق إلىٰ الله. فالصبر هو طريق الرسالات وطريق الدعوات: ﴿ ... **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠].. الدعوة إلىٰ الصبر.. الصبر علىٰ التكذيب، والصبر علىٰ الأذىٰ، والصبرعلىٰ نفخة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان في فترة من الزمان، والصبر علىٰ طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا وهناك، والصبر علىٰ النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها في النصر القريب وما يتعلق به من رغائب وآمال، والصبر علىٰ أشياء كثيرة في الطريق قد تجيء من جانب الأصدقاء قبل أن تجيء من جانب الأعداء..﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** ... ﴾ [الروم: ٦٠]. مهما يطل الأمد ومهما تتعقد الأمور ومهما تتقلب الأسباب) أهـ[١].

٣- خلق الكرم والوفاء والشجاعة:

إن خلق الكرم والشجاعة والوفاء ثلاثة أخلاق لا ينفك أبداً بعضها عن بعض؛ فقل أن يوجد شجاع وهو غير كريم أو غير وفي. وقل أن يوجد كريم وهو جبان أو خائن؛ فالجبن والبخل والخيانة قرناء سوء يولد بعضها بعضاً، كما أن الكرم والشجاعة والوفاء قرناء خير يولد بعضها بعضاً. وقد سبق الحديث عن تلك الشجاعة العظيمة والثبات الشديد عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وذلك في الحديث عن صدق توكلهم علىٰ الله عز وجل ومعرفتهم بربهم سبحانه وأسمائه وصفاته.

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن (ص ٢٠٣، ٢٠٤).

ولذلك سيكون الكلام في هذه الفقرة عن خلقي الكرم والجود والوفاء عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والذين ضربوا أروع الأمثلة في ذلك؛ فمن ذلك ما يلي:

(١) الكرم الذي كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأضيافه من الملائكة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦)** ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٦].

ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية عن كرم إبرهيم عليه الصلاة والسلام وحسن ضيافته فيقول:

(قوله: ﴿ **فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧)** ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧] متضمن وجوهاً من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف.

- منها قوله: ﴿ **فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ** ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء، وهو يتضمن المبادرة إلىٰ إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرضه للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد علىٰ ضيفه ثم يبرز بمرأىٰ منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ ويتناول الإناء بمرأىٰ منه ونحو ذلك، مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه. فلفظة ﴿ **رَاغَ** ﴾ تنفي هذين الأمرين.

- وفي قوله تعالىٰ: ﴿ **إِلَىٰ أَهْلِهِ** ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من

جيرانه ولا يذهب إلىٰ غير أهله، إذ قرىٰ الضيف حاصل عندهم.

– وقوله: ﴿ **فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ**﴾ الذاريات: ٢٦] يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه؛ فإنه لم يرسل به، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه، ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال؛ ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

– وقوله: ﴿**إِلَيْهِمْ**﴾ متضمن المدح وآداباً أخرىٰ؛ وهو إحضار الطعام إلىٰ بين يدي الضيف، بخلاف من يهيئ الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

– وقوله: ﴿ **أَلَا تَأْكُلُونَ** ﴾ فيه مدح وآداب أخر؛ فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿**أَلَا تَأْكُلُونَ**﴾ وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو هذا)أهـ[١].

(٢) وهذا يوسف عليه الصلاة والسلام يقول الله عز وجل علىٰ لسانه وهو يخاطب إخوته: ﴿ ...**أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** (٥٩) ﴾ [يوسف: ٥٩]. أي خير المضيفين لأنه أحسن ضيافتهم[٢].

---

(١) بدائع التفسير: (٤/ ٢٤٣).

(٢) انظر تفسير القرطبي عند هذه الآية.

(٣) أما إذا جئنا إلىٰ كرم الرسول ﷺ وجوده فهو الكرم الذي لا يضاهىٰ والجود الذي لا يبارىٰ. ويكفينا في ذلك قول ذلك الأعرابي الذي جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فوجد عنده من الكرم والسخاء ما يبهر العقول حتىٰ قال مقولته المشهورة لما رجع إلىٰ قومه وقد أعطاه الرسول ﷺ غنماً بين جبلين فقال: (يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاءً لا يخشىٰ الفاقة)[١].

وليس المراد في هذا البحث الإحاطة بتفاصيل كرم الأنبياء وكرم نبينا محمد عليه وعلىٰ جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام. وإنما أردت في الحديث عن هذا الخلق العظيم التنبيه علىٰ أهميته في أخلاق الداعية؛ لأنه علامة علىٰ الزهد والترفع علىٰ حب الدنيا. وهذا له أثر في كسب القلوب والتأثير علىٰ الناس. فإنه لايصلح بل لا يمكن أن تصدر إمامة الدين ودعوة الناس من إنسان بخيل شحيح. وبالنظر في حياة الأنبياء والمصلحين والمجددين نجد أن صفة الكرم والبذل والسخاء ظاهرة بارزة عند الجميع.

● أما صفة الوفاء فهي بارزة في حياة الأنبياء عليهم السلام الذين بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وجاهدوا في الله حق جهاده؛ فمنهم إبراهيم عليه السلام الذي قال عنه ربه تعالىٰ: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) ﴾ [النجم: ٣٧]. قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (قال سعيد بن جبير والثوري: أي بلّغ جميع ما أُمر به، وقال ابن عباس ﴿ وَفَّىٰ ﴾ ما أمر به، وقال قتادة: ﴿ وَفَّىٰ ﴾ طاعة الله وأدىٰ رسالته إلىٰ خلقه . وهذا القول هو اختيار ابن جرير وهو يشمل الذي قبله)أهـ[٢].

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل (٢٣١٢).

(٢) تفسير ابن كثير عند الآية (٣٧) من سورة النجم.

وقد ربط بعض المفسرين بين هذه الآية في مدح إبرهيم عليه الصلاة والسلام وبين الآية التي في سورة البقرة وهي قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** ... ﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (يقول تعالىٰ منبهاً علىٰ شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله تعالىٰ جعله إماماً للناس يقتدىٰ به في التوحيد، حتىٰ قام بما كلفه الله تعالىٰ به من الأوامر والنواهي ولهذا قال: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ** ﴾ أي: واذكر - يا محمد - لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملَّة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذي هو عليها مستقيم، فأنت والذين معك من المؤمنين - اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿ **فَأَتَمَّهُنَّ** ﴾، أي: قام بهن كلهن، كما قال تعالىٰ: ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ** ﴾، أي: وَفَّىٰ جميعَ ما شرع له، فعمل به صلوات الله عليه... وقال عبدالرزاق أيضاً: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ** ﴾. قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد؛ في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفَرْق الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونَتْف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء.

قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي والنَّخَعي، وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك.

قلت: وقريب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة - رضي

الله عنها - قالت: (قال رسول الله ﷺ: «**عَشْرٌ من الفطرة: قصُّ الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البَرَاجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء**». ونسيت العاشرة إلا أن تكون: المضمضة[١]) أهـ[٢].

● وعودة مرة أخرىٰ إلىٰ إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في نموذج آخر من نماذج الصدق والصبر علىٰ الوفاء بالعهد والوعد مع الله عز وجل؛ وذلك في قصته عليه الصلاة والسلام عندما أُمر بذبح ابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦)** ﴾.

[الصافات: ١٠٢ - ١٠٦]

يقول العدوي - أثابه الله - في كتابه دعوة الرسل: (من عادة القرآن أن يحذف من القصة ما لا تدعو إليه العبرة، ولا يتوقف عليه الفهم اعتماداً علىٰ فطنة السامع؛ فيرينا الله تعالىٰ أنه بعد أن بشره بغلام ووهبه ذلك الغلام، ثم نشأ وترعرع حتىٰ وصل إلىٰ سنٍّ يستطيع معه أن يسعىٰ قال له: ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ** ﴾ وهي استشارة

(١) مسلم كتاب الطهارة (٢٦١).

(٢) تفسير ابن كثير. ط الشعب (١/٢٣٧).

تحمل في حناياها لواعج الألم ومثيرات الحزن والأسىٰ، استهلها نبي الله بقوله: ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ وكأنه يقول: يا بنيّ، ويا فلذة كبدي، الذي وهبك الله لي بعد دعائي إياه أن يهب لي ذرية صالحة، تعاونني في الدعوة وتناصرني في إقامة دين الله، إني أرىٰ في المنام أني أذبحك، فما الذي أنت فاعل في ذلك البلاء؟ وبأيّ عزيمة تلقىٰ تلك المحنة؟ وإنها لمحنة ما أشدها علىٰ نفسي الوالد والولد فماذا. كان جوابه عن ذلك السؤال الرهيب وتلك الاستشارة الموجعة؟ ولو أن ملكاً من ملوك الدنيا بعث إلىٰ رجل من رعيته برسوله له يبلغه أن ذلك الملك المطاع أمر أن تصادر أملاكه ويعيش صفر اليدين، أو أمر أن ينفىٰ من بلده ويحال بينه وبين مواطنيه. لو أن رجلاً من الناس بلغه ذلك علىٰ لسان رسول لا يكذب لكان من شأن ذلك الخبر أن ينخلع له قلب ذلك الرجل عند سماع القصة، فكيف بصبيّ يبلغه عن ربه، بواسطة أبيه – وأبوه رسول لا يكذب، مطيع لا يعصي – أن يحرمه من هذه الحياة، ويحول بينه وبين أن يعيش؟ كيف بصبيّ يبلغه أبوه رؤياه المنامية أنه يذبحه؟! ماذا تكون نفسه التي بين جنبيه في ذلك الحين؟ وماذا يكون قلبه؟ وماذا تكون إجابته؟ [وقد استشير]، ولو أن الأمر كان من طريق القسر لكان أهون علىٰ النفس وأخفّ في الاحتمال. كان جواب ذلك الصبيّ أن يقول قالة الراضي المطمئن: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ وكأنه يقول لأبيه: إنني أقدّر قيمة ألمك لتلك التضحية، وجهاد نفسك في ذلك العمل الشاق، لأني قطعة منك، ولكن حقّ الله عليك فوق حقّ الأبناء والأحفاد، وإجابتك لداعيه أهمّ من إجابتك لدواعي الفطرة، فأجب داعي الله، وتغاض عن داعي الشفقة والحنان،

واصدع بأمر الله إرغاماً للشيطان. فإذا كنت قد ناديتني بقولك: ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ فإني أناديك بقولي لك: ﴿ يَا أَبَتِ ﴾، وأقول لك قول الراضي بقضاء الله وحكمه: ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ وسوف لا تراني ممتعضاً بذلك البلاء: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾. فلم يكن من نبيّ الله إبراهيم وولده سوىٰ استسلامهما لأمر الله، فأخذ إبراهيم ينفذ أمره، وأخذ ولده يصبر لقضاء الله وحكمه. فحينما أسقطه علىٰ التلّ، ناداه الله: أن يا إبراهيم قد حققت الرؤيا؛ فاغتبط وأبشر بالفرج بعد الشدّة، واليسر بعد العسر، ولا تعجب من ذلك، فإن هذه سنتنا فىٰ جزاء المحسن) أهـ[١].

ولذلك مدح الله سبحانه نبيه إسماعيل عليه الصلاة السلام بقوله: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) ﴾ [مريم: ٥٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (وقال بعضهم: وإنما قيل له ﴿ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ لأنه قال لأبيه: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ فصدق في ذلك)أهـ[٢].

● ومنهم موسىٰ عليه الصلاة السلام وما وفىٰ لربه سبحانه في تبليغ بني إسرائيل دعوة الله عز وجل وصبره علىٰ أذاهم وتعنتهم وسوء أدبهم، وقد كان له موقف وفاء قبل بعثته، ألا وهو موقفه عليه الصلاة والسلام مع شيخ مدين حينما آجر نفسه عشر سنين وهي أتم الأجلين عند الشيخ والد

(١) دعوة الرسل محمد العدوي ص ٦٠، ٦١.

(٢) تفسير ابن كثير عند الآية (٥٤) من سورة مريم.

البنتين حتىٰ يتزوج إحداهما، وكان قد خيره بين الثمان سنين والعشر فاختار أكمل الأجلين.

عن سعيد بن جبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضىٰ موسىٰ فقلت: لا أدري حتىٰ أقدم علىٰ حبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: (قضي أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل)[1].

٤- التأسي بهم في الهدي الظاهر:

يحسن بمناسبة الحديث عن خصال الفطرة التي وفىٰ إبراهيم عليه السلام بها الإشارة إلىٰ الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الهدي الظاهر كما هو مشار إليه في عناية إبراهيم عليه الصلاة والسلام بجسده ونظافته وخاصة بعد ما جاء ذلك علىٰ لسان نبينا محمد ﷺ من التأكيد علىٰ هذه الخصال الحسنة من خصال الفطرة. ومن هذا: الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في نظافة مظهره، ومراعاة مصالح بدنه، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين، وإزاله ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود وسخ أو قلح .

كما أذكر بهذه المناسبة استنباطاً لطيفاً للشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالىٰ ذكره في تفسير سورة طه عند الآية (٩٤)؛ وذلك في التدليل علىٰ أن إعفاء اللحية من هدي الأنبياء عليهم السلام، وأن له دليلاً من القرآن الكريم، قال رحمه الله تعالىٰ: عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ **قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي** ... ﴾ [طه: ٩٤]: (هذه الآية الكريمة بضميمة

(١) البخاري: (٢٦٨٤) في الشهادات.

آية «الأنعام» إليها تدل علىٰ لزوم إعفاء اللحية؛ فهي دليل قرآني علىٰ إعفاء اللحية وعدم حلقها. وآية الأنعام المذكورة هي قوله تعالىٰ: ﴿ ... **وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ** ... ﴾ [الأنعام: ٨٤]. ثم إنه تعالىٰ قال بعد أن عد الأنبياء الكرام المذكورين: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ... ﴾ [الأنعام: ٩٠] فدل ذلك علىٰ أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاقتداء بهم، وأمره ﷺ بذلك أمرٌ لنا؛ لأن أمر القدوة أمر لأتباعه كما بينا إيضاحه بالأدلة القرآنية في هذا الكتاب المبارك في سورة «المائدة»، وقد قدمنا هناك أنه ثبت في صحيح البخاري أن مجاهداً سأل ابن عباس: من أين أخذت «السجدة» في «صٓ» قال: أو ما تقرأ ﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ** ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ... ﴾ فسجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ(١). فإذا علمت بذلك أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاقتداء بهم في سورة «الأنعام»، وعلمت أن أمره أمر لنا؛ لأن لنا فيه الأسوة الحسنة. وعلمت أن هارون كان موفراً شعر لحيته بدليل قوله لأخيه: ﴿ ... **لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي** ... ﴾ [طه: ٩٤]. لأنه لو كان حالقاً لما أراد أخوه الأخذ بلحيته؛ تبين لك من ذلك بإيضاح: أن إعفاء اللحية من السمت الذي أمرنا به في القرآن العظيم، وأنه كان سمت الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم)أهـ(٢).

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٨.

(٢) أضواء البيان (٤/ ٥٠٦).

الجانب الثالث:

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والتبليغ

إن هذا الجانب من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمن أهم جوانب الاقتداء الذي ينبغي دراسته والوقوف عنده والتركيز عليه من قبل الدعاة اليوم، لأن النصر والتمكين الذي ينشده كل مسلم مرهون باتباع المعالم الأساسية لدعوتهم والذي اكتمل وتم تفصيله في سيرة نبينا محمد ﷺ . وما أحوجنا إلىٰ هديهم عليهم الصلاة والسلام بخاصة في واقعنا المعاصر حيث التفرق والاختلاف والتخبط والاضطراب ، كل ذلك بسبب الغفلة أو البعد عن المنهج المعصوم: منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتمثل في الثوابت والمعالم المشتركة لهم جميعاً في الدعوة والتبليغ. ويمكن إجمال أهم هذه المعالم والثوابت فيما يلي:

١- العقيدة أولاً: علماً وعملاً ودعوة وتضحية.

٢- الولاء والبراء علىٰ أساس العقيدة والمفاصلة والتميز علىٰ ضوئها.

٣- الإخلاص في الدعوة وعدم ابتغاء الأجر إلا من الله عز جل.

٤- التعرض للأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل من قبل أعداء الدعوة وأنصارالباطل.

٥- التدرج في الدعوة ومراعاة المصالح والمفاسد وقواعد الترجيح عند التعارض.

٦- السنن الربانية في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وتفصيل ذلك فيما يلي:

المعْلَم الأول:

العقيدة أولاً: علماً وعملاً ودعوة وتضحية.

إن مصطلح العقيدة يطلق ويراد منه ما يعقد عليه القلب من تصديق وإذعان وقبول بما جاءت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الإيمان بربوبية الله عز وجل، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وإفراده وحده لا شريك له بالعبادة والطلب والقصد، والتبرؤ من كل ما يعبد من دون الله تعالىٰ، كما تشمل العقيدة أيضاً الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة والرسل والإيمان باليوم الآخر والجزاء والحساب والجنة والنار وكل ما أخبر به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أمور الغيب، وانقياد كل قوم لما جاء به رسولهم من الأوامر والنواهي، وقبول حكم الله تعالىٰ ورفض ما سواه، والموالاة والمعاداة علىٰ أساس ذلك كله حسب ما جاءنا عن نبينا ﷺ بفهم السلف الصالح.

وإذا تأملنا في دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام فإنا نجد أن أول شيء دعوا إليه وضحوا من أجله وكان هو همهم وشغلهم الشاغل هو أمر هذه العقيدة من: إفراد الله بالعبادة، والإيمان باليوم الآخر، والتصديق بالوحي والرسالة. ولقد واجههم في ذلك من الأذىٰ ما تشيب له الرؤوس، ولكنهم صبروا وصابروا حتىٰ أتاهم نصر الله عز وجل، ولقد علموا من ربهم سبحانه أن أول أمر يجب أن يدعىٰ الناس إليه هو أمر التوحيد وإفراد الله سبحانه بالعبادة بكل شمولها، وأن البدء في الدعوة بغيرذلك مخالف لأمر الله تعالىٰ، العليم بما يصلح عباده، والحكيم فيما يأمر به وينهىٰ وفيما يقضيه ويقدره.

وفيما يلي بعض الآيات من القرآن الكريم تدل علىٰ أن أول شيء دعا إليه أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام هو التوحيد وإفراد الله عز وجل بالعبادة والإيمان باليوم الآخر؛ قال تعالىٰ: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)** ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)** ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقوله سبحانه: ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...** ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)** ﴾.

[العنكبوت: ٣٦]

وقوله عز وجل: ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦)** ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿ **... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢)** ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقوله تعالىٰ لخاتم النبيين محمد ﷺ: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا**

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف: ١١٠].

ولقد كان القرآن الكريم طيلة الفترة المكية يتحدث عن العقيدة علماً وعملاً مرة من خلال قصص - الأنبياء عليهم السلام - ودعوة أقوامهم إلىٰ التوحيد، ومرة من خلال المحاجة المباشرة مع المشركين وهلهلة عقيدتهم وتسفيهها، وغير ذلك من الأساليب المختلفة. فإذا كان هذا هو شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وشغلهم الشاغل في الدعوة إلىٰ العقيدة بادئ ذي بدء، وكان أيضاً هو الهم الأول في دعوة الرسول ﷺ وخاصة في الفترة المكية، إذن فلا بد من الوقوف عند هذا المعلم من معالم الدعوة عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولماذا كان أول أمر دعوا الناس إليه هو توحيد الله وعبادته.

أورد الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ: في كتاب التوحيد باب (الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله) وذكر فيه الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلىٰ اليمن قال له: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله** - وفي رواية -: **إلىٰ أن يوحدوا الله** ... الحديث»)[1].

ثم ذكر في مسائل الباب قوله: (كون التوحيد أول واجب وأنه يبدأ به قبل كل شيء حتىٰ الصلاة)[2].

(١) البخاري في مواضع منها: ك الزكاة (١٤٥٨)، ومسلم في الإيمان (١٩).

(٢) فتح المجيد: ص ٧٢.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالىٰ في شرحه لهذا الحديث: (وفيه دليل علىٰ أن التوحيد - الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه - هو أول واجب، ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام)أهـ[١].

ولقد كان في مقدور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام البدء مع أقوامهم من غير هذا الطريق الشاق الذي كلفهم العناء والبلاء، والذي قد يبدو ولأول وهلة أنه الأسهل، كأن تبدأ الدعوة في جمع الناس علىٰ أهداف قبلية وعصبية، أو أهداف اجتماعية طبقية، أو أهداف أخلاقية سلوكية؛ فإذا اجتمعوا علىٰ هذه الرايات بلغوهم العقيدة وطالبوهم بالتزامها ورفض ما سواها!! هذا هو تصور البشر القاصر الجاهل ولكن رب البشر سبحانه والذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا، والذي هو أعلم بخلقه وما يصلح لهم وهو اللطيف الخبير. لم يرد هذا الطريق، ولو بدا لأول وهلة أنه الأيسر والأسهل. إنه سبحانه أراد البدء بدعوة الناس إلىٰ عبادته وتوحيده سبحانه وخلع كل ما يعبد من دون الله حتىٰ إذا امتلأت القلوب بمعرفة الله وتوحيده والخوف منه جاءت الأوامر والنواهي والأحكام والنظم وقد استعدت النفوس لقبولها وأذعنت لتنفيذها. إذن فلابد من حكمة عظيمة في دعوة الناس إلىٰ العقيدة بادئ ذي بدء ينبغي الوقوف عندها. ولقد حاول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالىٰ الإشارة إلىٰ هذه الحكمة وهويرد علىٰ من يرىٰ البدء بغير العقيدة تيسيراً عليهم بزعمه، حتىٰ إذا اجتمعوا علىٰ راية معينة طرح أمر العقيدة بعد ذلك عليهم!!

---

(١) فتح المجيد: ص ٦٤.

يقول رحمه الله تعالىٰ: (فلمَّا تقررت العقيدة - بعد الجهد الشاق - وتقررت السلطة التي تركن إليها هذه العقيدة.. لَمَّا عرف الناس ربهم وعبدوه وحده.. لَمَّا تحررالناس من سلطان العبيد ومن سلطان الشهوات سواء. لَمَّا تقررت في القلوب «لا إله إلا الله».. صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون.. تطهرت الأرض من «الرومان والفرس».. لا ليتقرر فيها سلطان «العرب». ولكن ليتقرر فيها سلطان «الله».. لقد تطهرت من سلطان «الطاغوت» كله: رومانياً، وفارسياً وعربياً، علىٰ السواء، وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته. وقام «النظام الإسلامي»، يعدل بعدل الله، ويزن بميزان الله، ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ويسميها راية «الإسلام». لا يقرن إليها اسماً آخر، ويكتب عليها: «لا إله إلا الله»!

وتطهرت النفوس والأخلاق وزكت القلوب والأرواح، دون أن يحتاج الأمر حتىٰ للحدود والتعازير التي شرعها الله - إلا في الندرة النادرة - لأن الرقابة قامت هناك في الضمائر، ولأن الطمع في رضىٰ الله وثوابه والخوف من غضبه وعقابه، قد قاما مقام الرقابة ومكان العقوبات.

وارتفعت البشرية في نظامها، وفي أخلاقها، وفي حياتها كلها، إلىٰ القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام.

ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام، كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي

حياتهم، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك. وكانوا قد وُعِدُوا علىٰ إقامة هذا الدين وعداً واحداً لا يدخل فيه الغلب والسلطان.. ولا حتىٰ انتصار هذا الدين علىٰ أيديهم.. وعداً واحداً لايتعلق بشيء في هذه الدنيا.. وعداً واحداً هو الجنة. هذا كل ما وعدوه علىٰ الجهاد المضني والابتلاء الشاق، والمضي في الدعوة، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان في كل زمان وفي كل مكان وهو: « لاإله إلا الله » .

فَلَمَّا أن ابتلاهم الله فصبروا، ولَمّا أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم، ولَمَّا أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض - كائناً ما كان هذا الجزاء، ولو كان هو انتصار هذه الدعوة علىٰ أيديهم، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم - ولَمَّا لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجد ولا قوم، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض، ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت.. لَمَّا أن علم الله منهم ذلك كله، علم أنهم قد أصبحوا - إذن - أمناء علىٰ هذه الأمانة الكبرىٰ.. أمناء علىٰ العقيدة، التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمية في القلوب والضمائر، وفي السلوك والشعائر، وفي الأرواح والأموال، وفي الأوضاع والأحوال.. وأمناء علىٰ السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به علىٰ شريعة الله ينفذونها، وعلىٰ عدل الله يقيمونه، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم، ولا لقومهم، ولا لجنسهم. إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله، ولدينه وشريعته، لأنهم يعلمون أنه من الله، وهو الذي آتاهم إياه.

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق علىٰ هذا ا لمستوىٰ الرفيع

إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء. وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها.. راية لا إله إلا الله.. ولا ترفع معها سواها. وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره، المبارك الميسر في حقيقته)أهـ(١).

ولا يفهم من الكلام السابق أن نترك الدعوة إلىٰ الالتزام بالأحكام الشرعية والتي اكتملت بموت النبي ﷺ كلا؛ فالدعوة إلىٰ الإسلام شاملة للعقيدة والانقياد للأوامر والنواهي الشرعية. وإنما كان المقصود الاهتمام بالعقيدة وعدم إهمالها في الدعوة لأنها هي الأساس في التزام الأحكام الشرعية الأخرىٰ.

وفيما سبق رد علىٰ من يستعجل في إقامة الدولة الإسلامية قبل استقرار العقيدة في القلوب وتخلصها من ركام الشرك بشتىٰ صوره، لأنه لا قيمة لنظام إسلامي يقوم - إن قام - والناس الذين سيحكمهم النظام الإسلامي لم يستعدوا بعد لقبوله ولم يتخلصوا من رواسب الجاهلية وأدران الشرك. إنه يجب أن تستقر العقيدة في قلوب الداعين إليها أولاً ثم يدعون الناس إليها علماً وعملاً لا مجرد عقيدة نظرية لا رصيد لها في القلوب ولا في الواقع. ولا شك أن هذا الأمر يحتاج إلىٰ وقت طويل وجهد مرير وصراع مع الباطل وأهله حتىٰ تتهيأ النفوس لنصر الله عز وجل في وقته الذي يختاره الله سبحانه. إن ميزة عقيدة الإسلام أنها عقيدة حية إيجابية ما إن تستقر في القلب حتىٰ تحوله إلىٰ شعلة وحركة وجهاد وتضحية، وهذا هو الذي يظهر للمتأمل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

---

(١) معالم في الطريق ص ٣٣ - ٣٦.

حيث علموا العقيدة، وعملوا بمقتضاها ،ودعوا إليها، وصبروا علىٰ الأذىٰ في سبيلها، وضحوا من أجلها بكل نفس ونفيس.

تنبيه:

هناك من يفهم من الكلام السابق أن مسألة الحاكمية وتوحيد الطاعة والاتباع لم يكن له ذكر في بداية الدعوة حيث التركيز علىٰ العقيدة فقط، وهذا فهم خاطئ نشأ من الخلط بين الدعوة إلىٰ أن يكون الحكم لله وحده وبين إقامة الحكم الإسلامي، والنظر إلىٰ أنهما سواء. وهذا غلط؛ فتوحيد الحكم لله وحده مسألة عقدية خوطب بها الناس في أول الأمر وطولبوا بأن لا يشركوا في حكم الله أحداً كما طولبوا بأن لا يعبدوا مع الله أحداً؛ قال تعالىٰ في سورة الكهف – وهي مكية –: ﴿ ...**وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** (٢٦) ﴾ [الكهف: ٢٦]، وقال سبحانه في السورة نفسها: ﴿ ... **وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (١١٠) ﴾ [الكهف: ١١٠] فتوحيد الحكم وهو توحيد الطاعة والاتباع ركن ركين من التوحيد، ويجب أن يكون في أول ما يُدعىٰ الناس إليه مع توحيد النسك والعبادة سواء بسواء؛ لأنه يعني رد الأمر إلىٰ الله عز وجل في كل شيء وتوحيد مصدر التلقي في الله وحده.

أما موضوع الدعوة إلىٰ إقامة النظام والحكم الإسلامي فهو شيء آخر، وهو الذي سبق الحديث عنه وأنه لا بد أن يسبقه فهم العقيدة وتعلمها واستسلام القلوب لها والولاء والبراء علىٰ أساسها. ولذلك يخطئ خطأً بالغاً من يقول إن رسول الله ﷺ والأنبياء من قبله لم تتوجه دعوتهم إلا لمحاربة الأصنام والأوثان. وأمرهم بعبادة الله وحده بالصلاة والذبح والنذر

والاستعانة ... إلىٰ آخر أنواع العبادة، وأنهم لم يتطرقوا للحكم والتحاكم! إن هذا غلط فاحش ولا أدل علىٰ ذلك من ورود ذكر الحكم والتحاكم، وردّ الحكم إلىٰ الله تعالىٰ في كثير من السور المكية والتي نزلت في أول الدعوة إلىٰ العقيدة. ومن ذلك:

قوله تعالىٰ في سورة الأنعام - وهي مكية بالإجماع - : ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ...** ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقوله تعالىٰ في السورة نفسها: ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)** ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أي أن استحلال الميتة التي حرمها الله عز وجل وطاعة غير الله في ذلك هو شرك أكبر لأنه رد لحكم الله وقبول حكم غيره .

يقول الشنقيطي رحمه الله تعالىٰ: (فهي فتوىٰ سماوية من الخالق جل وعلا صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله تعالىٰ)[١].

وقوله تعالىٰ في سورة القصص وهي مكية: ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)** ﴾ .

[القصص: ٧٠]

وقوله تعالىٰ في نفس السورة: ﴿ **وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ**

---

(١) أضواء البيان (٧/ ١٧٠).

هو كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ [القصص: ٨٨]. وقوله تعالىٰ عن يوسف عليه الصلاة والسلام وهو يدعو صاحبي السجن إلىٰ التوحيد ﴿ ... إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقوله تعالىٰ عن يعقوب عليه السلام قوله: ﴿ ... إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقال تعالىٰ في سورة الشورىٰ - وهي مكية -: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) ﴾ [الشورىٰ: ١٠]، وعندما نقول عن السورة أنها (مكية) فإنما نقصد أن هذه الآيات قد نزلت ولم يقم بعد للمسلمين نظام ولا حكم ولا دولة.

أبعد هذا يجوز لقائل أن يقول إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخاتمهم نبينا محمد ﷺ لم يضمنوا دعوتهم إلىٰ العقيدة، بادئ ذي بدء مسألة الحكم والتحاكم؟! إن رد الأمور إلىٰ حكم الله عز وجل وحده هو أخصّ خصائص العقيدة، بل إن انحراف الناس عن التوحيد ووقوعهم في الشرك بشتىٰ صوره لم ينشأ إلا لعدم رد الأمر إلىٰ حكم الله عز وجل وأمره ونهيه؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾. [المائدة: ١٠٤]

فبين عز وجل في هذه الآية أن منشأ كفرهم وشركهم أنهم ردوا أمرهم إلىٰ حكم آبائهم وعاداتهم ولم يردوه إلىٰ الله عز وجل ورسوله.

الخـلاصـة:

نخلص من كل ما سبق إلىٰ أن أمر العقيدة شأنه عظيم، وأنه أول ما دعىٰ إليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن علىٰ من جاء بعدهم أن يهتدي بهديهم ويقتدي بمنهجهم، بالتركيز علىٰ موضوع العقيدة بكل شمولها، فيتعلمها الدعاة إلىٰ الله عز وجل، ويعملوا بمقتضاها، ويدعوا الناس إليها، ويربوهم عليها، ويصبروا علىٰ ما يصنعه الباطل وأهله من عراقيل تصد الناس عنها، وأن يضحوا من أجلها ويصبروا علىٰ ما يصيبهم في سبيلها فإن العاقبة للمتقين.

إن إدراك هذا المعلم المهم من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مهم جداً وبخاصة في مثل زماننا اليوم، الذي يشهد كثرة المناهج الدعوية وتباين أهدافها ووسائلها. إن غياب هذا المعلم أو الغفلة عنه عند البعض نشأ عنه عدة مشارب ومدارس دعوية مختلفة، نظر كل منها إلىٰ واقع الأمة فشخص مرضها وانطلق من تشخيصه هذا في العلاج؛ ومع أن كل هذه النظرات كان لها دور إيجابي في دعوتها ولا يجوز بحال أن نبخسها حقها أو أن نتجاهل ما تقدمه من خير ودعوة لهذا الدين، إلا أن واجب النصح بين المسلمين، وواجب التعاون علىٰ البر والتقوىٰ يقتضي توجيه النصح لكل هؤلاء بالانتباه إلىٰ أصل المرض قبل العَرَض؛ وذلك بالتأكيد علىٰ العقيدة بكل شمولها وضرورة البدء بها في الدعوة إلىٰ الله عز وجل، وضرورة تعلمها وفهمها الفهم الذي يريده الله سبحانه، والذي بعث به رسله عليهم الصلاة والسلام وبلغوه لأقوامهم. ولا نريد من تعلم

العقيدة وفهمها ذلك العلم النظري والفهم العقلي فحسب، كلا وإنما نريد ترجمة هذا الفهم وهذا العلم إلىٰ صورة حية تستقر في القلوب وتتحرك في الواقع. نعم لا نريد هذه الصور المؤسفة التي يسير عليها تعليم العقيدة في كثير من بلدان المسلمين إليوم من شحن الأذهان بمعلومات ومعارف كثيرة يتنافس الطلاب علىٰ إخراجها في الامتحانات، ثم تطوىٰ وتنسىٰ ولا يكون لها أثر في الضمائر والواقع. إن أخذ العقيدة بهذا الأسلوب لا يحتاج إلىٰ أكثر من عدة شهور حتىٰ تمتلئ الأذهان بها وينتهي الأمر. أما أخذ العقيدة لتعقد عليها القلوب وتتغير بها الأعمال والمواقف ويجاهد في سبيلها حتىٰ تتغير النفوس ويكون الدين كله لله؛ فإن مثل هذا المأخذ سيحتاج إلىٰ وقت طويل وصبر مرير. وهذا ما قام به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلىٰ هذه العقيدة وتربية الناس عليها حتىٰ أن أولهم نوح عليه الصلاة والسلام لبث يدعو قومه إليها ألف سنة إلا خمسين عاماً كلها صبر ومعاناة وتضحيات. فهلا اعتبرنا بذلك في عدم العجلة وعدم استطالة الطريق؟ وهلا وطنًا أنفسنا علىٰ الصبر والتضحية؟!

يقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ: (هكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة وأن تتم خطوات البناء علىٰ مهل، وفي عمق وتثبت.. ثم هكذا ينبغي ألا تكون مرحلة دراسة نظرية للعقيدة، ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة - أولاً بأول - في صورة حية، متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ومتمثلة في بناء جماعي....، يعبر نموه من داخله ومن خارجه عن نمو العقيدة ذاتها، متمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية، وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك، لتتمثل العقيدة حية، وتنمو

نمواً حياً في خضم المعركة.

وخطأ أي خطأ – بالقياس إلىٰ الإسلام – أن تتبلور العقيدة في صورة «نظرية» مجردة للدراسة الذهنية.. المعرفية الثقافية) أ. هـ[١].

وقد يقول قائل: إننا ولله الحمد في زماننا اليوم نختلف عن حالة الناس قبل بعثة الرسل إليهم، فالتوحيد منتشر بين الناس اليوم، والدعوة قائمة والصلاة تؤدىٰ، .. إلخ فلماذا البدء في الدعوة اليوم من العقيدة، والعقيدة موجودة؟

والجواب علىٰ ذلك: صحيح أن الوضع يختلف من حيث بقاء أصل الخير وبقاء طائفة تدعو إلىٰ الحق حتىٰ يأتي أمر الله تعالىٰ، وأن الجاهلية المطلقة في الزمان قد انتهت بعد مبعث الرسول ﷺ. ولكن هذا لا يعني أن الشرك لم يخرج في هذه الأمة بل إن كثيراً من صورالشرك قد خرجت اليوم بشكل يعلمه القاصي والداني، وعادت غربة الإسلام التي أخبر بها النبي ﷺ في قوله: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبىٰ للغرباء**»[١].

والدليل علىٰ ذلك ما يلي:

● ألم تظهر في كثير من بلدان المسلمين صور صارخة من الشرك الصريح الذي يهدم التوحيد من أساسه، كالطواف حول القبور والاستغاثة

---

(١) معالم في الطريق: ص ٤٤ (باختصار).

(٢) رواه مسلم (١٤٥) في الإيمان باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً.

بالأولياء، وطلب شفاعتهم، ورفع الحوائج إليهم، والذبح والنذر لهم.. إلىٰ آخر أنواع العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله الواحد القهار؟!

● ألم يظهر في كثير من بلدان المسلمين ما يسمىٰ بالطرق الصوفية وما يعتقد في مشائخها من عصمة وكشف وعلم للغيب، ناهيك عن البدع الشنيعة التي عمت وطمت عندهم؟!

● ألم ينتشر بين كثير من المسلمين اليوم الذهاب إلىٰ الكهنة والسحرة وأهل الشعوذة واستجابة الناس لمطالبهم الشركية الشيطانية؟!

● ألم يُنح شرع الله عز وجل في أكثر بلدان المسلمين، حتىٰ أصبح شرع الطاغوت الظالم الجاهل هوالذي يحكم في دماء المسلمين وعقولهم وأموالهم وأعراضهم، وظهر الشرك في الحكم وتوجهت الطاعة في التحليل والتحريم إلىٰ غير الله تعالىٰ؟!

● ألم ينجم النفاق وتظهر الزندقة - العلمانية - في زماننا اليوم من أناس هم من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، يرفعون عقيرتهم بأنه لا دخل للإسلام في الحياة والسياسة والاقتصاد وغير ذلك؟!

● ألم تستمر الفرق الضالة القديمة تبث بدعها اليوم وتلبس علىٰ الناس دينهم وعقيدتهم من رافضة ومعتزلة ومرجئة وخوارج وأشعرية... إلخ.

● ألم تقم ولاءات أكثر الناس اليوم علىٰ غير العقيدة؛ إما علىٰ أساس الجنس أو الوطن أو القوم أو.....إلخ.

● بل ألم يُوال أعداء الله من اليهود والنصارىٰ وغيرهم من أهل الشرك والإلحاد؟!

فهل بعد هذا مجال لقول من يقول: إن عقيدة الأمة لازالت بخير، وإن الحديث حول مسائل العقيدة أمر مبالغ فيه؟!

تنبيه ثان:

إن القول بضرورة التركيز علىٰ العقيدة والبدء بها مع الناس لا يعني إهمال جوانب الدين الأخرىٰ في الدعوة إلىٰ الله عز وجل. بل لابد أن يكون لها اهتمامها الخاص، ولابد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الناس أحكام دينهم من صلاة وزكاة وحج وصيام وغير ذلك من أحكام العبادات والمعاملات، وتحذيرهم من الفساد في الأخلاق والسلوكيات. كل هذا ينبغي أن يسير جنباً إلىٰ جنب مع الدعوة إلىٰ العقيدة وإفهام الناس لها. والقلوب لا زال فيها خير إن شاء الله تعالىٰ، فلذلك ينبغي إيقاظ هذا الخير وإزالة الركام عنه. وهذا هو الفرق بين الدعوة إلىٰ العقيدة في أمة أطبق عليها الشرك كما هو الحال قبل بعثة كل نبي، وبين أحوالنا اليوم حيث لازالت آثار الإسلام باقية.

* * *

المعْلَم الثاني:

الولاء والبراء علىٰ أساس العقيدة والتميز علىٰ ضوئها

وهذا المعلم لا ينفك عن سابقه؛ لأنه لا عقيدة ولا توحيد لله عز وجل بدون ولاء وبراء. بل إن كلمة التوحيد التي لا يدخل أحد إلىٰ الإسلام إلا بها هي ولاء وبراء؛ فنصفها ولاء والنصف الآخر براء: فـ (لا إله) براءة من كل شيء يعبد من دون الله عز وجل و(إلا الله) ولاء وعبودية لله وحده؛ فيكون معناهما جميعاً: لا معبود بحق إلا الله تعالىٰ.

وإن المتأمل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلىٰ التوحيد لَيلْمَسْ هذه الحقيقة واضحة جلية في دعوتهم وقلوبهم وواقعهم ومواقفهم؛ فهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الحنفاء يقول الله عز وجل عنه: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)** ﴾ [الزخرف: ٢٦ – ٢٨]. وقد وصانا الله عز وجل بالاقتداء بإمام الحنفاء في ولائه وبرائه هذا فقال تعالىٰ: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ...** ﴾ [الممتحنة: ٤]

وقال الله عز وجل لنبيه نوح عليه الصلاة والسلام عندما دعا ربه لابنه الهالك: ﴿ **قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)** ﴾ [هود: ٤٦]

وهذا من نوح عليه السلام ليس تجاهلاً منه لعقيدة الولاء والبراء ،فحاشاه ولكنها عاطفة الأب مع ابنه في أن لا يكون من المعذبين. ولكن الله عز وجل عاتبه علىٰ ذلك وعزَّاه في ذلك بأن لا يحزن عليه فليس بينه وبين ابنه وشيجة ولا صلة مادام أن وشيجة العقيدة قد انبتت وانقطعت بينهما .

يعلق سيد قطب رحمه الله تعالىٰ علىٰ هذه الآية فيقول : (إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم .

إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب؛ وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة، وليست وشيجة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر، وليست وشيجة الحرفة والطبقة.. إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد؛ كما قال الله سبحانه وتعالىٰ لعبده نوح عليه السلام وهو يقول : ﴿ **رب إن ابني من أهلي** ﴾ .. « ﴿ **يانوح إنه ليس من أهلك** ﴾ ثم بين له لماذا يكون ابنه.. ليس من أهله.. ﴿ **إنه عمل غير صالح** ﴾.. إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يانوح : ﴿ **فلا تسألن ماليس لك به علم** ﴾ فأنت تحسب أنه من أهلك، ولكن هذا الحسبان خاطئ. أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك، ولو كان هو ابنك من صلبك!

وهذا هو الْمَعْلَم الواضح البارز علىٰ مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلىٰ الوشائج والروابط، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة.. إن الجاهليات تجعل الرابطة آناً هي الدم والنسب؛ وآناً هي الأرض والوطن، وآناً هي القوم

والعشيرة، وآناً هي اللون واللغة، وآناً هي الجنس والعنصر، وآناً هي الحرفة والطبقة! تجعلها آناً هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك، أو المصير المشترك.. وكلها تصورات جاهلية - علىٰ تفرقها و تجمعها - تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي!

والمنهج الرباني القويم - ممثلاً في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم وفي توجيهات الرسول ﷺ - وهي من هذا القرآن وعلىٰ نسقه واتجاهه - قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية علىٰ ذلك الأصل الكبير.. والْمَعْلَم الواضح البارز في مفرق الطريق..

وهذا المثل الذي يضربه في هذه السورة من نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد ضرب أمثاله لشتىٰ الوشائج والروابط الجاهلية الأخرىٰ ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها ..)أهـ[١].

● وهذا هود عليه السلام يقول الله عز وجل عنه: ﴿ ... **قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥)** ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالىٰ عن نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام مع زوجيهما: ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)** ﴾ [التحريم: ١٠].

---

(١) في ظلال القرآن (٤ / ١٨٨٦).

والآيات في ذكر مواقف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم وبراءتهم منهم ومن شركهم كثيرة جداً كما أن الآيات التي نهىٰ الله عز وجل فيها المؤمنين عن موالاة الكفار كثيرة أيضاً. وليس المقصود هنا استقصاء جميع الأدلة والشواهد علىٰ عظم هذا الركن العظيم من أركان التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن المقصود هنا الإشارة إلىٰ أن هذا المعلم المهم من معالم العقيدة قدكان من صميم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا أساس تميزهم والمؤمنين معهم تجاه أقوامهم ومفاصلتهم لهم.

إن الولاء والبراء في هذه العقيدة ليس كلمة تقال باللسان؛ ولكنها حقيقة عظيمة يلزم عليها لوازم كثيرة، ويترتب عليها تبعات وتضحيات باهظة.

- فهي التي من أجلها أوذي الأنبياء وأتباعهم تارة بالسجن وتارة بالطرد وتارة بالقتل.

- وهي التي من أجلها هجر الأنبياء أوطانهم وأهليهم فراراً بدينهم وبغضاً وعداوة للكفر وأهله،؛قال تعالىٰ عن إبرهيم عليه الصلاة والسلام بعد إنجائه من النار: ﴿ **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴿٩٩﴾ ﴾ [الصافات: ٩٩]، وقال تعالىٰ عنه أيضاً: ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧١].

- وهي التي من أجلها حوصر الرسول ﷺ وصحابته الكرام في شعب أبي طالب حتىٰ بلغ منهم الجهد مبلغه.

وهي التي من أجلها هاجر الرسول ﷺ والمسلمون معه إلىٰ المدينة وتركوا أموالهم وأوطانهم التي أحبوها ونشأوا فيها – وهي التي من أجلها قام سوق الجهاد مع أعداء الله تعالىٰ.

– وهي معنىٰ قوله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه علىٰ الله**»(١).

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ: «وهذا من أعظم ما يبين معنىٰ (لا إله إلا لله)؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقراربذلك، بل ولا كونه لايدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتىٰ يضيف إلىٰ ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها، وياله من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع)(٢).

إن علىٰ الدعاة إلىٰ الله عز وجل في هذا الزمان أن لا يغفلوا في دعوتهم عن هذا الجانب العظيم من العقيدة، وأن يولوه الاهتمام الشديد في أنفسهم، وبرامجهم ومناهجهم وتربيتهم فهو الجدار الصلب والسور المنيع الذي يحمي الله به المجتمعات المسلمة من الذوبان في ثقافات الكفار وأفكارهم ونظمهم وعاداتهم.

ولقد فطن الأعداء إلىٰ خطر عقيدة الولاء والبراء عليهم؛ فما فتئوا منذ زمن طويل يسلطون معاولهم لتكسيرها، ذلك ليقينهم بعدم جدوى

(١) مسلم في الإيمان (٢٣).

(٢) فتح المجيد ص ٨٧.

خططهم ومكرهم ما دام هذا الحاجز المنيع من الشعور ببغض الكافر وعداوته موجوداً عند المسلمين، ولقد نجحوا إلىٰ حد بعيد في إضعاف هذه العقيدة، والتهوين من شأنها. وصرنا نرىٰ صوراً من تقليد الكافر في مظهره وأفكاره وعاداته وأعياده، وأصبحنا نسمع أصواتاً كفحيح الأفعىٰ تنادي تارة بالتسامح الديني، وتارة بزمالة الأديان، وتارة بالتعايش السلمي واحترام حقوق الإنسان، ومن آخر تقليعاتهم ما يسمىٰ بالنظام العالمي الجديد حيث (زعموا) أن العالم سيسوده السلام في ظل هذا النظام الطاغوتي الكافر وفي ظل ما يسمونه بالشرعية الدولية.

إنه والله حكم الطاغوت الدولي الأكبر الذي يجب علىٰ كل مسلم - بما تفرضه عليه عقيدته - أن يكفر به ويقول ما قاله إبراهيم عليه الصلاة السلام لقومه: ﴿ ... **كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**... ﴾[الممتحنة: ٤].

إن علىٰ الدعاة إلىٰ الله عز وجل أن يترسموا هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في هذا المعلم العظيم من معالم التوحيد؛ بداية في أنفسهم وأولادهم، ثم في دعوة الناس وتربية النشء عليه، ومقاومة وفضح ما ينقضه في مجتمعات المسلمين اليوم. وما أحسن ما أوصىٰ به الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ أبناء عصره - ونحن في عصرنا إلىٰ هذه الوصية أحوج - قال رحمه الله تعالىٰ:

(إن الواجب علىٰ الرجل أن يعلم عياله وأهل بيته الحب في الله والبغض في الله، والموالاة في الله والمعاداة فيه، مثل تعليم الوضوء والصلاة؛

لأنه لا صحة لإسلام المرء إلا بصحة الصلاة، ولا صحة لإسلامه أيضاً إلا بصحة الموالاة والمعاداة في الله)أهـ[١].

ويبقىٰ في هذا المعلم من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن نشير إلىٰ بعض الصور الخطيرة من صور موالاة الكفار والتي ظهرت في زماننا الحاضر؛ وبعضها يخرم أصل الإيمان، وبعضها يخرم كماله الواجب والتي يجب التحذير منها والتخلص منها[٢].

ومن ذلك ما يلي:

١- محبة الكفار محبة قلبية لأجل دينهم ونحلتهم. فهذا والعياذ بالله يخرم أصل الإيمان، وهذا هو التولي الذي قال الله عز وجل عنه: ﴿ ...**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ... ﴾ [المائدة: ٥١].

٢- ومن صور التولي نصرة الكفار علىٰ المسلمين سواء بمال أو سلاح أو رأي أو حتىٰ تمني نصرهم بالقلب. وهذا أيضاً يخرم الإيمان من أصله.

٣- محبة أحكام الكفار ونظمهم المحادة لشرع الله عز وجل والرضىٰ بالتحاكم إليها أو الحكم بها بين المسلمين مع العلم بما فيها من تحليل ما حرمه الله عز وجل أو تحريم ما أحله. وهذا أيضاً من التولي الذي يخرم أصل الإيمان ويخرج بصاحبه عن دائرة الإسلام.

---

(١) الرسائل الشخصية للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ: ص ٣٢٣.

(٢) يراجع للمزيد من هذه الصور وتفصيلاتها كتاب الولاء والبراء للدكتور محمد سعيد القحطاني، وكتاب الموالاة والمعاداة للدكتور محماس الجلعود.

وأوضح مثالٍ لذلك تلك الدساتير والتشريعات الطاغوتية التي يُحكم بها في أكثر بلدان المسلمين اليوم، ومن خضع من الناس لهذه الأنظمة أو عمل بها وأحبها مختاراً عالماً فإن ذلك الصنيع منه موالاة صريحة لهذه الدساتير وهذه الأنظمة وبراءة صريحة من الإسلام.

إن عقيدة الولاء والبراء تفرض علىٰ كل مسلم المفاصلة الكاملة بينه وبين من ينهج غير منهج الإسلام. كما تفرض عليه التميز بعقيدة التوحيد بكل شمولها، وأن يعيش بعقيدته قوياً متميزاً معتزاً بدينه بعيداً عن المصانعة والمداهنة وأنصاف الحلول.

٤- التشبه بالكفار وعاداتهم السيئة سواء كان ذلك في الملبس أو المأكل أو في العادات والأعياد والمناسبات الخاصة بهم. كل ذلك من صور الموالاة للكفار، وما أكثرها اليوم في بلدان المسلمين، لكن إن كان التقليد والتشبه لا يصل إلىٰ حد التعظيم للكفار وعاداتهم السيئة فإن هذا محرم ويقدح في كمال الإيمان الواجب. أما إذا كان التشبه نابعاً من محبة وتعظيم وتفضيل للأشياء التي تشبه بها علىٰ ما يضادها من أخلاق الإسلام فهذا يؤول بصاحبه إلىٰ التولي الذي يقدح في أصل الإيمان إذا كان الفاعل لذلك عالماً.

٥- الانحياز إلىٰ صف الأنظمة التي تحكم بأنظمة الكفر التي تستحل ما حرم الله عز وجل مقابل الصف المؤمن الذي يقوم بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ظل هذه الأنظمة. إن من يضع نفسه في صف الأنظمة المحادة لشرع الله عز وجل مقابل الدعاة إلىٰ الله عز وجل الذين

قامت العداوة بينهم وبين هذه الأنظمة؛ إن من يفعل ذلك عالماً مختاراً قد أعطىٰ ولاءه لأعداء التوحيد الذين أشركوا بالله في حكمه، وفي المقابل أعطىٰ عداءه وبراءته لدعاة التوحيد؛ شعر بذلك أم لم يشعر. وفي هذا خلل عظيم في أصل عقيدة من هذا فعله وصنيعه.

إن أعداء الدعاة إلىٰ الله عز وجل يمارسون بما يملكون من وسائل الدعاية والإعلام تشويهاً مستمراً لأهل الخير، ويصفونهم للناس بصفات عديدة تنفر الناس منهم. وقد ينخدع بهذا الزخم الإعلامي المتواصل بعض الطيبين من الناس. خاصة إذا صدرت من المنتسبين إلىٰ الدعوة بعض الأخطاء والممارسات المغلوطة.

فالحذر الحذر من أن يعطي المسلم ولاءه ومحبته وعاطفته للأنظمة المحادة لله عز وجل ورسول الله ﷺ بحجة أن بعض أهل الخير وقع في خطأ أو اثنين أو أكثر. وسبحان الله العظيم، فماذا تساوي نسبة أخطاء الدعاة غير المقصودة بجانب الانحرافات العظيمة لهذه الأنظمة التي شرعت من الدين مالم يأذن به الله؟!

يقول العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله: (وكل دولة لا تحكم بشرع الله، ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات، يجب علىٰ أهل الإسلام بغضها ومعاداتها في الله وتحرم عليهم مودتها وموالاتها حتىٰ تؤمن بالله وحده وتحكّم شريعته)أهـ[١].

(١) مجموع فتاوىٰ ومقالات الشيخ عبد العزيز بن باز (نقد القومية العربية) ١/٣٠٩.

ويقول د. محمد عبد الهادي المصري حفظه الله: (إن الولاء لله عز وجل هو من أهم ما يوزن به إيمان الإنسان بربه؛ ولا يكون المرء من حزب الله إلا إذا حرر ولاءه ومودته؛ فلم يعط أحدهما لعدو الله مهما كان نوعه؛ بل يعطي ولاءه لله ورسوله والمؤمنين بهذا الدين؛ وهذه هي الصفة الأولىٰ للمؤمنين؛ فلا ولاء في الإسلام إلا علىٰ أساس هذا الدين ومنطلقاته النظرية والعملية: وكل آصرة جاهلية يعطي الناس ولاءهم علىٰ أساسها هي آصرة باطلة فاسدة؛ بل المؤمنون وحدهم هم الذين تجب موالاتهم. فالمسلم يجب عليه وجوباً شرعياً أن يناصر المسلمين، ويهتم بأحوالهم، ويشاركهم في آمالهم وآلامهم مشاركة مادية ومعنوية... إن الأفراد والتجمعات والجماعات الإسلامية التي تعمل في الساحة الإسلامية اليوم داخل دائرة أهل السنة والجماعة؛ وتجاهد وتضحي بكل غال ونفيس من أجل إقامة دين الله في الأرض - إن هؤلاء جميعاً يمثلون حزب الله في الأرض - معسكر الحق والإيمان -. وإن الحكومات العلمانية التي تحكم في أكثر البلدان اليوم تمثل اليوم - مع أسيادها في الغرب: اليهودية والصليبية والعلمانية الدولية - حزب الشيطان ومعسكر الباطل.

وعلىٰ كل من ينتسب إلىٰ الإسلام اليوم أن يراجع قلبه ويتبين موقفه، ويتحسس موقعه: من يوالي اليوم؟ معسكر الإيمان أم معسكر الشيطان؟ أين قلبه ومودته مع أهل الحق أم أهل الباطل؟ من يظاهر ويعين ويناصر ويؤيد ويكثر سوادهم؟ حزب الله أم حزب الشيطان؟

إن أضعف الإيمان، والذي ليس وراءه حبة خردل من إيمان - أن يخلع المرء ولاءه عن هذه الأنظمة الفاجرة الظالمة، يكرهها بقلبه ويتمنىٰ زوالها

ووراثة حكم الله لها، لا يعينها علىٰ مسلم بقول أو بفعل - وإلا حشر معهم. وعليه في الوقت نفسه أن يحب أهل الحق ويوادهم بقلبه ويتمنىٰ أن ينصرهم الله علىٰ عدوهم، ويرفع بهم راية التوحيد والإيمان في الأرض. وعلىٰ الذين يقفون في صف هذه الأنظمة - وخاصة من أهل الأجهزة القمعية والإعلامية التي تعتمد عليها هذه الأنظمة في تثبيت دعائمها والبطش بخصومها من أهل الحق - علىٰ هؤلاء أن يسارعوا في مراجعة أنفسهم؛ لأن الموت أقرب إلىٰ أحدهم من شراك نعله؛ ويومها ستتوفاهم الملائكة - كما توفت أسلافهم - ظالمي أنفسهم، وسيُسألون: فيم كنتم؟ في معسكر الحق والإيمان؟ أم في معسكر الكفر والطغيان؟ ويومئذ لن تنفعهم معذرتهم بحجة الاستضعاف أو الخوف علىٰ النفس والمال والولد كما لم ينفع ذلك أسلافهم)[١].

ولعله الآن قد تبين لنا بعد كل ما سبق أهمية هذا المعلم العظيم من معالم التوحيد والذي دعا إليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أول ما دعوا، وأنه لم يكن كلمة تقال باللسان بل كان عقيدة حية فاصلوا علىٰ أساسها قومهم وأهليهم المشركين وانبتت كل وشيجة بينهم إلا وشيجة هذه العقيدة، وقد كانت هذه المفاصلة في البداية شعورية قلبية تميز بها أهل التوحيد، وذلك بالبراءة من قومهم وما يعبدون من دون الله، واستمرت دعوة الأنبياء مع الصبر علىٰ هذا الأمر حتىٰ تميزت الصفوف إلىٰ حزبين لا

(١) (فيم كنتم) د. محمد عبد الهادي المصري ص (١٤٩ - ١٥٢) باختصار وتصرف يسير.

ثالث لهما، ولا قربىٰ ولا علاقة بينهما؛ حزب الرحمن وحزب الشيطان، وعندئذ يجيء الفتح من الله عز وجل فيأخذ الظالمين المستكبرين وينجي جنده الطائعين المستسلمين. وبهذا جرت سنة الله عز وجل؛ فلا فصل ولا فتح للمؤمنين قبل هذا التميز بين الحزبين. وهذا ما تشهد به دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولذلك يخطئ اليوم من يستعجل نصر الله عز وجل والصفوف المسلمة لا زالت غير متميزة، وعقيدة الولاء والبراء لا زالت غير واضحة أو متميعة في بعض النفوس المسلمة، كظهور كثير من الصور الصارخة لموالاة الأعداء ومحبتهم وتقريبهم. بل إن صفوف الدعاة إلىٰ الله عز وجل هي الأخرىٰ لا زالت بحاجة إلىٰ تطبيق هذا المعلم، والتحرك علىٰ ضوئه والتحرر من الحزبية المقيتة التي يعقد عليها البعض ولاءهم وبراءهم إلىٰ أن يكون الولاء والبراء علىٰ أساس الإسلام وعقيدة التوحيد. ولو تم هذا لاختفت هذه الصور المكروهة من التعصب والتحزب والشحناء والأهواء، ولتمت الوحدة المنشودة بين الدعاة والمصلحين.

إذن فكيف يطلب المستعجلون نصر الله عز وجل وقيام حكم الله عز وجل وهذه العقيدة العظيمة لم ترسخ بعد في قلوب بعض الدعاة فضلاً عن عامة الناس الذين لم يكن لهم حظ من دعوة ولاتربية، بل إن مبلغهم من العلم هو ما تبثه وسائل الإعلام والتعليم في أكثر بلدان المسلمين لزعزعة هذا المعلم وهدم هذا الجدار.

إذن فإن علىٰ دعاة الحق الذين منّ الله سبحانه عليهم بفهم عقيدة الولاء والبراء وتميزوا بها أن يبذلوا قصارىٰ جهدهم للتحرك بهذه العقيدة

والدعوة إليها والصبر علىٰ تبعاتها، وأن لا يُسْتطول الطريق ولا الوقت الذي يمضي في تقريرها. وقد يفنىٰ جيل كامل وهو يدعو إليها ويتحمل ما يتحمل من الآلام والمعاناة والتضحيات في نشرها وتقريرها في قلوب الناس، ولكن هذه المعاناة والتضحيات تهون في سبيل نشر التوحيد وتميز الناس علىٰ أساسه؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حي عن بينة.

ولا يطمع في نصر الله عز وجل وتمكينه قبل أن تأخذ هذه الدعوة حظها من الدعوة وقبول الناس لها ؛ وخاصة في صفوف الدعاة إلىٰ الله عز وجل والقناعة بالوحدة والائتلاف علىٰ ضوئها، هذا ما يُستوحىٰ من دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسنة الله عز وجل في نصرهم ﴿ ... **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** (٤٣) ﴾ [فاطر: ٤٣].

* * *

المعْلَم الثالث :

الإخلاص في الدعوة وابتغاء الأجر من الله وحده

إن الدعوة إلىٰ الله عز وجل وإلىٰ توحيده وعبادته إن لم يصاحبها الإخلاص لله سبحانه، وابتغاء وجهه عز وجل، وعدم الطمع في الأجر من الناس أو نيل أي عرض من الدنيا فإنها دعوة منزوعة البركة عديمة الأثر علىٰ الناس؛ فوق ما فيها من فوات الأجر والثواب من الله عز وجل. وهذا أمر يجب أن يتفطن إليه الدعاة إلىٰ الله سبحانه أفراداً وجماعات، والحذر من أن تتلوث النيّات بهذه الدنيا الفانية، سواءكانت هذه الدنيا مالاً أو جاهاً أو منصباً أو ثناء وشهرة أو غير ذلك. ويجب أن يكون لنا الأسوة الحسنة في أنبياء الله عز وجل وأصفيائه حيث أعلنوها في بداية دعوتهم: أنهم لا يبتغون من الناس أجراً ولا مالاً علىٰ دعوتهم لهم، وإنما أجرهم علىٰ الله عز وجل. ولقد قالها كل نبي لقومه فصارت معلماً مهماً من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب الوقوف عنده ومحاسبة النفوس علىٰ ضوئه وهديه.

ولقد قص الله عز وجل في سورة الشعراء خبر بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وما قالوه لأقوامهم. ومن هؤلاء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام. وقد أخبر الله سبحانه عنهم جميعاً وبصيغة واحدة اتفقت في حروفها ومعانيها. فما قاله نوح قاله هود وصالح ولوط وشعيب عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام. وأكتفي بما قاله سبحانه عن نوح عليه الصلاة والسلام وهو الذي قاله بقية الأنبياء، قال الله

عز وجل: ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)** ﴾ [الشعراء: ١٠٥ - ١٠٩]، والشاهد من هذه الآيات اتفاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام علىٰ قول: ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ بعد اتفاقهم علىٰ التوحيد والدعوة إلىٰ عبادة الله وحده.

وقال الله عز جل علىٰ لسان الرجل الصالح في وصفه للمرسلين: ﴿ **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١)** ﴾ [يس: ٢٠، ٢١]، وأخبر الله عز وجل عن نبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿ **وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤)** ﴾ [يوسف: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦)** ﴾ [ص: ٨٦]. والآيات في هذا كثيرة جداً.

والشاهد منها: إخلاص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لربهم، وترفعهم علىٰ الدنيا وزخرفها، وإرادتهم وجه الله عز وجل في كل حركة وسكنة من حياتهم. ولذلك اتسمت حياتهم بالزهد والتعفف عن ما في أيدي الناس، وكان كسبهم من عمل أيديهم؛ فموسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام عملا بالأجرة في رعي الغنم، وزكريا كان نجاراً، وداود كان يعمل في الحديد وصناعة الدروع وأثنىٰ عليه الرسول ﷺ بقوله: « **... ولا يأكل إلا من عمل يده** »(١).

---

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٧).

وفي هذا عـزة النفس وحـريتـهـا، وقطع الطريق علىٰ من يريد المسـاومة والضغط عن طريق المال للتخلي عن الحق أو قول الباطل، فوق أنه يعين علىٰ الإخلاص لله عز وجل. وهذا أمر مهم يجب محاسبة النفوس عليه وأطرها عليه أطراً. فهو دليل علىٰ صدق الداعية وأنه صاحب عقيدة ومبدأ حق يعمل بما يدعو إليه ولا يسأل الناس أجراً علىٰ دعوته، ولا يربط رزقه بما في أيديهم وإنما يرجو رضىٰ ربه سبحانه ويخاف عذابه.

وإن الحذر من الدنيا وفتنتها يجب أن يكون علىٰ أشده في مثل زماننا اليوم الذي انفتحت فيه الدنيا علىٰ الناس وتعرّض بعض الدعاة لفتنة المال والمناصب وأصبح بعضهم يطلب العلم للوظيفة ويدعو إلىٰ الله من أجل الوظيفة!!

وإن الحديث عن هذا المعلم من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الوضوح بحيث لا يحتاج إلىٰ إطالة الكلام حوله. ولكن أختم الكلام فيه بموقف نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام من ملكة سبأ عندما أرسلت إليه المال كهدية تختبره بها ،فإن كان من ملوك الدنيا الذين لا هم لهم إلا المال قَبلها، وإن كان ملكاً مؤيداً من الله تعالىٰ ردها. قال تعالىٰ: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)** ﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧].

يعلق الشيخ العدوي أثابه الله علىٰ هذا الموقف الحازم من سليمان عليه السلام وترفّعه علىٰ الدنيا فيقول: (أي فلما جاء رسول بلقيس سليمان

يحمل الهدية غضب سليمان وقال منكراً لذلك العمل: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ وهل أنا من طلاب المال الذين يفتنون به؟ وذلك هو المنتظر من نبيّ كنبيّ الله سليمان، لا يقبل رشوة في سبيل سكوته عن مطالبتها بالإسلام، وتركها بدون أن يدعوها إلىٰ الله تعالىٰ.

﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ لأن الله أعطاه ملكاً ونبوّة أما هم فأعطوا ملكاً لم يكن معه نبوّة، أو المعنىٰ: فما آتاني الله من فيض رحمته وواسع فضله في العلم والحكمة: خير مما آتاكم من المال؛ لأن المال عرض زائل، أما ذلك الفضل الوافر، والرحمة الواسعة ورزق الله المعنوي فهو خير من رزقكم الحسي، وقد فتن الناس بالمال منذ خلقه الله، وظنت بلقيس أن سليمان ممن فتن كبقية الناس ولذلك أرسلت إليه بهدية لتنظر ماذا تترك في نفسه من الأثر، وإلىٰ أيّ حدّ تؤثر عليه وعلىٰ دعوته، وهل تلك الهدية تكون مدعاة لسكوته عن الدعوة، وإعراضه عن الفتح الذي أرسل الكتاب تمهيداً له، أو هو سيقابل المال كما يقابله به أصحاب النفوس العالية؛ يقابله بالرفض والتعفف، والإباء والعظمة، كلّ ذلك من أغراض ملكة سبأ.

فلم تجد من سليمان سوىٰ هذه الكلمة الغالية ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾.

ويحق لكل مصلح أن يقول هذه الكلمة كلما عرضت عليه رشوة ، أو تقدّم المبطل إليه بعرض من الأعراض الزائلة، فإذا عرض الناس عليه منصباً ليتلهىٰ به عن دعوته، ويسكت به عن مبادئه، ويطيع به داعي الهوىٰ فليقل كما قال سليمان: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ لأنه أعطي

خلقاً عظيماً، وعقيدة صالحة وأصبح مناراً يهتدي به السائرون، ويستضيء به الضالون، أعطي علماً قد جهله الناس، وخلقاً قوياً متيناً، نعم إذا طولب المصلح أن يسكت عن إصلاحه وأن يتغافل عن أخلاقه ومبادئه في سبيل وظيفة أو مال، وسواء أكانت تلك الوظيفة متعلقة بشخصه أو بأحد أولاده وأسرته - إذا طولب المصلح بشيء من ذلك فلا ينسىٰ ما قاله سليمان لأمراء بلقيس: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾.

وكثيراً ما يلجأ المستعمرون إلىٰ ذلك النوع من الرشوة، وهذا الأسلوب من تملك قلوب الناس، فيتفرسون القوم ويتعرفون العنصر المتحرّك الذي من شأنه أن يقضَّ مضاجعهم، ويؤلب عليهم فيساومونه علىٰ الوظيفة ويبتاعون شرفه وكرامته بدراهم معدودة؛ فإن كان همه المال أجابهم إلىٰ ما طلبوا، ومن كانت دعوته خالصة آثر الفقر علىٰ الغنىٰ وأبىٰ أن يقبل ذلك، وقدوته الصالحة، وأسوته الحسنة: نبيّ الله سليمان، إذ يقول لملكة سبأ: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾[1].

* * *

---

(١) دعوة الرسل ص (٣٠٩ - ٣١٠)

المعْلَم الرابع

التعرض للأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل من قبل أعداء الدعوة وأنصار الباطل

يعد هذا المعْلم من الثوابت في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل إنه سنة من سنن الله سبحانه في عباده المؤمنين؛ فما من نبي ولا داعية مخلص إلا وتعرض للأذىٰ والاستهزاء ووقوف المفسدين في طريق دعوته يصدون عنها ويشوهونها ويؤذونه بصنوف الأذىٰ والابتلاء، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)** ﴾ [الأنعام: ٣٤]، ولما جاء الرسول ﷺ إلىٰ ورقة بن نوفل ابن عم خديجة رضي الله عنها وأخبره بما رأىٰ في غار حراء من نزول الوحي قال له ورقة: (هذا الناموس الذي نزَّل الله علىٰ موسىٰ. يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرج قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم**»، قال نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً)(١).

إذن فالأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل من قبل أنصار الباطل هو من السنن الثابتة في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبالتالي في كل

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي الحديث رقم (٣).

دعوة خير وإصلاح علىٰ مدار التاريخ إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها. وإن إدراك هذا المعلم وهذه السنة مهم جداً للمصلحين وأنصار الحق في دعوتهم إلىٰ الله عز وجل؛ وذلك حتىٰ يتم توطين النفوس علىٰ هذه السنة والاستعداد لها بالصبر واليقين والاستعانة بالله عز وجل، وأن لا يستغرب الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ هذه السنة ويفاجأوا بها؛ فيحصل ما يحصل عند البعض من اليأس أو الخوف أو وهن العزيمة وإيثار السلامة.

ونستعرض الآن بعض صور الأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل والتي تعرض لها أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام؛ وذلك حتىٰ يعلم الدعاة في هذا الزمان وفي كل زمان أن لهم أسوة من الأنبياء في ما يتعرضون له من أذىٰ وصد عن سبيل الله عز وجل فيقتدون بصبرهم، ويهتدون بهديهم ، ويتسلّون بما أصابهم. وسأحاول إن شاء الله تعالىٰ عقد التشابه بين صور الصد والأذىٰ في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبين تلك الصور التي يتعرض لها دعاة الخير وأنصار الحق في كثير من بلدان المسلمين اليوم. ومن هذه الصور مايلي:

١- السخرية من أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام ورميهم - من قِبل الباطل - تارة بالسحر، وتارة بالجنون والسفاهة وتارة بالكذب والضلالة.

والشواهد من القرآ ن علىٰ هذا كثيرة منها:

● قوله تعالىٰ عن قوم نوح عليه السلام: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠)** ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وقوله أيضاً عنهم: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ**

رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

وقال عز وجل عن قوم هود عليه السلام: : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

[الأعراف: ٦٦]

وقوله تعالىٰ عن قوم صالح عليه السلام: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

ونفس هذه المقولة قالها قوم شعيب لنبيهم: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٥].

وقال تعالىٰ عن قوم فرعون: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يونس: ٧٦].

وقال تعالىٰ عن مشركي العرب مع رسول الله ﷺ: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ .

[الأنبياء: ٥]

وقال عز وجل مخبراً عن هذا الموقف الموحد من المشركين مع أنبيائهم عليهم السلام: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

[الذاريات: ٥٢، ٥٣]

وصدق الله العظيم، فإن هذا الأسلوب الرخيص من الأذىٰ والسخرية

يتكرر في كل زمان يتواجه فيه الحق والباطل؛ حيث نجد سخرية الطواغيت وأتباعهم من أهل الحق وأتباع الأنبياء فيرمونهم بسفاهة العقل، وسذاجة التفكير، وسطحية الرؤية.. إلخ هذه التهم التي يقذفونهم بها زوراً وبهتانا ويملأون بها وسائل إعلامهم المختلفة؛ ليشوهوهم عند الناس وينفروهم منهم. وذلك ما تطفح به الصحف الخبيثة بأقلام أعداء هذا الدين من علمانيين وغيرهم؛ فهذا أحدهم يستهزئ في مقال له بالحجاب، ويصف عقول الداعين له بالانحطاط الفكري، ويصف من يدعو إلىٰ ترك نحت التماثيل والصور المجسمة خوفاً من عبادتها والرجوع إلىٰ الوثنية، بأنه ذو عقل خرافي. ويصف كاتب آخر علماءَ الإسلام بضيق الأفق والهمجية.. إلىٰ غير ذلك من الترهات والمسائل الجاهلية التي واجه بها المشركون الأولون أنبياءهم عليهم الصلاة والسلام. فما علىٰ دعاة الحق الا أن يصبروا ويهتدوا بهدي سلفهم الكريم من الأنبياء والمرسلين الذين واجهوا مثل هذا الأذىٰ بل أشد.

قال تعالىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)** ﴾ [الأنعام: ٣٤].

٢- اتهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم بأنهم طلاب دنيا وملك وليسوا مخلصين فيما ينادون به.

ومن ذلك:

قوله تعالىٰ عن قوم نوح عليه السلام أنهم قالوا: ﴿ ... **مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ**

مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ...﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقوله تعالىٰ عن فرعون وقومه مع موسىٰ وهارون عليهما السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)﴾ [يونس: ٧٨].

وقوله تعالىٰ أيضاً عن مقولة فرعون لموسىٰ عندما رأىٰ معجزة العصىٰ: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧)﴾. [طه: ٥٧]

هذا ما يقوله الأفَّاكون عن صفوة الناس، وأزهد الناس، وأخلص الناس لرب العالمين!!!، لكنه الأذىٰ، ولبس الحق بالباطل، وإثارة الدهماء علىٰ أنصار الحق بمثل هذه الافتراءات التي يعلم أصحابها أن الأنبياء وأتباعهم أبعد ما يكونون عنها. وهذا الأسلوب الاستهلاكي الرخيص هو نفسه الذي يُتّبع من أعداء الحق في كل زمان ومكان؛ فكم سمعنا وقرأنا عن مثل هذه التهم الباطلة التي يروجها زنادقة العصر بوسائلهم الإعلامية المختلفة من أن الدعاة إلىٰ الله عز وجل والمنادين بتحكيم شرعه يستترون بالدين لمآرب يخفونها، أو أنهم طلاب حكم وسلطة فحسب!!! وكم تردد في وسائل الإعلام الظالمة في أكثر بلدان المسلمين مثل هذه الافتراءات، وهذه تهويشات يراد منها التشويه وإثارة دهماء الناس علىٰ أهل الخير ودعاة الحق. وهي بعينها تلك التي قالها الجاهليون الأولون لأنبيائهم من قبل.

يعلق الشيخ العدوي علىٰ قول الملأ من قوم فرعون: ﴿... وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ...﴾ [يونس: ٧٨]. فيقول: (وهذه الكلمة

من ملأ فرعون هي إذكاء لشعور الرفعة وأبهة السلطان، وتأريث للعداوة والبغضاء لموسىٰ وصاحبه؛ لأنه يحاول بعمله هذا أن يسلب فرعون ملكه، ويقضي علىٰ نفوذه وعظمته، وهي دسيسة خبيثة دنيئة ألفناها من بطانات الرؤساء، وتعوّدناها من حواشي السوء إذا كرهوا رجلاً دسوا عليه تلك الدّسيسة، واتهموه بتلك التهمة؛ لأنهم يعلمون أن الرؤساء لا تتأثر بشيء تأثرها بما يمس سلطانها، ويتعلق بسلطانها، فإذا لقنوهم تلك الكلمة فإنهم لا يناقشونهم فيها، ولا يطلبون عليها دليلاً ولا شبه دليل من ذلك المبلغ الدسّاس، وهي طبيعة من طبائع التسلط وخُلق من أخلاقه لا تخصّ رجلاً دون آخر ولا تتعلق بجيل دون جيل.

وقد يعلم ملأ فرعون أن موسىٰ عليه السلام وأخاه هارون لا يريدان ملكاً وإنما يريدان إصلاحاً في الأرض وإنقاذاً لبني إسرائيل من بطش فرعون وظلمه، ولكن بطانات السوء تأبىٰ إلا أن تظهر المصلح بتلك الصورة التي من شأنها أن يطير لها لبّ فرعون ومن علىٰ شاكلته من الظلمة المستبدين، لذلك لجأوا إلىٰ تلك الدسيسة: دسيسة أنهما يريدان ملكاً ولا يريدان رسالة)أهـ[١].

٣- اتهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالفساد والإفساد وإثارة الفتن:

ويتضح هذا جلياً من قوله تعالىٰ عن المقولة الجائرة لفرعون اللعين:

---

(١) دعوة الرسل. محمد العدوي ص ٢٢١ (بتصرف).

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر: ٢٦]، وقال تعالىٰ عن الملأ من قوم فرعون: **﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ... ﴾** [الأعراف: ١٢٧].

يعلق صلاح الخالدي حفظه الله علىٰ آية غافر فيقول:

(ما هي الأسباب التي سيقدمها فرعون إلىٰ قومه؟ ويبرر بها قَتل موسىٰ؟ إنها في قوله: **﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾**.

هما سببان: **الأول**: الحفاظ علىٰ الدين ، فموسىٰ عدو للدين، وفرعون حريص عليه. **الثاني**: الحفاظ علىٰ الأمن فموسىٰ ضد الأمن وفرعون هو حامي الأمن!!!

فرعون الكافر، الذي قال لقومه: **﴿ أنا ربكم الأعلىٰ ﴾** وقال لهم **﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾** أصبح غيوراً علىٰ الدين، حارساً له من التغيير والتبديل الذي يتهدده علىٰ يد موسىٰ!!! وفرعون المفسد بطغيانه وكفره المخرب بتجبره وتكبره أصبح داعية إصلاح وخير وأمن ورفاه !!!

وهذا التعليل الفرعوني هو الذي يلجأ إليه الظالمون في محاربة الحق وأهله؛ يقدم الظالم نفسه للناس علىٰ أنه: المؤمن المتدين، الحريص علىٰ الإيمان، الحريص علىٰ الفضائل، الغيور علىٰ الأخلاق، الراغب في التعمير والتقدم والأمن والازدهار. بينما يقدم هذا الطاغيةُ الدعاةَ إلىٰ الله علىٰ

أنهم: مفسدون مخربون، ضالون مضلون، أعداء الله والأمة والوطن، وحلفاء الشيطان ورؤوس الفتنة، ودعاة الضلال، ولهذا يجب القضاء عليهم قبل تحقيق أهدافهم الشيطانية) أ.هـ[١].

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية:

(أليست هي بعينها كلمة كل ظالم مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟

إنه منطق واحد يتكرر كلما التقىٰ الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان علىٰ توالي الأزمان واختلاف المكان. والقصة قديمة مكرورة، تُعرض بين الحين والحين)[٢].

أما آية الأعراف فيعلق الشيخ العدوي أثابه الله عليها بقوله:

قال الله تعالىٰ: ﴿**وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ** ...﴾ [الأعراف: ١٢٧].

لما لم ينجح الملأ من قوم فرعون في دسيستهم الأولىٰ؛ وهي أن موسىٰ ساحر عالم بالسحر يريد بسحره أن يخرج فرعون وملأه من أرضه، وتبين أن ما أتىٰ به ليس سحراً وإنما هو مبطل للسحر، ثم كان من وراء

(١) مع قصص السابقين صلاح الخالدي ص ١٠٤، ١٠٥ (بتصرف يسير).

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٨٧) (بتصرف يسير).

ذلك إيمان السحرة الذين جمعهم فرعون ليهزموا موسىٰ، ثم تبع السحرة في الإيمان حزب. لما كان ذلك كله لجأوا إلىٰ أسلوب جديد يؤلّبون به فرعون علىٰ موسىٰ وشيعته فقالوا لفرعون: أتترك موسىٰ وقومه؟ وهم الذين تبعوا السحرة في الإيمان ليفسدوا في الأرض وليتركك وآلهتك كالشيء المهمل فيظهر للمصريين عجزك؟! يستفزون بذلك الأسلوب فرعون المستبدّ ليحول بين بني إسرائيل وبين موسىٰ: إما بحبسه وإما بقتله.

وانظر إلىٰ قوله: ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ وكيف يعدّون دعوة موسىٰ إلىٰ التوحيد، وإنقاذ الناس من ظلم فرعون وبطشه إفساداً في الأرض، وبالتالي يعدّون ما هم عليه من باطل صلاحاً! ولا ندري أقالوا ذلك ممالأة لفرعون وإرضاء لشهوته، وقضاء للباناتهم هم ؛ لأن أعوان المستبدّ وبطانات الظالم التي تنتفع من ظلمه واستبداده، وتعيش علىٰ حساب بطشه وسلطانه، يظهرون جمهرة الشعب أمام ذلك الظالم بمظهر غير مظهره الحقيقي؛ فيسمون الإصلاح فساداً، والدَّعوة إلىٰ الحقّ تهريجاً – أو أن ذلك الملأ بلغ من حمقه وغباوته أن كان الإصلاح الذي يدعو إليه نبيّ الله موسىٰ في نظره إفساداً في الأرض!!!

والذي تميل إليه النفس أن ذلك القول وأمثاله شأن بطانة السوء التي تلتفّ دائماً حول الظالمين وتعيش في أحضان المستبدّين؛ لاقتناعها أنها لا تستطيع أن تعيش إلا في أولئك الأوساط المظلمة، ولا تستطيع أن تصيد إلا في الماء العكر، فليس لها من المؤهلات ما تستطيع أن تعيش به علىٰ

حساب نفسها ، ولا من الأخلاق ما يسمح لها بقول الحقّ والاعتراف بالأمر الواقع. وقد ساعدهم علىٰ ذلك أنهم رأوا من أسيادهم استعداداً لذلك القول ، ولولا علمهم أن ذلك القول وأمثاله يتفق وشهوة صاحبهم ما قالوه، فهم إنما يصارحون الناس بما يجيش في صدره، وما يتناسب مع أطماعه وشهواته، فهو شريكهم في الجرم، ورئيسهم في الإثم، عليه وزره ووزرهم.

لذلك صوّر الملأ من قوم فرعون موسىٰ وحزبه بتلك الصورة البشعة؛ صورة المفسد في الأرض. ويعلم الله أن إفساد موسىٰ في الأرض هو إنقاذ بني إسرائيل من استبدادهم، والحيلولة بين الشعب وبين بطشهم، فإذا كان فيه إفساد فهو إفساد سياستهم وإحباط تدبيرهم، وتفلت الجمهور من أيديهم ،وذلك ما يخشاه فرعون وملأ فرعون الذين يعيشون علىٰ حساب غيرهم، وينعمون بشقاء أمتهم، ويثرون بإفقار إخوانهم، ويرقون مناصب الدّولة ووظائفها الكبرىٰ علىٰ حساب إذلال بني جلدتهم. ألا قاتل الله قوما ذلك حالهم، وبعداً لطائفة تلك أخلاقهم) أهـ[١].

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة، ألا ما أشبه مقولة الصادين عن سبيل الله عز وجل في هذا العصر بمقولة إخوانهم الجاهليين الغابرين. إنها نفس التهم والأباطيل لكنها تلبس في عصرنا لبوساً يفتن السذج من الناس . كيف لا وقد جُنّدت لها وسائل الإعلام ومكر الليل والنهار الذي لا يفتأ يصف دعاة التوحيد والخير والصلاح بأنهم أصحاب فتنة، ودعاة

---

(١) دعوة الرسل. محمد العدوي ص ٢٢١ – ٢٢٢.

إرهاب وتطرف وفرقة.

إن مما يعزي الدعاة إلىٰ الله عز وجل ويصبرهم علىٰ هذه التهم أنها قيلت لسلفهم الطاهر من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام فصبروا علىٰ ما كذبوا وأوذوا حتىٰ أتاهم نصر الله عز وجل.

٤- إثارة الفرقة بين أبناء الأمة وجعلها أحزاباً وشيعاً:

وهذا واضح من قوله تعالىٰ عن فرعون مصر: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** (٤) ﴾ [القصص: ٤].

وكذلك ما حاوله اليهود زمن الرسول ﷺ من إثارة النعرات بين الأوس والخزرج بعد إسلامهم ولكنهم باءوا بالفشل، وعصم الله سبحانه الأنصار بوجود الرسول ﷺ.

وسار علىٰ هذه السياسة اليهودية العالمية أرباب الأنظمة العلمانية والتي تسمي نفسها «ديمقراطية»؛ حيث فرقت الأمة إلىٰ أحزاب وتكتلات يحارب بعضها بعضاً؛ وذلك من باب: (فرّق تسد). ولم تقف هذه السياسة عند هذه الأحزاب الأرضية، بل حاولوا إثارتها بين الدعاة إلىٰ الله عز وجل وتفريق صفوفهم ومحاولة اختراقهم لهذا الغرض؛ ولذلك فإنه لا يستبعد أن يكون أعداء الدعوة من وراء الفرقة الحاصلة اليوم بين الدعاة والمصلحين. فعلىٰ أهل الخير التفطن لذلك وعدم السماح لهذه السياسة الفرعونية اليهودية أن يكون لها وجود بين

الداعين إلىٰ الله عز وجل.

٥- اعتماد أساليب الضغط الخسيسة علىٰ الدعاة في أهليهم الأبرياء:

وهذا واضح في آية القصص السابقة حيث ذكر الله عز وجل عن فرعون اللعين أنه كان يقتل أبناء المسلمين ويستحيي نساءهم. وفي هذا من الضغط النفسي علىٰ الآباء الشيء العظيم؛ لأن الداعية قد يتحمل الأذىٰ في نفسه، ولكن القليل هم الذين يتحملونه في أبنائهم وبناتهم، وهذا من أخس أساليب الجاهلية في أذىٰ الدعاة والصد عن سبيل الله. ومع خستها ومخالفتها لكل دين وعرف ومروءة وإنسانية إلا أنا نجدها اليوم تجري علىٰ أيدي الطواغيت وأتباعهم الممسوخين. فكم سمعنا عن ممارسات هابطة يُضغط بها علىٰ الداعية في أولاده أو زوجته أو بناته أو غيرهم من الأبرياء.

يقول صلاح الخالدي حفظه الله: (وهم يفعلون هذا ليضغطوا علىٰ المؤمنين ضغطاً مؤلماً، ومن النقطة التي تؤلمهم أكثر من غيرها، والتي يظنونها نقطة ضعف عندهم، وقد تقودهم إلىٰ التخلي عن الدعوة والداعية. إنها نقطة الأسرة والعائلة والأولاد والبنات. وهي نقطة ضعف حقاً، والضغط عليها مؤلم جداً، وقد يفضي بأناس إلى التخلي عن الحق فعلاً. لكن اتجاههم لمحاربة أناس أبرياء - هم الأولاد والنساء - يمثل ظلماً وعدواناً منهم؛ لأنهم يأخذون الأبرياء بشيء لم يفعلوه. كما يمثل حقداً وكيداً وقسوة؛ لأنهم يحاربون أطفالاً صغاراً ضعافاً لا طاقة لهم بالحرب،

ولم يستعدوا لها.

ألم نقل إنها وسيلة خالية من كل معاني الرحمة والإنسانية، وإنها لا تتفق مع عرف أو حق أو مبدأ أو قانون؟ ولكن متىٰ كان أصحاب الباطل يلتزمون بالقوانين والمبادئ في محاربة الحق وأهله؟

بقي أن نقول: إن وسيلة: ﴿ ... **اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ** ... ﴾ [غافر: ٢٥] ليست خاصة بفرعون وقومه، ولكنها وسيلة دائمة مطَّردة، يستخدمها أصحاب الباطل دائماً في مواجهة أصحاب الحق. وكم وعىٰ التاريخ، وسجل في ذاكرته – في القديم والحديث – من نماذج شديدة أليمة لهذه الوسيلة الشيطانية الحاقدة!)أهـ[١].

وقد ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ في المسألة الرابعة والتسعين من مسائل الجاهلية قوله: (إن من دينهم أخذ الرجل بجريرة غيْره، فأنزل الله: ﴿ ... **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ... ﴾ [الإسراء: ١٥][٢]، وقال في المسألة التاسعة عشر: (وهي قدحهم في بعض الصالحين بفعل بعض المنتسبين إليهم)أهـ[٣].

ومن مظاهر وجودها اليوم ما يقوم به الحكام العلمانيون من مطاردة المتمسكين بدينهم في تلك البلاد التي يحكمونها، فما تكاد تقع حادثة

(١) مع قصص السابقين صلاح الخالدي ص ١٠٢.

(٢) مسائل الجاهلية ص ٢٤٣ (ضمن مجموعة التوحيد).

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٩.

إلا ويلصقونها بالإسلاميين، ثم يستتبع ذلك مطاردة من لم يكن له علاقة بالحادث أصلاً. وكذلك ترىٰ المناوئين للدعاة اليوم يبرزون بعض الأخطاء التي تقع من بعض المنتسبين إلىٰ الدعوة ثم يعرضون هذه الأمور علىٰ وجه التعميم، فيزعمون أن كل من تمسك بدينه فهو علىٰ هذا المنوال؛ ولذلك نجد بعض الكلمات التي تطلق علىٰ سبيل التعميم نحو: إرهابي متطرف.. إلىٰ آخر هذه التهم الباطلة. وأسوق بهذه المناسبة قصة تنسب إلىٰ الحجاج ليدرك البصير الفرق الكبير بين الحجاج علىٰ ظلمه وبين طواغيت العصر؛ فقد جاء عن الهيثم بن عدي قال: (جاء رجل إلىٰ الحجاج فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث، فضُرب علىٰ اسمي في الديوان، ومُنعت العطاء، وقد هدمت داري. فقال الحجاج: أما سمعت قول الشاعر:

فلرُب مأخوذٍ بذنبِ قريبهِ ونجا المقارفُ صاحبُ الذنبِ

فقال الرجل: أيها الأمير إني سمعت الله يقول غير هذا وقول الله أصدق من هذا؛ فقال: وما قال؟ قال: إنه يقول: ﴿ **قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾** ﴾ [يوسف: ٧٨، ٧٩] قال: يا غلام أعد اسمه في الديوان، وابنوا داره وأعطه عطاءه، ومر منادياً ينادي: صدق الله وكذب الشاعر)[١].

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٣٠.

٦- التضييق على الأنبياء وأتباعهم في الرزق وانتهاج سياسة التجويع والحصار الاقتصادي:

ويتضح هذا مما قام به المشركون في مكة من مقاطعة الرسول ﷺ ومن آمن معه مقاطعة اقتصادية في البيع والشراء وغيرذلك، ومحاربتهم في شعب أبي طالب حتىٰ مسهم الضر وبلغ منهم الجوع مبلغاً شديداً. وكذلك ما نادىٰ به المنافقون في المدينة من محاولة لتضييق سبل الرزق لمن حول الرسول ﷺ حتىٰ يتفرقوا عنه وينشغلوا في طلب المعاش. قال تعالىٰ عنهم: ﴿ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (٧)** ﴾. [المنافقون: ٧]

يعلق سيد قطب رحمه الله تعالىٰ علىٰ هذه المقولة من المنافقين فيقول: (وهي قولة يتجلىٰ فيها خبث الطبع ولؤم النحيزة[١]؛ ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين...، وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله ويتركوا الصلاة، وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله عز وجل من قديم الزمان إلى هذا الزمان ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية ﴿ **وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ** ﴾[٢].

---

(١) النحيزة: نحيزة الرجل: طبيعته.

(٢) الظلال: ٦ / ٣٥٧٩ بتصرف واختصار.

٧- القتل والسجن والإخراج من الأرض:

وهذا هو آخر ما في جعبة الباطل وأقصىٰ ما يملكونه من إيذاء أنبياء الله عز وجل وأوليائه وذلك حين تعوزهم الحجة وتبطل كل وسائلهم السابقة في إسكاتهم أو إضعاف عزائمهم؛ عندئذ يلجأون إلىٰ التصفية الجسدية، أو تغييبهم في السجون، أو إخراجهم من ديارهم وأبنائهم. وهذا كله عاناه أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام: ﴿ ... **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** (١٤٦) ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. والشواهد علىٰ هذا كثيرة في كتاب الله عز وجل منها ما يلي:

- إخباره تعالىٰ عن تهديد قوم نوح لنوح عليه السلام بقوله: ﴿ **قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ** (١١٦) ﴾ [الشعراء: ١١٦].

- وقوله تعالىٰ: عن قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ** (٦٨) ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

- إخباره تعالىٰ عن تهديد قوم شعيب لنبيهم عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** ... ﴾ [الأعراف: ٨٨].

- وقول قوم لوط لنبيهم عليه الصلاة والسلام وأهله في قوله تعالىٰ: ﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** (٥٦) ﴾ [النمل: ٥٦].

- ولما قص الله عز وجل علينا خبر قوم نوح وهود وصالح مع رسلهم في

سورة إبراهيم قال بعد ذلك: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ... ﴾ [إبراهيم: ١٣].

– وقوله تعالىٰ عن تهديد فرعون لموسىٰ عليه الصلاة والسلام بالقتل: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ... ﴾ [غافر: ٢٦].

– وقوله تعالىٰ عن التسعة الذين تآمرو علىٰ قتل صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) ﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩]..

– وما تعرض له الرسول ﷺ من التهديد بالسجن أو الإخراج أو القتل والذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾.
[الأنفال: ٣٠]

هذه صور من إيذاء الجاهلية لأنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام وهذا هو هديهم عليهم الصلاة والسلام في مقابلة ذلك بالصبر والعزائم القوية، وقبل ذلك وبعده بالاستعانة بالله وحده. فلقد قال موسي عليه الصلاة والسلام بعد تهديد فرعون له بالقتل: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) ﴾.
[غافر: ٢٧]

وقال نوح عليه الصلاة والسلام عندما هُدد بالرجم: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨].

وقال شعيب عليه الصلاة والسلام عندما هدد بالإخراج من بلده: ﴿ ... **عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)** ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال لوط عليه الصلاة والسلام بعد أن هدد بالإخراج: ﴿ **قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)** ﴾.

[الشعراء: ١٦٨، ١٦٩]

وهذه المواقف الإيمانية العظيمة من أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم السلام يجب أن تحتذىٰ، ويستنار بهديها من كل داعية يواجه بمثل هذا الأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل. إنه ليس له إلا الله سبحانه ولا ينجي من الشدائد إلا هو. إنه ينبغي أن يردد كل داعية ما قاله موسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)** ﴾ [غافر: ٢٧].

يقول العدوي أثابه الله:

(وقد يلجأ المبطل إلىٰ القوّة المادية فيقتل بعض أنبياء الله ويعذب بعضاً آخر، بعد أن تعوزه الحجة، وينقصه البرهان والدليل؛ فيكون التجاوه إلىٰ التعذيب والتقتيل عنوان خذلانه وعلامة علىٰ نصر أعدائه، وربّ معذّب أو قتيل كتب الله له النصر، ولدعوته الظفر والتأييد، وربّ جبار أو عنيد كتب الله عليه الذلّ وسجل عليه الخذلان؛ فكان الأوّل حياً في موته منتصراً في قبره، وكان الثاني ميتاً في حياته، مكبوتاً في جبروته وكبريائه، فهو نصر معنوي، يظفر فيه الحق بالباطل، وتظهر فيه الحجّة علىٰ التقليد،

والبرهان علىٰ الشبهة، وقوّة الروح علىٰ قوّة المادّة، وقد يكون مع النصر المعنوي نصر مادّي، كإنجاء الله موسىٰ ومن معه من الغرق وإغراق فرعون وجنود فرعون ، وكإنجاء الله إبراهيم من النار بعد أن دبروا له ما دبروا، وصنعوا له ما صنعوا، وإنجاء نبينا محمد ﷺ من تدبير قريش قتله ، كلّ ذلك نصر مادّي معه نصر معنوي)أهـ[١] .

وبعد ذكر النماذج السابقة من صور الأذىٰ والصد، التي تعرض لها صفوة البشر وأحبهم إلىٰ الله تعالىٰ هل لقائل أن يقول : إنه يجب الابتعاد في الدعوة إلىٰ الله سبحانه عن كل ما من شأنه أن يجر علىٰ الداعية الأذىٰ والمحن؟ إن صاحب هذا القول قد نسي أو تناسىٰ سنة الله عز وجل في الصراع بين الحق والباطل، وسنته سبحانه في الابتلاء والتمحيص؛ قال تعالىٰ : ﴿ **الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ③** ﴾ [العنكبوت : ١ – ٣] .

وقال سبحانه : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ⑩ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ⑪** ﴾ [العنكبوت : ١٠، ١١] . نعم إن من بيننا من يريد المغنم من الدعوة ولا يريد العناء والمشقة؛ بدليل عدم الإعداد والاستعداد لأي أذىٰ يعترض في الطريق ولو كان قليلاً؛ فما دام الأمن وما دامت السلامة والراحة فهو نشط ومتحرك فإذا ظهرت المحن وبدايات الابتلاء والتمحيص

---

(١) دعوة الرسل. محمد العدوي ص ٢٤١ .

آثر السلامة والراحة وعلل ذلك بالابتعاد عن الفتن ودرء المفاسد.

ولا يعني ما سبق من الكلام أن يبحث الداعية عن الأذىٰ والابتلاء؛ كلا. فالمطلوب سؤال الله العافية وعدم تمني البلاء. كما لا يفهم منه أيضاً الدعوة إلىٰ التهور والطيش. معاذ الله فلا بد من المنطلقات الشرعية في كل التصرفات، لكن المراد أن لانغفل عن سنة الله سبحانه وتعالىٰ في ابتلاء المؤمنين وأن توطن النفس علىٰ هذه الأمور؛ لأنه لا بد منها لكل من ادعىٰ الإيمان، وتصدر الدعوة والجهاد، ولا بد منها لتمييز الخبيث من الطيب، ولابد منها لتمحيص القلوب، والصفوف. ومن خلال الدراسة السابقة لحياة الأنبياء عليهم السلام، وتقليبنا لتاريخ المجددين والمصلحين نرىٰ ذلك المعلم ظاهراً وقاسماً مشتركاً عندهم جميعاً، حيث لم تخل حياة رسول ولا مصلح مجدد من الأذىٰ والمحن والابتلاء، بل لم يحصل التمكين لهم وإقامة دين الله سبحانه في الأرض علىٰ أيديهم إلا بعد الصبر والمصابرة علىٰ صنوف الأذىٰ والمحن في سبيل الله سبحانه؛ قال تعالىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** (٣٤) ﴾ [الأنعام: ٣٤] وما أظن أحداً يجهل حادثة أصحاب الأخدود ولا قول الرسول ﷺ لخباب بن الأرت رضي الله عنه: «**لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه** ... الحديث»(١).

* * *

(١) البخاري في كتاب الإكراه (٦٩٤٣)، انظر رسالة: (ولا تلبسوا الحق بالباطل) ص ٨٣ - ٨٦.

المعْلَم الخامس:

التدرج في الدعوة ومراعاة المصالح والمفاسد وقواعد الترجيح عند التعارض

إن المتأمل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من بدايتها إلىٰ نهايتها يرىٰ أنها كانت تمر في مراحل متدرجة، كل مرحلة تؤدي إلىٰ الأخرىٰ حتىٰ أتاهم نصر الله عز وجل. كما يرىٰ المتأمل فيها أيضاً أن تلك المراحل وما فيها من مواقف وتصرفات وأحكام كانت مبنية علىٰ فهمهم لواقعهم الذي يدعون فيه، وأن مراعاة المصالح والمفاسد كان له وزن كبير في تحديد معالم كل فترة؛ فجاءت دعوتهم محكمة مثمرة منصورة.

وكيف لايكون ذلك وهي تسير بوحي الله عز وجل وأمره ونهيه، وما دام الأمر كذلك في صحتها وعصمتها، فتحتم علىٰ من يروم نصر الله عز وجل وتمكينه لعباده المؤمنين أن يهتدي بهذا الهدي المعصوم، وأن يطيل النظر فيه علىٰ ضوء مستجدات العصر وفهم الواقع المحيط. وإنه ليس بالأمر الهين الكلام عن هذا المعلم المهم لكن أسأل الله عز وجل أن يعينني علىٰ تجلية هذا المعلم من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأن يهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنه إنه يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

عقد الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ فصلاً في زاد المعاد عنون له بقوله ‹فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين، من حين بعث إلىٰ أن لقي الله عز وجل› رأيت من المناسب أن أبدأ به في هذا المقام لأنه تضمن تلخيصاً سريعاً لهديه ﷺ في الدعوة والتدرج فيه من مرحلة إلىٰ

أخرىٰ ، وهو الهدي الذي سار عليه الأنبياء من قبل؛ غير أن مرحلة الجهاد والمصادمة المسلحة لم تكن في الأنبياء الذين كانوا قبل موسىٰ عليه الصلاة والسلام. إذن فهديه ﷺ في الدعوة والجهاد تضمن هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وزاد عليه، فكان الكمال فيها والشمول.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: (أوَّل ما أوحىٰ إليه ربُّه تبارك وتعالىٰ: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق؛ وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝** ﴾ [المدثر: ١، ٢]، فنبأه بقوله: ﴿ **اقْرَأْ** ... ﴾ [العلق: ١] وأرسله بـ ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ** ﴾ ثم أمره أن يُنذِرَ عشيرَته الأقربِينَ، ثم أنذر قومَه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته يُنذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال، ثم أمره أن يُقاتِلَ من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يُقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتىٰ يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة؛ فأُمِر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا علىٰ العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يُقاتلهم حتىٰ يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت (سورة براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة

عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان.

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم، وهُم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم. وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلىٰ مدتهم. وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يُحاربوه أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم، وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ... ﴾ [التوبة: ٢]، وهي الحُرُمُ المذكورة في قوله: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ... ﴾ [التوبة: ٥]. فالحرم ها هنا: هي أشهر التسيير، أولها يوم الأذان، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخرُها العاشر من ربيع الآخر، وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ... ﴾ [التوبة: ٣٦] فإن تلك واحد فرد، وثلاثة سرد: رجبٌ، وذُو القَعدة، وذو الحِجة، والمحَرَّمُ. ولم يسير المشركين في هذه الأربعة، فإن هذا لا يُمكن لأنها غيرُ متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يُقاتلهم فقتل الناقض لعهده، وأجَّل مَنْ لا عهد له أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يُتمَّ للموفي بعهده عهدَه إلىٰ مدته، فأسلم هؤلاء كُلُّهم ولم يُقيموا علىٰ كفرهم إلىٰ مدتهم، وضَرَبَ علىٰ أهل الذمة الجزية.

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة علىٰ ثلاثة أقسام: محاربينَ له وأهل عهد، وأهل ذمة ثم آلت حالُ أهل العهد والصلح إلىٰ الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلىٰ الله، وأن يُجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يعرض عنهم، ويُغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلىٰ نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم، وأن يقومَ علىٰ قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم، فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين)أهـ[(١)] .

هذا هو خط سير دعوته ﷺ وجهاده منذ أن بعثه الله سبحانه إلىٰ أن مكن له في الأرض ونصره.

ويهمنا من هذه الفترات فترة ما قبل الهجرة والإذن بالقتال وذلك لاعتبارين:

الأول: لأنها محل اتفاق بين الأنبياء جميعاً؛ حيث إن هديهم عليهم الصلاة والسلام قد اتفق في هذه الفترة مع هدي الرسول ﷺ في مكة قبل الهجرة حيث الاستضعاف والصبر وكف، اليد أما بعد الهجرة فكان الجهاد الذي نصر الله به نبيه ﷺ، وبما أيده به من المعجزات. أما الأنبياء الذين لم

---

(١) زاد المعاد: (٣/ ١٥٩ - ١٦١) ت. الأرناؤوط.

يشرع في حقهم الجهاد وقتال الأعداء فكان نصر الله عز وجل ينزل عليهم بعد أن يكونوا قد تجاوزوا مرحلة البناء والابتلاء بنجاح، وذلك النصر يجيء بمعجزة منه سبحانه وآية من آياته؛ فينصر الله سبحانه به أنبياءه ويهلك به أعداءه، كما نصر نوح بالطوفان، وهود بالريح، وصالح بالصاعقة، وشعيب بعذاب يوم الظلة... الخ.

الثاني: أن هذه الفترة هي أقرب ما يكون إلىٰ أحوال المسلمين اليوم من جهة الغربة التي يعيشونها في دينهم وعقيدتهم حيث ظهر كثير من الشركيات في بلدان المسلمين وضُيّع كثير من الفرائض، وحُكِّم في أكثر بلدان المسلمين شرع الطاغوت وحكم البشر، وأهمل جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعطل الجهاد، وانتشر الفساد في بلاد المسلمين بشكل لم يسبق له نظير، وصاحب ذلك تسلط الأعداء وكيدهم وإفسادهم في بلدان المسلمين، ونجم النفاق، واشتدت الغربة علىٰ أهل الحق فاستضعفوا وأوذوا.

ولكن من رحمة الله عز وجل أنه يهيئ لدينه أنصاراً لا يخلو منهم زمان حتىٰ يأتي أمر الله. ثم إنه لا يزال والحمد لله في الأمة خير تحتاج إلىٰ من يزيل الركام عنه.

إذاً فهناك أوجه شبه بين ما يعيشه المسلمون في هذا الزمان وبين تلك المرحلة التي عاشها أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام قبل أن يأتيهم نصر الله سبحانه، وبالتحديد تلك المرحلة التي عاشها الرسول ﷺ في العهد المكي قبل الهجرة. مع الانتباه إلىٰ أننا في هذا الزمان نعيش

اكتمال أحكام الإسلام، وبالتالي فنحن ملزمون بها كلها؛ بينما كان التشريع في مكة في بدايته، وكان التركيز علىٰ بناء العقيدة وتربية النفوس عليها.

فنحن مطالبون إذن في هذا الزمان بالتزام أحكام الدين كلها، مع التأسي بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في مرحلة الاستضعاف والتي حُدّدت ملامحها وفُصّلت في سيرة نبينا محمد ﷺ في تلك الحقبة. ويمكن تلخيص الملامح الدعوية في مرحلة الاستضعاف كما هي في هديه ﷺ فيما يلي:

١- نشر عقيدة التوحيد وأحكام الإسلام والانقطاع إليها بكل الجهد والطاقة:

وهذا ما قام به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم لأقوامهم واستمروا علىٰ ذلك يصلون ليلهم بنهارهم وانقطعوا إليه بجميع ما يملكون من جهد. وانطلقوا ناصحين مشفقين علىٰ الناس من عذاب الله عز وجل في الدنيا والآخرة، وهذا هو الذي قام به الرسول ﷺ في مكة، يدعو أهل بيته وأقاربه وأصحابه ويدعو بطون قريش في نواديهم وتجمعاتهم، ويطوف علىٰ الناس في الأسواق، ويمر علىٰ وفود العرب إلىٰ بيت الله الحرام: يدعوهم إلىٰ الإسلام، ويخوفهم من عذاب الله عز وجل. واستمر علىٰ ذلك بكل صبر وقوة، لا يكلّ ولا يتوقف. وهذا هو الذي ذكره ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في هديه ﷺ في دعوته للكفار منذ أن بعث إلىٰ حيث لقي الله عز وجل كما سبق بيانه.

وقد واجه الأنبياء في دعوتهم صنوف الأذىٰ والاستهزاء والصد عن سبيل الله عز وجل ولكنهم صبروا علىٰ ذلك ولم يزدهم ذلك إلا إصراراً علىٰ الدعوة وهداية الناس. وقد اتصفوا عليهم الصلاة والسلام أمام أقوامهم بقوة الحجة، والحلم، والحكمة، والصفح، والمجادلة بالتي هي أحسن، وطول النفس، وقوة التحمل. وهذا ما يطالب به الدعاة اليوم من دعوة الناس إلىٰ عقيدة الإسلام وإزالة ما تراكم عليها من ركام الشرك والبدع، وأن تكون هي الهم الشاغل للدعاة إلىٰ الله عزجل ويفرغوا لها الأوقات وينقطعوا إليها مع الصبر والتحمل وضبط النفس، وأن تأخذ هذه الدعوة حظها من الجهد والوقت حتىٰ تتسع قاعدة الدعوة ويسمع بها الناس، وتظهر آثارها في المجتمع، وأن تراعىٰ قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد قدر الإمكان، وأن لا يستعجل في قطف الثمار[١].

٢- الاهتمام بالتربية والبناء والتزكية:

وهذا أمر يزيد علىٰ الدعوة والتعليم لأحكام الإسلام؛ حيث لا بد من العناية بالفئة الجادة التي يظهر عليها حب الإسلام، والرغبة في الدعوة إليه والحرص علىٰ تعاليمه. فمثل هؤلاء ينبغي أن تكون لهم عناية ورعاية يخصّون بها لتربيتهم علىٰ هدي الإسلام، والعمل علىٰ تزكيتهم وتكوينهم علىٰ العلم الصحيح والعمل الصالح والدعوة إلىٰ الإسلام وصبغ حياتهم بذلك مع تعميق معاني الأخوة ورابطة العقيدة بينهم، والتواصي

---

(١) يرجع إلىٰ المعلم الأول من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الا وهو: (العقيدة أولاً ص ٦١).

بالحق والتواصي بالصبر، واحتساب ذلك عند الله عز وجل. وهذا النوع من التربية ضروري في هذه المرحلة؛ وذلك لبناء القاعدة الصلبة التي يحمي بها الله عز وجل دينه، ويهيئها الله سبحانه لتقود الأمة بعد ذلك، وتكون بمثابة أئمة الهدىٰ للناس في العلم والعمل والدعوة والصبر. وهذا ما يلمس من دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين كانوا يعتنون بمن يؤمن من أقوامهم تعليماً وتربية وإعداداً، ويتضح هذا بجلاء في دعوة النبي ﷺ في مكة حيث كان يربي أصحابه رضي الله عنهم في دار الأرقم فيعلمهم ما ينزل من الوحي ويصبرهم ويشاركهم في مصاباتهم وابتلاءاتهم، حتىٰ تخرّج من هذه الدار الرجال العظام من السابقين الأولين الذين قامت علىٰ كواهلهم رسالة الإسلام بعد ذلك، وفتحوا الدنيا مع إخوانهم الأنصار والتابعين لهم بإحسان. ومن أهم جوانب التربية والتزكية ما يلي:

أ- الفهم الصحيح لعقيدة الإسلام بفهم السلف الصالح وخير القرون وتعميق المعنىٰ الشامل للتوحيد وآثاره وتعميق الإيمان باليوم الآخر والاستعداد له. وتعميق مفهوم الموالاة والمعاداة علىٰ أساس الإسلام.

ب- شحذ الهمم لدعوة الناس إلىٰ هذا الفهم الصحيح للعقيدة وتوسيع قاعدة الدعوة.

جـ- تزكية النفوس بتقوية الصلة بالله عز وجل، والإكثارمن ذكره ودعائه وعبادته والاستعانة به وحده. وهذا أمر واضح تشهد له التوجيهات القرآنية في تلك المرحلة؛ حيث أمر الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بقيام الليل والصلاة وقراءة القرآن، وكثرة التسبيح والاستغفار والذكر، ومن ذلك

قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ... ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) ﴾ [الإنسان: ٢٥، ٢٦].

ويدخل في التزكية أيضاً جوانب العبادات الأخرىٰ من صيام وصدقة وبر وإحسان كما يدخل فيه كل جوانب التقوىٰ التي تقوم علىٰ فعل الواجبات وترك المحرمات ابتغاء وجه الله عز وجل. كل هذا مما ينبغي العناية به فيٰ التربية والتزكية.

د- تقوية الرابطة الإيمانية المبنية علىٰ الولاء والمحبة والنصرة لكل مؤمن ودعم أواصر الأخوة والألفة بين الدعاة إلىٰ الله عز وجل، وهذه بدورها تقتضي البراءة من المشركين والتميز عنهم ظاهراً وباطناً. وهذا ما نراه واضحاً في حياة المؤمنين من أتباع الرسل الذين يكونون بترابطهم ومحبتهم حزب الله أمام حزب الشيطان المتمثل في كل عقيدة تخالف الإسلام. وإن هذا الجانب من التربية والتزكية يجب أن يأخذ حظه من الاهتمام وأن تكون له العناية الشديدة من الدعاة إلىٰ الله عز وجل في هذا الزمان الذي نشهد فيه الفرقة والمعاداة بين المؤمنين الداعين إلىٰ الله عز وجل. إنه ما لم توجد المحبة والألفة والتناصر بين أهل الحق أمام أهل الباطل فلا يطمع في نصر الله عز وجل وتمكينه؛ لأنه قد فُرِّط في سبب يُعّد من أهم أسباب النصر والتوفيق؛ قال تعالىٰ: ﴿ ... وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾ [الأنفال: ٤٦]. لذا فإن الدعوة إلىٰ

وحدة الصف وتآلف القلوب علىٰ الإسلام من أهم الواجبات والأولويات في هذه المرحلة.؛وذلك لتأثيرها سلباً وإيجاباً علىٰ الدعوة والتربية. وكذلك لما في التآلف من أثر في طهارة القلوب وسلامتها من الأمراض التي يجب أن تكون خالية منها، وخاصة في مثل هذه المرحلة، كأمراض الحسد والشحناء والأهواء.. .إلخ.

هـ- شحذ الهمم والعزائم للإنفاق في سبيل الله عز وجل ودعم مجالات الدعوة والتضحية في سبيل الله عز وجل بكل نفيس خاصة في هذه المرحلة حيث الاستضعاف وقلة ذات اليد وقلة الموارد الاقتصادية.

٣- الصفح والصبر علىٰ الأذىٰ وكف اليد:

وهذا من أهم ملامح الدعوة في فترات الاستضعاف والذي يتضح من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوة أقوامهم في تلك المرحلة مع الصبر والاستعانة بالله عز وجل علىٰ كل وسائل الأذىٰ والصد والاستفزاز الذي يقوم به أهل الباطل وأعداء الدعوة.

- فهؤلاء أنبياء الله نوح وهود وصالح والذين من بعدهم عليهم السلام عندما هددهم أقوامهم بالقتل أو الإخراج من الأرض قابلوهم بالصبر والاستعانة بالله عز وجل، قال تعالىٰ عنهم أنهم قالوا: ﴿ **وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)** ﴾ [إبراهيم: ١٢]

- وهذا شعيب عليه السلام لما هدده قومه بالإخراج أو الرجوع في

ملتهم قال: ﴿ ... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف: ٨٩].

– وهذا موسىٰ عليه السلام لما هدد فرعون قومه بقتل الأبناء واستحياء النساء قال لقومه فيما يخبر الله عز وجل: ﴿ ... اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) ﴾.

[الأعراف: ١٢٨]

وهذا خاتم النبيين محمد ﷺ أمره ربه والمسلمين معه في مكة بكف اليد والصبر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ...﴾ [النساء: ٧٧].

حيث لم يؤذن لهم في القتال واعتماد المواجهة المسلحة، بل أمروا بالصفح والصبر والاستعانة بالله عز وجل، ولم يؤذن لهم في القتال إلا بعد الهجرة إلىٰ المدينة حيث توفر المكان الذي تأوي إليه الدعوة وتحتمي فيه، وحيث قويت شوكة المسلمين وكثر عددهم؛ وذلك كما مر بنا في سرد ابن القيم رحمه الله تعالىٰ لمراحل الدعوة والجهاد التي مر فيها الرسول ﷺ.

وقد كان النبي ﷺ يطوف بالكعبة المشرفة وبداخلها الأصنام وشعارات الشرك ولم يغير شيئاً منها. وكان يمر علىٰ أصحابه وهم يُعذبون أمام عينيه كآل ياسر وغيرهم فلا يملك إلا أن يقول: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»(١). مع أنه ﷺ أكثر الناس غيرة علىٰ محارم الله عز وجل وحرمات المسلمين.

---

(١) الحاكم (٣/٣٨٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٩٤) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

واستعمال السلاح في تلك المواقف له عواقب سيئة علىٰ الدين وأهله، وهو من باب تغيير المنكر بمنكر أكبر منه، وهذا يتعارض مع قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد والتي هي من القواعد العظيمة المعتبرة في كثير من المواقف والأحكام. فمراعاة هذه القاعدة في ضوء إمكانات الدعوة وقدراتها، وما يقابل ذلك من قوة الأعداء وقدراتهم، أمر واجب يؤيده الشرع والعقل. بل هو الذي يتفق مع السنن الربانية في الدعوة والجهاد، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: (وهذا باب التعارض باب واسع جداً، ولا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة، فإذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم؛ فأقوام قد ينظرون إلىٰ الحسنات فيرجحون هذا الجانب، وإن تضمن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون إلىٰ السيئات فيرجحون الجانب الآخر، وإن ترك حسنات عظيمة، والمتوسطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة، أو يتبين لهم فلا يجدون من يعنيهم العمل بالحسنات وترك السيئات لكون الأهواء قارنت الآراء، ولهذا جاء في الحديث: «**إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**»[1]) أهـ[2].

---

(١) في تخريج أحاديث الإحياء (٣٨٥٨): قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين، وفيه حفص بن عمر العدني: ضعفه الجمهور.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ٢٠/٥٧، ٥٨.

ويقول أيضاً: (فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقُدِّم أوكدهما، لم يكن الآخر في هذه الحال واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة. وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنىٰ في هذه الحال محرماً في الحقيقة، وإن سمي ذلك ترك واجب، وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر)[1] أ هـ.

وقد ذكر سيد قطب رحمه الله تعالىٰ بعض الحِكَم من كف اليد في مكة والتي لم يجزم بها وإنما ذكرها علىٰ وجه الاحتمال فقال بأنها: (ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد ، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة. ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات، تربية نفس الفرد العربي علىٰ الصبر علىٰ ما لا يصبر عليه عادة من الضيم علىٰ شخصه أو علىٰ من يلوذون به؛ ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته. وتربيته كذلك علىٰ ضبط أعصابه فلايندفع لأول مؤثر – كما هي طبيعته – ولا يهتاج لأول مهيج، وليتم الاعتدال في طبيعته وحركته. وتربيته علىٰ أن يتبع مجتمعاً منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره به – مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعاداته – وقد كان هذا هو حجرالأساس في إعداد شخصية العربي، لإنشاء (المجتمع المسلم) الخاضع لقيادة موجهة، المترقي المتحضر،

(١) مجموع الفتاوىٰ ٢٠ /٥٧.

غير الهمجي أو القبلي!

● وربما كان ذلك أيضاً، لأن الدعوة السلمية كانت أشد أثراً وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف؛ والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه المرحلة - إلىٰ زيادة العناد وإلىٰ نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التي أثارت حرب داحس والغبراء وحرب البسوس، أعواماً طويلة تفانت فيها قبائل برمتها. وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام. فلا تهدأ بعد ذلك أبداً. ويتحول الإسلام من دعوة إلىٰ ثارات وذحول تنسىٰ معها وجهته الأساسية وهو في مبدئه، فلا تذكر أبداً!

● وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم ويؤذونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص بل من قادته... ألم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من بين هؤلاء؟

● وربما كان ذلك، أيضاً لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلىٰ بقية الجزيرة، أو بلغت أخبارها متناثرة حيث كانت القبائل تقف علىٰ الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، حتىٰ ترىٰ ماذا يكون مصير الموقف. ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة، إلىٰ قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتىٰ ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقىٰ الشرك وتنمحي الجماعة المسلمة ولم يقم في الأرض للإسلام نظام، ولا وجد له كيان واقعي.. وهو دين جاء

ليكون منهاج حياة، وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة)أهـ[١].

ويبقىٰ سبب آخر يدعو إلىٰ الصبر وكف اليد يخص الدعوة في هذا الزمان، ألا وهو التضليل والنفاق الذي يتعرض له أكثر المسلمين اليوم في أكثر البلدان من وسائل الإعلام المختلفة، والتي تشوه صورالدعاة في أذهان الناس وأنهم إرهابيون ومخربون وفي الوقت نفسه تحسن لهم صورةالأنظمة الظالمة وأنها تحب الإسلام وتحميه. وفي هذه الحال تختلط الأوراق، وقد ينخدع بعض المسلمين بهذه الدعايات فينحازوا إلىٰ الظلمة، فلو حصل إطلاق اليد والحالة هذه لنجم من ذلك فساد وفتنة عظيمة بين المسلمين لعدم حصول التمايز وإقامة الحجة.

تنبيهان:

الأول: إن القول بالصفح والصبر في الدعوة وكف اليد لا يعني أبداً ترك الجهر بالدعوة إلىٰ التوحيد، وتبصير الناس بدينهم وتصحيح مفاهيمهم، وتوعيتهم بكيد أعدائهم. كما أنه لا يعني بحال ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للناس بتحذيرهم من الفساد وعواقبه وتعرية الباطل لهم. وإنما المقصود تجنب أي شكل من أشكال المواجهة بالقوة مع الباطل وأهله للأسباب المذكورة سابقاً. وما سوىٰ ذلك يجب أن يبقىٰ علىٰ أشده في الدعوة والبلاغ والتربية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الضوابط الشرعية وحسب الاستطاعة، وقدر ما يُملك من

(١) في ظلال القرآن ٣ /١٤٣٨ – ١٤٣٩ باختصار.

فعل الأسباب وأن توطن النفوس علىٰ تحمل الأذىٰ والابتلاءات التي تترتب علىٰ دعوة الناس وتبليغهم دينهم، حتىٰ إذا جاءت العقبات من الباطل وأنصاره فإذا العزائم قوية تتحمل الأذىٰ وتثبت ولا تضعف وتتضعضع أمام تهويش الباطل وتخويفه أو أمام ترغيبه ومساوماته. ثم إنه ينبغي أن لا ننسىٰ واقع المجتمعات في هذا العصر وما تفترق به عن الواقع الذي بدأت فيه دعوة الأنبياء حيث إن الدعوة تملك في هذا العصر رصيداً من الخير في قلوب الناس ورصيداً من التجربة ورصيداً من الدعاة وطلبة العلم والعلماء، كل ذلك من شأنه أن يساعد علىٰ انطلاقة الدعوة وقبول الناس لها أكثر مما كان في العصور التي بدأ فيها الأنبياء دعوتهم حيث الجاهلية المطلقة والغربة المستحكمة. وهذا يحتم المسؤولية ويثقل الأمانة، نسأله سبحانه العون والتوفيق السداد.

وإن مما يؤسف له أشد الأسف ما نراه ونسمعه في زماننا اليوم ممن يرفع في وجه كل مصلح يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ويحذر أمته من مغبة الفساد في الدنيا والآخرة بأنه داعية فتنة وخروج علىٰ الأمة. فبالله أين الفتنة في من يشفق علىٰ أمته من عذاب الله عز وجل في الدنيا والآخرة ويحذرها من أسباب عقوبته سبحانه. إن الفتنة بحق تكمن في هذا الخلط والتلبيس والذي نتيجته استمراء الفساد وتثبيط الآمرين بالخير والناهين عن الشر. وهذا شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ بعد أن ذكر المفاسد التي تنجم عن الخروج علىٰ الأمة بالسيف وما في ذلك من الشرور والفتن العظيمة عقب بقوله: (ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السُنَّة والشريعة، والنهي عن البدعة والضلالة بحسب

الإمكان: كما دَلَّ علىٰ وجوب ذلك الكتابُ والسنةُ وإجماع الأمة.

وكثيرٌ من الناسِ قد يرىٰ تعارض الشريعة في ذلك؛ فيرىٰ أن الأمر والنهي لا يقوم إلا بفتنة، فإما أن يؤمر بهما جميعاً أو يُنهىٰ عنهما جميعاً. وليس كذلك، بل يؤمر وينهىٰ ويصبر عن الفتنة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ ... وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ... ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في عُسْرنا ويُسْرنا ومَنْشطِنا ومكرهنا وأثَرة علينا، وألاَّ ننازع الأمر أهلَه، وأن نقوم - أو نقول - بالحق حيث ما كُنَّا، لا نخافُ في الله لَوْمَة لائم)[١]، فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهله وأمرهم بالقيام بالحق. ولأجل ما يُظن من تعارض هذين تعرض الحيرة في ذلك لطوائف من الناس. والحائر الذي لا يدري - لعدم ظهور الحق، وتميز المفعول من المتروك - ما يفعل؛ إما لخفاء الحق عليه، أو لخفاء ما يناسب هواه عليه)أهـ[٢].

الثاني: كما أن القول بالصبر والصفح وكف اليد لا يعني أبداً الركون إلىٰ الدعة والإحباط والاستسلام للأمر الواقع بل يجب إعداد النفوس والأمة بأسرها للجهاد في سبيل الله عز وجل وتقوية العزائم وشحذ الهمم، والأخذ بجميع الأسباب المشروعة ولاستكمال جانب القدرة الإيمانية والمادية حتىٰ يأذن الله عز وجل بنصره في الوقت الذي يعلم فيه سبحانه أن عباده المؤمنين قد بذلوا ما في وسعهم من البناء والإعداد والأخذ بالأسباب.

---

(١) البخاري (٧٠٥٦) في كتاب الفتن، مسلم (١٧٠٩) كتاب الإمارة بنحوه.
(٢) الاستقامة ١/٤١، ٤٢.

وقد يقول قائل: إذا كان المأمور به في هذا الزمن هو الصفح والصبر وكف اليد والتركيز علىٰ الدعوة ونشرها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر فماذا يعني الجهاد الأفغاني والجهاد في البوسنة وكشمير وغيرها؟

والجواب علىٰ ذلك: أن الجهاد في بلاد الأفغان والبوسنة وغيرها جهاد مشروع ومطلوب لأن أغلب شروط الجهاد في تلك البلدان قد توفرت وأهمها: وضوح العدو الكافر لكل مسلم فهو في بلاد الأفغان شيوعي ملحد لا يختلف أحد من المسلمين في كفره وإلحاده، وهو في بلاد البوسنة نصراني حاقد. إذن فالراية متميزة والحجة قائمة والمسلمون مجمعون علىٰ وجوب مساعدة هؤلاء المجاهدين ضد أعدائهم الملحدين. كما أن شروط القدرة المادية للمسلمين في جهادهم لهؤلاء الكفرة قد توفرت في أغلبها، وتهيأت لهم المساعدات من إخوانهم المسلمين الغيورين، كما أن المكان الذي يأوي إليه المجاهدون ويحتمون به وينطلقون منه قد تهيأ لهم في تلك البلدان.

إذن، فعندما نتحدث عن وجوب الصفح والصبر وكف اليد فإنما يكون ذلك حين لا توجد القدرة، وحين تكثر الفُرقة ولا توجد الصفوف الموحدة، وحين لا يوجد التمايز الذي يظهر فيه الكفر وأهله ويظهر فيه المسلمون ويعرفون، وبدون ذلك يكون البغي والفتنة والفساد. وهذا معنىٰ كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ حين يقول: (والله سبحانه وصف الأئمة بالصبر واليقين، فقال: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** (٢٤) ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال: ﴿ ... وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر: ٣].

وذلك أن المظلوم، وإن كان مأذوناً له في دفع الظلم عنه بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ ﴾ [الشورىٰ: ٤١] فذلك مشروط بشرطين:

أحدهما: القدرة علىٰ ذلك.

الثاني: ألا يَعْتدي.

فإذا كان عاجزاً، أوكان الانتصار يفضي إلىٰ عدوان زائد لم يجز. وهذا هو أصل النهي عن الفتنة)أهـ[1].

خلاصة القول: إن الأمر بالصبر وكف اليد مبني علىٰ قاعدة تعارض المصالح والمفاسد؛ فهو إذن مسألة اجتهادية تتعلق بظروف المكان والواقع الذي تكون فيه الدعوة والدعاة من حيث قوتهم وضعفهم، ومن حيث وضوحهم ووضوح ما يدعون إليه ومن حيث وضوح راية الكفر من عدمها، ومن حيث القدرة الإيمانية والأخذ بالأسباب الممكنة. ومن حيث اجتماع القلوب ووحدة الصف وسلامة القلوب من كبائر الذنوب. والناظر اليوم لأول وهلة في أحوال العالم الإسلامي يرىٰ - والعلم عند الله - عدم تحقق هذه الأمور، فصار المتعين حينئذ الصبر وكف اليد مع التركيز علىٰ الدعوة والأمر والنهي والأخذ بأسباب النصر الذي وعده الله سبحانه عباده المؤمنين.

ويبقىٰ سؤال أخير حول هذه المعالم ألا وهو: إلىٰ متىٰ يستمر الصبر والصفح، ومتىٰ يأتي نصر الله عز جل وكيف؟

---

(١) الاستقامة (١/ ٤٠، ٤١).

والجـواب علىٰ ذلك في علم الله عـز وجل؛ فـالدين دينـه، والدعـوة دعوته، والأمر له من قبل ومن بعد، ونحن عبيده لا نـدري متىٰ يحصل النصر والتمكين، ولا ندري الكيفيـة التي يأتي بها. وإنما كل الذي ندريه من تأملنا في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونصر الله عز وجل لهم هو أن الله سبحانه وتعالىٰ ينزل نصره علىٰ عباده المؤمنين بعد أن يعلم سبحانه أن دعاته وأنصار دينه قد حققوا الإيمان وبذلوا ما في وسعهم من الدعوة والبلاغ وصبروا علىٰ ابتلاءات الطريق وثبتوا، وفعلوا كل ما يستطيعونه من الأسباب المأذون بها والمتاحة لهم، وأن الحجة قامت علىٰ الناس بدعوتهم، وتميز الناس إلىٰ فسطاطين فسطاط فيه حزب الله تعالىٰ وفسطاط فيه حزب الشيطان، وصارالولاء والبراء علىٰ أساس الإسلام. عندئذ يأتي نصر الله عز جل، ويفتح الله بين عباده المؤمنين وعباده الكافرين وهوخير الفاتحين. أما الكيفية التي ينزل بها نصر الله عز وجل فهذا أيضاً لا نحيط به علماً، فللّه جنود السماوات والأرض، وهو قادر سبحانه أن ينصر عباده بما يشاء. فهذا نوح نصر بالطوفان، ونصر هود بالريح، وصالح بالصاعقة، وحبست الشمس ليوشع بن نون حتىٰ فتح بيت المقدس كما جاء في قوله ﷺ : «**إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلىٰ بيت المقدس**»[1]. ونصر الرسول ﷺ بالريح في قوله: «**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**»[2]، كما نصره الله عز وجل بالملائكة وبأصحابه

(١) أحمد ٢/ ٣٢٥ (٨٢٩٨).

(٢) البخاري في مواضع منها: كتاب الاستسقاء (١٠٣٥)، ومسلم في الاستسقاء (٩٠٠).

=

جاء بعد الأخذ بالأسباب وإعداد النفوس للتضحية والجهاد في سبيل الله.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ معلقاً علىٰ نجاة نوح ومن آمن معه من الطوفان: (إنه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلىٰ إفراد الله سبحانه بالعبادة. كما أنه لا ينبغي له أن يقيس قوته الذاتية إلىٰ قوىٰ الجاهلية فيظن الله تاركه لهذه القوىٰ وهو عبده الذي يستنصر به حين يغلب فيدعوه: ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠)** ﴾ [القمر: ١٠].

إن القوىٰ في حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة.. إن الجاهلية تملك قواها.. ولكن الداعي إلىٰ الله يستند إلىٰ قوة الله. والله يملك أن يسخر له بعض القوىٰ الكونية – حينما يشاء وكيفما يشاء – وأيسر هذه القوىٰ يدمر علىٰ الجاهلية من حيث لا تحتسب!

وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله.. ولقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً قبل أن يأتي الأجل الذي قدره الله. ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة إلا اثني عشر مسلماً.. ولكن هذه الحفنة من البشر كانت في ميزان الله تساوي تسخير تلك القوىٰ الهائلة والتدمير علىٰ البشرية الضالة جميعاً، وتوريث الأرض لتلك الحفنة الطيبة تعمرها من جديد وتستخلف فيها..

إن عصر الخوارق لم يمض! فالخوارق تتم في كل لحظة – وفق مشيئة الله الطليقة – ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطاً أخرىٰ تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها. وقد تدق بعض الخوارق علىٰ بعض العقول فلا تدركها؛

ولكن الموصولين بالله يرون قوته دائماً ويلابسون آثارها المبدعة.

والذين يسلكون السبيل إلىٰ الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملاً، بكل ما في طاقتهم من جهد؛ ثم يدَعوا الأمور لله في طمأنينة وثقة. وعندما يُغلبون عليهم أن يلجأوا إلىٰ الناصر المعين وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح نوح: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ .. ثم ينتظروا فرج الله القريب. وانتظار الفرج من الله عبادة؛ فهم علىٰ هذا الانتظار مأجورون)أهـ[1].

* * *

(١) في ظلال القرآن (٤ / ١٨٩٣) (بتصرف يسير).

المعْلَم السادس

مراعاة السنن الربانية في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إنه لمن الواجب علىٰ الدعاة إلىٰ الله عز وجل أن يقفوا عند تلك السنن الربانية المسْتوحاة من دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وذلك لأن في معرفتها والسير علىٰ هداها أخذ بأسباب النصر والتمكين والفلاح، ونجاة مما وقع فيه الغير من تخبط وشقاء، وفي الغفلة عنها تفريط في الأخذ بأسباب النجاة، وإعراض عن هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلىٰ الله عز جل، الذين هم أعرف الناس بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته؛ وبالتالي فهم أعرف بسننه سبحانه وعاداته وأيامه وهم ألزم الناس لها وللسير علىٰ ضوئها.

ويحسن قبل التعرض لبعض هذه السنن أن نلم إلمامة سريعة بالسنن الربانية من حيث تعريفها ودلالتها ووقت ظهورها.

قال الله تعالىٰ: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** (١٣٧) ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال عز وجل: ﴿ ... **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** (٤٣) ﴾ [فاطر: ٤٣].

يقول الدكتور محمد السلمي حفظه الله: (والتاريخ بما يحتوي من الحوادث المتشابهة والمواقف المتماثلة يساعد علىٰ كشف هذه السنن التي

هي غاية في الدقة والعدل والثبات. وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائد عظيمة حتىٰ لو لم نقدرعلىٰ تفادي حدوثها والنجاة منها؛ حيث يعطينا هذا الإدراك والمعرفة صلابة في الموقف، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث؛ فإن الذي يعلم تكون لديه بصيرة وطمأنينة، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحيرة والخوف والقلق)أهـ[١].

ويعرف الإمام ابن تيمة رحمه الله تعالىٰ السنة ودلالتها فيقول: (والسنة: هي العادة في الأشياء المتماثلة، (وسُنَّة) هنا تجري علىٰ ‹سَنَه› هذا في الاشتقاق الأكبر. و ‹السنن› و ‹أسنان المشط› ونحو ذلك بلفظ ‹السنة› يدل علىٰ التماثل، فإنه سبحانه وتعالىٰ إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينقض ولا يتبدل ولا يتحول، بل هو سبحانه لا يفوِّت بين المتماثلين، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل. كما أن من سننه التفريق بين المختلفين كما دل علىٰ ذلك القرآن، قال الله تعالىٰ: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ** (٣٥) ﴾ [القلم: ٣٥] ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن وهي كثيرة)أهـ[١].

أما عن وقت ظهورها وتحققها فهو إلىٰ الله عز وجل الذي جعل لكل أجل كتاباً بعلمه وحكمته البالغة. وقد يبدو للناس أن أسباب تحقق سنة الله عز وجل قد انعقدت ومع ذلك لم يأذن الله عز وجل بظهورها عن علم

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي: ص ٦٠.

(٢) جامع الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام (١/ ٥٥).

وحكمة، فسبحان من له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج: ٤٧]وقال عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٦].

قال سيد قطب رحمه الله عند تفسير هذه الآية: (هناك حقيقة ينساها البشر حين يمكّن الله لهم في الأرض. ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ليبلوهم فيه؛ أيقومون عليه بعهد الله وشرطه، من العبودية له وحده، والتلقي منه وحده، أم يجعلون من أنفسهم طواغيت تدّعي حقوق الإلهية وخصائصها، إنها حقيقة ينساها البشر فينحرفون عن عهد الله ويمضون علىٰ غير سنة الله. ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف.. ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون حتىٰ يستوفي الكتاب أجله ويحق وعد الله. ثم تختلف أشكال الأخذ والنهاية، فمرة يأخذهم بعذاب الاستئصال، بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام.. ومرة بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث لأقوام آخرين، ومرة يذيق بعضهم بأس بعض، فيعذب بعضها بعضاً ويدمر بعضهم بعضاً. ويسلط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاة – يخضدون شوكتهم. ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.

وهكذا تمضي دورة السنة؛ فالسعيد من وعاها، والشقي من غفل

عنها، وإنه لَـمـَّا يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي أو الملحد الكافر ممكناً له في الأرض غير مأخوذ من الله، ولكن الناس إنما يستعجلون، إنهم يرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق؛ لأن السنة تستغرق وقتاً طويلاً لكنها تلاحظ من خلال التاريخ)أهـ(١).

ويقول الدكتور السلمي حفظه الله: (والسنة الربانية قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي ترىٰ متحققة في حين أن عمر الفرد محدود؛ ولذلك فلا يمكنه رؤية السنة متحققة، بل قد يرىٰ الإنسان جانباً من السنة الربانية ثم لا تتحقق نهايتها في حياته مما قد يدفعه إلىٰ عدم إدراك السنة أو التكذيب بها، وهنا يكون دور التاريخ في معرفة أن السنة الربانية لابد أن تقع ولكن لَمَّا كان عمرها أطول من عمر الفرد – بل ربما أطول من أعمار أجيال – فإنها ترىٰ متحققة من خلال التاريخ الذي يثبت أن سنة الله ثابتة لا تتبدل كما قال تعالىٰ: ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** (٦٢) ﴾ [الأحزاب: ٦٢])أهـ(٢).

وبعد هذه المقدمة التي لابد منها عن السنة الربانية، نأتي الآن للتعرف علىٰ بعض هذه السنن الثابتة من خلال دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومنها ما يلي:

١ – العاقبة للمتقين والهلاك للمكذبين المعاندين:

والشواهد من الأدلة والوقائع علىٰ هذه السنة كثيرة جداً، فمن ذلك

(١) في ظلال القرآن ٢ / ١٣٠٧ – ١٣٠٨.

(٢) منهج دراسة التاريخ الإسلامي ص ٦١.

قوله تعالىٰ عقب قصة نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)** ﴾ [هود: ٤٩].

وقوله تعالىٰ عن وصية موسىٰ عليه الصلاة والسلام لقومه بعد أن هددهم فرعون بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم: ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)** ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقوله تعالىٰ عن هود عليه الصلاة والسلام مع قومه: ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)** ﴾.
[الأعراف: ٧٢]

وقال عن نبيه صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧)** ﴾
[هود: ٦٦، ٦٧]

وقوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)** ﴾.
[الروم: ٤٧]

وما جرىٰ من تحقق هذه السنة في الماضي سيجري مثله إن شاء الله تعالىٰ في الحاضر والمستقبل إذا تحققت أسبابها من ظهور المتقين الذين

يستحقون نصر الله عز وجل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: (فإن كان قد نصر المؤمنين لأنهم مؤمنون، كان هذا موجباً لنصرهم حيث وجد هذا الوصف، بخلاف ما إذا عصوا ونقضوا إيمانهم كيوم أحد فإن الذنب كان لهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ ... **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** (٦٢) ﴾[الأحزاب: ٦٢]، [الفتح: ٢٣] فعم كل سنة له..) أهـ[١].

٢ـ إن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم.

تعتبر هذه السنة من السنن الخالدة التي يتحمل البشر في ضوئها مسؤوليتهم فيما يقع لهم من خير أو شر؛ لأن الله عز وجل قد منح الإنسان قدراً من الحرية والاختيار، وشرح له أسباب النجاة وأسباب الهلاك، وأنزل عليه الكتب، وأرسل إليه الرسل. منه يبدأ التغيير: سواء إلىٰ الشر أو إلىٰ الخير. فإن كان الناس في شر وبلاء فإن الله عز وجل لا يزيل هذا الشر عنهم إلا بأن يأخذوا بأسباب النجاة فيغيروا ما بأنفسهم بطاعة الله عز وجل وترك معاصيه التي هي أصل الشر والمصائب. وعلىٰ العكس من ذلك: لو كان الناس في خير ونعمة ورخاء فإن حرمانهم من هذا الخير وحصول الشر لهم بعده إنما يأتي من أنفسهم حين يفرطون في طاعة الله ولا يشكرونه قال تعالىٰ: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** (١١٢) ﴾ [النحل: ١١٢].

(١) جامع الرسائل والمسائل ١/ ٥٤.

وإنه لجدير بالدعاة إلىٰ الله عز وجل في هذا الزمان وفي كل زمان أن يقفوا طويلاً عند هذه السنة؛ فهي الأساس المهم والمنهج الصحيح للدعوة والتغيير، بل هي أم السنن الربانية في البناء والتغيير.

٣- الابتلاء سنة جارية للمؤمنين.

وهذه السنة من الوضوح بحيث لاتحتاج إلىٰ تعليق، حيث تواردت بها الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة، وحيث الوقائع والتجارب في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم تشهد بذلك. ويكفي قوله تعالىٰ: ﴿ **الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)** ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)** ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي علىٰ حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض ما عليه خطيئة»**[١].

---

(١) الترمذي: (٢٤٠٠) في كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر علىٰ البلاء. وقال: حسن صحيح وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠٣).

وحكمة هذا الابتلاء عظيمة وفوائده في التربية والتمحيص وتمييز الصفوف معروفة، وعلىٰ هذا ينبغي أن توطن النفوس علىٰ هذه السنة مع سؤال الله عز وجل العافية والثبات[١].

كما يدخل تحت هذه السنة سنة المداولة بين الناس من الشدة إلىٰ الرخاء ومن الرخاء إلىٰ الشدة ومن إدالة الكفار علىٰ المسلمين للتمحيص والابتلاء.

قال تعالىٰ: ﴿ ... **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ** ... ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

٤- انهيار الأمم الظالمة وزوالها يكون بأجل:

يقول الدكتور السلمي عن هذه السنة: (قد يرىٰ الناس موجبات العذاب والانهيار قد حلت بأمة من الأمم ثم لا يرون زوالها بأنفسهم. وقد أوضحنا في أول الكلام عن السنن أن سنة الله لا تتخلف. لكن عمرها أطول من عمر الأفراد ولا تقع إلا بأجل محدد لا بد من استيفائه قال تعالىٰ: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)** ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ **وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥)** ﴾ [الحجر: ٤، ٥]. وقال تعالىٰ: ﴿ **وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩)** ﴾ [الكهف: ٥٩])أهـ[٢].

---

(١) انظر للمزيد حول هذه السنة (المعلم الرابع) ص ١٦١.

(٢) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص ٦٦.

٥- سنة التدافع وسنة الصراع بين الحق والباطل:

وهذه السنة أيضاً من أهم السنن الربانية التي يجب الوقوف عندها وعدم نسيانها أو الغفلة عنها. والمتأمل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم يلمس هذه السنة بوضوح وجلاء؛ قال الله تعالىٰ بعد أن انتصر المسلمون بقيادة طالوت وقتل داود جالوت (الكافر): ﴿ **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)** ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال تعالىٰ بعد إذنه سبحانه للمؤمنين بالقتال: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)** ﴾.
[الحج: ٣٩، ٤٠]

والصراع والمدافعة بين الحق والباطل وجد منذ أن أهبط آدم عليه الصلاة والسلام علىٰ هذه الأرض ومعه إبليس - الملعون - أعاذنا الله منه. واقتضت حكمة الله عز وجل أن يستمر هذا الصراع إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها بين حزب الله عز وجل وحزب الشيطان. وليس بالضرورة أن تكون المدافعة أو أن يكون الصراع بالقتال والسلاح. بل إنه يكون بغير ذلك، وما القتال إلا مرحلة من مراحل هذا الصراع. فإقامة الحجة علىٰ الباطل وأهله مدافعة، وإزالة الشبه عن الحق وأهله مدافعة، والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر مدافعة، والصبر علىٰ ابتلاء الأعداء من الكفرة والظلمة مدافعة وصراع. ويأتي الجهاد والقتال في سبيل الله عز وجل علىٰ رأس وذروة هذه المدافعة والصراع فيقذف الله بالحق علىٰ الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. ومادام هناك حق وباطل فالصراع موجود والمدافعة حتمية. وهذا الصراع لصالح البشرية وخيرها ولو كان فيه من العناء والشدة والمكاره؛ فإن هذه المشقات كلها تهون وتصغر عند المفاسد العظيمة التي تنشأ فيما لو لم يكن هناك دفع للفساد وصراع مع الباطل. كما مر بنا في قوله تعالىٰ: ﴿ ... **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ... ﴾ [البقرة: ٢٥١] وهذا يفرض علىٰ أهل الحق السير علىٰ هذه السنة، وبذل الجهد الجهيد في مدافعة الباطل وأهله، وإحقاق الحق وتمكين أهله، ورد البشرية الشاردة إلىٰ عبودية الله عز وجل وتوحيده، وإنقاذها من الشرك ومفاسده، وهذا هو التدافع الذي يعنيه القرآن وقام به أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام. إنه الصراع الذي يزيل الفتنة بكل أشكالها، ويحرر البشر من عبادة غير الله عز وجل، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النور. قال تعالىٰ: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)** ﴾ [النساء: ٧٦].

إن الذين يطمعون في الإصلاح ودرء الفساد عن الأمة بدون هذه السنة – أعني سنة المدافعة مع الباطل وأهل الفساد – إنهم يتنكبون منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله عز وجل الذي ارتضاه واختاره لهم. وإن الذين يؤثرون السلامة والخوف من عناء المدافعة مع الفساد وأهله. إنهم بهذا التصرف لا

يسلمون من العناء والمشقة - بل إنهم كما مر بنا سابقاً - يقعون في مشقة أعظم وعناء أكبر يقاسونه في دينهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم. وهذه هي ضريبة السكوت وفساد التصور وإيثار الحياة الدنيا؛ لأن الباطل والفساد لا يقبل في الأصل وجود الحق وأهله المصلحين ولا يطيق وجودهم معه ولو كانوا معتزلين له. فهو يفرض المعركة[١] والصراع عليهم فرضاً، ولا يقبل منهم إلا الدخول معه في باطله - عياذاً بالله تعالىٰ - أو الخروج من أرضه وعدم معايشته. كما قص علينا ربنا عز وجل قصة شعيب عليه الصلاة والسلام مع قومه وصراعه معهم. قال الله تعالىٰ عن شعيب عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ **وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)** ﴾.

[الأعراف: ٧٨ - ٨٩]

وحول المعاني المطروحة سابقاً وفي ضوء هذه الآيات الكريمات يتحدث

---

(١) عندما يطلق لفظ (الصراع) أو (المعركة) مع الباطل وأهله فلا يعني بالضرورة صراع القتال والصدام، بل إنه يعني أول ما يعني الثبات علىٰ الحق والصدع به والصبر علىٰ أذىٰ الباطل وأهله فيه حتىٰ يحكم الله عز وجل. والناظر في صراع الأنبياء مع أقوامهم يجده من هذا القبيل في الغالب، وخاصة في مراحل الاستضعاف وعدم القدرة.

سيد قطب رحمه الله تعالىٰ فيقول: (لقددعاهم إلىٰ أعدل خطة. ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة.. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذىٰ، وترك كلٌ وما اعتنق من دين، حتىٰ يحكم الله وهو خير الحاكمين.

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت.. إن وجود جماعة مسلمة في الأرض لا تدين إلا لله ولاتعترف بسلطان إلا سلطانه، ولا تحكم في حياتها شرعاً إلا شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجاً إلا منهجه.. إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت - حتىٰ لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده.

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً علىٰ الجماعة المسلمة - حتىٰ لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة - إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل. وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل.. إنها سنة الله لا بد أن تجري..

﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ...** ﴾ [الأعراف: ٨٨].

هكذا في تبجح سافر، وفي إصرار علىٰ المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش!

إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد.. لقد

وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة.. نقطة المسالمة والتعايش – علىٰ أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء؛ وأن يدين للسلطان الذي يشاء: في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين – وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة، تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت..وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه.. فلما أن تلقىٰ الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم، صدع شعيب بالحق، مستمسكاً بملته، كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها، واتجه إلىٰ ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله:

﴿ ... قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩].

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلىٰ طبيعة الإيمان ومذاقه في نفوس أهله، كما تتجلىٰ طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه. كذلك نشهد في قلب الرسول ذلك المشهد الرائع.. مشهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تتجلىٰ فيه.

﴿ قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾

يستنكر تلك القولة الفاجرة: **﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا**

مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾...

يقول لهم: أتجبروننا علىٰ ما نكره من ملتكم التي نجانا الله منها؟!

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾

إن الذي يعود إلىٰ ملة الطاغوت والجاهلية، التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده، والتي يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله.. إن الذي يعود إلىٰ هذه الملة – بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق، وهداه إلىٰ الحق وأنقذه من العبودية للعبيد – إنما يؤدي شهادة كاذبة علىٰ الله ودينه. شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها وعاد إلىٰ ملة الطاغوت! أو مؤداها – علىٰ الأقل – أن لملة الطاغوت حقاً في الوجود، وشرعية في السلطان؛ وأن وجودها لا يتنافىٰ مع الإيمان بالله. فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله.. وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدىٰ، ولم يرفع راية الإسلام. شهادة الاعتراف براية الطغيان. ولا طغيان وراء الاعتداء علىٰ سلطان الله في الحياة!

وكذلك يستنكر شعيب عليه السلام ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلىٰ الملة التي أنجاهم الله منها:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾

وما من شأننا أصلاً؛ وما ينبغي لنا قطعاً أن نعود فيها.. يقولها وأمامه التهديد الذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة التي تعلن

خروجها عن سلطانه، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه.

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده - مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! - إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته. فهذه ‹الإنسانية› لا توجد، والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟!.. وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ورضاه أو غضبه عليه؟!.. وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟!

على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة.. إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس - في حكم الطواغيت - أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات. فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها، فيذبحهم على مذبح هواه، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه! ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية.. حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت، سواء في صورة الغصب المباشر - كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ - أو في صورة تنشئتهن على

تصورات ومفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار! وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار.. والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله. إنما يعيش في وهم، أو يفقد الإحساس بالواقع!)أهـ[١].

* * *

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٣١٨، ١٣١٩.

الخاتمة

وبعد هذه الجولة السريعة في حياة أكرم البشر، وأحبهم إلىٰ الله تعالىٰ صلىٰ الله وسلم عليهم أجمعين، فإني أسجل اعترافي بالقصور الشديد نحوهم، فما وفيتهم حقهم، ولا قدرتهم حق قدرهم، وأسأل الله عز وجل أن يغفر لي بعدي عن هديهم وحياتهم، وأن يتجاوز عني كل ما زلّ به القلم أو اللسان في هذا البحث نحوهم. كما نسأله جميعاً أن يعيننا علىٰ التأسي بهم، واللحوق بركبهم الكريم، ثم إني لا أدعي أني أحطت بكل هديهم، ومن ذا الذي يقدر علىٰ ذلك؟! وإنما كل الذي ذكرته، إنما هو غيض من فيض، وقطرة من بحر هديهم صلىٰ الله عليهم وسلم. ولكن حسبي إثارة هذا الموضوع المهم والتذكير به، لعل بعض علمائنا الكرام، ودعاتنا الأفاضل أن يكملوا ما نقص في هذه الرسالة ويعدلوا ما اعوجّ منها، أو يضيفوا إليها ما غفل الذهن عنه.

وفي ختام هذا البحث يمكن تلخيص أهم المسائل التي مرت بنا في النقاط التالية:

(١) ضرورة الاهتمام بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ سواءً في صلتهم بالله عز وجل وقوة عبادتهم وكثرة دعائهم وتضرعهم وهضمهم لأنفسهم، أو في قوة توكلهم واستسلامهم لله عز وجل، أو في أخلاقهم وسلوكهم، أو في دعوتهم وتبليغهم لدين الله عز وجل؛ لأن الاهتمام بذلك يورث التأسي بهم، وهذا يفيد في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إن في التأسي بهم والاقتداء بهديهم عصمة في الدنيا من الزلل والتخبط والانحراف؛ وذلك لعصمة منهجهم لأنه وحي من الله عز وجل، مع ما في ذلك من التسلية والتعزي والثبات لمن يواجه ما واجهوا من الأذىٰ والابتلاء.

الأمر الثاني: إن في التأسي بهم ومجاهدة النفوس في اللحوق بهم دليلاً علىٰ محبتهم. وذلك من أعظم الأسباب في الحشر معهم، ومرافقتهم في الجنة، وحسن أولئك رفيقا.

الأمر الثالث: إن في دراسة هذه الحياة المباركة هضماً للنفس واحتقاراً لها؛ وذلك عندما يرىٰ هؤلاء الرسل الكرام وهم صفوة الناس وأحبهم إلىٰ الله عز وجل، وقد ضمنت لهم الجنة، ومع ذلك فهم يهضمون أنفسهم وهم علىٰ هذا المستوىٰ العظيم الرفيع في صلتهم بالله عز وجل وفي توكلهم عليه سبحانه وفي صبرهم.. إلخ. كل هذا يؤدي بدوره إلىٰ قمع مرض العجب والغرور ورؤية النفس.

(٢) لقد برز من خلال هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قوة عبادتهم ودعائهم وكثرة ذكرهم لله عز وجل أهمية هذا الجانب في حياة الداعية المصلح، وأنه لا بد له من هذا الزاد العظيم الذي يقربه إلىٰ الله عز وجل، ويؤنسه في غربته، ويثبته الله به في شدائده وبلائه. وأنه لا عذر لنا في إهمال هذا الرافد العظيم والزاد المتين مهما كانت المشاغل والمطالب. فمن ذا الذي يكون أكثر شغلاً وهماً وعملاً ودعوة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟.

③ كما برز لنا من خلال هديهم عليهم الصلاة والسلام في الأخلاق والسلوك أهمية هذا الجانب في حياة الداعية، وأن ضعف هذا الجانب أو إهماله سبب لقلة البركة وتباطؤ الناس وقلة استجابتهم؛ وذلك لرؤيتهم التناقض بين ما يدعو إليه الداعية وبين أخلاقه وسلوكياته الخاطئة. فحريٌّ بالدعاة في كل مكان أن يولوا هذا الجانب اهتماماً عظيماً في أنفسهم ودعوتهم وتربيتهم.

④ كما برز لنا أيضاً من خلال هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلىٰ الله عز وجل أهمية العقيدة والدعوة إلىٰ التوحيد والموالاة والمعاداة علىٰ أساسها، وبالتالي فإن أي دعوة لم تول هذا الجانب اهتماماً في دعوتها أو أنها لم تجعله أول ما تدعو إليه وتربي الناس عليه؛ فإنها دعوة فاشلة؛ لأنها خالفت منهج الأنبياء وهديهم عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والتبليغ. كما ظهر لنا أهمية التربية الطويلة علىٰ ذلك وبناء القاعدة الصلبة وتربيتهم علىٰ ضوئها ولو طال الطريق والوقت في ذلك.

⑤ كما برز لنا من دراسة هذه الحياة المباركة ذلك الجهد الجهيد والصبر المرير والعمل الدؤوب من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام في هداية الناس وتعبيدهم لرب العالمين والشفقة عليهم من عذاب الله تعالىٰ، وهكذا ينبغي أن يكون شأن الدعاة في كل زمان وخاصة في أزمنة الغربة وكيد الأعداء المتواصل بالليل والنهار؛ فطريق الدعوة طريق الابتلاءات والشدائد. وهذا ما ظهر لنا من معاناة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولكنه محمود العاقبة في الدنيا والآخرة.

⑥ وقد ظهر لنا أيضاً من خلال هذه الدراسة: الضرورة القصوىٰ

لائتلاف الدعاة إلىٰ الله عزجل، وعقد الولاء والبراء بينهم علىٰ أساس الإسلام وعقيدته السامية لا علىٰ عصبيات وحزبيات وأهواء، وأنه بدون ذلك فلا يطمع في نصر الله عز وجل ولا تمكينه؛ لأن اجتماع القلوب وتآلفها علىٰ أساس الإسلام أمر ضروري للتمكين والنصر. ولذا ينبغي العمل المستمر علىٰ تحقيق هذه الفريضة والصبر عليها وعدم الالتفات إلىٰ من يهوِّن من شأنها أو يصرُّ علىٰ هوىً في نفسه يلبسه لبوساً شرعياً يبرر به تبديعه أو تفسيقه لإخوانه الدعاة؛ وبالتالي يبرر به مفارقته لهم وجعله نفسه في صف الظالمين ضدهم.

(٧) كما ظهر لنا من خلال هذه الدراسة خطورة الاستعجال في قطف الثمار قبل أوانها والمفاسد الكبيرة التي تترتب علىٰ الاستعجال ولمّا تستقر بعد العقيدة في نفوس أهلها الداعين لها فضلاً عن عامة الناس. وأن المتعين هو الصبر والصفح، ومواصلة الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل الوسع في ذلك، حتىٰ إذا تهيأ الجو والحال الذي يعلم الله سبحانه فيه استحقاق عباده للنصر فسيأتي الله عز وجل بنصره متىٰ شاء وكيفما شاء وهو العليم الحكيم القوي العزيز.

(٨) كما ظهر لنا قبل ذلك وبعده: أثر الإخلاص لله عز وجل في الدعوة إليه سبحانه وعدم ابتغاء الأجر إلا منه سبحانه وهذا يفرض علىٰ الدعاة الحذر من إرادة الدنيا بدعوتهم، كما يفرض الحذر من مساومات أعداء الدعوة ومكرهم وإغراءاتهم بالمناصب وغيرها ليترك الدعاة ما هم عليه من الحق أو يتنازلوا عنه، أو يحرفوه عن مواضعه ويتأولوه؛ انسياقاً مع شهوة النفس وهواها.

(٩) وأخيراً أتوجه بالنصيحة لنفسي ولكل مسلم، بعامة وكل داعية بخاصة إلى أن نكون من أنصار الله عز وجل وحزبه الكريم، وأن نوقن بأن الصراع والمدافعة بين الحق والباطل من السنن الربانية التي لا تتخلف والتي تظهر اليوم بشكل جلي لا مرية فيه، وإن المسلم بتخلفه عن هذه المدافعة لن يضر إلا نفسه ولن يضر دين الله سبحانه؛ لأن المدافعة ماضية ومستمرة به أو بغيره، ولكن السعيد من فاز بنصيب وافر من نصرة دين الله وحزبه المؤمن، والمخذول من تخاذل أو خذل حزب الله سبحانه، أو وقف موقف المتفرج المتربص.

وبعد

نسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا، كما نسأله سبحانه بحب أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، أن يحشرنا في زمرتهم ويكتب لنا مرافقتهم في جنات النعيم ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** (٦٩) ﴾ [النساء: ٦٩]. وهذا هو جهد المقل الظالم القاصر فما كان فيه من صواب فمن الله سبحانه فهو المانُّ به وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان وأستغفر الله وأتوب إليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ليلة الثلاثاء

٢٩/٢/١٤١٧هـ

الرسالة الثانية عشرة

﴿ ففروا إلى الله ﴾

[الذاريات : ٥٠]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً. **أما بعد:**

فإن الناظر اليوم بعين البصر والبصيرة في واقع الأمة الإسلامية وما حلَّ بها من مصائب وويلات وفتن عظيمة على مستوى الأفراد والمجتمعات ليأخذ به الأسى والتوجع مأخذاً بعيداً، حتى إن اليأس يوشك أن يحيط به لولا عظيم الأمل في وعد الله عز وجل على لسان رسوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)[1].

ومما يُذْهبُ اليأس ويعزي النفوس أيضاً معرفة المسلم لسنن الله – عز وجل – في عباده، وإدراك أن ما أصابنا من المصائب والفتن العظيمة إنما هو من عند أنفسنا وبسبب ذنوبنا وما طرأ على حياتنا من بعد عن الله – عز وجل – ونسيان للآخرة، وانغماس في الملذات، وإقبال على الدنيا، والجري

(١) البخاري ٦ / ٦٣٢ الفتح، مسلم ١٣ / ٦٦ النووي.

وراءها للحصول على شيء من متاعها، الأمر الذي انتشر بسببه كثير من المعاصي والمنكرات والفتن المحيرة التي انجرف فيها الكثير منا؛ فنسينا ما وراءنا من الحياة الأخروية، وغفلنا عن الاستعداد لها. وما دام أن الداء قد عرف والمرض قد شُخِّص فلا يبقى أمام من ينشد النجاة لنفسه ولأمته إلا مباشرة العلاج؛ وذلك بالفرار إلى الله – عز وجل – والإنابة إليه، والاعتصام به سبحانه كما أمر في كتابه العزيز بقوله: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾. [الذاريات: ٥٠].

وهذا الفرار يعني ترك أسباب سخطه إلى أسباب مرضاته، والفرار من موجبات عقوبته إلى معافاته ومنه إليه سبحانه كما جاء ذلك في دعاء سيد المرسلين والمتقين ﷺ حيث قال: (اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)[١].

من أجل ذلك جاءت هذه الرسالة الجديدة من سلسلة الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم لتعالج هذا الموضوع الهام في ضوء قوله تعالى: (**ففروا إلى الله**). وقد وقع الاختيار على هذا الموضوع في هذا الوقت بالذات لأمور منها:

(١) انفتاح الدنيا الشديد، وتغلب الجانب المادي على حياة أكثر الناس، وما ترتب على ذلك من لهث وتكالب على حطامها دون تمييز بين

(١) مسلم في الصلاة (٤٨٦).

حلال وحرام، وطيب وخبيث؛ فحصل التنافس الشديد على متاعها الزائل، وصار الحب والبغض من أجلها، بل والقتال عليها.

وحصلت الغفلة الشديدة عن الآخرة والغاية التي من أجلها خلقنا وتحولت هذه الدنيا الخسيسة الفانية من كونها خادمة ومملوكة إلى أن تكون مالكة مخدومة. لذا فمن واجب النصيحة: التحذيرُ من فتنة الدنيا وغرورها والفرارُ منها إلى الله – عز وجل – والدار الآخرة، وتنبيه الغافلين وحثهم على التوبة والاستعداد للرحيل إلى دار البقاء والحياة السرمدية.

(٢) ظهور المنكرات وانتشار الفساد بشكل ينذر بالخطر والعقوبة إن لم يتدارك الله – عز وجل – عباده ويرحمهم بالرجوع إليه وإحياء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وذلك ببعث الناصرين لدينه والصابرين على ما أصابهم في ذلك ابتغاء رضوان الله – عز وجل – ودفع عقوبته عن الناس بالفرار إليه، والدعوة إلى سبيله.

(٣) ظهور الفتن المتلاطمة في هذا الزمان والتي يرقق بعضها بعضاً، ورؤية المتساقطين فيها ما بين هالك فيها بقلبه أو بلسانه أو بيده حتى أصبح المسلم يخشى على نفسه في أي لحظة أن يزل فيها ويسقط، وصار هجيراه قول (ربِّ سلِّمْ سَلِّمْ) و: ﴿**لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ**﴾.

[هود: ٤٣]

وغدت هذه الفتن من الكثرة بحيث أصبح من يريد لنفسه النجاة لا يدري بأيها يبدأ بالمقاومة، ولا يدري من أيها يفر إلى الله – عز وجل – أمِن فتنة الدنيا وزينتها ومناصبها، أم من الفتنة بالعلم وآفاته ومبطلاته، أم من

فتنة الشرك بأنواعه والبدع والمعاصي التي طمت وعمت، أم من الفتنة العمياء التي تدور رحاها اليوم بين المسلمين؛ حيث دب فينا داء الأمم من الفرقة والشحناء والأهواء والحزبيات الكريهة، حتى صار كل حزب بما لديهم فرحين.

ومما زاد هذه الفتنة عمى وشدة: أنها في صفوف الفرقة الناجية والطائفة المنصورة: طائفة أهل السنة الجماعة، وإن لم يتداركنا الله عز وجل برحمته؛ ثم يسعى المخلصون من أهل السنة في إخماد هذه الفتنة فإن أمام الأمة ليلاً طويلاً ثقيلاً يفرح به أعداء الإسلام ويستبشرون بذلك في مزيد من التسلط والاستعلاء. ولعل في هذه الرسالة مساهمة متواضعة في التماس أسباب النجاة من هذه الفتنة الصماء والداهية الدهماء، وغيرها من الفتن.

(٤) الغربة الشديدة على الإسلام وأهله في أكثر بلدان المسلمين، حيث نُحِّيَ شرع الله تعالى، وتسلط الأعداء على أهل الغربة بالنكال والأذى فقلَّ النصير والمعين، ونجم النفاق حتى استوحش أهل الغربة من هذه الحال فكان لا بد من التواصي معهم على الحق والصبر، لعل الله عز وجل أن يثبت القلوب، وينجي من الفتن، ويكشف الكربة، وينصر حزبه المؤمنين.

(٥) التأكيد على الرجوع إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبينا محمد ﷺ في التماس سبل النجاة من الفتن والمهلكات، ولفت الأنظار إليهما بعد أن ابتعد كثير من الناس عنهما، والتأكيد من خلال هذه الرسالة أنه ما من خير إلا دلاً عليه، وما من شر إلا حذرا منه. قال تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٣٨]، كما أن السنة النبوية ما تركت من

فتنة ولا شر يأتي على هذه الأمة إلى قيام الساعة إلا وألمحت إليه وحذرت منه وحددت سبيل النجاة منه، قال ﷺ: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله)[١].

وشيء آخر يتعلق بهذا الأمر ألا وهو لفت الأنظار من خلال هذه الرسالة إلى ذلك الانقياد العظيم من سلفنا الصالح لهدي الكتاب والسنة في الفرار من الشرور والفتن، وإلى ضرورة الاطلاع الدائم على تلك المواقف العملية الموفقة من سلفنا الصالح إزاء الفتن والزوابع، وضرورة الاقتداء بهم في تلك المواقف النبيلة المهتدية بالكتاب والسنة، وهذا ما سيرد ذكره في ثنايا هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

وأكتفي بهذه الأمور الخمسة التي تؤكد أهميه هذا الموضوع. وأسأل الله - عز وجل - أن يحسن القصد فيه، وأن يتقبله مني، ولعلّي بهذا الجهد المقل أن أكون قد ساهمت مع من ساهم في البحث عن المخرج والفرار إلى الله - عز وجل - من هذه الشرور والفتن المتلاطمة، وأن تكون هذه الرسالة بمثابة النصيحة والصيحة المنبهة لنفسي وإخواني الدعاة؛ لنكون مفاتيح للخير والسنن، ومغاليق للشرور والفتن.

---

(١) الموطأ: في القدر باب النهي عن القول في القدر، وقال الارناؤوط: يشهد له حديث ابن عباس عند الحاكم ١ /٩٣ بسند حسن فيتقوى به (جامع الأصول ١ /٢٧٧).

هذا وسيكون تناول الموضوع من خلال المباحث التالية:

● **المبحث الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾ وما ورد في معناها من الآيات والأحاديث.

● **المبحث الثاني**: الفتنة وأسبابها.

● **المبحث الثالث**: في أنواع من الفتن التي يجب الفرار إلى الله – عز وجل – منها وذكر شيء من صورها: فتنة الغربة ـ الفتنة في العقيدة ـ فتنة الدنيا ـ فتنة المعاصي وفشو المنكرات وترك إنكارها ـ فتنة الاختلاف والفرقة بين المسلمين ـ الفتنة بالعلم ـ فتنة المصائب والمكاره ـ فتنة المسيح الدجال ـ فتنة الممات.

● **المبحث الرابع**: سبل الفرار من الفتن ومنارات النجاة منها.

● **الخاتمة**.

وفي نهاية هذه المقدمة أود الإشارة إلى ما قد يلتبس على بعض القراء من أن مضمون الرسالة قد تغير عما يوحي به عنوان البحث: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾ إلى أن يصبح حديثاً عن الفتن والفرار منها. وأقول: بأن لا تعارض بين عنوان الرسالة ومضمونها؛ حيث إن كل ما يسخط الله – عز وجل – فهو من الفتن التي يجب الفرار منها إليه – سبحانه – والاعتصام به في النجاة منها، والتوبة إليه من مقارفتها.

المبحث الأول

تفسير قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾

قال الله عز وجل في سورة الذاريات: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]. يقول الإمام القرطبي – رحمه الله تعالى – عند تفسير هذه الآية:

(لما تقدم ما جرى من تكذيب الأمم لأنبيائهم وإهلاكهم؛ لذلك قال الله – تعالى – لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد؛ أي قل لقومك: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي فروا من معاصيه إلى طاعته.

قال ابن عباس: فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم. وعنه: فِروا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾: اخرجوا إلى مكة. وقال الحسين بن الفضل: احترزوا من كل شيء دون الله؛ فمن فرَّ إلى غيره لم يمتنع منه. وقال أبو بكر الورّاق: فِروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. وقال الجُنيد: الشيطان داعٍ إلى الباطل؛ ففروا إلى الله يمنعكم منه. وقال ذو النون المصري: ففِرّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر. وقال عمرو بن عثمان: فِرّوا من أنفسكم إلى ربكم. وقال أيضاً: فِروا إلى ما سبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم. وقال سهل بن عبد الله: فِروا مما سوى الله إلى الله. ﴿إِنِّي لَكُم

مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي أنذركم عقابه على الكفر والمعصية)[١] ا . هـ.

وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى معلقاً على الآية نفسها:

(فلما دعا العباد إلى النظر إلى آياته الموجبة لخشيته، والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه. أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً؛ إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فراراً من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر. فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله، وزال عنه المرهوب، وحصل له غاية المراد والمطلوب. وسمَّى الله الرجوع إليه: فراراً؛ لأن في الرجوع إلى غيره، أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحابّ والأمن، والسرور والسعادة والفوز. فيفر العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره، وكل من خِفْت منه فررت منه إلى الله – تعالى – فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه)[٢] ا. هـ.

● ويقول الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – في (منزلة الفرار):

(قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ فحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء. وهو نوعان: فرار السعداء. وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلى الله – عز وجل – وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

(١) تفسير القرطبي عند الآية (٥٠) من سورة الذاريات.

(٢) تفسير السعدي عند الآية (٥٠) من سورة الذاريات.

وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾: فروا منه إليه، واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة)[١] ا.هـ

وأغلب أقوال المفسرين لا تخرج عن هذه المعاني السابقة في تفسير الآية.

فكلها ترجع إلى معنى واحد، وهو أن «**الفرار إلى الله**» هو: الفرار من المعصية إلى الطاعة؛ أي: الفرار من أسباب غضب الله – تعالى – إلى أسباب رحمته. والمراد منه: الفرار من غضب الله – عز وجل – وما يترتب عليه من العقوبة، إلى رحمته وما يترتب عليها من المعافاة، ومن أول ما يدخل في ذلك الفرار من الفتن ومضلاتها.

ومن الآيات التي تدخل في معنى الفرار واللجوء إلى الله – عز وجل –:

- قوله – تعالى – عن الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك:

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨].

- وقوله تعالى عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: **﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [العنكبوت: ٢٦].

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٦٩.

• وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فاللجوء إليه سبحانه والذهاب والهجرة إليه. والمسارعة إلى مغفرته وجناته: كلها من معاني الفرار والهجرة إليه – سبحانه – وذلك بتوحيده والسعي إلى مرضاته وجنته هرباً من سخطه وعقوبته، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (وله في كل وقت هجرتان: هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه وصدق اللجأ والافتقار في كل نَفَس إليه، وهجرة إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محاب لله ومرضاته)[١].ا.هـ

ومن الأحاديث الواردة في معنى الفرار إلى الله عز وجل واللجوء إليه:

• قوله ﷺ: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[٢]. يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – في شرحه لهذا الدعاء العظيم:

(فليس هناك أسبابٌ مخلوقةٌ لغيره يستعيذُ منها المستعيذ به كما يستعيذ من رجل ظلمه وقهره برجل أقوى أو نظيره. فالمستعاذ منه هو

---

(١) مقدمة طريق الهجرتين: ص٩. ط دار الحديث.

(٢) رواه مسلم (٤٨٦) في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

الذنوبُ وعقوباتُها، والآلامُ وأسبابُها. والسببُ من قضائه، والمسبَّبُ من قضائه. والإعاذةُ بقضائه. فهو الذي يُعيذ من قضائه بقضائه. فلم يُعِذْ إلا بما قدّره وشاءه. قدّر الاستعاذة منه وشاءها، وقدّر الإعاذةَ وشاءها.

فالجميعُ قضاؤه وقدره وموجَب مشيئته. فنتجتْ هذه الكلمةُ التي لو قالها غيرُ الرسول لبَادر المتكلمُ الجاهلُ إلى إنكارها وردّها. إنه لا يملكُ الضرَّ والنفعَ والخلقَ والأمرَ والإعاذة غيرُك. وإن المستعاذَ منه هو بيدك وتحت تصرفك ومخلوقٌ من خلقك. فما استعذت إلا بك، ولا استعذت إلا منك؛ وهذا نظير قوله في الحديث الآخر: «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»(١).

فهو الذي يُنجي من نفسه بنفسه، ويعيذ من نفسه بنفسه. وكذلك الفرارُ، يفرُّ عبدُه منه إليه؛ وهذا كله تحقيقٌ للتوحيد والقدر، وأنه لا ربَّ غيرُه ولا خالقَ سواه، ولا يملكُ المخلوقُ لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، بل الأمرُ كله لله ليس لأحد سواه منه شيء. كما قال – تعالى – لأكرم خلْقه عليه ﷺ وأحسنهم إليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

---

(١) جزء من حديث دعاء النوم، وأوله عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فلان! إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك. الحديث، رواه البخاري (٦٣١٣) في الدعوات، باب ما يقول إذا نام، ومسلم برقم (٢٧١٠) في الذكر والدعاء.

وقال جوابًا لمن قال: هل لنا من الأمر شيء: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

[آل عمران: ١٥٤]

فالملك كله له، والأمرُ كله له، والحمدُ كله له، والشفاعةُ كلها له، والخيرُ كله في يديه؛ وهذا تحقيق تفرده بالربوبية والألوهية. فلا إله غيره، ولا ربَّ سواه. ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

فاستعذ به منه، وفرَّ منه إليه، واجعل لجأك منه إليه؛ فالأمر كله له. لا يملك أحدٌ معه منه شيئاً؛ فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يَذهبُ بالسيئات إلا هو، ولا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا يضر سمّ ولا سحرٌ ولا شيطان ولا حيوان ولا غيرهُ إلا بإذنه ومشيئته؛ يصيب بذلك من يشاء ويَصرفه عمن يشاء.

فأعرف الخلق به وأقواهم بتوحيده من قال في دعائه: «وأعوذ بك منك» فليس للخلق مَعاذ سواه، ولا مستعاذٌ منه إلا وهو ربُّه، وخالقه ومليكه، وتحت قهره وسلطانه.

ثم ختم الدعاءَ بقوله: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» اعترافاً بأن شأنه وعظمته ونعوت كماله وصفاته أعظم وأجل من أن يحصيها أحدٌ من الخلق، أو يبلغ أحدٌ حقيقة الثناء عليه غيره سبحانه؛ فهو توحيدٌ في الأسماء والصفات والنعوت، وذاك توحيدٌ في العبودية والتأله وإفراده تعالى بالخوف والرجاء والاستعاذة. وهذا مضادٌّ الشرك، وذاك مضادٌّ التعطيل. وبالله التوفيق)[1] ا.هـ

وفهماً وتطبيقاً لهذا الدعاء الجامع العظيم رأينا عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – يوم استشار الصحابة – رضي الله عنهم – في دخول الشام وقد حل بها وباء الطاعون يقول قولته الحكيمة التي ماخرجت إلا من فقه عظيم، وفهم دقيق لهذا الدعاء الجامع السابق بيانه.

وإتماماً للفائدة أسوق هذه القصة بتمامها كما رواها الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه:

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى بعد أن ساق سند الحديث:

(عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسَرْغ لقيه أمراءُ الأجناد ـ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ـ فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. قال ابن عباس: فقال عمرُ: ادْعُ لي المهاجرين الأولين، فدعاهم، فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجنا

(١) شفاء العليل ٢/ ٢٦٥ ت: مصطفى الشلبي

لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه. قال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تُقدِمهم على هذا الوباء. فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادعوا لي الأنصار؛ فدعوتهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم. فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادعُ لي من كان هاهنا من مَشيَخة قريش من مُهاجرةِ الفتح، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجُلان فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء. فنادى عمرُ في الناس: إني مُصبِّحٌ على ظهر، فأصبِحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عُمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، **نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله**. أرأيت إن كانت لك إبلٌ هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى جَدْبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف ـ وكان متغيباً في بعض حاجته ـ فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**» قال: فحمد الله عمرُ، ثم انصرف[١].

● ومن الأحاديث الواردة أيضاً في الفرار إلى الله عز وجل ما رواه الإمام البخاري – رحمه الله تعالى – في صحيحه عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم**

---

(١) البخاري في الطب (٥٧٢٩) ومسلم في السلام (٢٢١٩).

غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»[١].

وسيأتي شرح الحديث عند الكلام عن العزلة وضوابطها - إن شاء الله تعالى -.

* * *

(١) البخاري في كتاب الفتن (٧٠٨٨).

المبحث الثاني

الفتن وأسباب السقوط فيها

وقوع الفتن سنة ربانية لا تتبدل كما في قوله - تعالى -: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾ [العنكبوت: ٢].

وقد كتبها الله - عز وجل - على عباده لحكم عظيمة: منها تمييز المؤمنين من غيرهم، ومنها تكفير السيئات ورفع الدرجات، ومنها غير ذلك مما لا نعلم.

فعن حذيفة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشْرِبها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر مرباداً، كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»(١). والحديث عن الفتن وأسبابها يتطلب إفراد كلمة (الفتن) بالتعريف، والشرح، وتوضيح الفرق بين مدلولاتها.

(**فالفتن**): وهي بكسر الفاء وفتح التاء، جمع فتنة، قال الأزهري: (جامع معنى الفتنة في كلام العرب الابتلاء والامتحان، وأصلها مأخوذ من

---

(١) مسلم. ك. الإيمان (١٤٤).

قولك: «فتنت الفضة والذهب» أذبتهما بالنار ليتميز الرديّ من الجيد، ومن هذا قول الله – جل وعز –: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي يحرقون بالنار، وقال ابن الأنباري: فتنت فلانة فلاناً، قال بعضهم: أمالته .... قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] أي يميلونك ... فتنت الرجل عن رأيه أي أزلته عمَّا كان عليه ... والفتنة: الإثم في قوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا...﴾ [التوبة: ٤٩].

وأما قول النبي ﷺ: «إني أرى الفتن خلال بيوتكم»(١) فإنه يكون القتل والحروب والاختلاف الذي يكون بين فرق المسلمين إذا تحزبوا. ويكون ما يبلون به من زينة الدنيا وشهواتها؛ فيفتنون بذلك عن الآخرة والعمل لها... والفتنة الإضلال في قوله تعالى: ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ [الصافات: ١٦٢] يقول: ما أنتم بمضلين إلا من أضله الله... والفتنة العذاب نحو تعذيب الكفار ضعفى المؤمنين في أول الإسلام ليصدوهم عن الإيمان. وأخبرني المنذري عن ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال: الفتنة الاختبار، والفتنة المحنة، والفتنة المال، والفتنة الأولاد، والفتنة الكفر، والفتنة اختلاف الناس بالآراء، والفتنة الإحراق، وقيل الفتنة: الغلو في التأويل المظلم، يقال: فلان مفتون بطلب الدنيا أي قد غلا في طلبها. وجماع الفتنة في كلام العرب: الابتلاء والامتحان)(٢) ا.هـ.

---

(١) البخاري كتاب المناقب (٣٩٥٧).

(٢) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٩٧ – ٢٩٩ (باختصار).

مما سبق بيانه يتحصل لدينا أن الفتنة تطلق ويراد منها معان كثيرة يدل على كل معنى منها، ويعرف حسبما ورد بالسياق والقرائن، ومن هذه المعاني:

١ – الابتلاء والامتحان .

٢ – الميل عن الحق.

٣ – الإثم.

٤ – القتل والحرب.

٥ – الاختلاف والفرقة.

٦ – الإضلال.

٧ – الكفر.

٨ – العذاب.

٩ – الغلو. وغير ذلك من المعاني المذمومة.

والآن وبعد أن تبين لنا معنى الفتنة وما يتفرع عنها من المعاني، وبعد أن تبين لنا خطرها وذم الشرع لها، وجب الحذر منها ،والهرب والفرار والفزع إلى الله – عز وجل – من شرورها.

ومما يساعد على البعد عنها أو النجاة منها إذا وقعت معرفة أسبابها والطرق المؤدية إليها؛ لأن معرفة أسباب السقوط فيها تعين على الوقاية منها قبل وقوعها، أو النجاة منها بعد وقوعها بإذن الله – عز وجل –. وسيأتي إن

شاء الله تعالى تفصيل أسباب النجاة من الفتن في المبحث الأخير.

أسباب السقوط في الفتن أعاذنا الله منها:

الأسباب المؤدية إلى ملابسة الفتن والسقوط فيها كثيرة؛ لكنها لا تخرج في مجموعها عن سببين هامين يرجع إليهما جميع الأسباب.

وقد ذكر هذين السببين الإمامان الجليلان ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – رحمهما الله تعالى – وعبرا عن ذلك بأسلوبين مختلفين لفظاً لكنهما متفقان في المعنى.

وأبدأ بما ذكره الإمام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – عن هذين السببين، ثم أُثَنِّي بما ذكره الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى –. وأختم هذا المبحث إن شاء الله تعالى بما تلخص من كلام الإمامين حول هذه الأسباب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى –:

(ولا تقع فتنة إلا من تَرْك ما أمر الله به، فإنه سبحانه أمر بالحق وأمر بالصبر. فالفتنة: إما مِنْ تَرْك الحق، وإما من ترك الصبر.

فالمظلوم المحق الذي لا يقصِّر في عمله يؤمَر بالصبر، فإذا لم يصبر فقد ترك المأمور. وإن كان مجتهداً في معرفة الحق ولم يصبر، فليس هذا بوجه الحق مطلقاً، لكن هذا وجه نوع حق فيما أصابه، فينبغي أن يصبر عليه. وإن كان مقصراً في معرفة الحق، فصارت ثلاثة ذنوب: أنه لم يجتهد في معرفة الحق، وأنه لم يصبه، وأنه لم يصبر.

وقد يكون مصيبا فيما عرفه من الحق فيما يتعلق بنفسه، ولم يكن مصيباً في معرفة حكم الله في غيره؛ وذلك بأن يكون قد علم الحق في أصل يُختلف فيه بسماع وخبر، أو بقياس ونظر، أو بمعرفة وبصر، ويُظن مع ذلك أن ذلك الغير التارك للإقرار بذلك الحق عاص أو فاسق أو كافر. ولا يكون الأمر كذلك؛ لأن ذلك الغير يكون مجتهداً، قد استفرغ وُسْعَهُ ولا يقدر على معرفة الأول؛ لعدم المقتضى، ووجود المانع.

وأمور القلوب لها أسباب كثيرة، ولا يعرف كلٌّ أحد حالَ غيره من إيذاءٍ له بقول أو فعل. قد يحسب المؤْذَى ـ إذا كان مظلوماً لا ريب فيه ـ أن ذلك المؤذي محض باغٍ عليه، ويحسب أنه يدفع ظلمه بكل ممكن. ويكون مخطئاً في هذين الأصلين، إذ قد يكون المؤذي متأولا مخطئا. وإن كان ظالماً لا تأويل له فلا يحلّ دفع ظلمه بما فيه فتنة بين الأمة، وبما فيه شر أعظم من ظلمه. بل يؤمر المظلوم ها هنا بالصبر، فإن ذلك في حقه محنة وفتنة.

وإنما يقع المظلوم في هذا **لجزعه وضعف صبره، أو لقلة علمه وضعف رأيه**. فإنه قد يحسب أن القتل ونحوه من الفتن يدفع الظلم عنه، ولا يعلم أنه يضاعف الشر كما هو الواقع، وقد يكون جزعه يمنعه من الصبر.

والله سبحانه وصف الأئمة بالصبر واليقين، فقال: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال ﴿**وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر: ٣][(١)] اهـ.

---

(١) الاستقامة ١/ ٣٩، ٤٠.

وهذا الكلام من شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ وإن كان متوجهاً إلى فتنة البغي والاختلاف بين المسلمين لكننا نجده يعمم ذلك على كل فتنة حيث يقول فيما سبق: (فالفتنة: إما من ترك الحق، وإما من ترك الصبر).

أما الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ فيحيل أسباب الفتن إلى الشبهات أو الشهوات وهما نفس ما ذكره شيخ الإسلام من الأسباب. فالشبهة إنما تنشأ من ترك الحق والجهل به، بينما تنشأ الشهوة من ترك الصبر وضعفه. يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:

«والفتنة نوعان: فتنةُ الشبهات. وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات.

وقد يجتمعان للعبد. وقد ينفرد بإحداهما.

ففتنة الشبهات من ضعف البَصيرة، وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فسادُ القصد، وحصول الهوى؛ فهنالك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى، فقُل ما شئت في ضلال سيِّئ القصد، الحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ**﴾.

[النجم: ٢٣]

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يُضل عن سبيل الله، فقال:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدَع، على حسب مراتب بدعهم. فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال.

ولا يُنجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول، وتحكيمه في دِقّ الدين وجلِّه، ظاهرة وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، وما يُثبته لله من الصفات والأفعال، والأسماء، وما ينفيه عنه، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها، ومقادير نُصُب الزكاة ومستحقيها، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل، لا يُتلقى إلا عنه، ولا يُؤخذ إلا منه، فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله، وكل ما خرج عنها فهو ضلال.

فإذا عقد قلبه على ذلك وأعرض عما سواه، ووزنه بما جاء به الرسول ﷺ، فإن وافقه قبله، لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه ردَّه، ولو قاله من قاله، فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة، وفساد في الإرادة.

وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنة الشهوات.

وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿**كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ**﴾ [التوبة: ٦٩].

أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها. والخلاق هو النصيب المقدَّر، ثم قال: ﴿**وخضتم كالذي خاضوا**﴾ فهذا الخوض بالباطل، وهو الشبهات.

فأشار - سبحانه - في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان، من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين: إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح.

فالأول: هو البدع وما والاها، والثاني: فسق الأعمال.

فالأول فساد من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: «احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه». وكانوا يقولون: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون».

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل.

فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة.

ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهوات تُدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤].

فدل على أنه بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

وجمع بينهما أيضاً في قوله: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر: ٣] فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات. وجمع بينهما في قوله: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ**﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي: القوى والعزائم في ذات الله، والأبصار: البصائر في أمر الله. وعبارات السلف تدور على ذلك.

قال ابن عباس: «أولي القوة في طاعة الله، والمعرفة بالله».

وقال الكلبي: «أولي القوّة في العبادة، والبصر فيها».

وقال مجاهد «الأيدي: القوّة في طاعة الله، والأبصار: البصرُ في الحق».

وقال سعيد بن جُبير: «الأيدي: القوّة في العمل، والأبصار: بصرُهم بما هم فيه من دينهم».

وقد جاء في حديث مرسل: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات»[١] فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة ـ والله المستعان»[٢] ا.هـ.

وبعد هذا الكلام النفيس من هذين الإمامين الجليلين والذي لا مزيد عليه في ذكر أسباب الفتن نجد التطابق التام في كلاميهما من ناحية المعنى والمضمون، بل في بعض الألفاظ أحياناً. ويمكن تلخيص هذه الأسباب فيما يلي:

(١) ترك الحق وعدم السعي للعلم به أو عدم إصابته بسبب شبهة أو تأول فاسد؛ ومن هنا تنشأ الفتنة بسبب الجهل أو الفهم الفاسد.

وهذا ما عبر عنه شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – بقوله: (ترك الحق)، وعبر عنه الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – بقوله: (فتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم) وقوله في موطن آخر من النقل السابق: (وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به) ويقول أيضاً عن هذه

---

(١) ضعفه العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٣٨٥٨).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٦٥ – ١٦٧).

الفتنة: (وأصل كل فتنة إنما هو تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل. فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة).

(٢) ترك الصبر: وهذا هو السبب الثاني من أسباب الفتن، ولكن أصل الفتنة هنا لم يأت من الجهل بالحق، أو تقديم الرأي على الشرع، أو الشبهة المشوشة على الحق وإنما أصل الفتنة في هذا السبب هو عدم الصبر على الحق. فصاحب هذه الفتنة لا ينقصه العلم بالحق، بل يعلمه ولا يجهله ولكنه تركه ضعفاً وشهوة وهو يعلم من نفسه أنه تارك للحق، وهذا ما عبر عنه شيخ الإسلام بقوله: (فالمظلوم المحق الذي لا يقصر في علمه يؤمر بالصبر، فإذا لم يصبر فقد ترك المأمور) أما الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - فعبر عن هذا السبب بقوله: (وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنة الشهوات) وقال عن هذه الفتنة أنها تدفع بالصبر، وقال عن أصل هذه الفتنة بأنه تقديم الهوى على العقل. ثم استدل كلا الإمامين على هذين الأصلين وكيف يدفعان بقوله تعالى: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ أي تواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات.

كما أنهما استدلا بقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر تدفع الشهوة والهوى، وباليقين تدفع الشبهة والجهل بالحق.

وبالتأمل في الفتن صغيرها وكبيرها ما كان منها على مستوى الأفراد وما كان فيها على مستوى الطوائف نجد أنها لا تخرج أبداً عن هذين

السببين، بل لو تأمل الإنسان نفسه وما يقع فيه من الآثام؛ فإن ما وقع فيه لا يخرج في سببه عن شبهة أو شهوة، أو مزجٍ بين شبهة وشهوة، أعاذنا الله من ذلك كله بمنه وكرمه، والشيطانُ لا يدخل على العبد إلا من باب الشبهة أو الشهوة ولا يبالي من أيهما دخل.

* * *

المبحث الثالث

ذكر بعض أنواع الفتن التي يجب الفرار منها إلى الله – عز وجل –

وفي هذا المبحث سأتعرض إن شاء الله – تعالى – إلى ذكر بعض أنواع الفتن التي يجب الانتباه لخطرها والحذر منها والفرار منها إلى الله – عز وجل –. ومنشأ الفتن كلها من فتنة الشيطان الذي حذرنا الله عز وجل منه بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧] ولذا فلن أفرد فتنة الشيطان بحديث مستقل؛ لأن الحديث عن أنواع الفتن المختلفة إنما هو في الحقيقة حديث عن فتنة الشيطان – أعاذنا الله منه ومن شرور الفتن ما ظهر منها وما بطن –.

وسأحاول إن شاء الله – تعالى – أن أربط الموضوع بواقعنا المعاصر؛ وذلك بذكر بعض الصور والمظاهر لكل نوع من أنواع الفتن في زماننا اليوم. أما ما يتعلق بسبل الفرار منها وأسباب النجاة منها فسأفرد المبحث الأخير – إن شاء الله تعالى – للحديث عن هذه الأسباب بشكل مفصل.

ولا بد في هذا المبحث الذي يتضمن ذكرَ بعض أنواع الفتن وذكرَ شيء من صورها أن يتخلله ذكرٌ شيءٍ من أسباب النجاة منها، خاصة عند ذكر النقولات التي يصعب فيها الفصل بين المظهر والعلاج.

ومن أنواع الفتن التي سيتناولها هذا المبحث ما يلي:

١ – فتنة الغربة.

٢ – الفتنة في العقيدة.

٣ – فتنة المعاصي وترك إنكارها.

٤ – فتنة الدنيا وزخرفها.

٥ – فتنة الاختلاف والفرقة بين المسلمين.

٦ – الفتنة بالعلم.

٧ – فتنة المصائب والمكاره.

٨ – فتنة المسيح الدجال.

٩ – فتنة الممات.

أولاً: فتنة الغربة

إن البدء بالحديث عن هذه الفتنة يأتي من كونها نتيجة تراكم مجموعة من الفتن تنشأ الغربة بسببها. ويحسن بنا في بداية الكلام عن هذه الفتنة أن نتطرق لحديث الغربة والغرباء الذي ثبت عن النبي من عدة طرق، ثم نعرج على كلام السلف في شرحهم لهذا الحديث، ونختم الموضوع بذكر بعض مظاهر الفتنة في عصور الغربة وخاصة في زماننا اليوم.

روايات حديث الغربة:

(١) عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء» قال: قيل: ومن الغرباء؟ قال: «النُّزَّاع من القبائل»(١).

(٢) عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ غريباً؛ فطوبى للغرباء» قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «الذين يَصْلُحون إذا فسد الناس»(٢).

(٣) عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرِزُ بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها»(٣).

(٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن عنده: «طوبى للغرباء» فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: «أناس صالحون في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم»(٤).

---

(١) الترمذي ٥/١٨، أحمد ١/٣٩٨، والبغوي في شرح السنة ١/١٨ وصححه.

(٢) أخرجه أبو عمر الداني في (السنن الواردة في الفتن) (٣/ ٦٣٣) وصححه الشيخ الألباني في السلسلة ٣/ ٢٦٧.

(٣) مسلم شرح النووي ٢/٧٦.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧، ٢٢٢) وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٦٦٥٠).

من خلال هذا السرد للروايات الصحيحة لحديث الغربة يتضح لنا وصف حال أهل الغربة، وأنهم نُزَّاع من القبائل، وهذا يشير إلى قلتهم. وأنهم يَصْلُحون إذا فسد الناس ،وأنهم أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم.

وتدلنا هذه الأوصاف المذكورة للغرباء أنهم أهل غيرة ودعوة وإصلاح ولم يكونوا صالحين يائسين مستسلمين لواقعهم الفاسد. كما تدلنا هذه الروايات على بقاء المصلحين مهما اشتدت الغربة ولو كانوا قلة ونزاعاً من القبائل. ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحق حتى يأتي أمر الله عز وجل.

ولذلك – والله أعلم – صدر الإمام الهروي رحمه الله تعالى منزلة الغربة بقوله تعالى: **﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾** [هود: ١١٦].

وقال ابن القيم – رحمه الله تعالى – في شرحه لمنازل السائرين عند هذه الآية: (استشهاده بهذه الآية في هذا الباب يدل على رسوخه في العلم والمعرفة وفهم القرآن، فإن الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله، (وساق حديث الغرباء السابق براوياته المختلفة) ثم قال: وقال نافع بن مالك: دخل عمر بن الخطاب المسجد فوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبي ﷺ وهو يبكي. فقال له عمر: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا، ولكن حديثاً حدثنيه حبيبي ﷺ وأنا في هذا المسجد، فقال: ما هو؟ قال: «إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا

لم يُفتقدوا، وإذا حضروا لم يُعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يَخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة»[١].

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلتهم في الناس جداً سُمُّوا: (الغرباء) فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات. فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع فيهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين أشد هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً، فلا غربة عليهم... إلى أن قال: وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم)[٢].

كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى على حديث الغربة:

يعلق - رحمه الله تعالى - على الحديث فيقول:

(لا يقتضي هذا أنه إذا صار غريباً يجوز تركه - والعياذ بالله - بل هو كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ**

---

(١) أخرجه الآجري في (صفة الغرباء) (٣٨) وضعفه الألباني في الضعيفة (١٨٥٠).

(٢) مدارج السالكين ٣/ ١٩٤ - ٢٠٠ باختصار.

وأنتم مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]... ولا يقتضي هذا أنه إذا صار غريباً أن المتمسك في شر، بل هو أسعد الناس، كما قال في تمام الحديث: «فطوبى للغرباء».

(وطوبى) من الطيب؛ قال تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾ [الرعد: ٢٩]. فإنه يكون من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه لما كان غريباً. وهم أسعد الناس. أما في الآخرة؛ فهم أعلى الناس درجة بعد الأنبياء – عليهم السلام –.

وأما في الدنيا؛ فقد قال – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

أي: أنَّ الله حَسبك وحسب متبعك... فالمسلم المتبع للرسول ﷺ، الله حسبه وكافيه، وهو وليه حيث كان ومتى كان، ولهذا يوجد المسلمون المتمسكون بالإسلام في بلاد الكفر لهم السعادة كلما كانوا أتم تمسكاً بالإسلام...

إلى أن قال: وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام؛ جزع، وكلَّ، وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر، والتوكل، والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر، إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار.

وقوله ﷺ: «ثم يعود غريباً كما بدأ»؛ يبين شيئين:

أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريباً بينهم ثم يظهر؛ كما كان في أول الأمر غريباً، ثم ظهر، ولهذا قال: «سيعود غريباً كما بدأ».

وهو لَمَّا بدأ غريباً، لا يُعرف، ثم ظهر، وعُرف، فكذلك يعود حتى لا يعرف، ثم يظهر ويعرف؛ فيقل من يعرفه في أثناء الأمر؛ كما كان من يعرفه أولاً.

ويُحتمل أنه في آخر الدنيا لا يبقى مسلماً إلا قليلٌ، وهذا إنما يكون بعد الدجال ويأجوج ومأجوج عند قرب الساعة، وحينئذ يبعث الله ريحاً تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، ثم تقوم القيامة.

وأما قبل ذلك؛ فقد قال ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمتي على الحق، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة».

وهذا الحديث في «الصحيحين»[1]، ومثله من عدة أوجه...

وهذا الحديث يفيد المسلم أنه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الإسلام ولا يضيق صدره بذلك، ولا يكون في شك من دين الإسلام كما كان الأمر حين بدأ... وقد تكون الغربة في بعض شرائعه وقد يكون في بعض الأمكنة يخفى عليهم من شرائعه ما يصير به غريباً...)[2] ا.هـ.

---

(١) البخاري (٦/ ٦٣٢، ١٣/ ٤٤٢ الفتح) مسلم (١٣/ ٦٦ – ٦٧ النووي).

(٢) مجموع الفتاوى ١٨/ ٢٩١ – ٣٠٥ (باختصار).

كلام الشاطبي – رحمه الله تعالى – على حديث الغربة :

تحدث الإمام الشاطبي عن حالة الإسلام في أول أمره والغربة التي مر فيها حتى ظهر وعلا على الدين كله فانقمع الشرك وأهله، ثم عرَّج على ظهور البدع بعد ذلك وانتشارها حتى رجعت غربة جديدة على الإسلام وأهله، ثم شرع يصف نفسه مع أهل زمانه وكيف آثر اتباع السنة مع كثرة المخالف والخصوم على اتباع البدعة والضلال فقال – رحمه الله تعالى – وهو يصف غربته وغربة أهل السنة بين أهل زمانه :

(فتردد النظر بين أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس، فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفي العوائد، لا سيما إذا ادعى أهلها أن ما هم عليه هو السنة لا سواها؛ إلا أن في ذلك العبء الثقيل ما فيه من الأجر الجزيل، وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح، فأدخل تحت ترجمة الضلال؛ عائذاً بالله من ذلك؛ إذا أني أوافق المعتاد، وأعد من المؤالفين، لا من المخالفين.

فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يغنوا عني من الله شيئاً، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور، فقامت عليَّ القيامة، وتواترت عليَّ الملامة، وفوَّق إليَّ العتابُ سهامه، ونُسبتُ إلى البدعة والضلالة، وأُنزلتُ منزلة أهل الغباوة والجهالة.

وإني لو التمست لتلك المحدثات مخرجاً؛ لوجدت، غير أن ضيق العطن، والبعد عن أهل الفطن، رقى بي مرتقى صعباً، وضيق عليَّ مجالاً رحباً، وهو كلام يشير بظاهره إلى أن اتباع المتشابهات لموافقات العادات،

أوْلى من اتباع الواضحات، وإن خالفت السلف الأول.

وربما ألموا في تقبيح ما وجهت إليه وجهتي بما تشمئز منه القلوب، أو خرجوا بالنسبة إلى بعض الفرق الخارجة عن السنة شهادة ستُكتب ويُسألون عنها يوم القيامة.

فتارة نُسبت إلى القول بأن الدعاء لا ينفع، ولا فائدة فيه؛ كما يعزي إليَّ بعض الناس؛ بسبب أني لم ألتزم الدعاء بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة، وسيأتي ما في ذلك من المخالفة للسنة، وللسلف الصالح، والعلماء.

وتارة نُسبت إلى الرفض وبغض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بسبب أني لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص؛ إذ لم يكن ذلك من شأن السلف في خطبهم، ولا ذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب.

وقد سئل أصبغ عن دعاء الخطيب للخلفاء المتقدمين فقال: «هو بدعة، ولا ينبغي العمل به، وأحسنه أن يدعو للمسلمين عامة».

قيل له: فدعاؤه للغزاة والمرابطين؟

قال: «ما أرى به بأساً عند الحاجة إليه، وأما أن يكون شيئاً يصمد له في خطبته دائماً؛ فإني أكره ذلك».

ونص أيضاً عز الدين بن عبد السلام على أن الدعاء للخلفاء في الخطبة بدعة غير محبوبة.

وتارة أضيف إليَّ القول بجواز القيام على الأئمة، وما أضافوه إلا من عدم ذكرهم في الخطبة، وذكرهم فيها محدث لم يكن عليه من تقدم.

وتارة حمل عليَّ التزام الحرج والتنطع في الدين، وإنما حملهم على ذلك أني التزمت في التكليف والفتيا الحمل على مشهور المذهب الملتزم لا أتعداه، وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه، وإن كان شاذاً في المذهب الملتزم أو في غيره، وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك، وللمسألة بسط في كتاب «الموافقات».

وتارة نسبت إلى معاداة أولياء الله؛ وسبب ذلك أني عاديت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة، المنتصبين ـ بزعمهم ـ لهداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم.

وتارة نُسبت إلى مخالفة السنة والجماعة؛ بناء منهم على أن الجماعة التي أُمِرَ باتباعها ـ وهي الناجية ـ ما عليه العموم، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان، وسيأتي بيان ذلك بحول الله.

وكذبوا عليَّ في جميع ذلك، أو وهموا، والحمد لله على كل حال.

فكنت على حالة تشبه حالة الإمام الشهير عبد الرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه؛ إذ حكى عن نفسه فقال:

«عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين،

والعارفين والمنكرين، فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر من لقيت بها موافقاً أو مخالفاً، دعاني إلى متابعته على ما يقوله، وتصديق قوله، والشهادة له.

فإن كنت صدقته فيما يقول، وأجزت له ذلك ـ كما يفعله أهل هذا الزمان ـ سمّاني موافقاً.

وإن وقفت في حرف من قوله، وفي شيء من فعله؛ سماني مخالفاً.

وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد؛ سماني خارجيًّا.

وإن قرئ عليَّ حديث في التوحيد سماني مشبهاً.

وإن كان في الرؤية؛ سماني سالمياً.

وإن كان في الإيمان؛ سماني مرجئاً.

وإن كان في الأعمال؛ سماني قدرياً.

وإن كان في المعرفة؛ سماني كرّامياً.

وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر؛ سماني ناصبياً.

وإن كان في فضائل أهل البيت؛ سماني رافضياً.

وإن سكت عن تفسير آية أو حديث، فلم أجب فيهما إلا بهما؛ سماني ظاهرياً.

وإن أجبت بغيرهما؛ سماني باطنياً.

وإن أجبت بتأويل؛ سماني أشعرياً.

وإن جَحَدتُهما؛ سماني معتزلياً.

وإن كان في السنن مثل القراءة؛ سماني شفعوياً.

وإن كان في القنوت؛ سماني حنفياً.

وإن كان في القرآن؛ سماني حنبلياً.

وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد منهم إليه من الأخبار ـ إذ ليس في الحكم والحديث محاباة ـ قالوا: طعن في تزكيتهم.

ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرؤون عليَّ من أحاديث رسول الله ﷺ ما يشتهون من هذه الأسامي؛ ومهما وافقت بعضهم؛ عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم؛ أسخطت الله ـ تبارك وتعالى ـ ولن يغنوا عني من الله شيئاً، وإني مستمسكٌ بالكتاب والسنة؛ وأستغفرُ الله الذي لا إله إلا هو وهو الغفور الرحيم». هذا تمام الحكاية.

فكأنه ـ رحمه الله ـ تكلم على لسان الجميع، فقلَّما تجد عالماً مشهوراً، أو فاضلاً مذكوراً؛ إلا قد نُبِذَ بهذه الأمور أو بعضها؛ لأن الهوى قد يداخل المخالف، بل سبب الخروج عن السنة الجهل بها، والهوى المتبع الغالب على أهل الخلاف، فإذا كان كذلك؛ حمل على صاحب السنة أنه غير صاحبها، ورجع بالتشنيع عليه، والتقبيح لقوله وفعله، حتى يُنسب هذه المناسب.

وقد نُقِلَ عن سيد العُبَّاد ـ بعد الصحابة ـ أويس القرني أنه قال:

«إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لم يدعا للمؤمن صديقاً: نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك أعواناً من الفاسقين، حتى ـ والله ـ لقد رموني بالعظائم، وايم الله لا أدع أن أقوم فيهم بحقه».

فمن هذا الباب يرجع الإسلام غريباً كما بدأ؛ لأن المؤالف فيه على وصفه الأول قليل، فصار المخالف هو الكثير، فاندرست رسوم السنة حتى مدّت البدع أعناقها، فأشكل مرماها على الجمهور، فظهر مصداق الحديث الصحيح)[١] ا.هـ.

من أقوال السلف في الغربة وأهلها:

● قال الأوزاعي – رحمه الله – في قوله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً... الحديث»: (أما إنه ما يذهب الإسلام ولكن يذهب أهل السنة حتى ما يبقى في البلد منهم إلا رجل واحد)[٢].

● وقال يونس بن عبيد – رحمه الله تعالى –: (ليس شيء أغرب من السنة وأغرب منها من يعرفها)[٢].

● وعن سفيان الثوري – رحمه الله تعالى – قال: (استوصوا بأهل السنة فإنهم غرباء)[٢].

---

(١) الاعتصام ١/ ٩٧ – ١٠١.

(٢) كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة لابن رجب ص٢٨، ٢٩.

● وقال ابن رجب – رحمه الله تعالى –: (وهؤلاء الغرباء قسمان: أحدهما: من يصلح نفسه عند فساد الناس، والثاني: من يُصلح ما أفسد الناس وهو أعلى القسمين وهو أفضلهما)[١].

● وقال الحسن – رحمه الله تعالى –: (المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، له شأن وللناس شأن)[٢].

● وقال ابن رجب رحمه الله تعالى:

(ومن كلام أحمد بن عاصم الأنطاكي ـ وكان من كبار العارفين في زمان أبي سليمان الداراني ـ يقول:

(إني أدركت من الأزمنة زماناً عاد فيه الإسلام غريباً كما بدأ، وعاد وصف الحق فيه غريباً كما بدأ، إنْ ترغب فيه إلى عالم وجدته مفتوناً بحب الدنيا، يحبُّ التعظيم والرئاسة، وإن ترغب فيه إلى عابدٍ وجدته جاهلاً في عبادته مخدوعاً صريعاً غدره إبليس، وقد صَعَدَ به إلى أعلى درجة من العبادة وهو جاهل بأدناها فكيف له بأعلاها؟ وسائرُ ذلك من الرعاع، همج عوج وذئابٌ مختلسة، وسباع ضارية وثعالب ضوارٍ، هذا وصف عيون أهل زمانك من حملة العلم والقرآن ودعاة الحكمة).

خرَّجه أبو نعيم في «الحلية»[٣].

---

(١) كشف الكربة ص٣٢.

(٢) كشف الكربة ص٤٧.

(٣) الحلية لأبي نعيم ٩/ ٢٨٦.

فهذا وصفُ أهل زمانه فكيف بما حدث بعده من العظائم والدواهي التي لم تخطر بباله ولم تدر في خياله؟.[١] ا .هـ.

● روى الذهبي – رحمه الله تعالى – في السير عن أبي الحسين العتكي قال: (سمعت إبراهيم الحربي يقول لجماعة عنده: من تعدون الغريب في زمانكم؟ فقال رجل: الغريب: من نأى عن وطنه. وقال آخر: الغريب: من فارق أحبابه. فقال إبراهيم: الغريب في زماننا: رجل صالح عاش بين قوم صالحين، إن أمر بمعروف آزروه، وإن نهى عن منكر أعانوه، وإن احتاج إلى سبب من الدنيا مانوه ثم ماتوا وتركوه)[٢].

وخلاصة النقولات السابقة حول الغربة وأهلها:

(١) أن الغربة المطلقة في كل الأرض لا تكون إلا قبيل قيام الساعة، أما قبل ذلك فلن تخلو الأرض من قائمين بالحق ولو كانوا قلة، ولكن قد توجد غربة تامة في مكان دون مكان وفي جانب من الشريعة دون جانب. والله أعلم.

(٢) أن أهل الغربة الممدوحين في كل مكان وزمان هم الفرقة الناجية، الطائفة المنصورة، أهل السنة والجماعة المتمسكة بالكتاب والسنة وفهم الصحابة –رضي الله عنهم – والتابعين لهم بإحسان.

(٣) أهل الغربة في كل مكان قليلون ولكن أثرهم على الناس عظيم؛

---

(١) كشف الكربة لابن رجب ص٣٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٦٢.

لأن من أهم أوصافهم أنهم يدعون إلى الله - عز وجل - ويصلحون ما أفسد الناس ويجددون لهم دينهم.

(٤) المخالف لأهل الغربة كثير، والأذى الذي يتعرضون له عظيم؛ لكنهم بالحق الذي يحملونه، والمهمة الشريفة التي يؤدونها، والصبر الجميل الذي يتحلون به ثابتون مطمئنون.

(٥) في حديث الغربة معنى لطيف أشار إليه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بقوله: (وهو لما بدأ غريباً لا يُعرف ثم ظهر وعرف؛ فكذلك يعود حتى لا يُعرف ثم يظهر ويُعرف)[1] ا. هـ.

وفي هذا رد على من يفهم من أحاديث الغربة انحسار الإسلام وعدم الأمل بعودته. وهذا ما يفهمه كثير من اليائسين من هذا الحديث. وفي كلام شيخ الإسلام السابق رد على هذا الفهم الخاطئ. وذلك أن الإسلام إذا عاد غريباً كما بدأ فإنه سيعود قوياً ظاهراً كما حصل ذلك بعد غربة الإسلام الأولى.

وهذا الفهم الصحيح هو الذي تشهد له أحاديث صحيحة كثيرة منها قوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»[2]، وقوله ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز

---

(١) انظر ص ٣٨.

(٢) رواه مسلم في الفتن (٢٨٨٩).

عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر»[١].

(٦) الغربة في شدتها وعظم أجر أهلها ليست على رتبة واحدة وإنما هي متفاوتة، فهناك غربة أهل الإسلام بين أهل الأديان الكافرة، وأشد منها غربة أهل السنة والإيمان بين أهل الإسلام والفرق الضالة من أهل القبلة. وأشد منها غربة أهل العلم بين عامة أهل السنة. وأشد منها غربة العلماء المجاهدين الصابرين بين أهل العلم القاعدين. وهؤلاء هم الذين قال عنهم ابن القيم - رحمه الله تعالى -: (هم أهل الله حقاً فلا غربة عليهم)[٢] وهم الذين قال عنهم النبي ﷺ: «إن من ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم، قالوا: يا نبي الله أو منهم. قال: بل منكم»[٣].

(٧) أهل الغربة وإن كانوا قلة فهم السعداء حقاً ولا وحشة عليهم، وإن خالفهم أكثر الناس؛ فحسبهم راحة وطمأنينة أنهم في قافلة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

(١) رواه ابن حبان بنحوه (٦٦٩٩ إحسان)، وصححه الألباني في السلسلة ١ /٧.

(٢) انظر ص ٣٦.

(٣) أبو داود في الملاحم (٤٣٤١)، والترمذي في التفسير (٣٥٠٨) وصححه الألباني في السلسلة (٤٩٤).

مظاهر الغربة في زماننا اليوم:

وهي كثيرة ومتنوعة حتى إنها لتكاد تشمل جوانب الدين كله، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - تفصيل ذلك في الفقرات القادمة عند الحديث عن أنواع الفتن وصورها المختلفة مما سبق سردها في أول هذا المبحث.

ولكن يمكن إجمال أهم مظاهر الغربة في الأزمنة الحاضرة اليوم فيما يلي:

١ - غربة في العقيدة، فلا يوجد مَنْ هو متمسك بعقيدة السلف من جميع جوانبها إلا القليل من الناس؛ حيث تنتشر الخرافة والشركيات والبدع في أكثر بلدان المسلمين.

٢ - غربة في تطبيق الشريعة والتحاكم إليها، فلا يُحكم اليوم في أكثر بلدان المسلمين إلا بأحكام الإفرنج الكافرة.

٣ - غربة في الالتزام بأحكام الإسلام، سواء ما كان منها بين العبد وربه، أو بين العبد وبين الخلق؛ فلا يوجد الملتزم بها إلا القليل.

٤ - غربة في السلوك والأخلاق الفاضلة، وتزامن ذلك مع انفتاح الدنيا وكثرة الشهوات.

٥ - غربة أهل الحق ودعاة الإسلام، وتسلط الأعداء عليهم، وإيذاؤهم لهم بأشد أنواع الأذى والنكال.

٦ - غربة في عقيدة الولاء والبراء؛ حيث مُيِّعَتْ هذه العقيدة عند

كثير من الناس، وأصبح ولاء أكثرهم وحبهم وبغضهم للدنيا فحسب.

٧ - غربة في أهل العلم؛ حيث قلَّ أهل العلم الشرعي الصحيح، وانتشر الجهل وكثرت الشبهات.

مظاهر الفتنة في أزمنة الغربة:

إن من أشد ما يخشى على أهل الإسلام في أزمنة الغربة أربعة مظاهر من الفتن يمكن إجمالها فيما يلي: (والتفصيل يأتي في الحديث عن بقية أنواع الفتن كل في بابه) - إن شاء الله تعالى.

(١) - الفتنة التي تنشأ من الوقوع في الشبهات والتأثر بأهلها الذين هم الأكثرية في عصور الغربة، مما يحصل معه السقوط في فتن الشبهات سواء ما يتعلق منها بالعقائد أو الأعمال أو المخالفات الشرعية الأخرى، وتسويغ ذلك بشبهة شرعية تبرز عادة في غيبة الحق وفشو الجهل.

(٢) - الفتنة التي تنشأ من الوقوع في الشهوات التي تطمُّ وتنتشر عادة في عصور الغربة وقلة أهل الحق وانفتاح الدنيا بزخرفها على الناس؛ فلا يكاد يثبت ويستقيم على أمر الله - عز وجل - مع كل هذه الضغوط إلا القليل الذين يعتصمون بالله، ويقومون بأمره، ويدعون إلى سبيله. أما الكثرة الكاثرة الذين ضعف صبرهم، فتراهم يتنازلون عن دينهم شيئاً فشيئاً أمام مظاهر الغربة الفاتنة؛ سواء كان ذلك التنازل في العقيدة أو السلوك أو التزام الأحكام.

(٣) - فتنة اليأس والقنوط من ظهور الحق وانتصاره أمام تكالب الأعداء وتمكنهم وتسلطهم على أهل الخير بالأذى والابتلاء مما قد يؤدي

ببعض أهل الغربة إلى اليأس وترك الدعوة حين يرى (إقبال الدنيا على المبطلين، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين، تهتف لهم الدنيا وتصفق لهم الجماهير، وتتحطم في طريقهم العوائق، وتصاغ لهم الأمجاد، وتصفو لهم الحياة، وهو مهمل منكر لا يحس به أحد، ولا يحامي عنه أحد، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئاً... فإذا طال الأمد وأبطأ نصر الله، كانت الفتنة أشد وأقسى، وكان الابتلاء أشد وأعنف، ولم يثبت إلا من عصم الله)(١).

وإن فتنة اليأس والإحباط وترك الدعوة إلى الله - عز وجل - في عصور الغربة لا تقف عند حد؛ بل قد تؤدي بصاحبها - والعياذ بالله - إلى الضعف والنقص في دينه شيئاً فشيئاً أمام فتن الشبهات والشهوات؛ ذلك لأن أيامَ الغربةِ أيامُ فتنٍ وإغراءات وفشو منكرات وظهور وتمكين لأهل الباطل والفساد. فإن لم يكن للمسلم فئة صالحة - ولو كانت قليلة - يأوي إليها ويدعو معها إلى الله - عز وجل - حسب الوسع والطاقة فإنه لا بد وأن يتأثر بالفساد وأهله إلا من رحم الله - عز وجل - ومن غير المقبول عقلاً وشرعاً وحساً أن يبقى المسلم محافظاً على دينه أمام الغربة وهو تارك للدعوة بعيد عن أهلها، فإما أن يؤثرٌ أو يتأثّر.

نعم! يمكن أن يترك المسلم الدعوة ويبقى محافظاً على دينه في حالة الاعتزال التام عن الناس في شعف من الجبال، ولا إخال هذا متيسراً في هذا

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٩، ٢٧٢٠ (باختصار).

الزمان، ثم لو كان ذلك ممكناً: فمن ذا الذي يدعو إلى الله - عز وجل - ويواجه الفساد. وعلى أية حال فالعزلة الشرعية لها أحكامها وضوابطها والتي سنأتي عليها إن شاء الله تعالى في مبحث (سبل النجاة من الفتن).

إذن: فلن ينجو من فتنة الغربة في أي زمان أو مكان إلا أحد رجلين:

- إما مجاهد في سبيل الله - عز وجل - داع إلى الخير آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر.

- أو رجلٌ معتزلٌ عن الناس في مكان من الأرض يعبد ربه، ولا يخالط الناس.

وما سواهما فهو على شفا هلكة، ولعل هذا مما يفهم من الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «مِنْ خَيْرِ معاش الناس لهم: رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانَّه. أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف، أو بطن واد من هذه الأودية؛ يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير»[1].

(٤): فتنة العجلة وقلة الصبر على الأذى في الغربة؛ مما يؤدي ببعض من يقاسي ضغوطها إلى التسرع والاصطدام مع أهل الفساد دون مراعاة للمصالح والمفاسد؛ فينشأ من جرَّاء ذلك فتنة أشد وفساد أكبر على أهل الغربة.

---

(١) مسلم في الإمارة (٣/ ١٥٠٣، ١٥٠٤) (١٨٨٩).

ثانياً: الفتنة في العقيدة

ومن أهم مظاهر الفتنة في العقيدة ما يلي:

ا ـ فتنة الشرك والمشركين.

ب ـ فتنة النفاق والمنافقين.

جـ ـ فتنة البدعة والمبتدعين.

ا ـ فتنة الشرك والمشركين

سمى الله – عز وجل – الشرك في كتابه العزيز بالفتنة، فقال تعالى: ﴿ **وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾ [البقرة: ١٩١] وقال عز وجل: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ [الأنفال: ٣٩] والفتنة هنا في الآيتين بمعنى الشرك كما ذكر ذلك المفسرون.

والشرك هو أعظم الفتن في الدين والذي تهون في جنبه الفتن الأخرى وبخاصة الشرك الأكبر الذي يحبط جميع الأعمال، ويخرج صاحبه من الملة، ويخلده في نار جهنم؛ ولذلك وجب على المسلم أن يتقي هذه الفتنة بكل وسيلة، وأن يقدم ماله ونفسه دون دينه؛ فعن يونس بن جبير قال: شيَّعنا جندباً فقلت له: أوصنا قال: (أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن؛ فإنه نور بالليل المظلم وهدى بالنهار؛ فاعملوا به على ما كان من جهد وفاقة، فإن عرض بلاء، فقدِّم مالك دون دينك، فإن تجاوز البلاء،

فقدم مالك ونفسك دون دينك، فإن المخروب من خرب دينه، والمسلوب من سلب دينه، واعلم أنه لا فاقه بعد الجنة، ولا غنى بعد النار)[١].

ويحكي لنا التاريخ قصص الباحثين عن الحق الهاربين من الشرك وغضب الله – عز وجل – وندم بعضهم على بقائه في الشرك فترة من عمره ولم يسابق إلى التوحيد والدخول في ذلك مبكراً ومن هؤلاء:

سلمان الفارسي – رضي الله عنه – وبحثه عن الحق حتى اهتدى بعد رحلة طويلة وشاقة إلى الإسلام والتوحيد، ونبذ الشرك والمجوسية والقصة بطولها موجودة في كتب الحديث والسير[٢].

ومنهم: حكيم بن حزام – رضي الله عنه – حيث تأخر إسلامه إلى فتح مكة، وحسن؛ ومع ذلك بقي نادماً على تباطئه عن الإسلام وبقائه على الشرك. وقد بكى – رضي الله عنه – مرة فسأله ابنه: ما يبكيك يا أبه؟ قال: (خصال كلها أبكاني: أما أولها فبطء إسلامي؛ حيث سُبِقْتُ في مواطن كلها صالحة)[٣]. وكان رضي الله عنه إذا اجتهد في القَسَم قال: (لا والذي نجاني يوم بدر)[٤].

ومن هؤلاء أيضاً: زيد بن عمرو بن نفيل حيث إن له قصة شبيهة بقصة سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ وقد ساق البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ حديث زيد بن عمرو بن نفيل في صحيحه فقال:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٧٤.

(٢) انظر القصة بطولها في مسند الإمام أحمد ٥/ ٤٤١.

(٣) تهذيب الكمال ٧/ ١٨٣.

(٤) المصدر السابق ٧/ ١٨٥.

(قال موسى: حدثني سالم بن عبد الله ـ ولا أعلمه إلا تحدث به عن ابن عمر ـ أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدِّين ويتبعه، فلقيَ عالماً من اليهود، فسأله عن دينهم، فقال: إني لعلّي أن أدين دينكم، فأخبرني، فقال: لا تكونُ على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. قال زيدٌ: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنَّىٰ أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم؛ لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبُدُ إلا الله. فخرج زيدٌ فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً، وأنَّىٰ أستطيع؟ فهل تدلُّني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله؛ فلما رأى زيدٌ قولهم في إبراهيم – عليه السلام – خرج، فلما برزَ رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم)(١).

وقصص الباحثين عن التوحيد الهاربين من الشرك كثيرة وكثيرة، والمقصود بيان خطورة الشرك، وأنه رأس الفتن وأعظم المصائب، كيف لا وهو أصل الفساد في الأرض وهو الذنب الذي لا يغفره الله عز وجل، وصاحبه مخلد في النار. يقول شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى –: (فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره أو مطاع غير الرسول

---

(١) البخاري (٣٨٢٧ الفتح) كتاب مناقب الأنصار.

ﷺ، هو أعظم الفساد في الأرض؛ والإصلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ﷺ)[1] ا. هـ.

ومن أهم مظاهر فتنة الشرك ما يلي:

(١) الشرك في العبادة والنسك:

لا يزال هذا النوع من الشرك ضارباً بأطنابه في كثير من بلدان المسلمين، حيث عبادة الأضرحة والقبور والتعلق بالموتى استعانة واستغاثة وخوفاً ورجاءً ودعاؤهم من دون الله – عز وجل – ويتولى كبر هذه الفتنة رؤوس المتصوفة وأئمتهم الضالون المضلون برعاية من قبل الحكومات العلمانية التي تنشر فيها هذه المظاهر الشركية. وإن مما يحز في النفس ويبعث على الأسى أن هذه الفتن العظيمة وهذه المظاهر الخطيرة من الشرك والخرافة مع كثرتها وانتشارها، إلا أن جهود الدعوة والدعاة قليلة في مقابلها والتحذير منها وإنقاذ الناس من عقوبتها في الدنيا والأخرة، ولكي تتحقق النجاة من فتنة الشرك فإنه يجب التركيز في دعوة الناس على التوحيد أولاً، وإيضاح ما يضاده ويناقضه، وأن يكون لهذه الدعوة الأولوية عند الدعاة إلى الله – عز وجل – في كل مكان، وأن يجند لها كل وسيلة، وأن لا يطغى عليها أي جانب من جوانب الدعوة الأخرى؛ لأن فتنة الشرك فتنة عظيمة يهون عندها ما دونها من الفتن والمعاصي.

وثمة مسألة مهمة تتعلق بفتنة الشرك في العبادة والنسك يجب علينا

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/ ٢٤، ٢٥.

أن نهتم بها ونحذر من الوقوع فيها ألا وهي فتنة الخوف الشركي من المخلوق، أو الرجاء والرغبة والتعلق به تعلقاً لا يصلح إلا لله – عز وجل – فنحن نعلم أن الخوف والرجاء والرغبة والرهبة من أنواع العبادة التي لا يُتعبد بها إلا لله – عز وجل – فمتى ما حل بالقلب خوف التعظيم والسر من المخلوق أو التعلق به ثقة واعتماداً، وتفويضاً؛ فإن مثل هذا يعد من السقوط في فتنة الشرك سواء كان الأصغر منه أو الأكبر على تفصيل في ذلك[1].

(٢) فتنة الشرك في الطاعة والاتباع:

هذه الفتنة من فتن الشرك لا تقل عن سابقتها خطورة وشناعة، بل قد تكون أشد منها؛ وذلك لقلة من ينتبه من الناس لهذا النوع من الشرك؛ حيث لم تحصل الكفاية في التحذير منه وبيانه للناس. وأكثر الناس قد يحصر الشرك في شرك العبادة والنسك، فلا يراه إلا في السجود والركوع والذبح والنذر والاستعانة... إلخ فحسب. ولا يدور في الذهن أن العبد قد يقع في الشرك الأكبر بمجرد الطاعة والاتباع لشخص أو هيئة بدلت شرع الله – عز وجل – واستحلت ما حرم الله – عز وجل – وشرعت ما لم يأذن به الله – عز وجل – بشرط أن يعلم المتبع والمطيع أن المتبوعين قد استحلوا في شرعهم ما هو معلوم من الدين بالضرورة تحريمه، أو حرموا ما هو معلوم من الدين بالضرورة حله، فوافقهم على ذلك عالماً بأن التشريع من خالص

---

(١) انظر للفائدة فتح المجيد. باب قول الله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾. وباب قول الله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾.

حقوق الربوبية، وكان مختاراً غير مكره الإكراه الشرعي المعتبر؛ فإنه بهذا الصنيع يصير مشركاً بالله - عز وجل - في حكمه؛ حيث اعتقد أحقية التشريع والحكم لغير الله - عز وجل - وأطاعهم على ذلك قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] أي إن أطعتم المشركين في حل الميتة، واتبعتموهم على ذلك تاركين شرع الله - عز وجل - في تحريمها فإن هذا من فاعله شرك أكبر؛ كمن سجد أو ركع لصنم. وقد وصف الله - عز وجل - أهل الكتاب المطيعين لأحبارهم ورهبانهم في تشريع ما لم يأذن به الله - وصفهم بالشرك فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وإن هذه الصورة من صور الشرك لتظهر بشكل جلي في عصرنا اليوم؛ حيث نُبذَ شرع الله - عز وجل - في أكثر بلدان المسلمين، وجاء الطواغيت بحكم الغرب الكافر ليُحكم به في دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم. فالحكم بتشريع البشر المناقض لشرع الله - عز وجل - هو شرك أكبر من فاعله العالم المختار، والمتبع الراضي بهذه التشريعات الطاغوتية هو الآخر قد وقع في فتنة الشرك إذا كان عالماً مختاراً.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً؛ حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل؛ فيعتقدوا تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع

علمهم أنهم خالفوا دين الرسل؛ فهذا كفر؛ وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم؛ فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دونما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء.

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالم من أهل الذنوب[١]. ا. هـ.

وما دام أن الأمر بهذه الخطورة فقد وجب الحذر الشديد من هذه الفتنة وتحذير الناس منها وذلك بتفهيمها للناس، وتكثيف الكلام والكتابة حولها، ووجوب رفضها والبراءة منها وأنها تناقض الرضا بالله – عز وجل – رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً.

وإن مما يكرس هذه الفتنة من فتن الشرك ذاك المفهوم المنحرف للعبادة والذي يتولى كبره العلمانيون في كل مكان؛ وذلك بمساعدة الغزو الفكري الذي سُلِّطَ على ديار المسلمين إبان الاستعمار وبعده، فانحرفت كثير من المفاهيم الإسلامية الصحيحة، ومن بينها مفهوم العبادة الذي حصر في مجرد الشعائر التعبدية وما يلحق بها من ذكر ودعاء؛ ولا دخل للعبادة بعد ذلك في شؤون الحياة الأخرى فنشأ من ذلك الفصام النكد بين الدين والحياة والدين والدولة، وأصبح بالإمكان عند بعض الناس أن يتلقى عبادته الشخصية من الإسلام، ولا مانع لديه أن يتلقى بقية شؤون حياته من

---

(١) كتاب الإيمان: (ص ٦٧).

الغرب أو الشرق الكافرين.

وقد سبق بيان أن ذلك شرك في الطاعة والاتباع والتلقي ولقد أسهمت بدعة الإرجاء التي تفصل العمل عن الإيمان بسهم وافر في تكريس مثل هذ الانحرافات والفتن؛ فانتشر الفساد من جراء هذا المعتقد الهدام وأصبح المبدلون لشرع الله عز وجل والمشرعون لأحكام الكفر الحاكمون بها في الناس في نظر هؤلاء بمنأى عن أن يقعوا في أنواع الشرك مهما عملوا؛ لأنهم يقولون لا إله إلا الله، ولم يستحلوا هذا التبديل!! ويرد هذا القول العلامة ابن عثيمين – حفظه الله تعالى – فيقول: (... وفي ظني أنه لا يمكن لأحد أن يطبق قانوناً مخالفاً للشرع يحكم به في عباد الله إلا وهو يستحله ويعتقد أنه خير من قانون الشرع، هذا هو الظاهر، وإلا فما الذي حمله على ذلك؟) ا.هـ[1].

(٣) فتنة الشرك في الولاء:

قال الله – تعالى –: ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٤]. وقال – تعالى –: عن إمام الحنفاء إبراهيم – عليه الصلاة والسلام –: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الزخرف: ٢٦ – ٢٨].

---

(١) عن كتاب: فتنة التكفير (حاشية ص: ٢٨).

والآيات في ذكر توحيد الولاء لله – عز وجل – وما يلزم عليه من البراءة من الشرك وأهله كثيرة ومتنوعة. والمقصود هنا الإشارة إلى فتنة الشرك في الولاء والتحذير من خطرها والسقوط فيها؛ ذلك لأنها لم تعط الاهتمام الكافي الذي يليق بهذا الركن الركين من التوحيد وما يضاده من الشرك المتمثل بتولي أعداء الله المشركين، أو تولي نظمهم وأفكارهم الكفرية محبة ونصرة وتفضيلاً.

إن كلمة التوحيد تقوم على ركنين عظيمين لا تصح إلا بهما:

الأول: الولاء لله – عز وجل – المتمثل في توحيده وإخلاص العبادة والتوجه له – سبحانه – وموالاة من يحبه سبحانه من أنبيائه وعباده الصالحين كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

الثاني: البراءة من كل ما يُعبد من دون الله – تعالى – والكفر به ومعاداته وبغضه. ولا تقوم كلمة (لا إله إلا الله) إلا على هذين الركنين الذين هما أيضاً ركنا الكلمة التي جعلها إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – باقية في عقبه ﴿**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ وقد جاء هذا المعنى في قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله»[1]. ويعلق الإمام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله تعالى – على هذا الحديث بقوله: (فإنه لم يجعل

---

(١) صحيح مسلم. الإيمان (٢٣)، أحمد ٣/ ٤٧٢.

التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونـه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله؛ فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها!)[٢] ا.هـ.

إذن: فإن فتنة الشرك في الولاء وتولي أعداء الله المشركين بمحبتهم لدينهم أو محبة مذاهبهم الكفرية، أو نصرتهم على المسلمين بيد أو مال أو مشورة: كل ذلك من الشرك الأكبر الذي يجب على كل مسلم أن يحذر من السقوط فيه، كما يجب أن يحذّر غيره منه، وأن يعطى الحظ الأوفر من الكلام والكتابة حوله رحمة بالناس من أن يقعوا في شره وفتنته، وبخاصة في زماننا هذا؛ حيث تسلط الكفار على ديار المسلمين إما عسكرياً أو فكرياً، وتداعت الأمم الكافرة على الأمة المسلمة من كل حدب وصوب حتى انخدع بهم كثير من المسلمين وانبهروا بما عندهم من الإمكانيات المادية، ووافق ذلك جهلاً عند أكثر المسلمين، فسقط من سقط في هذه الفتنة العمياء، فتنة محبة الكافر ونظمه، وسقط ذلك الحاجز المنيع الذي وقف شامخاً في تاريخ المسلمين تتحطم عليه محاولات الكفار في غزوهم لقلوب المسلمين. فلم يكن للكفار طيلة ذلك التاريخ إلا البغض والجهاد والبراءة منهم.

أما اليوم وبعد أن ضعفت هذه العقيدة أصبحنا نسمع من ينادي بنبذ التعصب الديني والسلام مع الكافر، وأن يُحالَف بدل أن يُخالَفَ، ويعاهَد

---

(٢) كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (باب تفسير لا إله إلا الله) مسائل الباب.

بدل أن يجاهَد، وأن يعيش العالم الجديد في محبة وسلام... إلى آخر هذه الصيحات الخطيرة التي ما نبعت إلا من فتنة الشرك في الولاء وسقوط الركن الثاني من كلمة التوحيد ألا وهو الكفر بالطاغوت والبراءة من الشرك والمشركين، وما أعظمها من فتنة، وما أشنعها من مصيبة.

وبقيت مسألة أرى أنها جديرة بالذكر في هذا المقام؛ لأنها من الفتن أيضاً: وهذه المسألة هي ما نراه اليوم في أكثر ديار المسلمين من تجاهل لهذا الركن العظيم من أركان التوحيد ألا وهو الكفر بالطاغوت والبراءة من المشركين، بل قد يذهب بعضهم ـ ويا للأسف ـ إلى توجيه التهم الجائرة لكل من يثير هذا الأمر ويؤكد على خطره، ويحذر الناس من الوقوع في فتنته؛ ولا ندري ما سبب هذه التهم وهذا التشنيع: ألأنه حديث عن الطواغيت والكفر بهم وما أكثرهم في زماننا اليوم؟ أم هي ردة فعل لبعض التصرفات غير المنضبطة من بعض المتحمسين والمتسرعين؟ وفي جميع الأحوال لا يوجد أي مبرر لتجاهل هذا الركن العظيم لكلمة التوحيد، الذي ما شرع الجهاد إلا من أجله، وما أوذي الأنبياء وأتباعهم إلا بسببه، ويكفي المرء أن يستعرض ولو على وجه السرعة كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأحفاده وأئمة الدعوة بعده – رحمهم الله جميعاً – ليجد كم لهذا الأمر من شأن عظيم عندهم بحيث لا يخلو منه كتاب من كتبهم ولا رسالة من رسائلهم.

ألا فليتق الله أولئك الذين يُغفلون الحديث عن الكفر بالطاغوت عندما يتحدثون عن التوحيد. وليتقوا الله أيضاً في إخوانهم الذين يدعون إلى الله – عز وجل – ويدعون إلى التوحيد بشموله وأركانه ولا يطلقون التهم

الظالمة عليهم بجريرة الكلام على التوحيد والبراءة من المشركين؛ فهذا في حقيقة الأمر اتهام يتجاوز إلى أئمة السلف من القديم والحديث الذين كانوا دائماً يؤكدون في شرحهم لكلمة التوحيد على عبادة الله وحده والكفر بالطاغوت وبكل ما يعبد من دون الله – عز وجل – وما أحسن ما قاله ابن عقيل صاحب الفنون – رحمه الله تعالى –: (إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم في الموقف بـ «لبَّيك» وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة)[١] ا.هـ.

٤ – فتنة الشرك الأصغر:

والفتنة بهذا النوع من الشرك من أكثر الفتن انتشاراً على مستوى الأفراد – أعاذنا الله منه – ولا يسلم منه إلا من رحم الله – عز وجل –، وسمي أصغر بالنسبة للشرك الأكبر المخرج من الملة، وإلا فهو من أعظم الكبائر وأشنعها.

ولقد حذرنا ﷺ من شره وسماه الشرك الخفي، وأنه أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، وأنه من أمراض القلوب الخطيرة التي تؤول بصاحبها إلى الهلكة والبوار. ومن مظاهر هذا الشرك: الرياء والسمعة في الأقوال والأعمال، وإرادة العبد بعمله الدنيا، والعُجب بالنفس والعمل.

---

(١) الآداب الشرعية ١/ ٢٦٨.

وأسوق في هذا الموضوع آية من كتاب الله – عز وجل – لعلها توقظ القلوب الحية، وتنبهها على خطورة هذا المرض وشدة فتنته وفتكه بالأعمال، يقول الله عز وجل:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وقد ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذه الآية في الباب الذي ترجم له في كتاب التوحيد بقوله: (باب: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا) وساق الطبري – رحمه الله تعالى – بسنده إلى مجاهد – رحمه الله تعالى – أنه كان يقول في هذه الآية: (هم أهل الرياء، هم أهل الرياء)[١].

كما ساق بسنده حديثاً عظيماً مروعاً عند هذه الآية غشي على أبي هريرة – رضي الله عنه – عند تحديثه به، وبكى معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – عند سماعه بكاءً شديداً، وقد جاء هذا الأثر في بعض كتب الحديث مختصراً، لكن رواية ابن جرير الطبري أتم وأشد تأثيراً. قال – رحمه الله تعالى –:

(... قال أخبرنا ابن المبارك، عن حيوة بن شريح قال: حدثني الوليد ابن أبي الوليد أبو عثمان: أن عقبة بن مسلم حدثه: أن شُفَيّ بن ماتع

(١) انظر تفسير الطبري عند الآية (١٥، ١٦) من سورة هود.

الأصبحي حدثه: أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة! فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدِّث الناس، فلما سكت وخلا، قلت: أنشدك بحق، وبحق، لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلتَه وعلمتَه. قال: فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ! ثم نشغ نشغة، ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما فيه أحد غيري وغيره! ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًّا على وجهه، واشتد به طويلاً، ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ: أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة، نزل إلى القيامة ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية. فأول من يدعى به، رجلٌ جمع القرآن، ورجل قُتِلَ في سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى، يا رب! قال: فماذا عملت فيما عُلِّمْت؟ قال: كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار! فيقول الله له: كذبت! وتقول له الملائكة: كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يقال: «فلان قارئ»، فقد قيل ذلك! ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسِّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى، يا رب! قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق. فيقول الله له: كذبت! وتقول له الملائكة: كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يقال: «فلان جواد»، فقد قيل ذلك! ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقال له: فيما ذا قُتلت؟ فيقول: أُمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قُتلت. فيقول الله له: كذبت! وتقول له الملائكة:

كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يقال: «فلان جريء»، وقد قيل ذلك! ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة! أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة.

قال الوليد أبو عثمان: فأخبرني عقبة أن شفياً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا.

قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم: أنه كان سيَّافاً لمعاوية، قال: فدخل عليه رجل فحدثه بهذا عن أبي هريرة، فقال أبو هريرة: وقد فعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقي من الناس! ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظننا أنه هلك، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشرٍّ! ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، فقال: صدق الله ورسوله: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [هود: ١٥] وقرأ إلى: ﴿**وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [هود: ١٦][(١)].

هكذا كان خوف السلف - رحمهم الله تعالى - من الشرك الخفي وفتنته وكان بعضهم ينصح بعضاً في هذا الأمر. (قال أبو بكر بن عياش للحسن بن الحسين بالمدينة: ما أبقت الفتنة منك؟ فقال: وأي فتنة رأيتني فيها؟ قال: رأيتهم يقبلون يدك ولا تمنعهم)[(٢)].

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره عند الآية (١٥، ١٦) من سورة هود وعزاه (شاكر) إلى الترمذي في كتاب الزهد (باب الرياء والسمعة). وقال الترمذي: حسن غريب. لكن (شاكر) رحمه الله تعالى قال: إن هذا المتن له شواهد صار بها من جملة الحسن.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٥٠٠.

وهنا مسألة يجب الانتباه إليها ألا وهي الحذر من ترك أعمال الخير والدعوة إلى الله – عز وجل – بدعوى الخوف من الرياء وسلامة القلب من آثاره؛ فإن في هذا فتنة ومدخلاً شيطانياً لترك الصالحات وفشو المنكرات.
يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

(ومن كان له ورد مشروع من صلاة الضحى، أو قيام ليل، أو غير ذلك، فإنه يصليه حيث كان، ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع لأجل كونه بين الناس، إذا علم الله من قلبه أنه يفعله سراً لله مع اجتهاده في سلامته من الرياء، ومفسدات الإخلاص..

... ومن نهى عن أمر مشروع بمجرد زعمه أن ذلك رياء فنهيه مردود عليه من وجوه:

(**أحدها**): أن الأعمال المشروعة لا يُنهى عنها خوفاً من الرياء، بل يؤمر بها وبالإخلاص فيها، ونحن إذا رأينا من يفعلها أقررناه، وإن جزمنا أنه يفعلها رياء، فالمنافقون الذين قال الله فيهم: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢)**﴾ [النساء: ١٤٢] فهؤلاء كان النبي ﷺ والمسلمون يقرونهم على ما يظهرونه من الدين، وإن كانوا مرائين، ولا ينهونهم عن الظاهر؛ لأن الفساد في ترك إظهار المشروع أعظم من الفساد في إظهاره رياء، كما أن فساد ترك إظهار الإيمان والصلوات أعظم من الفساد في إظهار ذلك رياء؛ ولأن الإنكار إنما يقع على الفساد في إظهار ذلك رئاء الناس.

(الثاني): لأن الإنكار إنما يقع على ما أنكرته الشريعة، وقد قال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أن أشق بطونهم». وقد قال عمر بن الخطاب: من أظهر لنا خيراً أحببناه، وواليناه عليه، وإن كانت سريرته بخلاف ذلك. ومن أظهر لنا شراً أبغضناه عليه، وإن زعم أن سريرته صالحة.

(الثالث): أن تسويغ مثل هذا يفضي إلى أن أهل الشرك والفساد ينكرون على أهل الخير والدين إذا رأوا من يظهر أمراً مشروعاً مسنوناً، قالوا: هذا مُراءٍ، فيترك أهل الصدق والإخلاص إظهار الأمور المشروعة، حذراً من لمزهم وذمهم، فيتعطل الخير، ويبقى لأهل الشرك شوكة يظهرون الشر، ولا أحد ينكر عليهم، وهذا من أعظم المفاسد...)[1] اهـ.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٣/ ١٧٤، ١٧٥.

ب : فتنة النفاق والمنافقين

النفاق داء عضال، وفتنة عمياء تأكل الأخضر واليابس، بل تأكل الدين من جذوره. نعوذ بالله من النفاق وفتنته، ومن فتنته (أن يكون الرجل ممتلئاً منه وهو لا يشعر ... وكثيراً ما يخفى على من تلبَّس به" فيزعم أنه مصلح وهو مفسد)[١]. ويتناول الحديث عن هذه الفتنة جانبين مهمين:

١ – الفتنة التي تنشأ من تمكن النفاق من القلب.

٢ – الفتنة التي تنشأ من تمكن المنافقين وظهورهم.

أولاً: الفتنة التي تنشأ من تمكن النفاق من القلب:

النفاق على قسمين:

أحدهما: النفاق الاعتقادي: ويسمى النفاق الأكبر. وهو إبطان الكفر، وبغض الإسلام وأهله، وإظهار الإسلام ومحبة أهله. وهذا النوع من النفاق يعد أعظم فتنة يبتلى بها العبد؛ وذلك لأنه ينقل صاحبه من الملة، ويؤول بصاحبه إلى الخلود في الدرك الأسفل من النار؛ وأي فتنة أعظم من ذلك؟ قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١٤٥] لأن المنافق اعتقاداً أشد جرماً وفتنة وذنباً من الكافر الصريح المظهر كفرَه. ويكفينا في ذكر شناعته وأهله وعظيم فتنتهم

---

(١) انظر مدارج السالكين ١ / ٣٤٧.

ما ذكر الله – عز وجل – عنهم في صدر سورة البقرة، وما ذكره الله – عز وجل – عن أوصافهم في سورة التوبة التي فضحت النفاق وأهله، وما جاء عنهم في سورة المنافقون.

والآيات في ذكر المنافقين وأوصافهم والتحذير من فتنهم كثيرة، وما ذكر عن فتنة الشرك وأنواعه في الفقرة السابقة فإنه من باب أوْلى ينطبق على هذا النوع من النفاق بل هو أشد؛ لأن مظاهر الشرك السابق ذكرها تظهر على أصحابها فيعرفهم الناس فيحذروهم أما المنافق الذي يبطن هذه الشركيات والكفريات ويظهر خلافها فإن فتنته على نفسه وغيره أشد.

ومن أول من يصدق عليه أوصاف المنافقين في عصرنا الحاضر أولئك الباطنيون الزنادقة من رافضة وإسماعيلية ودروز ونصيريين، وعلمانيين وغيرهم؛ ممن يظهرون الانتساب إلى الإسلام وهم يبطنون الكفر به وبغضه والسعي لهدمه وإطفاء نوره.

الثاني: النفاق العملي: (ويسمى النفاق الأصغر).

وهذا النوع من النفاق لا ينقل صاحبه عن الإسلام ما دام أصل الإيمان في القلب، لكنه سمي نفاقاً لتلبُّس صاحبه ببعض أعمال المنافقين التي يخالف فيها الظاهر ما في الباطن كالكذب والخيانة والغدر.. إلخ.

ولا شك أن هذه ذنوب عظيمة وصاحبها على خطر شديد، وقد عرض نفسه لفتنة النفاق الأكبر فيما لو تمكنت منه جميعها. وهذا النوع من النفاق هو الذي ورد ذكره في قوله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من نفاق حتى

يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»[١].

وهذا النوع من النفاق هو الذي خافه السلف وأشفقوا من فتنته الكبرى؛ وحري بمن بعدهم أن يكونوا أشد خوفاً على أنفسهم من هذه الفتنة؛ فما يخافها إلا مؤمن، ولا يأمنها إلا منافق. ومن هذه المواقف السلفية ما يلي:

● ذكر الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه قوله:

(باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل. ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق. وما يُحذَر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول الله تعالى: ﴿ **وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [**آل عمران**: ١٣٥])[٢].

وإتماماً للفائدة أسوق شرح ابن حجر – رحمه الله تعالى – لهذه الآثار حيث يقول:

---

(١) البخاري ك. الإيمان (٣٤) (فتح ١/ ١١١) مسلم ك الإيمان ١/ ٧٨ واللفظ له (٥٨).

(٢) البخاري ك الإيمان (١/ ١٣٥فتح).

(قوله: (وقال إبراهيم التيمي) هو من فقهاء التابعين وعبادهم، وقوله «مكذباً» يروى بفتح الذال يعني: خشيت أن يكذبني من رأى عملي مخالفاً لقولي؛ فيقول: لو كنت صادقاً ما فعلت خلاف ما تقول، وإنما قال ذلك لأنه كان يعظ الناس. ويروى بكسر الذال وهي رواية الأكثر، ومعناه أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل. وقد ذم الله من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصر في العمل فقال: ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴿٣﴾ ﴾ [الصف: ٣] فخشي أن يكون مكذباً أي مشابهاً للمكذبين، وهذا التعليق وصله المصنف في تاريخه عن أبي نعيم وأحمد ابن حنبل في الزهد عن ابن مهدى كلاهما عن سفيان الثوري عن أبي حيان التيمي عن إبراهيم المذكور.

قوله: (وقال ابن أبي مليكة.. إلخ) هذا التعليق وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه، لكن أبهم العدد. وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطولاً في كتاب الإيمان له، وعينه أبو زرعة الدمشقي في تاريخه من وجه آخر مختصراً كما هنا، والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلّهم: عائشة وأختها أسماء، وأم سلمة، والعبادلة الأربعة، وأبو هريرة، وعقبة بن الحارث، والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة أجلّ من هؤلاء كعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك فكأنه إجماع؛ وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص. ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى – رضي الله عنهم –. وقال ابن

بطال: إنما خافوا لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغير ما لم يعهدوه ولم يقدروا على إنكاره، فخافوا أن يكونوا داهنوا بالسكوت.

قوله: (ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل) أي لا يجزم أحد منهم بعدم عروض النفاق لهم كما يجزم بذلك في إيمان جبريل، وفي هذا إشارة إلى أن المذكورين كانوا قائلين بتفاوت درجات المؤمنين في الإيمان، خلافاً للمرجئة القائلين بأن إيمان الصدِّيقين وغيرهم بمنزلة واحدة. وقد روي في معنى أثر ابن أبي مليكة حديث عن عائشة مرفوع رواه الطبراني في الأوسط لكن إسناده ضعيف.

قوله: (ويذكر عن الحسن) هذا التعليق وصله جعفر الفريابي في كتاب (صفة المنافق) له، من طرق متعددة بألفاظ مختلفة. وقد يستشكل ترك البخاري الجزم به مع صحته عنه، وذلك محمول على قاعدة ذكرها لي شيخنا أبو الفضل بن الحسين الحافظ - رحمه الله - وهي: أن البخاري لا يخص صيغة التمريض بضعف الإسناد، بل إذا ذكر المتن بالمعنى أو اختصره أتى بها أيضاً، لما علم من الخلاف في ذلك، فهنا كذلك؛ وقد أوقع اختصاره له لبعضهم الاضطراب في فهمه فقال النووي: «ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق» يعني الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال: ﴿ **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٩]. وكذا شرحه ابن التين وجماعة من المتأخرين، وقرره الكرماني هكذا، فقال: ما خافه، أي: ما خاف من الله، فحذف الجار وأوصل الفعل إليه. قلت: وهذا الكلام وإن كان صحيحاً لكنه خلاف مراد المصنف ومن نقل عنه. والذي أوقعهم

في هذا هو الاختصار وإلا فسياق كلام الحسن البصري يبين أنه إنما أراد النفاق فلنذكره. قال جعفر الفريابي: حدثنا قتيبة حدثنا جعفر بن سليمان عن المعلى بن زياد: سمعت الحسن يحلف في هذا المسجد بالله الذي لا إله إلا هو: ما مضى مؤمن قط ولا بقي إلا وهو من النفاق مشفق، ولا مضى منافق قط ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن. وكان يقول: من لم يخف النفاق فهو منافق)[1] ا.هـ.

● (عن مجاهد أن رجلاً قدم على ابن عمر فقال له: كيف أنتم وأبو أنيس الضحاك بن قيس؟ قال: نحن وهو إذا لقيناه قلنا له ما يُحِبُّ، وإذا ولَّينا عنه قلنا له غير ذلك، قال: ذاك ما كنا نعد ونحن مع رسول الله ﷺ من النفاق)[2].

● كان أبو الدرداء (رضي الله عنه) إذا فرغ من التشهد في الصلاة يتعوذ من النفاق، ويكثر التعوذ منه، فقال له أحدهم: وما لك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟ فقال: دعنا عنك؛ فوالله إن الرجل ليقلب عن دينه في الساعة الواحدة فيخلع منه[3].

● (عن خالد بن صفوان، قال: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: يا خالد، أخبرني عن حَسَن أهل البصرة؟ قلت: أصلحك الله، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به: أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام

---

(١) فتح الباري ١/ ١١٠، ١١١.
(٢) المطالب العالية (٣/ ١٨٥) (٣٢٠٥).
(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٨٢.

على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك، كيف يضل قوم هذا فيهم؟)[١].

● عن أبي جعفر الحذاء قال: سمعت ابن عيينة يقول: (إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور)[٢].

وبعد هذه النقولات السريعة من مواقف السلف من فتنة النفاق وخوفهم على أنفسهم منها فإنه يمكن حصر أهم مظاهر النفاق في مظهر واحد ألا وهو:

مخالفة الظاهر للباطن ومناقضة العلانية للسريرة.

وهذا أهم مظهر من مظاهر النفاق، وقد يكون سبباً للنفاق الاعتقادي والخروج من الملة إذا وصل إلى حد إبطان الكفر وإظهار الإسلام - عياذاً بالله - وقد يكون نفاقاً عملياً إذا كان أصل الإيمان موجوداً ولكنه يبطن الكذب أو الغدر أو الخيانة، أو غير ذلك، ويظهر أضدادها؛ وهذا هو الذي يهم العبد المؤمن لكثرة من يقع فيه من المسلمين - أعاذنا الله منه - ولهذا النوع من النفاق صور عديدة منها:

(١) إظهار الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، مع أن الأمر في الباطن خلاف ذلك؛ حيث يكون حب الدنيا قد تمكن من القلب وسافر في

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٧٦.

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٢٣٤).

أوديتها: يفرح بإقبالها، ويحزن لفواتها.

(٢) الاتصاف بخصلة أو أكثر من خصال المنافقين الواردة في الحديث من الكذب أو الخيانة أو الغدر وإخلاف الوعد.

(٣) إظهار الغيرة على الدين والحدب عليه وأنه الهمُّ الشاغل للنفس، مع أن هذا الادعاء لا يتعدى اللسان أو الكتابة، أما القلب فيكاد يفرغ من هذا الهم المدعى؛ لأنه قد امتلأ باهتمامات أخرى تسبق الاهتمام بالإسلام في سلم الأولوية. وهذه الصورة عادة ما تظهر عند بعض الوعاظ أو الخطباء أو الكتاب الذين يظهرون الحرقة والألم على الإسلام والمسلمين، والله أعلم بما في القلوب. فلننتبه لخطر هذه المناقضة، ولنحذر هذه الفتنة؛ فهي من صفات المنافقين التي ذكرها الله عز وجل عنهم بقوله: ﴿ **يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وعندما اعتذر المنافقون عن تخلفهم يوم الحديبية بانشغالهم بالأموال والأولاد أكذبهم الله عز وجل بقوله: ﴿ **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ [الفتح: ١١].

وبين لهم أن الذي في قلوبهم هو سوء الظن بالله عز وجل: ﴿ **بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)** ﴾ [الفتح: ١٢].

(٤) إظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع مخالفة ذلك في غفلة الناس من غير عذر في ذلك قال عز وجل: ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف: ٣].

(٥) مخالطة الكفار أو الظلمة والفسقة ومدحهم أو موافقتهم فيما يقولون ويعملون من مخالفات ثم ذكرهم بالسوء بعد مفارقتهم، وهذا هو الذي كان أصحاب محمد ﷺ يعدونه من النفاق ويخافون منه.

(٦) إظهار المحبة والشفقة للناس وسلامة القلب نحوهم مع تلبُّس القلب بأمراض كثيرة تناقض هذا الادعاء؛ كأمراض الحسد والحقد والشحناء وغيرها.

(٧) ترك الاهتمام بأمر هذا الدين وأهله، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخذلان أهله، وعدم الاهتمام بأحوال المسلمين وشئونهم، وجعل مدار الاهتمام حول النفس ومصالحها الدنيوية من أموال وأولاد وغيرها. فمَنْ هذه حاله لا يدور إلا في فلك نفسه ودنياه؛ فإذا سلمت له المآكل والمشارب ومتع الدنيا فلا يهمه بعد ذلك شيء، بينما لو حصل له ما ينقص من دنياه لما قر له قرار ولا هدأ له بال حتى يدفع هذا النقص ويزيله بأي وسيلة كانت. قال تعالى عمَّن حضر غزوة أحد من طائفة المؤمنين، وطائفة المنافقين: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فوصف طائفة المنافقين بأنهم مهتمون بأنفسهم، ويخافون عليها الموت، ولا يهمهم وراء ذلك شيء.

(٨) الكسل عن الطاعات والتثاقل فيها، والمراءاة في بعضها، وقلة ذكر الله. وقد ذكر الله - عز - وجل هذه الأوصاف في قوله: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ**

النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢] هذا وإن كانت هذه الآية في النفاق الاعتقادي لكن لا يمنع من الاستدلال بها في ذكر أعمال المنافقين والتحذير منها، وأن المسلم قد يتلبس ببعض أعمال الكفار أو المنافقين مع بقائه على أصل الإيمان لكن هذا ينقص إيمانه الواجب، ويخشى على صاحبه المصرّ عليها من سوء العاقبة - عياذاً بالله تعالى -.

يقول الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى: (من أصر على نفاق المعصية خُشِيَ عليه أن يفضي به إلى نفاق الكفر)[١].

ثانياً: الفتنة التي تنشأ من تمكن المنافقين وظهورهم:

عندما يتمكن الكفار الصرحاء ويظهرون على المسلمين فإن في هذا فتنة ومصيبة ولا شك، ولكن أعظم منها فتنة عندما يتمكن المنافقون المبطنون للكفر والزندقة والمظهرون للإسلام والانتساب إليه كما هو الحال في تمكن العلمانيين في أكثر بلدان المسلمين، أو تمكن دولة الرفض الخمينية التي تخدع الناس الجهلاء بحب آل البيت وحب الإسلام وهي تبطن كره الإسلام الحق، وتبغض السنة وأهلها، وتتمنى ذلك اليوم الذي تظهر فيه على أهل الإسلام؛ فلا ترقب فيهم إلاًّ ولا ذمة، وأوضح مثال لذلك ما قصه التاريخ الموثَّق علينا عن دور الرافضة في دخول التتار إلى ديار المسلمين والأفاعيل الشنيعة التي فعلت بالمسلمين في بغداد وغيرها؛ وكان من أسباب ذلك ممالأة ابن العلقمي الرافضي وطائفته لرئيس التتار وخيانته

---

(١) فتح الباري ١ / ١١١.

للخليفة العباسي الذي كان قد استوزره وقربه.

والسبب في كون فتنة المنافقين أشد من الكفار هو أن الكافر يعرفه الناس ويأخذون الحذر منه، ويبقى في النفوس بغضه وترقب اليوم الذي يزول فيه. أما المنافق المخادع للناس باسم الإسلام فقد يحبه أكثر الناس وينخدعون به فلا يبقى في النفوس بغضه وتمني زواله، فينشأ من ذلك فتنة وفساد كبير.

ومن أخطر صور الفتنة بالمنافقين صورة رئيسية واحدة تنبثق منها كل أشكال الفتنة بالمنافقين ألا وهي:

فتنة الخداع والتلبيس[١]:

وهي من أشد أنواع الفتن وبخاصة في عصرنا الحاضر الذي تسلط فيه المنافقون على أكثر ديار المسلمين، وتمكنوا من وسائل التأثير والإعلام التي تعمل ليل نهار في خداع الناس باسم الإسلام والاحتفالات بمناسباته، وهم الذين أقصوا الإسلام عن الحكم والتحاكم، وهم الذين يسعون لتشويهه وإظهاره للناس بأنه صلة بين العبد وربه ولا دخل له بعد ذلك في شئون الحياة الأخرى.

ومن صور فتنة الخداع والتلبيس ما يلي:

١ ـ تسويغهم عزل الإسلام عن الحياة الاقتصادية والسياسية وغيرها من شئون الحياة بقولهم: إن دين الإسلام دين الصدق والنظافة والتقوى،

---

(١) انظر لمزيد من الفائدة رسالة: (ولا تلبسوا الحق بالباطل) للمؤلف.

وكل هذا لا يتفق مع ألاعيب السياسة ومهاترات السياسيين وأكاذيبهم؛ فلهذا ينبغي أن يُترفع بالإسلام عن دهاليز السياسة الملوثة؛ كل ذلك بزعمهم حماية للإسلام ومحافظة عليه من هذه اللوثات. ومع ذلك فقد يوجد من ينخدع بمثل هذا الكلام الفارغ الفاجر، وبالتالي يسقط في فتنة التضليل والتلبيس.

٢ ـ ومن صور الخداع والتلبيس التي قد ينخدع بها بعض السذج من الناس ويسقطون في فتنتها: ما يرفعه المنافقون في أكثر بلدان المسلمين في وجه أهل الخير والإصلاح من أنهم دعاة شر وإرهاب وفساد، وما تجلبه وسائل الإعلام المختلفة وتدندن به على وصفهم ورميهم بهذه الأوصاف الظالمة حتى تأثرت بذلك بعض الأدمغة المخدوعة، فسقطت في فتنتهم، ورددت معهم هذا الظلم والخداع، وبالتالي تعرض أهل الخير للأذى والنكال باسم المصلحة الشرعية ومكافحة الإرهاب والفساد؛ وذلك بعد أن تهيأت أذهان المخدوعين من المسلمين لهذا الخداع والتلبيس.

وصور التلبيس والتضليل من المنافقين كثيرة جداً؛ والمقصود الحذر من فتنتها والسقوط في شباكها، والتفطُّن إلى أن المنافقين يستخدمون الإسلام دائماً ويتترسون به في تمرير ما يريدون من أغراضهم الخبيثة؛ فهذا شأنهم دائماً: التحريف، والتلبيس، وإثارة الشبهات؛ مستخدمين وسائل الإعلام الرهيبة في خداع الناس وتضليلهم. ورضي الله عن عمر بن الخطاب حيث قال: (لست بالخب ولا الخب يخدعني) ويعلق ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ على هذه المقالة فيقول: (فكان عمر ـ رضي الله عنه ـ أورع من

أن يَخْدَعَ، وأعقل من أن يُخْدَع)[١].

٣ ـ اهتمام الحكومات العلمانية ببعض المناسبات الإسلامية كالاحتفال بمولد الرسول ﷺ وهجرته، أو ليلة النصف من شعبان، أو الإسراء والمعراج... إلى آخر هذه المناسبات التي لا أصل للاحتفال بها شرعاً وإنما هي من البدع المحرمة؛ ومع ذلك ينخدع بهذا التلبيس كثير من دهماء المسلمين، وتتحسن صورة أولئك المنافقين الذين يضللون الناس بهذا الخداع ويبدون في أعين المخدوعين أنهم يحبون الإسلام ويغارون عليه وهم أبعد ما يكونون عن الإسلام وأهله، وهل يحب الإسلام ويعتز بالانتماء إليه من يرفض الحكم به والتحاكم إليه ويبدل شرع الله المطهر بنحاتات الأفكار وزبالات الأذهان الجاهلة الظالمة؟ لا، والله! إن مثل هذا يكذب في ادعائه حبَّ دين الإسلام؛ قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [**آل عمران**: ٣١] فهل يعي هذا المخدوعون المضلَّلون؟

● ومما يدخل في هذه الصورة أيضاً من صور التلبيس ما يقوم به بعض المنافقين المحادِّين لشرع الله – عز وجل – من إقامة بعض المؤتمرات أو الندوات الإسلامية، ويدعون إليها بعض العلماء والدعاة فيستجيب من يستجيب، ويرفض من يرفض، وكل هذا من ذر الرماد في العيون وتخدير دعاة المسلمين بمثل هذه الصروح الخبيثة التي هي أشبه ما تكون بمسجد الضرار الذي بناه المنافقون في عهد الرسول ﷺ، وادعوا أنه للصلاة وإيواء

---

(١) الروح ص٢٤٤.

المسافرين في الليلة الشاتية المطيرة، فأكذبهم الله – عز وجل – وفضح نياتهم بقرآن يتلى إلى قيام الساعة نهي فيه الرسول ﷺ عن دخوله والقيام فيه بل أمر بتحريقه قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

فهل آن الأوان أن نعي مثل هذه الفتنة والخداع فلا نستجيب لمثل هذه الدعوات، ولا نقوم في مثل هذه المؤتمرات أبداً؟ بل قد آن الأوان إلى أن تفضح مثل هذه اللافتات ويحذر الناس من شرها والوقوع في فتنتها؛ ويبين لهم أنها ضرب من الخداع وصورة من صور النفاق الماكر الخبيث.

٤ – إظهارهم لفسادهم بمظهر الإصلاح وارادة الخير بالأمة كما قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

يقول سيد قطب – رحمه الله تعالى – عن هذه الآية:

(إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ».. لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد، بل تجاوزوه إلى التبجح والتبرير: «قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ». والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون: إنهم مصلحون، كثيرون جداً في كل زمان. يقولونها؛ لأن الموازين مختلة في أيديهم؛

ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم، والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم؛ لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية)(١).ا.هـ.

● ومما يدخل في هذه الصورة من صور الخداع والتلبيس ما يستخدمه منافقو زماننا من تحريف لنصوص الشريعة وتأويلات باطلة لها في تسويغ فسادهم ومواقفهم الجائرة؛ فهم مع جهلهم بأحوال الشريعة نراهم يخوضون فيها بلا علم إلا ما أشربوا من هواهم؛ فنراهم يسوّغون الترخص بل التحلل من الشريعة بقواعد التيسير ورفع الحرج، وتغير الفتوى بتغير الحال والزمان.. إلى آخر هذه القواعد التي هي حق في ذاتها لكنهم خاضوا فيها بجهل وهوى فاستخدموها في غير محلها، فهي حق أريد بها باطل. ومع جهلهم بالشريعة وظهور القرائن التي تدل على خبث طويتهم إلا أن هناك من ينخدع بهذه الشبه والتحريفات الباطلة؛ ومن عجيب أمر القوم أنهم يرفضون الحكم بما أنزل الله - عز وجل - والتحاكم إليه، ولا يذعنون له، ومع ذلك نراهم في أحيان قليلة يرجعون إلى بعض الأدلة الشرعية ليمرروا ويبرروا من خلالها بعض فسادهم أو مواقفهم الباطلة؛ فما حاجتهم إلى الشرع في هذه المرة وهم كانوا يكفرون به من قبل؟ إنه الهوى والخداع والتلبيس على الناس قال تعالى في فضح هذا الصنف من الناس: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن

(١) في ظلال القرآن عند الآية (١١) من سورة البقرة.

لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

فينبغي لكل مسلم أن يحذر من شبه المنافقين وخداعهم وأن يقول لهؤلاء الذين يسوِّغون فسادهم بتحريف الأدلة الشرعية: ادخلوا في السلم كافة، وحكِّموا في الناس شرع الله - عز وجل - وارفضوا ما سواه؛ أما أن تنحُّوا شرع الله - عز وجل - عن الحكم حتى إذا كان لكم هوى في تمرير فسادكم بشبهة دليل رجعتم إليه؛ فهذا الذي قال الله - عز وجل - عن أهله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

٥ - موالاة المنافقين للكفار، وبخاصة اليهود والنصارى، والإعجاب بنظم الغرب وتقاليده، وفتح الباب لفسادهم وأفكارهم. وهذه من أعظم فتن المنافقين التي طمت وعمت في أكثر بلدان المسلمين، مستخدمين في ذلك الخداع والتلبيس على الناس في ذلك بدعوى المداراة وتحقيق المصلحة ودرء المفاسد.. إلى آخر هذه التأويلات التي يخادعون بها الناس لتسويغ توليهم للكفار؛ وقد ذكر الله - عز وجل - في كتابه الكريم أن هذه صفة لازمه للمنافقين قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]، وقال عز وجل: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ

جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩] فهل بقي بعد كلام الله – عز وجل – عذر لأحد في انخداعه بالمنافقين الذين يتولون الذين كفروا من أهل الكتاب أو غيرهم؟ إن خطر المنافقين على الأمة في القديم والحديث كبير وفتنتهم شديدة؛ فما تمكن الكفار من بلدان المسلمين سواءً من الناحية العسكرية أو الفكرية إلا عن طريق المنافقين المخادعين الخائنين لدينهم وأمتهم، فالواجب فضحهم والتحذير من شر فتنتهم.

٦ ـ خداعهم لبعض المتحمسين لشرع الله وتطبيقه؛ وذلك بدعوتهم إلى مشاركات وطنية ومجالس نيابية يتعاون الجميع فيها على ما فيه صالح الوطن والمواطن كما زعموا! فيستجيب بعض الدعاة لهذا، وتجمعهم مع المنافقين الرافضين لشرع الله – عز وجل – مظلة واحدة، فيعرض الإسلاميون فيها مطالبهم كما يعرض العلمانيون والرافضة والشيوعيون مطالبهم الكفرية؛ ومعلومٌ ما في ذلك من مداهنة وتعاون على الإثم والعدوان، واستجابة لداعي الخداع والتلبيس الذي يتولى كبره المنافقون الذين يريدون من استجابه الإسلاميين لهم إضفاء صفة الشرعية على مجالسهم ونظمهم التي يحكمون بها ؛وبالتالي يتخدر الناس ويستنيم المطالبون بتحكيم شرع الله – عز وجل – ما دام أن للمسلمين صوتاً في هذه المجالس النفاقية الماكرة، ويا ليت أن هناك مصلحة قطعية يمكن تحقيقها للمسلمين تربو على المفاسد التي تنشأ من المشاركة، إذن لهان الخطب؛ لكن الحاصل من هذه التجارب هو العكس؛ حيث إن المستفيد الأول والأخير هم العلمانيون المنافقون. وقد لا يكون المشارك من المسلمين غافلاً عن هذا الخداع، ولكنه يدخل بغرض إقامة الحجة والدعوة إلى تطبيق الشريعة ومعارضة كل ما

يخالفها، ولكن هل هذا ممكن؟ وهل يسمح أهل الكفر والنفاق بذلك؟!!

الذي يغلب على الظن أن أعداء الشريعة لن يسمحوا إلا بالكلام فقط؛ وإذا تجاوز الإسلاميون ذلك إلى العمل، وتجاوزوا الخطوط الحمراء المرسومة لهم جاء دور الحديد والنار؛ وما تجربة الجزائر وتركيا عنا ببعيدتين.

٧ ـ فتنة المنافقين داخل الصف الإسلامي:

وهذا شأن المنافقين في كل زمان؛ فعندما تخفق جهودهم في الوقوف في وجه أهل الخير والصلاح، وعندما ينشط الدعاة ويظهر أثرهم في الأمة؛ فإن المنافقين يلجأون إلى وسيلة ماكرة وفتنة شديدة ألا وهي التظاهر بالحماس للدعوة والدخول في أوساط الدعاة مظهرين التنسك والغيرة على الدين، والحرص على العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى ينخدع بكلامهم المعسول بعض الطيبين من الدعاة، فتحصل الثقة بهم حتى إذا تمكنوا من مراكز التوجيه والدعوة بدأوا فتنتهم الكبرى على الدعوة وأهلها؛ مع استمرارهم في إظهار الخير والحماس لهذا الدين وتسويغ ما يقومون به من الممارسات بالحرص على مصلحة الدعوة وتميزها وصلابتها.

ومن أخطر صور الفتن التي تنشأ من هذا الصنيع ما يلي:

أ ـ فتنة التفريق وإثارة العداوات بين دعاة الإسلام:

وهذه من أعظم فتن المنافقين داخل الصف الإسلامي وفي أوساط الدعوة إلى الله - عز وجل - وقد فضح الله - عز وجل - المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار، وأظهر أهدافهم الخبيثة بقوله سبحانه: ﴿**وَتَفْرِيقًا بَيْنَ**

الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧] قال المفسرون لهذه الآية: (لأنهم كانوا جميعاً يصلون في مسجد قباء؛ فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الخلاف وافتراق الكلمة)[١]. ا.هـ.

وهذا الضرب من الفتن لا يحتاج إلى تدليل فالواقع المر شاهد بذلك، ومع أن للافتراق أسباباً كثيرة كالجهل والهوى... إلخ؛ إلا أن أثر المنافقين الذين يدخلون في صفوف الدعاة لا يجوز إغفاله والتهوين من شأنه، وكون الفرقة تحصل بين أهل طريقتين مختلفتين في الأصول، فإن هذا الأمر واضح ومعقول ومقبول. أما أن يفترق أهل الطريقة الواحدة – طريقة أهل السنة والجماعة وطريقة سلف الأمة – فهذا أمر لا يعقل ولا يقبل، ولا يكون إلا وهناك يد خبيثة خفية وراء هذا الافتراق؛ فينبغي على الدعاة الحذر من هذه الأيدي والتفتيش عنها وفضحها وتطهير الصف المسلم منها. (وسيأتي الكلام عن فتنة التفرق والاختلاف في بحث قادم وبشكل مفصل - إن شاء الله تعالى -).

ب ـ فتنة التخذيل والتشكيك:

وهذه أيضاً من أعمال المنافقين المندسين في الصف المسلم حيث يسعون إلى بث فتنة التخذيل وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وذلك بدعاوى وشبه شرعية خادعة مؤداها توهين عزائم الدعاة وإضعاف هممهم، وبث الخوف في النفوس من الباطل وأهله، وتهويل قوة الأعداء

(١) تفسير البغوي ٤/ ٩٣ ط. دار طيبة.

وخططهم بصورة تبث اليأس في النفوس الضعيفة.

ج ـ فتنة الإيقاع بالدعوة والدعاة:

لا تقف مساعي المنافقين في إيصال الشر والأذى للدعوة وأهلها عند حد. فمن هذه المساعي الخبيثة التي يقومون بها داخل صفوف الدعاة بعد إظهار الحماس وبعد كسب الثقة والسماع لأقوالهم كما قال تعالى: ﴿ **وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ** ﴾ [المنافقون: ٤] وتحت ستار الغيرة على الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله - عز وجل - فإنهم يبدأون في دفع بعض الدعاة إلى مواجهات مع الباطل وأهله والزج بالدعوة في أعمال خطيرة تفتقد المستند الشرعي من جهة، وتؤدي بالدعوة وأهلها إلى الضمور والانكماش من جهة أخرى، إن لم يُقض عليها قضاءً مبرماً. وهذا هو ما يريده المنافقون المخادعون الذين قال الله - عز وجل - عن أمثالهم: ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ [التوبة: ٤٧]. يقول الإمام البغوي - رحمه الله تعالى - عند تفسير هذه الآية:

﴿ **لَوْ خَرَجُوا** ﴾ يعني المنافقين ﴿ **فِيكُم** ﴾ أي معكم، ﴿ **مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً** ﴾، أي: فساداً وشراً. ومعنى الفساد: إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، ﴿ **وَلأَوْضَعُوا** ﴾، أسرعوا، ﴿ **خِلالَكُمْ** ﴾، وسطكم بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة، ونقل الحديث من البعض إلى البعض. وقيل: ﴿ **وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ** ﴾ أي: أسرعوا فيما يخلُّ بكم. ﴿ **يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ** ﴾، أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جُمع لكم كذا وكذا، وإنكم مهزومون، وسيظهر عليكم عدوكم ونحو ذلك. وقال

الكلبي: يبغونكم الفتنة يعني: العيب والشر. وقال الضحاك: الفتنة الشرك، ويقال: بغيته الشر والخير أبغيه بُغاءً إذا التمسته له، يعني: بغيت له.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، قال مجاهد: معناه وفيكم محبون لهم يؤدون إليهم ما يسمعون منكم، وهم الجواسيس. وقال قتادة: معناه وفيكم مطيعون لهم، أي: يسمعون كلامهم ويطيعونهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1]. ا.هـ.

* * *

(١) تفسير البغوي ٤ / ٥٦ ط. دار طيبة.

ج ـ فتنة البدعة والمبتدعين

عقد الإمام الشاطبي - رحمه الله تعالى - باباً مستقلاً في كتابه النفيس (الاعتصام) ذكر فيه ذم البدع وسوء منقلب أصحابها والفتنة التي يتعرضون لها، وبين - رحمه الله تعالى - ذمها من وجوه كثيرة يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً: بيان ذمها من جهة النظر: وذلك من وجوه:

ا ـ أنه قد علم بالتجارب أن العقول غير مستقلة بمصالحها استجلاباً لها أو مفاسدها استدفاعاً لها. بل لا بد لها من الوحي الذي ينير العقول والبصائر.

ب ـ أن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً** ﴾ [المائدة: ٣].

ج ـ أن المبتدع معاند للشرع ومشاق له، بل قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع.

د ـ أنه اتباع للهوى؛ لأن النقل إذا لم يكن متبعاً للشرع لم يبق له إلا الهوى والشهوة.

ثانياً: ذمها من جهة النقل: وذلك من وجوه:

أ ـ ما جاء في القرآن الكريم مما يدل على ذم من ابتدع في دين الله في الجملة من ذلك قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: ٧] وقد ذكر بعض المفسرين أن أهل البدع داخلون في أهل الزيغ المذكورين في الآية؛ لأن أبا أمامة – رضي الله عنه – جعل الخوارج داخلين في عموم الآية.

ومن الآيات كذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾.

[الأنعام: ١٥٣]

ب ـ ما جاء في الأحاديث المنقولة عن رسول الله ﷺ وهي كثيرة جداً يكتفى بأصحها وأصرحها وهو قوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[١] وقد عد العلماء هذا الحديث ثلث الإسلام.

ج ـ ما نقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم – في ذم البدع وأهلها والتحذير من فتنتها، وهي كثيرة جداً، وقد ذكروا فيها من الأوصاف المحذورة والمعاني المذمومة والآراء الخطيرة في الدنيا

---

(١) البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ومسلم في الأقضية (١٧١٨).

والآخرة على أصحابها)[١].

مظاهر الفتن التي يتعرض لها المبتدع في نفسه:

١ ـ عدم قبول العمل المبتدع؛ وذلك لأن من شروط قبول العمل الاتباع فيه للرسول ﷺ، وعدم الابتداع وقد قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢] وهل بعد إحباط العمل من فتنة؟ والإحباط هنا يخص العمل المبتدع فيه فقط، إذا كانت البدعة دون الكفر. أما إذا كانت بدعة كفرية تنقل صاحبها عن الإسلام فإن الحبوط يشمل الأعمال كلها عياذاً بالله تعالى لقوله عز وجل: ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾ [الزمر: ٦٥].

٢ ـ التعرض لفتن أخرى أشد كفتنة الكفر أو النفاق لقوله تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣] قال ابن كثير – رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآية: (أي فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً ﴿**أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ**﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة أو ﴿**يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك)[٣]ا.هـ.

٣ ـ لم يعرف عن أكثر المبتدعين توبة ورجوع عن بدعتهم؛ ذلك للشبه الشديدة التي يتعلقون بها ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً؛ فالإصرار على البدعة من الفتن أيضاً.

---

(١) بتصرف واختصار شديد عن كتاب الاعتصام ١/ ٤٦ – ٨٩.

(٢) مسلم في كتاب الأقضية (١٧١٨).

(٣) تفسير ابن كثير. الآية ٦٣ من سورة النور.

٤ ـ الخشية على المبتدع المصرّ على بدعته من حرمانه من شفاعة الرسول ﷺ أو الورود على حوضه الشريف يوم القيامة. فعن أسماء – رضي الله عنها – قالت قال النبي ﷺ: «إني على الحوض حتى أنظر من يرد عليّ منكم، وسيؤخذ ناس دوني فأقول: يا رب مني ومن أمتي. فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك، والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم»[(١)]. فكان ابن أبي مليكة (راوي هذا الحديث عن أسماء) يقول: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، وأن نفتن عن ديننا.

٥ ـ إن على المبتدع إثم من عمل ببدعته إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. [النحل: ٢٥].

ولقوله ﷺ: (... ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)[(٢)].

يقول الشاطبي – رحمه الله تعالى –: (فليتق الله امرؤ ربه، ولينظر قبل الإحداث في أي مزلة يضع قدمه في مصون أمره، أم يثق بعقله في التشريع ويتهم ربه فيما شرع، ولا يدري المسكين ما الذي يوضع له في ميزان سيئاته مما ليس في حسابه، ولا شعر أنه من عمله. فما من بدعة يبتدعها أحد فيعمل بها من بعده، إلا كتب عليه إثم ذلك العامل زيادة إلى إثم ابتداعه أولاً ثم عمله ثانياً)[(٣)].

---

(١) البخاري ك. الرقاق (٦٥٩٣).

(٢) مسلم في العلم (٢٦٧٤).

(٣) الاعتصام ١/ ١٦١.

٦ ـ الذلة والاحتقار وسوء العاقبة في الدنيا للمبتدعة ولو ظهروا في بعض الأحايين أنهم أعزة بلوذهم بالسلاطين وأهل الدنيا، والتاريخ يشهد بهذه النهاية البائسة لأهل البدع.

ولعلنا بعد هذا السرد المجمل لأخطار البدعة وشرورها ندرك أثر المنهج السلفي في النجاة من هذه الشرور، كما ندرك ونقدر تلك المواقف الحاسمة من سلفنا الصالح – رحمهم الله تعالى – تجاه أهل البدع وهجرهم، والحذر الشديد من المبتدعة واعتزالهم وعدم مجادلتهم أو تمكين الأسماع منهم، كل ذلك حماية للقلوب من هذه الشرور والأخطار الآنفة الذكر.

وإكمالاً للفائدة أسوق فيما يلي بعض النقولات عن السلف الصالح التي تشهد على ذلك:

● كان الحسن رحمه الله تعالى يقول: (لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم، ولا تسمعوا منهم)(١).

● عن سعيد بن عامر قال: سمعت أسماء يحدث قال: دخل رجلان على محمد بن سيرين من أهل الأهواء فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: لا. قال: تقومان عني وإلا قمت. فقام الرجلان فخرجا. فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرأ آية؟ فقال: (إني كرهت أن يقرأ آية فيحرفانها فيقر ذلك في قلبي)(٢).

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ١٥٠.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٥٠.

● عن أيوب السختياني قال: قال لي أبو قلابة: يا أيوب: احفظ عني أربعاً: (لا تقولن في القرآن برأيك، وإياك والقدر، وإذا ذكر أصحاب محمد ﷺ فأمسك، ولا تمكّن أصحاب الأهواء من سمعك)[١].

● عن معمر قال: كان ابن طاووس جالساً فجاء رجل من المعتزلة قال: فجعل يتكلم قال: فأدخل ابن طاووس أصبعيه في أذنيه قال: (وقال لابنه: أي بني: أدخل أصبعيك في أذنيك واشدد لا تسمع من كلامه شيئاً، قال معمر: يعني أن القلب ضعيف)[٢].

● عن الفضيل بن عياض قال: (من أتاه رجل فشاوره فدله على مبتدع فقد غش الإسلام، واحذروا الدخول على أصحاب البدع فإنهم يصدون عن الحق)[٣].

● عن عبد الرزاق قال: قال لي إبراهيم بن أبي يحيى: إني أرى المعتزلة عندكم كثيرا!! فقلت: نعم، وهم يزعمون أنك منهم، قال: أفلا تدخل معي هذا الحانوت حتى أكلمك؟ قلت: لا. قال: لِمَ؟! قلت: (لأن القلب ضعيف وإن الدين ليس لمن غلب)[٤].

* * *

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٥٢.

(٢) مصدر السابق ١/ ١٥٢.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٥٥.

(٤) المصدر السابق ١/ ١٥٢.

مظاهر الفتن التي تنجم عن أهل البدع:

في الفقرة السابقة تبين لنا بعض مظاهر الفتنة التي يتعرض لها المبتدع في نفسه ودينه، وفي هذه الفقرة أذكر – إن شاء الله تعالى – بعض مظاهر الفتنة التي تحصل من المبتدعين ويُخشى على الناس أن يُفتنوا بها، وبخاصة من تلك الطوائف الضالة التي تمثل رؤوس البدع وأصولها، وهي وإن كانت جذورها قديمة إلا أن لها من يمثلها ويتبناها في زماننا اليوم.

ومن أشهر طوائف المبتدعة التي أجمع السلف على ذمهم ومفارقتهم لأهل السنة والجماعة:

١ ـ الخوارج. ٢ ـ الرافضة. ٣ ـ المرجئة. ٤ ـ القدرية. ٥ ـ بدعة الجهمية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى –:

(والبدعة التي يُعَدُّ بها الرجل من أهل الأهواء ما اشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتُها للكتاب والسنة، كبدعة: الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة... وقد قال عبد الرحمن بن مهدي: هما صنفان فاحذرهما: الجهمية والرافضة؛ فهذان الصنفان شرار أهل البدع)[1].

وهناك طوائف المعتزلة والأشاعرة وما هما إلا تطور وتفريع لتلك البدع التي أشار إليها شيخ الإسلام بأنها رؤوس البدع.

كما يدخل في طوائف البدع أيضاً الفرق المتعددة للصوفية الغالية التي

---

(١) مجموع الفتاوى ج٣٥ ص٤١٤.

قد يصل بعضها إلى البدع المكفرة المخرجة من الملة كالقبوريين والمدعين لأئمتهم ما لا يصلح إلا الله - عز وجل -.

ومقام البحث هنا ليس من هدفه التفصيل في بدع كل طائفة ومفارقتها للحق والرد عليها، وإنما المقصود الإشارة إلى بعض هذه الطوائف ومظاهر الفتنة التي تفرزها كل طائفة ويخشى على الناس منها، وذلك فيما يلي:

أ ـ فتنة الخوارج:

بدأت فتنتهم في منتصف خلافة علي - رضي الله عنه - على إثر الخلاف الذي تعرض له بعض الصحابة - رضي الله عنهم - باجتهاد منهم، وذلك في الفتنة التي جرت بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - فظهرت الخوارج أثناء هذه الفتنة سنة ٣٧ هـ حيث اعترضوا على قبول التحكيم مع أنهم هم الذي أكرهوا علياً - رضي الله عنه - على قبوله، وزعموا أن علياً رضي الله عنه حكَّم الرجال في دين الله - عز وجل - وناظرهم علي - رضي الله عنه - وحاول أن يزيل ما لُبِّسَ عليهم من الشبهات، فرجع ثلثهم، وأصر بقيتهم على ضلالهم حتى انتهى بهم الأمر إلى قتاله ومقاتلته لهم.

وآل الأمر بالخوارج إلى تكفير أكثر الصحابة - رضي الله عنهم - بل وتكفير كل من خرج عن عقيدتهم، وأصبحت بعد ذلك تحكم على كل مرتكب للكبيرة بأنه كافر حلال الدم والمال ومخلد في النار يوم القيامة إن لم يتب منها في الدنيا. هذا هو مجمل فكر الخوارج المنحرف وكيف نشأوا.

والآن يمكن إجمال أهم أشكال الفتنة التي يجب الحذر منها في هذا الفكر المنحرف فيما يلي:

١ - فتنة تكفير المسلم الذي ظهرت عليه دلالات الإسلام ولم يأت بناقض من نواقض الإيمان؛ وإنما لأنه لم يكن في صفهم ومن جماعتهم أو أنه في معسكر السلطان أو أنه مرتكب لكبيرة من الكبائر. وبذلك حكموا على السواد الأعظم من المسلمين وعلمائهم الذين لا يرون رأيهم بالكفر والبراءة منهم. ويلحق بالخوارج أولئك الذين يتوقفون في الحكم على الأشخاص الذين ظهرت عليهم دلالات الإسلام ولم يتلبسوا بناقض، بحجة علو رايات الكفر في ديارهم.

٢ - ترتب على الحكم السابق فتنة أخرى لازمة لها ألا وهي استباحة دماء المعصومين من المسلمين وأموالهم، وهذا أمر لازم ونتيجة طبعية للتكفير، وهذا شأن الفتن؛ فإنها لا تقف عند حد، بل يولد بعضها بعضاً أعاذنا الله منها.

٣ - المروق من جماعة المسلمين، ومفارقة ما عليه أهل السنة والجماعة وسلف الأمة، واتباع غير سبيل المؤمنين الذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه الكرام والتابعون لهم بإحسان. ولذلك كان السلف - رحمهم الله تعالى - يستدلون على أهل البدع من الخوارج وغيرهم بقوله - تعالى -: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [النساء: ١١٥].

ويرون أن الخوارج هم الذين عناهم الرسول ﷺ بقوله: «تمرق مارقة

عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق»[(١)].

٤ – إثارة الفرقة والاختلاف بين المسلمين، وإثارة الشحناء والبغضاء ووضع السيف بينهم، والانشغال بذلك عن جهاد أهل الكفر والإشراك الذين أُمِرَ أهل الإسلام بمجاهدتهم والغلظة عليهم.

٥ – تقنيط المسلم من رحمة الله، والتألي على الله – عز وجل – بعدم المغفرة لأصحاب الذنوب التي هي دون الشرك، وحرمانهم من الجنة.

وبقي في هذه الفتنة أن أشير إلى وجود أصحاب هذه الفتنة في زماننا اليوم كجماعات التكفير في مصر وغيرها وكطائفة الإباضية في شمال إفريقيا وعُمان: الذين يقولون بقول المعتزلة في القرآن وفي مرتكب الكبيرة وفي القدر والأسماء والصفات ونفي الرؤية... إلخ.

أسأل الله عز وجل أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه؛ إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وهنا ينبغي الإشارة إلى أمر جدير بالانتباه ألا وهو ضرورة معرفة الوقت والحال التي تبرز فيه هذه الفتنة، فإن كانت في حال تمكن لأهل السنة وولاتهم سواء كانوا ولاة عدل أو جور؛ فإن المتعين منابذة الخوارج ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم. أما لو كانت المواجهة بين الخوارج وبين أئمة الكفر والزندقة والخارجين على الإسلام فإن الأمر والحالة هذه يحتاج إلى

---

(١) انظر تمام الحديث عند مسلم. ك الزكاة (١٠٦٥).

تمحيص وتدقيق وموازنة بين مفسدة الخوارج ومفسدة الكفرة المواجهين لهم، وأن يُحذر من أن يجد أهل السنة أنفسهم في صف الكفرة المارقين بحجة مواجهة فكر الخوارج والفرار من فتنتهم. فإما أن يصرح بالبراءة من الفريقين مع بيان أن الكفر أشد من البدعة إن كان هذا ممكناً. وإلا فليحذّر من بدعة الخوارج بصورة لا تصلح أن تستغلها الأنظمة الكفرية في محاربة الدعاة في شخص الخوارج وكسب ولاء العامة في صفهم.

ولا بد هنا من التنبيه على أمر آخر ألا وهو أن باب المصالح والمفاسد وتقديرهما والترجيح بينهما مقام عظيم لا يصلح لكل أحد أن يقتحمه؛ بل لا بد من عرضها على الفقيه المجتهد الذي يجمع بين العلم الواسع بشرع الله عز وجل والعلم بأحوال النوازل ولديه من الدين والورع ما يحميه من كتم الحق أو لبسه بالباطل. ولذلك فإني أنصح نفسي وإخواني الدعاة عدم الجرأة والتسرع في تقدير المصالح والمفاسد والترجيح بينهما. وأن تترك للفقهاء المجتهدين الورعين ولا سيما في مثل هذه القضايا التي تتعلق بالدماء والأموال والأعراض، فكم من المظالم والانتهاكات ارتكبت بدعوى تحقيق المصالح ودرء المفاسد.

فتنة الشيعة الروافض:

(التشيع لعلي رضي الله عنه – كان في أول أمره معتدلاً حيث كان بعض الصحابة من شيعته وأنصاره يوم الجمل وصفين من غير تعرُّض لأحد من الخلفاء قبله بسب أو تجريح، ثم ظهر رجل يهودي هو عبد الله بن سبأ ادعى الإسلام، وزعم محبة آل البيت، وغلا في علي – رضي الله عنه –

وادعى له الوصية بالخلافة ثم رفعه إلى مرتبة الألوهية.

ثم تعددت بعد ذلك فرق الشيعة وأقوالها إلى عشرات الفرق والأقوال وهكذا ابتدعت الشيعة القول بالوصية والرجعة والغيبة بل والقول بتأليه الأئمة)[١].

والمتأمل في أصول الشيعة الرافضة يرى الكفر والزندقة سواء ما يتعلق بغلوهم في أئمتهم أو سبهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أو اعتقادهم بتحريف القرآن... إلخ ومع ذلك فهم في عصرنا الحاضر يخفون هذه الكفريات، ويظهرون التَّقِيَّة ويخدعون الناس الجهلاء تحت شعار حب آل البيت أو مقارعة الظالمين أو رفع راية الجهاد في سبيل الله أو نصر المستضعفين من المسلمين إلى آخر هذه الشعارات البراقة التي يفتنون بها الناس. وقد زاد الأمر فتنة وتلبيساً بعد أن قامت لهم دولة وكيان، فأصبحوا يفتنون الناس بهذه الضلالات من موقع القوة المادية والمعنوية.

وقد سبق الإشارة إلى هذه الفتنة عند الحديث عن فتنة المنافقين الباطنيين فهم في الحقيقة أقرب وألصق بالنفاق الاعتقادي منهم إلى البدعة والمبتدعين. وقد بلغ من ضلالهم وخداعهم أن وجد من بعض دعاة أهل السنة من انخدع بفتنتهم وأخذ يدعو إلى التقارب معهم[٢].

---

(١) مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١ / ٣٥ بتصرف واختصار.

(٢) انظر للرد على دعاة التقريب كتاب (مسألة التقريب بين السنة والشيعة) للدكتور ناصر القفاري – حفظه الله تعالى.

وبحكم تمكنهم وقيام دولتهم الآن فهم يفتنون إخواننا أهل السنة عندهم سجناً وقتلاً، ولا يعلم بذلك إلا القليل من المسلمين.

فتنة المعتزلة:

أصل المعتزلة يرجع إلى واصل بن عطاء الذي اختلف مع الإمام الحسن البصري – رحمه الله تعالى – في مرتكب الكبيرة؛ حيث قال الحسن فيها برأي أهل السنة بأن مرتكب الكبيرة: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وقال واصل: إنه بمنزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر. وترتب على هذه المخالفة أن اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن؛ فسُمُّوا بذلك المعتزلة، ثم تطورت وتفرعت أفكارهم بعد ذلك ودخل فيهم التجهم والقول بقول القدرية. واستقرت بدعتهم على أصول خمسة:

١ – العدل: ويقصدون به القول بقول القدرية الذي هو التكذيب بالقدر، زعموا بذلك تنزيه الله – تعالى – عن الظلم.

٢ – التوحيد: وحقيقته التعطيل وإنكار وسلب الصفات، زاعمين بذلك تنزيه الله تعالى عن الشبيه.

٣ – المنزلة بين المنزلتين: وهي أصل بدعة الاعتزال كما سبق، وأنهم لا يحكمون لمرتكب الكبيرة بإيمان ولا كفر.

٤ – الوعد والوعيد: وفيها الحكم على مرتكب الكبيرة بالخلود في النار يوم القيامة.

٥ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وحقيقته عندهم الخروج على

أئمة الجور ومفارقة جماعة المسلمين وإمامهم بمجرد تلبُّسه بأي نوع من أنواع الفسق أو الظلم.

والمتأمل في هذه الأصول الخمسة يرى أن المعتزلة قد انطوت على أكثر من بدعة وضلالة؛ فهم في الأسماء والصفات متأثرون برأي جهم وفرقته، وفي القدر بالقدرية، وفي الوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متأثرون بالخوارج. فهي ظلمات بعضها فوق بعض – أعاذنا الله منها –.

ولما كانت الفتن يجر بعضها بعضاً فإن المعتزلة لما واجههم السلف بنصوص الكتاب والسنة المفنِّدة لآرائهم والداحضة لحججهم لجأوا إلى بدعة أخرى هي أصل أصولهم ألا وهي: تقديم العقل على النقل، وتأويل النص المتواتر إذا خالف عقولهم، ورد أحاديث الآحاد وعدم الاحتجاج بها في مسائل الاعتقاد.

والفتنة بالعقل من أعظم الفتن التي فتنت المعتزلة في القديم، كما فتنت المتأثرين بهم في زماننا اليوم ممن يسمون بالعقلانيين أو العصرانيين أو المتنورين... إلخ[١] وإن كان بعضهم قد لا يلتزم بالضرورة بكل آراء المعتزلة المشار إليها آنفاً إلا أنهم يتفقون معهم في المنطلق ألا وهو تقديس العقل وتأويل ما يتعارض معه أو رده، ولذلك نجد في عصرنا اليوم من لا يأخذ بحديث الآحاد ولو كان في البخاري ومسلم، كما نجد من يؤول

(١) انظر لمعرفة هذا الفكر والرد عليه كتاب: (العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب) للاستاذ محمد حامد الناصر.

النصوص التي لا يستطيع ردها بما يوافق العقل. ونجد منهم من ينال من أصحاب الرسول ﷺ والتابعين لهم من سلف الأمة في وقوفهم مع الأثر وإخضاع العقل له.

وليس المقام هنا مقام تفصيل هذه القضايا وذكر رموز هذه المدرسة المعاصرة والرد عليهم، وإنما أردت الإشارة إلى هذه الفتنة وخطرهاوضرورة الحذر منها ومن أهلها، والوقوف مع نصوص الكتاب والسنة الصحيحة والعض عليها بالنواجذ، وتقديمها على الرأي والعقل، والاستسلام لها سواء أدركها العقل أم لم يدركها. وهذا ما كان عليه سلف الأمة في استدلالهم ومناظرتهم لأهل البدع.

فهذا إمام أهل السنة أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - عندما كان يناظر في محنته بالقول بخلق القرآن لا يزيد على قوله: لا أدري ما تقولون: إيتوني بدليل من القرآن أو السنة على ما تقولون. وبهذا المنهج حمى الله - عزل وجل - أهل السنة من الزيغ والانحراف.

وأسوق بهذه المناسبة صورة من صور المناظرة التي تمت بين عالم من علماء السلف المتبعين للأثر، وبين واحد من أئمة الاعتزال المفتونين المقدسين للعقل والمفتونين بالمنطق وعلم الكلام؛ وذلك ليبين لنا الفرق بين الحق والباطل ،وبين منهج أهل الأثر وأهل الرأي والنظر.

قال الذهبي: أخبرنا المسلَّم بنُ علان وغيره كتابةً أن أبا اليُمن الكندي أخبرهم: أخبرنا عبد الرحمن بن محمد، أخبرنا أبو بكر الخطيب، حدثنا محمد بنُ الفرج البزاز، حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن ماسي، حدثنا جعفر

ابنُ شعيب الشاشي، حدثني محمد بن يوسف الشاشي، حدثني إبراهيم ابن أمية، سمعت طاهر بن خلف، سمعت المهتدي بالله محمد ابن الواثق، يقول: كان أبي إذا أراد أن يقتُل أحداً، أحضرنا، فأتي بشيخ مخضوب مُقيد، فقال أبي: ائذنوا لأبي عبد الله وأصحابه، يعني: ابن أبي دُؤاد، قال: فأدخل الشيخ، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لا سلم الله عليك، فقال: يا أمير المؤمنين، بئسَ ما أدَّبك مؤدبك، قال الله تعالى: ﴿ وإذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بأحْسَنَ مِنها أوْ رُدُّوها ﴾، فقال ابن أبي دؤاد: الرجل متكلم. قال له: كلِّمه، فقال: يا شيخ ما تقول في القرآن؟ قال: لم يُنصفني، ولي السؤال. قال: سل، قال: ما تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. قال الشيخ: هذا شيء علمه النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمر، والخلفاء الراشدون، أم شيء لم يعلموه؟ قال: شيء لم يعلموه. فقال: سُبحان الله! شيء لم يعلمه النبي ﷺ علمته أنت؟ فخجل. فقال: أقلني، قال: المسألة بحالها. قال: نعم عَلموه، فقال: علموه، ولم يدعُوا الناس إليه، قال: نعم. قال: أفلا وسعك ما وسعهم؟ قال: فقام أبي، فدخل مجلساً، واستلقى، وهو يقول: شيء لم يعلمه النبي ﷺ، ولا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ولا الخلفاء الراشدون، علمته أنت! سبحان الله! شيء علموه، ولم يدعوا الناس إليه ألا وسعك ما وسعهم؟ ثم أمر برفع قيد الشيخ وأمر له بأربع مئة دينار، وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ولم يمتحن بعدها أحداً)(١).

ولا يعني ما سبق أن السلف ليسوا أصحاب استدلال عقلي ورد على

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣١٢.

المخالف بالنظر والقياس الصحيح، فلينتبه لهذا.

وإن من أخطر ما في مدرسة العقلانية من فتنة لهو فتح الباب للعلمانيين المستغربين ليدخلوا من خلاله لعزل حاضر الأمة عن ماضيها، والجرأة على أحكام الإسلام وتغييرها بحجة تغير العصر وتطور العقول!! وهكذا يتحقق للعلمانيين حلمهم على أيدي أبناء الإسلام الجاهلين والمتجاهلين.

فتنة المرجئة:

وأصل بدعة الإرجاء هو تأخير العمل عن الإيمان، وحصر الإيمان في التصديق فحسب. وأول ما ظهر الإرجاء إنما كان رد فعل لتكفير الخوارج للحكمين ولعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - وليس هو الإرجاء المتعلق بالإيمان، وإنما كان فيه إرجاء أمر المشتركين في الفتنة التي حدثت بعد خلافة الشيخين: أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - إلى الله - عز وجل -.

وهم أصناف شتى: فمنهم من يزعم أن الإيمان هو المعرفة فقط، وهؤلاء غلاه المرجئة، ومنهم من يزعم أنه تصديق القلب وقول اللسان، ومنهم من يحصره في التصديق، ومنهم من يقول: من قال لا إله إلا الله فهو المؤمن ولو أتى من الأعمال ما أتى[١].

---

(١) انظر للتوسع في معرفة هذه الفرقة: مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١/ ٢١٢ وما بعدها.

وقد أحدثت المرجئة فتنة في الأمة يمكن إجمال أهم مظاهرها فيما يلي:

١ - التميع في أخذ هذا الدين، والتساهل في أخذ أحكامه والالتزام بها؛ فانتشر من جراء ذلك الفساد، وتجرأ الناس على المنكرات، وأصبحنا نسمع من عامة الناس إذا نُوصِح بأداء الواجبات وترك المحرمات من يقول: الإيمان في القلب، وربك رب قلوب... إلخ هذه الجمل المنحرفة التي سقيت بماء الإرجاء ونبتت في تربته.

٢ - وأشد من ذلك فتنةً هو ما يحصل في زماننا اليوم من تهوين لما يفعله المحادون لله - عز وجل - ورسوله ﷺ، من زنادقة وملاحدة وعلمانيين يرفضون إدخال الإسلام في شئون الحكم والاقتصاد وبقية شئون الحياة؛ فما داموا يقولون: لا إله إلا الله ويصدقون بقلوبهم؛ فهم مؤمنون لا يجوز إخراجهم عن الإسلام، ولا يجوز الإنكار عليهم ومعاداتهم. وهذا هو ما يريده المعتدون على سلطان الله عز وجل، ولسان حالهم يقول:

خلا لك الجوُّ فبيضِي واصفري ونقِّري ما شئت أن تنقِّري

ومعلوم ما في هذا من فتنة وتضليل للأمة وتخدير لها، وجعلها نهباً لكل طامع وملحد ومستعمر.

وقد أدى هذا الفكر المنحرف بدوره إلى تعطيل الجهاد، وإضعاف شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يقول الدكتور العلياني - وفقه الله - في مناقشته لدور المرجئة في تعطيل الجهاد:

(وعقائد المرجئة لها تأثير بالغ على إزالة فريضة الجهاد بالكلية أو إضعافها وزعزعتها في النفوس. فمن اعتقد أن الإيمان هو المعرفة فقط! كيف يُتصور منه أن يجاهد الكفار من اليهود والنصارى والمشركين؟ ومن اعتقد أن العمل خارج عن دائرة الإيمان، وأن الإنسان يكون مؤمناً بمجرد التصديق أو النطق من غير عمل مطلقاً فما الذي يحمله على المخاطرة بنفسه وماله وتعريضهما للهلاك وإيمانه كامل تام؟ وما الذي يستفيده من جهاده إذا تساوى في اعتقاده إيمان من مات بين الصفوف ـ محارباً للكفار ـ مع إيمان من مات مخموراً في أحضان المومسات ـ وهو ينطق بالإيمان؟

هل يتصور عاقل أن هناك من يضحي بماله ونفسه وولده ووقته وهو يستطيع أن يكون إيمانه كإيمان جبريل عليه السلام بدون تلك التضحيات بل بمجرد كلمة ينطق بها وهو مستلق على فراشه لا تكلفه جهداً ولا عملاً؟ ومن يعتقد أن من يعلن الإسلام بلسانه لا يخرج من دائرة الإيمان مهما عمل من الأعمال هل يتصور منه أن يجاهد المرتدين والزنادقة والمنافقين الذين يعلنون الإسلام بأقوالهم ويهدمون أصوله وفروعه بأفعالهم؟...

... إن عقائد الإرجاء وسّعت دائرة الإيمان حتى أدخلت فيه أصنافاً كثيرة من الكفار والمرتدين والزنادقة؛ وبالتالي رفعت عنهم سيف الحق الذي أمر الله إنزاله على رقابهم فخربوا العباد والبلاد، وطبقوا أصناف الكفر في ديار المسلمين باسم الإسلام حيناً، وبغير اسمه أحياناً، وانخدعت جماهير الناس بفتاوى علماء الإرجاء، واعتقدت بعقيدتهم أو تأثرت بإيحائها؛ فخلا الجو للملاحدة والزنادقة يشرعون الكفر للناس باسم

الإصلاح والتقدمية والاشتراكية، ويعارضون نصوص القرآن والسنة وهم متسربلون بسربال الإيمان في نظر علماء الإرجاء وفي نظر الجماهير المتأثرة بهم ما دام أنهم يسمعونهم في بعض المرات يقولون لا إله إلا الله. وكان من نتائج هذا قوانين وضعية تبيح انتهاك الأعراض وإفساد العقول وتهلك الحرث والنسل حتى أصبحت المادة القانونية: «إذا زنت البكر برضاها فلا شيء عليها» أشهر عند أقوام يدعون الإسلام من قول الله تعالى: ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [النور: ٢] وأصبحت تصاريح فتح الخمارات والملاهي والمواخير والبنوك الربوية أشهر عند أقوام يدعون الإسلام من قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [المائدة: ٩٠] وقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** ﴾ [النور: ١٦] وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩])[١] ا.هـ.

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عن المرجئة وموقفهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (وآخرون من المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظناً أن ذلك من باب ترك الفتنة)[٢].

---

(١) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية ص٤٦٥ – ٤٦٧. (باختصار).

(٢) الآداب الشرعية ١/ ١٧٧.

٣ – من مظاهر فتنة المرجئة ومن تأثر بهم وقوفُهم في وجه المصلحين المجاهدين الذين يسعون لإزالة الشرك وإقامة شرع الله عز وجل، ووضع العراقيل أمامهم، ورميهم لهم بأنهم خوارج ومتطرفون وغلاة يجب التصدي لهم!

ومن الأمثلة الواضحة في ذلك ما تعرض له شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، وأئمة الدعوة من بعده – رحمهم الله تعالى – فإنهم لما قاموا بدعوتهم وجهادهم للمشركين الذين يطوفون بالقبور ويذبحون عندها النذور، ويستغيثون بأهلها من دون الله – تعالى – ويتحاكمون إلى طواغيتهم ويستهزئون بالشرع قام في طريقهم أئمة الصوفية والمرجئة، ورموهم ببدعة الخوارج والتكفير، وقالوا: كيف يُكَفَّر من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

٤ – ومن أشد آثار بدعة الإرجاء في عصرنا اليوم تأثُّر بعض الدعاة وطلبة العلم بهذا الفكر، ونسبته إلى أهل السنة والجماعة، وذلك بحصر الكفر المخرج من الملة بالتكذيب القلبي أو الاعتقاد القلبي. أما الكفر باللسان والعمل فهي دلالات على الكفر وليست مكفرات بذاتها. يقول صاحب كتاب (ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي) حفظه الله تعالى:

(ومن أفسد الأصول التي بناها المرجئة على هذا الاعتقاد ـ أي انحصار الإيمان في التصديق القلبي وحده ـ أنهم حصروا الكفر في التكذيب القلبي أيضاً حتى إنهم لم يعتبروا الأعمال الكفرية الصريحة كالسجود للصنم، وإهانة المصحف وسب الرسول ﷺ إلا دلالات على انتفاء التصديق القلبي وليست مكفرة بذاتها.

وكان لهذه العقيدة آثار عميقة المدى على الأمة، بل هي في عصرنا هذا أساس للضلال والتخبط الواقع في مسألة التكفير، ومنها نشأ التوسع في استخدام «شرط الاستحلال» حتى اشترطوه في أعمال الكفر الصريحة كإهانة المصحف، وسب الرسول ﷺ، وإلغاء شريعة الله، فقالوا: لا يكفر فاعلها إلا إذا كان مستحلاً بقلبه!! واشترط بعضهم مساءلة المرتد قبل الحكم عليه، فإن أقر أنه يعتقد أن فعله كُفْرٌ: كَفَرَ، وإن قال إنه مصدق بقلبه، ويعتقد أن الإسلام أفضل مما هو عليه من الردة لم يكفروه)[١].

٥ - وقد أدى الفكر الإرجائي ببعض المتأثرين به أن ألغى مسألة تكفير المعيَّن. وهذا يلزم عليه إلغاء أحكام المرتد المعيَّن. وقد نشأ هذا التأثر ردَّ فعل لأولئك الذين يتسرعون في التكفير دون مراعاة لتوفر الشروط وانتفاء الموانع؛ فأوقعهم معالجة هذا الانحراف في انحراف آخر، فبدلاً من وضع الضوابط الشرعية لتكفير المعيَّن ذهبوا إلى إلغائه من أساسه، وهذا انحراف أيضاً.

وأهل السنة والجماعة وَسَطَ في تكفير المعيَّن بين أولئك الذين يكفرونه بلا مراعاة للشروط والموانع، وبين الذين يلغونه مهما توفرت الشروط وانتفت الموانع[٢].

---

(١) عن كتاب (الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر) ص:١٣٤. د. علي بن بخيت الزهراني.

(٢) انظر لمعرفة الشروط والموانع: كتاب (ضوابط التكفير) للشيخ عبد الله محمد القرني ط. دار الرسالة.

ثالثاً: فتنة الدنيا وزخرفها

والمقصود بفتنة الدنيا هي كل ما ألهى عن الآخرة من متاع الأرض الزائل مما تميل إليه النفوس وتحبه وقد أجمله الله عز وجل في قوله سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤] وسيكون الحديث هنا - إن شاء الله تعالى - عن أشد مظاهر الدنيا فتنة؛ وذلك فيما يلي:

ا - **فتنة الأموال والأولاد**: وقد ورد ذكرها في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾.

ب - **فتنة النساء**. وقد ورد ذكرها عند قوله تعالى: ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

ج - **فتنة الجاه والشهرة وحب الرئاسة.**

أ - فتنة الأموال والأهل والأولاد

قد ورد التحذير من هذه الفتنة في أكثر من آية من كتاب الله - عز وجل - ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

[التغابن: ١٤، ١٥]

وقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ... الآية ﴾ [المنافقون: ٩].

وقوله تعالى: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

يقول الإمام البغوي عند تفسير آية التغابن:

(وقال عطاء بن يسار: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي: كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه، وقالوا: إلى مَن تَدعُنا؟ فيرق لهم ويقيم، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ بحملهم إياكم على ترك الطاعة، فاحذروهم أن تقبلوا منهم.

﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا ﴾، فلا تعاقبوهم على خلافهم إيّاكم فإن الله غفور رحيم.

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾، بلاء واختبار وشغل عن الآخرة، يقع بسببها الإنسان في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام، ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾، قال بعضهم: لما ذكر الله العداوة أدخل فيه «من» للتبعيض، فقال: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ لأن كلهم ليسوا

(بأعداء)، ولم يذكر «مِنْ» في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنها لا تخلو عن الفتنة واشتغال القلب)[١]ا.هـ.

وعن بُريدة – رضي الله عنه – قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملها، فوضعها بين يديه، ثم قال: صدق الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[٢].

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على آية التغابن هذه أيضاً فيقول:

(ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمداً؛ فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معاً: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.. والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً.. إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية؛ ويمس وشائج متشابكة ودقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة سواء؛ فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله؛ كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير، وتضحية الكثير.

---

(١) تفسير البغوي عند الآيتين (١٤، ١٥) من سورة التغابن.

(٢) أبو داود في الصلاة (١١٠٩) والترمذي في المناقب (٣٧٧٦) وقال: حسن غريب وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٥٧).

كما يتعرض هو وأهله للعنت. وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده. فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال! فيكونون عدواً له؛ لأنهم صدوه عن الخير، وعوَّقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا.

كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه؛ اتقاء لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله.. وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات... وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن.

ومن ثَمَّ اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة، التحذير من الله، لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا، والحذر من تسلل هذه المشاعر، وضغط هذه المؤثرات. ثم كرر هذا التحذير في صورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد.

وكلمة فتنة تحتمل معنيين:

الأول: أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم، فانتبهوا لهذا، وحاذروا وكونوا أبداً يقظين لتنجحوا في الابتلاء وتُخْلِصوا وتتجردوا لله. كما يفتن الصائغُ الذهبَ بالنار ليخلِّصه من الشوائب!

والثاني: أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم تُوقِعُكم بفتنتها في المخالفة والمعصية، فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله)[1] ا.هـ

---

(١) في ظلال القرآن عند الآية (١٤، ١٥) من سورة التغابن.

أما الأحاديث الواردة في التحذير من انفتاح الدنيا وكثرة الأموال والفتنة بها فكثيرة من أصحها وأشهرها:

● قوله ﷺ: «كيف أنتم إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم. أيّ قوم أنتم؟ قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. قال: «أو غير ذلك؟ تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون»(١).

● وقوله ﷺ: «والله ما الفقرَ أخشى عليكم ،ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم؛ فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»(٢).

● وقوله ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم: يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»(٣).

● وقوله ﷺ: «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء مما أخذ المال أمن الحلال؟ أم من حرام؟»(٤).

ومن أجل ذلك خاف السلف – رحمهم الله تعالى – من الافتتان بزهرة الدنيا وأموالها وزخرفها. والنماذج التالية تشهد بذلك:

---

(١) مسلم. ك. الزهد (٢٩٦٢).

(٢) البخاري ٦ / ٢٥٨، ومسلم ٤ / ٢٢٧٤.

(٣) مسلم. ك. الإيمان (١١٨) والترمذي في الفتن (٢١٩٦).

(٤) البخاري. ك. البيوع (٢٠٨٣).

* عن إبراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – أتي بطعام، وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير، . وهو خير مني، كُفِّنَ في بردة: إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقتل حمزة، وهو خير مني، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا – أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلَت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام)[١].

* وعن أبي حازم قال: جعل عروة بن الزبير لعائشة طعاماً فجعل يرفع قصعة ويضع قصعة، قال: فحوَّلَتْ وجهها إلى الحائط تبكي، فقال لها عروة: كدرت علينا، فقالت: (والذي بعثه بالحق! ما رأى المناخل من حين بعثه الله حتى قبض)[٢].

* وعن ميمون بن أبي شبيب قال: كان معاذ بن جبل في ركب من أصحاب رسول الله ﷺ فمر بهم رجل فسألهم فأجابوه، ثم انتهى إلى معاذ ابن جبل وهو واضع رأسه على رجله يحدث نفسه فقال: عمَّ سألتهم؟ فقال: سألتهم عن كذا، فقالوا: كذا، وسألتهم عن كذا فقالوا: كذا، فقال معاذ – رضي الله عنه –: «كلمتان إن أنت أخذت بهما أخذت بصالح ما قالوا، وإن أنت كنت تركتهما تركت صالح ما قالوا: إن أنت ابتدأت بنصيبك من الدنيا يفتك نصيبك من الآخرة، وعسى أن لا تدرك منها الذي تريد، وإن أنت ابتدأت بنصيبك من الآخرة يمر بك على نصيبك من

(١) البخاري في الجنائز (١٢٧٤) (١٢٧٥).
(٢) المطالب العالية ٣/ ١٦٠.

الدنيا فينتظم لك انتظاماً، ثم يدور معك حيثما تدور»[١].

* (وكان عبد الواحد بن زيد يحلف بالله لَحِرْصُ المرء على الدنيا أخوف عليَّ عندي من أعدى أعدائه، وكان يقول: يا إخوتاه لا تغبطوا حريصاً على ثروته وسعته في مكسب ولا مال، وانظروا له بعين المقت له في اشتغاله اليوم بما يرديه غداً في المعاد ثم يتكبر. وكان يقول: الحرص حرصان: حرص فاجع، وحرص نافع. فأما النافع: فحرص المرء على طاعة الله، وأما الحرص الفاجع: فحرص المرء على الدنيا)[٢].

والآن يمكننا إجمال أهم مظاهر الفتنة بالأموال والأولاد فيما يلي:

(١) الانشغال بها عن الآخرة والاستعداد لها والتفريط في الصالحات.

(٢) الحرص على المال والأولاد والمحبة الشديدة لهما تدفع إلى الوقوع في المحرمات وأخذِ المال من حله ومن غير حله؛ ذلك حتى يوفر الراحة والسعادة له ولأهله وأولاده، كمن يُحضر أجهزة التلفاز والڤيديو والبث المباشر والمجلات الخليعة ليسعد بها أهله بزعمه.

قال الزجاج -رحمه الله تعالى- عند آية التغابن السابقة: (أعلمهم الله -عز وجل- أن الأموال والأولاد مما يفتنون به؛ وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده؛ لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول

---

(١) المطالب العالية ٣/ ٢٠٤.

(٢) أورد هذه الأقوال الإمام ابن رجب - رحمه الله تعالى - في شرحه لحديث (ما ذئبان جائعان) ت. محمد حلاق ص٢٦.

الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله تعالى)[١].

(٣) التحاسد والتدابر والتباغض، بل والتقاتل على الدنيا وأموالها يقول الإمام ابن رجب - رحمه الله تعالى - في تعليقه على حديث « ما الفقر أخشى عليكم » السابق ذكره:

(فلما دخل أكثرُ الناس في هاتين الفتنتين أو إحداهما أصبحوا متقاطعين متباغضين بعد أن كانوا إخواناً متحابين متواصلين؛ فإنَّ فتنة الشهوات عمَّت غالب الخلق ففُتِنوا بالدنيا وزهرتها، وصارت غاية قصدهم: لها يطلبون، وبها يَرضون، ولها يَغضبون، ولها يُوالون، وعليها يُعادون، فتقطعوا لذلك أرحامهم، وسَفكُوا دماءهم، وارتكبوا معاصي الله بسبب ذلك)[٢].

(٤) الوقوع في صفتين ذميمتين بسبب الأموال والأولاد هما: البخل والجبن. وقد نبه الرسول ﷺ عليهما بقوله: « إن الولد مبخلة مجبنة »[٣]. والبخل يدفع إلى الوقوع في المال الحرام، وإلى أن تمنع الحقوق الواجبة، وهذا هو الشح المذموم الذي قال الله - عز وجل - عنه: ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [التغابن: ١٦]. وهو الذي حذر منه الرسول ﷺ بقوله: « اتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم: أمرهم بالقطيعة

---

(١) إغاثة اللهفان ١ / ١٦٠.

(٢) كشف الكربة ت. بدر البدر ص٢٣.

(٣) ابن ماجة. ك. الأدب (٣٦٦٠) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (٢٩٥٧).

فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»[١].

كما أن من الفتنة بالأولاد الوقوع في الجبن والخوف والذي بدوره يصد عن القيام بواجب الدعوة والجهاد والهجرة كما مر بنا في آية التغابن السابقة؛ ذلك لما يصيبهم من العنت والمشقة بغيابه عنهم، وقد يحتمل الداعية الأذى والعنت على نفسه في سبيل الله - عز وجل - لكن القليل من يحتمله في أهله وأولاده؛ خاصةً إذا تعرض لما يبعده عنهم كالسجن والتشريد.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: (هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يُخشى عليهم أن يُصيبهم الأذى بسببه، وهو لا يملك عنهم دفْعاً وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم، وينادونه باسم الحب والقرابة، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك)[٢].

وفي هذا فتنة واختبار للداعية؛ ولا يثبت إلا من ثبته الله - عز وجل - وعصمه بصدق التوكل عليه وحسن الظن به، والوثوق برحمته وحفظه له ولأولاده.

وأسوق بهذه المناسبة رواية ذكرها الإمام الذهبي - رحمه الله تعالى - في السِّيَر تكشف لنا أثر الأولاد في تثبيت الداعية على عقيدته.

● عن الهيثم بن خلف الدوري أن محمد بن سويد الطحان حدثه

---

(١) أبو داود ٢/ ٣٢٤ (١٦٩٨).

(٢) في ظلال القرآن. عند الآية (١) من سورة العنكبوت.

قال: كنا عند عاصم بن علي ومعنا أبو عبيد، وإبراهيم بن أبي الليث وجماعة، وأحمد بن حنبل يُضرب، فجعل عاصم يقول: ألا رجل يقوم معي، فنأتي هذا الرجل، فنكلمه؟ قال: فما يجيبه أحد، ثم قال ابن أبي الليث: أنا أقوم معك يا أبا الحسين، فقال: يا غلام: خفي. فقال ابن أبي الليث: يا أبا الحسين أبلغ إلى بناتي، فأوصيهم. فظننا أنه ذهب يتكفن ويتحنط، ثم جاء، فقال: إني ذهبت إليهن، فبكين، قال: وجاء كتاب ابنتَيْ عاصم من واسط: يا أبانا! إنه بلغنا أن هذا الرجل أخذ أحمد بن حنبل، فضربه على أن يقول: القرآن مخلوق، فاتق الله، ولا تجبه، فوالله لأن يأتينا نعيك أحب إلينا من أن يأتينا أنك أجبت[1].

(٥) - البغي والتكبر على الناس:

قال الله عز وجل: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ... الآية**﴾ [الشورى: ٢٧] وقال تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ**﴾ [العلق: ٦، ٧] والآيات في هذا كثيرة والتجارب شاهدة بذلك؛ فإن أغلب من ينعم الله عز وجل عليهم بكثرة الأموال والأولاد يظهر عليهم البطر والتعالي على الناس إلا من رحم الله - عز وجل - وهذه من أعظم الفتن بالأموال والأولاد.

(٦) هناك من الناس من يُعذَّب بماله وولده في الدنيا قبل الآخرة، وتتحول عنده هذه الأمور التي يحبها الناس ويحرصون على تكثيرها من

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٤٤.

كونها مصدر نعمة وسعادة إلى أن تكون مصدر نقمة وشقاء وعذاب. وكم صرح كثير من أرباب الأموال والأولاد بهذه الحال، واعترفوا بما يعانونه من النكد والشقاء والعذاب بسبب أموالهم وأولادهم حتى أصبح لا يقر لهم قرار، ولا يهنأ لهم بال، ولا يخشعون في صلاة، ولا تطيب أنفسهم بإخراج الزكوات والصدقات، فهل بعد هذا من فتنة؟

نعوذ بالله من هذه الحال. وصدق الله العظيم: ﴿**وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا... الآية**﴾ [التوبة: ٨٥] وهذه الآية وإن كانت في المنافقين الكافرين إلا أنه يمكن الاستشهاد بها في هذا المقام للحذر من هذه النهاية.

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

* * *

ب ـ فتنة النساء

مر بنا في أول سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ... الآية ﴾ والميل إلى النساء أمر طبعي ركبه الله - عز وجل - في غريزة الإنسان، وما دام أنه في الحلال كالزوجة وما ملكت اليمين وأنه لم يصد عن طاعة الله - عز وجل - ولم يدفع إلى فعل محرم؛ فإنه أمر لا يعاب عليه الإنسان، بل هو من الأمور المطلوبة في غض البصر وتحصين الفرج وبقاء النسل، والتقوّي بذلك على طاعة الله عز وجل. وقد قال ﷺ «حبب إليّ من الدنيا: النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة»[١].

وقد فصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى الفرق بين الحب في الله والحب مع الله تفصيلاً يكشف حقيقة المحبة ومتى تكون فتنة ومتى لا تكون. قال رحمه الله تعالى:

(والفرق بين الحب في الله والحب مع الله - وهذا من أهم الفروق، وكل أحد محتاج بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا - فالحب في الله هو من كمال الإيمان، والحب مع الله هو عين الشرك والفرق بينهما: أن المحب في الحب تابع لمحبة الله، فإذا تمكنت محبته من قلب العبد أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله؛ فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه كان ذلك الحب له وفيه؛ كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأولياءه لكونه - تعالى -

---

(١) النسائي. ك. العشرة ٧/ ٦١ وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣٦٨٠).

يحبهم، ويبغض من يبغضهم لكونه - تعالى - يبغضهم.

وعلامة هذا الحب والبغض في الله: أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حباً لإحسانه إليه وخدمته له وقضاء حوائجه، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليه من جهته ما يكره ويؤلمه، إما خطأً وإما عمداً، مطيعاً لله فيه أو متأولاً أو مجتهداً أو باغياً نازعاً تائباً.

والدين كله يدور على أربع قواعد: حب، وبغض، ويترتب عليهما: فعل وترك فمن كان حبه، وبغضه، وفعله، وتركه لله؛ فقد استكمل الإيمان؛ بحيث إذا أحب أحب لله، وإذا أبغض أبغض لله، وإذا فعل فعل لله، وإذا ترك ترك لله، وما نقص من أصنافه هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه. وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان: [نوع] يقدح في أصل التوحيد، وهو شرك، ونوع يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله، ولا يخرج من الإسلام.

(فالأول): كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٦٥] وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله كما يحبون الله، فهذا محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء. وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله.

ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ومعاداتهم ومحاربتهم؛ وبذلك أرسل الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم

فيه وفي مرضاته؛ فكل من عبد شيئاً من لدن عرشه إلى قرار أرضه فقد اتخذ من دون الله إلهاً ووليا وأشرك به كائناً ذلك المعبود ما كان ولا بد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه.

(والنوع الثاني): محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء. فهذه المحبة ثلاثة أنواع:

فإن أحبها لله توصلاً بها إليه واستعانة على مرضاته وطاعته أثيب عليها، وكانت من قسم الحب لله توصلاً بها إليه ويلتذ بالتمتع بها. وهذا حال أكمل الخلق الذي حبب إليه من الدنيا النساء والطيب، وكانت محبته لهما عوناً له على محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره.

وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه وإرادته ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه؛ بل نالها بحكم الميل الطبيعي كانت من قسم المباحات؛ ولم يعاقب على ذلك، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه.

وإن كانت هي مقصوده ومراده وسعيه في تحصيلها والظفر بها، وقدَّمها على ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالماً لنفسه متبعاً لهواه.

(فالأولى): محبة السابقين.

(والثانية): محبة المقتصدين.

(والثالثة): محبة الظالمين.

فتأمل هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق؛ فإنه معترك النفس الأمارة

والمطمئنة. والمهدي من هداه الله»[١]. ا.هـ

والحاصل: أن فتنة النساء فتنة عظيمة حذر منها الرسول ﷺ بقوله: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[٢]، وكذلك ما رواه أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون؛ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[٣].

والآثار عن السلف في التحذير من فتنة النساء كثيرة منها ما يلي:

● عن أشعث بن سليم قال: سمعت رجاء بن حَيوة، عن معاذ بن جبل قال: ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وستُبتلون بفتنة السراء، وأَخْوَفُ ما أخاف عليكم: فتنة النساء إذا تسورن الذهب، ولبسن رياط الشام وعصب اليمن، فأتعبن الغني، وكلَّفن الفقير ما لا يجد[٤].

● وعن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَلِ النساء. وقال لنا سعيد وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى: ما من شيء أخوف عندي من النساء[٥].

---

(١) الروح لابن القيم: ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٢) البخاري ك النكاح (٥٠٩٦) (فتح ٩ / ٤١) مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٠).

(٣) مسلم ك. الذكر والدعاء (٢٧٤٢).

(٤) صفة الصفوة ١ / ٤٩٧.

(٥) صفة الصفوة ٢ / ٨٠.

● وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا إبراهيم بن الحسن الباهلي، حدثنا حماد بن زيد قال: قال يونس بن عُبيد: ثلاثة احفظوهن عني: لا يدخل أحدكم على سلطان يقرأ عليه القرآن، ولا يخلوَنَّ أحدكم مع امرأة يقرأ عليها القرآن، ولا يمكِّن أحدكم سمعه من أصحاب الأهواء(١).

● وقال عباس الدوري: كان بعض أصحابنا يقول: كان سفيان الثوري كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها   من الحرام ويبقى الوزر والعارُ
تبقى عواقب سوء في مغبتها   لا خير في لذة من بعدها النارُ

والفتنة بالنساء تأخذ صوراً مختلفة أهمها ما يلي:

(١) إطلاق النظر إلى الأجنبيات من النساء، وما يعقب ذلك من السقوط في حبائلهن والإصابة منهن بسهام إبليس اللعين، وعندئذ تكون الفتنة والعشق المحرم والمحبة المحرمة التي تملأ قلب المفتون، ولا يكون فيه بعد ذلك محل لمحبة الله – عز وجل – ومرضاته وأَعْظِمْ بها من فتنة.

(٢) النظر إلى صورهن الجميلة؛ سواء في تلفاز، أو ڤيديو، أو مجلة، أو كتاب، وما يعقب ذلك من الافتتان بهذه الصور وانشغال القلب بها.

ولقد ظهر في عصرنا اليوم من وسائل عرض النساء وصورهن الخليعة وشبه العارية ما لم يظهر في أي عصر مضى، وأصبحت الفتنة بهن عظيمة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦ / ٢٩٣.

وشديدة؛ لذا وجب على أهل الغيرة والإيمان أن يحموا أنفسهم وأولادهم وبيوتهم من شر هذه الوسائل المفسدة، وأن لا يفتنهم الشيطان بها مهما كان المسوغ لذلك؛ قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ... الآية** ﴾ [التحريم: ٦].

(٣) وقد تكون الفتنة ممن يجوز النظر إليها كالزوجة وما ملكت اليمين وذلك بشدة التعلُّق بها والافتتان بصورتها، مما يجعل الزوج أسيراً لها بل عبداً؛ عياذاً بالله. وهنا تقع الفتنة – وبخاصة إذا كانت المرأة قليلة دين وحياء – فتطلب من زوجها الأسير ما يوقعه في المحرمات أو يترك به الواجبات الدينية إرضاءً لهواها.

ولا يقع في ذلك إلا من ضعفت محبة الله في قلبه، واستولت عليه محبة الشهوات؛ فقدم مرادها على مراد الله – عز وجل – ومثل هذا يخشى عليه من الوقوع في المحبة الشركية التي قال الله عز وجل في أهلها: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ... الآية** ﴾ [البقرة: ١٦٥][1].

(٤) الافتتان بقراءة القصص الغرامية وقصص الحب والعشق والجنس؛ مما يؤدي إلى إثارة الغرائز وثوران الشهوة التي تؤدي بدورها إلى الوقوع في المحرم ومقارفة النجاسات. كل هذا من الفتن التي يجب على المسلم أن يفر

---

(١) انظر كلاماً نفيساً لشيخ الإسلام في كتاب العبودية حول استعباد المرأة لزوجها: ص٤٥. مكتبة المدني.

منها، ويعتقد حرمتها. فإن ما أوصل إلى الحرام فهو حرام.

(٥) ما يتعرض له إخواننا الأطباء أو نحوهم من مخالطة النساء — الطبيبات، أو الممرضات أو المريضات ـ كل هذا من الفتن التي يجب على المسلم الحذر منها والفرار منها، وأن لا يسمح المسلم لنفسه مهما كان دينه وتقواه أن يخلو بهن، أو يلين الكلام معهن، أو ينظر إليهن من غير حاجة.

٦ — ومن الفتن بهن اليوم ما ابتلي به كثير من بيوت المسلمين من الخادمات الأجنبيات اللاتي جئن بلا محارم ـ الكافرات منهن والمسلمات ـ وما نشأ عن ذلك من مصائب وجرائم، كل ذلك بسبب التساهل في جلبهن إلى البيوت، والترخص في التعامل معهن وكأنهن من ملك اليمين؛ سواء في حجابهن أو اختلاطهن بالرجال الأجانب أو خروجهن من البيوت مع أنهن أجنبيات حرائر!

٧ — التساهل في السفر إلى بلا الكفر والفحش والنجاسة من غير حاجة أو ضرورة، ومعلوم ما يتعرض له المسلم في تلك الديار من الفتن العظيمة ومنها فتنة النساء وعريهن وتهتكهن وإغرائهن. والمطلوب من المسلم أن يفر بدينه من الفتن لا أن يفر إليها.

٨ — التباغض والتشاحن بل وتقاطع الأرحام من أجل النساء، كما هو الحال في الشقاق بين زوجة الرجل وأمه أو أبيه، وميل الرجل مع زوجته لفتنته بها.

٩ — ومن صور الافتتان بالنساء في عصرنا الحاضر ما ينادي به علمانيو زماننا ممن يدعون تحرير المرأة وتبني حقوقها، وذلك بالمطالبة بمساواتها

بالرجل، والعمل جنباً إلى جنب مع الرجل، وإخراجها من منزلها، وممارستها لجميع الأعمال بدون استثناء كقيادة السيارة وأعمال الجيش والشرطة والقضاء... إلخ.

وقد تمت هذه الفتنة في كثير من بلدان المسلمين، وما زال أهل الفتنة والفساد يسعون في إخضاع بقية بلدان المسلمين لهذه الفتنة العمياء. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. كما يطرح هؤلاء المفتونون الدعوة إلى السفور وترك الحجاب كلما سنحت لهم الفرصة.

ومن المجالات التي يتبناها أهل الفتنة لإفساد المرأة وفتن الناس بها: إقامة ما يسمى بالجمعيات النسائية والنوادي النسائية والحفلات العائلية المختلطة، والمطاعم المختلطة، والحدائق المختلطة، وغير ذلك مما يغري المرأة بهجر بيتها وإهمال حقوق زوجها وأولادها، واختلاطها بجليسات السوء بل وجلساء السوء أيضاً.

١٠ - ومن صور الافتتان بالنساء أيضاً تلك الأزياء الغريبة على ديننا وعاداتنا مما تلقفه كثير من نساء المسلمين وقلدن فيها الغرب الكافر والشرق الملحد. هذه الأزياء التي تخالف الشرع وتخرم المروءة وتخدش الحياء وتفتن الرجال: من ثوب قصير، أو مشقوق، أو شفاف، أو بنطال يحجم العورة. والمرأة بطبيعتها ناقصة عقل ودين.

وقد لا يستغرب خضوعها لبيوت الأزياء وأربابها، وبخاصة تلك المرأة التي لم تنل حظاً من التربية والتقوى. ولكن المستغرب أن يرضى زوج المرأة

أو والدها أو أخوها بوقوع مولياتهم في هذه الفتنة فَيُفْتَنَّ وَيُفْتِنَّ.

١١ – فتنة الهاتف، وما يجر من الفتنة بالنساء وخضوعهن في القول، وما يعقب ذلك من فساد في الأعراض وخراب للبيوت. وكم من هَتْكٍ للأعراض كانت بدايته من فتنة الهاتف.

* * *

ج ـ فتنة الجاه وحب الرئاسة

وهذه أيضاً من فتن الدنيا التي لا يسلم منها إلا من رحم الله – عز وجل – وهي من الفتن الدقيقة والشهوة القلبية الخفية، أعاذنا الله – عز وجل – منها.

ويكفينا في معرفة شناعة هذه الفتنة وشرها وخطرها، ما رواه كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[(١)].

قال الإمام ابن رجب – رحمه الله تعالى –: (هذا مثل عظيم جداً ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم قد غاب عنها رعاؤها ليلاً؛ فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها؛ ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هذه إلا قليل... فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا)[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي ٤/ ٥٨٨ (٢٣٧٦) وقال: حديث حسن صحيح. ورواه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٤٥٦.

(٢) شرح حديث (ما ذئبان جائعان) للإمام ابن رجب. ت محمد صبحي حلاق ص٢٢، ٢٣.

وقسَّم - رحمه الله تعالى - الحرص على الشرف وحب الرئاسة إلى قسمين كبيرين يتضح منهما بعض مظاهر الفتنة بالجاه. قال - رحمه الله تعالى -:

● **القسم الأول:**

طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال. وهذا خطر جداً، وهو في الغالب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها. قال الله - تعالى -: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [القصص: ٨٣].

وقلَّ من يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولايات فيوفق، بل يوكل إلى نفسه، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة - رضي الله عنه -: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»(١). وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة، وبئست الفاطمة»(٢).

واعلم أن الحرص على الشرف يستلزم ضرراً عظيماً قبل وقوعه في السعي في أسبابه، وبعد وقوعه بالحرص العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية من الظلم والتكبر وغير ذلك من المفاسد...

---

(١) البخاري ١١/ ٥١٦ (٦٦٢٢)، مسلم ٣/ ١٢٧٣.

(٢) البخاري ١٣/ ١٢٥ (٧١٤٨).

● ... واعلم أن حب الشرف بالحرص على نفوذ الأمر والنهي وتدبير أمر الناس إذا قصد بذلك مجرد علو المنزلة على الخلق والتعاظم عليهم، وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس وافتقارهم إليه وذلهم له في طلب حوائجهم منه، فهذا نفسه مزاحمة لربوبية الله وإلهيته.. فهذه الأمور أصعب وأخطر من مجرد الظلم وأدهى وأمرُّ من الشرك، والشرك أعظم الظلم عند الله.

● ومن هذا الباب أيضاً أن يحب ذو الشرف والولاية أن يحمد على أفعاله ويثنى عليه بها، ويطلب من الناس ذلك، ويتسبب في أذى من لا يجيبه إليه؛ وربما كان ذلك الفعل إلى الذم أقرب منه إلى المدح، وربما أظهر أمراً حسناً في الظاهر وأحب أن يمدح عليه وقصد به في الباطن شراً وفرح بتمويهه ذلك وترويجه على الخلق، وهذا يدخل في قوله تعالى: ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [آل عمران: ١٨٨].

ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له؛ فإن النعم كلها منه.

● **القسم الثاني:**

طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية كالعلم والزهد والعبادة، وهذا أفحش من الأول وأقبح وأشد فساداً وخطراً؛ فإن العلم والعمل والزهد إنما يُطلب به ما عند الله من الدرجات والنعيم المقيم والقرب

منه، والزلفى لديه.. فإذا طُلِبَ بشيء من هذا عرض الدنيا الفاني فهو أيضاً نوعان:

أحدهما: أن يطلب به المال، فهذا من نوع الحرص على المال وطلبه بالأسباب المحرمة...

الثاني: من يطلب بالعلم والعمل والزهد: الرياسة على الخلق والتعاظم عليهم، وأن ينقاد الخلق له، ويخضعون له، ويصرفون وجههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه على العلماء ليعلو به عليهم، ونحو ذلك. فهذا موعده النار؛ لأن قصد التكبر محرم في نفسه، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان.

● ومن هذا القبيل كراهة السلف الصالح الجرأة على الفتيا والحرص عليها والمسارعة إليها...

● ومن هذا الباب أيضاً كراهة الدخول على أصحاب الرئاسات والدنو منهم. وهو الباب الذي يدخل منه علماء الدنيا إلى نيل الشرف والرياسات فيها..

وصنَّف أبو بكر الآجرِّي – وكان من العلماء الربانيين في أوائل المائة الرابعة – مصنفاً في أخلاق العلماء وآدابهم.. فوصف فيه عالم السوء بأوصاف طويلة منها: أنه قال:

«قد فتنه حب الثناء والشرف والمنزلة عند أهل الدنيا، يتجمل بالعلم، كما يتجمل بالحلة الحسناء للدنيا ولا يجمل علمه بالعمل به ... وذكر

كلاماً طويلاً إلى أن قال:

«فهذه الأخلاق وما يشبهها تغلب على قلب من لم ينتفع بالعلم، فبينا هو مقارب لهذه الأخلاق إذ ذهبت نفسه في حب الشرف والمنزلة، فأحب مجالسة أصحاب الرئاسات وأبناء الدنيا، وأحب أن يشاركهم فيما هم فيه من رخاء عيشهم من منظر بهي ومركب هني، وخادم سري، ولباس لين، وفراش ناعم، وطعام شهي، وأحب أن يُغشى بابه، وأن يُسمع قوله، ويُطاع أمره، فلم يقدر عليه إلا من جهة القضاء، فطلبه فلم يمكنه إلا ببذل دينه، فتذلل للملوك وأتباعهم، فخدمهم بنفسه وأكرمهم بماله، وسكت عن قبيح ما ظهر له من الدخول في إيواناتهم، وفي منازلهم من أفعالهم، ثم قد زين لهم كثيراً من قبيح فعلهم بتأوله الخطأ ليحسن موقفه عندهم، فلما فعل هذا مدة طويلة، واستحكم فيه الفساد وَلَّوْهُ القضاء، فذبح بغير سكين، فصارت لهم عليه منَّة عظيمة، ووجب عليه شكرهم» انتهى كلام الآجري رحمه الله تعالى.

ثم تابع ابن رجب رحمه الله تعالى قائلاً:

● ومن هذا الباب أيضاً: كراهة أن يشهر الإنسان نفسه للناس بالعلم والزهد والدين أو بإظهار الأعمال والأقوال والكرامات ليزار وتلتمس بركته ودعاؤه وتُقبَّل يده، وهو محب لذلك، ويقيم عليه ويفرح به، ويسعى في أسبابه؛ ومن هنا كان السلف الصالح يكرهون الشهرة غاية الكراهة، منهم: أيوب، والنخعي، وسفيان، وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين، وكذلك الفضيل، وداود الطائي. وغيرهما من الزهاد والعارفين، وكانوا يذمون أنفسهم غاية الذم، ويسترون أعمالهم غاية الستر.

دخل رجل على داود الطائي فسأله: ما جاء بك؟ فقال: جئت لأزورك فقال: أمَّا أنت فقد أصبت خيراً؛ حيث زرت في الله، ولكن أنا أنظر ماذا لقيت غداً، إذا قيل لي: من أنت حتى تزار: من الزهاد أنت؟ لا والله. من العبَّاد أنت؟ لا والله. ومن الصالحين أنت؟ لا والله. وعدَّد خصال الخير على هذا الوجه. ثم جعل يوبخ نفسه ويقول: يا داود كنت في الشبيبة فاسقاً، فلما شبت صرت مرائياً، والمرائي شر من الفاسق.

وكان محمد بن واسع يقول: لو أن للذنوب رائحة ما استطاع أحد أن يجالسني... وهذا باب واسع جداً، وههنا نكتة دقيقة وهي: أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس ويريد بذلك أن يرى الناس أنه متواضع عند نفسه فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبه عليه السلف الصالح .قال مطرف بن عبد الله الشخير: كفى بالنفس إطراء أن تذمها على الملأ، كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سفه...

● ... وأصل محبة المال والشرف حب الدنيا، وأصل حب الدنيا اتباع الهوى. قال وهب بن منبه: «من اتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة فيها حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف استحلال المحارم».

وهذا كلام حسن فإنه حبٌّ يحمل على الرغبة في الدنيا، وإنما تحصل الرغبة في الدنيا من اتباع الهوى، لأن الهوى داع إلى الرغبة في الدنيا، وحب المال والشرف فيها، والتقوى تمنع من اتباع الهوى وترد عن حب الدنيا قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

■ ... واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها، ومن هنا نشأ الكبر والحسد. ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه وانحطاط العبد وسفوله وبُعده عن الله وطرده عنه. قال الحسن: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة»[١] ا.هـ كلام ابن رجب رحمه الله تعالى.

وكلما كمل علم العبد وفقهه وتقواه كلما كان أشد كراهة للشهرة والجاه وحب الرئاسة وهكذا كان شأن السلف - رحمهم الله تعالى - وأضيف إلى ما ذكره الإمام ابن رجب - رحمه الله تعالى - من النماذج الفريدة لكراهية السلف للشهرة والرئاسة نماذج أخرى تشهد لخوف السلف من هذه الفتنة ومن ذلك ما يلي:

● عن سفيان قال: قال الأحنف: قال لنا عمر بن الخطاب: تفقهوا قبل أن تسودوا. قال سفيان: لأن الرجل إذا فقه لم يطلب السؤدد[٢].

● وقال موسى بن عُقبة في «مغازيه»: غزوة عمرو بن العاص هي غزوة ذات السلاسل من مشارف الشام، فخاف عمرو من جانبه ذلك، فاستمد رسول الله ﷺ، فانتدب أبا بكر وعمر في سراة من المهاجرين، فأمَّر نبي الله عليهم أبا عبيدة، فلما قدموا على عمرو بن العاص قال: أنا أميركم، فقال

---

(١) شرح حديث (ما ذئبان جائعان) للإمام ابن رجب ص ٣٣ - ص ٧٢ (باختصار)، وتصرف يسير. ت: محمد صبحي حلاق.

(٢) صفة الصفوة ٢ / ٢٣٦.

المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك، وأميرنا أبو عبيدة. فقال عمرو: إنما أنتم مدد أمددت بكم. فلما رأى ذلك أبو عبيدة بن الجراح، وكان رجلا حسن الخلق، لين الشيمة، متبعاً لأمر رسول الله ﷺ وعهده، فسلم الإمارة لعمرو[١].

● وقال أبو بكر الحنفي عبد الكبير: حدثنا بكير بن مسمار، عن عامر ابن سعد أنَّ أباه سعداً، كان في غنم له، فجاء ابنه عمر، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما انتهى إليه، قال: يا أبت أرضيت أن تكون أعرابياً في غنمك، والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟ فضرب صدر عمر، وقال: اسكت؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يحب العبد التقي الغني الخفي»[٢].

● عن ابن وهب: حدثنا ابن لهيعة، عن يحيى بن سعيد، عن أبي عبيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أزهر، عن أبيه، عن جده أنَّ عثمان اشتكى رُعافاً، فدعا حُمران، فقال: اكتب لعبد الرحمن العهد من بعدي، فكتب له، وانطلق حُمران إلى عبد الرحمن، فقال: البشرى! قال: وما ذاك؟ قال: إن عثمان قد كتب لك العهد من بعده؛ فقام بين القبر والمنبر، فدعا، فقال: اللهم! إن كان من تولية عثمان إياي هذا الأمر؛ فأمتني قبله. فلم يمكث إلا ستة أشهر حتى قبضه الله[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٩٠٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ١٠٢. والحديث رواه مسلم (٢٩٦٥).

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٨٨.

● وقال الذهبي: من أفضل أعمال عبد الرحمن بن عوف عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد، فنهض في ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محابياً فيها، لأخذها لنفسه، أو لولاَّها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه: سعد بن أبي وقاص[1].

● وعن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب: حدثنا عمي، حدثني عبد الله بن عياش، عن أبيه، أن يزيد بن المهلب لما ولي خراسان قال: دلوني على رجل كامل لخصال الخير، فدلَّ على أبي بردة الأشعري. فلما جاء، رآه رجلاً فائقاً، فلما كلمه رأى من مخبرته أفضل من مرآته، فقال: إني وليتك كذا وكذا من عملي، فاستعفاه، فأبى أن يعفيه، فقال: أيها الأمير! ألا أخبرك بشيء حدثنيه أبي، أنه سمعه من رسول الله ﷺ؟ قال: هاته. قال: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من تولى عملاً وهو يعلم أنه ليس لذلك العمل بأهل، فليتبوأ مقعده من النار». وأنا أشهد أيها الأمير أني لست بأهل لما دعوتني إليه. فقال: ما زدت على أن حرَّصتنا على نفسك ورغَّبتنا فيك، فاخرج إلى عهدك فإني غير معفيك.

فخرج ثم أقام فيهم ما شاء الله أن يقيم؛ فاستأذن في القدوم عليه، فأذن له، فقال: أيها الأمير ألا أحدثك بشيء حدثنيه أبي سمعه من رسول الله ﷺ؟ قال: قال: «ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه الله

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٨٦.

ثم منع سائله، ما لم يسأل هجراً» وأنا سائلك بوجه الله إلا ما أعفيتني أيها الأمير من عملك. فأعفاه. رواه الروياني في مسنده عن أحمد[١].

● وعن عبد الرحمن بن سابط الجمحي قال: دعا عمر بن الخطاب رجلاً من بني جمح يقال له: سعيد بن عامر بن حذيم، فقال: إني مستعملك على أرض كذا وكذا، فقال: أوَ تقيلني يا أمير المؤمنين! فقال: والله، لا أدعك، قلدتموها في عنقي وتتركوني، فقال عمر: ألا نفرض لك رزقاً، فقال: قد جعلت لي في عطائي ما يكفيني دونه، وفضلاً على ما أريد، قال: وكان إذا خرج عطاؤه ابتاع لأهله قوتهم، وتصدق ببقيته، فتقول له امرأته: أين فضل عطائك؟ فيقول: قد أقرضته...[٢].

● وعن يوسف بن أسباط قال: سمعت سفيان يقول: ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإن نُوزِعَ الرئاسة، حامى عليها، وعادى[٣].

وبقي في هذا الموضوع مسألة مهمة ينبغي الانتباه إليها حتى لا يدخل الشيطان منها للتخذيل والرضى بالدون والتنصل من المسؤولية. ذلك أن بعض الطيبين قد يلتبس عليهم الأمر فيميلون إلى السلبية والخمول وترك الدعوة والتوجيه بحجة الزهد في الرئاسة وكراهية الشهرة والشرف. وهذا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٣٤٥. والحديث عند الروياني (٤٩٥).

(٢) المطالب العالية ٣ / ١٦٨.

(٣) سير أعلام النبلاء ٧ / ٢٦٢.

مدخل خفي للشيطان ينبغي الحذر منه وبذل الجهد في التوازن بين الحرص على هداية الناس وإمامتهم إلى الخير مع الزهد في المسؤولية وكراهية الشهرة والبعد عن الغرور والعجب. وعن هذه المسألة وكيف يحصل الجمع فيها بين الأمرين، وكيف يفك الارتباط بين الإيجابية وتحمل المسؤولية وبين الحرص على الجاه والرئاسة. عن هذا كله يتحدث الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – فيقول:

(والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها، فإن الناصح لله المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه فقد ناصح الله في عبوديته وناصح خلقه في الدعوة إلى الله فهو يحب الإمامة في الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماماً يقتدي به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين.

فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً وفي قلوبهم مهيباً وإليهم حبيباً، وأن يكون فيهم مطاعاً لكي يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده لم يضره ذلك، بل يحمد عليه؛ لأنه داع إلى الله، يحب أن يطاع ويعبد ويوحّد، فهو يحب ما يكون عوناً على ذلك موصلاً إليه.

ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليه في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه، فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ثم قال:
﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ

إمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة، فإنما سألوه ما يعانون به على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤].

وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهراً وباطنا التي لا تتم الإمامة إلا بها، وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن - جلَّ جلاله - ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته، وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف وهي المنازل العالية في الجنة لَمَّا كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد في الدين كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض وتعبُّد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم. فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقَّره الله واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ولا تُنال إلا به وبأضعافه من المفاسد، والرؤساء في عمى عن هذا،

فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه، ولا سيما إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً كما صغَّروا أمر الله وحقَّروا عباده)[1] ا.هـ.

* * *

(١) الروح لابن القيم ص٢٥٢، ٢٥٣.

رابعاً: فتنة المعاصي
وفشو المنكرات وترك إنكارها

والمقصود هنا بالمعاصي والمنكرات: تلك المخالفات التي يقع فيها الناس من ترك للواجبات أو فعل للمحرمات اتباعاً للهوى والشهوات، أو هي مزيج من الشبهات والشهوات يسوغ فيه المخالفات والتنازلات. ويمكن حصر الحديث عن هذه الفتنة فيما يلي:

١ – فتنة انتشار الفساد وفشو المنكرات وترك إنكارها.

٢ – فتنة إنكارها بلا ضوابط شرعية ودون مراعاة للمصالح والمفاسد.

أولاً: فتنة فشو المنكرات وانتشار الفساد وعدم إنكار ذلك:

ورد في كتاب الله – عز وجل – آيات عديدة تحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحذر من خطر المعاصي وتركها بلا إنكار، فمن ذلك:

• قوله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

• وقوله تعالى: ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾. [هود: ١١٦، ١١٧].

● وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

● وقوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

وأما الأحاديث فكثيرة ومتنوعة، من أشهرها:

● قوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان»(١).

● وعن أبي بكر الصديق – رضي الله تعالى عنه – أنه خطب على منبر رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]. وتضعونها في غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»(٢).

ولشيخ الإسلام رحمه الله تعالى كلام نفيس على الآية الكريمة يقول فيه:

(وإنما يتم الاهتداء إذا أطيع الله وأدي الواجب من الأمر والنهي

---

(١) مسلم ١ / ٦٩. ك. الإيمان (باب كون النهي عن المنكر من الإيمان).

(٢) سنن أبي داود ٤ / ١٧٣ ك الملاحم. باب الأمر والنهي.

وغيرهما، ولكن في الآية فوائد عظيمة:

«أحدها» أن لا يخاف المؤمن من الكفار والمنافقين؛ فإنهم لن يضروه إذا كان مهتدياً.

«الثاني» أن لا يحزن عليهم ولا يجزع عليهم؛ فإن معاصيهم لا تضره إذا اهتدى، والحزن على ما لا يضر عبث، وهذان المعنيان مذكوران في قوله: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ**﴾ [النحل: ١٢٧].

«الثالث» أن لا يركن إليهم، ولا يمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات، كقوله: ﴿**لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الحجر: ٨٨] فنهاه عن الحزن عليهم والرغبة فيما عندهم في آية. ونهاه عن الحزن عليهم والرهبة منهم في آية. فإن الإنسان قد يتألم عليهم ومنهم إما راغباً وإما راهباً.

«الرابع» أن لا يتعدى على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمهم، أو نهيهم أو هجرهم، أو عقوبتهم؛ بل يقال لمن اعتدى عليهم: عليك نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت، كما قال: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ**﴾ [المائدة: ٢] الآية. وقال: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)**﴾ [البقرة: ١٩٠] وقال: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)**﴾ [البقرة: ١٩٣] فإن كثيراً من الآمرين والناهين قد يتعدى حدود الله إما بجهل وإما بظلم. وهذا باب يجب

التثبت فيه، وسواء في ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين أو الفاسقين والعاصين.

«الخامس» أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع، من العلم والرفق، والصبر، وحسن القصد، وسلوك السبيل القصد؛ فإن ذلك داخل في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

فهذه خمسة أوجه تستفاد من الآية لمن هو مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيها المعنى الآخر، وهو إقبال المرء على مصلحة نفسه علماً وعملاً، وإعراضه عما لا يعنيه، كما قال صاحب الشريعة: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[١] ولا سيما كثرة الفضول فيما ليس بالمرء إليه حاجة من أمر دين غيره ودنياه. لا سيما إن كان التكلم لحسد أو رئاسة)[٢]. ا. هـ.

● – وعن أبي موسى – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال:

«إنه كان من قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل فيهم العامل الخطيئة، فنهاه الناهي تعذيراً، فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس، فلما رأى الله تعالى ذلك منهم، ضرب قلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهن عن المنكر

---

(١) الترمذي في الزهد (٢٣١٧) (٢٣١٨) وابن ماجة في الفتن (٣٩٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى ١٤/ ٤٨٠ – ٤٨٢.

ولتأخذن على أيدي المسيء، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم».[١]

● ـ وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت الظالم؛ فقد تودع منهم»[٢].

● وعن زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ـ وحلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها ـ فقالت زينب بنت جحش: قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث»[٣].

● وعن العرس بن عميرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى تعمل الخاصة بعمل تقدر العامة أن تغيره ولا تغيره، فذاك حين يأذن الله في هلاك العامة والخاصة»[٤].

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٣١ وعزاه إلى الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٣١ وعزاه إلى أحمد والطبراني والبزار وقال: أحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح.

(٣) متفق عليه: البخاري ـ كتاب أحاديث الأنبياء، (٧) باب: قصة يأجوج ومأجوج (ح٣٣٤٦) [فتح (٦/ ٤٤٠)]، ومسلم ـ كتاب الفتن (ح٢٨٨٠) (٤/ ٢٢٠٧).

(٤) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٢٨ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

أما عن مواقف السلف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحذيرهم من تركه فكثيرة نقتبس منها ما يلي:

* عن ابن أبي أويس، عن أبيه، عن الوليد بن داود بن محمد بن عُبادة ابن الصامت عن ابن عمه عبادة بن الوليد، قال: كان عُبادة بن الصامت مع معاوية، فأذن يوماً، فقام خطيب يمدح معاوية، ويُثني عليه، فقام عبادة بتراب في يده، فحشاه في فم الخطيب، فغضب معاوية، فقال له عُبادة: إنك لم تكن معنا حين بايعنا رسول الله ﷺ بالعقبة، على السَّمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ومكسلنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم بالحق حيث كنا، لا نخاف في الله لومة لائم. وقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم المداحين، فاحثوا في أفواههم التراب»[١].

* عن شريك عمن أخبره أن علياً - رضي الله عنه - قال: (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم)[٢].

* وعن عبد الملك بن الربيع قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إنها ستكون هنات وهنات؛ بحسب امرئ إذا رأى أمراً لا يستطيع له تغييراً أن يعلم الله أن قلبه له كاره)[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٧. وحديث (إذا رأيتم المداحين...) رواه مسلم (٣٠٠٢).
(٢) المطالب العالية ٣/ ٢١٠.
(٣) المطالب العالية ٣/ ٢١١.

* وعن خالد بن سعد مولى أبي مسعود قال: دخل أبو مسعود على حذيفة رضي الله عنه وهو مريض فأسنده إليه فقال له أبو مسعود: أوصنا قال: (إن الضلال حق الضلالة، أن تعرف ما كنت تنكره، وتنكر ما كنت تعرفه، وإياك والتلون في دين الله)[1].

* ـ وعن طارق بن شهاب قال: جلد خالد بن الوليد رجلاً حداً، فلما كان من الغد جلد رجلاً آخر حداً، فقال رجلٌ: هذه والله الفتنة، جلد أمس رجلاً في حد، وجلد اليوم رجلاً في حد، فقال خالد: (ليس هذه بفتنة، إنما الفتنة أن تكون في أرض يُعمل فيها بالمعاصي فتريد أن تخرج منها إلى أرض لا يُعمل فيها بالمعاصي فلا تجدها)[2].

* ـ وعن عبد العزيز بن أبي بكرة:

أن أبا بكرةَ تزوج امرأة من بني علاثة وأنها هلكت، فحملها إلى المقابر، فحال إخوتها بينه وبين الصلاة عليها، فقال لهم: لا تفعلوا فإني أحق بالصلاة منكم، قالوا: صدق صاحب رسول الله ﷺ فصلى عليها، ثم إنه دخل القبر، فدفعوه دفعاً عنيفاً، فوقع فغشي عليه، فحمل إلى أهله، فصرخ عليه يومئذ عشرون من ابن وبنت له.

قال عبد العزيز: وأنا يومئذ من أصغرهم، فأفاق إفاقة فقال لهم: لا تصرخوا علي، فوالله ما من نفس تخرج أحب إلي من نفس أبي بكرة، ففزع

(١) المصدر السابق ٣/ ٢١١.
(٢) كنز العمال ١١/ ٢٣٥.

القوم، فقالوا له: لما يا أبانا؟ فقال: (إني أخشى أن أدرك زماناً لا أستطيع أن آمر بمعروف ولا أنهى عن منكر، ولا خير يومئذ)[١].

* وعن الأوزاعي: حدثني أبو كثير، عن أبيه، قال: أتيت أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطى، وقد اجتمع الناس عليه يستفتونه، فأتاه رجل، فوقف عليه، فقال: ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا؟ فرفع رأسه، ثم قال: أرقيب أنت عليَّ! لو وضعتم الصمصامة على هذه ـ وأشار بيده إلى قفاه ـ ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ قبل أن تُجيزوا علي لأنفذتها[٢].

وهذا غيض من فيض من مواقف السلف – رحمهم الله تعالى – في إنكار المنكر وقول كلمة الحق، فيا ليتنا حين نتكلم عن صبر السلف على ولاة الجور وتحذيرهم من الخروج عليهم ـ وهذا حق ومن أصول السلف ـ ليتنا إذا تكلمنا عن هذا الجانب الحق في مواقف السلف أضفنا إليه مواقفهم الصلبة في قول الحق وإنكار المنكر لا يخافون في الله لومة لائم، وهذا من الوفاء لهم، وحجب هذه الجوانب المشرقة عن الناس فيها عقوق للسلف وتضليل للناس.

---

(١) مجمع الزوائد ٧/ ٥٥٠ وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٤.

بعض مظاهر الفتنة الناجمة عن فشو المعاصي والفساد وإهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

في ضوء الآيات والأحاديث والآثار السابقة يتضح لنا أهم مظاهر الفتنة الناشئة من انتشار الفساد والمعاصي من غير إنكار لها أو تغييرها بعد مراعاة الضوابط الشرعية ومراعاة المصالح والمفاسد، ومن أهم مظاهر هذه الفتنة ما يلي:

(١) الفتنة والفساد الذي تتعرض له الضرورات الخمس التي جاء الشرع الحنيف للمحافظة عليها وحمايتها من الفساد، والمتأمل للمجتمعات التي يكثر فيها الفساد، ولا تحكم بشرع الله عز وجل ويقل أو ينعدم فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - يرى كيف يعاني الناس من الظلم والعنت والفساد في أديانهم وأنفسهم وعقولهم وأموالهم وأعراضهم ونسلهم حتى أصبح الإنسان في مثل هذه المجتمعات لا يأمن على نفسه ولا ماله ولا عرضه ولا أولاده من الشرور والفساد والظلم. وهذه سنة الله - عز وجل - التي قد خلت في عباده، فلا سياج يحمي هذه الضروريات الخمس، ولا صمام أمان يحبس عنها الشرور إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ قال تعالى: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم: ٤١] وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعد من باب المدافعة والصراع مع الباطل وأهله والذين لو خُلُّوا وما يريدون لأفسدوا الحرث والنسل والبلاد

والعباد قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وإن الفتنة حين تشتعل وتقوم بسبب ترك المفسدين الظالمين ليفسدوا بلا أمر ولا نهي من قبل أهل الخير والصلاح فإن إطفاءها بعد ذلك يصعب جداً، بل إن الفتنة تمتد لتصيب البعيدين عنها الكارهين لها بسكوتهم عن إنكارها في بداية الأمر، وسكوتهم عن الظالمين المشعلين لها؛ ولعل هذا مما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ويؤيد هذا المعنى ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله تعالى حول الفتنة التي حصلت بعد مقتل عثمان رضي الله تعالى عنه حيث يقول رحمه الله تعالى: (فإن الظالم يظلم فيبتلىٰ الناس بفتنة تصيب من لم يظلم، فيعجز عن ردها حينئذ بخلاف ما لو منع الظالم ابتداءً فإنه كان يزول سبب الفتنة)[1] ويقول أيضاً: (والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء، فصار الأكابر رضي الله عنهم عاجزين عن إطفاء الفتنة وكف أهلها. وهذا شأن الفتن كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ وإذا وقعت الفتنة لم يسلم من التلوث بها إلا من عصمه الله)[2] ا.هـ.

---

(١) منهاج السنة ٤/ ٣٢٣. (ويقصد بالظالم هنا من خرج على عثمان رضي الله عنه، واستباح دمه.

(٢) المصدر السابق ٤/٣٤٣.

وقد يكون الفساد والمنكرات والمظالم من الكثرة بحيث تصل الحال ببعض الصلحاء إلى حد اليأس من تغيير الحال وقبول الناس. وهذا من الشيطان الذي لا يألو يبث اليأس والإحباط والتخذيل حتى يصفو الجو له ولأوليائه من شياطين الإنس ليفسدوا على الناس دينهم ودنياهم. ولو لم يكن في الدعوة والأمر والنهي إلا وقاية الناس من فساد المفسدين والإعذار إلى الله – عز وجل – لكفى ولو لم يتغير الفساد. مع أن الناس لا زال فيهم الخير ولا بد أن يستجيب منهم فئة ولو كانت قليلة. وهذا ما قاله المنكرون على أهل السبت من اليهود لمن ثبطهم عن وعظ المعتدين في السبت وأنه لا ينفع فيهم. قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾[الأعراف: ١٦٤].

يقول الشيخ العدوي في تعليقه على الآية:

(والآية ترينا أن الأمّة قد تسرف في العدوان، وتتمادى في الباطل، وتملك عليها الشهوات جميع حواسها ومشاعرها، فيقلّ أمل الواعظ فيها، وتتغلب عليه روح اليأس، وكثيراً ما يحس المصلح ذلك الإحساس، ويشعر ذلك الشعور، ولا سيما إذا رأى الفساد قد شمل الخاصة والعامة، ولم يدع فريقاً من الأمة بدون أن يتسرب إليه، وخاصة العلماء الذين هم من الأمة بمنزلة الرأس من الجسم...

... إذا رأى المصلح الفساد قد تغلغل في جميع طبقات الأمة ولم يدع فريقاً منها بدون أن يصل إليه ضعفت عند ذلك نفسه، وتسرب إليه

اليأس، فيأخذ في التحدث إلى نفسه: ما فائدة الوعظ، وما غاية الإرشاد؟ وما هو الأمل في ذلك العمل الذي لا يجدي ولا يفيد؟

يرينا الله تعالى بهذه الآية الكريمة أن طائفة من أهل القرية قد استولى عليها اليأس، وانقطع فيها الأمل في صلاح من معهم من الذين يعدون في السبت، فأخذت تنكر على الواعظين وعظهم وعلى المصلحين إصلاحهم وتقول لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] وما فائدة الوعظ وما قيمة الإرشاد؟ فكان جواب الواعظين: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ نعظهم وعظ عذر نعتذر به إلى ربكم عن السكوت عن المنكر وقد أمرنا بالتناهي عنه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ رجاء في انتفاعهم بالموعظة، وحملاً لهم على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه، أي فنحن لم نيأس من رجوعهم إلى الحق.

وفي هذا بيان لما ينبغي أن يكون عليه الواعظ، ينبغي له أن لا ييأس من الإصلاح، وأن يعلم أن للوعظ أثره وغايته في النفوس، وإن كانت الغاية تتفاوت بمقدار استعداد النفوس للوعظ وتأهبها للتأثر به.

فمن النفوس ما هو مستعدّ للإصلاح استعداداً قريباً، فإذا وصل وعظ المصلح إلى ذلك الصنف، فإن النفوس تستفيد من الوعظ في الحال، ومنها ما هو مستعد له استعداداً بعيداً، ولا غنى للواعظ عن الصبر على ذلك النوع من النفوس، وإذا لم يَجْنِ هو ثمرة ذلك الوعظ فسيجنيه مَنْ بعدَه من المصلحين.

ومن الجهل أن يعتقد الواعظ أن ثمرة وعظه لا بد أن يجدها في الحال،

وما مثل الواعظ إلا كفلاح يصلح الأرض ويعدها للزراعة والإنبات، والأرض معادن، فمنها الصالح الذي يجني ثمرته بمجرد وضع البذر فيه، ومنها غير الصالح الذي يحتاج إلى زمن طويل، فإذا لم يجد الزارع ثمرة ذلك النوع الآن فسيجده من بعده، وكلّ مجهود يقوم به الزارع في الأرض لا يضيع، وكذلك الوعَّاظ والمصلحون، فكثيراً ما انتفع الواعظ بإصلاح من سبقه ومجهود من تقدمه، وكثيراً ما اصطدم الواعظ بإفساد من سبقه، وكتمان من تقدمه.

ولا أدل على ذلك من احتجاج العامة بسكوت العلماء السابقين، وغفلة فريق منهم عما أوجبه الله عليه من بيان الدين للناس، فكم سمعنا منهم: قد كان فينا الشيخ فلان والشيخ فلان ولم نسمع منهم ذلك، ولم ينكروا علينا ما تنكرون. وهل لذلك من معنى سوى تأييد ما قلنا من أن ترك الناس بدون إصلاح مدعاة لموت نفوسهم، وقسوة قلوبهم، وتسلط الشهوات عليهم، وأن تعهدهم بالوعظ يخفف من وطأة الفساد، ويقلل من قيمة الشهوات، ويضعف من سلطان الباطل، وأن تجاوب الأصوات بالوعظ والإرشاد ضرورة من ضرورات الأمة، وحاجة من حاجات البشر ﴿**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً**﴾[النساء: ١٦٥].

إذا لاحظ الواعظ ذلك كله، فإن اليأس لا يجد إلى نفسه سبيلاً، وأقل فائدة للوعظ أن يكون حجة على أنصار الباطل وأصحاب الشهوات، وأن يكون قد قام بما أوجبه الله عليه من إنكار المنكر وتقبيح شأنه للناس، وأن

يكون وعظه عدة لغيره من المصلحين فيما يستقبل من الزمان...

... وقوله ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ رجاء من الواعظين في أن أولئك القوم ينتفعون بتلك الموعظة كلهم أو بعضهم، فقد يكون في الطائفة الفاسدة أفراد صالحون أو مستعدون للصلاح، فحرمانهم من الوعظ خسارة كبرى على المستعد.

وما دام هناك احتمال أن طائفة تستفيد من الوعظ فلا بأس، وهو ظاهر إذا كان الوعظ موجهاً لأمة وطائفة، أما إذا كان الوعظ موجهاً لشخص معين فإن الواعظ متى عرف بالاختبار من ذلك الشخص أنه ليس مستعداً للوعظ، ولا متأهباً للتذكر فليس عليه بأس من ترك وعظه.

ولعل ذلك هو محمل قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]، فشرط في التذكير أن تنفع الذكرى، أما إذا لم تنفع فهي من العبث.

وهنالك من فوائد الوعظ – عدا ما تقدم – حماية المؤمنين من الفساد، ووقايتهم من الشر، فهو بمثابة الحيلولة بين السليم والأجرب حتى لا يعديه الجرب فيصبح الكل مريضاً، فإذا لم يفد الوعظ في تكثير سواد الأصحاء فهو يجدي في وقوف المرض وعدم انتشاره؛ فإن العدوى الخلقية أسرع من عدوى الأجسام، والتأثر بأرباب الشهوات والأهواء أضعاف التأثر بالمصابين بالأمراض الجسمية، وكل إنسان مستعد لأن يتأثر بالخير والشر استعداداً قريبا أو بعيدا، فإذا سمع الصنف الصالح من الأمة الوعظ، وتعهده المصلحون بالإرشاد فإن ذلك يكون وقاية له من التطلع لأرباب الشهوات

والانغماس معهم)[1] ا.هـ.

(٢) ومن فتن انتشار المعاصي والفساد بلا أمر ولا نهي التعرض لعقوبة الله عز وجل وعذابه في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا بما يصيب الناس من الكوارث والنوازل والحروب ومنع القطر من السماء والمجاعات والمخاوف، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال عز وجل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وأما في الآخرة فعذاب الله أكبر لو كانوا يعلمون.

ومن هنا ندرك ونقدر ذلك العمل العظيم الشريف الذي يقوم به مصلحو هذه الأمة في الدعوة إلى الله – عز وجل – والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والرحمة والشفقة على أمتهم من عذاب الله – عز وجل – في الدنيا والآخرة، فنبذل لهؤلاء المصلحين من المحبة والنصرة والدعاء ما يعينهم على هذه المهمة الشريفة التي هي مهمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والتابعين لهم بإحسان.

---

(١) دعوة الرسل، محمد العدوي ص٢١١ – ٢١٤ (باختصار).

فهذا مؤمن آل فرعون ذلكم الناصح المشفق الأمين حذر قومه في دعوته من العقوبتين الدنيوية والأخروية فأخبر الله - عز وجل - عنه أنه قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٠ - ٣٣].

(٣) وفتنة أخرى أطلت برأسها في السنوات الأخيرة لا ندري من أين جاءتنا ومن شأنها أن تضعف شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تثبط الهمم، وتضع العراقيل في طريق المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والداعين إلى الله عز وجل. كما أن من شأنها أن تهيئ الجو للفساد والمفسدين وتخلي الجو ممن يتصدى لمدافعتهم ومقاومة فسادهم.

هذه الفتنة هي ما يرفع في وجه بعض الدعاة المصلحين الآمرين والناهين في أكثر بلدان المسلمين من تهم باطلة وإشاعات كاذبة تصفهم بالخوارج تارة، وإثارة الفتن وزعزعة الأمن تارة، وبالابتداع تارة؛ وكون هذه التهم تصدر من دعاة العلمنة والفساد فهذا أمر متوقع وغير مستغرب؛ لكن أن يصدر هذا من بعض المتحمسين للعلم والدعوة فإن هذا من العجائب، والعجائبُ جمة!

إن قومة لله - عز وجل - صادقة مخلصة بعيدة عن التعصب والحزبية والغوغائية لتقود صاحبها إلى صدق الدعاة المصلحين وصحة معتقدهم وأنهم خائفون على أمتهم، ومشفقون عليها من عذاب الله عز وجل، وليسوا دعاة خروج ولا فرقة ولا فتنة.

بل الفتنة، والله، في ترك الدعوة والأمر والنهي وإسلام الأمة لأهل الشر والفساد ليفسدوا دينها ودماءها وعقولها وأموالها وأعراضها؛ فأي الفريقين أحق، بالفتنة وزعزعة أمن الأمة: آلذين يواجهون الفساد والمفسدين ليسلم أمن الأمة في فكرها وأعراضها وأموالها وقبل ذلك دينها، أم الذين يسعون لزعزعة أمنها في هذه الضروريات التي هي أساس حياتها وبقائها؟ ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فبالله: أين الفتنة والخروج فيمن يحذر الأمة من الشرك وآثاره؟ وأين الفتنة فيمن يحذر الأمة من هبوطها في وحل الرذيلة بما تبثه وسائل الإعلام والبث المباشر من قتل للأخلاق وتحريض على الفساد، وإغراء للمرأة على السفور والعري وهجر لبيتها وعشها؟ أين الفتنة فيمن يحذر الناس من الربا والبيوع المحرمة؟ أين الفتنة فيمن يحذر الناس من محبة الكافر وموالاة أعداء الله عز وجل؟ إن الفتنة في ترك الناس على هذه المفاسد وغيرها لا يؤمرون ولا ينهون.

وإن وصف الآمرين والناهين بالخروج على جماعة المسلمين مع براءتهم من ذلك هو في الحقيقة فتنة. وهذا شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - يبين أن لزوم جماعة المسلمين وولاة أمرهم لا يعني ترك الأمر والنهي وقول كلمة الحق. يقول رحمه الله تعالى:

(ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السنة والشريعة، والنهي عن البدعة والضلالة بحسب الإمكان. كما دل على وجوب ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

وكثير من الناس قد يرى تعارض الشريعة في ذلك فيرى أن الأمر

والنهي لا يقوم إلا بفتنة، فإما أن يؤمر بهما جميعا، أو يُنهى عنهما جميعا. وليس كذلك، بل يؤمر وينهى ويصبر عن الفتنة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧].

وقال عبادة رضي الله عنه: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيث ما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم[١]» فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهله، وأمرهم بالقيام بالحق.

ولأجل ما يُظن من تعارض هذين تعرض الحيرة في ذلك لطوائف من الناس. والحائر الذي لا يدري ـ لعدم ظهور الحق، وتميز المفعول من المتروك ـ ما يفعل إما لخفاء الحق عليه، أو لخفاء ما يناسب هواه عليه)[٢].

ويقول أيضاً:

(ونهى رسول الله ﷺ عن قتال أئمة الجور وأمر بالصبر على جورهم، ونهى عن القتال في الفتنة، فأهل البدع من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم يرون قتالهم والخروج عليهم إذا فعلوا ماهو ظلم أو ما ظنوه هم ظلماً، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآخرون من المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظناً أن ذلك من باب ترك الفتنة وهؤلاء يقابلون لأولئك)[٣] ا.هـ.

---

(١) الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه في: البخاري ٩ / ٤٧ (كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: سترون بعدي أمورا تنكرونها)؛ مسلم ٣ / ١٤٧٠، ١٤٧١ كتاب الإمارة.

(٢) الاستقامة ١ / ٤١، ٤٢.

(٣) الآداب الشرعية ١ / ١٧٧.

ثانياً: فتنة إنكار الفساد

دون مراعاة للضوابط الشرعية والمصالح والمفاسد

كما أن في انتشار الفساد والمنكرات فتنة عظيمة إذا لم تنكر وتغير؛ وذلك كما مر بنا سابقاً؛ فإن في إنكارها أيضاً فتنة إذا لم تُراعَ المصالح والمفاسد والضوابط الشرعية المنطلقة من قواعد الشريعة ومقاصدها، كتوفر القدرة، والعلم، والرفق، والحكمة، والصبر، وأن لا تفوت بتغيير المنكر مصلحة عظيمة، أو أن الإنكار ينبني عليه مفسدة ومنكر أعظم من المنكر المراد تغييره... إلى آخر هذه الضوابط والقواعد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقوله ﷺ: «يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم - قال ابن الزبير: بكفر - لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين: باباً يدخل الناس، وباباً يخرجون»(١).

وأنقل بهذه المناسبة كلاماً جيداً لشيخ الإسلام - رحمه الله - يجلي هذه الحقيقة حيث يقول:

(والرفق سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المنكر غير منكر.

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات، فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة

---

(١) فتح الباري ك. العلم ١/ ٢٧١ (١٢٦).

على المفسدة؛ إذ بهذا بُعثت الرسل وأنزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح. وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم الفساد والمفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته، لم يكن مما أمر الله به، وإن كان قد تُرك واجب وفُعل محرم؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباد الله وليس عليه هداهم. وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾ [المائدة: ١٠٥].

والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قام بغيره من الواجبات، لم يضره ضلال الضال، وذلك يكون تارة بالقلب، وتارة باللسان وتارة باليد.

فأما القلب فيجب بكل حال؛ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ: «وذلك أدنى ـ أو ـ أضعف الإيمان». وقال: «ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[١]. وقيل لابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: من ميت الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً. وهذا هو المفتون الموصوف (بأن قلبه كالكوز مجخياً) في حديث حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ في الصحيحين ـ: «تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير..» الحديث[٢].

---

(١) جزء من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في مسلم ١/ ٦٩.

(٢) مسلم ١/ ١٢٨ – ١٣٠.

وهنا يغلط فريقان من الناس:

فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلاً لهذه الآية. كما قال أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – في خطبته: «يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»[١].

والفريق الثاني: من يريد أن يامر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقاً، من غير فقه ولا حكم ولا صبر ولا نظر في ما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يُقدر عليه وما لا يُقدر ـ كما في حديث أبي ثعلبة الخشني: سألت عنها ـ أي الآية ـ رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يدان لك به؛ فعليك بنفسك، ودع عنك أمر العوام؛ فإن من ورائك أيام الصبر، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن كأجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله»[٢] فيأتي بالأمر والنهي معتقداً أنه مطيع في ذلك لله ورسوله وهو معتدٍ في حدوده، كما نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهي كالخوارج والمعتزلة والرافضة، وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي والجهاد وغير ذلك، فكان فساده أعظم من صلاحه.

---

(١) سبق تخريجه ص: ١٤٧.

(٢) أبو داود ٤/ ٧٤ (ك الملاحم، باب الأمر والنهي).

ولهذا أمر النبي ﷺ بالصبر على جور الأئمة، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة. وقال: «أدّوا إليهم حقوقهم، وسلوا الله حقوقكم»[١]. وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع.

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة، وترك القتال في الفتنة. وأما أهل الأهواء ـ كالمعتزلة ـ فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم.

ويجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة: التوحيد: الذي هو سلب الصفات ـ والعدل: الذي هو التكذيب بالقدر ـ والمنزلة بين المنزلتين ـ وإنفاذ الوعيد ـ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الذي فيه قتال الأئمة. وقد تكلمت على قتال الأئمة في غير هذا الموضع.

وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات، أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد. فإن كلاً من الأمر والنهي وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة، فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر، لم يكن مأموراً به، بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته.

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري ٩/ ٤٧ ك. الفتن باب قوله ﷺ: سترون بعدي أموراً تنكرونها.

الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر؛ وقلَّ أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام.

وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما. بل إما أن يفعلوهما جميعاً أو يتركوهما جميعاً، لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر، بل ينظر:

- فإن كان المعروف أكثر: أمر به؛ وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله، والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله ﷺ، وزوال فعل الحسنات.

- وإن كان المنكر أغلب: نهي عنه؛ وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر وسعياً في معصية الله ورسوله... ومن هذا الباب ترْك النبي ﷺ لعبد الله بن أبي وأمثاله من أئمة النفاق والفجور؛ لما لهم من الأعوان؛ فإزالة منكر بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكبر من ذلك بغضب قومه وحميتهم، وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمداً يقتل أصحابه)[١] ا.هـ.

ولكي يتضح لنا هذا الأمر بتمامه أسوق بعضاً من أشكال الفتنة التي عصفت بالمسلمين في الماضي والحاضر بسبب الأمر والنهي اللذين يفتقدان

---

(١) الاستقامة (٢١٠ - ٢١٩) باختصار.

الفقه أو الصبر أو الحكمة:

(١) فتنة الخوارج الذين خرجوا على جماعة المسلمين وكفروهم واستباحوا دماءهم وأموالهم وما جر ذلك من قتل وفساد وشر عليهم وعلى كثير من المسلمين واستمرت فتنتهم دهراً طويلاً؛ كل ذلك من قلة العلم والفقه بدين الله – عز وجل – ومقاصد الشريعة ووقوفهم عند النصوص التي تأمر بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون تجاوزها وضمها مع النصوص التي تدعو إلى الصبر ومراعاة المصالح والمفاسد والرفق والحكمة.

(٢) فتنة المعتزلة الذين من أصولهم: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ـ وهذا أصل بلا شك ـ لكنهم يقصدون به قتال أئمة الجور والخروج عليهم، وهم بذلك يشتركون مع الخوارج في موقفهم وقتالهم للأئمة.

(٣) ما ظهر في عصرنا الحاضر من بعض الجماعات الإسلامية التي ساءها الواقع المرير للمسلمين وما سيطر على أكثر ديارهم من الحكم بغير ما أنزل الله وموالاة أعداء الله، ورأوا أن الكفر البواح قد ظهر وبان، فقاموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي انتهى بهم إلى إعلان الجهاد والقتال ضد الحكام المفسدين في بلادهم.

لكن لما كان الفقه أو الصبر أو الحكمة أو ضعف القدرة قليلة عند هؤلاء المتحمسين المجتهدين؛ فإن مواجهاتهم تلك جرت مفاسد كبيرة عليهم وعلى المسلمين والدعاة من حولهم، فلم يتحقق ما يريدون، وترتب على ذلك تقليص دعوتهم وتصفية كثير منهم، كما تأثر بذلك الدعاة الآخرون الذين لا يرون رأيهم، وكفى بهذه المفاسد مانعاً عن العجلة.

وقد يدعي بعض هؤلاء المستعجلين في جهاد الظالمين والمفسدين في عصرنا الحاضر أن لديهم القدرة والإمكانيات لمواجهة قوى الشر والطغيان، ومع عدم التسليم لهم بذلك فيما يظهر والعلم عند الله - عز وجل - فإنا نقول لهم: على فرض صحة ما تقولون فلا تنسوا فتنة أخرى لا بد أن تواجهكم ألا وهي التضليل الذي يتعرض له المسلمون في أكثر ديار المسلمين من وسائل الإعلام التي يسيطر عليها الأعداء؛ فيصورون لهم الجماعات المجاهدة بأنهم إرهابيون ومتطرفون ويريدون الفساد بالأمة ومقدراتها، وفي نفس الوقت لم يكن هناك ما يُعدُّ بلاغاً كافياً للناس يعرفون فيه هذه الجماعات وما تدعو إليه حتى يحصل التميز فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة؛ وقبل هذا التمايز فإن في قتل الأبرياء بغي وعدوان حيث يشترط في رد البغي: القدرة وعدم البغي(١).

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى مسألة مهمة وهي أن على المسلم وهو يناصح إخوانه الدعاة وينبههم على مثل هذه المفاسد أن يحذر أشد الحذر من أن يعطي ولاءه ومحبته للأنظمة المحادة لله - عز وجل - وشرعه المطهر بحجة أن بعض الدعاة وقع في خطأ أو أكثر؛ وسبحان ربي العظيم! ماذا تساوي نسبة أخطاء مثل هؤلاء الدعاة النابعة عن اجتهاد خاطئ بجانب الانحرافات العظيمة لهذه الأنظمة التي شرعت من الدين ما لم يأذن به الله؟!

---

(١) قد يُفهم خطأً من هذا الكلام التهوينُ من شأن الجهاد ومدافعة الظالمين والرضا بالواقع المهين. وهذا فهم أبرأ إلى الله - عز وجل - منه. ولكن أردت التأكيد على ضوابط الجهاد كالقدرة ومراعاة المصالح والمفاسد ووضوح الراية وتميز الصفوف (انظر رسالة فبهداهم اقتده) للمؤلف.

كما ينبغي الحذر من أن يقدم الداعية الخدمة والمسوغات لهذه الأنظمة في ضرب إخوانه من الدعاة الذين لهم حق الموالاة والنصرة بالحق أمام أعدائهم الذين ينبغي البراءة منهم ومن ظلمهم.

(٤) وقد لا يكون تغيير المنكر بالضرورة عن طريق الجهاد والقتال بل قد يكون أيضاً في التغيير باليد أو اللسان لبعض المنكرات المتفشية في أكثر بلدان المسلمين اليوم كشرب الخمر أو الزنا أو الربا . . .إلخ. فينبغي قبل إنكار مثل هذه المنكرات النظر فيما يترتب على الإنكار من مفاسد أو مصالح، فإذا كان المنكر لن يتغير لأنه محمي من سلطان الشر والطغيان، وفي نفس الوقت يلحق الضرر بمن أنكر وقد يتعداه إلى الدعوة والدعاة الآخرين؛ فإن الأمر والحالة هذه يقتضي عدم الإنكار. والنظر في المفاسد والمصالح يُبنى على غلبة الظن وليس على التوهم أو اشتراط الجزم واليقين.

(٥) والمسألة السابقة تقودنا إلى سؤال مهم ألا وهو: هل يجوز ترك الأمر والنهي إذا جر ذلك إلى مفاسد كبيرة على القائم بذلك؟

والجواب على ذلك فيه تفصيل، فأقول والله أعلم: إن كان القيام بالأمر والنهي ينبني عليه من المفاسد الكبيرة التي لا تقتصر على الآمر والناهي فحسب وإنما تتعداه إلى غيره من المسلمين ومصالحهم الدينية والدنيوية؛ فإن ترك الأمر والنهي والحالة هذه يكون متعيناً ولازماً؛ ذلك لأن مصلحة الأمر والنهي معدومة والمفسدة متحققة أو غالبة على الظن.

أما إن كان القائم بالأمر والنهي يخشى على نفسه من الأذى والضرر ما لا يطيقه من القتل أو السجن أو نحوهما، ولن يتضرر غيره بهذا الفعل فإنه

والحالة هذه يجوز له الترخص بترك الأمر والنهي، وإن كان الأفضل في حق من رأى في نفسه قوة الصبر والتحمل أن لا يترخص، وأن يقول كلمة الحق لا يخاف في الله لومة لائم، لعله أن يكون من سادات الشهداء الذين قال فيهم الرسول الله ﷺ: «سيد الشهداء: حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»[1]. وأسوق القصة التالية التي يتجلى فيها موقف من ترخص من السلف فأنكر بقلبه، ومن تكلم منهم وتحمل الأذى في سبيل ذلك:

(عن المعلى بن زياد قال: لما هزم يزيد بن المهلب أهل البصرة، قال المعلى: فخشيت أن أجلس في حلقة الحسن بن أبي الحسن، فأوجد فيها، فأُعرف، فأتيت الحسن في منزله، فدخلت عليه، فقلت: يا أبا سعيد كيف بهذه الآية من كتاب الله؟ قال: أية آية من كتاب الله؟ قلت: قول الله في هذه الآية: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة: ٦٢].

قال: يا عبد الله، إن القوم عرضوا السيف، فحال السيف دون الكلام، قلت: يا أبا سعيد، فهل تعرف لمتكلم فضلاً، قال: لا، قال المعلى: ثم حدث بحديثين قال:

حدثنا أبو سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ بحديث قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه، أو

(١) الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ٣/ ١٩٥ وصححه الألباني في السلسلة (٣٧٤).

يذكِّر بعظيم، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يبعد من رزق»[١].

قال: ثم حدث الحسن بحديث آخر قال: قال رسول الله ﷺ:

«ليس للمؤمن أن يذل نفسه» قيل: وما إذلاله نفسه؟ قال: «يتعرض من البلاء لما لا يطيق»[٢].

قيل: يا أبا سعيد، فيزيد الضبي وكلامه في الصلاة؟ قال: أما إنه لم يخرج من السجن حتى ندم، قال المعلى: فقمت من مجلس الحسن، فأتيت يزيد، فقلت: يا أبا مودود! بينا أنا والحسن نتذاكر إذ نصب أمرك نصباً، فقال: مه يا أبا الحسن، قال: قلت: قد فعلت، قال: فما قال؟ قلت: قال: أما إنه لم يخرج من السجن حتى ندم على مقالته، قال يزيد: ما ندمت على مقالتي وايم الله، لقد قمت مقاماً أخطر فيه بنفسي.

قال يزيد: فأتيت الحسن، قلت: يا أبا سعيد غلبنا على كل شيء نغلب على صلاتنا، فقال: يا عبد الله، إنك لم تصنع شيئاً إنك تعرض نفسك لهم، ثم أتيته، فقال مثل مقالته.

قال: فقمت يوم الجمعة في المسجد والحكم بن أيوب يخطب، فقلت: رحمك الله الصلاة، فلما قلت ذلك احتوشتني[٣] الرجال يتعاورونني[٤]،

---

(١) أحمد ٣/ ٥٠.

(٢) أحمد ٥/ ٤٠٥، الترمذي في الفتن (٢٢٥٥) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦١٣).

(٣) احتوش: أحاط.

(٤) يتعاورون: يتناوبون.

فأخذوا بلحيتي وتلبيبتي[١] وجعلوا يجؤون[٢] بطني بنعال سيوفهم.

قال: ومضوا بي نحو المقصورة، فما وصلت إليها حتى ظننت أنهم سيقتلوني دونها.

قال: ففتح لي باب المقصورة.

قال: فقمت بين يدي الحكم، وهو ساكت، فقال: أمجنون أنت؟ وما كنا في صلاة، فقلت: أصلح الله الأمير، هل من كلام أفضل من كتاب الله؟ قال: لا، قلت: أصلح الله الأمير، أرأيت لو أن رجلاً نشر مصحفاً يقرؤه غدوة إلى الليل، أكان ذلك قاضياً عنه صلاته؟ قال: والله إني لأحسبك مجنوناً.

قال: وأنس بن مالك جالس تحت منبره ساكت، فقلت: يا أنس، يا أبا حمزة، أنْشُدُكَ الله، فقد خدمت رسول الله ﷺ، وصحبته، أبمعروف قلت أم بمنكر؟ أبحق قلت أم بباطل؟ قال: فلا والله ما أجابني بكلمة[*]، قال له الحكم بن أيوب: يا أنس، قال: يقول: لبيك أصلحك الله، قال: وكان وقت الصلاة قد ذهب. قال: كان بقي من الشمس بقية، قال: احبسوه، قال يزيد: فأقسم لك يا أبا الحسن ـ يعني: للمعلى ـ لما لقيت من أصحابي كان أشد عليَّ من مقالي، قال بعضهم: مراء، وقال بعضهم: مجنون.

قال: وكتب الحكم إلى الحجاج: إن رجلاً من بني ضبة قام يوم الجمعة

---

(١) أعلى الصدر من الثياب. (٢) يجؤون: يضربون.

(*) ربما كان سكوت أنس رضي الله عنه خشية الفتنة أو خوف الأذى على أهله كما صرح بذلك في قصته مع الحجاج في البداية والنهاية ٩/٩٦.

قال: الصلاة، وأنا أخطب، وقد شهد الشهود العدول عندي أنه مجنون، فكتب إليه الحجاج: إن كانت قامت الشهود العدول أنه مجنون فخل سبيله، وإلا فاقطع يديه ورجليه واسمل عينيه واصلبه.

قال: فشهدوا عند الحكم أني مجنون، فخلى عني.

قال المعلى عن يزيد الضبي: مات أخ لنا فتبعنا جنازته، فصلينا عليه، فلما دفن تنحيت في عصابة فذكرنا الله، وذكرنا معادنا، فإنا كذلك إذ رأينا نواصي الخيل والحراب، فلما رآه أصحابي قاموا، وتركوني وحدي، فجاء الحكم حتى وقف عليَّ، فقال: ما كنتم تصنعون؟ قلت: أصلح الله الأمير، مات صاحب لنا فصلينا عليه ودفناه، وقعدنا نذكر ربنا ونذكر معادنا، ونذكر ما صار إليه، قال: ما منعك أن تَفِرَّ كما فروا؟ قلت: أصلح الله الأمير، أنا أبرأ من ذلك ساحة، وآمن للأمير من أن أفر. قال: فسكت الحكم، فقال عبد الملك بن المهلب وكان على شرطته: تدري من هذا؟ قال: من هذا؟ قال: هذا المتكلم يوم الجمعة، قال: فغضب الحكم وقال: أما إنك لجريء خذاه.

قال: فأُخذت فضربني أربع مئة سوط، فما دريت متى تركني من شدة ما ضربني.

قال وبعثني إلى واسط فكنت في ديماس[١] الحجاج حتى مات الحجاج)[٢].

---

(١) الديماس: الحمام، وهنا السرب أي الحفرة تحت الأرض. وهو سجن الحجاج.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٥٣٦ – ٥٣٨ بغية الرائد) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

خامساً : فتنة الاختلاف والفرقة بين المسلمين

الاختلاف والفرقة بين المسلمين شر وفتنة وقد جاء في الكتاب والسنة نصوص كثيرة في ذم الافتراق والنهي عنه والحث على الاجتماع والائتلاف ومع ذلك فقد اقتضت حكمة الله عز وجل وأراد سبحانه كوناً وقدراً أن يكون في هذه الأمة فرقة واختلاف، وتحقق ما أخبر به الرسول ﷺ في قوله «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة: كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة»[1].

ولكن الله – عز وجل – الذي كتب هذا الافتراق على عباده كوناً وقدراً للابتلاء والاختبار، لم يرضَ لهم ذلك ديناً وشرعاً، بل جاء في أكثر من آية ذم الافتراق والنهي عنه ومن ذلك:

● قوله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا... الآية** ﴾

[آل عمران: ١٠٣]

● وقوله عز وجل: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [**آل عمران: ١٠٥**].

---

(١) أبو داود: ح: (٤٥٩٧) وصححه الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية ص ٥٧٨ المكتب الإسلامي.

● وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

● وقوله سبحانه: ﴿...وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم ٣١، ٣٢]. والآيات في ذلك كثيرة.

● أما الأحاديث والآثار الواردة في ذم الافتراق والحث على الاجتماع والائتلاف فمنها:

* قوله ﷺ في حديث الافتراق السابق: «كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة».

* وقوله ﷺ: «واستوصوا بأصحابي خيراً، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يعجل الرجل بالشهادة قبل أن يُسألها وباليمين قبل أن يسألها؛ فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة؛ فإن الشيطان مع الواحد ومن الاثنين أبعد فمن سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن»(١).

* وقوله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يرضى لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا،

(١) اللالكائي في السنة ١/ ١١٩. وابن أبي عاصم في السنة (٨٧) وقال الألباني: إسناده حسن.

وأن تناصحوا لمن ولاه الله – عز وجل – أمركم. ويكره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال)(١).

* وقوله ﷺ: (إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن رضي بالتحريش بينهم)(٢).

أما الآثار الواردة عن السلف في الحديث عن الجماعة ونبذ الفرقة فمنها:

* عن ثابت بن قطبة قال: سمعت ابن مسعود رضي الله عنه وهو يخطب: وهو يقول: (يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة فإنها السبيل إلى حبل الله – عز وجل – الذي أمر به وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة)(٣).

* عن عمرو بن ميمون قال: قدم علينا معاذ بن جبل – رضي الله عنه – على عهد رسول الله ﷺ فوقع حبه في قلبي، فلزمته حتى واريته في التراب بالشام ثم لزمت أفقه الناس بعده: عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – فذكر يوماً عنده تأخير الصلاة عن وقتها فقال: صلوها في بيوتكم واجعلوا صلاتكم معهم سبحة. قال عمرو بن ميمون: فقيل لعبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – وكيف لنا بالجماعة؟ فقال لي: يا عمرو بن

---

(١) اللالكائي في السنة ١/ ١٣٢ ومالك في الموطأ (٢٠)، ومسلم (١٧١٥) ما عدا قوله: (وأن تناصحو لمن... أمركم).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/ ١٥٧).

(٣) اللالكائي ١/ ١٢١، الآجري في الشريعة/ ١٣.

ميمون! إن جمهور الجماعة هي التي تفارق الجماعة، إنما الجماعة ما وافق طاعة الله، وإن كنت وحدك)[١].

* إتمام عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - الصلاة أربعاً في منى عندما أتم بالناس عثمان بن عفان - رضي الله عنه - مع عدم موافقة عبد الله ابن مسعود على ذلك. قال الأعمش: فحدثني معاوية بن قرة عن أشياخه أن عبد الله صلى أربعاً قال فقيل له: عبت على عثمان ثم صليت أربعاً! قال: (الخلاف شر)[٢].

وبعد ذكر الأدلة من الكتاب والسنة وآثار السلف التي تدل على وجوب الاجتماع والائتلاف على الحق ونبذ الافتراق والاختلاف بين أهله؛ فإن ما يثير العجب والحيرة في عصرنا الحاضر، ومما يزيد الأمر حسرة وألماً أن هذه الفرقة تحصل بين من ينتسبون إلى عقيدة واحدة ومنهج واحد: عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهجهم، فإذا كان الجميع بهذه الصورة وهم يواجهون عدواً واحداً يحارب الإسلام وأهله أياً كان توجهه أو شيخه أو اسمه، وإذا كان الجميع يهدفون إلى غاية واحدة، وهي استئناف الحياة الإسلامية، وإقامة دين الله -عز وجل- وشريعته، ومحاربة الباطل وأهله، إذا كان الجميع متفقين على ذلك كله: فلماذا هذه الفرقة؟؟؟

لا شك أن للشيطان وحظوظ أنفسنا سبباً كبيراً في وجود هذه الفرقة،

---

(١) اللالكائي في شرح السنة ١/ ١٢٢.

(٢) أبو داود في المناسك ١٩٦٠، وهو في صحيح سنن أبي داود (٧٢٦).

وهناك سبب آخر لا يقل عن سابقيه في كونه سبباً من أسباب الفرقة والاختلاف، ألا وهو الجهل بدين الله ـ عز وجل ـ وأحكام شريعته، والجهل بمواطن الاختلاف وما يقبل منه وما لا يقبل، وعدم تحرير مواضع النزاع . . . إلخ.

وإن ما سبق ذكره لا يعني أنه لا يوجد خلاف أبداً بين الأفراد أو الجماعات، لا؛ فالخلاف ـ والله أعلم ـ أمر حتمي بحكم اختلاف الطبائع والمقومات الشخصية والفكرية والميولات النفسية . . . إلخ، ولكن ليس كل اختلاف يوجب الفرقة والتنازع والتباغض، وأوضح مثال لذلك أن السلف ـ رحمهم الله ـ قد اختلفوا في كثير من المسائل، ومع ذلك كانت كلمتهم مجتمعة ولم يتفرقوا، والكلام هنا منصبٌّ على من هم في دائرة أهل السنة والجماعة ولم يختلفوا في أصولها، أما المخالفون لأهل السنة من أهل الأهواء والبدع فإن خلافنا معهم أصيل ومتعين، ومثل هؤلاء ينبغي أن نفارقهم، ونتبرأ من بدعهم وضلالاتهم.

إن الأمة منذ عهد أصحاب النبي ـ ﷺ ـ قد وقع بينهم اختلاف في بعض المسائل، ولم يكن هذا الاختلاف يوجب الفرقة، إلا عندما يدخل الشيطان أو أولياؤه من الجن والإنس، أو يكون المفارق لا علم عنده بالأدلة ومسائل الخلاف وما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز، وهذا أدى إلى تحول الخلاف الذي تحتمله الشريعة وتسعه أقوال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومن بعدهم من سلف هذه الأمة وأئمتهم إلى عداوة وفرقة.

وإن أهل السنة يمكن أن يقع بينهم اختلاف حول بعض المسائل التي

يجوز الاختلاف فيها، ولكن هذا لا يؤدي إلى اختلاف القلوب وافتراق الكلمة.

● قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: (يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة)[١].

● ويقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (ولكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي لا لمجرد الاجتهاد)[٢].

● ويقول أيضاً – رحمه الله تعالى –: (قد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]. وكانوا يتناظرون في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين)[٢] ا.هـ.

وإن فتنة الفرقة والاختلاف لا تقف عند حد بل تبدأ من اختلاف القلوب ووجود الإحن والأحقاد وتمر على الألسن فيُتَكلَّم بلا علم ولا تثبت ولا عدل، وقد تنتهي – والعياذ بالله – إلى فتنة السيف والقتال، والمتتبع للتاريخ وأحداثه يلمس هذا بكل وضوح. والكلام الآتي يؤكد ذلك.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٦.

(٢) الاستقامة ١/ ٣١.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٤/ ١٧٢.

ذكر بعض مظاهر الفتنة
الناجمة عن الفرقة والاختلاف

(١) تلوث القلوب بالحسد والأحقاد والشحناء:

وهذه من الفتن القلبية التي تهلك فيها القلوب ولا يعلم بها إلا الله – عز وجل – وأصحابها، وقد تبدو في لحن القول أحياناً. وقد تكون من الخفاء بحيث تظهر على من تلوّث بها في صورة النصح ورد الباطل والغيرة على الدين؛ والله أعلم بما في القلوب.

وعلامة ذلك: الولوع بالخلاف، وأسلوب السب، وتتبع السقطات وتضخيمها، والتفسير السيئ لمقاصد أهلها وسوء الظن بهم حتى تتحول صورة أهل الخير والإصلاح في أذهان بعض الناس إلى أنهم دعاة شر وبدعة وضلال.

ويتحدث الإمام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – عن هذا الصنف من الناس الذين فتنوا بهذه الأمراض القلبية، فأظهروا حقدهم وحسدهم لأهل الصلاح في صورة الغيرة على الدين والذب عن عقيدة المسلمين، فيقول: (ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة، يخادعون الله بذلك كما يخادعون مخلوقاً، وقد رأينا فيهم ألواناً كثيرة من هذا وأشباهه... وربما يذكره عند أعدائه ليتشفوا به، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه، ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر، فيظهر في هذا الباب من زخارف القول وقصده غير ما أظهر؛ والله

المستعان)[١].

(٢) تلوُّث الألسنة بالكذب، والقول بلا علم ولا عدل:

المولع بالفرقة وحب الخلاف لا يسلم لسانه في العادة من آفات كثيرة منها الكذب، والعدوان، وتتبع الشائعات، وعدم التثبت، والسعي بالتحريش والنميمة ... إلى آخر هذه الآفات المهلكة التي يهلك أصحابها بها، ويسقطون بسببها في الفتن، وقد عد كثير من السلف فتنة اللسان في أيام الفتن كفتنة السيف؛ وهذا حق؛ لأن فتنة القتال بين المسلمين لا تأتي إلا عن طريق اللسان ووقوعه في الظلم والعدوان والغيبة والنميمة واستعداء الظلمة على أهل الخير، فيؤذونهم بسجن أو تقتيل، كل هذه الأمور لا تحصل إلا عن طريق الكلام باللسان والوشاية والتحريش.

● فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتنة صماء بكماء عمياء، من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف»[٢].

● وعن شريح قال: «ما أخبرت ولا استخبرت منذ كانت الفتنة» قال: فقال مسروق: «لو كنت مثلك لسرني أن أكون قدمت» قال شريح: «فكيف بأكثر من ذلك مما في الصدور، تلتقي الفئتان: إحداهما أحب إليَّ من الأخرى»[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨ / ٢٣٧.
(٢) أبو داود. ك الفتن، باب كف اللسان (٤٢٦٤).
(٣) المصنف لابن أبي شيبة ١٥ / ١٢٢.

● وعن ميمون بن مهران، قال: «لبث شريح في الفتنة تسع سنين لا يخبر ولا يستخبر»[١].

وعلق الدكتور رضا المباركفوري على هذه الآثار في تحقيقه لكتاب (السنن الواردة في الفتن لأبي عمر الداني) بقوله:

عقد المؤلف هذا الباب: «ذم الكلام في الفتنة» ليحذر الناس من خلاله من أهم منفذ تتطرق منه الفتنة والفساد إلى المجتمع الإسلامي ألا وهو اللسان. ولينبه المرء المسلم على أنه إذا استطاع عدم الخوض في الفتن وعدم مساعدة أصحابها بالسلاح والعتاد فاراً بدينه أو لازماً بيته؛ فإذا استطاع ذلك وجب عليه أن لا يشاركهم فيها باللسان حيث يتكلم بكلام من شأنه إشعال نيران الفساد والفتنة دون إخمادها. فينبغي له المحافظة على لسانه فيها؛ لأن أمره خطير جداً، وإذا لم يحافظ عليه الإنسان، وأطلق عنانه أحدث في المجتمع العداوة والبغضاء والتباغض والتناحر وغيرها من الآفات التي لا تحمد عقباها، ولذلك قال النبي ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة»[٢]. وقال عندما سئل: «أي المسلمين أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٣].

وقال لمعاذ في حديث طويل: «وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم»[٤].

---

(١) أبو نعيم في الحلية ٤/١٣٣.
(٢) البخاري ١١/٣٠٨ (٦٤٧٤).
(٣) البخاري ١/٥٣، مسلم ١/٦٥.
(٤) الترمذي ٥/١١ (٢٦١٦).

ولخطورة أمر اللسان فقد اهتمت الشريعة الإسلامية بشأنه اهتماماً خاصاً؛ حيث وردت على لسان نبيها عليه أفضل الصلاة والتسليم أحاديث عديدة تأمر بالمحافظة عليه وعدم التكلم بما لا يعود بفائدة دينية أو دنيوية، وذلك في جميع الأوقات والأزمنة، ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(١).

هكذا الأمر في الأيام العادية، وأما إذا كانت هناك فتنة بين المسلمين ترخص فيها دماؤهم؛ فتزداد أهميته وتعظم خطورته؛ حيث يكون وقعه أشد من وقع السيف؛ لأن السيف إذا ضرب به أحد أثر فيه وحده، وأما اللسان فيمكن أن تضرب به ألف نسمة، وذلك بمجرد كلمة يتفوه بها.

ونظراً إلى ازدياد خطورته في أيام الفتن فقد عقد كل من أبي داود وابن ماجه باباً مستقلاً بذلك في كتاب الفتن من سننهما. فقال الأول: «باب في كف اللسان» ثم روى تحته حديث أبي هريرة مرفوعاً: «ستكون فتنة صماء بكماء عمياء. من أشرف لها استشرفت له. وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف». وحديث عبد الله بن عمرو الذي تقدم ذكره(٢).

وأما الثاني فقال: «باب كف اللسان في الفتنة» وأورد تحته من الأحاديث حديث عبد الله بن عمرو وحديث أبي هريرة وأحاديث أخرى في المحافظة على اللسان(٣)؛ وقصدهما من عقد هذا الباب هو البيان بأن اللسان تزداد خطورته في أيام الفتن؛ إذ يستطيع فيها أن يثير الفتنة ويزيد

---

(١) البخاري ١٠/٤٤٥ (٦٥١٨)

(٢) انظر سنن أبي داود ٤/٤٦٠.

(٣) انظر سنن ابن ماجه ٢/١٣١٢.

في إضرام نيرانها بكلمة ينبس بها، وقد تكون فيها أشد من وقع السيف، أي بالكذب عند أئمة الجور ونقل الأخبار إليهم، فربما ينشأ عن ذلك من النهب والقتل والجلد، والمفاسد العظيمة أكثر مما ينشأ من وقوع الفتنة نفسها، ثم ذكر ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[(١)].

وبناء على ذلك رأينا القاضي شريحاً لبث في الفتنة مدة تسع سنين لا يخبر ولا يستخبر، مخافة أن يصدر منه ما يتسبب لإثارة الفتنة وزيادة رقعتها مما يجلب على أفراد الأمة الإسلامية الشقاء والدمار، وقد روى أبو نعيم بسنده عن ابن مهدي أنه قال: «فتنة الحديث أشد من فتنة المال، وفتنة الولد تشبه فتنته، كم من رجل يُظَنُّ به الخير قد حمله الحديث على الكذب»[(٢)]. نسأل الله السلامة والعافية من فتنة الحديث وآفات اللسان)[(٣)]. ا.هـ.

وإن من أخطر آفات اللسان أيام الفتن رمي عباد الله - عز وجل - بالتكفير أو التبديع والتفسيق دون بينة فيها من الله برهان. ومنشأ خطورة التكفير أنه باب لفتنة البغي والقتال واستباحة الدماء والأموال.

وهكذا يظهر لنا خطر اللسان وفتنته خاصة أيام الفتن التي تتميز بكثرة الشائعات والأقوال المريضة أو المجهولة المصادر، واستغلال اختلاف العلماء

---

(١) البخاري (١١/ ٣٠٨ (٦٤٧٧)، مسلم ٤/ ٢٢٩٠ (٢٩٨٨).
(٢) انظر الحلية ٩/ ٦.
(٣) السنن الواردة في الفتن ت: رضا المباركفوري ٢/ ٤٤٧ - ٤٤٩.

والدعاة وتحويل هذا الاختلاف إلى تحزب وتعصب وتطاحن وتدابر.

فالمتعين عليك - أخي المسلم يا من تريد لنفسك النجاة - أن تهرب من هذه الفتنة وتمسك عليك لسانك، ولا ينبغي أن يستفزك أهل الفتن المولعون بالخلاف والخصومات وتتبع السقطات؛ فلا أحسن ولا أفضل من أن تطيع الله فيمن عصى الله فيك، ولا أحسن من تجاهل العدوان والصبر عليه أيام الفتن، ولا أسلم من أن تكون عبد الله المظلوم ولا تكن عبد الله الظالم. ولنستمع إلى الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - وهو يصف مَنْ جعل الملامة بضاعته، والاستطالة على المؤمنين ديدنه وما هو الموقف منه، فيقول:

(اللهم فعياذاً بك ممن قَصُرَ في العلم والدين باعه، وطالت في الجهل وأذى عبادك ذراعه؛ فهو لجهله يرى الإحسان إساءة، والسنة بدعة، والعرف نكراً؛ ولظلمه يجزي بالحسنة سيئة كاملة، وبالسيئة الواحدة عشراً، قد اتخذ بطر الحق وغمط الناس سُلَّماً إلى ما يحبه من الباطل ويرضاه، ولا يعرف من المعروف، ولا ينكر من المنكر إلا ما وافق إرادته أو حالف هواه، يستطيل على أولياء الرسول وحزبه بأصغريه، ويجالس أهل البغي والجهالة ويزاحمهم بركبتيه، قد ارتوى من ماء آجن، وتطلع واستشرف إلى مراتب ورثة الأنبياء، وتطلع يركض في ميدان جهله مع الجاهلين ويبرز عليهم في الجهالة فيظن أنه من السابقين؛ وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الوراثة النبوية بمعزل، وإذا أُنزِل الورثة منازلهم منها؛ فمنزلته منها أقصى وأبعد منزل:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وعياذاً بك ممن جعل الملامة بضاعته، والعذل نصيحته؛ فهو دائماً يبدي في الملامة ويعيد، ويكرر على العذل فلا يفيد ولا يستفيد. بل عياذاً بك من عدو في صورة ناصح، وولي في مسلاخ بعيد كاشح يجعل عداوته وأذاه حذراً وإشفاقاً، وتنفيره وتخذيله إسعافاً وإرفاقاً، وإذا كانت العين لا تكاد إلا على هؤلاء تفتح، والميزان بهم يخف ولا يرجح؛ فما أحرى اللبيب بأن لا يعيرهم من قلبه جزءاً من الالتفات، ويسافر في طريق مقصده بينهم سفره على الأحياء بين الأموات؛ وما أحسن ما قال القائل:

وفي الجهــل قبل الموت موت لأهله
وأجسامهــم قبل القبور قبــــور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم
وليس لهم حتى النشور نشور)[1].ا.هـ.

ولشيخ الإسلام رحمه الله تعالى كلام نافع في هذا المقام يأمر فيه بالصبر على جهل الجهول وظلم الظالم خاصة أيام الفتن. يقول رحمه الله تعالى:

(**وكل ما أوجب فتنة وفرقة فليس من الدين**، سواء كان قولاً أو فعلاً، ولكن المصيب العادل عليه أن يصبر عن الفتنة، ويصبر على جهل الجهول وظلمه إن كان غير متأول. وأما إن كان ذاك أيضاً متأولاً فخطؤه مغفور له، وهو فيما يصيب به من أذى بقوله أو فعله له أجر على اجتهاده، وخطؤه مغفور له؛ وذلك محنة وابتلاء في حق ذلك المظلوم، فإذا

(١) مفتاح دار السعادة/ ٤٩ ـ ٥٠.

صبر على ذلك واتقى الله كانت العاقبة له، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فأمر سبحانه بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى؛ وذلك تنبيه على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض؛ متأولين كانوا أو غير متأولين.

وقد قال سبحانه: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم، فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟ فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن، وإن كان ظالماً له.

فهذا موضع عظيم المنفعة في الدين والدنيا؛ فإن الشيطان موكل ببني آدم، وهو يعرض للجميع، ولا يسلم أحد من مثل هذه الأمور ـ دع ما سواها ـ من نوع تقصير في مأمور أو فعل محظور، باجتهاد أو غير اجتهاد، وإن كان هو الحق.

وقال سبحانه لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

فأمره بالصبر وأخبره أن وعد الله حق وأمره أن يستغفر لذنبه)[1]. ا.هـ.

---

(١) الاستقامة ١/٣٧، ٣٨.

وقال في موطن آخر: (والناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضاً وإن كانوا فعلوه بتراضيهم)[١].ا.هـ.

(٣) الوقوع في فتنة الاقتتال بين المسلمين:

وهذه نتيجة طبعية للوقوع في فتنة الفرقة والاختلاف بالقلب واللسان، وهي فتنة عظيمة تسفك فيها الدماء المعصومة، ويعتدى فيها على الأموال والأعراض المحترمة بجهل أو تأويل أو بدافع من هوى نفس وإغراء شيطان.

لذا يجب على المسلم الذي يرجو لقاء ربه، ويوقن بيوم الفصل والقضاء أن يفر من هذه الفتنة فراره من الأسد، وذلك بالفرار من مقدماتها التي تبدأ بتلوث القلب أو اللسان بها؛ لأنهما الطريقان إليها. ولقد كان السلف - رحمهم الله تعالى - مضرب المثل في خوفهم وفرارهم وتحذيرهم من هذه الفتن التي تأكل الدينُ ويُفتن فيها من فتن.

وأسوق فيما يلي بعضاً من أقوال المصطفى ﷺ، الحريص على أمته الرحيم بها، التي يحذر فيها من هذه الفتنة وما ينبغي أن يفعله المسلم إزاءها، وأردف هذه الأقوال الشريفة ببعض المواقف والنماذج الفريدة لسلف الأمة في أيام الفتن:

● فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها

(١) مجموع الفتاوى ١٥/ ١٢٨.

ملجأً أو معاذاً فليعذ به »[١].

● وعن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – (مثله) إلى قوله: « والماشي فيها خير من الساعي » وزاد: قال: أفرأيت إن دخل عليَّ بيتي، وبسط يده إليَّ ليقتلني، قال: « كن كابن آدم »[٢].

● وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: « ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح من كف يده »[٣].

أما الآثار والمواقف السلفية فمنها:

● عن عبد الله بن عبيد بن عمر، عن ابن عمر، قال: إنما مثلنا في هذه الفتنة كمثل قوم يسيرون على جادة يعرفونها، فبينا هم كذلك، إذا غشيتهم سحابة وظلمة، فأخذ بعضهم يميناً وشمالاً، فأخطأ الطريق، وأقمنا حيث أدركنا ذلك، حتى جلا الله ذلك عنا، فأبصرنا طريقنا الأول، فعرفناه، فأخذنا فيه. إنما هؤلاء فتيان قريش يقتتلون على هذا السلطان وعلى هذه الدنيا، ما أبالي أن لا يكون لي ما يَقتُل عليه بعضهم بعضاً بنعلي هاتين الجرداوين[٤].

● وعن سلاَّم بن مسكين: سمعت الحسن يحدث قال: لما قتل عثمان، قالوا لابن عمر: إنك سيد الناس وابن سيدهم، فاخرج يبايع لك الناس. فقال: لئن استطعت لا يهراق فِيَّ محجمة. قالوا: لتخرجن أو لتقتلن على

(١) البخاري ١٣ / ٣٠ الفتح، مسلم (٢٨٨٦).
(٢) الترمذي (٢١٩٥) في الفتن وصححه الأرناؤوط.
(٣) أبو داود (٤٢٤٩) في الفتن وصححه الأرناؤوط.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٣٧.

فراشك، فأعاد قوله، قال الحسن: أطمعوه وخوِّفوه، فما قدروا على شيء منه»[١].

● وعن سعيد بن جبير عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: (نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]، قلنا: من نخاصم؟ وليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم حتى وقعت الفتنة، قال ابن عمر: هذا الذي وعدنا ربنا - جل وعز - أن نختصم فيه)[٢].

● وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: لما طعنوا على عثمان، صلى أبي في الليل، ودعا، فقال: اللهم قني من الفتنة بما وقيت به الصالحين من عبادك، فما أخرج ولا أصبح إلا بجنازته[٣].

● وعن عامر بن سعد قال: «كان سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - في إبله، فجاء ابنه فلما رآه سعد، قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فجاء، فنزل، فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره وقال: اسكت! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[٤].

● وعن الثوري: عن الحارث الأزدي قال ابن الحنفية: رحم الله امرأً أغنى نفسه، وكف يده، وأمسك لسانه، وجلس في بيته، له ما احتسب،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/٢٣٩.
(٢) السنن الواردة في الفتن ٢/٢١٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢/٣٣٥.
(٤) مسلم (٢٩٦٥) في الزهد.

وهو مع من أحب، ألا إن أعمال بني أمية أسرع فيهم من سيوف المسلمين. ألا إن لأهل الحق دولة يأتي بها الله إذا شاء. فمن أدرك ذلك، كان عندنا في السهم الأعلى، ومن يمت، فما عند الله خير وأبقى(١).

● وقال أبو عقيل بشير بن عقبة: قلت ليزيد بن الشخير: ما كان مطرِّف يصنع إذا هاج الناس؟ قال: يلزم قعر بيته، ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعة حتى تنجلي(٢).

● وقال أيوب: قال مطرف: لأن آخذ بالثقة في القعود أحب إليَّ من أن التمس فضل الجهاد بالتغرير(٣).

● وقال حميد بن هلال: أتت الحرورية مطرف بن عبد الله يدعونه إلى رأيهم، فقال: يا هؤلاء، لو كان لي نفسان بايعتكم بإحداهما وأمسكت الأخرى؛ فإن كان الذي تقولون هدى أتبعتها الأخرى، وإن كان ضلالة، هلكت نفس وبقيت لي نفس، ولكن هي نفس واحدة لا أغرر بها(٤).

وقد وردت آثار كثيرة في الحث على العزلة أيام الفتن وبخاصة فتن الاقتتال بين المسلمين، وسأورد بعضها في المبحث الأخير عند الحديث عن العزلة وأحكامها - إن شاء الله تعالى.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٢٣.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٩١.
(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٩١.
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٩٥.

مسألة وجوابها:

هل يُفهم من الأحاديث والآثار التي تأمر بكف اليد أيام الفتن أن يستسلم المسلم لمن أراد قتله أو أخْذ ماله أو الاعتداء على حريمه؟ وكيف يجمع بين هذه الأحاديث وبين تلك التي تبيح للمسلم مقاتلة من أراد قتله أو أراد ماله وعرضه؟ كقوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»(١).

وعن مخارق قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يأتيني فيريد مالي؟ قال: «ذكره بالله» قال: فإن لم يذكر؟ قال: «فاستعن عليه بمن حولك من المسلمين» قال: فإن لم يكن حولي أحد من المسلمين، قال «استعن عليه بالسلطان» قال: فإن نأى السلطان عني؟ قال: «قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة أو تمنع مالك»(٢).

يفصل هذه المسألة الدكتور المباركفوري في تحقيقه لكتاب: (الفتن لأبي عمرو الداني) فيقول:

(والمسألة فيها تفصيل؛ فالمدافعة عن الحريم واجب في كل حال من الأحوال، وليس في ذلك خلاف بين العلماء، وكذلك لا يوجد خلاف بينهم في وجوب المدافعة عن النفس إذا قصدها كافر، وأما إذا قصدها مسلم ففيه خلاف: فمنهم من يجيزها، ومنهم من يمنعها، وكذلك

---

(١) أبو داود في السنن (٢/ ٤٧٧)، الترمذي في الديات (١٤٢١) وصححه الأرناؤوط في جامع الأصول ٢/ ٧٤٤.

(٢) صحيح سنن النسائي (٣٨٠٣).

اختلفوا فيمن أريد ماله ظلماً: فمنهم من يجيز له المقاتلة عن ماله، ومنهم من يوجبها، ومنهم من يمنعها، ومنهم من يفرق بين القليل والكثير، فيقول: إذا طلب الشيء الخفيف لا يجوز له المقاتلة، كما أن منهم من يفرق بين حال وحال، فيقول لا يجوز له المقاتلة في الحال التي يكون فيها للناس إمام وجماعة. وأما في حال الاختلاف والفرقة فليستسلم، ولا يقاتل أحداً، وهو قول الأوزاعي، ولكن يرد عليه وعلى الذي قبله حديث أبي هريرة عند مسلم، وقد جاء فيه: «فلا تعطه» دون تفريق بين القليل والكثير، وبين حال وأخرى، ونقل عن الشافعي أنه قال: «من أريد ماله أو نفسه أو حريمه فله الاختيار أن يكلمه أو يستغيث، فإن منع أو امتنع لم يكن له قتاله، وإلا فله أن يدفعه عن ذلك، ولو أتى على نفسه، وليس عليه عقل ولا دية ولا كفارة، لكن ليس له عمد قتله)[1]. ا.هـ.

وقد فرق شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – بين المقاتلة أيام الفتن وما ورد في النهي عنها والصبر على ظلم الولاة، وبين قتال الصائل فقال: (فأمر مع ذكره لظلمهم بالصبر وإعطاء حقوقهم وطلب المظلوم حقه من الله، ولم يأذن للمظلوم المبغي عليه بقتال الباغي في مثل هذه الصور التي يكون القتال فيها فتنة، كما أذن في دفع الصائل بالقتال، حيث قال: «من قتل دون ماله فهو شهيد.. الحديث» فإن قتال اللصوص ليس قتال فتنة؛ إذ الناس كلهم أعوان على ذلك، فليس فيه ضرر عام على غير الظالم، بخلاف قتال ولاة الأمور فإن فيه فتنة وشراً عاماً أعظم من ظلمهم؛ فالمشروع فيه الصبر)[2]. ا.هـ.

(١) السنن الواردة في الفتن ٢ / ٣٥٣.
(٢) الاستقامة ١ / ٣٥، ٣٦.

والحاصل من هذه النقولات: أن كف اليد وترك المدافعة عن النفس إنما يكون في أيام الفتن التي يتأول المقاتلون فيها لقتالهم، وقد يكرهون الناس على الخروج معهم للمقاتلة؛ فحينئذ لا يستجاب لهم ولو تحت التهديد بالقتال، أما اعتداء اللصوص والصائلين فينبغي رده وعدم الاستسلام له ولو كان ذلك تحت مضلة الفتن.

(٤) فتنة الانشغال بالخلاف والفرقة عن الدعوة والجهاد وطلب العلم وتربية النفوس:

وهذا أمر لا يحتاج إلى دليل؛ لأن التاريخ الإسلامي وأحداثه تشهد بذلك؛ فما من مكان أو زمان كثر فيه التفرق والاختلاف بين المسلمين إلا وينعكس هذا على انكماش الدعوة، وضعف العلم والتعليم، وتوقف الجهاد في سبيل الله – عز وجل – لأن المسلمين قد انشغلوا ببعضهم عن ذلك. ونظرة سريعة للفترة التي تلت مقتل عثمان بن عفان – رضي الله عنه – وفي أول حكم يزيد بن معاوية ترينا كيف توقف الجهاد في هذه الفترة، وانشغل المسلمون بالفتن فيما بينهم.

ذكر الذهبي – رحمه الله – في السير عن سعيد بن عبد العزيز قال: لما قتل عثمان – رضي الله عنه – ووقع الاختلاف، لم يكن للناس غزو حتى اجتمعوا على معاوية، فأغزاهم مرات، ثم أغزى ابنه في جماعة من الصحابة براً وبحراً حتى أجاز بهم الخليج، وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها ثم قفل)[(١)].

ونظرة أخرى إلى واقعنا المعاصر وإلى من فتنوا بحب الخلاف وأُولِعوا

(١) نزهة الفضلاء في تهذيب سير أعلام النبلاء ١ / ٢٤٢.

بتتبع الهفوات والزلات تؤكد هذا الأمر حيث انشغلوا بذلك عن أنفسهم وتربيتها على العلم والخير والرحمة بالمسلمين، ولم يظهر لهم أثر يذكر في دعوة الناس وتصحيح عقائدهم وتحذيرهم من البدع وملل الكفر والشرك والزندقة. وهذا شأن الفتن يجر بعضها بعضاً ويولد بعضها بعضاً ولا تقف عند حد، من تشرف لها استشرفت له.

(٥) ذهاب الريح وشماتة الأعداء وتسلطهم على المسلمين:

لا ريب أن مما يفرح أعداء المسلمين والمتربصين بهم شراً تفرق المسلمين، واختلاف كلمتهم، وتسلط بعضهم على بعض؛ مما يجعلهم يشمتون، ويغريهم هذا التفرق على مزيد من التسلط والكيد والإيذاء للمسلمين، وهذا الكيد - إذا أضيف إلى فتنة الفرقة - هو الذي يُذهب الريح، وينشأ منه الفشل، ويؤخر نصر الله - عز وجل - وتتوالى بذلك الجرائم والمحن على المسلمين. قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٤٦].

(٦) ظهور التحزب وغلبة الهوى واضطراب العقول:

التحزب والتعصب لا يظهران في الغالب إلا أيام الفرقة والاختلاف بين المسلمين؛ وعند ذلك يصبح الهوى غالباً والعقول مضطربة، ويصير كل حزب بما لديهم فرحين، ويكثر في هذه الأحوال التأويل الفاسد، فيسوَّغ الظلم والعدوان، والقتل والتقتيل بحجج فاسدة، ولا ينجو من فتنة الهوى إلا من عصم الله - عز وجل - ولو أراد العقلاء بعد ذلك إخماد نار هذه الفتنة فإنهم في الغالب لن يستطيعوا ذلك ما دام أنهم فرطوا في أول الأمر، ولم يبذلوا الجهد في منعها من الاشتعال، أما بعد هيجانها

واشتعالها فإن العقلاء من أهل الدين يحتارون فيها، وقد يسقطون فيها – نسأل الله العافية.

وعن ذهاب العقول أيام الفتن يقول الرسول ﷺ: «إن بين يدي الساعة لهرجاً، قال: قُلْت: يا رسول الله، ما الهَرْجُ؟ قالَ: القتل. فقالَ بَعض المسلمين: يا رسول الله، إنا نقتل الآن في العام الواحدِ، من المشركينَ كذا وكذا، فقالَ رسولُ الله ﷺ: ليْسَ بقتل المشركين؛ ولكن يقتلُ بعضكم بعضاً، حتَّى يقتلَ الرجلُ جارهُ، وابن عمِّه، وذا قرابته، فقال بعض القوم: يا رسول الله، ومعنا عقُولنا ذلك اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: لا. تنزع عقول أكثر ذلك الزمان، ويخلفُ لهُ هباءٌ من الناس، لا عقولَ لهمْ»[١].

كما وردت أحاديث تحذر من الدعوة والقتال على العصبية، منها:

● ما رواه جبير بن مطعم – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[٢].

● وما رواه عبد الله بن مسعود – رضي الله تعالى عنه – قال: «من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذي رُدِّي في مهواة، فهو ينزع بذنبه». وفي رواية قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في قبة من أدم ... فذكر نحوه»[٣].

---

(١) أحمد (٤/٤٠٦) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٩٨).
(٢) أبو داود (٥١٢١) في الأدب وحسنه الأرناؤوط في جامع الأصول (٧٥٢٢).
(٣) أبو داود (٥١١٧) في الأدب وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح (جامع الأصول (٧٥٢٤).

(٧) الحيرة والاضطراب التي تصيب العامة من جراء الخلاف :

إن عوام المسلمين بل المبتدئين في الدعوة وطلب العلم يحتارون ويضطربون وهم يرون الخلاف والفرقة يدبان في صفوف بعض أهل العلم وبعض الدعاة؛ وخاصة من هم على عقيدة واحدة ومنهج واحد؛ ومنشأ الفتنة هنا هو ما يصيب الناس من الحيرة وعدم اطمئنانهم لشيء، وإيغار صدورهم نحو بعض أهل العلم، والتجرؤ على النيل منهم، وسقوط هيبتهم من النفوس.

كما قد تؤدي هذه الفتنة إلى اليأس والتشكيك في نوايا الدعاة؛ وبذلك يتعكر جو الدعوة الذي يفرح به أهل الفساد الفكري والأخلاقي، ويتهيأ لهم المناخ المناسب والبيئة الخصبة لبذر شرهم وفسادهم؛ ذلك لأن أهل الخير مشغولون بأنفسهم وبالردود على بعضهم تاركين الناس من غير نصح وإرشاد ومن غير مدافعة لفساد المفسدين الموجه إليهم.

ثم إن الناس - بل العالمين منهم - قد تضطرب أذهانهم أيام الفتن، وتغيب عنها بعض معاني القرآن؛ كما حصل ذلك في يوم موت النبي ﷺ وغاب عن أكثر الصحابة رضي الله عنهم قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، حتى ذكَّرهم بها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وهذا شأن أيام الفتن حيث تتشوش فيها الأذهان، ويضعف التركيز، وتحتار العقول.

سادساً: الفتنة بالعلم

إن كون الجهل فتنة لصاحبه لا يهتدي بسببه إلى الحق والهدى فهذا معروف ومفهوم، لكن أن يكون العلم الذي هو أساس معرفة الحق وسلوك الصراط المستقيم فتنة لحامله في بعض الأحوال؛ فإن هذا هو الأمر الذي يحتاج إلى مزيد من البسط والإيضاح لنحذره ونحذر منه ومن سوء العاقبة فيه. وقد كتب سلفنا الصالح في هذه الفتنة وآفاتها كالإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في أكثر كتبه كالمدارج ومفتاح دار السعادة وغيرها. وألّف الإمام الذهبي رسالة مفيدة في زغل العلم، والإمام الآجري في أخلاق العلماء ضمنها أخلاق علماء السوء والفتنة التي وقعوا فيها.

وقد أثنى الله - عز وجل - على العلم والعلماء العاملين به في أكثر من آية منها قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ [فاطر: ٢٨]

وقوله عز وجل: ﴿**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله سبحانه: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٩]، والأحاديث في فضل العلم وأهله أيضاً كثيرة منها قوله ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا

ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[١]، وقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[٢].

وقد ذكر الإمام ابن القيم في كتابه النافع: (مفتاح دار السعادة) ما يقارب المئتي دليل على فضل العلم وأهله وهو باب نافع تفرع منه إلى مسائل مهمة يحسن الرجوع إليها[٣].

ومع ما للعلم وأهله من الفضائل والمناقب والعواقب الحميدة في الدنيا والآخرة إلا أن سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - كانوا يخافون أشد الخوف من تبعات العلم وآفاته والفتنة به، فحريٌّ بنا اليوم - معاشر طلاب العلم - أن نكون أشد خوفاً وحذراً، ذلك لكثرة الفتن وانفتاح الدنيا وزخرفها وكثرة المخادعين والمضللين الذين يلوحون في هذا الزمان لأهل العلم بالمال والجاه والسلطان وغير ذلك من متاع الدنيا الزائلة.

ومن أخطر مظاهر الفتنة بالعلم وآفاته ما يلي:

● ضعف العمل بالعلم، ومناقضة القول للعمل ● الكبر والعجب والرياء ● التلبيس وكتم الحق ● طلب الدنيا وزينتها والتحاسد عليها ● الجدال والمراء ● التقليد الأعمى والتعصب لآراء الرجال ● قلة المعرفة بواقع الناس وأحوالهم ● التعالم والقول بلا علم.

---

(١) جزء من حديث طويل عند الترمذي ك العلم (٢٦٨٣).

(٢) البخاري (٧١) [فتح (١/١٩٧)] مسلم (١٠٣٧).

(٣) مفتاح دار السعادة من ص (٥٢ - ٢٠٤).

أ ـ ضعف العمل بالعلم ومناقضة القول للعمل

إن عدم العمل بالعلم أو ضعف ذلك عند طالب العلم هو الذي ينشأ عنه الآفات المذكورة سابقاً؛ فإن هي إلا نتيجة تخلُّف العمل عن العلم. وإن علماً لا يثمر لصاحبه العمل والاستعداد للآخرة وخشية الله - عز وجل - فإنه حجة على صاحبه وفتنة له، والجاهل أفضل منه وأخف حملاً. وقد وردت آيات وأحاديث وآثار كثيرة تحذر من ترك العمل بالعلم وتشنع على من لم يعمل بعلمه ولم ينتفع به في عبادة ربه - عز وجل - وذكره وشكره **ومن هذه الآيات:**

قوله تعالى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

وقوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الجمعة: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف: ٢، ٣].

أما الأحاديث فمنها:

● قوله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»(١).

● وقوله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه، فيقال: أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا أفعله، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»(٢).

● وقوله ﷺ: «مثل العالم الذي يعلِّم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»(٣).

● وقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»(٤).

أما الآثار الواردة عن السلف رحمهم الله تعالى في التحذير من فتنة العلم بلا عمل فهي كثيرة جداً منها:

* عن حبيب بن عبيد قال قال أبو الدرداء: (لا تكون عالماً حتى تكون بالعلم عاملاً)(٥).

---

(١) الترمذي بنحوه في صفة القيامة (٢٤١٩)، وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في السلسلة ٢/٩٤٦.

(٢) البخاري (٣٢٦٧) ومسلم في الزهد (٢٩٨٩).

(٣) الطبراني في المعجم الكبير ٢/١٦٧ (١٦٨٥). وقال الهيثمي في المجمع ١/١٨٥: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

(٤) مسلم في الذكر (٢٧٢٢)

(٥) أخلاق العلماء للآجري ص ٨١.

* وقال عمر بن قيس: حدثني عطاء قال: «كان فتًى يختلف إلى أم المؤمنين فيسألها وتحدثه، فجاء ذات يوم يسألها فقالت يا بني هل عملت بما سمعت؟ قال: لا والله يا أمه، قالت: يا بني وتستكثر من حجج الله علينا وعليك»(١).

* وقال علي – رضي الله عنه –: «هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»(٢).

* وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إن أخوف ما أخاف على نفسي أن يقال لي يا عويمر: هل علمت؟ فأقول: نعم، فيقال لي: فماذا عملت فيما علمت ؟»(٣).

* وعن الحسن قال: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب، وصدقته الأعمال، من قال حسناً وعمل غير صالح، رده الله على قوله ومن قال حسناً وعمل صالحاً، رفعه العلم، وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠](٤)

* وقال الفضيل بن عياض: «لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتى يعمل به فإذا عمل به كان عالماً»(٥).

* وقال الخوَّاص: «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العالم من اتبع العلم و استعمله، واقتدى بالسنن؛ وإن كان قليل العلم»(٦).

---

(١) أخلاق العلماء للآجري ص ٨١.

(٢) مختصر اقتضاء العلم العمل ص١٤.

(٣)، (٤) مختصر اقتضاء العلم العمل ص ١٦.

(٥) المصدر السابق ص ١٤.

(٦) المصدر السابق ص ١٠.

* وقال الخطيب البغدادي – رحمه الله تعالى –: «العلم يراد للعمل كما العلم يراد للنجاة؛ فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلاً على العالم، ونعوذ بالله من علم عاد كلاً، وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غلاً»[١].

* ويقول الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – وهو يعدد فضائل العلم ويحذر من آفاته:

* «قال محمد بن الفضل الصوفي الزاهد: ذهاب الإسلام على يدي أربعة أصناف من الناس: صنف لا يعملون بما يعلمون، وصنف يعملون بما لا يعلمون، وصنف لا يعملون ولا يعلمون، وصنف يمنعون الناس من التعلم. قلت: الصنف الأول من له علم بلا عمل فهو أضرّ شيء على العامة؛ فإنه حجّة لهم في كل نقيصة ومنحسة. والصنف الثاني العابد الجاهل فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله.

وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف في قوله: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون؛ فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم؛ فإذا كان العلماء فَجَرَة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة.

والصنف الثالث الذين لا علم لهم ولا عمل وإنما هم كالأنعام السائمة. والصنف الرابع نواب إبليس في الأرض وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين؛ فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن؛

(١) مقدمة اقتضاء العلم العمل.

فإنهم يحُولُون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه.

فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه. وهؤلاء كلهم على شفا جرف هارٍ وعلى سبيل الهلكة، وما يلقى العالم الداعي إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم. والله يستعمل من يشاء في سخطه كما يستعمل من يحب في مرضاته إنه بعباده خبير بصير»[١] .ا.هـ.

وبعد أن تبين لنا مما سبق آفة العلم بلا عمل وأن ذلك فتنة على صاحبه في الدنيا والآخرة، وفتنة على الناس في الاقتداء به وضلالهم بسببه؛ يحسن بنا بعد ذلك الإشارة إلى بعض صفات العلماء العاملين الربانيين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون والذين قال الله – عز وجل – في وصفهم: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ [فاطر: ٢٨].

ومن اتقى الله – عز وجل – في علمه فعمل به مخلصاً لربه فيه متبعاً للنبي ﷺ في فعله وتركه فإنه بذلك يسلم من آفات العلم المذكورة آنفاً أي أنه يسلم من فتنة التعالم والقول بلا علم، كما يسلم من آفة الحسد والعجب والرياء والكبر، ولا تضره فتنة الدنيا وزينتها... إلى آخر هذه الآفات.

يقول الإمام الآجري ـ رحمه الله تعالى – في وصف العالم الرباني:

---

(١) مفتاح دار السعادة ص:١٦٥.

(من صفته أن يكون لله شاكراً، وله ذاكراً، دائم الذكر بحلاوة حب المذكور... يعد نفسه مع شدة اجتهاده خاطئاً مذنباً، ومع الدؤوب على حسن العلم مقصراً، لجأ إلى الله - عز وجل - فقوى ظهره، ووثق بالله فلم يخف غيره، مستغن بالله عن كل شيء، ومفتقر إلى الله في كل شيء، أنسه بالله وحده، ووحشته ممن يشغله عن ربه، إن ازداد علماً خاف توكيد الحجة، مشفق على ما مضى من صالح عمله أن لا يقبل منه، همه في تلاوة كلام الله الفهم عن مولاه، وفي سنن الرسول ﷺ الفقه لئلا يضيِّع ما أمر به، متأدب بالقرآن والسنة، لا ينافس أهل الدنيا في عزها ولا يجزع من ذلها يمشي على الأرض هوناً بالسكينة والوقار... قال الله عز وجل: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩] أفلا ترى - رحمك الله - كيف وصف العلماء بالبكاء والخشية والطاعة والتذلل فيما بينه وبينهم..»[١] ا.هـ. ثم ساق - رحمه الله تعالى - بعض الآثار عن السلف في هذا المعنى منها:

* عن أبي الأعلى التيمي: قال: «من أوتي من العلم ما لا يبكيه فخليق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله - عز وجل - نعت العلماء وقرأ «آية الإسراء السابقة»[٢].

* قال ابن عيينة: «إذا كان نهاري نهار سفيه، وليلي ليل جاهل؛ فما أصنع بالعلم الذي كتبت؟»[٣].

---

(١) أخلاق العلماء (ص ٦٤ - ٦٧) مختصراً.

(٢) المصدر السابق ص ٦٨.

(٣) المصدر السابق ص ٧٢.

* قال يحيى بن أبي كثير: «العالم من خشي الله؛ وخشية الله الورع»[١].ا.هـ.

* ويصف ابن الجوزي – رحمه الله تعالى – شيخه عبد الوهاب الأنماطي رحمه الله تعالى فيقول:

«كان ذا دين وورع، وكان قد نصب نفسه للحديث طوال النهار، وسمع الكثير من خلق كثير، وكتب بيده الكثير، وكان صحيح السماع، ثقة ثبتاً، وكنت أقرأ عليه الحديث وهو يبكي، فاستفدت ببكائه أكثر من استفادتي بروايته، وكان على طريقة السلف، وانتفعت به ما لم أنتفع بغيره، ودخلت عليه وقد بلي وذهب لحمه، فقال لي: إن الله لا يُتَّهَمُ في قضائه».

وقال أيضاً: «وما عرفنا من مشايخنا أكثر سماعاً منه، ولا أكثر كتابة للحديث، ولا أصبر على الإقراء، ولا أحسن بشراً ولقاء، ولا أسرع دمعة، ولا أكثر بكاء.

ولقد كنت أقرأ عليه الحديث في زمن الصبا، ولم أذق بعدُ طعم العلم، فكان يبكي بكاء متصلاً، وكان ذلك البكاء يعمل في قلبي، وأقول: ما يبكي هذا هكذا إلا لأمر عظيم؛ فاستفدت ببكائه ما لم أستفد بروايته.

وكان مجلسه منزهاً عن غيبة الناس، وكان – رضي الله عنه – على طريقة السلف، وكنا ننتظره يوم الجمعة ليأتي من داره بنهر القلائين إلى

(١) المصدر السابق ص ٧٠.

جامع المنصور، فلا يأتي على قنطرة باب البصرة، وإنما يمر على القنطرة العتيقة، فسألته عن سبب هذا، فقال: كانت تلك دار ابن معروف القاضي، فلما قُبض عليه، بنيت قنطرة»(١).

وقال أيضاً: «وكانت فيه خلة أخرى عجيبة: لا يغتاب أحداً، ولا يُغتاب عنده. وكان صبوراً على القراءة عليه، يقعد طول النهار لمن يطلب العلم. وكان سهلاً في إعارة الأجزاء لا يتوقف. ولم يكن يأخذ أجراً على العلم، ويعيب من يفعل ذلك، ويقول: علِّمْ مجاناً كما علمت مجاناً»(٢).

* وحكى القاضي حسين عن القفال أستاذه أنه كان في كثير من الأوقات يقع عليه البكاء حالة الدرس ثم يرفع رأسه ويقول: «ما أغفلنا عما يراد بنا»(٣).

* وقال عبد الصمد بن سليمان بن أبي مطر: بت عند أحمد بن حنبل فوضع لي ماء، فلما أصبح وجدني لم أستعمله فقال: صاحب حديث لا يكون له ورد في الليل؟ قال قلت: أنا مسافر قال: وإن كنت مسافراً!! حج مسروق فما نام إلا ساجداً(٤).

وقال مرة لأبي عصمة البيهقي وقد بات عنده ولم يقم الليل: سبحان الله!! رجل يطلب العلم لا يكون له ورد من الليل(٥).

---

(١) صفة الصفوة (٢/٤٩٨ – ٤٩٩) نقلاً عن مقدمة: سنن سعيد بن منصور للدكتور سعد الحميد ص ١٥٢، ١٥٣.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (١/٢٠٣) نقلاً عن مقدمة سنن سعيد بن منصور للدكتور سعد الحميد ص ١٥٢، ١٥٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٧/٤٠٧.

(٤)، (٥) مناقب الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله تعالى – ص ١٧٩.

* وأختم هذه النماذج بمحاسبة ابن الجوزي لنفسه في تشاغلها بالعلم عن الاجتهاد في العبادة والعمل، حيث يقول - رحمه الله تعالى -:

«وجدت رأي نفسي في العلم حسناً، فهي تقدمه على كل شيء وتعتقد الدليل، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول: أقوى دليل لي على فضله على النوافل أني رأيت كثيراً ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم، قد عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول، فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادة السليمة والرأي الصحيح.

إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحت بها: فما الذي أفادك العلم؟ أين الخوف؟ أين القلق؟ أين الحذر؟

أوَ ما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم؟

أما كان الرسول ﷺ سيد الكل، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه؟

أما كان أبو بكر - رضي الله عنه - شجي النشيج، كثير البكاء؟

أما كان في خد عمر - رضي الله عنه - خطان من آثار الدموع؟

أما كان عثمان - رضي الله عنه - يختم القرآن في ركعة؟

أما كان علي - رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع، ويقول: يا دُنيا غرِّي غيري؟

أما كان الحسن البصري يحيا على قوة القلق؟

أما كان سعيد بن المسيب ملازماً للمسجد فلم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة؟

أما صام الأسود بن يزيد حتى اخضرَّ واصفرَّ؟

أما قالت بنت الربيع بن خثيم له: مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟

فقال: إن أباك يخاف عذاب البيات.

أما كان أبو مسلم الخولاني يعلق سوطاً في المسجد يؤدب به نفسه إذا فتر؟

أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة؟ وكان يقول: والهفاه سبقني العابدون، وقطع بي.

أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة؟

أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف؟

أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف؟ أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد.

احذري من الإخلاد إلى صورة العلم، مع ترك العمل به، فإنها حالة الكُسالى الزمنى»[١] ا.هـ

وفي ضوء ما سبق من الأدلة والآثار والمواقف التي تحث على العمل بالعلم، وتحذر من تناقض العلم والعمل أو مخالفة ما يقال مع ما يعمل: نخلص إلى خطورة هذا الأمر وضرورة تدارك النفس ومحاسبتها على كل

---

(١) صيد الخاطر ص ٧١، ٧٢

علم يحصل عليه طالب العلم: ما ذا عمل به؟ وإن لم يتحول العلم إلى عمل فما فائدة العلم إذن؟ إنه لا فائدة فيه بل فيه الضرر والفتنة لصاحبه في الدنيا والآخرة. ومن أخطر هذه الأضرار والفتن ما يلي:

(١) مقت الله – عز وجل – لمن لم يعمل بعلمه. قال تعالى: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٣] كما يمقته أيضاً ويكرهه كل من علم حاله من المسلمين، وينزع من قلوب الناس قبول كلامه.

(٢) شدة المحاسبة له يوم القيامة، فكلما ازداد علم العبد ازدادت حجة الله – عز وجل – عليه، وليس حساب العالم المخالف لعلمه كحساب الجاهل؛ فكلما شرف العبد وكثرت أنعم الله عليه بالعلم أو الجاه كلما كان حسابه أدق قال – تعالى – عن نساء النبي ﷺ: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٣٠].

(٣) تضليل الناس العوام من قِبَلِ العلماء المقصرين في العمل بعلمهم؛ ذلك أن الجاهل من الناس يرى في العالم قدوته فإذا رآه متلبساً بمعصية أو مخالفة شرعية قلده فيها وبخاصة إذا صاحب ذلك هوى وشهوة؛ فإذا أنكر على هؤلاء العوام فعلهم كانت حجتهم أن العالم الفلاني يفعل ذلك، ويقول ذلك، فيحصل بذلك فتنة للناس وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وكم سمعنا في بعض بلدان المسلمين من يترخص من العوام في أخذ الفوائد الربوية؛ لأن فلانًا العالم يأخذها أو يتهاون في إدخال آلات اللهو

من أغان أو تلفاز أو ڤيديو وبث مباشر؛ لأن العالم الفلاني لا يخلو بيته من بعض هذه الأجهزة. أو يتساهل في استقدام الخادمات الأجنبيات ليعملن في بيته وهن بلا محارم، أو يترك السائق الأجنبي يخلو بمحارمه؛ لأن فلاناً من طلاب العلم يُرى ذلك في بيته ولا ينكره... إلى آخر هذه المنكرات والمخالفات الشرعية التي يفتن الناس بها، ومن أهم أسبابها تساهل بعض أهل العلم فيها وتلبسهم ببعضها وبهذا تبعهم العوام في ذلك فحصل لطالب العلم هذا أن فتن نفسه وفتن غيره. فاللهم عياذاً بك من أن نحمل أثقالاً مع أثقالنا ونعوذ بك من أن نحمل أوزار غيرنا؛ فظهورنا يا ربنا لا تستطيع حمل أوزارنا فضلاً عن أوزار غيرنا، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه.

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى –: «وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون؛ فإن الناس يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم ويقولون: لسنا خيراً منهم ولا نرغب بأنفسنا عنهم؛ فهم حجة لكل مفتون»[1].

* * *

---

(١) مفتاح دار السعادة: ص ١٤٧

ب ـ فتنة العجب والكبر والرياء

تعد هذه الأمراض الثلاثة من أشد الأمراض فتكاً بقلوب الناس وهي في الغالب متلازمة، كما تعد هذه الفتنة من أخطر آفات العلم ولا يسلم منها إلا من رحم الله – عز وجل – وهي من الشهوة الخفية التي قد تفتك بطالب العلم شعر بذلك أم لم يشعر. ويكفينا في الحذر من هذه الفتنة حديث الرسول ﷺ في أول من تسعر بهم النار يوم القيامة وقد سبق ذكره وتخريجه(١).

وكذلك قوله ﷺ: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء ويجاري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله جهنم»(٢).

وللسلف – رحمهم الله تعالى – مواقف وأقوال كثيرة تصف أحوالهم وتواضعهم للخلق وانقيادهم للحق، واحتقارهم لأنفسهم، وحذرهم وتحذيرهم من هذه الآفات الخطيرة أختار منها ما يلي:

● عن حبيب بن أبي ثابت قال: خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه ناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك. قال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع(٣).

● وعن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله – يعني ابن مسعود، رضي الله عنه –: لو تعلمون ما أعلم من نفسي حثيتم على رأسي التراب(٤).

---

(١) انظر ص: ٦٧ من هذه الرسالة.

(٢) ابن ماجه في المقدمة (٢٦٠) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٩).

(٣) صفة الصفوة ١/٤٠٦.

(٤) صفة الصفوة ١/٤٠٦.

• وعن بسطام بن مسلم قال: كان محمد بن سيرين إذا مشى معه رجل قام وقال: ألك حاجة؟ فإن كان له حاجة قضاها؛ فإن عاد يمشي معه قام فقال له: ألك حاجة؟[(١)].

• وقال الحسن: وكنت مع ابن المبارك يوماً فأتينا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس فزحموه ودفعوه فلما خرج قال لي: ما العيش إلا هكذا. يعني حيث لم نعرف ولم نوقر.

قال: وبينا هو بالكوفة يقرأ عليه كتاب المناسك. انتهى إلى حديث وفيه: قال عبد الله: وبه نأخذ. فقال: من كتب هذا من قولي؟ قلت: الكاتب الذي كتبه. فلم يزل يحكه بيده حتى درس. ثم قال: ومن أنا حتى يُكتب قولي؟[(٢)].

• وقال أبو وهب المروزي: سألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: أن تزدري الناس. فسألته عن العجب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العجب[(٣)].

• وعن وهب بن منبه قال: احفظوا عني ثلاثاً: إياكم وهوى متبعاً، وقرين سوء، وإعجاب المرء بنفسه[(٤)].

• يقول الذهبي – رحمه الله تعالى –:

« فمن طلب العلم للعمل كسره العلم، وبكى على نفسه، ومن طلب

(١) صفة الصفوة ٣/٢٤٣.
(٢) صفة الصفوة ٤/١٣٥
(٣) سير أعلام النبلاء ٨/٤٠٧
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/٥٤٩

العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامق، واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه العجب، ومقتته الأنفس ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس: ٩، ١٠] أي: دسسها بالفجور والمعصية[١]».

● وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن! علمني كلمات جوامع نوافع. فقال له عبد الله: لا تشرك به شيئاً، وزل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردده عليه وإن كان حبيباً قريباً[٢].

● وقال يوسف بن أحمد الشيرازي في «أربعين البلدان» له: لما رحلت إلى شيخنا رحلة الدنيا ومسند العصر أبي الوقت، قدر الله لي الوصول إليه في آخر بلاد كرمان، فسلمت عليه، وقبلته، وجلست بين يديه، فقال لي: ما أقدمك هذه البلاد؟ قلت: كان قصدي إليك، ومعولي، بعد الله عليك، وقد كتبت ما وقع إلي من حديثك بقلمي، وسعيت إليك بقدمي، لأدرك بركة علمك، وأحظى بعلو إسنادك. فقال: وفقك الله وإيانا لمرضاته، وجعل سعينا له، وقصدنا إليه، لو كنت عرفتني حق معرفتي، لما سلمت عليَّ، ولا جلست بين يدي، ثم بكى بكاء طويلاً، وأبكى من حضره، ثم قال: اللهم استرنا بسترك الجميل، واجعل تحت الستر ما ترضى به عنا[٣].

● وعن عبد الله بن مبارك قال: قيل لحمدون بن أحمد: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ١٩١.
(٢) صفة الصفوة ١ / ٤١٩
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٣٠٧
(٤) صفة الصفوة ٤ / ١٢٢

● وعن الشافعي قال: «ما كابرني أحد على الحق ودافع إلا سقط من عيني، ولا قبله إلا هبته واعتقدت مودته»[١].

● وقال عون بن عمارة: سمعت هشاماً الدستوائي يقول: والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث أريد به وجه الله – عز وجل –.

قلت ـ أي الذهبي ـ: «والله ولا أنا. فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله، وحصلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم فجرَّهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله. فهذا أيضاً حسن. ثم نشروه بنية صالحة[٢].

● عن عبد الصمد بن يزيد قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «إن الله – عز وجل – يحب العالم المتواضع، ويبغض العالم الجبار؛ ومن تواضع لله ورَّثه الله الحكمة»[٣].

● وذكر الإمام الآجري فتنة عالم السوء بهذه الآفات فقال رحمه الله في وصفه:

«يتفقه للرياء، ويحاج للمراء، مناظرته في العلم تكسبه المأثم. مراده

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٣٣

(٢) سير أعلام النبلاء ٧ / ١٥٢

(٣) أخلاق العلماء للآجري ص ٩٥

في مناظرته أن يعرف بالبلاغة ومراده أن يخطئ مناظره، إن أصاب مناظره الحق ساءه ذلك فهو دائب يسره ما يسر الشيطان ويكره ما يحب الرحمن، يتعجب ممن لا ينصف في المناظرة وهو يجور في المحاجة، يحتج على خطئه وهو يعرفه ولا يقر به خوفاً أن يذم على خطئه، يرخص في الفتوى لمن أحب، ويشدد على من لا هوى له فيه، يذم بعض الرأي فإن احتاج الحكم والفتيا لمن أحب دله عليه وعمل به، من تعلم منه علماً فهمَّتُه فيه منافع الدنيا، فإن عاد عليه خف عليه تعليمه وإن كان ممن لا منفعة له فيه للدنيا وإنما منفعته الآخرة ثقل عليه، يرجو ثواب علم ما لم يعمل به ولا يخاف سوء عاقبة المساءلة عن تخلف العمل به، يرجو ثواب الله على بغضه من ظن به السوء من المستورين ولا يخاف مقت الله على مداهنته للمتهوكين، ينطق بالحكمة فيظن أنه من أهلها ولا يخاف عظم الحجة عليه لتركه استعمالها، إن علم ازداد مباهاة وتصنعاً، وإن احتاج إلى معرفة علم تركه أنفاً. إن كثر العلماء في عصره فذُكروا بالعلم أحب أن يذكر معهم، وإن سئل العلماء عن مسألة فلم يُسأل هو أحب أن يُسأل كما سئل غيره، وكان أوْلى به أن يحمد ربه إذ لم يُسأل، وإذ كان غيره قد كفاه. إن بلغه أن أحداً من العلماء أخطأ وأصاب هو فرح بخطأ غيره وكان حكمه أن يسوءه ذلك. إن مات أحد من العلماء سره موته ليحتاج الناس إلى علمه، إن سئل عما لا يعلم أنف أن يقول: لا أعلم حتى يتكلف ما لا يسعه في الجواب، إن علم أن غيره أنفع للمسلمين منه كره حياته ولم يرشد الناس إليه، إن علم أنه قال قولاً فتوبع عليه وصارت له به رتبة عند من جهله ثم علم أنه أخطأ أنف أن يرجع عن خطئه فيثبت بنصر الخطأ لئلا تسقط رتبته عند المخلوقين، يتواضع بعلمه للأكابر وأبناء الدنيا لينال حظه منهم

بتأويل يقيمه، ويتكبر على من لا دنيا له من المستورين والفقراء فيحرمهم علمه بتأويل يقيمه ويعد نفسه في العلماء وأعماله أعمال السفهاء، قد فتنه حب الدنيا، والثناء والشرف والمنزلة عند أهل الدنيا يتجمل بالعلم كما يتجمل بالحلة الحسناء للدنيا ولا يجمِّل علمه بالعمل به.

قال محمد بن الحسين الآجري: من تدبر هذه الخصال فعرف أن فيه بعض ما ذكرنا وجب عليه أن يستحيي من الله، وأن يسرع الرجوع إلى الحق»(١) .ا.هـ.

وقال ابن قدامة - رحمه الله تعالى - في مختصر منهاج القاصدين: «اعلم أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلب الإنسان منهم فهو يرى نفسه خيراً من غيره إلا أنه يجتهد ويتواضع؛ فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس والتقدم على الأقران والإنكار على من يقصر في حقه؛ فترى العالم يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم...

الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه كالدعاوى والمفاخر وتزكية النفس وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب؛ فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً»(٢) ا.هـ.

---

(١) أخلاق العلماء للآجري ص (٩٨ - ١٠٠).

(٢) مختصر منهاج القاصدين: ص ٢٣٣.

وفي ضوء كل ما سبق من الآثار والمواقف الدالة على ذم الكبر والعجب والتباهي بالعمل يتضح لنا قبح هذه الصفات وشدة خطرها وفتنتها على الناس وخاصة العلماء منهم وطلاب العلم، ومن أخطر ما في هذه الفتنة مقت الله - عز وجل - لأصحابها ويتبع ذلك مقت الناس لهم وعزوف الناس عن علمهم وعدم القبول لهم. فبئس العلم الذي لا يدفع صاحبه إلى التواضع والإخلاص وقبول الحق من أي إنسان. كما أن من فتنة هذه الأعمال أن تكون سبباً في حبوط العمل وذهابه يوم القيامة في وقت يكون العبد فيه أحوج ما يكون إلى الحسنة الواحدة فمغبون من تورط وافتتن بهذه الخلال السيئة التي تذهب بركة علمه في الدنيا والآخرة.

* * *

ج ـ التلبيس وكتم الحق

إن التلبيس وكتم الحق من أعظم الفتن التي يخشى على طلبة العلم من الوقوع فيها خاصة أيام الخوف والطمع. وكتم الحق أو لبسه بالباطل غالباً ما يقترنان أو يستلزم أحدهما الآخر؛ لأن المفتون من أهل العلم يسبر أحوال الناس: فإن كانوا جهالاً كتم عنهم الحق وإن كان عندهم شيء من العلم أو أن الحق وصل إليهم فإنه يلجأ إلى لبس هذا الحق بالباطل حتى يشتبه على الناس ويختلط الحق بالباطل. وفي هذا الصنيع من الخطورة والشر ما تحصل به الفتنة على فاعله من أهل العلم؛ وذلك من الإثم العظيم والذنب الكبير الذي يرتكبه بفعله هذا. كما تحصل به الفتنة على الناس الملبس عليهم من التضليل والخداع. وجزء عظيم من ضلال الناس يتحمله من ضللهم ولبس عليهم، وأظهر لهم الباطل في صورة الحق أو الحق في صورة الباطل قال تعالى: ﴿**لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ**﴾ [النحل: ٢٥] «وطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه. والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة، يعذب بها في قبره ويسأل عنها إلى انقراضها»[١].

ويكفي في فتنة كتم الحق أو لبسه بالباطل أنها من صفات اليهود المحادين لله عز وجل ورسله وقد نهاهم الله - عز وجل - عن هذا العمل

---

(١) الموافقات للشاطبي ١/١٦٨.

الشنيع بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]، وخطاب النهي يشملهم ويشمل غيرهم ممن تشبه بهم في كل زمان ومكان.

وقد سبق الحديث عن فتنة التلبيس وصورها في رسالة مستقلة من هذه السلسلة بعنوان: «ولا تلبسوا الحق بالباطل» فليرجع إليها ففيها التفصيل ولا داعي لإعادة ما كتب هنالك، وإنما المراد الإشارة إلى خطورة هذه الفتنة على صاحبها وعلى الناس وذلك بمناسبة الحديث عن الفتنة بالعلم. وتنشأ هذه الفتنة في الغالب من هوى وشهوة في نفس صاحبها يخلطها في الغالب بشبهة شرعية يتأول فيها مع عدم قناعته بها كدليل شرعي لكنه يستخدمها للتلبيس على الناس بأنه لم ينطلق من هوى وشهوة وإنما من دليل شرعي هو أول الناس علماً بعدم صلاحيته فيما استدل به عليه. نعوذ بالله – عز وجل – من الهوى والخذلان. وهنا بعض الوقفات السريعة حول موضوع التلبيس وكتم الحق يجدر الوقوف عندها:

(١) هناك من يسوِّغ كتم الحق بالخوف على النفس من الأذى الذي يترتب على قول الحق أو بالخوف على الناس من تبعات قول الحق وما يجر عليهم من المفاسد والفتن. والجواب على هذا الإشكال فيه تفصيل:

فإن كان من يقول هذا القول معروف عنه التقوى والإخلاص والعلم بدين الله – عز وجل – ومقاصد الشريعة فإنه والحالة هذه مسؤول عما يقول وهو إن شاء الله تعالى مأجور مرتين إن أصاب الحق في اجتهاده هذا، وله أجر واحد إن أخطأ فيه، ولا يجوز رميه بكتم الحق أو لبس الحق بالباطل ما دام أنه من أهل العلم الورعين المجتهدين، مع عدم اتباعه في اجتهاده الخاطئ.

أما إن كان المورد لهذا الإشكال ممن يعرف عنه قلة الدين ولهثه وراء الدنيا ومناصبها وزخرفها، وقامت القرائن على أنه ما كتم الحق لمسوِّغ شرعي وإنما خوفاً على دنيا فانية أو طمعاً في متاع زائل، فإن موقفه والحالة هذه يعد صورة من صور لبس الحق بالباطل، حيث أظهر طمعه وشهوته وخوفه على دنياه في صورة الحرص على مقاصد الشريعة ومراعاة المصالح والمفاسد، والله سبحانه هو المطلع على ما في القلوب وهو علام الغيوب.

وكل إنسان أعلم بحاله، وهو على نفسه بصيرة، فلنحذر هذه الدسائس الخفية ولنسد على الشيطان مداخله، ولنحذر يوم الرجوع إلى الله عز وجل ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].

(٢) هناك من يتنازل عن بعض الحق أو يضعف عن حمله في بعض الظروف وذلك بمسوِّغ شرعي يزعم المتنازل أنه يسوِّغ له هذا التنازل حتى تزول أسبابه؛ فيعود إلى التزام الأصل والتمسك به، وقد لا يظهر للمتنازل وجه شرعي لما يفعله غير الضعف ووهن العزيمة وقلة الصبر، وسواء كان التنازل بمسوِّغ شرعي أو بدونه، فإن الأمر يبقى هيناً وسهلاً علاجه ما دام أن الأصل باق على أصله وأن الضعف طارئ وليس أصلاً. لكن الخطير في مثل هذه المواقف أن يتحول الضعف والحال التي تنتج عنه إلى أصل بعد أن كانت حادثة عين، أو جزئية طارئة. أي أن بعض من يتنازل عن الحق الأصيل يسعون بشبهة أو شهوة أو بهما جميعاً إلى تأصيل ضعفهم، ويهدمون بجزئيتهم الطارئة ذلك الأصل الذي تنازلوا عنه بسبب أو بآخر، وبذلك ينخرم الأصل ويؤصل الضعف حتى يتحول مع الوقت إلى أنه الأصل وما خالفه هو الطارئ أو الشاذ. وأوضح هذه المسألة بمثالين اثنين:

المثال الأول: من المعلوم من الدين الضرورة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل من أصول هذا الدين لا يقوم إلا به بل هو من دعائم الدين القوية التي تحفظ له بقاءه وهيبته وقوته، ولكن هذا الأصل قد يتركه بعض الناس في بعض الظروف إما لمسوغ شرعي كتخلُّف بعض شروط الأمر والنهي أو لضعف وتخاذل، وفي كلا الحالين يبقى الأمر هيناً ما دام الجميع يشعرون ببقاء هذه الشعيرة على أصلها؛ فإن تركُ القيام بها من قبل بعض الناس أو في بعض الأحوال طارئ سرعان ما يزول إذا زالت أسبابه.

أما لو تحول الأمر مع مرور الوقت وكثرة المنكرات وشدة الضغوط وضعف الإيمان إلى أن يصبح السكوت وترك الأمر والنهي هو الأصل الذي يبحث له عن المسوغات الشرعية التي تؤصله، ويتحول الأمر والنهي إلى حاله استثنائية لا يقام بهما إلا عند توفر الشروط التي تضخم لتصبح أقرب إلى التعجيز منها إلى الإمكان – إنه إذا آل الأمر إلى هذه الحالة؛ فإن هذا من أعظم صور التلبيس وخلط الحق بالباطل حيث انعكس الأمر فأصبح السكوت والضعف عن هذه الشعيرة هو الأصل وما خالفه من الأمر والنهي هو الطارئ والمنكر. ونعوذ بالله أن يؤول أمر المسلمين إلى هذه الصورة الشاذة المنحرفة.

المثال الثاني: لا يختلف أحد من المسلمين أن البراءة من المشركين والكفر بالطاغوت أصل من أصول التوحيد لا يصح إلا به، ولكن قد تمر بالمسلم أوقات لا يستطيع فيها أن يجاهر بعداوته للمشركين، وإنما يداريهم في الظاهر، وقلبه ممتلئ ببغضهم والبراءة منهم، وهذه رخصة من الله عز وجل كما قال سبحانه: ﴿ **إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وهذا كله محكوم بضوابط و شروط ذكرها أهل العلم في كتبهم.

ولكن الخطير في هذه المسألة أن يستمرئ الناس مداراة الكافر في كل حين وآن حتى يتحول الأمر إلى مداهنة وموالاة له بحجة المداراة والتقية وحتى يؤول الأمر في النهاية إلى أن تؤصَّل المداهنة الناشئة عن ضعف الإيمان ووهن العزيمة وتصبح هي الأصل وما خالفها طارئ وجزئي لا يعارض به الأصل، كمن يؤصل التسامح الديني وتقارب الأديان وتقريب الكفار بحجة المصلحة الشرعية ونبذ التعصب، وأن ما خالف ذلك من عداوة الكافر ومقاتلته والبراءة منه ومن كفره أمر طارئ في بعض الأوقات وله ظروفه الخاصة.

وأزيد هذا المثال وضوحاً بتطبيقه على واقع الأمة الإسلامية وما يراد لها من استسلام مهين مع شرذمة الخليقة وأعداء الرسل اليهود الغاصبين، حيث تحول الجهاد في سبيل الله ومعاداة اليهود والنصارى والبراءة منهم إلى أمر مستغرب بل ومستنكر أحياناً.

وأصبح التنازل عن هذا كله هو الأصل الذي لا يجوز خرمه كما أصبح التعايش السلمي واحترام حدود الغير والنظام العالمي الجديد والشرعية الدولية هي الأصول التي لا يُسمح لأحد بالتنازل عنها أو الخروج عليها، ومما يزيد الأمر أسىً وحسرة أن يوجد في بعض بلدان المسلمين من يحشد الأدلة والشبهات لتأصيل هذا الخنوع، وإضفاء الشرعية للسلام الدائم مع اليهود، وأصبحنا نرى إسهام وسائل الإعلام الماكرة في أكثر بلدان المسلمين تعمل على ترويض الأمة وتهيئتها لهذا السلام الدائم والخنوع المهين، والتعايش السلمي بين بني الإنسان في ظل النظام العالمي الجديد الذي يهدم ذروة سنام الإسلام ويبني على أنقاضه التعايش مع الكافر وموالاته وإقراره في بلدان المسلمين ومقدساتهم.

د ـ الدنيا والتحاسد عليها

إن أخوف ما يُخاف منه على أهل العلم هذه الدنيا الغرارة التي تنشأ منها أكثر الآفات والفتن. وإن لم يحذر طلاب العلم من الدنيا ومظاهرها فإنه يُخشى على علمهم أن تمحق بركته في الدنيا والآخرة ولا يبقى منه إلا المباهاة والرياء والتحاسد وطلب الدنيا به وهذا كله زائل وباطل.

قال الله ـ عز وجل ـ عن أهل الكتاب وأمثالهم الذين يبتغون بعلمهم عرض الدنيا: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله ـ عز وجل ـ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة. يعني ريحها»[١].

ومن أشد فتن الدنيا التي يخشى على أهل العلم منها ما يلي:

١ ـ فتنة الأموال والتمتع بزينة الحياة الدنيا.

٢ ـ فتنة الجاه والشهرة وحب الرئاسة.

---

(١) أبو داود في باب (طلب العلم لغير الله) (٣٦٦٤)، وابن ماجه باب (باب الانتفاع بالعلم والعمل به (٢٥٢). وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣١١٢).

وقد سبق الحديث بشكل مفصل في التحذير من فتنة الدنيا عن هاتين الفتنتين على الناس عامة، ويدخل في ذلك أهل العلم. وذُكر هنالك، الكلام النفيس للإمام ابن رجب – رحمه الله تعالى – حول هذه الفتن عند شرحه لحديث «ما ذئبان جائعان... الحديث»(١).

ولذا فلا أرى الإطالة والإعادة هنا؛ حيث يكفي الرجوع إلى ذلك المبحث؛ ففيه الكفاية إن شاء الله تعالى. ولكن يبقى أن نشير إلى فتنتين خطيرتين لم يسبق الحديث عنهما في المبحث السابق:

الأولى: فتنة التحاسد بين أهل العلم:

إن من الفتن التي تمرض القلوب وتلوثها وتمحق بركة العلم وخيره فتنة التحاسد والتنافس بين أهل العلم على الدنيا سواء كان ذلك مالاً أو جاهاً أو رئاسة. ولقد شهد التاريخ صوراً مؤسفة من سقوط بعض العلماء في هذه الفتنة الخطيرة حيث بغى بعضهم على بعض، وسعى بعضهم بالوشاية لدى السلاطين، فألحقوا ببعضهم الأذى والنكال؛ كل ذلك كان بفعل الحسد والحقد الذي يغلي في بعض النفوس المريضة والذي يظهره أهله في صورة الغيرة على دين الله – عز وجل – ودرء الشر والفساد. والله سبحانه أعلم بما في القلوب؛ قال الله – عز وجل – في وصف هذه الآفة التي توجد عند بعض أهل العلم: ﴿**فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ [الجاثية: ١٧]، وعند هذه الآية قال ابن كثير – رحمه الله تعالى –: «أي بغى بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم».

---

(١) انظر ص ١٣٣ وما بعدها.

يقول الغزالي – رحمه الله تعالى –: «اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض... ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد والعابد يحسد العابد دون العالم والتاجر يحسد التاجر، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزار إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة... ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين أما الآخرة فلا ضيق فيها؛ فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم معرفة الله – تعالى – وهو بحر واسع لا ضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى. نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا؛ لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر»(١).

الثاني: فتنة أهل الجاه وأصحاب الرئاسات على أهل العلم:

وهذه الفتنة من أشر الفتن على أهل العلم، وقلما رُئِيَ عالم يدخل على أهل الجاه والكبراء إلا ويظهر عليه آثار هذه الفتنة من حب الدنيا والتوسع فيها ومنافسة أهلها عليها لتحصيل ملذاتها كما قد تظهر عليه آثار المداهنة والنفاق والسكوت عن المنكرات بل تحسينها أحياناً عند أهلها؛ وقد حذرنا الرسول ﷺ من هذه الفتنة بقوله: «من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن.. الحديث»(٢).

ولقد نقلت لنا كتب التراجم والسير أخباراً ومواقف مشرفة لسلفنا

---

(١) تهذيب إحياء علوم الدين. عبد السلام هارون ٢ / ٨٢ – ٨٣.

(٢) أحمد ٢ / ٣٧١، ٤٤٠ وصححه أحمد شاكر (٨٨٢٤).

الصالح يحذرون فيها بمقالهم وفعالهم من هذه الفتنة وخطرها على العلم والعلماء وقول كلمة الحق. وأذكر فيما يلي بعض هذه المواقف المشرفة:

● روى كثير بن يحيى، عن أبيه قال: قدم سليمان بن عبد الملك المدينة، وعُمر بن عبد العزيز عامل عليها، قال: فصلى بالناس الظهر، ثم فتح باب المقصورة، واستند إلى المحراب، واستقبل الناس بوجهه، فنظر إلى صفوان بن سُليم، فقال لعمر: من هذا؟ ما رأيت أحسن سمتاً منه. قال: صفوان، قال: يا غلام! كيس فيه خمس مئة دينار فأتاه به، فقال لخادمه: اذهب بها إلى ذلك القائم، فأتى حتى جلس إلى صفوان وهو يصلي، ثم سلم، فأقبل عليه، فقال: ما حاجتك؟ قال: يقول أمير المؤمنين: استعن بهذه على زمانك وعيالك، فقال صفوان: لستُ الذي أرسلتَ إليه، قال: ألست صفوان بن سليم؟ قال: بلى. قال: فإليك أرسلت، قال: اذهب فاستثبت، فولّى الغلام، وأخذ صفوان نعليه وخرج، فلم يُرَ بها حتى خرج سليمان من المدينة[١].

● قال أبو سليمان الخطابي: بعث بعض العمال إلى أبي عمر[٢] صاحب أبي العباس رسولاً يقول له: أخبرني بمقدار ما يمر لك في النفقة في سنة حتى أجريه لك؟ فقال للرسول: قل له عافاك الله، أنا في جراية من إذا سخط عليَّ لم يسقط جرايتي[٣].

● وعن الأعمش: عن مالك بن الحارث، عن عبد الرحمن بن يزيد، قلنا لعلقمة: لو صليت في المسجد وجلسنا معك فتسأل، قال: أكره أن

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٦٨.
(٢) أبو عمر: محمد بن عبد الواحد الزاهد.
(٣) العزلة للخطابي ص: ٩٥.

يقال: هذا علقمة، قالوا: لو دخلت على الأمراء، قال: أخاف أن ينقصوا مني أكثر مما أنتقص منهم[١].

● وقال سليمان التيمي، قال الأحنف: ثلاث فِيَّ ما أذكرهن إلا لمعتبر: ما أتيت باب السلطان إلا أن أُدعى، ولا دخلت بين اثنين حتى يُدخلاني بينهما، وما أذكر أحداً بعد أن يقوم من عندي إلا بخير[٢].

● وقال عبد الرزاق: سمعت النعمان بن الزبير الصنعاني يحدث أن محمد بن يوسف، أو أيوب بن يحيى بعث إلى طاووس بسبع مئة دينار أو خمس مئة، وقيل للرسول: إن أخذها الشيخ منك، فإن الأمير سيحسن إليك ويكسوك، فقدم بها على طاووس الجند، فأراده على أخذها، فأبى، فغفل طاووس، فرمى بها الرجل في كوة البيت، ثم ذهب وقال لهم: قد أخذها، ثم بلغهم عن طاووس شيء يكرهونه فقال: ابعثوا إليه، فليبعث إلينا بمالنا، فجاءه الرسول، فقال: المال الذي بعث به الأمير إليك، قال: ما قبضت منه شيئاً، فرجع الرسول، وعرفوا أنه صادق، فبعثوا إليه الرجل الأول، فقال: المال الذي جئتك به يا عبد الرحمن، قال: هل قبضت منك شيئاً؟ قال: لا، ثم نظر حيث وضعه، فمد يده فإذا بالصرة قد بنى العنكبوت عليها، فذهب بها إليهم[٣].

● وعن أحمد بن جميل المروزي قال: قيل لعبد الله بن المبارك: إن إسماعيل بن علية قد ولي الصدقات؛ فكتب إليه ابن المبارك:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ /٥٨

(٢) سير أعلام النبلاء ٤ /٩٢

(٣) سير أعلام النبلاء ٥ /٤٠

يا جاعل العلـــم له بازياً — يصطاد أموال المســاكين
احتلـت للدنيا ولذاتهـا — بحيلة تذهب بالديـــن
فصـرت مجنوناً بها بعدما — كنت دواء للمجانــين
أين رواياتك في ســردها — عن ابن عون وابن سيرين؟
أين رواياتك والقول فـي — لزوم أبواب السلاطـين؟
إن قلت: أكرهت فذا باطل — زل حمار العلـم في الطين

فلما قرأ الكتاب بكى واستعفى[١].

● وعن سحنون قال: أكْلٌ بالمسكنة، ولا أكْلٌ بالعلم. محب الدنيا أعمى، لم ينوره العلم. ما أقبح بالعالم أن يأتي الأمراء، والله ما دخلت على السلطان إلا وإذا خرجت حاسبت نفسي، فوجدت عليها الدرك، وأنتم ترون مخالفتي لهواه، وما ألقاه به من الغلظة، والله ما أخذت، ولا لبست لهم ثوباً[٢].

● وأخرج ابن باكويه، عن الفضيل بن عياض، قال: «لو أن أهل العلم أكرموا على أنفسهم وشحوا على دينهم، وأعزوا العلم وصانوه، وأنزلوه حيث أنزله الله، لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس، واشتغلوا بما يعنيهم، وعز الإسلام وأهله، لكنهم استذلوا أنفسهم ولم يبالوا بما نقص من دينهم، إذا سلمت لهم دنياهم، وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا ما في أيديهم، فذلوا وهانوا على الناس»[٣].

● وعن عبيد الله بن محمد القرشي، قال: كنا مع سفيان الثوري

(١) صفة الصفوة ٤ / ١٤٠ (٢) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٦٥
(٣) ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين: ص ٦٥

بمكة، فجاءه كتاب من عياله من الكوفة: بلغت بنا الحاجة أنا نقلي النوى فنأكله، فبكى سفيان. فقال له بعض أصحابه: يا أبا عبد الله! لو مررت إلى السلطان، صرت إلى ما تريد! فقال سفيان: «والله لا أسأل الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها»[(١)].

● وعن أبي حازم أن سليمان بن هشام بن عبد الملك قدم المدينة فأرسل إلى أبي حازم فدخل عليه فقال: فسلمت وأنا متكئ على عصاي فقيل ألا تتكلم!؟ قلت: وما أتكلم به!؟ ليست لي حاجة فأتكلم فيها وإنما جئت لحاجتكم التي أرسلتم إلي فيها، وما كل من يرسل إلي آتيه، ولولا الخوف من شركم ما جئتكم، إني أدركت أهل الدنيا تبعاً لأهل العلم حيث كانوا، يقضي أهل العلم لأهل الدنيا حوائج دنياهم وأخراهم، ولم يستغن أهل الدنيا عن أهل العلم لنصيبهم من العلم ثم حال الزمان فصار أهل العلم تبعاً لأهل الدنيا حيث كانوا، فدخل البلاء على الفريقين جميعاً، ترك أهل الدنيا النصيب الذي كانوا يتمسكون به من العلم حيث رأوا أهل العلم قد جاؤوهم، وضيّع أهل العلم جسيم ما قُسِمَ لهم باتباعهم أهل الدنيا»[(٢)].

● وقال ابن الحاج في «المدخل»: «ينبغي للعالم، بل يتعين عليه أن لا يتردد لأحد من أبناء الدنيا؛ لأن العالم ينبغي أن يكون الناس على بابه، لا عكس الحال أن يكون هو على بابهم؛ ولا حجة له في كونه يخاف من عدو أو حاسد وما أشبههما ممن يخشى أن يشوِّش عليه، أو يرجو أحداً منهم دفع شيء مما يخشاه، أو يرجو أن يكون ذلك شيئاً لقضاء حوائج

---

(١) المصدر السابق ص ٦٣

(٢) المصدر السابق ص:٦٧

المسلمين من جلب مصلحة لهم أو دفع مضرة عنهم؛ فهذا ليس فيه عذر ينفعه.

أما الأول: فلأنه إذا أخذ ذلك بإشراف نفس لم يبارك فيه. وإذا كان خائفاً مما ذكر، فذلك أعظم من إشراف النفس، وقد يسلط عليه من يتردد إليه في مصلحة عقوبة له معجلة.

وأما الثاني: فهو يرتكب أمراً محظوراً محققاً لأجل محذور مظنون توقعه في المستقبل. وقد يكون، وقد لا يكون وهو مطلوب في الوقت بعدم ارتكاب ذلك الفعل المذموم شرعاً، بل الإعانة على قضاء حوائجه وحوائج المسلمين إنما هو بالانقطاع عن أبواب هؤلاء، والتعويل على الله – سبحانه – والرجوع إليه فإنه – سبحانه – هو القاضي للحوائج، والدافع للمخاوف، والمسخر لقلوب الخلق، والمقبل بها على ما شاء، كيف شاء. قال تعالى: ﴿ **لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٣] فذكر سبحانه هذا في معرض الامتنان على نبيه ﷺ.

والعالم إذا كان متبعاً له عليه أفضل الصلاة والسلام سيما في التعويل على ربه سبحانه والسكون إليه دون مخلوقاته فإنه سبحانه يعامله بهذه المعاملة اللطيفة التي عامل بها نبيه ﷺ، ولبركة الاتباع له ﷺ، ويسلم بذلك من التردد على أبواب هؤلاء كالذي يفعله بعض الناس، وهو سم قاتل. ويا ليتهم لو اقتصروا على ما ذكر لا غير. بل يضمون إلى ذلك ما هو أشد وأشنع، وهو أنهم يقولون إن ترددهم إلى أبوابهم من باب التواضع، أو من باب إرشادهم إلى الخير إلى غير ذلك مما يخطر لهم، وهو كثير قد عمت به البلوى، وإذا اعتقدوا ذلك فقد قلَّ الرجاء من توبتهم

ورجوعهم.

وقد نقل بعض علمائنا أن العدل إذا تردد إلى باب القاضي يكون ذلك جرحة في حقه وتُرد به شهادته. فإذا كان هذا في التردد إلى باب القاضي وهو عالم من علماء المسلمين، سالم مجلسه مما يجري من مجالس هؤلاء، فكيف التردد إلى غير القاضي؟ فمن باب أوْلى وأوجب المنع من ذلك»[١].

وهكذا كان خوف السلف – رحمهم الله تعالى – من هذه الفتنة وآثارها. وقد يشكل على هذه المواقف ما نقل عن بعض السلف – رحمهم الله تعالى – من الدخول على أهل السلطان ومناصحتهم، ولكن يدفع هذا الإشكال بأن من فعل ذلك من السلف أو جوَّزه كان مع ولاة العدل أو أنه مع ولاة الجور لكن كان مقيداً بقول كلمة الحق وعدم السكوت على ما يرى من المنكرات أو المداهنة في ذلك، مع الحذر الشديد من الدنيا وأعطياتها من قبل ذوي السلطان، وترك مخالطتهم إلا عند الضرورة.

يقول الإمام ابن عبد البر – رحمه الله تعالى – بعد أن أورد كثيراً من الأحاديث والآثار في النهي عن المجيء إلى السلاطين: «معنى هذا كله في السلطان الجائر الفاسق، فأما العدلُ منهم الفاضلُ فمداخلته ورؤيته وعونه على الصلاح من أفضل أعمال البر، ألا ترى أن عمر بن عبد العزيز إنما كان يصحبه جلة العلماء، مثل عروة بن الزبير وطبقته وابن شهاب وطبقته. وقد كان ابن شهاب يدخل إلى السلطان عبد الملك وبنيه بعده. وكان ممن يدخل إلى السلطان: الشعبي، وقبيصة، وابن ذؤيب، ورجاء بن حيوة

---

(١) المصدر السابق ص٨٤، ٨٥.

الكندي، وأبو المقدام وكان فاضلاً عالماً، والحسن، وأبو الزناد، ومالك بن أنس، والأوزاعي، والشافعي، وجماعة يطول ذكرهم.

وإذا حضر العالم عند السلطان رغباً فيما فيه الحاجة، وقال خيراً، ونطق بعلم كان حسناً وكان في ذلك رضوان الله إلى يوم يلقاه، ولكنها مجالسٌ: الفتنةُ فيها أغلب، والسلامة منها ترك ما فيها»[١].

* * *

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/٢٢٧.

هـ ـ الجدال والمراء والخصومات

تعد هذه الصفات آفة خطيرة من آفات الافتتان بالعلم وهي ممقوتة ولو كان المتصف بها محقاً فكيف إذا كانت في باطل واتباع هوى؟

قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥] وقال سبحانه للمؤمنين: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٦] فإذا كان جدال الرسول ﷺ والمؤمنين معه كله للحق وبالحق ومع ذلك لم يطلق لهم جدال مخالفيهم حتى قيد بالأحسن، فكيف إذا كان الجدال على باطل وتعصب وأهواء؟

والأحاديث التي شددت في النهي عن هذه الآفات كثيرة أقتصر منها على ما يلي:

● عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك الكذب وهو باطل بني له قصر في الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها، ومن حسن خلقه بني له في أعلاها»(١).

● عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: كنا جلوساً عند باب النبي ﷺ نتذاكر؛ ينزع هذا بآية، وينزع هذا بآية، فخرج علينا رسول الله

---

(١) الترمذي في البر والصلة (١٩٩٣)، ابن ماجه في المقدمة (٥١)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٣٣).

ﷺ كأنما يفقأ في وجهه حب الرمان فقال: «يا هؤلاء بهذا بُعثتم أم بهذا أمرتم؟ لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»(١).

● وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «المراء في القرآن كفر»(٢).

● وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»(٣) وهو المخاصم القوي بالباطل.

● وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل»(٤) ثم قرأ: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً**﴾ [الزخرف: ٥٨] والفتن والآثار السيئة التي تنشأ من الجدال والمراء متنوعة من أهمها:

١ ـ دخول الهوى والتعصب للباطل ورد الحق. ومعلوم ما في هذه الصفات من الآثام والمقت عند الله – عز وجل – وعند الناس.

٣ ـ قسوة القلوب والانشغال بالجدل عن العمل وما ينفع في الآخرة.

٤ ـ فرح الشيطان بذلك ودخوله من خلال هذه الفتنة للتحريش والتفريق بين المسلمين.

٥ ـ نشوء كثير من البدع والضلالات.

---

(١) الطبراني في الكبير: (٥٤٤٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٥).

(٢) أبو داود: (٤٦٠٣) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٨)

(٣) البخاري (٤٥٣٣)، مسلم (٢٦٦٨).

(٤) الترمذي (٣٢٥٠) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٣٦)

٦ ـ الجور والبغي، والكبر والنظر إلى النفس بالإعجاب وأنها فوق الأخطاء.

والجدال والمراء مذمومان بعامة ولكنهما يقبحان وتكبر فتنتهما إذا كانا من عامة الناس وجهلتهم، أو من طويلب علم لم يتمكن بعد من العلم ولم يتمكن الإيمان والتقوى من قلبه؛ فيبدأ حياته بالجدل والمراء وهو مزجىٰ البضاعة في العلم والتقوى؛ وهذا من قلة توفيق الحدث الناشئ، ومن علامات توفيق الله – عز وجل – لعبده المبتدئ في العلم والتربية أن يجنبه الجدل في هذه الفترة من عمره حتى إذا تمكن العلم والدين من نفسه واضطر إلى الجدال في أمر مًّا فإن الفتنة تكون أقل ضرراً لكسرها بسلطان العلم والدين.

السلف وموقفهم من الجدال والمراء:

كان السلف – رحمهم الله تعالى – يكرهون الجدال ويحذرون منه وبخاصة مع أهل البدع والضلال ومن ظهرت عليه علامات الهوى والتعصب. أما الأخذ والعطاء والمناقشة والمذاكرة فيما بينهم فكانت تتم في جو من المحبة والود والإخاء مهما اختلفوا بعيدين في ذلك كله عن الجدال والمراء والخصومات. وفيما يلي بعض النقولات عنهم رحمهم الله تعالى:

قال عمر – رضي الله عنه – لزياد بن جرير: (أتدري ما يهدم الإسلام؟ زلة عالم، وجدال منافق، وأئمة مضلون)[1].

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ١ /٥٩٩ ت: العزازي.

وعن علي رضي الله عنه قال: إياكم والخصومة فإنها تمحق الدين[١].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم بما هلك من كان قبلهم: بالمراء والخصومات[٢].

وقال عمر بن عبد العزيز – رحمه الله تعالى –: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر الشك ـ أو قال ـ يكثر التحول[٣].

وعن جعفر بن محمد – رحمه الله تعالى – قال: إياكم والخصومات في الدين فإنها تشغل القلب وتورث النفاق[٤].

وعن مسلم بن يسار أنه كان يقول: إياكم والمراء؛ فإنها ساعة جهل العالم وبها يبتغي الشيطان زلته[٥].

وعن الأوزاعي – رحمه الله تعالى – قال: إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل[٦].

وعن الحسن قال: ما رأينا فقيهاً يماري. وعنه أيضاً قال: المؤمن يداري ولا يماري[٧].

---

(١) شرح أصول السنة للالكائي ١/١٤٣.
(٢) المصدر السابق ١/١٤٣.
(٣) المصدر السابق ١/١٤٤.
(٤) المصدر السابق ١/١٤٥.
(٥) أخلاق العلماء للآجري ص: ٥٧.
(٦) السنة للالكائي ١/١٦٤.
(٧) أخلاق العلماء للآجري ص ٥٨.

وقال النخعي في قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ [المائدة: ٦٤]. قال: الجدال والخصومات في الدين[١].

وقال معن بن عيسى: انصرف مالك يوماً إلى المسجد وهو متكئ على يدي، فلحقه رجل يقال له أبو الجديرة يتهم بالإرجاء، فقال: يا أبا عبد الله! اسمع مني شيئاً أكلمك به وأحاجك وأخبرك برأيي. فقال له: احذر أن أشهد عليك. قال: والله ما أريد إلا الحق، اسمع مني، فإن كان صواباً؛ فقل به أو فتكلم. قال: فإن غلبتني؟ قال: اتبعني. قال: فإن غلبتك؟ قال: اتبعتك. قال: فإن جاء رجل فكلمناه فغلبنا؟ قال: اتبعناه. فقال له مالك: يا عبد الله! بعث الله محمداً بدين واحد وأراك تنتقل[٢].ا.هـ.

وقد يضطر طالب العلم في بعض الأحيان إلى الجدال لإحقاق حق أو إبطال باطل فهو بذلك محمود على فعله لكن ينبغي له التحلي بالآداب الشرعية أثناء الجدال حتى لا يقع المجادل في آفات وفتنة الجدال والمراء ويتحول النقاش إلى خصومات وانتصار للنفس وظلم وعدوان وشحناء.

وعن هذه الآداب يتحدث الخطيب البغدادي – رحمه الله تعالى – فيقول:

(ينبغي للمجادل أن يقدم على جداله تقوى الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦] ولقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] ويخلص النية في

---

(١) الاعتصام للشاطبي ١/٥٨٦

(٢) الاعتصام للشاطبي ١/٥٨٨

جداله بأن يبتغي به وجه الله – تعالى –: وليكن قصده في نظره إيضاح الحق وتثبيته دون المغالبة للخصم. قال الشافعي رحمه الله: ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان وتكون عليه رعاية من الله وحفظ وما كلمت أحداً قط إلا لم أبال بين الله الحق على لساني أو لسانه. ويبني أمره على النصيحة لدين الله والذي يجادله. وقد كان الشافعي – رحمه الله – يحلف ويقول: ما ناظرت أحداً إلا على النصيحة وقال أيضاً: ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطئ. ويستشعر في مجلسه الوقار ويستعمل الهدي وحسن السمت وطول الصمت إلا عند الحاجة إلى الكلام وإن بدرت من خصمه في جداله كلمة كرهها أغضى عليها ولم يجازه بمثلها فقد قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]. وينبغي أن لا يتكلم بحضرة من يشهد لخصمه بالزور أو عند من إذا وضحت لديه الحجة دفنها ولم يتمكن من إقامتها فإنه لا يقدر على نصرة الحق إلا مع الإنصاف وترك التعنت والإجحاف ويكون كلامه يسيراً جامعاً بليغاً فإن التحفظ من الزلل مع الإقلال دون الإكثار وفي الإكثار أيضاً ما يخفي الفائدة ويضيع المقصود ويورث الحاضرين الملل، ولا يرفع صوته في كلامه عالياً فيشق حلقه ويحمي صدره ويقطعه؛ وذلك من دواعي الغضب. ولا يخفي صوته إخفاءً لا يسمعه الحاضرون فلا يفيد شيئاً بل يكون مقتصداً بين ذلك ويجب عليه الإصلاح من منطقه وتجنب اللحن في كلامه والإفصاح عن بيانه؛ فإن ذلك عون له في مناظرته. وينبغي له أن يواظب على مطالعة كتبه عند وحدته، ورياضة نفسه في خلوته بذكر السؤال والجواب وحكاية الخطأ والصواب لئلا ينحصر في مجالس النظر إذا رمقته أبصار من حضر. ولا يكون رخي البال قصير الهمة؛ فإن مدارك

العلم صعبة لا تُنال إلا بالجهد والاجتهاد ولا يستحقر خصمه لصغره فيسامحه في نظره بل يكون على نهج واحد في الاستيفاء والاستقصاء؛ لأن ترك التحرز والاستظهار يؤدي إلى الضعف والانقطاع. وينبغي أن لا يكون معجباً بكلامه مفتوناً بجداله؛ فإن الإعجاب ضد الصواب ومنه تقع المعصية وهو رأس كل بلية. وإذا وقع له شيء في أول كلام الخصم فلا يعجل بالحكم به فربما كان في آخره ما يبين أن الغرض بخلاف الواقع له فينبغي أن يتثبت إلى أن ينقضي الكلام. ويكون نطقه بعلم وإنصاته بحلم ولا يعجل إلى جواب، ولا يهجم على سؤال ويحفظ لسانه من إطلاقه بما لا يعلم ومن مناظرته فيما لا يفهمه فإنه ربما أخرجه ذلك إلى الخجل والانقطاع فكان فيه نقصه وسقوط منزلته عند من كان ينظر إليه بعين العلم والفضل)(١).ا.هـ.

وبقيت كلمات أخيرة أوجهها إلى نفسي وإخواني الدعاة الموجهين وطلاب العلم بمناسبة الحديث عن فتنة الجدال وخطره ألا وهي:

● الحذرَ الحذرَ من فتنة الجدال والمراء وما يجران إليه من الخصومة في الدين والشحناء والفرقة والأهواء، والعجب والخيلاء، وكفى بهذه الصفات الذميمة فتنة وبلاء في دين المسلم.

● عند الاضطرار للجدال فليكن بالتي هي أحسن متحلياً بالآداب الشرعية، بعيداً عن الظلم والمفاخرة والخصومة، مقصوداً فيه وجه الله - عز وجل -.

● الحذر من الاستجابة للمجادلين والمولعين بالخلاف والخصومات

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٢٥ - ٣١) بتصرف واختصار شديد.

وذلك بترك جدالهم وعدم الاكتراث بما يقولونه ويرومونه، وأن نتذكر بأن العمر قصير والأوقات تتصرم ولا تعود، وليس هناك عمر يتسع لأن يضيع في القيل والقال وكثرة السؤال والرد على أهل الخصومة والجدال، ثم إن هنا من الأعمال الصالحة والعبادات والدعوة وتحصيل العلم ما لو شغلنا النفوس بها لانقضت الأعمار وما أوفيناها حقها. والجدال والمراء والخلاف كل ذلك مما يشغل عن هذه العلوم والأعمال النافعة.

● ويكبر إثم الجدال ووزره عند أولئك الذين يتصدرون للدعوة والتدريس والتربية والتوجيه، ذلك لانعكاس شخصية الموجه والمربي على سلوك وأخلاق الشباب الذين يوجههم ويربيهم، فهو قدوتهم في علمه وعمله. فليتق الله أولئك الموجهون والمعلمون، وليجنبوا طلابهم فتنة الجدال بأقوالهم وأحوالهم؛ لأن الناشئ في العلم والتربية تكون فتنته بالجدل قبل تمكُّن العلم والإيمان منه عظيمة وخطيرة وقد لا يستطيع الانفكاك من ذلك بقية عمره.

ومن علامة توفيق الله – عز وجل – للطالب الناشئ أن يهيئ له مربياً يجمع بين العلم والتقوى ويكره الجدال والمراء والخصومات.

* * *

و ـ التعصب لآراء الرجال والتقليد الأعمى

وهذه الفتنة مما ابتلي بها المسلمون في تاريخهم الطويل وخاصة بعد عهد الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعين لهم بإحسان، ولو أن الذي وقع فيها من عامة الناس لهان الخطب، ولكن بعض طلاب العلم والعلماء المتعصبين لمذاهبهم وشيوخهم قد وقعوا في هذه الفتنة وقلدهم فيها الجهلة من الناس، بل إن المتعصبين من أهل العلم هم الذين كرسوا التقليد الأعمى عند العامة بأقوالهم وأفعالهم وعدولهم عن الدليل الواضح من الكتاب والسنة إلى آراء الرجال وتحسيناتهم، مع أن الأئمة الأعلام المتبوعين – رحمهم الله تعالى – كانوا يشددون في اتباع الدليل من الكتاب والسنة، وينهون أتباعهم عن تقليدهم دون معرفة للدليل؛ وصرحوا أن مذهبهم هو القرآن وما صح من السنة الشريفة.

(فهذا الإمام مالك – رحمه الله تعالى – يقول: ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ، وقال: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب في رأيي؛ فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه.

- وهذا الإمام أبو حنيفة – رحمه الله تعالى – يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي. وقال: إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله – تعالى – وخبر رسول الله ﷺ فاتركوا قولي.

- وقال الإمام الشافعي – رحمه الله تعالى –: (إذا وجدتم في كتابي

خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلت، وقال: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وقال: كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلتُ فأنا راجع عنه في حياتي وبعد موتي.

وقال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى -: لا تقلدوني، ولا تقلدوا مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذوا من حيث أخذوا، وقال: من رد حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة)(١).

ولا يُفهم من ذم التقليد هنا سد بابه تماماً(٢)، وإنما المقصود الحذر من فتنة التعصب بالهوى لآراء الرجال وتقديمها على الكتاب والسنة الصحيحة، والنظر إلى الأئمة بأنهم معصومون من الخطأ وأن كل ما خالف أقوالهم فهو مردود. إن هذا الصنيع هو الفتنة بعينها وهي التي حذرنا الله - عز وجل - منها بقوله - تعالى -: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٣]. وقد بلغت فتنة التقليد والتعصب بالهوى حداً من الخطورة أن يقول أحد أهل العلم المقلدين: إذا خالف الدليل من الكتاب والسنة الصحيحة قول الإمام فلان فلا بد من تأويل الدليل حتى يتفق مع قول الإمام ورأيه.

وفي وصف هذه الفتنة وأهلها يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -:

---

(١) انظر صفة صلاة النبي ﷺ للشيخ الألباني ص ١٤-١٩

(٢) البحث في مسألة التقليد ومتى يجوز ومتى لا يجوز ليس هذا موضوعنا وإنما المقصود التحذير من التعصب الأعمى للرجال أما لو اتبع العامي أحد العلماء ثقة في دينه واتباعه للدليل فهذا أمر سائغ لا يستغني عنه العامة بل طالب العلم أحياناً.

(ثم خلف من بعدهم ـ أي بعد الصحابة والتابعين وتابعيهم ـ خلوف فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون، وتقطعوا أمرهم بينهم زبراً، وكل إلى ربهم راجعون. جعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون ورءوس أموالهم التي بها يتجرون وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليد وقالوا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣] والفريقان بمعزل عما ينبغي اتباعه من الصواب ولسان الحق يتلو عليهم: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾.

[النساء: ١٢٣]

قال الشافعي – قدس الله تعالى روحه –: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله؛ وهذا كما قال أبو عمر – رحمه الله تعالى –: فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدليل وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد.

فقد تضمن هذان الإجماعان إخراج المتعصب بالهوى والمقلد الأعمى عن زمرة العلماء وسقوطهما باستكمال من فوقهما الفروض من ورثة الأنبياء؛ فإن العلماء هم ورثة الأنبياء؛ فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

وكيف يكون من ورثة الرسول ﷺ من يجهد ويكدح في رد ما جاء به إلى قول مقلده ومتبوعه؟ ويمضي ساعات عمره في التعصب والهوى ولا يشعر بتضييعه؟ تالله إنها فتنة عمت فأعمت، ورمت القلوب فأصمت، ربا عليه الصغير وهرم عليها الكبير، واتخذ لأجلها القرآن

مهجوراً وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطوراً.

ولما عمت بها البلية وعظمت بسببها الرزية بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها ولا يعدون العلم إلا إياها فطالب الحق من مظانه لديهم مفتون، ومؤثره على ما سواه عندهم مغبون نصبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائل وبغوا له الغوائل ورموه عن قوس الجهل والعناد وقالوا لإخوانهم: إنا نخاف أن يبدل دينكم أو يظهر في الأرض الفساد.

فحقيق بمن لنفسه عنده قدر وقيمة ألا يلتفت إلى هؤلاء ولا يرضى لها بما لديهم، وإذا رفع له علم السنة النبوية شمر إليه ولم يحبس نفسه عليهم، فما هي إلا ساعة حتى يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، وتتساوى أقدام الخلائق في القيام لله، وينظر كل عبد ما قدمت يداه، ويقع التمييز بين المحقين والمبطلين، ويعلم المعرضون عن كتاب ربهم وسنة نبيهم أنهم كانوا كاذبين)[١].ا.هـ.

ويقول الذهبي – رحمه الله تعالى –: (فلا تعتقد أن مذهبك أفضل المذاهب وأحبها إلى الله – تعالى – فإنك لا دليل لك على ذلك، ولا لمخالفك أيضاً بل الأئمة – رضي الله عنهم – على خير كثير، ولهم في صوابهم أجران على كل مسألة وفي خطئهم أجر على كل مسألة)[٢].ا.هـ.

ومن أخطر ما في فتنة التقليد الأعمى والتعصب لآراء الرجال ما يلي:

١ ـ الإثم العظيم الذي سيتحمله هذا المفتون في رده للشريعة وتقديم

---

(١) إعلام الموقعين ١/٣٣ – ٣٥.

(٢) زغل العلم ص: ٣٥.

آراء الرجال عليها.

٢ ـ تضليل الناس وبث التعصب الأعمى بينهم خاصة إذا رأوا علماءهم ومتبوعيهم هم بدورهم يتعصبون.

٣ ـ الفساد العظيم الذي ينشأ في الأمة من إبعادها عن الدليل وربطها بآراء الرجال المعرضة للخطأ والصواب

٤ ـ التحزب والتفرق في صفوف المسلمين من جراء التعصب لأقوال الرجال ومواقفهم حتى أصبحوا شيعاً وأحزاباً.

* * *

ز ـ قلة المعرفة بأحوال الناس وواقعهم والابتعاد عن قيادتهم وتوجيههم

العلماء الربانيون يعيشون هموم الأمة، ويعرفون أحوال الناس وواقعهم؛ وهم الذين تفزع اليهم الأمة بعد الله - عز وجل - في ملماتها ونوازلها، فتجد عندهم القيادة الرشيدة والتوجيه السديد والمأمن من الشرور والفتن؛ وإذا احتاج الأمر إلى المقارعة والجهاد فهم الذين يقودون الناس ويشعلون فيهم الحماس ويحرضونهم على ذلك.

والتاريخ مليء بذكر الحوادث والنوازل التي قاد العلماء فيها أمتهم ووجد الناس عندهم الجواب المطمئن لكل نازلة؛ إذ كشفوا الحيرة والاضطراب بأقوالهم السديدة التي انطلقت من فهم للشريعة ومقاصدها وفهم لواقع الناس وأحوال الأمة. كما شاركوا أمتهم بالنضال والنزال وقادوها إلى بر الأمان. ولا يخفى على المتأمل لحياة السلف هذه الأحوال والمواقف المشرفة لهم. فهذا إمام أهل السنة أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - وكيف حمى الله به الدين في وقت عصيب قلّ فيه النصير وقلّ فيه المتكلم بالحق فثبته الله - عز وجل - وقاد الأمة في مواجهة فتنة الاعتزال والقول بخلق القرآن حتى انتصر الحق وزهق الباطل.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - وكيف كشف الحيرة عن الناس أيام التتار وشرح الله به صدور الناس لقتال التتار فحمسهم وحرضهم على القتال بقوله وفعاله، وكان من نتيجة ذلك أن رد الله - عز

وجل – كيد الكفار في نحورهم وأعز الله دينه وعباده المؤمنين.

وكذلك الحال في الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله تعالى – وكيف أنقذ الله به الأمة من الظلمات إلى النور ومن الشرك إلى التوحيد، وجاهد مع الإمام محمد بن سعود وأولاده – رحمهم الله تعالى – حتى مكن الله تعالى لهم في الأرض. وهكذا كان دور العلماء العاملين المجاهدين في تاريخ الإسلام الطويل. وليس هذا بمستغرب على العلماء الربانيين الصدّيقين؛ فهم ورثة الأنبياء، وهم صمام الأمان لأمتهم، وهم مرجعها في سلمها وحربها، وفي كل شئونها. وكلما كان العالِمُ يعيش هموم أمته ويعرف أحوالها وواقعها وما يكاد لها ويُخطط من قبل أعدائها كلما كان ذلك حاجزاً لها من الانحراف والفتنة والمهانة والذلة، والعكس من ذلك؛ فما من فترة من فترات المسلمين تمر عليهم، وتكون الأمة في واد وأهل العلم والدين في واد آخر لا يعلمون إلا القليل عن الأمة وهمومها وواقعها، إلا كان من جراء ذلك فتنة وفساد كبير على الأمة بأسرها علماء وعامة، حكاماً ومحكومين.

وهل هناك فتنة على الناس أشد من أن يترك العلماء قيادة الأمة ورعايتها ليتولى أمرها وقيادتها أهل الفساد والنفاق!؟ إن هذا هو الحاصل اليوم في أكثر بلدان المسلمين. إن بُعد أكثر العلماء عن واقع الأمة ومعرفة أحوالها واستبانة سبيل المجرمين الذين يكيدون لها هو من بين الأسباب التي أدت إلى هذا الواقع المرير الذي تعيشه الأمة الإسلامية في أكثر البقاع اليوم في عقائدها وشرائعها وأخلاقها.

يتحدث الشيخ علي بن بخيت الزهراني – حفظه الله – عن مكانة

العلماء في الأمة والفتنة التي تنشأ من ابتعادهم عن قيادتها وتوجيهها فيقول:

(للعلماء مكانة بارزة في الإسلام لا تعدلها مكانة أخرى؛ إذ هم حملة الشريعة، وورثة الأنبياء، والمؤتمنون على الرسالة، والقائمون بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقدوة الحسنة للناس في تطبيق تعاليم الإسلام في الواقع.

وتختلف مهمة العلماء في الإسلام عن مهمة رجال الدين في النصرانية مثلاً، ويأتي ذلك الاختلاف من طبيعة الديانتين وتباين تعاليمهما تبايناً عظيماً؛ إذ تنحصر مهمة العلماء في الديانة النصرانية فيما له علاقة بالتعاليم والطقوس المنسوبة إلى المسيح عليه السلام وحوارييه، تلك التعاليم التي تفصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة فصلاً يكاد يكون كاملاً؛ حيث تدعو إلى إهمال الحياة الدنيا، والاستهانة بجميع أنشطة الحياة، والإقبال الكلي على الآخرة، وينسبون إلى المسيح - عليه السلام - أقوالاً مشكوكاً في صحتها مثل: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وغير ذلك من الوصايا والتعاليم التي تدعو إلى ترك الحياة الدنيا وحرمان النفس وتعذيبها بتحريم ما أحل الله لها.

لذا أطلق على هؤلاء العلماء اسم: (رجال الدين) وهو اسم صحيح ومطابق لحال أولئك العلماء الذين حصروا نشاطهم وحياتهم في خدمة الدين النصراني وطقوسه، تاركين مسرح الحياة وما يدور بداخله لغيرهم من الناس؛ لأن ذلك على مقتضى تعاليمهم ليس من شأنهم أن يعملوا فيه.

ولكن الأمر يختلف تماماً بالنسبة للدين الإسلامي؛ فليس هناك رجل دين بالمعنى النصراني؛ بل يوجد العلماء الذين يتمثلون الإسلام في واقعهم، علماً وعملاً، عبادة وجهاداً، ديناً ودولة، عقيدة وشريعة، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

وكم تكون العواقب وخيمة حين ينسى العلماء مهمتهم الكبرى وينصرفون إلى حلقات العلم والدرس ظانين أنهم بذلك العلم قد أدوا كل ما عليهم من مهمة، وأخلوا أنفسهم من المسؤولية.

وكم يكون التقصير عظيماً حين ينزوي العلماء بعيداً عن الأحداث، بل حين يرى بعضهم أو كثير منهم أن النزول إلى الساحة والمشاركة في الأحداث ليس من شأن العلماء ولا من مهماتهم.

ولا نود أن نستطرد في الحديث قبل أن نطالع أحوال العلماء في الكتب التي ندرسها لنرى أن الضعف قد تطرق إليهم ولم يسلم الكثيرون منهم من وطأة الانحرافات التي طرأت على الأمة الإسلامية.

وفي تلك الفترة الحالكة كثر الانزواء من جانب العلماء والابتعاد عن المشاركة الفعالة في الأحداث والوقائع المتتابعة التي لم ينج منها أكثر البلدان، وما من شك أنه كان للصوفية دور كبير في ازدياد حجم ذلك الانزواء، الذي يتفق تماماً مع ما تدعو إليه من تجرد وزهد منحرف، فكيف إذا كان كثير من العلماء في ذلك الزمن قد غرقوا في متاهات التصوف وعقائده الفارغة؟

ومع أن بعض العلماء من المتصوفة وغيرهم كان لهم مشاركة أو دور في بعض الأحداث إلا أن ذلك لا يكاد يغير الحالة العامة التي كان عليها

العلماء من إحجام وتباعد عن الخوض في الأحداث والوقائع، وإن كانت هناك مشاركة فلم تكن على مستوى الأحداث.

ولعل أصدق مثال على تجافي العلماء عن الأحداث السياسية، ما يعبر عنه الشيخ «محمد السنوسي» (المتوفى سنة ١٣١٨هـ)، في رسالة منه إلى وزير الدولة التونسية لما منع من الهجرة إلى خارج تونس حيث كتب في رسالته: «ليعلم سيدي أني رجل بعيد عن معنى السياسة في نازلة الحال بالنظر لذاتي.

أما بالنظر لذاتي فغير خفي عن جنابكم أني من خَدَمَةِ العلم الشريف، وغاية شغلي هو تدريس التوحيد والفقه والعربية بجامع الزيتونة كل يوم تطوعاً لله، وقد قال «ابن خلدون»: «إن أهل العلم أبعد الناس عن السياسة..». فهذا مثال واضح لعالم من علماء ذلك الزمان يقر على نفسه بأنه بعيد عن السياسة وأنها ليست تعنيه؛ لأنه مشتغل بالعلم.

وأما الشيخ «عبد الرحمن الشربيني» شيخ الجامع الأزهر فيقول في لقاء مع جريدة (الجوائب المصرية) أجرته معه في محرم عام ١٣٢٣هـ، حين احتدم النقاش والنزاع حول ما سمي بإصلاح الأزهر: «وأما الخدمة التي قام بها الأزهر – ولا يزال يؤديها له – فهي حفظ الدين لا غير، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به، ولا ينبغي له!!».

ثم يقول: «وقد رأيت الكثيرين من إخواني ـ خَدَمَة العلم ـ في منصب المشيخية فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة!!، أوشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة، كانوا ينقطعون لخدمة العلم

ويجلسون للتدريس كسائر العلماء لا يميزهم إلا فضلهم الباهر، وذكرهم العاطر».

ويقول أيضاً: «حتى إن من العلماء من ينزل وهو في موقف الخدمة للعلم الشريف إلى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرءوها أو مجلة فلان يتصفحوها».

وقد انتقد شيخ الأزهر عزوف العلماء في الأزهر عن مطالعة الجرائد والمجلات، وهو الشيخ «محمد الأحمدي الظواهري» (المتوفى سنة ١٣٦٣هـ)، وكان ذلك قبل أن يلي مشيخة الأزهر، وسيأتي مزيد من التوضيح والبيان لهذه القضية الخطرة في ثنايا الفصل.

ويقول الشيخ «مصطفى صبري»: «والذين جردوا الدين في ديارنا عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين؛ بحجة أنه لا ينبغي لهم وينقص من كرامتهم، ومرادهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة، فيقبلون أيديهم، ويخيلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم، ثم يفعلون ما يشاءون بدين الناس ودنياهم، محررين عن احتمال أن يجيء من العلماء أمر بمعروف أو نهي عن منكر إلا ما يعد من فضول اللسان، أو ما يكمن في القلب، وذلك أضعف الإيمان»[١]. ا.هـ.

وحين يبتعد العلماء عن الأمة وقضاياها الكبار ونوازلها العظام فإنهم في أغلب الأحيان يسلمونها إلى فئتين من الناس: إحداهما: توجه العامة،

---

(١) عن كتاب الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ص (٥٩٣ - ٥٩٩) (باختصار).

والأخرى: توهج شباب الدعوة والصحوة.

فالفئة الأولى: هي فئة المفسدين من المنافقين الذين يفسدون عقيدة الأمة وأخلاقها ويربطونها بأعدائها، ويزينون لها التبعية للغرب أو الشرق مجندين في ذلك وسائل الإعلام المختلفة التي تمكر بالناس بالليل والنهار، كل ذلك في غيبة الرعاة الربانيين من العلماء والدعاة الصادقين؛ مما ترك الأمة كالشياه المطيرة لترعاها الذئاب الضارية، وكفى بذلك فتنة للساكتين من أهل العلم من وزر السكوت وإسلام الأمة لأعدائها. وكفى بذلك فتنة للناس في عقيدتهم وأخلاقهم وأموالهم عندما يتولى توجيههم في ذلك المفسدون في الأرض.

والفئة الثانية: فئة المتسرعين من بعض الدعاة الذين لم يكن لهم حظ من العلم والفقه، وتصدروا في بعض البلدان لقيادة الشباب في الدعوة إلى الله - عز وجل - فوجدوا أنفسهم بمنأى عن أهل العلم، وجدَّت في واقع الدعوة والأمة قضايا كبيرة لا يتصدى لها إلا أهل العلم المجتهدون فاقتحموا هذه النوازل وتجرأوا على الإفتاء فيها؛ فكان من جراء ذلك فتنة لهم ولمن تبعهم؛ نظراً لسيطرة العواطف والحماس عليهم وليس العلم والفقه[1].

وإن كلا الفئتين على ما بينهما من فرق في النوايا والمنطلقات فإنهما يشتركان في كونهما يجران المفاسد على الأمة؛ سواء بالتميع في أخذ الإسلام والتحلل من أحكامه كما هو الشأن في مقاصد الفئة الأولى، أو

---

(١) ولا يعني هذا أن كل المتصدرين للدعوة اليوم كذلك - معاذ الله!! - فلقد رأينا في بعض بلدان المسلمين من جمع بين الدعوة والعلم والحكمة، وظهر أثرهم في استقامة الدعوة وشبابها.

في التسرع والانطلاق في اتخاذ مواقف دعوية وجهادية دون مراعاة للضوابط الشرعية كما هو شأن الفئة الثانية، وكما أن كلتا الفئتين لا تسلمان من إثم هذه المفاسد كل بحسبه، فإن من سكت من العلماء المجتهدين يشتركون في إثم هذه الفتن وذلك لبعدهم عن واقع أمتهم وما تحتاج إليه من معرفة الحق في نوازلها وقضاياها الكبار، التي لم تجد الأمة أمامها إلا هاتين الفئتين، فأسلمت لهما القياد. والله المستعان.

وتأكيداً لخطورة هذه الأمور، وتصويراً لواقع الأمة وما تحتاجه من علمائها، أسوق بعض الأمثلة من القضايا والنوازل التي تتوق الأمة وتهفو إلى سماع كلمة العلماء الربانيين فيها ومعرفة المواقف العملية إزاءها:

● كثر الحديث في السنوات الأخيرة عما يسمى بالنظام العالمي الجديد والشرعية الدولية، ولا يخفى على المسلم الواعي بحقيقة دينه وحقيقة أعدائه ما في هذا النظام من رفض لأحكام الإسلام الدولية، وتعطيل ذروة سنامه، ذلك أن الواضعين لهذا النظام والمطالبين بالتزامه من جميع دول العالم يقصدون به ترك الدين جانباً وعدم اعتباره في أي موقف دولي، وأن يُعَطَّلَ الجهاد وتحترم حدود الغير بما في ذلك حدود اليهود الغاصبين في فلسطين، وأن يتحاكم الجميع إلى شريعة هذا النظام وليس إلى شرع الله – عز وجل – وأحكامه؛ وهذا أخطر ما في هذا النظام؛ لأن الرضى به إنما هو تنكر للإسلام ورفض لأحكامه التي تتضاد مع هذا النظام وتأباه. فأين علماء الإسلام من النصح للأمة وبيان كفريات هذا النظام ومطالبة الأمة برفضه والانقياد له؟ ولا يكفي في إنكار هذا النظام إفتاء السائلين عنه، أو إنكاره في حلقات العلم الخاصة. بل إن هذا النظام الطاغوتي من الخطورة بحيث يتطلب قومة لله – عز وجل – صادقة من أهل العلم يعلنون فيها

رفضهم لنظام الطاغوت؛ بصورة جماعية تسمعه الأمة الإسلامية في كل مكان حتى لا تخدع من قِبَلِ أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج.

● ومن القضايا التي تنتظر الأمة موقفاً صريحاً من العلماء فيها قضية السلام الدائم مع اليهود وإقرارهم على احتلالهم وتطبيع العلاقات معهم. فإلى هذا الوقت لم نسمع حول هذه الفتنة إلا مواقف فردية غير معلنة ولا تأتي إلا عند السؤال والاستفتاء، وإنما الذي تسمعه الأمة وتُرَوَّض على قبوله هو مكر الليل والنهار من أعدائها ومن بني جلدتها والذي يزين هذا الاستسلام، ويلبِّس ويغالط في طرحه ومناقشته.

فأين موقف العلماء وكلمتهم المعلنة للأمة حول هذا الاستسلام المهين؟ وما حكم إقرار اليهود في مقدسات المسلمين؟ وما حكم السلام الدائم معهم وعقد المعاهدات الدائمة على وضع أوزار الحرب معهم واحترام حدودهم وفتح بلدان المسلمين لاستثماراتهم الاقتصادية، وثقافاتهم الإلحادية، وسلوكياتهم المنحرفة؟

● كما تحرص الأمة على سماع كلمة أهل العلم في قضايا المسلمين العالمية وما يواجهون في بلدانهم من محن وبلاء من أعدائهم الكفرة. ولو أن علماء الأمة كانت لهم مواقف صريحة معلنة من محن المسلمين المختلفة يعلنونها للعالم ويطالبون أعداءهم الكفرة برفع الأذى والنكال، لكان لذلك ـ والعلم عند الله عز وجل ـ أثر كبير على معنويات المسلمين من جهة، كما أنها تشكل ضغطاً على أعدائهم للتخفيف من أذاهم على المسلمين، ومن أهم هذه القضايا محنة المسلمين في كشمير المحتلة، وفي فلسطين، وفي الفلبين وبورما والبوسنة وغيرها من بلدان المسلمين التي

يُضطهد فيها الدعاة والمصلحون.

● كما كثر الحديث في الآونة الأخيرة عما يسمى بـ (الإرهاب الدولي) والمقصود بالدرجة الأولى منه المسلمون ودعاتهم ومجاهدوهم؛ حيث حصل خلط عجيب بين ما تقوم به بعض الفئات المتسرعة تحت ضغط الواقع في بعض البلدان دون مراعاة للمفاسد المترتبة على فعلهم - وهو اجتهاد خاطئ ومردود - وبين السواد الأعظم من دعاة المسلمين وموجهيهم ممن يرفضون هذه التصرفات، ولكن أعداء الملة لا يفرقون بين هذا وهذا ـ مع علمهم بذلك ـ لأن الخطر عندهم يكمن في الإسلام نفسه ومن يدعو إليه.

وقد قامت وسائل الإعلام في أكثر بلدان المسلمين بتأييد هذه النظرة وترديدها حتى تأثر بذلك فئام من الناس. فما أحوج الأمة إلى سماع كلمة أهل العلم في هذه القضية، ما أحوج الأمة إلى أن تسمع دفاع العلماء عن الإسلام ودعاته المضطهدين وأن لا يسلموهم للكفرة وأتباعهم يشوهون صورة الدعاة إلى الله - عز وجل - وقصدهم من ذلك كله الإسلام والقضاء عليه. ما أحوج الأمة إلى أن يرفع العلماء رأسها وتخاطب الكفرة أعداء الدين بنفس خطابهم وأن الإرهاب الحقيقي هو ما يقوم به الغرب الكافر أو الشرق الملحد أو اليهود الغاصبون من قتل بالمئات للأبرياء من المسلمين، ومن هتك وتشريد وسجن، يا ليتنا نسمع مثل هذا الكلام من ورثة الأنبياء من علمائنا الأجلاء في عالمنا الإسلامي، ويعلنونها صريحة مدوية يرهبون بذلك عدو الله وعدوهم، ويساهمون في رفع الظلم والاضطهاد الذي يتعرض له دعاة الإسلام في أكثر بلدان المسلمين اليوم.

● لا يخفى على علماء الأمة المخلصين ما يعيشه المسلمون اليوم من فرقة واختلاف وشحناء وعدوان وبخاصة بين بعض دعاتها وأهل الخير من أبناء السنة فيها؛ وإن الحاجة إلى تدخل أهل العلم أصبحت ملحة وضرورة ماسة للحفاظ على الدين والأنفس والأعراض من جراء هذا الاختلاف وهذه الفرقة المشينة، وإن كلمة أهل العلم في هذا الشأن مهمة وكفيلة إن شاء الله - تعالى - بحسم مادة هذا الاختلاف أو تقليل أثره في أضعف الاحتمالات.

وإن الأمة لا تكتفي من علمائها بكلمة أو كلمات يقولونها في جواب على سؤال من أحد الأطراف المختلفة وإنما المطلوب دراسة أسباب الاختلاف وأن يجتمع أهل العلم المخلصون المحايدون على بيان واضح معلن ينصحون به أهل الاختلاف، ويعلنون موقفهم فيه من مسائل الخلاف. ما يسع منها وما لا يسع، ويسعون فيه لجمع الكلمة ورد المعتدي، ولا يدعون المجال لطرف معين ليقوِّم الطرف الآخر، حيث يعز العدل ويدخل الهوى. وإنما يقطعون الطريق بموقفهم المعلن على كل طرف يريد التشهير أو النيل من الطرف الآخر بغير حق، وإنها لفتنة تستحق أن تحظى باهتمام أهل العلم بها؛ لأنها تعد من النوازل التي إن غاب أهل العلم عنها فسيزداد اشتعالها وخطرها وفي هذا فتنة وإثم على المسلمين بعامة.

● وأخيراً فإن الأمة تنتظر الموقف الحاسم المعلن من علمائها تجاه الذين يبدلون شرع الله - عز وجل - في أكثر بلدان المسلمين، ويحكمون فيها بدلاً من ذلك حكم الطاغوت من القوانين الوضعية والدساتير الكفرية.

*** نوع آخر من الفتن التي تنشأ من قلة معرفة أهل العلم بأحوال الناس ومقاصدهم:**

١ ـ الاستجابة لبعض طروحات المغالطين الملبسين وبعض استفتاءاتهم التي يريدون بها الاتكاء على رأي العالم وموقفه إزاءها في تحقيق أغراض سيئة يفتنون بها الأمة. فحين لا يتفطن أهل العلم لأغراضهم الماكرة ويجيبونهم على طروحاتهم إجابات مجردة دون معرفة بمقاصدهم ومآلات أمرهم فإن آثار فتوى أهل العلم في مثل هذه الحالات تكون غير محمودة في الغالب. وعن هذا الموضوع يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – في حديثه عن فوائد تتعلق بالفتوى والمفتي:

(الفائدة الرابعة والأربعون: يحرم عليه إذا جاءته مسألة فيها تحيُّل على إسقاط واجب أو تحليل محرم أو مكر أو خداع أن يعين المستفتي فيها، ويرشده إلى مطلوبه، أو يفتيه بالظاهر الذي يتوصل به إلى مقصوده، بل ينبغي له أن يكون بصيراً بمكر الناس وخداعهم وأحوالهم، ولا ينبغي له أن يحسن الظن بهم، بل يكون حذراً فطناً فقيهاً بأحوال الناس وأمورهم، يؤازره فقهه في الشرع، وإن لم يكن كذلك زاغ وأزاغ، وكم من مسألة ظاهرها ظاهر جميل، وباطنها مكر وخداع وظلم؛ فالغر ينظر إلى ظاهرها ويقضي بجوازه، وذو البصيرة ينقد مقصدها وباطنها. فالأول يروج عليه زغل المسائل كما يروج على الجاهل بالنقد زغل الدراهم، والثاني يخرج زيفها كما يخرج الناقد زيف النقود. وكم من باطل يخرجه الرجل بحسن لفظه وتنميقه وإبرازه في صورة حق! وكم من حق يخرجه بتهجينه وسوء تعبيره في صورة باطل! ومن له أدنى فطنة وخبرة لا يخفى عليه ذلك، بل هذا أغلب أحوال الناس، ولكثرته وشهرته يستغنى عن

الأمثلة)[١]. ا.هـ.

وقال رحمه الله تعالى أيضاً في موطن آخر وهو يتحدث عن أنواع المسائل التي ترد على المفتي:

(... وتارة تورد عليه المسألة الباطلة في دين الله في قالب مزخرف ولفظ حسن، فيتبادر إلى تسويغها وهي من أبطل الباطل، وتارة بالعكس؛ فلا إله إلا الله، كم ههنا من مزلة أقدام، ومجال أوهام، وما دعا محق إلى حق إلا أخرجه الشيطان على لسان أخيه ووليه من الإنس في قالب تنفر عنه خفافيش البصائر وضعفاء العقول وهم أكثر الناس، وما حذر أحد من باطل إلا أخرجه الشيطان على لسان وليه من الإنس في قالب مزخرف يستخف به عقول ذلك الضرب من الناس فيستجيبون له، وأكثر الناس نظرهم قاصر على الصور لا يتجاوزونها إلى الحقائق، فهم محبوسون في سجن الألفاظ، مقيدون بقيود العبارات، كما قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ** ﴾.

[الأنعام: ١١٢، ١١٣]

وأذكر لك من هذا مثالاً وقع في زماننا، وهو أن السلطان أمر أن يلزم أهل الذمة بتغيير عمائمهم، وأن تكون خلاف ألوان عمائم المسلمين، فقامت لذلك قيامتهم، وعظم عليهم، وكان في ذلك من المصالح وإعزاز الإسلام وإذلال الكفرة ما قرت به عيون المسلمين، فألقى الشيطان على

---

(١) إعلام الموقعين ٤ / ٢٢٩

ألسنة أوليائه وإخوانه أن صوَّروا فتيا يتوصلون بها إلى إزالة هذا الغبار، وهي: ما تقول السادة العلماء في قوم من أهل الذمة ألزموا بلباس غير لباسهم المعتاد وزي غير زيهم المألوف فحصل لهم بذلك ضرر عظيم في الطرقات والفلوات، وتجرأ عليهم بسببه السفهاء والرعاة، وآذوهم غاية الأذى، فطمع بذلك في إهانتهم، والتعدي عليهم، فهل يسوغ للإمام ردهم إلى زيهم الأول وإعادتهم إلى ما كانوا عليه مع حصول التميز بعلامة يعرفون بها؟ وهل في ذلك مخالفة للشرع أم لا؟ فأجابهم من مُنِعَ التوفيق وصُدَّ عن الطريق بجواز ذلك، وأن للإمام إعادتهم إلى ما كانوا عليه، قال شيخنا: فجاءتني الفتوى، فقلت: لا يجوز إعادتهم، ويجب إبقاؤهم على الزي الذي يتميزون به عن المسلمين، فذهبوا ثم غيَّروا الفتوى، ثم جاؤوا بها في قالب آخر، فقلت: لا تجوز إعادتهم، فذهبوا ثم أتوا بها في قالب آخر، فقلت: هي المسألة المعينة، وإن خرجت في عدة قوالب، ثم ذهب إلى السلطان، وتكلم عنده بكلام عجب منه الحاضرون، فأطبق القوم على إبقائهم. ولله الحمد)[١].ا.هـ.

هذا هو تحذير ابن القيم في زمانه؛ فكيف لو خرج في زماننا اليوم والذي بلغ فيه المكر والخداع مداهما في كثير من بلدان المسلمين؟

٢ ـ تحديث الناس بأحاديث قد يحصل لهم بها فتنة في أنفسهم؛ وقد يفتنون بها غيرهم لقصور عقولهم عنها، وهذا معنى قول علي رضي الله عنه: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله؟)[٢] وقول

---

(١) إعلام الموقعين ٤/١٩٢ ـ ١٩٤.

(٢) البخاري في كتاب العلم، باب من خصّ بالعلم قوماً (١/٢٧٢ فتح).

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)[١].

وعلق الإمام ابن حجر - رحمه الله تعالى - على ذلك بقوله: (وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة... وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة رضي الله عنه كما تقدم عنه في الجرابين، وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس - رضي الله عنه للحجاج - بقصة العرنيين؛ لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي. وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب والله أعلم)[٢].

ومن ذلك ما كان يفعله أئمة السلف في التفريق في فتواهم ومسائلهم بين أناس وأناس، وما يقال في مكان خاص يعقل فيه أهله ما يسمعون لا يصلح ان يقال في مكان عام قد يكون لأهله فتنة. والمواقف التالية توضح هذا الأمر:

● عن سعد بن عبيدة قال: (جاء رجل إلى ابن عباس فقال: لمن قتل مؤمناً توبة؟ قال: لا إلا النار، فلما ذهب قال له جلساؤه: ما هكذا كنت تفتينا، كنت تفتينا أن لمن قتل مؤمناً توبة مقبولة، فما بال اليوم؟ قال: إني

---

(١) مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (١ / ١١).
(٢) فتح الباري ١ / ٢٢٥.

أحسبه رجلاً مغضباً يريد أن يقتل مؤمناً، قال: فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك)[١].

● عن حسان بن أبي يحيى الكندي قال: (سألت سعيد بن جبير عن الزكاة فقال: ادفعها إلى ولاة الأمر. قال: فلما قام سعيد تبعته، فقلت: إنك أمرتني أن أدفعها إلى ولاة الأمر وهم يصنعون بها كذا، فقال: ضعها حيث أمرك الله، سألتني على رؤوس الناس، فلم أكن لأخبرك)[٢].

● عن الربيع بن سليمان قال: «كان الشافعي يرى أن الصناع لا يضمنون إلا ما جنت أيديهم، ولم يكن يظهر ذلك كراهية أن يجترئ الصناع»[٣].

وأخيراً:

وبعد ذكر بعض مظاهر الفتنة التي تنشأ من بُعْدِ أهل العلم عن واقع الأمة وأحوالها، وبعد ذكر الأمثلة التي تتوق الأمة إلى سماع أهل العلم ومواقفهم منها؛ فإنه لا بد من الإشارة إلى أنه لا يزال والحمد لله في الأمة وعلمائها خير كثير، ولا يزال فيها أولو بقية ينهون عن الفساد، ويعون واقع أمتهم، وقد قال بعضهم كلمته في مثل هذه القضايا المطروحة سابقاً، ولكن الأمر من الخطورة والأهمية ما لا يكفي فيه قول فردي يقال في جلسة أو استفتاء، ولا يكفي فيه قول واحد ولا اثنين، ولا عشرة، إنما الأمر من الأهمية بحيث يحتاج إلى ترابط أهل العلم وإعلان موقفهم الموحد إزاء

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٩/٣٦٢.
(٢) الفقيه والمتفقه ٢/٤١٦.
(٣) الفقيه والمتفقه ٢/٤١٦.

هذه القضايا وغيرها حتى يصل إلى الأمة وتسمعه، كما يسمعه أعداء الإسلام ليدركوا أن للأمة رجالها وعلماءها الربانيين الذين قادوها في القديم ورفعوا رأسها، وسيقودونها - إن شاء الله تعالى - في هذا الزمان حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

وهنا لا بد من الإشارة إلى مسألة مهمة تتعلق بالأدب مع العلماء والاعتذار لهم؛ فقد يوجد بعض العلماء المخلصين الذين يعون أحوال أمتهم وما تحتاجه وما يراد لها، ومع ذلك فلا يرى لهم أثر كبير في نصح الأمة وبيان الحق لها، مما يدفع بعض المستعجلين والمتحمسين من الدعاة أو طلبة العلم إلى رمي هذا الصنف من العلماء بالجبن أو المداهنة وحب الدنيا، وهذا غلط بل فيه فتنة وجور؛ لأن مثل هؤلاء العلماء الذين لا يُشك في إخلاصهم وغزارة علمهم قد يرون ما لا يرى غيرهم، وقد يغلب على ظنهم أن في إعلان مواقفهم فتنة، وقد يكون بعضهم قد حيل بينه وبين قول الحق، والبعض الآخر قد التبس عليه الأمر.. إلىٰ آخر هذه الأعذار والمهم أن من عُرِفَ عنه العلم والإخلاص وعدم المداهنة وله البلاء الحسن في الإسلام والدعوة إليه فلا ينبغي النيل من عرضه والتشهير به؛ بل يلتمس له العذر ما استُطِيع إلى ذلك سبيلاً.

* * *

ح ـ التعالم والفتوى بلا علم

تعد هذه الآفة من الفتن الخطيرة على من تلبَّس بها؛ لأنها تدل على مرض في القلب مبعثه الرياء والمفاخرة وحب الشهرة؛ كما تعتبر فتنة على الناس وذلك بانخداعهم بأمثال هؤلاء المتعالمين والأخذ بأقوالهم ومواقفهم. وقد حذر الله – عز وجل – من هذه الصفات الذميمة بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقد يصدر التعالم من شخص لا حظَّ له في العلم بشتى فروعه؛ ومع ذلك فإنه يعد نفسه من أهل العلم وهو ليس منهم، وقد يوجد التعالم في شخص له حظ في جانب من العلم، ولكنه جاهل في جوانب أخرى منه، ومع ذلك يُظهر أنه عالم بها ويقول فيها بلا علم ولا فقه!

وعن هذه الفتنة وأهلها يقول الشيخ بكر أبو زيد حفظه – الله تعالى –:

(اندلعت قضية التعالم في الوجود ـ لا سيما في صفوف المسلمين ـ وهي رمز للعدول عن الصراط المستقيم، وأضواء التنزيل، ووسيلة القول على الله العزيز الحكيم. فتجسَّدت أمامنا أدلة مادية قامت في ساحة المعاصرة على ما ذرَّ قرنه من الخوض في الشريعة بالباطل، وما تولد عنه من فتن تغلي مراجلها على أنقاض ظهور الركالة لذهاب العلماء وقعود المتأهلين عن التحمل والبلاغ، وتولي ألسنتهم وأقلامهم يوم الزحف على كرامته.

فتبدت من وراء أولاء أمور دوابية، وصدود عن منهاج النبوة والصديقية؛ إذ درجوا في الطرق الجائرة، وتصيدوا من الرخص كل طريف وتالدة ونشروها

بلسان الشريعة الخالدة.

وتبنى آخرون «النظرة التبريرية» لإدباب ما جرى بين الأمة من فساد واختلال، وبدع وضلال. وتجاسر فئام على الكذب الصراح – والكذب شر غوائل العلم – وحملوا الشاذ؛ ومن حمله حمل شراً كثيراً، فربضت في قلوبهم الشقوتان: شقوة الكذب، وشقوة الشذوذ، نسأل الله السلامة والعافية:

فبقي الذين إذا يقولـوا يكذبـوا ومضى الذين إذا يقولوا يصدقوا

فصار الناس بين علوم الاستمتاع، وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا، وعلوم جنس الخوض بالباطل. فنتج من هذا تقلص في قائمة المتحملين لأعباء العلم الشرعي على هدى مستقيم. فلا بارك الله في هذا الطراز، وتباً لهم فما هم بعلماء، ونعوذ بالله من الفتنة الصماء، وهنيئاً لمن ارعوى ولازم الصدق والتقى. وليسع المرء إلى فكاك رقبته من النار.

والمتخلص أن ظواهر الأحوال من رقة في الديانة، ووهن في الاستقامة، وضعف في التحصيل، والسعي بكل جد وراء الدنيا الزائلة، ومظاهرها الفانية، شكلت أمامنا: ظاهرة التعالم أوسع من ذي قبل؛ لما نشاهده من وقائعها الفجة، والدعاوى العريضة، والبراعة في الانتحال، واتساع الخطو إلى المحال...

وعندنا على هذا ألف شاهد.

وما هذا إلا لتسنم العلم أغمار ركبوا له الصعب والذلول، وظنوا أن العلم ينال بالراحة ولما يملؤوا منه الراحة، فتهافتوا على مناصب العلم في الفتيا، والتأليف، والنشر، والتحقيق، وصاروا كتماثيل مدسوسة بأيديهم هراوى يضربون في عقول الأمة حيناً وفي تراثها أحياناً، مكدرين ـ وحسابهم على الله

ـ صفو الأمة في دينها وفي علمها. وهل العلم والدين إلا توأمان لا ينسلخان إلا في حساب من انسلخ منهما؟

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ولكن يقبضه بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس: رؤوساً جهالاً فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»(١).

قال الذهبي: حديث ثابت متصل الإسناد هو في دواوين الإسلام الخمسة ما عدا سنن أبي داود. ثم ساق طبقات إسناده بما يعز نظيره وينبغي لطالب العلم أن يقف على سياقته لها.

فرحم الله الذهبي وسقاه من سلسبيل الجنة آمين. كما تجد تخريجه بسطاً في العواصم لابن الوزير – رحمه الله تعالى –.

ومن حديث أبي أمية الجمحي – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر»(٢).

وأيضاً في أحاديث الملاحم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يظهر القلم» رواه أحمد، والبزار، والطحاوي، والطبراني. وغيرهم(٣). وقد فشا القلم وارتشى. وهذا من معجزات النبوة. وقال الشافعي – رحمه الله تعالى –: إذا تصدر الحدث فاته علم كثير.. وإني في هذا لا أغمض الشاب اليافع؛ إذ العلوم والمعارف لا تقاس

---

(١) البخاري في العلم (١٠٠).
(٢) الزهد لابن المبارك ص ٢١، وصححه الألباني في السلسلة (٦٩٥).
(٣) أحمد (٥/٣٣٣، ٣٣٤) قال أحمد شاكر (٣٨٧٠): وإسناده صحيح.

بالأشبار، ولا بعظم الأجسام. وليس هو المعنى إنما المعنى الحدث في العلم، فإن الأشياخ وإن كانوا أشجار الوقار، ومعادن الاختبار، ورأي الشيخ خير من مشهد الغلام، فإن حداثة السن ليست مانعة من استقطاب الفضائل وتحمل الرسائل.. ومن هنا نصل إلى نتيجة مهمة، وهي: أن «التجنس الفكري» من انحرافات في المفاهيم، والأخلاق، وتموجات في الاعتقاد، إنما تبلغ مبلغها في الأمة، وفي عقول نشئها؛ بسبب تأخر العلماء عن أداء مهمة البلاغ، وتغذية العقول بالعلم النافع، تحصيناً لها من أي مؤثر عليها، وهذه هي الوظيفة الرئيسة لأهل العلم والإيمان.

ولهذا فإن المتخلف عن أداء واجب وظيفته هذه، يحمل من الإثم بقدر تخلفه. ومن مظاهر الصدود، أن بعض أهل العلم يبحثون في مجالسهم سبب الوفادة، والتلقي، لهذه التموجات، والاتجاهات، ولا يعرجون على هذا السبب. ثم ينقضون إلى مضاجعهم!

فكيف يهدأ لهم بال، والعدو على أبواب منازلهم بل وربما في دورهم؟

ويمكن إجمال الأسباب على ما يلي:

١ ـ قُعود المتأهلين عن البلاغ، ونزول ساحة المعاصرة.

٢ ـ ضعف الإمداد السليم «التكوين».

٣ ـ ضعف الالتفات إلى تلمس العلل وعلاجها.

٤ ـ استشراء داء «حب الشهرة» لغياب قوة: «الإيمان».

٥ ـ انفصام عروة الاتصال بين الطالب، وكتب السلف؛ إذ أن التلقي صار بالمذكرات، والمؤلفات الحديثة.

٦ ـ قلبُ «لغة العلم» في المصطلحات بما لا يتواطأ مع «لغة العلم» لكتب السلف .

فهذه غصص مولدة للأوجاع المذكورة . والله الموعد .

وبعد : فحرام والله ثم حرام على من لا يهتدي لدلالة آي القرآن، ولا يدري السنن والآثار: أن يتسنم جناب العلم، ويحل في حرمه، معول هدم لحماه، وخرق لسياجه وحرمته، وهذا هو المعثر المخذول، علمه وبال، وسعيه ضلال، نعوذ بالله من الشقاء .

وليعلم أن سلطان ما قيدته هنا إنما هو على من انسحب واعظ الله من قلبه، متسوراً للعلم الشرعي . وقد فاته العلم وفرط في العمل، وانسلخ من الزمن فلا ماضي، ولا حال، ولا مستقبل . فاته العلم بالتلقي، ومثافنة الشيوخ، والإمداد السليم، وكثرة الكشف، وطول البحث، وقلب عقول، ولسان سؤول»[١] .

وعن تحريم القول على الله بغير علم يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى –:

(فصل: وقد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣] فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها، وهو الفواحش، ثم ثنَّى بما هو أشد تحريماً منه، وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريماً

---

(١) التعالم وأثره على الفكر والكتاب: ص ٢٢ – ٢٧ (باختصار)

منهما، وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله، وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه - سبحانه - بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧] فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال، وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال، وهذا حرام إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه...

والمقصود أن الله سبحانه حرم القول عليه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، والمفتي يخبر عن الله عز وجل وعن دينه، فإن لم يكن خبره مطابقاً لما شرعه كان قائلاً عليه بلا علم، ولكن إذا اجتهد واستفرغ وسعه في معرفة الحق وأخطأ لم يلحقه الوعيد وعفي له عما أخطأ به وأثيب على اجتهاده.)[1]. ا. هـ.

ومما يتعلق بفتنة التعالم تعلقاً وثيقاً فتنة الفتوى بلا علم، أو التسرع في الفتوى قبل التأمل والدراسة. وكلما رق دين العبد وقلَّ علمه برزت عنده هذه الفتنة - والعياذ بالله عز وجل منها -. أما العلماء الربانيون الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب فكانوا يشفقون من إفتاء الناس ويودون لو كُفُوا أمر الفتوى من غيرهم. كما كانوا يكرهون التسرع في الفتوى قبل معرفة حكم الله - عز وجل - فيها وتفصيلها، ومعرفة حال المستفتي وفهم واقعته. أما في

(١) إعلام الموقعين ١ / ٧٠ - ٧٧ (باختصار)

زماننا اليوم فالمتعالمون منا كثير، حتى إن أحدنا ليحس نفسه عالماً بجمعه نتفاً من العلم.

● فهذا سحنون بن سعيد يقول: (أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه)[١].

وأُورِدُ فيما يلي أمثلة مضيئة من حال سلفنا الصالح الذين جمعوا بين العلم العظيم والخوف من الله - عز وجل - ومع ذلك كانوا يكرهون الإفتاء ولا يجيبون على كل مسألة يُسألونها؛ لعل في قراءتنا لها أكبر عظة وعبرة في الحذر من التعالم والقول بلا علم:

● عن نافع أن رجلاً سأل ابن عمر - رضي الله عنهما - عن مسألة فطأطأ رأسه ولم يجبه حتى ظن الناس أنه لم يسمع مسألته. فقال له: يرحمك الله أما سمعت مسألتي؟ قال: بلى ولكنكم كأنكم ترون أن الله تعالى ليس بسائلنا عما تسألونا عنه، اتركنا - رحمك الله - حتى نتفهم في مسألتك، فإن كان لها جواب عندنا وإلا أعلمناك أنه لا علم لنا به[٢].

● عن سيار أبي الحكم، قال: قال ابن عمر - رضي الله عنهما -: «إِنكُم تَستَفتوننا استفتَاءَ قَوْمٍ كأنّا لا نُسألُ عمَّا نُفْتِيكم بِهِ»[٣].

● عن عبد الله بن بشر: «أنَّ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - سُئل عن مسألة فقال: لا عِلم لي، ثم قالَ: وَابردها على الكَبِدِ: سُئلتُ عما لا أعلم، فقلتُ: لا أعلم»[٤].

---

(١) أعلام الموقعين ١ / ٣٤

(٢) صفة الصفوة ١ / ٥٦

(٣) الفقيه والمتفقه (٢ / ٣٥٦)

(٤) الفقيه والمتفقه ٢ / ٣٦٢.

● عن عقبة بن مسلم: أن ابن عمر سئل عن شيء، فقالَ: لا أدري، ثم أتبعها، فقالَ: أتريدونَ أنْ تَجْعَلوا ظُهرونا لكم جسُوراً في جهنم؛ أن تقولوا أفتانا ابنُ عمر بهذا؟»[١].

● عن محمد بن المنكدر: «إن العالم بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل عليهم؟»[٢].

● وعن أيوب قال: سمعت القاسم يسأل بمنى فيقول: لا أدري، لا أعلم. فلما أكثروا عليه قال: والله لا نعلم كل ما تسألونا عنه، ولو علمنا ما كتمناكم، ولا حل لنا أن نكتمكم. وعن يحيى بن سعيد قال: سمعت القاسم يقول: ما نعلم كل ما نُسأل عنه؛ ولأن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله تعالى عليه خير له من أين يقول ما لا يعلم[٣].

● عن أبي يوسف قال: سمعت أبا حنيفة يقول: «من تكلم في شيء من العلم وتقلده وهو يظن أن الله لا يسأله عنه: كيف أفتيت في دين الله؟ فقد سهلت عليه نفسه ودينه»[٤]. وقال أيضاً: «لولا الفَرَقُ من الله أن يضيع العلم ما أفتيت أحداً: يكون له المهنأ، وعليَّ الوزر»[٥].

● عن عطاء بن السائب: «أدركت أقواماً إن كان أحدهم ليسأل عن الشيء فيتكلم وإنه ليرعد»[٦].

---

(١) الفقيه والمتفقه ٢/٣٦٥.
(٢) الفقيه والمتفقه ٢/٢٥٦.
(٣) صفة الصفوة ٢/٨٩.
(٤)، (٥) الفقيه والمتفقه ٢/٣٥٦.
(٦) الفقيه والمتفقه ٢/٣٥٣

● وعن الشعبي قال: «لا أدري: نصف العلم»[(١)].

● عن أبي بكر الأثرم، قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يُستفتى فيكثر أن يقول: «لا أدري»[(٢)].

● عن عبد الله بن يزيد بن هرمز قال: «ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده: لا أدري، حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه، إذا سئل أحدهم عما لا يدري، قال: لا أدري»[(٣)].

● وعن البراء بن عازب – رضي الله عنه – قال:

«لقد رأيت ثلاثمائة من أهل بدر ما منهم من أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتوى»[(٤)].

هذه هي أحوال السلف رحمهم الله تعالى مع العلم والفتوى؛ وهم أهل العلم والفتوى والتقوى؛ فما بالنا اليوم مع قلة علمنا وتقوانا يتجرأ أحدنا على الفتيا بلا علم أو بنصف علم أو بأظن ولعلَّ، وكأن الفتوى عنده شربة ماء؟!

ألا فلنتقِ الله – عز وجل – ونحسب للوقوف بين يدي الله – عز وجل – حسابه، ولنعدَّ للسؤال جواباً.

ولو بحثنا عن أسباب التسرع في الفتوى أو القول فيها بلا علم لوجدناها أمراضاً قلبية من جنس الرياء والعجب وحب الشهرة والتصدر في المجالس، ورغبة المبتلى بهذه الأمراض في سؤال الناس له وأنفته من أن يقال علمه قليل أو

(١) الفقيه والمتفقه ٢/ ٢٦٩

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٧١

(٣) الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٦٧

(٤) الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٤٩

ليس بعالم.

فما أخطر هذه الأمراض وأعظم إثمها وأشد فتكها في القلوب، فوق ما فيها من تحمل أوزار الذين يضلهم هذا المفتون بغير علم، وكل ذلك حتى لا يسقط من أعين الناس. فما جدوى أن يكون في أعين الناس كبيراً وهو عند الله صغير ممقوت؟ نعوذ بالله – عز وجل – من الخذلان ومن سخطه والنار.

* * *

سابعاً: الفتنة بالمصائب والمكاره

اقتضت حكمة الله – عز وجل – أن يبتلي عباده بالمصائب وأنواع المكاره ليميز الخبيث من الطيب ويمحص المؤمنين. ويمحق الكافرين. والمقصود هنا بهذه الفتنة هو ما تخلفه المصائب والمكاره في نفوس أهلها من آثار خطيرة في الدين والدنيا ذلك لمن ضعف صبره ويقينه. أما أهل الصبر واليقين فلا تزيدهم المصائب إلا قوة وصلابة وزكاة وإيماناً. ومن أشد أنواع المكاره التي تنزل بالمسلم ما ذكره الله – عز وجل – في مدح الصابرين عليها بقوله – تعالى –: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] فذكر سبحانه في هذه الآية ثلاثة أنواع من المكاره هي:

١ – البأساء. ٢– الضراء. ٣– حين البأس.

وتعد هذه الأنواع الثلاثة من المصائب من أشد المكاره على النفوس والتي يكثر المتساقطون في فتنتها نسأل الله عز وجل السلامة والعافية وقد ذكر المفسرون في معنى هذه الآية قولهم: (**فِي الْبَأْسَاءِ**: أي الشدة والفقر، : **وَالضَّرَّاءِ**: المرض والزمانة، **وحين البَأْسِ**: أي القتال والحرب)[1]. فتحصل من معنى الآية أن أصول المصائب والمكاره التي يجب الصبر عليها:

١ ـ الفقر والشدة.

٢ ـ المرض والزمانة (أي الأمراض المزمنة التي لا يرجى برؤها كالعمى

---

(١) انظر تفسير البغوي ط. دار طيبة ١ / ١٨٨.

والعرج والشلل... الخ).

٣ ـ ساعات الحرب والقتال والأسر والاعتقال.

وقد ورد ذكر هذه المصائب أيضاً في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وأغلب المصائب والابتلاءات تعود إلى تلك المكاره الثلاث المذكورة في الآية الكريمة.

فالجوع والجوائح التي تتلف بها الأموال، وفقد المسكن والكساء ونحوها، تعود كلها إلى الفقر والشدة.

والجبن والخوف على النفس والعيال، والسجن والتشريد والتعذيب كلها تعود إلى فتنة البأساء والقتال؛ لأنها إنما تنشأ من الصراع مع الباطل وأهله.

والأمراض وأنواعها وما تؤدي إليه من الموت وفقد الأولاد والأحبة ترجع كلها إلى مصيبة المرض والزمانة.

والمؤمن في حاجة عظيمة إلى الصبر على هذه المكاره والاستعانة بالله – عز وجل – عليها وإلا وقع في فتنتها وسقط في الابتلاء بها.

ومن أشد مظاهر الفتنة بالمصائب والمكاره ما يلي:

١ ـ تزعزع الإيمان وتسلط الشيطان مما قد يؤدي بالمصاب إلى اليأس والجزع والتسخط وسوء الظن بالله تعالى والاعتراض على قدر الله – عز وجل – وحكمته، إما بلسان حاله أو مقاله، وقد يؤدي ذلك ببعض الناس إلى النكوص

عن الإيمان – عياذاً بالله تعالى –. وتعتبر هذه الفتنة أشد مظاهر السقوط في فتنة المصائب. وفي وصف هذا الصنف من الناس يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١١ – ١٣].

ذكر البخاري – رحمه الله تعالى – في صحيحه عند تفسير هذه الآية قوله: «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء»[١].

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله:

(إن العقيدة هي الركيزة الثابتة في حياة المؤمن، تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة، وتتجاذبه الأحداث والدوافع فيتشبث هو بالصخرة التي لا تتزعزع؛ وتتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة التي لا تحول ولا تزول.

هذه قيمة العقيدة في حياة المؤمن. ومن ثَمَّ يجب أن يستوي عليها، متمكناً منها، واثقاً بها، لا يتلجلج فيها، ولا ينتظر عليها جزاء، فهي في ذاتها جزاء؛ ذلك أنها الحمى الذي يلجأ إليه، والسند الذي يستند عليه. أجل هي

---

(١) فتح الباري (٤٧٤٢) (٨/ ٢٩٦ الفتح).

في ذاتها جزاء على تفتح القلب للنور، وطلبه للهدى. ومن ثم يهبه الله العقيدة ليأوي إليها، ويطمئن بها. هي في ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من حوله، تتجاذبهم الرياح، وتتقاذفهم الزوابع، ويستبد بهم القلق. بينما هو بعقيدته مطمئن القلب، ثابت القدم، هادئ البال، موصول بالله، مطمئن بهذا الاتصال.

أما ذلك الصنف من الناس الذي يتحدث عنه السياق فيجعل العقيدة صفقة في سوق التجارة: «فإن أصابه خير اطمأن به» وقال: إن الإيمان خير. فها هو ذا يجلب النفع، ويدر الضرع، وينمي الزرع، ويربح التجارة، ويكفل الرواج «وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة»... خسر الدنيا بالبلاء الذي أصابه فلم يصبر عليه، ولم يتماسك له، ولم يرجع إلى الله فيه. وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه، وانكفائه عن عقيدته، وانتكاسه عن الهدى الذي كان ميسراً له.

والتعبير القرآني يصوره في عبادته لله «على حرف» غير متمكن من العقيدة، ولا متثبت في العبادة. يصوره في حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة الأولى. ومن ثم ينقلب على وجهه عند مس الفتنة، ووقفته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب!

إن حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة، ولكنه لا يصلح للعقيدة، فالعقيدة حق يُعتنق لذاته، بانفعال القلب المتلقي للنور والهدى الذي لا يملك إلا أن ينفعل بما يتلقى. والعقيدة تحمل جزاءها في ذاتها، بما فيها من طمأنينة وراحة ورضى، فهي لا تطلب جزاءها خارجاً عن ذاتها.

والمؤمن يعبد ربه شكراً له على هدايته إليه، وعلى اطمئنانه للقرب منه

والأنس به. فإن كان هنالك جزاء فهو فضل من الله ومنة. استحقاقاً على الإيمان أو العبادة!

والمؤمن لا يجرب إلهه، فهو قابل ابتداء لكل ما يقدره له، مستسلم ابتداء لكل ما يجريه عليه راض ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء. وليست هي صفقة في السوق بين بائع وشارٍ، إنما هي إسلام المخلوق للخالق، صاحب الأمر فيه، ومصدر وجوده من الأساس.

والذي ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التي لا شبهة فيها ولا ريب: «ذلك هو الخسران المبين».. يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى. إلى جوار خسارة المال أو الولد، أو الصحة، أو أعراض الحياة الأخرى التي يفتن الله بها عباده، ويبتلي بها ثقتهم فيه، وصبرهم على بلائه، وإخلاصهم أنفسهم له، واستعدادهم لقبول قضائه وقدره.. ويخسر الآخرة وما فيها من نعيم وقربى ورضوان، فياله من خسران!)[١]. ا.هـ.

ولما كانت هذه الفتنة بهذه الخطورة وجب على العبد اتقاؤها والاعتصام بالله عز وجل في مواجهتها قبل وقوعها بكثرة ذكر الله - سبحانه - ومعرفته بأسمائه وصفاته وجلاله وكماله وأن لله - عز وجل - الحكمة البالغة فيما يقدره على عباده وأن ما يصيب المؤمن فهو خير له، إما في الدنيا وإما في الآخرة، كما يستعين على ذلك بالصبر وكثرة الصلاة والدعاء واللجوء إليه سبحانه. والاستعاذة به من شر النفس ونزغات الشيطان.

٢ ـ القلق على الأجل والرزق والخوف من المخلوق عليهما. ذلك حينما

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٤١٢، ٢٤١٣ ط.الشروق.

يبتلى العبد في رزقه بالتضييق أو ما يهدد أمنه او أمن أهله من الأذى والسجن ونحوهما. فإذا بلغ هذا القلق إلى أن يخشى من المخلوق كخشيه الله – عز وجل –أو أشد فإن في هذا فتنة عظيمة للمبتلى؛ ذلك لأن المصيبة قد كشفت ما في القلب من ضعف التوكل على الله – عز وجل – والتعلق بالمخلوق خوفاً ورجاء.

ومن علامات هذه الفتنة: أن يترك المبتلى أموراً واجبة كان يقوم بها من عبادات أو دعوة أو غير ذلك ويظهر عليه كثير من التنازلات والمداهنات في ترك الحق أو قول الباطل وتزيينه. بل والوقوع في الشرك أحياناً – عياذاً بالله سبحانه –.

ومن علامات هذه الفتنة أيضاً: الوقوع في أمور محرمة شرعاً، كمن يدفع مصيبة المرض بأدوية محرمة أو أساليب محرمة كالذهاب إلى المشعوذين والسحرة.

وكمن يسعى لدفع وطأة الفقر والعوز إلى جمع المال من وجوه محرمة إما برشوة أو ربا أو بيوع محرمة أو إذلال النفس عند أهل الدنيا أو قبول الوظائف الخسيسة التي تخرم الدين والشرف والمروءة... إلى آخر الأمثلة التي تدل على السقوط في الابتلاء عافانا الله من ذلك. وعن السقوط في فتنة المخلوقين وتهديدهم وأذاهم وما ينتج عن ذلك من نكوص وانتكاس يقول الله – عز وجل –: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠، ١١]، ويتحدث سيد قطب – رحمه الله – عن هذه الآية فيقول:

(ذلك النموذج من الناس، يعلن كلمة الإيمان في الرخاء يحسبها خفيفة الحمل، هينة المؤونة، لا تكلف إلا نطقها باللسان «فإذا أوذي في الله» بسبب الكلمة التي قالها وهو آمن معافى «جعل فتنة الناس كعذاب الله» فاستقبلها في جزع، واختلت في نفسه القيم، واهتزت في ضميره العقيدة؛ وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذي يلقاه، حتى عذاب الله؛ وقال في نفسه: ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شيء، فعلامَ أصبر على الإيمان، وعذاب الله لا يزيد على ما أنا فيه من عذاب؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر، وعذاب الله الذي لا يعرف أحد مداه.

هذا موقف ذلك النموذج من الناس في استقبال الفتنة في ساعة الشدة:

«ولئن جاء نصر من ربك ليقولن: إنا كنا معكم»!

إنا كنا معكم.. وذلك كان موقفهم في ساعة العسرة من التخاذل والتهافت والتهاوي، وسوء التصوير وخطأ التقدير. ولكن حين يجيء الرخاء تنبت الدعوى العريضة، وينتفش المنزوون المتخاذلون، ويستأسد الضعفاء المهزومون، فيقولون: «إنا كنا معكم»!

«أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين؟».

أو ليس يعلم ما تنطوي عليه تلك الصدور من صبر أو جزع، ومن إيمان أو نفاق؟ فمن الذي يخدعه هؤلاء، وعلى من يموهون؟

«وليعلمن الله الذي آمنوا وليعلمن المنافقين»..

وليكشفنهم فيُعرفون؛ فما كانت الفتنة إلا ليتبين الذين آمنوا ويتبين المنافقون.

ونقف لحظة أمام التعبير القرآني الدقيق وهو يكشف عن موضع الخطأ في هذا النموذج من الناس حين يقول: « جعل فتنة الناس كعذاب الله » ..

فليست الغلطة أن صبرهم قد ضعف عن احتمال العذاب، فمثل هذا يقع للمؤمنين الصادقين في بعض اللحظات ـ وللطاقة البشرية حدود ـ ولكنهم يظلون يفرقون تفرقة واضحة في تصورهم وشعورهم بين كل ما يملكه البشر لهم من أذى وتنكيل، وبين عذاب الله العظيم؛ فلا يختلط في حسهم أبداً عالم الفناء الصغير وعالم الخلود الكبير، حتى في اللحظة التي يتجاوز عذاب الناس لهم مدى الطاقة وجهد الاحتمال... إن الله في حس المؤمن لا يقوم له شيء، مهما تجاوز الأذى طاقته واحتماله.. وهذا هو مفرق الطريق بين الإيمان في القلوب والنفاق)[1]. ا.هـ.

٣ ـ ويقابل الصورة السابقة صورة أخرى من صور الفتنة أيام المصائب والمكاره ألا وهي عدم الصبر على ضبط النفس بضوابط الشرع وميزان الحق عندما يتعرض الفرد أو الطائفة للابتلاء والأذى والاعتداء، فيضعف الصبر عند أناس ولا يتحملون هذه الضغوط الشديدة فيتسرعون في رد الأذى والعدوان دون قدرة على ذلك أو أنهم يبغون في ردهم للبغي فينشأ من ذلك فتنة عليهم وقد تتعداهم إلى غيرهم. وهذا يعد من أشكال الفتنة بالمصائب والمكاره.

٤ ـ الفتنة بالكفار وما عندهم من التقدم في آلات الحرب وأشكالها المتطورة المدمرة، وبخاصة بعد دخولهم في المنطقة الإسلامية وما حققوا في حروبهم فيها من انتصارات على خصومهم كما هو الحاصل في حرب اليهود

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٧٢٤ ط. الشروق.

مع العرب سنة ٤٨م، ٦٧م، ٧٣م، وما تلا ذلك من التمكين لليهود وحلفائهم من الأمريكان والغرب عموماً، وما نتج عنه من هزيمة داخلية في جيوش المنطقة الإسلامية التي لم تتلق حظاً من فهم الإسلام والتربية في ضوء هداه؛ حتى قام في روع كثير من الأنظمة وجيوشها المهزومة والجهلة من المسلمين أن عدوهم من اليهود والنصارى لا يُهزم ولا جدوى في القتال معه وإخراجه من أراضي المسلمين ومقدساتهم؛ ولهذه الآراء الموهومة فلا بد من الاعتراف بوجوده والعدول عن لغة السلاح إلى لغة السلام ومن مجاهدته إلى معاهدته! ولو أن هؤلاء المهزومين فكروا في أسباب الخذلان والهزيمة وأنها سنة الله - عز وجل - التي لا تتبدل ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣]، لكان خيراً لهم وأقوم.

أما أن تحصل الفتنة بالكفار وقوتهم وتُنسى قوة الله - عز وجل - وينسى واقع المسلمين وجيوشهم وما دبَّ فيهم من الفساد والانحلال وبالتالي تنهزم النفوس وتيأس القلوب وتمتلئ رعباً من الكفار وقوتهم فهذه عقوبة من الله عز وجل وفتنة للنفوس لا يرفعها إلا مراجعة أمر الله عز وجل وتحقيق أسباب نصره وتمكينه.

٥ - في المصائب التي تنشأ من الكوارث والجوائح التي يقدرها الله - عز وجل - على عباده كالزلازل والفيضانات والأعاصير وغيرها - فيها فتنة لبعض العباد الذين يعانون منها أو الذين يسمعون عنها وذلك عندما تربط هذه الحوادث بالطبيعة والتغيرات الفلكية البحتة، دون ربطها بقدر الله - عز وجل - وقهره وعلمه وحكمته، ودون ربطها بسنن الله - عز وجل - في الأحداث والغير كما قال - تعالى -: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، ودون أن تحدث في النفوس خوفاً من الله

- عز وجل - وإنابة وتضرعاً. قال عز وجل: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣] فإذا لم تنشأ هذه المعاني في النفوس فإن المصائب والكوارث تصبح فتنة لأهلها ومصيبة أكبر من الكارثة نفسها.

* * *

ثامناً : فتنة المسيح الدجال

ورد ذكر الدجال والتحذير من فتنته العظيمة في أحاديث كثيرة جمعها الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى – في كتابه النهاية، أقتصر منها على ما يلي :

● عن أنس رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ : « ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب . ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور . وإن بين عينيه مكتوب : كافر »(١) .

● عن عقبة بن عمرو قال لحذيفة – رضي الله عنه –: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ قال : إني سمعته يقول « إن مع الدجال إذا خرج ماء وناراً فأما الذي يرى الناس أنها النار فماء بارد . وأما الذي يرى الناس أنه ماء بارد فنار تحرق . فمن أدرك منكم فليقع في الذي يرى أنها نار؛ فإنه عذب بارد »(٢) .

● عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ، حديثاً طويلاً عن الدجال فكان فيما حدثنا به أن قال: « يأتي الدجال – وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة – بعض السباخ التي بالمدينة، فيخرج إليه يومئذٍ رجل هو خير الناس، أو من خير الناس. فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيت إن قتلت

---

(١) البخاري. ك. الفتن. باب ذكر الدجال (٧١٣١)، مسلم ك.الفتن (٢٩٣٣)

(٢) البخاري ك الأنبياء ـ باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٠)، مسلم. ك الفتن: (٢٩٣٤)

هذا ثم أحييته هل تشكّون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله، ثم يحييه، فيقول حين يحييه: والله ما كنت قط أشد بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يُسلَّط عليه»(١).

● عن النواس بن سمعان – رضي الله عنه – (في حديث طويل) أن الرسول ﷺ ذكر من وصف الدجال «... أنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف...»(٢).

وقال عنه أيضاً في هذا الحديث: «... ويأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له: فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم، أطول ما كانت دراً، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم، فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل... الحديث»(٢).

● عن عمران بن حصين – رضي الله عنه – يحدث قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع بالدجال فَلْيَنْأَ عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه بما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات»(٣).

---

(١) البخاري. ك. الفتن، باب لايدخل الدجال المدينة (٧١٣٢)، مسلم. ك الفتن (٢٩٣٨)

(٢) مسلم. ك الفتن (٢٩٣٧).

(٣) أبو داود. كتاب الملاحم. باب خروج الدجال (٤٣١٩) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٢٩)

وبعد أن جمع الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - الأحاديث الواردة في ذكر الدجال وفتنته، ومنها الأحاديث المذكورة سابقاً وغيرها، قال معقباً على هذه الأحاديث:

(وقد أنكرت طوائف كثيرة من الخوارج، والجهمية، وبعض المعتزلة خروج الدجال بالكلية، وردوا الأحاديث الواردة فيه، فلم يضيفوا شيئاً، وخرجوا بذلك عن حيز العلماء، لردهم ما تواترت به الأخبار الصحيحة، من غير وجه، عن رسول الله ﷺ، كما تقدم، وإنما أوردنا بعض ما ورد في هذا الباب، وإن كان فيه كفاية ومقنع والله المستعان.

والذي يظهر من الأحاديث المتقدمة: أن الدجال يمتحن الله به عباده، بما يخلقه معه من الخوارق المشاهدة في زمانه، كما تقدم أن من استجاب له يأمر السماء فتمطرهم، والأرض فتنبت لهم زرعاً تأكل منه أنعامهم، وأنفسهم، وترجع إليهم مواشيهم سماناً لُبْناً، ومن لا يستجيب له، ويردّ عليه أمره: تصيبهم السنة والجدب، والقحط، والقلة، وموت الأنعام، ونقص الأموال، والأنفس والثمرات، وأنه يتبعه كنوز كيعاسيب النحل، ويقتل ذلك الشاب، ثم يحييه، وهذا كله ليس بمخرقة، بل له حقيقة امتحن الله بها عباده، في آخر الزمان، فيضل به كثيراً ويهدي به كثيراً، يكفر المرتابون، ويزداد الذين آمنوا إيماناً. وقد حمل القاضي عياض وغيره على هذا المعنى معنى الحديث: هو أهون على الله من ذلك، أي هو أقل أن يكون معه ما يضل به عباده المؤمنين؛ وما ذاك إلا لأنه ناقص، ظاهر النقص، والفجور، والظلم، وإن كان معه ما معه من الخوارق، فبين عينيه مكتوب: كافر، كتابة ظاهرة، وقد حقق ذلك الشارع في خبره بقوله:

ك ف ر، فقيل ذلك على أنه كتابة حسية، لا معنوية، كما يقوله بعض الناس، وعينه الواحدة عوراء، شنيعة المنظر، ناتئة، وهو معنى قوله: كأنها عنبة طافية على وجه الماء، ومن روى ذلك طافئة: لا ضوء فيها، وفي الحديث الآخر: كأنها نخامة على حائط مجصص، أي بشعة الشكل)[١]. ا.هـ.

والحديث عن فتنة الدجال يستلزم معرفة ما يعصم من فتنته وشره، ومن ذلك:

١ ـ الاعتصام بالله – عز وجل – والاستعاذة به من فتنته حيث ثبت في أحاديث صحيحة أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من فتنة الدجال ويأمر بالتعوذ منه بعد التشهد الأخير كما جاء ذلك عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال»[٢].

٢ ـ الابتعاد عنه والهرب منه كما تقدم في حديث عمران بن حصين[٣] وذلك خوف الفتنة بما يبعث الله على يديه من الخوارق والشبهات.

٣ ـ سكنىٰ مكة والمدينة مع التخلي عن أسباب الكفر والنفاق لما جاء

---

(١) النهاية لابن كثير ص ١٢٠، ١٢١

(٢) مسلم كتاب المساجد (٥٨٨)

(٣) سبق الحديث ص ٢٨٧.

في حديث تميم الداري الطويل[١] من منع الدجال من دخولهما .

٤ ـ حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف لقوله ﷺ : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال »[٢]، ويدخل في ذلك قراءة فواتح سورة الكهف على الدجال عند رؤيته كما تقدم في حديث النواس بن سمعان : « من أدركه فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف »[٣] .

٥ ـ معرفة أوصافه التي تحبط شبهاته وقد ثبت منها أنه أعور مكتوب بين عينيه (كافر) .

* * *

(١) أنظر تمام الحديث عند مسلم كتاب الفتن (٢٩٤٢)

(٢) مسلم كتاب : الصلاة (٨٠٩) .

(٣) سبق تخريجه ص : ٢٨٧ .

تاسعاً: فتنة الممات

● عن عائشة – رضي الله عنها – قال: كان رسول الله ﷺ يدعو في الصلاة يقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم ومن المغرم»[1].

● وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير، فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال»[2].

في هذين الحديثين مشروعية الدعاء والاستعاذة بالله عز وجل من هذه الشرور الأربعة؛ جاء ذلك مرة بصيغة الإخبار عنه ﷺ أنه كان يدعو في صلاته بهذا الدعاء كما في حديث عائشة – رضي الله عنها – ومرة بصيغة الأمر بهذا الدعاء بعد التشهد الآخر كما في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه –. والشاهد من هذين الحديثين ذِكْرُ فتنة المحيا والممات، والاستعاذة بالله – عز وجل – من شرهما.

وأحسب أن فتنة المحيا هي ما يتعرض له العبد في حياته من الفتن المتنوعة، وكل ما أوردته فيما سبق من أنواع الفتن داخل في ذلك.

(١) البخاري في الأذان (٨٣٢)، ومسلم، كتاب المساجد (٥٨٩)

(٢) مسلم، في المساجد (٥٨٨)

أما فتنة الممات فقد جاء في بيانها ما نقله الإمام ابن حجر – رحمه الله تعالى – عن ابن دقيق العيد في قوله :

(فتنة المحيا ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتتان بالدنيا والشهوات والجهالات، وأعظمها – والعياذ بالله – أمر الخاتمة عند الموت . وفتنة الممات يجوز أن يراد بها الفتنة عند الموت أضيفت إليه لقربها منه، ويكون المراد بفتنة المحيا على هذا ما قبل ذلك، ويجوز أن يراد بها فتنة القبر، وقد صح – يعني في حديث أسماء الآتي في الجنائز –: « إنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريباً من فتنة الدجال »[١] ولا يكون مع هذا الوجه متكرراً مع قوله: « عذاب القبر » لأن العذاب مرتب عن الفتنة والسبب غير المسبب. وقيل أراد بفتنة المحيا الابتلاء مع زوال الصبر، وبفتنة الممات السؤال في القبر مع الحيرة، وهذا من العام بعد الخاص؛ لأن عذاب القبر داخل تحت فتنة الممات، وفتنة الدجال داخلة تحت فتنة المحيا)[٢] .

وفي هذا البيان لفتنة الممات يظهر لنا أنها تكمن في صورتين خطيرتين هما :

الصورة الأولى: الفتنة التي تحصل للميت ساعة الاحتضار، وما يحصل حينها من هول المطلع، وتسلط الشيطان على العبد؛ لأنها فرصته الأخيرة، فقد يحول بينه وبين التوبة، وقد يثير الوساوس والشكوك والتسخط وغير ذلك مما يكون له الأثر في سوء الخاتمة – أعاذنا الله من ذلك – ولكن الله – عز وجل – يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة

---

(١) البخاري في العلم (٨٦)، وهو مختصر جداً في الجنائز (١٣٧٣) .

(١) فتح الباري ٢ / ٣٧١ .

الدنيا وفي الآخرة. ولقد كان خوف السلف مع إيمانهم وطاعتهم شديداً من ساعة الاحتضار وما فيها من تقلُّب القلوب والأبصار، وكانوا يشفقون من سوء الخاتمة، ويحرصون على التلفظ بكلمة التوحيد وتلقينها موتاهم عند الاحتضار؛ لأنها من علامات حسن الخاتمة؛ وقد قال ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»[1]، ومن دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الغرق والحرق والهدم، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت»[2].

قال عبد الله ابن الإمام أحمد - رحمهما الله تعالى -:

لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده وبيدي الخرقة لأشد بها لحيته فجعل يعرق، ثم يفيق ثم يفتح عينيه ويقول بيده هكذا: لا بعدُ، لا بعدُ، لا بعدُ - ثلاث مرات - ففعل هذا مرة وثانية، فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبت أي شيء هذا؟ قد لهجت به في هذا الوقت تعرق حتى نقول: قد قضيت، ثم تعود فتقول: لا لا بعدُ، فقال لي: يا بني! ما تدري؟ فقلت: لا، فقال: إبليس - لعنه الله - قائم حذائي عاضٌّ على أنامله يقول لي: فُتَّني يا أحمد؟! وأنا أقول له: لا، بعدُ، حتى أموت[3].

● ومن هول المطلع ما يحصل للعبد من حسرة عظيمة عند تذكره لذنوبه وزلاته وظلمه وإضلاله لعباد الله مما أسلف في حياته ولا يدري ما الله فاعل بها.

● ومن هول المطلع ساعة الاحتضار ما يحصل للعبد المحتضَر من شدة

---

(١) مسلم حديث (٩١٦) كتاب الجنائز، أبو داود باب (١٦) من كتاب الجنائز (٣١١٧).

(٢) أبو داود (١٥٥٢) في كتاب الصلاة، والنسائي ٨/٢٨٢ في الاستعاذة. وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٧٣).

(٣) مختصر مناقب الإمام أحمد ص: ٢٥٥.

وكرب وهو يعاني من سكرات الموت، ويكفي في تصوير شدتها ما حصل لسيد الأنبياء وأفضل البشر محمد ﷺ حيث كان يقول عندما يشتد عليه الكرب: «إن للموت سكرات»(١).

● ومن هول المطلع ساعة الاحتضار: رؤيةُ ملائكة الرحمة أو العذاب والمقعد من الجنة أو النار؛ وانتظار هذا المشهد الفظيع من أشد ما يتعرض له المحتضر؛ حيث لا يدري: أتشهده ملائكة الرحمة، أم العذاب، أم أنه يرى مقعده من الجنة أو النار؟ وحقيق بمن لا يعلم عن هذا المصير شيئاً أن يقلق أشد القلق ويخاف أشد الخوف من هذه الخاتمة نسأله سبحانه اللطف والعافية وحسن الخاتمة.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] ويقول سبحانه عن الظالمين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وعن عنبسة بن أبي سفيان أنه لما حضرته الوفاة جزع، فقيل له: ما يُجزِعك! ألم تكن على سَمْتٍ من الإسلام حَسَن؟ قال: وما لي لا أجزع، ولستُ أدري على ما أقدم عليه، مع أن أرجى عملي عندي حديثٌ حدثتني به أم حبيبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر، وأربع بعدها، حرَّمه الله على النار؛ فوالله ما

---

(١) البخاري، كتاب الرقائق (٦٠١٠).

تركتهن منذ سمعتهن إلى يومي هذا»[١].

وقد نَقَلَ الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – كلاماً نفيساً عن الخاتمة وعلامات حسنها وسوئها للحافظ عبد الحق الأشبيلي قال فيه:

(قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي – رحمه الله –:

«واعلم أن لسوء الخاتمة ـ أعاذنا الله منها ـ أسباباً، ولها طرق وأبواب، أعظمها الانكباب على الدنيا، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجرأة على معاصي الله – عز وجل –؛ وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجحت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين المراد، ولا علم ما أراد؛ وإن كرر عليه الداعي وأعاد..

.. ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفاً من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا. وإنما أبكي من خوف سوء الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت. فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتُضِرَ جعل يُغمى عليه

---

(١) شرح السنة للبغوي (٤٦٤).

ثم يفيق ويقرأ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمن هذا خاف السلف من الذنوب: أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال: واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في العقد أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية، ويصطلم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله[١] .ا.هـ.

وفي قوله: «واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد»: عبرة عظيمة فإن الله عز وجل أرحم وأكرم وأعدل من أن يختم لعبدٍ هذه حاله في حياته بخاتمة سوء، وإنما سوء الخاتمة لمن انطوى قلبه على مرض شبهه أو شهوة تمكنت منه ولم يقلع عنها وقد لا تظهر للناس لكنها والعياذ بالله تظهر عند الخاتمة، فحري بالعبد ما دام في زمن المهلة والتوبة أن يفتش في باطنه وظاهره ويصلحهما قبل أن يحال بينه وبين ما يشتهي؛ فتكون النهاية البائسة.

---

(١) الجواب الكافي ص (٢٢٦ – ٢٢٨) باختصار

الصورة الثانية من فتنة الممات:

ما يحصل للميت بعد دفنه في قبره من سؤال الملكين له عن ربه ودينه ونبيه فلا يجيب على هذا الامتحان إلا من ثبته الله – عز وجل – وألهمه رشده في الدنيا ووفقه للإجابة المقبولة، فتحصل له النجاة من هذه الفتنة التي ينجيه الله – عز وجل – بعدها من عذاب القبر وشدته، أما من احتار في جوابه وغاب عنه صوابه؛ فتحصل له الفتنة العظيمة التي يعقبها عذاب القبر وسخط الله – عز وجل –.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في ذكر هذه الفتنة وشدتها من ذلك ما رواه البراء بن عازب – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «إذا أُقْعِدَ المؤمن في قبره أُتِيَ، ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾»[1] [إبراهيم: ٢٧].

● وما رواه أيضاً البراء بن عازب – رضي الله عنه – في الحديث الطويل في ذكر أحوال الناس عند الموت وفي قبورهم ومن ذلك قول الرسول ﷺ عن العبد المؤمن:

« ... فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة وألبسوه من

(١) البخاري ٢/١٢٢، مسلم ٨/١٦٢، أبو داود (٤٧٥٠)

الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره، ...»(١) إلى أن قال ﷺ عن الكافر:

« .. فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسَمُومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ...»(٢).

وهنا ينبغي أن نعلم بأن النجاة من هذه الفتنة والنطق بالجواب الصحيح فيها لا يكون إلا لمن قالها في حياته عالماً بمعناها منقاداً لمقتضاها، وإلا فما قيمة أن يقول العبد في حياته: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً؛ ثم لا يحقق مدلول هذه الكلمات في مواقفه وأعماله أو قد يأتي بما يناقضها؟ إن من هذه حاله لا يُسدَّد ولا يثبت في قبره عند السؤال، ولو كان من أحفظ الناس لها في الدنيا لأن العبرة في النجاة من هذه الفتنة عند سؤال الملكين في القبر إنما يكون بما وقر في القلب من معنى هذه الأصول الثلاثة العظيمة: محبة وإخلاصاً وانقياداً وتصديقاً وقبولاً وعملاً. ويشرح الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - هذه الأصول الثلاثة موضحاً أن سورة الأنعام قد اشتملت على ذكرها كلها فيقول:

(الرضى بالله رباً: أن لا يتخذ رباً غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره.

---

(١) أحمد ٤/٢٨٧، ٢٨٨، ابن ماجه (١٥٤٩)، أبو داود (٣٢١٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٩٧٧).

(٢) انظر تخريج الحديث السابق.

وينزل به حوائجه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما «سيدا وإلهاً» يعني فكيف أطلب رباً غيره وهو رب كل شيء. وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] يعني معبوداً وناصراً وملجأ، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة.

وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤] أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً. وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، ورأيت الحديث[1] يترجم عنها، ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله رباً ولا يبغي رباً سواه، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصراً بل يوالي من دونه أولياء ظناً منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك. بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه. فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته؛ فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون،

(١) يشير إلى قوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً و بالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً» أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤)

ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه، وهذه المقامات الثلاث هي أصل التوحيد أن لا يتخذ سواه رباً ولا إلهاً ولا غيره حكماً»[١] .ا.هـ.

ولمزيد من العلم بهذه الأصول الثلاثة يحسن الرجوع إلى (شرح الأصول الثلاثة) للإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى -.

* * *

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٨١، ١٨٢.

المبحث الرابع

سبل الفرار من الفتن ومنارات النجاة منها

قال الرسول ﷺ: «إن السعيد لمن جنب الفتن ـ قالها ثلاثاً ـ ولمن ابتلي فصبر فواهاً»[1].

وبعد أن تبين لنا في المباحث السابقة خطورة الفتن وكثرة أشكالها وتعدد صورها وضرورة الحذر منها والفرار من شرورها، صار حتماً لمن أراد لنفسه النجاة منها أن يسعى جاهداً في اتخاذ الأسباب الواقية منها والاهتداء بمنارات النجاة التي جاءت في كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة رسوله ﷺ، ومواقف سلف الأمة الذين استناروا فيها بهذه المنارات المنجية فنجاهم الله بها وسلمهم بها من غوائل الفتن. والفرار من الفتن يعني دفعها قبل وقوعها، والسلامة منها بعد وقوعها، والتوبة منها بعد التلوث بها.

فما هي أهم الأسباب المنجية من الفتن بإذن الله تعالى:

قد مر بنا في مبحث أسباب الوقوع في الفتن وشرورها أنها ترجع إلى سببين كبيرين:

١ ـ طريق الشبهات.

٢ ـ طريق الشهوات.

---

(١) أبو داود (٤٢٦٣) في الفتن باب النهي عن السعي في الفتنة، وقال الأرناؤوط: وإسناده صحيح، جامع الأصول ١٠/ ١٨.

وسبق في ذلك المبحث شرحهما. أما أساب النجاة من غوائل الفتن فإنها أيضاً ترجع إلى سببين كبيرين هما:

١ ـ سد باب الشبهات: بالعلم واليقين والبصيرة في الدين ومعرفة الحق بدليله، والإعراض عن الشبهات.

٢ ـ سد باب الشهوات: بالصبر والمجاهدة، ولزوم الحق والانقياد له، ودفع كل ما يحول بين الحق وبين اتباعه.

وتحت كل سبب من هذين السببين عدة وسائل ومنارات تساعد في تحقيقه واكتماله؛ وهذا ما سأفصله في هذا المبحث إن شاء الله – تعالى –. وسأذكرها في صورة منارات متفرقة بعضها يساعد في سد باب الشبهات وبعضها في سد باب الشهوات، مع أنه قد سبق في معرض الحديث عن أنواع الفتن ومظاهرها ذكر شيء من وسائل النجاة منها. لكنه كان على وجه الاختصار، أما في هذا المبحث فسيكون التفصيل إن شاء الله تعالى، ومن هذه المنارات ما يلي:

المنارة الأولى: اللجوء إلى الله – عز وجل – ودعائه والاعتصام به

قال الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال – سبحانه – عن نبيه نوح عليه السلام مع ابنه: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]. وأخبر – عز وجل – عن دعاء نبيه موسى – عليه السلام – بعدما أخذت قومه الصاعقة: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا

فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. والآيات في هذا المعنى كثيرة، والمقصود أن لا يغفل العبد عن هذا الباب من أبواب العصمة والنجاة من الفتن حيث لا يملك التثبيت إلا الله عز وجل ولا يعصم من شرور الفتن؛ إلا هو. وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

(وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه، والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه، فإن ثمرة الاعتصام به: هو الدفع عن العبد. والله يدافع عن الذين آمنوا: فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلى العطب، ويحميه منه؛ فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشر نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه؛ فتفقد في حقه أسباب العطب، فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه)[١].

والمتأمل للأدعية الواردة في الكتاب والسنة يرى فيها معاني التوحيد سواء ما تتعلق بتوحيد الألوهية أو الربوبية، أو الأسماء والصفات، والتوسل إلى الله - عز وجل بها - وكلما امتلأ القلب من توحيد الله - عز وجل - والإيمان به وصدق التوكل عليه واللجوء إليه كلما كان للأدعية ونطقها باللسان أثرها العظيم في عصمة الله - عز وجل - لعبده الداعي، ووقايته له من الفتن وشرورها وبقدر ما يكون في القلب من توحيد الله - عز وجل - يكون الأمن من المخاوف والشرور والفتن، والعكس من ذلك فيما لو تلوّث القلب بشوائب الشرك والنفاق؛ فإن المخاوف والشرور والفتن تحيط

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٦٤.

بصاحب هذا القلب، ويفقد بذلك الأمن والاطمئنان.

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -:

(والخوف دائماً مع الشرك، والأمن دائماً مع التوحيد. قال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم أنه قال في محاجته لقومه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] فحكم الله - عز وجل - بين الفريقين بحكم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وقد صح عن رسول الله ﷺ تفسير الظلم فيها بالشرك وقال ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][(١)]. فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف، والشرك من أعظم أسباب حصول المخاوف؛ ولذلك من خاف شيئاً غير الله سُلِّطَ عليه وكان خوفه منه هو سبب تسليطه عليه ولو خاف الله دونه ولم يخفه لكان عدم خوفه منه وتوكله على الله من أعظم أسباب نجاته منه. وكذلك من رجا شيئاً غير الله حُرِمَ ما رجاه منه وكان رجاؤه غيرَ الله من أقوى أسباب حرمانه؛ فإذا رجا الله وحده كان توحيد رجائه أقوى أسباب الفوز بما رجاه أو بنظيره أو بما هو أنفع له منه، والله الموفق للصواب)[(٢)].

إذن فالإيمان الصادق والتوحيد الخالص وصدق التوجه إلى الله - عز وجل - وإخلاص الدعاء له بتفويض الأمور إليه: كل ذلك يثمر للعبد

---

(١) البخاري في الأنبياء (٣٤٢٩)، ومسلم في الإيمان (١٢٤).

(٢) مفتاح دار السعادة ص ٥٩٦.

طمأنينة وحياة طيبة سليمة من الفتن وشرورها، وسليمة من المخاوف والحيرة والاضطراب؛ فكان لزاماً على من أراد لنفسه النجاة والفكاك أن يلجأ إلى ربه - عز وجل - ويحسن الظن به - سبحانه - وأن يكثر من التضرع والدعاء في أوقات الإجابة وأماكنها ويسأل ربه سبحانه الوقاية من الفتن والثبات على الحق، والاستعاذة من شر الفتن ما ظهر منها وما بطن. فهذا باب عظيم من أبواب التوفيق، ومنارة مضيئة من منارات النجاة والسلامة من الفتن وغوائلها.

وقد جاء في السنة المطهرة الكثير من التوجيهات النبوية الكريمة لهذه الأمة في الاستعاذة من الفتن وشرورها سواء كان بأمره ﷺ أو بفعله ودعائه؛ وفيما يلي ذكر شيء من هذه التوجيهات والتعوذات لعلها تكون هجيرانا ولهجنا، وملجأنا:

● عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: حدثنا زيد بن ثابت عن رسول الله ﷺ قال: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن! قلنا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»[١].

● وعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء، كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»[٢].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/ ٣٥ وقال المباركفوري في تخريج (السنن الواردة في الفتن): إسناده صحيح.

(٢) البخاري (٢/ ٣١٧ فتح). مسلم. كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ١/ ٤١٣ (١٣٤).

وفي شرح هذا الحديث قال ابن دقيق العيد: (فتنة المحيا ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتتان بالدنيا والشهوات والجهالات؛ وأعظمها - والعياذ بالله - أمر الخاتمة عند الموت. وفتنة الممات يجوز أن يراد بها الفتنة عند الموت أضيفت إليه لقربها منه، ويكون المراد بفتنة المحيا على هذا ما قبل ذلك، ويجوز أن يراد بها فتنة القبر.. ولا يكون مع هذا الوجه متكرراً مع قوله: «عذاب القبر» لأن العذاب مرتب عن الفتنة، والسبب غير المسبب، وقيل: أراد بفتنة المحيا الابتلاء مع زوال الصبر، وبفتنة الممات السؤال في القبر مع الحيرة، وهذا من العام بعد الخاص؛ لأن عذاب القبر داخل تحت فتنة الممات، وفتنة الدجال داخلة تحت فتنة المحيا.

وقال ابن بطال: هذه كلمة جامعة لمعان كثيرة، وينبغي للمرء أن يرغب إلى ربه في دفع مانزل ودفع ما لم ينزل، ويستشعر الافتقار إلى ربه في جميع ذلك.

ثم أشار إلى سبب دعائه ﷺ بما ذكر مع أنه معصوم ومغفور له، فقال: وكان ﷺ، يتعوذ من جميع ما ذكر دفعاً عن أمته وتشريعاً لهم ليعيِّن لهم صفة المهم من الأدعية. نقله عنه الحافظ ابن حجر، وذكرت في ذلك أقوال أخرى)(١).

● قوله ﷺ في دعائه الطويل: « ... وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة»(٢).

---

(١) انظر تحقيق المباركفوري لكتاب (السنن الواردة في الفتن للداني) ١/٣٠٤ عن فتح الباري (٢/٣٧١).

(٢) النسائي ٣/٥٤ - ٥٥ وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٢٢٧).

● وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «عائذ بالله من شرور الفتن»[١].

● وعن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة ـ يعني في المنام ـ إلى أن قال: يا محمد إذا صليت فقل: (اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون)»[٢].

● وعن أبي سلمة قال: سألت عائشة – رضي الله عنها –: بِمَ كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة من الليل؟ فقالت: كان يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق. بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[٣].

● وعن ابن أبي مليكة قال: قالت أسماء – رضي الله عنها – عن النبي ﷺ قال: «أنا على حوضي، أنتظر من يرد علي، فيؤخذ بناس من دوني. فأقول: أمتي، فيقال: لا تدري، مشوا على القهقرى»، قال ابن أبي مليكة: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتن[٤].

● وعن عقبة بن عامر قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني

(١) البخاري. كتاب الفتن (٧٠٩١).
(٢) الترمذي كتاب التفسير (٣٢٣١) وهو في صحيح الترمذي (٢٥٨٠).
(٣) مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠) ١/٥٣٤.
(٤) البخاري كتاب الفتن (٧٠٤٨).

أعوذ بك من يوم السوء، ومن ليلة السوء، ومن ساعة السوء، ومن صاحب السوء، ومن جار السوء في دار المقامة»[١].

● وعن حذيفة رضي الله عنه قال: (يأتي عليكم زمان لا ينجو فيه إلا من دعا دعاء الغريق)[٢].

● عن عون بن عبد الله بن عتبة قال: (بينا رجل بمصر في بستان زمنَ فتنة آل الزبير، جالساً كئيباً حزيناً يبكي ينكث في الأرض بشيء معه، فرفع رأسه فإذا صاحب مسحاة قد مثل له، فقال: ما لي أراك مهموماً حزيناً؟ فكأنه ازدراه، فقال: لا شيء، فقال: أبالدنيا؟ فإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة أجل صادق، يحكم فيها ملك قادر، يفصل بين الحق والباطل، حتى ذكر أن لها مفاصل كمفاصل اللحم من أخطأ منها شيئاً أخطأ الحق، وسل: من ذا الذي سأل الله فلم يعطه، أو دعا الله فلم يجبه، أو توكل عليه فلم يكفه، أو وثق به فلم ينجه؟ قال: فعلقت الدعاء فقلت: اللهم سلمني وسلم مني. قال: فتجلت الفتنة ولم تصب منه شيئاً)[٣].

● قال صالح بن أحمد بن حنبل - رحمهما الله تعالى -: كان أبي إذا دعا له رجل يقول: الأعمال بخواتيمها. وكنت أسمعه كثيراً يقول: اللهم! سَلِّمْ سَلِّمْ[٤].

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ٤٥٠ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) مستدرك الحاكم ١ /٥٠٧. والبيهقي في الشعب (١١١٤).

(٣) حلية الأولياء ٤ / ٢٤٤ ط. دار الكتاب العربي.

(٤) مختصر مناقب الإمام أحمد ص ١٦٣.

المنارة الثانية: العلم بالشرع والفقه في الدين

يتحدث شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - عن دور الجهل في وقوع الفتن فيقول: (... لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة، حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ إما أن لا يعرفوا اللفظ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه؛ فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة، ومن هنا يقع الشرك وتفريق الدين كالفتن التي تحدث السيف)[١] .ا.هـ.

إذن: لما كان الجهل بالشرع ومقاصده أحد الأسباب الكبيرة التي تؤدي إلى الفتن وغوائلها؛ فإن الفقه في الدين وتجريد اتباع الرسول ﷺ هما الواقيان بإذن الله - تعالى - من شر الفتن قبل وقوعها، كما أنهما الدواءان والعلاجان للفتن بعد وقوعها، كل ذلك على افتراض الإخلاص ونبذ الهوى؛ لأن دور العلم هو كشف الشبهات وبيان الغي من الرشد والحق من الباطل.

فإذا لم يصاحب العلم إخلاص وتقوى يدفع بهما الهوى لم يكن للعلم فائدة؛ لأن الحق قد يتضح لصاحبه فيتنكبه متعمداً؛ وذلك لهوى وشهوة في النفس. وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -: (إذا سلم العبد من فتنة الشبهات والشهوات حصل له أعظم غايتين مطلوبتين، بهما سعادته وفلاحه وكماله وهما الهدى والرحمة. قال تعالى عن موسى وفتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧ /٣٠٧.

مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، جمع له بين الرحمة والعلم)[١].

والمقصود هنا بالعلم: هو العلم بدين الله - عز وجل - وحدوده وأحكامه كما جاءت في كتاب الله - عز وجل - وأحاديث الرسول ﷺ الصحيحة بفهم السلف الصالح أهل القرون الأولى المفضلة؛ وليس علم المبتدعة المناطقة الفلاسفة المحكمة لآرائهم وعقولهم.

ويفصل الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في جوانب العلم الشرعي المطلوب معرفتها فيقول:

(... فطلب العلم فريضة على كل مسلم، وهل تمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم إلا بالعلم؟ وهل ينال العلم إلا بطلبه؟ ثم إن العلم المفروض تعلُّمه ضربان: ضرب منه فرض عين لا يسع مسلماً جهله، وهو أنواع:

النوع الأول: علم أصول الإيمان الخمسة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر؛ فإن من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان ولا يستحق اسم المؤمن. قال الله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]. ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر»، قال: صدقت. فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها.

(١) إغاثة اللهفان (١/١٦٨)، وانظر المرجع نفسه ١/١٦٥ لمعرفة أثر العلم في النجاة من فتنة الشبهات.

النوع الثاني: علم شرائع الإسلام، واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها: كعلم الوضوء، والصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وتوابعها وشروطها ومبطلاتها.

النوع الثالث: علم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] فهذه محرمات على كل واحد في كل حال على لسان كل رسول لا تباح قط؛ ولهذا أتى فيها بإنما المفيدة للحصر مطلقاً وغيرها محرم في وقت مباح في غيره كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه فهذه ليست محرمة على الإطلاق والدوام؛ فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق.

النوع الرابع: علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصاً وعموماً، والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم، فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته، وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات من تعلم أحكام البياعات كالواجب على من لا يبيع ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجة إليه وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحد لاختلاف الناس في أسباب العلم الواجب، وذلك يرجع إلى ثلاثة أصول: اعتقاد وفعل وترك. فالواجب في الاعتقاد مطابقته للحق في نفسه، والواجب في العمل معرفته وموافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمراً وإباحة، والواجب في الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضاة الله وأن المطلوب

منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المستصحب؛ فلا يتحرك في طلب أو كف النفس عن فعله على الطريقتين. وقد دخل في هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان.

وأما فرض الكفاية: فلا أعلم فيه ضابطاً صحيحاً فإن كل أحد يدخل في ذلك ما يظنه فرضاً فيدخل بعض الناس في ذلك علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحة وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة كالفلاحة والحياكة والحدادة والخياطة ونحوها، وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق وربما جعله فرض عين وبناه على عدم صحة إيمان المقلد. وكل هذا هوس وخبط فلا فرض إلا ما فرضه الله ورسوله؛ فيا سبحان الله! هل فرض الله على كل مسلم أن يكون طبيباً حجاماً حاسباً مهندساً، أو حائكاً أو فلاحاً أو نجاراً أو خياطاً؛ فإن فرض الكفاية كفرض العين في تعلقه بعموم المكلفين وإنما يخالفه في سقوطه بفعل البعض.

ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل أحد جملة هذه الصنائع والعلوم؛ فإنه ليس واحد منها فرضاً على معين والآخر على معين آخر بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم فيجب على كل أحد أن يكون حاسباً حائكاً خياطاً نجاراً فالحاً طبيباً مهندساً، فإن قال: المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك إن كل واحد منها فرض كفاية صحيحاً؛ لأن فرض الكفاية يجب على العموم.

وأما المنطق: فلو كان علماً صحيحاً كان غايته أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها؛ فكيف وباطله أضعاف حقه وفساده وتناقض أصوله واختلاف مبانيه توجب مراعاتها الذهن أن يزيغ في فكره؟

ولا يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرف فساده وتناقضه ومناقضة كثير منه للعقل الصريح)[١] .ا.هـ .

والعلم الذي ينفع صاحبه ويقيه الله به غوائل الفتن ليس بكثرة الرواية والحفظ فحسب وإنما هو الفقه بالأدلة ومقاصد الشريعة ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين، والتريُّث في الحكم على الشيء حتى يتم تصوره من جميع جوانبه . .

● قال ابن عيينة : قال عمرو بن العاص – رضي الله عنه – : ليس العاقل من يعرف الخير من الشر، ولكن هو الذي يعرف خير الشرين[٢] .

ولقد كان السلف – رحمهم الله تعالى – يوصون طلابهم بطلب العلم ويرون فيه عصمة من الفتن وإزالة للشبهات وطرداً لوساوس الشيطان .

● ذكر ابن عبد البر في كتاب « العلم » له : قال ابن وهب : كان أول أمري في العبادة قبل طلب العلم، فولع بي الشيطان في ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام، كيف خلقه الله تعالى؟ ونحو هذا، فشكوت ذلك إلى شيخ، فقال لي : ابن وهب! قلت : نعم. قال : اطلب العلم! فكان سبب طلبي العلم[٣] .

● وقال علي بن محمد بن أبان القاضي: حدثنا أبو يحيى زكريا الساجي، حدثنا المزني، قال : قلت : إن كان أحد يخرج ما في ضميري، وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي، فصرت إليه، وهو في مسجد مصر، فلما جثوت بين يديه، قلت : هجس في ضميري مسألة

---

(١) مفتاح دار السعادة : ص ١٦١، ١٦٢

(٢) سير أعلام النبلاء ٣ / ٧٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٢٤ .

التوحيد، فعلمت أن أحداً لا يعلم علمك، فما الذي عندك؟ فغضب، ثم قال: أتدري أين أنت؟ قلت: نعم، قال: هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون. أبلغَكَ أن رسول الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك؟ قلت: لا، قال: هل تكلم فيه الصحابة؟ قلت: لا، قال: تدري كم نجماً في السماء؟ قلت: لا قال: فكوكب منها: تعرف جنسه، طلوعه، وأفوله، مم خلق؟ قلت: لا، قال: فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه، تتكلم في علم خالقه؟! ثم سألني عن مسألة في الوضوء، فأخطأت فيها، ففرَّعها على أربعة أوجه، فلم أصب في شيء منه، فقال: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات، تدع علمه، وتتكلف علم الخالق، إذا هجس في ضميرك ذلك، فارجع إلى الله، وإلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٣، ١٦٤] فاستدلَّ بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلفْ علم ما لم يبلغه عقلك. قال: فتبتُ[١].

والعلم بالشرع هو الذي يورث الميزان الصحيح الذي توزن به الرايات، والطوائف، وتحدد المواقف منها ولاءً أو براءً. والمراد بهذا الميزان ميزان أهل السنة والجماعة الذي هو الحق والوسط بين الغلو والجفاء. والذي من وزن به عدل وأصاب.

ومن الفقه في الدين والعلم بمقاصد الشرع تقدير ما يقال وما لا يقال للناس حسب عقولهم وأحوالهم والنوازل التي تحيط بهم؛ لأن في تجاهل هذه الأمور فتنة للناس، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في مبحث الفتنة بالعلم[٢] وحول هذا المعنى يقول الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: (إن

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣١.

(٢) انظر ص ٢٦٢ - ٢٦٤.

للقول والعمل في الفتن ضوابط؛ فليس كل مقال يبدو لك حسناً تظهره، وليس كل فعل يبدو لك حسناً تفعله؛ لأن الفتنة قولك فيها يترتب عليه أشياء، ولأن الفتنة عملك فيها يترتب عليه أشياء... والمقصود من هذا: أنه في الفتن ليس كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يقال يقال في كل الأحوال. لا بد من ضبط للأقوال؛ لأنك لا تدري ما الذي سيحدثه رأيك؟ وما الذي سيحدثه فهمك. والسلف رحمهم الله أحبوا السلامة في الفتن، فسكتوا عن أشياء كثيرة، طلباً للسلامة في دينهم، وأن يلقوا الله جل وعلا سالمين)[1] .ا.هـ.

المنارة الثالثة: الرفق والحلم والأناة

إن من أخطر الأمور على المسلم أيام الفتن عجلته وتسرعه وتركه الرفق والأناة والتؤدة، فكم من الذين تورطوا في الفتن أياً كان نوع هذه الفتن قد أقروا بندمهم على تسرعهم وتعجلهم في أمر كان لهم فيه أناة، ولكن حين لا ينفع الندم في بعضها.

وقد ذم الله عز وجل العجلة في القرآن في أكثر من موطن، منها قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١] وقد مدح الرسول ﷺ أشج عبد القيس بقوله: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»[2].

ومدح ﷺ التؤدة والأناة بقوله: «التؤدة في كل شيء [خير] إلا في

(١) الضوابط الشرعية لموقف المسلم في الفتن ص ٣٨، ٤١ (باختصار)

(٢) مسلم في الإيمان (١٨).

عمل الآخرة»[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه»[٢].

وإذا كان الحلم والأناة والرفق صفات محمودة في كل آن وحال فإنها في أيام الفتن واضطراب الأحوال تكون محمودة بشكل أكبر والحاجة إليها تكون أشد.

● فعن الزهري عن رجل من بلي قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ فانتجاه دوني، فقلت: يا أبة أي شيء قال لك رسول الله ﷺ؟ قال: «إذا هممت بأمر فعليك بالتؤدة حتى يأتيك الله بالمخرج من أمرك»[٣].

● وهذا عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – يصف لنا حال التأني أيام الفتن وحال المتعجل فيها، وما يؤول إليه أمر كل منهما، فعن عبد الله ابن عبيد بن عمير عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: إنما مثلنا في هذه الفتنة كمثل قوم يسيرون على جادة يعرفونها، فبينا هم كذلك. إذ غشيتهم سحابة وظلمة، فأخذ بعضهم يميناً وشمالاً، فأخطأ الطريق، وأقمنا حيث أدركنا ذلك، حتى جلا الله ذلك عنا، فأبصرنا طريقنا الأول، فعرفناه، فأخذنا فيه. إنما هؤلاء فتيان قريش يقتتلون على هذا السلطان وعلى هذه الدنيا، ما أبالي أن لا يكون لي ما يقتل عليه بعضهم بعضاً بنعلي هاتين الجرداوين[٤].

---

(١) أبو داود. كتاب الأدب (٤٨١٠) وصححه الألباني في السلسلة (١٧٩٤).
(٢) مسلم في البر (٢٥٩٤).
(٣) المطالب العالية ٣/ ٣٦ وقال البوصيري: رواته ثقات.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٣٧.

• ومن ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث الليث بن سعد عن موسى بن علي عن أبيه قال: قال المستورد القرشي عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: لئن قلت ذاك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كَرَّة بعد فَرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك(١).

وفي تفسير عمرو بن العاص رضي الله عنه في كون الروم أكثر الناس عند قيام الساعة وذلك بتحليهم بصفات منها أنهم أحلم الناس عند فتنة دليل على أن الرفق والحلم أيام الفتن مما يجنب به الناس الشرور وهلاك الأنفس والأموال والذي هو من شأن الفتن إذا اشتعلت، ونحن المسلمين أوْلى من النصارى بهذه الصفات؛ لأن في ديننا ما يحثنا عليها ويمدح المتصفين بها؛ كما أن في سيرة سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - نماذج مضيئة للالتزام بهذه الصفات.

• ولعل من هذا الباب كراهية السلف التعجل في إفتاء الناس، أو إفتائهم في قضايا لم تقع بعدُ؛ لأن الواقعة تختلف في وصفها قبل الوقوع عنها بعد الوقوع، وقد يكون فيها من الملابسات والأحوال ما لا يظهر إلا بعد الوقوع. وهذا مما يعين المفتي على تصور الواقعة من جميع جوانبها وبالتالي الوصول فيها إلى الحق بإذن الله تعالى، والشواهد التالية تؤكد ذلك:

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن. باب: تقوم الساعة والروم أكثر الناس (٢٨٩٨).

● عن عامر الشعبي قال: سئل عمار – رضي الله عنه – عن مسألة فقال: كان هذا بعدُ؟ قالوا: لا، قال: دعونا حتى يكون، فإذا كان تجشمنا، لك»[١].

وعن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – رفعه عن رسول الله ﷺ قال: «لا تعجلوا بالبلية قبل نزولها؛ فإنكم إن لم تفعلوا لم ينفك المسلمون أن يكون منهم من إذا قال وفق ـ أو قال: سدد ـ وإنكم إن استعجلتم بالبلية قبل نزولها ذهب بكم السبل هاهنا، وهاهنا»[٢].

وإن مما يعين على التؤدة والأناة كثرة المشاورة لأهل العلم والعقل والتجربة وعدم الانفراد بالرأي في اتخاذ المواقف وأخذ القرارات وبخاصة أيام الفتن واختلاف الآراء، واضطراب الأمور. فعن أبي هريرة – رضي الله عنه ـ قال: «ما رأيت أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»[٣].

وقال مطرف بن الشخير: «من استفتح باب الرأي من وجهه وأتاه من طريقه ضمنت له النجح وتحملت عنه الخطأ، قيل: ما وجهه وأين طريقه؟ قال يبدأ بالاستخارة ثم الاستشارة، ولا يشاور إلا عارفاً حدباً عليه»[٣].

وقال عبد الله بن المعتز: (من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحاً وعند الخطأ عاذراً)[٤].

---

(١) المطالب العالية ٣/١٠٦ وقال المحقق: رواه الدارمي عن إسحاق ص ٢٩. وفي المسندة: هذا موقوف رجاله ثقات وهو صحيح إن كان الشعبي سمع من عمار.
(٢) المطالب العالية ٣/١٠٦ وقال البوصيري: رواه إسحاق بإسناد حسن، لابن أبي شيبة.
(٣) الفقيه والمتفقه ٢/٣٩٣.
(٤) الترمذي (٢٥١٨).

ومما يدخل في العجلة أيام الفتن ما ذكره الشيخ صالح آل الشيخ - حفظه الله - في ضوابط الفتن؛ حيث قال:

(أن لا تطبق - أيها المسلم - أحاديث الفتن على الواقع الذي تعيش فيه؛ فإنه يحلو للناس عند ظهور الفتن مراجعة أحاديث النبي ﷺ في الفتن، ويكثر في مجالسهم: قال النبي ﷺ كذا؛ هذا وقتها، هذه هي الفتنة! ونحو ذلك.

والسلف علمونا أن أحاديث الفتن لا تُنزَّل على واقع حاضر، وإنما يظهر صدق النبي ﷺ بما أخبر به من حدوث الفتن بعد حدوثها وانقضائها، مع الحذر من الفتن جميعاً.

فمثلاً: بعضهم فسَّر قول النبي ﷺ: «إن الفتنة في آخر الزمان تكون من تحت رجل من أهل بيتي»؛ بأنه فلان ابن فلان، أو أن قول النبي ﷺ: «حتى يصطلح الناس علي رجل كورك على ضلع»؛ بأن المقصود به فلان ابن فلان، أو أن قول النبي ﷺ: «يكون بينكم وبين الروم صلح آمن ..» إلى آخر الحديث، وما يحصل بعد ذلك؛ أنه في هذا الوقت.

وهذا التطبيق لأحاديث الفتن على الواقع، وبث ذلك في المسلمين، ليس من منهج أهل السنة والجماعة.

وإنما أهل السنة والجماعة يذكرون الفتن وأحاديث الفتن؛ محذِّرين منها، مباعدين للمسلمين عن غشيانها أو عن القرب منها؛ لأجل أن لا يحصل بالمسلمين فتنة، ولأجل أن يعتقدوا صحة ما أخبر به النبي ﷺ(١).

---

(١) الضوابط الشرعية لموقف المسلم من الفتن ص ٥٢.

المنارة الرابعة: لزوم التقوى والعمل الصالح

العمل الصالح ثمرة التقوى التي هي القيام بما أمر الله – عز وجل – وترك ما نهى عنه بشرط الإخلاص لله تعالى والمتابعة في كل ذلك لما جاء به الرسول ﷺ. وقد بين الله – عز وجل – في كتابه الكريم أثر التقوى في تيسير الأمور والخروج من الأزمات والمضايق فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

[الأنفال: ٢٩]

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾.

[الطلاق: ٤]

ومن الأحاديث قوله ﷺ: « .. احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك... الحديث»[١].

ولا شك أن للعمل الصالح وكثرة العبادة والصلة بالله – عز وجل – وكثرة ذكره واستغفاره أثراً عظيماً في الوقاية من الفتن قبل وقوعها والنجاة

---

(١) الترمذي (٢٥١٨).

منها بعد نزولها لأن أيام الفتن أيام شغل وذهول، فمن كان له رصيد من الأعمال الصالحة قبل ذلك فإنه حري بالنجاة من الفتن إذا وقعت . ويشهد لذلك ما ذكره بعض المفسرين عند قوله تعالى عن يونس عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، قال الشيخ السعدي – رحمه الله تعالى - : ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾: أي في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده وفي بطن الحوت»[١] . ومن ذلك قوله ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[٢] .

ويعلق ضياء الدين المباركفوري على هذا الحديث فيقول:

(وأما معنى مبادرة الفتن بالأعمال فذكر ابن الأثير أنه الانكماش والإسراع إلى الأعمال الصالحة والاهتمام بها قبل وقوعها، وذكر النووي عند شرحه للحديث أن فيه الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر، ووصف ﷺ نوعاً من شدائد تلك الفتن، وهو أنه يمسي مؤمناً، ثم يصبح كافراً أو عكسه، وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب .

---

(١) تفسير السعدي ٤ / ٢٧٢ .

(٢) مسلم كتاب ا لإيمان (١١٨)

وأما كون الرجل يمسي مؤمناً ثم يصبح كافراً أو عكسه فذكر المباركفوري أن ذلك إما يكون حقيقة، وإما يكون مجازاً، وعلى الثاني يكون المعنى كافراً للنعمة أو مشابهاً للكفرة، أو عاملاً عمل الكافر، وقيل: إن معناه أنه يصبح محرماً لما حرمه الله ثم يمسي مستحلاً إياه وبالعكس، وقد روي عن الحسن البصري أنه قال: يصبح محرماً لدم أخيه وعرضه وماله، ويمسي مستحلاً له، ويمسي مستحلاً لدم أخيه وعرضه وماله، ويصبح محرماً له)[١] .ا.هـ.

ومن الآثار الواردة أيضاً في فضل العمل الصالح والعبادة زمن الفتن ما رواه معقل بن يسار – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «العبادة في الهرج كهجرة إليَّ»[٢] وفي رواية عند الإمام أحمد – رحمه الله تعالى –: «العمل في الهرج والفتنة كالهجرة إليَّ»[٣].

قال الحافظ ابن رجب – رحمه الله تعالى –: (وسبب ذلك أن الناس في زمن الفتن يتبعون أهواءهم ولا يرجعون إلى دين فيكون حالهم شبيهاً بحال الجاهلية فإذا انفرد من بينهم من يتمسك بدينه ويعبد ربه ويتبع مراضيه ويجتنب مساخطه كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهلية إلى رسول الله ﷺ مؤمناً به متبعاً لأوامره مجتنباً لنواهيه)[٤] .ا.هـ.

---

(١) انظر النهاية (٢/ ٣٧) وشرح النووي (٢/ ١٣٣) وتحفة الأحوذي (٣/ ٢٢١) (عن كتاب السنن الواردة في الفتن وغوائلها لأبي عمرو الداني ت: المباركفوري ١/ ٢٦١.

(٢) مسلم كتاب الفتن (٢٩٤٨).

(٣) مسند أحمد ٥/ ٢٥.

(٤) عن كتاب إتحاف الجماعة للشيخ التويجري رحمه الله تعالى ١/ ٩٣.

وكذلك لما في العبادة من الدعاء والتضرع واللجوء إلى الله – عز وجل – والاعتصام به من شرور الفتن، وقد سبق الكلام عن أثر ذلك في المنارة الأولى.

ومن أفضل الأعمال الصالحة التي تُقاوَم بها الفتن: الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله – عز وجل – لمن قدر على ذلك حيث إن في ذلك درءاً للمفاسد والفتن، ليس عن الفرد فحسب وإنما عن الأمة التي لو تركت لأهل الفساد وأهل الفتن لكان في ذلك هلاكها وخسارتها في الدنيا والآخرة. ولأهمية هذه الشعيرة فسأفردها بمنارة مستقلة إن شاء الله تعالى.

ومن أفضل الأعمال الصالحة التي يُتقرب بها إلى الله – عز وجل – ويعصم الله سبحانه بها عبده من الفتن والشرور كثرة ذكر الله – عز وجل – في اليوم والليلة سواء ما كان منها من الأذكار المقيدة أو المطلقة. والحديث القدسي التالي يشهد بذلك:

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني. فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»(١).

---

(١) البخاري. كتاب التوحيد (٧٤٠٥)، مسلم كتاب الذكر (٢٦٧٥)

فذكر الله – عز وجل – في هذا الحديث القدسي معيته للذاكرين وقربه من المتقربين ومن كان الله معه فقد فاز وأفلح ونجا من المهلكات والفتن.

ومن الأعمال الفاضلة أيضاً التي ينجي الله سبحانه بها من الفتن والمضايق والكروب كثرة الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله عز وجل، يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى –: (وشهدت شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستعصت عليه فر منها إلى التوبة والاستغفار والاستغاثة بالله – عز وجل – واللجأ إليه واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مداً...)[١].

وأختم هذه المنارة بحديث قدسي آخر فيه دلالة واضحة على معية الله – عز وجل – للمتقربين إليه بالطاعات فروضها ونفلها حيث يحمي أسماعهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم من أن تعمل إلا بنوره وفي ما يحبه ويرضاه، وأكتفي بالشاهد من هذا الحديث وهو قوله تعالى: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه.. الحديث)[٢].

---

(١) إعلام الموقعين ٤/١٧٨

(٢) البخاري. كتاب الرقاق (٦٥٠٢) [فتح ١١/٣٤٨].

المنارة الخامسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى

إن من أفضل الأعمال الصالحة وأحبها إلى الله – عز وجل – الدعوة إلى الله – تعالى – والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر، والجهاد في سبيله – عز وجل –. وهذه المنارة وإن كانت تابعة لما قبلها إلا أنه لما كان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى أثر كبير في النجاة من الفتن آثرت إفرادها هنا للتأكيد على أهميتها.

إن الدعوة إلى الله – عز وجل – وأمر الناس بالخير ونهيهم عن الشر، ومواجهة الفساد باللسان والسنان، إن كل ذلك لمن أعظم الأسباب المنجية من الفتن وغوائلها، بل إن القيام بها يعصم وينجي من الفتن ويمنع وقوعها، ذلك لأن معظم الفتن التي مرت بنا في ثنايا البحث إنما تنشأ من تعطيل هذه الشعائر العظيمة التي هي صمام الأمان من الشرور والفتن للمجتمعات والأفراد.

ونظرة سريعة لتاريخ الأمة الإسلامية ترينا مصداق ذلك، فما من فترة أصاب المسلمين فيها الذلة والشرور والفتن إلا كان أعظم الأسباب في ذلك ضعف الأمر والنهي وتعطيل الجهاد وميل الناس إلى الدنيا قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩]. وقال عز وجل: ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]، وقال سبحانه عن فتنة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]. وقال عز وجل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقد يوجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنَّ القائمين به قلة لا تكفي جهودهم في مواجهة الفساد العظيم مما قد تتعرض الأمة بسببه للفتنة والعذاب، وحينئذ ينجي الله - عز وجل - القلة الذين ينهون عن الفساد في الأرض ويقيهم شر الفتنة بما قاموا به من الدعوة والجهاد. قال الله - تعالى - عن الذي أنكروا على المعتدين في السبت من اليهود: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وقال سبحانه أيضاً: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

إذن فالقيام بهذه الشعيرة العظيمة يعد من أكبر الأسباب الواقية من الفتن قبل وقوعها، والمنجية منها حين وقوعها سواء كان ذلك عن الأمة بأسرها أو عن القائمين بها في حالة قلتهم وعدم كفايتهم في مواجهة الشر والفساد أو عدم قبول الناس لنصحهم ودعوتهم.

المنارة السادسة: الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة

إن باب الشهوات الذي تدخل منه أكثر الفتن إلى قلب المسلم إنما ينشأ من الرغبة في الدنيا والتعلق بها وزينتها ونسيان الآخرة وأهوالها وما أعد الله - عز وجل - فيها من النعيم السرمدي أو العذاب الأبدي؛ ولذا فإن أعظم ما يسد به هذا الباب هو الزهد في الدنيا والإنابة إلى دار الخلود وعدم نسيانها. وكلما قوي هذا الجانب في قلب العبد كان أبعد عن الشهوات التي هي باب خطير من أبواب الفتن، وأصل كبير من أصول الشرور والمعاصي، ويمكن إيضاح هذا الأمر بالوقفات التالية:

● مر بنا في ثنايا البحث الكلام عن فتنة الدنيا والتنافس عليها وطلب العلو والرئاسة فيها والتحاسد والتباغض بسببها... إلخ. إن كل هذا لا علاج له في قلب العبد إلا بالزهد في الدنيا والنظر إليها بأنها متاع زائل وسبيل عابر إلى الآخرة الباقية الدائمة. إن إنشاءَ هَمٍّ الآخرة وإعمالَ الفكر الدائم فيها، وخوف الوقوف بين يدي الله - عز وجل - كل ذلك من شأنه أن يخفف أو يقطع حب الدنيا والركون إليها والغرور بمتاعها الذي هو أصل فتنتها وشرورها.

● كما مر بنا في فتنة الافتراق والاختلاف بين المسلمين مظاهر عديدة من الوقوع في هذه الفتنة تعود في أصلها إما إلى شبهة تعالج بالعلم والدليل أو إلى شهوة وهوى وهذه لا يعالجها إلا التقوى والزهد في الدنيا والرغبة في ما عند الله - عز وجل - في الآخرة والرهبة من عقوبته التي أعدها للظالمين. فإن لم ينشأ هذا الهَمُّ في النفوس فإنها تميل بطبيعتها إلى

الظلم والعدوان والهوى، ومن ذلك تنشأ الفرقة وينشأ الاختلاف والتقاطع والتدابر بين أبناء الأمة.

كذلك مر بنا في الفتنة بالعلم صور عديدة من الفتنة بالعلم كالرياء والمفاخرة والكبر وطلب الدنيا والرئاسة وكتم الحق ولبسه بالباطل والتحايل على شرع الله - عز وجل -... الخ. وكل هذه الفتن والأمراض لا يكسرها ويقمعها إلا الزهد في الدنيا ومتاعها الزائل والخوف من يوم التلاق ويوم الحسرة ويوم التغابن؛ وبقدر ما يكون في القلب من تذكُّر هذه المواقف العظيمة والاستعداد لها وعدم الغفلة عنها بقدر ما ينشأ في القلب من التقوى والإخلاص والخلوص من هذه الفتن التي تهلك العبد يوم القيامة وتأكل حسناته.

إذن فلا علاج لفتنة الشهوات والأهواء إلا باليقين الجازم بالرجوع إلى الله - عز وجل - والوقوف بين يديه والتذكر الدائم للآخرة وما فيها من الحساب، والجزاء. كل ذلك من شأنه التزهيد في الدنيا ومتاعها الزائل الذي هو أصل فتنة الشهوات والأهواء. وما وقع من وقع في فتنة الدنيا وشهواتها إلا بضعف اليقين في يوم القيامة والانقلاب إلى الله - عز وجل - أو بنسيان ذلك اليوم والغفلة عنه بالانشغال بالدنيا وزينتها، وإلا فلا يمكن لعبد امتلأ بهمِّ الآخرة قلبه وأعرض عن الدنيا وزينتها أن تؤثر عليه فتنة الشهوات ومغرياتها؛ ولذلك كانت هذه المنارة من أعظم المنارات التي ينجي الله - عز وجل - بها العبد من الفتن وغوائلها.

ومن الأسباب التي تدفع الغفلة وتبعث الزهد في الدنيا والإنابة إلى الآخرة وعدم نسيانها ما يلي:

- كثرة ذكر الموت وزيارة المرضى وشهود الجنائز وزيارة القبور.

- ومنها مصاحبة الصالحين الذين تذكر رؤيتهم وأقوالهم الآخرة والاستعداد لها، والإكثار من القراءة في سير من مات منهم.

- ومنها كثرة قراءة القرآن وتدبره وبخاصة في صلاة الليل، وكثرة ذكر الله - عز وجل - ودعائه والتضرع إليه.

- تقصير الأمل والاستعداد لمباغتة الأجل في كل لحظة.

- محاسبة النفس والتفكير الدائم في غايتها في هذه الحياة ومصيرها بعد الموت.

- تقليل الخلطة بالناس إلا فيما ينفع، واختيار أوقات يخلو العبد فيها بربه بعيداً عن الناس كالاعتكاف في رمضان وما بعد العصر أو الفجر في المساجد وخاصة ما بعد عصر يوم الجمعة[١].

وعن قصر الأمل ومعناه يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى -:

(فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب؛ فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز

---

(١) ارجع في تفصيل هذه الأسباب إلى رسالة (قل هو نبأ عظيم) للمؤلف ص ١٣٥ وما بعدها.

الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طي صحائف الأعمال. ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة؛ فيقوم بقلبه ـ إذا داوم مطالعة قصر الأمل ـ شاهد من شواهد اليقين. يريه فناء الدنيا وسرعة انقضائها وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرة. ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها. وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال. ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة. وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ – ٢٠٧][(١)].

ويزيد الأمر وضوحاً بقوله رحمه الله تعالى:

(لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف

(١) مدارج السالكين ١ / ٤٥.

فطالبها لا ينفك من همٍّ قبل حصولها، وهمٍّ في حال الظفر بها وغم وحزن بعد فواتها. فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات والتفاوت الذي بينه وبين ما هاهنا، فهي كما قال سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٧]. فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة. فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه)[1].

والحاصل مما سبق أن الزهد في الدنيا ومتاعها الزائل والرغبة فيما عند الله - عز وجل - في الآخرة وهي خير وأبقى من أعظم أسباب النجاة من الفتن؛ إذ أن معظم الفتن إنما ينشأ من حب الدنيا والركون إليها والتنافس عليها ومن ذلك ينشأ الحسد وحب الرئاسة والعلو والفرقة والاختلاف والظلم والعدوان ومجانبة العدل والإنصاف ومداهنة الخلق والتنازل عن الحق والركون إلى أهل الجاه والسلطان... الخ هذه الفتن المتعددة.

فنسأله سبحانه أن لا يجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، وأن يرزقنا الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله.

---

(١) الفوائد ص ١٧٧.

المنارة السابعة: لزوم الجماعة ونبذ الفرقة

يقول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

[آل عمران: ١٠٣]

ويقول سبحانه أيضاً: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

[آل عمران: ١٠٥]

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال:

خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس! إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، فقال:

«أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُستحلف، ويشهد الشاهد ولا يُستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان. عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة؛ فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد. من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة. من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن»[١].

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٧٥٨).

وعن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال قال رسول الله ﷺ : « الجماعة رحمة، والفرقة عذاب »[١].

وسبق قول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: (الخلاف شر)[٢].

وقوله رضي الله عنه : (وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة)[٣].

وقال الليث بن سعد وغيره: كتب رجل إلى ابن عمر أن اكتب إليَّ بالعلم كله. فكتب إليه: إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيفَ الظهر من دماء الناس، خميصَ البطن من أموالهم، كافَّ اللسان عن أعراضهم، لازماً لأمر جماعتهم، فافعل[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -:

« سبب الاجتماع والألفة جمع الدين، والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطناً وظاهراً.

وسبب الفرقة: ترك حظ مما أمر العبد به، والبغي بينهم.

ونتيجة الجماعة: رحمة الله ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤ / ٢٧٢) وصححه الألباني في السلسلة (٦٦٧).

(٢) سبق تخريجه بتمامه ص ١٧٩.

(٣) رواه اللالكلائي في شرح أصول أهل السنة ١ / ١٢١.

(٤) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٢٢.

ونتيجة الفرقة: عذاب الله ولعنته وسواد الوجوه وبراءة الرسول منهم»[١].

والأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف ومواقفهم التي تدل وتحث على المحافظة على هذا الأصل العظيم من أصول الدين كثيرة جداً ليس هذا مقام تفصيلها وإنما المقصود الإشارة إلى أهمية الاجتماع والوحدة والائتلاف وأثر ذلك في الوقاية من الفتن وغوائلها، والتحذير من الفرقة والاختلاف وأنها أصل كبير وباب خطير من أبواب الفتن.

ولو تتبعنا أحكام الإسلام ومبادئه لرأيناها مبنية على هذا الأصل، فكثير من العبادات تقوم على الاجتماع والترابط والتكافل، وكثير من البيوع والمعاملات المحرمة إنما حرمت لحسم مادة الفرقة والاختلاف والشحناء والبغضاء بين المسلمين، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

إذن فلزوم الجماعة ونبذ الفرقة من أكبر المنجيات والعواصم من قواصم الفتن والشرور، وما نمت بذور الفتن إلا في أرض الفرقة والاختلاف. والتاريخ أكبر شاهد على ذلك. فإن أردنا السلامة من الفتن وشرورها؛ فلنكن عوامل بناء وتأليف وجمع لكلمة المسلمين، ولنحذر من أن نكون عوامل هدم وتفريق بين المؤمنين، وما فرح الشيطان وأولياؤه من الجن والإنس بشيء أشد من فرحهم بالفرقة والتحريش بين المسلمين؛ لأنها فرصتهم الثمينة في نشر ما يريدونه من الشرور والفساد، بل فرصتهم التي

---

(١) مجموع الفتاوى ١ /١٧.

لا تعوض في بسط نفوذهم على بلاد المسلمين.

ولكن ما هي الجماعة التي أُمِرْنا بلزومها وفيها العصمة من الفتن؟

ذكر الشاطبي رحمه الله تعالى أقوالاً خمسة منسوبة إلى علماء الأمة في معنى الجماعة التي ورد الحث على لزومها في الأحاديث وأقوال السلف، وبالتأمل فيها نجد أنها تنتهي إلى قولين رئيسين ذكرهما الدكتور جمال بادي حفظه الله تعالى في كتابه (وجوب لزوم الجماعة) حيث يقول:

(فيحصل لنا بذلك قولان في معنى الجماعة التي دلت الأحاديث على وجوب لزومها وهما:

الأول: جماعة العقيدة والمنهج، وذلك بأن يلتزم المسلم ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته - رضوان الله عليهم أجمعين - من أمور الاعتقاد وأصول الدين وهذا هو الأصل والأساس.

الثاني: الجماعة - بالمعنى الخاص - وذلك بلزوم جماعة المسلمين التي لها إمام موافق للشرع وعدم مفارقتها وعدم نكث بيعة الإمام فضلاً عن الخروج عليه)[١]. ا.هـ.

وعلى هذا فإن من ترك عقيدة السلف وخالفها في أصول كلية فإنه داعية فرقة وبدعة وشر على المعنى الأول للجماعة، ومن فارق جماعتهم المجتمعين على إمام شرعي فهو أيضاً داعية فرقة على المعنى الثاني للجماعة.

---

(١) وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق ص: ٩٧.

وقد يجد المسلم نفسه في زمان يخلو من إمام شرعي يقوم بتحكيم الشريعة وحراستها كما هو الحال في البلاد الشيوعية أو النصرانية أو أكثر بلدان المسلمين اليوم، حيث لم يقف الأمر عند تعطيل الشريعة ورفضها بل تجاوز ذلك إلى سن الشرائع والقوانين الوضعية التي يُلزم الناس بها وفيها تُستحل المحرمات ويحكم بها في الدماء والأموال والعقول والأعراض، فإن المسلم والحالة هذه يُكتفى منه في لزوم الجماعة أن يلزم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه – رضي الله عنهم – وأن يتعاون مع من يجده في وقته على هذا المذهب ـ مذهب أهل السنة والجماعة ـ، حتى يظهره الله – عز وجل – وينصره ويمكّن له في الأرض.

ولكن هل يعني لزوم جماعة أهل السنة والجماعة أن لا يحصل خلاف بينهم؟ لا؛ فهذا أمر متعذر، لكنه خلاف مقبول غايته الوصول إلى الحق بود وإخاء وتجرد وإخلاص، وموضوعه فروع الأحكام وما يتعلق بها دون العقائد وأصولها. ولقد اختلف السلف في مسائل فقهية كثيرة فما تفرقوا وما تخاصموا وكانوا عباد الله إخواناً فهلاً وسعنا ما وسعهم؟!

والخلاف الذي وقع بين السلف في ذلك له أسباب كثيرة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في رسالته النفيسة: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) فلنرجع إليها لعلنا نعذر إخواننا من طلبة العلم والدعاة فيما اختلفوا فيه من غير فرقة وشحناء.

ويحسن بهذه المناسبة التعريج على مسألة مهمة فيها طرفان ووسط، ألا وهي مسألة (الاجتماع وترك الفرقة) فما هما الطرفان فيها والوسط؟

الطرف الأول: نظر إلى أهمية الاجتماع وخطر التفرق وانطلق من حرصه

على الترابط وتقوية الصفوف، فوسَّع مفهوم الجماعة حتى أُدخِلَ فيها من ليس منها من أهل الفرق والبدع والضلالات كالرافضة والمعتزلة والمتصوفة والأشاعرة... إلخ؛ وذلك بحجة الصراع مع قوى الكفر والإلحاد. فحصل بذلك تميُّع في مفهوم الجماعة الشرعي الذي هو ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه الكرام. وهذا غلط وانحراف.

الطرف الثاني: ضيَّق مفهوم الجماعة حتى انتهى به الأمر إلى إخراج طوائف وأفراد من دائرة أهل السنة والجماعة بحجة وقوعهم في أخطاء بعضها يسعه الخلاف والآخر لا يسعه؛ ولكنهم لم ينطلقوا فيه من أصول أهل البدع بدليل بقائهم بالجملة على عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد أدى هذا التضييق عند بعضهم إلى إخراج كثير من أئمة الفقه والحديث عن أهل السنة بحجة أنهم مبتدعة ضُلاَّل كالإمام النووي والبغوي وابن حجر والشاطبي وغيرهم رحمهم الله تعالى وهذا غلط[(١)]. إضافة إلى أن مضيقي مفهوم الجماعة اعتبروا ما سواهم مبتدعاً ضالاً، وهذا أيضاً غلط وانحراف.

الوسط: وهو الذي قرره الإمام الشاطبي – رحمه الله تعالى – في كتابه النفيس: (الاعتصام) حيث حدد الضابط لكون الشخص من أهل السنة والجماعة أو مفارقاً لهم، فقال:

(المسألة الخامسة: وذلك أن هذه الفرق إنما تصير فِرَقاً – بخلافها للفرقة الناجية – في معنى كلي في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئي من

---

(١) فكما أن المبتدع الضال لا يعد من أهل السنة فيما لو وافقهم في جزئية أو أكثر؛ فكذلك لا يعتبر الموافق لأهل السنة في أصولهم بالجملة خارجاً عنهم فيما لو خالفهم في جزئية أو اثنتين. وإنما يقال: وافق أهل البدع في هذه الجزئية أو تلك.

الجزئيات؛ إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعاً، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية؛ لأن الكليات نص من الجزئيات غير قليل، وشأنها في الغالب أن لا تختص بمحل دون محل، ولا بباب دون باب.

ويجري مجرى القاعدة الكلية كثيرة الجزئيات؛ فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة؛ عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة؛ كما تصير القاعدة الكلية معارضة أيضاً...

وأما الجزئي، فبخلاف ذلك، بل يعد وقوع ذلك من المبتدع له؛ كالزلة والفلتة، وإن كانت زلة العالم مما يهدم الدين، حيث قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: ثلاث يهدمن الدين: زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، وأئمة مضلون. ولكن إذا قرب موقع الزلة؛ لم يحصل بسببها تفرق في الغالب، ولا هدم للدين، بخلاف الكليات)[١] .ا.هـ.

والمقصود أن دائرة أهل السنة والجماعة أوسع مما يراه المضيقون لها، كما أنها ليست عقيدة متميعة وغير منضبطة بحيث يدخل فيها ما هب ودب من أهل البدع والضلالات.

والمنتسبون إلى أهل السنة والجماعة يتفاوتون في تكميل صفات أهل السنة فبعضهم أكمل من بعض في العقيدة، والبعض الآخر أكمل في السلوك وأخلاق السلف، وبعضهم أكمل في الدعوة والتعليم والجهاد في سبيل الله، لكنهم يبقون بجملتهم في دائرة أهل السنة والجماعة؛ وكلما قرب المنتسب إليهم من الكمال كان أفضل، والمقصر منهم لا يزال منهم ما لم يتبنَّ أصلاً من

---

(١) الاعتصام ٢/٧١٢، ٧١٣ ت. سليم الهلالي (باختصار).

أصول أهل البدع الكلية عن علم ودراية .

والاختلاف في الاجتهادات والنوازل وأحكامها وارد بين أهل السنة، لكنه لا يؤدي إلى فرقة وشحناء، وإذا أدى إلى ذلك فلا بد أن هناك بغياً وهوى وهذا هو الخطير في الأمر. يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (ولكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد)(١) .

وقال أيضاً: (فلا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد السائغ، بل مع نوع بغي)(٢) ومن هذا الكلام ندرك أن من أسباب الفرقة وجود الهوى والبغي وهذا لا علاج له إلا بتقوى الله – عز وجل – والزهد في الدنيا كما مر بنا في المنارات السابقة، كما أن هناك سبباً آخر ألا وهو الجهل بالشرع ومقاصده وعلاج ذلك العلم بالشرع والفقه في الدين، وقد أفلح من كان مفتاحاً للخير والألفة والاجتماع مغلاقاً للشر والفرقة والفتن، وخاب من كان عكس ذلك. نسأل الله العافية .

المنارة الثامنة: اعتزال الفتن وأهلها

إن المتأمل لأحاديث الرسول ﷺ ومواقف السلف أيام الفتن يجد فيها التحذير الشديد من المشاركة فيها بأي نوع من أنواع المشاركة وضرورة اعتزالها وأهلها؛ ففي ذلك النجاة بإذن الله – تعالى – وفي ذلك العافية والسلامة في الدنيا والآخرة.. والمنقول لنا من مواقف السلف ومن بعدَهم شاهدة بذلك؛

---

(١) (٢) الاستقامة ١ / ٣١.

فما من أحد اختار لنفسه العزلة أيام الفتن إلا كان محمود العاقبة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (ومن استقرأ أحوال الفتن التي تجري بين المسلمين تبين له أنه ما دخل فيها أحد فحمد عاقبة دخوله، لما يحصل له من الضرر في دينه ودنياه ولهذا كانت من باب المنهي عنه، والإمساك عنها من المأمور به)[١]. ا.هـ.

ولما كان موضوع العزلة من المواضع التي تكثر فيها الاجتهادات وتختلف فيها المواقف، رأيت بسط الكلام في هذا الموضوع والانطلاق في بحثه من حيث الإفراط والتفريط، سائلاً الله – تعالى – السداد والتوفيق.

تعريف العزلة وما جاء في فضلها من الآيات والأحاديث والآثار:

(العزلة: أصل صحيح يدل على التنحية والإمالة تقول: عزل الإنسان الشيء يعزله، إذا نحّاه في جانب، وهو بمعزل عن أصحابه، أي: في ناحية عنهم، والعزلة ـ بالضم ـ الاعتزال...

... وقد جاءت العزلة في القرآن والسنة لمعان عديدة، تتراوح بين المفارقة الكلية المطلقة والمفارقة الجزئية، وبين الاعتزال الحسي، والاعتزال المعنوي)[٢].

وقد جمع هذه المعاني الراغب الأصفهاني بقوله:

(الاعتزال: تجنب الشيء، عمالة كانت أو براءة أو غيرهما، بالبدن كان ذلك أو بالقلب)[٣].

(١) منهاج السنة ٤ / ٤١٠.
(٢) عن كتاب العزلة والخلطة ص ٢١.
(٣) المفردات في غريب القرآن ص ٣٣٤.

ومن الآيات الواردة في مدح العزلة وأهلها :

قوله تعالى عن موسى - عليه السلام -: ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ [الدخان : ٢١] .

وقوله تعالى عن ابراهيم - عليه السلام -: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤٨] .

وقوله سبحانه عن أصحاب الكهف : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف : ١٦] .

أما الأحاديث الصحيحة فمنها :

● عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قيل لرسول الله ﷺ : يا رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ : « مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله . قالوا : ثم من؟ قال : مؤمن في شعب من الشعاب ، يتقي الله ، ويدع الناس من شره »[١] .

أما الآثار الواردة عن السلف في فضل العزلة وترك فضول الخلطة فهي كثيرة جداً أختار منها ما يلي .

* عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : (العزلة راحة من أخلاط السوء)[٢] .

* وعن إبراهيم بن الأشعث قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : (من

---

(١) البخاري . كتاب الجهاد ٣ / ٢٠١ . ومسلم كتاب الأمارة (١٢٢ ، ١٢٣) .

(٢) العزلة والانفراد لابن أبي الدنيا ص٦٠ .

خالط الناس لم يسلم ولم ينجُ من إحدى اثنتين: إما أن يخوض معهم إذا خاضوا في الباطل، وإما أن يسكت إذا رأى منكراً أو سمعه من جلسائه، فلا يغير، فيأثم ويشركهم فيه)[١] .

* وعن سعيد بن صدقة أبو مهلهل قال: (أخذ بيدي سفيان الثوري - رحمه الله - فأخرجني إلى الجبان، فاعتزلنا ناحية عن طريق الناس فبكى ثم قال: يا أبا مهلهل إن استطعت أن لا تخالط في زمانك هذا أحداً فافعل؛ فليكن همك مرمة جهازك، واحذر إتيان هؤلاء الأمراء، وارغب إلى الله - عز وجل - في حوائجك لديه، وافزع إليه فيما ينوء بك، وعليك بالاستغناء عن جميع الناس؛ فارفع حوائجك إلى من لا تعظم الحوائج عنده؛ فوالله! ما أعلم اليوم بالكوفة أحداً لو فزعت إليه في قرض عشرة دراهم فأقرضني لم يكتمها علي حتى يذهب ويجيء، ويقول: جاءني سفيان فاستقرضني فأقرضته»[٢] .

* وعن عبد الله بن المبارك قال: قال لي بعضهم في تفسير العزلة: «هو أن يكون مع القوم فإن خاضوا في ذكر الله، فخض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فأمسك»[٣] .

* وعن وهيب بن الورد قال: «وجدت العزلة في اللسان»[٤] .

* وعن الحسن قال: «كان رجل من أهل المصر يغشى السلطان، ويصيب منهم، فترك ذلك، وجلس في بيته، فأتاه أهله وبنوه، فقالوا: تركت السلطان

---

(١) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص: ٦٨ .

(٣)، (٤) المصدر السابق ص ٩٨ .

وحظك منه؟! فجعل لا يلتفت إليهم؛ فقالوا: والله؛ لو فعلت لتموتن هرساً. فقال: يا بني! والله لأن أموت مؤمناً مهروساً أحب إلي من أن أموت منافقاً سميناً»[١].

* وعن الفضيل بن عياض قال: (من لم يستأنس بالقرآن فلا آنس الله وحشته)[٢].

* وكتب سفيان الثوري – رحمه الله تعالى – إلى عباد بن عباد فقال:

(من سفيان بن سعيد إلى عباد بن عباد: سلام عليك؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله فإن اتقيت الله – عز وجل – كفاك الناس وان اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً، سألت أن أكتب إليك كتاباً أصف لك فيه خلالاً تصحب بها أهل زمانك، وتؤدي إليهم ما يحق لهم عليك، وتسأل الله – عز وجل – الذي لك، وقد سألت عن أمر جسيم الناظرون فيه اليوم المقيمون به قليل، بل لا أعلم مكان أحد، وكيف يستطاع ذلك؟ وقد كدر هذا الزمان، إنه ليشتبه الحق والباطل، ولا ينجو من شره إلا من دعا بدعاء الغريق، فهل تعلم مكان أحد هكذا؟ وكان يقال: يوشك أن يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حكيم، فعليك بتقوى الله – عز وجل – والزم العزلة، واشتغل بنفسك، واستأنس بكتاب الله – عز وجل – واحذر الأمراء، وعليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم؛ فإن استطعت أن تأمر بخير في رفق فإن قُبِلَ منك حمدت الله – عز وجل – وإن رد عليك أقبلت على نفسك؛ فإن

(١) المصدر السابق ص ١٦٨.

(٢) المصدر السابق ص ٧٧.

لك فيها شغلاً، واحذر المنزلة وحبها فإن الزهد فيها أشد من الزهد في الدنيا، وبلغني أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يتعوذون أن يدركوا هذا الزمان، وكان لهم من العلم ما ليس لنا؛ فكيف بنا حين أدركنا على قلة علم وبصر وقلة أعوان على الخير مع كدر من الزمان وفساد من الناس؟ وعليك بالأمر الأول والتمسك به، وعليك بالخمول؛ فإن هذا زمان خمول، وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس...)[1].

* وعن نصر بن يحيى بن أبي كثير - وكان من الحكماء - قال في فوائد الخلوة:

(فأول ما يهيج من حب الخلوة: طلب العبد الإخلاص والصدق في جميع قوله فيما بينه وبين ربه، وورّثته الخلوة راحة القلب من غموم الدنيا، وترك معاملة المخلوقين في الأخذ والإعطاء.

ويهيج من حب الخلوة: خمول النفس، والإغماض في الناس، وهو أول طريق الصدق، ومنه الإخلاص.

ويهيج من حب الخلوة: الزهد في معرفة الناس، والأنس بالله، والاستثقال بمجالسة غير أهل الذكر.

ويهيج من حب الخلوة: شغل العبد بنفسه، وقلة اشتغاله بذكر غيره، وطلب السلامة مما فيه الناس.

ويهيج من حب الخلوة: الأعمال التي تغيب عن أعين العباد وتظهر لله،

---

(١) مقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ص ٨٦، ٨٧.

وقليل ذلك كثير، ومخرجه من الصدق.

ويهيج من حب الخلوة التيقظ من غفلة أهل الدنيا، وفقد أخبار ما يذكر منها في الخاص والعام.

ويورث حب الخلوة: قلة الرياء، والتزين للمخلوقين، وذلك من دواعي الإخلاص، وهو محض الصدق.

ويورث حب الخلوة: ترك الخصومة والجدال، وهما ينفيان طلب الرئاسة، ويسلمان إلى الصدق.

ويهيج من حب الخلوة: إماتة الطمع ودواعيه من الحرص والرغبة في الدنيا، وفيه قوة للعمل.

ويورث حب الخلوة: قلة الغضب، والقوة على كظم الغيظ، وترك الحقد والشحناء، والعمل بسلامة الصدر.

ويهيج من حب الخلوة: رقة القلوب والرحمة، وهما ينفيان الغلظة والقسوة.

ويهيج من حب الخلوة: تذكر النعم، وطلب الإلهام لتشكر، والزيادة من الطاعة.

ويهيج من حب الخلوة: وجود حلاوة العمل، والنشاط في الدعاء بحزن من القلب وتضرع واستكانة.

ويهيج من حب الخلوة: القنوع، والتوكل، والرضى بالكفاف، والاستغناء بالعفاف عن الناس.

ويهيج من حب الخلوة: عزوف النفس عن الدنيا والشوق إلى لقاء الله

- عز وجل - وذلك من طريق حسن الظن بالله، وخوف النقص في الدين.

ويهيج من حب الخلوة: حياة القلب، وضياء نوره، ونفاذ بصره بعيوب الدنيا، ومعرفته بالنقص والزيادة في دينه.

ويهيج من حب الخلوة: الإنصاف للناس، والإقرار بالحق، وإذلال النفس بالتواضع، وترك العدوان.

ويهيج من حب الخلوة: خوف ورود الفتن التي فيها ذهاب الدين، والشوق إلى الموت خوفاً من أن يسلب الإسلام.

ويهيج من حب الخلوة: الوحشة من الناس، والاستثقال لكلامهم، والأنس بكلام رب العالمين وهو القرآن الذي جعله الله نوراً وشفاء للمؤمنين وحجة ووبالاً على المنافقين؛ فاجعله مفزعك الذي إليه تلجأ، وحصنك الذي به تعتصم، وكهفك الذي إليه تأوي، ودليلك الذي به تهتدي، وشعارك ودثارك ومنهجك وسبيلك)[1].

وبعد هذه النقولات التي ظهر لنا منها فضل العزلة والحث عليها وترك مخالطة الناس يحسن أن نتعرف على ما يقابلها من النقولات والمواقف التي تحث على ترك العزلة وتحث على دعوة الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال الله - عز وجل -: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]،

---

(١) العزلة والانفراد لابن أبي الدنيا ص ١٦٨، ١٧١ (باختصار).

والآيات الواردة في الحث على الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة.

* وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما ـ قال، قال رسول الله ﷺ: «المسلم إذا كان مخالطاً الناس، ويصبر على أذاهم، خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»(١).

* وعن أبي الدرداء – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية»(٢).

* وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –: قال: (خالطوا الناس وزايلوهم وصافحوهم، ودينكم لا تَكْلَمُونه)(٣).

* وعن وهيب بن الورد قال: قلت لوهب بن منبه: إني أريد أن أعتزل الناس، فقال لي: (لا بد لك من الناس، وللناس منك إليهم حوائج، ولكن كن فيهم أصم سميعاً، أعمى بصيراً، سكوتاً ناطقاً)(٤).

* وقال أكثم بن صيفي: (الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، ومعرفتهم مكسبة لقرين السوء: فكن للناس بين المنقبض والمقارب، فإن خير الأمور أوساطها)(٥).

---

(١) الترمذي. كتاب صفة القيامة (٢٥٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)

(٢) أبو داود كتاب الصلاة (٥٤٧).

(٣) ابن أبي شيبة في المصنف كتاب الأدب (١٠٣٢) والخطابي في العزلة ص: ٩٩ بلفظ: خالط الناس وزايلهم.

(٤) العزلة للخطابي ص ٩٨.

(٥) المصدر السابق ص: ٩٨.

الجمع بين من يرى العزلة ومن يرى الخلطة:

المتأمل للنقولات السابقة لا يرى بينها تعارضاً ولا تضاداً وإنما الاختلاف الظاهر لنا هو من باب اختلاف التنوع لا التضاد. أي أن كل فريق قد ذهب إلى نوع من العزلة أو نوع من الخلطة، ولذا ينبغي للباحث في أمر العزلة والخلطة أن يفصل القول فيهما ولا يعمم المدح أو الذم فيهما بإطلاق؛ وإنما الأمر مرتبط بالمصالح والمفاسد المترتبة على كل منهما فعلاً وتركاً. وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس وأحوال الزمان والمكان. ولذلك رأينا الإمام الخطابي – رحمه الله تعالى – بعد أن ساق جملة من النقولات التي تمدح العزلة وتحسنها استدرك وأفرد في كتابه العزلة باباً سماه: باب في لزوم القصد في حالتي العزلة والخلطة قال فيه:

(قد انتهى منا الكلام في أمر العزلة إلى حيث شرطنا أن نبلغه، وأوردنا فيها من الأخبار ما خفنا أن نكون قد حسَّنا معه الجفاء من حيث أردنا الاحتراز منه، وليس إلى هذا أجرينا، ولا إياه أردنا؛ فإن الإغراق في كل شيء مذموم، وخير الأمور أوسطها، والحسنة بين السيئتين. وقد عاب رسول الله ﷺ الإغراق في عبادة الخالق – عز وعلا – والحمل على النفس منها ما يؤودها ويكلها؛ فما ظنك بما دونها من باب التخلق والتكلف؟)[1] ا.هـ.

وقال ابن قدامة – رحمه الله تعالى –: (فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفياً وإثباتاً خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائت بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفائت بالحاصل. فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل)[2].

(١) العزلة للخطابي: ص: ٩٧

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ١١٧

ويجلي شيخ الإسلام هذه المسألة بصورة أوضح فيقول:

(فهذه «المسألة» وإن كان الناس يتنازعون فيها؟ إما نزاعاً كلياً، وإما حالياً. فحقيقة الأمر: أن «الخلطة» تارة تكون واجبة أو مستحبة، والشخص الواحد قد يكون مأموراً بالمخالطة تارة، وبالانفراد تارة.

وجماع ذلك: أن «المخالطة» إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهي عنها، فالاختلاط بالمسلمين في جنس العبادات: كالصلوات الخمس، والجمعة، والعيدين، وصلاة الكسوف، والاستسقاء، ونحو ذلك هو مما أمر الله به ورسوله.

وكذلك الاختلاط بهم في الحج وفي غزو الكفار والخوارج المارقين، وإن كان أئمة ذلك فجاراً، وإن كان في تلك الجماعات فجار، وكذلك الاجتماع الذي يزداد العبد به إيماناً: إما لانتفاعه به، وإما لنفعه له، ونحو ذلك.

ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته؛ كما قال طاووس: نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه. وإما في غير بيته.

فاختيار المخالطة مطلقاً خطأ، واختيار الانفراد مطلقاً خطأ، وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا وهذا وما هو الأصلح له في كل حال؛ فهذا يحتاج إلى نظر خاص كما تقدم)[1] ا.هـ.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٤٢٥.

ضوابط العزلة والخلطة:

١ ـ الأصل في الأحوال العادية (مخالطة الناس في الخير كالجمعة والجماعات، والأعياد والحج، وتعلم العلم وتعليمه، والجهاد، والنصيحة، واعتزالهم في الشر وفضول المباحات)[١].

٢ ـ (إن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر ولم يمكن اعتزالهم: فالحذر من موافقتهم، وليصبر على أذاهم ؛ فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكنه أذى يعقبه عز ومحبة وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له، ومقت وذم منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين؛ فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلاً)[١].

٣ ـ إن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات؛ فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك؛ فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه)[١].

٤ ـ (فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيَسُلَّ قلبه من بينهم كسلِّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاناً. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه؛ لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به

---

(١) مدارج السالكين، باختصار وتصرف يسير ١/٤٥٥، ٤٥٦

إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدُق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم)[١].

وهذا النوع من العزلة الذي ذكره الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – هو ما يمكن تسميته بالعزلة القلبية وهو الذي ذكر في قول عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –: (خالطوا الناس وزايلوهم وصافحوهم ودينكم لا تكلمونه)[٢] وبذلك يجمع بين الخلطة، والعزلة، والخلطة بالجسد، والمفارقة والعزلة بالقلب والعمل والمشاعر؛ وهذا يتأكد في حق الطائفة المنصورة التي يجب عليها دعوة الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على أذى الناس، ويكره في حقهم العزلة وترك الفساد يدب في الناس بلا نصح ولا تغيير.

٥ ـ العزلة التامة عن الناس التي وردت بعض الأحاديث في فضلها إنما تكون في الأحوال التالية:

أ ـ عند فشو المعاصي وانتشارها وحين لا يوجد المكان الصالح الذي يهاجر إليه فإنه يشرع لبعض الأفراد دون بعضهم العزلة؛ وذلك حين لا يستطيع

---

(١) المصدر السابق ص ٤٥٦.

(٢) سبق تخريجه ص: ٣٤٧.

الفرد الصبر على رؤيتها فيتعجل بإنكارها بصورة شديدة غير منضبطة أو أن المنكرات تعكر صفو حياته، ويعيش برؤيتها في هم وحزن، أو أنه يخاف على نفسه من الوقوع في المعاصي والفواحش خوفاً ظاهراً قوياً. وهذه عزلة مقيدة بأحوال الأفراد وليست عزلة مطلقة لكل إنسان.

ب ـ أيام الفتن واختلاف المسلمين وتفرق كلمتهم واقتتالهم:

وفي هذه الأحوال يشرع اعتزال الناس حتى تنجلي الفتنة، ومن أراد لنفسه السلامة في الدنيا والآخرة فليعتزل الناس بقلبه ولسانه ويده وأن لا يتلوث بشيء من كدرها وغبارها؛ وهذا ما وجه الرسول ﷺ أمته إليه عند هيجان الفتن.

قال عثمان الشحام: انطلقت أنا وفرقد السبخي إلى مسلم بن أبي بكرة وهو في أرضه، فدخلنا عليه، فقلت: هل سمعت أباك يحدِّث في الفتن حديثاً؟ فقال: نعم، سمعت أبا بكرة يحدث قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة: القاعد خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت، أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، ومن لم يكن له شيء من ذلك فليعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاة. اللهم! هل بلغت؟ اللهم! هل بلغت؟ اللهم! هل بلغت؟»[١].

---

(١) مسلم كتاب الفتن باب نزول الفتن (٢٨٨٧).

وهذا ما كان عليه سلف الأمة أيام الفتن:

● فعن ابن سيرين قال: لما قيل لسعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه –: ألا تقاتل؟ إنك من أهل الشورى، وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك، قال: (لا أقاتل حتى تأتوني بسيف له عينان ولسان وشفتان يعرف المؤمن من الكافر، فقد جاهدت وأنا أعرف الجهاد)[١] وسبق في (فتنة الافتراق والاختلاف) ذكر اعتزال سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – بعد مقتل عثمان – رضي الله عنه – بإبل له في خارج المدينة[٢].

● وعن ثعلبة بن ضبيعة قال: دخلنا على حذيفة – رضي الله عنه – فقال: (إني لأعرف رجلاً لا تضره الفتنة، قلنا: من هو؟ قال: صاحب ذلك الفسطاط، قال: فخرجنا، فإذا فسطاط مضروب، فدخلنا، فإذا فيه محمد بن مسلمة، فسألناه عن ذلك؟ فقال: ما أريد أن يشتمل عليَّ من أمصاركم شيء، حتى تنجلي عما انجلت)[٣].

● وكان محمد بن مسلمة وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وأبو بكرة نفيع بن الحارث، وأبو مسعود الأنصاري، وغيرهم – رضي الله عنهم – قد اعتزلوا الناس بعد مقتل عثمان – رضي الله – عنه فمنهم من اعتزل اعتزالاً كلياً كسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة – رضي الله عنهما – ومنهم من اعتزل الفتنة ولم يعتزل الناس كأسامة – رضي الله عنه –.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٨٤ وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) انظر ص: ١٩٢.

(٣) أبو داود (٤٦٦٣) (٤٦٦٤) وقال الأرناؤوط: هو حديث صحيح ١٠/ ١٧ جامع الأصول.

● وعن يزيد بن أبي عبيد - رضي الله عنه - قال: «لما قتل عثمان خرج سلمة بن الأكوع إلى الربذة، وتزوج هناك امرأة، وولدت له أولاداً، فلم يزل بها، حتى قبل أن يموت بليال نزل المدينة، فمات بها» أخرجه البخاري، وأخرج هو ومسلم «أن سلمة دخل على الحجاج، فقال: يا ابن الأكوع، أرتددت على عقبيك، تعرَّبت؟ قال: لا، ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو»(١).

● وعن عامر الشعبي قال:

(لما قاتل مروان الضحاك بن قيس، أرسل إلى أيمن بن خُرَيم الأسدي فقال: إنا نحب أن تقاتل معنا، فقال: إن أبي وعمي شهدا بدراً، فعهدا إليَّ أن لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلا الله؛ فإن جئتني ببراءة من النار قاتلت معك، فقال: اذهب، ووقع فيه، وسبه، فأنشأ أيمن يقول:

ولست مقاتلاً رجلاً يصلي ... على سلطان آخرَ من قريشِ
له سلطانُهُ، وعليَّ إثمي ... معاذ الله من جهل وطيشِ
أقاتل مسلماً في غير شيء؟ ... فليس بنافعي ما عشت عيشي)(٢).

● وسئل يزيد بن الشخير: (ما كان مطرف يصنع إذا هاج الناس؟ قال: يلزم قعر بيته، ولا يقرب لهم جمعة، ولا جماعة حتى تنجلي)(٣).

● وعن إبراهيم بن محمد قال: قلت للأوزاعي: أرأيت إن وقعت الفتنة

---

(١) البخاري. في الفتن باب التعرب في الفتنة. مسلم (١٨٦٢).
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ٥٧٩ وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير زكريا بن يحيى زحمويه وهو ثقة.
(٣) انظر: ص: ١٩٣.

بثغر: أترى لأحد أن يبيع منهم شيئاً؟ قال: (لا، ولا مخلاة من تبن إلا ممن يثق به)(١)؛ وذلك لإضعاف مواردهم المادية التي يستعينون بها على إضرام نيران الفتنة فيما بينهم.

وبمناسبة الحديث عن العزلة أيام الفتن فإني أنصح نفسي وإخواني الدعاة ونحن نعيش اليوم طرفاً من فتنة الفرقة والاختلاف بين المسلمين بأن نقتدي بسلفنا الصالح، فنعتزل هذه الفتن، وأن نحذر أشد الحذر من التورط فيها بألسنتنا أو كتاباتنا أو أيدينا؛ فإن السلامة في ذلك. ولم نجد أحداً من السلف ندم على مسك لسانه ويده أيام الفتن، بل كانوا موضع غبطة وثناء من إخوانهم الذين شاركوا فيها متأولين، كما أثنى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – على اعتزال سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – بقوله: (لله منزل نزله سعد بن مالك وعبد الله بن عمر. والله لئن كان ذنباً إنه لصغير مغفور، ولئن كان حسناً إنه لعظيم مشكور)(٢).

وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: (إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كافٌّ اللسان عن أعراضهم، لازماً لأمر جماعتهم فافعل)(٣).

ج – عند فساد الزمان وفساد الناس ومروج عهودهم وأماناتهم؛ وذلك حين يتعذر الإصلاح في الناس لاختلافهم وتناحرهم ورقة أديانهم. أي حين يطبق الانحراف التام العام والغربة الشاملة؛ فحينئذ يشرع للمسلم أن يعتزل

---

(١) السنن الواردة في الفتن وغوائلها ١/ ٤٢٤

(٢) الطبراني ١/ ١٠٦ ج (٣١٩)

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٢٢

الناس ويعتني بنفسه كما يعتني بأمر الخاصة من أصحابه وخلصائه، ويهتم بصلاح شئونهم، ويذر أمر العامة. وهذه الحالة إما أن تكون في مكان دون مكان كما هو الحال في بعض الأماكن اليوم، وإما أن يشمل الانحراف العام كل الأرض وتستحكم الغربة والجاهلية فيها كلها وهذا لا يكون إلا قرب قيام الساعة، والله تعالى أعلم.

(ففي الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «كيف بكم وبزمان أو: يوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا فكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه، فقالوا: كيف بنا يا رسول الله؟ قال: تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتذرون أمر عامتكم»[١].

ويعلق صاحب كتاب (العزلة والخلطة) - حفظه الله تعالى - على هذا الحديث فيقول:

(ومحصل هذه الصفات كلها: أن لا فائدة من الأمر والنهي والإصلاح في مجال العامة وهم الدهماء والجمهور، وإن ترأسوا وسادوا، بل ربما ترتب على الأمر والنهي ضرر بأن يتضاعف المنكر ويزداد، أو يؤذى الآمر في نفسه، أو أهله، أو ماله.

ولعل هذا هو الضابط العام لتلك الحال: ألا يكون ثَمَّ فائدة ترجى من الدعوة والأمر والنهي بين هؤلاء المسمين بـ «العامة»، وفي مقابل التحقق من عدم النفع، هناك توقع لحصول الضرر الديني والدنيوي للآمر ولغيره، ولا شك

(١) أبو داود، كتاب الملاحم (٤٣٤٢)، ابن ماجه كتاب الفتن (٣٩٥٧).

أن الأصول العامة تقتضي ترك الأمر والنهي ـ حينئذ ـ دفعاً للمفسدة المتوقعة التي لا توجد مصلحة تكافئها في فصل الأمر والنهي، فيكون الحديث مطرداً مع القاعدة العامة في المصلحة والمفسدة)[١].

٦ ـ هناك نوع من العزلة لا غنى للمسلم عنه في أي زمان أو مكان أو حال وهي عزلة جزئية مؤقتة يخلو المسلم فيها بنفسه مع ربه عز وجل يحاسب فيها نفسه ويناجي فيها ربه كالاعتكاف في شهر رمضان، وذكر الله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وغيرها من الأوقات الفاضلة التي يشرع فيها الذكر والدعاء.

المنارة التاسعة: الأخ الصادق، والصاحب الصالح العاقل

مما لا شك فيه أن للأخ الصادق صاحب الدين والعقل والعلم أثراً واضحاً في العصمة من الفتن، والنجاة من الشرور، والثبات على الدين وقوة التمسك به وعدم التنازل عنه. ومن وفقه الله – عز وجل – إلى أخ صادق ذي علم وعقل فقد وفق إلى خير عظيم، كيف لا وهو سنده بعد الله – عز وجل – عند الشدائد ومن عوامل الثبات والطمأنينة عند اضطراب الأمور وحلول الفتن.

وهذا الصاحب قد يكون أباً أو ابناً أو أخاً قريباً أو زوجة أو أخاً صفياً من المسلمين، فإذا وجد من هؤلاء من يدعو إلى الثبات والتعقل ويحذر من الفتن والدخول فيها أو التنازل عن المبدأ عند الشدائد – إذا وجد مثل هذا الصاحب فليعض عليه بالنواجذ؛ فهو كنز عظيم ومنارة مضيئة من منارات النجاة والفلاح.

(١) انظر كتاب العزلة والخلطة ص: ٧٠.

وأذكر فيما يلي بعض النماذج المضيئة التي يظهر فيها دور الصاحب في التثبيت والنجاة من الفتن وشرورها:

● عن الهيثم بن خلف الدوري أن محمد بن سويد الطحان حدثه قال: كنا عند عاصم بن علي ومعنا أبو عبيد، وإبراهيم بن أبي الليث وجماعة، وأحمد بن حنبل يُضرب، فجعل عاصم يقول: ألا رجل يقوم معي، فنأتي هذا الرجل، فنكلمه؟ قال: فما يجيبه أحد، ثم قال ابن أبي الليث: أنا أقوم معك يا أبا الحسين، فقال: يا غلام: خُفِّي. فقال ابن أبي الليث: يا أبا الحسين أبلُغ إلى بناتي، فأوصيهم، فظننا أنه ذهب يتكفن ويتحنط، ثم جاء، فقال: إني ذهبت إليهن، فبكين، قال: وجاء كتاب ابنتَيْ عاصم من واسط: يا أبانا إنه بلغنا أن هذا الرجل أخذ أحمد بن حنبل، فضربه على أن يقول: القرآن مخلوق، فاتق الله، ولا تجبه؛ فوالله لأن يأتينا نَعيُك أحب إلينا من أن يأتينا أنك أجبت[1].

● وعن أبي جعفر الأنباري قال: لما حُمِل أحمد إلى المأمون، أُخبرت، فعبرت الفرات، فإذا هو جالس في الخان، فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر، تعنيت. فقلت: يا هذا أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبتَ إلى خلق القرآن، ليجيبن خلقٌ، وإن أنت لم تُجب، ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، لا بد من الموت، فاتق الله ولا تجب. فجعل أحمد يبكي، ويقول: ما شاء الله. ثم قال: يا أبا جعفر، أعد علي فأعدت عليه، وهو يقول: ما شاء الله[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٦٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١ / ٢٣٩.

● وقال صالح بن أحمد: حمل أبي ومحمد بن نوح من بغداد مقيَّدين، فصرنا معهما إلى الأنبار. فسأل أبو بكر الأحول أبي: يا أبا عبد الله، إن عُرِضْتَ على السيف، تجيب؟ قال: لا. ثم سُيِّرا، فسمعت أبي يقول: صرنا إلى الرحبة، ورحلنا منها في جوف الليل، فعرض لنا رجل، فقال: أيكم أحمد ابن حنبل؟ فقيل له: هذا، فقال للجمَّال: على رِسْلِك، ثم قال: يا هذا، ما عليك أن تُقتل هاهنا، وتدخل الجنة؟ ثم قال: أستودعك الله، ومضى. فسألت عنه، فقيل لي: هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الشَّعَر في البادية، يقال له: جابر بن عامر، يذكر بخير[١].

● وعن أحمد بن أبي الحواري: حدثنا إبراهيم بن عبد الله، قال: قال أحمد ابن حنبل: ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق. قال: يا أحمد، إن يقتلك الحق، مت شهيداً، وإن عشت، عشت حميداً. فقوي قلبي[٢].

● وقال حنبل: قال أبو عبد الله: ما رأيت أحداً على حداثة سنه، وقدر علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، إني لأرجو أن يكون قد ختم له بخير. قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله، الله الله، إنك لست مثلي. أنت رجل يقتدى بك. قد مد الخلق أعناقهم إليك، لما يكون منك، فاتق الله واثبت لأمر الله، أو نحو هذا. فمات، وصليت عليه، ودفنته. أظن قال: بعانة[٣].

---

(١) المصدر السابق ١١/٢٤١.
(٢) المصدر السابق ١١/٢٤١.
(٣) المصدر السابق ١١/٢٤٢.

من خلال النماذج السابقة يبرز لنا أثر الصاحب الصالح العاقل في الثبات على الأمر وتقوية القلب وعدم الوهن والاستكانة والضعف. وهذا بدوره يحذرنا من أهل الدنيا أو ضعاف العلم والعقل، فليس وراء هؤلاء إلا الخذلان، والإرجاف، والمسارعة إلى الفتن إما بعلم، أو بجهل وحمق وطيش؛ فأمثال هؤلاء لا يصاحبون ولا يشاورون.

ويلحق بهذه المنارة من باب أوْلى مصاحبة السلف الصالح في سيرتهم وقراءة أخبارهم ومواقفهم من الفتن والتأسي بهم في ذلك، وهذا ما حرصت على الإكثار منه في هذه الرسالة؛ ولله الحمد.

* * *

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشكره سبحانه على ما أولاه من فضل وعون وتوفيق؛ حيث يسَّر لي في هذه العُجالة أن أتناول هذا الموضوع المهم في حياة المسلمين أفراداً وجماعات والذي هو جدير بالاهتمام والمعالجة والكتابة الموسعة؛ فهو قضية الساعة، وموضوع المواضيع، ولا أدعي أني أحطت به من جميع جوانبه، فكم من الصور والمسائل التي تتعلق بالفتن وفقهها لا زالت بحاجة إلى تجلية وتأصيل، ولعل إخواني من طلاب العلم المهتمين بفقه النوازل والفتن يكملون النقص ويسدون الخلل. والله عز وجل هو وحده الموفق والمسدد والهادي إلى سواء السبيل.

وسأحاول – إن شاء الله تعالى – في هذه الخاتمة تلخيص النتائج المهمة التي خرجت بها من هذا البحث، والتي يمكن أن تعطي لقارئها تصوراً سريعاً عن موضوع هذه الدراسة، وذلك في الوقفات التالية:

الوقفة الأولى:

لقد تبين لنا من هذه الدراسة خطورة موضوع الفتن وأهميته، وضرورة الحذر من شرورها، وأن لا يغفل المسلم عن نفسه ومحاسبتها والتفتيش عن مواطن الفتن فيها؛ فقد يكون متلبساً ببعضها وهو لا يشعر بذلك.

ومن خلال الصور الكثيرة للفتن وأشكالها يتضح لنا خطورة الأمر،

وضرورة الحذر الشديد من غوائل الفتن ومنافذها، وخاصة في هذا الزمان الذي تتلاطم فيه الفتن وتموج كموج البحر حيث يحار المسلم من كثرتها فلا يدري من أيها يفر وأيها يقاوم ويحاذر؟ ويخشى إن سلم من بعضها أن يصيبه البعض الآخر. لكن الشعور بخطورة الفتن وعدم الغفلة عنها أو التغافل يجعل المسلم يبدأ بالمقاومة والمدافعة، معتصماً بربه - عز وجل - متضرعاً إليه، مفوضاً أمره إليه، متخذاً الأسباب التي جعلها الله - عز وجل - منجية من الفتن التي سبق ذكر بعضها في المبحث الأخير.

الوقفة الثانية:

إن وقوع الفتن سنة من سنن الله - عز وجل - يختبر بها عباده ليميز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، وليمحص بها عباده المؤمنين ويمحق بها الكافرين، فكم لله - عز وجل - من الحِكَم في ذلك، ولا بد منها لكل عبد مكلف قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وأخبر الرسول ﷺ بأن الفتن تعرض على القلوب كالحصير عوداً عوداً.

إذن فلا يسلم عبد من التعرض للفتن ولكن الله - عز وجل - الذي قدر هذه الفتن لم يترك عباده دون عون ومساندة؛ بل شرع لهم ما يتقون به الفتن وغوائلها، وأمرهم بفعلها؛ فمن أخذ بها سلم ونجا، ومن أعرض عنها وتركها أحاطت به الفتن فوقع في شرورها ومهالكها.

الوقفة الثالثة:

أصل الفتن ومصدرها من الشيطان الرجيم الذي سأل الله – عز وجل – أن ينظره إلى يوم الدين ليفتن العباد ويضلهم، وقد حذرنا الله – عز وجل – من فتنه وعداوته وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وكقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

ولكن الشيطان له أعوان من ذريته من الجن ومن شياطين الإنس يتعاونون في فتنة العباد وإضلالهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾.

[الأنعام: ١١٢]

وقد ظهر لنا في هذه الدراسة خطر المنافقين وأضرابهم من شياطين الإنس في فتنة الناس وتضليلهم.

كما ظهر لنا أيضاً في أسباب الفتن أن للشيطان بابين يدخل منهما على قلوب العباد ليفتنهم: باب الشبهات، وباب الشهوات. وسبق التفصيل فيهما، ولكن العبد المنقاد لأمر ربه – عز وجل – يسد هذين البابين على الشيطان بما أرشده إليه ربه – سبحانه – من أسباب المقاومة

للشبهات والشهوات – والذي سبق تفصيله في منارات النجاة في المبحث الأخير – وبذلك يعود كيد الشيطان في نحره، ويعجز عن فتنة عباد الله المؤمنين؛ حيث وصف الله سبحانه كيد الشيطان بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ولكنه يكبر ويتعاظم عند المعرضين عن ذكر الله – عز وجل – وشرعه ممن يتولون الشيطان وحزبه من الذين قال الله – عز وجل – فيهم: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

الوقفة الرابعة:

لقد مرت بنا في ثنايا البحث صور عديدة من الفتن وأشكالها؛ بعضها ناشئ عن تفريط وتقصير، وبعضها عن غلو وإفراط؛ والشيطان لا يبالي من أيهما يدخل على قلب العبد، ولا ييأس من فتنة العبد ما دام على قيد الحياة.

وأعظم الفتن التي مرت بنا في هذا المبحث الفتنة في العقيدة وهي التي تهون عندها بقية الفتن، وإن كان بعضها قد يؤول في نهاية الأمر إلى أن يكون فتنة في العقيدة.

وشياطين الإنس والجن يسعون في فتنتهم – بادئ ذي بدء – في أن تكون في العقيدة كالإشراك بالله – عز وجل، عياذاً به سبحانه – أو في النفاق والبدع المكفرة، وقد مضى تفصيل أنواع الفتن في ذلك؛ والمقصود الحذر من هذه الفتنة الكبرى، وأن يسعى المسلم جاهداً في عمره القصير على نظافة معتقده، وسلامة قلبه من أن يتلوث بشيء من ذلك؛ فإذا سلم

من أنواع الشرك والنفاق والبدعة فهو على خير - إن شاء الله تعالى - .

الوقفة الخامسة:

ظهر لنا في هذا البحث فتنة عمَّت وطمت في هذا الزمان ألا وهي فتنة الفرقة والاختلاف؛ فما أشدها من فتنة تأكل الدين وتلوث القلوب وتمزق الأمة، وقد سبق الحديث عن خطرها وآثارها المدمرة وكيف السبيل إلى علاجها ووضع حد لاستفحالها. ولكن هذا لا يكفي إن لم يصاحبه قومة صادقة من أهل العلم والعقل والحكمة في هذه الأمة يخشون ربهم ويشفقون على أمتهم فينصحون لله - عز وجل - ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ويذكرون المختلفين بالله - عز وجل - وبالنهاية الخطيرة للتفرق والتحزب، فإن لم تحصل هذه القومة فلا فائدة إذن من الكلام والكتابة. فاللهم ألف بين قلوب المؤمنين، واجمع كلمتهم على الحق، وأعذهم من شرور أنفسهم وشر الشيطان وشركه.

الوقفة السادسة:

كما ظهر لنا في هذه الدراسة أيضاً الخطورة على أهل العلم من زغل العلم والفتنة به، وأن هناك من الفتن الشديدة التي يجب على طالب العلم أن يحذر منها أشد الحذر؛ فهناك فتنة العلم بلا عمل، وفتنة الدنيا والتسلق إليها عن طريق العلم والشهادات، وهناك التحاسد بين أهل العلم، وفتنة كتم العلم وتلبيسه، وفتنة الفتوى بلا علم، وفتنة ترك الأمة في جهلها يقودها أهل الفساد والشر، ويخططون لها، ويوجهونها كما يريدون في غيبة عن العلم وأهله. كل هذه الفتن يتعرض لها طلاب العلم وأهله؛ فهلاً

شعرنا بخطورة الأمر؟! إن الأمر جد خطير فإن فتناً كهذه الفتن التي تحيط بأهل العلم من كل جانب لجديرة بالخوف واليقظة والحذر، ولو نجا طالب العلم من بعضها لكان على خطر من بقيتها.

الوقفة السابعة:

تبين لنا من خلال البحث خطورة فشو المعاصي والمنكرات وما يترتب على ذلك من الفتن إذا ضعف إنكارها أو تلاشى، وذلك من العقوبات التي تحل بالناس في الدنيا في أديانهم ودمائهم وأموالهم وعقولهم وأعراضهم، وكفى بذلك فتنة في الدنيا، فكيف إذا أضيف إلى ذلك العقوبات في الآخرة لأهل المعاصي والمفسدين والساكتين؟ كما تبين لنا في المقابل خطورة الأمر أو النهي بلا مراعاة للمفاسد والمصالح والضوابط الشرعية وما يجر ذلك من الفتن والمفاسد.

إذن: فالأمر بالغ الحساسية والحرج، ويحتاج إلى توازن وانضباط؛ بحيث لا يميل الأمر إلى إحدى الكفتين؛ والله - سبحانه - هو الموفق والهادي إلى الصواب.

الوقفة الثامنة:

من خلال البحث وما تم فيه من استعراض كثير من الفتن وأشكالها ومظاهرها يظهر لنا مدى الغربة التي يعيشها المسلم في هذا الزمان حيث تحقق فيه خبر النبي ﷺ أن القابض على دينه كالقابض على الجمر، ولكن العاقبة للمتقين الصابرين.

وقد سبق التنبيه في فتنة الغربة إلى بعض المحاذير التي ينبغي للمسلم أن يحذرها ويتجنب السقوط فيها ومن أهمها: اليأس من تغير الحال وعودة العزة للإسلام والمسلمين، ومنها العجلة تحت ضغط الواقع وكثرة الفساد، والقيام ببعض الممارسات التي ينقصها الدليل الشرعي كما ينقصها العقل والحكمة، ومنها الضعف أمام ضغط الواقع والتساهل في أخذ هذا الدين بقوة، والتنازل عن ثوابته الأصيلة سواء على مستوى الفرد أو الطائفة.

الوقفة التاسعة:

في المبحث الأخير كان الكلام فيه عن أسباب النجاة من الفتن وعلى رأسها التوكل على الله - عز وجل - ودعاؤه وذكره والاعتصام به وحده فهو - سبحانه - الذي لا مفر منه إلا إليه، ولا ملجأ منه إلا إليه، وهو وحده الذي يعصم من أسباب الفتن: شبهاتها وشهواتها.

ولما كانت أسباب الوقوع في غوائل الفتن لا تخرج عن كونها شبهات أو شهوات صار العلاج والدواء في مقاومة الشبهات بالعلم والبصيرة والفقه في الدين، والتأني والحلم، ومقاومة الشهوات بالصبر والعمل الصالح والعبادة، والزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة وخوف الوقوف بين يدي الله - عز وجل - والفرار من الفتن واعتزالها من أعظم أسباب النجاة منها وخاصة تلك التي تكون أيام الفرقة والاقتتال بين المسلمين، ولو أدى اعتزالها إلى العزلة عن الناس في شعف من الجبال ليسلم القلب واللسان واليد من التلوث بها.

والعزلة وترك فضول الخلطة ممدوحة في هذا الزمان لكن بضوابطها المذكورة في بحث العزلة حيث إنها تدور مع المصالح والمفاسد والترجيح بينهما، كما أن دراسة أحوال السلف ومواقفهم من الفتن من أعظم منارات النجاة لمن اقتدى بهم، وهذا ما حاولت الإكثار منه في هذه الدراسة...

الوقفة الأخيرة:

وبقي أن أنبه في هذه الوقفة على أن الكلام عن الفتن وكثرتها في هذا الزمان وضرورة اعتزالها والفرار منها لا يعني أبداً ترك الناس على ما هم عليه من المفاسد والمنكرات لا يعلَّمون ولا يؤمرون وينهون، بل إن الواجب على أهل الدعوة والإصلاح في مثل هذه الظروف أن يبذلوا جهدهم في مقاومة الفساد والدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ ونشر الخير والسنن، ومقاومة البدع وشرور الفتن، وتحذير الناس منها.

ولو ترك الناس وما يراد لهم من قِبَلِ أهل الفساد والفتن لفسدت الأرض ومن فيها، ولم يسلم من شرور الفتن أحد بما في ذلك الصالحون، فالله – عز وجل – يقول: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴾ [البقرة: ٢٥١] فلننتبه لهذا الأمر، ولا يُفهم من هذه الرسالة الدعوة إلى اعتزال الناس مطلقاً وترك الحياة تأسن وتفسد بفعل المفسدين والمفتونين، لا، بل المطلوب مضاعفة الجهد في إزالة الشرور وأسباب الفتن حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده، أما وقت الاعتزال التام للناس فأحسب أن زمانه لم يأت بعدُ، وقد سبق تفصيل ذلك في مبحث العزلة.

وبعد... فهذا ما يسَّره الله سبحانه من كتابة حول هذا الموضوع المهم في ضوء قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ فإن أردنا لأنفسنا النجاة فلنمتثل أمر ربنا - عز وجل - ونفرَّ من معصيته إلى طاعته، ومن سخطه إلى رضاه، ومنه إليه سبحانه؛ حيث لا ملجأ منه إلا إليه، ولا مفر لنا من شرور الفتن إلا إليه؛ فنعم المولى ونعم النصير.

اللهم إنا نسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

اللهم إنا نسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لنا، وترحمنا، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عصر يوم السبت ١٩/١٢/١٤١٧هـ.

فهرس الجزء الثالث

فهرس الرسالة الحادية عشرة
(فبهداهم اقتده)

الموضـــوع **الصفحة**

المقدمة ٥

○ **المبحث الأول:**

لماذا ندرس حياة الأنبياء عليهم السلام ١٥

○ **المبحث الثاني:**

خصائص الأنبياء عليم الصلاة والسلام ٢٧

○ **المبحث الثالث:**

دين الأنبيـاء عليهـم الصـلاة والسـلام واحـد ودعـوتهم واحـدة .. ٤١

○ **المبحث الرابع:**

من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٥١

□ **الجانب الأول:**

هديهم في قـوة العلم بالله وأثر ذلك في صـدق الإيمـان وكـمـال التـوحـيـد ٥٣

١- شدة تعظيمهم لله عز وجل وخوفهم منه ٥٦

٢- كـثـرة ذكـرهم لله وشـدة تضـرعـهم ودعـائهم له وقـوة عبادتهم ٦٩

٣- كـمـال توكلهم على الله واسـتعـانتـهم به وحده ورضـاهم

بحكمه وشجاعتهم ٨٠
أ- أمثلة في الشجاعة والثبات ٨١
ب- أمثلة في حسن الظن بالله والرضا بحكمه ٨٥
جـ- أمثلة في الاستعانة بالله عز وجل والتبرؤ من الحول
والقوة ٩٤

❑ **الجانب الثاني:**

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في السلوك والأخلاق ٩٧
١- النصح والرحمة بالناس والشفقة عليهم من عذاب الله ٩٨
٢- الصبر والتقوىٰ ١٠٦
٣- الكرم والوفاء والشجاعة ١١٧
٤- التأسي بهم في الهدي الظاهر ١٢٥

❑ **الجانب الثالث:**

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والتبليغ ١٢٧
- المعْلَم الأول: العقيدة أولاً ١٢٨
- المعْلَم الثاني: الولاء والبراء على أساس العقيدة ١٤٣
- المعْلَم الثالث: الإخلاص وابتغاء الأجر من الله ١٥٦
- المعْلَم الرابع: التعرض للأذىٰ ١٦١
- المعْلَم الخامس: التدرج في الدعوة ومراعاة المصالح والمفاسد . ١٨١
- المعْلَم السادس: مراعاة السنن الربانية ٢٠٣
○ الخاتمة ٢١٩

* * *

فهرس الرسالة الثانية عشرة
(ففروا إلى الله)

الموضوع الصفحة

المقدمة ٢٢٧
المبحث الأول: تفسير قول الله تعالى: ﴿ففروا إلى الله﴾ ٢٣٣
المبحث الثاني: الفتن وأسباب السقوط فيها ٢٤٢
المبحث الثالث: ذكر بعض أنواع الفتن التي يجب الفرار منها إلى الله ـ عز وجل ـ ٢٥٤
أولاً: فتنة الغربة ٢٥٥
ثانياً: الفتنة في العقيدة ٢٧٥
أ ـ فتنة الشرك ٢٧٥
ب ـ فتنة النفاق والمنافقين ٢٩٢
ج ـ فتنة البدعة والمبتدعين ٣١٣
ثالثاً: فتنة الدنيا وزخرفها ٣٣٥
أ ـ فتنة الأموال والأولاد ٣٣٥
ب ـ فتنة النساء ٣٤٦
ج ـ فتنة الجاه وحب الرئاسة ٣٥٥
رابعاً: فتنة المعاصي وفشو المنكرات وترك إنكارها ٣٦٨
أ ـ فتنة فشو المنكرات وعدم إنكار ذلك ٣٦٨
ب ـ فتنة إنكار الفساد دون مراعاة للضوابط الشرعية والمصالح والمفاسد ٣٨٦
خامساً: فتنة الاختلاف والفرقة بين المسلمين ٣٩٨

سادساً: الفتنة بالعلم ٤٢٢
أ - ضعف العمل بالعلم ٤٢٤
ب- فتنة العجب والكبر والرياء ٤٣٦
ج- فتنة التلبيس وكتم الحق ٤٤٣
د - فتنة الدنيا والتحاسد عليها ٤٤٨
هـ- فتنة الجدال والمراء والخصومات ٤٥٨
و- فتنة التعصب لآراء الرجال والتقليد الأعمى ٤٦٦
ز- قلة المعرفة بأحوال الناس وواقعهم والابتعاد عن قيادتهم وتوجيههم ٤٧١
ح- التعالم والفتوى بلا علم ٤٨٨
سابعاً: الفتنة بالمصائب والمكاره ٤٩٨
ثامناً: فتنة المسيح الدجال ٥٠٨
تاسعاً: فتنة الممات ٥١٣
المبحث الرابع: سبل الفرار من الفتن ومنارات النجاة منها ٥٢٣
المنارة الأولى: اللجوء إلى الله عز وجل ودعائه والاعتصام به ٥٢٤
المنارة الثانية: العلم بالشرع والفقه في الدين ٥٣١
المنارة الثالثة: الرفق والحلم والأناة ٥٣٧
المنارة الرابعة: لزوم التقوى والعمل الصالح ٥٤٢
المنارة الخامسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله عز وجل ٥٤٧
المنارة السادسة: الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ٥٤٩
المنارة السابعة: لزوم الجماعة ونبذ الفرقة ٥٥٤
المنارة الثامنة: اعتزال الفتن وأهلها ٥٦١
المنارة التاسعة: الأخ الصادق والصاحب العاقل ٥٧٩
الخاتمة ٥٨٣
الفهرس ٥٩٥

*   *   *

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾

وقفات تربوية

في ضوء القرآن الكريم

الجزء الرابع

الرسالة الثالثة عشرة

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾

بقلم

عبد العزيز بن ناصر الجليل

دار طيبة للنشر والتوزيع

ⓒ دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجليل، عبدالعزيز بن ناصر بن سعد
وقد خاب من حمل ظلماً. - الرياض
٢٦٧ ص ؛ ٢٤ سم
ردمك ٤ - ٣٣ - ٨٠٠ - ٩٩٦٠
١ - الظلم ٢ - الوعظ والإرشاد أ - العنوان
ديوي ٢١٢،٣ ١٩/٢٩١٥

رقم الإيداع: ١٩/٢٩١٥
ردمك: ٤ - ٣٣ - ٨٠٠ - ٩٩٦٠

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار طيبة للنشر والتوزيع
الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق
ص. ب ٧٦١٢ الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٣٧٣٧ فاكس ٤٢٥٨٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسول صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد:

فإن الله عز وجل الذي له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا وله الحكمة البالغة والعلم المحيط والرحمة الواسعة قد أقام خلق السموات والأرض وما بينهما علىٰ الحق والقسط؛ حيث قال سبحانه: ﴿ **مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ** ③ ﴾ [الأحقاف: ٣].

وإن أحق الحق وأعدل العدل: توحيد الله عز وجل والاستسلام له والخضوع لأمره، ومن رحمته سبحانه أن جعل ذلك مستقراً في فطر عباده المكلفين، وكلما اجتالتهم الشياطين عن هذا الحق وخيم الظلم

والشرك على الناس أرسل إليهم سبحانه الرسل وأنزل عليهم الكتب لإنقاذهم من الظلمات إلى النور حتى لا يشقوا ويندوا عن هذا الحق الأصيل، الذي قام عليه الكون كله، والذي به تحصل السعادة البشرية وصلاحها ونماؤها.

ولحكمة عظيمة أراد الله عز وجل أن يوجد الصراع بين الحق المتمثل في التوحيد وطاعة الله عز وجل وبين الباطل المتمثل في الشرك وما يفرزه من الظلم بشتى صوره. وحقت كلمة الله عز وجل في عباده وشهد تاريخ البشرية ذلك الصراع الطويل بين حزب الله المفلحين المقسطين وبين حزب الشيطان الظالمين الخاسرين، واقتضت حكمة الله عز وجل أن يستمر هذا الصراع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن رحمته سبحانه أن لا يترك الظلم والظالمين بلا مدافع بل يقيض الله عز وجل له من يدفعه حتى تكون العاقبة للمتقين.

قال تعالى: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وإن المتأمل في حال البشرية اليوم وما تعج به من الظلم بشتى صوره وما يقاسيه الناس من ظلم بعضهم لبعض، أو من ظلم أنفسهم بالشرك وما دونه من المعاصي ليدرك - عند مقارنة ذلك بمسلسل

الظلم في تاريخ البشرية – أن ما يعيشه الناس اليوم في أكثر بقاع الأرض ليعد من أشد الأزمنة التي مرت علىٰ البشرية ظلمًا وعدوانًا، وهذا بدوره يؤكد علىٰ ضخامة الجهد والتضحيات التي يجب أن تبذل في مواجهة هذا الظلم العظيم وذلك في الصراع بين حزب الله الموحدين وبين حزب الشيطان الظالمين.

وإسهامًا في كشف بعض جوانب الظلم في زماننا اليوم، وذكر بعض صوره وأخطاره وسبل توقِّيه، جاءت هذه الرسالة من رسائل الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم، وقد انطلقت فيها من قول الله عز وجل: ﴿ **وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا** ﴿١١١﴾ ﴾ [طه: ١١١].

وإبرازًا لأهمية هذا الموضوع أسوق بعض النقاط التي تبرز من خلالها الحاجة إلى طرحه ومعالجته وبالأخص في زماننا الحاضر:

(١) التحذير الشديد من الظلم وآثاره وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة، وهذا التحذير يجده المتدبر لكتاب الله عز وجل وأحاديث الرسول ﷺ حيث ورد ذكر الظلم والظالمين في مواضع كثيرة من القرآن؛ مرةً في معرض ذمِّه والتشنيع علىٰ أهله، ومرةً بذكر ما حلَّ بالظالمين من النكال والعذاب في الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة، ومرةً بدعوة الظالمين إلىٰ التوبة وترك الظلم، ومرةً بذكر أنواعه وصوره.

وقد حاولت حصر الآيات التي ورد فيها ذكر الظلم وما تصرّف عنه فوجدتها تقرب من مائتين وأربعين موضعًا(١) ولا غرابة في ذلك؛ فكل مخالفة تقع من العبد لأمر الله سبحانه فهي ظلم منه لنفسه؛ سواء ما كان منها بين العبد وربه، أو ماكان منها بينه وبين الخلق، وسواءً كان هذا الظلم شركًا أكبر أو كان دون ذلك.

(٢) ما ظهر في هذا الزمان في أكثر بلاد المسلمين من نبذ للشريعة والتحاكم إلىٰ القوانين الوضعية التي تقنن الظلم فتهدر قيمة الإنسان وتحطم القيم والأخلاق، وتجعل الناس مستعبدين لحفنة من شياطين الإنس الذين كرهوا ما أنزل الله تعالىٰ فظلموا وبغوا في الأرض بغير الحق. وإن أخطر ما في هذا الظلم المقنن محاولة أربابه من شياطين الإنس إظهاره في صورة الإصلاح والحزم والحنكة وقوة السياسة، ويلبسون علىٰ الناس بهذه المزاعم فينخدع منهم من ينخدع وقليل هم الذين يفطنون لهذا التضليل، ويكشفون زيفه، ويبينون عواره للناس.

وقد ذكر الله عز وجل لنا في كتابه الكريم هذا الصنف من الناس بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ

(١) تم استقراء هذا العدد من كتاب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

[البقرة: ١١، ١٢].

(٣) ومما يؤكد أهمية الكتابة في هذا الموضوع ما نراه في هذه الأزمنة من ظلم وعدوان بين المسلمين، ليس بين فساقهم ومجرميهم فحسب، بل تعدىٰ ذلك إلىٰ بعض الدعاة وطلاب العلم، وأصبحنا نسمع من يجور في حق أخيه، ويتكلم فيه بغير علم ولا عدل، وصرنا نرىٰ مواقف جائرة يندىٰ لها الجبين، تبخس فيها الحقوق، وتتهم فيها النيات، وتتبع فيها الشائعات، ويبحث فيها عن الزلات والسقطات. ويبلغ الجور غايته حين يُتهم أهل الخير والغيرة بالبدع والضلالات.

ولعله يكون في هذه الدراسة نصح لنا معاشر المسلمين - وبخاصة الدعاة - لنحذر هذه الأمراض حتىٰ لا يبغي بعضنا علىٰ بعض بل نكون كما قال الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة: ٢].

(٤) انفتاح الدنيا في هذا الزمان بشكل لم يسبق له نظير؛ مما نشأ عنه صور جديدة من الظلم لم يكن لها وجود من قبل؛ ذلك لأن هذا الانفتاح قد صاحبته أعمال وممارسات ونظم وأساليب معقدة ومتشابكة، فأصبح لكل عمل نظام يرتبه ويدبر شؤونه. ولما كانت

أغلب هذه الأنظمة في أكثر البلدان من صنع البشر ولا يحكمها شرع الله عز وجل فلا جرم جاءت بالظلم والوبال والشقاء علىٰ أهلها ومن تعامل معها. ولا أدل علىٰ ذلك من كثرة المنازعات والخصومات والمظالم التي تغص بها محاكم المسلمين اليوم بكل تعقيداتها بينما لم تكن منازعات الناس فيما مضىٰ من الزمن - الذي لم يشهد هذا الانفتاح ولم يشهد هذه التنحية لشرع الله عز وجل - ولا معشار معشار ما تشهده المحاكم اليوم في أكثر بلدان المسلمين.

(٥) توجيه النصح للظالمين بالكف عن الظلم لأنفسهم أو لغيرهم وأن يحذورا يوم الفصل والقضاء بين يدي الله عز وجل؛ يوم يوضع الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وأن يخشوا ما أعده الله عز وجل للظالمين من النكال والعذاب ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)**﴾ [غافر: ٥٢]. فما أتعس الظالمين وأشقاهم في دنياهم وأخراهم.

كما أن في هذه الرسالة توجيه العزاء والمواساة للمظلومين بأن لا ييأسوا وأن يخلصوا صبرهم لله عز وجل؛ فإن لهم يومًا موعودًا يوفون فيه أجورهم، وينصرون فيه، وينتقم الله لهم فيه ممن ظلمهم. قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)**﴾ [الزمر: ١٠]، وقال عز وجل: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ**

تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

قال ميمون بن مهران – رحمه الله تعالى – عن هذه الآية: «فيها تعزية للمظلوم ووعيد للظالم»[١].

(٦) قلة الإنصاف في هذا الزمان وتلبس الكثير منا ببعض المظالم والعدوان، والتي قد تبلغ من الخفاء بحيث لا يشعر بها فاعلها، وهذا يكثر بين الرجل وولده أو والده أو زوجه أو موظفيه. وقد يشعر بها لكنه يسعىٰ جاهداً لتبرير ظلمه بدعوىٰ الحزم والضبط ومتطلبات الإدارة الجيدة.

وكم رأينا صوراً من الظلم كثيرة يكون المتلبس بها غير شاعر بوجودها لدقتها وحساسيتها، أو أن يقر بوجودها لكنه لا يقرّ بكونها ظلمًا بل يدافع عن ممارسته لها بمبررات شتىٰ إما عن جهل وشبهة أو عن علم وشهوة.

وكون الشخص الواقع في الظلم معترفًا به ويسعىٰ جاهداً للتخلص منه أهون بكثير من ذلك الذي يدفعه هواه إلىٰ تبرير ظلمه، وأن ما يقوم به هو الحق والصواب، وبالتالي يستمرئ ظلمه ويتمادىٰ فيه، ولعل في هذه الرسال التنبيه لبعض هذه الصور الخفية والحذر من الهوىٰ في البقاء علىٰ الظلم والعدوان.

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٨٣.

(٧) ابتعاد كثير من الناس عن التفسير الإسلامي للأحداث والمصائب والغفلة الشديدة عن فهم السنن الربانية في هلاك القرىٰ وعذابها وأن ما يصيب البلاد والعباد من الكوارث والجدب والقحط والخوف والجوع وغيرها من المصائب إنما هو بسبب ظلم الناس وكفرهم بأنعم الله عز وجل وآلائه.

لقد غفل كثير من الناس عن هذه المسلمات؛ ولا أدل علىٰ ذلك من أن مثل هذه الكوارث لم يتعظ بها الأكثرون، ولم ترجعهم إلىٰ الله عز وجل بالتوبة والإنابة، وإنما الواقع هو تأثر الكثير منهم بما تبثه وسائل الإعلام المختلفة من إحالة أسباب الكوارث إلىٰ الطبيعة واختلاف دورة الفلك وغيرها من الأساليب المادية فحسب، والتي تبعد الناس عن ربهم عز وجل وسننه سبحانه في التغيير. فلعله أن يكون في هذه الدراسة إيضاح لهذه السنن الربانية والتي يجب أن نرتبط بها ونجعلها منهاجنا في التغيير وتفسير الأحداث؛ قال الله عز وجل: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال سبحانه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ٥٩]، وقال عز وجل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ

حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ١١ – ١٥].

(٨) قلة الكتب التي ألفت في هذا الموضوع؛ فعلىٰ أهميته ومسيس الحاجة إلىٰ طرحه والتحذير من عواقبه إلا أني بعد البحث المتواضع والاستقراء لما في المكتبة الإسلامية حول هذا الموضوع لم أجد حسب علمي إلا كتابات يسيرة تعد علىٰ الأصابع أفردت لهذا الموضوع بحثًا مستقلاً، ولكنها غير وافية، ولقد وجدت أيضًا فصولاً متناثرة في بعض كتب الآداب والترغيب والترهيب تتحدث عن الظلم والتحذير منه، وهي لا شك كثيرة إلا أنها لا تغطي إلا أجزاء متفرقه من جوانب هذا الموضع المهم الخطير، فاستعنت بالله عز وجل وشرعت في جمع ما يتعلق بموضوع الظلم حسب الطاقة وجهد المقل، أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإخواني المسلمين به، وأن يرزقني الإخلاص والصواب في القول والعمل إنه سميع مجيب.

هذا، وقد قسمت الرسالة إلى مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة.

– فالمقدمة: بينت فيها أهمية الموضوع وأسباب الكتابة فيه وخطة البحث.

– وأما المباحث فهي على النحو الآتي:

[١] تعريف الظلم وما ورد في ذمه من بعض الآيات والأحاديث.

[٢] أقسام الظلم.

أ- ظلم النفس بالظلم الأكبر وذكر بعض صوره.

ب- ظلم النفس بظلم العباد وذكر بعض صوره.

جـ- ظلم النفس بالمعاصي التي دون الشرك وذكر بعض صوره.

[٣] من آثار الظلم وعواقبه.

[٤] بعض الأسباب المعينة على توقي الظلم.

- ثم الخاتمة: ذكرت فيها أهم النتائج والنصائح المستخلصة من المباحث السابقة.

* * *

المبحث الأول

تعريف الظلم

وذكر بعض الآيات والأحاديث الواردة في ذمه

يعرف صاحب المفردات الظلم بقوله: «والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ومن هذا يقال: ظلمت السقاء إذا تناولته في غير وقته، ويسمىٰ ذلك اللبن ظليمًا. وظلمت الأرض: حفرتها ولم تكن موضعًا للحفر، وتلك الأرض يقال لها المظلومة، والتراب الذي يخرج منها ظليم»(١) اهـ.

وفي القاموس المحيط: «الظلم بالضم: وضع الشيء في غير موضعه»(٢) اهـ.

وفي ضوء هذه التعريفات يتبين لنا أن كل ذنب عُصي الله به بفعل محرم أو ترك واجب – وسواء كان ذلك الذنب شركًا بالله عز وجل أو دون ذلك من سائر المعاصي ومظالم العباد – كل ذلك داخل في مسمىٰ

---

(١) المفردات في غريب القرآن للرغب الأصفهاني ص: ٣١٥.

(٢) القاموس المحيط: ص ١٤٦٤

الظلم؛ لأنه وضع للشيء في غير موضعه الذي يرضاه الله عز وجل، مع التفريق بين ظلم أكبر وظلم دون ظلم كما سيتبين في المبحث التالي إن شاء الله تعالىٰ.

والظلم مصدر ظلم، والذي يفهم من لفظ الظلم وجود ظالم صدر منه الظلم ومظلوم وقع عليه الظلم، فمن هو الظالم والمظلوم في ضوء الكتاب والسنة؟ إنه هذا الإنسان المسكين فهو الظالم والمظلوم. حيث ظلم نفسه وأوبقها، وظلم عباد الله عز وجل فأساء إليهم وأساء إلىٰ نفسه وظلمها بما يعرضها للعقوبات في الدنيا والآخرة. قال الله عز وجل: ﴿ **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ **سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ** ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس: ٤٤].

وفي هذا يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: «والعدل هو الاعتدال، والاعتدال هو صلاح القلب، كما أن الظلم فساده، ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالمًا لنفسه. والظلم خلاف العدل فلم يعدل علىٰ نفسه؛ بل ظلمها. فصلاح القلب في العدل، وفساده في الظلم، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه؛ فمنه العمل وعليه تعود ثمرة

العمل من خير وشر. قال تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]»[١].

والآيات الواردة في ذم الظلم وأهله كثيرة جداً ومتنوعة، ويمكن تقسيمها إلىٰ المجموعات التالية:

المجموعة الأولى: ما ورد منها في تنزيه الله تعالىٰ نفسه عن الظلم وأمره سبحانه بالعدل ومحبته للمقسطين ومنها:

○ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر: ٣١].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٤].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية ١٠/ ٩٨.

○ وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]

○ وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

المجموعة الثانية: ما ورد من الآيات في وصف الشرك والمشركين بالظلم والظالمين. ومنها:

○ قوله تعالىٰ: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات: ٢٢]

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٩].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر: ١٧].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ١٠ – ١١].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص: ٤٠].

والآيات التي تصف الكفر والشرك بالظلم وتصف أهله بالظالمين كثيرة؛ بل إن المستقرئ لما ورد في كتاب الله عز وجل عن الظلم والظالمين يرىٰ أن جلّ هذه الآيات قد ورد في معرض الحديث عن الأمم الكافرة المكذبة لرسلهم.

ولا غرابة في ذلك فكفىٰ بالشرك ظلمًا عظيمًا من الإنسان لنفسه

ولعباد الله عز وجل.

المجموعة الثالثة: ما ورد منها في وصف ما دون الشرك من المعاصي بالظلم سواء ما كان منها بين العبد وربه أو ما كان منها ظلماً للعباد، وهي كثيرة منها:

○ قوله تعالىٰ: ﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝١﴾ [الطلاق: ١].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥].

○ وقوله تعالىٰ عن الأبوين: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝٣٢﴾ [فاطر: ٣٢].

○ وقوله تعالىٰ عن السارق: ﴿فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٩﴾ [المائدة: ٣٩].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي

بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿ **وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾** ﴾ [الحجرات: ١١].

○ وقوله تعالىٰ عن دعوة ذي النون عليه السلام: ﴿ **لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾** ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾** ﴾ [الشورىٰ: ٤١، ٤٢].

المجموعة الرابعة: ما ورد منها في ذكر خيبة الظالمين ومقت الله لهم وعدم هدايتهم وتوفيقهم، ومنها:

○ قوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾** ﴾ [المائدة: ٥١].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿ **وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾** ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾** ﴾ [الأنعام: ٢١].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿ **هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾** ﴾ [هود: ١٨].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٤١].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: ١١١].

المجموعة الخامسة: ما ورد منها في ذكر إهلاك الله عز وجل للظالمين في الدنيا وما أعد لهم من النكال والعذاب في الآخرة، ومنها:

○ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء: ١١].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ [الزخرف: ٦٥].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سبأ: ٤٢].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [النحل: ٨٥].

○ وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفرقان: ١٩].

أما الأحاديث والآثار الواردة في ذم الظلم وسوء عاقبة الظالمين فكثيرة جداً، أقتصر منها هنا علىٰ بعض الأحاديث التي وردت في ذم الظلم وسوء عاقبة الظالمين بعامة، وأرجئ الأحاديث التي وردت في ذم أفعال معينة ووصفها بالظلم إلىٰ المباحث القادمة إن شاء الله تعالىٰ. ويلاحظ أن معظم هذه الأحاديث كانت تتوجه إلىٰ صورة واحدة من صور الظلم ألا وهي ظلم العباد والاعتداء علىٰ حقوقهم.

ومن هذه الأحاديث العامة مايلي:

الحديث الأول: عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (قال تبارك وتعالىٰ: يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا...) الحديث القدسي.[1] وكان أبو إدريس الخولاني رحمه الله تعالىٰ إذا حدث بهذا الحديث جثا علىٰ ركبتيه.

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٢٥٧٧) في البر والصلة.

الحديث الثاني: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة)(١).

الحديث الثالث: عن أبي معبد مولىٰ ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلىٰ اليمن فقال: (... واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب)(٢).

الحديث الرابع: عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود: ١٠٢](٣).

الحديث الخامس: عن أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي رضي الله عنه فيما يرويه عن رسول الله ﷺ في خطبته في حجة الوداع أنه قال: (... فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا

---

(١) مسلم (٢٥٧٨) في البر والصلة. باب تحريم الظلم.

(٢) البخاري/ ك المظالم [٥/ ١٢١ (٢٤٤٨) الفتح]، ومسلم بأطول منه (١٩) ك الإيمان باب الدعاء إلىٰ الشهادتين.

(٣) البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣).

ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض... الحديث)[١].

الحديث السادس: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه وماله فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه حين لا يكون دينار ولا درهم؛ فإن كان له عمل صالح أخذ له منه بقدر مظلمته وإلا أخذ من سيئات صاحبه فحملت عليه)[٢].

الحديث السابع: عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ سمعه من رسول الله ﷺ لم أسمعه منه، فابتعت بعيراً وشددت عليه رَحْلي، وسرت إليه شهراً حتىٰ أتيت الشام، فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصاري، فأرسلت إليه أن جابراً علىٰ الباب. قال: فمضىٰ إليه الرسول فخرج إليَّ فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ في الظالم لم أسمعه منه فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يحشر الله العباد أو قال الناس – وأومأ بيده إلىٰ الشام – عراة غرلا بهما، قلت: ما بُهْما؟

---

(١) الحديث بطوله رواه البخاري في المغازي (٤٤٠٦)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩).

(٢) البخاري (٢٤٤٩) في المظالم باب من كانت له مظلمة عند الرجل ، والترمذي (٢٤٢١).

قال: ليس معهم شيء، قال: فيناديهم بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قَرُب: (أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة، قلنا: وكيف وإنما نأتي الله عراة غرلا بُهْما؟ قال: بالحسنات والسيئات)[١].

الحديث الثامن: عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾**﴾ [الزمر: ٣١] قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: (نعم) فقال: إن الأمر إذن لشديد[٢].

والأحاديث في ذم الظلم وأهله وسوء عاقبته كثيرة جداً أكتفى بما أوردته منها هنا، وسيأتي ذكر طائفة أخرى منها في مباحث قادمة إن شاء الله تعالى.

وأختم هذا المبحث بذكر جملة من مواقف السلف رحمهم الله

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (٩٧٠)، والحاكم في المستدرك ٢/٤٣٧ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) الترمذي/ ك التفسير من سورة الزمر ٨/٣٦٧ (٣٢٣٤) وقال: حسن صحيح. وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٥٨٤).

تعالىٰ من الظلم وخوفهم الشديد من سوء عاقبته في الدنيا والآخرة:

○ قال الواقدي: حدثني أبو بكر بنُ أبي سَبْرَة، عن عبد المجيد بن سُهيل، عن عوف بن الحارث: سمعتُ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: دعتني أمُّ حبيبة عند موتها، فقالت: قد كان يكون بَيْنَنَا ما يكونُ بَين الضرائر، فَغَفر الله لي ولك ما كان من ذلك. فقلتُ: غفر الله لك كلَّه وحلَّلَك من ذلك، فقالت: سررتني سرَّك الله، وأرسلت إلىٰ أمِّ سلمة، فقالَتْ لها مثلَ ذلك(١).

○ وقال اللَّيْثُ بنُ سعد وغيرُه: كتبَ رجلٌ إلىٰ ابنِ عُمر أن اكتُبْ إليَّ بالعلم كله. فكتب إليه: إنَّ العلم كثير، ولكن إن استطعتَ أنْ تَلْقَىٰ الله خفيفَ الظَّهرِ من دماء الناسِ، خَميصَ البطنِ من أموالهم، كافَّ اللسان عن أعراضهم، لازمًا لأَمْرِ جَماعتهم، فافعل(٢).

○ وعن عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت قال: لما حضرت عبادة بن الصامت الوفاة قال: أخرجوا فراشي إلىٰ الصحن، يعني إلىٰ الدار، ثم اجمعوا لي أموالي وخدمي وجيراني ومن كان يدخل علي. فجمعوا له، فقال: إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي علي من الدنيا، وأول ليلة من الآخرة، وإنه لا أدري لعله قد فرط مني إليكم

(١) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٢٣.
(٢) المصدر السابق ٣ / ٢٢٢.

بيدي أو بلساني شيء، وهو - والذي نفس عبادة بيده - القصاص يوم القيامة، وأحرج علىٰ أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتص مني قبل أن تخرج نفسي. فقالوا: بل كنت والداً وكنت مؤدباً، قال: - وما قال لخادم قط سوء - أغفرتم لي ما كان من ذلك؟ قالوا: نعم قال: اللَّهم اشهد[١].

○ وعن موسىٰ بن عقبة قال: لما ولي عياض بن غنم قدم عليه نفر من أهل بيته يطلبون صلته، فلقيهم بالبشر وأنزلهم، وأكرمهم. فأقاموا أيامًا ثم كلموه في الصلة، وأخبروه بما لقوا من المشقة في السفر رجاء صلته، . فأعطىٰ كل رجل منهم عشرة دنانير - وكانوا خمسة - فردَوها وتسخطوا ونالوا منه. فقال: أي بني عم والله ما أنكر قرابتكم ولا حقكم ولا بُعد شقتكم، ولكن والله ما حصلتُ إلىٰ ما وصلتكم به إلا ببيع خادمي وبيع ما لا غنىٰ بي عنه، فاعذروني. قالوا: والله ما عذرك الله، فإنك والي نصف الشام، وتعطي الرجل منا ما جهده أن يبلغه إلىٰ أهله؟ قال: فتأمرونني أسرق مال الله؟ فوالله لأن أشق بالمنشار أحب إلي من أن أخون فلسًا أو أتعدىٰ. قالوا: قد عذرناك في ذات يدك فولنا أعمالاً نؤدي ما يؤدي الناس إليك ونصيب من المنفعة ما يصيبون،

---

(١) وصايا العلماء عند حضور الموت: ص ٦٥ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.

وأنت تعرف حالنا، وإنا ليس نعدو ما جعلت لنا. قال: والله إني لأعرفكم بالفضل والخير ولكن يبلغ عمر أني وليت نفرًا من قومي فيلومني. قالوا: فقد ولاك أبو عبيدة وأنت منه في القرابة بحيث أنت فأنفذ ذلك عمر، فلو وليتنا لأنفذه قال: إني لست عند عمر كأبي عبيدة. فمضوا لا ثمين له[(١)].

○ وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «إياك ودعوات المظلوم فإنهن يصعدن إلىٰ الله كأنهن شرارات من نار»[(٢)].

○ وقال ميمون بن مهران: «الظالم والمعين على الظلم والمحب له سواء»[(٣)].

○ وعن سفيان عن منصورعن إبراهيم قال: «كانوا إذا رأوا الظلم في بلدة خرجوا منها إلىٰ غيرها»[(٤)].

○ وعن عمر بن ذَرٍّ، حدثني عطاء بن أبي رباح، قال: حدثتني فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز أنها دخلت عليه، فإذا هو في مصلاه يدُهُ علىٰ خده، سائلة دموعه، فقلتُ يا أمير المؤمنين! ألشيء حدث؟

---

(١) صفة الصفوة ١ / ٦٦٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٥٠.

(٣) مساوئ الأخلاق للخرائطي ص ٢٧٩.

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٥.

قال: يا فاطمةُ! إني تقلّدتُ أمْرَ أمة محمد ﷺ، فتفكَّرتُ في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهُور، والغريب المأسور، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ فخشيت ألا تثبت لي حجة عند خصومته، فَرَحِمتُ نفسي فبكيت[١].

○ وقال الشافعي رحمه الله تعالىٰ: «بئس الزاد إلىٰ المعاد العدوان علىٰ العباد»[٢].

○ وعن خالد بن حماد بن يزيد عن جعونة. قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ أهل الموسم أما بعد: فإني أشهد الله وأبرأ إليه في الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج الأكبر أني بريء من ظلم من ظلمكم، وعدوان من اعتدىٰ عليكم، أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته، إلا أن يكون وهمًا مني، أو أمرًا خفي علي لم أتعمده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعًا عني مغفوراً لي إذا علم مني الحرص والاجتهاد، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني وأنا معول كل مظلوم، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتىٰ يراجع الحق وهو ذميم، ألا وإنه لا دولة بين أغنيائكم، ولا أثرة علىٰ فقرائكم في شيء من

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ١٣١، ١٣٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٤١.

فيئكم، ألا وأيما وارد ورد في أمر يصلح الله به خاصًا أو عامًا من هذا الدين فله ما بين مائتي دينار إلى ثلاث مائة دينار على قدر ما نوى من الحسنة، وتجشم من المشقة، رحم الله أمرأ لم يتعاظمه سفر يحيى الله به حقًا لمن وراءه، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري والسلام عليكم(١).

○ وعن بشر بن عبد الله بن عمر عن بعض آل عمر أن هشام ابن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين إني رسول قومك إليك، وإن في أنفسهم ما أكلمك به؛ إنهم يقولون: استأنف العمل برأيك فيما تحت يديك، وخل بين من سبقك وبين ما ولوا به من كان يلون أمره بما عليهم ولهم. فقال له عمر: أرأيت لو أتيت بسجلين أحدها من معاوية والآخر من عبد الملك بأمر واحد فبأي السجلين كنت آخذ؟ قال: بالأقدم ولا أعدل به شيئًا، قال عمر: فإني وجدت كتاب الله الأقدم فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي في مالي وفيما سبقني. فقال له سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان: يا أمير المؤمنين امض لرأيك فيما وليت بالحق العدل، وخل عمن سبقك وعما ولي خيره وشره، فإنك مكتف بذلك. فقال له عمر: أنشدك الله

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٢.

الذي إليه تعود أرأيت لو أن رجلاً هلك وترك بنين صغاراً وكباراً فعز الأكابر الأصاغر بقوتهم فأكلوا أموالهم، فأدرك الأصاغر فجاءوك بهم وبما صنعوا في أموالهم ما كنت صانعًا؟ قال: كنت أرد عليهم حقوقهم حتىٰ يستوفوها. قال: فأني قد وجدت كثيراً ممن قبلي من الولاة عزوا الناس بقوتهم وسلطانهم، وعزهم بها أتباعهم. فلما وليت أتوني بذلك. فلم يسعني إلا الرد علىٰ الضعيف من القوي، وعلىٰ المستضعف من الشريف. فقال: وفقك الله يا أمير المؤمنين[1].

○ وعن حمزة قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ بعض عماله: «أما بعد فإذا دعتك قدرتك علىٰ الناس إلىٰ ظلمهم فاذكر قدرة الله تعالىٰ عليك ونفاد ما تأتي إليهم وبقاء ما يأتون إليك»[2].

○ عن جرير قال: قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «يا جرير تواضع لله فإنه من تواضع لله تعالىٰ في الدنيا رفعه الله يوم القيامة، ياجرير هل تدري ما الظلمات يوم القيامة؟ قلت لا أدري، قال: ظلم الناس بينهم في الدنيا»[3].

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٨٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٣١.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٢٠٢.

المبحث الثاني

أقسام الظلم

الظلم في حقيقته شيء واحد، وهو كما مر بنا: وضع الشيء في غير موضعه. لكنه يتفاوت من حيث شدته وعظمته وشناعته، ومن حيث الجهة التي وقع عليها الظلم؛ مع أن من صدر منه الظلم هو في حقيقته ما ظلم إلا نفسه؛ لأنه أوبق نفسه بظلمه لها بالمعاصي ومظالم العباد.

وقد ورد عن النبي ﷺ حديث اختلف العلماء في صحته فمنهم من ضعفه ومنهم من صححه، لكنه يستأنس به في هذا المجال، وبخاصة أنه صحيح المعنىٰ، وقد اعتمده كثير من السلف في ذكر أنواع الظلم وصوره.

ونص الحديث كما يلي:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه، فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وأما الظلم الذي يغفره فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضًا حتىٰ يدين

لبعضهم من بعض)[١].

وفي ضوء هذا الحديث وما ذكره العماء حول أنواع الظلم فإنه يمكن تقسيم الظلم إلىٰ قسمين كبيرين يندرج تحتهما أنواع الظلم الثلاثة المذكورة في الحديث.

وهذان القسمان هما:

(١) **الظلم الأكبر**: وهو ظلم العبد نفسه بالكفر والإشراك بالله عز وجل.

(٢) **الظلم الأصغر**: وهو ما دون الشرك. وهو نوعان:

أ- ظلم النفس بالمعاصي فيما بينها وبين الله عز وجل.

ب- ظلم النفس بمظالم العباد والتعدي علىٰ حقوقهم.

وسيدور الكلام في هذا المبحث إن شاء الله تعالىٰ حول هذه الأنواع الثلاثة:

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار (٣٤٣٩) من حديث أنس، وقد جاء بنحوه عن غير واحد من الصحابة. وانظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته ٢ / ٧٣٤ (٣٩٦١) وقد قال عنه الألباني: حديث حسن عن البزار، وذكره أيضًا في الأحاديث الصحيحة ١٩٢٧. وانظر: مجمع الزوائد (١٠ / ٣٤٨).

(١) ظلم النفس بالظلم الأعظم وهو الإشراك بالله عز وجل.

(٢) ظلم النفس بظلم العباد.

(٣) ظلم النفس بالمعاصي فيما بينها وبين ربها عز وجل فيما دون الشرك.

ولقد اعتمدت في التقسيمات السابقة علىٰ قول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ وغيره من أهل العلم، فنراه يقول: « ... وإذا كان كذلك، فالظلم ثلاثة أنواع: فالظلم الذي هو شرك لا شفاعة فيه، وظلم الناس بعضهم بعضًا لابد فيه من إعطاء المظلوم حقه، لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها، ولكن قد يعطىٰ المظلوم من الظالم، كما قد يغفر للظالم نفسه بالشفاعة. فالظالم المطلق ما له من شفيع مطاع، وأما الموحد فلم يكن ظالمًا مطلقًا، بل هو موحد مع ظلمه لنفسه. وهذا إنما نفعه في الحقيقة إخلاصه لله؛ فبه صار من أهل الشفاعة، ومقصود القرآن بنفي الشفاعة نفي الشرك وهو: أن أحدًا لا يعبد إلا الله، ولا يدعو غيره، ولا يسأل غيره، ولا يتوكل علىٰ غيره لا في شفاعة، ولا غيرها، فليس له أن يتوكل علىٰ أحد في أن يرزقه، وإن كان الله يأتيه برزقه بأسباب.

كذلك ليس له أن يتوكل علىٰ غير الله في أن يغفر له ويرحمه في الآخرة، وإن كان الله يغفر له ويرحمه بأسباب من شفاعة وغيرها. فالشفاعة التي نفاها القرآن مطلقًا: ما كان فيها شرك، وتلك منتفية

مطلقًا ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وتلك قد بين الرسول ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص، فهي من التوحيد، ومستحقها أهل التوحيد.

وأما الظلم المقيد، فقد يختص بظلم الإنسان نفسه، وظلم الناس بعضهم بعضًا، كقول آدم عليه السلام وحواء: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا**﴾ [الأعراف: ٢٣]. وقول موسىٰ: ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي**﴾ [القصص: ١٦] وقوله تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٣٥]. ولكن قول آدم وموسىٰ إخبار عن واقع لا عمومَ فيه، وذلك قد عُرف - ولله الحمد - أنه ليس كفرًا.

وأما قوله: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ**﴾ [آل عمران: ١٣٥]. فهو نكرة في سياق الشرط، يعم كل ما فيه ظلم الإنسان نفسه، فهو إذا أشرك ثم تاب، تاب الله عليه. وقد تقدم أن ظلم الإنسان لنفسه يدخل فيه كل ذنب كبير أو صغير مع الإطلاق، وقال تعالىٰ: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**﴾ [فاطر: ٣٢] فهذا ظلم نفسه مقرون بغيره، فلا يدخل فيه الشرك الأكبر.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنه لما أنزلت هذه الآية: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ**﴾ [الأنعام: ٨٢]. شق ذلك علىٰ أصحاب

النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ (إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلىٰ قول العبد الصالح: ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان: ١٣])[١].

والذين شق ذلك عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا يكون الأمن والاهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فشق ذلك عليهم، فبين النبي ﷺ لهم ما دلهم علىٰ أن الشرك ظلم في كتاب الله تعالىٰ. وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداءُ إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، ومن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء في قوله: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** ﴾ [فاطر: ٣٢، ٣٣].

وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلم نفسه إذا لم يتب، كما قال تعالىٰ: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾** ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]. وقال تعالىٰ: ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقد سأل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبي ﷺ عن ذلك فقال: يا رسول الله! وأينا لم يعمل سوءاً؟ فقال: (يا أبا بكر! ألست تنصب، ألست تحزن،

---

(١) البخاري في الإيمان (٣٢)، ومسلم في الإيمان (١٢٤).

ألست تصيبك اللأواء؟ فذلك ما تجزون به)[١] .

فبين أن المؤمن الذي إذا تاب دخل الجنة، قد يجزىٰ بسيئاته في الدنيا بالمصائب التي تصيبه، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح، تقومها تارة وتميلها أخرىٰ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة علىٰ أصلها حتىٰ يكون انجعافها مرة واحدة)[٢] .

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم، ولا حزن، ولا غم ولا أذىٰ، حتىٰ الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه)[٣] .

وفي حديث سعد بن أبي وقاص، قلت: يا رسول الله ! أي الناس أشد بلاء؟ قال: (الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة، زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة، خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتىٰ يمشي علىٰ الأرض وليس عليه خطيئة) رواه أحمد والترمذي وغيرهما[٤] .

---

(١) أحمد (١ / ١١) وضعف إسناده الشيخ شاكر في المسند (٦٨) .

(٢) البخاري في المرضىٰ (٥٦٤٣)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨١٠) .

(٣) البخاري في المرضىٰ (٥٦٤١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٣) .

(٤) أحمد (١ / ١٧٢)، والترمذي في الزهد (٢٤٠٠) وغيرهما . وهو في السلسلة الصحيحة (١٤٣) .

وقال: (المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه، كما تحط الشجرة اليابسة ورقها)[1].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة، كان له الأمن التام، والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلمه نفسه، كان له الأمن والاهتداء مطلقًا، بمعنىٰ أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرىٰ، وقد هداه إلىٰ الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلىٰ الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه. وليس مراد النبي ﷺ بقوله: (إنما هو الشرك) أن من لم يشرك [الشرك][2] الأكبر، يكون له الأمن التام، والاهتداء التام. فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلىٰ الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم، بل معهم أصل الاهتداء إلىٰ هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة الله عليهم، ولا بد لهم من دخول الجنة.

---

(١) أحمد بمعناه (١/ ١٩٥، ١٩٦) من حديث أبي عبيدة.

(٢) هذه الكلمة استدركناها من مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٨١).

وقول النبي ﷺ: (إنما هو الشرك) إن أراد به الشرك الأكبر، فمقصوده أن من لم يكن من أهله، فهو آمن مما وُعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة، وهو مهتد إلىٰ ذلك. وإن كان مراد جنس الشرك، فيقال: ظلم العبد نفسه كبخله – لحب المال – ببعض الواجب هو شرك أصغر، وحبه ما يبغضه الله حتىٰ يكون يقدم هواه علىٰ محبة الله شرك أصغر، ونحو ذلك. فهذا صاحبه قد فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار»[1] أهـ.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «والظلم عند الله عز وجل يوم القيامة له دواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر الله منه شيئًا؛ وهو الشرك به؛ فإن الله لا يغفر أن يشرك به، وديوان لا يترك الله تعالىٰ منه شيئًا؛ وهو ظلم العباد بعضهم بعضًا؛ فإن الله تعالىٰ يستوفيه كله، وديوان لا يعبأ الله به؛ وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل؛ فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محواً، فإنه يمحىٰ بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة ونحو ذلك، بخلاف ديوان الشرك فإنه لا يمحىٰ إلا بالتوحيد، وديوان المظالم لا يمحىٰ إلا بالخروج منها إلىٰ أربابها واستحلالهم منها.

---

(١) الإيمان لابن تيمية. تحقيق الألباني ص ٧٥ – ٧٩.

ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله عز وجل حرم الجنة علىٰ أهله؛ فلا تدخل الجنة نفس مشركة، وإنما يدخلها أهل التوحيد؛ فإن التوحيد هومفتاح بابها، فمن لم يكن معه مفتاح لم يفتح له بابها، وكذلك إن أتىٰ بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به»[١] أهـ.

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ عند قوله تعالىٰ: ﴿ **فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٨١﴾ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢].

«قال الله تعالىٰ فاصلاً بين الفريقين: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا** ﴾ أي: يخلطوا ﴿ **إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ الأمن من المخاوف، والعذاب والشقاء، والهداية إلىٰ الصراط المستقيم.

فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا، لا بشرك، ولا بمعاصي، حصل لهم الأمان التام، والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها.

ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء»[٢] أهـ.

---

(١) الوابل الصيب ص: ٣٣. تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض.

(٢) تيسير الكريم المنان ٢/ ٣٩.

ويقول الإمام ابن عبد البر رحمه الله تعالىٰ: «وقد أتىٰ الوعيد الشديد في الظالمين بما يجب أن يكون كل من فقهه عن قليل الظلم وكثيره منتهيًا، وإن كان الظلم ينصرف علىٰ وجوه، بعضها أعظم من بعض – وقد ذكرنا أكثرها في (التمهيد) – وأعظمها الشرك بالله عز وجل؛ قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: ١١١]، أي خاب من رحمة الله تعالىٰ؛ من بعضها أو من كثير منها علىٰ حسب ما ارتكب من الظلم، والله يغفر لمن يشاء»[١] أ.هـ.

ومن هذا النقل الأخير عن ابن عبد البر رحمه الله تعالىٰ وبخاصة عند قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ يتبين لنا معنىٰ هذه الآية الكريمة التي هي عنوان هذه الرسالة، وأن كل من حمل ظلمًا فإنه معرض للخيبة والحرمان من رحمة الله عز وجل وجنته حسب نوع هذا الظلم أكبره أو أصغره. فمن كان ظلمه من جنس الظلم الأكبر والذي هو الشرك بالله عز وجل والكفر به فقد خاب الخيبة الأبدية وحرم الحرمان التام من رحمة الله عز وجل ومأواه النار وبئس مثوىٰ الظالمين. ومن كان ظلمه دون ذلك ولم يتب منه إلىٰ ربه عز وجل فهو معرض للخيبة وتحت المشيئة؛ إن شاء الله تعالىٰ رحمه، وإن شاء عذبه، ثم يؤول بعد ذلك إلىٰ رحمة الله تعالىٰ وجنته.

---

(١) الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار ٢٠/ ٢٦٨، ٢٦٩.

وهذا الظالم لنفسه بما دون الشرك هو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]. وفي هذا يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: «فقد قسم سبحانه الأمة التي أورثها الكتاب واصطفاها «ثلاثة أصناف»: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات. وهؤلاء الثلاثة ينطبقون علىٰ الطبقات الثلاث المذكورة في حديث جبريل: «الإسلام والإيمان والإحسان». كما سنذكره إن شاء الله.

ومعلوم أن الظالم لنفسه إن أريد به من اجتنب الكبائر والتائب من جميع الذنوب فذلك مقتصد أو سابق، فإنه ليس أحد من بني آدم يخلو عن ذنب؛ لكن من تاب كان مقتصداً، أو سابقًا؛ كذلك من اجتنب الكبائر كفرت عنه السيئات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، فلا بد أن يكون هناك ظالم لنفسه موعود بالجنة، ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا؛ فإن النبي ﷺ ذكر أن ما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب مما يجزىٰ به، ويكفر عنه خطاياه...»[1] أهـ.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ٧ / ٤٨٥.

مما سبق يتبين أن الظالم لنفسه من هذه الأمة هو من ارتكب ذنوبًا دون الشرك سواءً ما كان منها بينه وبين الله عز وجل، أو ما كان منها من ظلم العباد والاعتداء علىٰ حقوقهم، ثم لم يتب من شيء من ذلك، فإنه بتوحيده يسلم من الخلود في النار، وبمظالمه التي لم يتب منها معرض للعذاب والتطهير إلا أن يغفر الله تعالىٰ له، أو تزول عنه عقوبة الذنب بنحو الأسباب التي ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ بقوله: «علىٰ أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب:

أحدها: التوبة: وهذا متفق عليه بين المسلمين؛ قال تعالىٰ: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤].

السبب الثاني: الاستغفار لقوله ﷺ: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر الله لهم)(١).

السبب الثالث: الحسنات الماحية كما قال تعالىٰ: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود: ١١٤] وقال ﷺ: (الصلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، ورمضان إلىٰ رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)(٢).

---

(١) البزار (٣٢٤٧، ٣٢٤٨)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/٢١٥): «.. رجالهم ثقات، وفي بعضهم خلاف».

(٢) مسلم في الطهارة (٢٣٣).

السبب الرابع: دعاء المؤمنين للمؤمن مثل صلاتهم علىٰ جنازته؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من رجل يموت فيقوم علىٰ جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه)[1].

وهذا دعاء له بعد الموت، فلا يجوز أن تحمل المغفرة علىٰ المؤمن التقي الذي اجتنب الكبائر. وكفرت عنه الصغائر وحده فإن ذلك مغفور له عند المتنازعين، فعلم أن هذا الدعاء من أسباب المغفرة للميت.

السبب الخامس: ما يعمل للميت من أعمال البر كالصدقة ونحوها.

السبب السادس: شفاعة النبي ﷺ وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة كما قد تواترت عنه أحاديث الشفاعة مثل قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[2].

السبب السابع: المصائب التي يكفر الله بها الخطايا في الدنيا كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذىٰ – حتىٰ الشوكة يشاكها – إلا

(١) مسلم في الجائز (٩٤٨).

(٢) أحمد (٣/٢١٣)، والترمذي (٢٤٣٥) وقال حديث حسن صحيح.

كفر الله بها من خطاياه)[١].

السبب الثامن: ما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعة؛ فإن هذا مما يكفر به الخطايا.

السبب التاسع: أهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها.

السبب العاشر: رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد »[٢].

وفي ذكر هذه الأسباب التي قد يدفع الله تعالىٰ بها العقوبة عن أهل الذنوب رد علىٰ قول الخوارج والمعتزلة في أن عقوبات أهل الكبائر لا تندفع إلا بالتوبة فقط.

وهذا فيما يتعلق بحق الله عز وجل، أما إذا كان الذنب فيه أيضًا حق للمخلوق فإن عقوبة الذنب لا تندفع إلا بالتحلل منه في الدنيا أو يكون القصاص يوم القيامة، والله أعلم.

وبعد هذه المقدمة عن أنواع الظلم كبيره وصغيره؛ نشرع في تفصيل هذه الأقسام وما يتفرع عنها، والصور المتنوعة لها؛ وذلك لنطمئن علىٰ سلامتنا منها، أو التخلص مما نتلبس به منها.

* * *

---

(١) متفق عليه. وقد مرّ تخريجه قريبًا.

(٢) مجموع الفتاوىٰ: ٧ / ٤٨٧ - ٥٠١ (باختصار).

القسم الأول

ظلم النفس بالظلم الأعظم
وهو الكفر بالله تعالىٰ والإشراك به سبحانه

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: (أن تجعل لله ندًا وهو خلقك). قلت: ثم أي؟ قال: (ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك). قلت: ثم أي قال: (أن تزني بحليلة جارك). فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]»[١].

وكون الشرك بالله سبحانه أعظم الظلم، لأنه وضع للعبادة في غير ما وضعت له وصرفها عن الله عز وجل الخالق الرازق رب العالمين إلىٰ مخلوق ضعيف لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولا يملك موتًا ولا حياة ولا نشورا.

---

(١) البخاري في التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان (٨٦).

ولما كان الكفر والشرك بالله عز وجل أعظم ذنب عصي الله به لذا فإنه هو الذنب الذي لا يغفره الله عز وجل إلا بتوبة، وصاحبه مخلد في النار ؛ قال الله عز وجل: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء: ٤٨].

يقول الشيخ سليمان بن عبدالله - رحمه الله تعالىٰ - في شرحه لكتاب التوحيد: باب الخوف من الشرك: «لما كان الشرك أعظم ذنب عُصي الله به، ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة مالم يرتبه علىٰ ذنب سواه؛ من إباحة دماء أهله وأموالهم وسبي نسائهم وأولادهم وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه، نبه المصنف بهذه الترجمة علىٰ أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه ويحذره ويعرف أسبابه ومبادئه وأنواعه لئلا يقع فيه...» إلىٰ أن قال رحمه الله تعالىٰ: «وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله، وإنما كان كذلك، لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم، إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به كما قال تعالىٰ: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام: ١] ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر، منافٍ له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك. فمتىٰ خلا منه خرب وقامت القيامة، كما قال ﷺ:

(لا تقوم الساعة حتىٰ لا يقال في الأرض: الله الله)[١].

ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالىٰ وتقدس في خصائص الإلهيه من ملك الضر والنفع، والعطاء والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده. فمن علق ذلك لمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً - فضلاً عن غيره - شبيهًا بمن له الخلق كله، وله الملك كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله. فأزمة الأمور كلها بيديه سبحانه، ومرجعها إليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطىٰ، ولما معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة، فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم. فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم، والإجلال، والخشية، والدعاء، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والتوبة، والاستعانة، وغاية الحب مع غاية الذل، كل ذلك يجب عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره، فمن فعل شيئًا من ذلك لغيره، فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثل له ولاند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله،

(١) مسلم / ك الإيمان / باب ذهاب الإيمان آخر الزمان (١٤٨).

فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه أنه لا يغفره مع أنه كتب علىٰ نفسه الرحمة، هذا معنىٰ كلام ابن القيم»[١] أهـ.

وبعد هذا الكلام النفيس الذي يتبين منه خطورة هذا النوع من الظلم وضرورة التحرز منه والحذر الشديد من الوقوع فيه. نأتي الآن للتعرف علىٰ بعض صور هذا الظلم العظيم وأنواعه.

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالىٰ: «إذا تبين هذا فاعلم أن الشرك ينقسم ثلاثة أقسام بالنسبة إلىٰ أنواع التوحيد، وكل منها قد يكون أكبر وأصغر مطلقًا، وقد يكون أكبر بالنسبة إلىٰ ما هو أصغر منه، ويكون أصغر بالنسبة إلىٰ ما هو أكبر منه.

القسم الأول: الشرك في الربوبية، وهو نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون. إذ قال: وما رب العالمين؟ ومن هذا شرك الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدومًا أصلاً، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلىٰ أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، يسمونها: العقول، والنفوس.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص٧٨، ٧٩.

ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود، كابن عربي، وابن سبعين، والعفيف التلمساني، وابن الفارض، ونحوهم من الملاحدة الذين كسوا الإلحاد حلية الإسلام، ومزجوه بشيء من الحق، حتىٰ راج أمرهم علىٰ خفافيش البصائر.

ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب وأوصافه، من غلاة الجهمية، والقرامطة.

النوع الثاني: شرك من جعل معه إلهًا آخر ولم يعطل أسماءه وصفاته وربوبيته، كشرك النصارىٰ الذين جعلوه ثالث ثلاثة، وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلىٰ النور وحوادث الشر إلىٰ الظلمة.

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات، ويجعلها مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

قلت(١): ويلتحق به من وجه شرك غلاة عباد القبور الذين يزعمون أن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات، ويفرجون الكربات، وينصرون من دعاهم، ويحفظون من التجأ إليهم، ولاذ بحماهم، فإن هذه من خصائص الربوبية، كما ذكره بعضهم في هذا النوع.

---

(١) القائل هو الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالىٰ لأنه ينقل عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ والله أعلم.

القسم الثاني: الشرك في توحيد الأسماء والصفات، وهو أسهل مما قبله، وهو نوعان:

أحدهما: تشبيه الخالق بالمخلوق؛ كمن يقول: يد كيدي، وسمع كسمعي، وبصر كبصري، واستواء كاستوائي، وهو شرك المشبهة.

الثاني: اشتقاق أسماء للآلهة الباطلة من أسماء الإله الحق. قال الله تعالىٰ: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال ابن عباس: يلحدون في أسمائه: يشركون. وعنه: سموا اللات من الإله، والعزىٰ من العزيز.

القسم الثالث: الشرك في توحيد الإلهية والعبادة. قال القرطبي: أصل الشرك المحرم اعتقاد شريك لله تعالىٰ في الإلهية، وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، ويليه في الرتب اعتقاد شريك لله تعالىٰ في الفعل، وهو قول من قال: إن موجوداً ما غير الله تعالىٰ يستقل بإحداث فعل وإيجاده وإن لم يعتقد كونه إلهًا، هذا كلام القرطبي. وهو نوعان:

أحدهما: أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله، ويسأله الشفاعة كما يسأل الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويحبه كما يحب الله، ويخشاه كما يخشىٰ الله. وبالجملة فهو أن يجعل لله نداً يعبده كما يعبد الله،

وهذا هوالشرك الأكبر، وهو الذي قال الله فيه: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) ﴾ [يونس: ١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ [السجدة: ٤].

والآيات في النهي عن هذا الشرك وبيان بطلانه كثيرة جداً.

الثاني: الشرك الأصغر، كيسير الرياء والتصنع للمخلوق، وعدم الإخلاص لله تعالىٰ في العبادة، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب المنزلة والجاه عند الخلق تارة؛ فله من عمله نصيب، ولغيره منه نصيب، ويتبع هذا النوع الشرك بالله في الألفاظ، كالحلف بغير الله وقول: ما شاء الله وشئت، ومالي إلا الله وأنت، وأنا في حسب الله وحسبك، ونحوه. وقد يكون ذلك شركًا أكبر بحسب حال قائله ومقصده هذا حاصل كلام ابن القيم وغيره»[1] أهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٢٩، ص٣٠ وما أشار إليه الشيخ - رحمه الله - من أمثلة الشرك الأصغر لا تدخل بالطبع تحت الظلم الأعظم، وإنما ذكرت من باب بيان أقسام الشرك في الألوهية.

ثم فصل بعض أنواع الشرك في الإلهية والعبادة فقال رحمه الله تعالىٰ: « ... فمنها: المحبة؛ فمن أشرك بين الله تعالىٰ وبين غيره في المحبة التي لا تصلح إلا لله، فهو مشرك.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة: ١٦٥ – ١٦٧].

ومنها: التوكل؛ فلا يتوكل علىٰ غير الله فيما لايقدر عليه إلا الله قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)﴾ [المجادلة: ١٠]، والتوكل علىٰ غير الله فيما يقدر عليه شرك أصغر.

ومنها: الخوف؛ فلا يخاف خوف السر إلا من الله. ومعنىٰ خوف السر: هو أن يخاف العبد من غير الله تعالىٰ أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره، فهذا شرك أكبر، لأنه اعتقاد للنفع والضر في غير الله. قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١)﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾ [يونس: ١٠٧].

ومنها: الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله كمن يدعو الأموات أو غيرهم راجيًا حصول مطلوبه من جهتهم؛ فهذا شرك أكبر. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا يرجُوَنّ عبدٌ إلا ربَّه.

ومنها: الصلاة والركوع والسجود؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧].

ومنها الدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله، سواء كان طلبًا للشفاعة أو غيرها من المطالب.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

ومنها: الذبح؛ قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، والنسك: الذبح.

ومنها: النذر؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الإنسان: ٧].

ومنها: الطواف؛ فلا يطاف إلا ببيت الله. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج: ٢٩].

ومنها: التوبة؛ فلا يتاب إلا لله. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٣١].

ومنها: الاستعاذة فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ ﴾.

ومنها: الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩].

فمن أشرك بين الله تعالىٰ وبين مخلوق فيما يختص بالخالق تعالىٰ من هذه العبادات أو غيرها، فهو مشرك. وإنما ذكرنا هذه العبادات خاصة لأن عبّاد القبور صرفوها للأموات من دون الله تعالىٰ، أو أشركوا بين الله تعالىٰ وبينهم فيها، وإلا فكل نوع من أنواع العبادة، من صرفه

لغير الله، أو شرك بين الله تعالىٰ وبين غيره فيه، فهو مشرك. قال الله تعالىٰ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وهذا الشرك في العبادة هو الذي كفر الله به المشركين، وأباح به دماءهم وأموالهم ونساءهم، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المدبر ليس له شريك في ملكه، وإنما كانوا يشركون به في هذه العبادات ونحوها، وكانوا يقولون في تلبيتهم:

لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك

تملكه وما ملك

فأتاهم النبي ﷺ بالتوحيد الذي هو معنىٰ لا إله إلا الله، الذي مضمونه أن لا يعبد إلا الله، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلاً عن غيرهم فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

وكانوا يجعلون من الحرث والأنعام نصيبًا لله وللآلهة مثل ذلك، فإذا صار شيء من الذي لله إلىٰ الذي للآلهة تركوه لها، وقالوا: الله غني، وإذا صار شيء من الذي للآلهة إلىٰ الذي لله تعالىٰ ردوه، وقالوا: الله غني، والآلهة فقيرة.

فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ

وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وهذا بعينه يفعله عُبَّاد القبور، بل يزيدون على ذلك فيجعلون للأموات نصيبًا من الأولاد»[(١)] أهـ.

وهذه الأنواع المذكورة من الشرك إن هي إلا أمثلة لما كان منتشرًا في عهده رحمه الله، ولا زالت إلىٰ يومنا هذا عند عباد القبور، وليست هي كل أنواع الشرك في الألوهية، فلقد انطوىٰ كتاب التوحيد علىٰ ذكر أنواع أخرىٰ من الشرك الأكبر غير هذه وحذر منها، يحسن هنا ذكر أشهرها وخاصة ما يكثر في زماننا اليوم.

● ومن ذلك ما ترجم له الشيخ رحمه الله تعالىٰ بقوله: «باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله»، وقوله: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا** ﴿٦٠﴾ ﴾ [النساء: ٦٠]»[(٢)].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٢٦، ٢٨.

(٢) وتحت هذه الأبواب في شروح «كتاب التوحيد» تفصيل شامل لهذا النوع من الشرك فيحسن الرجوع إليه. والمقصود التنبيه علىٰ أن من الشرك الأكبر والظلم الأعظم طاعة غير الله تعالىٰ في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله.

وهذا هو شرك الطاعة والاتباع والذي كثر في هذا الزمان حيث رفض فيه شرع الله عز وجل ونحي جانبًا، وحلت مكانه قوانين البشر ونحاتات أفكارهم وأنظمتهم الجائرة الكافرة الموصوفة بالجهل والظلم والهوىٰ والنقص. وانطبق علىٰ هؤلاء المشرعين من دون الله عز وجل قوله تعالىٰ: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ**﴾ [الشورىٰ: ٢١].

كما انطبق علىٰ الراضين بهذه الأنظمة المطيعين لها المنقادين لها بعد علمهم بأنها محادة لشرع الله سبحانه قوله تعالىٰ: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ [التوبة: ٣١].

ويعلق شيخ الإسلام رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله: «وفي حديث عدي بن حاتم – وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذي وغيرهما – وكان قد قدم علىٰ النبي ﷺ، وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية، قال: فقلت له: إنا لسنا نعبدهم؛ قال: (أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟!) قال: فقلت: بلىٰ. قال: (فتلك عبادتهم)[1].

---

(١) الترمذي بنحوه مختصراً في التفسير (٣٠٩٤)، وأخرجه بطوله ابن جرير في التفسير برقم (١٦٦٣٢) ١٤/ ٢١٠ تحقيق محمود وأحمد شاكر. ولم يخرجه أحمد في المسند.

وكذلك قال أبو البختري: أما إنهم لم يصلوا لهم، ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكن أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله؛ فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية.

وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء فما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم. فاستنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

فقد بين النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال، لا أنهم صلوا لهم، وصاموا لهم، ودعوهم من دون الله. فهذه عبادة للرجال، وتلك عبادة للأموال، وقد بينها النبي ﷺ، وقد ذكر الله أن ذلك شرك بقوله: ﴿**لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١] فهذا من الظلم الذي يدخل في قوله: ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ** ﴿٢٢﴾ **مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]، فإن هؤلاء والذين أمروهم بهذا جميعًا معذبون»أهـ[١].

إذن فإن من الشرك الأكبر والظلم الأعظم رفض شرع الله تعالىٰ وطاعة المشرعين من دون الله عز وجل أو اتباعهم فيما أحلوا وحرموا مما

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ٧/ ٦٧، ٦٨.

لم يأذن به الله تعالىٰ.

وقد وقفت علىٰ كلام بديع للإمام الشنقيطي رحمه الله تعالىٰ في تفسيره أضواء البيان يكفي ويشفي لتجلية هذا النوع من الشرك الخطير والظلم العظيم ويدحض أهله.

وأستسمح القارئ في نقل أكثره لعظيم فائدته. قال رحمه الله تعالىٰ عند قوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾** ﴾ [الشورىٰ: ١٠] ما نصه: «مادلت عليه هذه الآية الكريمة من أن ما اختلف فيه الناس من الأحكام فحكمه إلىٰ الله وحده، لا إلىٰ غيره، جاء موضحًا في آيات كثيرة.

فالإشراك بالله في حكمه كالإشراك به في عبادته، قال في حكمه: ﴿ **وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾** ﴾ [الكهف: ٢٦]، وفي قراءة ابن عامر من السبعة: ﴿ **وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** ﴾ بصيغة النهي.

وقال في الإشراك به في عبادته: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾** ﴾ [الكهف: ١١٠]، فالأمران سواء كما ترىٰ إيضاحه إن شاء الله.

وبذلك تعلم أن الحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرمه الله، والدين هو ما شرعه الله، فكل تشريع من غيره باطل والعمل به بدل تشريع الله – عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه –: كفر بواح لا نزاع فيه.

وقد دل القرآن في آيات كثيرة، علىٰ أنه لا حكم لغير الله، وأن اتباع تشريع غيره كفر به، فمن الآيات الدالة علىٰ أن الحكم لله وحده قوله تعالىٰ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧)﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾ [الكهف: ٢٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾ [القصص: ٧٠] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد قدمنا إيضاحها في سورة الكهف في الكلام علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾ [الكهف: ٢٦].

وأما الآيات الدالة علىٰ أن اتباع تشريع غير الله المذكور كفر فهي كثيرة جداً، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾ [النحل: ١٠٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، كما تقدم إيضاحه في الكهف.

مسألة: [الكلام ما يزال للشيخ الشنقيطي - رحمه الله -]

اعلم أن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة، صفات من يستحق أن يكون الحكم له، فعلىٰ كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة، التي سنوضحها الآن إن شاء الله، ويقابلها مع صفات البشر المشرعين للقوانين الوضعية، فينظر: هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع؟

سبحان الله وتعالىٰ عن ذلك.

فإن كانت تنطبق عليهم - ولن تكون - فليتبع تشريعهم، وإن ظهر يقينًا أنهم أحقر وأخس وأذل وأصغر من ذلك، فليقف بهم عند حدِّهم، ولا يجاوزه بهم إلىٰ مقام الربوبية؛ سبحانه وتعالىٰ أن يكون له شريك في عبادته، أو حكمه أو ملكه.

فمن الآيات القرآنية التي أوضح بها تعالىٰ صفات من له الحكم والتشريع قوله هنا: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾ [الشورىٰ: ١٠]، ثم قال مبينًا صفات من له الحكم: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)**﴾ [الشورىٰ: ١٠ - ١٢].

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين للنظم الشيطانية، من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذي تفوض إليه الأمور، ويتوكل عليه، وأنه فاطر السموات والأرض أي خالقهما ومخترعهما علىٰ غير مثال سابق وأنه الذي خلق للبشر أزواجًا، وخلق لهم أزواج الأنعام الثمانية... وأنه له مقاليد السموات والأرض وأنه هو الذي ﴿**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**﴾ أي يضيق علىٰ من يشاء ﴿**إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ فعليكم أيها المسلمون أن تتفهموا صفات من يستحق أن يشرع ويحلل ويحرم ولا تقبلوا تشريعًا من كافر خسيس حقير جاهل...

.. ومنها قوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ**﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فقوله: ﴿**هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ**﴾ صيغة تعجيز؛ فهم عاجزون عن بيان مستند التحريم. وذلك واضح في أن غير الله لا يتصف بصفات التحليل ولا التحريم ولما كان التشريع وجميع الأحكام، شرعية كانت أو كونية قدرية، من خصائص الربوبية. كما دلت عليه الآيات المذكورة كان كل من اتبع تشريعًا غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرع ربا، وأشركه مع الله.

والآيات الدالة علىٰ هذا كثيرة، وقد قدمناها مرارًا وسنعيد منها ما فيه كفاية، فمن ذلك - وهو من أوضحه وأصرحه - أنه في زمن النبي ﷺ وقعت مناظرة بين حزب الرحمن، وحزب الشيطان، في

حكم من أحكام التحريم والتحليل، وحزب الرحمن يتبعون تشريع الرحمن، في وحيه في تحريمه، وحزب الشيطان يتبعون وحي الشيطان في تحليله.

وقد حكم الله بينهما وأفتىٰ فيما تنازعوا فيه فتوىٰ سماوية قرآنية تتلىٰ في سورة الأنعام.

وذلك أن الشيطان لما أوحىٰ إلىٰ أوليائه فقال لهم في وحيه: سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ فأجابوهم أن الله هو الذي قتلها.

فقالوا: الميتة إذًا ذبيحة الله، وما ذبحه الله كيف تقولون إنه حرام؟ مع أنكم تقولون إنما ذبحتموه بأيديكم حلال، فأنتم إذًا أحسن من الله وأحلُّ ذبيحة.

فأنزل الله – بإجماع من يعتد به من أهل العلم – قوله تعالىٰ: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ**﴾ [الأنعام: ١٢١]، يعني الميتة أي: وإن زعم الكفار أن الله ذكاها بيده الكريمة بسكين من ذهب: ﴿**وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**﴾ [الأنعام: ١٢١]، والضمير عائد إلىٰ الأكل المفهوم من قوله: ﴿**وَلا تَأْكُلُو**﴾، وقوله: ﴿**لَفِسْقٌ**﴾ أي خروج عن طاعة الله، واتباع لتشريع الشيطان: ﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ**﴾ [الأنعام: ١٢١].

أي بقولهم: ما ذبحتموه حلال وما ذبحه الله حرام؛ فأنتم إذًا أحسن من الله، وأحل تذكية، ثم بين الفتوىٰ السماوية من رب العالمين، في الحكم بين الفريقين في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]، فهي فتوىٰ سماوية من الخالق جل وعلا صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله.... ومن الآيات الدالة علىٰ نحو ما دلت عليه آية الأنعام المذكورة قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠]، فصرح بتوليهم للشيطان أي باتباع ما يزين لهم من الكفر والمعاصي مخالفًا لما جاءت به الرسل، ثم صرح بأن ذلك إشراك به في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ وصرح أن الطاعة في ذلك الذي يشرعه الشيطان لهم ويزينه عبادة للشيطان.

ومعلوم أن من عبد الشيطان فقد أشرك بالرحمن قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٠ – ٦٢]، ويدخل فيهم متبعو نظام الشيطان دخولاً أوليا ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٢].

ثم بين المصير الأخير لمن كان يعبد الشيطان في دار الدنيا، في قوله تعالىٰ: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٣ - ٦٥]، وقال تعالىٰ: عن نبيه إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: ٤٤]، فقوله: لا تعبد الشيطان: أي باتباع مايشرعه من الكفر والمعاصي، مخالفًا لما شرعه الله.

وقال تعالىٰ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٧]، فقوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا﴾ يعني ما يعبدون إلا شيطانًا مريدًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

فقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي يتبعون الشياطين ويطيعونهم فيما يشرعون ويزينون لهم، من الكفر والمعاصي علىٰ أصح التفسيرين.

والشيطان عالم بأن طاعتهم له المذكورة إشراك به كما صرح بذلك وتبرأ منهم في الآخرة، كما نص الله عليه في سورة إبراهيم في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن

﴿قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فقد اعترف بأنهم كانوا مشركين به من قبل أي في دار الدنيا، ولم يكفر بشركهم ذلك إلا يوم القيامة.

وقد أوضح النبي ﷺ هذا المعنىٰ الذي بينا في الحديث لمَّا سأله عدي بن حاتم رضي الله عنه عن قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: ٣١] كيف اتخذوهم أربابًا؟ وأجابه ﷺ أنهم أحلوا لهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم، وبذلك الاتباع اتخذوهم أربابا[١].

ومن أصرح الأدلة في هذا أن الكفار إذا أحلوا شيئًا، يعلمون أن الله حرمه وحرموا شيئًا يعلمون أن الله أحله، فإنهم يزدادون كفرًا جديدًا بذلك، مع كفرهم الأول، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾

[التوبة: ٣٧].

وعلىٰ كل حال فلا شك أن كل من أطاع غير الله في تشريع مخالف لما شرعه الله فقد أشرك به مع الله كما يدل لذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، فسماهم شركاء لما أطاعوهم في قتل الأولاد...»[٢] أهـ.

---

(١) سبق تخريج الحديث الدال على ذلك ص: ٥٩.

(٢) أضواء البيان ٧/١٦٢ – ١٧٣ (باختصار).

من خلال هذا الكلام النفيس وما قبله يتبين لنا عظم ظلم الطغاة الذين يشرعون للناس ما لم يأذن به الله تعالىٰ، ويحكمون في دماء الناس وأعراضهم وأموالهم بأهواء البشر المليئة بالظلم والجهل والطغيان، فما أشد ظلم الطغاة، وما أشد شؤمهم علىٰ أنفسهم وأمتهم فلقد جمعوا كل أنواع الظلم – نعوذ بالله من الخذلان – حيث ظلموا أنفسهم بتبديلهم شرع الله عز وجل وهذا من الظلم الأعظم، وظلموا أنفسهم بمعصية الله تعالىٰ وارتكابهم ما حرم الله عز وجل مما تفرزه تشريعاتهم الباطلة، وظلموا عباد الله سبحانه بما ألزموهم به من الأحكام الظالمة التي تلحق الضرر بدينهم وأنفسهم، وأموالهم وأعراضهم، وبما أحدثوه من السياسات الجائرة التي تمكن للمفسدين ليفسدوا في الأرض، وفي الوقت نفسه تبعد أهل الخير والصلاح عن مواطن التوجيه إن لم تزج بهم في غياهب السجون!!

● ومن الصور الخطيرة للظلم الأعظم والشرك الأكبر تولي أعداء الله عز وجل من الكفرة والمشركين وعدم البراءة منهم ومن شركهم. حيث لا يصح للعبد توحيده حتىٰ يحقق مدلول كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بأن يعبد الله وحده ويتبرأ من كل ما يعبد من دون الله. وهذه هي الكلمة التي جعلها إبراهيم عليه الصلاة والسلام باقية في عقبه. قال الله عز وجل: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ**

مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨]، وهي العقيدة التي أمرنا الله عز وجل أن نقتدي بخليله عليه السلام فيها حيث يقول الله عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾

[الممتحنة: ٤].

وقال الرسول ﷺ: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله)[١].

وقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذا الحديث في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ثم قال في مسائل الباب:

«وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها من لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله. فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها،

---

(١) مسلم في الإيمان (٢٣).

وياله من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع»[١].

ويؤكد هذه المعنىٰ العظيم قول الله عز وجل: ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾**﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا يصح إيمان العبد وإسلامه وصدق تمسكه بكلمة التوحيد حتىٰ يضم إلىٰ إيمانه بالله عز وجل كفره بالطاغوت الذي يعني الكفر بكل ما يعبد من دون الله عز وجل من متبوع أو معبود أو مطاع.

وليس المقام هنا مقام تفصيل لهذا الركن العظيم من أركان التوحيد، وإنما المقصود الإشارة والتنبيه إلىٰ خطورة إهماله، وأن ذلك يوقع صاحبه في الظلم الأعظم الذي لا يغفره الله عز وجل إلا بتوبة صادقة.

وخلاصة ما سبق: أن صور الشرك الأكبر والظلم الأعظم في توحيد الألوهية كثيرة لكنها لا تخرج في جملتها – والله أعلم – عن الأنواع الثلاثة التالية:

١– الشرك بالله عز وجل في النسك والعبادة. وذلك من قوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾**﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]،

---

(١) فتح المجيد: ص ١١٥.

مثل الذبح والنذر والاستعانة والاستغاثة وغيرها.

٢- الشرك بالله عز وجل في الطاعة والحكم: كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١] وكقوله عز وجل: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠].

٣- الشرك بالله عز وجل في الولاية وعدم البراءة من المشركين: كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] وكقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

● وأخيراً، من المهم في مقام تعديد أنواع الكفر الأكبر وصور الظلم الأعظم ذكر بعض نواقض الإيمان التي يخرج العبد بارتكابه لها عن دائرة الإيمان والإسلام، ويصبح مرتداً ظالمًا لنفسه ظلمًا عظيمًا والعياذ بالله عز وجل.

ولما كان المقام أيضًا ليس مقام تفصيل فسأكتفي بإيرادها مختصرة للإشارة إلىٰ خطورتها ومن أراد التوسع فيها فليرجع إلى ما كتبه الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ، وإلىٰ كتاب

نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابطها عند أهل السنة للدكتور محمد بن عبد الله الوهيبي حفظه الله، وكتاب نواقض الإيمان القولية والعملية للدكتور عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف حفظه الله. وقد رجعت إلىٰ هذين الكتابين ولخصت هذه النواقض[١] بشيْء من التصرف في النقاط التالية:

(١) النواقض الاعتقادية:

وهي التي تنقض قول القلب كالإقرار والتصديق أو عمل القلب كالقبول والإذعان والمحبة والإخلاص وغيرها. ومن هذه النواقض:

أ- الجحود والتكذيب

ب- استحلال أمر معلوم تحريمه من الدين بالضرورة.

جـ- الشك في حكم من أحكام الله عز وجل أو خبر من أخباره.

د- من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع النبي ﷺ، ويسعه الخروج عن شرع الله.

هـ- اعتقاد ربوبية غير الله عز وجل.

---

(١) إن تعداد هذه النواقض وذكرها هنا علىٰ وجه الإجمال لا يعني بالضرورة كفر وارتداد كل من تلبس بها؛ لأن الحكم بكفر المعين وردته مضبوط بضوابط التكفير من توفر الشروط وانتفاء الموانع ولابد من التفريق بين التكفير المطلق وتكفير المعين.

و- اعتقاد ألوهية غير الله عز وجل.

ز- الإعراض عن دين الله عز وجل لا يتعلمه ولا يعمل به (وقد تكون من النواقض العملية).

ح- النفاق والاعتقادي.

ط- بغض أو كراهية بعض ما جاء به النبي ﷺ، أو محبة دين المشركين.

ي- الإباء والاستكبار والامتناع عن الالتزام بشريعة من شرائع الإسلام المتواترة.

ك- الشرك الأكبر بعمل القلب كالمحبة والإرادة والقصد.

ل- التكذيب بأصل من أصول الإيمان الستة، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

(٢) النواقض القولية:

وهي التي يكفر بها العبد بنطقها باللسان. وهي أنواع منها:

أ- القول بقدم العالم.

ب- سب الله عز وجل أو الاستهزاء به أو بدين الإسلام.

حـ- دعاء غير الله تعالىٰ والاستغاثة به أو الاستعانة به فيما لا يقدر

عليه إلا الله عز وجل.

د- سب النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء.

هـ- ادِّعاء النبوة.

و- إنكار القرآن أو الكتب المنزلة أو الاستهزاء بها.

ز- إنكار الملائكة أو سبهم والاستهزاء بهم.

ح- إنكار البعث أو الشك فيه أو الاستهزاء بالمؤمنين به.

ط- إنكار اليوم الآخر أو ما أخبر الله عز وجل بما فيه من الوعد والوعيد.

ي- إنكار حكم معلوم من الدين بالضرورة.

ك- تمجيد أحكام الكفرة المضادة لأحكام الله عز وجل وتفضيلها أو تسويتها بأحكام الإسلام.

(٣) النواقض العملية:

وهي الأعمال التي إذا قام بها العبد وقع في الكفرالأكبر والظلم الأعظم، وهي أنواع منها:

أ- الشرك في العبادة كالسجود لغير الله عز وجل أو الذبح أو النذر لغيره سبحانه.

ب- تبديل شرع الله عز وجل وسن الأنظمة المضادة لحكم الله عز وجل أو تجويز الحكم بغير ما أنزل الله وإلزام الناس بذلك.

حـ- مظاهرة الكفار والمشركين وتوليهم بالمحبة والنصرة لهم علىٰ المسلمين.

د- تعمد الاستهانة بالمصحف وإلقائه في الأماكن غير المحترمة علىٰ وجه الاستخفاف والإهانة.

هـ- الإعراض التام عن دين الله عز وجل لا يتعلمه ولا يعمل به.

و- السحر والكهانة والتنجيم وكل ما من شأنه الاستعانة بالجن وعبادتهم من دون الله عز وجل أو اعتقاد علمهم بالغيب.

وما سبق ذكره من النواقض لم يكن علىٰ سبيل الحصر ولا علىٰ سبيل الشمول والإحاطة بكل النواقض، فقد يكون هناك غيرها، ولكنها لا تخرج في جملتها عن أن تكون نواقض اعتقادية أو قولية أو عملية، والمقصود الحذر الشديد من الوقوع في شيء منها؛ لأنها تؤدي بالعبد إلىٰ أن يوقع نفسه في الظلم الأعظم الذي لا يغفره الله عز وجل. ولو مات عليه بلا توبة فحرام عليه الجنة، ومأواه النار خالداً فيها. وكفىٰ بذلك إثمًا مبينًا، وظلمًا عظيمًا.

القســم الثاني

ظلم النفس بوقوعها في مظالم العباد

وهذا النوع من الظلم أخف من سابقه في كونه لا يخلد صاحبه في النار لو دخلها، ولكن الخطير فيه أن إثمه وعقوبته لا تزول إلا برد المظالم إلىٰ أهلها، أو استباحتهم منها؛ وإلا كان القصاص يوم القيامة، بالحسنات والسيئات وليس بالدينار والدرهم؛ وكفي بهذا حاجزاً عن الظلم، وكفىٰ به رادعًا وواعظًا للعبد المسلم في أن يتخفف من حقوق العباد ويخرج من هذه الدنيا سالمًا لا يطلبه أحد من العباد بمظلمة في دين أو نفس[1] أو مال أو عرض. هذه الأمور التي لا تكاد تخرج مظالم العباد عنها؛ قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: (... فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا)[2] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولادرهم؛ إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر

---

(١) والعقل داخل في النفس، والاعتداء علىٰ الناس في هذه المقاصد الخمسة التي جاءت الشريعة للحفاظ عليها - يعد ظلمًا وعدوانًا.

(٢) مرّ تخريجه من حديث أبي بكرة ص٢٤.

مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحملت عليه)[١].

ويخلص لنا من هذا أن الذي يظلم الناس إنما هو في حقيقة الأمر ظالم لنفسه.

وظلم الناس إنما ينشأ من الإضرار بهم في دينهم أو دنياهم، ويكون ذلك بأمرين:

(١) إما بمنعهم حقوقهم (٢) أو بفعل ما يضر بهم.

وهذا ما يشير إليه شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ بقوله: « وإضرار العبد في دينه ودنياه هو ظلم الناس؛ فالظلم للغير يستحق صاحبه العقوبة في الدنيا لا محالة لكف ظلم الناس بعضهم عن بعض، ثم هو نوعان:

أحدهما: منع ما يجب لهم من الحقوق، وهو التفريط.

الثاني: فعل ما يضر به وهو العدوان »[٢].

ويقول في موطن آخر: (والظلم نوعان: تفريط في الحق، وتعد للحد. **فالأول**: ترك ما يجب للغير مثل ترك قضاء الديون، وسائر الأمانات، وغيرها من الأموال. **والثاني**: الاعتداء عليه، مثل القتل، وأخذ المال، وكلاهما ظلم...)[٣].

(١) مرّ تخريجه من حديث أبي هريرة ص٢٥.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ١٠ / ٣٧٣.

(٣) مجموع الفتاوىٰ ٢٨ / ١٨٣.

وتحصل لدينا من هذه القاعدة النافعة أن أي إضرار يقع علىٰ الناس في أديانهم، أو أنفسهم، أو أموالهم، أو أعراضهم - سواءً بمنع ما يجب لهم من الحقوق في ذلك أو العدوان عليهم في هذه المقاصد - إنما هو ظلم لهم، ولا تخرج مظالم العباد عن هذا.

وفي ضوء ما تقدم من أنواع الظلم الواقع علىٰ العباد يمكننا الآن التعرف علىٰ بعض صور الظلم المختلفة وبخاصة في زماننا اليوم، وأسوقها هنا نصحًا لنفسي ولإخواني المسلمين؛ فكم يتلبس الواحد منا ببعض هذه الصور وهو يشعر أو لا يشعر - نسأل الله العافية والسلامة - ومن هذه الصور ما يلي:

الصورة الأولى: «ظلم الأولاد لوالديهم»

لقد جعل الله عز وجل حق الوالدين بعد توحيده سبحانه وعبادته، كما جعل سبحانه عقوقهما من الكبائر التي تلي الإشراك بالله تعالىٰ؛ قال الله عز وجل: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ [النساء: ٣٦]، ولعظيم حقهما أوجب الإحسان إليهما ومصاحبتهما بالمعروف ولو كانا مشركين؛ قال الله عز وجل: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾ [لقمان: ١٥].

وقد جعل الرسول ﷺ كبيرة عقوق الوالدين بعد كبيرة الشرك بالله عز وجل فقال ﷺ: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر- ثلاثًا - قالوا:

بلىٰ يا رسول الله قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وجلس وكان متكئًا فقال: ألا وقول الزور... الحديث)[١].

وإن أي تفريط في هذا الحق العظيم للوالدين يعد ظلمًا لهما، كما أن فعل ما يضر بهما مهما قل يعد أيضًا من الظلم لهما كما قعَّد لذلك شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ.

وأسوق فيما يلي بعض الصور التي تعد من ظلم الأولاد لوالديهم:

(أ) **منعهم حقوقهم التي أوجبها الله تعالىٰ لهم أو التقصير فيها** ومن أمثلة ذلك:

- منعهم النفقة التي تجب لهم أو التقصير فيها من قبل الأولاد، وذلك في حال فقر الوالدين أو عجزهم وغنىٰ الأولاد.

- ترك طاعتهم وعدم تلبية أوامرهم وتقديم طاعة غيرهم من البشر عليهم كالزوجة والأصدقاء.

- إهمال خدمتهم والابتعاد عنهم وبخاصة في حال كبرهم وافتقارهم إلىٰ الرعاية الجسدية والنفسية.

- ترك تعليمهم من دين الله عز وجل ما لا يسع أحداً جهله كتوحيد الله عز وجل ومايضاده من الشرك، وتعليمهم أحكام الله عز وجل العينية، والمعلوم من الدين بالضرورة وجوبها أو تحريمها. إن ترك

(١) البخاري في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم. في الإيمان (٨٧).

الوالدين علىٰ جهلهم بهذه الأمور الواجب تعلمها يعد ظلمًا لهم وتفريطًا في حقوقهما الدينية. ويدخل في ذلك تركهما علىٰ بعض المنكرات والمخالفات من غير نصح وتوجيه بلطف ورفق وأدب.

○ عدم التوقير لهما وسوء الأدب معهما، والتعالي عليهما، وعدم الشفقة والرحمة بهما؛ قال الله تعالىٰ: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤]. ومن ذلك العبوس وتقطيب الجبين أمامهما.

○ إنكار جميلهما ورعايتهما ونكران فضلهما وعدم الدعاء والاستغفار لهما في حياتهما وبعد وفاتهما.

○ عدم إنفاذ وصيتهما بعد موتهما أو تغييرها وتعديلها بدون مسوغ شرعي.

○ ترك وفاء دينهما في حال عجزهما في حياتهما أو بعد مماتهما مع القدرة علىٰ ذلك.

○ عدم وفاء نذرهما بعد وفاتهما أو النيابة عنهما في أداء ما وجب عليهما في حياتهما ومماتهما ولم يقوما بأدائه.

○ إظهار الكره والتبرم والتأفف لما يظهر على الوالدين في الكبر من تغيرات نفسية أو جسدية أومرضية. ولذا شدد الله عز وجل علىٰ خفض الجناح والذل لهما عند الكبر لأنه مظنة تغير أخلاق الوالدين

وضعف تحملهما؛ فقال تعالىٰ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣].

ب- **التعدي عليهما وإيصال الضرر لهما**: ومن أمثلة ذلك:

○ التسبب في إيصال ما يحزنهما ويغمهما مع إمكان دفع ذلك عنهما.

○ التصرف في ممتلكات الوالدين بغير إذنهما أو السرقة من أموالهما أو التحايل عليها.

○ التفريط فيما يعهدان به من الأموال العينية أو النقدية إلىٰ الأولاد لتنميتها وعدم الإخلاص والنصح في رعاية أموالهما واستثمارها حتىٰ تنتهي إلىٰ الضياع بسبب الإهمال والتفريط من الولد في أموال والديه.

○ السعي بالنميمة بين الوالدين أو بين أحدهما وغيرهما من الناس سواء الأقارب أو الأباعد، فإذا كانت النميمة محرمة بين الناس عامة فإيقاعها مع الوالدين أكبر وأشد.

○ السخرية منهما سواء كان ذلك بحضرتهما أو في غيبتهما حيث نهىٰ الله عز وجل المؤمنين عن ذلك فكيف إذا كان ذلك مع الوالدين؟ قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا

مِّنْـهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، ويدخل في ذلك احتقار رأيهما أو الإشاحة عنهما إذا تحدثا.

○ الحديث في غيبتهما بما يكرهانه. وهذا هو معنىٰ الغيبة التي حرمها الله عز وجل بين المؤمنين فهي مع الوالدين أشد حرمة.

○ الوقوع في سبهما أو لعنهما سواء كان ذلك بطريق مباشر – عياذاً بالله تعالىٰ – أو كان بسب الآخرين وآبائهم مما يؤدي إلىٰ سب الوالدين أو لعنهم.

○ الغش لهما والكذب عليهما مما يكون له أكبر الأثر في إيصال الأذىٰ والضرر لهما.

○ الاهتمام بالأولاد والزوجة وأقارب الزوجة أكثرمن الاهتمام بهما مما ينشأ عنه إحزانهما وتألمهما بذلك.

○ معاونتهما علىٰ ظلم الناس وعدم كفهما عن ذلك، وفي ذلك إضرار بالنفس بمشاركتهما في الظلم، وإضرار بالوالدين باقرارهما علىٰ الظلم، وما يترتب عليه من آثام وضرر لهما في الدنيا والآخرة، كظلمهما للزوجة أو بعض أقاربهما أو غيرهما من الناس.

○ ويقابل الصورة السابقة: ترك نصرتهما ممن ظلمهما وخذلانهما وإسلامهما لمن يذلهما أو يلحق الضرر بهما. فإذا كان هذا حق للمسلم علىٰ أخيه المسلم فلأن يكون في حق الوالد أشد؛ قال ﷺ

(المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ... الحديث)[١].

○ تكليفهما بما فيه إهانة لهما كتنظيف المنزل وغسل الثياب وقضاء حاجات المنزل خاصة إذا كان الوالدان عاجزين. أما إذا قاما بذلك عن طواعية ورغبة منهما وهما نشيطان فلا بأس بذلك - إن شاء الله تعالىٰ - مع مراعاة شكرهما والدعاء لهما مع أن الأولىٰ أن لا يكون منهما شيء من الخدمة قدر الإمكان، وإنما الخدمة تكون لهما.

○ الدخول عليهما في خلوتهما بدون استئذان منهما.

○ معاتبتهما إذا أخطأا أمام الأولاد والزوجة أو غيرهم.

○ إدخال المنكرات في بيتهما كآلات اللهو والتلفاز والمجلات المحرمة مما يتسبب في فساد أفراد الأسرة. وهذا بلا شك يؤذي الوالدين ويحزنهما. ويدخل في ذلك مزاولة المنكرات أمام الوالدين وهما يتأذيان بذلك كشرب الدخان، والنوم عن الصلاة المكتوبة، وإدخال رفقة السوء للمنزل.

○ فعل ما ينشأ عنه إحراج الوالدين وتشويه سمعتهما وذلك باقتراف الأفعال الدنيئة من الأولاد والتي قد تخرم المروءة، وتلحق العار بالوالدين أو الأسرة جميعًا. فهذا فوق أنه ظلم للنفس من فاعلها فهو

---

(١) البخاري بنحوه في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠).

ظلم للوالدين بما يسببه من عناء وحرج وهمٍّ وغمٍّ لهما. وكذلك قد يقع الحرج عليهما - وبخاصة الأب - في سداد ديون الأبناء الناشئة من تصرفاتهم المشينة التي يترتب عليها استدانتهم من الغير وعجزهم عنها، وبالتالي يضطر الأب إلىٰ سدادها ليدفع عن ابنه عقوبة السجن أو غيره. وكفىٰ بذلك إيذاء وحرجًا.

○ ايذاؤهما بالمنة عليهما وتعداد الأيادي عليهما، وتكرار ذلك بمناسبة أو غير مناسبة، مع أن المنة لهما بعد الله عز وجل. قال تعالىٰ: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤].

○ الاستجابة لضغط الزوجة الظالمة بالبعد عن الوالدين وخدمتهم دون مسوغ شرعي، وقد يكون الوالدان في حال من الكبر والمرض بحيث لا يستغنيان عن ولدهما.

وبالجملة فإن أي ظلم يقع بين العباد فوقوعه علىٰ الوالدين من أولادهم أشد وأشنع.

الصورة الثانية: «ظلم الوالدين لأولادهم»

وهذه الصورة من صور الظلم تقابل الصورة السابقة، فكما أن الظلم يمكن وقوعه من الولد لوالده فكذلك الحال في ظلم الوالد لولده، فمهما تعاظم حق الوالد علىٰ الولد فلا يعني هذا فتح الباب للوالد ليفعل مع ولده ما يشاء؛ لأن للولد حقوقًا على أبيه وحدودًا إذا

تجاوزها الوالد مع ولده فإن ذلك يعد ظلمًا له. وبالتالي يدخل تحت طائلة الإثم والعقوبة للظالمين في الدنيا والآخرة.

وقد ذكر الله عز وجل لنا مشهداً عظيمًا مروعًا من مشاهد يوم القيامة، وهو كفيل بإيقاظ القلوب الحية، ورادعًا لها عن تحمل حقوق الناس ومظالمهم ولو كانوا أقرب قريب. قال الله عز وجل: ﴿ **فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾** ﴾

[عبس: ٣٣ – ٣٧].

ولماذا يفر المرء من أقرب الناس إليه؟ إن فراره ذلك إنما هو لخشيته من مطالبتهم له بحسنة من حسناته أو حق من حقوقهم عليه. وما أكثر الحقوق التي تكون بين الأقارب، وما أكثر المظالم التي تقع بينهم بحكم العشرة الطويلة والإقامة المستمرة معهم في الدنيا بخلاف غيرهم ممن لا يلتقي بهم إلا في المناسبات المتباعدة.

ومعلوم أن المظالم والحقوق تكثر في الغالب بين من يعيشون في مكان واحد ولفترة زمنية طويلة، كالوالد مع ولده، وكالزوج مع زوجته وكالأخ مع أخيه، وهم المذكورون في الآية الكريمة.

فالواجب الحذر الشديد من المظالم عامة، ومظالم الأقارب بخاصة؛ لكثرتها وشدة إثمها، ويوم القيامة لا ينفع الفرار ولا التنصل فلا ملجأ

من الله إلا إليه كما قال تعالىٰ: ﴿**يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢)**﴾ [القيامة: ١٠ – ١٢] وهذه المقدمة لا تخص هذه الصورة من صور الظلم وإنما هي للصورة السابقة أيضًا والصور اللاحقة التي يرد فيها ظلم الزوج لزوجته والعكس.

وأسوق فيما يلي بعض الصور التي تعد من ظلم الوالدين لأولادهم:

ومن ذلك:

○ ترك النفقة الواجبة لهم أو التقصير فيها؛ فالنفقة والكسوة والسكن وغير ذلك من الضروريات تعد من الحقوق التي تجب للأولاد علىٰ الوالد في حالة عجز الولد وقدرة الوالد، والتقصير في ذلك يعد ظلمًا لهم.

وكل ذلك يكون حسب القدرة والسعة كما قال تعالىٰ: ﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)**﴾ [الطلاق: ٧]، وهذه الحقوق التي للأولاد تبدأ منذ ولادتهم كحق الرضاعة والحضانة وغيرها.

○ عدم العدل بين الأولاد في الأعطيات والهبات والمعاملة. هذا من الوالد جور وظلم كما جاء ذلك في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما حيث يقول: «أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة: لا

أرض حتىٰ تشهد رسول الله ﷺ. فأتىٰ رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله. قال: (أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟) قال: لا. قال: (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم). قال فرجع فرد عطيته»[١].

وفوق ما فيه من الظلم والجور ففيه أيضًا باب إلىٰ الأحقاد والضغائن والقطيعة بين الأولاد بعضهم مع بعض وبينهم وبين والدهم. والنهي الوارد هنا يتعلق بالأعطيات العامة التي يُملَّك فيها بعض الأولاد دون بعضهم. أما لو أعطي أحد الأولاد نفقة زائدة علىٰ غيره لحاجته وفقره واستغناء إخوانه عن ذلك فلا بأس بهذا كما قرره الفقهاء في هذا الباب.

○ عدم تعليمهم دين الله عز وجل وبخاصة ما يتعلق بالفقه الواجب الذي يجب علىٰ كل مسلم معرفته كالشهادتين ومعناهما، والصلاة وشروطها وواجباتها وغير ذلك من فروض الأعيان، وإن ترك الأولاد علىٰ جهلهم دون تعليم ورعاية وتنشئة صالحة يعد ذلك ظلمًا لهم ومنعًا لهم من حقوقهم التي أوجبها الله عز وجل علىٰ الوالدين.

---

(١) البخاري (٢٥٨٧) [فتح ٥/ ٢١١].

ويندرج تحت ذلك تعليمهم الآداب الإسلامية كآداب الاستئذان والطعام، وتدريبهم علىٰ العبادة حتىٰ تسهل عليهم إذا بلغوا سن التكليف، ويخص البنات بآداب الحشمة والحجاب والحياء.

○ ما يقوم به بعض الآباء من ظلمهم لبناتهم بتأخير زواجهن طمعًا فيما عند البنت من مال تكسبه من عملها كما هو الحاصل في زماننا اليوم الذي فتح فيه العمل للمرأة كالتدريس وغيره.

○ اهمال تربيتهم وتركهم لجلساء السوء وأهل الفسق والمجون يروحون معهم ويغدون في الفسق واللهو والفساد من غير إنكار ولا سؤال ولا حساب، فهذا من الظلم لهم والخيانة للأمانة.

وأظلم من هذا من يسعىٰ بنفسه ويسافر بأولاده إلىٰ دول الكفر والرذيلة فيسرحون هناك ويمرحون بلا رقيب، وكذلك من يسعىٰ بجلب آلات اللهو والفساد إلىٰ بيته بنفسه فيتربىٰ عليها الصغير والكبير والذكر والأنثىٰ؛ فيحمل هذا المسكين الظالم لنفسه وزر هذه الآثام ووزر من عمل بها وتأثر بها من أولاده وغيرهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا. فيجمع هذا الظالم بين ظلمه لنفسه بإحضاره أدوات الفساد، وظلمه لأولاده بأن تسبب في إضلالهم وإفساد دينهم وأخلاقهم وإحراق بيته ومن فيه من الذرية بيده الآثمة الظالمة.

ويدخل في ذلك كل ما من شأنه إفساد الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وكل ذلك مجتمع في أجهزة التلفاز والفيديو الموجه للفساد، والبث المباشر، والمجلات الخليعة، والقصص الماجنة، والكتب المضللة. قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٧، ٢٨].

وقال الرسول ﷺ فيمن مات وهو غاش لرعيته: (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة)[١].

ويشتد هذا الظلم إذا كان الولد يرغب في الخير وأهل الخير ومجالس الخير ثم يقف الوالد في طريقه ويحول بينه وبين ذلك.

○ الغلظة علىٰ الأولاد والقسوة عليهم في غير موضعها، ومن ذلك سب الأولاد أو لعنهم أوضربهم ضربًا لا يستحقونه ولم يأذن به الشارع الحكيم، وحتىٰ الضرب المأذون به ينبغي أن لا يكون ضربًا مبرحًا للتشفي وتنفيس الغيظ، وإنما يكون للتأديب والعلاج، ولا يزيد عن حدِّه المأذون؛ وإلا صار ذلك ظلمًا من الوالد لولده، وبعض الآباء هداهم الله يفهم من كونه قيمًا للبيت وطاعته واجبة علىٰ أولاده أن

---

(١) مسلم في الإيمان (١٤٢) ١/١٢٥.

ذلك يسوغ له فعل ما يشاء معهم؛ فيتعدىٰ حدود الله معهم، ويصير تأديبه لهم عذابًا وجحيمًا. وفوق ما في ذلك من الظلم ففيه أيضًا نشر للكراهية والبغضاء بين الوالدين وأولادهم.

ويدخل في الغلظة والشدة: حرمان الأولاد من عطف الوالدين وحنانهم، ومعاملتهم بجفاء وفظاظة، وتتبع عثراتهم دقها وجلها؛ مما ينشأ عنه في المقابل قسوة قلوب الأولاد، وغلظتهم علىٰ والديهم وأولادهم فيما بعد، فكما أن للوالد حق الطاعة والبر من الولد فكذلك من حق الولد علىٰ والده أن يحنو عليه ويشعره بالمحبة والعطف والرحمة.

ويكفي أن نراجع هدي الرسول ﷺ في معاملته لأولاده وعطفه وحنوه ورحمته لهم لنرىٰ ذلك واضحًا جليًا؛ ومن ذلك ما حدثته عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال: تقبلون صبيانكم؟ فما نقبلهم. فقال ﷺ: (أوأملك أن نزع الله من قلبك الرحمة)[١].

○ الجور في الوصية واختصاص بعض الأولاد بها دون بعض وفوق أن الوصية للوارث لا تجوز ولو ساوىٰ فيها بين الأولاد، فإن اختصاص الوالد بها بعض الأولاد دون بعض يكون أشد ظلمًا وإثمًا.

---

(١) البخاري في صحيحه كتاب الأدب (٥٩٩٧).

○ التحايل علىٰ أكل مال الولد بالباطل وإفساده عليه.

○ اتهام الوالد لولده بما هو منه براء، والتجسس عليه، وإساءة الظن به دون مسوغ شرعي سوىٰ الوساوس والأوهام.

○غيبة الوالد لولده في المجالس ولمزه وغمزه وتشويه سمعته عند الناس .. ويشتد هذا الظلم إذا كان الولد صالحًا وقائمًا بحقوق والديه.

○ السعي بالنميمة بين الأولاد أو بينهم وبين زوجاتهم وأقاربهم مما ينشأ عنه فساد ذات البين وقطيعة الأرحام.

○ إيغار صدر الولد علىٰ زوجته من قبل الوالدين أحدهما أو كلاهما والضغط عليه ليطلق زوجته التي يحبها أو التي قد رزق منها بنين وبنات كل ذلك دون مبرر شرعي، ولا يخفىٰ ما في ذلك من المفاسد والظلم والعنت علىٰ الزوجين وأولادهما.

○ تغذية الأولاد بالمال الحرام الذي يجلبه الوالد لهم من المصادر المحرمة كالربا والغصب والسرقات والرشاوىٰ والبيوع المحرمة وغير ذلك مما ينعكس أثره علىٰ تربية الأولاد وظلمهم بالسحت الذي تنبت منه أجسامهم.

○ إعانة الأولاد علىٰ ظلمهم وعدم نهيهم ومنعهم من ظلم الناس، كما يدخل في مقابل ذلك ترك نصرتهم علىٰ من ظلمهم بالعدل.

الصورة الثالثة: «ظلم الأزواج لزوجاتهم»

شرع الله عز وجل حقوقًا للزوجة علىٰ زوجها متىٰ ما فرَّط فيها الزوج فإنه يصبح ظالمًا آثمًا، إن حللته زوجته منها في الدنيا وإلا كان القصاص يوم القيامة: يوم يضع الله عز وجل الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا. ولا شك أن للزوج علىٰ زوجته حقوقًا عظيمة سيأتي بيانها في الصورة التالية إن شاء الله تعالىٰ.

ولكن هذا لا يعني أن يعتمد الزوج علىٰ حقوقه ليظلم زوجته ويبخسها حقوقها. ولقد أوصىٰ النبي ﷺ بالنساء في حجة الوداع فقال ﷺ: (... فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله)(١).

وفي ما يلي بعض الصور التي تعد من ظلم الأزواج لزوجاتهم:

○ أكل مهر الزوجة كله أو بعضه أو عدم الوفاء لها به، ويلحق بذلك جهازها الذي جُهّزت به إلىٰ بيت زوجها. فهذا كله ملك لها لا يجوز التصرف فيه إلا بإذنها ورضاها. قال تعالىٰ: ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا** ﴿٤﴾﴾ [النساء: ٤]، ويدخل في ذلك كل ما تملكه الزوجة من مال أو عقار أو غيره: فلا يجوز الاعتداء عليه من الزوج أو التصرف فيه إلا بإذنها، وإلا

---

(١) مسلم في الحج (١٢١٨).

كان ذلك من الزوج ظلمًا وعدوانًا.

○ ترك النفقة عليها وكسوتها وإسكانها بالمعروف؛ قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقال سبحانه: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦]، وهذه الحقوق للزوجة تجب لها ولو كانت غنية وذات مال، كما تجب لها بعد الطلاق مادامت في فترة العدة، إلا المبتوته على الراجح، والتقصير من الزوج في ذلك يعد ظلمًا إلا أن يكون فقيرًا فينفق حسب استطاعته، قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧].

○ إساءة عشرتها والإضرار بها، ولقد أوصى الله عز وجل بحسن المعاشرة لهن فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وعلى هذا فأي إساءة لها بقول أو فعل أو مضارة يعد ذلك ظلمًا لها وعدوانًا. والأمثلة للمضارة والإساءة كثيرة منها: السب واللعن لها أو لوالديها، وكذلك القسوة والغلظة والضرب لها دون مسوغ شرعي. وإذا وجد المسوغ الشرعي لضربها حال النشوز فيتجنب الوجه والضرب المبرح.

ومن سوء العشرة لها أيضًا: ترك إتيانها مدة طويلة تضر بها من غير سبب صحي أو شرعي. ولو كان هناك سبب شرعي كالتأديب مثلاً فإن الهجر لا يجوز أن يتعدىٰ أربعة أشهر قال تعالىٰ: ﴿ **لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦)** ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

ومن الإضرار بها: التضييق عليها في النفقة أو السكنىٰ أو الضرب والسب المستمر لها حتىٰ يُلجئها ذلك إلىٰ افتداء نفسها بالمخالعة. فهذا كله من الظلم والعدوان المبين. ومن إساءة العشرة لها إفشاء سرّها، وما يكون بينها وبين زوجها في الفراش.

○ عدم العدل بين الزوجات فيما يقدر عليه الزوج كالنفقة والكساء والسكن والمبيت والمعاملة، وحين يوجد الميل مع زوجة دون الأخرىٰ في مثل هذه الحقوق فإن ذلك يعد ظلمًا وعدوانًا من الزوج، ولا يعذر في ذلك إلا فيما لا قدرة عليه كالمحبة والميل القلبي، والمساواة بينهن في الجماع.

قال الله عز وجل ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا (٣)** ﴾ [النساء: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ** ﴾ [النساء: ١٢٩] والاستطاعة المنفية في الآية هي المحبة والميل القلبي؛ فلا يستطيع الزوج أن يعدل فيها بين نسائه.

○ ترك الزوجة جاهلة بدينها دون تعليم لها وتربية وبخاصة فيما يجب عليها معرفته كالتوحيد وأركان الإسلام والأحكام التي تخصها في الحيض والنفاس واللباس وغير ذلك مما يؤدي الجهل به إلىٰ الإخلال في دين المرأة وعبادتها لربها وسلوكها وأخلاقها. وإهمال الزوج لزوجته في هذه العلوم الواجبة مع قدرته علىٰ تعليمها يعد ذلك منه ظلمًا لامرأته ومنعًا لها من حقوقها.

ويلحق بذلك أمرها ونهيها لتستقيم علىٰ طاعة الله عز وجل، وعدم السكوت علىٰ ما يبدر منها من مخالفات سواء في نفسها أو بيتها أو علىٰ أولاده وأولادها. وكل ذلك من واجبات الزوج؛ لأنه المسؤول الأول عن أهله وبيته؛ وكما قال الرسول ﷺ: (... والرجل راع علىٰ أهل بيته... الحديث)[١] فترك ذلك كله من الزوج يعد ظلمًا منه لنفسه وأهله.

○ ضعف الغيرة علىٰ الزوجة. وهذه المسألة وإن كانت تابعة لما قبلها لكنها تحتاج إلىٰ مزيد عناية وتأكيد لخطورتها وانتشارها في هذا الزمان بشكل ينذر بالخطر. فإن من أعظم حقوق الزوجة علىٰ زوجها أن يغار عليها وأن يحميها من كل ما من شأنه النيل من عرضه وعرضها، وأن يصونها من كل ما يدنس حياءها ومروءتها.

---

(١) البخاري في الاستقراض (٢٤٠٩)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩).

وقد يقول قائل: وهل هناك زوج لا يغار علىٰ زوجته؟ والجواب يكمن في السؤالات التالية: هل يغار علىٰ زوجته من يترك لها الحبل علىٰ الغارب تسرح وتمرح بمفردها في الأسواق، والمجتمعات المختلطة؟ وهل يغار علىٰ زوجته من يراها تخلو بالرجال الأجانب كالسائقين والخدم ولا يحرك لذلك ساكنًا؟ وهل يغار علىٰ زوجته من يجلب لها أجهزة الفساد التي تقتل الغيرة والحياء وتمسي وتصبح علىٰ رؤية أراذل الخلق من رجال ونساء في مسلسلات الحب والعشق والغرام؟ وهل يغار علىٰ زوجته من يجلب لها أو يأذن لها بجلب قصص الغرام ومجلات الفساد؟ وهل يغارعلي زوجته من يراها تلبس لباس الفتنة والتبرج أمام الرجال الأجانب ثم لا يتمعر وجهه البتة؟ بل هناك من يتباهىٰ ويفتخر بذلك والعياذ بالله تعالىٰ.

إن ترك الزوجة علىٰ مثل هذه الأحوال يدل علىٰ ضعف الغيرة. وفي هذا ظلم للنفس وظلم للزوجة وظلم لعباد الله عز وجل بإشاعة الفتنة والفاحشة بينهم.

○ وفي مقابل الصورة السابقة توجد صورة أخرىٰ من صور الظلم للمرأة ألا وهي الإفراط في الغيرة حتىٰ تتحول إلىٰ وساوس وظنون سيئة وتهم باطلة من الزوج لزوجته. فما دامت المرأة ملتزمة بأحكام الله عز وجل وملتزمة بالستر والعفاف والحياء فإن إساءة الظن بها واتهامها بما هي منه بريئة يعد ظلمًا لها وعدوانًا.

○ تكليفها بما لا يطاق أو أمرها بمعصية الله عز وجل أو ما يؤدي بها إلىٰ المعاصي والمنكرات.

○ السعي بالنميمة بين الزوجة وأولادها أو أهلها أو أهله مما ينشأ عنه الكراهية والشحناء بين الزوجة وأولادها أو بين الزوجة وأهله أو أهلها، ولا يخفىٰ ما تنتهي إليه هذه الأحوال من القطيعة والنفرة وإفساد ذات البين.

ويلحق بذلك فتح الأذن والاستماع لكل ما يقال في الزوجة من القيل والقال والظنون الفاسدة والتي قد توغر صدر الزوج وتدفعه بلا تثبت إلىٰ طلاق المرأة المسكينة، وقد تكون بريئة من كل ما أثير حولها. فالمسارعة بفراق الزوجة وعدم التثبت يعد ظلماً لها.

○ منع الزوجة من صلة أرحامها كالوالدين وغيرهما دون مبرر شرعي. وفي هذا ظلم من الزوج لزوجته من جانب، وظلم لأقاربه من جانب آخر لما ينشأ عن ذلك من هجر وقطع للأرحام.

الصورة الرابعة: «ظلم الزوجة لزوجها»

من المعروف أن الظلم في الغالب يصدر من القوي للضعيف ومن الرئيس للمرؤوس، أما أن يصدرمن الضعيف إلىٰ القوي ومن المرؤوس إلىٰ الرئيس فهذا أمر يحتاج إلىٰ إيضاح، وهو ما نحن بصدده في هذه

الصورة؛ حيث إن تصور ظلم الزوج لزوجته أمر ميسور كما مر بنا في الصورة السابقة، أما صدوره من الزوجة لزوجها فقد لا يتضح إلا بالأمثله التالية:

○ ترك طاعته بالمعروف والنشوز عليه؛ ففي هذا ظلم للزوج بترك حق من حقوقه التي أوجبها الله عز وجل ورسوله ﷺ علىٰ المرأة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)**﴾ [النساء: ٣٤].

وقال ﷺ: (إذا دعا الرجل امرأته إلىٰ فراشه، فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتىٰ تصبح)[١]. ويلحق بمعصية الزوج ترك خدمته بالمعروف والتعالي عليه وإلجائه إلىٰ خدمة نفسه وإشغال وقته بذلك.

والحاصل من كل ما سبق أن طاعة الزوجة لزوجها في غير معصية الله تعالىٰ وفيما تقدر عليه واجبة، وهي حق من حقوق الزوج علىٰ زوجته، وتصير المرأة ظالمة لزوجها بتفريطها في ذلك.

---

(١) البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٧).

○ الخروج من بيته بدون إذنه. وهذه المسألة فرع عن سابقتها؛ لأن من لوازم طاعة الزوج أن لا تخرج من بيته إلا بإذنه. وفي مخالفة المرأة لذلك تفريط في حق من حقوق الزوج إلا أن تعلم إذنه المسبق لها لبعض الأماكن وأنه لا يمانع في ذلك، فهذا ينوب مناب الإذن لها. ويلحق بهذه المخالفة إذن الزوجة لأحد بدخول بيت زوجها مع علمها بكراهيته لذلك؛ فهذا أيضًا يعد من ظلم الزوجة لزوجها ومنعه حقًا من حقوقه؛ قال ﷺ: (فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذَنَّ في بيوتكم لمن تكرهون)[1].

○ سوء العشرة مع الزوج وإساءة الأدب معه بقول أو فعل والتسبب في إيصال الأذىٰ والغموم والهموم إليه. كل ذلك مما تعاقب عليه المرأة، وتصبح بذلك ظالمة معتدية علىٰ حق عظيم من حقوق الزوج، ألا وهو الأدب معه، وحسن العشرة، وتوفير السكن النفسي والجسدي للزوج، والذي هومن غايات الزواج وأهدافه.

○ عدم تمكينه من نفسها دون عذر شرعي لها. وفي هذا ظلم للزوج من عدة جوانب؛ من ذلك معصيته وعدم طاعته، وفي هذا ترك لحق من حقوق الزوج، ألا وهو الطاعة بالمعروف، وقد سبق ذكر ذلك في النقطة الأولىٰ، وظلم له أيضًا لكونها تسببت بذلك في تطلعه

(١) الترمذي في الرضاع (١١٦٣) وقال: حسن صحيح.

لغيرها، وعدم غض بصره. وقد يؤدي به الأمر إلىٰ الوقوع في الفاحشة. وبذلك تشترك معه في الإثم لعدم إعانته علىٰ غض بصره وتحصين فرجه.

كما تعتبر ظالمة له أيضًا بإحزانه وبث القلق والغم في نفسه. ويلحق بذلك صوم الزوجة تنفلاً دون إذن الزوج؛ لأن في ذلك تفويتًا لحق الزوج في قضاء وطره من زوجته عند حاجته لذلك. وفي هذا يقول الرسول ﷺ: (لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه)(١).

○ إنكار جميل الزوج ومعروفه وعدم شكر أفضاله عليها بمجرد أن ترىٰ في يوم من الأيام ما تكره؛ وفي هذا ظلم للزوج وهو الذي سمَّاه الرسول ﷺ كفران العشير؛ وذلك لما سُئل أيكفرن بالله؟ قال: (يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان؛ لو أحسنت إلىٰ إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئًا قالت: والله ما رأيت منك خيرًا قط)(٢).

○ قلة حياء الزوجة ودينها بإطلاق بصرها إلىٰ الرجال الأجانب أو التبرج أمامهم أو الخضوع بالقول معهم. إن كل ذلك فوق ما فيه من

(١) البخاري في النكاح (٥١٩٥).
(٢) البخاري. في النكاح ٩ / ٢٦١، مسلم في الكسوف (٩٠٧).

الإثم والمخالفة فيه الظلم والخيانة للزوج بتشويه سمعته وعرضه عند الناس.

○ إهمال تربية أولاده في صغرهم، وعدم الحرص علىٰ صحتهم وتغذيتهم ونظافتهم؛ مما يجعل الزوج يشغل باله بهم ويتحمل جزءاً كبيراً من ذلك، مما ينعكس أثره على صحة الزوج وضياع وقته وتفويت مصالحه في الخارج مع أن هذه الحقوق يقع أغلبها علىٰ الزوجة. ويلحق بهذا قيام الزوجة بالوقيعة بين الزوج وأولاده، وشحن صدور الأولاد علىٰ أبيهم مما ينشأ عنه حقد الأولاد وكراهيتهم له.

○ إرهاق الزوج بالنفقات الباهظة من غير حاجة إليها؛ مما ينشأ عنه تحمل الزوج للديون الكبيرة من الناس. وفي هذا هم الزوج وغمه وتعريضه لحقوق الخلق؛ وقد لا يستطيع الوفاء بها مما يؤدي به إلىٰ السجن وغيره، وكل ذلك بسبب الزوجة الظالمة الحمقاء.

○ غيبة الزوجة لزوجها عند أهله أو أهلها أو قرابتها. وفي هذا ظلم للزوج لأن الغيبة حرام بين المسلمين وهي بين الأقارب أشد حرمة وظلماً.

○ السعي بالنميمة بين الزوج ووالديه أو إخوانه وأخواته أو غيرهم من الأقارب؛ مما يكون له أكبر الأثر في تقطيع الأرحام وإفساد أواصر

الود والمحبة بين الزوج وأقرب الناس إليه، ويلحق بذلك غيبة الوالدين أو الأخوة والأخوات عند الزوج، وإيغار صدره بذلك مما ينشأ عنه ترك الولد لوالديه وبعده عنهم؛ كل ذلك بسبب الزوجة الظالمة الباغية.

○ الاعتداء علىٰ أموال الزوج الموفي للزوجة حقوقها بسرقة أو احتيال أو ضغوط معينة حتىٰ يذعن للزوجة كارهًا للتنازل عن أمواله؛ كل ذلك يعد ظلمًا وعدوانًا علىٰ الزوج وأمواله.

○ السكوت علىٰ منكرات الزوج في نفسه أو بيته، وعدم مناصحته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وأشد ظلمًا من هذه تلك الزوجة التي تعين زوجها علىٰ المنكرات أو تحثه وتلح عليه بها. فما أشد ظلمها لنفسها وزوجها وأولادها نعوذ بالله من ذلك.

ومن أشهر المنكرات التي تتسبب فيها الزوجة غالبًا: إدخال آلات اللهو والفساد في البيت وارتداء الألبسة المحرمة لها ولبناته، والسفر إلىٰ بلاد الفساد والرذيلة ودخول السوق بلا محرم والخلوة بالسائق الأجنبي وغير ذلك.

○ طلب الزوجة الطلاق من زوجها من غير سبب شرعي إلا المضارة للزوج ومساومته والتعالي عليه؛ قال الرسول ﷺ: (أيما امرأة سألت

زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة)[(١)].

الصورة الخامسة: «ظلم أهل العلم والدعاة بعضهم لبعض»

وهؤلاء النخبة من الناس هم صفوة المجتمعات من العلماء وطلبة العلم والدعاة والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؛ حيث لهم الأثر الطيب علىٰ الأمة. ولكن الشيطان بمكره وكيده لا يقر له قرار وهو يرىٰ من يقف في طريق إفساده من العلماء والمصلحين، ولذا فهو لا يفتأ يثير الشحناء وينشر الظلم والتحريش بين أهل الخير حتىٰ تدب الفرقة في صفوفهم، ويضعف أثرهم علىٰ الأمة، وقد وقع هذا في الأمة مع ما جاءنا من التحذير من ذلك في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ؛ فالواجب علىٰ العبد المسلم المحب لنفسه الخير والسلامة في الدنيا والآخرة أن يسعىٰ لنجاة نفسه من هذه الفتن، وأن يخرج من الدنيا وما في قلبه غل لأحد من أهل الخير، ولا يطالبه أحد منهم أو من غيرهم بمظلمة في عرض أو مال أو نفس.

وأسوق فيما يلي ما ظهر لي في هذا الزمان من بعض صور الظلم الحاصلة بين بعض أهل العلم والدعوه عافانا الله من ذلك:

○ الغيبة والنميمة التي تنشأ في الغالب من الحقد والحسد لعالم أو داعية ظهر أثره علىٰ الناس، وأُلقي له القبول والمحبة بينهم؛ فتبدأ نيران

---

(١) أبو داود في الطلاق ٢ / ٢٦٨ (٢٢٢٦)، قال الحافظ في الفتح ٩ / ٣٠٤: وصححه ابن خزيمة وابن حبان.

الحسد والغيرة تأكل في أصحاب القلوب المريضة، ويدفعهم ذلك إلىٰ أكل لحوم المخلصين من أهل العلم وتتبع عثراتهم والتقليل من شأنهم. وفي هذا كله ظلم للنفس بمعصية الله عز وجل ومخالفتها لما نهىٰ عنه سبحانه من الغيبة والنميمة بين المسلمين عامة، فكيف بها مع أهل الفضل والعلم والدعوة والإصلاح، فوق ما فيها من ظلم العباد وتحمل حقوقهم وتبعاتهم يوم القيامة.

ويلحق بذلك إساءة الظن بأهل العلم والدعاة إلىٰ الله عز وجل، وتفسير النوايا والمقاصد حسب الأهواء والشهوات، وإشاعة ذلك بين الناس دون علم وعدل وتثبت، فإذا كانت إشاعة الخبر الصادق عن فلان من الناس لا تجوز إذا كان يكرهه لأنها غيبة، فكيف إذا كان الأمر محض الكذب والافتراء والظنون الفاسدة؟ إنه والله الظلم والبهتان، وقد نهىٰ الله عز وجل المؤمنين عن ذلك كله في آية واحدة فقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً**﴾ [الحجرات: ١٢]. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون ما الغيبة؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (ذكرك أخاك بما يكره) قيل: أفرأيت أن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته،وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه)[١].

---

(١) مسلم في البر والصلة (٢٥٨٨).

○ إلحاق الأذىٰ والضرر بأحد من أهل العلم والإصلاح سواء في بدنه أو عرضه أو ماله. كل ذلك من الظلم الذي سيحاسب عليه العبد المتسبب فيه يوم القيامة، يوم الفصل والحساب، يوم يكون القصاص بالحسنات والسيئات لا بالدينار والدرهم: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

[الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ومن صور ذلك: السعي بتشويه سمعة أهل الخير سواء في أنفسهم أو أهليهم، ومن ذلك السعي بالوشاية علىٰ أهل الخير لدىٰ الظلمة حتىٰ يؤذوهم بسجن أو قتل أو تعذيب أو مصادرة أموال وحريات، ومعلوم ما في ذلك من الأذىٰ والضرر العظيمين علىٰ هذا المظلوم وأهله وأولاده وأمته التي تحرم خيره وأثره الطيب ببعده عنها. كل ذلك يحصل ويا للأسف والأسىٰ من بعض من يدعي العلم والغيرة علىٰ الدين وما درىٰ هذا الظالم لنفسه والظالم لعباد الله المتقين أنما يحيق ظلمه هذا علىٰ نفسه. وما درىٰ أنه مع ذلك قد ظلم نفسه حقًا وذلك بما ينتظره من تحمل تبعات عباد الله عز وجل، هل يستطيع ظهر هذا الآثم الظالم حمل كل هذه الحقوق؟!

○ بخس أهل العلم حقهم وبلاءهم وجهدهم وجهادهم بمجرد عثرة وجدت عليه أو أكثر. فمن الظلم البين أن تنسىٰ كل الأعمال الخيرة لداعية أو طالب علم وتتلاشىٰ عند أول هفوة منه، مع أن الموقف

العدل هو العكس تمامًا؛ ذلك بأن أهل الفضل والبلاء الحسن تغتفر لهم السيئة والسيئتين والثلاث، وتنغمر في بحر حسناتهم العظيمة؛ قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وفي هذا المعنىٰ يقول ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «... وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم؛ أن من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتىٰ إنه ليختلج داعي عقوبته علىٰ إساءته وداعي شكره علىٰ إحسانه فيغلب داعي الشكر داعي العقوبة كما قيل:

وإذا الحبيب أتىٰ بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع»(١)

وقال أيضًا: «... ولكن من قواعد الشريعة والحكمة أيضًا أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه يحتمل له ما لا يحتمل من غيره، ويعفىٰ عنه ما لا يعفىٰ عن غيره؛ فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث...»(٢).

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ بعد كلام له في التحذير من إشاعة أخطاء العلماء وإهدار محاسنهم: «ثم لو فرض أن ما أخطأوا

---

(١) مفتاح دار السعادة ص ١٩٢ ط. المصرية.

(٢) مفتاح دار السعادة ص ١٩٢ ط. المصرية.

أو عثروا ليس لهم فيه تأويل ولا عذر، لم يكن من الحق والإنصاف أن تهدر المحاسن وتمحىٰ حقوقهم الواجبة بهذا الشيء اليسير؛ كما هو دأب أهل البغي والعدوان، فإن هذا ضرره كبير وفساده مستطير. أي عالم لم يخطئ؟ وأي حكيم لم يعثر؟!..».

ثم قال في بيان صفات أهل العلم والدين: «فتجدهم متقربين إلىٰ الله بمحبة أهل العلم والدين جاعلين محاسنهم وآثارهم وتعليمهم ونفعهم نصب أعينهم، قد أحبوهم لما اتصفوا به وقاموا به من هذه المنافع العظيمة، غير مبالين بما جاء منهم إليهم من القدح والاعتراض، حاملين ذلك علىٰ التأويلات المتنوعة، ومقيمين لهم الأعذار الممكنة، وما لم يمكنهم مما نالهم منهم أن يجدوا له محملاً عاملوا الله فيهم، فعفوا عنهم لله، راجين أن يكون أجرهم علىٰ الله، وعفوا عنهم لما لهم من الحق الذي هو أكبر شفيع لهم، فإن عجزوا عن هذه الدرجة العالية التي لا يكاد يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد: نزلوا إلىٰ درجة الإنصاف، وهو اعتبار ما لهم من المحاسن ومقابلتها بالإساءة الصادرة منهم إليهم، ووازنوا بين هذه وهذه، فلابد أن يجدوا جانب الإحسان أرجح من جانب الإساءة أو متساويين أو ترجح الإساءة، وعلىٰ كل حال من هذه الاحتمالات فيعتبرون ما لهم وما عليهم.

وأما من نزل عن درجة الإنصاف فهو بلا شك ظالم ضار لنفسه، تارك من الواجبات عليه بمقدار ماتعدىٰ فيه من الظلم. فهذه المراتب

الثلاث: مرتبة الكمال، ومرتبة الإنصاف، ومرتبة الظلم، تميز كل أحوال أهل العلم ومقاديرهم ودرجاتهم ومن هو القائم بالحقوق ومن هو تارك، والله تعالىٰ هو المعين الموفق»(١).

ويقول محب الدين الخطيب رحمه الله تعالىٰ: «يجب علىٰ من يتحدث عن أهل الحق والخير إذا علم لهم هفوات أن لا ينسىٰ ما غلب عليهم من الحق والخير؛ فلا يكفر ذلك كله من أجل تلك الهفوات. ويجب علىٰ من يتحدث عن أهل الباطل والشرِّ إذا علم لهم بوادر صالحات أن لا يوهم الناس أنهم من الصالحين من أجل تلك الشوارد الشاذة من أعمالهم الصالحات»(٢).

وقد صدق من قال: «من طبيعة البشر أنهم أصحاب ذاكرة جيدة تذكر الإساءة، وذاكرة ضعيفة تنسىٰ الإحسان، وكثير ما يجلس الواحد منا يعدد جرائم صاحب له ولا يذكر فضلاً واحداً له»(٣).

ومما يدخل في هذه الصورة من الظلم: الحكم علىٰ أخطاء الدعاة بمعيارين مختلفين وليس بمعيار واحد مع الجميع؛ ومثال ذلك أن يوجد

---

(١) الرياض الناظرة والحدائق النيرة الزاهرة (ص ٩٦ – ٩٩) باختصار.

(٢) مقدمة العواصم من القواصم (ص٣).

(٣) انظر: أقوال مأثورة وكلمات جميلة ص ٥٣٨، د. محمد لطفي الصباغ ط٢: ١٤١٤هـ المكتب الإسلامي بيروت.

شخصان من أهل العلم يخطئان خطأً واحداً، فيأتي مَنْ جانب العدل في مواقفه فيعذر من يحب منهما ويذكر حسناته وبلاءه حتىٰ يصغر خطؤه، أما الآخر فيشنع عليه خطأه ويضخمه، ويسيء الظن به، وينسىٰ حسناته، ويشهر به، مع أن الخطأين منهما واحد. فلماذا هذان المعياران المختلفان؟ إن هذا من الظلم والتطفيف في الميزان وقد نهىٰ الله عز وجل عن ذلك بقوله: ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)** ﴾

[المطففين: ١ – ٣].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية: «ودلت الآية الكريمة علىٰ أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له يجب أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات... وفي هذا الموضع، يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه»[١] أهـ. وإذا أردنا معرفة هذا الظلم في انفسنا فلننظر إلىٰ تقويمنا لأخطاء أنفسنا وأخطاء غيرنا؛ فقد يجد الواحد منا من نفسه بعض الزلات والأخطاء ثم يرىٰ نفس هذه الزلات علىٰ غيره فلا يكون حكمه علىٰ هذه الأخطاء واحداً علىٰ نفسه وعلىٰ غيره، بل يكون الإنسان مع نفسه ألين وأقل لوماً وتعنيفاً لها من غيره ممن عمل نفس الأخطاء، وكما جاء في المثل: يرىٰ القذاة في عين أخيه ولا يرىٰ الجذع

(١) تفسير السعدي عند الآية (١) من سورة المطففين.

في عين نفسه. وهذا سببه اختلال في الميزان وميل النفس مع من تهوىٰ.

وأسوق بهذه المناسبة حوارًا جميلاً جرىٰ بين صحابيين من أصحاب الرسول ﷺ يردّ فيه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه على المسور ابن مخرمة رضي الله عنه عندما ذكر له ما يعلمه عليه من أخطاء، لعلها ترسم لنا منهجًا عادلاً في التعامل مع الأخطاء:

عن عقيل، ومَعْمَر، عن الزهري، حدثني عروة عن المسور بن مخرمة أخبره أنه وفد علىٰ معاوية، فقضىٰ حاجته، ثم خلا به، فقال: يا مسور! ما فعل طعنُك علىٰ الأئمة؟ قال: دعنا من هذا وأحسن. قال: لا والله لتكلمني بذات نفسك بالذي تعيب علي. قال مسور: فلم أترك شيئًا أعيبه عليه إلا بينت له. فقال: لا أبرأ من الذنب. فهل تعد لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعد الذنوب، وتترك الإحسان؟ قال: ما نذكر إلا الذنوب. قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشىٰ أن تهلكك إن لم تغفر؟ قال: نعم. قال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحقَّ مني، فو الله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أخَيَّر بين أمرين؛ بين الله وبين غيره، إلا اخترت الله علىٰ ما سواه، وإني لعلىٰ دين يقبل فيه العمل ويُجزىٰ فيه بالحسنات، ويُجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها. قال:

فخصمني. قال عروة: فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صلىٰ عليه[(١)].

○ الفرح بوقوع أهل الخير في الأخطاء والمخالفات، والحزن والانقباض عند إصابتهم للحق أو ظهور الخير علىٰ أيديهم ومحبة الناس لهم. كما يلحق بهذا الشماتة والفرح عندما يحل الضرر والأذىٰ بأحد من أهل العلم. كل هذا - والعياذ بالله تعالىٰ - من الظلم والحقد الذي يجب علىٰ كل مسلم - فضلاً عن أهل العلم - أن يجتنبوه ويسعوا لعلاج هذه الأمراض الخطيرة إذا أحسوا بوجودها في القلوب.

○ عدم الصدق والوضوح بين بعض أهل العلم، والتعامل بأسلوب المراوغة والغموض والذي مآله إلىٰ الكذب والخداع والغدر والخيانة، وفي هذا كله ظلم وفساد ومحق للبركة والخير. كما أن فيه إذكاء للفرقة والعداوة والظنون السيئة. وياليت من يقع في هذه الأعمال المشينة يقر بخطئه ويمقت فعله، إذن لكان الأمر أهون، ولكن المصيبة في وجود من لا يرىٰ في هذه الممارسات بأسًا بل يعدها من الحنكة والسياسة والمصلحة!! نعوذ بالله من أن نكون ممن زين لهم الشيطان سوء أعمالهم.

○ السكوت علىٰ ما يقع علىٰ الدعاة من ظلم وعدوان، والقعود عن نصرة المظلوم منهم؛ وذلك بحضور المجالس التي يحصل فيها النيل

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٥٠، ١٥١.

من أعراضهم وإساءة الظن بهم وإثارة الشائعات والتهم الباطلة عليهم. لا ينتصر لهم أحد في المجلس ولا يذب عن أعراضهم مع العلم ببراءتهم مما يشاع عنهم. إن هذا الصنيع من جميع الحاضرين لهذه المجالس ناطقهم وساكتهم يعد ظلمًا وعدوانًا؛ وقد قال الرسول ﷺ: (انصر أخاك ظالمًا أومظلومًا)[١]، وقال أيضًا: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه... الحديث)[٢] وقال ﷺ: (ما من امرئ يخذل امرءًا مسلمًا عند موطن تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله عز وجل في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر امرءًا مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه وتنتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته)[٣].

وقد اشترط الرسول ﷺ على الجالسين على قارعة الطريق أن يعينوا المظلوم فقال: (إن أبيتم إلا أن تجلسوا فاهدوا السبيل، وردوا السلام وأعينوا المظلوم)[٤] وقال ﷺ في فضيلة نصرة المسلم: (من نصر أخاه بظهر الغيب، نصره الله في الدنيا والآخرة)[٥].

---

(١) البخاري. في الإكراه (٦٩٥٢).

(٢) البخاري. في المظالم (٢٤٤٧).

(٣) مسند أحمد ٤ / ٣٠، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٩٠).

(٤) أحمد ٤ / ٢٨٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٧).

(٥) البيهقي في السنن الكبرىٰ ٨ / ١٦٨، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٧٤).

○ قيام بعض الدعاة هداهم الله بعرقلة بعض مجالات الخير والصلاح وحرمان الأمة منها بحجة أن القائمين عليها لا يوافقونه في بعض مواقفه، أو أنهم ليسوا من طائفته وحزبه، أو أن عليهم ملاحظات كيت وكيت... إلخ. ولا يخفىٰ ما في ذلك من الظلم والعدوان علىٰ النفس وعلىٰ أهل الخير وعلىٰ الأمة بحرمانها من هذه المجالات الدعوية الخيرة، وبخاصة في هذا الزمان الذي انفتحت فيه أبواب الشر علىٰ مصاريعها وعم االفساد وطم، وصار واجبًا علىٰ كل مسلم أن يفرح بأي باب من الخير يفتح وبأي باب من الشر يغلق؛ سواء تم ذلك علىٰ يديه أو علىٰ يد غيره ممن يعرفه أو لا يعرفه. والداعية المخلص صاحب القلب السليم يفرح بكل داعية إلىٰ الخير ويحبه ويدعو له ولو كان يخالفه في مسائل معينة. ومن الظلم إهدار الجهود الخيرة لبعض الدعاة بمجرد التحفظ علىٰ بعض مواقفهم، ومن الظلم التقليل من هذه الجهود وتحقيرها أو إساءة الظن بفاعليها.

○ ومن مظاهر الظلم بين بعض أهل العلم ما يكون بينهم من جور في الردود والمناظرات سواء كانت مكتوبة أو منطوقة لأن الردود في الغالب لا تخلو من الهوىٰ وحظوظ النفس ولذا فينبغي لطالب العلم أن لا يلجأ إلىٰ الرد علىٰ من يخالفه إلا في أضيق نطاق وعند الضرورة أو الحاجة لذلك، وإذا احتاج إلىٰ ذلك فينبغي تفقد النفس وحظوظها أثناء الرد حتىٰ لا يجور في رده علىٰ مخالفه. ومن الأمور التي تكون

في الغالب مدعاة إلىٰ ظلم المخالف والعدوان عليه أثناء الردود ما يلي:

أ- **تفسير النوايا والمقاصد**: لأن أمر النوايا والدوافع إلىٰ الله عز وجل فهو الذي يعلم ما تخفي الصدور وهو سبحانه علام الغيوب. ولايستطيع أحد من البشر الشق عن قلوب الناس والإخبار عن نواياهم إلا أن يخبر الشخص بنفسه عن نيته وقصده فهذا هو الممكن فقط. وما سوىٰ ذلك فإن تفسير إنسان ما لنية إنسان آخر يعد ظلمًا وعدوانًا وبخاصة إذا كان التفسير شيئًا مشينًا.

ب- **إلزام المخالف بما لا يلتزم به**: الإلزام بلازم القول يرد كثيرًا في الردود والمناظرات، وهو أسلوب جيد في إقامة الحجة علىٰ المخالف، وتذكيره بما يلزم علىٰ قوله حتىٰ يعود عنه، وهذا يصلح مادام المتناظران موجودين، أو أن إمكانية الرد من أي طرف ممكنة. لكنه لا يصلح البتة في إلزام المخالف بلازم قوله وأنه هو رأيه وموقفه مع أنه لا يسلم بذلك. وبمعنىٰ آخر لا يجوز أن ينسب لشخص ما رأي أو موقف بناء علىٰ ما يلزم من بعض كلامه؛ لأنه قد يقول قولاً ولا يسلم بلازمه؛ والمواقف والاعتقادات تؤخذ من صريح كلام أهلها لا من لازم كلامهم، ومن الظلم أن ينسب إلىٰ شخص ما رأي أو اعتقاد بناء علىٰ ما يلزم علىٰ كلامه.

ومثال ذلك ما ذكره الشاطبي رحمه الله تعالىٰ عن حاله وحال بعض أهل زمانه الذين ألزموه بلوازم لم يقل بها ولم يعتقدها؛ فقال

عما نسب إليه كذبًا وبهتانًا: «فتارة نسبت إلى القول بأن الدعاء لا ينفع ولا فائدة فيه – كما يعزي إليَّ بعض الناس – بسبب أني لم ألتزم الدعاء بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة، وسيأتي ما في ذلك من المخالفة للسنة والسلف الصالح والعلماء.

وتارة نُسِبْتُ إلىٰ الرفض وبغض الصحابة رضي الله عنهم بسبب أني لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة علىٰ الخصوص، إذ لم يكن ذلك من شأن السلف في خطبهم، ولا ذكره أحدٌ من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب.

وقد سُئل أصبغ عن دعاء الخطيب للخلفاء المتقدمين؟ فقال: (هو بدعة، ولا ينبغي العمل به، وأحسنه أن يدعو للمسلمين عامة). قيل له: فدعاؤه للغزاة والمرابطين؟ قال: (ما أرىٰ به بأسًا عند الحاجة إليه، وأما أن يكون شيئًا يَصْمُدُ له في خطبته دائمًا؛ فإني أكره ذلك).

ونصَّ أيضًا عز الدين بن عبد السلام علىٰ أن الدعاء للخلفاء في الخطبة بدعة غير محبوبه.

وتارةً أُضيف إليَّ القولُ بجواز القيام علىٰ الأئمة؛ وما أضافوه إلا من عدم ذكرهم في الخطبة، وذكرُهم فيها محدَث لم يكن عليه من تقدم.

وتارة حُمِلَ عليَّ التزام الحرج والتنطُّع في الدين؛ وإنما حملهم علىٰ ذلك أني التزمت في التكليف والفتيا الحمل علىٰ مشهور المذهب الملتزم لا أتعدَّاه، وهم يتعدَّوْنه ويفتون بما يَسْهُلُ علىٰ السائل ويوافق هواه – وإن كان شاذًّا في المذهب الملتزم أو في غيره –، وأئمة أهل العلم علىٰ خلاف ذلك، وللمسألة بسط في كتاب **الموافقات**.

وتارة نسبتُ إلىٰ معاداة أولياء الله؛ وسبب ذلك أني عاديتُ بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة، المنتصبين – بزعمهم – لهداية الخلق، وتكلَّمت للجمهور علىٰ جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم إلىٰ الصوفية ولم يتشبهوا بهم.

وتارة نسبت إلىٰ مخالفة السنة والجماعة بناء منهم على أن الجماعة التي أمرنا بها – وهي الناجية – ما عليه العموم، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، والتابعون لهم بإحسان. وسيأتي بيان ذلك بحول الله، وكذبوا عليَّ في جميع ذلك أو وهموا»[١] أ.هـ.

جـ- الوقوف عند كلام محتمل للمردود عليه وإلزامه بفهم معين يحدده المخالف وبناء علىٰ هذا الفهم يصنف المخالف ويرمىٰ بالتهم التي هو بريء منها، مع أنه قد يكون هناك كلام واضح محكم للمردود عليه في مواطن أخرىٰ من كتبه أو كلامه لو رد إليها المشتبه منها لتبين المعنىٰ المراد في كلامه المحتمل، وهذا هو المنهج العادل في التعامل مع

(١) الاعتصام ١/٣٦، ٣٧.

المخالف. أما الوقوف مع المشتبه من المجمل والمحتمل لعدة معان دون ردها إلى الواضح منها؛ فإن هذا من الظلم والجور وبخاصة إذا ترتب علىٰ ذلك رمي المخالف بالتهم والقدح في عقيدته وتبديعه أو تكفيره أو منابذته ومقاتلته. بل إن الوقوف مع الجمل المشتبهة دون ردها إلىٰ الجمل المحكمَة هو من مأخذ أهل البدع في الإستدلال وقد ذكر ذلك الشاطبي رحمه الله تعالىٰ في كتابه القيم: **الاعتصام**.(١) وأضرب مثالاً لأحد الدعاة الذين وقعوا تحت هذا النوع من الظلم في هذا الزمان ألا وهو **سيد قطب** رحمه الله تعالىٰ؛ فلقد تعرض للقدح في عقيدته من البعض – هداهم الله – حيث وقفوا عند بعض الجمل المحتملة لأكثر من معنىٰ في بعض كتاباته وحكموا علىٰ الرجل بفهمهم الخاص دون أن يردوه إلىٰ الواضح من كلامه والذي ينفي ويبطل ما فهموه من كلامه المجمل.

ومن التهم الجائرة التي تعرض لها رحمه الله تعالىٰ: نسبته إلىٰ القائلين بوحدة الوجود بناء علىٰ كلام مجمل ذكره عند تفسير سورة الإخلاص وأول سورة الحديد، حلق به الأسلوب فاسترسل بعبارات مجملة ليته جاء بغيرها، لكن من الظلم له أن يرمىٰ بعقيدة وحدة الوجود بمجرد كلام مجمل ومحتمل، كيف وهو قد صرح في موطن آخر من تفسيره بكلام محكم صريح في رفضه لهذه العقيدة ورده

---

(١) الاعتصام للشاطبي ١ / ٢٢٠.

علىٰ أهلها. ولو أن من تسرّع في رميه - رحمه الله تعالىٰ - بهذه التهمة رجع إلىٰ هذا الكلام الصريح له لندم علىٰ اتهامه وتاب إلىٰ الله سبحانه من هذا الظلم إن سلم القلب من الهوىٰ والغرض.

وأسوق الآن كلا الموطنين اللذين في أحدهما إجمال واحتمال قد يفهم منه التأثر بعقيدة وحدة الوجود، والموطن الثاني صريح وواضح في رفضة رحمه الله تعالىٰ لهذه العقيدة وأنه لم يدر في خلده هذا الفهم في الموطن الأول. وأترك الحكم للقارئ الكريم.

قال رحمه الله تعالىٰ في تفسر سورة الإخلاص: «﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ .. وهو لفظ أدق من لفظ **واحد**.. لأنه يضيف إلىٰ معنىٰ **واحد** أن لا شيء غيره معه. وأن ليس كمثله شيء.

إنها أحدية الوجود.. فليس هناك حقيقة إلا حقيقته، وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده. وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية.

وهي - من ثم - أحدية الفاعلية؛ فليس سواه فاعلاً لشيء، أو فاعلاً في شيء، في هذا الوجود أصلاً، وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضًا»أ هـ..

أما الموطن الثاني الذي صرح فيه برفضه لعقيدة وحدة الوجود فهو ما ذكره في سورة البقرة عند قوله تعالىٰ: ﴿ **بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن**

فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧].

قال رحمه الله تعالىٰ بعد رده علىٰ الفلاسفة الذين فسروا هذا الوجود بعقولهم الفاسدة: «والنظرية الإسلامية: أن الخلق غير الخالق، وأن الخالق ليس كمثله شيء... ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة: **وحدة الوجود** علىٰ ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح – أي بمعنىٰ أن الوجود وخالقه وحدة واحدة – أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق، أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده.. أو علىٰ أي نحو من أنحاء التصور علىٰ هذا الأساس.. والوجود وحدة في نظر المسلم علىٰ معنىٰ آخر: وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة، ووحدة ناموسه الذي يسير به، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلىٰ ربه في عبادة وخشوعَ» انتهىٰ كلامه يرحمه الله.

فهل بعد هذا الرفض الصريح لعقيدة وحدة الوجود مدخلٌ لأحد يتهم الرجل لما هو يرفضه ويتبرأ منه. غفر الله لسيد قطب عبارته هذه والذي جنح به خياله الأدبي فجاء بأسلوب وسع فيه العبارة، ولا ندعي العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ.

○ الظلم الذي يجب أن يحذره أهل العلم في حق الأمة:

العلم أمانة عظيمة في أعناق أهله، وحرمان الأمة منه وتركها في الجهل والضلال يعد ذلك ظلمًا لها وخيانة للأمانة؛ قال الله عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ**

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ويمكن تلخيص بعض أشكال هذا الظلم فيما يلي:

أ- ترك الأمة جاهلة بأحكام دينها وما افترض الله عز وجل عليها بداية من معرفة التوحيد وما يضاده من الشرك وانتهاءً بالأحكام الفقهية العينية التي يجب على كل مسلم بعينه أن يعرفها.

ب- ترك الأمة في لهوها وفسادها ومنكراتها لا تؤمر ولا تنهى ولا يؤخذ على أيدي السفهاء منها؛ قال تعالى ﴿**لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾**﴾ [المائدة: ٦٣].

جـ- ترك الأمة حائرة فيما ينزل بها من النوازل دون هدايتها إلى وجه الحق في نوازلها وما ينبغي فعله إزاءها، وإسلامها للجهلة والمفسدين لتصدر عن آرائهم ومواقفهم.

د- تضليل الأمة بكتم الحق عنها أو لبسه بالباطل مما يجعلها تعيش في عماية من أمرها تحسب الحق باطلاً والباطل حقًا.

هـ- عدم تبني أهل العلم لقضايا الأمة والدفاع عنها والقعود عن نصرة المظلومين فيها.

ز- تلبس بعض أهل العلم ببعض المخالفات الشرعية وتقليد العامة لهم فيها إما عن جهل أو هوى ومغالطة.

الصورة السادسة: «الظلم الذي يجب أن يحذره القضاة»

القضاء أمانة عظيمة ومهمة خطيرة، كيف لا وهو يحكم في دماء الناس وأبدانهم وأعراضهم وأموالهم وقد شرعه الله عز وجل لحفظ هذه الضروريات وحمايتها من العدوان والتلف والحرج، فيا سعد من أخذه بحقه فحكم بالعدل والحق، ويا خيبة من ضيع الأمانة وحكم بالهوىٰ والجور ووضع نفسه خصمًا لعباد الله المظلومين بين يدي الله عز وجل يوم القيامة.

ولأجل ما في القضاء من المسؤولية العظيمة خافه كثير من السلف واعتذروا من تحمله خشية أن يجوروا ولو في أمور يسيرة، ومن هذه الأحاديث التي أخافتهم قوله ﷺ: (من جعل قاضيًا، فقد ذبح بغير سكين)[١].

قال أبو سليمان الخطابي: «معنىٰ هذا الكلام التحذير عن طلب القضاء. وقوله: بغير سكين؛ يحتمل وجهين من التأويل أحدهما: أن الذبح إنما يكون في ظاهر العرف وغالب العادة بالسكين، فعدل به رسول الله ﷺ عن سنن العادة إلىٰ غيرها، ليعلم أن الذي أراده بهذا القول إنما هو ما يخاف عليه من هلاك دينه، دون هلاك بدنه. والوجه

---

(١) الترمذي (١٣٢٥)، والبغوي في شرح السنة (٢٤٩٦)، وقال هذا حديث حسن.

الآخر: أن الذبح الوحيّ أي (السريع) الذي يقع به إراحة الذبيحة وخلاصها من طول الألم إنما يكون بالسكين، وإذا ذبح بغير السكين كان خنقًا وتعذيبًا، فضرب المثل بذلك ليكون أبلغ في الحذر من الوقوع فيه»[١].

والمتأمل في الوصية التالية من عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسي الأشعري رضي الله عنه عندما ولاه القضاء يرىٰ في بنودها التحذير من كل ما يؤدي إلىٰ الظلم؛ قال رضي الله عنه: «أما بعد: فإنَّ القضاءَ فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أُدلي إليك؛ فإنه لا ينفع تكلم بحق، لا نفاذ له، آس الناس في مجلسك، وفي وجهك وقضائك، حتىٰ لا يطمع شريف في حيْفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك.

البَيِّنَة علىٰ المدعي، واليمين علىٰ من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحًا أحلَّ حرامًا، أو حرَّم حلالا، ومن ادعىٰ حقًا غائبًا أو بيِّنة، فاضرب له أمدًا ينتهي إليه؛ فإنْ بَيَّنَهُ أعطيته بحقه، وإن أعجزه ذلك استحلَلْت عليه القضية، فإن ذلك هو أبلغ في العذر، وأجْلَىٰ للعماء.

---

(١) شرح السنة ١٠ / ٩٢، ٩٣. ولا يفهم من هذا الحديث الامتناع مطلقًا من القضاء، وإلا ضاعت حقوق الناس ودبّت الفوضىٰ بينهم. ولكن المقصود الحذر من الظلم فيه، والابتعاد عنه إذا كان هناك من يكفي للقيام بمصالح العباد.

ولا يمنعنَّك قضاءُ قضيت في اليوم فراجعتَ فيه رأيك، فهُدِيتَ فيه لرشدك أن تراجع فيه الحقَّ؛ فإن الحق قديم، لا يُبطله شيء، ومراجعة الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل.

المسلمون عدول بعضهم علىٰ بعض إلا مجرَّبا عليه شهادة زور، أو مَجْلُودًا في حد، أو ظَنينًا في ولاء أو قرابة؛ فإن الله تعالىٰ تولىٰ من العباد السرائر، وستَر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان.

ثم الفهم الفهم، فيما أُدلي إليك مما ورد عليك، مما ليس في قرآن ولا سنة، ثم قايس الأمور عند ذلك، واعرف الأمثال، ثم اعمد فيما ترىٰ إلىٰ أحبِّها إلىٰ الله، وأشبهها بالحق.

وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذِّي بالناس، والتنكر عند الخصومة - أو الخصوم - (شك أبو عبيد) فإن القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر، ويُحسن به الذكر، فمن خلصت نيته في الحق، ولو علىٰ نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيَّن بما ليس في نفسه شانه الله؛ فإن الله تعالىٰ لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصًا، فما ظنّك بثواب غير الله في عاجل رزقه، وخزائن رحمته، والسلام عليك ورحمة الله»(١).

وينبه شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ إلىٰ أصناف القضاة وأقسامهم

---

(١) أعلام الموقعين ١ / ٨٥، ٨٦ وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: وهذا كتاب جليل تلقاه العلماء بالقبول.

فيقول: «والإنسانُ ظالم جاهل إلا من تاب الله عليه فصار عالمًا عادلاً، صارَ الناسُ من القضاة وغيرهم ثلاثة أصناف: العالم الجائر والجاهل الظالم، فهذان من أهل النار، كما قال النبي ﷺ: (القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة: رجل علم الحق وقضىٰ به فهو في الجنة، ورجل قضىٰ للناس علىٰ جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضىٰ بخلافه فهو في النار)(١)؛ فهذان القسمان، كما قال: (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)(٢) و: (من قال في القرآن برأيه فأخطأ فليتوبوا مقعده من النار)(٣). وكل من حكم بين اثنين فهو قاض سواء كان صاحب حرب أو متولي ديوان أو منتصبًا للاحتساب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتىٰ الذي يحكم بين الصبيان في الخطوط، فإن الصحابة كانوا يعدونه من الحكام، ولما كان الحكام مأمورين بالعدل وبالعلم، وكان المفروض إنما هو بما يبلغه جهد الرجل قال النبي ﷺ: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجرٌ)(٤) »(٥) أهـ.

---

(١) الطبراني في الكبير ٢/١٢٠ (١١٥٤) وصححه الألباني في الإرواء (٢٦١٤).

(٢) أبو داود (٣٦٥٢).

(٣) الترمذي (٢٩٥٠) وحسنه.

(٤) البخاري (٧٣٥٢)، مسلم (٧١٦).

(٥) شرح حديث «يا عبادي إني حرمت الظلم» ص ٥٢، ٥٣.

وينبه ابن القاص – رحمه الله تعالىٰ – ويذكّر القضاة بما عليهم من المسؤلية العظيمة فيقول: «إن من أحق الناس بالتأدب بآداب الله ومطالبة النفس بأحكام الله عز وجل ورعاية حقوقه من يُقلَّد الأحكام، وانتصب لفصل القضاء بين الأنام فاتقىٰ أمر ربه، ويذكره وقوف الخصماء بين يديه مقامه مع الخصماء ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦]، ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥٢].

فأعَدَّ للمسألة جوابًا؛ إن قيل له: عبدي مكنتك في بلادي، ونصبتك قاضيًا بين عبادي، لتنصر المظلوم علىٰ الظالم، و تعلي الحق علىٰ الباطل، وأخذت عليك بذلك عهدي وميثاقي، وقدمت إليك إنذارًا بأن من لم يحكم بما أنزل الله ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، وقلت ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥].. فرحم الله امرءًا ارتهب فرقًا، فشمر للحق وأهله ناظرًا ليوم تجد فيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠] أهـ» (١).

وبعد هذه المقدمة العجلىٰ عن القضاء وعظيم خطره، وعن القاضي وخطورة دوره ومسؤوليته، أسوق بعضًا من صور الظلم التي نبه عليها

---

(١) أدب القاضي لابن القاص ١/٦٩.

علماء السلف في القديم والحديث حتىٰ يحذرها من ابتلي بالحكم بين الناس، ويقلع عنها من كان متلبسًا بها. ومن أخطر هذه الصور مايلي:

١- **الحكم بغير ما أنزل الله**: وتعد هذه الصورة أشد أنواع الظلم الذي قد يقع فيه بعض القضاة، وقد تصل بصاحبها إلىٰ الظلم الأعظم والعياذ بالله تعالىٰ كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ.

والحاكم بغير ما أنزل الله تعالىٰ علىٰ قسمين:

الأول: من يحكم بين الناس بلا علم بما أنزل الله عز وجل فيظلم نفسه، ويظلم المتحاكمين بين يديه بحكمه فيهما بغير ما أنزل الله، وهذا ظلم لا شك فيه، وفاعله آثم ومتوعد بالنار كما جاء في الحديث السابق: (القضاة ثلاثة - وذكر منهم -: ورجل قضىٰ للناس علىٰ جهل فهو في النار) وكونه يأثم بذلك لأنه حكم بلا علم فهلا تفقه قبل تصدره للقضاء؟ أو هلا سأل إذ جهل؟!

الثاني: أن يعلم حكم الله عز وجل فيتركه ويقضي بخلافه. وهذا القسم علىٰ ضربين أحدهما أخطر من الآخر:

الضرب الأول: من ترك الحكم بما أنزل الله عز وجل وحكم بغيره متعمدًا في حالة معينة، مال فيها مع هواه؛ إما لقرابة أو رشوة أو منفعة يرجوها ولم يكن هذا الحكم نظامًا عامًا مسنونًا، والحاكم فيها خاضع لشرع الله تعالىٰ وملتزم بأحكام الله تعالىٰ ظاهرًا وباطنًا، وعلامة ذلك

شعوره بالإثم وأن ما فعله كان حرامًا. فمثل هذا ظالم لنفسه ظالم للعباد وهو علىٰ إثم عظيم. لكن عمله هذا كفر دون كفر لا يخرجه من الملة. وعلىٰ هذا يفسر قول من قال من السلف في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

الضرب الثاني: وهو من يحكم بغير ما أنزل الله تعالىٰ متعمدًا مفضلاً له علىٰ حكم الله تعالىٰ أو مساويًا بينه وبين حكم الله عز وجل أو مجوزًا لحكمه مع اعتقاده بأفضلية حكم الله تعالىٰ فهذه كلها أعمال تخرج بصاحبها عن الملة وتوقعه في الظلم الأعظم المخرج من الملة[١] (وقد سبق توضيح ذلك في أول البحث).

وبقيت مسألة مهمة في هذا الضرب من الحكم تحتاج إلىٰ تجلية وبيان؛ وذلك فيما يجري في المحاكم القانونية من الحكم بأحكام ملزمة مضادة لشرع الله عز وجل، وبيان الحكم فيمن قضىٰ عالمًا مختارًا بغير حكم الله عز وجل في مسألة ما بحكم عام مسنون لكل أحد لايجوز لقاض أن يقضي بخلافه. وهذا الحكم مضاد لشرع الله عز وجل وحكمه، مع اعتقاده بأن حكم الله أصلح وأفضل، لكن المنصب وحب

---

(١) راجع رسالة (تحكيم القوانين) لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله.

الدنيا أغراه بهذا العمل، كما هو الحال عند أكثر قضاة المحاكم القانونية التي سُنت فيها قوانين عامة تناقض أحكام الله تعالىٰ يحكم بها علىٰ كل أحد كتلك المادة الديوثية التي توجد في قوانين بعض الدول المنتسبة إلىٰ الإسلام والتي تقضي بأن الزنا لا يعد جريمة يعاقب عليها إلا إذا كان بغير رضىٰ المرأة أما إذا كان برضاها فلا شيء فيه!! فما حكم من يحكم بمثل هذه الأنظمة الكفرية متعمداً؟

يجيب الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالىٰ علىٰ هذه المسألة في تحقيقه لمسند الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ في تعليقه علىٰ قول الرسول ﷺ: (فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) فيقول: «نرىٰ في بعض بلاد المسلمين قوانين ضربت عليها، نقلت عن أوربة الوثنية الملحدة، وهي قوانين تخالف الإسلام مخالفة جوهرية في كثير من أصولها وفروعها، بل إن في بعضها ما ينقض الإسلام ويهدمه، وذلك أمر واضح بدهي، لا يخالف فيه إلا من يغالط نفسه، ويجهل دينه أو يعاديه من حيث لا يشعر وهي في كثير من أحكامها أيضًا توافق التشريع الإسلامي، أو لا تنافيه علىٰ الأقل.

وإن العمل بها في بلاد المسلمين غير جائز، حتىٰ فيما وافق التشريع الإسلامي، لأن من وضعها حين وضعها لم ينظر إلىٰ موافقتها للإسلام أو مخالفتها، إنما نظر إلىٰ موافقتها لقوانين أوربة أو لمبادئها وقواعدها، وجعلها هي الأصل الذي يرجع إليه، فهو آثم مرتد بهذا،

سواء أوضع حكمًا موافقًا للإسلام أو مخالفًا . . . والمثل : أنا نرىٰ كثيرًا من المسلمين الذين عهد إليهم بتنفيذ القوانين والقيام عليها ، بالحكم بها ، أو بالشرح لها ، أو بالدفاع فيها ، نراهم مسلمين فيما يتبين لنا من أمرهم ، يصلون ويحرصون علىٰ الصلاة ، ويصومون ويحرصون علي الصوم ، ويؤدون الزكاة ويجودون بالصدقات راضية نفوسهم مطمئنين ، ويحجون كأحسن ما يحج الرجل المسلم ، بل نرىٰ بعضهم يكاد يحج هو وأهله في كل عام ، ولن تستطيع أن تجد عليه مغمزًا في دينهم ؛ خمر أو رقص أو فجور . وهم فيما يفعلون مسلمين مطمئنين إلىٰ الإسلام ، راضين معتقدين عن معرفة ويقين . لكنهم إذا مارسوا صناعتهم في القضاء أو التشريع أو الدفاع ، لبستهم هذه القوانين ، وجرت منهم كالشيطان مجرىٰ الدم ، فيتعصبون لها أشد العصبية ، ويحرصون علىٰ تطبيق قواعدها والدفاع عنها ، كأشد ما يحرص الرجل العاقل المؤمن الموقن بشيء يرىٰ أنه هو الصواب ولا صواب غيره ، وينسون إذ ذاك كل شيء يتعلق بالإسلام في هذا التشريع ، إلا ما يخدع به بعضهم أنفسهم أن الفقه الإسلامي يصلح أن يكون مصدرًا من مصادر التشريع ! فيما لم يرد فيه نص في قوانينهم ، ويحرصون كل الحرص علىٰ أن يكون تشريعهم ، تبعًا لما صدر إليهم من أمر أوربة في معاهدة منترو ، مطابقًا لمبادئ التشريع الحديث ، وكما قلت مرارًا في مواضع من كتبي وكتاباتي : وتبًّا لمبادئ التشريع الحديث .

فهؤلاء الثلاثة الأنواع: المتشرع والمدافع والحاكم، يجتمعون في بعض هذا المعنىٰ ويفترقون، والمآل واحد. أما المتشرع فإنه يضع هذه القوانين وهو يعتقد صحتها وصحة ما يعمل، فهذا أمره بين، وإن صام وصلىٰ وزعم أنه مسلم. وأما المدافع فإنه يدافع بالحق والباطل، فإذا ما دافع بالباطل المخالف للإسلام معتقداً صحته، فهو كزميله المتشرع، وإن كان غير ذلك كان منافقًا خالصًا، مهما يعتذر بأنه يؤدي واجب الدفاع. وأما الحاكم فهو موضوع البحث وموضع المثل. فقد يكون له في نفسه عذر حين يحكم لما يوافق الإسلام من هذه القوانين، وإن كان التحقيق الدقيق لا يجعل لهذا العذر قيمة. أما حين يحكم بما ينافي الإسلام، مما نص عليه في الكتاب والسنة، ومما تدل عليه الدلائل منهما، فإنه، علىٰ اليقين، ممن يدخل في هذا الحديث: قد أمر بمعصية، القوانين التي يرىٰ أن عليه واجبًا أن يطيعها أمرته بمعصية، بل بما هو أشد من المعصية، أن يخالف كتاب الله وسنة رسوله، فلا سمع ولا طاعة، فإن سمع وأطاع كان عليه من الوزر ما كان علىٰ آمره الذي وضع هذه القوانين، وكان كمثله سواء...»[1] أهـ.

كما يزيد هذه المسألة بيانًا سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالىٰ في رسالته القيمة (تحكيم القوانين) وهو يعدد أنواع الحكم بغير ما أنزل الله المخرج من الملة فيقول: «الخامس: وهو أعظمها،

(١) مسند الإمام أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٦/٣٠٣ - ٣٠٥ (باختصار).

وأشملها، وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعدادًا، وإمدادًا، وإرصادًا، وتأصيلاً، وتفريعًا، وتشكيلاً، وتنويعًا، وحكمًا، وإلزامًا، ومراجع ومستمدات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع ومستمدات مرجعها كلها إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتىٰ، وقوانين كثيرة، كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلىٰ الشريعة، وغير ذلك . فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة، مفتوحة الأبواب والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب، من أحكام ذلك القانون وتلزمهم به، وتقرهم عليه، وتحتمه عليهم، فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة لشهادة أن محمد رسول الله بعد هذه المناقضة»[١] .

٢- أخذ الرشوة على القضاء:

وذلك سواء قضىٰ القاضي بعدل أو بظلم، مع أن القضاء بظلم أحد الخصمين بسبب رشوته أشد لأنه جمع بين إثم الرشوة وإثم الظلم، والظلم إثمه معروف، أما الرشوة فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لعنة الله علىٰ الراشي

---

(١) فتاوي الشيخ محمد بن إبراهيم ١٢ / ٢٨٩، ٢٩٠.

والمرتشي)[١]، قال الإمام البغوي: «الرشوة: ما يعطىٰ لإبطال حق أو لإحقاق باطل، فيعطي الراشي لينال باطلاً، أو ليمنع حقًا يلزمه ويأخذ الآخذ علىٰ أداء حق يلزمه، فلا يؤديه إلا برشوة [يأخذها][٢] أو علىٰ باطل يجب عليه تركه ولا يتركه إلا بها، فأما إذا أعطىٰ المعطي ليتوصل به إلىٰ حق، أو يدفع عن نفسه ظلمًا، فلا بأس»[٣]أهـ.

ومما يلحق بالرشوة الهدايا التي يأخذها القاضي من أحد المتخاصمين؛ فعن عبد الله بن بريده عن أبيه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُعن النبي ﷺ قال: (من استعملناه علىٰ عمل، فرزقناه رزقًا، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول)[٤].

والرشوة قد تكون مالاً أو منصبًا أو أي منفعة عاجلة من منافع الدنيا الفانية. وقد استدل بعض المفسرين علىٰ تحريم الرشوة بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾

[البقرة: ١٨٨].

قال الإمام البغوي في شرح السنة: «أي لا تعطوها الحكام علىٰ سبيل الرشوة ليغيروا الحكم لكم... وقال الله سبحانه وتعالىٰ:

---

(١) الترمذي. ك الأحكام (١٣٣٦) والبغوي في شرح السنة ١٠ /٨٨ وقال عنه أنه حديث حسن.

(٢) في الأصل (يأخذ)، والسياق يقتضي ما أثبتناه.

(٣) شرح السنة للبغوي ١٠ /٨٨.

(٤) رواه أبو داود (٢٩٤٣) وصححه محققا شرح السنة ١٠ / ٨٩.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ، أي يرتشون في الأحكام»[١]أهـ، من أجل ذلك جاء في ذكر أدب القضاة التحذير من أمور دقيقة قد لا يكون مقصودها الرشوة، ولكن ينبغي للقاضي الامتناع عنها سداً للذريعة؛ مثل التساهل في قبول الولائم ونحوها من الناس بعامة ومن المتخاصمين بصفة خاصة. وهذه رسالة من الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالىٰ إلىٰ أحد القضاة في وقته ينصحه فيها بالامتناع عن ما ينقص قدر القضاة؛ قال رحمه الله تعالىٰ: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فقد بلغنا أن عندك تساهلاً كثيراً في قبول العزائم وحضور الولائم، وهذا شيء لا ينبغي من مثلكم، ومثل ذلك يسبب الاستخفاف بقدر القاضي والقدح فيه في هذا الوقت الذي لا تخفىٰ عليكم حالة الناس فيه.. فينبغي لكم النظر في أمركم ومراعاة ذلك والبعد عما يدخل عليكم أسباب القيل والقال وضعف مركزكم الشرعي، كما ينبغي العناية التامة بمن ولاكم الله أمرهم من النظر في أمورهم، والعدل بينهم في كل شيء، وبذل الوسع في كل ما يزيل الشغب والعداوات بينهم، ومخالقتهم بالخلق الحسن، مع احتفاظ القاضي بكرامته، الارتفاع عن كل ما يحط من قيمته أو يضعف من هيبته بين من ولاه الله أمرهم»[٢].

(١) شرح السنة ١٠/ ٨٧.

(٢) فتاوىٰ الشيخ محمد بن إبراهيم ١٢/ ٣٥١.

٣- الميل مع أحد الخصمين على الآخر:

وذلك إما لقرابته أو وجاهته أو غناه أو سلطانه، سواءً كان الميل في الحكم أو بالاستئناس لأحدهما دون الآخر أو إيثاره بشيء دون الآخر سواء في المجلس أو الكلام أو غير ذلك، كل ذلك يعد ظلمًا . كيف لا وقد أمر الله عز وجل المؤمنين بالقسط والعدل حتىٰ مع الأعداء والكفار، فقال الله عز وجل: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة: ٨] وقال سبحانه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾**﴾ [النساء: ١٣٥]. وفي هذه الآية الكريمة تصريح بوجوب العدل، ولو كان الحكم علىٰ النفس أو الوالدين والأقربين، وأن لا يميل الحكم مع أحد علىٰ حساب الحق، ولو كان الذي عليه الحق غنيًا فيميل معه لغناه أو فقيرًا فيميل معه شفقة عليه ورحمة.

وقد بلغت عظمة هذه الشريعة إلىٰ أن تعدل مع الأعداء الألداء من الكفار ونحوهم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾**﴾ [المائدة: ٢].

وفيما يلي رسالة أخرىٰ للشيخ محمد بن إبراهيم إلىٰ أحد القضاة في عصره يحثه علىٰ العدل مع الكفار النصارىٰ، وأن لا يميل مع المسلم علىٰ حساب الحق. قال فيها: «ولا تخفاكم النصوص الشرعية الطافحة بوجوب العدالة بين المتخاصمين حتىٰ في اللسان والإشارة، وعدم رفع الصوت علىٰ أحدهما دون الآخر، ومن المعلوم أيضًا أن عدالة القضاء يتساوىٰ فيها المسلم والكافر في حدود الواجب الشرعي، وما نص عليه العلماء رحمهم الله في باب (أدب القاضي) أعانكم الله، وسدد خطاكم، والسلام»(١).

٤- التسرع في الحكم قبل تكامل البينات والشهود وكل ما يحتاجه الحكم بالعدل:

ومن ذلك بناء الحكم بمجرد الظنون والتهم التي ليس عليها دليل واضح بين. وهذا يقتضي السماع من جميع الأطراف وإعطاء الفرصة للمدَّعين بإيضاح البينات وملابساتها، وفي المقابل تعطى الفرصة الكاملة للمدعىٰ عليهم للدفاع عن أنفسهم وإبطال ما يمكنهم إبطاله من التهم الموجهة إليهم، ومن الظلم البين إعطاء الفرصة والوقت الكافي لأحد الخصمين لإيضاح دعواه وحرمان الآخر منها أو إعمال الضغوط عليه لاختصارها واقتضابها، ولقد مر بنا وصية عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) فتاوىٰ الشيخ محمد بن إبراهيم ١٢ / ٣٤٨.

لأبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيها: «آس الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك، حتىٰ لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك»[(١)].

٥ - الإضرار بالمتحاكمين بتأخير البت في قضاياهم:

الإضرار بالناس المتحاكمين ومصالحهم - وذلك بتأخير البت فيها دون مبرر شرعي - يعد من الظلم الذي يجب علىٰ القاضي تجنبه.

وهذا يقتضي من القاضي العادل الحريص علىٰ مصالح العباد الحفاظ علىٰ وقته وملئه بالنظر في قضايا الناس وسرعة البت فيها، وعدم التسويف فيها أو ضرب المواعيد البعيدة التي قد تؤدي ببعض القضايا إلىٰ أن يمر عليها الشهور والسنوات ولمَّا تنته بعد. نعم قد تحتاج بعض القضايا إلىٰ وقت طويل، لكن الحرص علىٰ الوقت الذي حدد للقاضي أن يمضيه في عمله القضائي، والشعور بما يعانيه الناس من المشاكل والمتاعب، والشعور بأمانة العمل وما يؤخذ عليه من الأجر كل ذلك من شأنه أن يخفف كثيرًا من هذه المعاناة. وإذا كان الانشغال بمصالح المسلمين وما يرفع الحرج عنهم مقدمًا علىٰ كثير من نوافل العبادة فكيف إذا كان الانشغال عن هذه المصالح العامة بغير ذلك.

---

(١) ارجع إلىٰ نص الوصية ص ١٢٣، ١٢٤.

٦- الجور في إيقاع العقوبة:

وذلك علىٰ من ثبت عليه جناية ليس عليها حد معين، وإنما هي خاضعة لاجتهاد القاضي في تقديره التعزير المناسب لها، فمن الجور مثلاً إيقاع العقوبة الشديدة علىٰ جناية صغيرة كإيقاع عقوبة القتل مثلاً علىٰ اللطمة أو إيقاع السجن بالسنوات ذوات العدد علىٰ كلمة فيها سب أو شتم لمسلم، ونحو ذلك من العقوبات الجائرة. والغالب في مثل هذه العقوبات أنها تنشأ من غضب شديد عند القاضي يغضب فيه لنفسه أو لغيره أو يجاري فيها وجيهًا أو سلطانًا، وعادة ما تنطبع بطابع التشفي والانتقام ولذلك جاء النهي للقاضي أن يقضي وهو غضبان.

الصورة السابعة: «ظلم أرباب الأعمال لعمالهم»

الإجارة جائزة بين المسلمين بنص الكتاب والسنة وإجماع المسلمين. ولقد اقتضت حكمة أرحم الراحمين مشروعية الإجارة؛ لما فيها من المصالح العظيمة للعباد، ولما في تعطيلها من الضرر والحرج علىٰ الناس. ولكن الشارع الحكيم عندما أباحها لم يتركها لأهواء البشر، بل جعل لها ضوابط وشروطًا لا تصح إلا بها كما حذر مما يحصل فيها من الظلم والاعتداء علىٰ حقوق الناس. وأنواع الإجارة كثيرة، وسأقتصر هنا علىٰ استئجار الأجير في القيام بعمل محدد مقابل أجر محدد أو استئجاره بعمل يومي أو شهري مقابل أجر

محدد، وما أكثر ما يُظلم الأجراء والعمال في هذا الزمان الذي كثرت فيه الأعمال والمؤسسات والشركات والمصانع، وكثر فيه الوافدون من العمال من شتىٰ الأقطار، كما كثرت فيه شكاوىٰ العمال من ظلم أصحاب الأعمال وامتلأت مكاتب العمل والمحاكم الشرعية من هذه الشكاوىٰ والمظالم.

وفيما يلي ذكر بعض المظالم التي يتعرض لها العمال من أصحاب العمل:

○ أكل أجرة الأجير، كلها أو بعضها، أو المماطلة له بها وتأخيرها، وهذا من الظلم للأجير وذلك بأكل ماله بغير حق وبخيانته وعدم الوفاء له، بما تمت المعاقدة عليه.

وقد حذر الرسول ﷺ من هذا الظلم البين فقال: (قال الله تعالىٰ: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطىٰ بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفىٰ منه ولم يُعطِ أجره)[١] قال الحافظ في الفتح عند شرح الحديث: «قال ابن التين: هو سبحانه وتعالىٰ خصم لجميع الظالمين، إلا أنه أراد التشديد علىٰ هؤلاء بالتصريح. والخصم يطلق علىٰ الواحد وعلىٰ الاثنين وعلىٰ أكثر من ذلك.

---

(١) البخاري. ك البيوع (٢٢٢٧).

(أعطىٰ بي ثم غدر): علىٰ حذف المفعول والتقدير: أعطىٰ يمينه بي أي عاهد عهداً وحلف عليه بالله ثم نقضه.

(باع حراً فأكل ثمنه): خص الأكل بالذكر لأنه أعظم مقصود.

قال المهلب: وإنما كان إثمه شديداً لأن المسلمين أكفاء في الحرية، فمن باع حراً فقد منعه التصرف فيما أباح الله له، وألزمه الذل الذي أنقذه الله منه.

(ورجل استأجر أجيراً): هو في معنىٰ من باع حراً وأكل ثمنه لأنه استوفىٰ منفعته بغير عوض، وكأنه أكلها لأنه استخدمه بغير أجرة وكأنه استعبده.»[1] أهـ.

وقد يقع الظلم علىٰ الأجير دون تعمد المستأجر أكل حقّ الأجير، وإنما بتأول أو خشية غلبة الأجير له. وهذا ينشأ في العادة من عدم الاتفاق علىٰ قدر الأجرة، أو علىٰ تحديد العمل المطلوب، وفي هذا مخالفة شرعية. وبتخلف شرط أو أكثر من شروط الإجارة تنشأ الخلافات وتختلف التقديرات وتكثر التظلمات. وهذا كله عقوبة لمن لم يلتزم بأحكام الله عز وجل التي شرعها لعباده في معاملاتهم والتي تقضي علىٰ كل الخلافات وتسد بابها، وصدق من قال: لو أن الناس التزموا أحكام الله عز وجل التي شرعها فيما بينهم والتزموا بشروطها وضوابطها لأغلقت المحاكم أبوابها. وفي هذه المناسبة أنصح نفسي

(١) فتح الباري: ٤/٤١٧.

وإخواني بلزوم شرع الله عز وجل حتىٰ لا نختلف ونتظالم ويتهم بعضنا بعضًا بأكل الحقوق. ولو حصل واختلف أحدنا مع أخيه في تقدير الأجرة أو نوع العمل فلأن يخرج المسلم من هذه الدنيا مغلوبًا مظلومًا خير له من أن يخرج منها غالبًا ظالمًا. وهذا كله مع المسلم العدل أما مع الكفار أو اللصوص والفساق المخادعين فلا ينبغي للمسلم أن يفرط في حقه، وينخدع لهم.

○ تكليف الأجير بأعمال أخرىٰ لم تكن داخلة في عقد الاتفاق دون زيادة الأجرة، أو تكليفه بساعات زائدة علىٰ ما اتفق معه عليها بنفس الأجرة الأولىٰ؛ كل ذلك من الظلم له وأكل حقه بغير حق.

○ تكليفه بما لا يطاق أو ما يغلب علىٰ الظن تضرره به وتعريضه للخطر، ولو كان ذلك برضىٰ الأجير ووقوعه تحت ضغط العوز والحاجة.

○ ويلحق بالصورة السابقة من يكلف الأجير بعمل المنكرات أو حراستها وبيعها وشرائها مستغلاً في ذلك جهل الأجير وحاجته إلىٰ المال أو ضعف الوازع الديني عنده، فيلحق بصاحب العمل إثم نفسه وإثم من كلفه بفعل المنكرات أو بيعها وحراستها من غير أن ينقص من إثم الأجير شيء.

ومن أمثلة ذلك: من يستخدم عماله في بيع المحرمات كالمجلات

الخليعة والتلفاز وأدوات البث المباشر والمعازف وغيرها. فذلك يظلم نفسه بنشر الفساد وكسب المال الحرام، ويظلم عماله بإيقاعهم في هذا الإثم، وتعاونهم معه في إشاعة الفساد بين عباد الله عز وجل.

○ سكوت صاحب العمل عن المخالفات والمنكرات التي يراها علىٰ عماله فلا يأمرهم ولا ينهاهم مع قدرته علىٰ ذلك. وقد يكون بعضها يقدح في التوحيد وأصل الإيمان وبعضها في أركان الإسلام، كترك الصلاة مثلاً. وقد يكون بعضها في الأخلاق والسلوك. والمقصود أن عدم المناصحة والدعوة للعمال من صاحب العمل يعد ظلمًا لهم وخيانة وبخاصة إذا كانت مخالفات العمال عن جهل وتضليل.

○ عدم الوفاء ببند أو أكثر من بنود العقد الذي يبرم مع العامل؛ ففي ذلك غدر وخيانة وظلم من صاحب العمل لعماله، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ويلحق بهذا ما يفعله بعض الجشعين من استقدام العامل من بلده وإبرام عقد صوري معه هنالك فإذا جاء للعمل لم يجد شيئًا مما وعد به، بل لم يجد عملاً البتة، وإنما يسرحه صاحب العمل مقابل مبلغ شهري أو سنوي يأخذه ظلمًا.

○ الإساءة للأجير بسب أو لعن أو ضرب، والتعالي عليه واحتقاره والسخرية منه؛ كل ذلك من الظلم الذي نهىٰ الله عز وجل عنه بين المؤمنين بعامة.

وهذه الأخلاق الذميمة قد توجد من بعض أرباب العمل المتكبرين الذين يستغلون حاجة الأجير إليهم فيهينونه.

○ الاستناد إلىٰ بعض البنود الجائرة في أنظمة العمل والعمال والمضادة لشرع الله عز وجل في الإضرار بالعامل أو حرمانه من بعض حقوقه أو غير ذلك.

○ عدم العدل مع العمال في التعامل دون سبب شرعي، أو الميل مع أحدهما دون الآخر عند الخصومات، حيث إن صاحب العمل أو من ينيبه يعد حاكمًا بين العمال؛ فيلزمه تحري العدل، وتجنب الهوىٰ، ونصرة المظلوم، والحيلولة بين الظالم وما يريد، والسماع من الطرفين في الخصومة قبل الحكم بينهما، كما يلحق بذلك وجوب التثبت مما يشاع حول أحد العمال من تقصير أو مخالفة شرعية أو غيرها. كما يجب العدل في إيقاع الجزاء بأن يكون مكافئًا لما وقع فيه العامل من مخالفة.

○ ومما يلحق بالعمال والأجراء ما كثر في زماننا اليوم من الخدم والخادمات والسائقين والمربيات الذين امتلأت بهم بيوت كثير من المسلمين، وظهرت صور من الظلم علىٰ هؤلاء المستخدمين ذكر كثير منها في الصور السابقة عند الحديث عن مظالم العمال، ونخصهم هنا بالصور التالية من صور الظلم لهم:

أ - استقدام الخادمات بدون محرم. ففي هذا ظلم للنفس وظلم لهن بإعانتهن علىٰ هذه المعصية والمخالفة الشرعية. كما أن في ذلك

ظلمًا لهن بتعريضهن للفتن والفواحش. كيف لا وقد اجتمع فيهن الجهل والبعد عن الوطن وانعدام المحرم.

ب- ترك تعليمهم دين الله عز وجل وتركهم في جهلهم المطبق بعبادة ربهم، ومعرفة أحكام الشرع الواجبة عليهم، وقد يكون الخادم كافرًا فلا تبذل الأسباب لهدايته إلىٰ الإسلام وانقاذه من الكفر فيجمع هذا الظالم بين إثم استقدامه لعامل كافر وبين تركه على كفره دون دعوته إلى الإسلام.

جـ- القسوة عليهم والغلظة معهم بسب أو لعن أو ضرب أو تضييق في المعيشة أو السكنىٰ أو تكليفهم ما لا يطيقون أو ما يعرضهم للخطر في أنفسهم أو عقولهم أو أعراضهم. ومن الظلم لهم أيضًا مجازاتهم علىٰ إساءتهم بأكثر مما وقعوا فيه من الإساءة.

فعن سويد بن مقرن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لقد رأيتني سابع سبعة من بني مقرن ما لنا خادم إلا واحدة لطمها أصغرنا فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقها»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن رجلاً قعد بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إن لي مملوكين؛ يكذبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟

---

(١) رواه مسلم في الأيْمان (١٦٥٨).

قال: (يُحْسَبُ ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل).

قال: فتنحىٰ الرجل، فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: (أما تقرأ كتاب الله): ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا** ﴾ [الأنبياء : ٤٧].

فقال الرجل: والله يا سول الله، ما أجد لي ولهم شيئًا خيرًا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم »[١].

وهذا الأثر وإن كان في المملوكين فهو يصدق علىٰ المستخدمين أيضًا.

الصورة الثامنة: «ظلم العمال لأرباب العمل»

بعد أن تبين لنا في الصورة السابقة بعض مظاهر الظلم الذي يتعرض له العمال من أصحاب العمل فلا بد في المقابل أن نتعرف علىٰ بعض صور الظلم التي يتعرض لها أرباب العمل من عمالهم وأجرائهم؛

---

(١) الترمذي / ك التفسير من سورة الأنبياء ٨ / ٣١٠ (٣١٦٣) وصحح إسناده الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٥٣١).

وذلك حتىٰ لا يبرئ الأجير نفسه من الظلم بصفته هو الضعيف المحتاج، وبالتالي لا يتصور صدور الظلم عنه بزعمه.

ومن هذه المظاهر يلي:

○ عدم وفاء العامل بما اتفق عليه في العقد من العمل سواء بعدم إكمال العمل المطلوب أو عدم إكمال الوقت المطلوب للعمل أو التحايل علىٰ صاحب العمل في ذلك بالكذب أو انتحال الأعذار الواهية بل الكاذبة أحيانًا. وهذايحصل في العادة حال غياب صاحب العمل عن عمله فيغفل العامل الظالم عن رقابة الله عز وجل له فتحصل منه هذه المظالم لنفسه ولغيره.

○ عدم إتقان العامل لعمله المتفق عليه سواء كان في الأصل مجيداً للعمل المسند إليه لكنه غش فيه أو تهاون ولم يعطه حقه أو كان في الأصل غير مجيد للعمل وتظاهر أنه عارف به ومتقن. كل ذلك من الظلم لصاحب العمل؛ وذلك بعدم الوفاء له بإنجاز ما أسند إليه مع أخذه للأجرة كاملة غير منقوصة.

○ تصرف العامل في ممتلكات صاحب العمل بغير إذنه كالسيارات والأدوات وغلة المزارع والماشية وغيرها، سواء تصرف بها لنفسه أو لغيره؛ لأنه لا يملك ذلك إلا بإذن صاحبها، وتصرفه هذا ظلم منه لصاحب العمل.

○ سرقة العامل من صاحب العمل شيئًا مما ائتمنه عليه من نقود أو أعيان؛ وهذا يكثر من العمال الذين لا يخافون يوم الحساب. وسواء كانت السرقة بشكل مباشر أو بصورة تحايل وخداع لصاحب العمل، كل ذلك سواء، وكل ذلك ظلم وعدوان، علىٰ ما في ذلك من ظلم العامل لنفسه ومن يعول بأكل الحرام ونبات الجسم علىٰ السحت.

○ إعانة العامل لصاحب العمل علىٰ فعل المنكرات أو بيعها وشرائها أو حراستها. كل ذلك من التعاون علىٰ الإثم والعدوان، والعامل وصاحب العمل كلاهما ظالم بإعانة أحدهما للآخر علىٰ الإثم والعدوان؛ وذلك كالعمل عند صاحب العمل في صناعة آلات اللهو والمعازف وصيانتها أو بيعها، ومثل ذلك بيع وصيانة أجهزة الفساد كالتلفاز والبث المباشر، وكالعمل في البنوك الربوية، وكالعمل في محلات التصوير وتحميض الأفلام لذوات الأرواح، ومثله بيع المجلات والقصص الخليعة التي تنشر المجون والفساد بين العباد. كل ذلك مما ينبغي للعامل تجنبه حتىٰ لا يشترك مع صاحب العمل في ظلم الأمة في عقول أبنائها وأعراضهم وأموالهم. وحتىٰ لا ينبت جسمه وأجسام من يعول علىٰ السحت والحرام.

○ السعي بالنميمة بين صاحب العمل والعاملين لديه أو بعض معارفه حتىٰ يقع الشقاق بينهم، كما يلحق بذلك غيبة العامل لصاحب العمل عند بقية العمال وإشاعة التهم الكاذبة حتىٰ تحدث

الفوضىٰ في محيط العمل ويحصل النفور بين صاحب العمل وعماله مما يكون له الأثر السيء علىٰ سير العمل وانضباطه.

كما يدخل في هذا أيضًا قيام العامل بإفشاء أسرار صاحب العمل وما عنده من الأموال والأعمال مما لا يرضىٰ صاحب العمل معرفة الناس لها، وهذا من خيانة الأمانة، وهو وماقبله يعد من ظلم العامل لصاحب العمل.

الصورة التاسعة: «من ظلم التجار للأمة»

ويعنى بالتجار هنا أولئك الذين يستثمرون أموالهم وينمونها طلبًا للربح والكسب؛ وذلك عن طريق البيع والشراء في المأكول أو الملبوس أو العقار والأثاث وغير ذلك مما يحتاج إليه الناس أو يترفهون به.

والبيع في أصله حلال وطيب لقوله تعالىٰ: ﴿**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾ [البقرة: ٢٧٥]. ولكن لما ظهر في زماننا اليوم من أنواع التجارات والبضائع المختلفة الشيء الكثير، ولما ظهرت أنواع من التعاملات والممارسات التي لم تكن تعرف من قبل في البيع والشراء، ولما خف الدين عند كثير من التجار وأصبح هم أحدهم الربح من أي طريق؛ فلا جرم ظهرت كثير من المخالفات الشرعية في محيط التجار والسماسرة مما كان له الأثر السيء في ظلم الأمة في جوانب متعددة من حياتها. وفيما يلي ذكر بعض المظالم التي تتعرض لها الأمة من بعض تجارها ورجال الأعمال فيها:

○ ظلم الأمة في دينها:

ويظهر هذا بما يقوم به بعض التجار - هداهم الله - باستثمار أموالهم في بيع وشراء وطباعة وتوزيع الكتب والمجلات المضللة التي تنشر الإلحاد والبدع والشبهات مما يساعد في ترويج الشرك والبدع والعقائد الباطلة ويبعد الأمة عن منبعها الصافي المتمثل في الكتاب والسنة وفهم الصحابة رضي الله عنهم، وفي هذا ظلم للأمة وصد لها عن سبيل الله عز وجل. ومما يقدح في عقيدة الأمة أيضًا المتاجرة في تصوير ذوات الأرواح وتشكيلها بما يؤدي إلىٰ تعظيمها وتعليقها في البيوت والمكاتب كصور العظماء، أو وضعها علىٰ الصدور كما هو الشأن في استيراد الملبوسات التي عليها صور الكافرين والفاسقين.

○ ظلم الأمة في نفوس أبنائها وعقولهم:

ويظهر هذا في ما يبيعه التجار ويروجونه مما له الأثر السيء علىٰ صحة الناس في أبدانهم وأنفسهم وعقولهم كمن يتاجر ببيع التبغ (الدخان) وبعض المخدرات والمفترات والمشروبات التي يخالطها الكحول. كما يدخل في ذلك الاتجار في بعض المطعومات التي ثبت احتواؤها علىٰ أجزاء من الخنزير أو ثبت أنها ميتة أو من مشتقات الميتة، وغير ذلك مما يضر بصحة الأجسام والعقول.

○ ظلم الأمة في أعراض أبنائها:

وما أكثر التجارات اليوم التي يعمل فيها كثير من التجار وهي تقتل الفضيلة وتنشر الرذيلة وتشيع الفاحشة في المسلمين، وكم يساهم هؤلاء التجار في إفساد أعراض الأمة ومحاربة الشريعة الإسلامية التي من مقاصدها حفظ الأعراض وحمايتها. ومن أمثلة هذه التجارات التي تساهم في هتك الأعراض وإفسادها:

* التجارة في المجلات والقصص الخليعة طباعة وتوزيعاً ونشرها بين أبناء الأمة وبناتها وهي تحمل علىٰ غلافها وفي طياتها النجاسة والخبث والرذيلة سواء بما فيها من صور النساء الساقطات أو ما فيها من الأفكار المثيرة للشهوات.

* ومنها التجارة في أجهزة الفساد من دشوش وتلفاز وأفلام الڤيديو الخليعة، وأدوات المعازف واللهو والعبث، ومعلوم أثر هذه المفسدات في إثارة الغرائز والشهوات وهتك الأعراض، ويدخل في ذلك صنعها وبيعها وصيانتها والدعاية إليها.

* التجارة في بيع الملبوسات والأزياء النسائية المحرمة والتي تصف البشرة أو تحجمها أو تشبهها بالكافرات والذي من شأنه التبرج ونشر الفتنة. ويلحق بذلك الأماكن الخاصة بتزيين النساء، والله أعلم بما يدور بداخلها.

* التجارة بإنشاء الملاهي المختلطة وإغراء الناس بالإتيان إليها رجالاً ونساءً. ولا يخفىٰ أثر هذا علىٰ الأعراض ونشر الفتنة بين النساء والرجال.

* التجارة بفتح المكاتب السياحية التي تسهل علىٰ الناس العزاب منهم والعوائل السفر إلىٰ بلاد الكفر والرذيلة كما تسهل عليهم زيارة الأماكن النجسة في تلك البلاد.

* تأجير العقارات علىٰ من يستخدمها في الاتجار في المحرمات السابقة ففي هذا تعاون علىٰ الإثم والعدوان.

○ ظلم الأمة في اقتصادها وأموالها:

ويتبين ظلم التجار للناس في أموالهم من خلال الأمثلة التالية:

* البيوع المحرمة التي يتعامل بها التجار مع الناس مما ينشأ عنه الظلم والبغي والخداع للمسلمين في أموالهم كبيع الغرر والجهالة والتدليس والغش والنجش وبيع المسلم علىٰ بيع أخيه... إلخ.

* أخذ الفائدة الربوية علىٰ المحتاج للقرض من المسلمين سواء بطريق مباشر أو عن طريق التحايل كما في مسألة العينة، وما أكثرها اليوم بين تجار المسلمين.

* المساهمة في تأسيس البنوك الربوية التي تظلم الناس بأخذ الربا

والفوائد عليهم أو تعينهم علىٰ أكل الحرام بإعطائهم الفوائد الربوية علىٰ أموالهم المودعة. كما يلحق بهذا من يؤجر عقاره للبنوك الربوية.

* الوقوع في الطرق المحرمة لكسب المال كالقمار والميسر واليانصيب واختراع طرق جديدة لا تخرج عن هذه الوسائل المحرمة التي هي من باب أكل أموال الناس بالباطل والإثم والعدوان، كما هو الحاصل في أساليب الدعاية الكاذبة التي تبتز أموال الناس بالباطل.

* حرمان الأمة الإسلامية من أموالها وإرسالها إلي بلاد الكفر ليرابوا بها ويستعينوا بها علىٰ المسلمين.

* حرمان فقراء الأمة من زكاة الأموال الواجبة علىٰ التجار والبخل بإخراجها.

الصورة العاشرة: «من ظلم الإعلاميين للأمة»

ويقصد بالأعلاميين في كل أمة أولئك الذين يساهمون في توجيه أفكار الأمة وسلوكها بالكلمة المقروءة أو المسموعة أو المرئية، ومن هؤلاء: الكتاب والناشرون والمذيعون والمخرجون والمؤسسون للإذاعة والتلفاز والمشرفون عليها والمنفذون لبرامجها، والمؤسسون للصحف والمجلات، والموظفون في مراقبة ما ينتج للأمة من أهل الإعلام فيها. كما يلحق بهؤلاء المشرفون علىٰ المهرجانات الإعلامية والنوادي الأدبية ومن يسمون بأهل الفن والأدب.

ولنا أن نتصور الأجر العظيم الذي يناله هؤلاء فيما لو وجهوا جهودهم هذه في توعية الأمة بدينها وتهذيب أخلاقها وتربيتها علي الجد والجهاد، ومحاربة جهود الأعداء ومخططاتهم الرامية إلىٰ إفساد الدين والأعراض والعقول والأموال كما لنا أن نتصور ذلك الظلم العظيم والوزر الكبير الذي يرتكبه الإعلاميون في حق أنفسهم وفي حق أمتهم المسلمة حين توجه الجهود إلىٰ إفساد الأمة في ضرورياتها الخمس التي جاءت الشريعة للحفاظ عليها وحمايتها؛ ألا وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وهذا - ويا للأسىٰ - هو الحاصل في أكثر بلدان المسلمين اليوم، ويشترك مع الإعلاميين في الظلم كل من مكَّن لهم أو أعانهم، ومن فتح قلبه وبيته لتلقي ما يبث في وسائل الإعلام المختلفة من ضروب الشر والفساد.

وفيا يلي ذكر بعض هذه المظالم التي يرتكبها كثير من الإعلاميين اليوم في حق أمتهم:

○ المساهمة في إثارة الشبهات والشكوك حول الدين وأهله سواء كان ذلك عن طريق الكتاب المقروء أو الكلمة المسموعة أو المشهد المرئي في فيلم أو مسرح ويتبع ذلك الاستهزاء بالدين وأهله واستنقاص الشريعة أو الدعاية للنظم والأديان الباطلة وأهلها، وتحبيب ذلك للنفوس ... إلخ كل ذلك من الظلم العظيم للأمة والإفساد لها في دينها، وهذا النوع من الظلم يلحق في الحقيقة بالظلم الأعظم المخرج

من الملة والذي سبق تفصيله في مبحث سابق لكن إعادته هنا جاءت لأن هؤلاء الظالمين من الإعلاميين قد تجاوز ظلمهم لأنفسهم بالظلم الأعظم إلىٰ ظلمهم للناس بتضليلهم والتأثير عليهم بما يملكون من وسائل الإعلام والتأثير. ويلحق بذلك أيضًا المساهمة في ترويج البدع والعقائد الباطلة وكل ما من شأنه إبعاد الأمة عن منبعها الصافي المتمثل في الكتاب والسنة وفهم الصحابة رضي الله عنهم، كما يدخل في ذلك الدعوة إلىٰ فصل الدين عن الحياة والترويج لمذهب العلمانية المنادي بذلك، كما يلحق بذلك ما يقوم به أهل الإعلام وخاصة في التلفاز والإذاعة من تناقض واضح يصل إلىٰ حد العبث والاستهتار بالناس وجعلهم في صراع داخلي وازدواجية تشوه الدين وبخاصة في نفوس الناشئة، ومن أمثلة هذا الاستهتار والتناقض ما يعرضه التلفاز أو الإذاعة من البرامج المتعلقة بالأحكام الشرعية والحلال والحرام، ثم ما إن ينتهي هذا البرنامج حتىٰ يعقبه مسلسل أو تمثيلية تعج بالمناظر المحرمة والسماع المحرم الذي سبق وأن بين تحريمه البرنامج الذي قبله.

إن جعل الأمة تعيش في مثل هذا الصراع والتناقض والترويض علىٰ عدم تعظيم حرمات الله عز وجل، إنه والله الظلم المبين والعبث المهين بدين الأمة ووقتها ومقدراتها.

○ مساهمة الإعلام في نشر الجريمة والاعتداء علىٰ الأنفس والأموال بما يبثه من الأفلام البوليسية واللصوصية.

○ ومن ظلم الإعلاميين للأمة تقديمهم للساقطين والساقطات من مغنين ومغنيات وراقصين وراقصات علىٰ أنهم نخبة المجتمع وصفوته وإطلاق الألقاب الفخمة عليهم مثل النجوم، والأبطال، وتسليط الأضواء علىٰ حياتهم وسيرتهم الخاصة والعامة مما ينعكس أثره علىٰ جهلة الأمة من شباب وشابات فيسعوا إلىٰ تقليد أولئك النجوم!! ويلاحقوا أخبارهم ويتلقوا عنهم، وإلا فما معنىٰ ما ذكرته الصحف بعد موت عبد الحليم حافظ، ونزار قباني من الحزن عليهما، وتسويد الصفحات بسيرتهما العفنة، وهل هذا إلا نتيجة طبيعية لما يقوم به الإعلام من ربط الأمة بهذه الرموز الخبيثة وكأن ليس للأمة أبطالها الذين فتحوا الدنيا بنور الإسلام ونقلوا العباد من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد[١].

○ «التضليل الذي تتعرض له الأمة من بعض الإعلاميين من تزوير الحقائق وتلميع الباطل وأهله والاستخفاف بعقول الناس، ونقلهم للأخبار والتحليلات السياسية دون تمحيص أو تدقيق وإنما يرددونها كالببغاوات كما وردت بصيغتها المخالفة لدين الأمة وعقيدتها، ولا يخفىٰ ما في ذلك من تضليل وتلبيس وجعل الأمة تابعة لغيرها؛ تنظر بمنظار غيرها، وتفكر بعقول غيرها. كل ذلك من الإجرام والظلم في

(١) عن كتاب المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية: ص ٩٨ ط٢ (باختصار وتصرف).

حق الأمة »[١].

○ « سقوط قيمة الكلمة وامتهان شرفها وقدسيتها وبيعها لمن يدفع أكثر واستعمالها في المديح والنفاق المدفوع الثمن في كثير من الصحف والمجلات التي تزخر بها بلاد المسلمين. وأصبحت الاتجاهات المختلفة اليوم تتحكم في ذلك النوع من الإعلام، فصديق اليوم قد يصبح عدو الغد مثلما أصبح عدو الأمس صديق اليوم. إنها بعبارة أخرىٰ صحافة بلا مبادئ، وإعلام لا يقوم علىٰ أسس أخلاقية »[٢].

○ الظلم الذي يتعرض له المسلمون في أعراضهم؛ حيث تحولت أجهزة التلفزة في معظم ديار المسلمين إلىٰ صالات عرض لبرامج الهدم ومسلسلات الإثارة التي تقضي علىٰ الفضيلة وتشيع الفاحشة بين المؤمنين، وذلك بما تطفح به من إظهار العورات، والخلوات المحرمة والحب والغرام.. إلخ في تحسين لذلك كله في أعين الشباب من الجنسين وإثارة للشهوات التي ترخص فيها الأعراض، ومثل ذلك ما تقوم به بعض الصحف والمجلات المتخصصة في الدعوة إلىٰ الرذيلة بما ترسمه علىٰ صفحاتها حول الشواطئ والحفلات الراقصة المختلطة من

---

(١) عن كتاب المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية: ص ٩٨ ط٢ (باختصار وتصرف).

(٢) المصدر السابق نفسه.

صور النساء الكاسيات العاريات التي تفسد الأخلاق وتجرئ علىٰ هتك الأعراض، فهل يعي مَنْ وراء هذا العبث والفساد مِنْ الإعلاميين أيَّ ظلم وعدوان يوقعونه بأعراض الأمة وأخلاقها؟

○ مساهمة الإعلام بنصيب وافر في جريمة الدعوة إلىٰ ما يسمىٰ (بتحرير المرأة) كما يزعمون، وذلك بعرضه ونشره لأنماط مختلفة من حياة المرأة الغربية وتلميعها لتبدو في أعين النساء المسلمات براقة زاهية. وتمجيده لتحرير المرأة من قيود دينها وأخلاقها عن طريق أبواب ثابتة وزوايا ومقالات وقصص وبرامج تستهدف جميعها جر المرأة المسلمة إلىٰ تقليد غيرها في نزع حجابها وهجر بيتها والاختلاط بالرجال وتزيين ذلك لها وحثها عليه باسم «التطور» والتمدين والرقي والمساواة(١).

○ مساهمة الإعلام في استباحته للغناء والمعازف والمزامير وشغل وقت الأمة به؛ فلا يكاد يخلو من الغناء والموسيقىٰ برنامج ولا حديث ولا ندوة ولا لقاء مما يقدم في إذاعة أو تلفاز، فضلاً عن البرامج المتخصصة بكاملها في الغناء والعزف والموسيقىٰ كما في برنامج (ما يطلبه المستمعون)؛ ذلك البرنامج الذي يعقد الصلات بين أبناء الأمة

---

(١) عن كتاب المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية: ص ١٠٠ ط٢ (بتصرف يسير).

وبين الساقطين فيها والساقطات من المغنيين والمغنيات ويقويها ويزيدها رسوخًا حتىٰ يصبحوا من متابعيهم وعاشقيهم[١]. ومعلوم ما في ذلك كله من الجرأة علىٰ محارم الله عز وجل وما فيه من إثارة الشهوات بالغناء والعزف وما يؤول من ذلك إلىٰ نشر الفاحشة وفساد الأعراض.

○ مساهمة الإعلام في تبذير أموال الأمة ودفعها إلىٰ ذلك بما يبثه من الإعلانات والدعايات الكاذبة المبهرجة لكثير من المنتجات التجارية وغيرها بأسلوب يخدر العقول ويدفع الناس دفعًا إلىٰ شرائها وملأ البيوت منها من غير حاجة إليها، ومن ظلم الإعلاميين للأمة في اقتصادها أيضًا دعايتهم للبنوك الربوية وبعض البيوع المحرمة، وحث الناس للمساهمة فيها وتزيين ذلك لهم.

الصورة الحادية عشرة: «ظلم اليتيم»

اليتيم هو من مات أبوه وهو دون البلوغ والرشد واحتاج إلىٰ الولاية عليه وعلىٰ أمواله. وقد ورد في كتاب الله عز وجل في أكثر من آية الوصية باليتيم والإحسان إليه والحذر من ظلمه وأكل ماله بالباطل. وسأورد هذه الآيات إن شاء الله تعالىٰ فيما يلي من مظاهر ظلم اليتيم من وليه:

○ الإساءة إلىٰ اليتيم بسب أو شتم أو ضرب دون مبرر شرعي قال

---

(١) عن كتاب المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية: ص ١٠٠ ط٢ (باختصار).

الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحىٰ: ٩]، ويدخل في ذلك تكليفه بما لا يطاق واحتقاره والسخرية منه وسوء الظن به، وكل ما يسبب له الأذىٰ الجسدي والنفسي؛ فكما أن هذه الممارسات محرمة مع كل مسلم فهي مع اليتيم أشد حرمة لضعفه ويتمه وفقده للسند الذي يدافع عنه.

○ أكل مال اليتيم الذي ورثه عن أبيه ظلمًا وعدوانًا؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: ١٠]. وقال تعالىٰ: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء: ٢] وقال عز وجل: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء: ٦]، وقد عد الرسول ﷺ أكل مال اليتيم من السبع الموبقات(١).

○ إعطاء اليتيم ماله له قبل بلوغه ورشده حيث سفاهته وضعف تدبيره مما يكون له الأثر الكبير في ضياع ماله وتبذيره أو إنفاقه بما يعود عليه بالضرر في الدنيا والآخرة؛ ولذلك جاء في الآية السابقة: ﴿فَإِنْ

(١) انظر نص الحديث عند البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم: (٦٨٥٧).

آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٦].

○ ترك اليتيم جاهلاً بدون تعليم له، وتركه لا يؤمر بطاعة الله عز وجل ولا ينهىٰ عن معاصيه؛ إن تركه هكذا بلا تربية ولا تأديب ظلم له من وليه كما لو كان اليتيم ولداً من أولاده.

الصورة الثانية عشرة: «الظلم الواقع بين عامة الناس»

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون ما المُفلِسُ؟) قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: ﷺ (إن المُفْلسَ من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضىٰ ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار)[1].

يذكر الرسول ﷺ في هذا الحديث أبرز ما يحصل فيه الظلم بين العباد ألا وهو اعتداء بعضهم علىٰ بعض في بدن أو مال أو عرض، وما أكثر ما يحصل من هذه المظالم اليوم بين الناس، والموفق من وفقه الله عز وجل وخرج من هذه الدنيا سليم الظهر من دمائهم، خميص البطن من أموالهم، كاف اللسان عن أعراضهم، فسلمت له حسناته، وسلم ظهره من أوزار الناس ومظالمهم. ويدخل في هذه المظالم من باب

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٨١).

أولىٰ: ظلم الناس في أديانهم.

والأمثلة لكل نوع من هذه المظالم كثيرة ومتنوعة جداً لا يتسع المقام لذكرها ولذا نكتفي بذكر بعض الأمثلة لكل نوع لتدل علىٰ ما سواها. والله المستعان.

○ **أمثلة لظلم الناس في أديانهم:**

أ- التسبب في إضلال المسلم عن دينه بشبهة توقعه في الكفر أو البدعة أو الفسق. فكل من ساهم في ذلك بقول أو كتابة أو رأي فعليه وزر هذا الضلال ووزر ظلمه لأخيه المسلم الذي تسبب في إضلاله قال تعالىٰ: ﴿ **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل: ٢٥].

ب- التسبب في إضلال المسلم عن سلوكه وخلقه الإسلامي بشهوة تدفعه إلىٰ الوقوع في الفواحش والمنكرات، سواء كان ذلك بالقول أو التزيين أو إبعاده عن مجالس الخير إلىٰ مجالس السوء والفحشاء أو فتنته ببعض الصور والأفلام التي تثير الشهوة وتدفع إلىٰ الفاحشة. وقد سبق ذكر هذه المظالم عند الحديث عن ظلم الإعلاميين والتجار حيث كان الحديث عن ظلم المؤسسات لكن الحديث هنا عن ظلم الأفراد بعضهم لبعض.

جـ- الصد عن طريق الحق وتشويه صورة أهله حتىٰ ينفر الناس

عنهم ويحرمون الخير الذي عندهم، ويسلمون لأهل الشر والفساد.

د- سكوت المسلم عن ما يراه من منكرات علىٰ أخيه المسلم ومداهنته ومجاملته دون نصح له وإرشاد. وأشنع من ذلك من يزين لأخيه فعلة المنكر ويقره عليه.

هـ- الفرح بضلال الناس في دينهم أو أخلاقهم - ولو لم يكن لهذا الظالم دور في الإضلال - فمجرد الفرح بالشر والفساد ظلم عظيم ومرض خطير من أمراض القلوب فكيف بمن ساهم في فتح باب من أبواب الشر في أديان الناس.

○ أمثلة لظلم الناس في أبدانهم:

أ- تعمد قتل المعصوم دمه سواء كان ذلك مباشرة أو بطريق التسبب المقصود، أو بالإعانة أو الدلالة علىٰ قتله؛ كل ذلك من القتل العمد الذي يوقع فاعله تحت وعيد الله عز وجل إذ يقول: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾**﴾ [النساء: ٩٣]، مع ما يتعرض له من القصاص في الدنيا والآخرة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (لن يزال المؤمن في فسحة من دينه مالم يصب دمًا حرامًا)[١].

---

(١) البخاري في الديات (٦٨٦٢).

ووقوع القتل العمد الصريح للمعصوم قد يكون قليلاً لكن الذي يقع كثيراً هو القتل العمد المتأول بشبهة أو غيرها، وهذا يكثر أيام الفتن والقتال بين طوائف المسلمين أعاذنا الله من ذلك، وهذا هو الذي حذره جماعة من السلف واعتزلوا فيه الطوائف المتقاتله حذراً من قتل النفوس البريئة التي تتعلق بقاتليها يوم القيامة وعندها فأي كم من الحسنات يكفي لقصاص وإيفاء الحقوق؟!

ب- الاعتداء علىٰ نفس معصومة بضرب أو قطع عضو أو تجويع أو حبس أو أي نوع من أنواع التعذيب الجسدي والنفسي قال ﷺ: (صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات... الحديث)[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: (من ضرب بسوط ظلمًا اقتص منه يوم القيامة)[2].

وعن هشام بن حكيم بن حزام رضي الله عنهما، أنه مر بالشام علىٰ أناس من الأنباط وقد أقيموا في الشمس، وصب علىٰ رؤوسهم الزيت! فقال: ما هذا؟ قيل: يعذبون في الخراج، وفي رواية. حبسوا في الجزية، فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ، يقول: (إن الله

---

(١) مسلم رقم (٢١٢٨) في الجنة.

(٢) البخاري في الأدب المفرد (١٨٥). صحيح الجامع الصغير (٦٣٧٤).

يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا) فدخل علىٰ الأمير، فحدثه، فأمر بهم فخلوا[١].

ويدخل في ذلك: المباشر للتعذيب، والآمر به، والمعين عليه، والمشير به، والمتسبب فيه.

وقال ﷺ: (لتؤدن الحقوق إلىٰ أهلها يوم القيامة، حتىٰ يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)[٢]، فإذا كان هذا حال العجماوات فيما بينها فكيف الحال بما يقوم به اليوم طواغيت الأرض وأعوانهم من سجن وتعذيب وتشريد لصفوة عباد الله ودعاته المصلحين؟ إنه والله الظلم المبين، فما أتعس الظالمين وأشقاهم في الدنيا والآخرة ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥٢].

جـ- القعود والتخاذل عن نصرة المظلوم المعتدىٰ عليه بقتل أو ضرب أو نحوه مع القدرة علىٰ ذلك؛ ففي هذا إعانة للظالم علىٰ ظلمه، وقعود عن نصرة المظلوم. وقد قال الرسول ﷺ: (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا) فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلومًا،

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦١٣).

(٢) مسلم رقم (٢٥٨٢) في البر والصلة. والشاة الجلحاء: الجماء التي لا قرن لها.

أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: (تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره)[١].

وقال ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه... الحديث)[٢].

«وأوجب صور النصرة ما يكون فيه دفع أذىٰ من أمير أو ذي سلطان أو صاحب سطوة؛ لأن هؤلاء أذاهم شديد، وناصحوهم قليل، والمتملقون لهم كثير، فيضيع الحق في غمرة المجاملات والمداراة. ورسول الله ﷺ يتبرأ ممن يعينهم علىٰ ظلمهم، ولا ينصرهم علىٰ أنفسهم وأهوائهم بردعهم عن الظلم، وقد جاء هذا المعنىٰ في قوله ﷺ: (إنّه ستكون بعدي أمراء، من صدّقهم بكذبهم، وأعانهم علىٰ ظلمهم، فليس منّي ولستُ منه، وليس بوارد عليّ الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم علىٰ ظلمهم فهو منّي وأنا منه، وهو وارد عليّ الحوض)[٣].

وإذا كان منع ظلم الملوك بنصرة المستضعفين خُلُقًا يتجمل به غير المسلمين، فالمسلمون به أولىٰ وأحرىٰ، وقد وصف عمرو بن العاص

---

(١) البخاري. في الإكراه (٦٩٥٢) فتح الباري ١٢/ ٣٢٣.

(٢) البخاري: في المظالم (٢٤٤٢).

(٣) صحيح سنن النسائي (٣٩٢٣).

الروم بخصال استحسنها فيهم، فقال: (إنّ فيهم لخصالاً أربعًا: إنّهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك)[١]»[٢]. فإذا كان القعود عن نصرة المظلوم يعد ظلمًا وخذلانًا له فكيف بمن يعين الظلمة علىٰ ظلمهم ويسعىٰ بالوشاية لإلحاق الأذىٰ البدني والنفسي بالمسلم المعصوم. بل كيف بمن يعين قومه علىٰ ظلمهم عصبية؛ وقد قال الرسول ﷺ: (من نصر قومه علىٰ غير الحق فهو كالبعير الذي ردي في بئر فهو ينزع بذنبه)[٣].

د- القعود عن إنقاذ من يتعرض للهلاك كالغريق والحريق والجريح وتركه حتىٰ يموت مع إمكانية إنقاذه.

هـ- ترويج المخدرات والخمور أو الإغراء بتناولها، ومعلوم ما في ذلك من الأضرار البدنية والعقلية.

و- التسبب في إيصال الأمراض للناس، أو حرمانهم من وسائل حفظ الصحة، أو الحيلولة بينهم وبين وسائل العلاج؛ مما قد يكون سببًا في انتشار الأوبئة والأمراض.

---

(١) مسلم في الفتن (٢٨٩٨).

(٢) عن كتاب: هذه أخلاقنا ص: ٦١.

(٣) أبو داود (٥١١٧) موقوفًا، ورواه أحمد ١/٣٩٣ مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٧٥).

ويلحق بذلك الذي يتطبب في الناس بجهل أو شعوذة ونحوهما مما ينشأ عنه موت المريض أو استفحال مرضه. كما يدخل في ذلك أيضًا الطبيب المفرط في وسائل العلاج ووصف الدواء أو إجراء العمليات مما قد ينشأ عنه الموت أو إطالة مدة المرض.

ز- الإضرار بالمسلمين في منافعهم العامة كأماكن جلوسهم وطرقاتهم وظلهم ومياههم سواء بمنعهم منها أو إفسادها عليهم.

○ أمثلة لظلم الناس في أعراضهم:

أ- الاستطالة باللسان عليهم بسب أو لعن أو كلام فاحش وسخرية واستهزاء؛ قال الله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)**﴾ [الحجرات: ١١]، فسمىٰ الله سبحانه من يأتي بهذه الأعمال بالظالمين. وقال الرسول ﷺ: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده... الحديث)[1].

وأكثر ما يقع من السب والشتم وفاحش الكلام أثناء الخصومات حيث يغيب العقل ويحضر الهوىٰ والشيطان، وحينئذ يقع الظلم

---

(١) البخاري في الإيمان (١٠) من حديث ابن عمرو، ومسلم في الإيمان (٤١) من حديث جابر.

والعدوان. وقد عد الرسول ﷺ هذا من صفا ت المنافقين حيث ذكر منها: (.. وإذا خاصم فجر)[١].

ب- الغيبة والنميمة: ولا يخفىٰ ما جاء في تحريمهما من النصوص الكثيرة، كما لا تخفىٰ آثارهما السيئة في إشاعة البغضاء والأحقاد بين المسلمين، وما فيهما من تقطيع الأرحام وتفكيك الأسر. وكل هذا من الظلم الذي يتحمله من سعىٰ بالغيبة والنميمة بين المسلمين، واستحل أعراضهم التي حرمها الله عز وجل كحرمة الشهر الحرام في البلد الحرام، وأكثر ما يدفع إلىٰ ذلك الحسد الذي هو من أظلم الظلم لعباد الله تعالىٰ.

جـ- الكذب علىٰ المسلمين أو إشاعة التهم الكاذبة حولهم دون تثبت وتحرٍ، ودون عدل وإنصاف. كما يلحق بهذا المثال من الظلم إساءة الظن بالمسلمين والتجسس عليهم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا**﴾ [الحجرات: ١٢].

ويدخل في الكذب علىٰ المسلم إخلاف وعده وخيانته والغدر به.

د- قذف المسلمين والمسلمات في أعراضهم بدون بينة شرعية.

---

(١) البخاري في الإيمان (٣٤)، ومسلم في الإيمان (٥٨).

ومعلوم ما في هذا الظلم من الأذىٰ والعار للمقذوف. ولذا شدد الله عز وجل في ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤﴾ [النور: ٤]. وقد عدها الرسول ﷺ من السبع الموبقات. وسواء كان القذف بجريمة الزنا أو اللواط، وسواء كان القذف تصريحًا أو تلميحًا.

هـ- ومن ظلم الناس في أعراضهم أيضًا الإسهام في كل ما من شأنه إشاعة الفاحشة بين الناس وهتك أعراضهم. وقد سبق ذلك عند الحديث عن دور الإعلاميين والتجار في ذلك، ولكن التركيز هنا علىٰ دور الفرد في ذلك، كالذي يُحضر إلى بيته وأهله أجهزة الفساد واللهو والغناء التي تسهل الفاحشة وتثير الشهوة في النفوس، وكمن يسعىٰ لإهدائها وتسهيل الحصول عليها، وكذلك من يدل الشباب علىٰ المجلات والقصص الخليعة بل ويوفرها لهم عن طريق الإهداء أو غيره، ويدخل في ذلك من يدل غيره علىٰ أماكن الفحش والدعارة ويغريهم بالسفر إليها، وكذلك من يفسد علىٰ الناس نساءهم وبناتهم بواسطة الهاتف أو المراسلة ونحوهما.

كما يلحق بذلك من ينادي بترك الحجاب والدعوة إلىٰ الاختلاط والخلوة بالنساء وغير ذلك مما يجرئ علىٰ هتك الأعراض ونشر الفساد. كل ذلك من ظلم الناس في أعراضهم، وكل من تسبب في إشاعة

الفاحشة بين المؤمنين من قريب أو بعيد فإنه يبوء بإثمه وإثم من تسبب في غوايته وإفساده من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا؛ قال تعالىٰ: ﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)** ﴾ [العنكبوت: ١٣].

ح- ومن أشد أنواع الظلم في الأعراض الاعتداء عليها بجريمتي الزنا واللواط أو مقدماتهما ؛وذلك لما فيهما من ظلم للنفس بالوقوع في هذه الكبيرة والفاحشة العظيمة، وما فيهما كذلك من الاعتداء علىٰ الأعراض وتدنيسها، والتسبب في إلحاق الأذىٰ والعار، والمهانة والخزي للمعتدىٰ عليه وعلىٰ أهله.

ط- تبرج المرأة وإظهار زينتها للرجال يعد ظلمًا لنفسها وظلمًا لغيرها بما تقوم به من الفتنة ونشر الفساد وإشاعة الفاحشة.

○ أمثلة لظلم الناس في أموالهم:

أ- الاعتداء المباشر علىٰ أموال الناس سواء بسرقة أو إتلاف أو نهب أو بشكل غير مباشر عن طريق التحايل والخداع والخيانة، وسواء كان المسروق نقدًا أو عينًا. ومما يلحق بهذا السرقة من الأموال العامة للمسلمين كبيت المال، والصدقات، وغنائم المجاهدين؛ قال الله عز وجل: ﴿ **وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا**

يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ [آل عمران: ١٦١].

وعن عدي بن عميرة الكندي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت الرسول ﷺ يقول: (من استعملناه منكم علىٰ عمل، فكتمنا مخيطًا فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة) فقام رجل أسود من الأنصار، كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله اقبل عني عملك، قال: (وما لك؟) قال: سمعتك تقول كذا وكذا، قال: (وأنا أقوله الآن: من استعملناه علىٰ عمل فليجيء بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ وما نهي عنه انتهىٰ)[١].

* وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «كان علىٰ ثقل النبي ﷺ رجل يقال له كِركرة فمات، فقال رسول الله ﷺ: (هو في النار) فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها»[٢].

* وعن خولة الأنصارية رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق؛ فلهم النار يوم القيامة)[٣].

* وعن أبي حميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللتبية علىٰ الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم،

---

(١) مسلم في الإمارة (١٨٣٣).

(٢) البخاري في الجهاد (٣٠٧٤).

(٣) البخاري في فرض الخمس (٣١١٨).

وهذا أهدي إلي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إليَّ، أفلا جلس في بيت أبيه أو أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا!! والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة، فلا أعرفن أحدًا منكم لقي الله يحمل بعيرًا له رغاءٌ، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر) ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه فقال: (اللَّهم هل بلغت)[١].

ويدخل في هذا كل من استؤمن على مال لحفظه أو استثماره ثم خان صاحب المال أو اقتطع منه ما لا يحل له؛ سواء كان ذلك بالتحايل على صاحب المال وخداعه، أو بخيانته والكذب عليه، أو بالتفريط والتقصير. وسواء كان هذا المال من الأموال الخاصة لآحاد المسلمين، أو من الأموال العامة للمسلمين. فمن استؤمن عليها وتصرف فيها حسب هواه بغير حق فهو من الظالمين؛ قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ [النساء: ٥٨]، ومن أشد هؤلاء أمانة الوكلاء على الأموال والنظراء على الأوقاف.

ب- الاستيلاء على أموال المعصومين بالقوة والغصب، سواء كان

---

(١) البخاري في الحيل (٦٩٧٩)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٢).

ذلك المال عينًا أو نقدًا؛ كما في حال قطاع الطرق والمحاربين أو بعض الولاة الظالمين الذين يقتطعون من أموال الناس ما لا يحق لهم؛ كما في حال الضرائب والمكوس والعشور.

ومن أشهر حالات الغصب والاستيلاء بالقوة علىٰ مال المسلم المعصوم ما يحصل بين أهل العقارات والأراضي؛ حيث يأكل الرؤساء والأقوياء منهم الضعفاء، وتنتزع الأرض بعضها أو كلها أو تغير مناراتها ليزيد الظالم من أرضه وينقص من أرض جاره. وقد جاء الوعيد الشديد علىٰ من فعل ذلك فظلم عباد الله تعالىٰ واعتدىٰ علىٰ ممتلكاتهم وأموالهم. والنصوص في ذلك كثيرة منها:

* عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات (لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوىٰ محدثًا، لعن الله من غير منار الأرض)[1]. ومنار الأرض هي المراسيم التي ترسم حدود الجار مع جاره، وتغييرها يعني تقديمها أو تأخيرها بحيث يزيد المغير من حدود أرضه وينقص من حدود جاره، وهذا من ظلم الأرض، وهو كما في الحديث يعد من الكبائر التي يستحق فاعلها اللعنة.

* وعن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مرفوعًا: (من اقتطع شبرًا من

---

(١) مسلم في الأضاحي (١٩٧٨).

(٢) البخاري في المظالم (٢٤٥٢) ٥/١٠٣، مسلم في المساقاة (١٦١٠).

الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين)[٢].

وقد روي هذا الحديث من طريق آخر عن محمد بن إبراهيم أن أبا سلمة حدثه - وكان بينه وبين أناس خصومة في أرض - وأنه دخل علىٰ عائشة رضي الله عنها فذكر ذلك لها فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض، فإن رسول الله ﷺ قال: (من ظلم شبراً من الأرض طوقه من سبع أرضين)[١].

جـ- التسبب في قطع حق المسلم من مال أو غيره، إما بشهادة زور أو يمين كاذبة أو وجاهة أو حجة تكون ألحن من حجة صاحب الحق عند القاضي، مما يكون لها الأثر في حرمان صاحب الحق من حقه وإعطائه لخصمه الفاجر الظالم، والذي يكون عليه وبالاً في الدنيا والآخرة؛ فعن أبي أمامة الحارثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة) فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال: (وإن قضيباً من أراك)[٢].

د- ومن ظلم الناس في أموالهم: أخذ الرشاوىٰ من الناس ومنعهم حقوقهم أو تأخيرها حتىٰ يدفعوا للمرتشي مالاً يعجل به حقوقهم

---

(١) البخاري في المظالم ٣ / ١٠٠ ، ومسلم في المساقاة (١٦١٢) .

(٢) مسلم في الإيمان (١٣٧).

وهذا من أكل المال بالباطل والذي نهىٰ الله سبحانه عباده المؤمنين عنه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، ومما يدخل في المال الباطل والذي يعد آخذه ظالمًا مفتريًا: المعاملات الربوية أو القمار والميسر؛ كل ذلك من الأموال المحرمة الباطلة، والتي من تعامل بها وجعلها من كسبه فهو ظالم معتد، ماله سحت، وكل جسد نبت علىٰ السحت فالنار أولىٰ به. يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ عند آية النساء السابقة: «نهىٰ تبارك وتعالىٰ عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل. أي: بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية، كأنواع الربا والقمار وما جرىٰ مجرىٰ ذلك من سائر صنوف الحيل»أهـ(١).

وكل من ساهم في المعاملات المالية المحرمة - وأعظمها وأشدها ظلمًا الربا بأنواعه - فهو من الظالمين الآكلين للمال بالباطل يستوي في ذلك الفرد والمؤسسات الربوية العامة، وكل من ساهم فيها أو أسسها أو أذن لها؛ كل أولئك من المتعاونين علىٰ الإثم والعدوان.

هـ- ومما يدخل في ظلم الناس في أموالهم ويلحق بأكل المال بالباطل ما يقع بينهم من البيوع المحرمة التي يتضرر فيها أحد الطرفين المتبايعين وتنشأ علىٰ إثر ذلك الخصومات والإحن والمرافعات إلىٰ القضاة؛ وما ذلك إلا من مخالفة أمر الله عز وجل وعدم الالتزام بحدوده

---

(١) تفسير ابن كثير عند الآية: (٢٩) من سورة النساء.

في البيع والشراء. والبيوع المحرمة كثيرة ومتنوعة من أشهرها:

* الغرر والجهالة: وهو أن يتم البيع علىٰ شيء مجهول إما قدراً أو عيناً أو صفة كبيع الحصاة والملامسة والمنابذة وغيرها.

* بيع ما لا يملكه البائع أو غير مقدور علىٰ تسليمه كطير في الهواء أو سمك في ماء.

* الكذب في البيع والشراء: كأن توصف السلعة بما ليس فيها أو الكذب في قيمة شرائها بأكثر مما اشتريت به.

* النجش في البيع: وهو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها.

* بيع الرجل علىٰ بيع أخيه أو شرائه علىٰ شراء أخيه: كأن يقول البائع لمن اشترىٰ سلعة بثمن: أنا أعطيك مثلها بأقل منها أو أعطيك أطيب منها بثمنها، ومثل أن يسوم شخص من إنسان سلعة فيرضىٰ صاحبها بسومه، فيأتي آخر ويزيد عليه، وهذا خلاف المزاد العلني في الأسواق حيث لم يقر البائع أحداً من المشترين علىٰ سومه، ويلحق بذلك استئجار الرجل علىٰ استئجار أخيه.

* الغش في البيع: وهو أن يخفي البائع عيب السلعة عن المشتري؛ كمن يجعل الرديء في أسفل البضاعة والجيد في أعلاها. ومثل ذلك التدليس في البيع؛ وهو أن يظهر حسن المبيع ويزينه في الظاهر والحقيقة خلاف ذلك، كبيع المصراة من الغنم، وهي التي جمع

اللبن في ضرعها عدة أيام وباعها صاحبها علىٰ أنه لبن يوم واحد فقط.

والغش منتشر في كثير من البضائع كالسيارات والمواد الغذائية والثياب والأثاث وغيرها من السلع التي ينتفع بها الناس، كما يدخل في الغش البخس والتطفيف في المكيال والميزان. فمن فعل ذلك وما شابهه فهو غاش ظالم لنفسه وظالم لعباد الله تعالىٰ، إن لم يتحلل منهم في الدنيا فسوف يكون القصاص منه حيث توضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا. والبيوع المحرمة التي يتظالم الناس فيها كثيرة أكتفي بالأمثلة السابقة لتدل علىٰ ما سواها.

و- كما يظهر الظلم بين الناس في الأموال عند أصحاب الشركات؛ حيث يشترك شخصان أو أكثر في استثمار أموالهما أو جهديهما ثم لا يفي أحدهما للآخر بما اتفقا عليه، أو يخدع أحدهما الآخر ويتحايل علىٰ أكل نصيبه أو غير ذلك من الظلم الذي يقع بين الشركاء. وما أكثر ما نسمع من المشاكل والاختلافات بين الشركاء وبخاصة في زماننا اليوم؛ إما لعدم كتابة عقد واضح يمنع الاختلافات، وإما لعدم الوفاء بالعقود فيما بينهم.

ز- كما يظهر الظلم في الأموال في المعاملات الأخرىٰ كالإجارة والمساقاة والمزارعة وغيرها؛ وذلك بعدم التزام أحد الطرفين أو كلاهما لشروط المعاملة، أو بمخالفة بنود الاتفاق فيما بينهما أو غير ذلك مما

يكون سببًا للاختلاف وظلم أحد الطرفين للآخر.

وتفصيل ذلك في كتب الفقه التي تتحدث عن فقه المعاملات وضوابطها.

حـ- ومن الظلم في الأموال إنكار المدين ما عليه من الدين لأخيه وجحوده لذلك مع ثبوته في ذمته وعلمه بذلك؛ وفي هذا ظلم للدائن وأكل لماله بالباطل.

وقد لا ينكر المدين الدين لكنه يماطل ويسوف ولا يفي بوعوده في قضاء الدين مع أنه غني قادر، فهذا أيضًا من الظلم لقول الرسول ﷺ: (مطل الغني ظلم)[١].

أما لو كان المدين معسرًا لا يستطيع الوفاء فيجب على الدائن الغني إنظاره إلى ميسرة، ومن الظلم له إجباره على أن يستدين ليوفي دينه؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

ط- الظلم الواقع بين الناس في المظالم المشتركة التي يفرضها الوالي أو نائبه على أموال الناس ظلمًا وعدوانًا؛ وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله تعالى صفة المظالم المشتركة وكيف يقع الظلم بين الناس فيها فقال: «في المظالم المشتركة التي تطلب من الشركاء، مثل المشتركين في قرية

---

(١) البخاري في الحوالة (٢٢٨٧)، ومسلم في المساقاة (١٥٦٤).

أو مدينة إذا طلب منهم شيء يؤخذ علىٰ أموالهم أو رؤسهم مثل: الكلف السلطانية التي توضع عليهم كلهم؛ إما علىٰ عدد رؤوسهم، أو علىٰ عدد دوابهم، أو عدد أشجارهم، أو علىٰ قدر أموالهم. كما يؤخذ منهم أكثر من الزكوات الواجبة بالشرع، أو أكثر من الخراج الواجب بالشرع، أو تؤخذ منهم الكلف التي أحدثت في غير الأجناس الشرعية، كما يوضع علىٰ المتبايعين للطعام والثياب والدواب والفاكهة، وغير ذلك؛ يؤخذ منهم إذا باعوا، ويؤخذ ذلك تارة من البائعين، وتارة من المشترين... فهؤلاء المكرهون علىٰ أداء هذه الأموال عليهم لزوم العدل فيما يطلب منهم، وليس لبعضهم أن يظلم بعضًا فيما يطلب منهم، بل عليهم التزام العدل فيما يؤخذ منهم بغير حق... وحينئذ فهؤلاء المشتركون ليس لبعضهم أن يفعل ما به ظلم غيره، بل إما أن يؤدي قسطه فيكون عادلاً، وإما أن يؤدي زائدًا علىٰ قسطه، فيعين شركاءه فيما أخذ منهم فيكون محسنًا. وليس له أن يمتنع عن أداء قسطه من ذلك المال امتناعًا يؤخذ به قسطه من سائر الشركاء، فيتضاعف الظلم عليه، فإن المال إذا كان يؤخذ لا محالة، وامتنع بجاه أو رشوة أو غيرهما، كان ظلم من يؤخذ منه القسط الذي يخصه. وليس هذا بمنزلة من يدفع عن نفسه الظلم من غير ظلم لغيره، فإن هذا جائز، مثل أن يمتنع عن أداء ما يخصه فلا يؤخذ ذلك منه، ولا من غيره.

وهذا كالوظائف السلطانية التي توضع علىٰ القرىٰ مثل أن يوضع

عليهم عشرة آلاف درهم، فيطلب من له جاه بإمارة، أو مشيخة، أو رشوة، أو غير ذلك، أن لا يؤخذ منه شيء، وهم لا بد لهم من أخذ جميع المال، وإذا فعل ذلك أخذ ما يخصه من سائر الشركاء، وبامتناعه من أداء ما ينوبه، يؤخذ من سائر الشركاء؛ فإن هذا ظلم منه لشركائه؛ لأن هذا لم يدفع الظلم عن نفسه إلا بظلم شركائه، وهذا لا يجوز. وليس له أن يقول: أنا لم أظلمهم، بل ظلمهم من أخذ منهم الحصتين، لأنه يقال:

أولاً: هذا الطالب قد يكون مأموراً ممن فوقه أن يأخذ ذلك المال، فلا يسقط عن بعضهم نصيبه إلا إذا أخذه من النصيب الآخر، فيكون أمره بأن لا يأخذ، أمرًا بالظلم.

ثانيًا: أنه لو فرض أنه الآمر الأعلىٰ، فعليه أن يعدل بينهم فيما يطلبه منهم، وإن كان أصل الطلب ظلمًا، فعليه أن يعدل في هذا الظلم، ولا يظلم فيه ظلمًا ثانيًا فيبقىٰ ظلمًا مكرراً؛ فإن الواحد منهم إذا كان قسطه مائة فطولب بمائتين، كان قد ظلم ظلمًا مكرراً، بخلاف ما إذا أخذ من كل قسطه. ولأن النفوس ترضىٰ بالعدل بينها في الحرمان، وفيما يؤخذ منها ظلمًا، ولا ترضىٰ بأن يخص بعضها بالعطاء، أو الإعفاء»[1] أهـ.

ي- ما يأخذه عمال الزكاة من أصحاب الأموال من مال زائد علىٰ الزكاة كرشوة وغيرها أو تعمد أخذ النفيس من كرائم

---

(١) المظالم المشتركة: تحقيق زهير شاويش ص ٢٢ - ٢٦ باختصار.

أموالهم من الزكاة. فإن في هذا ظلم من العاملين على الزكاة لقوله ﷺ: (... فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)[١].

ك- ما ظهر في هذا الزمان من وسائل الدعاية الكاذبة المزخرفة التي تدفع من لا رغبة عنده في الشراء إلى الشراء وتبذير الأموال. وبخاصة تلك الدعايات التي يضع فيها أصحابها المسابقات والجوائز المغرية التي تعد ضربًا من ضروب الميسر وأكل أموال الناس بالباطل.

الصورة الثالثة عشرة: «ظلم الحيوان»

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ومن العوالم الذين شملتهم رحمة هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ عالم الحيوان كما شملت عالم الإنسان والجان؛ قال الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، وفي الحديث عنه ﷺ قال: (بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيها، فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه، حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له. قالوا: يا رسول الله: وإن لنا في البهائم لأجر؟ فقال: في كل ذات

---

(١) البخاري في الزكاة (١٤٥٨)، ومسلم في الإيمان (١٩).

كبد رطبة أجر)[١].

ومن أجل الرحمة بالحيوان حرمت الشريعة ظلمه والقسوة عليه وإجاعته، وأمرت بالرفق به. ومع ذلك فكم من الناس يقسو علىٰ الحيوان ويظلمه ولا يرفق به.

ومن صور الظلم للحيوان مايلي:

- ربطه أو حبسه بلا طعام ولا شراب، وتجويعه حتىٰ الموت، وهذا مما توعد عليه بالنار، ويكفينا في ذلك حديث الرسول ﷺ في صاحبة الهرة حيث قال ﷺ: (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض)[٢].

وليس بالضرورة أن يموت من الجوع بل لو قصر في النفقة عليه في الطعام والشراب حتىٰ هزل وضعف فهذا أيضاً من الظلم له.

وقد قرر الفقهاء أن النفقة علىٰ الحيوان واجبة علىٰ مالكه؛ فإن امتنع أجبر علىٰ بيعه أو الإنفاق عليه أو تسييبه إلىٰ مكان يجد فيه رزقه ومأمنه.

- القسوة عليه وإرهاقه بالعمل فوق ما يتحمل؛ فعن عبد الله بن جعفر قال: «أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسر إلي حديثاً، لا أحدث به أحداً من الناس، وكان أحب من استتر به رسول الله ﷺ

---

(١) البخاري في الشرب والمساقاة (٢٣٦٣) فتح الباري ٥ / ٥٠.

(٢) البخاري (٢٣٦٥). فتح الباري ٥ / ٥٠، مسلم في السلام (٢٢٤٢) باب تحريم قتل الهرة.

لحاجته هدف أو حائش النخل، فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأىٰ النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح سراته إلىٰ سنامه وذفراه، فسكن، فقال: (من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟) فجاء فتىٰ من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله، فقال: (أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟! فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه»[١].

- اللهو بصبر الحيوان وجعله غرضًا للرماية والعبث؛ لما فيه من تعذيب للحيوان والعبث بخلق الله تعالىٰ.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (لا تتخذوا شيئًا فيه روح غرضًا)[٢].

وعن سعيد بن جبير قال: «مر ابن عمر رضي الله عنهما بفتيان من قريش قد نصبوا طيرًا وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا. فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا. إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا»[٣].

ومن واقعنا المعاصر في تعذيب الحيوان: مصارعة الثيران، والتلهي بسقوطها وهي تتضرج بدمائها فما أشد ظلم الإنسان وقسوته.

(١) أبو داود (٢٥٤٩) انظر الأحاديث الصحيحة ١/ ٢٨.

(٢) مسلم في الصيد، باب النهي عن صبر البهائم (١٩٥٧).

(٣) مسلم في الصيد، باب النهي عن صبر البهائم (١٩٥١).

– التحريش بين الحيوانات والمهارشة بينها؛ كالذي يفعله الإنسان الظالم في مهارشة الديكة، وصراع الكباش، وتحريض الكلاب في عض بعضها البعض؛ وتستمر المصارعة حتىٰ يجهد أحدهما الآخر أو ينتهي بقتله وهو مثخن بالجروح.

ويصف لنا الدكتور أحمد شلبي لقطة ارتسمت في ذهنة خلال زيارته لأندونيسيا يقول: « . . . وقد عشت فترة من حياتي في أندونسيا، وكثيرون بها يهتمون اهتمامًا كبيراً بصراع الديكة، ولقد رأيت صاحب الديك يعيش له، يؤثره علىٰ نفسه بالنظافة والطعام ويتطلع إليه في لهفة الأم بالنسبة لابنها، ومع هذا يسلمه للصراع مع ديك آخر، وقد رأيت كلاً من أصحاب الديكة المتصارعة يربط في قدم ديكه سلاحًا حادا يساعد علىٰ الفتك بالديك الآخر، ثم ينطلق الطائران المسكينان إلىٰ حلبة الصراع التي أعدها الإنسان القاسي، ويحيط بهما النظارة للفرجة علىٰ هذا المنظر الأليم، وبعد جولة قصيرة يخر أحد الديكين صريعًا، وقد يخران معًا، يا لظلم الإنسان!!. »[١].

– تعذيب الحيوان بالضرب المبرح أو بالكي بالنار، وإذا كان هناك حاجة لوسمه بالنار لتمييزه عن الحيوانات الأخرىٰ فإن الشارع الرحيم الحكيم نهىٰ عن وسمه بالنار في وجهه.

---

(١) الحياة الاجتماعية في الفكر الإسلامي ص ٢٣٨ .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «رأىٰ رسول الله ﷺ حماراً موسوم الوجه فأنكر ذلك وقال: (فوالله لا أسمه إلا في أقصىٰ شيء من الوجه). وأمر بحماره فكوي في جاعرتيه، فهو أول من كوىٰ الجاعرتين ﷺ»(١).

- التفريق بين صغار الحيوان وأمهاتهم؛ إذا كان الصغير لا يستغني عن أمه في طعامه وشرابه. ويلحق بذلك قتل الحيوان الذي له صغار لا يستغنون عنه كأفراخ الطيور التي لا تطعم إلا بمناقير الأمهات. بل إن من رحمة الإسلام بالحيوان أن نهىٰ أن يفجع الحيوان في صغاره ويفرق بينهم. ومن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمر فجعلت تَفْرُشُ، فجاء النبي ﷺ فقال: (من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها). ورأىٰ قرية من نمل قد حرقناها، فقال: من حرق هذه؟ قلنا: نحن فقال: (إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار)(٢).

---

(١) مسلم (٢١١٨). ك. اللباس باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه.

(٢) أبو داود (٢٦٧٥) ك الجهاد. انظر السلسلة الصحيحة للألباني (١/ ٣٣).

- عدم الرفق بالحيوان حال ذبحه، وتعذيبه بالذبح القاسي؛ كأن يذبح بسكين غير حادة أو يحد سكينه أمام الحيوان وقد ألقاه علىٰ جنبه وهو ينظر إليه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ علىٰ رجل واضع رجله علىٰ صفحة شاة، وهو يحد شفرته، وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال: (أفلا قبل هذا!؟ أتريد أن تميتها مرتين)[1].

وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)[2].

- التسلي والتلهي بصيد الحيوان دون حاجة إلىٰ أكله، وهذا يكثر عند المولعين بالصيد؛ حيث يقوم بعضهم بصيد المئات من العصافير والعشرات من الضببة ثم لا يأكلها بل يهملها، أو يأكل بعضها ويلقي ببعضها في النفايات، وما كان منها حيًا فيترك للصبيان يعبثون به حتىٰ يموت. ولا شك أن في هذا الصنيع ظلمًا للحيوان فوق ما فيه من العبث والإسراف الذي نهىٰ الله عز وجل عنه بقوله: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا**

---

(١) الطبراني في الكبير ١١/ ٣٣٢ (١١٩١٦) وأورده الألباني في الصحيحة ١/ ٣٣.

(٢) مسلم (١٩٥٥) كتاب الصيد والذبائح.

وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وبعد هذه الجولة السريعة في بعض صور المظالم التي تكون بين عباد الله تعالىٰ أود الإشارة إلىٰ أن هذه الصور المذكورة آنفًا إن هي إلا أمثلة لأشهر ما يكون فيه الظلم بين العباد. وقد بقيت صور كثيرة تركتها مراعاة للاختصار. ولعل فيما ذُكر دلالة علىٰ ما لم يذكر.

أسأل الله عز وجل أن يجنبنا الظلم بأنواعه كلها وأن يخرجنا من الدنيا سالمين من حقوق العباد خفيفين من تبعاتهم.

ويبقىٰ في هذا المبحث سؤال مهم لا بد من الإجابة عليه ليعم النفع والفائدة، وليكو ن مخرجًا لمن أراد أن يتحلل من تبعات العباد قبل يوم الفصل والحساب. وهذا السؤال هو:

هل من سبيل إلى التوبة من حقوق العباد؟

إن التوبة من الذنوب التي بين العبد وربه ولاتتعلق بحقوق الخلق أمرها سهل، وهي أهون بكثير من تلك التي تتعلق بحقوق العباد؛ وذلك لأن حق الله عز وجل مبني علىٰ المسامحة، فإذا صدق العبد في توبته وحقق شروطها فالله عز وجل أفرح بتوبة عبده من ذلك الرجل الذي فقد راحلته وعليها زاده وشرابه حتىٰ يئس وأيقن بالموت ثم وجدها، بينما حق المخلوق مبني علىٰ المشاحة وعدم المسامحة؛ فالتوبة منه أشق وأصعب، لكنها سهلة على من وفقه الله عز وجل لتدارك نفسه في الحياة الدنيا فزهد فيها ورزقه الله تعالىٰ العزيمة القوية التي

ينتصر بها علىٰ حظوظ نفسه وبالتالي بادر فرد الحقوق إلىٰ أهلها وتحلل من أصحابها قبل مباغتة الأجل، ومن المعلوم أن التوبة من ظلم العباد لابد فيها من شروط أربعة: الثلاثة الأولىٰ منها توبة إلىٰ الله عز وجل من مخالفته فيما نهىٰ عنه من الظلم وهي:

١- الندم علىٰ ما قام به من ظلم واعتداء علىٰ حقوق الناس.

٢- التعهد بعدم العودة إليه.

٣- الإقلاع السريع عن هذا الظلم وعدم الاستمرار فيه.

٤- رد الحقوق والمظالم قديمها وحديثها إلىٰ أهلها والتحلل منهم.

هذه مجمل الشروط المذكورة في كتب أهل العلم عن التوبة وأحكامها، والشرط الرابع منها هو الذي يحتاج إلىٰ همة وعزيمة قوية للانتصار علىٰ النفس وحظوظها حتىٰ ترد الحقوق إلىٰ أهلها. ونظرًا لأهميته وخطورة شأنه فلابد فيه من مزيد إيضاح وتفصيل:

لقد مر بنا في الصور السابقة لأنواع الظلم أمثلة كثيرة من الظلم والعدوان كلها ترجع في جملتها إلىٰ خمسة أنواع كبيرة:

١- ظلم الناس في دينهم. ٢- ظلمهم في أبدانهم

٣- ظلمهم في عقولهم. ٤- ظلمهم في أعراضهم .

٥- ظلمهم في أموالهم.

هذه الضروريات الخمسة التي جاءت الشريعة للحفاظ عليها وحمياتها من المعتدين والمفسدين هي التي يقع فيها الظلم بين الناس.

ولذلك فلابد في الحديث عن التوبة من حقوق العباد أن نتعرض لبعض هذه الضروريات وكيف تكون التوبة من ظلم العباد فيها وذلك فيما يلي:

١- التوبة من ظلم الناس في دينهم:

من كان له دور في إضلال الناس في عقيدتهم أو أخلاقهم فإن من توبته أن يقلع عن ضلاله وإضلاله، وأن يندم علىٰ فعله وإفساده للناس، ولكن توبته لا تتم حتىٰ يبذل وسعه لإصلاح ما أفسد، وإعلان توبته للناس وأن ما كان عليه وما كان يقوله لهم إنما هو باطل وضلال، ويعلن براءته منه ثم يبين الحق للناس ويدعوهم إليه. قال الله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾** [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]، فبين سبحانه في هذه الآية أن من شروط توبة الكاتم للحق والداعي إلىٰ الضلال الإصلاح وبيان الحق للناس.

ولا شك أن هذا من أشق الأمور علىٰ النفس ولكنه يسير علىٰ من أراد لنفسه النجاة من تبعات العباد وأوزارهم يوم القيامة. وأهل السير

يذكرون في هذا المقام توبة أبي الحسن الأشعري من بدعته التي كان عليها واعتنقها خلق كثير فما كان منه إلا أن تبرأ مما كان عليه وبين للناس أن الحق هو ما كان عليه أئمة السلف وعلىٰ رأسهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ.

قال صاحب وفيات الأعيان: «وكان أبو الحسن الأشعري أولاً معتزليًّا، ثم تاب من القول بالعَدْل[1] وخلق القرآن في المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ورقىٰ كرسيًّا ونادىٰ بأعلىٰ صوته: من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرِّفه بنفسي، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا تراه الأبصار وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع، معتقد للرد علىٰ المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم»[2] أهـ.

وتحدث عن نفسه وعن عقيدته في كتابه الإبانة فقال: «قولنا الذي نقول وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وبسنة نبينا ﷺ، وما روىٰ عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث. ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضَّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولمن خالف

---

(١) العدل عند المعتزلة معناه: أن الله لا يخلق أفعال العباد، وهو أحد أصولهم الخمسة.

(٢) وفيات الأعيان ٣ / ٢٨٥.

قوله مجانبون؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ورفع به الضلال ووضع به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين فرحمة الله عليه من إمام مقدم وخليل معظم مفخم وعلىٰ جميع أئمة المسلمين»[١] أهـ.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة: بمحض اتباع السنة، ولا يكتفى منهم بذلك أيضًا حتىٰ يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة؛ إذ التوبة من ذنب هي بفعل ضده. ولهذا شرط الله تعالىٰ في توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدىٰ: البيان. لأن ذنبهم لما كان بالكتمان، كانت توبتهم منه بالبيان -... ثم ذكر آية البقرة... وقال بعدها: وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم؛ لأن ذاك كتم الحق، وهذا كتمه ودعا إلىٰ خلافه. فكل مبتدع كاتم ولا ينعكس»[٢] أهـ.

والحاصل أن من أضل الناس بكلمة مقروءة أو مسموعة أو مرئية في كتاب أو مجلة أو إذاعة أو تلفاز أو غير ذلك من وسائل النشر والإعلام؛ فإن من شروط توبته من ظلم العباد وأوزارهم أن يقلع عن فعله، وأن يعلن براءته مما كتبه أو قاله من الضلال، وأن يبين ما يضاده من الحق والإصلاح.

---

(١) الإبانة لأبي الحسن الأشعري: ص٨.

(٢) مدارج السالكين ١/٣٦٣.

فإن لم يفعل فليعد للسؤال جوابًا، وليستعد لحمل أوزاره، وأوزار الذين أضلهم وأفسد عليهم دينهم وأخلاقهم، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا.

٢- التوبة من ظلم الناس في أبدانهم وأنفسهم:

وظلم الناس في أبدانهم وأنفسهم يكون بالاعتداء علىٰ نفس معصومة بالقتل أو الضرب أو السجن والتضييق.

والتوبة مما هو دون القتل أمر ممكن لإمكانية القصاص من الجاني، وإمكانية التحلل من المجني عليه وإرضائه بالقصاص أو غيره. فإذا تاب الجاني من ذنبه، واستغفر ربه، وسلم نفسه، ورضىٰ المجني عليه بالقصاص أو ما دونه أو عفا عن الجاني فإن التوبة حينئذ قد كملت شروطها وبرئت ذمة الظالم من ظلمه لأخيه.

أما جريمة القتل فالتوبة فيها شاقة لموت المقتول حيث فاتت عليه نفسه ولم يستدرك ظلامته. ولكن لو أن القاتل سلم نفسه، فقتل قصاصًا هل يبقىٰ عليه يوم القيامة للمقتول حق؟ يجيب علىٰ ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ فيقول: «قالت طائفة: لا يبقىٰ عليه شيء؛ لأن القصاص حده. والحدود كفارة لأهلها. وقد استوفىٰ ورثة المقتول حق موروثهم، وهم قائمون مقامه في ذلك؛ فكأنه قد استوفاه بنفسه؛ إذا لا فرق بين استيفاء الرجل حقه بنفسه أو بنائبه ووكيله...

... وقالت طائفة: المقتول قد ظُلم. وفاتت عليه نفسه. ولم يستدرك ظلامته. والوارث إنما أدرك ثأر نفسه، وشفاء غيظه. وأي منفعة حصلت للمقتول بذلك؟ وأي ظلامة استوفاها من القاتل؟

قالوا: فالحقوق في القتل ثلاثة: حق لله، وحق للمقتول، وحق للوارث. فحق الله: لا يزول إلا بالتوبة. وحق الوارث قد استوفاه بالقتل. وهو مخير بين ثلاثة أشياء: بين القصاص، والعفو مجانًا، أو إلىٰ مال. فلو أحله، أو أخذ منه مالاً لم يسقط حق المقتول بذلك. فكذلك إذا اقتص منه. لأنه أحد الطرق الثلاثة في استيفاء حقه. فكيف يسقط حق المقتول بواحد منها دون الآخرين؟

قالوا: ولو قال القتيل: لا تقتلوه لأطالبه بحقي يوم القيامة. فقتلوه، أكان يسقط حقه ولم يسقطه؟ فإن قلتم: يسقط. فباطل. لأنه لم يرض بإسقاطه. وإن قلتم: لا يسقط. فكيف تسقطونه إذا اقتص منه، مع عدم العلم برضا المقتول بإسقاط حقه.

وهذه حجج كما ترىٰ في القوة، لا تندفع إلا بأقوىٰ منها أو بأمثالها.

فالصواب – والله أعلم – أن يقال: إذا تاب القاتل من حق الله، وسلم نفسه طوعًا إلىٰ الوارث، ليستوفي منه حق موروثه: سقط عنه الحقان. ويبقىٰ حق الموروث لا يضيعه الله. ويجعل من تمام مغفرته

للقاتل: تعويض المقتول؛ لأن مصيبته لم تنجبرْ بقتل قاتله. والتوبة النصوح تهدم ما قبلها. فيعوض هذا عن مظلمته، ولا يعاقب هذا لكمال توبته. وصار هذا كالكافر المحارب لله ولرسوله إذا قتل مسلمًا في الصف. ثم أسلم وحسن إسلامه. فإن الله سبحانه يعوض هذا الشهيد المقتول، ويغفر للكافر بإسلامه؛ ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلمًا؛ فإن هدم التوبة لما قبلها كهدم الإسلام لما قبله.

وعلىٰ هذا إذا سلم نفسه وانقاد، فعفا عنه الولي، وتاب القاتل توبة نصوحًا. فالله تعالىٰ يقبل توبته، ويعوض المقتول.

فهذا الذي يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده. والحكم بعد ذلك لله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ [النمل: ٧٨]» أ هـ[١].

وبهذا التفصيل يظهر لنا عظم جرم الاعتداء علىٰ نفس معصومة بالقتل، وأن القصاص من الظالم ينتظره يوم القيامة حتىٰ ولو اقتص منه في الدنيا علىٰ أحد القولين، والقصاص يوم القيامة إنما يكون بأخذ الحسنات، وقد لا تفي الحسنات بالحق فيحمل القاتل من سيئات المقتول ما يكون سببًا في دخوله النار عياذًا بالله تعالىٰ.

---

(١) مدارج السالكين ١/٣٩٨، ٣٩٩.

أما ما دون القتل فإن حصل القصاص من الجاني أو عفا عنه المجني عليه وندم الجاني علىٰ فعله وتعهد بعدم العودة إلىٰ ذلك فالتوبة حينئذ كاملة ومقبولة إن شاء الله تعالىٰ. أما إذا لم يسلم الجاني نفسه ولم يقتص منه وتمنع من ذلك بجاه أو غيره فإن ذمته مشغولة والقصاص أمامه يوم القيامة، ويلحق بذلك من ظلم مسلمًا بسجن أو تعذيب أو كان سببًا في ذلك ثم لم يتحلل من ظلمه فإن الحساب أمامه؛ قال تعالىٰ: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ** ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]. ففي هذه الآية تهديد للظالم وتسلية للمظلوم.

٣- التوبة من ظلم الناس في أعراضهم:

والتوبة من هذا الظلم تختلف حسب الصورة التي يظهر فيها:

- فإن كان الظلم بالنيل من أعراض الناس بالغيبة والنميمة والكذب والهمز واللمز ونحوها فإن التوبة لا تصح إلا بالتحلل منهم وطلب المسامحة منهم ما داموا علىٰ قيد الحياة، فإن أظهروا المسامحة وأباحوا من وقع في أعراضهم فقد برئت ذمته بشرط الندم وعدم الإصرار.

أما إذا تعذر التحلل منهم إما لموت أو خوف المفسدة التي تنجم عن إعلامهم بغيبتهم أو النميمة عليهم فإن أمر التوبة والحالة هذه

تكون صعبة، وإن كان هناك من أهل العلم من يرىٰ أن الذمة تبرأ بالدعاء لهم والاستغفار وأن يثني عليهم في المواطن التي اغتابهم فيها. ومع ذلك فينبغي لمن ظلم العباد بالنيل من أعراضهم ولم يتمكن من التحلل منهم أن يكثر من الحسنات والقربات ليتمكن من الوفاء منها لهم يوم لا يكون الوفاء بدينار ولا بدرهم.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: «من أحس بتقصير في قوله أو عمله أوحاله أو رزقه أو تقلب قلب فعليه بالتوحيد والاستغفار ففيهما الشفاء إذا كانا بصدق وإخلاص، وكذلك إذا وجد تقصير في حقوق القرابة والأهل والأولاد والجيران والإخوان فعليه بالدعاء لهم والاستغفار» أهـ[١].

- وإن كان ظلمه لهم بالقذف والتهم الباطلة في العرض فعليه التوبة والإصلاح كما قال تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ۝٤ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ۝٥﴾ [النور: ٤، ٥].

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في شروط توبة القاذف: «... ولذلك كان الصحيح من القولين: أن توبة القاذف: إكذابه نفسه

---

(١) مجموع الفتاوىٰ: ١١ /٦٩٨.

لأنه ضد الذنب الذي ارتكبه، وهتك به عرض المسلم المحصن، فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه، لينتفي عن المقذوف العار الذي ألحقه به بالقذف. وهو مقصود التوبة. وأما من قال: إن توبته أن يقول: «أستغفر الله» من القذف، ويعترف بتحريمه: فقول ضعيف، لأن هذا لا مصلحة فيه للمقذوف. ولا يحصل له به براءة عرضه مما قذفه به. فلا يحصل به مقصود التوبة من هذا الذنب.

فإن فيه حقين: حقًا لله، وهو تحريم القذف، فتوبته منه: باستغفاره واعترافه بتحريم القذف وندمه عليه وعزمه علىٰ أن لا يعود.

وحقًا للعبد وهو إلحاق العار به فتوبته منه، بتكذيبه نفسه فالتوبة من هذا الذنب بمجموع الأمرين»[1] أهـ.

- وإن كان الظلم للناس في أعراضهم بإشاعة الفاحشة بينهم والإسهام في ذلك بكلمة أو كتاب أو فيلم أو غير ذلك من الوسائل التي تثير الشهوات وتسهل اختلاط الجنسين وتهون أمر الفاحشة أو مقدماتها، وقد سبق ذكر بعض الصور عند الحديث عن ظلم الإعلاميين للأمة. فتوبة هؤلاء إن كانوا صادقين لا تحصل إلا بندمهم علىٰ أفعالهم واعترافهم بتحريمها، وإقلاعهم السريع عنها، وعزمهم علىٰ أن لا يعودوا. هذا ما يتعلق بحق الله عز وجل في توبتهم من

---

(١) مدارج السالكين ١ / ٣٦٤.

ذنوبهم، ويبقىٰ حق العباد الذين أضلوهم وأفسدوا عليهم أخلاقهم وأعراضهم فلا تبرأ الذمة منها حتىٰ يبذلوا الجهد المستطاع في إصلاح ما أفسدوا، وبتبرأوا من أفعالهم، ويبينوا للناس أنها باطلة وفاسدة، وأن لا يفتروا عن الإصلاح وبذل النصح للأمة كما قال تعالىٰ: ﴿ **إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿١١﴾ ﴾ [النمل: ١١]، وقوله سبحانه: ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٠]، وقوله عز وجل: ﴿ **فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٣٩﴾ ﴾ [المائدة: ٣٩].

٤- التوبة من ظلم الناس في أموالهم:

الأصل في التوبة من حقوق الناس المالية أن ترد الحقوق إلىٰ أهلها في الحياة الدنيا سواء ما أخذ بطريق السرقة أو النهب والاحتيال أو الغش والتدليس أو الغصب والغلول والرشوة.. إلخ، فإذا ندم الظالم لحقوق الناس علىٰ ظلمه وعقد العزم علىٰ أن لا يعود وأوقف ظلمه وأقلع عنه ثم رد الأموال المسروقة أو المغصوبة إلىٰ أهلها فقد برئت ذمته وقبلت توبته إن شاء الله تعالىٰ. ولكن ماذا يفعل من غصب أموالاً أو أخذها بغير حقها ثم ندم وتاب، لكنه تعذر عليه ردها إلىٰ أصحابها أو إلىٰ ورثتهم لجهله بهم أو لموتهم وانقراضهم أو لغير ذلك ؟ ويجيب علىٰ ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ فيقول: «اختلف في توبة مثل هذا: فقالت طائفة: لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلىٰ أربابها.

فإذا كان ذلك قد تعذر عليه، فقد تعذرت عليه التوبة، والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات والسيئات ليس إلا.

قالوا: فإن هذا حق لآدمي لم يصل إليه. والله سبحانه لا يترك من حقوق عباده شيئاً. بل يستوفيها لبعضهم من بعض، ولا يجاوزه ظلم ظالم. فلا بد أن يأخذ للمظلوم حقه من ظالمه، ولو لطمة، ولو كلمة، ولو رمية بحجر.

قالوا: وأقرب ما لهذا في تدارك الفارط منه: أن يكثر من الحسنات، ليتمكن من الوفاء منها يوم لا يكون الوفاء بدينار ولا بدرهم، فيتجر تجارة يمكنه الوفاء منها. ومن أنفع ما له: الصبر علىٰ ظلم غيره له وأذاه، وغيبته وقذفه. فلا يستوفي حقه في الدنيا. ولا يقابله ليحيل خصمه عليه إذا أفلس من حسناته، فإنه كما يؤخذ منه ما عليه يستوفي أيضاً ما له. وقد يتساويان. وقد يزيد أحدهما عن الآخر.

ثم اختلف هؤلاء في حكم ما بيده من الأموال.

فقالت طائفة: يوقف أمرها. ولا يتصرف فيها البتة.

وقالت طائفة: يدفعها إلىٰ الإمام أو نائبه؛ لأنه وكيل أربابها. فيحفظها لهم. ويكون حكمها حكم الأموال الضائعة.

وقالت طائفة أخرىٰ: بل باب التوب مفتوح لهذا. ولم يغلقه الله عنه، ولا عن مذنب. وتوبته: أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها. فإذا كان يوم استيفاء الحقوق، كان لهم الخيار، بين أن يجيزوا ما فعل، وتكون أجورها لهم، وبين أن لا يجيزوا، ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم. ويكون ثواب تلك الصدقة له. إذ لا يبطل الله سبحانه ثوابه، ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوض. فيغرمه إياها. ويجعل أجرها لهم، وقد غرم من حسناته بقدرها)»[١] اهـ.

* * *

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٨٧. ٣٨٨.

القسم الثالث

ظلم النفس بمعاص دون الشرك وليس للعباد فيها حق

وهذا النوع من الظلم هو ما يقع فيه العبد من الذنوب التي ثبت بالدليل الشرعي أنها مخالفة لما أمر الله تعالىٰ به أو ما نهىٰ عنه، فيما دون الشرك الأكبر وفيما بين العبد وربه وليس فيها للخلق تعلق. ويعد هذا النوع من الظلم أهون الأنواع السابقة فيما لو مات منها بلا توبة؛ حيث إن الظلم الأعظم الذي هو الشرك بالله لا يغفر إلا بتوبة قبل الموت، ومظالم العبد لابد في التوبة منها أن ترد الحقوق إلىٰ أهلها قبل الموت، بينما هذا النوع من الظلم إن كان من الصغائر فإنها تكفرها الصلاة والصيام والمصائب ما اجتنبت الكبائر.

أما الكبائر فصاحبها تحت المشيئة، إن شاء الله تعالىٰ عذبه وأدخله الجنة بعد ذلك، وإن شاء غفر له ودخل الجنة بلا عذاب. وهذا لا يعني الاستهانة بهذا النوع من ظلم النفس؛ فصاحبه علىٰ خطر لو مات بلا توبة منه؛ فما يدري العاصي هل يغفر الله له ذنبه أو يدخله النار مع الداخلين، وقد تجتمع علىٰ قلبه حتىٰ تؤدي به إلىٰ سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى.

ومعصية الله عز وجل إما إن تكون بترك واجب أو فعل محرم، وهي

تنقسم إلىٰ: صغائر وكبائر؛ كما قرر ذلك أهل العلم، ونقل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ إجماعهم علىٰ ذلك فقال:

«و «الذنوب» تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر؛ بنص القرآن والسنة، وإجماع السلف وبالاعتبار؛ قال الله تعالىٰ: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [النساء: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ [النجم: ٣٢].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلىٰ الجمعة، ورمضان إلىٰ رمضان مكفراتٌ لما بينهن، إذا اجتُنِبت الكبائر)[١]» أهـ[٢].

ولكن ما هو الفرق بين الصغائر والكبائر؟

نقل الدكتور محمد الوهيبي كلام أهل العلم في ذلك في كتابه: (نواقض الإيمان الاعتقادية) وانتهىٰ إلىٰ اختيار القول السادس فقال حفظه الله تعالىٰ: «ومن أشهر التعريفات ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والحسن البصري وغيرهم: أن الكبائر كل ذنب ختمه الله تعالىٰ بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، وقال ابن

---

(١) مسلم. ك الطهارة. باب فضل الصلوات الخمس والجمعة إلىٰ الجمعة ١/ ٢٠٩.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٣١٥.

الصلاح: لها أمارات منها: إيجاب الحد، ومنها الإيعاد عليها بالعذاب بالنار ونحوها في الكتاب أو السنة، ومنها وصف فاعلها بالفسق نصًا، ومنها اللعن، وقال الماوردي من الشافعية: الكبيرة ما وجبت فيه الحدود أو توجه إليها الوعيد، وورد مثل ذلك عن الإمام أحمد فيما نقله القاضي أبو يعلىٰ ورجحه القرطبي وابن تيمية والذهبي وغيرهم.

ولعل هذا التعريف أشمل التعاريف وأقربها للصواب لعدة اعتبارات ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية من أهمها:

١- أنه يشمل كل ما ثبت في النصوص أنه كبيرة كالشرك، والقتل، والزنا، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وغير ذلك من الكبائر التي فيها عقوبات مقدرة، ويشمل أيضًا ما ورد فيه الوعيد كالفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا وعقوق الوالدين واليمين الغموس وشهادة الزور، ويشمل كل ذنب توعد صاحبه بأنه لا يدخل الجنة، وما قيل فيه: من فعله فليس منا، وما ورد من نفي الإيمان عن من ارتكبه كقوله ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن..) إلخ؛ فكل من نفىٰ الله عنه الإيمان والجنة أو كونه من المؤمنين فهو من أهل الكبائر، لأن هذا النفي لا يكون لترك مستحب، ولا لفعل صغيرة، بل لفعل كبيرة.

٢- أنه مأثور عن السلف من الصحابة والتابعين بخلاف غيره.

٣– أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الصغائر والكبائر بخلاف غيره.

٤– أن الله تعالىٰ قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١] فقد وعد مجتنب الكبائر بتكفير السيئات واستحقاق الوعد الكريم، وكل من وعد بغضب الله أو لعنته أو نار أو حرمان جنته أو ما يقتضي ذلك، فإنه خارج عن هذا الوعد فلا يكون من مجتنبي الكبائر، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد، لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر. إذا لو كان كذلك لم يكن له ذنب يستحق أن يعاقب عليه، والمستحق أن يقام عليه الحد له ذنب يستحق العقوبة عليه» أهـ[1].

من هذا التعريف الشامل للكبائر يتضح معنىٰ الصغائر أيضًا وهي ما سوىٰ الكبائر. كما يظهر لنا من الفرق أن ظلم العباد الذي سبق بحثه فيما سبق يشمله أيضًا هذا المعنىٰ حيث أن في ظلم العباد أيضًا صغائر وكبائر. وأكبر الكبائر الشرك بالله عز وجل.

ولكن لما كان الكلام هنا عن ظلم النفس بما دون الشرك فيما بينها وبين الله عز وجل فسنقتصر على ذكر بعض الأمثلة لهذا النوع من الظلم حيث قد سبق الكلام عن صور الظلم للأنواع الأخرىٰ. ولكن

(١) نواقض الإيمان الاعتقادية ٢/ ١١١، ١١٢.

قبل ذكر هذه الأمثلة أنقل كلامًا نفيسًا للإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ ينبه فيه علىٰ معنىٰ لطيف في الكبيرة والصغيرة يقول رحمه الله تعالىٰ: «وهاهنا أمر ينبغي التفطن له؛ وهو أن «الكبيرة» قد يقترن بها – من الحياء، والخوف، والاستعظام لها – ما يلحقها بالصغائر. وقد يقترن بالصغيرة – من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها – ما يلحقها بالكبائر. بل يجعلها في أعلىٰ رتبها.

وهذا أمر مرجعه إلىٰ ما يقوم بالقلب. وهو قدر زائد علىٰ مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره.

وأيضًا فإنه يُعفىٰ للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، ما لا يعفىٰ لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره»[١] أهـ.

والذنوب التي يظلم العبد فيها نفسه فيما بينه وبين ربه عز وجل كثيرة ومتنوعة، فما كان منها صغائر فإن الله عز وجل يكفرها بالصلاة والصيام والحج إذا اجتنبت الكبائر كما في قوله تعالىٰ: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

أما الكبائر فلا بد فيها من التوبة الصادقة قبل الموت أو يكون صاحبها تحت المشيئة يوم القيامة؛ وسأقتصر فيما يلي علىٰ بعض

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٢٨.

الأمثلة للمعاصي الكبيرة التي يظلم العبد فيها نفسه فيما بينه وبين ربه لتدل علىٰ ما سواها:

١- معصية الرياء: وهي إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها. قال ﷺ: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال)؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله. قال: (الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرىٰ من نظر رجل)[(١)]. وكم يظلم العبد نفسه بهذه المعصية بما يضيع عليه من الأقوال والأعمال الصالحة التي لا يريد منها وجه الله عز وجل، فتكون هباءً منثوراً يوم يكون في أشد الحاجة يوم القيامة إلىٰ حسنة واحدة. بل إن صاحبه معرض لسخط الله عز وجل وعدم مغفرته تعالىٰ لهذا الذنب العظيم لو مات صاحبه منه بلا توبة علىٰ قول بعض العلماء. ويلحق بذلك العجب والكبر وتزكية النفس.

- التلبس ببدعة غير مكفرة: إذ أن البدعة المكفرة تلتحق بالظلم الأعظم، أما ما دون الكفر فتلتحق بالمخالفات التي يظلم فيها العبد نفسه بتركه للسنة وركوبه البدعة التي يعرض فيها نفسه لرد عمله وعدم قبول الله تعالىٰ له، لقول الرسول ﷺ: (كل عمل ليس عليه

(١) رواه أحمد (٣ / ٣٠)، وابن ماجة في الزهد (٤٢٠٤)، قال الشيخ شاكر في تعليقه علىٰ المسند (١١٢٧٢) إسناده حسن.

أمرنا فهو رد)[١] .

وقد يكون صاحب هذه البدعة من الداعين إليها والناشرين لها بين الناس فيصبح بذلك ظالمًا لنفسه وظالمًا لعباد الله تعالىٰ بما يفسده في أديانهم من البدعة والضلالة.

ومن أشهر البدع المنتشرة في هذا الزمان: بدع الخوارج، والمرجئة والمعتزلة العقلانيين، والأشاعرة، وبدع المتصوفة التي لم تصل إلىٰ حد الكفر. فهؤلاء كلهم قد ظلموا أنفسهم بتركهم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، وظلموا أنفسهم بتعريض أعمالهم للرد وعدم القبول، وإن هم دعوا إلىٰ بدعهم فقد ظلموا العباد وتحملوا أوزارهم من غير أن ينقص من أوزار من اتبعهم شيء.

٣- أكل أو شرب ما حرم الله عز وجل من المطعومات والمشروبات؛ كأكل الميتة وما في حكمها، أو أكل ما حرم الله عز وجل أكله من السباع والطيور، أو شرب ما حرم الله تعالىٰ شربه من المسكرات والمخدرات أو النجاسات وغيرها؛ كل ذلك من معصية الله عز وجل التي يظلم فيها العبد نفسه ويعرضها لسخط الله عز وجل ومقته. وقد تؤدي بعض هذه المخالفات إلىٰ الاعتداء علىٰ الناس في أعراضهم أو أبدانهم أو

---

(١) مسلم في الأقضية (١٨ تحت ١٧١٨)، وعلّقه البخاري في البيوع والاعتصام.

أموالهم كما يفعله شارب الخمر – عند ذهاب عقله – من الممارسات الصبيانية والجنونية. وحينئذ يجمع بين ظلمه لنفسه وظلمه لعباد الله تعالىٰ بالعدوان عليهم.

٤– ترك ما أوجب الله عز وجل علىٰ العبد من الواجبات العينية كأداء الصلاة في جماعة، وصيام شهر رمضان، والزكاة، والحج علىٰ خلاف بين العلماء في كفر تارك أحد المباني الأربعة من مباني الإسلام تكاسلاً.

٥– سماع الغناء والموسيقىٰ والمعازف، ورؤية ما حرم الله عز جل من صور النساء في أفلام المجون والخلاعة.

٦– النياحة علىٰ الميت ولطم الخدود وشق الجيوب وفعل ما يدل علىٰ الجزع والتسخط لقضاء الله وقدره، وهذا يكثر عند النساء ضعيفات العقل والدين وهن يظلمن أنفسهن أولاً بوقوعهن في ما نهىٰ الرسول ﷺ عنه وثانيًا بتفويت أجر المصيبة علىٰ أنفسهن بعدم صبرهن فيجمعن بين مصيبتين.

٧– لبس الذهب والحرير للرجال، وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال.

٨– تصوير ذوات الأرواح أو اقتنائها من غير حاجة. وتشتد الحرمة بتعليقها وتعظيمها.

وأكتفي بهذه الأمثلة السريعة من المخالفات التي يعد مرتكبها ظالمًا لنفسه ومعرضًا إياها لسخط الله تعالىٰ لتدل علىٰ ما سواها من المخالفات، ولما كان مثل هذه المخالفات ليس فيها ظلم لعباد الله تعالىٰ، فإن مرتكبها لو مات منها بلا توبة فإنه تحت المشيئة: إن شاء الله تعالىٰ غفر له وهيأ له الأسباب[1] التي تزول بها عقوبة الذنب عن صاحبه، وإن شاء عذبه عذابًا يطهره به ويطيبه لدخول الجنة؛ لأن الجنة لا يدخلها إلا طيبًا؛ قال تعالىٰ: ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر: ٧٣].

أما لو تاب صاحب هذه المخالفات توبة صادقة قبل موته فإن الله عز وجل غفور رحيم وهو الذي يغفر الذنوب جميعًا.

مسألة:

بعد أن تبين لنا أقسام الظلم الثلاثة، وبعد ذكر بعض الأمثلة والصور لكل قسم يجدر التنبيه هنا إلىٰ أن بعض الذنوب لا تختص بقسم واحد من أقسام الظلم وإنما قد تنطوي علىٰ نوعين أو ثلاثة منه؛ كمن يجمع في ذنب واحد بين الشرك بالله سبحانه والذي هو أعظم الظلم وبين ظلمه للناس وظلمه لنفسه، أو بين ظلمه للناس وظلمه لنفسه؛ وذلك كله في ذنب واحد كما يشير إلىٰ ذلك شيخ الإسلام

---

(١) ارجع إلىٰ ص ٤٤ – ٤٦ لمعرفة هذه الأسباب فهي مذكورة هناك.

رحمه الله تعالىٰ بقوله: «ولهذا كانت الذنوب ثلاثة أقسام: أحدها: ما فيه ظلم للناس كالظلم بأخذ الأموال ومنع الحقوق والحسد ونحو ذلك.

والثاني: ما فيه ظلم للنفس فقط: كشرب الخمر والزنا إذا لم يتعد ضررهما.

والثالث: ما يجتمع فيه الأمران: مثل أن يأخذ المتولي أموال الناس يزني بها، ويشرب بها الخمر»[1] أهـ.

ويتحدث الإمام بن القيم رحمه الله تعالىٰ عن حرمة مسألة الناس من غيرحاجة فيقول: «والمسألة في الأصل حرام، وإنما أبيحت للحاجة والضرورة؛ لأنه ظلم في حق الربوبية، وظلم في حق المسؤول، وظلم في حق السائل، **أما الأول**: فلأنه بذل سؤاله وفقره وذله، واستعطاءه لغير الله، وذلك نوع عبودية، فوضع المسألة في غير موضعها، وأنزلها بغير أهلها، وظلم توحيده وإخلاصه وفقره إلىٰ الله، وتوكله عليه، ورضاه بقسمه، واستغنىٰ بسؤال الناس عن مسألة رب الناس، وذلك كله يهضم حق التوحيد ويبطل نوره ويضعف قوته، **وأما ظلمه للمسؤول**: فلأنه سأله ما ليس عنده فأوجب له بسؤاله عليه حقًا لم يكن له عليه، وعرضه لمشقة البذل أو لوم المنع، فإن أعطاه أعطاه علىٰ

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ٢٨/ ١٤٥.

كراهة وإن منعه منعه علىٰ استحياء وإغماض، هذا إذا سأله ما ليس عليه، وأما إذا سأله حقًا هو له عنده فلم يدخل في ذلك، ولم يظلمه بسؤاله.

وأما ظلمه لنفسه: فإنه أراق ماء وجهه، وذل لغير خالقه، وأنزل نفسه أدنىٰ المنزلتين ورضي لها بأبخس الحالتين، ورضي بإسقاط شرف نفسه، وعزة تعففه، وراحة قناعته، وباع صبره ورضاه وتوكله وقناعته بما قسم له، واستغناءه عن الناس بسؤالهم، وهذا عين ظلمه لنفسه، إذ وضعها في غير موضعها... ولولا الضرورة لم يبح ذلك في الشرع»[١] أهـ.

* * *

---

(١) مدراج السالكين ٢/ ٢٣٢، ٢٣٣. (باختصار).

المبحث الثالث

ذكر بعض آثار الظلم وعواقبه السيئة

الظلم ظلمات علىٰ أصحابه في الدنيا والآخرة، وهو بؤس وشقاء وعناء علىٰ أهله في الدنيا وعذاب ونكال في الآخرة. وما من مصيبة ولا عقوبة تقع في الدنيا علىٰ مستوىٰ الفرد أو الأمة إلا وسببها الظلم والعدوان؛ سواء كان ذلك االظلم هوالإشراك بالله عز وجل الذي هو أعظم الظلم، أو ظلم النفوس بما دون ذلك من المعاصي والمنكرات، أو ظلم العباد بعضهم بعضاً.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

وأسوق فيما يلي بعض آثار الظلم وعواقبه السيئة في الدنيا والآخرة:

أولاً: الآثار الدنيوية:

أ- في أجواء الظلم لا يهنأ الناس بعيشهم ولا يأمنون علىٰ أنفسهم

ولا علىٰ عقولهم ولا علىٰ أعراضهم وأموالهم. بل ينتشر الخوف علىٰ هذه الضروريات الأساسية في حياة الإنسان، والتاريخ والواقع شاهدان علىٰ ذلك؛ فما من أمة ينتشر فيها الظلم من الشرك فما دونه إلا ويختل أمنها ويسود الخوف أهلها.

وهذا مصداق قول الله تعالىٰ وهو يقص علينا محاجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] فأخبر سبحانه أن أحق الناس بالأمن أولئك الذين لم يخلطوا إيمانهم بظلم. هذا، وإن كان المراد بالظلم هنا الشرك الأكبر فإنَّا نستفيد منه أن أسعد الناس بالأمن والطمأنينة هو من كمَّل التوحيد وحققه، وبقدر ما ينقص من توحيد العبد ينقص ذلك من أمنه؛ حتىٰ إذا ساد الشرك والمعاصي والمظالم في أمة من الأمم فإنها تفقد أمنها ويدب فيها الخوف والجوع كما قال تعالىٰ: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]، ولا يغرنا ويخدعنا ما نسمع عنه من أمن كاذب في الدول الكافرة والمجتمعات الظالمة، فإن هو إلا أمن زائف تكذبه الإحصائيات المذهلة عن ما يحصل من ظلم وعدوان علىٰ الأنفس والأعراض والأموال. وقد لا يشعر بذلك من عاش بينهم فترة وجيزة، لكن العبرة بكلام القوم أنفسهم وصيحات الخطر التي ينادي بها بعضهم.

ثم لنفرض أن هناك أمنًا ظاهراً منشؤه بعض القوانين والأنظمة، فهل هي وحدها التي تفرض الأمن؟ والجواب لا وألف لا، فما لم يكن هناك خوف من الله عز وجل منشؤه الإيمان والتوحيد الذي يستقر في أعماق القلب والذي يصاحب الإنسان في ليله ونهاره وسره وعلانيته فإنه لا أمن ولا استقرار؛ لأن الخائف من القانون وحده يصبح وحشًا كاسراً إذا أمن جانب القانون.

وإن المتأمل اليوم في حياة المجتمعات الإسلامية في أكثر بلدان المسلمين ليكاد يقطع بصعوبة ذوقها للأمن في ضرورياتها الأساسية وهو يرىٰ أسباب المخاوف وانعدام الأمن منتشرة في البر والبحر. إذ كيف يأمن الشخص علىٰ دينه وسلامة معتقده وهو يرىٰ ويسمع من وسائل الإعلام ما يثير الشبهات التي تضطرب لها القلوب الضعيفة؟ وكيف يأمن الإنسان علىٰ دينه ونفسه وعرضه وماله وهو يرىٰ أكثر المجتمعات الإسلامية لا يحكمها شرع الله عز وجل الذي في ظله يسود الأمن والطمأنينة وإنما تحكمها أنظمة البشر الظالمة التي تجرأ فيها المجرمون علىٰ الأنفس بالقتل والاعتداء، وفي ظلها تنتشر الخمور والمخدرات التي تفسد العقول وتحطم النفوس؟

بل كيف يأمن الإنسان علىٰ عرضه ومكر الليل والنهار لا يفتر يبث الفساد ويشيع الفاحشة ويسهل طريقها ويثير الشهوات ويفتح أبوابها؟ وحتىٰ لو أغلق المسلم بابه ورفض هذه الوسائل المفسدة، فإن

غبارها ودخانها يصل إليه شاء أم أبىٰ.

وكيف يأمن علىٰ ماله من عزّ في وقته المال الحلال حيث انتشرت البيوع المحرمة ،وتنوعت أبوب الربا وأشكاله وصار له بنوكه وأنظمته وحماته، وانتشرت أبواب الحيل والخداع لكسب المال الحرام، وأصبح صاحب المال والعقار يخشىٰ علىٰ ماله من المغتصبين والسراق، والمتحايلين والذين يكثرون ويظهرون في غيبة شرع الله العادل، وذلك حين ينتشر الظلم والبغي والفساد في الأمة؟.

ب- في أجواء الظلم والظالمين تنعقد أسباب العقوبة من الله عز وجل ويصبح الناس مهددين بما أصاب أشياعهم من الظالمين الغابرين؛ لأن سنة الله عز وجل لا تحابي أحداً، وليس بين الله سبحانه وبين أحد من خلقة نسب إلا طاعته؛ قال الله عز وجل: ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** (١٢٣) ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ **أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ** (٤٣) ﴾ [القمر: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** (٥١) ﴾ [القمر: ٥١].

وليس بالضرورة أن يكون العذاب والعقاب كالذي حل بقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح والذين من بعدهم من الظالمين. بل قد يظهر

في صور أخرىٰ كالذي يحصل اليوم في المجتمعات الظالمة من القحط والجدب، ومن المجاعات والحروب، ومن تسلط الأعداء وقهرهم، ومن الفرقة والاختلاف وكون بأس المسلمين بينهم... إلخ.

وكل هذا من آثار الظلم والبغي الذي ينتشر اليوم ولا يجد من يرفعه ويمنعه ويأخذ علىٰ أيدي الظالمين العابثين. وقد يمتد العقاب والعناء فيتجاوز الظالمين إلىٰ غيرهم من الصالحين الساكتين.

قال الله عز وجل: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: ١١٧]. وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ **مُصْلِحُونَ** ﴾ ولم يقل: صالحون. فرتب إهلاك القرىٰ علىٰ خلوها من المصلحين. وهنا ندرك خير وبركة المصلحين علىٰ مجتمعاتهم وكيف أنهم صمام الأمان لأمتهم في تأخيرالعذاب أو منعه ـ بإذن الله تعالىٰ ـ. فاللَّهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد، يعز فيه أولياؤك، ويذل فيه أعداؤك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهىٰ فيه عن المنكر. إنك سميع الدعاء.

جـ ـ شؤم الظلم علىٰ فاعله في نفسه وأهله وماله ولو بقي ردحًا من الزمن في عافية ظاهرة، لكنه في الحقيقة يعيش في تعاسة وشقاء لا يذوق طعم السعادة والبركة، بل إنهما لتنزعان من حياته. وهذا أمر مشاهد ومحسوس، ثم إن المتعة الظاهرة لا تستمر طويلاً فلقد جرت

سنة الله عز وجل في أخذ الظالم وعدم إفلاته قال ﷺ: (إن الله تعالىٰ ليملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته)[١]. مع ما يحاط به الظالم من مشاعر الكراهية والعداء من الناس وتمنيهم زواله ودعائهم عليه، فأي هناء وراحة بعد ذلك للظالمين؟! والأحداث والوقائع والقصص في نهاية الظالمين دولاً وأفراداً ومحق بركة أعمالهم وأموالهم كثيرة في القديم والحديث ولكن هل من مدكر؟!

ذكر ابن قتيبة الدينوري في كتابه «تأويل مختلف الحديث»، أنه حدثه رجال من أصحاب الأخبار، أن المنصور سمر ذات ليلة فذكر خلفاء بني أمية وسيرتهم، وأنهم لم يزالوا علىٰ استقامة حتىٰ أفضىٰ أمرهم إلىٰ أبنائهم المترفين، فكان همهم من عظيم شأن الملك وجلالة قدره: قصد الشهوات، وإتيان اللذات، والدخول في معاصي الله عز وجل ومساخطه، جهلاً منهم باستدراج الله تعالىٰ، وأمنا من مكره، فسلبهم الله الملك والعز، ونقل عنهم النعمة فقال له صالح بن علي: يا أمير المؤمنين، إن عبيد الله بن مروان لما دخل أرض النوبة هارباً فيمن اتبعه سأل ملك النوبة عنهم فأخبر، فركب إثر عبيد الله فكلمه بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه، وأزعجه عن بلده. فإن رأىٰ أمير

---

(١) البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣). وقد سبق ص ٢٤.

المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة ويسأله عن ذلك.

قال: فأمر المنصور بإحضاره، وسأله عن القصة، فقال: يا أمير المؤمنين قدمت أرض النوبة بأثاث سلم لي فافترشته بها وأقمت ثلاثًا، فأتاني ملك النوبة، وقد خبر أمرنا، فدخل علي رجل طُوال أقنىٰ حسن الوجه، فقعد علىٰ الأرض ولم يقرب الثياب، فقلت: ما يمنعك أن تقعد علىٰ ثيابنا؟ فقال: إني ملك، وحق علىٰ كل ملك أن يتواضع لعظمة الله عز وجل إذ رفعه الله، ثم أقبل علي فقال لي: لم تشربون الخمور وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ علىٰ ذلك عبيدنا وسفهاؤنا، قال: فلم تطؤن الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم في كتابكم؟ قلت: يفعل ذلك جهالنا، قال: فلم تلبسون الديباج والحرير وتستعملون الذهب والفضة وهو محرم عليكم؟ فقلت: زال عنا الملك وقل أنصارنا، فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا، فلبسوا ذلك علىٰ الكره منا.

فأطرق مليًا، وجعل يقلب يده وينكت في الأرض، ثم قال: ليس ذلك كما ذكرت، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم عليكم، وركبتم ما نُهيتم عنه، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله تعالىٰ العز، وألبسكم الذل بذنوبكم، ولله فيكم نقمة لم تبلغ نهايتها، وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم، وإنما الضيافة ثلاث، فتزودوا ما

احتجتم إليه، وارتحلوا عن بلدي. ففعلت ذلك[١].

– وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن ملكًا من الملوك خرج يسير في مملكته وهو مستخفٍ من الناس، فنزل علىٰ رجل له بقرة، فراحت عليه تلك البقرة فحلبت، فإذا حلابها مقدار ثلاثين بقرة. قال: فأعجب الملك بها وقال: ما صلحت هذه إلا أن تكون لي، فإذا صرت إلىٰ موضعي بعثت إليه فأخذتها.

قال: وأقام إلىٰ الغد، فغدت البقرة إلىٰ مرعاها. ثم راحت فحلبت فإذا حلابها في نقص علىٰ النصف، وجاء حلاب خمس عشرة بقرة قال: فدعا الملك ربها فقال له: هل رعت في غير مرعاها بالأمس أو شربت في غير مشربها بالأمس؟ قال: ما رعت في غير مرعاها ولا شربت غير مشربها، قال: فما بال لبنها قد نقص؟ قال: يشبه أن يكون الملك قد همَّ بأخذها، فقال له الملك: وأنت من أين يعرفك الملك؟ فقال له: هو كما أقول لك، فإن الملك إذا ظلم أو همَّ بظلم ذهبت البركة، أو قال: ارتفعت البركة.

قال: فعاهد الملك ربه في نفسه ألاَّ يأخذها ولا تكون لهُ في مُلك أبدًا، قال: فأقام إلىٰ الغد، ثم غدت البقرة إلىٰ مرعاها وراحت فحلبت، فإذا حلابها قد عاد إلىٰ ما كان، قال: فدعا صاحبها فقال له:

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٣٠١ – ٣٠٣.

هل رعت بقرتك في غير مرعاها بالأمس أو شربت في غير مشربها بالأمس؟ قال: ما رعت في غير مرعاها ولا شربت غير مشربها. قال: فما بال لبنها قد عاد؟ قال يشبه أن يكون الملك قد همَّ بالعدل قال: فاعتبر الملك وقال: لا جرم، لأعدلن ولأكونن علىٰ أفضل من ذلك أو نحو هذا (١).

د- حينما ينتشر الظلم بين أفراد الأمة فيعتدي بعضهم علىٰ بعض في الأبدان والأعراض والأموال ويكثر ذلك ولا يوجد من ينكره ويدفعه فإن سنة الله عز وجل جرت أن يسلط علىٰ الأمة من يسومهم سوء العذاب من الولاة الظلمة الذين يبغون علىٰ الناس ويفرضون عليهم من الكلف السلطانية والأنظمة التي تلحق بالناس العنت والضيق عليهم في أنفسهم وأموالهم وقبل ذلك في أديانهم، وما ذاك إلا عقوبة للناس علىٰ ظلمهم، فيسلّط الله عز وجل الظالمين علىٰ الظالمين. وهذه سنة الله عز وجل؛ قال الله سبحانه: ﴿ **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ عند تفسير هذه الآية: «ومعنىٰ الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم علىٰ بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم

---

(١) مساوئ الأخلاق للخرائطي ص: ٢٨٩.

من بعضهم ببعض جزاء علىٰ ظلمهم وبغيهم»[١].

ويقول القرطبي رحمه الله تعالىٰ أيضًا عند هذه الآية: «... وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالمًا آخر. ويدخل في الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الرعية أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم، وقال فضيل بن عياض: إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف وانظر فيه متعجبًا، وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إذا رضي الله عن قوم ولىٰ أمرهم خيارهم، وإذا سخط الله علىٰ قوم ولىٰ أمرهم شرارهم...»[٢].

وللإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ كلام جيد حول هذا المعنىٰ حيث يقول: «... وهذا أيضًا باب عظيم من حكمة الله يطّلع الناظر فيه علىٰ أسرار من أسرار التقدير، وتسليط العالم بعضهم علىٰ بعض، وتمكين الجُناة والبُغاة. فسبحان من له في كل شيء حكمة بالغة وآية باهرة، حتىٰ أن الحيوانات العادية علىٰ الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم، ولولا ذلك لم يسلّط عليهم منها شيء. ولعلّ هذا الفصل الاستطرادي أنفع لمتأمّله من كثير من الفصول المتقدمة، فإنه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم انتفاعه به جداً، والله الموفّق.

---

(١) تفسير ابن كثير عند الآية رقم (١٢٩) من سورة الأنعام.

(٢) القرطبي عند الآية رقم (١٢٩) من سورة الأنعام.

ويُحكىٰ أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه علىٰ أنه خالص، فأرسل الله عليه سيلاً فذهب بالغنم، فجعل يعجب، فأتي في منامه فقيل له: أتعجب من أخذ السيل غنمك؟ إنه تلك القطرات التي شُبْتَ بها اللبن اجتمعت وصارت سيلاً. فقِسْ علىٰ هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك؛ تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط، وأنه قائمٌ علىٰ كل نفس بما كسبت، وأنه لا يظلم مثقال ذرّة...

... وتأمل حكمة الله عز وجل في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة، وحرموا المساكين، كيف جُوزوا علىٰ منع ما للمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادّة القوت والرزق وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحق فمُنِعتُم الغيث، فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قبلكم.

وتأمّل حكمة الله تعالىٰ في صرفه الهدىٰ والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه، فصدّهم عنه كما صدّوا عباده صداًّ بصدّ ومنعًا بمنع.

وتأمّل حكمته تعالىٰ في محق أموال المُرابين وتسليط المُتلفات عليها كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم، وأتلفوها بالربا، جُوزوا إتلافًا بإتلاف. فقلّ أن ترىٰ مُرابيًا إلا وآخرته إلىٰ محق وقلّة وحاجة.

وتأمّل حكمته تعالىٰ في تسليط العدو علىٰ العباد إذا جارَ قويّهم علىٰ ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقّه من ظالمه. كيف سلّط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء. وهذه سُنّة الله تعالىٰ منذ قامت الدنيا إلىٰ أن تطوىٰ الأرض ويُعيدها كما بدأها.

وتأمّل حكمته تعالىٰ في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم ووُولاتهم من جنس أعمالهم بل كأن أعمالهم ظهرت في صور وُلاتهم وملوكهم، فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المَكْر والخديعة فوُلاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم ووُلاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممّن يستضعفونه ما لا يستحقّونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقّونه، وضربت عليهم المكوس والوظائف. وكل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعمّالهم ظهرت في صور أعمالهم. وليس في الحكمة الإلهية أن يولّي علىٰ الأشرار الفجّار إلا مَن يكون من جنسهم.

ولمّا كان الصدر الأول خيّار القرون وأبرّها كانت وُلاتهم كذلك.، فلما شابوا شابت لهم الوُلاة. فحكمة الله تأبىٰ أن يولّي علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز فضلاً عن مثل أبي بكر وعمر، بل وُلاتنا علىٰ قدرنا، ووُلاة مَن قبلنا علىٰ قدرهم. وكلٌّ من

الأمرين مُوجِب الحكمة ومقتضاها.

ومن له فطنة إذا سافر بفكره في هذا الباب رأىٰ الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر ظاهرة وباطنة فيه كما في الخلق والأمر سواء. فإياك أن تظنّ بظنّك الفاسد أن شيئًا من أقضيته وأقداره عارٍ عن الحكمة البالغة، بل جميع أقضيته تعالىٰ وأقداره واقعة علىٰ أتّم وجوه الحكمة والصواب. ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها، كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس. وهذه العقول الضعيفة إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت»[١] أهـ.

ولا يعني ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في آخر كلامه الرضىٰ بظلم الظالمين أو تبرير ظلمهم وعدم إنكاره، كلا فليس هذا مراده رحمه الله تعالىٰ، وإنما أراد التنبيه علىٰ سنة الله عز وجل في التغيير، وأن الله سبحانه لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم، وأن ما يصيب الأمة من ظلم الولاة المتجبرين إنما هو بسبب ذنوب الناس، وظلم بعضهم لبعض، فجازاهم الله عز وجل بتسليط الظلمة عليهم. والله لا يحب الظالمين أفرادًا وولاة. وتمضي سنة الله عز وجل علىٰ الولاة الظلمة فيسلط الله تعالىٰ عليهم من يقهرهم ممن هو أشد منهم قوة

(١) مفتاح دار السعادة ٢٦٢، ٢٦٣ باختصار يسير.

وفتكًا. وهكذا حتىٰ يعود الظالم إلىٰ نفسه ويحاسبها ويبحث عن مكمن الداء بها فيتخلص من الظلم والمظالم، وفي ذلك باب الفرج والنصر وزوال الظلم.

هـ- عندما ينتشر الظلم ويكثر بين العباد فإن النتيجة الحتمية لذلك هي انتشار البغضاء والأحقاد والشحناء بين الناس وعدم اطمئنان بعضهم لبعض، بل يذهبون إلىٰ أبعد من ذلك ألا وهو التنافس في الظلم والخيانة والغدر، والبحث عن أي فرصة تلوح للانتقام ورد الظلم بظلم مثله أو أشد، وهكذا يجر الظلم بعضه بعضًا، ويؤز الناس بعضهم بعضًا إليه حتىٰ يقول قائلهم: (إذا لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب).

ولا يخفي ما ينشأ في أجواء هذه المشاعر والمظالم من الفساد والشرور والفرقة وتقطيع الأرحام وإنفصام أواصر الأخوة بين الناس. وتشتد هذه الفتنة حينما لا يوجد من يأخذ علىٰ يد الظالم ويأطره علىٰ الحق أطرا، وعندما تصل الأمة إلىٰ هذا المستوىٰ فإنه يصدق عليها قول الرسول ﷺ: (إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا علىٰ يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده)(١).

---

(١) أبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن (٢١٦٩).

وقوله ﷺ: (إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تودع منهم)[١].

وقد جرت سنة الله عز وجل علىٰ أن أي قوم تمالأوا علىٰ ظلم غيرهم وتعاونوا فيما بينهم علىٰ الإثم والعدوان فإن الله عز وجل يجازيهم بجنس فعلهم ويؤول أمرهم إلىٰ الفرقة والاختلاف وعدوان بعضهم علىٰ بعض أو يسلط عليهم من يظلمهم من خارجهم.

و- عندما ينتشر الظلم ويكثر في أمة من الأمم، ويأكل القوي فيها الضعيف ويذل الوجهاء والملأ فيها عامة الناس فإن الأمة بمرور الوقت تستمرئ الذلة والمهانة وتصبح مهيأة لتسلط الأعداء وقبول التبعية لهم والاستخذاء، كما تضعف روح المقاومة والعزة فيها، وهذا أمر مشاهد ومعروف في القديم والحديث؛ فما من أمة تستمرئ الظلم وتكثر المظالم في جنباتها ولا يوجد فيها من يرفع هذا الظلم ويغيره، إلا ونرىٰ الأعداء المتربصين بها قد استباحوها وجاسوا خلال الديار فيها دون أدنىٰ مقاومة أو مدافعة من أبنائها. وذلك لما وصلوا إليه من الذل والضعف والمهانة الناشئة من كثرة الظلم والبغي الذي حطم النفوس وقضىٰ علىٰ مشاعر العزة والاستعلاء فيها. وهذه سنة الله عز وجل التي قد خلت في عباده.

---

(١) الحاكم ٤/ ٩٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ. وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

وقد حذر الله عز وجل عباده من التنازع والخصومات وبين أنها سبب الفشل وذهاب الريح ونزع المهابة من قلوب الأعداء؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وحينما ينتشر الذل والمهانة في أبناء الأمة بسبب ظلم بعضهم لبعض فإن مرض الوهن وعدم النصح في العمل وضعف الأداء والعطاء والاتكالية تكثر فيها، وبالتالي تصبح أمة معتمدة علىٰ غيرها يكثر فيها البطّالون والمتسولون والغشاشون.

* * *

ثانياً: الآثار الأخروية.

إن ما ينتظر الظالم من الحساب الشديد والعذاب الأليم يوم القيامة لهو من الفظاعة والشدة مما تهون في جانبه جميع العقوبات الدنيوية الآنفة الذكر، وقد يملي الله عز وجل للظالم ويستدرجه ولا يرىٰ الناس عقوبة ظلمه في الدنيا، لكن الله عز وجل له بالمرصاد يوم الفصل والحساب، يوم الحسرة والندامة، يوم توضع الموزاين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا. والعذاب الذي ينتظر الظالم يوم القيامة تتفاوت شدته حسب نوع الظلم الذي ارتكبه وحسب شناعته.

○ فإن كان الظلم الذي مات عليه هو الشرك بالله عز وجل والكفر به، فإن الجزاء هو الخلود الدائم في نار جهنم أعاذنا الله منها. قال الله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا** ﴿١٦٨﴾ **إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** ﴿١٦٩﴾ ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء: ٤٨].

ومع خلود المشركين الظالمين في النار فإن شدة عذابهم أيضًا تتفاوت حسب ما قاموا به من الإفساد والصد عن سبيل الله عز وجل، فمن كان كفره علىٰ نفسه ولم يضل به غيره ولم يصد عن الحق،

ويقاتل أهله فإن عذابه وإن كان مخلداً في النار أهون من ذلك الذي كفر بالله سبحانه وأضاف إلىٰ ذلك الصد عن سبيله وظلم عباد الله تعالىٰ بشتىٰ أنواع الظلم كما في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالىٰ مهدداً للظالمين ومسليًا للمظلومين: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٥].

○ وإن كان الظلم دون الشرك الأكبر وهو يتعلق بحقوق العباد والعدوان عليهم في أديانهم أو أنفسهم أو أعراضهم أو أموالهم فإن الحسرة ستكون علىٰ الظالم عظيمة؛ وذلك حين يرىٰ حسناته وقد تقاسمها الغرماء المظلومين، هذا يأخذ منها وهذا يأخذ منها. وقد تفنىٰ الحسنات ولم يستوف الغرماء حقهم فيؤخذ من سيئاتهم فتطرح عليه حتىٰ تكون سببًا في خفة ميزانه فيطرح في النار عياذاً بالله.

هذا، وإن كان دخوله لو دخل فيها غير مخلدٍ بسبب ما معه من التوحيد، لكن من يطيق ولو لحظة واحد في نار جهنم، فما أعظمها

من حسرة علىٰ الظالمين وما أشدها من خسارة وهم يرون حسناتهم وقد طارت هنا وهناك، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من دخول النار. ويكفينا من ذلك موعظة الرسول ﷺ في حديث المفلس؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون ما المفلس؟) قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولامتاع فقال: (إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيعطىٰ هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضىٰ ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار)[1].

وفي هذا الحديث أكبر رادع للعبد الضعيف عن ظلم العباد والاعتداء عليهم في دين أو نفس أو عرض أو مال، ولو زلت القدم في يوم من الأيام وحصل منه ظلم لأحد من الناس، فالمتعين عليه المسارعة في رد الحقوق إلىٰ أهلها والتحلل منهم في الدنيا قبل أن يموت هو أو يموت صاحب الحق ثم لا يكون بعد ذلك إلا القصاص يوم القيامة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من مات وعنده مظلمة لأخيه من عرضه وماله فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه حيث لا يكون دينار ولا درهم فإن كان له عمل صالح أخذ له منه بقدر مظلمته، وإلا

---

(١) مسلم في البر والصلة (٢٥٨١) وقد سبق ص ١٦٠.

أخذ من سئيات صاحبه فحملت عليه)[١].

○ أما إذا كان الظلم فيما دون الشرك وفيما بين العبد وربه دون اعتداء علىٰ العباد كسائر المعاصي والكبائر الفردية فهذه قد سبق الحديث عنها وأن العبد لو تاب منها في الدنيا توبة صادقة فإن الله يغفر الذنوب جميعًا، ولو وافىٰ ربه يوم القيامة مصرًا عليها فإنه تحت المشيئة؛ إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه وطهره ثم أخرجه من النار بما معه من التوحيد والإيمان. وقد تدركه واحدة أو أكثر من أسباب رفع العقوبة عن صاحبها المستحق لها فلا يدخل النار لكن بعد الشدائد والمخاوف والأهوال التي يمر بها يوم القيمة والتي هي من أسباب رفع عقوبة الذنب ولكن من يطيق ذلك؟ ومن يدري هل تفي هذه الأسباب أو تعجز عن محو زلاته فيدخل النار. إن السلامة هي في ترك المعاصي وما يسخط الله عز وجل.

وإذا ضعفت النفس وألمت بشيء من ذلك فالمتعين علىٰ العبد المبادرة إلىٰ التوبة النصوح في الدنيا لعل الله عز وجل يتوب عليه ويؤمنه من المخاوف يوم القيامة.

* * *

(١) سبق تخريجه: ص٢٥.

المبحث الرابع

ذكر بعض الأسباب المعينة على توقي الظلم

والمقصود بالظلم هنا جميع أنواعه وصوره والتي سبق شرحها وتفصيلها في المباحث السابقة.

وإن مما يعين علىٰ معرفة الأسباب التي يُتقىٰ بها الظلم العلم بالأسباب التي تدفع إليه وتوقع فيه؛ وهي كثيرة ومتنوعة لكنها لا تخرج في أصلها عن الأسباب التالية:

(١) الشبهات التي تنشأ من قلة الفقه بالدين والتي تؤدي إلىٰ التأويل الفاسد والاجتهاد الخاطئ .

(٢) القوة الشهوانية التي تنشأ عن حب الدنيا ومناصبها ومتاعها الزائل.

(٣) القوة الغضبية التي تنشأ عن الكبر والحقد والحسد وحب الانتقام والعلو في الأرض.

هذا وإن كان السببان الثاني والثالث يجمعهما شيء واحد؛ ألا هو الشهوة والهوىٰ إلا أن إفراد القوة الشهوانية عن القوة الغضبية يساعد علىٰ فهم الأسباب بشكل أدق.

○ فمن صور الظلم التي مرت بنا وتنشأ عن الشبهات:

ما يقع فيه بعض جهلة المسلمين من المعاملات المحرمة التي فيها ظلم وهضم لحقوق الناس؛ إما جهلاً منهم بحرمتها كمن يجهل حرمة بعض البيوع المحرمة، أو تأولاً منهم في بعض الممارسات في كونها من باب الحزم والضبط وهي في حقيقتها ظلم وبغي.

أو ما يقع فيه كثير من الناس فيما يبرمونه من العقود بينهم؛ حيث يحصل التفريط في كتابتها اعتماداً منهم علىٰ الثقة وحسن الظن غافلين عما ينشأ عن ذلك من الاختلافات والخصومات، ولا يخفىٰ أيضًا ما للشبهات من أثر في ظلم النفس ببعض المعاصي والبدع والشركيات.

○ ومن صور الظلم التي تنشأ عن القوة الشهوانية النابعة من حب الدنيا ومتاعها الزائل ما يحصل بين الناس من العدوان علىٰ أعراضهم وأموالهم والبغي علىٰ الناس في ضرورياتهم، ومهادنة الظلمة وأصحاب الجاه والسلطان في سبيل الحصول علىٰ منصب أو مال أو جاه، كما لا يخفى أثر الشهوة في الوقوع في ظلم النفس بالمعاصي والكبائر التي قد تصل إلىٰ الشرك الأكبر.

○ ومن صور الظلم التي تنشأ عن القوة الغضبية: التكبر علىٰ الناس وامتلاء القلب بالحقد والحسد عليهم؛ واللذان يؤديان إلىٰ غيبتهم والنميمة عليهم وظلمهم في أبدانهم بقتل أو ضرب أو سجن

أو أي أذىٰ جسمي أو نفسي مرده إلىٰ حب الانتقام وشفاء الغيظ والغضب والاستعلاء في الأرض، كما يظهر أثر القوة الغضبية في ظلم النفس بالمعاصي الأخرىٰ والتي قد لا يكون فيها ظلمًا للغير، كرد الحق، والعجب بالنفس وأنها فوق الأخطاء، ... الخ.

وبعد هذه المقدمة عن أسباب الوقوع في الظلم نعرض الآن إلىٰ ذكر بعض الأسباب المعينة علىٰ توقي الظلم ومن أهمها:

الأول: الفقه في الدين والالتزام بالأحكام الشرعية

إن الفقه في دين الله عز وجل عقيدة وأحكامًا يقي من كثير من صور الظلم التي منشؤها الجهل والشبهات. ويمكن تصور أثر ذلك في ظلم النفس بالوقوع في بعض البدع التي يحسبها أهلها من الدين ويتعبدون لله عز وجل بها، وقد يظلمون الناس بتضليلهم بها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا. وقد أتوا من جهلهم بالسنة وما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام. وليس هناك أنفع من التفقه في الدين ومعرفة ما كان عليه سلف الأمة لاتقاء هذا النوع من الظلم، بل قد يقع بعض الناس في الظلم الأعظم بسبب جهلهم بتوحيد الله وأسمائه وصفاته. كما يظهر أيضًا أثر الفقه في الأحكام الشرعية في اتقاء بعض صور الظلم التي تقع بين الناس في معاملاتهم والتي منشؤها الجهل بحرمتها أو الجهل بشروطها؛ كمن يجهل حرمة بيوع الغرر والجهالة، أو يجهل شروط البيع، أو يجهل حرمة بعض أنواع الربا... إلخ. وإن

الجهل والشبهات والاجتهادات الخاطئة التي توقع أصحابها في الظلم وهم لا يشعرون لتزول بالعلم الشرعي والفقه الدقيق في الأحكام.

هذا إذا لم يمتزج مع هذه التأولات والاجتهادات شهوة وهوىٰ يغالط فيها الظالم نفسه ومن حوله في كونه منطلقًا من الشرع والدليل فمثل هذا لم يؤت من جهله بالحكم ولا من تأول سائغ، وإنما أتي من شهوته التي يعلم في قرارة نفسه أنه فيها ظالم متعد لكنه يغالط عباد الله سبحانه في كون ما قام به ليس ظلمًا وإنما هو مستند إلىٰ أصل شرعي، وتأول صحيح، ثم يأخذ في تأصيل ظلمه وإخراجه في صورة الحزم والضبط وعدم التفريط في الأمور ... إلخ.

كما أن كثيرًا من الخصومات والتعديات التي تحصل بين الناس إنما تنشأ في معاملاتهم من عدم التزام أحكام الله عز وجل وتوجيهاته الرحيمة بهم وأوضح مثال لذلك: أمره سبحانه بالكتابة بين الناس في مداييناتهم وحقوقهم حتىٰ لا يحصل الاختلاف والظلم بينهم؛ قال تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وبين سبحانه رحمته وحكمته في هذا الأمر بقوله: ﴿**ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا**﴾ ...، الآية، ولو أن الناس التزموا في عقودهم واتفاقاتهم بكتابة ما لهم وما عليهم وكتابة كل ما يتعلق بها من البنود والقيود والشروط لتلاشت كثير من المظالم والشكاوىٰ والمرافعات التي تعج بها اليوم المحاكم الشرعية وغيرها،

والتي لم يسبق لها مثيل في التاريخ في كثرتها وتعقيداتها وتشابكها ومآسيها.

الثاني: تذكر الآثار والعقوبات التي تحل بالظالمين في الدنيا والآخرة

إن تذكر العقوبات التي تحل بالظالم في الدنيا والآخرة جزاء ظلمه والتي سبقت الإشارة إلىٰ بعضها في المبحث السابق لهي من أنفع الأسباب في اتقاء الظلم والإقلاع عنه؛ فإذا تذكر الظالم مصارع الظالمين، وما يجره بظلمه علىٰ نفسه من الشقاء وعلىٰ أمته من المفاسد العظيمة في الدنيا من قلة البركة واضطراب الأمن وانتشار الفساد وتسلط الأعداء وإثارة الشحناء والأحقاد والتدابر والتباغض بين الناس؛ إذا فكر في ذلك كله فإن العاقل المحب لنفسه ولأمته الخير يقلع عن الظلم ويحذره أشد الحذر حتىٰ لا يكون شؤمًا علىٰ نفسه وأمته، وإذا كانت هذه الآثار الدنيوية كافية للعاقل في اتقاء الظلم وتركه فكيف إذا انضم إليها عقوبة الله عز وجل للظالمين يوم القيامة والتي تهون عندها كل العقوبات الدنيوية التي سبقت الإشارة إلىٰ بعضها. إي والله إن عقوبة الظالم في الآخرة لا تُعد عقوبات الدنيا في جانبها شيئًا، ذلك في يوم الحسرة والندامة وتطاير الحسنات عن صاحبها الظالم إلىٰ غرمائه، وذلك يوم التلاق، يوم يلتقي الظالم بالمظلوم، يوم تجتمع الخصوم بين يدي الله عز وجل فيفصل بينهم بميزان عدل وقسط لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؛ قال تعالىٰ: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ**

الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وأشد الناس حسرة وعقوبة علىٰ ظلمهم يوم القيامة أولئك الذين ظلموا الناس بإضلالهم وإبعادهم عن صراط الله المستقيم، فما أشد حسرة التابع والمتبوع.

قال الله تعالىٰ: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾**﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

والحاصل أن من أكبر الزواجر والموانع عن الظلم عدم الغفلة عن ما ينتظر الظالم من العقوبات في الدينا، وما ينتظره من الحسرات عند الموت وعند قيام الأشهاد، فوق ما يحمله الناس له في الدينا من البغض والكراهية وتمني زواله وتعرضه لدعاء المظلومين الذين ليس بين دعائهم وبين الله حجاب كما جاء ذلك عن رسول الله ﷺ بقوله: (... واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)[١].

ومن العجائب أن يوجد من الظالمين من يعرف هذه الآثار أو يذكر بها ولكنها لا تؤثر فيه شيئًا، بل يستمر في ظلمه، ويغتر بإملاء الله عز

---

(١) سبق تخريجه: ص: ٢٤.

وجل له واستدراجه. والسبب - والله أعلم - في هذه القسوة والإعراض هو الركون إلىٰ الدنيا ومتاعها الزائل والغفلة عن الآخرة وما فيها من النعيم والعذاب. ومن هنا تجدر الإشارة إلىٰ أثر الآخرة وعدم نسيانها والغفلة عنها في ترك الظلم والحذر منه، فاليقين بالآخرة وأنها الحياة الأبدية السرمدية التي يجب الاستعداد لها من أكبر الوسائل التي تبعد المرء عن الظلم بشتىٰ صوره. ولكن تذكر الآخرة لا يؤدي دوره حتىٰ ينضم إليه الحذر الشديد من الانفتاح علىٰ الدينا وزهرتها وبخاصة في زماننا اليوم الذي كثرت فيه المظالم، وعز فيه المال الحلال، وتنافس الناس علىٰ الدنيا وتدابروا وتباغضوا، بل وتقاتلوا من أجلها. فحري بمن يحب لنفسه الخير أن يحذر ما فيه عطب نفسه في الآخرة ويرضىٰ منها بالكفاف، ولا ينسىٰ الآخرة وأهوالها وحسراتها؛ إن من هذا شأنه في عدم الغفلة عن الآخرة والزهد في الدنيا هو الذي ينتفع بموعظة الله عز وجل فلا يلبس إيمانه بظلم ولا يظلم عباد الله تعالىٰ؛ قال الله تعالىٰ في وصف من ينتفع بمصارع الظالمين وهلاكهم: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾**﴾ [هود: ١٠٣ - ١٠٥].

وإن من أهم ما يُزهد فيه من الدينا حب الرئاسة والإمارة لأنها في الغالب تدفع صاحبها إلىٰ الظلم للوصول إليها، وإذا وصل إليها وتأمر علىٰ من تحته صب ظلمه عليهم إلا من رحم الله تعالىٰ ووفقه للعدل

والقسط بين الناس، والإمارة قد تكون ولاية أو قضاء أو وزارة أو شركة أو أي عمل فيه رئيس ومرؤوس[١].

الثالث: الابتعاد عن الظالمين ومجالسهم ومصاحبة الصالحين المقسطين

لا أحد يشك في تأثير الصاحب والجليس علىٰ مُجالسه؛ وبخاصة إذا كان الجليس يتميز عن جليسه بقوة أو غنىٰ أو جاه أو رئاسة أو نحوها، ويزداد التأثر بشكل أقوىٰ إذا كان المجالس بحاجة إلىٰ جليسه في ماله أو جاهه. وقد قال الرسول ﷺ: (المرء علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[٢]، فإذا كان جلساء المرء من شأنهم الظلم لأنفسهم بالشرك أو ما دونه من المعاصي أو من شأنهم ظلم العباد والاعتداء علىٰ حقوقهم فإن أحدًا لا يماري في تأثر المجالس لهم شيئًا فشيئًا بأخلاقهم وممارساتهم إلا أن يكون هو الأقوىٰ فيؤثر فيهم وينكر عليهم. لأن المرء لابد أن يؤثر أو يتأثر، وإذا لم يستطع أن يؤثر ولاينكر فإنه لا يجوز له القعود معهم وإلا صار منهم بسكوته علىٰ ظلمهم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ**

---

(١) ولا يفهم من هذا الكلام ترك هذه المسؤليات بإطلاق، وإنما أردت التحذير لمن ابتلي بشيء من هذه الفتن من الوقوع في الظلم وتبعاته لأنها تدفع أصحابها في الغالب إلىٰ الظلم، وقليل هم الذين يعدلون ويصلحون.

(٢) أبو داود في الأدب (٤٨٣٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٧٩).

يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقد حذرنا الله عز وجل من جليس السوء وما يجر علىٰ مصاحبه من الحسرات يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾** ﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨].

كما حذرنا سبحانه من الركون والميل إلىٰ الظالمين بقوله: ﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾** ﴾ [هود: ١١٣].

يعلق الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ علىٰ هذه الآية فيقول: «ففي هذه الآية: التحذير من الركون إلىٰ كل ظالم، والمراد بالركون: الميل والانضمام إليه بظلمه، وموافقته علىٰ ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم، وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلىٰ الظالم، فكيف حال الظلمة؟!! نسأل الله العافية من الظلم»أهـ[١].

«وحُكي أن الموفق صلىٰ خلف إمام، فقرأ بهذه الآية، فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلىٰ من ظلم، فكيف بالظالم؟!»[٢].

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (١١٣) من سورة هود.

(٢) تفسير القاسمي عند الآية السابقة من سورة هود.

وقال ميمون بن مهران رحمه الله تعالىٰ: «الظالم والمعين علي الظلم والمحب له سواء»(١).

والحاصل من كل ما سبق أن من أقوىٰ الأسباب التي توقع المرء في الظلم بشتىٰ صوره مجالسة الظالمين لأنفسهم والظالمين لعباد الله تعالىٰ، والشواهد تدل علىٰ ذلك؛ فما من أحد ركن إلىٰ الظالمين من أهل الجاه والمال والسلطان وصاحبهم وأمسىٰ وأصبح وهو يرىٰ ظلمهم دون إنكار منه إلا صار مع مرور الوقت يستمرئ هذا الوضع ويتعايش مع هذه الأجواء الظالمة شيئًا فشيئًا حتىٰ يألفها ويصبح في نهاية الأمر من حماة الظلم وأعوان الظالمين، وهذا شيء ملاحظ في جنود الظلمة وأعوانه حيث أصبحوا آلة في أيدي الظلمة ينفذون بهم ما يشاؤون من الظلم. وقد لا يجهلون أن ما يقومون به ظلمٌ لكن حب الدنيا والعيش في أجواء الظلم وأهله يروض النفوس ويخدرها حتىٰ لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا إلا ما أشربت من هواها، وهذا شأن الفتن التي أخبر النبي ﷺ أنها تعرض علىٰ القلوب كالحصير عودًا عودًا.

ولذا فمن أعظم الأسباب التي يتقى بها الظلم الفرار من الظلمة ومجالسهم وعدم شهود مظالمهم إلا من أراد رفع مظلمة أو إنكار ظلم أو مناصحة للظالمين دون الاستئناس معهم؛ فهذا مما يؤذن فيه، وهو

---

(١) مساوئ الأخلاق للخرائطي: ص ٢٧٩.

علىٰ كل حال محكوم بقاعدة تعارض المصالح والمفاسد. وفي نفس الوقت يبحث عن أهل الخير والصلاح والعدل ويلزم غرزهم ويعيش في أكنافهم ويقتدي بسيرتهم العادلة، كما أن عليه أن يكثر من قراءة سير السلف الصالحين الذين هدوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وكان فيهم من الورع والزهد ما كانوا به ينصفون من أنفسهم ولا يظلمون الناس شيئًا، فالإكثار من مصاحبة الصالحين وقراءة سيرهم الزكية يربي في النفس العدل وكراهية الظلم والخوف من عواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة.

الرابع: فهم أسماء الله عز وجل وصفاته العلىٰ والتعبد له سبحانه بها.

وهذا السبب فرع عن السبب الأول المتعلق بالفقه في دين الله عز وجل عقيدة وأحكامًا، ولكن لأهميتة رأيت إفراده هنا في سبب مستقل.

إن العارف بالله عز وجل وأسمائه وصفاته ولوازمها وآثارها يختلف عن الغافلين عن هذه المعارف العظيمة؛ فلاتراه إلامتعبداً لله عز وجل بهذه الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ. ومن هذه الأسماء والصفات التي تعين علىٰ اتقاء الظلم وتبعاته أسمائه سبحانه: السميع، والعليم، والبصير، والقدير، والقاهر، والرقيب.

إن من تأمل هذه الأسماء الحسنىٰ وتدبرها وتعبد لله عز وجل بها فإنها لابد أن تحجزه عن الظلم بأنواعه كلها؛ سواء ظلم النفس بالشرك الأكبر، أو ظلمها بما دون ذلك من المعاصي، أو ظلمها بالاعتداء علىٰ حقوق العباد والإضرار بهم. ذلك أن أسماءه سبحانه: السميع، العليم، البصير، الرقيب كلها تورث في القلب مراقبة الله عز وجل والشعور بعلمه وسمعه وبصره وشهوده لكل ما يعمله العبد، فمن تعبد لله عز وجل بهذه الأسماء أورثت عنده الخوف من الله عز وجل الذي يورث بدوره الكف عن ما يسخطه من المعاصي كبيرها وصغيرها.

كما أن التعبد لله عز وجل بأسمائه التي تدل علىٰ القدرة العظيمة التي لا يعجزها شيء وعلىٰ قهره سبحانه لكل شيء، يورث ذلك كله الانكفاف عن ظلم العباد في نفس أو مال أو عرض؛ لأن الظلم في الغالب يقع من القوي القادر علىٰ الضعيف العاجز فإذا تذكر الظالم أن قدرة الله عز وجل فوق قدرته وأنه سبحانه القاهر فوق عباده وأن ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إذا تذكر ذلك كله فإن هذا مما يردع المرء عن الظلم ويكفه عنه ويزجره.

كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ إلىٰ بعض عماله: «أما بعد: فإذا دعتك قدرتك علىٰ الناس إلىٰ ظلمهم فاذكر قدرة

الله تعالىٰ عليك، ونفاد ما تأتي إليهم وبقاء ما يأتون إليك»[١].

ويوضح الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ أثر الأسماء والصفات في الكف عن المعاصي والمظالم فيقول: «والأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين؛ فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها.. فعلم العبد بسمعه تعالىٰ وبصره، وعلمه وأنه لا يخفىٰ عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفىٰ ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه ويرضاه...»[٢] أهـ.

الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى.

إن الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة وتدل عليه الشواهد والوقائع أنه ما من أمة تقوم فيها شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويرتفع فيها علم الجهاد إلا ويزول عنها كثير من صور الظلم ومظاهره ويسودها العدل ويرتفع الذل والهوان فيها، ويحل محله العزة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ١٣١.

(٢) مفتاح دار السعادة ص: ٤٢٥ (باختصار).

والألفة والموالاة بين أبنائها؛ لأن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقضى علىٰ الفساد والمظالم التي تقع علىٰ الناس في أديانهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وبالجهاد يرتفع الظلم عن المظلومين المضطهدين، وبالجهاد يقضى علىٰ الفتنة في الدين ويتم إنقاذ المستضعفين. قال الله تعالىٰ: ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥)**﴾ [النساء: ٧٥]، وقال عز وجل: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)**﴾ [البقرة: ١٩٣]. ويذكر لنا الله عز وجل تلك العلاقة الطردية بين موالاة المؤمنين بعضهم لبعض وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيقول سبحانه: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)**﴾ [التوبة: ٧١].

ويقول الرسول ﷺ: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله؛ سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتىٰ ترجعوا إلىٰ دنيكم)[1].

---

(١) أبو داود في البيوع والإجارات (٣٤٦٢)، وقال محقق جامع الأصول: هو صحيح.

من خلال النصوص السابقة يتضح لنا الأثر العظيم لشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في اتقاء الظلم ورفعه إذا وجد بين الناس؛ لأن الأمة التي يؤخذ فيها على يد السفيه والظالم فيردع عن ظلمه، وينصر فيها المظلوم، ويعلم الظالم أنه متى ما ظلم وطغى وبغى فإن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر له بالمرصاد، إن الأمة حين تكون بهذه المثابة فإن الناس يعيشون آمنين على دينهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم وحينها يقل الظلم بين الناس ويعيشون في ألفة وسلام ومحبة وإخاء، ويوالي بعضهم بعضاً، ويجتمعون على عداوة الكافرين والمنافقين الذين يتربصون بهم الدوائر. وبذلك تحيى العزة في النفوس، ويزول الذل والوهن والضعف، وتكون مهيأة للجهاد في سبيل الله عز وجل.

وهنا مسألة مهمة أرى أنها جديرة بالذكر في هذا المقام ألا وهي أثر الحكم بشرع الله عز وجل والتحاكم إليه في رفع الظلم واتقاء المظالم، والتلازم الشديد بينهما؛ فحيثما كان الحكم بشرع الله عز وجل في حياة الناس فإن العدل والأمن والطمأنية تسود حياتهم وفي مثل هذه الأجواء يقل الظلم والظالمون، وعلى العكس من ذلك عندما يضعف الحكم بما أنزل الله أو يغيب عن حياة الناس فإن مظاهر الظلم والعناء والشقاء تبدو في حياتهم واضحة للعيان، وهذا أمر معروف من سنن الله عز وجل في التغيير حيث إن ما يصيب الناس من ظلم بعضهم بعضاً أو ظلم الولاة لهم أو تسلط الأعداء عليهم وعلى ولاتهم، فإن

كل ذلك بسبب إعراضهم عن شرع الله عز وجل وعدم التزام أحكامه وإقامة حدوده، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦].

كما أن هذا الأمر معروف أيضًا ومشاهد في حياة الأمم والمجتمعات؛ فما من أمة أعرضت عن شرع الله عز وجل وحكمت بغير ما أنزل الله تعالىٰ إلا وظهر فيها من المصائب والمظالم والمفاسد ما لا يعلمه إلا الله تعالىٰ، ولا يماري في ذلك إلا مغالط مطموس البصيرة.

ومع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله عز وجل يعد من أعظم الأسباب الرافعة للظلم والفساد، إلا أن هذه الشعيرة العظيمة يبقىٰ أثرها محدودًا وضعيفًا في المجتمعات التي لا تحكم بما أنزل الله تعالىٰ، ولا يظهر أثرها العظيم إلا حينما يجتمع القرآن والسلطان، ويهيمن علىٰ الناس شرع الله المطهر. ولا يعني هذا ترك الأمر والنهي في المجتمعات التي لا تحكم بشرع الله عز وجل! كلا، بل لا بد من الأمر والنهي ومدافعة الظلم والفساد حسب المستطاع، مع

العمل الجاد لإنكار المنكر الأكبر وإقامة المعروف الأكبر وهو توحيد الله عز وجل بالطاعة والاتباع المتمثل في الحكم بما أنزل الله ورفض شرع ما سواه حتىٰ يكون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أثرهما الإيجابي في حياة الناس، فيؤخذ علىٰ أيدي الظالمين والمفسدين، ويؤطرون علىٰ الحق أطراً بقوة القرآن والسلطان. وبذلك تختفي كثير من صور الظلم والفساد والعدوان.

السادس: العفو عن الناس وترك الانتصار للنفس.

إن من أسباب الوقوع في الظلم والعدوان: البغي في رد الظلم وذلك في حال الانتقام من الظالم بدافع الغضب والغيظ فينشأ من ذلك عقوبته بأشد مما عاقب به، ومن هنا ينشأ الظلم•ويولد بعضه بعضًا والله عز وجل يقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، هذا هو العدل. وأما الفضل ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٤٣]، وقد مدح الله عز وجل العافين عن الناس بقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

[آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

ولما كان رد الظلم والانتصار للنفس من الظالم لا يقف في الغالب

عند حد المثل في العقاب بل إن شعور الغضب والانتقام يدفع صاحبه إلىٰ تجاوز العدل في الانتصار ويوقعه في البغي والزيادة علىٰ المأذون له فيه، من أجل ذلك جاء الندب إلىٰ العفو وترك الانتصار لما في ذلك من الأجر، ولما فيه من البعد عن الظلم والعدوان والذي لا يسلم منهما المنتصر لنفسه في غالب الأحوال.

وهذا الإمام ابن عون رحمه الله تعالىٰ قد ضربه بلال بن أبي بردة بالسياط ومع ذلك لما جاءه قوم فقالوا له: يابن عون: بلال فعل كذا. فقال: إن الرجل يكون مظلومًا، فلا يزال يقول حتىٰ يكون ظالمًا. ما أظن أحدًا منكم أشد علىٰ بلال مني، وكان بلال ضربه بالسياط، لكونه تزوج امرأة عربية[1].

والشاهد من هذه القصة تورّع ابن عون رحمه الله تعالىٰ عن الكلام فيمن ظلمه خشية الزيادة علىٰ العدل فيقع في ظلم ظالمه وهو لا يشعر.

وإلىٰ هذا يشير شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ فيقول:

« ... والظلم محرم في كل شيء ولكل أحد، فلا يحل ظلم أحد أصلاً سواء كان مسلمًا أو كافرًا أو كان ظالمًا. بل الظالم إنما يباح أو يجب فيه العدل عليه أيضًا... قال تعالىٰ ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ**

(١) سير أعلام النبلاء (٦ / ٣٧٠).

عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، وقد دل علىٰ هذا قوله في الحديث: (يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا)[١].

فإن هذا خطاب لجميع العباد أن لا يظلم أحدا أحداً ... ولهذا جاءت السنة بالقصاص في ذلك ومقابلة العادي بمثل فعله، لكن المماثلة قد يكون علمها أو عملها متعذراً ومتعسراً ولهذا يكون الواجب ما يكون أقرب إليها بحسب الإمكان... ولهذا كان القصاص مشروعًا إذا أمكن استيفاؤه من غير جنف كالاقتصاص في الجروح التي تنتهي إلىٰ عظم وفي الأعضاء التي تنتهي إلىٰ مفصل فإذا كان الجنف واقعًا في الاستيفاء عدل إلىٰ بدله وهو الدية لأنه أشبه بالعدل»[٢] أ هـ.

ولكن هل الصبر والعفو عن الظالم ممدوح علىٰ الإطلاق أم أن الأمر فيه تفصيل؟

يقول الأستاذ محمود خزندار: «إن صفة التوازن التي تميز بها ديننا تجعل المؤمن في بعض المواطن متواضعًا متسامحًا؛ يعفو ويصفح، وإذا ما غضب يغفر، وفي مواطن أخرىٰ تجده أبيًا حريصًا علىٰ مروءته، مطالبًا بحقه، مقتصًا من ظالمه، منتصراً من المسيء إليه، فمتىٰ يكون الانتصار؟

---

(١) مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧).

(٢) شرح حديث « يا عبادي إني حرمت الظلم» ص ٤٩، ٥٠.

يوضح ابن العربي جواب هذا التساؤل بقوله: (أن يكون الباغي معلنًا بالفجور، وقحًا في الجمهور، مؤذيًا للصغير والكبير، فيكون الانتقام منه أفضل) ويصف الحالة المقتضية للعفو فيقول: (أن تكون الفلتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة، ويسأل المغفرة، فالعفو ها هنا أفضل).

وقد استحسن القرطبي هذا التفصيل وأقره، وحمل الغفران علىٰ غير المصر وقال: (فأما المصر علىٰ البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه) إلىٰ أن قال ... ولا يجوز للمنتصر أن يتعدىٰ علىٰ أخيه المسلم بأكثر مما أساء إليه، ولا يحق له أن يغمطه حقه، ففي رواية مسلم لحديث عائشة السابق تقول عائشة وفاء لضرّتها التي كانت تساميها في المنزلة عند رسول الله ﷺ: (... ولم أر امرأة قط خيرًا في الدين من زينب وأتقىٰ لله وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدَّق به وتَقرَّب به إلىٰ الله تعالىٰ، ما عدا سَوْرةٍ من حِدَّة كانت فيها، تسرع منها الفيئة)[1] وذلك أدب النبوة فمع مبادأتها بالسّباب لم تتجاوز حد العدل، ولم تغفل عن أن تعذرها.

ويجب أن نفرق بين انتصارنا من أخينا الذي غلب خيره والانتصار من الظالم المصرّ أو الكافر المستكبر، وإذا توقعت أن انتصارك من

(١) صحيح مسلم (٢٤٤٢).

أخيك المسيء إليك قد يزيد الشر، ويوغل في التمادي وتفاقم الخطب فاسدد أبواب الشيطان، وقدر المصالح والمفاسد... وأما كظم الغيظ فمستحسن ومندوب إليه بعد التمكن من الظالم والقدرة عليه، وإذا علم صدق توبته وندمه، أو أنها زلة منه لم يصر عليها، فالعفو عنه عندئذ هو الأولىٰ، أما عفو الضعيف فهو عفو المكره المستضعف ولا فضيلة فيه »(١) أهـ.

السابع: دعاء الله عز وجل والإكثار من الأعمال الصالحة.

إن سؤال الله عز وجل العدل في الأقوال والأعمال واجتناب الظلم بشتىٰ صوره لمن أقوىٰ الأسباب في اتقاء الظلم والإقلاع عنه.

والعبد ضعيف وطبعه الظلم والجهل كما قال عنه ربه عز وجل: ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ولو وكله الله سبحانه إلىٰ نفسه طرفة عين لهلك وضاع وخسر، لذا فإن الاستعانة بالله عز وجل ودعاءه والتضرع إليه في أوقات الإجابة تعين علىٰ النجاة من الظلم وأهله، فلا توفيق إلا توفيقه سبحانه، ولا نجاة من الشرور إلا بعونه وتسديده، فإذا انضم الدعاء مع الأسباب السابقة فإنها نافعة إن شاء الله تعالىٰ في اتقاء الظلم والظالمين، ولو وقع العبد في شيء من الظلم فإن الله تعالىٰ يوفقه للإقلاع منه والتوبة والإنابة.

---

(١) عن كتاب: هذه أخلاقنا: ص ٦٥ – ٧٠ باختصار.

ومن الأدعية الواردة في ذلك ما يلي:

○ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ما خرج رسول الله ﷺ من بيتي قط إلا رفع طرفه إلىٰ السماء فقال: (اللَّهم إني أعوذ بك أن أضِل أو أُضل، أو أزِل أو أُزل، أو أظلِم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل علي)[1].

○ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللَّهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض، رب كل شي ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه) وفي رواية: (وأن أقترف علىٰ نفسي سوء أو أجره إلىٰ مسلم؛ قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك)[2].

○ ما ورد في الدعاء الذي سمعه عمار بن ياسر رضي الله عنه من رسول الله ﷺ وفيه: (اللَّهم إني أسألك خشتيك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب)[3].

---

(١) أبو داود في الأدب (٥٠٩٤) وغيره من أصحاب السنن.

(٢) أحمد (١/٩، ١٠)، (٢/٢٩٧)، وأبو داود في الأدب (٥٠٦٧) وغيرهما.

(٣) النسائي في السهو (٣/٥٤، ٥٥).

كما أن الإكثار من الأعمال الصالحة والتقرب إلىٰ الله عز وجل بالنوافل بعد الفرائض من أعظم الأسباب في حفظ جوارح العبد من أن يظلم بها نفسه أو يظلم بها الناس.

ويشهد لهذا ما رواه النبي ﷺ عن ربه عز وجل أنه قال: (من عادىٰ لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بأحب مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها... الحديث)[1] وحفظ الله سبحانه لسمع العبد وبصره ويده ورجله معناه أن لا تتصرف هذه الجوارح إلا في مرضاته، وبهذا يتقىٰ الظلم وأسبابه.

* * *

---

(١) البخاري في الرقاق (٦٥٠٢).

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والحمد لله الذي أنعم علي بتمام هذا البحث علىٰ ما فيه من الخلل والقصور، وأشكره سبحانه علىٰ ما يسر من معالجة بعض جوانب هذ الموضوع الخطير، ولعلي في هذه الخاتمة أن ألخص أهم النتائج والنصائح التي ظهرت في المباحث السابقة، وذلك من خلال النقاط التالية:

(١) الشمولية في فهم الظلم وأنه ليس كما يفهمه بعض الناس ويقصرونه علىٰ أنواع محدودة منه؛ فلقد ظهر لنا من خلال البحث أن الظلم يشمل كل معصية لله عز وجل ولكنه يتفاوت حسب نوع المعصية التي عصي الله تعالىٰ بها؛ فإن كان من جنس الشرك بالله عز وجل فهو أعظم الظلم وأكبره، ولو مات مرتكبه بدون توبة فإن الله تعالىٰ لا يغفره له، أما ظلم النفس بما دون الشرك فصاحبه تحت المشيئة لو مات منه بلا توبة مع أن هذا الظلم أيضًا يتفاوت حسب كبر المعصية من صغرها وحسب تعدي المعصية إلىٰ غير فاعلها من عدمه. لأن ظلم النفس بالمعصية التي لا يكون فيها ظلم للعباد أخف وأقرب إلىٰ المحو من ظلم النفس بظلم العباد في أحد الضروريات الخمس؛ ذلك أن ظلم العباد فيه حقان: حق لله تعالىٰ يزول بالتوبة والاستغفار، وحق للمخلوق لا يزول إلا بالتحلل منه والمسامحة.

(٢) كما ظهر لنا من خلال البحث الأنواع الكثيرة والدقيقة من ظلم العباد بعضهم لبعض بحيث أن الواحد منا لو فتش عن نفسه وممارساته وتعاملاته مع الناس – القريب منهم والبعيد – لوجد أنه متلبس بواحدة أو أكثر من هذه الصور المختلفة، وقد يكون قبل هذه المحاسبة ومعرفة هذه الأنواع الدقيقة يحسب نفسه بعيدة عن ظلم العباد والعدوان عليهم. وهذا التصور الزائف عن النفس وتبرئتها من الظلم إنما نشأ من النظرة المحدودة لظلم العباد في كونه ينحصر في الاعتداء عليهم بالقتل أو الضرب أو أكل أموالهم وغصبها فحسب، أو أنه يحدث في الغالب مع الأجانب والأباعد. لكن ما إن يحاسب الواحد منا نفسه وينظر إلىٰ ظلم العباد بالنظرة الشرعية الشاملة والتي تنظر إلىٰ الظلم بأنه الاعتداء علىٰ الناس في أديانهم أو أنفسهم أو عقولهم أو أموالهم أو أعراضهم، وأن الحذر منه يتأكد ويشتد مع الأقارب من والد وولد وزوج وزوجة وغيرهم، لأن مظنة التقصير في حقوقهم وتحمل تبعاتهم تكون أكثر من غيرهم؛ وذلك للالتصاق الدائم بهم ولما بينهم من الحقوق والواجبات والتي يعد التقصير فيها ظلمًا لهم، فما إن ينظر الواحد منا هذه النظرة الشاملة إلا ويخشي أن يكون مع الظالمين وهو لا يشعر.

(٣) كما ظهر لنا أيضًا من خلال البحث أن ظلم العباد يتفاوت حسب ما يحدثه هذا الظلم من الأذىٰ والضرر علىٰ المظلوم؛ فالظلم

الذي ينشأ عنه الضرر العظيم علىٰ الدين بكفر أو بدعة أو فسق أو غير ذلك أشد من الضرر الذي قد يقع علىٰ النفس أو المال، والظلم الذي يقع علىٰ النفس بالقتل أو نحوه أشد من الظلم الذي يقع علىٰ المال وهكذا.

بل إن الظالم الذي يتضرر بظلمه الواحد من الناس ليس كمن يتضرر بكلمته وعمله الفئام من الناس، فالذي يظلم الناس بغيبه أو نميمة أو شتم أو غير ذلك مما يتضرر به آحاد الناس ليس كظلم الذي يضل بكلمته المسموعة أو فلمه المشاهد الجموع الغفيرة من الناس سواء في ما يسببه من انحراف وشبهات في الدين أو ما يثيره من شهوات تفسد الأخلاق والسلوك. وهذا هو الذي تمت الإشارة إليه في ظلم التجار والإعلاميين لأمتهم مما يبثه الإعلاميون ويستورده التجار مما من شأنه إفساد الأمة بعامة في ضرورياتهم الأساسية التي جاءت الشريعة للحفاظ عليها وحمايتها مما يضر بها. ولنا أن نتصور تلك الأضرار والأثقال العظيمة التي يتحملها هؤلاء الظالمون في حق أمتهم وحق من أضلوهم بغير علم، وذلك يوم يعرضون علىٰ ربهم لا تخفىٰ منهم خافية ويوم: ﴿**لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥٢].

(٤) قد يلاحظ التكرار في بعض صور الظلم وخاصة فيما يتعلق بظلم الإعلاميين والتجار للأمة وما يقومون به من ترويج للفساد وآلاته

ونشر للكتب والمجلات التي تفسد علىٰ الناس عقيدتهم وأخلاقهم، كما قد يلاحظ تكرارها عند الحديث عن ظلم الوالدين لأولادهم بجلبها إلىٰ بيوتهم، وهذا التكرار مقصود لذاته ، وذلك أن كل صنف من الأصناف السابقة قد ساهم بجهد أو أكثر في ظلم العباد من خلال هذه المجالات المفسدة لدين الناس وأعراضم وأموالهم. فلوا أخذنا مثلاً جهاز التلفاز أو البث المباشر لوجدنا صرحه لا يقوم وأثره المفسد لا يصل إلىٰ الناس في بيوتهم، إلا بأن يتعاون فيه مجموعة من الظلمة منهم الظالم الذي يخون أمانته وأمته ويمكن للمفسدين حتىٰ يعتلوا هذه الصروح ويأذن لهم ليفسدوا في الأرض، ومنهم الإعلامي الظالم الذي يقدم للناس الكلمة المسموعة المشبوهة والفيلم المشاهد الذي يقتل الفضيلة ويحيي الرذيلة، ومنهم التاجر الذي ظلم نفسه وأمته وجعل كسبه من شراء وبيع هذه الأجهزة الخبيثة، وأصبح من المساهمين في ترويجها وتيسير وصولها إلىٰ بيوت الناس، ومنهم ولي الأمر في أسرته الذي ظلم نفسه ومن ولاه الله أمرهم فأحضر باختياره هذه الأجهزة إلىٰ بيته وصار كمن يخرب بيته بيده، وينتهي الظلم إلىٰ ذلك المشاهد الغافل في البيت أو السوق لما يبثه هذا الجهاز من السموم، فهو الآخر لا يبرأ من الظلم حتىٰ لو لم يكن سببًا في إحضاره أو شرائه، لأنه ظلم نفسه بسماعه أو رؤيته إلىٰ ما حرم الله عز وجل، وكان بإمكانه رفضه واعتزاله.

وبهذا يُعلم شؤم هذا الجهاز وكم يشترك فيه من الظلمة وبالإمكان أن يقاس عليه أمثلة أخرىٰ، وعلىٰ ذلك فإن إعادة بعض الأمثلة في أكثر من صورة ليس هو من باب التكرار وإنما هو من باب التنبيه علىٰ أن مثالاً واحداً يمكن أن يوجد في أكثر من صورة حسب تعلق الظالم بهذه الصورة.

(٥) لعله قد تبين لنا بعد هذه الجولة السريعة عواقب وخطورة الظلم وآثاره السيئة في الدنيا والآخرة وأن واحدة من هذه الآثار والعواقب الوخيمة كافية لمن كان له عقل أن تحجزه عن الظلم والظالمين.

وإن العقوبة الأخروية التي تنتظر الظالم وبخاصة ما جاء في حديث «المفلس» لتهون في جانبه كل عقوبة. كيف لا؟! والظالم هنالك يقف بين يدي ربه تعالىٰ عاري النفس والفؤاد وعاري الجسد وعاريًا من كل شيء إلا من أعمال صالحة كان يعملها في الدنيا ويعلق أمله عليها بعد الله تعالىٰ في الآخرة ثم هو يراها وقد تطايرت عنه إلىٰ أهلها الذين ظلمهم في الدنيا بإضلال أو قتل أو ضرب أو شتم أو هتك عرض أو أكل مال أو غير ذلك مما فيه تعدٍ علىٰ حقوق العباد. وقد لا تفي أعماله الصالحة بحقوق الغرماء، مما يؤدي به إلىٰ تحويل أوزار الذين ظلمهم إلىٰ ظهره الضعيف، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فحري بمن يحب لنفسه الخير ويمهد لها في الآخرة أن يفتش عن نفسه ما تنطوي عليه من المظالم صغيرها وكبيرها، فيسعىٰ جاهداً قبل

مباغتة الأجل في التوبة من الظلم بأنواعه وصوره فما كان منه متعلقًا بالمعاصي التي بين العبد وربه فإن التوبة منها تكون بالعزيمة الصادقة علىٰ تركها والندم علىٰ فعلها وعدم العودة إليها، وما كان منها متعلقًا بحقوق العباد فلا بد من إرجاع الحقوق إلىٰ أهلها والتحلل منهم وطلب المسامحة علىٰ التفصيل المذكور سابقًا في مبحث التوبة من مظالم العباد.

(٧) وكما أن في هذا البحث تحذيراً وتهديداً للظالم من مغبة ظلمه وعاقبة عدوانه في الدنيا والآخرة فإن فيه أيضًا عزاء وتسلية للمظلوم بأن لا ييأس ولا يذل ويضعف فإن له موعداً من الله عز وجل بنصره والانتصار له ممن ظلمه سواء رأىٰ ذلك في الدنيا وإلا فهو مضمون عنده سبحانه في الآخرة يوم توضع الموازين القسط ليوم القيامة، ويوم يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، ولذلك قال ميمون بن مهران رحمه الله تعالىٰ عند قوله سبحانه: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٤٢]: «إن فيها تعزية للمظلوم ووعيداً للظالم»[١].

(٨) لم أتطرق في هذا البحث إلىٰ ظلم الكفار الأصليين من يهود ونصارىٰ وغيرهم وإنما كان جل الكلام موجه إلىٰ ما يصدر من

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٨٣.

المسلمين أومن يدعي الإسلام من الظلم والمظالم.

ولو أدخلت الكلام عن ظلم الكفار وكيدهم في هذا البحث لطال وتضاعف؛ إذ لابد أن يفصل القول في ظلمهم الشديد المديد للمسلمين في تاريخهم الطويل ، ولا بد أن أتعرض لما يقومون به في عصرنا الحاضر من تقتيل وتشريد للمسلمين في كل مكان ولابد من الحديث عن الموازين الجائرة التي تطبق علىٰ المسلمين وقضاياهم بينما يتبدل الميزان رأسًا علىٰ عقب إذا كان في صالح أعداء المسلمين، وقد أصبح هذا مشاهداً ومسموعًا لكل ذي عين وأذن، ولابد أن نفصل الكلام علىٰ هيئة الأمم المتحدة وظلمها البين للمسلمين، ومجلس الأمن الذي أصبح جل همه توفير الأمن لليهود وأعداء المسلمين... إلخ هذه المظالم التي يطول الكلام فيها وتخرج بالبحث عن مقصوده.

وبعــــد

فهذا ما يسَّرَه الله عز وجل من الحديث حول هذا الموضوع الخطير الذي يهم كل مسلم ومسلمة عالـمًا كان أو متعلمًا، عاميًا كان أو مثقفًا، ذكرًا كان أو أنثىٰ.

أسأله سبحانه أن ينفعني به وإخواني المسلمين، وأن يتقبله مني في حياتي وبعد مماتي:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف: ٤٧].

﴿رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون: ٩٤].

(اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)[١].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

عصر يوم الإثنين ١٩/٣/١٤١٩هـ

* * *

---

(١) البخاري: في صفة الصلاة ـ باب الدعاء قبل السلام ٢/٢٦٥، مسلم (٢٧٠٥) في الذكر والدعاء.

الفهرس

الموضـــوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
❑	٥ – ١٤
المقدمة	٧
– أسباب اختيار الموضوع وأهميته	١٣
– خطة البحث	
❑ **المبحث الأول: تعريف الظلم وبيان ما ورد في ذمه من آيات وأحاديث**	١٥ – ٣٢
	١٥
– تعريف الظلم	١٧
– الآيات الواردة فيه وتقسيمها إلىٰ مجموعات ..	٢٣
– أحاديث عامة في ذم الظلم وسوء عاقبة الظالمين.	
– جملة من مواقف السلف من الظلم وخوفهم من	٢٧
سوء عاقبته	٣٣–٢١١
❑ **المبحث الثاني: أقسام الظلم**	٣٥
– تقسيم الظلم إلىٰ ثلاثة أقسام..............	
– ظلم النفس بما هو دون الشرك، ولم يكن ظلمًا للعباد هو ذنب يعرض صاحبه للعذاب إلا أن يغفره الله أو يكفر عنه بنحو أسباب	

عشرة ٤٤

○ **القسم الأول: ظلم النفس بالظلم الأعظم؛ وهو الكفر والشرك بالله تعالى:** .... ٤٧ – ٧٦

– الشرك ثلاثة أقسام ٥٠

(١) الشرك في الربوبية ٥٠

(٢) الشرك في توحيد الأسماء والصفات ٥٢

(٣) الشرك في توحيد الإلهية والعبادة....... ٥٢

بعض أنواع الشرك في الإلهية والعبادة مثل:

– المحبة، التوكل، الخوف.............. ٥٤

– الرجاء، الصلاة، الدعاء.............. ٥٥

– الذبح، النذر، الطواف، الاستعاذة الاستغاثة... ٥٦

أنواع أخرى من الشرك في الألوهية: ٥٨

– الطاعة في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم (الشرك في الحكم).................. ٥٨

– تولي الكفرة والمشركين وعدم البراءة منهم ومن شركهم........................ ٦٩

الشرك في الألوهية لا يخرج في جملته عن أنواع ثلاثة:

– شرك في النسك والعبادة، شرك في الطاعة والحكم، شرك في الولاية وعدم البراءة من المشركين ٧١

– نواقض الإيمان الاعتقادية............. ٧٣

– نواقض الإيمان القولية................ ٧٤

- نواقض الإيمان العملية ٧٥
○ **القسم الثاني: ظلم النفس بوقوعها في مظالم العباد:** .... ٧٧ - ٢٠٠
- ظلم الناس يكون بمنع حقوقهم، أو فعل ما يضر بهم ٧٨
صور ظلم العباد :
- **الصورة الأولىٰ:** ظلم الأولاد لوالديهم ٧٩
- **الصورة الثانية:** ظلم الوالدين لأولادهم ٨٥
- **الصورة الثالثة:** ظلم الأزواج لزوجاتهم ٩٣
- **الصورة الرابعة:** ظلم الزوجة لزوجها ٩٩
- **الصورة الخامسة:** ظلم أهل العلم والدعاة بعضهم لبعض ١٠٤
- **الصورة السادسة:** الظلم الذي يجب أن يحذره القضاة ١٢٢
- **الصورة السابعة:** ظلم أرباب الأعمال لعمالهم ١٣٨
- **الصورة الثامنة:** ظلم العمال لأرباب العمل ١٤٥
- **الصورة التاسعة:** من ظلم التجار للأمة ١٤٨
- **الصورة العاشرة:** من ظلم الإعلاميين للأمة. ١٥٢
- **الصورة الحادية عشرة:** ظلم اليتيم ١٥٨

- **الصورة الثانية عشرة**: الظلم الواقع بين عامة الناس ١٦٠
١- أمثلة لظلم الناس في أديانهم ١٦١
٢- أمثلة لظلم الناس في أبدانهم ١٦٢
٣- أمثلة لظلم الناس في أعراضهم ١٦٧
٤- أمثلة لظلم الناس في أموالهم ١٧٠
- **الصورة الثالثة عشرة**: ظلم الحيوان ١٨١
- **هل من سبيل إلىٰ التوبة من حقوق العباد؟** ... ١٨٧
١- التوبة من ظلم الناس في دينهم ١٨٩
٢- التوبة من ظلم الناس في أبدانهم وأنفسهم .. ١٩٢
٣- التوبة من ظلم الناس في أعراضهم ١٩٥
٤- التوبة من ظلم الناس في أموالهم ١٩٨
○ **القسم الثالث: ظلم النفس بمعاص دون الشرك وليس للعباد فيها حق** : .... ٢٠١ - ٢١١
الفرق بين الصغائر والكبائر ٢٠٢
معنىٰ لطيف لابن القيم في الكبيرة والصغيرة ... ٢٠٥
أمثلة لبعض الكبائر ٢٠٦
مسألة: بعض الذنوب قد لا يختص بقسم واحد من أقسام الظلم ٢٠٩
□ **المبحث الثالث: ذكر بعض آثار الظلم وعواقبه السيئة** .... ٢١٢ - ٢٣١

أولاً: الآثار الدنيوية ٢١٢
ثانيًا: الآثار الأخروية ٢٢٨
□ **المبحث الرابع: ذكر بعض الأسباب المعينة على توقي الظلم** .... ٢٣٢ – ٢٥٤
– الأسباب التي توقع في الظلم ثلاثة: الشبهات، القوة الشهوانية، القوة الغضبية ٢٣٢
– من الأسباب المعينة على توقي الظلم:
١– الفقه في الدين والالتزام بالأحكام الشرعية... ٢٣٤
٢– تذكر الآثار والعقوبات التي تحل بالظالمين في الدنيا والآخرة ٢٣٦
٣– الابتعاد عن الظالمين ومجالسهم ومصاحبة الصالحين المقسطين ٢٣٩
٤– فهم أسماء الله عز وجل وصفاته العلىٰ والتعبد له سبحانه بها ٢٤٢
٥– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالىٰ ٢٤٤
٦– العفو عن الناس وترك الانتصار للنفس...... ٢٤٨
٧– دعاء الله عز وجل والإكثار من الأعمال الصالحة ٢٥٢
□ **الخاتمة** ٢٥٥
□ **الفهرس** ٢٦٣

وقفات تربوية

في ضوء

سورة العصر

الرسالة الرابعة عشرة
الجزء الخامس

وقفات تربوية
في ضوء
سورة العصر

بقلم
عبد العزيز بن ناصر الجليل

دار طيبة للنشر والتوزيع

ⓒ دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الجليل، عبد العزيز بن ناصر
وقفات تربوية في ضوء سورة العصر.ـ الرياض
٢٧٠ص، ١٧×٢٤سم
ردمك: ٩ ـ ٥٣ ـ ٨٠٠ ـ ٩٩٦٠
١ ـ القرآن ـ مباحث عامة ٢ ـ التربية الاسلامية أ ـ العنوان
ديوي ٢٢٩ ٢١/٢٢٩٩
رقم الإيداع: ٢١/٢٢٩٩
ردمك: ٩ ـ ٥٣ ـ ٨٠٠ ـ ٩٩٦٠

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

دار طيبة للنشر والتوزيع
الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق
ص. ب ٧٦١٢ الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٣٧٣٧ فاكس ٤٢٥٨٣٧٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده رسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

أمـــا بعـــد

فهذه هي الرسالة الرابعة عشرة من سلسلة الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم ، وقد خصَّصتها للكلام على سورة قليلة آياتها عظيمة معانيها ومقاصدها ، ألا وهي سورة العصر ذات الآيات الثلاث ؛ وبهذا فإن هذه الرسالة تختلف عن سابقاتها من الرسائل في كونها تتناول ذكر الوقفات التربوية لثلاث آيات مترابطات مرة واحدة ؛ بينما كانت الوقفات في الرسائل السابقة منصبة على آية واحدة أو بعض آية .

وإن المتأمل في آيات سورة العصر وما تحمل من المعاني الإيمانية والتربوية ؛ ليدرك أهمية الترابط بين آياتها ، وأن الفائدة لا تتم إلا بأن

يتم التناول لجميع آيات هذه السورة العظيمة .

وفيما يلي ذكر بعض النقاط التي تؤكد أهمية دراسة هذه السورة الجليلة ومقاصدها ، وسبب اختيارها ضمن سلسلة الوقفات التربوية :

١- روى الطبراني في الأوسط من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الله بن حصن الدارمي أنه قال : ((**كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر**))[1].

وهذا الصنيع من أصحاب رسول الله ﷺ يدل على عظم شأن هذه السورة وما تحمله من وصايا عظيمة يتعاهدون عليها ؛ يتعاهدون على الإيمان والصلاح ، ويتعاهدون على التواصي بالحق والتواصي بالصبر وعلى أنهم من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور المتمثل في سورة العصر .

٢- قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في مفتاح دار السعادة : ((قال الشافعي رحمه الله : لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم[2].

---

[1] الطبراني في الأوسط ٥/٢١٥ (٥١٢٤) ط . دار الحرمين .

[2] وردت صيغة أخرى لمقولة الشافعي ذكرها ابن كثير فقال : قال الشافعي : لو تدبر =

وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله : **إحداها** : معرفة الحق ، **والثانية** : عمله به ، **والثالثة** : تعليمه من لا يحسنه ، **والرابعة** : صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه .

فذكر سبحانه وتعالى المراتب الأربعة في هذه السورة ، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣ ﴾ وهم الذين عرفوا الحق وصدَّقوا به ؛ فهذه مرتبة .

﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ هم الذين عملوا بما علموا من الحق ؛ فهذه مرتبة أخرى .

﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ ﴾ وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً فهذه مرتبة ثالثة .

﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ صبروا على الحق ، ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات ؛ فهذه مرتبة رابعة ، وهذا نهاية الكمال ؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره ، وكماله

= الناس هذه السورة لوسعتهم .

بـإصلاح قوتيـه العلميـة والعمليـة ، فصـلاح القـوة العلميـة بالإيمـان وصـلاح القـوة العملية بعمـل الصالحـات ، وتكميله غيره بتعليمه إيـاه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل .

فـهذه السـورة على اختصارهـا هـي مـن أجمـع سـور القـرآن للخـير بحذافيره ، والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كـل مـا سواه شافيـاً من كل داء هادياً إلى كل خير))[1] أهـ .

٣- في هذه السورة تحديد لمعنى الخسران الحقيقي ، كمـا أن فيـها بيـان أصـول النجـاة والفـوز في الدنيـا والآخـرة ، وإن الضـرورة لمعـرفة هـذه المقومـات والعمـل بـها لتربو فـوق كـل ضـرورة ، وإن الضـرورة والحاجة لهذه المعرفة لتظهر بشكل جلي في زماننـا اليـوم ؛ زمـن الغربـة الذي أعرضـت فيه البشرية عن هذا الخير ، وركنت إلى دنياها ، فحـاق بها الشقاء والخسران من كل جانب ، بما في ذلك كثير مـن المسلمـين الذيـن أعرضـوا عـن كتـاب ربـهم ومـا فيـه مـن النـور والهـدى والفـوز العظيم، وفي هذا يقول سيد قطب رحمه الله تعالى : ((وننظـر اليـوم مـن خلال هذا الدستور الذي يرسمه القرآن لحياة الفئة الرابحة الناجيـة مـن الخسران فيهولنا أن نرى الخسر يحيق بالبشرية في كـل مكـان على ظهر

---

[1] مفتاح دار السعادة ١/٥٨-٥٩ .

الأرض إلا من رحمه الله تعالى ؛ يهولنا هذا الضياع الذي تعانيه البشرية في الدنيا قبل الآخرة ، يهولنا أن نرى إعراض البشرية ذلك الإعراض البائس عن الخير الذي أفاضه الله عليها ، مع فقدان السلطة الخيرة المؤمنة القائمة على الحق في هذه الأرض ، وأكثر المسلمين أو أصحاب دعوى الإسلام بتعبير أدق ممن بعدوا أيضاً عن هذا الخير ، وأعرضوا عن المنهج الإلهي الذي اختاره الله لهم ، وعن الدستور الذي شرعه لأمتهم ، وعن الطريق الوحيد الذي رسمه للنجاة من الخسران والضياع، لتتعلق [أي هذه البشرية] برايات عنصرية لم تنل تحتها خيراً قط في تاريخها كله ؛ لم يكن لها تحتها ذكر في الأرض ولا في السماء حتى جاء الإسلام فرفع لها هذه الراية المنتسبة لله لا شريك له ، المسماة باسم الله لا شريك له...الراية التي انتصر العرب تحتها وسادوا وقادوا البشرية قيادة خيرة قوية واعية لأول مرة في تاريخهم وفي تاريخ البشرية الطويل ››[1] أهـ.

ونظراً لأهمية هذه السورة وما تضمنته من أصول النجاة السالفة الذكر ، فإن الحديث عن تفاصيل هذه المقومات ومتعلقاتها كما ورد في كتب التفسير والعقائد والأخلاق ليعطيها أهمية أكبر وعناية أشد

---

[1] في ظلال القرآن ٦/٣٩٦٨ ط . الشروق بتصرف يسير .

في تدبرها والالتزام بوصاياها .

وهذا ما سنبينه في ثنايا البحث إن شاء الله تعالى ؛ ومن هذه المقدمة اليسيرة التي بينت أهمية هذه السورة ووجوب تدبرها والعناية بما ورد فيها من أسباب النجاة فإنه يمكن تقسيم مباحث هذه السورة إلى ما يلي :

المبحث الأول : المعنى الإجمالي للسورة ومقاصدها .

المبحث الثاني : تفسير كلمة (**العصر**) وبيان أهمية الوقت في عمر الإنسان .

المبحث الثالث : أصول النجاة من الخسران كما توضحها السورة :

الأصل الأول : الإيمان .

الأصل الثاني : العمل الصالح .

الأصل الثالث : التواصي بالحق .

الأصل الرابع : التواصي بالصبر .

الخاتمة .

المبحث الأول : البيان المجمل للسورة ومقاصدها

سورة العصر مكية : في قول ابن عباس ، وعبد الله بن الزبير ﷺ ، وعليه الجمهور ، وعِدَادُها في ترتيب النزول الثالثة عشرة ، نزلت بعد الانشراح ، وقبل سورة العاديات ، وهي ثلاث آيات[١].

((وقد تضمنت هذه السورة القصيرة ذات الآيات الثلاث منهجاً كاملاً للحياة البشرية يرسم طريق النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وأوجزت معالم هذا المنهج في أربعة أمور : الإيمان ، والعمل الصالح ، والدعوة إلي الدين الحق ، والصبر والثبات عليه ، وكل من أخطأ هذا المنهج أو غفل عنه فإنه هالك خاسر كما هو حال أغلب الناس على مر العصور))[٢].

((وأقسم الله تعالى بـ ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ ﴾ - وهو الدهر- لانطوائه على تعاجيب الأمور ، ولأنه يذكر بما فيه من النعم وأضدادها فينبه الإنسان على أنه مستعد للخسران والسعادة .

---

[١] انظر تفسير سورة العصر للدكتور عبد العزيز قارئ ص ١٣ وقد نقله عن الدر المنثور ٦/٣٩٠.

[٢] المصدر السابق ص ١٦ (بتصرف يسير) .

ويدخل في العصر الليل والنهار وعمر الإنسان))[١].

والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾ وهو حقيقة هامة مخيفة : إن جنس الإنسان الغالب على حاله الخسران ؛ فهو في تجارة رأس ماله فيها عمره ، والغالب أنه يضيعه فيما يضره ولا ينفعه ؛ لذا تجد أكثر الناس هالكين بسبب انشغالهم بحب الدنيا واستغراقهم في طلبها ؛ يصرفون أعمارهم في مباغيهم التي لا ينتفعون بها ، فهم مشغولون بالفاني عن الباقي ، ومشتغلون بالضار ، ولاهون عن النافع ؛ ولهذا حق عليهم الخسار وأحاط بهم .

ولا يسلم من هذا الحكم العام على جنس الإنسان إلا القليل ؛ وهم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ بجوارحهم وفق سنة رسول الله ﷺ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وهذا من أعمالهم الصالحة ، وهو أن يوصي بعضهم بعضاً بالتمسك بالدين الحق الذي هو الإسلام ، وبدعوة الناس إليه ؛ فهم جماعة متعاونون متعاضدون على ذلك ويوصي بعضهم بعضاً بالثبات على ذلك ، والصبر على الطاعة ، وعلى القيام بأمر الله، والدعوة إلى دينه وتحمل الأذى في سبيله، راضين

---

[١] محاسن التأويل للقاسمي باختصار .

ظاهراً وباطناً بما يقدره الله سبحانه وتعالى عليهم .

فأهل النجاة من الدمار والسلامة من الخسار إنما ظفروا بالفوز والفلاح وربحوا في تجارتهم بتحقيقهم ذلك على مرتبتين :

أولاهما : تكميلهم لأنفسهم بالإيمان والعمل الصالح ، **والأخرى** تكميلهم لغيرهم بالدعوة إلى الإسلام والثبات والصبر عليه[١].

وبعد هذا الاستعراض السريع للمعنى المجمل للسورة يجدر الإشارة إلى **بعض المسائل المهمة المتعلقة بها** :

المسألة الأولى : مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها :

ذكر الدكتور عبد العزيز قارئ حفظه الله شيئاً من هذه المناسبة فقال: « أربع سور بينها تلاحم عجيب وحسن اتساق ، ففي **سورة القارعة** بيَّن الله تعالى أهوال يوم القيامة ، وانقسام الناس فيها إلى سعيد ينجو من العذاب ويحظى بالثواب ، فهو في حال طيبة ، وشقي ذهبت أعماله هباءً منثوراً فمصيره إلى النار، ثم في **سورة التكاثر** بين أن من أسباب تردي الأشقياء في نار جهنم اشتغالهم بدنياهم عن دينهم فملأوا موازينهم بالحطام وسودوا صحائفهم بالآثام ، ونبه إلى أن الناس سيسألون عما يعملون وعن النعيم الذي يتمتعون به ؛ فالحساب

---

[١] انظر تفسير سورة العصر د. قارئ ص١٨، ١٩، ٢٠.

آت والبعث قريب ، ثم في **سورة العصــــر** بيَّن حال الإنسان - جنس الإنسان - وأنه غلبت عليه الخسارة ؛ فهو بطبعه ونقصانه يُفني عمره فيما لا ينفعه إلا القليل ، وبينت السورة من هم هؤلاء القليل الذين نجوا من ذلك الخسران وسعدوا بالربح العظيم في تجارتهم .

ثم في **ســـورة الهمـــزة** عاد يحذر الإنسان من الانشغال بجمع المال؛ فهو بطبيعته مجبول على حبه كما بين في **سورة العاديات** ، وشرح هنا عواقب الاستسلام لهذا الميل الغريزي الذي قد ينتهي به إلى الحطمة التي هي نار الله الموقدة ››[1]أهـ .

المسألة الثانية : ما نوع الخسران الذي يحل بالإنسان إذا لم يتصـف بأسباب النجاة المذكورة كلها أو بعضها ؟

و**الجواب** على هذه المسألة فيه تفصيل : وذلك أن الخسران مراتب متفاوتة ، **فمنه الخسارة** التامة الأبدية ؛ وذلك لمن لم يأت بالإيمان أو جنس العمل[2]حيث الخلود في النار عياذاً بالله ، **ومنه الخســـارة** من وجه دون وجه ؛ وذلك في من حقق مطلق الإيمان لكنه أخل ببعض

---

[1] تفسير سورة العصر د. قارئ ص ١٤،١٥ .

[2] كأن يكون معرضاً متولياً عن طاعة الله عز وجل .

العمل من تركٍ لبعض الواجبات أو فعل لبعض المحرمات غير الْمُكَفِّرة أو أخل ببعض الحق ، أو ضعف صبره على ذلك ، فمثل هذا قد عرَّض نفسه لمطلق الخسران ، وإن كان مآله الجنة بسبب ما معه من الإيمان والإذعان .

والحاصل : أن ما كان من هذه الصفات الأربع تركه ينقض الإيمان بالكلية ؛ فإن مرتكبه يقع في الخسران التام المؤبد والعياذ بالله عز وجل .

وما كان منها تركه لا يقدح في أصل الإيمان وإنما في كماله الواجب فإن مرتكبه معرض للخسران والعذاب بوجه من الوجوه حتى يتطهر ويكون في مصاف الرابحين الفائزين .

وعلى هذا فإنه يمكننا تقسيم الناس في الربح والخسران إلى الأقسام التالية :

١- أهل الخسران المطلق ؛ وهم الكفار وكل من لم يتحقق فيه أصل الإيمان .

٢- أهل مطلق الخسران ؛ وهم من تحقق فيه أصل الإيمان وأخلّ ببعض الواجبات أو فعل بعض المحرمات ولم يتب من ذلك ، فهذا معرض للخسران المؤقت وليس الخسران التام المؤبد .

٣- الرابحون الناجون من مطلق الخسران؛ وهم المكملون لهذه الصفات

الأربع المذكورة في هذه السورة الجليلة ، فمثل هؤلاء لا يتعرضون للخسران بوجه من الوجوه ، وإنما هم الفائزون الذين يدخلون الجنة بلا عذاب ؛ يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى : «**والخسار مراتب** متعددة متفاوتة : قد يكون **خساراً مطلقاً** ، كحال من خسر الدنيا والآخرة وفاته النعيم واستحق الجحيم ، وقد يكون **خاسراً من بعض الوجوه** دون بعض ، ولهذ عمم الله الخسار لكل إنسان إلا من اتصف بأربع صفات :

الإيمان : بما أمر الله بالإيمان به ، ولا يكون الإيمان بدون العلم ، فهو فرع عنه لا يتم إلا به .

العمل الصالح : وهذا شامل لأفعال الخير كلها الظاهرة والباطنة المتعلقة بحقوق الله ، وحقوق عباده الواجبة والمستحبة .

والتواصي بالحق : الذي هو الإيمان والعمل الصالح ؛ أي يوصي بعضهم بعضاً بذلك ، ويحثه عليه ويُرَّغبه فيه .

التواصي بالصبر : على طاعة الله ، وعن معصية الله ، وعلى أقدار الله المؤلمة .

فبالأمرين الأولين يكمل العبد نفسه ، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد قد سلم من الخسار وفاز

بالربح العظيم))[١] أهـ.

ويقول الطاهر بن عاشور في تفسير هذه السورة : ((وهذا الخسر متفاوت : فأعظمه وخالده الخسر المنجر عن انتفاء الإيمان بوحدانية الله تعالى ، وصدق الرسول ﷺ ، ودون ذلك تكون مراتب الخسر متفاوتة بحسب كثرة الأعمال السيئة ظاهرها وباطنها ، وما حدده الإسلام لذلك من مراتب الأعمال وغفران بعض اللمم ؛ إذا ترك صاحبه الكبائر والفواحش ؛ وهو ما فُسر به قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤]))[٢] أهـ.

وقال الألوسي : ((واستدل المعتزلة بما في هذه السورة على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار ، لأنه لم يستثنى فيها إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وأجيب عنه بأنه لا دلالة في ذلك على أكثر من كون غير المستثنى في خسر ، وأما على كونه مخلداً في النار فلا ، كيف والخسر عام فهو إما بالخلود إن مات كافراً وإما بالدخول في النار إن مات عاصياً ولم يغفر له ، وإما بفوات

---

[١] تفسير السعدي : تفسير سورة العصر .

[٢] التحرير والتنوير ١٥/٥٣١، ٥٣٢.

الدرجات العاليات إن غفر له . وهو جواب حسن))[1] أهـ.

المسألة الثالثة : إذا كان الإيمان والعمل الصالح أصلي النجاة فما وجه ذكر التواصي بالحق وبالصبر بعدهما ؟

والجواب من وجوه :

الوجه الأول : أن يقال بأن التواصي بالحق والتواصي بالصبر هما من الأعمال الصالحة بل من أفضلها ؛ حيث يوصي بعضهم بعضاً بالتمسك بالحق الذي هو دين الإسلام ، متبعين في ذلك ما جاء به الرسولﷺ ؛ فهم جماعة متعاونون يدعون إلى الله تعالى ، ويوصي بعضهم بعضاً بالثبات على الحق والصبر عليه وتحمل الأذى في سبيله ، ولعل مجيء التواصي بالحق والصبر بعد العمل الصالح من باب ذكر الخاص بعد العام ، لإبراز كمال الاعتناء بهما ؛ لأن أهل النجاة من الخسران إنما يحصلون على ذلك بتكميل أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح ، وتكميل غيرهم بالدعوة إلى الحق والصبر عليه ، بل إن الإيمان والعمل الصالح لا يكملان عند العبد إلا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

الوجه الثاني: وهو فرع عن الأول؛ وذلك أن الإيمان والعمل الصالح

---

(١) روح المعاني ٢٩٣/١٥.

مع كونهما الأصلين المهمين في النجاة إلا أنهما لا يقومان ولا يستقيم العبد عليهما ويثبت إلا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ؛ فمن عُدِم عنده التواصي بالحق وعدم عنده الصبر فإن إيمانه وعمله الصالح لا يتماسكان بل يزولان ، فلابد للإيمان والعمل الصالح من حب للحق ودعوة إليه ، ولابد من صبر على تكاليف الإيمان والعمل الصالح ، حيث لابد من الصبر على فعل الواجبات وترك المحرمات وأقدار الله المؤلمة ، فمن عدم الصبر على ذلك كله فلا إيمان له ، فضلاً عن أن يكون له عمل صالح ، كما أن في ذلك إشارة إلى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثره في الحفاظ على الإيمان والأعمال الصالحة ، ومدافعة ما يضادهما ويفسدهما من الشرور والفساد .

الوجه الثالث : ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حول هذه الآيات حيث يقول:« وتأمل حكمة القرآن لما قال : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾ فإنه ضيق الاستثناء وخصصه فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ .

ولما قال : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ [التين:٥] وسع الاستثناء وعممه ، فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [التين:٦] ولم يقل ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ ﴾ فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل

الصالح ، وهو قدر زائد على مجرد فعله ، فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر ، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره .

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة ، وقد تكون فرضاً على الأعيان وقد تكون فرضاً على الكفاية ، وقد تكون مستحبة .

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب والحق الذي يستحب، **والصبر** يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يستحب ؛ فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ، ولم يأمروا غيرهم به ، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ، فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء ، وهو سبحانه إنما قال : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ ﴾ ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه خسر وأنه ذو خسر كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « **لقد فرطنا في قراريط كثيرة** »[1] ، فهذا نوع تفريط وهو

---

[1] البخاري ك . الجنائز (١٣٢٣) ، (١٣٢٤) ، ومسلم ك . الجنائز (٩٤٥) .

نوع خسر بالنسبة إلى من حصَّل ربح ذلك .

ولما قال في سورة التين : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ ﴾ قال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ فقسم الناس إلى هذين القسمين فقط . ولما كان الإنسان له قوتان : قوة العلم وقوة العمل ، وله حالتان :حالة يأتمر فيها بأمر غيره ، وحالة يأمر فيها غيره؛ استثنى سبحانه من كمل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح وانقاد لأَمْر غيره له بذلك وأَمَرَ غيره به من الإنسان الذي هو في خسر ؛ فإن العبد له حالتان : حالة كمال في نفسه ، وحالة تكميل لغيره ، وكماله وتكميله موقوف على **أمرين** :

علم بالحق ، وصبر عليه ؛ فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الإنساني من : العلم النافع ، والعمل الصالح ، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك))[1]أهـ.

---

(1) بدائع التفاسير ٥/٣٢٩ .

المبحث الثاني

تفسير كلمة (العصر) وبيان أهمية الوقت في عمر الإنسان

اختلفت عبارات المفسرين في تفسير ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ ﴾ الذي أقسم الله تعالى به في هذه السورة ، ولكنها في جملتها لا تضاد بينها ، وإنما هي من باب اختلاف التنوع حيث يشملها معنى كلي واحد كما هو واضح في الأقوال التالية :

• يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : ((﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ ﴾ الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر ، وقال مالك عن زيد بن أسلم : هو العشي ، والمشهور الأول))[١] أهـ.

• وقال في الدر المنثور : ((وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴾ قال : ساعة من ساعات النهار ، كما أخرج ابن المنذر أيضاً عن ابن عباس : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴾ قال : هو ما قبل مغيب الشمس من العشي))[٢] أهـ.

• وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :((﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴾ المقسم به

---

[١] تفسير ابن كثير سورة العصر .

[٢] الدر المنثور تفسير سورة العصر .

قيل هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار ، وقيل هو آخر ساعة من ساعاته ، وقيل المراد صلاة العصر ، وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح ، وتسمية الدهر عصراً أمر معروف في لغتهم ؛ قال الشاعر :

ولن يلبث العصران يوم وليلة   إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

(يوم وليلة) بدل من (العصران) ، فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه ؛ فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام وتعاقبهما واعتدالهما تارة وأخذ أحدهما من صاحبه تارة ، واختلافهما في الضوء والظلام ، والحر والبرد ، وانتشار الحيوان وسكونه ، وانقسام العصر إلى القرون والسنين والأشهر والأيام والساعات وما دونها ؛ آية من آيات الرب تعالى ، وبرهان من براهين قدرته وحكمته ؛ فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان ، والفاعلين وأفعالهم على المعاد ، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد ، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم ، وجعلها قسمين خيراً وشراً ، تأبى أن يسوي بينهم ، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته

وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر ، إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به ؛ وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين))[١]أهـ.

• وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى بعد ما ساق بعض الأقوال في معنى العصر : ((والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن ربنا أقسم بالعصر والعصر اسم للدهر ، وهو العشي والليل والنهار ، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى ، فكل ما لزمه هذا الاسم أقسم به جل ثناؤه))[٢]أهـ.

ويقول الشوكاني رحمه الله تعالى : ((أقسم سبحانه بالعصر ـ وهو الدهر ـ لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار وتعاقب الظلام والضياء ؛ فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل وعلى توحيده ، ويقال لليل عصر وللنهار عصر))[٣]أهـ.

وبهذا يتضح أن اختيار أكثر المفسرين كالإمام الطبري وابن كثير

---

[١] بدائع التفسير ٥/٣٢٨،٣٢٩ .

[٢] تفسير الطبري سورة العصر .

[٣] فتح القدير تفسير سورة العصر .

وابن القيم رحمهم الله تعالى أن المراد بالعصر هو الدهر والزمان الذي هو ظرف لأعمال بني آدم ، وما يحدث لهم ومنهم ، وغيره من الأقوال هو في حقيقة الأمر داخل في معنى الدهر والزمان .

مناسبة القسم بالعصر الذي هو الدهر لموضوع السورة :

لله عز وجل أن يقسم بما شاء من خلقه ، ولا يجوز للمخلوق أن يقسم إلا بالله عز وجل أو أسمائه وصفاته ، وقسم الله عز وجل بشيء من مخلوقاته يدل على شرفه أو لفت الانتباه إليه ، والتأكيد على أهميته أما من حيث مناسبة المقسم به للسورة فقد سبق فيما مضى قول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في ذكر طرفاً من هذه المناسبة وفيما يلي مزيد من أقوال المفسرين في الربط بين الدهر وموضوع السورة :

• يقول الألوسي رحمه الله تعالى : « أقسم الله عز وجل به لاشتماله على أصناف العجائب ، ولذا قيل له أبو العجب ؛ وكأنه تعالى يذكر بالقسم به ما فيه من النعم وأضدادها ؛ لتنبيه الإنسان المستعد للخسران والسعادة ، ويعرض عز وجل لما في الإقسام به من التعظيم ؛ بنفي أن يكون له خسران أو دخل فيه كما يزعمه من يضيف الحوادث إليه ، وفي إضافة الخسران بعد ذلك للإنسان إشعار بأنه صفة له لا للزمان كما قيل :

يعيبون الزمان وليس فيه معايب غير أهل الزمان[(١)]

• ويقول الرازي في التفسير الكبير : « إن الدهر مشتمل على الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء والضراء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، ... وإن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو ضيعت ألف سنة ثم تبت في اللمحة الأخيرة من العمر بقيت في الجنة أبد الآباد ، فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة ، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم ، فلذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف ، وإليه الإشارة بقوله قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان:٦٢] وأنه تعالى ذكر العصر الذي بمضيه ينتقص عمرك ، فإذا لم يكن في مقابلته كسب صار ذلك النقص هو عين الخسران ، ولذلك قال ﴿ لَفِى خُسۡرٍ ﴾ ومنه قول القائل :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

فكان المعنى : والعصر العجيب أمره حيث يفرح الإنسان بمضيه أنه وجد الربح مع أنه هدم لعمره وإنه لفي خسر .. وعن بعض السلف تعلمت معنى السورة من بائع الثلج ، كان يصيح ويقول : « ارحموا

(١) روح المعاني : تفسير سورة العصر .

من يذوب رأس ماله ، ارحموا من يذوب رأس ماله)) فقلت : هذا معنى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ ﴾ يمر به العصر فيمضي عمره ، ولا يكتسب فإذا هو خاسر))[1] أهـ.

● وقال في أضواء البيان : ((فهذه السورة فيها دفع لكل فرد إلى الجد والعمل المربح ، ودرجات الجنة رفيعة ومنازلها عالية مهما بذل العبد من جهد ، فإن أمامه مجال للكسب والربح ، نسأل الله التوفيق والفلاح .

وقد قالوا : لا يخرج إنسان من الدنيا إلا حزيناً ؛ فإن كان مسيئاً فعلى إساءته ، وإن كان محسناً فلتقصيره ، وقد يشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ ﴾ [فصلت:٣٠] فالخوف من المستقبل أمامهم ، والحزن على الماضي خلفهم ، والله تعالى أعلم .

ويبين خطر هذه المسألة : أن الإنسان إذا كان في آخر عمره ، وشعر بأيامه المعدودة وساعاته المحدودة ، وأراد زيادة يوم فيها ، يتزود منها أو ساعة وجيزة يستدرك بعضاً مما فاته، لم يستطع لذلك سبيلاً ، فيشعر

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/٨٠-٨١ .

فيشعر بالأسى والحزن على الأيام والليالي والشهور والسنين التي ضاعت عليه في غير ما كسب ولا فائدة ، كان من الممكن أن تكون مربحة له))[1]أهـ.

ويقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى : ((والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي هذه : إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار ، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار ليس هنالك إلا منهج واحد رابح وطريق واحد ناجح ، هو ذلك المنهج الذي يرسم السورة حدوده ، وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه ، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار))[2]أهـ.

وبعد ذكر المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه يحسن بنا ـ إتماماً للفائدة ـ ذكر شيء من مواقف السلف التي تدل على يقظتهم والاستفادة من أوقاتهم في الاستعداد ليوم المعاد ، وزهدهم العظيم في كل ما لا ينفع في الآخرة :

---

(١) أضواء البيان ٩/٤٩٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٦٤ .

• وخير ما نبدأ به قول النبي ﷺ : ((**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ**))[١].

قال الحافظ في الفتح : ((قال ابن بطال : معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فمن فرط في ذلك فهو المغبون ، وأشار بقوله (كثير من الناس) إلى أن الذي يوفق لذلك قليل وقال ابن الجوزي : قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش ، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعتا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون ، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة ، ومن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله عز وجل فهو المغبوط ، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون لأن الفراغ يعقبه الشغل ، والصحة يعقبها السقم ، ولو لم يكن إلا الهرم كما قيل :

يسر الفتى طول السلامة والبقا فكيف ترى طول السلامة يفعل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحمل[٢]))

---

(١) صحيح البخاري (ح٦٤١٢)(الفتح ٢٣٣/١١) .

(٢) فتح الباري ٢٣٣/١١ .

• وعن الحسن البصري رضي الله عنه قال: ((ابن آدم إنما أنت أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضك))[١] .

• وعن الحسن أيضاً قال : ((أدركت أقواماً كان أحدهم أشح على عمره منه على درهمه))[٢] .

• ومن كلام الحسن أيضاً في موعظة لأصحابه يزهدهم بها في الدنيا ويرغبهم في الآخرة قوله : ((ولا يلهينك المتاع القليل الفاني ، ولا تربص بنفسك في سريعة الانتقاص من عمرك ، فبادر أجلك ولا تقل غداً غداً فإنك لا تدري متى إلى الله تصير))[٣] .

• ومن جميل كلام الحسن البصري رحمه الله ضمن كتاب طويل كتبه إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله : ((لأصفن لك الدنيا ؛ ساعة بين ساعتين ، ساعة ماضية ، وساعة آتية ، وساعة أنت فيها : فأما الماضية والباقية فليس تجد لراحتهما لذة ، ولا لبلائهما ألماً ، وإنما الدنيا ساعة أنت فيها فخدعتك تلك الساعة عن الجنة ، وصيرتك إلى النار ، وإنما اليوم إن عقلت ضيف نزل بك وهو مرتحل عنك ، فإن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/٥٨٥ .

(٢) شرح السنة للبغوي ١٤/٢٢٥.

(٣) حلية الأولياء ٢/١٤٠ .

أحسنت نزله وقراه شهد لك وأثنى عليك بذلك وصدق فيك ، وإن أسأت ضيافته ولم تحسن قراه جال في عينيك ، وهما يومان بمنزلة الأخوين نزل بك أحدهما فأسأت إليه ولم تحسن قراه فيما بينك وبينه ، فجاءك الأخر بعده فقال إني قد جئتك بعد أخي ؛ فإن إحسانك إليَّ يمحو إساءتك إليه ويغفر لك ما صنعت ، فدونك إذ نزلت بك وجئتك بعد أخي المرتحل عنك ، فلقد ظفرت بخلف منه إن عقلت ، فَدَارِكْ ما قد أضعت ، وإن ألحقت الآخر بالأول فما أخلقك أن تهلك بشهادتهما عليك ؛ إن الذي بقى من العمر لا ثمن له ولا عدل ؛ فلو جمعت الدنيا كلها ما عدلت يوماً بقي من عمر صاحبه ، فلا تبع اليوم ولا تعدله من الدنيا بغير ثمنه ، ولا يكونن المقبور أعظم تعظيماً لما في يديك منك ، وهو لك ، فلعمري لو أن مدفوناً في قبره قيل له هذه الدنيا أولها إلى آخرها تجعلها لولدك من بعدك يتنعمون فيها من ورائك فقد كنت وليس لك هم غيرهم - أحب إليك أم يوم تترك فيه تعمل لنفسك ؟ لاختار ذلك ، وما كان ليجمع مع اليوم شيئاً إلا اختار اليوم عليه رغبة فيه وتعظيماً له ، بل لو اقتصر على ساعة خُيِّرها وما بين أضعاف ما وصفت لك وأضعافه يكون لسواه إلا اختار الساعة لنفسه على أضعاف ذلك يكون لغيره ، بل لو اقتصر على كلمة يقولها تكتب له وبين ما وصفت لك وأضعافه لاختار الكلمة الواحدة عليه ، فانتقد

اليوم لنفسك وأبصر الساعة وأعظم الكلمة واحذرالحسرة عند نزول السكرة ، ولا تأمن أن تكون لهذا الكلام حجة .

نفعنا الله وإياك بالموعظة ، ورزقنا وإياك خير العواقب ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته))[1] أهـ

• وقال القاسم بن عساكر عن سُلَيم بن أيوب : ((حدثْتُ عنه أنه كان يحاسب نفسه في الأنفاس ، ولا يدع وقتاً يمضي بغير فائدة ؛ إما ينسخ أو يدرِّس أو يقرأ ، وحدثت عنه أنه كان يحرك شفتيه إلى أن يَقُطَّ القلم)) [2]أهـ.

• ويحكي أبو الوفاء علي بن عقيل عن نفسه فيقول : ((إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين)) [3]أهـ.

---

[1] حلية الأولياء ١٣٩/٢ .

[2] سير أعلام النبلاء ٦٤٦/١٧ .

[3] المنتظم لابن الجوزي ٢١٤/٩ .

• ويقول ابن الجوزي عن نفسه رحمه الله : ((لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ويسمون ذلك التردد خدمة ، ويطلبون الجلوس ، ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يغني ، ويتخلله غيبة .

وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس ، وربما طلبه المزور وتشوّق إليه واستوحش من الوحدة ، وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد؛ فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض ، ولا يقتصرون على الهناء والسلام ، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان .

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء ، والواجب انتهازه بفعل الخير كرهت ذلك ، وبقيت معهم بين أمرين : إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف ، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان ، فصرت أدافع اللقاء جهدي ، فإذا غلبت عليه قصَّرت في الكلام لأتعجل الفراق .

ثم أعددت أعمالاً لاتمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد، وبري الأقلام وحزم الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لابد منها ، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب؛ فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي))[1]

---

[1] صيد الخاطر ص ١٨٤-١٨٥.

• ومن نظم أبي الوليد الباجي[١]:

إذا كنت أعلم علماً يقيناً بأن جميع حياتي كساعة
فلم لا أكون ضنيناً بها وأجعلها في صلاح وطاعة

وقال الحاكم : ((رحلت إلى أبي النضر الطوسي مرتين وسألته متى تتفرغ للتصنيف مع هذه الفتاوى الكثيرة ؟ فقال : جزأت الليل أثلاثاً : فثلث أصنف ، وثلث أنام ، وثلث أقرأ القرآن))[٢]أهـ.

• ويقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى : ((فإذا علم الإنسان ـ وإن بالغ في الجد ـ بأن الموت يقطعه عن العمل عَمِلَ في حياته ما يدوم له أجره بعد موته ؛ فإن كان له شيء من الدنيا وقف وقفاً وغرس غرساً، وأجرى نهراً ، ويسعى في تحصيل ذرية تذكر الله بعده فيكون له الأجر، أو أن يصنف كتاباً من العلم ـ فإن تصنيف العالم ولده المخلَّد ـ يكون عاملاً بالخير ، عالماً فيه فينقل من فعله ما يقتدي الغير به))[٣].

• ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في حفظ الوقت : ((والقصد أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة ، إذ

---

[١] نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء ١٤٤٠/٣.

[٢] المصدر السابق ١٢٥٢/٣.

[٣] صيد الخاطر ص ٢٠ .

صاحب حفظه مترق على درجات الكمال ، فإذا أضاعه لم يقف موضعه ، بل ينزل إلى درجات من النقص ، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولا بد ، فالعبد سائر لا واقف ، فإما إلى فوق ، وإما إلى أسفل ، إما إلى أمام وإما إلى وراء ، وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف البتة ، ما هو إلا مراحل تطوى أسرعَ طيٍّ إلى الجنة أو إلى النار ، فمسرع ومبطئ ، ومتقدم ومتأخر ، وليس في الطريق واقف البتة ، وإنما يتخالفون في جهة المسير وفي السرعة والبطء .

قال تعالى : ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧ ﴾ [المدثر:٣٥-٣٧] ولم يذكر واقفاً ، إذ لا منزل بين الجنة والنار ، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة ، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة .

فإن قلت : كل مجد في طلب شيء لا بد أن يعرض له وقفة وفتور ، ثم ينهض لطلبه .

قلت : لابد من ذلك ، ولكن صاحب الوقفة له حالان : إما أن يقف ليجمَّ نفسه ، ويعدها للسير ، فهذا وقفته سير ولا تضره الوقفة

فإن « **لكل عمل شِرَّة ولكل شرَّة فترة** »[١].

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه وجاذب جذبه من خلفه ، فإن أجابه أخَّره ولابد ، فإن تداركه الله برحمته وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره ؛ نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع ، ووثب وجمز واشتد سعياً ليلحق الركب ، وإن استمر مع داعي التأخر ، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة ، وإجابة داعي الهوى ، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركاً ، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض ، فإنها أخطر منه وأصعب .

وبالجملة : فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه وتخليصه ؛ وإلا فهو في تأخر إلى الممات راجع القهقرى ناكص على عقبيه ، أو مول ظهره ولا قوة إلا بالله ، والمعصوم من عصمه الله »[٢]أهـ.

ويقول في موطن آخر : « فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة ، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم ، ومادة معيشته الضنك في

---

[١] أخرجه أحمد (٢/١٨٨، ٢١٠) والطحاوي في مشكل الآثار (٢/٨٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه الترمذي (٢٤٥٣) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كذلك .

[٢] مدارج السالكين ١/٢٦٧ ، ٢٦٨ .

العذاب الأليم ، وهو يمر أسرع من مر السحاب ، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته ، فإن عاش عيش البهائم وقطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة كان خير ما قطعه به النوم والبطالة فموت هذا خير له من حياته))[1]أهـ.

وعن قيمة الوقت وتفاوت أهل اليقظة فيه يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى : ((سبحان من فاوت بين أهل اليقظة في قوة السير وضعفه ، وفي استغراق جميع الأوقات في العبادة وعدمه ، منهم من يكون سيره مستقيماً في ليله ونهاره ، ومع ذلك يتخير من الأعمال أفضلها وأكملها ، ولا ينزل من فاضلها إلى مفضولها إلا لمصلحة تقترن بالمفضول ، توجب أن يساوي العمل الفاضل ويزيد عليه .

وقد يكون المباح في حق هذا عبادة لكمال إخلاصه ، ونيته بهذا المباح أن يجم نفسه ويتقوى به على الخير فتراه يتنقل في مقامات العبودية في كل وقت بما يناسبه ويليق به ؛ لا فرق عنده بين العبادة المتعلقة بحقوق الله المحضة ، وبين العبادة المتعلقة بحقوق الخلق على اختلاف مراتبهم وأحوالهم .

---

[1] الجواب الكافي ص ٢١٣.

ولقد ذكرت في هذا المقام كلاماً لبعض الشيوخ لما رأى كثرة المجتمعين ببعض أصحابه قال مؤدباً لهم مقوماً : يا مناخ البطالين ، يريد أنهم يقطعون عليه وقته عن الخير ، وكلاماً أيضاً للشيخ أبي الفرج بن الجوزي في سياق الخبر عن نفسه بحفظه الوقت ، وأنه رأى مما لابد منه أن ينتابه أناس للزيارة ، وأنه لما رأى ان هذه الحال تقطع عليه وقته أعد للوقت الذي يجتمعون فيه إليه أشياء من أمور الخير لا تمنع من زيارتهم ، ولا تقطع عليه وقته ؛ مثل تقطيع الأوراق ، وصنع المداد وبري الأقلام التي لا بد له منها لتصنيف العلوم النافعة ، وهي لا تمنع الحديث مع الناس والاستئناس بهم .

فقلت : سبحان من مَنَّ على هؤلاء السادة بحفظ أوقاتهم ، وبقوة العزيمة على النشاط على الخير ، ولكن كل كمال يقبل التكميل والرقي إلى حالة أرفع منه ؛ فلو أن هؤلاء الأجلاء الفضلاء جعلوا اجتماعهم مع الناس للزيارة والدعوات وغيرها من المجالس العادية فرصة يغتنمون فيها إرشاد من اجتمع بهم إلى الخير والبحث في العلوم النافعة ، والأخلاق الجميلة ، والتذكر لآلاء الله ونعمه ، ونحو ذلك من المواضيع المناسبة لذلك الوقت ، ولذلك الاجتماع - بحسب أحوال الناس وطبقاتهم - وأنهم وطَّنوا أنفسهم لهذا الأمر ، وتوسلوا بالعادات إلى العبادات ، وبرغبتهم إلى الإجتماع بهم إلى انتهاز الفرصة في

إرشادهم ، لحصلوا بذلك خيراً كثيراً ، وربما زادتهم هذه الاجتماعات مقامات عالية ، وأحوالاً سامية مع ما في ذلك من النفع العظيم للعباد ؛ لأنه ليس من شروط نفع العالم أن يرشد فقط المستعدِّين لطلب العلم من المتعلمين ؛ بل يكون مستعداً لإرشاد الخلق أجمعين بحسب أحوالهم واستعدادهم وعلمهم وجهلهم وإقبالهم وإعراضهم ، وأن يعامل كل حالة بما يليق بها من الدعوة إلى الخير والتسبب لفعله ، وتعطيل الشر وتقليله ، وأن يستعين الله على ذلك .

فمن كانت هذه حاله لم يتبرم باجتماعه بالخلق مهما كان حريصاً على حفظ وقته ، لأن التبرم إنما هو للحالة التي يراها العبد ضرراً عليه ومفوتة لمصالحه ، والله الموفق وحده لا شريك له »[1].

---

(١) الفتاوى السعدية ص ٤٩-٥١ .

المبحث الثالث

أصول النجاة الأربعة المذكورة في هذه السورة

لما ذكر الله عز وجل أن جنس الإنسان في خسر وتباب ؛ استثنى منه من اتصف بصفات أربع تعد أصول النجاة والفوز من العذاب والخسران وهذه الصفات هي التي وردت بعد أداة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر:٣] فهي إذاً :

١ــ الإيمان .

٢ــ العمل الصالح .

٣ــ التواصي بالحق .

٤ــ التواصي بالصبر .

وسأفرد في المطالب القادمة إن شاء الله لكل أصل من هذه الأصول الأربعة مطلباً أفصل القول فيه ، فأسأله سبحانه التوفيق والعون والسداد .

الأصل الأول : الإيمــــان

وهذا هو أصل الأصول، والأساس الذي تقوم عليه بقية الأصول وأعمدة الدين ، وبدونه لا ينتفع العبد من عمل ولا قول ـ مهما كان هذا العمل موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ ـ فإنه حينئذٍ مردود على صاحبه غير مقبول . ولقد جاء قيد الإيمان في كثير من الآيات المذكور فيها العمل الصالح ، وذلك حتى ينتفع به صاحبه قال تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤] وقال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] ولكن ما المراد بالإيمان المذكور في الآيات السابقة وفي هذه السورة ؟ إن الجواب على ذلك يوجد فيما أجاب به الرسول ﷺ جبريل عليه السلام حينما سأله في الحديث الطويل فقال : فأخبرني عن الإيمان ؟ فقال الرسول ﷺ : « **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره ...** »[1].

---

(1) رواه مسلم في أول كتاب الإيمان رقم (٨) .

هذه هي أركان الإيمان التي لا يصح إيمان عبد إلا بها ، وإذا جاء الأمر بالإيمان مطلقاً فإنه يتوجه إلى هذه الأركان الستة التي وردت في حديث جبريل عليه السلام .

وقد ورد في كتاب الله عز وجل ذكر جلِّ هذه الأركان ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء:١٣٦] وهذه هي الأركان المذكورة في حديث جبريل عليه السلام ماعدا ركن القدر فهو داخل في الإيمان بالله عز وجل وهو من لوازم ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته .

إذاً فإن معنى قوله تعالى في سورة العصر: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يراد

منه الذين آمنوا بأركان الإيمان الستة :

١ــ الإيمــان بالله . ٢ــ وملائكته .

٣ــ وكتبه . ٤ــ ورســله .

٥ــ واليوم الآخر. ٦ــ والقدر خيره وشره .

وعلى هذا فإن الحديث عن هذا الأصل العظيم من أصول النجاة يتطلب التفصيل في كل ركن من أركانه ، وما معنى الإيمان بكل ركن حسبما جاءنا عن رسول الله ﷺ وفهمه صحابته الكرام ﷺ ؟

ولكن قبل الدخول في تفصيل المعنى المراد من الإيمان بكل ركن من هذه الأركان الستة وما يقتضيه من لوازم ومقتضيات ، فإنه ينبغي الكلام على مفهوم كلمة (**الإيمان**) نفسها ، وما هو المعنى الشرعي الذي دل عليه الكتاب والسنة وفهم الصحابة لكلمة الإيمان ؟

تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة :

ورد عن السلف من الصحابة والتابعين عدة تعريفات للإيمان في بعضها إجمال وفي البعض الآخر تفصيل ، لكنها كلها ترجع إلى معنى واحد سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى . ومن أشهر هذه التعريفات :

قولهم : إن الإيمان قول وعمل .

وقولهم : إنه اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح .

وتارة يقولون هو : قول وعمل ونية .

وتارة يقولون : هو قول وعمل ونية واتباع سنة .

وكل هذه التعريفات صحيحة وليس بينها اختلاف في المعنى كما بيَّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله : « **إذا قالوا: قول وعمل** فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعاً ، وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ، ونحو ذلك إذا أطلق .

والمقصود هنا أن من قال من السلف : الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح .

ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر ، أو خاف ذلك ، فزاد الاعتقاد بالقلب ، **ومن قال : قول وعمل ونية** : القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان ، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك ، **ومن زاد اتباع السنة** فلأن ذلك كله لا يكون محبوباً لله إلا باتباع السنة ، وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل ، إنما أرادوا ما كان مشروعاً من الأقوال والأعمال ، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولاً فقط ، فقالوا : بل هو قول وعمل ، والذين جعلوه أربعة أقسام : فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التستري عن الإيمان ما هو ؟ فقال : «**قول وعمل**

ونية وسنـــة ، لأنه إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر ، وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق ، وإذاكان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة))[1]أهـ.

والتعريف المختار الذي يفيد الشمولية لأجزاء الإيمان هو القول المعروف عن متقدمي السلف وهو أنه (**قول وعمــل**) ويتمحص من هذا التعريف أن الإيمان يقوم على أربعة أجزاء إذا انتفى واحد منها انتفى الإيمان ؛ ألا وهي :

١- قول القلب (اعتقاده وتصديقه) .

٢- عمل القلب (إذعانه وقبوله ومحبته) .

٣- قول اللسان .

٤- عمل الجوارح .

وبهذا يتضح أن تعريف الإيمان وحقيقته يتضمن الآتي :

أ - **قول القلب** وهو الاعتقاد والإقرار[2]والتصديق فلا بد من تصديق الرسول عليه الصلاة والسلام فيما أخبر به بالجملة وعلى الغيب فإذا زال تصديق القلب زالت معه بقية الأجزاء .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/١٧٠-١٧١ بتصرف واختصار يسيرين .

(٢) الإقرار الشرعي يتضمن التصديق المنافي للتكذيب ، والالتزام المنافي للرد معاً، والبعض يستعمله في هذا المقام على معنى التصديق فقط ؛ والأول أحسن .

ب – عمل القلب : وهو إذعانه واستسلامه وقبوله المستلزم لآثار ذلك مثل: الإخلاص والحب والخوف والرجاء والتعظيم وغيرها .

« وإذا زال عمل القلب بالكلية مع اعتقاد الصدق ، فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب »[1]أهـ.

وينبه شيخ الإسلام رحمه الله على هذا الجزء العظيم من الإيمان فيقول : « إن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق ، وإنما هو الإقرار والطمأنينة ، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط ، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر ، وكلام الله خبر وأمر ، فالخبر يستوجب تصديق المخبر ، والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام وهو عمل القلب ، وجماعه الخضوع والانقياد للآمر ، وإن لم يفعل المأمور به ، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب ، وهو الطمأنينة والإقرار ، فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة ، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد »[2]أهـ.

---

[1] كتاب الصلاة لابن القيم ص ٥٤ .

[2] الصارم المسلول ٥١٩ .

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى : ((كل مسألة علمية فإنه يتبعها إيمان القلب وتصديقه وحبه ، وذلك عمل بل هو أصل العمل ، وهذا مما غفل عنه كثير من المتكلمين في مسائل الإيمان ، حيث ظنوا أنه مجرد التصديق دون الأعمال ، وهذا من أقبح الغلط وأعظمه ، فإن كثيراً من الكفار كانوا جازمين بصدق النبي ﷺ غير شاكين فيه ، غير أنه لم يقترن بذلك التصديق عمل القلب من حب ما جاء به والرضا وإرادته ، والموالاة والمعاداة عليه ، فلا تهمل هذا الموضوع فإنه مهم جداً به تعرف حقيقة الإيمان))[1]أهـ.

ومما سبق يتبين أهمية عمل القلب وأنه لب الإيمان وحقيقته ، كما يتبين لنا ضلال المرجئة من الجهمية عندما ظنوا أن الإيمان يكون تاماً بدون عمل القلب .

كما يتبين لنا غلط جميع المرجئة عندما ظنوا أن الإيمان الذي في القلب القلب يكون تاماً بدون العمل الظاهر؛ والذي هو دلالة على انقياد الباطن من عدمه .

كما يتبين لنا ضلال مرجئة الكرَّامية عندما ظنوا أن الإيمان هو

---

[1] مختصر الصواعق المرسلة ٢/٤٢٠ .

الإقرار باللسان فقط ؛ وإن انتفى عنده التصديق والإذعان الباطن .

وهذا المذهب يضاده كفر المنافقين الذين وقع منهم الإقرار في الظاهر ولكن انتفى عنهم الإذعان لعدم وجود التصديق ولوازمه في القلب .

جـ - **قول اللسان** : وهو النطق بالشهادتين والإقرار بلوازمهما لأنهما الأصل في ثبوت وصف الإيمان في الظاهر ، فمن امتنع من النطق بالشهادتين دون عذر شرعي كتقية أو بكم ونحوهما فلا يصح إيمانه ، ولو كان يعتقد الإيمان بقلبه ، ويقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : « من لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى في لغة القوم مؤمناً كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان »[١]أهـ.

ويقول في موطن آخر : « وكذلك لو قيل إن رجلاً يشهد أن محمداً رسول الله باطناً وظاهراً ، وقد طلب منه ذلك وليس هناك رهبة ولا رغبة يمتنع لأجلها فامتنع منها حتى قتل ، فهذا يمتنع أن يكون في الباطن يشهد أن محمداً رسول الله ، ولهذا كان القول الظاهر من

---

[١] مجموع الفتاوى ١٣٧/٧ .

الإيمان الذي لا نجاة للعبد إلا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين إلا الجهمية))[1]أهـ.

د ـ **أعمال الجوارح** : والمقصود هنا بأعمال الجوارح بيان المعنى الشرعي للإيمان ، وما يتركب منه ، وهو في مقابلة ما درج عليه المرجئة من فصلهم العمل عن الإيمان خلافاً لأهل السنة القائلين بأن نفس الأعمال هي في الحقيقة أجزاء للإيمان ، كما دلت على هذا نصوص الكتاب والسنة ، بل خالفوا في ذلك حتى مرجئة الفقهاء القائلين بأن الأعمال هي ثمار الإيمان لا هو ، ومن هذا الوجه فأعمال الجوارح هي الركن الرابع من أركان مسمى الإيمان فكما يجب على العباد أن يصدقوا الرسل عليهم السلام ، فعليهم أن يلتزموا طاعتهم فيما أمروا فيلتزموا بأن العمل عليهم إذا جاء وقته .

ومن هذا الوجه احتج الأئمة أحمد والشافعي وأبو ثور وغيرهم على المرجئة بمثل قول الله عز وجل : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ

---

[1] مجموع الفتاوى ٢١٩/٧ .

ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة:٥] وقال الحميدي في من قال : ((**من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموت ؛ أو يصلي مستدبر القبلة فهو مؤمن ما لم يكن جاحداً**))

قال : هذا الكفر الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وفعل المسلمين قال الله عز وجل : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾))[1].أهـ

كذا قال الإمام أحمد رحمه الله في رواية حنبل عنه قال : ((**سمعت أبا عبد الله يقول من قال هذا فقد كفر ورد على الله أمره وعلى الرسول ما جاء به**))[2].أهـ

وهذه المسألة بخلاف مسألة ترك آحاد الأعمال مع بقاء الإذعان والقبول فلا ينقض هذا الإيمان من التروك إلا ما دلت الأدلة على أن هذا الترك مكفر بخصوصه ، مثل ترك الصلاة على الصحيح من قولي العلماء ، ومثل ترك الحكم بما أنزل الله عز وجل إذا كان على وجه التبديل .

لكن مما سبق من كلام الحميدي وأحمد وغيرهما ؛ يظهر أنه يمتنع أن

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٩٥٧/٥ .

(٢) المصدر السابق .

يكون مع الرجل إيمان وتصديق ؛ بينما هو ممتنع من جنس العمل بالكلية وذلك لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب ولازمة لها ويقرر شيخ الإسلام هذا المعنى فيقول : ((فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر ، والعمل بالإيمان المطلق ، كما قال أئمة أهل الحديث : قول وعمل ؛ قول باطن وظاهر ، وعمل باطن وظاهر ، والظاهر تابع للباطن لازم له ، متى صلح الباطن صلح الظاهر ، وإذا فسد فسد))[1] .

ويقول رحمه الله في موطن آخر : ((من الممتنع أن يكون الرجل مؤمناً - إيماناً ثابتاً في قلبه - بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ، ولا يصوم من رمضان ، ولا يؤدي زكاة ، ولا يحج إلى بيته ؛ فهذا ممتنع ، ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة ، لا مع إيمان صحيح ، ولهذا إنما يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار ؛كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم:٤٢-٤٣]))[2] أهـ.

---

[1] مجموع الفتاوى ١٨٧/٧.

[2] مجموع الفتاوى ٦١١/٧ .

وعلاقة الإيمان بالعمل مسألة كبيرة هي فرق بين أهل السنة وعامة المرجئة من وجه ، وبين أهل السنة والخوارج من وجه آخر .

فإذا تقرر أن أعمال الجوارح من أجزاء الإيمان ، وأن من انتفى عنه جنس العمل بالكلية فقد انتفى عنه الإيمان ؛ يتبين لنا غلط الجهمية وضلالهم حيث زعموا أن الإيمان مجرد معرفة قلبية بالله تعالى ، وإن لم يكن هناك قول باللسان ولا عمل بالجوارح ، كما يتبين غلط عموم المرجئة الذين فصلوا العمل عن الإيمان فلم يجعلوه شطراً منه .

ويتبين لنا كذلك ضلال الخوارج الذين لم يفرقوا بين الأعمال فجعلوها كلها شرطاً في صحة الإيمان وأن من ترك ولو واجباً واحداً أو فعل محرماً فهو كافر مخلد في النار لو مات بدون توبة .

أما أهل السنة فقد فرقوا بين آحاد الأعمال وميزوا بينها ؛ فمنها ما هو مكفر كما تقدم ، ومنها ما يعد تاركه مفرطاً في كمال الإيمان الواجب؛ فيكون معه إيمان ناقص بحسب ما ترك من الواجب أو فعل من المحرم ، ومنها ما يعد تاركه مفرطاً في كمال الإيمان المستحب .

وبهذا التلخيص السريع لمعنى الإيمان يتبين لنا حقيقة الإيمان وأركانه وما معنى كونه قولاً وعملاً ، وأن المنهج الحق هو ما هدى الله عز وجل أهل السنة والجماعة إليه ، والذي هو مذهب الصحابة

ﷺ ومن تبعهم بإحسان .

وتبقى مسألة مهمة لها علاقة بموضوع الإيمان وتعريفه ألا وهي :

تعريف الكفر المضاد للإيمـــان : مادام أن حقيقة الإيمان وأجزاءه الأربعة قد تجلت والحمد لله ؛ فإن الوصول إلى معرفة حقيقة الكفر أصبحت سهلة وميسرة ؛ فهي باختصار : تخلف جزء من أجزاء الإيمان المذكورة آنفاً أو الإتيان بما يضادها .

وأصل الكفر : تغطية الشيء ، وسمي الزارع كافراً لتغطيته الحب .

وأما تعريفه اصطلاحاً فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: ((الكفر عدم الإيمان بالله ورسله ، سواءً كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب بل شك وريب ، أو إعراض عن هذا كله حسداً أو كبراً أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة))[1]أهـ.

ويقول في موطن آخر : ((إنما الكفر يكون بتكذيب الرسول ﷺ فيما أخبر به ، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه ؛ مثل كفر فرعون واليهود ونحوهم))[2]أهـ.

---

[1] مجموع الفتاوى ١٢/٣٣٥ .

[2] درء تعارض العقل والنقل ١٠/٢٤٢ .

ومما سبق من كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى نستخلص ((أن الكفر- وهو نقيض الإيمان - قد يكون تكذيباً في القلب ؛ فهو مناقض لقول القلب - وهو التصديق - وقد يكون الكفر عملاً قلبياً كبغض الله تعالى أو آياته أو رسوله ﷺ ؛ والذي يناقض الحب الإيماني، وهو آكد أعمال القلوب وأهمها .

كما أن الكفر يكون قولاً ظاهراً يناقض قول اللسان ونطقه بالشهادتين .

وتارة يكون عملاً ظاهراً ؛ كالإعراض عن دين الله تعالى ، والتولي عن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ بالكلية ، وهو بهذا يناقض عمل الجوارح القائم على الانقياد والخضوع والقبول لدين الله تعالى))[1]أهـ.

تنبيهان :

التنبيه الأول : إذا ورد الإيمان مقروناً بالإسلام أو العمل الصالح فإن معنى الإيمان ينصرف إلى ما في القلب من الإقرار والاعتقاد والإذعان كما في هذه السورة ، ويكون الإسلام والعمل الصالح هو ما ظهر على الجوارح ؛ أما إذا أتى الإيمان مفرداً فإنه يشمل الاعتقاد الباطن والعمل الظاهر .

---

(1) نواقض الإيمان القوليه والعملية د . عبد العزيز عبد اللطيف ص ٣٨ بتصرف يسير .

فمسمى الإيمان يختلف بحسب الاقتران والافتراق ، وسأفصل القول في ذلك عند الكلام عن العمل الصالح إن شاء الله تعالى .

التنبيه الثاني : لسائل أن يسأل فيقول : ما علاقة الكلام عن الإيمان وحقيقته ومعناه ، وعن الكفر ومعناه بموضوع السورة والإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ؟

والجواب واضح إن شاء الله تعالى ، لأن الحديث عن تعريف الإيمان وحقيقته ؛ وما يضاده من الكفر بأنواعه من المهم جداً معرفته قبل الدخول في تفصيل أركان الإيمان الستة ، وذلك حتى يعرف العبد ما معنى كونه مؤمناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

وللتنبيه أيضاً على أن الإيمان بهذه الأركان ليس مجرد الإقرار والتصديق بها ، وإنما كما مر بنا في حقيقة الإيمان أنه قول القلب وتصديقه ، وعمله وإذعانه وقبوله ، ونطق باللسان وعمل بالجوارح .

وحيث إن الإيمان بكل ركن من الأركان الستة له لوازم ومقتضيات وأعمال وثمرات ، كما أن له نواقضه وما يهدمه ويضاده، فإن هذا ما سيتم بيانه على وجه الاختصار في الفقرات القادمة إن شاء الله تعالى .

أركـــان الإيـــمان

الركن الأول : الإيمان بالله عز وجل

يتضمن الإيمان بالله عز وجل أربعة أمور:

١ – الإيمان بوجوده سبحانه .

٢ – الإيمان بربوبيته سبحانه .

٣ – الإيمان بألوهيته سبحانه .

٤ – الإيمان بأسمائه وصفاته سبحانه .

أولاً : الإيمان بوجود الله عز وجل :

وهذا الجانب من الإيمان بالله تعالى مستقر في الفطر لا يحتاج إلى تدليل لأن كل ما يحيط الإنسان ويراه من حوله دال على وجوده عز وجل وتدبيره ، ولا يماري في ذلك أحد إلا مغالط مكابر صاحب هوى ينكر ذلك بلسانه وقلبه مستيقن مقر مصدق ، ومع أن البراهين والأدلة على ذلك لا تحصى ، ولا يحتاج الأمر إلى ذكرها ؛ إلا أنه يحسن ذكر أصول الأدلة على ذلك ولو بشكل مختصر ؛ وذلك فيما ذكره الشيخ محمد بن عثيمين حفظه الله عن هذه الأدلة بقوله :

«أ – **الدليل العقلي** : حيث إن هذا الكون الذي أمامنا ونشاهده على هذا النظام البديع الذي لا يمكن أن يضطرب ولا يتصادم ؛ بل

هو في غاية ما يكون من النظام ، فهل يعقل أن هذا الكون العظيم بهذا النظام البديع يكون خالقاً لنفسه ؟ كلا ولا يعقل أيضاً أن يكون هذا الكون العظيم وجد صدفة ، لأنه على نظام بديع مطرد ، وما جاء صدفة لا يطرد ... وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدليل العقلي بقوله : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور:٣٥] وسئل أعرابي فقيل له : بما عرفت ربك ؟ والأعرابي لا يعرف إلا ما حوله ، فقال : البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على السميع البصير ؟ بلى .

ومما يدخل في الدليل العقلي تأمل المعجزات التي يجريها الله عز وجل على يد أنبيائه ويخرق لهم العادات ، فمن ذا الذي يفعل ذلك إلا الله عز وجل ، وكذلك ما نشاهده من إجابة الدعاء ؛ فالإنسان يدعو الله عز وجل ويقول يا الله فيجيب الله دعاءه ويكشف سوءه ، إذاً هناك رب سمع دعاءه وأجابه ، وما أكثر ما يقرأ في كتاب الله تعالى أنه استجاب لأنبيائه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٦] وقوله عز وجل: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ

ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ ﴾ [الأنبياء:٨٣- ٨٤]

والآيات في هذا كثيرة والواقع يشهد بهذا .

ب – **الدليل الفطري** : فالاعتقاد بوجود الله عز وجل مركوز في الفطر ، فما أن يصيب الإنسان مصيبة فيها هلاكه إلا قال (يا ألله) ففطرة الإنسان تدل على وجود رب العالمين ؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف:١٧٢] .

جـ ـ **الدليل الشرعي** : وهذا كثير ؛ فكل الشرع المطهر إذا تأمله الإنسان علم أن الذي أنزله هو الرب عز وجل ؛ فائتلاف القرآن وعدم تناقضه ، وتصديق بعضه بعضاً ، وعجز الثقلين عن الإتيان ولو بآية واحدة ، كل ذلك يدل على أن القرآن نزل من عند الله عز وجل . وكونه موافقاً تماماً لمصالح العباد دليل على أنه من عند الله عز وجل))[1]أهـ.

---

[1] باختصار وشيء من التصرف من مجموعة دروس وفتاوى الحرم المكي للشيخ ابن عثيمين ١/٢٢-٢٤ .

ثانياً : الإيمان بربوبيته سبحانه :

وهو توحيد الله عز وجل بأفعاله لا شريك له ولا ند ولا ظهير ولا معين ، وبمعنى آخر هو: الإيمان بأنه سبحانه الخالق الرازق المحيي المميت، المدبر لجميع العوالم ، والمالك لأمرها ، والمتصرف فيها وحده لا شريك له ، قال الله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:١١٧] وقال تبارك وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر:٦٢] وقال تعالى : ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد:٥]، وكما أنه المتفرد بالخلق والملك فهو المتفرد سبحانه بالتدبير والقهر ؛ قال تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة:٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٨] .

وهذا النوع من الإيمان قد أقر به كثير من المشركين كما ورد ذلك في القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١] ومع ذلك لم ينفعهم هذا الإيمان وبقوا مشركين ؛ لأنهم لم يؤمنوا بما يستلزمه إيمانهم بربوبية الله عز وجل ؛ ألا وهو إيمانهم بألوهيته سبحانه وعبادته وحده لا شريك له .

ثالثاً : الإيمان بألوهيته سبحانه :

وهو الإيمان بأنه سبحانه الإله الحق المستحق للعبادة وحده دون ما سواه ، فلا يشاركه في هذا الحق لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، ومن أجله بعثت الرسل وأنزلت الكتب ، وهو دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ، وقال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] .والإيمان بألوهية الله عز وجل يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته سبحانه ، ولا يكون العبد مؤمناً حتى يفرد ربه سبحانه بالألوهية ؛ فإن لم يفرده سبحانه بالعبادة وعبد معه غيره فلا يكون مؤمناً بالله تعالى ولو آمن بربوبيته سبحانه .

وهو توحيد الله عز وجل بأفعال العباد من : السجود ، والركوع والذبح ، والنذر ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والاستعانة والاستغاثة ، والطاعة ، والاتباع إلى غير ذلك ؛ قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢] - وليس المقام هنا مقام التفصيل في أنواع العبادة وأدلتها

والشرك وأنواعه[١]. كما يدخل في الإيمان بألوهية الله عز وجل دخولاً أولياً التحاكم إلى شرعه المبرء من الجهل والهوى، ورفض حكم ما سواه؛ مع الرضى والتسليم لحكمه سبحانه ، وعدم الرضا بحكم من سواه ، فإن من بدل شرع الله عز وجل أو رفض التحاكم إليه عالماً بذلك فلا حظ له في الإيمان بالله عز وجل ؛ لأن من أخص خصائص الألوهية قبول حكم الله عز وجل ورفض ما سواه ، بل إن أصل شرك المشركين هو رفضهم لما أنزل الله عز وجل من التوحيد والإيمان والأحكام واكتفاؤهم بما كان عليه آباؤهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المائدة:١٠٤] .

وبقي أمــر ثالث لا يصح الإيمان بألوهية الله عز وجل إلا به ألا، وهو البراءة من الشرك والمشركين والكفر والكافرين ، وانطواء القلب على بغضهم وعداوتهم وعدم توليهم ونصرتهم ، وإظهار ذلك قدر الاستطاعة؛ إذ لاينفع العبد إفراد الله عز وجل بالعبادة وهو لم يتبرأ من الشرك وأهله ، وهذا معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)؛ إذ هي

---

[١] لتفصيل ذلك انظر فتح المجيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله .

قائمة على نفي ما يعبد من دون الله عز وجل والكفر به ، وإثبات العبادة لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له .

رابعاً : الإيمان بأسمائه وصفاته :

وهو الإيمان بما أثبت الله سبحانه لنفسه أو أثبته له رسول الله ﷺ من الأسماء بلا تعطيل ولا تحريف ، وأن ننزه هذا الإثبات عن التمثيل والتكييف ؛ حيث إن الإيمان بالأسماء والصفات عند سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان **يقوم على ثلاثة أصول** :

الأول : الإثبات : قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٠] وجاء في القرآن والسنة أسماء لله عز وجل وصفات مثل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ .

الثاني : التنزيه : أي تنزيه الله عز وجل عن مماثلة أحد من خلقه له في أسمائه وصفاته ؛ حيث له سبحانه الأسماء والصفات التي تليق بعظمته وجلاله وسلطانه ؛ قال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾، وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ ﴾ أي الوصف الأكمل ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ

ٱلۡأَمۡثَالَۚ ﴾ .

الثالث : قطع الطمع في إدراك الكيفية والماهية ، وقصور العقول عن الإحاطة بذلك ، قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴾ .

وبفهم هذه الأصول الثلاثة والعمل بها يسلم العبد من الانحرافات التي عصفت بكثير من أهل البدع ، حيث حَكَّموا عقولهم الفاسدة وجاءوا بما لم يأت به الرسول ﷺ وصحبه الكرام ، حيث ذهبت طائفة منهم إلى إنكار جميع الأسماء والصفات ـ وهم المعطلة الجهمية ـ وطائفة أثبتت الأسماء دون الصفات ـ وهم المعتزلة ـ حيث قالوا إن الله سميع بلا سمع وبصير بلا بصر ، طائفة أثبتت الأسماء وبعض الصفات ـ وهم الأشعرية ـ ، حيث أثبتوا جميع الأسماء وسبعاً من الصفات ، وأوَّلوا الباقي ، والسبع هي : الحياة والعلم و القدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام [1].

والإيمان بالأسماء والصفات يقتضي فهمها ودعاء الله تعالى بها ، والتعبد له سبحانه بها ، وأن يقوم في القلب تعظيمها ومحبة من هي له

[1] انظر تفصيل القول في هذه المسائل منهج دراسة الأسماء والصفات للشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى ، ورسالة القواعد المثلى للشيخ ابن عثيمين حفظه الله تعالى .

سبحانه ، والخوف منه ، ورجاؤه والتعلق به ، ومراقبته في السر والعلن؛ وأن يظهر أثر كل اسم وصفة له سبحانه في قلب العبد وعلى جوارحه ؛ وإلا فما قيمة الإيمان بدون ذلك .

من نواقض الإيمان بالله تعالى :

وإتماماً للفائدة يحسن ذكر أهم نواقض الإيمان بالله تعالى ، حتى تُحذر وتجتنب ليسلم للعبد إيمانه بالله تعالى ـ الذي هو أصل الأصول ـ للنجاة من الخسران في الدنيا والآخرة كما جاء في هذه السورة[1] .

فمن نواقض الإيمان بالله عز وجل ما يلي :

١- إنكار وجوده سبحانه وإحالة الحوادث والحادثات إلى الطبيعة أوالدهر أو المصادفة والقول بقدم العالم ؛ وهذا الناقض وإن كان لا يقول به أحد عن يقين وقناعة ؛ لكن هناك من يكابر ويجحد ذلك وقلبه مستيقن بوجود الله تعالى قال الله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:١٤] .

٢- إنكار ربوبيته عز وجل لجميع الخلق ؛ بأن يجعل مع الله عز

---

[1] لمزيد التفصيل حول نواقض الإيمان انظر كتاب نواقض الإيمان القولية والعملية للدكتور عبد العزيز آل عبد اللطيف، ونواقض الإيمان الاعتقادية للدكتور محمد الوهيبي.

وجل شريكاً له في أفعاله كالخلق والرزق وغيرها ، ولذلك صور متعددة منها :

• شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور ، وحوادث الشر إلى الظلمة .

• ومنها شرك القائلين بوحدة الوجود الذين يزعمون أن الله تعالى هو عين الخلق .

• ومنها شرك من ادعى أن الكواكب العلوية تدبر أمر العالم السفلي كمشركي الصابئة .

• ومنها شرك النصارى الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة وأن عيسى هو ابن الله تعالى الله ؛ عما يقولون علواً كبيراً .

• ومنها شرك الرافضة وغلاة الصوفية ، واعتقادهم في بعض الأولياء أنه يحيي ويميت ويشفي المرضى ، وأن ذرات الكون تخضع لهم، كما صرح بذلك الخميني إمام الرافضة المعاصرين في كتابه الحكومة الإسلامية .

• ومنها المبدِّل لشرع الله عز وجل بشرع يضعه للناس ليتحاكموا إليه ؛ حيث جعل نفسه حاكماً من دون الله تعالى ، والله

عز وجل يقول : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ﴾ [يوسف:٤٠] وهذا شرك في الربوبية .

٣- إنكار ألوهية الله عز وجل؛ وذلك بأن يجعل مع الله عز وجل شريكاً في العبادة والطلب والقصد ، وهذا هو الغالب على شرك المشركين في الأولين والآخرين ، وهو الغالب على شرك القبوريين في هذا الزمان مثل :

- من يعبد غير الله عز وجل ويستغيث به ، ويدعوه ويستعين به من دون الله تعالى ويلجأ إليه في جلب النفع ودفع الضر ، ومن يذبح وينذر لغير الله عز وجل ..الخ .
- ومن لم يتبرأ من الشرك وأهله ولم يكفر بما يعبد من دون الله .
- ومن رفض الحكم بما أنزل الله عز وجل ، أو رضي بالحكم بغير ما أنزل الله تعالى .
- ومن سب الله عز وجل أو استهزأ بحكمه .

٤- إنكار شيء من أسماء الله عز وجل أو صفاته سواء ثبتت في الكتاب أوالسنة ، والإنكار كما يقول الشيخ صالح بن عثيمين حفظه الله تعالى نوعان :

« • الأول إنكار تكذيب : وهذا كفر بلا شك ؛ فلو أن أحداً أنكر

شيئاً من أسماء الله تعالى ، أوصفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة ؛ مثل أن يقول ليس لله يد فهو كافر بإجماع المسلمين ، لأن تكذيب خبر الله ورسوله ﷺ كفر يخرج عن الملة .

• الثاني إنكار تأويل: وهو أن لا يجحدها ولكن يؤولها وهذا نوعان :

١- أن يكون لهذا التأويل مسوغ في اللغة العربية فهذا لا يوجب كفراً .

٢- أن لا يكون له مسوغ في اللغة العربية فهذا موجب للكفر؛ لأنه نفاها نفياً مطلقاً فهو مكذب حقيقة ، فلو قال في قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤] المراد بيديه السماوات والأرض فهو كافر؛ لأنه لا يصح في اللغة العربية ، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية فهو منكر مكذب ، لكن إن قال المراد باليد النعمة أو القوة فلا يكفر[١] ؛ لأن اليد في اللغة تطلق على النعمة »[٢].

• كما يضاد ويناقض توحيد الأسماء والصفات الشرك والإلحاد في أسمائه وصفاته ، فالشرك في الصفات يكون باتخاذ شريك أو ند مع

---

[١] بل هو مبتدع لوجود الشبهة .

[٢] المجموع الثمين ٢/٦٢، ٦٣ .

الله تعالى عن ذلك ، وأما الإلحاد في أسمائه فكما يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « الإلحاد في أسمائه هو العدول بها وحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت .. وهو أنواع :

أحدها : أن يسمي الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإله ، والعزى من العزيز .

الثاني : تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أباً .

الثالث : وصفه تعالى بما يتعالى عنه ويتقدس عنه من النقائص كقول أخباث اليهود إنه فقير؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

الرابع : تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها ؛ كقول من يقول من المعتزلة وأتباعهم : إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معانٍ .

الخامس : تشبيه صفاته بصفات خلقه؛ تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً »[1].

---

[1] بدائع الفوائد ١/١٩٠-١٩٢ باختصار نقلاً عن نواقض الإيمان القولية والعملية ص١١٨.

الركن الثاني من أركان الإيمان

الإيمان بالملائكة

وهو الإقرار الجازم بوجود عالم غيبي ذكرهم الله عز وجل في كتابه، وجاء ذكرهم على لسان رسوله ﷺ اسمهم الملائكة ؛ والملائكة جمع ملك ، يجب الإيمان بكل ما ورد في القرآن والسنة الصحيحة من أوصافهم واسمائهم ووظائفهم وذلك حسب ما يلي[1] :

• هم خلق من خلق الله تعالى خُلقوا من نور ، وهم كرام بررة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ولذا يجب محبتهم وإجلالهم .

• هم عبيد من عبيد الله تعالى مربوبون لله عز، وجل وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء:٢٠] وقال عنهم: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ۝ ﴾ [النحل:٥٠] وقال تعالى أيضاً عنهم: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ﴾[الأنبياء:٢٩] .

• الإيمان بما ورد من أسمائهم في القرآن والسنة ؛ كجبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ومالك ، ومنكر ونكير ـ عليهم الصلاة

---

[1] لمعرفة تفاصيل الأدلة على ذلك يرجع إلى كتاب معارج القبول .

والسلام ـ، وأن بعضهم أفضل من بعض وأفضل الملائكة **جـبريل** عليه السلام.

• نؤمن بأن لهم وظائف قد كلفهم الله بها : **فجـبريل** عليه السلام موكـل بإنزال الوحي على الرسل كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤]

وإسرافيل عليه السلام موكل بالنفخ في الصور، **وميكـائيل** موكـل بـالقطر والنبات ، وقد جمع الرسول ﷺ بين هـؤلاء الملائكة في حديث استفتاح صلاة الليل « **اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل فاطر السماوات والأرض ...الحديث** »[1].

ومـالك موكـل بالنـار لقـول الله تعـالى عـن أهـل النـار : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف:٧٧] .

أما ملك الموت عليه السلام فاشتهر عند العامة أن اسمه (**عزرائيـل**) لكن ذلك لم يصح ، ولذا نكتفي بمـا جـاء في القـرآن مـن أنـه ملـك المـوت ، كمـا في قولـه تعـالى : ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة:١١].

ومنكر ونكير عليهمـا السـلام وهمـا الملكان اللذان يسألان العبـد في

---

[1] طرف من حديث أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها في دعاء النبي ﷺ عند قيام الليل .

قبره عن ربه ودينه ونبيه .

ومنهم **حملة العرش** الذين يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، **ومنهم الكرام الكاتبين** ، **ومنهم الموكلون** بحفظ الإنسان ، **ومنهم الذين يقاتلون مع المؤمنين** ويثبتونهم بأمر الله تعالى ، **ومنهم خزنة جهنم** الغلاظ الشداد ، **ومنهم الموكل بالجبال** ، **ومنهم الموكل بالنطفة** في الأرحام ، **ومنهم زوار البيت** المعمور في السماء ، **ومنهم الملائكة السياحون** .

• الإيمان بأوصاف من علمنا وصفه من الملائكة وذلك بأن الله عز وجل وصفهم بأنهم : ﴿ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر:١] ، وأن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح ؛ كما ثبت ذلك في رؤية الرسول ﷺ له في صورته التي خلقه الله عليها قد سد الأفق ، وهذا يدل على عظمة الملائكة ، ومع ذلك فإن من الممكن أن يأتي على هيئة رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب كما ورد ذلك في حديث جبريل المشهور ، وأن كل شخص معه ملكان يكتبان عمله عن يمينه وعن شماله؛ لقوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٧-١٨].

نواقض الإيمان بالملائكة[1]:

إذا انتقض الإيمان بالملائكة لم ينفع الإيمان ببقية الأركان ، لأن الإيمان بالملائكة أحد الأركان الستة للإيمان وإذا زال منها ركن زال الإيمان كله ، ولأن الملائكة هم الواسطة في نزول الوحي وإنزال الكتب .

ومن نواقض الإيمان بالملائكة :

- إنكار وجودهم ؛ وفي هذا تكذيب للقرآن والسنة الصحيحة لورود ذكر الملائكة فيهما .
- سبهم أو الاستهزاء بهم أو بوظائفهم أو أسمائهم .
- إنكار ما ورد في القرآن من أوصافهم أو أعمالهم أو أسمائهم .
- بغضهم وعداوتهم؛ كما في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة:٩٨] .

آثار الإيمان بالملائكة ولوازمه :

١- محبتهم والأنس بهم؛ حيث إنهم عباد مكرمون يحبون المؤمنين

[1] لمعرفة التفاصيل في هذا النواقض يرجع إلى كتاب نواقض الإيمان القولية والعملية د . عبد العزيز آل عبد اللطيف ص٢١١-٢١٨ .

ويستغفرون لهم ، فهذا كله مما يدفع المؤمن إلى إجلالهم ومحبتهم ، وأن لا يستوحش طريق الإيمان ولو كان وحده ، لأنه طريق أنبياء الله وملائكته الذين لا يحصيهم العد من كثرتهم ، وهم ما بين راكع وساجد لله تعالى ، فإذا تذكر المؤمن أنه ضمن هذه القافلة المباركة لم يستوحش طريقه مهما أجلب عليه الكافرون المفسدون ، ومهما كان فيه من ضيق وغربة .

٢- الخوف من الله عز وجل وتعظيمه ومحبته وإجلاله ؛ حيث إن هذا الخلق العظيم من الملائكة ـ على عظمة خلقهم ـ يخافون ربهم وهم من خشيته مشفقون ، فكيف بالإنسان الضعيف المسكين .

٣- محاسبة النفس واليقظة في كل قول وعمل ، حيث إن إيمان المؤمن بالملائكة ومنهم الكرام الكاتبين الذين يعلمون ما يفعل العباد ؛ إن ذلك لمن أقوى الأسباب في حفظ الجوارح من الوقوع في معصية الله تعالى وتوظيفها في طاعته سبحانه حتى لا يكتب عنه إلا خيراً .

٤- الطمأنينة والثبات في أوقات المحن والجهاد والشدائد ؛ حيث إن الله عز وجل يثبت المؤمنين بالملائكة الذين يقاتلون معهم ، وفي هذا ربط على القلوب وبشرى للمؤمنين .

الركن الثالث من أركان الإيمان

الإيـــمـــان بـــالـــكـتـــب

« وهو الإيمان بكتب الله عز وجل التي أنزلها على الرسل وما من رسول إلا أنزل الله معه كتاباً ؛ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الحديد:٢٥] وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢١٣].

كيف نؤمن بالكتب ؟

الإيمان بالكتب أن نؤمن بما علمنا اسمه باسمه ، والذي علمنا اسمه من هذه الكتب : القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وصحف موسى إن قلنا إنها غير التوراة ، وما لم نعلم اسمه نؤمن به إجمالاً ، لأن الله تعالى لا يضيع خلقه بل ينزل عليهم الكتب ليبين لهم الحق ، هذا من حيث الإيمان المجمل بالكتب .

أما من حيث قبول ما جاء فيها من خبر ، فيجب أن نقبل كل ما جاء في هذه الكتب من الخبر ، ولكن لا يعني أن نقبل كل خبر فيها الآن ؛ لأنها قد دخلها التحريف والتغيير والتبديل ، لكن نقول إننا نؤمن بكل خبر جاء في التوراة أو الإنجيل أو في الزبور أو في صحف

إبراهيم بطريق صحيح .

مثال ذلك : في صحف إبراهيم : لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وعلمنا ذلك من قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النجم:٣٦-٤١] وقوله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى:١٦-١٩] .

فما صح من هذه الكتب فإنه يجب علينا أن نقبل خبره بدون تفصيل .

هذا بالنسبة للأخبار ، أما ما صح فيها من الأحكام ففيه تفصيل : فما كان في القرآن فإنه يلزمنا التعبد به ، وما كان في الكتب السابقة نظرنا إن كان مخالفاً لشريعتنا فإننا لا نعمل به ، لا لأنه باطل بل هو حق في زمنه ، ولكننا لا يلزمنا العمل به ؛ لأنه نسخ بشريعتنا ، وإن وافق شريعتنا فإننا نعمل به ؛ لأن شريعتنا أقرته وشرعته ، وما لم يكن في شرعنا خلافه ولا وفاقه فإن العلماء قد اختلفوا في ذلك ؛ فمنهم من

قال : هو شرع لنا ومنهم من قال: ليس بشرع لنا »[١] أهـ.

والصواب أنه شرع لنا إذا ثبت أنه لمن قبلنا وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد رحمه الله ، واختاره ابن عبد البر رحمه الله[٢] .

والإيمان بكتب الله عز وجل يجب إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فُصل ، ومما يجب الإيمان به مفصلاً الإيمان بالقرآن الكريم ، وذلك بتصديقه وأنه كلام الله عز وجل الذي أنزله على قلب محمد ﷺ ليبلغه للناس ، ويتبعوه ويتعبدوا بتلاوته ، وأن ينصحوا لهذا القرآن العظيم كما قال الرسول ﷺ (الدين النصيحة) قلنا: لمن يارسول الله ؟ قال : (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[٣] .

يقول النووي رحمه الله تعالى في بيان معنى النصيحة لكتابه: « وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله ، ولايشبهه شيء من كلام الخلق ، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته ، وتحسينها والخشوع عندها ، وإقامة حروفه في التلاوة ، والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين

---

[١] انظر فتاوى ودروس الحرم المكي للشيخ ابن عثيمين حفظه الله ٣٦/١ .

[٢] انظر التمهيد (٣٧٨/١٤) .

[٣] مسلم ك . الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة ح (٩٥) من حديث تميم الداري .

والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه ، وتفهم علومه وأمثاله ، والاعتبار بمواعظه ، والتفكر في عجائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمتشابهه ، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه ، ونشر علومه))[1]أهـ.

من نواقض الإيمان بالكتب :

١- إنكار الكتب والتكذيب بها ، ولو بواحد منها .

٢- نسبتها إلى كلام المخلوقين وأنها ليست من عند الله عز وجل .

٣- بغضها أو كره ما فيها .

٤- سبها والطعن فيها أو الاستهزاء بها والاستخفاف بها بالقول أو الفعل .

٥- رفض الحكم بالقرآن أو التحاكم إليه وتحكيم ما سواه .

٦- التكذيب ولو بخبر واحد أو آية أو حرف من القرآن الكريم .

٧- تحريف كلام الله عز وجل ونسبة ذلك إلى الله عز وجل .

٨- ادعاء تحريف القرآن أو أن هذا الذي بين أيدينا قد حرف أو نقص منه أو زيد فيه بعد موت الرسول ﷺ .

---

[1] التبيان في آداب حملة القرآن ص ٩٧،٩٨، وانظر كتاب نواقض الإيمان القولية والعملية ص ١٩٨ .

٩- القول بأن القرآن فيه تناقض أو أنه مقدور على مثله .

وإذا وجد ناقض أو أكثر من هذه النواقض انتقض الإيمان بالكتب وبالتالي انتقض الإيمان كله لذهاب ركن من أركانه ، وأصبح المتلبس بذلك من الكافرين الخاسرين .

من آثار الإيمان بالكتب ولوازمه :

١- محبة الله عز وجل حيث لم يترك عباده في ظلمات الشرك والفسوق والعصيان ، وإنما رحمهم وأنزل عليهم الكتب التي تنير لهم الطريق وتهديهم إلى الصراط المستقيم .

٢- محبة القرآن الكريم وتعظيمه ، والفرح به والمحافظة على تلاوته وتدبره وتعليمه ، والعمل بأوامره واجتناب نواهيه ، والتأدب بآدابه والدعوة إليه .

٣- الحكم بما أنزل الله فيه والتحاكم إليه ، والرضى والتسليم بأحكامه المبرّأة من النقص والمحققة لمصالح العباد في الدنيا والآخرة .

الركن الرابع من أركان الإيمان

الإيمان بالـــرسل

وهو الإيمان بكل ما قصه الله عز وجل علينا عن أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ، وأن نؤمن بأسماء من علمنا اسمه منهم ، وأن نؤمن بكل خبر أخبروا به ، وأنهم صادقون في ما يبلغونه عن ربهم عز وجل ، وأما من لم نعرف اسمه فنؤمن به إجمالاً ، حيث هناك من الرسل من لم يقصه الله علينا لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨] **ومن الإيمان بالرســل:** إيماننا بأنهم أفضل البشر، وأنهم يتفاضلون كما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة:٢٥٣] . **وأفضلهم:** أولو العزم من الرسل؛ وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣] وأفضل أولي العزم نبينا محمد ﷺ ، وأول الرسل نوح ﷺ .

ومن الإيمان بالرسل: الإيمان بأن محمداً ﷺ خاتم النبيين؛ فلا نبي بعده لقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ

وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠] .

ومن الإيمـــان بالرســـل: محبتهم وإجلالهم وتعظيمهم وتوقيرهم وتصديقهم في كل ما أخبروا به عن الله عز وجل ، وأن الله عز وجل اصطفاهم لرسالته لعلمه سبحانه بصلاحهم لها لقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحـــج:٧٥] ولقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤] .

ومع شرفهم هذا فهم عبيد لله تعالى مربوبون له بلغوا الكمال في العبودية له سبحانه ، ولذا فمن الإيمان بالرسل الإيمان بأن دعوتهم واحدة ، وأن كل رسول دعا قومه إلى عبادة الله وحده وترك ما هم عليه من عبادة غير الله تعالى .

ومن لوازم الإيمان برســولنا ﷺ إضافة إلى ما سبق في حق الرسل: طاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر ، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع ، وأن تحقق محبته اعتقاداً وقولاً وعملاً ، وأن ننصح له باتباعه والذب عن سنته ، والبحث عن أخلاقه وهديه وسيرته والتحلي بها، وتعظيم أمره ، وشدة الغضب على من تدين بخلاف سنته ، وأن يحب من كان منه بصلة من قرابة أو صحبة ومات على الإيمان ، وأن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ، وأن لا يعارض قوله بقياس ولا عقل

وأن لا يغالىٰ فيه ويرفع فوق منزلته التي أنزله الله إياها ؛ فلا يشرك مع الله تعالى في أي نوع من أنواع العبادة ، ولا يجعل قبره وثناً فهو ﷺ عبد الله ورسوله ، ورفعه عن هذه المنزلة فيه أذى له ﷺ ومخالفة لأمره ونهيه ، والحق بين الجافي والغالي .

من نواقض الإيمان بالرسل[1] :

١- التكذيب بهم وإنكارهم ، ولو واحد منهم ، لأن في ذلك تكذيب لخبر الله عز وجل في كتابه الكريم .

٢- سبهم أو الاستهزاء بهم ، أو الاستخفاف بأقوالهم وأحوالهم أو أشخاصهم أو أسمائهم ، أو ادعاء علو المنزلة فوقهم .

٣- اتهام أحد منهم بالكذب فيما يخبر عن ربه عز وجل أو تقويله من الباطل ما لم يقله .

٤- ادعاء النبوة بعد محمد ﷺ ، أو تصديق من ادعاها أو ادعى أنه يُوحى إليه ولو لم يدع النبوة .

٥- ادعاء أن الرسالة والنبوة طريقها الكسب والتأمل وترويض النفس ... إلخ ، وليس طريقها الوحي .

---

[1] انظر تفصيل أدلة بعض هذه النواقض في كتاب نواقض الإيمان القولية والعملية ص١٥٧-١٩٨ .

٦ – معاداتهم وبغضهم ومحبة أعدائهم وتوليهم .

٧– رد شيء مما جاء به الرسول ﷺ وعدم قبوله والالتزام به ، وهذا خلاف مَنْ قَبِل ماجاء به الرسول ﷺ لكنه ضعف عن الامتثال في بعض الأحوال عن تقصير وشهوة مع إقراره بذنبه ؛ فهذا معصية وليس ناقضاً .

٨ – الطعن فيما يثبت من سنة الرسول ﷺ وسيرته الكريمة .

٩– من ادعى أن مع النبي ﷺ شريكاً في الرسالة ؛ كقول غلاة الرافضة .

١٠– من رفع الرسول إلى منزلة الألوهية وأشركه مع الله عز وجل .

١١– من آمن بنبوة الرسول ﷺ لكنه ادعى أنها في العرب خاصة وليست لجميع الثقلين .

الركن الخامس من أركان الإيمان

الإيمان باليوم الآخر[1]

وهو الإيمان بمجئ اليوم الآخر وهو يوم القيامة وسمي آخراً لأنه لا يوم بعده ، وهو آخر المحطات التي يتنقل فيها الإنسان من العدم إلى بطن أمه ثم إلى الدنيا ثم إلى البرزخ ، ثم إلى اليوم الآخر بعد بعث الناس من قبورهم ، ثم لا محطة بعدها وإنما هو استقرار في الجنة أو النار .

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بأشراط الساعة ، وبما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه والبعث بعد الموت ، وما يكون بعده من المجازاة على الأعمال ، وما يكون هنالك من الأهوال والمواقف التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة الصحيحة ومن المسائل التي تدخل في اليوم الآخر ويجب الإيمان بها ما يلي :

١- **فتنة القبر** : وهو أول شيء يكون بعد الموت حيث يختبر العبد في قبره عن ثلاثة أمور : من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك ؟

فأما المؤمن فيثبته الله عز وجل ويقول : ربي الله وديني الإسلام ونبي

---

[1] سيتم استعراض أحوال اليوم الآخر على وجه الاختصار ، ومن أراد التوسع في ذكر الأدلة فليرجع إلى العقيدة الطحاوية ومعارج القبول ، وغيرها من كتب العقيدة .

محمد ﷺ ، وأما الكافر والمنافق فيقول: هاه هاه لا أدري .

٢- عذاب القبر ونعيمه : وهذا ثابت بالكتاب والسنة وأن الميت إما أن ينعم في قبره وإما أن يعذب عياذاً بالله تعالى ، ودليل نعيم القبر قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [النحل:٣١-٣٢] .

ودليل عذابه قوله تعالى عن آل فرعون : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ لغافر:٤٦] وقد تواترت السنة في ذكر عذاب القبر ونعيمه ؛ كما في الدعاء الذي أرشدنا الرسول ﷺ أن نقوله بعد التشهد في آخر الصلاة: « **اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ...الحديث** »(١) .، وحديث « **إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير** »(٢) .

---

(١) البخاري في الأذان (٨٣٢) ، ومسلم (٥٨٩) ك .المساجد من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) البخاري في الوضوء (٢١٨) (الفتح ٣٧٩/١) ومسلم ك. الإيمان (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

٣- البعث بعد الموت : وهوالقيامة الكبرى ، وهو المقصود الأعظم من الإيمان باليوم الآخر ؛ حيث تعاد الأرواح إلى أجسادها يوم ينفخ في الصور فيبعث الناس من قبورهم حفاة عراة غرلاً بعد أن كانوا رميماً ؛ قال تعالى : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس:٧٨-٧٩] .

وقال عز وجل : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن:٧]

وقال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر:٦٨]

٤- محاسبة الخلائق على أعمالهم : وهو الإيمان بأن الخلائق يحاسبون على أعمالهم؛ فالمؤمن يكون حسابه حساب فضل وإحسان وكرم وهذا هو الحساب اليسير ، ومن نوقش الحساب عذب ، وأما الكفار فإنهم لا يحاسبون هذا الحساب بل يُقرَّرون بأعمالهم ، فإن أنكروا شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، فيجزون بها ، وينادى على رؤوس الأشهاد : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [هود:١٨] ، وهناك من عباد الله من ينجون من الحساب بالكلية وهم الذين أخبر عنهم

النبيﷺ أن من أمته سبعين ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون[1].

٥- الوزن ونصب الموازين : وهو الإيمان بوضع الموازين القسط ليوم القيامة فيوزن فيها العباد وأعمالهم ، وله كفتان توضع في إحدى الكفتين الحسنات وفي الأخرى السيئات ؛ قال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٣]

٦- نشر الكتب والصحف : وهو الإيمان بتطاير الصحف يوم القيامة قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحاقة:١٩] وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٧] ، وهذه الكتب قد كتب فيها ما عمله العبد في الدنيا .

---

[1] انظر البخاري ك. الرقاق (٦٥٤١) ، ومسلم ك. الإيمان (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

٧ – **الحوض** : وهو الإيمان بحوض النبي ﷺ والذي تواترت الأحاديث بذكره ؛ وهو حوض واسع طوله شهر وعرضه شهر ، وآنيته كنجوم السماء ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، من شرب منه لم يظمأ بعده أبداً ، يرده المؤمنون من أمة محمد ﷺ ويذاد عنه من بدل وأحدث بعده ﷺ .

٨– **الصراط** : وهو الجسر الممدود على متن جهنم ، يمر عليه الناس على قدر أعمالهم في الدنيا ؛ فمن كان أسرع في الدنيا لصراط الله المستقيم وقبول الحق والعمل به كان على الصراط أسرع مروراً ، ويعبر عليه المؤمنون إلى الجنة ، أما الكافرون فلا يمرون عليه لأنه يصار بهم إلى النار ورداً عطاشاً ، وكل هذا قد وردت به الأحاديث الصحيحة فيؤمن بها ويُسلم لها ، دون " **كيف** "؟ ، ولا " **لِمَ** "؟، وهذا هو موقف العبد المؤمن من الغيبيات التي ثبتت في القرآن أو السنة .

٩– **الشفاعة** : وهي نوعان :

- خاصة بالنبي ﷺ .
- عامة له ولسائر النبيين والصديقين والصالحين والشهداء .

أما الشفاعة الخاصة: فهي الشفاعة العظمى التي يعتذر منها آدم وأولو

العزم من الرسل عليهم السلام ، ويتفضل بها الله عز وجل لنبينا محمد ﷺ ، ويأذن له بالشفاعة عنده عز وجل لينزل للفصل بين الخلائق ، وهذا هو المقام المحمود الذي وعد الله به رسوله ﷺ .

ومن الشفاعة الخاصة : كذلك شفاعته ﷺ لأهل الجنة بدخولها ، وشفاعته لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه .

أما الشفاعة العامة : فهي الإيمان بشفاعته ﷺ وسائر الأنبياء والصالحين والشهداء لمن دخل النار من المؤمنين أن يخرجوا منها ، ولمن استحق النار من المؤمنين أن لا يدخلها .

وهذه الشفاعة لا يؤمن بها المعتزلة ولا الخوارج ؛ لأنهم يعتقدون خلود مرتكب الكبيرة في النار ، وأن من دخل النار منهم لا يخرج منها ، ومن مات مصراً على كبيرة فهو مخلد في النار ، لا تنفع فيه شفاعة الشافعين ، ومعلوم انحراف هذا القول ، وليس المقام مقام مناقشة بطلانه فمحل ذلك أبواب الإيمان ، وقد مر بنا في أول الحديث عن الإيمان معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان ، ومعتقد من خالفهم من الخوارج والمرجئة حيث هما طرفان ، وأهل السنة وسط بينهما حيث ينفون الشفاعة الشركية ، ويثبتون الشفاعة الشرعية ولكن بشرطيها وهما :

١- إذنه سبحانه وتعالى للشافع .

٢- رضاه عن المشفوع له ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النجم:٢٦] وهذه هي الشفاعة المثبتة ، أما الشفاعة المنفية فهي الشفاعة الشركية التي يطلبها المشركون والقبوريون ممن يعتقدون فيهم الولاية ، ويدعونهم من دون الله ويذبحون لهم وينذرون.

والله عز وجل لا يأذن لأحد أن يشفع في مشرك ؛ فهم أبعد ما يكون عن شفاعة الشافعين ، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر:٤٨] أما من مات لا يشرك بالله شيئاً فهو الحري بالشفاعة ، جعلنا الله بفضله وكرمه منهم .

١٠- الجنة والنار : وهما دار الجزاء ؛ وهما موجودتان الآن دائمتان لا تفنيان ، والجنة دار المتقين ولا يدخلها إلا نفس مسلمة ، والنار دار الكافرين ولا يخلد فيها موحد ، وهذا ثابت في الكتاب والسنة والإجماع ، وقد رآهما الرسول ﷺ في صلاة الكسوف حيث عرضت عليه الجنة والنار ، وذلك في حديث صحيح ثابت[1].

---

[1] صحيح مسلم ك . الكسوف باب ذكر عذاب القبر (٩٠٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

ومن الإيمان بهما الإيمان بدخول المؤمنين للجنة يتنعمون فيها أبد الآباد ، ودخول الكافرين النار يعذبون فيها أبد الآباد ، لأن الجنة والنار لا تفنيان .

من آثار الإيمان باليوم الآخر وثمراته :

١- ((إن إيمان العبد باليوم الآخر حق الإيمان يفتح باب الخوف **والرجاء** ؛ اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب ، وإن عُمِّرَ بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي والمظالم ، وأوجب له الرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها ، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها كأهوال القبر وشدته ، وأحوال الموقف الهائلة وصفات النار المفظعة ، وصفات الجنة ، وما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور ؛ فيحدث بذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب قدر الاستطاعة .

٢- **معرفة فضل الله وعدله** في المجازاة على الأعمال الصالحة والسيئة الموجب لكمال حمده ، والثناء عليه بما هو أهله .

٣- **الإيمان بالبعث والجزاء** أصل صلاح القلب ، وأصل الرغبة في الخير ، والرهبة من الشر اللذين هما أساس الخيرات))[1] .

---

(١) انظر تفسير السعدي

٤- **طمأنينة القلـــب وثباتـــه** أمـام فـتن السـراء والضـراء في الدنيـا والآخـرة ؛ لأن العبـد إذا سيطر عليـه هـم الآخـرة وأيقـن بهـا وبـزوال الدنيـا لم يجزع عند حلول المصائب ، ولم يبطر عند حلول النعم ، وإنمـا تـراه صـابراً شـاكراً يرجـو ثـواب ذلـك عنـد الله عــز وجــل في الـدار الآخرة .

٥- **الاندفاع الشديد للدعــوة إلى الله** عـز وجـل والجـهاد في سبيله لأن ذلك من أحب الأعمال إلى الله عز وجل ، والذي يتعبد بها يرجـو رضاه وجنته ، كما أن الإيمـان بـاليوم الآخـر يجعـل العبـد يسعى حثيثـاً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى حتى لا يشـقوا في الآخرة ويكونوا من وقود النار .

٦- **سلامة القلب من الغل والحسد** ؛ لأن الرغبـة في الآخـرة تجعـل العبد يزهد في الدنيـا الفانيـة والـتي هـي سـبب التحاسـد والتبـاغض بين الناس .

من نواقض الإيمان باليوم الآخر :

١- إنكار البعث وقيام الناس لرب العالمين يوم القيامـة لقولـه تعـالى ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ ﴾ [التغـابن:٧] ، ولقولــه تعـــالى : ﴿ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم

بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الإسراء:٩٧-٩٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ [سبأ:٣-٤] ، كما أن في إنكار البعث تعطيل لأسماء الله عز وجل وصفاته ومقتضاها ؛ إذ في ذلك إنكار لعلم الله سبحانه وعدله وحكمته ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦] ولذلك يكفر من قال بعقيدة التناسخ التي مفادها أن من يموت تنتقل روحه إلى أعلى منه إن كانت في مطيع ، وإلى أدنى منه أو مثله إن كانت في عاصٍ ، وهكذا أبد الآباد ، بدون بعث ولا حساب ، كما يقوله زنادقة الباطنية ، ويكفر أيضاً من قال بقول زنادقة الفلاسفة بأن البعث للأرواح لا للأجساد ، وممن قلدهم في ذلك ابن سينا الطبيب المشهور .

٢- إنكار الجنة والنار أو الشك فيهما ، ويدخل في ذلك إنكار ما أعد الله للمؤمنين من صنوف النعيم من المآكل والمشارب والحور العين في الجنة ، أو ما توعد الله عز وجل أهل الكفر والفسوق من صنوف

العذاب من السلاسل والزقوم والغسلين والحميم في النار ، والقول بأن الوعد والوعيد تخييل للحقائق لكي ينتفع به الجمهور ؛ كما يقول به ملاحدة الفلاسفة ، ويدخل في هذا الكفر من باب أولى من أنكر الجنة أوالنار ، أو قال بأنهما معانٍ باطنة يقصد بها نعيم الأرواح أو تألمها فقط ، أو أن أهل النار يتنعمون في النار . ومن صور هذا الكفر السخرية بالوعد والوعيد والاستهزاء بهما .

٣- إنكار ما أخبر الله عز وجل به عن يوم القيامة من الحساب ووضع الموازين القسط ليوم القيامة ، ونشر الصحف واستلام الكتب باليمين أو الشمال ؛ لأن في ذلك تكذيباً لخبر القرآن الكريم ، ويدخل في ذلك من شك أو سخر بشيء من ذلك .

الركن السادس من أركان الإيمان

الإيمان بالقدر خيره وشره

« **الإيمان بالقدر** معناه أن تؤمن بأن الله عز وجل قد قدر كل شيء بل أن يكون وأنه قدره عن علم ؛ ولهذا قال العلماء إن مراتب الإيمان بالقدر أربع مراتب :

المرتبة الأولى : العلم ومعناها : أن تؤمن بأن الله تعالى عالم كل شيء جملة وتفصيلاً سواءً فيما يتعلق بفعله عز وجل كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، وإنزال المطر وغير ذلك ، أو ما يتعلق بفعل المخلوقين كأقوال الإنسان وأفعاله ، بل حتى أفعال الحيوان كلها معلومة لله عز وجل قبل وقوعها ؛ وأدلة ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٠]، ومنها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢] ومنها قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩] وهذا العلم من الله عز وجل لم يسبقه جهل ولا

يلحقه نسيان ، ولهذا لما قال فرعون لموسى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه:٥١-٥٢] ، وقوله ﴿ لَّا يَضِلُّ ﴾ أي لا يجهل ، ﴿ وَلَا يَنسَى ﴾ ما كان معلوماً ، بينما علم البشر محفوف بهاتين الآفتين :جهل مسبق ونسيان لاحق ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل -٧٨] .

المرتبة الثانية : **الكتابة ومعناهـــــا** : أن تؤمن بأن الله تعالى كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، كتب مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة ، كل شيء يكون في الوجود أو يصير إلى العدم ، فإنه مكتوب قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

ودليل هذه المرتبة من الكتاب قول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج :٧٠]، وقوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى

ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحديد :٢٢] .

ومن السنة حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما ((**كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء**))[1].

المرتبة الثالثة : المشيئة ومعناها : أن تؤمن بأن كل ما كان ويكون فهو بمشيئة الله عز وجل ، وما لم يشأه سبحانه لم يكن ، وقد أجمع المسلمون على هذا في الجملة ؛ فكل المسلمين يقولون : ((ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن)) ، فكل شيء واقع بمشيئة الله تعالى ، فما كان بفعل الله عز وجل فهو بمشيئته ولا إشكال فيه ، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، وكذلك ما كان من فعل المخلوق فهو أيضاً بمشيئة الله ، ودليل ذلك من الكتاب قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة :٢٥٣] ، والاقتتال فعل العبد فجعله الله عز وجل بمشيئته وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ

---

(١) أخرجه البخاري ك . التوحيد باب وكان عرشه على الماء ، (٧٤١٨) .

ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ ﴾ [الأنعام : ١٣٧] ، وقال تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] .

إذاً فأفعالنا واقعة بمشيئة الله تعالى .

أما الدليل العقلي : فأن يقال : هل الخلق ملك لله ؟ فالجواب : نعم ، وهل يمكن أن يكون في ملك الله ما لا يريد ؟ الجواب : لا يمكن ؛ فمادام الشيء ملكه فلن يكون في ملكه ما لا يريد ، إذاً فكل ما كان في ملكه فهو بإرادته ، وبمشيئته ولا يكون في ملكه ما لا يشاء أبداً . إذ لو كان في ملكه ما لا يشاء لكان ملكه ناقصاً ، وكان في ملكه ما يقع بدون مشيئته وعلمه ، وهذا يستلزم عجزه سبحانه وأنه ليس على كل شيء قدير تعالى الله علواً كبيراً .

المرتبة الرابعة : الخلق ومعناها : الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء ، فنؤمن بعموم خلق الله تعالى لكل شيء ، ودليل ذلك : قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا

وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان:١-٢]وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزمر:٦٢-٦٣] ، وقال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام:١٠١]، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر:٤٩] .

والآيات في ذلك واضحة كثيرة تبين أن كل شيء مخلوق لله عز وجل ، ومنه فعل الإنسان فهو مخلوق لله تعالى ، وإن كان هو الفاعل حقيقة ، باختياره وإرادته لكنه مخلوق لله تعالى ؛ وذلك أن فعل الإنسان ناشيء من أمرين هما الإرادة الجازمة والقدرة التامة .. فأفعالنا كلها التي نفعلها ناشئة عن إرادة جازمة وقدرة تامة ، والذي خلق هذه القدرة والإرادة هو الله عز وجل ...

ووجه كون الله هو الخالق لهذه الإرادة والقدرة أن الإرادة والقدرة وصفان للمريد والقادر ، وخالقه هو الله عز وجل وخالق الموصوف خالق للوصف ، ومع هذا فهي أفعالنا لا أفعاله تعالى بل مفعولاته أي مخلوقاته ، والصواب هو الفرق بين الفعل والمفعول فالمخلوقات كلها

مفعولة له ، وأفعاله تعالى ما قام به من الخلق والتدبير والقول ونحو ذلك .

وبهذا اتضح الأمر وانجلى بأن أفعال الإنسان مخلوقة لله عز وجل)[١] وبعد فهذه مراتب القدر التي لا يصح إيمان عبد بالقدر إلا بها ، وبقي أن يقال إن القضاء والقدر هو سر الله عز وجل في خلقه ، ولا تقوم شجرته في قلب المؤمن إلا على ساق التسليم ، والإيمان بأن الله عز وجل حكم عدل لا يظلم أحداً لأنه حرَّم الظلم على نفسه ، وجعله بين عباده محرماً، وله الحكمة البالغة فيما يقدره في خلقه ، وما لم يظهر لنا حكمته فيما يقضيه سبحانه ويقدره فلقصور عقولنا عن إدراك أسرار قدره سبحانه ولقصورها عن إدراك الحكمة العظيمة التي يريدها الله عز وجل من وراء أقضيته وأقداره ، ويكفي ما علمناه من الحكم العظيمة في بعض خلقه لنسلم بحكمته سبحانه فيما لم ندركه ونعقله من الحكم فيما غاب عنا ، ويقول الإمام الطحاوي : «وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم

---

[١] انظر فتاوى ودروس الحرم المكي للشيخ ابن عثيمين حفظه الله ١/٣٥-٦٠ باختصار وتصرف يسيرين .

عن مرامه ، كما قال تعالى في كتابه : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فمن سأل : لِمَ فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين))[1]أهـ.

من ثمرات الإيمان بالقدر خيره وشره :

١- تعظيم الله عز وجل وإجلاله : لما في الإيمان بالقدر من ظهور آثار أسمائه سبحانه وصفاته ، وذلك من علمه المحيط بكل شيء وحكمته البالغة ، وخلقه لكل شيء وقهره لكل شيء ، كل ذلك من شأنه أن يملأ القلب إجلالاً وتعظيماً ومحبة لله عز وجل .

٢- التسلية عند حلول المصائب : لأن العبد إذا علم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه رضي وسلم ، ونزلت على قلبه الطمأنينة ، ولم يجزع كما في قوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣] .

٣- سلامة القلب من الحسد والحقد اللذان هما في الحقيقة معارضة لقدر الله عز وجل فيما يقدره من النعم على عباده ويصرفه عنهم من

---

[1] العقيدة الطحاوية ص ٢٤٩ .

النقم .

٤- السلامة من الضلالات التي أصابت بعض الطوائف الضالة في باب القدر كالقدرية والجبرية ، والتي لها الآثار في أعمالهم وتصرفاتهم المشينة .

٥- بذل الجهد في الأعمال الصالحة والفرار من أقدار الله تعالى التي لا يرضاها إلى أقداره التي يرضاها .

٦- سؤال الله عز وجل الهداية والثبات ، والخوف من زيغ القلب وزلة القدم ، ولا عاصم من ذلك إلا من رحم الله عز وجل فهداه وثبته ، وهذا يثمر صدق التوكل على الله عز وجل واللجوء إليه وحده

من نواقض الإيمان بالقدر :

١- إنكار القدر والتكذيب به؛ بأن ينكر أو يكذب أن الله عز وجل علم الأشياء قبل وقوعها ، أو كتبها في كتاب مبين ، أو ينكر أو يكذب بمشيئة الله عز وجل لها ، أو ينكر خلق الله تعالى للأشياء .

٢- من لم يكذب به ولكنه استخف به أو استهزأ به وسخر منه .

٣- معارضة الله عز وجل في أقداره ، أو الاعتقاد بأنها عبث وسدى .

٤- اعتقاد أن تقدير الله عز وجل للمصائب على عباده ظلم من الله تعالى الله عن ذلك .

٥- الاعتقاد بأن المعاصي وأكبرها الشرك يرضاها الله عز وجل عندما تقع من العبد ، لأن الله عز وجل قدرها عليه ، وهذا قول المشركين الأولين ومن تابعهم من غلاة الصوفية الجبرية ؛ فقد قال الله عز وجل عن المشركين : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف:٢٨].

ولو تأملنا هذه النواقض لرأيناها في حقيقتها تنقصاً وتكذيباً لله عز وجل ، وتعطيلاً لأسمائه وصفاته واستخفافاً بها ، ولهذا يكفر من تلبس بها وينتقض إيمانه .

وبذلك ننتهي من الحديث عن الأصل الأول من أصول النجاة في هذه السورة العظيمة سورة العصر ، ألا وهو (**الإيمان**) وذلك من قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر:١-٣] وننتقل الآن إلى الكلام عن الأصل الثاني من أصول النجاة كما حددته السورة الكريمة ألا وهو (**العمل الصالح**) وذلك من قوله تعالى ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾

** ** **

الأصل الثاني : العمـــل الصالـــح

إن ما أجمع عليه السلف في أبواب الإيمان أن الإيمان قول وعمل ، وأنه قول القلب وعمله ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح .

إذاً فالعمل الصالح جزء لا يتجزء من الإيمان ؛ فإذا انتفى جنسه انتفى أصل الإيمان ، وإن انتفى بعضه فإن كان من الواجبات انتفى كمال الإيمان الواجب ، وإن كان من المستحبات انتفى كمال الإيمان المستحب ، وإن كان العمل المتروك قد نص الشارع على كفر تاركه انتفى أصل الإيمان .

ومن شبهات المرجئة في فصلهم العمل عن الإيمان قولهم بأن الله عز وجل قد عطف العمل الصالح على الإيمان في أكثر من آية في القرآن كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [التين:٦] والعطف يفيد المغايرة فدل ذلك على أن العمل الصالح غير داخل في مسمى الإيمان ، وقد تولى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: تعالى الرد على هذه الشبهة بكلامٍ شافٍ كافٍ ، فقال رحمه الله تعالى «وأما إذا استعمل اسم الإيمان مقيداً كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [فصلت:٨] وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس:٦٣] وقول النبي ﷺ «**الإيمان أن تؤمن بالله**

وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد المــــوت » ونحو ذلك فهنا قد يقال: إنه متناول لذلك ، وإن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة:٩٨] وقولـــــه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۝٧ ﴾ [الأحزاب:٧] ، وقد يقال : إن دلالة الاسم تنوعت بالإفراد والاقتران ، كلفظ الفقير والمسكين ، فإن أحدهما إذا أفرد تناول الآخر ، وإذا جمع بينهما كانا صنفين كما في آية الصدقة ، ولا ريب أن فروع الإيمان مع أصوله كالمعطوفين ؛ وهي مع جميعه كالبعض مع الكل ، ومن هذا الموضع نشأ نزاع واشتباه: هل الأعمال داخلة في الإيمان أم لا ؟ لكونها عُطفت عليه .

ومن هذا الباب قد يعطف على الإيمان بعض شعبه العالية ، أو بعض أنواعه الرفيعة : كاليقين والعلم ونحو ذلك ، فيشعر العطف بالمغايرة ؛ فيقال : المؤمن الذي معه هذا الإيمان ـ أي اليقين ـ أرفع من المؤمن الذي ليس معه هذا اليقين والعلم كما قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١] ومعلوم أن الناس يتفاضلون في نفس الإيمان والتصديق في قوته وضعفه ، وفي عمومه وخصوصه ، وفي بقائه ودوامه ، وفي موجبه ونقيضه ، وغير

ذلك من أموره ، فيخص أحد نوعيه باسم يفضل به على النوع الآخر، ويبقى اسم الإيمان في مثل ذلك متناولاً للقسم الآخر ، وكذلك يفعل في نظائر ذلك ؛ كما يقال : الإنسان خير من الحيوان ، والإنسان خير من الدواب ، وإن كان الإنسان يدخل في الدواب ، في قوله: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال:٢٢] فإذا عرف هذا ؛ فحيث وجد في كلام مقبول تفضيل شيء على الإيمان فإنما هو تفضيل نوع خاص على عمومه ، أو تفضيل بعض شعبه العالية على غيره ، واسم الإيمان قد يتناول النوعين جميعاً ، وقد يخص أحدهما كما تقدم ، وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة أسمائه))[1] أهـ.

وهنا بعض المسائل المتعلقة بالعمل الصالح :

المسألة الأولى : ما المراد بالعمل الصالح ؟

ذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ : ((أي أدوا ما لزمهم من فرائضه واجتنبوا ما نهاهم عنه من معاصيه))[2].

---

[1] مجموع الفتاوى ٧/٦٤٧-٦٤٨ .

[2] تفسير الطبري ٣٠/٢٩٠ .

وقد جاء ذكر العمل الصالح في القرآن الكريم في مواطن كثيرة وعلى عدة وجوه :

• فمرة يذكر معه الإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الكهف:١٠٧]، وقوله : ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧] .

• ومرة مقروناً بالصبر كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [هود:١١].

• ومرة يقرن بالنهي عن الشرك كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠] .

• وفي مواطن أخرى يقرن مع الإيمان بعض الأعمال الصالحة لخصوصيتها والتنويه على علو شأنها ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٧]

وكما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [هود:٢٣] وفي ضوء الآيات السابقة وما ماثلها يمكن تفصيل القول في العمل الصالح حسب الوجوه التالية :

١- إذا جاء ذكر العمل الصالح مقروناً بالإيمان فإن المراد منه كل عمل أو قول يقوم على إخلاص العمل لله عز وجل ، والمتابعة فيه للرسول ﷺ ، وبدون هذين الشرطين لا يعد العمل صالحاً ، ولم نذكر شرط الإيمان هنا لوجوده في نفس الآية كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ .

٢- وإذا ورد ذكر العمل الصالح مفرداً كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [هود:١١] فإن المراد بالعمل الصالح هنا ؛ ما توفر فيه شرطا الإخلاص والمتابعة مضافاً إليهما شرط الإيمان والتوحيد إذ لا قيمة لعمل بدون إيمان إذ هو الأصل في جميع الأعمال والشرك يحبط جيمع الأعمال ، أي أنه إذا ذكر العمل الصالح غير مقترن بذكر الإيمان في آية واحدة فإن العمل الصالح متضمن لذكر الإيمان .

٣- وإذا ذكر العمل الصالح مع الإخلاص لله تعالى ، فإن المراد بالعمل

الصالح هنا ما كان عن إيمان بالله تعالى ، وموافقاً لما جاء به الرسول ﷺ كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠] .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : ((﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا ﴾ أي ما كان موافقاً لشرع الله))[1].

٤- إذا عطف على الإيمان والعمل الصالح بعض الأعمال الصالحة كالإخبات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ فإن ذلك من عطف الخاص على العام ، ولكونها ثمرة من ثمار الإيمان ، كما يراد بها التنويه بمنزلة هذه الأعمال عند الله عز وجل .

وعن هذه الأصول الثلاثة التي هي شروط العمل الصالح والتي لا يوصف العمل بأنه صالح إلا بها ، يقول الإمام الشنقيطي رحمه الله تعالى ((وقوله في هذه الآية الكريمة[2] : ﴿ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ بينت المراد به آيات أخر ؛ فدلت على أن العمل لا يكون صالحاً إلا

---

[1] تفسير ابن كثير عند الآية رقم ١١٠ من سورة الكهف .

[2] يعني قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف:٢] .

بثلاثة أمور :

الأول : أن يكون مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ ، فكل عمل مخالف لما جاء به صلوات الله وسلامه عليه فليس بصالح ؛ بل هو باطل ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝ ﴾ [الحشر:٧] ، وقال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ [النساء:٨٠] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ۝ ﴾ [آل عمران:٣١] وقال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ [الشورى:٢١] إلى غير ذلك من الآيات .

الثاني : أن يكون العامل مخلصاً في عمله لله فيما بينه وبين الله ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ ﴾ [الزمر:١١-١٥] إلى غير ذلك من الآيات .

الثالث : أن يكون العمل مبنياً على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة ؛ لأن العمل كالسقف ، والعقيدة كالأساس؛ قال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل:٩٧] فجعل الإيمان قيداً في ذلك))[١].أهـ

وقد ذكرت هذه الشروط الثلاثة مجتمعة في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩] .

المسألة الثانية : الوظائف التي على القلب واللسان والجوارح من العبوديات والأعمال الصالحة :

لما كان العمل من الإيمان ، والإيمان قول وعمل ، وهو موزع على القلب واللسان والجوارح ؛ فلا جرم كان على هذه المواطن من العبوديات والعمل الصالح كل بحسبها ، فعلى القلب جزء من الأعمال الصالحة تخصه ، وعلى اللسان نصيبٌ يخصه ، وعلى الجوارح ما يخصها .

وعلى هذا فإن الأعمال الصالحة تشمل جميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المرضية عند الله عز وجل .

ويفصل القول في هذه المسألة الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول:

---

[١] أضواء البيان ٤/٩ .

((رحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة من كملها كمل مراتب العبودية ، وبيانها : أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح وعلى كل منها عبودية تخصه .

والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح ، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح .

فواجب القلب منه متفق على وجوبه ومختلف فيه .

فالمتفق على وجوبه : كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والصبر والإنابة ، والخوف ، والرجاء ، والتصديق الجازم ، والنية في العبادة ، وهذه قدر زائد على الإخلاص ؛ فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره ، ونية العبادة لها مرتبتان :

إحداهما : تمييز العبادة عن العادة .

والثانية : تمييز مراتب العبادة بعضها عن بعض .

والأقسام الثلاثة واجبة .

وكذلك الصدق والفرق بينه وبين الإخلاص : أن للعبد مطلوباً وطلباً ، فالإخلاص : توحيد مطلوبه ، والصدق توحيد طلبه .

فالإخلاص : أن لا يكون المطلوب منقسماً ، والصدق أن لا يكون الطلب منقسماً ، فالصدق بذل الجهد ، والإخلاص إفراد المطلوب .

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة .

وكذلك النصح في العبودية ـ ومدار الدين عليه ـ وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له ، وأصل هذا واجب وكماله مرتبة المقربين .

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان : واجب مستحق ، وهو مرتبة أصحاب اليمين ، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين .

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة ؛ قال الإمام أحمد : ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن ، أو بضعاً وتسعين ، وله طرفان أيضاً : واجب مستحق ، وكمال مستحب ..

والقصد : أن هذه الأعمال ـ واجبها ومستحبها ـ هي عبودية القلب فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك ، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح .

والمقصود : أن يكون ملك الأعضاء ـ وهو القلب ـ قائماً بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته .

وأما المحرمات التي عليه : فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة

والنفاق ، وهي نوعان : كفر ومعصية .

فالكفر : كالشك ، والنفاق ، والشرك وتوابعها .

والمعصية نوعان : كبائر وصغائر .

فالكبائر : كالرياء ، والعجب ، والكبر ، والفخر ، والخيلاء ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والفرح والسرور بأذى المسلمين ، والشماتة بمصيبتهم ، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم ، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله ، وتمني زوال ذلك عنهم وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا وشرب الخمر ، وغيرهما من الكبائر الظاهرة ، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها ؛ وإلا فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد البدن .

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب ، وترك القيام بها .

فوظيفة « إياك نعبد » على القلب قبل الجوارح ، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد ، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها .

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه ، وقد تكون كبائر ، بحسب قوتها وغلظها ، وخفتها ودقتها .

ومن الصغائر أيضاً شهوة المحرمات وتمنيها ، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر ، بحسب تفاوت درجات المشتهى ... وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه .

وأما عبوديات اللسان الخمس : فواجبها : النطق بالشهادتين ، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن ـ وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه ـ وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود ، وأمر بقول « ربنا ولك الحمد » ، بعد الاعتدال ، وأمر بالتشهد ، وأمر بالتكبير .

ومن واجبه رد السلام وفي ابتدائه قولان .

ومن واجبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال ، وأداء الشهادة المتعينة وصدق الحديث .

وأما مستحبه : فتلاوة القرآن ، ودوام ذكر الله ، والمذاكرة في العلم النافع ، وتوابع ذلك .

وأما محرمه : فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله ﷺ كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله ﷺ ، والدعاء إليها ، وتحسينها وتقويتها ، وكالقذف وسب المسلم وأذاه بكل قول ، والكذب ، وشهادة الزور ، والقول على الله بلا علم وهو أشدها تحريماً .

ومكروهه : التكلم بما تركه خير من الكلام به ؛ مع عدم العقوبة عليه .

وقد اختلف السلف : هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين؟ على قولين ، ذكرهما ابن المنذر وغيره : أحدهما : أنه لا يخلو كل ما يتكلم به إما أن يكون له أو عليه ، وليس في حقه شيء لا له ولا عليه.

واحتجوا بالحديث المشهور وهو ((**كل كلام ابن آدم عليه لا له ، إلا ما كان من ذكر الله وما والاه**))[1].

---

[1] أخرجه الترمذي (٢٤١٢) وابن ماجة (٣٩٧٤) وابن السني (عمل اليوم والليلة /٥) والحاكم (٥١٣/٢) من حديث أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة عن النبي ﷺ قال : ((**كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله**)) وهذا حديث ضعيف ، أم صالح قال الذهبي وابن حجر : مجهولة ، قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن خنيس ، وفي بعض النسخ حسن غريب ، والأول هو الصواب الذي أثبته المزي في ترجمة أم صالح (تهذيب الكمال/ ٣٦٩/٣٥) ، وقد اعتبر بعض السلف المعنى الذي دل عليه هذا الحديث ، فقد قرئ الحديث على سفيان الثوري فقال رجل عنده ما أشد هذا ، فقال سفيان الثوري رحمه الله : وما شدة هذا الحديث إنما جاءت به امرأة عن امرأة هذا في كتاب الله عز وجل الذي أرسل به نبيكم ﷺ فقرأ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النبأ:٣٨] وقال : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ =

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه ولا يكتب إلا الخير والشر .

وقالت طائفة : بل هذا الكلام مباح لا عليه ولا له ، كما في حركات الجوارح .

قالوا : لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي ، وهذا شأن المباح .

والتحقيق : أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين ؛ بل إما راجحة وإما مرجوحة ، لأن للسان شأناً ليس لسائر الجوارح ، وإذا أصبح ابن آدم فإن أعضاء ابن آدم كلها تذكر اللسان تقول ((**اتق الله ، فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا**))[1]

= ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣] وقال ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء:١١٤] .

(١) أخرجه أحمد (٣/٩٥-٩٦) الترمذي (٢٤٠٧) وابن السني (عمل اليوم والليلة/١) وأبو نعيم في الحلية (٤/٣٠٩) من حديث حماد بن زيد عن أبي الصهباء عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد الخدري ﷺ ، وقد اختلف في رفعه ووقفه ، وأشار الترمذي إلى هذا الخلاف فقال :" وهذا الحديث لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد ، وقد رواه غير واحد عن حماد بن زيد ولم يرفعوه " وقال الترمذي عن الموقوف :" هذا أصح " ، وأبو الصهباء قال الحافظ مقبول ، وقد حسن الحديث الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٤٨) .

وأكثر ما يكب الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم ، وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أو لا .

فإن كان كذلك فهو الراجح ، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح ، وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح ، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين ، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة ، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له ، ولا مضرة عليه في الآخرة ، وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة فتأمله .

فإن قيل : فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين ، فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل .

قيل : حركته بها عند الحاجة إليها راجحة ، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده ، فتكون عليه لا له .

فإن قيل : فإذا كان الفعل متساوي الطرفين كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك ؛ إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم .

قيل : لا يلزم ذلك ، فقد يكون الشيء مباحاً ، بل واجباً ووسيلته مكروهة كالوفاء بالطاعة المنذورة ـ هو واجب ـ مع أن وسيلته ـ وهو النذر ـ مكروه منهي عنه ، وكذلك الحلف المكروه مرجوح مع وجوب الوفاء به أو الكفارة .

وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه ، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة ، وهذا كثير جداً ؛ فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها ، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه .

وأما العبوديات الخمس على الجوارح : فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً ، إذ الحواس خمس ، وعلى كل حاسة خمس عبوديات .

فعلى السمع : وجوب الإنصات والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما ، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام ، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء .

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع ؛ إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة : من رده أو الشهادة على قائله ، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك ، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره ، ولا يحب أن يطلعك عليه ، مالم يكن متضمناً لحق لله يجب القيام به ، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه .

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُخْشى الفتنة بأصواتهن

إذا لم تدع إليه حاجة : من شهادة ، أو معاملة ، أو استفتاء أو محاكمة أو مداواة ونحوها .

وكذلك استماع المعازف ، وآلات الطرب واللهو ، كالعود والطنبور واليراع ونحوها ، ولا يجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت ، وهوا لا يريد استماعه ، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات فحينئذ يجب لتجنب سماعها وجوب سد الذرائع .

ونظير هذا الْمُحْرِمُ : لا يجوز له تعمد شم الطيب ، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامه لم يجب عليه سد أنفه .

ونظير هذا : نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر ، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها .

وأما السمع المستحب : فكاستماع المستحب من العلم ، وقراءة القرآن وذكر الله ، واستماع كل ما يحبه الله وليس بفرض .

والمكروه : عكسه . وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه .

والمباح ظاهر .

وأما النظر الواجب : فالنظر في المصحف ، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها ، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها ، والأمانات التي يؤديها

إلى أربابها ليميز بينها ونحو ذلك .

والنظر الحــرام : النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقاً ، وبغيرها إلا لحاجة ، كنظر الخاطب ، والمستام والمعامل ، والشاهد ، والحاكم ، والطبيب ، وذي المحرم .

والمستحب : النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً ، والنظر في المصحف ، ووجوه العلماء الصالحين والوالدين[1]، والنظر في آيات الله المشهودة ، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته .

والمكروه : فضول النظر الذي لا مصلحة فيه ؛ فإن له فضولاً كما للسان فضولاً ، وكم قاد فضولها إلى فضولٍ عَزَّ التخلص منها ، وأعيَى دواؤها وقال بعض السلف : كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام .

والمباح : النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة .

ومن النظر الحرام : النظر إلى العورات . وهي قسمان : عورة وراء الثياب ، وعورة وراء الأبواب .

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ، ففقأ

---

[1] المقصود نظر المحبة والبر لهما وطلب القدوة وحسن التأسي .

عينه ، لم يكن عليه شيء وذهبت هدراً بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته[١] ، وإن ضعفه بعض الفقهاء ، لكونه لم يبلغه النص أو تأوله .

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله ، كعورة له هناك ينظرها ، أو ريبة هو مأمور ـ أو مأذون له ـ في الاطلاع عليها .

وأما **الذوق الواجب** : فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت ، فإن تركه حتى مات مات عاصياً قاتلاً لنفسه .

قال الإمام أحمد وطاووس : من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار .

ومن هذا : تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك ، على أصح القولين ، وإن ظن الشفاء به ؛ فهل هو مستحب أو مباح أو الأفضل تركه ؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف .

والذوق الحرام : كذوق الخمر ، والسموم القاتلة ، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب .

وأما **المكروه** : فكذوق المشتبهات ، والأكل فوق الحاجة ، وذوق

---

[١] أخرجه البخاري ك. الديات (٦٨٨٨) ، ومسلم ك. الأدب (٢١٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

طعام الفجاءة ، وهو الطعام الذي تفجأ آكله ، ولم يُرِد أن يدعوك إليه وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها ، وفي السنن أن رسول الله ﷺ : « **نهى عن طعام المتبارين** »[1]، وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس .

والذوق المستحب : أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل ، مما أذن الله فيه . والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل ، فينال منه غرضه ، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب .

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها ، للأمر به عن الشارع .

والذوق المباح : ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان .

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم :

فالشم الواجب : كل شم تعين طريقاً للتميز بين الحلال والحرام كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة ؟ وهل هي سم

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٥٤) ، والحاكم (١٢٩/٤) ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وأشار أبو داود إلى الخلاف في وصله وإرساله ، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وذكر له العلامة الألباني رحمه الله شاهداً وصححه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه انظر الصحيحة (ح ٦٢٦) .

قاتل أو لا مضرة فيه ؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به ، وما لا يملك ؟ ومن هذا شم المقوِّم وربِّ الخِبْرة ، عند الحكم بالتقويم و [شم] العبيد ونحو ذلك .

وأما الشم الحرام : فالتعمد لشم الطيب في الإحرام ، وشم الطيب المغصوب والمسروق ، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه .

وأما الشم المستحب : فشم ما يعينك على طاعة الله ، ويقوي الحواس ، ويبسط النفس للعلم والعمل ، ومن هذا : هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك ، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ : « **من عُرض عليه ريحان فلا يرده ، فإنه طيب الريح خفيف المحمل** »[1] .

والمكروه : كشم طيب الظَّلَمة ، وأصحاب الشبهات ، ونحو ذلك .

والمباح : ما لا منع فيه من الله ولا تَبِعة ، ولا فيه مصلحة دينية ، ولا تعلق له بالشرع .

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس :

فاللمس الواجب : كلمس الزوجة حين يجب جماعها ، والأمة الواجب إعفافها .

---

[1] أخرجه مسلم (٢٢٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والحرام : لمس ما لا يحل من الأجنبيات .

والمستحب : إذا كان فيه غض بصره ، وكف نفسه عن الحرام ، وإعفاف أهله .

والمكروه : لمس الزوجة في الإحرام للذة ، وكذلك في الاعتكاف ، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه .

ومن هذا لمس بدن الميت ـ لغير غاسله ـ لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريماً له ، ولهذا يستحب ستره عن العيون ، وتغسيله في قميصه في أحد القولين ، ولمس فخذ الرجل إذا قلنا : هي عورة .

والمباح : ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية .

وهذه المراتب أيضاً مُرَتّبة على البطش باليد ، والمشي بالرجل ، وأمثلتها لا تخفى .

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله واجب وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف ، والصحيح وجوبه ليمكنه من أداء دينه ، ولا يجب لإخراج الزكاة ، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر ، والأقوى في الدليل وجوبه لدخوله في الاستطاعة ، وتمكنه بذلك من أداء النسك والمشهور عدم وجوبه .

ومن البطش الواجب : إعانة المضطر ، ورمي الجمار ، ومباشرة الوضوء والتيمم .

والحرام : كقتل النفس التي حرم الله قتلها ، ونهب المال المعصوم ، وضرب من لا يحل ضربه ونحو ذلك ، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنّرد ، أو ما هو أشد تحريماً منه عند أهل المدينة كالشطرنج أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره ، أو دونه عند بعضهم ، ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفاً أو نسخاً ، إلا مقروناً بردها ونقضها ، وكتابة الزور والظلم والحكم الجائر والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب ، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم ، ولا سيما إن كسبت عليه مالاً : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة:٧٩] وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله ، إلا أن يكون مجتهداً مخطئاً ، فالإثم موضوع عنه .

وأما المكروه : فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام ، وكتابة ما لا فائدة في كتابته ، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة .

والمستحب : كتابة كل ما فيه منفعة في الدين ، أو مصلحة لمسلم

والإحسان بيده بأن يعين صانعاً ، أو يصنع لأخرق ، أو يُفرغ من دَلْوه في دلو المستسقي ، أو يحمل له على دابته ، أو يمسكها حتى يحمل عليها ، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك ، ومنه : لمس

الركن بيده في الطواف ، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان :

والمباح : ما لا مضرة فيه ولا ثواب .

وأما **المشي الواجب** : فالمشي إلى الجمعات والجماعات ، في أصح القولين ، لبضعة وعشرين دليلاً ، مذكورة في غير هذا الموضع ، والمشي حول البيت للطواف الواجب ، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه ، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي إليه ، والمشي إلى صلة رحمه ، وبر والديه ، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه ، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر .

والحرام : المشي إلى معصية الله ، وهو من رجل الشيطان ، قال تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء:٦٤] قال مقاتل : استعن عليهم بركبان جندك ومُشاتهم . فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس .

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضاً :

فواجبه : في الركوب في الغزو ، والجهاد ، والحج الواجب .

ومستحبه : في الركوب المستحب من ذلك ولطلب العلم وصلة الرحم وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع، هل الركوب فيه أفضل

أم على الأرض ؟ والتحقيق أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة : من تعليم المناسك ، واقتداء به ، وكان أعون على الدعاء ، ولم يكن فيه ضرر على الدابة .

وحرامه : الركوب في معصية الله عز وجل .

ومكروهه : الركوب للهو واللعب ، وكل ما تركُه خير من فعله .

ومباحه : الركوب لما لم يتضمن فوت أجر ، ولا تحصيل وزر .

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء : القلب ، واللسان ، والسمع والبصر ، والأنف ، والفم ، واليد ، والرجل ، والفرج ، والاستواء على ظهر الدابة))[1] .أ.هـ.

وبتأمل هذه العبوديات التي ذكرها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى موزعة على القلب واللسان والجوارح ؛ نجد أنها تتضمن أفعالاً وتروكاً ، والفعل والترك إذا كان مما يحبه الله ويرضاه فإن الفاعل للمأمور به والتارك للمنهي عنه ابتغاء وجه الله عز وجل يصدق عليه أنه عمل صالحاً ، أي أن فعل المأمور وترك المنهي يعد عملاً صالحاً يتقرب به إلى الله عز وجل كما سبق تفصيله في النقل السابق .

---

(١) مدارج السالكين ١/١١٠-١٢٢ باختصار يسير .

المسألة الثالثة : أساس التفاضل بين الأعمال الصالحة :

إن وجوه البر والطاعات كثيرة ، والأعمال الصالحة متنوعة ، ولكن بعضها أحب إلى الله عز وجل من بعض ، وبالتالي فإن بعض الأعمال أفضل من بعض وإن كانت كلها فاضلة ، والأساس في التفاضل بين الأعمال عند الله تعالى هو ما يقوم في القلوب من الإيمان والإخلاص وتوابعهما [1]؛ فإذا تساوت في ذلك فإن التفاضل يكون حسب التفصيلات التالية :

١- الأعمال الصالحة التي افترضها الله عز وجل على عباده أحب إليه سبحانه وأفضل من الأعمال المستحبة ؛ والتي هي من جنس النوافل ، وإن كانت هي الأخرى محبوبة إليه عز وجل ، فإذا قدر العبد أن يأتي بالفرائض كلها وما يستطيع من النوافل فهو المطلوب والمحبوب أما في حالة التزاحم بين الفريضة والنافلة فإن العبد يقدم الفريضة ولو فاتت النافله ؛ لأن الفرض أحب إليه سبحانه مما هو دونه، ويصدق ذلك قوله ﷺ فيما رواه عن ربه سبحانه في الحديث القدسي : « **من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى**

---

[1] انظر الوابل الصيب ص ١٧ تحقيق مصطفى العدوي .

أحبه ... الحديث ››[١] .

ويشرح الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى هذا المعنى فيقول : ‹‹ ويدخل تحت هذا اللفظ جميع فرائض العين والكفاية ، وظاهره الاختصاص بما ابتدأ الله فرضيته ، وفي دخول ما أوجبه المكلف على نفسه نظر للتقييد بقول افترضت عليه ، إلا أن أخذ من جهة المعنى الأعم ، ويستفاد منه أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله .

قال الطوفي : الأمر بالفرائض جازم ويقع بتركها المعاقبة بخلاف النفل في الأمرين وإن اشترك مع الفرائض في تحصيل الثواب ، فكانت الفرائض أكمل ، فلهذا كانت أحب إلى الله تعالى وأشد تقريباً ، وأيضاً فالفرض كالأصل والأس والنفل كالفرع والبناء ، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الآمر وتعظيمه بالانقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية ؛ فكان التقرب بذلك أعظم وقال ابن هبيرة : يؤخذ من قوله ‹‹ ما تقرب إلخ ›› أن النافلة لا تقدم على الفريضة ، لأن النافلة إنما سميت نافلة لأنها تأتي زائدة على الفريضة ، فما لم تؤد الفريضة لا تحصل النافلة ، ومن أدى الفرض ثم زاد عليه النفل وأدام ذلك تحققت منه إرادة التقرب انتهى..

---

(١) أخرجه البخاري ك. الرقاق باب التواضع (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأيضاً فإن من جملة ما شرعت له النوافل جبر الفرائض كما صح في الحديث الذي أخرجه مسلم[١] : ((**انظروا هل لعبدي من تطوع فتكمل به فريضته**)) الحديث بمعناه فتبين أن المراد من التقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا من أخل بها كما قال بعض الأكابر : من شغله الفرض عن النفل فهو معذور ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور))[٢] .أ.هـ.

وعندما يكون العمل الصالح في رتبة واحدة ـ كأن يكون في رتبة الواجبات أو المستحبات ـ فإن المطلوب من العبد أن يأتي بكل الواجبات قدر الاستطاعة على وجه الحتم والإلزام وأن يكثر من النوافل على وجه الاستحباب ؛ كل هذا عندما يمكن الجمع بين فعل جميع الواجبات أو فعل المستحبات ، أما إذا تزاحم فعل الأعمال الصالحة ، وكانت كلها واجبة أو مستحبة ؛ كأن يتزاحم فعل واجبين

---

(١) الحديث ليس في مسلم ، ولكن أخرجه أحمد (٢/٢٩٠،٤٢٥) وأبو داود (٨٦٤،٨٦٥) والنسائي (١/٢٣٢،٢٣٣) والترمذي (٤١٣) وابن ماجة (١٤٢٥) من حديث أبي هريرة ﷺ ، وأخرجه أحمد (٤/١٠٣) ، وأبو داود (٨٦٦) ، وابن ماجة (١٤٢٦) من حديث تميم الداري ﷺ ، وأخرجه أحمد (٤/٦٥) ، (٥/٣٧٧) من حديث رجل من أصحاب النبيﷺ .

(٢) فتح الباري ٣٥١/١١ باختصار .

في وقت واحد أو مستحبين في وقت واحد ، ولا يمكن أداء أحد العملين إلا بتفويت الآخر ، فإنه في هذه الحالة ينظر إلى أفضل العملين وأحبهما إلى الله سبحانه فيفعل ولو أدى إلى ترك العمل المفضول ، ولكن ما ضابط التفاضل بين الأعمال الصالحة التي هي من رتبة واحدة ؟ يجيب الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على ذلك ويذكر أقوالاً أربعة في تحديد أفضل العبادات ، ويختار القول الرابع لشموله واستناده إلى الدليل الشرعي ؛ فيقول رحمه الله تعالى : « ثم أهل مقام (إياك نعبد) لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق ، **فهم في ذلك أربعة أصناف** :

الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات وأفضلها : أشقها على النفوس وأصعبها .

قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد .

قالوا : والأجر على قدر المشقة ، ورووا حديثاً لا أصل له « **أفضل الأعمال أحمزها** » أي أصعبها وأشقها .

وهؤلاء : هم أهل المجاهدات والجور على النفوس .

قالوا : وإنما تستقيم النفوس بذلك . إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاد إلى الأرض ، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني قالوا : أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الإمكان ، واطّراح الاهتمام بها وعدم الاكتراث بكل ما هو منها .

ثم هؤلاء قسمان :

فعوامهم : ظنوا أن هذا غاية ، فشمروا إليه وعملوا عليه ، ودعوا الناس إليه ، وقالوا : هو أفضل من درجة العلم والعبادة ، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها .

وخواصهم : رأوا هذا مقصوداً لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله ، وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته . فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له

الصنف الثالث : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد ، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر ، فرأوا خدمة الفقراء ، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل ، فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي ﷺ : ((**الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله**)) .

رواه أبو يعلى[1]، واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه ، وعمل النُفَّاع متعد إلى الغير ، وأين أحدهما من الآخر ؟ قالوا : ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب[2] .

قالوا : وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ : ((**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم**))[1] وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي ، واحتجوا بقوله ﷺ : ((**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من**

---

[1] أبو يعلى (٦/ح٣٣١٥) من حديث أنس ﷺ مرفوعاً وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو متروك ، كذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩١/٨) ، وذكر الحافظ الحديث في المطالب العالية (٨٩٧) ثم قال : تفرد به يوسف وهو ضعيف جداً .

[2] طرف من حديث أبي الدرداء مرفوعاً أخرجه أحمد (١٩٦/٥) ، وأبو داود (٣٤٦١) والترمذي (٢٦٨٢) بلفظ ((**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاءً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر**))

قال الحافظ في الفتح (١٩٣/١) : ((صححه الحاكم وحسنه حمزة الكناني ، وضعفه بعضهم باضطراب في سنده ولكن له شواهد يتقوى بها))

[1] البخاري (٣٧٠١) ك . فضائل الصحابة، باب مناقب علي ﷺ ، ومسلم (٢٤٠٦) ك. فضائل الصحابة، باب من فضائل علي ﷺ ؛ من حديث سهل بن سعد ﷺ .

أجورهم شيء »[١] وقالﷺ : « **إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير** »[٢] وبقوله ﷺ : « **إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في البحر ، والنملة في جحرها** »[٣] .

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ، ما دام نفعه الذي نسب إليه .

الصنف الرابع قالوا : إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته ، فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار . بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب ، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

---

(١) مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) طرف من حديث أبي أمامة ﷺ أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)؛ قال أبو أمامة : (ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم ، فقال رسول الله ﷺ « **فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم** » ، ثم قال رسول الله ﷺ « **إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير**»

(٣) انظر ما تقدم في الصفحة السابقة .

والأفضل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس : الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه ، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع . وإن بعد كان أفضل .

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن ، أو المال : الاشتغال بمساعدته وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به . فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك .

والأفضـــل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبـد لا سيما التكبير والتهليل والتحميد ، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضـــل في العشر الأخيرة من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضـــل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته وحضور جنازته ، وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضـــل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضـــل خلطتهم في الخير فهي خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه ، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضـــل في كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال ، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد ، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى

نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته ، فهو يعبد الله على وجه واحد ، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت ، فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى ؛ فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره ، فإن رأيت العلماء رأيته معهم ، وإن رأيت العباد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم فهذا هو العبد المطلق))[1] .أ.هـ.

ويضاف إلى ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بعض الأمثلة على تزاحم الواجبات وأيها يقدم عند التزاحم ؛ ومن ذلك ما يلي :

- إذا ضاق وقت صلاة حاضرة وفائتة فيقدم أداء الحاضرة على الفائتة في الأداء .

- وكذلك إذا تزاحم واجب بأصل الشرع وواجب بالنذر ؛ كمن نذر أن يتصدق وعليه زكاة ، ولا يمكنه أن يؤدي الواجبين معاً فإنه يؤدي الزكاة ولو فات الوفاء بالنذر .

---

(١) مدارج السالكين ١/٨٥-٩٠ باختصار .

ومثال ذلك أيضاً لو ضاق الوقت على قضاء رمضان ونذر صوم فعليه أن يقدم القضاء على النذر .

• وكذلك لو تزاحم الواجب العيني المتعلق بمصلحة عامة للمسلمين مع واجب عيني متعلق بمصلحة خاصة فإن الواجب العام مقدم على الخاص كما لو تعارض أداء الجهاد العيني مع طاعة الوالدين .

• وكذلك لو تعارض واجب مقطوع بوجوبه مع واجب مختلف في وجوبه ؛ فإن الواجب المقطوع بوجوبه يقدم على المختلف فيه .

والأمثلة في ذلك كثيرة ، وبالجملة فقواعد التعارض بين المصالح بعضها مع بعض ، أو بين المفاسد ، أو بين المفاسد و المصالح هي من هذا الباب والله أعلم .

أصل آخر للتفاضل بين الأعمال الصالحة وأحبها إلى الله تعالى وهو ما داوم عليه صاحبه وقد ذكر هذا الأصل الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى - في كتابه القيم (المحجة في سير الدلجة) حيث قال : ((وقد أشار النبي ﷺ في هذه الأحاديث المشار إليها في أول الجزء من رواية عائشة وأبي هريرة[1] رضي الله عنهما إلى أن أحب الأعمال إلى الله عز

---

[1] يشير إلى حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : ((**سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يُدخل أحدكم عملُهُ الجنة ، وإن أحب الأعمال أدومها إلى الله عز وجل** =

وجل شيئان : **أحـــدهما** : ما داوم عليه صاحبه وإن كان قليلاً ، وهكذا كان عمل النبي ﷺ وعمل آله وأزواجه من بعده ، وكان ينهى عن قطع العمل ، وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : « **لا تكن مثل فلان ؛ كان يقوم الليل فترك قيام الليل** »[1]وقال ﷺ :« **يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ؛ يقول: دعوت فلم يستجب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعـــاء** »[2] قال الحسن : إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداوماً على طاعة الله عز وجل فبغاك وبغاك فإن رآك مداوماً ملَّك ورفضك ، وإذا رآك مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك .

والثاني : أن أحب الأعمال إلى الله تعالى ما كان على وجه السداد والاقتصاد والتيسير دون ما كان على وجه التكلف لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما : « **ســـددوا وقـــاربوا** » والمراد بالتسديد : العمل بالسداد وهو القصد ، والتوسط في العبادة ؛ فلا

= **وإن قـــل** » : البخاري ك . الرقاق (٦٤٦٤) ، مسلم (٢٨١٨) وأما حديث أبي هريرة ﷺ فهو أن النبي ﷺ قال : « **إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحـــد إلا غلبه فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة** » البخاري ك. الإيمان (٣٩) ، والنسائي (١٢١/٨) .

[1] البخاري ك. التهجد (١١٥٢) ، مسلم .ك الصوم (ح١١٥٩) .

[2] البخاري ك. الدعوات (٦٣٤٠) ، مسلم .ك الذكر والدعاء (ح٢٧٣٥) .

يقصر فيما أُمر به ، ولا يتحمل منها ما لا يطيقه . قال النضر ابن شميل : السداد القصد في الدين والسبيل . وكذا المقاربة ، والمراد: التوسط بين الإفراط والتفريط ، فهما كلمتان بمعنى واحد ومتقارب . وهو المراد بقوله ﷺ في الرواية الأخرى: « **عليكم هدياً قاصداً**[1] »[2] .

المسألة الرابعة : أثر العمل الصالح في دخول الجنة والنجاة من النار :

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : « **سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدْخِل الجنةَ أحداً عملُه** » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟

---

[1] أخرجه أحمد (٤/٤٢٢)،(٥/٣٥١) ، وابن خزيمة في صحيحه (١١٧٩) ، وابن أبي عاصم في السنة (ظلال الجنة/ح٩٥) ، والحاكم في المستدرك (١/٣١٢) من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال خرجت ذات يوم أمشي لحاجة ، فإذا أنا برسول الله ﷺ يمشي فظننته يريد حاجة ، فجعلت أكف عنه ، فلم أزل أفعل ذلك حتى رآني ، فأشار إليَّ ، فأتيته فأخذ بيدي ، فانطلقنا نمشي جميعاً ، فإذا نحن برجل بين أيدينا يصلي ، يكثر الركوع والسجود ، فقال رسول الله ﷺ أترى يرائي ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فأرسل يده وطبق بين يديه ثلاث مرات يرفع يديه ويصوبهما ويقول : ((**عليكم هدياً قاصداً ، عليكم هدياً قاصداً ، عليكم هدياً قاصداً ، فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه**)) .

والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وصحح إسناده الألباني في ظلال الجنة .

[2] المحجة في سير الدلجة ص٥١-٥٢ .

قال : « **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة** »[1] ، ويعلق الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى على هذا الحديث الشريف فيقول : « **أما الأصل** فهو أن عمل الإنسان لا ينجيه من النار ولا يدخله الجنة ، وإن ذلك كله إنما يحصل بمغفرة الله ورحمته ، وقد دل القرآن على هذا المعنى في مواضع كثيرة كقوله تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [آل عمران:١٩٥] وقوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [التوبة:٢١] وقوله تعالى : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [الصف:١١-١٢] .

فقرن بين دخول الجنة والنجاة من النار وبين المغفرة والرحمة فدل على أنه لا ينال شيء من ذلك بدون مغفرة الله ورحمته ، قال بعض السلف : الآخرة إما عفو الله أو النار ، والدنيا إما عصمة الله أو الهلكة

---

[1] أخرجه البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وكان محمد بن واسع يودع أصحابه عند موته ويقول : عليكم السلام ، إلى النار أو يعفو الله .

فأما قول الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزخرف:٧٢] وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة:٢٤] فقد اختلف العلماء في معنى ذلك على قولين :

أحدهما : أن دخول الجنة برحمته ولكن انقسام المنازل بحسب الأعمال[1] ، قال ابن عيينة : يرون النجاة من النار بعفو الله ودخول الجنة بفضله واقتسام المنازل بالأعمال .

والثاني : أن الباء المثبتة في قوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ باء السببية ، وقد جعل الله العمل سبباً لدخول الجنة ، والباء المنفية في قوله ﷺ : « **لن يدخل أحد الجنة بعمله** » باء المقابلة والمعاوضة ، والتقدير لن يستحق أحد دخول الجنة بعمل يعمله ، فأزال توهم من يتوهم أن الجنة ثمن الأعمال ، وأن صاحب العمل يستحق على الله دخول الجنة كما يستحق من دفع ثمن سلعة إلى صاحبها تسليم سلعته ، فنفى بذلك هذا التوهم وبين أن

---

[1] ذكره الحافظ ابن حجر عن ابن بطال ، فتح الباري ٢٩٥/١١ .

العمل وإن كان سبباً لدخول الجنة ، فإنما هو فضل الله ورحمته ، فصار الدخول مضافاً إلى فضل الله ورحمته ومغفرته لأنه هو المتفضل بالسبب والمسبب المرتب عليه ، ولم يبق الدخول مرتباً على العمل نفسه وفي الصحيح عن النبي ﷺ : ((**إن الله عز وجل يقول للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي**))[1] .

وعند تحقيق النظر فالجنة والعمل كلاهما من فضل الله ورحمته على عبده المؤمن ، ولهذا يقول أهل الجنة عند دخولها : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ ﴾ [الأعراف:٤٣] فلما اعترفوا لله بنعمته عليهم بالجنة وبأسبابها من الهداية ، وحمدوا الله على ذلك كله جوزوا بأن نودوا : ﴿ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:٤٣] فأضيف العمل إليهم وشكروا عليه .

ومما يتحقق به معنى قول النبي ﷺ : ((**لن يدخل أحداً الجنة عملُهُ**)) أو ((**لن ينجي أحداً عمله**)) ، أن مضاعفة الحسنات إنما هي من فضل الله عز وجل وإحسانه ، حيث جازى بالحسنة عشراً ثم ضاعفها

---

[1] البخاري ك. التفسير (٤٨٥٠) ، مسلم .ك الجنة وصفة نعيمها وأهلها (ح٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، فهذا كله فضل منه ، ولو جازى بالحسنة مثلها كالسيئات لم تقو الحسنات على إحباط السيئات ، فكان يهلك صاحب العمل لا محالة ، وأيضاً فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : ((**من نُوقش الحساب هلك**))[1] . وفي رواية ((**عُذِّب**)) ، وفي رواية ((**خُصِمَ**)) متفق عليه .

قال ابن عيينة : المناقشة سوء الاستقصاء حتى لا يترك منه شيء . وقال ابن يزيد : الحساب الشديد الذي ليس فيه شيء من العفو ، والحساب اليسير الذي تغفر ذنوبه وتقبل حسناته ، فتبين بهذا أنه لا نجاة للعبد بدون العفو والرحمة والتجاوز ، وأنه متى أقيم العدل المحض على عبد هلك .

ومما يبين ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨] فهذا يدل على أن الناس يُسألون عن النعيم في الدنيا وهل قاموا بشكره أو لا ؟ فمن طولب بالشكر على كل نعمة من عافية وصحة جسم وسلامة حواس وطيب عيش واستقصي ذلك عليه ، لم تف أعماله كلها بشكر بعض هذه النعم ، وتبقى سائر النعم غير مقابلة

---

[1] البخاري ك. الرقاق باب من نوقش الحساب عذب (٦٥٣٧) ، ومسلم ك. الجنة (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها .

بشكر فيستحق صاحبها العذاب بذلك، وخرَّج الخرائطي في كتاب الشكر من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : ((**يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقف بين يدي الله عز وجل فيقول لملائكته : انظروا في عمل عبدي ونعمتي عليه ، فينظرون فيقولون : ولا بقدر نعمة واحدة من نعمك عليه ، فيقول : انظروا في عمله سِّيئه وصالحه ، فينظرون فيجدونه كفافاً ، فيقول : عبدي قد قبلت حسناتك وغفرت لك سيئاتك ، وقد وهبت لك نعمي فيما بين ذلك**))[1].

فمن حقق معرفة هذه الأمور عرف أن العمل وإن عظم فإنه لا يستقل بنجاة العبد ، ولا يستحق به على الله دخول الجنة ، ولا النجاة من النار ، وحينئذ فيفلس العبد من عمله وييأس من الاتكال عليه ومن النظر إليه وإن كثر العمل وحسن ، فكيف بمن ليس له كثير عمل وليس له عمل حسن ؟ فإن هذا ينبغي أن يشغله الفكر في التقصير في عمله ، ويشتغل بالتوبة من تقصيره والاستغفار منه .

فأما من حَسُن عمله وكثر ، فإنه ينبغي أن يشتغل بالشكر عليه فإن ذلك من أعظم نعم الله على عبده ، فيجب مقابلته بالشكر عليه وبرؤية التقصير في القيام بشكره ، كما كان وهيب بن الورد إذا سئل

---

[1] أخرجه الحاكم في مستدركه ك . التوبة ٢٥٢/٤ ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد.

عن أجر عمل من الأعمال يَقُول : لا تسألوا عن أجره ولكن سلوا عما يجب على من هُدي له من الشكر عليه[١]، وكان أبو سليمان يقول: كيف يعجب عاقل بعمله ؟ وإنما يُعد العمل نعمة من نعم الله عز وجل وإنما ينبغي له أن يشكر ويتواضع ، إنما يعجب بعمله القدرية[٢]يعني الذي لا يرون أن أعمال العباد مخلوقة لله عز وجل .

فإذا تقرر هذا الأصل الشريف العظيم وعُلم أن العمل بنفسه لا يوجب النجاة من النار ولا دخول الجنة ، فضلاً عن أن يوجب بنفسه الوصول إلى أعلى ما في الجنة من منازل المقربين ، والنظر إلى وجه رب العالمين ، وإنما ذلك كله برحمة الله وفضله ومغفرته ، فذلك يوجب على المؤمن أن يقطع نظره عن عمله بالكلية وأن لا ينظر إلا إلى فضل الله ومنته عليه .

فيتعين حينئذ على العبد المؤمن الطالب للنجاة من النار ولدخول الجنة وللقرب من مولاه والنظر إليه في دار كرامته ، أن يطلب ذلك بالأسباب الموصلة إلى رحمة الله وعفوه ومغفرته ورضاه ومحبته ؛ فبها

---

(١) أبو نعيم في الحلية ١٥٥/٨ .

(٢) المصدر نفسه ٢٦٣/٩ .

ينال ما عند الله من الكرامة ؛ إذ الله سبحانه وتعالى قد جعل للوصول إلى ذلك أسباباً من الأعمال التي جعلها موصلة إليها وليس ذلك موجوداً إلا فيما شرعه الله لعباده على لسان رسوله وأخبر عنه رسوله ﷺ أنه يقرب إلى الله ويوجب رضوانه ومغفرته ، وأنه مما يحبه الله ، أو أنه من أحب الأعمال إلى الله عز وجل وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦] وقال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦] فالواجب على العبد البحث عن خصال التقوى وخصال الإحسان التي شرعها الله في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ، والتقرب بذلك إلى الله عز وجل فإنه لا طريق للعبد يوصله إلى رضا مولاه وقربه ورحمته ومغفرته سوى ذلك))[1] .أ.هـ.

وهذا الذي ذكره الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى عن الأعمال الصالحة وأنها سبب في الحصول على رحمة الله عز وجل وتفضله على عبده بدخول الجنة ، وليست ثمناً ولا عوضاً للجنة ، هذا هو الذي هدى الله عز وجل إليه أهل السنة والجماعة وكانوا وسطاً بين الجبرية الذي لا يربطون بين العمل والجزاء البتة ، وبين القدرية الذين جعلوا

---

(١) المحجة في سير الدلجة من ص ٢٥–٤٥ (باختصار) .

الثواب بمحض الأعمال وثمناً لها ، وهذا ما قرره وفصله الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله عن طائفتي الجبرية والقدرية : « وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل ، وبينهما أعظم التباين .

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء البتة ، وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته ، وينعِّم من أفنى عمره في معصيته ، وكلاهما بالنسبة إليه سواء ، وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً ، وأكثر وأفضل درجات ، والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة ، من غير تعليل ولا سبب ، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب وهذا بالعقاب .

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح ، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمناً لها ، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن .

فقاتلهم الله ، ما أجهلهم بالله وأغرَّهم به ! جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد ، حتى قالوا : إن أعطاه ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل .

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة، ولم يجعلوا للأعمال تأثيراً في الجزاء البتة

والطائفتان جائرتان ، منحرفتان عن الصراط المستقيم ، الذي فطر الله عليه عباده ، وجاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب ، وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب ، مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها ، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنّه ، وصدقته على عبده أن أعانه عليها ووفقه لها ، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها ، وحَبَّبها إليه ، وزينها في قلبه ، وكرَّه إليه أضدادها ، ومع هذا فليست ثمناً لجزائه وثوابه ، ولا هي على قدره ، بل غايتها إذا بذل العبد فيها نُصحه وجهده ، وأوقعها على أكمل الوجوه أن تقع شكراً له على بعض نعمه عليه ، فلو طالبه بحقه لبقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها ، فلذلك لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ ، ولهذا نفى النبي ﷺ دخول الجنة بالعمل ، كما قال : « **لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله** ، **وفي لفظ : لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله** ، **وفي لفظ:** « **لن ينجى أحداً منكم عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل** »[1] وأثبت سبحانه دخول

---

[1] سبق تخريجه انظر ص ١٣٨ بالهامش ، ١٤١.

الجنة بالعمل ، كما في قوله : ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل:٣٢] ولا تنافي بينهما ، إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد ؛ فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال ، وكون الأعمال ثمناً وعوضاً لها ، رداً على القدرية المجوسية ، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة .

وهذه الطائفة من أجهل خلق الله ، وأغلظهم عنه حجاباً ، وحق لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة ، ويكفي في جهلهم بالله أنهم لم يعلموا أن أهل سماواته وأرضه في منته ، وأن من تمام الفرح والسرور والغبطة واللذة اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق ، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة ، وأعظمهم منه منزلة وأقربهم إليه : أعرفهم بهذه المنة وأعظمهم إقراراً بها ذكراً لها وشكراً عليها ومحبة له لأجلها ، فهل يتقلب أحد قط إلا في منته ؟ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾ [الحجرات:١٧].

واحتمال منة المخلوق إنما كانت نقصاً لأنه نظيره ، فإذا منَّ عليه استعلى عليه ، ورأى الممنون عليه نفسه دونه ، هذا مع أنه ليس في كل مخلوق ، فلرسول الله ﷺ المنة على أمته ، وكان أصحابه يقولون : ((الله

ورسوله أمنّ)) ولا نقص في منة الوالد على ولده ، ولا عار عليه في احتمالها ، وكذلك السيد على عبده ، فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم ومحض صدقته عليهم ؛ بلا عوض منهم البتة ؟ وإن كانت أعمالهم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده ؛ فهو المنان عليهم بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها ، وأعانهم عليها وكملها لهم ، وقبلها منهم على ما فيها ، وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فهذه باء السببية ، رداً على القدرية والجبرية ، الذين يقولون : لا ارتباط بين الأعمال والجزاء ، ولا هي أسباب له ، وإنما غايتها أن تكون أمارات .

قالوا : وليست أيضاً مطردة لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشيئة .

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء ، كما هي مبطلة لقول أولئك ، وأدلة المعقول والفطرة أيضاً تبطل قول الفريقين ، وتبين لمن له قلب ولب مقدار قول أهل السنة وهم الفرقة الوسط المثبتون لعموم مشيئة الله وقدرته ، وخلقه العباد وأعمالهم ، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعاً وقدراً، وترتيبها عليها عاجلاً

وآجلاً .

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعاً من الحق ، وارتكبت لأجله نوعاً من الباطل ، بل أنواعاً . وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:٢١٣] و ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة:٤])[1].أ.هـ.

المسألة الخامسة : من ثمرات العمل الصالح :

للعمل الصالح الذي توفرت شروطه ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة ؛ أذكر منها على وجه الاختصار ما يلي :

١- البركة في العمر والرزق على مستوى الفرد والمجتمعات ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦] وقال الله عز وجل : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن:١٦-١٧] .

٢- الأمن من الخوف والجوع والكوارث ؛ قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ

---

[1] مدارج السالكين ٩٣/١-٩٦ .

فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢].

٣- تفريج الكربات وتيسير الأمور ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢-٣] وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٤] وتقوى الله عز وجل هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه بإخلاص ومتابعة وهذا هو العمل الصالح ، ولا ننسى في هذا المقام حديث أصحاب الغار الذين كان توسلهم بأعمالهم الصالحة سبباً في تفريج كربتهم .

٤- الأُنس بالله عز وجل الذي يورث السعادة والطمأنينة في جميع الأحوال سرائها وضرائها ؛ قال الله عز وجل : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧] فحياة المؤمن العامل للصالحات أطيب وأهنأ وأسعد ممن أعرض عن الله عز وجل فكانت معيشته ضنكاً ونكداً ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية:٢١] .

٥- التمكين للذين يعملون الصالحات في الأرض ونصر الله عز وجل لهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾ [النور:٥٥] .

٦- نور الوجه وبَهَاؤُه كما في قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح:٢٩] .

٧- قوة القلب وشجاعته وثباته واستنارة العقل وصفاؤه ، فلا تجد صاحب العمل الصالح التارك لما يسخط الله تبارك وتعالى إلا قوي القلب رابط الجأش ، لا يستخفه المبطلون ولا تزعزعه الفتن ولا يطيش عقله عندما تحار العقول وتحل النوازل وتضطرب الأفهام ، وهذا بسبب الأعمال الصالحة التي يثبت بها الله عز وجل عباده الصالحين وأهمها صحة التوحيد وصدق التوكل وفعل الطاعات واللجوء إلى الله عز وجل ، وحري بمن هذه حاله أن يثبته الله عز وجل ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه سبحانه كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩]

ولقوله ﷺ ((**بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم**))[١] .

٨- عزة النفس وعلو الهمة والتعلق بمعالي الأمور وترك سفاسفها .

٩- استقباح المعاصي والنفور منها ومحو ما عمل العبد منها كما في قول الله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤]

١٠- محبة الله عز وجل لمن يتقرب إليه بالعمل الصالح وإلقاء القبول والمحبة والهيبة له بين الناس كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم:٩٦] وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] ولما جاء في الحديث القدسي : ((**...وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ...**))[٢] .

١١- العمل الصالح يرفع الكلام الطيب وبدونه لا يصعد إلى الله عز وجل قال الله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ

---

[١] مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ ووجه دلالة الحديث أن من معانيه أن تقديم الأعمال الصالحة قبل نزول الفتن من أسباب الثبات عند حدوثها .

[٢] البخاري ك الرقاق ، باب التواضع (٦٥٠٢) .

يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾ [فاطر:١٠] يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عن هذه الآية : ((قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : الكلم الطيب ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عز وجل ، والعمل الصالح أداء فرائضه ، ومن ذكر الله ولم يؤدي فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به ، وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ، وكذا قال أبو العالية وعكرمة وإبراهيم النخعي والسدي والربيع بن أنس وشهر بن حوشب وغير واحد من السلف ، وقال إياس بن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام ، وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول إلا بعمل))[١].

١٢- حسن الخاتمة وتنزل ملائكة الرحمة عند الموت لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ ﴾ [فصلت:٣٠] .

١٣- مرافقة الأنبياء والشهداء والصالحين يوم القيامة لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء:٦٩] .

١٤- الأمن من فزع يوم القيامة وأهوالها ، والنجاة من النار والفوز

---

[١] تفسير ابن كثير عند الآية (١٠) في سورة فاطر .

برضوان الله تعالى وجنته لقوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل:٨٩] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة:٧-٨] .

وهذه أعظم الثمار وأزكاها ، إذ هي غاية الغايات ومن أجلها يتنافس المتنافسون ، ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن من ضرب في كل مرضاة الله تعالى بسهم من الأعمال الصالحة وصار يتنقل في منازل العبودية وما يحبه الله عز وجل ، ويذكر ثمار ذلك في الدار الآخرة فيقول : « وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخوطة أثراً وجزاء ولذة وألماً يخصه لا يشبهه أثر الآخر وجزاؤه ، ولهذا تنوعت لذات أهل الجنة وآلام أهل النار وتنوع ما فيهما من الطيبات والعقوبات ، فليست لذة من ضرب في كل مرضاة الله بسهم وأخذ منها بنصيب كلذة من أنمى سهمه ونصيبه في نوع واحد منها ، ولا ألم من ضرب في كل مسخوط لله بنصيب وعقوبته كألم من ضرب بسهم واحد في مساخطه .

وقد أشار النبي ﷺ إلى أن كمال ما يُستمتع به من الطيبات في الآخرة

بحسب كمال ما قابله من الأعمال في الدنيا « ... **فرأى قنــــواً مـــن حشف معلقاً في المسجد للصدقة فقال : إن صـــاحب هـــذا يـــأكل الحشف يوم القيامـــة** »[1] فأخبر أن جزاءه يكون من جنس عمله فيجزى على تلك الصدقة بحشف من جنسها .

وهذا الباب يفتح لك أبواباً عظيمة من فهم المعاد وتفاوت الناس في أحواله وما يجري فيه من الأمور المتنوعة **فمنـها** : خفة حمل العبد على ظهره وثقله إذا قام من قبره ؛ فإنه بحسب خفة وزره وثقله إن خف خف وإن ثقل ثقل .

ومنها : استظلاله بظل العرش أو ضحاؤه للحر والشمس ؛ إن كان له من الأعمال الصالحة والخالصة والإيمان ما يظله في هذه الدار من حر الشرك والمعاصي والظلم استظل هناك في ظل أعماله تحت عرش الرحمن ، وإن كان ضاحياً هنا للمناهي والمخالفات والبدع والفجور ضحى هناك للحر الشديد .

ومنها : طول وقوفه في الموقف ومشقته عليه وتهوينه عليه ؛ إن طال وقوفه في الصلاة ليلاً ونهاراً لله وتحمل لأجله المشاق في مرضاته وطاعته

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨،٢٣/٦) ، وأبو داود (١٦٠٨)، والنسائي (٤٤،٤٣/٥) ، وابن ماجة (١٨٢١) من حديث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ .

خف عليه الوقوف في ذلك اليوم وسهل عليه ، وإن آثر الراحة والدعة هنا والبطالة والنعمة طال عليه الوقوف هناك واشتدت مشقته عليه .

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإنسان:٢٣-٢٧] فمن سبح الله ليلاً طويلاً لم يكن ذلك اليوم ثقيلاً عليه بل كان أخف شيء عليه .

ومنها : أن ثقل ميزانه هناك بحسب تحمله ثقل الحق في هذه الدار ، لا بحسب مجرد كثرة الأعمال وإنما يثقل الميزان باتباع الحق والصبر عليه وبذله إذا سُئل وأخذه إذا بُذل كما قال الصديق في وصيته لعمر: ((**واعلم أن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وله حق بالنهار لا يقبله بالليل، واعلم أنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق وثقل ذلك عليهم في دار الدنيا ، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في دار الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً**)) .

ومنها : أن ورود الناس الحوض وشربهم منه يوم العطش الأكبر بحسب ورودهم سنة رسول الله ﷺ وشربهم منها ؛ فمن وردها في هذه الدار وشرب منها وتضلع ورد هناك حوضه وشرب منه وتضلع فله ﷺ حوضان عظيمان: حوض في الدنيا وهو سنته وما جاء به ، وحوض في الآخرة ؛ فالشاربون من هذا الحوض في الدنيا هم الشاربون من حوضه يوم القيامة ، فشارب ومحروم ، ومستقل ومستكثر ، والذين يذودهم هو والملائكة عن حوضه يوم القيامة هم الذين كانوا يذودون أنفسهم وأتباعهم عن سنته ويؤثرون عليها غيرها ، فمن ظمأ من سنته في هذه الدنيا ولم يكن له منها شرب فهو في الآخرة أشد ظمأً وأحر كبداً وإن الرجل ليلقى الرجل فيقول : يا فلان أشربت ؟ فيقول : نعم والله فيقول : لكني والله ما شربت واعطشاه .

فرِدْ أيها الظمآن والورد ممكن ... فإن لم ترد فاعلم بأنك هالك
وإن لم يكن رضوان يسقيك شربة ... سيسقيكها إذ أنت ظمآن مالك
وإن لم ترد في هذه الدار حوضه ... ستصرف عنه يوم يلقاك آنك

ومنها : قسمة الأنوار في الظلمة دون الجسر ؛ فإن العبد يعطى من النور هناك بحسب قوة نور إيمانه ويقينه وإخلاصه ومتابعته للرسول ﷺ في دار الدنيا ؛ **فمنهم** : من يكون نوره كالشمس ودون ذلك كالقمر ودونه كأشد كوكب في السماء إضاءة ، **ومنهم** : من يكون نوره

كالسراج في قوته وضعفه وما بين ذلك ، **ومنهم** : من يعطى نور على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفي أخرى بحسب ما كان معه من نور الإيمان في دار الدنيا فهو هذا النور بعينه أبرزه الله لعبده في الآخرة ظاهراً يُرى عياناً بالأبصار ، ولا يستضيء به غيره ، ولا يمشي أحد إلا في نور نفسه ، وإن كان له نور مشى في نوره وإن لم يكن له نور أصلاً لم ينفعه نور غيره .

ولما كان المنافق في الدنيا قد حصل له نور ظاهر غير مستمر ولا متصل بباطنه ولا له مادة من الإيمان ؛ أعطي في الآخرة نوراً ظاهراً لا مادة له ثم يطفأ عنه أحوج ما كان إليه .

ومنها : أن مشيهم على الصراط في السرعة والبطء بحسب سرعة سيرهم وبطئه على صراط الله المستقيم في الدنيا ؛ فأسرعهم سيراً هنا أسرعهم هناك وأبطأهم هنا أبطأهم هناك .

وأشدهم ثباتاً على الصراط المستقيم هنا أثبتهم هناك ، ومن خطفته كلاليب الشهوات والشبهات والبدع المضلة هنا خطفته الكلاليب التي كأنها شوك السعدان هناك ، ويكون تأثير الكلاليب فيه هناك على حسب تأثير كلاليب الشهوات والشبهات والبدع فيه ها هنا فناج مسلم ومخدوش مسلم ومخزول أي مقطع بالكلاليب مكردس في النار

كما أثرت فيهم تلك الكلاليب في الدنيا ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ:٢٦] ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦])[1] .أ.هـ.

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ت.د. عواد المعتق ص٨٣-٨٧ (باختصار) .

الأصل الثالث : التواصي بالحق

وهذا هو الأصل الثالث من أصول النجاة من الخسران ، والمذكور في هذه السوره العظيمة في قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، فما هو المراد بالتواصي بالحق والذي لا بد منه للنجاة من الخسران ؟

يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى : ((وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ يقول : وأوصى بعضهم بعضاً بلزوم العمل بما أنزل الله في كتابه واجتناب ما نهى عنه فيه))[1].أ.هـ.

وقال الألوسي رحمه الله تعالى : ((﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره ، وهو الخير كله من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله ، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة))[2].أهـ.

وقد نبه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى إلى أن موضوع السورة كلها هو الحق فقال : ((وبيان ذلك أن المراتب أربعة و باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله :

إحداها : معرفة الحق .

الثانية : عمله به .

---

[1] تفسير الطبري ٣٠/٢٩٠ .

[2] روح المعاني ٣٠/٢٢٨ .

الثالثة : تعليمه من لا يحسنه .

الرابعة : صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه .

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة ، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً فهذه مرتبة ثالثة ؛ ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات))[1] .أ.هـ.

ويقول الرازي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ : ((فاعلم أنه تعالى لما بين في أهل الاستثناء أنهم بإيمانهم وعملهم الصالح خرجوا عن أن يكونوا في خسر وصاروا أرباب السعادة من حيث أنهم تمسكوا بما يؤديهم إلى الفوز بالثواب والنجاة من العقاب ، وصفهم بعد ذلك بأنهم قد صاروا لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخلصهم بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا أيضاً سبباً لطاعات الغير كما ينبغي أن يكون عليه أهل الدين

---

[1] انظر مفتاح دار السعادة (٥٩) .

فالتواصي بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل)[١].أ.هـ.

ويقول البقاعي رحمه الله تعالى :((﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بلسان الحال أو المقال ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي الأمر الثابت ، وهو كل ما حكم الشرع بصحته - فلا يصح بوجه نفيه - من قول أو عمل أو اعتقاد أو غيره من فعل أو ترك))[٢].أ.هـ.

والقيام بالحق يكون بفعل المأمور ظاهراً وباطناً وترك المحظور ظاهراً وباطناً ، ولما كان كثير من أهل البدع يدعي أنه على الحق لأنه يرجع إلى الكتاب والسنة بزعمه ؛ كان لزاماً أن يقيد الرجوع إلى الكتاب والسنة بفهم الصحابة ﷺ ؛ وبذلك يكون أهل السنة والجماعة أسعد الناس بالحق .

والله عز وجل هو الحق ، ووعده حق كما جاء في حديث استفتاح صلاة الليل وفيه : ((**ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ... الحديث**))[٣] والحق هو الثابت ، والحق اسم من أسماء الله عز وجل الحسنى فالله عز وجل

---

[١] التفسير الكبير ٨٥/٣٠ .

[٢] نظم الدرر ٢٣٩/٢٢ .

[٣] البخاري .ك التهجد (١١٢٠) باب التهجد بالليل .

هو الحق وهو المعبود بحق وكل معبود دونه باطل ، والحق نقيض الباطل ويضاده كما قال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ ﴾ [الأنبياء:١٨] وهو الذي يحق الحق بكلماته ، ويحكم بين خلقه بالحق ويوجد الأشياء بالحق بحسب مقتضى الحكمة ، فاسم الحق يقع على ذات الله تعالى وعلى صفاته وأفعاله ، وفعل ما أمر به سبحانه باطناً وظاهراً واجتناب ما نهى عنه سبحانه ظاهراً وباطناً هو من الحق الذي يجب القيام والتواصي به ، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : ((وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالعدل ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل ، فهو على الحق في أقواله وأفعاله))[1].أ.هـ.

وأحق الحق توحيد الله عز وجل ، وهو أول شيء يجب العلم به والانقياد له والتواصي به ، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : ((وهو سبحانه خلق العالم العلوي والسفلي بسبب الحق ولأجل الحق وضمنه الحق فبالحق كان ، وللحق كان ، وعلى الحق اشتمل ، والحق هو توحيده وعبادته وحده لا شريك له ، وموجب ذلك ومقتضاه وقام

---

[1] أعلام الموقعين ١/١٦٢ .

بعدله الذي هو الحق وعلى الحق اشتمل ، فما خلق الله شيئاً إلا بالحق وللحق ونفس خلقه له حق وهو شاهد من شواهد الحق ، فإن أحق الحق هو التوحيد))[١]أ.هـ.

وبعد هذا الاستعراض السريع لأقوال بعض المفسرين لمعنى التواصي بالحق ؛ يبقى بعض المسائل الخاصة التي يحسن الكلام فيها عن الحق ومعانيه والتواصي به وعلاقته في هذه السورة بما قبله من الإيمان والعمل الصالح وبما بعده من التواصي بالصبر وغير ذلك مما له علاقة بالحق والتواصي به[٢].

المسألة الأولى :

في وجه ذكر التواصي بالحق بعد العمل الصالح مع أنه من العمل الصالح :

التواصي بالحق من أفضل الأعمال الصالحة وهو يدخل دخولاً أولياً في العمل الصالح ؛ والذي سبق الحديث عنه ، ولكن إفراده هنا من بين

---

[١] مفتاح دار السعادة ص٢٠١ .

[٢] ولن نذكر في هذه المسائل مسألة وجه ذكر التواصي بالحق والتواصي بالصبر في جملة أصول النجاة من الخسران مع أن النجاة تتحقق بالإيمان والعمل ؛ لن نذكر هذه المسألة هنا لأنه قد سبق تفصيلها في أول البحث .ص ١٨-٢١ .

الأعمال الصالحة لبيان أهميته والتأكيد عليه ، وذكره بعد العمل الصالح من باب ذكر الخاص بعد العام ، وفي ذلك يقول الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير : « وعطف على عمل الصالحات التواصي بالحق والتواصي بالصبر وإن كان ذلك من عمل الصالحات ، عطف الخاص على العام للاهتمام به لأنه قد يغفل عنه ويُظن أن العمل الصالح هو ما أثره عمل المرء في خاصته ، فوقع التنبيه على أن من العمل المأمور به إرشاد المسلم غيره ودعوته إلى الحق »[1].أ.هـ.

المسألة الثانية :

ما وجه ذكر التواصي بالحق والتواصي بالصبر في جملة أصول النجاة من الخسران مع أن النجاة تتحقق بالإيمان والعمل ؟

وللجواب على هذه المسألة يرجع إلى أول البحث[2] حيث تم تفصيل الجواب هنالك ، والحمد لله رب العالمين .

المسألة الثالثة :

إن ذكر التواصي في هذه السورة بصيغة الجمع ﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ يدل على أهمية الاجتماع في أمر الدعوة إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٥٣٢ .

(٢) في ص١٨-٢١.

والنهي عن المنكر كما يؤكد على ضرورة الائتلاف وعدم الافتراق ، وأن الحق والدعوة إليه تحتاج إلى التواصي والتكاتف والتعاون ، وأن هذا من صفات الجماعة الناجية ؛ يقول الدكتور الراوي وفقه الله ((وروح الجماعة سارية في صفات الذين يخرجون من الخسران فهم : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهم جمع في ذواتهم وإيمانهم وأعمالهم وجمع في تواصيهم بالحق وتواصيهم بالصبر ، ولا يتصور تواصي بلا جمع ، ولا جمع يبقى بلا تواصي بالحق والصبر ، فلزوم الجماعة أمر لابد منه لمن أراد النهوض بالحق والقيام به))[1].أ.هـ.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى : ((فمن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة - أو الجماعة - المتضامنة المتضامنة ، الأمة الخيرة الواعية القيمة ، في الأرض على الحق والعدل والخير .. وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة .. وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام .. هكذا يريدها أمة خيرة قوية قائمة على حراسة الحق والخير متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتآخ تتضح فيها كلمة التواصي في القرآن))[2].أ.هـ.

---

[1] كلمة الحق في القرآن الكريم ص٧٣٩ .

[2] في ظلال القرآن ٣٩٦٨/٦ .

ويشهد لذلك الآيات الكثيرة في كتاب الله عز وجل التي تأمر بالاجتماع وتنهى عن الفرقة مثل قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾ [آل عمران:١٠٤-١٠٥] .

المسألة الرابعة :

يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ ﴾ أن لزوم الحق علماً وعملاً ودعوة وتعليماً من الأمور الشاقة التي تحتاج إلى التواصي والتعاون ؛ وذلك لما يعترض طريق الحق من العقبات والمرارات والتحديات ، وفي ذلك يقول سيد قطب رحمه الله تعالى : ((والتواصي بالحق ضرورة ؛ فالنهوض بالحق عسير ، والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ومنطق المصلحة ، وتصورات البيئة ، وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين ، والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية والأخوة في العبء والأمانة ؛ فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية ، إذ تتفاعل معاً فتتضاعف ؛ تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله))(١)

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٦٨ .

ويقول الرازي رحمه الله تعالى في مسائله حول الآية: ((المسألة الثانية: دلت الآية على أن الحق ثقيل وأن المحن تلازمه ، فلذلك قرن به التواصي))[١].أ.هـ.

والعقبات التي تصرف الناس عن الحق كثيرة ، لذا لزم على من أراد لنفسه النجاة أن يتواصى مع إخوانه على لزوم الحق والتحذير مما يصد عنه من العقبات والصوارف ؛ ومن أخطر هذه الصوارف الشبهات المتمثلة في التضليل ولبس الحق بالباطل ، والشهوات المتمثلة في الهوى والركون إلى الدنيا ((فهذا علي بن أبي طالب ﷺ كان يشتد خوفه من اثنين : طول الأمل واتباع الهوى ؛ قال : فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق))[٢] .

ويضرب الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى مثالاً للحق والعقبات من حوله فيقول : ((مثل الحق مثل طريق مستقيم واسع وعلى جنبيه قطاع ولصوص وعندهم خواطئ قد ألبسوهن الحلي والحلل وزينوهن للناظر، فيمر الرجل بالطريق فيتعرضن له فإن التفت إليهن طمعن في حديثه فألقين إليه الكلام ، فإن راجعهن وأجابهن دعينه إلى الذبح فإذا دخل

---

(١) التفسير الكبير ٨٥/٣٠ .

(٢) الجواب الكافي ص٢٥ .

عرين الموت صار في قبضتهن أسيراً أو قتيلاً ، فكيف يحارب قوماً من هو أسير في قبضتهم قتيل سلاحهم ؛ بل يصير هذا عوناً من أعوانهم قاطعاً من قطاع الطريق ، ولا يعرف حقيقة هذا المثل إلا من عرف الطريق المستقيم وقطاع الطريق ومكرهم وحيلهم وبالله التوفيق وهو المستعان ؛ وقد نصب الله سبحانه الجسر الذي يمر الناس من فوقه إلى الجنة ونصب بجانبيه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ؛ فهكذا كلاليب الباطل من تشبيهات الضلال وشهوات الغي تمنع صاحبها من الاستقامة على طريق الحق وسلوكه والمعصوم من عصمه الله))[1].أ.هـ.

كما يصور رحمه الله تعالى الصادين عن الحق ووسائلهم في ذلك مع الحق وأهله فيقول : ((فإذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم ، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل ، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق ، وحادوا عنه إلى طريق أخرى ، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان ، فإذا لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ ، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا وأتوا إليه مذعنين ، لا لأنه حق بل لموافقته غرضهم وأهواءهم وانتصارهم به ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ

---

[1] الصواعق المرسلة ٤/١٢٥٦ .

وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور:٤٨-٥٠]

والمقصود : أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم ، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها واضمحلت وفنيت ، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات ، وهم أعظم الناس ندامة وتحسراً ، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل ، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم ، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة ، وهذا يظهر كثيراً في الدنيا ، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله ، ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء إذا حقت الحقائق ، وفاز المحقون وخسر المبطلون »[1].أ.هـ.

ومن الأسباب الصادة عن الحق والتي منبعها الهوى : الحسد ، والبغي ، والظلم ، والكبر ، والعناد ، وحب الشهرة ، والجاه ، وإرضاء الناس بسخط الله تعالى ، والغرور بالحياة الدنيا، وطول الأمل .

ويصور الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى هذه الصوارف وأثرها في الصد عن الحق ومعاداة أهله فيقول : « والأسباب المانعة من قبول

---

(١) مدارج السالكين ١/٥٣ .

الحق كثيرة جداً ؛ فمنها : الجهل به وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس ؛ فإن من جهل شيئاً عاداه وعادى أهله ، فإن انضاف إلى هذا السبب بغض من أمره بالحق ومعاداته له وحسده كان المانع من القبول أقوى ، فإن انضاف إلى ذلك إلفه وعادته ومرباه على ما كان عليه آباؤه ومن يحبه ويعظمه قوي المانع ، فإن انضاف إلى ذلك توهمه أن الحق الذي دعي إليه يحول بينه وبين جاهه وعزه وشهواته وأغراضه قوي المانع من القبول جداً ، فإن انضاف إلى ذلك خوفه من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه كما وقع لهرقل ملك النصارى بالشام على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ازداد المانع من قبول الحق قوة ؛ فإن هرقل عرف الحق وهم بالدخول في الإسلام فلم يطاوعه قومه وخافهم على نفسه فاختار الكفر على الإسلام بعد ما تبين له الهدى .

ومن أعظم هذه الأسباب : الحسد فإنه داء كامن في النفس ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه وأوتي ما لم يؤت نظيره فلا يدعه الحسد أن ينقاد له ويكون من أتباعه ، وهل منع إبليس من السجود لآدم إلا الحسد ؟ فإنه لما رآه قد فضل عليه ورفع فوقه غص بريقه واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة ؛ وهذا الداء هو الذي منع اليهود من الإيمان بعيسى ابن مريم وقد علموا علماً لا شك فيه أنه

رسول الله جاء بالبينات والهدى فحملهم الحسد على أن اختاروا الكفر على الإيمان وأطبقوا عليه وهم أمة فيهم الأحبار والعلماء والزهاد والقضاة والأمراء ، هذا وقد جاء المسيح بحكم التوراة لم يأت بشريعة يخالفها ولم يقاتلهم ، وإنما أتى بتحليل بعض ما حرم عليهم تخفيفاً ورحمة وإحساناً ، وجاء مكملاً لشريعة التوراة ، ومع هذا فاختاروا كلهم الكفر على الإيمان ؛ فكيف يكون حالهم مع نبي جاء بشريعة مستقلة ناسخة لجميع الشرائع مبكتاً لهم بقبائحهم ومنادياً على فضائحهم ومخرجاً لهم من ديارهم))[1].أ.هـ.

والحاصل من كل ما سبق أن الحق ثقيل والعقبات التي تصرف عنه وتصد الناس عن قبوله كثيرة ، ولذا جاء في السورة أن من صفات الناجين من الخسران تواصيهم بالحق ولزومه ، وبدون التواصي فإن النفوس غالباً ما تضعف أمام شبهات الباطل وشهواته ، وإذا كثر الباطل على النفوس واعتادت سماعه ورؤيته ولم يوجد التواصي بالحق ورد الباطل فإن ذلك يكسبها تحريفاً للحق وحباً للباطل ، فإذا جاء الحق بعد ذلك ردته أو كذبت به إن قدرت على ذلك ، وإلا حرفته ولبسته بالباطل ، ونظراً لثقل الحق فقد كان السلف يتواصون به

---

[1] هداية الحياري ص١٦ .

وينبهون على ثقله كما جاء ذلك في وصية أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما والتي فيها : « وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم في الدنيا الحق وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف »[١] .

المسألة الخامسة :

انقسام الناس إزاء الحق : ينقسم الناس إزاء الحق ولزومه إلى الأصناف التالية :

١- صنف أخطأ الحق وضل عنه إما بجهل أو شبهة أو تضليل ، وهذا من جنس النصارى الضالين .

٢- صنف علموا الحق وتبين لهم الرشد من الغي فاستكبروا واتبعوا أهواءهم وتنكبوا الحق إيثاراً لدنيا فانية أو حسداً من عند أنفسهم ، وهذا من جنس اليهود المغضوب عليهم .

٣- أسعد الناس بالحق ؛ وهم الذين علموا الحق وعرفوه وانقادوا له وعملوا به ودعوا إليه ، وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

---

[١] الزهد لابن المبارك ، نقلاً عن كتاب الصلاة لابن القيم ص١٠١ .

وأصحاب هذه الأصناف الثلاثة ومن في معناهم جاء ذكرهم في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ؛ حيث يخبر سبحانه أن أهل السعادة هم الذين علموا الحق واتبعوه وتواصوا به كما في سورة العصر ، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وصدوا عنه أو علموه وخالفوه واتبعوا غيره ، وهم الذين ندعو الله سبحانه في كل صلاة في آخر سورة الفاتحة أن يجنبنا طريقهم ؛ طريق المغضوب عليهم والضالين ، وعن هذه الأصناف الثلاثة يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : « فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق أو جاهلاً به ، والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفاً له ؛ فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها البتة؛ فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو المفلح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه ، والجاهل بالحق هو الضال ، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل ، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل ؛ فكل منهما ضال مغضوب عليه ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به »[1].أ.هـ.

ويقول في موطن آخر : « ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل

---

[1] مدارج السالكين ١/١١ .

إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره ، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق ، والبغي يمنعه من إرادته ؛ كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفاً وبياناً وإرشاداً وإلهاماً وتوفيقاً وإعانة ؛ فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريداً له قاصداً لاتباعه فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم ، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال وكان السلف يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى))[1].أ.هـ.

ويزيد الأمر وضوحاً حول فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فيقول: ((وكانوا يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ؛ فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه ، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم .. فبالصبر تُترك الشهوات وباليقين تُدفع الشبهات كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص:٤٥] وفي بعض المراسيل : (إن الله يحب البصر الناقد عند ورود

---

[1] بدائع الفوائد ٢/٢٦٨ .

الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات))[1].أ.هـ.

مما سبق يتضح لنا أن أسعد الناس بالحق هم الذين علموه وانقادوا له واتبعوه وتواصوا به وبالصبر عليه ، فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات ، وبالصبر الذي يدفع الشهوات .

المسألة السادسة :

لزوم الحق والتواصي به له صور وعلامات لا بد من ظهورها على العبد حتى يعد من المتواصين بالحق ، ومن هذه العلامات والصور :

● الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله عز وجل ، وبدون ذلك أو بضعفه ينعدم أو يضعف التواصي بالحق ، لأن التواصي بالحق هو أصل الأمر والنهي والدعوة والجهاد ، وهو صمام الأمان للأفراد والمجتمعات وبدونه يشقى الناس وتحل بهم المصائب والعقوبات والشقاء في الدنيا والآخرة ، والواقع شاهد على ذلك ، فما من مجتمع قل فيه التواصي بين أهله بالحق وضعفت فيه شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا حل الفساد والظلم والشقاء بينهم ، وعلى العكس من ذلك عند ما يوجد التواصي بالحق والدعوة إلى الله عز وجل فإن الخير والسعادة والنماء توجد ويهنأ الناس بها ، وسواء كان

---

(1) أعلام الموقعين ١/١٣٧ .

هذا المجتمع صغيراً كالأسرة في داخل البيت ومجتمعات الأقارب والقبائل ، أو كان كبيراً كمجتمعات المدن والدول ، وليس المقصود هنا التفصيل في شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشروطه وضوابطه ، وإنما المقصود الإشارة إلى أن هذه الشعيرة هي من صميم التواصي بالحق وأن المقصر فيها بسكوته عن الحق أو قوله الباطل قد قصر في أصل عظيم من أصول النجاة في الدنيا والآخرة له ولمجتمعه .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « فالساكت عن الحق شيطان أخرس عاص لله مراءٍ مداهن - إذا لم يخف على نفسه - والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله ، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته ، وأهل الوسط - وهم أهل الصراط المستقيم - كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة »[1] .أ.هـ.

وقول الباطل أشد من كتم الحق ؛ لأن المتكلم بالباطل لم يقصر عن قول الحق فقط بل أفسده على الناس ، فهو أشبه بمن يقذر على الناس الماء مع شدة الحاجة إليه ، بل إن جرمه أشد ؛ فإن حاجة الناس إلى معرفة الحق أشد من حاجتهم إلى الماء .

ويوجه رحمه الله تعالى اللوم والتوبيخ إلى الساكتين عن الحق والتاركين

---

(١) الجواب الكافي ص١١٣ .

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيقول : « وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنْتهك ، وحدوده تُضاع ، ودينه يُترك ، وسنة رسوله ﷺ يُرغب عنها وهو بارد القلب ، ساكت اللسان ، شيطان أخرس ، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياستهم فلا مبالاة بما جرى على الدين ؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبدَّل وجَدَّ واجتهد ، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه .

وهؤلاء - مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم - قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون ، وهو موت القلوب ؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى ، وانتصاره للدين أكمل »[1].أ.هـ.

ويكفينا قول الرسول ﷺ : « **ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده ؛ فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم** »[2].

---

(١) أعلام الموقعين ١٧٦/٢ .

(٢) أحمد في المسند (٣/٥،٤٤،٤٦،٥٣،٨٧،٩٢) من حديث أبي سعيد الخدري بسند صحيح .

ويحسن في هذا المقام ذكر بعض المواقف المشرقة لسلفنا الصالح وهم يقولون كلمة الحق ويتواصون بها مع الناس ومع ولاة الأمر في زمانهم - لا يخشون إلا الله عز وجل - ولم يمنعهم لزومهم جماعة المسلمين وطاعة إمامهم أن يصدعوا بالحق ولا يكتموه - لا يخافون في ذلك لومة لائم - وإن من النصح للأمة وإحيائها من سباتها التذكير بمواقف سلفها الصالح في الصدع بالحق ومحاربة الباطل ، وأنهم ما كانوا في يوم من الأيام مداهنين للباطل كاتمين للحق ولا أنهم كانوا منعزلين عن حياة الناس وسياسة الأمة ، ولا أنهم كانوا يفهمون من نصوص السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين عدم مناصحتهم والصدع بالحق أمامهم وإنكار ما يظهر من المنكرات في زمانهم ، فما كان هذا حالهم ومن ظن فيهم هذا الظن فقد افترى عليهم .

ومن هذه المواقف ما يلي :

□ عن طارق بن شهاب ﷺ قال : أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان ، فقام إليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة فقال : تُرك ما هنالك ، فقال أبو سعيد ﷺ : أما هذا فقد قضى ما عليه ، سمعت

رسول الله ﷺ يقول : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** »[١].

وقد أنكر أبو سعيد الخدري ﷺ هذا المنكر على مروان من قبل قال أبو سعيد الخدري ﷺ : « فلما أتينا المصلى إذا بمنبر بناه كثير بن الصلت ، فإذا بمروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي فجبذت بثوبه ، فجبذني ، فارتفع فخطب قبل الصلاة ، فقلت له : **غيرتم والله، فقال : أبا سعيد قد ذهب ما تعلم .**

فقلت : ما أعلم والله خير مما لا أعلم »[٢] .

□ عن ابن أبي أويس ، عن أبيه عن الوليد بن داود بن محمد بن عُبادة بن الصامت عن ابن عمه عبادة بن الوليد قال : كان عُبادة بن الصامت مع معاوية رضي الله عنهما فأذَّنَ يوماً فقام خطيبٌ يمدح معاوية ويُثني عليه ، فقام عُبَادة بن الصامت بتراب في يده ، فحشاه في فم الخطيب ، فغضب معاوية ، فقال له عبادة : إنك لم تكن معنا حين بايعنا رسول الله ﷺ بالعقبة على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ومكسلنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقوم بالحق حيث

---

[١] مسلم ك . الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩) .

[٢] أخرجه البخاري (٩٥٦) ، ومسلم (٨٨٩) .

كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم ، وقال رسول الله ﷺ : ((**إذا رأيتم المداحين ، فاحثوا في أفواههم التراب**))[1] .

▫ **الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وصدعه بالحق** : أصدر الخليفة المأمون أمره لواليه على بغداد - إسحاق بن إبراهيم - بضرب عنق كل من يخالف اعتقاده بخلق القرآن الكريم ، وأخذ العلماء بالرخص إلا أربعة منهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، وعبيد الله القواريري ، وسجادة ، فأدخلوا السجن مصفدين بالأغلال ، وفي اليوم التالي جيء بهم إلى حاكم بغداد لإعادة السؤال عليهم ، فأجاب سجادة بما ينجيه ولحق القواريري بصاحبه ، فأطلق سراحهما ، وبقي ابن حنبل وابن نوح ، أما ابن نوح فمات سجيناً في [عانة] - وهي بلدة عراقية ، وأما الإمام أحمد فنقلوه من سجن لآخر حتى انتهى المطاف به في سجن الياسرية ببغداد ، ثم نقلوه إلى حبس العامة في درب الموصلية وفي هذا السجن طرح ثمانية وعشرين شهراً ، وجلد بالسوط حتى سالت دماؤه وأشرف على الموت دون أن ينتزعوا منه أي اعتراف ببدعتهم ، ومن أقواله المأثورة : ((يا عم - عمه إسحاق بن حنبل - إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل ، متى يتبين الحق ؟)) . ولما دخل عليه

---

[1] سير أعلام النبلاء ٧/٢ ، وحديث ((إذا رأيتم المدحين)) رواه مسلم (٣٠٠٢) .

يحيى بن معين يعوده في مرضه لم يرد عليه السلام ، فما زال ابن معين يعتذر بقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [النحل:١٠٦] ، وبحديث عمار ، فقلب أحمد وجهه إلى الجانب الآخر ، فقال يحيى : لا يقبل عذراً .

فلما خرج يحيى قال أحمد : يحتج بحديث عمار ، وحديث عمار : مررت بهم وهم يسبونك فنهيتهم فضربوني ، وأنتم قيل لكم : نريد أن نضربكم ، فقال يحيى : والله ما رأيت تحت أديم السماء أفقه في دين الله منك))[1].أ.هـ.

□ **الإمام النووي وجهره بالحق** : يقول علاء الدين بن العطار تلميذ الإمام النووي : وكان ـ النووي ـ مواجهاً للملوك والجبابرة ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان إذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل ، وتوصل إلى إبلاغها ، فمما كتبه وأرسلني في السعي فيه وهو يتضمن العدل في الرعية وإزالة المكوس عنهم ... فكان جواب السلطان بالإنكار والتوبيخ والتهديد ، فكتب رحمه الله جواباً لذلك الجواب ومما جاء فيه: ((... وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها فقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا

---

[1] (بتصرف واختصار) من سير أعلام النبلاء ٣٣٢/١١ ، والبداية والنهاية ٣٤٦/١٠ .

تَكۡتُمُونَهُۥ ﴾ فوجب علينا حينئذ بيانه ، وحُرِّم علينا السكوت)) .

وقال أيضاً ما موجزه : ((ولا يحلُ أن يُؤخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء ، من نقد ، أو متاع ، أو أرض ، أو ضياع تباع ، أو غير ذلك ... وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان ـ أعز الله أنصاره ـ متفقون على هذا ، وبيت المال بحمد الله معمور)) .

وقال في رده على تهديد السلطان : ((وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا وتهديد طائفة ؛ فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ! وأي حيلة لضعفاء المسلمين المغرقين في أقطار ولاية السلطان في كتاب كتبه بعض المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ولا علم لهم به ؟ وكيف يؤخذون به لو كان فيه ما يلام عليه !؟ .

وأما أنا في نفسي ؛ فلا يضرُّني التهديد ، ولا أكبر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فإني أعتقد أن هذا واجب عليَّ وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق أينما كنا ، وأن **لا نخاف في الله لومة لائم**))[1] .أ.هـ.

---

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين لتلميذه علاء الدين بن العطار المتوفي سنة ٧٢٤ .

□ وهذه كلمة حق صدع بها الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله تعالى يعاتب فيها نفسه وأكثر العلماء في التقصير عن قول كلمة الحق في زماننا اليوم وما حل فيه من المفاسد العظيمة والتي يجب تحذير الأمة منها والتصدي لمواجهتها فتراه يقول : « ما أقل ما قلنا (**كلمة الحق**) في مواقف الرجال ، وما أكثر ما قصرنا في ذلك ، إن لم يكن خوفاً فضعفاً ، ونستغفر الله ، وأرى أن قد آن الأوان لنقولها ما استطعنا ، كفارة عما سلف من تقصير ، وعما أسلفنا من ذنوب ، ليس لها إلا عفو الله ورحمته ، والعمر يجري بنا سريعاً ، والحياة توشك أن تبلغ منتهاها ، وأرى أن قد آن الأوان لنقولها ما استطعنا ، وبلادنا بلاد الإسلام تنحدر في مجرى السيل ، إلى هوة لا قرار لها ، هوة الإلحاد والإباحية والإنحلال فإن لم نقف منهم موقف النذير ، وإن لم نأخذ بحجزهم عن النار ، انحدرنا معهم ، وأصابنا من عقابيل ذلك ما يصيبهم ، وكان علينا من الإثم أضعاف ما حمّلوا .

ذلك بأن الله أخذ علينا الميثاق : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران:١٨٧] وذلك بأن الله ضرب لنا المثل بأشقى الأمم : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن

مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩] ، وذلك بأن الله وصفنا ـ معشر المسلمين ـ بأننا خير الأمم : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١١٠] فإن فقدنا ما جعلنا الله به خير الأمم ، كنا كمثل أشقاها وليس من منزلة هناك بينهما... ، وذلك بأن رسول الله ﷺ قال : « **لا يحقرن أحدكم نفسه ، قالوا : يارسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمراً لله عليه فيه مقال ، ثم لا يقول فيه ، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة : ما منعك أن تقول فيَّ كذ وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ، فيقول : فإيايَّ كنت أحق أن تخشى** »[1] .

نريد أن ننافح عن القرآن ، وقد اعتاد ناس أن يلعبوا بكتاب الله بين أظهرنا ، فمن متأول لآياته غير مؤمن به يريد أن يقسرها على غير ما يدل عليه صريح اللفظ في كلام العرب حتى يوافق ما آمن به ، أو ما أشربته نفسه من عقائد أوربة ووثنيتها وإلحادها ، أو يقرِّبه إلى عاداتهم وآدابهم ـ إن كانت لهم آداب ـ ليجعل الإسلام ديناً عصرياً في نظره ونظر ساداته الذين ارتضع لبانهم ، أو رُبي في أحضانهم !

ومن منكر لكل شيء من عالم الغيب، فلا يفتأ يحاور ويداور، ليجعل

---

[1] ابن ماجة ٢٥٢/٢ بإسناد صحيح (أحمد شاكر) .

عالم الغيب كله موافقاً لظواهر ما رأى من سنن الكون ، إن كان يرى، أو على الأصح لما فهم أن أوربة ترى ! ... نعم ، لا بأس عليه - عنده - أن يؤمن بشيء مما وراء المادة ، إن أثبته السادة الأوربيون ! ولو كان من خرافات استحضار الأرواح ! ...

نريد أن نحفظ أعراض المسلمين ، وأن نحارب ما أحدث (النسوان) وأنصار (النسوان) من منكرات الإباحية والمجون والفجور والدعارة هؤلاء (النسوان) اللائي ليس لهن رجال ، إلا رجالاً (يُشْبِهنَ) الرجال هذه الحركة النسائية الماجنة التي يتزعمها المجددون وأشباه المجددين ، والمخنثون من الرجال ، والمترجلات من النساء ، التي يهدمون بها كل خلق كريم ؛ يتسابق أولئك وهؤلاء إلى الشهوات ، وإلى الشهوات فقط .

نريد أن ندعو الصالحين من المؤمنين ، والصالحات من المؤمنات - الذين بقي في نفوسهم الحفاظ والغيرة ومقومات الرجولة ، واللائي بقي في نفوسهن الحياء والعفة والتصون - إلى العمل الجدي الحازم على إرجاع المرأة المسلمة إلى خدرها الإسلامي المصون ، إلى حجابها الذي أمر الله به ورسوله ، طوعاً أو كرهاً .

نريد أن نثابر على ما دعونا وندعو إليه من العودة إلى كتاب الله

وسنة رسوله في قضائنا كله ، في كل بلاد الإسلام، وهدم الطاغوت الإفرنجي الذي ضرب على المسلمين في عقر دارهم في صورة قوانين ...

نريد أن نحارب النفاق والمجاملات الكاذبة ، التي اصطنعها كتاب هذا العصر أو أكثرهم فيما يكتبون وينصحون ! يظنون أن هذا من حسن السياسة ، ومن الدعوة إلى الحق : ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ اللتين أمر الله بهما ! وما كان هذا منهما قط ، وإنما هو الضعف والاستخذاء والملق والحرص على عرض الحياة الدنيا .

وما نريد بهذا أن نكون سفهاء أو شتامين أو منفِّرين ، معاذ الله ، و« **ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ، ولا الفاحش ولا البذيء** » كما قال رسول الله ﷺ [1] ، ولكنا نريد أن نقول الحق واضحاً غير ملتوٍ ، وأن نصف الأشياء بأوصافها الصحيحة ، بأحسن عبارة نستطيعها ، ولكنا نربأ بأنفسنا وبإخواننا أن نصف رجلاً يعلن عداءه للإسلام ، أو يرفض شريعة الله ورسوله ـ مثلاً ـ بأنه (صديقنا) ، والله

---

(١) أخرجه أحمد (٤٠٥،٤٠٤/١) ، والبخاري في الأدب المفرد (٣٣٢،٣١٢) والترمذي (١٩٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ وقال الترمذي حسن غريب ، وصححه الحاكم (١٢/١) ووافقه الذهبي .

سبحانه نهانا عن ذلك نهياً جازماً في كتابه ، ونربأ بأنفسنا أن نضعف ونستخذي ، فنصف أمة من الأمم تضرب المسلمين بالحديد والنار ، وتهتك أعراضهم وتنتهب أموالهم ، بأنها أمة (صديقة) أو بأنها أمة (الحرية والنور) ، إذا كان من فِعْلِهَا مع إخواننا أنها أمة (الاستعباد والنار) ! وأمثال ذلك مما يرى القارئ ويسمع كل يوم .

فإن عجزنا أو ذهبنا ، فلن يعدم الإسلام رجلاً أو رجالاً خيراً منا ، يرفعون هذا اللواء ، فلا يزال خفاقاً إلى السماء ، بإذن الله »[1].أ.هـ.

ولولا خشية الإطالة لذكرت مزيداً من هذه المواقف المضيئة لسلفنا الصالح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى وما تحملوا في سبيل ذلك من الأذى والابتلاءات المضنية ، كما حصل ذلك للإمام المجدد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، وتلميذه ابن القيم ، ومن سار على دربهم في الصدع بالحق والجهاد في سبيل الله تعالى ، وكالإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ومن جاء بعده من أئمة الدعوة إلى عصرنا هذا ، وصدق الرسول ﷺ « **ولا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم ، ولا من**

---

[1] مقدمة كتاب : (كلمة حق) للشيخ أحمد شاكر رحمه الله مع الاختصار .

خذلهم حتى تقوم الساعة »[١].

• **ومن صور التواصي بالحق** : التواصي بالتجرد في قبول الحق والإذعان له إذا تبين على أي لسان ومن أي جهة كانت ؛ فإن التواصي بذلك ولزومه والحث عليه من علامات التواصي بالحق ، ولا يظهر هذا إلا في المحكات ؛ وذلك عندما يكون الحق على النفس أو يظهر على لسان الخصم والمبغض ، فهنا يتبين حقيقة التجرد في قبول الحق ولو على النفس والأقربين ، ولقد كان سلفنا الصالح يتواصون بلزوم الحق والتجرد في أخذه ومن ذلك :

□ ما كتبه عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما بقوله : « أما بعد فالزم الحق ، ينزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لا يُقضى إلا بالحق »[٢].

□ ما كتبه أيضاً عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما في كتابه المشهور في القضاء وفيه : «... ولا يمنعك من قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه

---

(١) البخاري (٣٦٤٠) ، ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ ، وأخرجه البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية ﷺ .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٢٦٩/٧ رقم ١١٩ .

الحق ، فإن الحق قديم ، ولا يبطل الحق شيء ، وإن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل))[١].

ومن التجرد للحق : الرجوع عن الخطأ وعدم التعصب للنفس وأخطائها ، وعدم الغضب والاشمئزاز ممن ينبه على عيوبها بل تحبه وتقبل منه نصيحته ويشكر عليها ، ومن التوجيهات السلفية في ذلك ما يلي :

□ لما ولى الصديق ﷺ الخلافة خطب خطبت المشهورة التي بين فيها معالم سياسته ، فكان مما قال فيها : ((أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن زغت فقوموني))[٢] .

□ وأخرج ابن سعد في طبقاته أن عمر بن الخطاب ﷺ قال :((أحبَّ الناس إليَّ من رفع إليَّ عيوبي))[٣].

□ وأوصى عبد الله بن مسعود ﷺ رجلاً فقال : ((ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً ، ومن أتاك بباطل فأردده وإن كان حبيباً قريباً))[٤] .

---

(١) سنن الدارقطني ٤/٢٠٦ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣/٨١، ٨٢ .

(٣) الطبقات ٣/٢٩٣ .

(٤) معجم الطبراني الكبير (٨٥٣٧) .

□ ما قاله عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى لمولاه مزاحم : ((إنالولاة جعلوا العيون على العوام وأنا أجعلك عيني على نفسي ؛ فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها ، أو فعلاً لا تحبه ، فعظني عنده وانهني عنه))[١] .

□ ويحكي ابن رجب رحمه الله تعالى أن ذلك كان هدياً لعامة أئمة السلف فيقول : ((كان أئمة السلف المجمع على علمهم وفضلهم ، يقبلون الحق ممن أورده عليهم ، وإن كان صغيراً ، ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم))[٢].

□ ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على قوله ﷺ في دعائه ((**وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا**)) بقوله : ((ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه ، فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل ، وقد يدخله أيضاً رضاه في الباطل ، سأل الله عز وجل أن يوفقه لكلمة الحق في الغضب والرضا ، ولهذا قال بعض السلف : لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق))[٣] .

---

[١] عيون الأخبار ٤١٦/١ .

[٢] الفرق بين النصيحة والتعيير ص١٠ .

[٣] إغاثة اللهفان ٢٩/١ .

□ يقول رحمه الله تعالى في شرحه لمنازل السائرين وهو يستدرك على الإمام الهروي رحمه الله تعالى بعض شطحاته : ((وشيخ الإسلام - أي الهروي - حبيبنا ولكن الحق أحب إلينا منه . وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : عمله خير من علمه وصدق رحمه الله فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أهل البدع لا يشق له فيها غبار ، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله ، وأبى الله أن يكسو ثوب العصمة لغير الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ وقد أخطأ في هذا الباب لفظاً ومعنى))[1] أ.هـ.

□ ويقول أيضاً في خاتمة كتابه القيم مدارج السالكين : ((فيا أيها القارئ له لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه ، لك ثمرته وعليه تبعته ، فما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله ولا تلتفت إلى قائله بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال ، وقد ذم الله تعالى من يَرُدُّ الحق إذا جاء به من يبغضه ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خلق الأمة الغضبية ؛ قال بعض الصحابة : اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً ، ورد الباطل على من قاله وإن كان حبيباً وما وجدت فيه من خطأ فإن قائله لم يـــأل جـــهد الإصابة ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال))[2] أ.هـ.

---

[1] مدارج السالكين ٣/٣٩٤

[2] مدراج السالكين ٣/٥٢٢ .

• **ومـــن صور التواصي بالحـــق** التواصي بترك التعصب للنفس أو للأشخاص أو الهيئات أوالأحزاب كما مر بنا في بعض الأمثلة السابقة وإنما التعصب للحق بأن يدور العبد معه حيث دار وينبذ التقليد الأعمى والتحزب المقيت ، ويتواصى بذلك مع إخوانه المسلمين .

ومن توجيهات السلف في ذلك ما يلي :

▫ ما أوصى به معاذ بن جبل ﷺ تلاميذه بقوله : « وإياكم وزيغة الحكيم فإن الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة ، وإن المنافق قد يقول كلمة الحق فتلقوا الحق عن ما جاء به فإن على الحق نوراً .

قالوا : وكيف زيغة الحكيم ؟ قال : هي الكلمة تروعكم وتنكرونها وتقولون ما هذا ؟ فاحذروا زيغته ولا يصدنكم عنه فإنه يوشك أن يفيء وأن يراجع الحق .

وإن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة »[١].

▫ وقال عمرو بن ميمون الأودي : « صحبت معاذاً باليمن فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبت من بعده أفقه الناس: عبد الله بن مسعود فسمعته يقول : عليكم بالجماعة فإن يد الله مع

---

[١] أعلام الموقعين ١/١٠٥ .

الجماعة ثم سمعته يوماً من الأيام وهو يقول : سيولى عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها فصلوا الصلاة لميقاتها فهي الفريضة وصلوا معهم فإنها لكم نافلة ، قال : قلت يا أصحاب محمد ما أدري ما تحدثون ؟ قال وما ذاك ؟ قلت : تأمرني بالجماعة وتحضني عليها ثم تقول لي : صل الصلاة وحدك وهي الفريضة ، وصل مع الجماعة وهي نافلة ، قال : يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية ؛ أتدري ما الجماعة ؟ قلت : لا ، قال : إن جمهور الجماعة هم الذين فارقوا الجماعة الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك ، وفي لفظ آخر فضرب على فخذي وقال : ويحك إن جمهور الناس فارقوا الجماعة وإن الجماعة ما وافق طاعة الله تعالى »[1].

□ وذكر محمد بن حارث في أخبار سحنون بن سعيد عنه قال : كان مالك وعبد العزيز بن أبي سلمة ومحمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز ؛ فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز أجابهما وإذا سأله ابن دينار وذووه لا يجيبهم ، فتعرَّض له ابن دينار يوماً فقال له : يا أبا بكر لم تستحل مني ما لا يحل لك ؟ فقال له : يا ابن أخي وما ذاك ؟ قال : يسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما وأسألك

---

[1] أعلام الموقعين ٣/٣٩٧ .

أنا وذويي فلا تجيبنا ، فقال : أوقع ذلك يا ابن أخي في قلبك ؟ قال : نعم قال : إني قد كبرت سني ودق عظمي ، وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الذي خالطني في بدني ، ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان إذا سمعا مني حقاً قبلاه ، وإن سمعا مني خطأ تركاه وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه .

قال ابن حارث : « هذا والله الدين الكامل والعقل الراجح ، لا كمن يأتي بالهذيان ويريد أن ينزل قوله من القلوب منزلة القرآن »[1] .

□ ما استفاض من تشنيع الأئمة على من يقلدهم التقليد الأعمى ، ومن يتعصب لهم ويترك الدليل الصحيح لقولهم ، ومقولتهم في ذلك مشهورة ومعروفة ويجمعها قولهم : (**إذا صح الحديث فهو مذهبي**) أو القول الآخر (**إذا خالف الحديث قولي ، فاضربوا بقولي عرض الحائط**) .

• ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله تعالى من تفصيل القول في الأحزاب والتجمعات وتحذيره من التعصب المذموم حيث يقول : « وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزب ـ أي تصير حزباً ـ فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله ﷺ من غير زيادة ولا

---

(١) أعلام الموقعين ٢/١٩٨ .

نقصان فهم مؤمنون ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل : التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل ، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم ، سواء كان على الحق أو الباطل ، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله ﷺ ، فإن الله ورسوله ﷺ أمرا بالجماعة والائتلاف ، ونهيا عن الفرقة والاختلاف وأمرا بالتعاون على البر والتقوى ، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان))[1].أ.هـ.

فظهر من كلام شيخ الإسلام أن التجمع والتعاون على الحق والدعوة إليه هو من التواصي بالحق ، مالم يكن هناك تعصب للداخلين في هذا الحزب بالحق والباطل والإعراض عمن لم يدخل سواء كان على الحق أو الباطل ؛ فإنه حينئذ لا يكون من التواصي بالحق بل من التعصب الممقوت الذي يتنافى مع التواصي بالحق .

ومن باب التواصي بالحق أنصح نفسي وإخواني الدعاة والجماعات الإسلامية اليوم ؛ بالحذر من الحزبية المقيتة والتعصب المذموم للنفس أو الشيخ أو الطائفة ، وأن يتقوا الله جميعاً في أنفسهم ودعوتهم وفي إخوانهم الذين يربونهم تربية خاطئة تقوم على التعصب للجماعة أو

---

[1] مجموع الفتاوى ١١/٩٢ .

على الثقة المطلقة برجالاتها ؛ ثقة قد تصل بشكل عملي إلى دعوى عصمتهم ؛ الأمر الذي قد يؤدي إلى رفض الحق وعدم قبول الدليل الشرعي ، أو إلى الطعن في كثير من الدعاة الصادقين ، لا لشيء إلا لأنهم ليسوا من أفراد الجماعة ، وفي هذا تعصب للهوى لا يختلف عن التعصب للقبيلة أو القوم أو الأرض ، وإن التواصي بالحق يقتضي رفض كل هذه المواقف المذمومة .

● **ومن صور التواصي بالحق** : المناصحة بين المسلمين - وخاصة بين أهل العلم والدعوة والصلاح - وذلك بأن يكون كل واحد مرآه لأخيه يبين له عيوبه ويناصحه على انفراد شفقة ورحمة ومحبة ، ويفتح كل واحد صدره لأخيه ويشكره على مناصحته وتوجيهه ، وإن مما يؤسف له أن هذه المناصحة قليلة اليوم ؛ حيث يرى أحدنا على أخيه ما يشينه في سلوكه أو عبادته ، فلا ينصحه ، بل يتركه على خطئه بحجة أنه أعلم أو خوف غضبه أو أنه لن يقبل النصح ، وهذا كله من مداخل الشيطان ، والعجيب في الأمر أن نجد بعض من يترك مناصحة أخيه مباشرة بهذه الحجج الواهية قد ذهب إلى طرف ثالث وتكلم عنده في عرض أخيه وذكر مثالبه ، فترك بذلك الطريق الشرعي للمناصحة والتواصي بالحق واعتاض عنه بالطريق المحرم من الغيبة والسخرية

والنميمة ، ولقد كان سلفنا الصالح يتناصحون بينهم بالكلام المباشر وبالمكاتبات ليس فقط في ما يرونه على بعضهم البعض من المخالفات الشرعية ، وإنما كانوا يتناصحون أيضاً في التحذير من التوسع في المباحات ، وأسوق فيما يلي صورة مضيئة من المناصحة بين عالمين من علماء السلف علها أن تكون دافعاً لنا إلى المناصحة الصادقة التي باعثها الحب والشفقة والرحمة :

كتب يحيى بن يزيد النوفلي إلى الإمام مالك يعاتبه على التوسع في بعض المباحات فقال : ((بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين ، من يحيى بن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس ، أما بعد : فقد بلغني أنك تلبس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطيء ، وتجعل على بابك حاجباً ، وقد جلست مجلس العلم وقد ضُربت إليك المطايا ، وارتحل إليك الناس ، واتخذوك إماماً ، ورضوا بقولك ، فاتق الله تعالى يا مالك ، وعليك بالتواضع ، كتبت إليك بالنصيحة في كتاب ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام)) .

فكتب إليه مالك : ((بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ، من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد : سلام

عليك ، أما بعد : فقد وصل إليّ كتابك فوقع مني موقع النصيحة والشفقة والأدب متعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيراً ، وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فأما ما ذكرت لي أني آكل الرقاق وألبس الدقاق ، وأحتجب وأجلس على الوطيء ، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى ؛ فقد قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام » .

قال الإمام الغزالي معلقاً على الرسالتين : « فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه وأفتى بأنه مباح ، وقد صدق فيهما جميعاً »[1].أ.هـ.

• **ومن صور التواصي بالحق** : قيام أهل العلم بتعليم الناس دينهم الحق وتحذيرهم مما يضاده من الباطل والشبهات ، والتصدي لكل ما يحرف الناس عن الحق أو يلبسه عليهم من الشبهات والشهوات ، وقد تكون هذه الردود مشافهة مع الناس أو عن طريق الكتابة ؛ كما كان ذلك شأن سلف الأمة الذين بينوا للناس الحق وردوا على شبهات

---

[1] إحياء علوم الدين ١/١١٤ .

المبطلين وتلبيساتهم المضلة ، ومن أخطر الفتن التي تصد الناس وتحرفهم عن الحق والتي يجب التصدي لها والرد على أهلها وكشف ضلالها للناس :

١- **فتنة الشبهات** : والتصدي لها يكون بنشر العلم الصحيح وتعليمه للناس وعدم كتمه عنهم ؛ إذ إن الباطل وشبهاته لا تنتشر إلا إذا فقد العلم أو ضعف بين الناس ، ومن أخطر أنواع الشبهات : لبس الحق بالباطل ، وإظهار الباطل في صورة الحق بجامع شبهة وشهوة ، ولقد نهى الله عز وجل عن كتم الحق أو لبسه بالباطل في كتابه العزيز فقال : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٤٢] .

وما أكثر صور اللبس والتلبيس في عصرنا الحاضر ، وقد ذكرت بعضاً من هذه الصور في رسالة (ولا تلبسوا الحق بالباطل) مما يغني عن ذكرها هنا مرة ثانية .

و**الحاصل** أن على أهل العلم والدعوة أن لا يسلموا الناس لأهل الباطل يشبهوا عليهم الحق ويلبسوا عليهم دينهم بما يثيرونه من الشبهات والضلالات ؛ بل عليهم بما آتاهم الله من العلم أن يتصدوا لشبهات المبطلين ويفندوها ويبينوا الحق للناس جلياً واضحاً .

ومما يلحق بالشبهات : ليُّ النصوص وتحريفها ؛ وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : « **اللَّيُّ : مثال الفتل وهو التحريف وهو نوعان : ليٌّ في اللفظ وليٌّ في المعنى .**

فاللي في اللفظ : أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق ؛ إما بزيادة لفظة أو نقصانها أو إبدالها بغيرها ، ولي في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظاً وإرادة غيره كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي ﷺ وغيره فهذا أحد نوعي اللي .

والنوع الثاني : لي المعنى ، وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم »[1].أ.هـ.

والتصدي لذلك يكون برد هذه التأويلات الباطلة ، وبيان فهم السلف الصالح لها والذي أخذوه عن رسول الله ﷺ .

٢- **فتنة الشهوات** : وهذه الفتنة لا تقل عن فتنة الشبهات خطراً إن لم تزد عليها ؛ وذلك أن هذه الفتنة لم تأت من عدم معرفة الحق أو ليه بالباطل ، بل إن الحق قد اتضح وبان لكن الشهوة والهوى تجعل صاحبها يعرض عن الحق ويتركه مع معرفته بذلك ، ومن التواصي بالحق التصدي لهذه الفتنة بتذكير الناس بعظمة الحق وشرف من يتبعه

---

[1] زاد المهاجر إلى ربه ص٣٥ .

والثواب العظيم له في الدنيا والآخرة ، وأن ما يعترضه من الشهوات والأهواء إن هي إلا أعراض زائلة سرعان ما تذهب وتبقى غصتها وعقوباتها يوم القيامة كما أن من التصدي لفتنة الشهوات ذكر عقوبات كتم الحق أو الإعراض عنه بعد بيانه لهوى أو شهوة ؛ لأن في ذلك أكبر واعظ لمن اتبع هواه في الإعراض عن الحق وركوب الباطل ومن أخطر هذه العقوبات المترتبة على ترك الحق : انتكاسة القلب وحرفه عن الهدى والعياذ بالله تعالى ، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : ((حذارحذار من أمرين لهما عواقب سوء : أحدهما : رد الحق لمخالفته هواك ؛ فإنك تعاقب بتقليب القلب ورد ما يرد عليك من الحق رأساً ولا تقبله إلا إذا برز في قلب هواك قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠] فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك))[1] .أ.هـ.

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم عقوبة من ترك الحق بعد علمه به متبعاً في ذلك هواه ؛ وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ

---

[1] بدائع الفوائد ٣/٦٩٩ .

ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦] .

ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله : ((قال مجاهد : وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به ، وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها وإن تركته لم يهتد إلى خير ؛ كالكلب إن كان رابضاً لهث وإن طرد لهث ، وقال الحسن : هو المنافق لا يثبت على الحق دعي أو لم يدع ، وعظ أو لم يوعظ كالكلب يلهث طرد أو ترك ، وقال عطاء : ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه، وقال أبو محمد بن قتيبة : كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الصحة وحال المرض والعطش ، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته وقال : إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لهث وإن تركته على حاله لهث ونظيره قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٣] .

وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنى :

فمنها : قوله : ﴿ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا ﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته؛

فإنها نعمة والله هو الذي أنعم بها عليه فأضافها إلى نفسه ثم قال: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم ، ولم يقل فسلخناه منها لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها : قوله سبحانه : ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ أي لحقه وأدركه كما قال في قوم فرعون : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ ﴾ [الشعراء:٦٠] وكان محفوظاً محروساً بآيات الله محمي الجانب بها من الشيطان ، لا ينال منه شيئاً إلا غرة وخطفة ، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم ؛ الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء

ومنها : أنه سبحانه قال : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا ﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم فإن هذا كان من العلماء ، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله **فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به»**[1] .أ.هـ.

إذاً من التواصي بالحق التواصي بلزومه والتحذيرمن الإعراض عنه وذلك بتذكر القوبات العظيمة المترتبة على ذلك .

---

[1] أعلام الموقعين ١٦٧/١ .

الأصل الرابع : التواصي بالصبر

لما كان الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق كل ذلك لا يقوم ولا يستقيم إلا بالصبر ؛ جاء التأكيد على صفة التواصي بالصبر وأنها من صفات الناجين من الخسران ، ولم يكن من صفاتهم أنهم صابرون فحسب ؛ بل زادوا على ذلك بأن كانوا يتواصون بالصبر ويحض بعضهم بعضاً عليه ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ معنى الاجتماع والتناصح والترابط ، سبق ذكر ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ ﴾ ، كما أن فيه الدلالة على أن القيام بتكاليف الإيمان والعمل الصالح والثبات على الحق أمر شاق محتاج إلى الصبر والمصابرة والتواصي على لزومه وحث المؤمنين بعضهم بعضاً عليه .

وأصل الصبر : الحبس والكف ، وأما حقيقته فهو : ثبات باعث الدين والعقل في مقابلة باعث الشهوة والهوى[1]، والمراد بالتواصي بالصبر هنا التواصي بطاعة الله عز وجل ، ويدخل في ذلك ترك معاصيه والصبر على بلائه ، وترك الجزع والتسخط ؛ يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى:« وقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ ﴾ يقول: وأوصى

---

[1] عدة الصابرين ص١٠ .

بعضهم بعضاً بالصبر على العمل بطاعة الله))[1].

وقال في فتح القدير : ((﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ أي بالصبر عن معاصي الله سبحانه ، والصبر على فرائضه ، وفي جعل التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه ، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه))[2].

ولأهمية الصبر والتواصي به ، وارتباطه الوثيق بالإيمان والعمل الصالح وحاجة التواصي بالحق إليه ، ولكونه أصلاً عظيماً من أصول النجاة لا تتحقق إلا به ؛ رأيت التوسع في بعض المسائل المتعلقة به والتي لا بد منها في الحديث عن الصبر والتواصي به ، ومن هذه المسائل ما يلي :

المسألة الأولى :

التواصي بالصبر هو في الحقيقة من التواصي بالحق وهو من الأعمال الصالحة ؛ وإنما أفرد ذكره هنا لأهميته والتأكيد عليه ، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام ، وهذا كثير في كتاب الله عز وجل وفي اللغة ؛ يقول الشوكاني رحمه الله تعالى : ((وأيضاً التواصي بالصبر

---

[1] تفسير الطبري (سورة العصر) .

[2] فتح القدير (سورة العصر) .

مما يندرج تحت التواصي بالحق ؛ فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ومزيد شرفه عليها وارتفاع طبقته عنها))[١].أ.هـ.

ويقول ابن عاشور في تفسيره : ((والتواصي بالصبر عطف على التواصي بالحق عطف الخاص على العام أيضاً ، وإن كان خصوصه خصوصاً من وجه لأن الصبر تحمل مشقة إقامة الحق وما يعترض المسلم من أذى في نفسه في إقامة بعض الحق))[٢].أ.هـ.

المسألة الثانية :

التواصي بالصبر يعني التواصي على نوعين من الصبر :

١- الصبر على المقدور كالمصائب .

٢- الصبر على المشروع بفعل الأوامر وترك النواهي .

ويفصل القول في ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول : ((والصبر نوعان : نوع على المقدور كالمصائب ، ونوع على المشروع وهذا النوع أيضاً نوعان : صبر على الأوامر وصبر على النواهي ؛ فذاك صبر على الإرادة والفعل ، وهذا صبر عن الإرادة والفعل .

---

(١) فتح القدير (سورة العصر) .

(٢) التحرير والتنوير ١٥/٥٣٣ .

فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار ؛ قال النبي ﷺ في حق ابنته « **مرها فلتصبر ولتحتسب** »[1] ، وقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ ﴾ [هود:١١] وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٢٥]، وقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٢٠] ، فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى ، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور ، وقال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝ ﴾ [الروم:٦٠] فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر ، فإنهم لعدم يقينهم عُدِم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم ، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا وما خفوا ولا استخفوا ، فمن قلَّ يقينه قلَّ صبره ، ومن قلَّ صبره خف واستخف ، فالموقن الصابر رزين ؛ لأنه ذو لُبٍ وعقل ، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف والله المستعان »[2].أ.هـ.

---

[1] طرف من حديث أخرجه البخاري (٧٣٧٧) ومسلم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه .

[2] بدائع التفسير ٥/٣٣٠-٣٣١ .

وهذه المسألة تقودنا إلى المسألة التي تليها .

المسألة الثالثة :

إذا لم يكن مع التواصي بالصبر تواصياً بالحق فإن الصبر بمفرده لا ينفع ، وهذا هو سر الارتباط الوثيق بين التواصي بالحق والتواصي بالصبر ؛ حيث إن التواصي بالصبر لا يجدي إذا لم يكن على الحق والتقوى والعمل الصالح ؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: « فلابد من الصبر على فعل الحسن المأمور به وترك السيء المحظور ، ويدخل في ذلك الصبر على الأذى وعلى ما يقال ، والصبر على ما يصيبه من المكاره ، والصبر عن البطر عند النعم ، وغير ذلك من أنواع الصبر ، ولا يمكن للعبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ويتنعم به ويتغذى به وهو اليقين »[1].أ.هـ.

ويقول في موطن آخر : « قال إبراهيم الحربي : أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، ولا بد من الصبر في جميع الأمور قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر:١-٣] فلا بد من التواصي بالحق والصبر ؛ إذ إن أهل الفساد والباطل لا

---

[1] مجموع الفتاوى ١٥٣/٢٨ .

يقوم باطلهم إلا بالصبر عليه أيضاً ، لكن المؤمنين يتواصون بالحق والصبر ، وأولئك يتواصون بالصبر على باطلهم كما قال قائلهم : ﴿ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ [ص:٦] فالتواصي بالحق بدون الصبر كما يفعله الذين يقولون آمنا بالله فإذا أوذي أحدهم في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، والذين يعبدون الله على حرف فإن أصاب أحدهم خيرٌ اطمئن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة .

والتواصي بالصبر بدون الحق كقول الذين قالوا: ﴿ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ ﴾ كلاهما موجب للخسران ، وإنما نجا من الخسران الذين آمنوا وعلموا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وهو موجود في كل من خرج عن هؤلاء من أهل الشهوات الفاسدة ، وأهل الشبهات الفاسدة أهل الفجور وأهل البدع ››[1].أ.هـ.

المسألة الرابعة :

وكما قرن الله سبحانه بين التواصي بالحق والتواصي بالصبر فقد **قرن أيضاً بين التواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة** كما في قوله تعالى :

---

[1] قاعدة في المحبة ٢٠٨/٣ .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد:١٧] والتواصي بالمرحمة هو من التواصي بالحق ، ويبين شيخ الإسلام رحمه الله تعالى سر اقتران الصبر بالرحمة وأقسام الناس في ذلك فيقول : ((وقرن بين ((الرحمة والصبر)) في مثل قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ وفي الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها ، فإن القسمة أيضاً رباعية ، إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة ، ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين - مثل كثير من النساء ومن يشبههن - ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع ، والمحمود هو الذي يصبر ويرحم ، كما قال الفقهاء في المتولي : ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف ، فبصبره يقوى ، وبلينه يرحم ، وبالصبر ينصر العبد ؛ فإن النصر مع الصبر ، وبالرحمة يرحمه الله تعالى ، كما قال النبي ﷺ : ((**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**))(١)وقال: ((**من لا يرحم لا يُرحم**))(٢)وقال: ((**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**))(٣).

---

(١) طرف من حديث أسامة بن زيد ﷺ والذي فيه أيضاً ((مرها فلتصبر ولتحتسب)) وقد تقدم تخريجه انظر ص ٢١١ .

(٢) البخاري ك . الأدب باب من ترك صبية غيره حتى تلعب به (٥٩٩٧) ، ومسلم ك. الفضائل باب في رحمة النبي ﷺ بالصبيان (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٣) أخرجه أحمد (٢/٣٠١) والبخاري في الأدب المفرد (٣٧٤) وأبو داود (٤٩١٢) =

وقال « **الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا مـــن في الأرض يرحمكـــم مـــن في السماء** »[١] والله أعلم »[٢].

المسألة الخامسة :

على أي شيء يكون الصبر؟ :

الصبر المشروع : يكون على فعل الواجب والمستحب وترك المحرم والمكروه ، وما سوى ذلك من الصبر فقد يكون محرماً أو مكروهاً أو مباحاً كما يفصل ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله : (وهو - أي الصبر - ينقسم بهذا الاعتبار - أي باعتبار تعلقه الأحكام الخمسة به - إلى واجب ومندوب ومحظور ومكروه ومباح .

فالصبر الواجـــب ثلاثة أنواع : أحدها : الصبر عن المحرمات : والثاني ، الصبر على أداء الواجبات ، والثالث : الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها .

= والترمذي (١٩٢٤) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(١) أخرجه أحمد (٢/١٦٠) وأبو داود (٤٩٤١) والترمذي (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٦٧٧ .

وأما **الصبر ا لمندوب** : فهو الصبر على المكروهات ، والصبر على

وأما الصبر المندوب : فهو الصبر عن المكروهات ، والصبر على المستحبات ، والصبر عن مقابلة الجاني بمثل فعله .

وأما المحظور فأنواع : أحدها الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت وكذلك الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة حرام إذا خاف بتركه الموت ، قال طاووس وبعده الإمام أحمد : « من اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار » .

فإن قيل : فما تقولون في الصبر عن المسألة في هذه الحال ؟ قيل : اختلف في حكمه هل هو حرام أو مباح على قولين هما لأصحاب أحمد وظاهر نصهما أن الصبر عن المسألة جائز ، فإنه قيل له إذا خاف إن لم يسأل أن يموت ، فقال : لا يموت ؛ يأتيه الله برزقه ، ومتى علم الله ضرورته وصدقه في ترك المسألة قيض الله له رزقاً ، فأحمد منع من وقوع المسألة ، وقال كثير من أصحاب أحمد والشافعي : يجب عليه المسألة وإن لم يسأل كان عاصياً لأن المسألة تضمن نجاته من التلف .

ومن الصبر المحظور : صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سبع أو حيات أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله ، بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة وقتال المسلمين فإنه مباح له بل يستحب كما دلت عليه

النصوص الكثيرة ، وهذا بخلاف قتل الكافر فإنه يجب عليه الدفع عن نفسه لأن من مقصود الجهاد أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين ، ولا يجوز الصبر على من قصده أو حرمه بالفاحشة .

وأما الصبر المكروه : فله أمثله : **أحدها** أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه ، **الثاني** صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك ولم يتضرر به ، **الثالث** صبره على المكروه **الرابع** صبره عن فعل المستحب .

وأما الصبر المباح : فهو الصبر عن كل فعل مستوي الطرفين خُيِّرَ بين فعله وتركه والصبر عليه .

وبالجملة فالصبر على الواجب واجب ، وعن الواجب حرام ، والصبر عن الحرام واجبٌ وعليه حرام ، والصبر على المستحب مستحب وعنه مكروه ، والصبر عن المكروه مستحب وعليه مكروه ، والصبر عن المباح مباح ، والله أعلم)[١] .أ.هـ.

المسألة السادسة :

الصبر المرضي لله عز وجل، لا يتحقق إلا بثلاثة شروط ؛ وذلك ليحصل الانتفاع به بالثبات في الدنيا والثواب في الآخرة .

---

[١] عدة الصابرين ص٢٢ ،٢٣ (باختصار) .

وهذه الشروط هي :

الأول : أن يكون ابتغاء وجه الله عز وجل واحتساب الأجر منه سبحانه وليس لأجل عرض من أعراض الدنيا ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝ ﴾ [المدثر:٧] .

الثاني : أن يكون على أمر يحبه الله ويرضاه وهو ما شرعه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ .

الثالث : الاستعانة بالله وحده على الصبر ؛ لأنه سبحانه هو وحده المصبر والمثبت ، وهذا يقتضي التبرؤ من كل حول وقوة سوى الله عز وجل .

وهذه الأمور الثلاثة هي شروط الصبر النافع الذي يثاب صاحبه وبدونها يضعف ويخذل ؛ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (وهو ـ أي الصبر ـ على ثلاثة أنواع : صبر بالله ، وصبر لله ، وصبر مع الله :

فالأول : أول الاستعانة به ، ورؤيته أنه هو الْمُصَبِّرُ ، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:١٢٧] يعني إن لم يصبرك هو لم تَصْبِرْ .

والثاني : الصبر لله ، وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله ، وإرادة وجهه ، والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلى

الخلق ، وغير ذلك من الأعراض .

الثالث : الصبر مع الله ، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه ، ومع أحكامه الدينية ، صابراً نفسه معه ، سائراً بسيرها ، مقيماً بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها ، وينزل معها أين استقلت مضاربها فهذا معنى كونه صابراً مع الله ، أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه ، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها وهو صبر الصديقين)[1] .أ.هـ.

وفي كتاب الله عز وجل ما يؤيد هذه الشروط اللازمة للانتفاع بالصبر وذلك في موقف سحرة فرعون عندما هددهم بالقتل حيث قالوا : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٥-١٢٦] فذكرهم الانقلاب إلى الله عز وجل فيه الإخلاص واليقين بوعده وابتغاء وجهه سبحانه بصبرهم ، وذكرهم لآيات الله التي رأوها فيها اطمئنانهم إلى أن الحق مع موسى عليه السلام وهو الحق الذي يحبه الله عز وجل ويرضاه ، ودعاؤهم آخر الآية فيه الاستعانة بالله عز وجل وسؤاله التصبير والثبات والموت على الإسلام وفي ذلك التبرؤ من

---

[1] مدارج السالكين ١٥٧/٢ .

الحول والقوة .

المسألة السابعة :

الصبر كغيره من الأخلاق يكتنفه خلقان ذميمان والممدوح منه وسط بينهما والتواصي به يعني التواصي على الاستقامة بين الطرفين المذمومين للصبر : طرف التفريط في الصبر المؤدي إلى التهور والعجلة في الأمور أو الهلع والجزع والتسخط ، وطرف الإفراط المؤدي إلى القسوة وغلظ الكبد وتحجر الطبع ، وبينهما يقع الصابر المستقيم الذي لم تدفعه الشدائد والابتلاءات إلى الضعف والخور والجزع ، وفي المقابل لم تدفعه بضغوطها وشدتها إلى العجلة والتهور والقسوة المخالفة لقواعد الشريعة ومقاصدها ؛ وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : (وكل خُلقٍ محمود مكتنف بِخُلُقَين ذميمين وهو وسط بينهما ، وطرفاه خلقان ذميمان ، فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخُلقين الذميمين ولا بد ، فإذا انحرفت عن خلق « الصبر المحمود » انحرفت إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط ، وإما إلى غلظة كبد ، وقسوة قلب وتحجر طبع)[1].أ.هـ.

ويقول أيضاً : (قلت : والنفس فيها قوتان ، قوة الإقدام ، وقوة

---

[1] مدارج السالكين ٣١٠/٢ (باختصار) .

الإحجام فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه ، وقوة الإحجام إمساكاً عما يضره)[١] .أ.هـ.

المسألة الثامنة :

الصبر الذي ينبغي التواصي به هو صبر الكرَّام لا صبر اللئـــام ؛ والفرق بينهما : (أن الكريم يصبر اختياراً لعلمه بحسن عاقبة الصبر ، ولعلمه بأنه إن لم يصبر لم يَرُدّ الجزع عليه فائتاً ولم ينزع عنه مكروهاً ، وأن المقدور لا حيلة في دفعه ، وما لم يُقَدَّر لا حيلة في تحصيله ؛ وأما اللئيم : فإنه يصبر اضطراراً حيث رأى أن الجزع لم ينفعه فصبر صبر الموثق للضرب ؛ والكريم : يصبر في طاعة الرحمن ؛ واللئيم : يصبر في طاعة الشيطان ؛ فاللئام أصبر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم ، وأقل الناس صبراً في طاعة ربهم)[٢] .أ.هـ.

المسألة التاسعة :

من التواصي بالصبر التواصي بالأسباب التي تعين عليـــه وتقويه في قلب العبد ، ومن أهمها ما أشار إليه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى

---

[١] عدة الصابرين ص١٠ .

[٢] عدة الصابرين ص٣٨ (باختصار وتصرف يسير) .

بقوله : (فالصبر وإن كان شاقاً كريهاً على النفوس فتحصيله ممكن ، وهو يتركب من مفردين : العلم والعمل ؛ فمنهما تركب جميع الأدوية التي تُداوى بها القلوب والأبدان ، فلا بد من جزء علمي وجزء عملي ، فمنهما يركب هذا الدواء الذي هو أنفع الأدوية ، فأما الجزء العلمي فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال ، وإدراك ما في المحظور من الشر والضر والنقص ، فإذا أدرك هذين العلمين كما ينبغي أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الإنسانية ، وضم هذا الجزء إلى هذا الجزء ، فمتى فعل ذلك حصل له الصبر وهانت عليه مشاقه وحلت له مرارته وانقلب ألمه لذة ، وقد تقدم أن الصبر مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس ، وكل متصارعين أراد أن يتغلب أحدهما على الآخر فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له ويضعف الآخر)[1].أ.هـ.

ثم ذكر بعد ذلك الأمور التي تقوي باعث الدين والعقل على باعث الهوى والنفس ومن أهمها :

(**أولاً : إجلال الله تبارك وتعالى** ، أن يُعصى وهو يرى ويسمع ، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتة .

---

(1) عدة الصابرين ص٣٩ .

الثاني : مشهد محبته سبحانه ، بترك معصيته محبة له ؛ فإن المحب لمن يحب مطيع ، وأفضل الترك ترك المحبين ، كما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين ، فبين ترك المحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد .

الثالث : مشهد النعمة والإحسان ؛ فإن الكريم لا يُقَابِلُ بالإساءة من أحسن إليه ، وإنما يفعل هذا لئام الناس ، فليمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلاً إليه ومخالفاته ومعاصيه وقبائحه صاعدة إلى ربه ، فملك ينزل بهذا وملك يعرج بذاك فأقبح بها من مقابلة .

الرابع : مشهد الغضب والانتقام ؛ فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد في معصيته غضب ، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء ، فضلاً عن هذا العبد الضعيف .

الخامس : مشهد العوض ، وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها وليوازنه بين العوض والمعوض فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه .

السادس : مشهد المغافصة والمعاجلة ؛ وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل فيأخذه الله على غرة فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة ، فيا لها من حسرة ما أمرَّها وما أصعبها ، لكن ما يعرفها إلا

من جربها ، وفي بعض الكتب القديمة : « يا من لا يأمن على نفسه طرفة عين ، ولا يتم له سرورُ يومٍ الحذرَ الحذرَ » .

السابع : التفكر في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها ، فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أخس ما فيها وأقله نفعاً إلا ساقط الهمة دنيء المروءة ميت القلب ؛ فإن حسرته تشتد إذا عاين حقيقة ما تزوده وتبين له عدم نفعه له ، فكيف إذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زاد يعذب به ويناله بسببه غاية الألم ، بل إذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبناً .

الثامن : تعرضه إلى من القلوب بين أصبعيه وأزمَّةِ الأمور بيديه وانتهاء كل شيء إليه على الدوام ، فلعله أن يصادف أوقات النفحات كما في الأثر المعروف : « **إن لله في أيام دهره نفحات فتعرضوا لنفحاته واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم** » ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه .

التاسع : أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كافٍ في حصول المقصود ، بل لا بد أن يضيف إليه بذل الجهد في استعماله واستفراغ الوسع والطاقة فيه ، وملاك ذلك الخروج عن العوائد فإنها أعداء الكمال والفلاح ، فلا أفلح من استمر مع عوائده أبداً ، ويستعين

على الخروج عن العوائد بالهرب عن مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه وقد قال النبي ﷺ : ((**من سمع بالدجال فلينأ عنه**))[١] ، فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه ، وها هنا لطيفة ، لا يخلص إليها إلا حاذق وهي : أن يظهر له الشيطان في مظان الشر بعض شيء من الخير ويدعوه إلى تحصيله ، فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة ، والله أعلم))[٢].أ.هـ.

ومما يعين على الصبر ويقويه التواصي بتدبر كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد ﷺ وما ورد فيهما من الحث على الصبر وفضله وما أعده الله عز وجل للصابرين في الدنيا والآخرة ، وقد جاء ذكر الصبر في القرآن في تسعين موضعاً ليس المقام مقام التفصيل فيها ولكن أكتفي منها ببعضها ومن ذلك :

• قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ

---

[١] أخرجه أحمد (٤/٤٣١،٤٤١) ، وأبو داود (٤٣١٩) والحاكم (٤/٥٣١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما بلفظ ((**من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فإن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فلا يزال به لما معه من الشُّبه حتى يتبعه**)) وصححه الحاكم .

[٢] عدة الصابرين (باختصار) ص٤٢–٤٥ .

وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

• وقولــه تعــالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠] .

• وقولــه تعــالى : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٤] .

• وقوله تعـالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران:١٢٠] .

وأما الأحاديث فكثيرة أذكر منها :

• عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال : قلت يارسول الله أيُّ الناس أشد بلاءً ؟ قال : ((**الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة**))[1] .

• عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((**إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة ؛ يريد عينيه**))[2] .

---

(١) الترمذي في الزهد (٢٤٠٠) وقال حديث صحيح ، ومسلم (١٠٥٣) .

(٢) البخاري ك . المرض باب فضل من ذهب بصره (٥٦٥٣) .

• وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : ((**وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر**))[١].

• وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ - يحكي نبياً من الأنبياء - ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ، ويقول : ((**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**))[٢].

• وعن عطاء بن أبي رباح قال : قال لي ابن عباس رضي الله عنهما : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى ، قال : هذه المرأة السوداء ؛ أتت النبي ﷺ فقالت : إني أصرع ، وإني أتكشف ، فادع الله تعالى لي ، قال : ((**إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك**)) **فقالت** : أصبر ، **فقالت** : **إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف ، فدعا لها**))[٣].

• وصية الرسول ﷺ لآل ياسر بالصبر وهم يعذبون بقوله : ((**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**))[٤].

---

[١] البخاري ك الرقاق ، باب الصبر عن محارم الله (٦٤٧٠) ومسلم (١٠٥٣) .

[٢] البخاري ك الأنبياء ، باب ما ذكر عن نبي اسرائيل (٣٤٧٧) ، مسلم (١٧٩٢) .

[٣] البخاري ك المرض ، باب فضل من يصرع (٥٦٥٢) ، مسلم (٢٥٧٦) .

[٤] ذكره ابن إسحاق كما في الحاكم (٣/٣٨٣) ، والحلية (١/١٤٠) ، والبداية والنهاية (٥٩/٣) وانظر تحقيق الأرناؤط على زاد المعاد (٢٢/٣) .

• وعن أبي عبد الله خباب بن الأرت ﷺ قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : ((**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط نصفين ، بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ؛ ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون**))[1].

ومما يعين على الصبر : التواصي بقراءة أقوال السلف وسيرتهم وأخبارهم في الصبر والمصابرة . وأقوالهم رحمهم الله تعالى وسيرتهم في الصبر والثبات وقوة التحمل وهي كثيرة جداً أذكر منها ما يلي :

• قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن أبي السفر قال : مرض أبو بكر ﷺ فعادوه فقالوا : ألا ندعو لك الطبيب ؟

فقال : قد رآني الطبيب ، قالوا : وما قال لك ؟

قال : إني فعال لما أريد .

• وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن مجاهد

---

(١) البخاري ك. الإكراه باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (٦٩٤٣) .

قال : قال عمر بن الخطاب ﷺ : وجدنا خير عيشنا بالصبر ، وقال أيضاً : أفضل عيش أدركناه بالصبر ، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً .

• وقال علي بن أبي طالب ﷺ : ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس بار الجسد ، ثم رفع صوته فقال : ألا وإنه لا إيمان لمن لا صبر له ، وقال : الصبر مطية لا تكبو .

• وقال الحسن : الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده .

• وقال عمر بن عبد العزيز : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه .

• وقال ميمون بن مهران : ما نال أحد شيئاً من ختم الخير فما دونه إلا بالصبر .

• وقال سليمان بن القاسم : كل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، قال : كالماء المنهمر .

• وقال عمر بن الخطاب ﷺ : لو كان الصبر والشكر بعيرين لم

أبال أيهما ركبت .

• وكان محمد بن شبرمة إذا نزل به بلاء قال : سحابة صيف ثم تنقشع .

• وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤] لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوساً ، وقيل للأحنف بن قيس : ما الحلم ؟ قال : أن تصبر على ما تكره قليلاً .

• وقدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد ، وكان من أحسن الناس وجهاً ، فدخل على الوليد في ثياب موشاة وله غديرتان وهو يضرب بيده ، فقال الوليد : هكذا تكون فتيان قريش! فعانه[١] فخرج من عنده متوسناً ، فوقع في اصطبل الدواب ، فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات ، ثم إن الآكلة وقعت في رجل عروة فبعث إليه الوليد الأطباء فقالوا : إن لم تقطعها سرت إلى باقي الجسد فتهلك ، فعزم على قطعها ، فنشروها بالمنشار ، فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة فغشي عليه ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر ، فأخذها وجعل يقلبها في يده ثم

---

[١] أي أصابه بالعين .

قال : أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضي الله ، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة ، ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين ، فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه ، فجعل يقول : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف :٦٢]، ولم يزد عليه ، ثم قال : لا أدخل المدينة إنما أنا بها بين شامتٍ بنكبة أو حاسدٍ لنعمة ، فمضى إلى قصر بالعقيق فأقام هنالك ، فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة : لا أبا لشانيك ، أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها ، فكشف له عن ركبته ، فقال له عيسى : أما والله ما كنا نعدك للصراع ، قد أبقى الله أكثرك ، عقلك ولسانك وبصرك ويداك وإحدى رجليك ، فقال له : يا عيسى ، ما عزاني أحد مثل ما عزيتني ، ولما أرادوا قطع رجله قالوا له : لو سقيناك شيئاً كيلا تشعر بالوجع ، فقال : إنما ابتلاني ليرى صبري أفأعارض أمره وسئل ابنه هشام : كيف كان أبوك يصنع برجله التي قطعت إذا توضأ ؟ قال : كان يمسح عليها .

• وقال همام عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف :٨٤] قال : كظم على حزن فلم يقل إلا خيراً ، وقال يحيى بن المختار عن الحسن : الكظيم الصبور ، وقال همام

عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي كميد ، أي كمد الحزن .

● وقال الحسن : ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر ، وجرعة غيظ ردها بحلم .

● وقال عبد الله بن المبارك : أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار أن سعيد بن جبير قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر ، فقوله : اعتراف العبد لله بما أصاب منه ، كأنه تفسير لقوله : إنا لله ، فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد ، وقوله : راجياً به ما عند الله ، كأنه تفسير لقوله : وإنا إليه راجعون ، أي نرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة ، وقوله : وقد يجزع الرجل وهو يتجلد ، أي ليس الصبر بالتجلد ، وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور ورد اللسان عن الشكوى ، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر ›› [1] .

● وقال الذهبي في ترجمته لأبي بكر النابلسي : (قال أبو ذر الحافظ : سجنه بنو عبيد ، وصلبوه على السُّنة ، سمعت الدارقطني يذكره ،

---

[1] كل النقولات السابقة من كتاب ((عدة الصابرين)) ص٧٠-٧٢ (باختصار) .

ويبكي ، ويقول : كان يقول ، وهو يُسلخ : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء:٥٨] .

قال أبو الفرج ابن الجوزي : أقام جوهر القائد لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي ، وكان ينزل الأكواخ ، فقاله له : بلغنا أنك قلت : إذا كان مع الرجل عشرة أسهم ، وجب أن يرمي في الروم سهماً ، وفينا تسعة ، قال : ما قلت هذا ، بل قلت : إذا كان معه عشرة أسهم ، وجب أن يرميكم بتسعة ، وأن يرمي العاشر فيكم أيضاً فإنكم غيرتم الملة ، وقتلتم الصالحين ، وادعيتم نور الإلهية ، فشهره ثم ضربه ، ثم أمر يهودياً فسلخه .

قال معمر بن أحمد الصوفي : أخبرني الثقة أن أبا بكر ابن النابلسي **سُلخ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه ، فكان يذكر الله ويصبر حتى بلغ الصدر فرحمه السلاخ ، فوكزه بالسكين موضع قلبه فقضى عليه »**(١) .

• وعن الشعبي ، قال شريح : « إني لأصاب بالمصيبة ، فأحمد الله عليها أربع مرات ، أحمد إذ لم يكن أعظم منها ، وأحمد إذ رزقني الصبر عليها ، وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب ، وأحمد إذ لم

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/١٤٨، ١٤٩ .

يجعلها في ديني))[١] .

• وقال غسان بن المفضل الغلابي : ((حدثني بعض أصحابنا قال : جاء رجل إلى يونس بن عبيد فشكا إليه ضيقاً من حاله ومعاشه واغتماماً بذلك ، فقال : أيسرك ببصرك مئة ألف ؟ قال : لا . قال : فبسمعك ؟ قال : لا . قال فبلسانك ؟ قال : لا . قال : فبعقلك ؟ قال: لا . في خلال ، وذكَّره نعم الله عليه ، ثم قال يونس : أرى لك مئين ألوفاً وأنت تشكو الحاجة))[٢].

• وقال الحسن بن صالح : ((لما احتضر علي بن صالح رفع بصره وقال : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩] ثم خرجت نفسه ، قال : فنظرنا إلى جبينه فإذا ثقب قد وصل إلى جوفه وما علم به أحد من أهله))[٣] .

• عن الربيع بن أبي صالح قال : ((دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحجاج ، فبكى رجل ، فقال سعيد : ما يبكيك ؟ قال :

---

[١] سير أعلام النبلاء ١٠٥/٤ .

[٢] سير أعلام النبلاء ٢٩٢/٦ .

[٣] حلية الأولياء ٣٢٩/٧ .

لما أصابك ، قال : فلا تبك ، كان في علم الله أن يكون هذا ثم تلا: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد:٢٢]))[1].

المسألة العاشرة :

العبد محتاج إلى الصبر في جميع أحواله ولا يستغني عنه إلى الممات؛ لأنه إما يكون في أمر يجب عليه امتثاله أو نهي يجب عليه اجتنابه ،أو مصيبة تجري عليه ، أو نعمة يجب شكر المنعم عليها وعدم البطر والكبر والاغترار بها ، ولما كان العبد لا يستغني عن الصبر في جميع أحواله جاء الأمر به والتواصي به بعد التواصي بالحق ، لأنه لا قيام بالحق إلا به ، ولأنه لا نجاة من الخسران في الدنيا والآخرة إلا به ، وإذا كان الناس بعامة لا يستغنون عن الصبر فإن الدعاة منهم والمجاهدين الذين هم أكثر عرضة للمصائب والمحن والابتلاءات أحوج من غيرهم إلى التواصي بالصبر على الحق الذي يحملونه ويدعون الناس إليه ؛ لأنه زادهم في طريق الدعوة والجهاد المليء بالعقبات والمشاق والتضحيات ، ويذكر سيد قطب رحمه الله تعالى بعض هذه العوائق والعقبات التي يجب على الدعاة والمجاهدين أن يوصي بعضهم بعضاً بالصبر عليها

---

[1] سير أعلام النبلاء (٣٣٧/٤) .

فيقول : « الصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة ؛ إنه طريق طويل شاق حافل بالعقبات والإيذاء والابتلاء ، إنه الصبر على أشياء كثيرة ، الصبر على شهوات النفس ورغباتها وأطماعها ومطامحها وضعفها ونقصها وعجلتها وملاها من قريب ، والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم وانحراف طباعهم وأثرتهم وغرورهم ، والتوائهم واستعجالهم للثمار ، والصبر على تنفش الباطل ووقاحة الطغيان ، وانتفاش الشر ، وغلبة الشهوة وتصعير الغرور والخيلاء ، والصبر على قلة الناصر وضعف المعين ، وطول الطريق ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق ، والصبر على مرارة الجهاد ، لهذا كله وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة من الألم والغيظ والحنق والضيق ، وضعف الثقة أحياناً في الخير ، وقلة الرجاء أحياناً في الفطرة البشرية ، والملل واليأس أحياناً والقنوط ، والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والغلبة والانتصار ، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر ، وبدون خيلاء ، والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله واستسلام لقدره ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع »[1] .أ.هـ.

---

(1) طريق الدعوة في ظلال القرآن ص١٩٨ .

ويتحدث في سورة العصر عن التواصي بالصبر وضرورته للدعاة فيقول : « والتواصي بالصبر كذلك ضرورة ، فالقيام على الإيمان والعمل الصالح وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة ، ولا بد من الصبر على جهاد النفس وجهاد الغير ، والصبر على الأذى والمشقة والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر ، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ، وانطماس المعالم وبُعد النهاية ، والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف ووحدة المتجه وتساند الجميع ، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار ، إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا يعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها ، ولا تبرز إلا من خلالها وإلا فهو الخسران والضياع ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر:١-٣] فالصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة ، والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته ؛ درجة تماسك الجماعة المؤمنة وتواصيها على معاني الصبر وتعاونها على تكاليف الإيمان ، فهي أعضاء متجاوبة الحس ، تشعر جميعاً شعوراً واحداً بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه ، فيوصي بعضها بعضاً فلا

تتخاذل ، ويقوي بعضها بعضاً فلا تنهزم ، وهذا أمر غير الصبر الفردي))[1].أ.هـ.

ويقول في موطن آخر عند قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف:٣٥] : ((توجيه يقال لمحمد ﷺ وهو الذي احتمل وعانى من قومه ما عانى ، وهو الذي نشأ يتيماً وجرد من الولي والحامي ومن كل أسباب الأرض واحداً بعد واحد ، الأب ، والأم ، والجد ، والعم ، والزوج الوفية الحنون ، وخلص لله ولدعوته مجرداً من كل شاغل ، كما هو مجرد من كل سند وظهير من الخلق ، وهو الذي لقي من أقاربه المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين ، وهو الذي خرج مرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرُدّ في كل مرة بلا نصرة ، وفي بعض المرات باستهزاء السفهاء ورجمهم له بالحجارة حتى تدمى قدماه الطاهرتان ، فما يزيد على أن يتوجه إلى ربه بذلك الابتهال الخاشع النبيل .

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه ربه : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ ألا إنه لطريق شاق طريق هذه الدعوة ، وطريق مرير حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ﷺ في تجردها

---

[1] طريق الدعوة في ظلال القرآن ٢٠٨.

وانقطاعها للدعوة ، وفي ثباتها وصلابتها ، وفي صفائها وشفافيتها ، تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين))[1].أ.هـ.

المسالة الحادية عشرة :

ومن التواصي بالصبر تسلية المصابين ، وتعزية من مات له ميت، وتخفيف مصابه ، وتذكيره بآيات الصبر واحتساب الأجر من الله عز وجل ؛ كل ذلك داخل في التواصي بالصبر ، وقد جاءت السنة بالوصية بالمرضى وزيارتهم والدعاء لهم وتذكيرهم بفضل الصبر وما أعد الله للصابرين كما جاءت بالحث على تعزية المصابين في أهليهم وتوصيتهم بالصبر ورجاء الثواب عند الله عز وجل ، كل ذلك يدخل في التواصي بالصبر المذكور في السورة .

وفيما يلي ذكر بعض هذه الآثار التي تحث على زيارة المرض وتعزية أهل المصائب :

١ - عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((**حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة**

---

[1] في ظلال القرآن ٣٢٧٦/٦ .

الدعوة ، وتشميت العاطس))[١].

٢- عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يُعَوِّذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول : ((**اللهم رب الناس ، أذهب الباس ، اشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً**))[٢].

٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده وكان إذا دخل على من يعوده قال : ((**لا بأس طهور إن شاء الله**))[٣].

٤- عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلِفْ لي خيراً منها . إلا أجره الله تعالى في مصيبته وأخلف له خيراً منها**)) **قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه : رسول الله ﷺ**))[٤].

٥- عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : أرسلت إحدى بنات

---

[١] البخاري ك . في الجنائز ، باب الأمر باتباع الجنائز (١٢٤٠) ، مسلم في السلام (٢١٦٢) .

[٢] البخاري ك . الطب ، باب رقية النبي ﷺ (٥٧٤٣)، مسلم في السلام (٢١٩١) .

[٣] البخاري ك . المرض ، باب عيادة الأعراب (٥٦٥٦).

[٤] مسلم ك . الجنائز (٩١٨) .

النبي ﷺ إليه تدعوه وتخبره أن صبياً لها ـ أو ابناً ـ في الموت فقال الرسول : « **ارجع إليها فأخبرها أن لله تعالى ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب** »[1].

٦- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة** »[2] .

المسألة الثانية عشرة :

التواصي بالصبر لا يكون لأهل المصائب فقط ، وإنما أهل النعم والغنى وأهل الخير هم أحوج من غيرهم إلى الوصية بالصبر وشكر النعم حتى لا يبطروا ويطغوا ؛ فالله عز وجل يقول : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥] وكثير من الناس يصبر على الشدائد والمصائب وفتنة الضراء ، ولكن القليل منهم من يصبر على فتنة السراء والخير والرخاء والسبب في ذلك ـ والله أعلم ـ أن المصاب بأمر يكرهه يعلم ويحس بأنه مصاب ، وكذلك الناس من حوله يحسون بمصابه فيواسونه ويوصونه بالصبر ، وهو كذلك يستنفر

---

[1] البخاري .ك الجنائز ، مسلم (٩٢٣) .

[2] البخاري .ك الرقاق ، باب العمل الذي يبتغى به وجه الله (٦٤٢٤).

قواه الكامنة من الإيمان واللجوء إلى الله عز وجل والصبر وشجاعة القلب في مواجهة المصيبة ، أما أهل الرخاء والسراء فلا يشعرون بأنهم مبتلون ومفتنون ، والناس من حولهم لا يحسون كذلك ؛ فلذا تمضي فيهم الفتنة وهم في حالة من الاسترخاء وعدم الاستعداد لمقاومتها وبذلك يكثر المتساقطون في فتنة السراء ، لذا فالتواصي بالصبر ينبغي أن يكون معهم كما هو الحال في التواصي مع أهل المصائب ، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : (وكل ما يلقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين : أحدهما يوافق هواه ومراده ، والآخر مخالفه .

وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما ؛ أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة ، وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه :

أحدها : أن لا يركن إليها ولا يغتر بها ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله .

الثاني : أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها فإنها تنقلب إلى أضدادها ، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده وحرم الأكل والشرب والجماع .

الثالث : أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها .

الرابع : أن يصبر عن صرفها في الحرام ، فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منها فإنها توقعه في الحرام ، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون ؛ قال بعض السلف : « البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر ، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون » وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ : « ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر » ، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [المنافقون:٩] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴾ [التغابن:١٤] وإنما كان الصبر على السراء شديداً لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها »[1] .أ.هـ.

المسألة الثالثة عشرة :

من التواصي بالصبر التواصي بترك ما يضاده ، والتحذير مما يقدح فيه من التشكي واليأس من رحمة الله تعالى والجزع والتسخط وشق

---

(١) عدة الصابرين ص٤٦ .

الجيوب ولطم الخدود ، ويفصل القول في هذه القوادح الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : « لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله ، والقلب عن التسخط ، والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها كان ما يضاده واقعاً على هذه الجملة ، فمنه الشكوى إلى المخلوق ، فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه ، ولا تضاده الشكوى إلى الله كما تقدم في شكاية يعقوب عليه السلام إلى الله مع قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وأما إخباره المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرر لم يقدح ذلك في الصبر كإخبار المريض للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله ، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه.

وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول **كيف تجدك** ؟ وهذا استخبار منه واستعلام بحاله ، وأما الأنين فهل يقدح في الصبر ؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد ؛ قال أبو الحسين : أصحهما الكراهة ؛ لما روى عن طاووس أنه كان يكره الأنين في المرض وقال مجاهد : كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم حتى أنينه في مرضه ، قال هؤلاء : وإن الأنين شكوى بلسان الحال فينافي

الصبر ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد : قال لي أبي في مرضه الذي توفي فيه : أخرج إلي كتاب عبد الله بن إدريس ، فأخرجت الكتاب ، فقال : أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم ، فأخرجت أحاديث ليث ، قال : اقرأ عليَّ أحاديث ليث ، قال : قلت لطلحة : إن طاووس كان يكره الأنين في المرض فما سمع له أنين حتى مات ، فما سمعت أبي أنَّ في مرضه ذلك إلى أن توفي ، والرواية الثانية أنه لا يكره ولا يقدح في الصبر ، قال بكر بن محمد عن أبيه : سئل أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع فقال تعرف فيه شيئاً عن رسول الله ﷺ ، قال نعم حديث عائشة وارأساه وجعل يستحسنه ، وقال المروذي دخلت على أبي عبد الله وهو مريض فسألته فتغرغرت عيناه وجعل يخبرني ما مر به في ليلته من العلة .

والتحقيق أن الأنين على قسمين : أنين شكوى فيكره ، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره ، والله أعلم .

وقد روي في أثر أن المريض إذا بدأ بحمد الله ثم أخبر بحاله لم يكن شكوى ، وقال شقيق البلخي : من شكى من مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبداً .

والشكوى نوعان : شكوى بلسان المقال ، وشكوى بلسان الحال ولعلها أعظمها ، ولهذا أمر النبي ﷺ من أنعم عليه أن يظهر نعمة الله عليه

وأعظم من ذلك من يشتكي ربه وهو بخير ؛ فهذا أمقت الخلق عند ربه قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا كهمس عن عبد الله بن شقيق قال : قال كعب الأحبار : إن من حسن العمل سبحة الحديث ، ومن شر العمل التحذيف ، قيل لعبد الله : ما سبحة الحديث ؟ قال سبحان الله وبحمده في خلال الحديث ، قيل فما التحذيف ؟ قال : يصبح الناس بخير فيسألون فيزعمون أنهم بشر .

ومما ينافي الصبر شق الثياب عند المصيبة ولطم الوجه والضرب بإحدى اليدين على الأخرى وحلق الشعر والدعاء بالويل ، ولهذا برئ النبي ﷺ ممن صلق وحلق وخرق ؛ صلق : رفع صوته عند المصيبة ، وحلق رأسه وشق ثيابه ، ولا ينافيه البكاء والحزن ، قال الله تعالى عن يعقوب عليه السلام : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٨٤]

قال قتادة : كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيراً .

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : ((**ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان**))[1].

---

[1] أخرجه أحمد (١/٣٣٥) ، وعلي بن زيد قال الحافظ : ضعيف ، وفي بعض طرق الحديث زيادة أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس وفاطمة على شفير القبر وقد ذكرها =

وقال هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حسان بن أبي جبلة قال : قال رسول الله ﷺ : ((**من بث لم يصبر**))[١].

وقال خالد بن أبي عثمان : مات ابن لي فرآني سعيد بن جبير متقنعاً فقال : إياك والتقنيع فإنه من الاستكانة ، وقال بكر بن عبد الله المزني : كان يقال من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة وقال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ولكن الجزع القول السيء والظن السيء ، وسئل القاسم بن محمد عن الجزع فقال : القول السيء والظن السيء ... ويضاد الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة والمنع عند ورود النعمة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ ﴾ [المعارج:١٩-٢١] وهذا تفسير الهلوع قال الجوهري : الهلع أفحش الجزع وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع ، وفي الحديث : ((**شر ما في العبد شح هالع ، وجبن خالع**))[٢].

= الذهبي في الميزان (٢٢٥/٢) في ترجمة علي بن زيد ثم قال : هذا حديث منكر فيه شهود فاطمة الدفن ولا يصح " وحمله الشيخ أحمد شاكر على ما قبل النهي عن زيارة النساء المقابر وصحح إسناد الحديث . انظر تعليقه على المسند (ح٣١٠٣) .

[١] أخرجه السيوطي في الدر المنثور .

[٢] أحمد (٣٠٢/٢، ٣٢٠) ، وأبو داود (٢٥١١) ك . الجهاد باب في الجرأة والجبن من =

وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها ، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها ، وأذا أصابه القهر أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعاً ، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية ، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعاً ، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح ، فلا احتمال ولا إفضال ، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها في البدن وإخفائها وتحقيرها والله المستعان))[1].أ.هـ.

المسألة الرابعة عشرة :

ومن الأمور التي يجب التواصي بالصبر عليها **التواصي بالصبر عند الغضب** ؛ فكما أن التواصي يكون بالصبر على المصائب حتى لا تجزع النفوس وتضعف ، فكذلك ينبغي التواصي بالصبر عند الغضب حتى لا يحصل التهور والاندفاع الذي لا تحمد عقباه ، ولا يستطيع المرء أن يملك نفسه عند الغضب إلا بالصبر والحلم وهذا هو الشديد على الحقيقة كما قال الرسول ﷺ : ((**ليس الشديد بالصُّرَعَة ولكن الشديد**

= حديث أبي هريرة ﷺ وصححه أحمد شاكر في المسند .ط. المعارف (١٥/١٦٤) ، وصححه الألباني (٥٦٠) .

[1] عدة الصابرين ص٩٢-٩٥ (مختصراً) .

من يملك نفسه عند الغضب))[١].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : ((والصبر صبران : صبر عند الغضب ، وصبر عند المصيبة كما قال الحسن رحمه الله تعالى : ((**ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب ، وجرعة صبر عند المصيبة**)) وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم ، وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم ، والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه أثار الغضب ، وإن كان مما لا يمكن دفعه أثار الحزن ، ولهذا يحمرُّ الوجه عند الغضب لثوارن الدم عند استشعار القدرة ، ويصفرُ عند الحزن لغور الدم عند استشعار العجز .

ولهذا جمع النبيﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عبد الله ابن مسعود ﷺ قال : قال النبيﷺ : ((**ما تعدون الرقوب فيكم ؟**)) قالوا : الرقوب الذي لا يُولد له ، قال : ((**ليس ذاك بالرقوب، ولكن الرقوب الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئاً**)) ، ثم قال : ((**ما تعدون الصرعة فيكم ؟**)) قلنا : الذي لا يصرعه الرجال ، فقال : ((**ليس بذلك ، ولكن الصرعة الذي يملك نفسه عند الغضب**))[٢].

---

[١] أخرجه البخاري ك . الأدب باب الحذر من الغضب (٦١١٤) ، ومسلم في البر من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة .

[٢] مسلم ك . البر والصلة ، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٨) .

فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة والصبر عند الغضب .

قال الله تعالى في المصيبة : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦] وقال تعالى في الغضب : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت:٣٥] .

وهذا الجمع بين صبر المصيبة وصبر الغضب نظير الجمع بين صبر المصيبة وصبر النعمة ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [هود:٩-١١]))[1].أ.هـ.

---

[1] الاستقامة تحقيق " محمد رشاد سالم " ٢/٢٧٢-٢٧٤ .

وقفة أخيرة في السورة

بعد هذه الدراسة التفصيلية لهذه السورة الجليلة يبقى الكلام في مسألة مهمة برزت من خلال هذه السورة لم تأخذ حظها من البحث مع مسيس الحاجة إليها وتكمن أهميتها في علاقتها بالدعوة والدعاة والمنهج الصحيح الذي به يحصل التغيير والتمكين .

فلقد رسمت هذه السورة أصول النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وقد تم تفصيل ذلك كله فيما سبق من مباحث هذه الرسالة ، وكان التركيز في تلك المباحث على نجاة الفرد والمجتمعات من الخسران عندما تتصف بصفات النجاة المذكورة في السورة ، ولكن ما أثر هذه الصفات وجوداً وعدماً على نجاح الدعاة والمصلحين وفلاحهم في سعيهم لهداية الناس والتمكين لدين الله عز وجل في الأرض ؟

إن الأصول الأربعة المذكورة في هذه السورة للنجاة من الخسران وتحصيل الفلاح في الدنيا والآخرة لهي نفسها الأصول الكبرى التي لا بد منها لنجاح أي دعوة تسعى لإصلاح الأمة والتمكين لدينها في الأرض وبدونها تخسر الدعوة طريقها ولا تتحقق لها أهدافها ، وبيان ذلك أن يقال : إن التمكين والنصر لدين الله عز وجل يتطلب أن ينطلق أصحاب الدعوة من الثوابت والأصول والسنن الربانية التي بينها

الله سبحانه في كتابه وجعلها أصولاً للتغيير والنصر والتمكين وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد:٧] وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور:٥٥] وقوله تعالى في سورة العصر : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر:٢-٣] .

هذه هي أصول التمكين والنصر كما وضحتها الآيات السابقة : الإيمان والعمل الصالح وعبادة الله عز وجل وحده لا شريك له والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وبدون هذه الأصول يخسر المصلحون دعوتهم ويتأخر نصر الله عز وجل عنهم .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره لآية النور : « هذا من وعوده الصادقة ، التي شوهد تأويلها ومخبرها ؛ فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض ، فيكونون هم الخلفاء فيها ، المتصرفين في تدبيرها ، وأن يُمكن لهم

دينهم الذي ارتضى لهم ، وهو دين الإسلام ، الذي فاق الأديان كلها وارتضاه لهذه الأمة ، لفضلها وشرفها ونعمته عليها ، بأن يتمكنوا من إقامته ، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة ؛ في أنفسهم وفي غيرهم ؛ لكون غيرهم من أهل الأديان ، وسائر الكفار ، مغلوبين ذليلين ، وأنه يبدلهم أمناً من بعد خوفهم ، حيث كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه ، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار ، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً ، بالنسبة إلى غيرهم ، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة ، وبغوا لهم الغوائل .

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية ، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض ، والتمكين فيها ، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي ، والأمن التام ، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً ، ولا يخافون أحداً إلا الله ، فقام صدر هذه الأمة من الإيمان والعمل الصالح بما يفوق على غيرهم .

فمكنهم من البلاد والعباد ، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها ، وحصل الأمن التام ، والتمكين التام ، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة .

ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة ، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح

فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله ، وإنما يسلط الله عليهم الكفار والمنافقين ، ويُديلُهم في بعض الأحيان بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح .

﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ التمكين والسلطنة التامة لكم يامعشر المسلمين ، (فأولئك هم الفاسقون) الذين خرجوا عن طاعة الله ، وفسدوا ، فلم يصلحوا لصالح ، ولم يكن فيهم أهلية للخير ، لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره ، وعدم وجود الأسباب المانعة منه يدل على فساد نيته وخبث طويته ، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك))[1].أ.هـ.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية : ((ذلك وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد ﷺ أن يستخلفهم في الأرض ، وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، ذلك وعد الله ووعد الله حق ، ووعد الله واقع ، ولن يخلف الله وعده ، فما حقيقة ذلك الإيمان ؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف ؟

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق

---

[1] تفسير السعدي ٤١٣/٣ .

النشاط الإنساني كله ، وتوجه النشاط الإنساني كله ؛ فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله ؛ لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله ، وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى في النفس ، ولا شهوة في القلب ، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله .

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله ، بخواطر نفسه ، وخلجات قلبه ، وأشواق روحه ، وميول فطرته ، وحركات جسمه ، ولفتات جوارحه ، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعاً ، يتوجه بهذا كله إلى الله ، يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ﴾ والشرك مداخل وأنواع ، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله .

ذلك الإيمان منهج حياة كامل ، يتضمن كل ما أمر الله به ، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب ، وإعداد العدة ، والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض ؛ أمانة الاستخلاف... ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ الخارجون على شرط الله ،

ووعد الله ، وعهد الله ، لقد تحقق وعد الله مرة ، وظل متحققاً وواقعاً ما قام المسلمون على شرط الله : ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ لا من الآلهة ولا من الشهوات ، ويؤمنون ـ من الإيمان ـ ويعملون صالحاً ووعد الله مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة ، إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن ، لتخلف شرط الله في جانب من جوانبه الفسيحة ، أو في تكليف من تكاليفه الضخمة ، حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء ، وجازت الابتلاء ، وخافت فطلبت الأمن ، وذلت فطلبت العزة ، وتخلفت فطلبت الاستخلاف ـ كل ذلك بوسائله التي أرادها الله ، وبشروطه التي قررها الله ـ تحقق وعد الله الذي لا يتخلف ، ولا تقف في طريقه قوة من قوى الأرض جميعاً))[1] .أ.هـ.

وبالتأمل في آية النور وسورة العصر نجد بينهما تطابقاً في تحديد أصول التمكين والفوز والنصر على الأعداء ؛ فآية النور حددت الإيمان والعمل الصالح وعبادة الله وحده لا شريك له أصولاً للتمكين والاستخلاف في الأرض واستتباب الأمن ، وكذلك سورة العصر أيضاً حددت أصول الفوز والنجاة على مستوى الفرد والجماعات وأنها

---

[1] في ظلال القرآن ٤/٢٥٢٨-٢٥٣٠ (باختصار) .

الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وهذان الأصلان الأخيران وإن كانا لم يذكرا في سورة النور إلا أن التواصي بالحق والتواصي بالصبر هما من الأعمال الصالحة ؛ فإذا أُطلق العمل الصالح كما في سورة النور دخل فيه التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وإفرادهما بالذكر كما في سورة العصر يدل على أهميتهما والتنبيه على اشتراطهما في بقاء الإيمان والعمل الصالح في نفوس أهله ، وإبلاغه للناس كافة حتى يكون الدين كله لله تعالى .

ويمكن تلخيص أصول النصر والتمكين من خلال سورة العصر في التالي :

١- العلم بالحق .
٢- العمل به .
٣- الدعوة إليه والتواصي به .
٤- الصبر على تكاليفه والتواصي على ذلك .

وتفصيل ذلك فيما يلي :

١- الإيمان : (العلم بالحق) :

أي أن يتحقق في القائمين بأمر هذا الدين ، الإيمان الصحيح بالله عز وجل، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر على

النحو الذي تم تفصيله في أول البحث وذلك بالفهم الصحيح الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان ، كما يقتضي ذلك العلم بحقيقة الشرك والكفر والنواقض التي تنقض الإيمان واستبانة سبيل المجرمين ، ويمكن تسمية هذا الأصل بالبصيرة في الدين وصحة الفهم والمعتقد ، وعندما يحصل الخلل في الإيمان وصحة المعتقد .

فإن هذا بدوره يضعف الدعوة ويخسر الدعاة جهودهم ، ويتخلف نصر الله عز وجل أو يتأخر حسب قوة الخلل وضعفه .

٢- العمل الصالح : (العمل بالحق) :

وهذا هو الأصل الثاني وهو ثمرة الإيمان والبصيرة في الدين إذ لا معنى للإيمان بدون ثماره من الأعمال الصالحة ، وقد سبق تعريف العمل الصالح وأنه هو الذي يقوم على شروط ثلاثة بدونها لا يسمى العمل صالحاً وهي : المتابعة للرسول ﷺ وعدم الابتداع ، وإرادة وجه الله عز وجل والدار الآخرة ، وصحة الإيمان والمعتقد ؛ وكلما كان القائمون على أمر الدعوة والجهاد على مستوى من الأعمال الصالحة الواجبة والمستحبة ، وتاركين للمحرمات بأنواعها مبتغين بذلك وجه الله عز وجل ومتبعين فيها الرسول ﷺ كلما كانوا أقرب لنصر الله عز وجل وتمكينه لهم .

٣- الدعوة إلى الحق والتواصي به :

وذلك ببذل الوسع في دعوة الناس إلى الإيمان والعمل الصالح والتواصي به على ذلك ؛ لأن نصر الله عز وجل لا ينزل إلا على القوم المصلحين الذين أصلحوا أنفسهم وبذلوا الجهد في إصلاح غيرهم ؛ فمثل هؤلاء هم الذين يمكن لهم ويدفع الله العقوبة عن الناس بسببهم ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود:١١٧] ولم يقل : (صالحون) ، وهذا الإصلاح لا يتأتى إلا بالتواصي والتعاون بين القائمين على الدعوة ، وتنسيق الجهود ، وتوزيع المهمات بينهم ، وبذل الجهد في تربية أنفسهم والمدعوين على الفهم الصحيح والقصد الصحيح والعمل الصالح المحبوب لله عز وجل ، وهذا كله يحتاج إلى جهد كبير وتضافر بين العاملين في حقل الدعوة والإصلاح، بل يحتاج إلى تضحيات وسهر وتعب وجهود مضنية توضح للناس الحق وتحذرهم من الباطل وأهله وتقف في وجه الفساد والمفسدين ؛ وهذا يتطلب من الدعاة قوة باطنة مصدرها الإيمان والفهم الصحيح والإخلاص والقصد الصحيح وقوة ظاهرة تقوم على الأخذ بالأسباب المشروعة وبذل الوسع في توظيفها لصالح الدعوة وتبليغ الحق للناس وتربيتهم عليه حتى يصلب عود الدعوة ويعرفها الناس وتظهر آثارها فيهم ، وبعد ذلك يُنتظر نصر الله

عز وجل وفرجه ؛ وهذا لا يتأتى إلا بصدق التوكل عليه سبحانه والاستعانة به وحده والإيمان الجازم بأنه وحده سبحانه الذي بيده النصر والتوفيق ، وأنه لو وكل عباده إلى أنفسهم والأسباب التي في أيديهم لضاعوا وهلكوا وخسروا ؛ ولذلك فلا يجوز بحال أن يغفل عن هذا الأمر المهم من أعمال القلوب لأنه أساس في نزول نصر الله عز وجل وتسخير الله تعالى جنود السموات والأرض لعباده المصلحين إذا وصلوا إلى هذا المستوى من الإيمان والاخلاص والعمل الصالح وبذل ما في الوسع في الدعوة والإصلاح وابتغاء وجه الله تعالى والدار الآخرة في ذلك كله .

وإن من أهم ما يتواصى به أهل الحق ويعد شرطاً في النصر والتمكين هو وحدة الصف واجتماع الكلمة ، ونبذ الفرقة والحزبية المقيتة ؛ إذ إن نصر الله عز وجل وتأييده لا ينزل على صف متفرق متنازع لدلالة ذلك على وجود الهوى وحظ النفس ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦] ونظراً لأن الدعوة إلى الحق والتواصي به ونشره بين الناس تكتنفه المشاق والمكاره والعقبات والابتلاءات ؛ فقد جاء الأمر بالأصل الرابع من أصول النصر والتمكين وبدونه يضعف الحق وأهله

ألا وهو :

٤- التواصي بالصبر :

إن الصبر والتواصي به أساس في العمل بالحق والدعوة إليه وأساس في التمكين لأهل الحق ونزول نصر الله عز وجل عليهم إذ إن طريق الدعوة إلى الله عز وجل وإلى دينه الحق تعترضه الابتلاءات والتمحيص وتمييز الصفوف فإذا لم يوجد الصبر الذي يواجه به تكاليف إقامة الحق ويواجه به أنواع الابتلاءات والفتن التي يتعرض لها دعاة الحق فإن نصر الله عز وجل بعيد لعدم وجود القاعدة الصلبة التي استعلت على الابتلاءات وأخذت بأسباب الصبر والثبات ، والعكس من ذلك إذا وجد الصبر والتواصي به ، وتميز الصابرون والمؤمنون حقاً عن المنافقين وضعاف الإيمان ، وبذل الصابرون ما في وسعهم من الجهد والجهاد والأخذ بالأسباب فعندها ينزل نصر الله عز وجل ويهيء الله سبحانه لأوليائه أسبابه ويسخر لهم ما يشاء من جنود السموات والأرض ، ولكن أين الذين يسخر الله تعالى لهم ذلك كله ؟ نسأل الله تعالى أن نكون منهم .

الخـــاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبنعمته وتوفيقه منَّ عليَّ بإنهاء هذه الدراسة الهامة لهذه السورة العظيمة وما فيها من الدروس والوقفات المهمة التي اشتملت على بيان أصول النجاة من الخسران في الدنيا والآخرة ، كما اشتملت على ذكر بعض الوقفات التربوية المتعلقة بهذه الأصول ، ويحسن في خاتمة هذا البحث تلخيص أهم المسائل والوقفات التي وردت في مباحثه ، وذلك من خلال النقاط التالية :

الأولى :

تبين لنا من هذه الدراسة أهمية سورة العصر وما اشتملت عليه من الأصول الأربعة للنجاة في الدنيا والآخرة وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر . ولذا قال الشافعي رحمه الله تعالى : (لو فكر الناس في هذه السورة لوسعتهم) ، وجاء عن بعض أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا لا يتفرقون إذا لقي بعضهم بعضاً حتى يقرأوا سورة العصر وما ذلك إلا لما اشتملت عليه من الوصايا العظيمة .

الثانية :

تبين لنا من إقسام الله عز وجل بالعصر أهمية العصر وهو الدهر الناشئ عن تعاقب الليل والنهار وأن عمر الإنسان وحياته تنصرم بمرور الوقت وأن العبد إذا لم يملأ هذا الوقت الذي هو حياته ورأس ماله بما ينجيه من عذاب الله عز وجل فإنه خاسر هالك وقد مر بنا في تفسير كلمة العصر أهمية الوقت في حياة المسلم وكيف كانت حياة سلفنا الصالح في حفظ أوقاتهم وعمارتها بما ينفعهم في الدار الآخرة وينجيهم من عذاب الله عز وجل .

الثالثة :

تبين لنا نوع الخسران الذي يلحق بالعبد إذا لم يأت بأصول النجاة المذكورة في السورة وذلك أن الخسر خسران :

١- الخسر المطلق ٢- ومطلق الخسر .

فمن لم يأت بهذه الأصول الأربعة أو لم يأت بأصل الإيمان ولا جنس العمل الصالح فهو الخاسر خسراً مطلقاً ومن الخالدين في النار .

أما من أتى بالإيمان وجنس العمل الصالح ولكن لم يتصف بالتواصي بالحق ولا بالتواصي بالصبر فإن خسره من جنس مطلق الخسران الذي لا يخرجه من الإيمان ولا يخلده في النار ولو عًذب بسبب

هذا الخسران فإنه يؤول إلى الجنة في نهاية الأمر .

كما تبين لنا في مقابل ذلك أسباب الربح والنجاة وأن كملهما لا يتحقق إلا عند من أتى بصفات الناجين الأربعة المذكورة في السورة فمن كملها في نفسه بالإيمان والعمل الصالح وكملها بدعوة غيره بأن تواصى بالحق وتواصى بالصبر فقد حصل له الربح المطلق والنجاة التامة من عذاب الله تعالى ، ومن لم يكملهما لم يكمل له الربح والنجاة وإنما ينقص عليه من ذلك حسب ما تخلف عنده من هذه الصفات .

الرابعة :

تبين لنا معنى الإيمان المطلوب في هذه السورة وأن المقصود به أصوله الستة في آية النساء وحديث جبريل عليه السلام وهي : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .

كما اتضح لنا تفاصيل الإيمان بكل أصل من هذه الأصول وآثار الإيمان به ونواقضه التي من تلبس بها فقد انتقض إيمانه بهذا الأصل وبالتالي انتقض الإيمان من أصله .

كما تم التطرق لحقيقة الإيمان ومعناه عند أهل السنة والجماعة وأنه قول وعمل وأن هذه العقيدة وسط بين المرجئة الذين لا يرون العمل من الإيمان ، وبين الخوارج الذين يُكَفِّرون مرتكب الكبيرة ويحكمون

عليه بالخلود بسببها في النار لو مات منها بدون توبة ، كما اتضح لنا في مقابل ذلك معنى الكفر وأقسامه وحدوده .

الخامسة :

تبين لنا معنى العمل الصالح الذي هو الأصل الثاني من أصول النجاة وأنه يقوم على ثلاثة أسس :

١- الإيمان ويضاده الشرك .

٢- الإخلاص ويضاده الرياء .

٣- المتابعة للرسول ﷺ ويضادها الابتداع والتعبد بما لم يأذن به الله عز وجل ، فلو تخلف في أي عمل واحد من هذه الشروط فلا يعد صالحاً .

كما تبين لنا في العمل الصالح أفضله وأحبه إلى الله عز وجل ، وأثر العمل الصالح في دخول الجنة وأنه سبب في رحمة الله عبده ورضاه عنه وليس عوضاً ومقابلاً للجنة .

كما تبين أن على القلب واللسان والجوارح أعمالاً صالحة وعبوديات واجبة ومستحبة سبق تفصيلها في مباحث الرسالة .

كما تبين لنا ثمار العمل الصالح وبركته في الدنيا والآخرة .

السادسة :

تم تفصيل القول في معنى الحق وما معنى التواصي به وما أثره في النجاة من الخسران في الدنيا والآخرة ، كما تم الحديث عن عدة مسائل مهمة تتفرع من التواصي بالحق .

منها : أن أصول النجاة المذكورة في السورة تنطلق كلها من الحق وتدور عليه ؛ فهي علم بالحق (وهو الإيمان) ، وعمل بالحق وهو (العمل الصالح) ، ودعوة إلى الحق وهو (التواصي بالحق) ، وصبر على الدعوة إلى الحق وهو (التواصي بالصبر) .

كما ظهر لنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى هو أصل التواصي بالحق كما تبين لنا من كلمة التواصي مشقة لزوم الحق والثبات عليه وأن في طريقه من العوائق ما يحتاج إلى التواصي والتكاتف .

السابعة :

تبين لنا من قوله تعالى :﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ أهمية الجماعة والتعاون على البر والتقوى وأن الحق لا ينتشر ويسود بين الناس إلا بجماعة تبذل الجهود المشتركة في تعلمه وتعليمه ونشره بين الناس والصبر على تكاليفه ، وهذا لا يتم إلا بالتواصي والتعاون على ذلك كله .

الثامنة :

تبين لنا من قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ أثر الصبر في الثبات على الحق علماً وعملاً ودعوة إليه ، وأن ذلك كله لا يتم إلا بتواصي أهل الحق على الصبر والثبات عليه ، وقد تم إفراد بعض المسائل المهمة والمتعلقة بالتواصي بالصبر .

ومنها تفصيل القول فيما يعين على الصبر ، وما هو الصبر النافع لصاحبه في الدنيا والآخرة ، وما هي الأمور التي تضاد الصبر وما هي الأمور التي يُتواصى بالصبر عليها ، ومدى حاجة الدعاة والمجاهدين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر للصبر والتواصي عليه ، كما تم ذكر بعض الآيات والأحاديث وآثار السلف ومواقفهم والتي فيها الحث على الصبر والتواصي عليه ، مع مسائل أخرى لها علاقة بالتواصي بالصبر .

الوقفة الأخيرة :

ترسم هذه السورة الكريمة أصول محاسبة النفس ومراقبتها وذلك بعرض العبد نفسه على هذه السورة ومدى قربه وبعده من صفات أهل النجاة المذكورة فيها .

ومن خلال ما سبق من تحديد أصول النجاة يتبين لنا أصول المحاسبة التي لا بد أن يعرض العبد نفسه عليها ويحاسبها عليه وذلك كما يلي :

١- محاسبة النفس في مدى علمها بالحق وفهمها له وإيمانها بأصول الإيمان الستة كما جاء عن رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام .

٢- محاسبة النفس في مدى عملها بالحق وامتثالها لما أمر الله عز وجل به وانتهائها عما نهى عنه من ظلم النفس والعباد وما مدى تحقق الإخلاص والمتابعة في ما يقوم به من الأعمال فعلاً وتركاً .

٣- محاسبة النفس في مدى تواصيها بالحق ودعوتها إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاهتمام بأمر الدين .

٤- محاسبة النفس في مدى صبرها وثباتها على الحق علماً وعملاً ودعوة إليه .

وختامـــاً : أسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهل النجاة والفوز المذكورين في هذه السورة الكريمة الذين علموا الحق وعملوا به ودعوا إليه وتواصوا به وتواصوا بالصبر على ذلك كله ، وتأسياً بأصحاب الرسول ﷺ أذكر نفسي وإخواني بآيات هذه السورة العظيمة حيث كانوا يودعون بعضهم بعضاً بها :

أعـــوذ بـــالله مـــن الشـــيطان الرجيـــم . بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الجمعة ٤/١٢/١٤٢٠هـ.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥

المبحث الأول : المعنى المجمل للسورة : ١١

– بيان معنى المقسم والمقسم عليه ١١

– مسائل تتعلق بالسورة :

• مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها ١٣

• في تحقيق نوع الخسران ١٤

• ثلاثة أوجه في فائدة ذكر التواصي بالحق والصبر بعد الإيمان والعمل الصالح ١٧

المبحث الثاني : في مسائل تتعلق بتفسير كلمة (العصر) :

– تحقيق أقوال المفسرين في أنه الدهر والزمان ٢٢

– مناسبة القسم بالعصر لموضوع السورة ٢٥

– في ذكر طرف من مواقف السلف في الحرص على الوقت :

• في معنى حديث ((**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس**)) . ٢٩

• من أقوال الحسن البصري رحمه الله وغيره ٣٠

• موقف ابن الجوزي من زواره ٣٣

• استدلال ابن القيم بقول الله عز وجل :﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ ٣٥

• قول الشيخ السعدي رحمه الله ٣٧

المبحث الثالث في أصول النجاة في هذه السورة ٤٠

الأصل الأول من أصول النجاة (الإيمان)

– مقدمة في :

● معنى الإيمان ومترلته من الأعمال ٤١

● تعريف مسمى الإيمان عند أهل السنة ٤٣

● أشهر تعريفات السلف للإيمان ٤٣

● جمع ابن تيمية بين هذه الأقوال ٤٤

● تنبيه ابن تيمية وابن القيم إلى الفرق بين قول القلب وعمل القلب ٤٦

● وجوب الإقرار باللسان ٤٨

● أعمال الجوارح شطر في الإيمان ٤٩

● احتجاج الأئمة بآية سورة البينة ٤٩

● الإتيان بجنس العمل شرط في صحة الإيمان ٥٠

● الفرق بين أهل السنة وبين المرجئة والخوارج في علاقة العمل بالإيمان ٥١

● تعريف الكفر عند أهل السنة ٥٣

● تنبيه حول اقتران الإسلام بالإيمان ٥٤

تفصيل أركان الإيمان الستة

– الركن الأول : الإيمان بالله عز وجل : ٥٦

– أولاً : الإيمان بوجوده عز وجل ٥٦

• **الدليل العقلي** ٥٦
• الدليل الفطري ٥٨
• الدليل الشرعي ٥٨
– **ثانياً : الإيمان بربوبيته تعالى ومعناه** ٥٩
– **ثالثاً : الإيمان بألوهيته سبحانه** ٦٠
– **رابعاً : الإيمان بأسمائه وصفاته معناه وأصوله** ٦٢
– **من نواقض الإيمان بالله عز وجل :**
• نواقض تتعلق بإنكار الربوبية ٦٤
• نواقض تتعلق بإنكار الألوهية ٦٥
• نواقض تتعلق بإنكار أسمائه وصفاته ٦٦
• الفرق بين إنكار التكذيب وإنكار التأويل ٦٦
• معنى الإلحاد في الأسماء والصفات ٦٧
الركن الثاني الإيمان بالملائكة : ٦٩
– معنى الإيمان بالملائكة ٦٩
– **نواقض الإيمان بالملائكة** ٧٢
– **آثار الإيمان بالملائكة ولوازمه** ٧٢
الركن الثالث الإيمان بالكتب :
– **معنى الإيمان بالكتب** ٧٤
– **كيفية الإيمان بالأخبار التي في الكتب** ٧٤
– **كيفية الإيمان بالكتب بالنسبة للأحكام** ٧٥
– **قول النووي في معنى النصح للقرآن** ٧٦

- من نواقض الإيمان بالكتب ٧٧

- من آثار الإيمان بالكتب ٧٨

الركن الرابع من أركان الإيمان :

الإيمان بالرسل : ٧٩

- معنى الإيمان بالرسل ٧٩

- من لوازم الإيمان برسولنا محمدﷺ ٨٠

- من نواقض الإيمان بالرسل ٨١

الركن الخامس الإيمان باليوم الآخر : ٨٣

- **معناه** ٨٣

- **ما يدخل ضمن الإيمان باليوم الآخر :**

١- فتنة القبر ٨٣

٢- عذاب القبر ونعيمه ٨٤

٣- البعث بعد الموت ٨٥

٤- محاسبة الخلائق على أعمالهم ٨٥

٥- نصب الموازين ٨٦

٦- نشر الكتب ٨٦

٧- الحوض ٨٧

٨- الصراط ٨٧

٩- الشفاعة وأنواعها ٨٧

• إنكار المعتزلة والخوارج للشفاعة العامة ٨٨

• شروط الشفاعة المثبتة ٨٨

١٠- الجنة والنار ٨٩
- من آثار الإيمان باليوم الآخر وثمراته ٩٠
- من نواقض الإيمان باليوم الآخر ٩١
الركن السادس الإيمان بالقدر خيره وشره ٩٤
- معنى الإيمان بالقدر ٩٤
- مراتب الإيمان بالقدر :
• المرتبة الأولى : العلم ومعناه ٩٤
• المرتبة الثانية : الكتابة ومعناها ٩٥
• المرتبة الثالثة : المشيئة ومعناها ٩٦
• المرتبة الرابعة : خلق أفعال العباد ٩٧
- من ثمرات الإيمان بالقدر ١٠٠
- من نواقض الإيمان بالقدر ١٠١
الأصل الثاني من أصول النجاة (العمل الصالح)
- شبهة للمرجئة في فصل الإيمان عن العمل ١٠٣
- رد ابن تيمية على هذه الشبهة ١٠٣
مسائل تتعلق بالعمل الصالح : ١٠٥
المسألة الأولى : المراد بالعمل الصالح ١٠٥
- أحوال ذكر العمل الصالح منفرداً ومقروناً بالإخلاص أو الإيمان ١٠٦
- شروط العمل الصالح ١٠٩
المسألة الثانية : الوظائف التي على القلب واللسان والجوارح
الوظائف التي على القلب من العبودية : ١١١

- عبودية القلب الواجبة والمستحبة ١١١

● الفرق بين النية والإخلاص ١١١

●الفرق بين الإخلاص والصدق ١١١

- المحرمات التي على القلب أشد تحريماً من معاصي الجوارح ١١٢

الوظائف التي على اللسان من العبودية : ١١٤

- اختلاف السلف هل يدخل المباح في أحكام اللسان ١١٥

- **عبوديات الجوارح الخمسة** ١١٨

المسألة الثالثة : أساس التفاضل بين الأعمال الصالحة : ١٢٨

- شرح حديث ((**ما تقرب إلّي عبدي** ..)) ١٢٨

- أصناف أهل التعبد المقيد ١٣١

- تحقيق ابن القيم لأصل التعبد المطلق ١٣٤

- قول ابن رجب في أصل المداومة والاقتصاد ١٣٨

المسألة الرابعة : أثر العمل الصالح في دخول الجنة والنجاة من النار ١٤٠

نقض ابن القيم رحمه الله على الجبرية والقدرية ١٤٨

المسألة الخامسة : من ثمرات العمل الصالح ١٥٢

تقرير ابن القيم لأصل ((الجزاء من جنس العمل)) ١٥٧

الأصل الثالث من أصول النجاة (التواصي بالحق)

معنى التواصي بالحق ١٦٣

مسائل تتعلق بهذا الأصل :

- المسألة الأولى : في عطف التواصي بالحق على العمل الصالح ... ١٦٧

- المسألة الثانية : في سبب ذكر التواصي بالحق ضمن أصول النجاة ١٦٨
- المسألة الثالثة : في معنى صيغة الجمع (**تواصوا**) ١٦٨
- المسألة الرابعة : الحق معترضٌ بالعقبات ١٧٠
من الأسباب الصادة عن الحق ١٧٣
- المسألة الخامسة : انقسام الناس إزاء الحق ١٧٦
- المسألة السادسة : صور وعلامات للمتواصين بالحق : ١٧٩
• الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أصول النجاة ١٧٩
- بعض المواقف المشرقة لسلفنا الصالح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :
* إنكار أبي سعيد الخدري رضي الله عنه على مروان ١٨٢
* الإمام أحمد رحمه الله ١٨٤
* الإمام النووي رحمه الله ١٨٥
* كلمة حق للشيخ أحمد شاكر رحمه الله ١٨٧
• التجرد في قبول الحق ١٩٢
• ترك التعصب ١٩٣
• المناصحة بين المسلمين ٢٠٠
• تعليم الناس دينهم الحق ٢٠٢
عقوبة رد الحق ٢٠٥

الأصل الرابع من أصول النجاة (التواصي بالصبر)

معنى الصبر لغة وشرعاً ٢٠٨

مسائل في التواصي بالصبر :

– المسألة الأولى : ذكر التواصي بالصبر في الآية من باب ذكـــــر الخاص بعد العام ٢٠٩

– المسألة الثانية : التواصي بالصبر نوعان ٢١٠

– المسألة الثالثة : سر الارتباط بين التواصي بـــالحق والتواصـــي بالصبر ٢١٢

– المسألة الرابعة : الاقتران بين الصبر والمرحمة ٢١٣

– المسألة الخامسة : على أي شيء يكون الصبر ٢١٥

– المسألة السادسة : شروط تحقيق الصبر المرضي عنه ٢١٧

– المسألة السابعة : الصبر وسط بين خلقين ذميمين ٢٢٠

– المسألة الثامنة : الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام ٢٢١

– المسألة التاسعة : لزوم التواصي بالأسباب المعينه على الصبر ... ٢٢١

• الأمر بالصبر في القرآن والسنة ٢٢٥

• من أقوال ومواقف بعض السلف في الصبر والمصابرة ٢٢٨

– المسألة العاشرة : دوام حاجة العبد إلى الصبر ٢٣٥

– المسألة الحادية عشرة : في مواساة المسلمين ٢٣٩

– المسألة الثانية عشرة : الصبر يكون على السراء والضراء ٢٤١

– المسألة الثالثة عشرة : في الحذر من مظاهر التسخط والجزع ... ٢٤٣

– المسألة الرابعة عشرة : الصبر عند الغضب ٢٤٨

وقفة أخيرة مع السورة : ٢٥١

الأصول الأربعة في سورة العصر هي أصول التمكين في الأرض ... ٢٥١

العلاقة بين سورة العصر وآية سورة النـــور ٢٥٢
الــخــاتــمة ٢٦٢
فهرس الموضوعات ٢٧١